عالم الفكر

الثامن عشر - العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٧

مفاهيم أساسية حول تقنية المعلومات

اللغة العربيّة والحاسوب

الذكاء الاصطناعي ومعالجة اللغات الطبيعية

"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية : -

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع فى نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة
وزارة الاعلام - الكويت - ص. ب ١٩٣
الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير : حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير : دكتور اسامه امين الخولي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٧
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص . ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

الحاسوب

• • •

شخصيات وآراء

• • •

مطالعات

• • •

من الشرق والغرب

• • •

صدر حديثا

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

الحاسوب [1]
هذا الطفل الذي ولد كبيرا

وأخيرا قال : « ما هذا ؟ » .
« هذا طفل » . . . اننا لم نعثر عليه إلا اليوم وهو كبير بمثل حجم الحياة ، وبضعف طبيعتها .

لويس كارول : من خلال المرآة

التمهيد

في عام ١٩٤٦ طور الباحثان الأمريكيان ايكارت (J. P. Eckert) وموكل(J. W. Mauchly) في جامعة بنسلفانيا أول جهاز يمكن اعتباره أداة إلكترونية للحساب قابلة للبرمجة ، استنادا إلى أفكار عالم ألماني مشهور ولد في المجر هو : فون نويمان (John. Von Neumann) ، وكان هذا الإنجاز بداية لعمليات تطوير متلاحقة في أكثر من مكان ، لم تبلغ ذروتها بعد ، بل ما زالت في تقدير الكثيرين في مرحلة التطورات النوعية التي تمر بها كل تقانة جديدة في دورة حياتها والتي يمكن تشخيص مراحلها بأنها الاكتشاف ، فالاختراع ، فالتجديد ، فالانتشار ، فالتراجع ، ثم التقادم الذي يشير عادة الى ظهور تقانة جديدة أفضل .

فمنذ أن ظهر الجهاز الأول الذي عرف باسم « جهاز الحساب والتكامل الإلكتروني الرقمي » Electronic Numerical Integrator and Calculator (ENIAC) ، تقلص حجم الحاسوب ، وانخفضت كلفته ، وزادت قدرته على معالجة المعطيات وتخزين البيانات ، مئات الألوف من المرات ! فقدرات جهاز منزلي صغير مما يستعمله الأطفال اليوم ، لا يزيد ثمنه عن عشرات الدنانير ، هي نفس قدرات جهاز ضخم يشغل مبنى كبيرا ، ويحتاج إلى تعقيم الهواء داخله وتكييفه ، كان يعتبر منذ عقدين اثنين فقط من روائع الإنجاز التقاني ، ولقد تحققت هذه التطورات المتسارعة بمعدلات لا عهد لنا بها في تاريخ تطور أية تقانة ، من خلال أجيال أربعة من الحواسيب ، ارتبط ظهور كل واحد منها بتطور نوعي في تقانات الإلكترونيات

(١) لقد تعددت المسميات العربية لهذه الأجهزة ، فأطلق عليها في الأيام الأولى اسم « العقل الالكتروني » ، « وعندما زالت رهبة المفاجأة . سميناها « الحاسب الالكتروني » و« الحاسب الآلي » و« الرتابة » و« الكمبيوتر » . إلا أن المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس قد اعتمدت « اصطلاح « الحاسوب » الذي لا يلتزم به كل من يتعامل مع هذه الأجهزة ، ولا التزمت به عالم الفكر وهي تعد لاصدار هذا العدد !

الصغرية (Micro—electronics) . فلقد استعاض الجيل الثاني من الحواسيب عن الصمامات المفرغة ، التي كانت مألوفة في أجهزة الراديو القديمة ، بالترانزستورات ، صغيرة الحجم ، عالية الاعتمادية ، قليلة الاستهلاك للطاقة . واعتمد الجيل الثالث استخدام الدارات المتكاملة (Integrated Circuits) ، وهي شرائح من السليكون صفت عليها مئات الترانزستورات . أما الجيل الرابع ، الذي هو النوع السائد اليوم ، فقد تحقق بفضل التكامل المكثف (Large Scale Integration) ، الذي تحمل فيه شذرة من السليكون في مساحة ظفر طفل صغير عشرات الألوف من الترانزستورات ووحدات التحويل الصغرية . لقد أتى هذا التطور معه بإنجازين جوهريين هما : المعالج الصغرى (Microprocessor) ، وذاكرة أنصاف الموصلات (semiconductor memory) . أما الأول فهو دارة متكاملة تحتل كل وحدات المعالجة المركزية والمنطق والحساب ، التي يتكون منها جوهر الحاسوب ، بينما يستكمل الثاني المكونات المطلوبة بتوفيره احتياجات الحاسوب من الذاكرة التي تختزن المعطيات والنتائج . وهكذا حقق الجمع بين هذين الإنجازين « الحاسوب الصغري » (computer-micro) الذي ينتشر اليوم ، في كل واحد من أنشطة الحياة اليومية وفي كل مكان ، بسرعة انتشار النار في الهشيم . وأخيرا طلع علينا اليابانيون منذ بضعة أعوام بمشروعهم الطموح لتحقيق جيل خامس ، الأمر الذي يتناوله عرض كتاب هام في هذا الشأن في باب « صدر حديثا » في هذا العدد من « عالم الفكر » ، وبما يغنينا عن تعريفه هنا .

إلا أننا مع سيطرة الحاسوب « الرقمي » (digital) ، الذي يتعامل مع الأرقام وحدها ، ويستخدمها بطرق مختلفة لمعالجة البيانات العددية ، والكلمات المطبوعة والمنطوقة ، والأصوات والرسومات ، قد نسينا أنه كان هناك حتى وقت قريب نوع آخر من الحواسيب يقوم على مبدأ تمثيل حدث طبيعي بحدث آخر يشبهه ويخضع فيما يطرأ عليه من تغيرات لنفس العلاقات الرياضية التي تربط بين المتغيرات في الحدث الشبيه[٢] . ويعرف هذا النوع باسم الحواسيب التشابهية (analogue) . لقد كان لهذا النوع حتى سنوات معدودات مكان تحت الشمس ، بل إنه تلاحم مع الحواسيب الرقمية في أنواع مهجنة (Hybrid) كانت تحاول الجمع بين مزايا كل من النوعين . ولكن التطور المذهل في الأنواع الرقمية وتطبيقاتها قد قضى على الحاسوب التشابهي . بل إن هذا التطور انعكس أيضا على كثير من طرق القياس والتمثيل والحساب والتحكم ، حتى أصبحت المعالجة الرقمية هي النمط السائد اليوم . ولعل أوضح صور هذا التحول في حياتنا اليومية هو تراجع أجهزة القياس ذات المؤشر الذي يتحرك على لوح مرقوم ، وانتشار اللوحات الرقمية (كما في الساعات الرقمية ، وكثير من الأجهزة المنزلية ، وأدوات العمل التي تعتمد في عملها على معالج صغري مركب على شذرة من السليكون) .

والحديث عن ثورة الالكترونيات الصغرية يجرنا بحكم الضرورة إلى الحديث عن « ثورة » المعلومات ، و « مجتمع المعلومات » و« المعلوماتية » (informatique) . . . إلى آخر الاصطلاحات التي تربط بين قدرة الحواسيب على اختزان المعلومات بمختلف أنواعها وصورها ، واسترجاعها بصورة ملائمة وبسرعات فائقة ، وبين تحقيق التواصل معها على بعد آلاف الأميال بفضل وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة التي تلعب فيها الدارات المتكاملة والمعالجات الصغرية

(٢) لعل أبسط مثال لهذا هو مقياس درجة الحرارة (الترمومتر) الذي يعتبر ارتفاع عمود الزئبق فيه مقياسا لدرجة الحرارة ، أو جهاز قياس الارتفاعات عن سطح الأرض الذي يقيس في حقيقة الأمر الضغط الجوي السائد ، والذي ينخفض مع زيادة الارتفاع عن سطح الأرض .

نفس الدور الجوهري الذي تلعبه في الحواسيب . ولقد كان من الطبيعي مع كل هذه التحولات التي لم تستغرق سوى أعوام معدودات أن يحاول المفكرون استشراف آفاق المستقبل الذي تأتي به . وكان أن سادت في أواخر العقد الماضي رؤى مسرفة في الخيال ، تبشر بأننا على عتبة حضارة جديدة تماما ، تختلف عن كل ما عرفته البشرية من نظم الحياة المادية والاجتماعية والاقتصادية . فألفين توفلر (Alvin Toffler) سمى كتابه « الموجة الثالثة » ، باعتبار أن الزراعة ثم الصناعة كانتا الموجتين الأولى والثانية . وجان جاك سيرفان ـ شرايبر (Servan-Schreiber) كتب عن « التحدي الكوني » وأنشأ معهده الخاص في قلب العاصمة الفرنسية ليكون حقلا لتجارب الإعداد لهذا العالم الجديد ، وخصوصا بالنسبة للعالم الثالث[٣] . وفي الجانب المقابل تعالت الأصوات محذرة من الآثار المدمرة لهذه القفزة التقانية على العالم الثالث ، منذرة بأنها لن تؤدي إلا إلى مزيد من التبعية التقانية وتأصيل الخلل في التوازن بينه وبين العالم المصنع ، وإلى فقدان الدول النامية لما تبقى لها من مزية نسبية تتمثل في ثرواتها الطبيعية وانخفاض كلفة الأيدي العاملة فيها . إن النقيضين المتمثلين في النظرة المسرفة في التفاؤل وتلك المسرفة في التشاؤم يواجهان العالم المعاصر في أي حديث عما أصبح يسمى اليوم « التقانات الصاعدة » (emerging technologies) ، أو التقانات المتقدمة ، أو التقانات الرفيعة (hi-tech) ، التي تشمل البيولوجيا الجزيئية وهندسة الجينات ، واستخدامات الفضاء ، والمواد المخلقة ، أو المركبة ، والتي تتطور كلها بسرعات كبيرة ، وتقتحم تطبيقاتها الكثير من جوانب حياة الانسان المعاصر وتؤثر في الكيان المادي والمعنوي والفكري للحضارة المعاصرة .

وبعيدا عن شئون إنتاج السلع وتوفير الخدمات في الريف أو الحضر ، التي سنعود إليها في ختام هذا الحديث عند معالجة الآثار الاجتماعية ـ الاقتصادية للتطور السريع في تقانات الإلكترونيات الصغرية ، يعنينا هنا أن نؤكد على عدة أمور ، أولها حدوث تحولين هامين في تشكيل تصوراتنا عن العالم ووسائل تمضية أوقات الفراغ أو الترفيه من ناحية ، وفي تطوير قدراتنا على التعامل مع العالم من حولنا ، من ناحية أخرى . إننا نعيش « ثورة » أخرى هنا ، فمعلوماتنا عن العالم المحيط بنا ومواقفنا منها لم تعد تتشكل من خلال التعامل مع الواقع المادي المحيط بنا مباشرة ، ولا من وسائل الاعلام التقليدية ، وإنما من وسائل جديدة تماما لنقل صورة الحدث إلى داخل منازلنا من أي مكان في العالم خلال فترات زمنية قصيرة جدا من وقت وقوعه ، بل وأحيانا أثناء وقوعه . إن هذه المعايشة المباشرة للأحداث قد غيرت مثلا وجه الحملات الانتخابية لمرشحي الرئاسة في الدول ، بمثل ما أثرت أثرا عميقا في معرفتنا بحقيقة إجراءات التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا ، أو بحجم المجاعة في أثيوبيا ، أو بآثار الفيضانات في بنجلاديش ، أو بما يجري على متن مركبة فضاء مأهولة تدور حول الأرض . إن حضارة الإعلام هذه لا تختلف في جوهرها عن وسائل الإعلام السابقة التي يقف فيها طرف ثالث وسيطا بين الحدث وبين متلقي الرسالة الاعلامية سواء كان هذا مستمعا لروايات القصاصين القدامى ، أو قارئا لرسالة أو جريدة . ولقد عبر البولندي المعاصر كابوشنسكي (Ryszard Kapuscinski) ، الذي جمع بين صفتي المراسل الصحفي الجوال والكاتب المؤلف ، عن هذا التدخل في لقاء أجرى معه[٤] سئل فيه عن السبب الذى دفعه الى التحول من مراسل صحفي لوكالة أنباء إلى كاتب يؤلف الكتب ، فأجاب :

---

(٣) لم يلبث هذا المشروع الذي وقفت الحكومة الفرنسية وراءه أن واجه صعوبات خطيرة تكاد تكون قد قضت عليه الآن تماما

(٤) From a selection of Kapuscinski, work in Granata 21, The Story-Teller, Penguin, 1986.

لقد كانت مسئوليتي (كمراسل صحفي) . . . هي إرسال برقية بأسرع ما يمكن عن تفاصيل الحدث . . . وكما تعلم ، فإن البرقية الصحفية وسيط مسرف في المحافظة لنقل الأنباء . نحن دائما مقيدون : بعدد الكلمات ، بالوقت الذي تكون فيه الآلة تحت تصرفنا ، بالتكلفة ، وبالمعلومات التي ترغب الصحف في الوطن في تلقيها . إلا أن الواقع الذي يواجهنا ، وبالذات في العالم الثالث ، أغنى بكثير وأشد تعقيدا مما تسمح لنا به جريدة في أي حال من الأحوال .

وعندما سئل عن طبيعة رواية الحدث التي لا يعبر عنها في جريدة ، قال :

إنها ليست قصة الحدث ذاته ، ولكنها ما يحيط به : المناخ الجو العام في الشارع ، مشاعر الناس ، الإشاعات في المدينة ، الروائح ، الآلاف المؤلفة من عناصر الواقع التي هي جزء من الحدث الذي تقرأ عنه في ٦٠٠ كلمة في الجريدة الصباحية .

ان الفرق الواضح الذي يميز الحضارة الجديدة عن وسائل الإعلام السابقة هو تقلص قدرات الوسيط على تشكيل صورة الحدث المنقولة إلينا . وقد لا يكون من باب التفاؤ ل المفرط أن نقول إن أمام البشرية اليوم فرصة لم يسبق لها مثيل في التاريخ لتشكيل خبراتنا بالعالم بشكل مباشر ، ومع أقل قدر ممكن من تدخل الوسطاء .



ويتلازم مع هذا التطور في إدراكنا لما يجري حولنا من أحداث ، وفي بلورة تصوراتنا لها ، تطور آخر جاءت به « المعلوماتية » . فهناك الآن كم هائل من المعلومات المتباينة النوعية والمصدر ، تتيحه الحواسيب ووسائل الاتصال الحديثة بشكل منهجي رتيب وفي ثوان معدودات ، الأمر الذي دفعنا إلى الحديث عن « انفجار المعلومات » . والحق أنه ليس ثمة انفجار في كم المعلومات الموجودة في زماننا بالمعنى الدقيق للكلمة . فالمعلومات تتزايد بنسبة مركبة أو أسية (exponential) منذ قديم الزمان . وتقاس معدلات التراكم هذه بعدد السنوات الذي يستغرقه تضاعف حجم المعلومات المتراكم . ولقد كنا منذ عقدين أو ثلاثة مضيا نتحدث عن تضاعف كم المعلومات مرة كل خمسة عشر أو عشرين عاما . أما اليوم فنحن نتحدث عن فترات تضاعف قد تقلصت إلى عشر سنوات أو أكثر قليلا . إن هذا النوع من التراكم المتواصل لا يمثل انفجارا ، وإنما الانفجار هو في إتاحة القدر الأكبر من هذا الكم الهائل بصورة لا سابق عهد لنا بها ، وبما يمكن أن يعتبر طفرة نوعية فجائية حدثت في عدد محدود جدا من السنين .

ويثير هذا « الانفجار » عدة تساؤ لات حساسة حول جدوى توفر كل هذا الكمّ ، وحول كلفة توفيره ، وحول القدرة على الاستفادة منه فائدة تبرر ما أنفق على جمعه وتصنيفه واسترجاعه ، وحول التحولات الاجتماعية الاقتصادية التي يأتي بها . وربما كان ماكلوب الاقتصادي الأمريكي أول من نبّه إلى هذه التحولات وعكف على دراستها في مطلع الستينات . ولقد قام بمحاولة رائدة لقياس نصيب إجمالي الناتج القومي في الولايات المتحدة المرتبط « بالمعرفة »(*) ،

(*) Fritz Machlup: The Production and Distribution of Knowledge in the United States, Princeton University Press, New Jersey, 1962

الذي يتميز عن الأنشطة الاقتصادية الأخرى في قطاعات الاقتصاد التقليدية ، كالزراعة واستخراج المعادن ، أو الصناعة . وكان السؤال المطروح هو : « ما هو حجم ذلك القدر من الثروة القومية الذي نشأ من خلال إنتاج المعلومات أو معالجتها أو توزيعها ؟ » إننا هنا نحاول أن نميز بين نوعين متباينين من النشاط الاقتصادي ، وإن كانا في نفس الوقت متلازمين . أما النوع الأول فهو ذلك الذي يجرى فيه تحويل المادة أو الطاقة من صورة إلى اخرى ، بينما ينشغل النوع الثاني بتحويل المعلومات ، وهي أمور غير مادية ، من شكل إلى آخر ، أو من مكان أو شخص إلى آخر . والارتباط بين النوعين واضح لا يحتاج إلى تأكيد ، فالنوع الأول لم ، ولن ، يتحقق دون « المعرفة » القائمة على جمع المعلومات وتحليلها والتنسيق فيما بينها والسيطرة عليها ، بمعنى استخلاص الدروس المستفادة منها ، بينما يصبح إنتاج المعلومات ومعالجتها وتوزيعها ضربا من المستحيل دون استخدام قدر ما من المادة والطاقة ، كبر أم صغر . وليس من المستغرب إذن أن يقال اليوم إن المعلومات مورد ، بمثل ما نقول إن المادة أو الطاقة مورد . بل إن تحول المادة أو الطاقة إلى مورد أمر لا يتحقق إلا من خلال المعلومات . فخام الحديد قد ظل مادة بلا فائدة ، لا يعتبر موردا ، حتى استطاع الانسان أن يستخلص منه الحديد والفولاذ . وبالمثل ، فإن مادة البوكسيت لم تصبح موردا إلا عندما عرف الإنسان كيف يستخلص منها معدن الألومنيوم في مطلع هذا القرن . واليورانيوم لم يصبح موردا إلا عندما عرفنا كيف نستخلص منه كميات فلكية من الطاقة ، وحتى النفط ، الذي هو عماد توفير احتياجات حضارتنا الحديثة من الطاقة ، كان معروفا للإنسان منذ آلاف السنين ، ولكنه لم يعرف كيف يستخدمه مصدرا للطاقة ، وبديلا للأخشاب والفحم إلا منذ قرن واحد من الزمان تقريبا . والمعلومات مورد ذو صفات شاذة تميزه عن غيره من الموارد الطبيعية . فالمعلومات إذا انتقلت من شخص إلى شخص ، أو من مكان إلى مكان ، لا ينقص رصيد مصدرها الأصلي منها بقدر ما يزيد رصيد متلقيها الجديد ، وبمثل ما ينقص الرصيد من المادة أو الطاقة بمقدار ما ينتقل منها من مكان إلى آخر . وهي شأنها شأن موارد الغذاء « تفسد » مع مرور الزمن(٦) ، بمعنى أنها تفقد قيمتها مع مر السنين ، الأمر الذي تعلمته مراكز المعلومات فأصبحت مثل الأنبوب الذي تدخله المعلومات الجديدة من طرف فتبقى فيه فترة من الزمان ، تطول أو تقصر إلى أن تفقد قيمتها ، فتلفظ من الطرف الآخر لتفسح المجال لمعلومات أحدث وأكثر جدوى وفائدة .

ولقد تلقف الباحثون فكرة ماكلوب الأصلية عن مجتمع المعلومات وحاولوا تحديد حجم نشاط المعلومات في المجتمعات الحديثة تحديدا يقوم على أسس منهجية مقبولة . وكان من أهم هذه المحاولات تقرير ظهر منذ عشر سنوات تقريبا عن دائرة الاتصالات في وزارة التجارة بالولايات المتحدة الأمريكية(٧) ، اشتهر باسم الباحث الرئيسي الذي قام به فعرف باسم تقرير بورات (porat) . وكان على فريق البحث أن يحدد بداية تعريفا لأنشطة المعلومات ، يكون مقبولا منطقيا ، وذا مغزى اقتصادي ، وقابلا للقياس . واستقر الرأي على التعريف التالي : « المعلومات هي معطيات جرى تنظيمها ونقلها . وأنشطة المعلومات تشمل كل الموارد المستخدمة في إنتاج المعلومات وخدماتها ، ومعالجتها وتوزيعها » .

ويحتاج تنظيم المعلومات إلى إخضاعها لنظام ما ، أي لنسق منطقي ، ونسق للفكر ، ونسق للقياس ، ونسق

---

(٦) من الواضح أن هذا لا ينطبق على كثير من التراث الفكري وأمهات سجلاته .

(٧) Office of Telecommunication: The Information Economy, pB- 286 762, Washington, 1977.

لانتقالها . وانتقال المعلومات المنظمة يتطلب أمورا ثلاثة : مصدرا للمعلومات ، وقناة للاتصال ، ومستقبلا للمعلومات . واختار الباحثون أن يمتد تعريفهم لقطاع المعلومات ليشمل كل القوى البشرية والآلات والسلع والخدمات المستخدمة في معالجة المعلومات وتشكيلها ونقلها . وبهذا يصبح الهاتف والحاسوب والمطبعة والآلة الحاسبة ، والمدير والسكرتيرة ومبرمج الحاسوب ، مكونات فاعلة وأفرادا عاملين في أنشطة المعلومات . فالتعامل مع المعلومات ضرب من المستحيل دون اللجوء الى كل هذه الموارد .

ولقد درس بورات أربعمائة واثنتين وعشرين وظيفة ترد في تعداد السكان وفي إحصاءات مكتب العمل في الولايات المتحدة ، ونظر فيما إذا كانت مهمة كل واحدة منها ترتبط أساسا بمعالجة الرموز والمعلومات . وواضح أن كلمة « أساسا » هي كلمة حاسمة هنا ، فمن المستحيل القول بأن عملا ما يتناول المعلومات وحدها دون غيرها ، أو أن هناك أي نوع من العمل لا ينطوي على استخدام قدر من المعلومات . فالمسألة إذن ليست مسألة كيف ، بل مسألة كم ، أي درجة الاشتغال بالمعلومات في أداء الوظيفة . وليس هذا التمييز إلا واحدا من عدد كبير من المشاكل المنهجية في التحديد الدقيق للتعريفات المستخدمة ، والتي لا مجال للخوض فيها هنا . وإنما يهمنا منها تعريف آخر على الأقل ، هو التمييز بين قطاعات المعلومات الأساسية والثانوية . ولقد جرى تعريف القطاعات الأساسية على أنها « المنشآت التي توفر معدات المعلومات وخدماتها في السوق » ، بينما تشمل الثانية كل خدمات المعلومات المستخدمة داخل أجهزة الدولة أو داخل منشآت لا تقدم معدات أو خدمات معلومات في السوق . وخلص تقرير بورات إلى أن ربع القيمة المضافة في الاقتصاد الأمريكي عام ١٩٦٧ جاء من قطاع المعلومات الأساسي ، بينما جاء حوالي الخمس من القطاع الثانوى ، أي أن اجمالي أنشطة المعلومات كان مسئولا عن أقل قليلا من نصف اجمالي الناتج القومي في ذلك العام . أما من حيث تركيبة العمالة ، فإن العاملين في مجال المعلومات يمثلون أكثر من ٤٠٪ من إجمالي القوى العاملة ، ويستأثرون بأكثر من نصف الدخل الإجمالي للعمالة في الولايات المتحدة في ذلك العام .

ولقد حاول كاتب هذه السطور إجراء دراسة مماثلة لحجم قطاع المعلومات في قطر عربي (مصر) قرب نهاية العقد الماضي (عام ١٩٧٦)[٨] . ولقد كانت النتيجة ضربا من المفاجأة لكثيرين ممن كانوا يتصورون أن أنشطة المعلومات ـ على الأقل في حدود تعريفات بورات ـ ضئيلة للغاية في الوطن العربي . ويمكن تلخيص نتائج الدراسة ، التي تعاني ولاشك من قدر ضخم من المقاربة نظرا لعدم توفر قاعدة معلومات وافية وموثوق في دقتها ، في النقاط الرئيسية التالية :

* القوى العاملة في قطاع المعلومات تمثل حوالي ١٦٪ من إجمالي القوى العاملة . وبينما لا تصل هذه النسبة إلى ١٪ في قطاع الزراعة وصيد الأسماك ، فهي تمثل حوالى ثلاثة أرباع القوى العاملة في قطاع المال والتأمين ، ونصف القوى العاملة في قطاع الخدمات ، و ٤٠٪ من القوى العاملة في قطاع المرافق .

* إسهام القوى العاملة في قطاع المعلومات في إجمالي الناتج المحلي بلغ ٢٨٪ . وهو يصل إلى ٨٧٪ من إجمالي الناتج المحلي لقطاع المال والتأمين ، وثلثي إجمالي الناتج المحلي لقطاع الخدمات ، وحوالي نصف إجمالي الناتج المحلي لقطاع المرافق .

(٨) الكاتب مدين لكل من الدكتور محرم الحداد ، الأستاذ بجامعة القاهرة ، والدكتور علي نصار ، المستشار بالمعهد القومي للتخطيط بمصر ، بالكثير في انجاز هذه الدراسة الرائدة

ولقد أثار تعريف بورات لقطاعي المعلومات كثيرا من الجدل حول فحواه وجدواه ، واعتبره كثيرون غير ذي فائدة عملية نظرا لشموله لعدد كبير من الأنشطة التي لا ترتبط لأول وهلة بنشاط المعلومات كما هو مألوف . ولقد قام أحد معاونيه فيما بعد بتعديل هذه التعريفات وتضييق نطاقها ، ومازال باب الاجتهاد مفتوحا لتعريف حقيقة التحول الاقتصادي - الاجتماعي الذي أتى به « انفجار » المعلومات وعن تكوين « مجتمع المعلومات » وتحديد القسمات التي تميزه عن المجتمع الذي سبقه .



ويبقى بعد هذا السؤال المحرج : ما فائدة كل هذا الفيض الهائل من المعلومات ؟ وهل يستحق بالفعل ما ينفق عليه من الجهد والمال ، وما يستأثر به من حجم القوى البشرية العاملة والأصول الرأسمالية والمصاريف التشغيلية ؟ ويبدو أن الاجابة عن هذا السؤال واضحة ومحسومة في المجتمعات المصنعة ، وأن حسابات الكلفة/ العائد فيها تبرر كل هذا الجهد والمال . إلا أن الأمر يظل محل تساؤل مشروع عندما نتحدث عن المجتمعات النامية . هل هي محتاجة حقا لكل هذه المعلومات ؟ ثم - وهذا هو السؤال الأهم - هل هي قادرة ، أو راغبة ، في الاستفادة منها لو كانت متاحة لها ؟ وباختصار ، هل المعلومات - في حقيقة الأمر - مورد بالنسبة لهذه المجتمعات ؟ أم هي ضرب من المادة - أو اللامادة - لا تعرف هذه المجتمعات له فائدة واضحة ، ومن ثم ، فهي لا تسعى لإعادة تشكيلها واستخدامها ؟

ان محاولة الاجابة عن هذه التساؤلات الجوهرية ستتطلب منا أن نتطرق إلى حديث عن « الذكاء » (Intelligence)(٩) ، بمعنى القدرة على تحويل المعلومات إلى « معارف » . إنه بدون هذه القدرة على استشفاف كنه المعلومات الخام ، والربط الذكي فيما بينها ، وبما لا يتبادر إلى الذهن لأول مرة ، وتمحيصها لاستبعاد الزائف أو المخادع أو الذي يفتقر إلى مضمون ذي مغزى ، إنه بدون هذه القدرة تكون المعلومات بلا فائدة . وهكذا فإن استخدام تعبير الذكاء هنا يصبح مشروعا بمثل ما يصبح اعتباره نوعا من العلم التطبيقي مثل الطب والزراعة - أو إن شئت التقانة - لأنه يمثل المهارات في تطبيق عدد من المبادىء والأسس في التعامل مع موقف معين . وقد نعرف الذكاء إذن على أنه جمع المعلومات وهضمها لتأخذ شكلا ونطاقا يمكن استخدامه في مساندة جهود مؤسسة ما وتحقيق أهدافها(١٠) ، سواء أكانت دولة أم جيشا أم منشأة صناعية أم جماعة . وهنا يتحول تعريف الفرق بين دول « الشمال » و « الجنوب » من التمييز بين « من يملكون ومن لا يملكون » إلى حديث عن « من يعرفون ومن لا يعرفون » . ولقد دفع هذا التمييز عالما مثل ستيفان ديديجيه (Stevan Dedijer) إلى الخروج باصطلاح جديد هو « الذكاء الاجتماعي » (Social Intelligence) . ولقد بدأت جهود ديديجيه الرائدة في هذا المجال بمقال مشهور(١١) كتبه في إطار الإعداد لمؤتمر الأمم المتحدة « لتسخير

---

(٩) هناك مشكلة حقيقية في شأن تعريب المصطلح الأجنبي الذي يشمل - طبقا لتعريفات دائرة المعارف البريطانية - ذكاء البشر وذكاء الحيوانات والذكاء العسكري (الاستخبارات) والذكاء الصنعي (Artificial Intelligence) ، ومن سوء الحظ ان لكلمة الاستخبارات ارتباطات لا تبعث على الرضا لدى الكثيرين في الوطن العربي : ولقد اقترح استخدام تعبير الذكاوة كبديل لها ، ولكننا سنستخدم هنا تعبير الذكاء ليشمل كل هذه الأنواع بلا استثناء .

(١٠) Alan L. Mackay: Intelligence as an Applied Science, in Science and Public Policy, February, 1979, p.6

(١١) S. Dedijer: The Jones Intelligence Doctrine for the Less Developed Countries in Science and Public Policy, October, 1987.

العلم والتقانة في خدمة التنمية (UNCSTD) الذي عقد في فيينا عام ١٩٧٩ . وهو يشير في هذا المقال الى جهود عالم بريطاني أنشأ ـ بمفرده تقريبا وفي وجه مقاومة عنيفة من السلطات العسكرية والمدنية في بداية الأمر ـ جهاز الذكاء (الاستخبارات) العلمي في بريطانيا وأصدر فيها بعد كتابا مثيرا ومشوقا حقا حول تجربته أثناء الحرب العالمية الثانية[١٢] . ويعتبر ديديجيه أعمال جونز نموذجا لما يمكن أن تقوم به الدول النامية لاكتساب القدرة على تحويل المعلومات إلى معارف ، أو ـ بعبارة أخرى ـ الذكاء الاجتماعي . ولقد طرح ديديجيه مفهومه هذا بتوسع في دراسة قدمها في اجتماع في مركز التنمية التابع لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (Development Center, OECD) في باريس ، عام ١٩٨٠ . ولقد عرف مكونات ، أو متطلبات ، الذكاء الاجتماعي بأنها :

* السرية : وهي الأمر الذي كثيرا ما يتجاهل كموضوع للدراسة ، أو كمسألة في التنظيم والإدارة . وعبر عن المعنى الذي يقصده هنا ، والذي يختلف تماما عما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، بأنها الغموض أو عدم اليقين المقصود في حد ذاته الذي يصنعه البشر عن عمد لتحقيق أهدافهم .

* المعرفة الفنية : وهي القدرة التي تكتسب من خلال الخبرة ، والتي تختزن فيما يمكن أن نسميه « الذاكرة الجماعية » ، والتي تتمثل في عقائد أو نظريات أو عادات تنتقل بالتعلم من جيل إلى جيل في ثقافة معينة . والمعرفة الفنية في الذكاء الاجتماعي هي القدرة على استخدام موارد الذكاء استخداما فعالا ، وبما في ذلك حصاد التجارب السابقة من النجاح أو الفشل .

* البشر ، بمستوى وظيفة الذكاء في أي نسق اجتماعي يعتمد بداهة على نوعية البشر المشتغلين بأعمال الذكاء ، وعلى طرق اختيارهم وتدريبهم وإدارة أعمالهم .

* البحث الاستراتيجي والتكتيكي : وهو ما يعتبره ديديجيه ضروريا للتنبه إلى وجود المشاكل في الوقت المناسب والتعامل معها عن طريق الذكاء .

* تقانات الذكاء : وهي الوسيلة لزيادة القدرة على فهم العالم المحيط ، والحصول على المعلومات ومعالجتها ، وتوفير متطلبات الذكاء ، والتغلب على سرية الآخرين ، وواضح أن أساليب تقانية معقدة ومتطورة مثل أجهزة التنصت والتصوير من الفضاء والأرصاد الأرضية والجوية والفضائية ، بكل أنواعها ، تدخل كلها في هذا التعريف ، كما هو واضح أيضا أن الحواسيب تلعب دور العقل المفكر والمدبر في كل واحد منها ، وبلا استثناء .

* المعلومات : في شأن ما يجرى داخل النسق الاجتماعي وخارجه ، والتفاعلات بينهما . إن هذه المعلومات تصبح معرفة أنتجها الذكاء عندما تصلح أساسا لاتخاذ القرار والعمل[١٣] .

ولنلاحظ هنا ترتيب ديديجيه لهذه المتطلبات ، والذي وضع بموجبه المعلومات في ذيل القائمة في محاولة متعمدة

(١٢) **R. V. Jones: Most Secret War- British Scientific Intelligence, Hamish Hamilton, 1978.**

(١٣) **S. Dedijer: Social Engineering of Intelligence for Development, paper presented to the meeting on The Knowledge Industry and the Process of Development, held at the OECD Development Center, Paris, June, 1980.**

للتأكيد على المتطلبات التي تتجاهلها الدول النامية عادة والتي لا بد من توفرها قبل أن تصبح المعلومات مدخلا ذا قيمة ، وقبل أن يوجد طلب فعلي عليها . والمسألة ، في نهاية المطاف ، ترتبط بموقف صانع القرار ، سواء كان في دولة أو منشأة تجارية أو صناعية ، في دولة نامية لها ظروفها الخاصة ، والتي تفتقر فيها إلى كل ـ أو جل ـ المتطلبات التي يوردها ديديجيه في قائمته (باستثناء المعلومات) ، وبمقدار الرغبة الجادة والقدرة الفاعلة على توفيرها . ولقد طرح كاتب هذه السطور ، في هذا السياق ، عددا من المسائل التي يرى أنها تميز هذا الواقع وتفسر ـ ان لم تبرر ـ موقف صانع القرار في مواجهة هذه الإشكالية وذلك في محاولة لتأكيد صعوبة تحقيق الذكاء الاجتماعي في المجتمعات النامية . ولقد طرح هذه الأمور على هيئة عدد من التساؤلات نورد أهمها هنا(١٤) :ـ

* في موقف يتميز عادة بمحاولات إجراء تغييرات جذرية في نمط حياة وتنظيم اجتماعي سابقين ، كما هو الحال في كل الدول النامية تقريبا ، وبما نسميه أحيانا « ثورة » وأحيانا « انقلابا » ، وعندما تتعارض في مثل هذا الموقف آراء « أهل الخبرة » من « الحرس القديم » ممن عاصروا العهد السابق ، والذين يمثلون جماع خبرة المجتمع المتخصصة في الوقت الراهن ، مع آراء « أهل الثقة » من مؤيدي النظام الجديد ، قليلي الخبرة المتخصصة ، فكيف يختار صاحب القرار الرأي الذي يأخذ به ؟ وكيف يميز في مثل هذا الموقع بين الرأي الصائب المخلص ، والرأي المدسوس ، والرأي الثوري الجريء ؟

* من الذي يحدد درجة سرية « أسرار » الدولة النامية ؟ وكيف ولماذا يفعل هذا ؟ وكيف نوفق بين هذا كله وبين متطلبات اكتساب « الذكاء الاجتماعي » كما يراها ديديجيه ؟ إن كثيرا من الدول النامية يواجه وضعين تقليديين متناقضين ومتلازمين معا : أولهما انكشافه أمام العالم الخارجي ، وثانيهما حاجته في نفس الوقت إلى حجب بعض المعلومات غير السارة عن مواطنيه أو تحويرها . أما الأمر الأول فبدهي لا يحتاج إلى شرح أو تأكيد ، وأما الثاني فهو مفهوم ، وغير مبرر في نفس الوقت . وانما يساعد على تحقيقه تفشي الأمية في كثير من الدول النامية ، ومن ثم ، عجز الكثيرين عن الاطلاع على صورة مجتمعاتهم كما تعكسها رؤية الآخرين وتمحيصها بدقة لتجريدها من عنصر الدعاية المغرضة .

* ثم كيف تحمي القيادات نفسها من الوقوع فريسة دعاياتها التي تبثها بين من يخضعون لإمرتها ؟ وكيف لصانع القرار أن يجمع في نسق واحد ، لا تعارض فيه ، بين الذكاء الاجتماعي وبين مصالح نظام الحكم أوالدولة أو المؤسسة كما يراها ؟ من غير المعقول أن نتوقع في مثل هذه الظروف نشأة كوادر قادرة على اكتساب مهارات الذكاء الاجتماعي وتطبيقها ، بمثل ما يسخر الكثيرون من دعاوى نشر استخدام الحاسوب في مجتمعات لا تتوفر فيها أبسط متطلبات محو الأمية ونشر التعليم الأساسي

ولكن طرح هذه الأسئلة لا يعني التقليل من أهمية الذكاء الاجتماعي ، أو إنكار دوره الحاسم في ترشيد التنمية من خلال اكتساب القدرة على استخلاص الفائدة القصوى من الكم الهائل من المعلومات الذي تتيحه لنا الحواسيب

(١٤) O.A. El-Kholy: How Egypt,s Information Policy Affected Development, in Intelligence for Economic Development, An Inquiry Into The Role of the Knowledge Industry, pp. 99-110, Berg, 1987.

ووسائل الاتصال الحديثة من مختلف الأنواع ومختلف المصادر . بل إن هذا أدى الى انكشاف الدول الكبرى أو الشركات عابرة الجنسية وشفافية أوضاعها (أى انخفاض درجة السرية في أنشطتها) بدرجات مذهلة لم تكن ممكنة منذ عقدين أو ثلاثة من السنين(١٥) . وانما أردنا التأكيد هنا على بعض المسائل البالغة الحساسية التي تعوق اكتساب الذكاء الاجتماعي في دولة نامية ، بمفهوم ديديجيه .

وما دمنا قد ذكرنا الانكشاف والشفافية فلا بأس من استطرادة قصيرة لمناقشة الأشكال المختلفة لهذه المسألة التي برزت أهميتها مؤخرا كنتيجة مباشرة لانتشار الحواسيب وتخزين قدر هائل من المعلومات فيها . والمسألة هنا هي مسألة تأمين المعلومات والتأكد من عدم إتاحتها للأشخاص أو الهيئات أو الدول غير المخولين ، بحكم عملهم أو مناصبهم أو مواقفهم ، بالاطلاع عليها . ومع أن هناك عدة طرق مستخدمة بالفعل لتحقيق ذلك ، على رأسها تطبيق الكتروني لفكرة « كلمة السر » القديمة ، فإن الاحصائيات تؤكد أن أشخاصا كثيرين قد استطاعوا اختراق الاجراءات الأمنية والحصول على معلومات لا حق لهم في الاطلاع عليها ، أو اختلاس أموال لا حق لهم في الحصول عليها . وهناك مستويات ثلاثة لهذه المشكلة ، أولها مستوى الفرد . فهناك اليوم كميات هائلة من المعلومات عن كل فرد منا ، وحتى في الدول النامية ، تتناول في أحيان كثيرة أمورا من أدق خصوصيات حياته التي لا يريد أن يطلع عليها أو يستخدمها آخرون في غير ما سجلت وخزنت من أجله بدون إذن منه . إن معلومات الهيئة المدنية ، أو التاريخ المرضي ، أو الوضع المالي ، أو سوابق الأحكام القضائية أمثلة لهذا النوع الذي يجري تخزينه واسترجاعه في بنوك معلومات ضخمة تملكها الدولة أو المؤسسات الصحية أو المالية أو شركات التأمين . وهذه القضية مثارة بحدة في الدول المصنعة ، وهناك عدة محاولات تشريعية لحماية خصوصية الفرد (privacy) التي هي عادة من حقوقه المنصوص عليها بشكل أو بآخر في الدساتير ، والتأكد من عدم إتاحة المعلومات الخاصة به إلا بعد موافقته ، وإحاطته علما بأية معلومات مخزنة قد تلقى عليه ظلالا تسيء إلى سمعته أو مكانته ، وإتاحة الفرصة له لتصحيح ما يراه خاطئا منها . وهناك بعد هذا مستوى المنشأة أو المؤسسة التي قد يضر انتقال بعض المعلومات الخاصة بإنجازاتها التقانية ، أو أوضاعها التجارية ، أو ظروفها المالية ، بمصالحها ضررا بليغا ، خصوصا أن الغالبية العظمى من المؤسسات الحديثة تعتمد اليوم اعتمادا شبه كامل على الحواسيب في إدارة أعمالها وضبط حساباتها . . . الخ . ولقد قدرت خسائر المصارف مثلا من عمليات الاختلاس الإلكتروني للأموال بعشرات الملايين من الدولارات . أما المستوى الثالث لتأمين المعلومات فهو مستوى الدولة ككل ، وبالذات في شئون الأمن القومي والدفاع الوطني . ولعلنامازلنانذكر قصة الغلمان الذين كانوا يلهون بالتخاطب الإلكتروني مستخدمين حاسوبا منزليا صغيرا وخط هاتف عادي ، واستطاعوا بهذه الوسائل المتواضعة النفاذ إلى واحد من الحواسيب الكبيرة الخاصة بواحدة من منشآت الدفاع في الولايات المتحدة ، ونقلوا عنه معلومات بالغة الحساسية في شئون الدفاع الوطني . وهناك - في نهاية المطاف - مسألة انتقال المعلومات على المستويات المختلفة عبر الحدود الوطنية (Transborder Data Flow) . فمن اليسير تماما نقل المعلومات عبر طرق الاتصال الحديثة بين الحواسيب عن قطر ما إلى قطر آخر ، ودون أن يتنبه إلى هذا النقل ، القطر الذي خرجت منه المعلومات ، وهذه إشكالية طريفة ، لأن محاولة فرض الرقابة على انتقال المعلومات عبر الحدود يفقدنا واحدة من أهم ميزات « مجتمع المعلومات » ، ألا وهي التواصل

(١٥) الخولي ، أسامة أمين - نحو نظام عالمي بديل ، في العربي ، يونيو ١٩٨٤ ، ص ٢٤

بيسر بين الأفراد والمنشآت مهما بعدت بينها الشقة . ولقد طرحت هذه المسألة للنقاش في عدة مؤتمرات دولية ومازالت حتى الآن دون حل مرض يحقق الفائدة ويمنع الضرر .



والذكاء الاجتماعي ليس آخر ما جاءتنا به الحواسيب ومجتمع المعلومات من مصطلحات جديدة ، كثيرا ما يكون تعريفها تعريفا دقيقا أمرا لا يخلو من المشقة . ولعل أكثر هذه المصطلحات إثارة للجدل هو مفهوم « الذكاء الصنعي » (Artificial Intelligence, AI) . لقد أدخل هذا المفهوم الفلاسفة وعلماء النفس والرياضيات والمهندسون من مختلف التخصصات ، ثم رجال الاقتصاد وخبراء التنمية ، في حلبة نقاش محموم يدور منذ عدة سنوات ، لا يبدو أنه سيهدأ لسنوات قادمة . والجدل يدور أولا حول ما اذا كان لهذا المصطلح معنى دقيق يمكن الاجماع عليه . وربما كان من المستحيل ـ أو على الأقل من العسير ـ الوفاء هنا بحق كل واحدة من وجهات النظر في هذا الشأن . وسنكتفي هنا ، على سبيل التعميم الذي لا يخلو من مخاطر ، بالتفرقة بين وجهتي نظر متقابلتين في شأن الذكاء الصنعي . فأما علماء البرمجيات فانهم يعتبرونه سبيلا لتطوير نظرية منهجية للعمليات الذهنية حيثما وجدت[16] ، أو دراسة الذكاء كعملية في الحساب الآلي[17] . وفي المقابل تربط تعريفات اخرى بين الذكاء الصنعي وبين منابعه البشرية مؤكدة على الامكانية التي يمكن أن يوفرها لبناء نماذج دقيقة في علم النفس النظري . وبعيدا عن هؤلاء وأولئك يقف التقانيون وشغلهم الشاغل هو حل مسائل عملية وتطوير أجهزة قادرة على القيام بأعمال يقوم بها الانسان ، مثل تعرف الآلة على الأصوات ، أو القيام بتشخيص خلل في جهاز معقد أو مرض في انسان ، ودون أن يكون تفسير عمليات الفكر الانساني أمرا يشغل بالهم . وهؤلاء الأخيرون يعتبرون الذكاء الصنعي فرعا من فروع الهندسة . ومن ثم ، فقد لا نتوقف كثيرا عندهم ، على الرغم من تقديرنا لما حققوا بالفعل ـ وما سوف يحققون في المستقبل القريب ـ من انجازات تقانية مبهرة ، سواء في ارتياد الفضاء بمركبات غير مأهولة بالبشر ، قادرة على تصرفات « ذكية » أثناء تحليقها ، أو في نشر استخدامات الروبوتات[18] (الانسان الآلي) في كثير من مواقع الانتاج والخدمات . . . الخ ، ما نرى كل يوم من الجديد المثير . وربما اكتفينا هنا بتعريف مينسكي للذكاء الصنعي على أنه « ذلك العلم الذي يجعل الآلات تقوم بأمور تحتاج الى الذكاء لو أن الناس قاموا بها »[19] .

وفي نظر بعض الباحثين أن هذا المفهوم الجديد « للآلة » الذي أتى به الذكاء الصنعي أكثر جدوى وفاعلية ، إذ يصبح الآن حل المعضلة الميتافيزيقية حول حقيقة ارتباط العقل بالجسد أمرا أقرب منالا . إن البصيرة التي نستمدها من هذا المصدر الجديد توضح طبيعة أمور مثل الارادة البشرية والحرية والخيار الأخلاقي ، كما تساعدنا في فهم الكيفية التي تعتمد فيها سمات حياة الانسان على درجة درايته بذاته . والذكاء الصنعي يُبرز في نفس الوقت درجة التعقيد المخيفة

---

(١٦) Donald Michie: On Machine Intelligence, Edinburgh, 1974, p. 156

(١٧) P.J. Hayes: Some Comments on Sir James Lighthill,s Report on Artificial Intelligence, in AISB Study Group European Newsletter, Issue 14, July, 1973

(١٨) المصطلح مشتق من الكلمة السلافية التي تعني العمل

(١٩) M.L. Minsky and Seymour Papert: Artificial Intelligence: A Paper Symposium, London, 1973

للعقل لأنه يقودنا الى تقدير سليم للتعقيدات النفسية الهائلة في إنجازاتنا اليومية « البسيطة » ، مثل الحديث المرسل ، أو الاختيار من بين عدة بدائل للتعرف ، والتي لا نعي بشكل حدسيّ درجة تعقيدات عملياتها الذهنية . وأخيرا ، فان الذكاء الصنعي قد يقودنا الى فرضيات محددة حول عمليات التفكير ، ستكون عونا كبيراً لنا في تطوير نظريات متّسقة للعقل ، تنقلنا من « البصيرة » السيكولوجية الى « الفهم » السيكولوجي . بل إن الذكاء الصنعي ، لو أحسن فهمه ، لكان - طبقا لهذا الرأي - سندا قويا لنا في مواجهة التأثيرات اللاانسانية للعلوم الطبيعية التي نشكو منها في حضارة المدينة الصناعية[٢٠] ، وذلك على عكس ما يخشاه البعض من غير العارفين بالموضوع من أن الذكاء الصنعي يساند المفهوم الآلي (mechanistic) للإنسان ، وهو المفهوم الذي تعززه إنجازات العلم في فهم العالم المادي والسيطرة عليه . وسنجد في مواجهة ظاهرية حادة لهذا الموقف الانساني رأيا آخر مسرفا في التطرف يرى أن انجازات الذكاء الصنعي وارهاصاته تفرض علينا أن نعيد النظر في تعريفاتنا التقليدية « للحياة » و« الآلة » واعتبار الحواسيب كائنات حية !!![٢١]

ولقد وقف في مواجهة هذه الآراء المتحمسة للذكاء الصنعي أستاذان في جامعة كاليفورنيا ، ببيركلي بالولايات المتحدة ، هما هيوبرت دريفوس (Hubert L. Dreyfus) أستاذ الفلسفة ، وأخوه ستيوارت دريفوس (Stuart E. Dreyfus) أستاذ الهندسة الصناعية وبحوث العمليات . وهما يرفضان كل تعريفات الذكاء الصنعي ويفندان ، في سلسلة متواصلة من الكتابات ، كل ما خرج علينا به العاملون في ميدان الذكاء الصنعي . وسنكتفي هنا بواحد من آخر ما صدر عنهما من مقالات تناولا فيه الموضوع بشكل أكثر تبسيطا من كتاباتهما الأخرى المتخصصة[٢٢] ، وهو بحث مسهب نشر في مطلع عام ١٩٨٦[٢٣] . وهما يقيمان نقدهما على أساس أن البشر يمرون بخمسة مستويات متميزة للمهارات عن طريق التعلم والممارسة ، ولا يقفزون فجأة من مرحلة « المعرفة بالشيء » (Knowing that) وهي المعرفة التي تقوم على قواعد وقوانين الى مرحلة « المعرفة بالممارسة » (Knowing how) القائمة على الخبرة المباشرة . والمستويات الخمسة عند الأخوين دريفوس هي : « المستجد » ، ثم « المبتديء المتقدم » ، « فالكفء » ، « فالمقتدر » ، وحتى نصل الى مستوى « الخبير » (ولقد شرحا هذه المراحل بشيء من التفصيل في دراسة تسبق كتابهما بعامين تقريبا[٢٤] ، وهما يركزان هجومهما على مفهوم « النظم الخبيرة » (Expert Systems) التي هي نتاج بحوث الذكاء الصنعي لأنها تعتمد على أساليب البرمجة المستخدمة في هذه البحوث لتشفير (encoding) نفس الأنواع من الأهداف والاستراتيجيات التي يستخدمها الناس في حل المسائل التي تواجههم .

ويتطلب فهم اعتراضات الأخوين دريفوس أن نتعرف ، ولو باختصار ، على مكونات النظام الخبير الثلاث الرئيسية . وحدة التفاعل مع المستخدم ، آلة الاستدلال (inference) ، وقاعدة المعارف . ووحدة التعامل مع

---

(٢٠) M.A. Boden: Artificial Intelligence and Natural Man, Harvester press, 1977

(٢١) G. L. Simons: Are Computers Alive?, Harvester Press, 1983

(٢٢) عرض هذان الكاتبان افكارهما بتوسع في كتاب اسمه Minds over machines اصدرته دار ماكميلان للنشر ، في العام الماضي .

(٢٣) Hubert and stuart Dreyfus: Why Computers May Never Think LIKE People, in Technology Review, January, 1986, pp. 42- 61.

(٢٤) Hubert L. Dreyfus & Stuart E. Dreyfus: From Socrates to Expert Systems, in Technology in Society, Vol. 6, 1984, pp. 217- 233.

المستخدم هي التي تسمح له بالتفاعل مع النظام في شأن مسألة يرغب المستخدم في حلها ، وهي التي تعرض عليه نتيجة ما توصل اليه النظام الخبير ، مع توضيح الأسباب التي جعلت النظام يختار بديلا ما دون البدائل الأخرى . وأحد الاعتبارات الهامة في عمل هذه المكوِّنة من النظام الخبير هو تحديد طريقة مشاركة النظام والمستفيد في أخذ زمام المبادرة . فلو كان النظام هو الذي يمسك بزمام المبادرة ، فإنه هو الذي سيوجه الحوار مع المستفيد ، وهو الذي سيوجه اليه الأسئلة ، طالما أن النظام لا يطلب من المستفيد الاستفسار عن أمر ما . ولتوضيح هذا النوع من التفاعل ، لننظر على سبيل المثال في شأن نظام خبير لتشخيص حالة ما ، مصمم بحيث يكون له زمام المبادرة . إن النظام سيختار فرضية ما ثم يبدأ في توجيه الأسئلة للمستفيد الى أن يتحقق من صحة الفرضية أو خطئها . ومع أن هذا النوع مناسب للمستفيد قليل الخبرة ، فإن المستفيد ذا الخبرة سيجده بطيئا ومضيعا للوقت ، إذ قد يكون في امكان المستفيد تقديم فرضية بديلة تبدو له أكثر ملاءمة للغرض ، أو قد يستطيع أن يوفر قدرا من المعلومات الاضافية التي تساعد على التشخيص . وسيمكن للنظام الذي يتقاسم المبادرة مع المستفيد أن يدعو الشخص المستفيد الى اختيار واحد من البدائل التي توصل إليها ، كما أنه قد يطلب منه ، كلما اقتضى الأمر اتخاذ قرار ، ان يبدي رأيه في الفرضية المستخدمة ، أو أن يقترح أسلوبا بديلا للحل . وواضح ان تصميم نظام خبير تتقاسم فيه المبادرة أمر اكثر مشقة مما لو بقي زمام المبادرة في النظام وحده ، خصوصا اذا ما جاءت مداخلات المستفيد باللغة الطبيعية التي يتفاهم بها البشر والتي مازالت الحواسيب تجد مشقة كبيرة في فهمها واستخلاص مضمونها من المعاني .

أما جهاز الاستدلال ، أو الآلة المفكرة ، فهو يقوم على أساس الاستنباط في اختيار المعرفة ذات المغزى في الوصول الى نتيجة . ويعني هذا أن النظام قادر على الاجابة عن استفسارات المستفيد حتى ولو لم تكن الاجابة موجودة بشكل صريح في قاعدة المعرفة . وهذه مسألة في اختيار أسلوب الاستدلال الملائم . وهناك عدة أساليب ، لهذا يحاكي كل منها أسلوبا في التفكير . ومن أهمها أسلوب التسلسل الراجع (backward chaining) الذي يبدأ بافتراض وجود خلل ، أو مرض ما ، ليعود القهقرى محاولا التعرف على أسبابه ، أما أسلوب التسلسل الأمامي (forward chaining) فإنه يبدأ بتحديد متطلبات كل فرض ومراجعة مدى توفرها . إلا أنه في مجال الممارسة الفعلية يقتضي الأمر الجمع بين الأسلوبين . وتبقى بعد هذا سمة هامة في الاستدلال هي القدرة على التعامل مع الأوضاع التي تكون المعطيات فيها محل شك أو غير مؤكدة ، كما هو الحال أحيانا في شأن المعطيات المتوفرة عن الخلل أو أسبابه .

ولعل قاعدة المعارف هي أهم المكونات الثلاث ، لأنها تحتوي على كل معارف الخبير وخبراته . ولهذا تسمى النظم الخبيرة أحيانا « النظم القائمة على المعرفة » (knowledge-based) . ومن أهم المزايا أن قاعدة المعارف منفصلة عن المكونتين السابقتين ، الأمر الذي يسمح بزيادة رصيدها من المعارف أو تعديله أو حذف جزء منه دون المساس بعمل المكونتين الأخريين . والصعوبة الرئيسية هنا هي اختيار أسلوب ملائم « لتمثيل » المعرفة ووصف معارف الخبير ، بحيث يجمع بين قدرة الأسلوب المختار على التعبير (أي سهولة وصف معرفة الخبير « وقراءتها ») وبين كفاءة عمليات الحساب الآلي (أي الوقت الذي تستغرقه معالجة أسلوب التمثيل المختار) . وهنا نواجه تناقضا بين الاعتبارين ، فالتمثيل الذي يستخدم اللغة الطبيعية التي تلائم المستفيد ، بكل ما لها من حرية فائقة لوصف المعرفة ، سيتطلب جهدا كبيرا من الآلة لكشف مضمونه وفهمه فهما سليما ، بينما سيجعل التمثيل القائم على لغة برمجة مثلا ، وبكل ما فيها من

قيود على حرية التعبير ، عمليات الحساب سريعة للغاية . وأساليب تمثيل المعرفة داخل قواعد المعارف في الحواسيب موضوع طريف ومثير للغاية ، خصوصا اذا ما تذكرنا أن الحواسيب لا تعرف التعامل الا برقمين اثنين ، هما الواحد الصحيح والصفر(٢٥) .

وفي مقابل هذا التوصيف السريع للنظم الخبيرة القائمة على الذكاء الصنعي ، يعرض الأخوان دريفوس فكرة مراحل اكتساب المهارة السابق ذكرها ويؤكدان على أنها تنتقل بالمرء من سلوك قائم على التحليل طبقا لعدد من القواعد المجردة الى سلوك قائم على الخبرة وعلى ادراك لاواع بأوجه الشبه بين مواقف جديدة ومواقف سابقة لها مختزنة في الذاكرة . ويخلصان من هذا الى أن الذكاء الإنساني ليس مجرد عملية حسابية عقلانية ، والى أن الخبير الذي « يفكر » في المواقف بفعل ارادي لن يحقق أكثر من مستوى أداء مرحلة الكفاءة (وهي المرحلة الثالثة من بين مراحل الخبرة الخمس) ، وإن كانا في نهاية المطاف لا ينكران أن للعقلانية المقصودة دورا ما . ولما كانت الحواسيب تُبرمج لكي تستوعب حقائق وقواعد للتصرف فقط ، فإنها سوف تفتقر دائما الى عناصر حاسمة في حل المشكلات مثل المقدرة على الفصل بين العمليات ذات العلاقة ، وتلك التي لا علاقة لها بالأمر ، ومن ثم ، جاء تحول هام في بحوث الذكاء الصنعي في العقد الماضي ، تركز فيه تطبيق الذكاء الصنعي على مجال ضيق ومحدد من مجالات الخبرة الانسانية ، على أمل أن ترقى قدرات النظم الخبيرة مع مرور الزمن ، وكنتيجة لتراكم برمجيات النظم الخبيرة وقواعد المعرفة فيها ، لأعداد متزايدة من المجالات الضيقة التي ستندمج معا لتصبح طيفا فسيحا ربما شمل كل مجالات الخبرة البشرية .

ومنذ عامين مضيا قامت دورية متخصصة في بحوث الذكاء الصنعي ودراساته باجراء استقصاء لأراء الأسماء اللامعة في هذا المجال ، بمناسبة مرور خمسة عشر عاما على صدورها(٢٦) . ولقد طرحت فيه عشرة أسئلة وجهت إليهم . وكان السؤال المحوري يدور حول مدى تماسك الذكاء الصنعي كمفهوم ، وهل صحيح أنه قد تحول الى تشكيلة غير متجانسة من الأفكار الخاصة بتطبيق الحسابات غير الرقمية على السلوك الذي كان حتى ظهور هذه البحوث في حاجة لمستويات لا تتوفر الا في الانسان ؟ أم أصبح هذا المجال أكثر تماسكا اليوم مما كان عليه منذ عشرة أعوام مضت مثلا ؟ ومن الأمور الملفتة للنظر ، والتي يسهل الآن فهمها على ضوء ما طرحناه سابقا ، أن كثيرين من الباحثين لم يعتبروا هذه المسألة أمرا هاما في الوقت الراهن ، ورأوا أنه ليس من المصلحة إغراقهم في هذه المنازعات المنهجية ، أي أنهم قد اختاروا موقف التقاني الذي يريد أن يحقق انجازات عملية مفيدة دون أن يرهق نفسه بالخوض في علاقة ما يفعله بالفلسفة أو علم النفس أو اللسانيات . إلا أن أعدادا أخرى غير قليلة كانت ترى أن الذكاء الصنعي سيصبح مجالا متماسكا للبحث والدراسة ، وعلما لدراسة الذكاء ، أو علما للإعلام . ويعقد أحدهم مقارنة بين التطور المتوقع للذكاء الصنعي وبين تطور الكيمياء العضوية في القرن الماضي ليؤكد على أنه في طريقه لكي يصبح فرعا من فروع العلم يملك كل الصفات المميزة للعلم كما نعرفها اليوم . وقد نتفق في نهاية المطاف مع موقف ماري جاهودا أستاذة علم النفس

---

(٢٥) لمزيد من التفاصيل عن أساليب تمثيل المعرفة انظر المقال الوارد في مجلة

Electrical Communication, Vol. 60, No.2, ITT Corporation, Harlow, Essex, England.

(٢٦) **Artificial Intelligence, Vol. 25, 1985, published by Elsevier Science Publishers.**

الاجتماعي في جامعة ساسكس[٢٧] والذي يثمن ما حققته بحوث الذكاء الصنعي من إنجازات ، بينما يعبر في نفس الوقت عن الأمل في أن تظل القرارات الكبيرة محتاجة الى البشر ، وأن تبقى النظم الخبيرة كأدوات مساندة لاتخاذ القرار لا أدوات للسيطرة على البشر .



إن تطور علوم الحاسوب وتقاناته وما أتى به من مسائل جديدة تماما في الرياضيات البحتة والابستمولوجيا واللسانيات وعلم النفس ، وغيرها من مجالات الفكر والعلم ، يجري داخل نسق اجتماعي ـ اقتصادي طرحنا النظر فيه جانبا في مستهل حديثنا ، ولا مفر من أن نعود إليه الآن لكي نلقي نظرة سريعة على ما أتت به تطبيقات الالكترونيات الصغرية من مشاكل جديدة ، في العالم ككل ، وفي الدول النامية بالذات ، وفي الوطن العربي ، على وجه الخصوص . إن ظهور هذه التقانة الجديدة قد بدأ بالفعل في تغيير الأنماط السائدة حتى الآن في الانتاج والاستهلاك . ولقد ترك هذا التغيير بصماته ولاشك على استراتيجيات وحدات الانتاج وعلى دور الحكومة وأشكال تدخلها لترشيد دخول هذه التقانة الجديدة وحماية المجتمع من آثارها الضارة . بل ربما كان تأثيرها أعمق مما يمكن في سياسات التنظيمات العمالية والحركات السياسية « التقدمية » . والمشاهد أن هناك وعيا متزايدا في الدول المصنعة كلها تقريبا بعواقب هذه التقانة الجديدة ـ وغيرها من التقانات الصاعدة ـ على هيكل التنظيم الاجتماعي وعلى توازن القوى بين فئات المجتمعات وطبقاتها . ولقد تعلم الجميع من خلال تجارب مريرة ان تقانات المعلومات الجديدة ، وبالذات تطبيقاتها في أتمتة (automation) عمليات الانتاج والأعمال المكتبية ، ذات آثار اجتماعية حادة ما لم تخضع لأساليب جديدة للسيطرة الاجتماعية ، وبحيث لا تزيد من حدة السيطرة المركزية في المنشأة أو جهاز الدولة وتفتح بهذا سبلا جديدة لمجتمعات سلطوية .

ولكن تأثير التقانة الجديدة لا يقف عند هذه الحدود القطرية بل يتعداها الى تغيير ميزان القوى التي تتحكم في التجارة الدولية وأنماط الاستثمار . ومن سوء الحظ أن هذا المجال ، الذي يهم الدول النامية بالذات ، لم يلق حتى الآن الاهتمام الكافي ، وإن كان من المؤكد أن البحث المستفيض فيه يجري داخل مجالس ادارة الشركات عابرة الجنسية (transnational) ، وربما في بعض مراكز الأبحاث الكبيرة الوثيقة الصلة بها وبأجهزة السياسة الخارجية في الدول العظمى . إن خطورة هذا التأثير ترجع الى سببين اثنين رئيسيين على الأقل : أولهما أن الانتاج الصناعي قد اكتسب اليوم سمة دولية لا ترتبط بدولة واحدة ، ومن ثم أصبح موجها نحو سوق عالمية ، لا سوق محلية في دولة واحدة أو إقليم واحد ، وأن هذا ينطبق على كل مواقع الانتاج الجغرافية ، سواء أكانت في دولة مصنعة أم دولة حديثة التصنيع (Newly-Industrialising) . والسبب الثاني هو أن التنافس الاقتصادي والسياسي قد ازدادت مرارته بشكل واضح في ظل الأزمة الحادة التي يعاني منها الاقتصاد العالمي منذ عقد تقريبا[٢٨] .

(٢٧) Marie Jahoda: Artificial Intellingence: an outsider, Sperspective, in Science and Public Policy, December, 1986.

(٢٨) لسنا في حاجة للتذكير هنا بالصراع بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان ، ولا بأزمة مديونية دول العالم الثالث ودول أمريكا اللاتينية حديثة التصنيع بالذات ، مثل المكسيك والبرازيل والأرجنتين

ويعني هذا كله أن الأزمة ، والابتكار ، والتغيرات الدولية في الانتاج ، وتقسيم العمل الدولي ، أمور وثيقة الصلة ببعضها البعض ، في حين أننا مازلنا ـ بسبب النقص الفادح في البحث الموثوق فيه ـ عاجزين الى حد كبير عن تقديم شواهد امبريقية متماسكة عن هذا التلازم ، وهو الأمر الضروري لكي نتمكن من التعرف على الأسباب والعوامل التي تكيف تلازم هذه الظواهر . بل إن العجز يبدو أكثر كثيرا إذا ما حاولنا تقييم فرص عناصر فاعلة أخرى في أن تكون قادرة على تعديل أنماط الانتاج والاستهلاك التي تهددنا ، وبصرف النظر عن القطاع الاقتصادي أو الدولة التي نبحث أمرها .

إن تحقيق شيء من هذا يتطلب ـ في رأي ديتر أرنست الاقتصادي الألماني الذي شُغِلَ بهذا الموضوع منذ عدة سنوات ـ أن نبدأ بافتراض أن التعرف على آثار التقانات الجديدة على أنماط تقسيم العمل ورأس المال على الصعيد الدولي ، يتطلب تحليلا صريحا لا غموض فيه للقوى الكامنة وراء تطوير هذه التقانات وتطبيقها ، وأن نربط بينها وبين نشأة الأزمة الاقتصادية الراهنة . ويحتاج تحقيق هذا الى الربط بين مجالات أربعة للبحث ، ظلت منفصلة عن بعضها البعض حتى الآن وهي (نظريات الأزمة ، والابتكار ، والاقتصاد الصناعي ، والعلاقات الاقتصادية الدولية) ثم اختبار صحة هذه الروابط في عدد من الدراسات القطاعية والقطرية المقارنة . بل إن الأمر ـ في رأيه ـ يتجاوز هذا كله بحيث يسعى البحث في المستقبل لتخطي حدود التحليل الاقتصادي وليبدأ في التحليل السياسي للتفاعلات ما بين الأزمة والابتكار واعادة هيكلة الصناعة الدولية ، وليطرح أسئلة مثل « من الذي يطور التقانات الجديدة ؟ ومع من ؟ ولماذا ؟ ولمصلحة من ؟ » ومن الواضح أن استخدامات التقانة التي تتجاهل حقوق العمال والحاجات الأساسية لمجتمعاتنا سوف تستثير أشكالا جديدة للمقاومة في وجه فرض التقانة الجديدة من موقف سلطوي علوي . إن تحقيق السيطرة الاجتماعية على الخيار التقاني لضمان أن تكون الآلة في خدمة البشر ، وليس العكس ، لن يتأتى إلا مع فهم حقيقة القوى الكامنة وراء إدخال تقانات جديدة وبالذات تفاعلاتها مع تغير أنماط تقسيم العمل الدولي[٢٩] .

وفي خصوصية تقانات الحاسوب وآثارها في الدول النامية ، يرى الكثيرون أن هذه التقانات تهيىء لهذه الدول امكانية القفز فوق مراحل التطور التقاني التقليدية ، ومحاربة البيروقراطيات غير الكفؤة فيها ، وترشيد عمليات الانتاج ، وتحسين مستويات الخدمات الصحية . ولكن الحالات التي حقق فيها هذا القفز المنشود الآمال المعقودة عليه قليلة ، بمثل كثرة عدد حالات الفشل في تحقيق هذه الآمال . ويؤيد فرانسوا سوبيزيه (Francois soupizet) ، مدير السياسات في المكتب الحكومي للمعلوماتية (Intergovernmental Bureau for Informatics) ما ذهبنا إليه آنفا من تأكيد الفرق بين المعلومات الخام وتحويلها الى معرفة فاعلة ، إذ يقول : « إن الحواسيب لا توفر الكساء ولا الدواء ولا الطعام . إن قدراتها تبدأ وتنتهي عند المعلومات . ومن ثم ، فإن فائدتها ترتبط ارتباطا وثيقا بفاعلية المعلومات في البرامج (التنموية) » . وعلى الرغم من ذلك فقد اندفعت حكومات العالم الثالث في اقتناء الحواسيب دون ان تدرس بعناية مدى حاجتها لها ، أو قدرة البيئة على استقبالها والاستفادة منها . وحتى الدول الكبيرة والأكثر تقدما ، مثل الصين ، لم تنجح في التعامل مع هذه المعادلة الصعبة . ففي عام ١٩٨٤ وحده ، استوردت الصين ما قيمته ٣٠٠ مليون

(٢٩) Dieter Ernest: The Global Race in Microelectonics, Campus Verlag, Frankfurt, 1986, pp. 221-227

دولار من مكونات الحواسيب لكي تنتج ١٢٠,٠٠٠ وحدة منها . وبحلول العام التالي كان نصفها على الأقل عاطلا بلا عمل ، وعشرات الألوف منها تقبع في المخازن نظرا للنقص الفادح في خبرات استخدامها واعداد البرمجيات الملائمة للاحتياجات الوطنية . ولقد تحملت الصين نسبة وصلت الى ٢٠٪ من ثمن الأجهزة المستوردة من أجل صيانتها ، بينما لا تتجاوز هذه النسبة ٣٪ في الولايات المتحدة . ولو استمر الحال على هذا المنوال لتكلفت أقل قليلا من المئة مليون دولار لهذا الغرض في الأعوام الأربعة الأخيرة . والصورة في دول نامية أخرى أقل حجما ودراية من الصين أكثر قتامة . فنسبة الاستخدام للحواسيب الموجودة في الفلبين وزائير وساحل العاج لم تتجاوز ٥٠٪ ، عام ١٩٨٤ ، وهي لم تصل إلا لأكثر قليلا من الثلث في الكويت ومصر في ذلك العام .

ولقد بدا لأول وهلة أن ظهور الحاسوب الصغري زهيد الثمن سوف يتغلب على هذا الوضع المتردي . ولكن الكثرة غير العادية للشركات الموردة ، والطرازات غير المتآلفة ، وتكاليف الصيانة ، ونقص القوى العاملة المدربة ، وبدائية وسائل الاتصالات في كثير من الدول النامية كانت كلها عوامل مناوئة لمحاولات تحسين الأوضاع . ويعقد سيبوزيه مقارنة بين الأوضاع في الدول المصنعة وتلك النامية ، فيلاحظ أنه بينما كانت العقبة في الأولى هي التردد في إدخال تقانات جديدة تهدد الكيان الانتاجي القائم ، فان المشكلة في الثانية كانت السياق الاجتماعي الذي يتم فيه استخدام الحواسيب والذي يتميز بضعف الثقة في مصداقية المعلومات المتاحة وعدم كمالها ونقص وسائل نشرها لكي تصل للمرشحين للاستفادة منها .

وقد نضيف الى هذا في خصوصية الوطن العربي مشكلة اللغة ، فالحواسيب التي تأتينا من الخارج لا « تتكلم » العربية ، ولا « تفكر » باللغة العربية . ومحاولات تعريب الحواسيب التي جرت حتى الآن مازالت في القدر الغالب منها تعالج مسائل سطحية مثل إدخال المعطيات واخراج النتائج بكتابة عربية من نوع ما ، ودون أن تغوص في صميم مشاكل اللسانيات الحاسوبية (Computational Linguistics) في اللغة العربية . ان معالجة هذه المشاكل تتطلب جهدا علميا أصيلا يعالج المسائل من جذورها ولا يهرع للخروج الى السوق بحل جزئي مبتسر من أجل تحقيق كسب مادي في سوق شديدة التنافس لا يلبث أن يفقد ميزته بعد فترات زمنية قصيرة . إن الجهد المطلوب يتطلب تعاونا غير مألوف حتى الآن بين خبير الالكترونيات وعالم اللسانيات العربية ، ويطالب هذا الأخير بأن يعيد صياغة تراثنا من الدراسات اللغوية صياغة جديدة تماما على ضوء الانجازات التي تحققت في دراسات لسانيات الحاسوب في اللغات الأخرى . وفي هذا العدد من « عالم الفكر » محاولة أصيلة لطرح أبعاد هذه المسألة وتحديد متطلبات حلها حلا جذريا يضمن لنا ألا يكون ثمن استفادتنا من هذه التقانة الواعدة هو فقداننا لهويتنا الثقافية وتراثنا الحضاري .



إن السؤال المطروح اليوم في العالم بأسره ، لم يعد هو : « هل ندخل عصر الحواسيب ومجتمع المعلومات ، أم لا » ؟ ، فهذا امر لا مفر منه ، بل إنه واقع اليوم بالفعل في كثير من بلدان العالم . إنما السؤال الحاسم الآن هو متى ؟ وكيف ؟ ولقد نوهنا فيما سبق بأن المعلومات مورد ، ومن ثم ، فهي مصدر قوي في الخير أو في الشر . واذا ما كانت تقانات الحاسوب مما يصعب فهمه على غير المتخصص ، فإن القضايا التي تثيرها يجب أن تكون واضحة ومفهومة لكل

واحد منا . إن التحدي الذي تواجهنا به هذه التقانات هو في قدرتنا على تحقيق كل ما تحمل في طياتها من الفرص الواعدة ، وعلى تلافي كل ما يمكن أن تأتي به من مخاطر وسلبيات[٣٠] . ومواجهة هذا التحدي لا تكون بترك الأمر للتقانيين والاقتصاديين ، بل بنظر مدقق ، وفكر فاحص لكل الجوانب الانسانية والاجتماعية والفكرية والثقافية التي تتأثر بأسلوبنا في استقبال هذا الوافد الجديد ، ومدى نجاحنا في ترشيد استخداماته في كل نواحي حياتنا : في العمل ، وفي المنزل ، وفي الدرس ، وفي الترفيه ، وفي الدفاع . . الخ . وسواء تحققت كل الآمال المعقودة على الذكاء الصنعي ، أو لم تتحقق ، فان المستقبل الغني بالمعرفة بمثل ما لم تعرف البشرية من قبل ، ربما كان هو سبيل الخلاص من الهموم المادية وبدء الانشغال المتزايد بالأمور غير المادية . وقد يكون هذا حلما طوباويا ، ولكنه يكون في نفس الوقت هدفا منشودا ، يبدو أن هذه التقانة الجديدة قد تساعدنا على تحقيق شيء منه على أرض الواقع في مستقبل ليس ببعيد .

اسامة الخولي

❊ ❊ ❊

(٣٠) الخولي ، أسامة أمين . « أفكار في شأن التعامل مع التكنولوجيا المتقدمة » ، سلسلة الحوارات العربية (٦) ، منتدى الفكر العربي ، عمان ، ١٩٨٦ .

مفاهيم أساسية حول تقنية المعلومات *

عبد الاله الديوه جي

المدير التنفيذي لمركز الحاسبة الالكترونية ،
في وزارة الصناعة العراقية

١ ـ تمهيد

لم تشهد الحضارات الانسانية عبر القرون ظهور وتطور تقنية من التقنيات بالشكل والسرعة التي ظهرت وتطورت بها التقنية التي يطلق عليها اليوم تقنية المعلومات (information technology) . فقد غزت وسائل وأجهزة هذه التقنية مختلف النشاطات والقطاعات في مجتمعات البلدان المختلفة وبالأخص المتقدمة منها . وأطلق على تقنية المعلومات بالثورة الصناعية الجديدة أو ثورة المعلومات وأصبح الحديث عن « مجتمع المعلومات » (information society) كبديل للمجتمع الصناعي الذي مرت به البلدان المتقدمة خلال القرن الماضي حديث الجميع ، ولعل أهم ما ساعد في تسارع انتشار هذه التقنية تطور مركباتها الأساسية بشكل اقتصادي وتقني مخالف لاتجاهات التضخم الذي تعاني منه وسائل التنمية الأخرى في مجتمعات العالم . فالمراقب لحالة تقنية المعلومات خلال هذه الحقبة يرى انخفاضا سنويا مستمرا في كلفة المكونات المادية (hardware) يصل الى ٣٠٪ وصاحب هذا الانخفاض زيادة كبيرة في أداء الأجهزة ومفعوليتها وتقليصا في المساحات والحجوم اللازمة لاحتوائها . وقد شهدت المكونات الأخرى لهذه التقنية كالبرمجيات (software) والاتصالات (communications) تطورات إيجابية كبيرة رغم أنها لم ترق في نسبها الى التطورات التي حصلت في الاليكترونيات الدقيقة .

هذا البحث استعراض سريع لمفاهيم أساسية وجدّية تطلع القارىء العربي على ما يدور من تفاعلات ضمن الموضوعات الفنية البحتة لهذه التقنية من جهة ، وبين موقع وتفاعلات البلدان النامية عموما ، والبلدان العربية على وجه الخصوص مع ثورة تنموية جديدة تمر بها

* الأرقام الواردة تشير الى المراجع في شأن كل واحد من موضوعات الدراسة .

البلدان المتقدمة قد لا يكون جل متخذي القرارات في بلداننا على بينة من أهميتها الموضوعية بالرغم من قناعة الكاتب بتوفر الحماس الظاهري الابتدائي المطلوب لدى هؤلاء لأهمية واستراتيجية هذه التقنية .

وقد يتحول الحماس الظاهري الابتدائي في بعض الحالات الى قوى سالبة تحد من تنمية هذه التقنية أو قد يتحول في حالات أخرى ، إذا ما أحسن استثمار هذا الحماس ، الى محاولات لتقدم إيجابي لوضع هذه التقنية في خدمة التنمية الوطنية والقومية بشكل يحقق الأهداف المرجوة .

ولغرض وقوف القاريء العربي على موقعه من هذه التقنية لا بد له من التعرف أولا على المفاصل الأساسية لهذا الحقل عالميا ، ومن الاطلاع على أمثلة لبعض ما تحقق محليا ، ليستطيع أن يربط ما بين بعض الخصوصيات التي تُعجّل في حالات ، وتؤجل في حالات أكثر ، من مقدرة المجتمعات النامية على استغلال التقنيات لخدمة أهدافها .

٢ ـ شعبية التقنيات

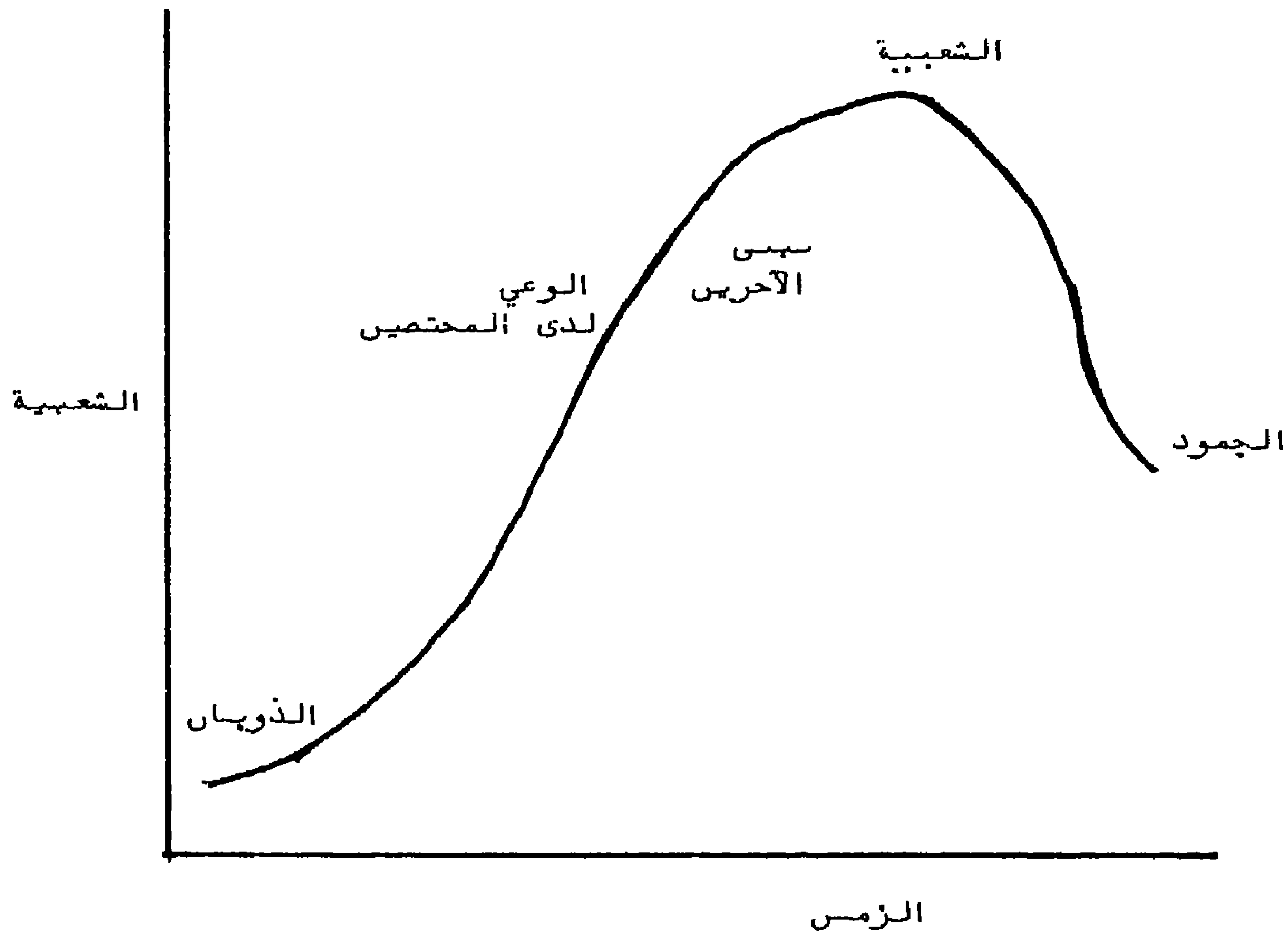
من المتعارف عليه أن التقنيات تمر بمراحل محددة تبدأ من ولادتها لحين اندثارها ، ويطلق على هذه المراحل اسم موجات التقنية (waves of technology) (1) .

يمثل الشكل (١) رسما بيانيا يربط ما بين الزمن وشعبية التقنية ضمن المجتمع . ويمكن من خلال هذا الرسم البياني التعرف على المراحل الأساسية الآتية :

- مرحلة الذوبان (ما بعد المرحلة المختبرية)
- مرحلة الوعي لدى الأفراد المختصين .
- مرحلة التبني من الآخرين .
- مرحلة الشعبية الجماعية .
- مرحلة الجمود .

فبعد المرحلة المختبرية التي تمر بها تقنية ما تأتي مرحلة ذوبان هذه التقنية بشكل بطيء نسبيا في المجتمع ، وتبقى مقتصرة على واحات وجزر صغيرة ضمن المجتمع يتعامل معها أفراد محدودون من المختصين والفنيين . ولا تبدأ التقنية بالانتشار إلا بعد تبنيها من قبل شرائح اجتماعية أوسع تصل بعدها الى قمتها عندما تصبح التقنية موضوع البحث ظاهرة شعبية يتفاعل معها أفراد المجتمع بشكل واسع ومباشر . ويمكن ببساطة سحب هذا الرسم على عدد من الظواهر التقنية السائدة في المجتمعات كالتلفزيون والسيارة والفيديو وغيرها (5) .

لقد استعمل الفن توفلر مؤلف كتاب « الموجة الثالثة » تشبيه الموجة ليصف التغير في المجتمعات ، وقد كان موفقا في هذا التشبيه الذي من خلاله يمكننا رسم عدد من الموجات تمثل مراحل مهمة في تطور تقنية المعلومات وأجهزتها عبر العقود الثلاثة الماضية . آخذين بنظر اعتبار ان موجات معالجة البيانات (data processing) ومعالجة الكلمات (word processing) لم تصل ضمن دورتها التقليدية لحد الآن إلى درجة كافية من الشعبية في المجتمعات المتقدمة .

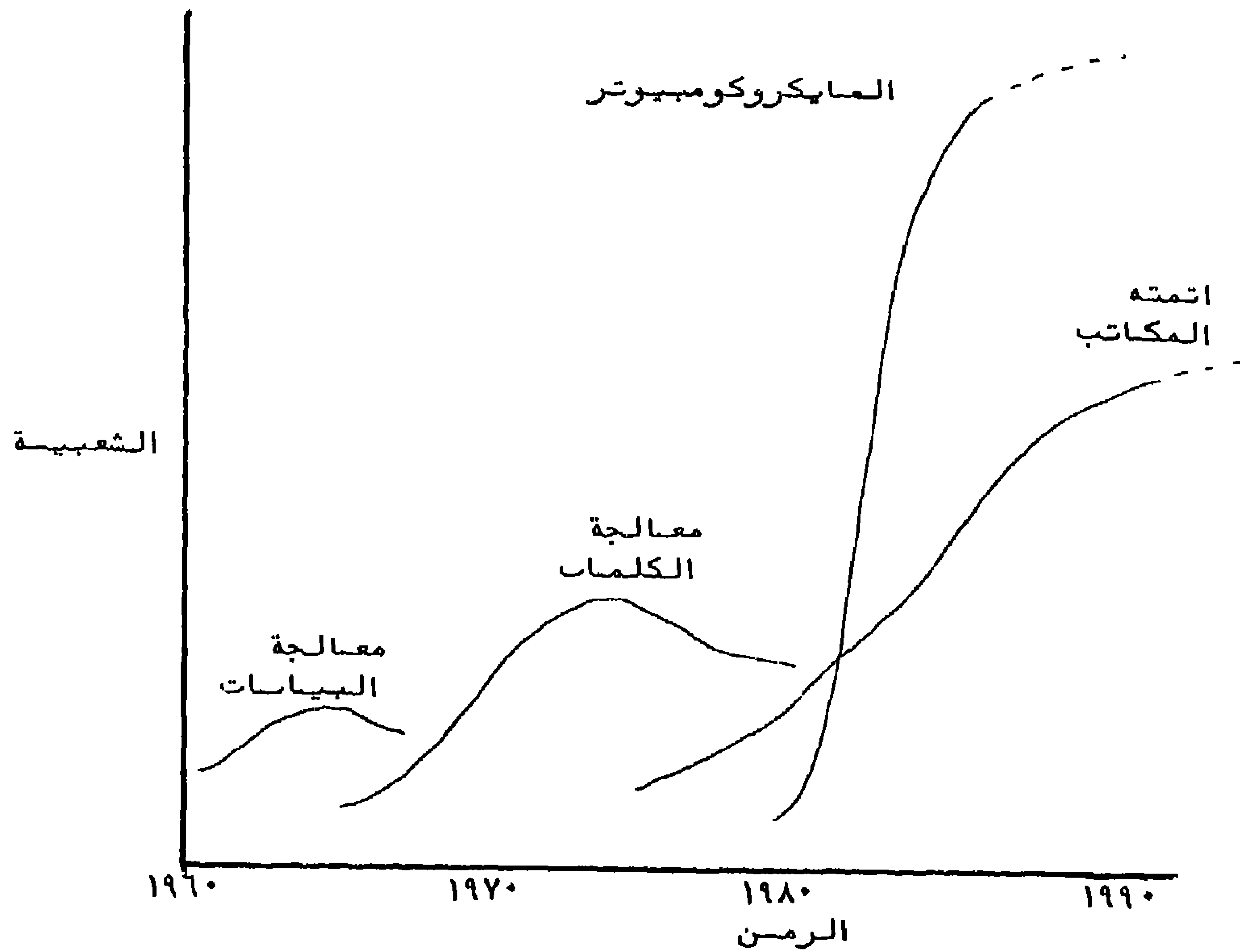


الشكل (١) موجات التقنية

والمايكروكومبيوتر وتقنية أتمتة المكاتب (office automation) (8) بالرغم من وصولها الى درجة أعلى من الشعبية الا أنها لم تصل بعد الى المرحلة القصوى ، هذا ما هو عليه الحال في البلدان المتقدمة وبالأخص في الولايات المتحدة الامريكية . وتأخذ هذه الموجات أشكالا مشابهة بالنسبة لبلدان العالم الثالث والبلدان العربية إلا أن سرعة نفاذها ، المتمثلة بدرجة الشعبية التي تصلها قد تختلف من جهة ، وقد تختلف أيضا في نقاط البداية أو الانطلاق من جهة ثانية . فبينما كانت نقطة البداية بالنسبة للبلدان العربية متأخرة عموما دخل الكومبيوتر مجتمعاتها في الستينيات لأسباب ، اجتماعية واقتصادية عديدة، كانت نقطة البداية لنفاذ المايكروكومبيوتر مبكرة في البلدان العربية ، على الأقل بالشكل الظاهري الابتدائي الذي نفذت فيه في البلدان العربية الغنية بالبترول . وقد يعزى ذلك إلى قابليات المجتمع الاقتصادية . وهذا صحيح إلى حد كبير ، الا أن هناك سببا آخر لا يقل في أهميته عن الأول ، ألا وهو أن درجة الشعبية التي تحققها التقنيات في المجتمعات المتقدمة تؤثر طرديا على درجة نفاذ التقنية في المجتمعات الأقل تقدما لأسباب تجارية واقتصادية واجتماعية . وهذه ظاهرة تستحق الدراسة بذاتها بالنسبة للتقنيات وانتشارها عبر الحدود بصفة عامة .

٣ ـ تقنية المعلومات ومكوناتها

لقد اضطررنا الى التمهيد لتقنية المعلومات ودرجة شعبيتها واستخدمنا بعض المصطلحات التي قد لا تكون معروفة للقاريء غير المتخصص دون محاولة لتعريفها . وقد حان الوقت لتعريف بعض ماله علاقة بتقنية المعلومات ومكوناتها .



الشكل (٢) موجات تقنيات المعلومات

لقد اختلفت الدول في التسميات منذ بداية ظهور هذه التقنية ، ولعل استعمال مصطلح « تقنية المعلومات » استعمال غير موفق الى الدرجة التي يأملها القارىء مقارنة بمجالات علمية أخرى . وهذا الاختلاف ليس خاصا باللغة العربية بل يشمل لغات البلدان المتقدمة أيضا . وسنتطرق الى بعض هذه الاختلافات العامة ، ونعرج في النهاية الى الاختلافات المرتبطة بخصوصية المتكلمين بالعربية .

لقد ظهر الكومبيوتر في أواخر الأربعينيات . والمصطلح مشتق من الفعل (compute) أي « يحتسب » وكانت كلمة كومبيوتر باللغة الانكليزية في بداية الأمر تكتب بشكلين (computer) و (computor) ، وهما شكلان مقبولان لغويا . واستقر الرأي على اعتبار أن الشكل الأول يدل على الآلة الحاسبة والشكل الثاني يستعمل عند التكلم عن الانسان الذي يقوم بالاحتساب بعيدا عن الآلة . وعندما بدأت تقنية الكومبيوتر تتوسع لتصبح كيانا قائما بذاته بدأت مصطلحات أخرى تظهر على الساحة مثل علم الكومبيوتر (computer science) وعلم الحساب أو الاحتساب (computing science) ، لتمييزه عن الحساب التقليدي في الرياضيات .

ومع إدراك بعض الدول المتقدمة لأهمية الكومبيوتر وما يرتبط به من موضوعات أخرى كالتطبيقات والاتصالات والمعلومات . حاولت فرنسا على وجه الخصوص توليد كلمة مميزة هي (informatique) وفرضها عالميا خارج حدودها ، فاقترحت كلمة (informatics) باللغة الانكليزية . إلا أنها لم تفلح في مسعاها ، إذ بقى العديد من

المجتمعات يتعامل مع بدائل مختلفة منها معالجة البيانات (data processing) وعلم الكومبيوتر (الذي ما يزال عدد كبير من علمائه واختصاصييه لا يعتبرونه علما) وغير ذلك من المصطلحات . ولم يظهر مصطلح تقنية المعلومات (in-formation technology) بشكله الواسع إلا في النصف الثاني من عقد السبعينيات عندما بدأت تقنيات مصاحبة للكومبيوتر تظهر وتتفاعل بشكل عضوي ، بحيث لم يعد مصطلح الكومبيوتر أو معالجة البيانات كافيا للتعبير عنه .

أما على الصعيد العربي فقد تكون المسميات والمصطلحات أكثر إرباكا منها في لغات الدول المتقدمة ، وذلك لغياب المؤسسات التي تعنى بمثل هذه الاختلافات في وقت مبكر من ظهورها . فلقد استعمل مصطلح الكومبيوتر في بداية الأمر ثم الحاسب الآلي والحاسب الالكتروني ثم الحاسبة الالكترونية ، وحاول المغرب العربي ترويج مصطلحات ذات جذور فرنسية مثل النظامة والرتابة ، ثم حاول آخرون استعمال الحسّابة ، حتى ظهر مصطلح لا يقل عن المصطلحات الأخرى إرباكا من خلال بعض المنظمات العربية ، ألا وهو « الحاسوب »[٦]. أما بالنسبة لكلمة (informatics)فقد ظهرت كلمات عربية غريبة مثل « المعلوماتية » و « الاعلامية » ، و « الاعلام الآلي » في المغرب العربي وحاولت بعض دول المشرق اقتباسها . ومن الأمور التي يعاني منها العاملون في هذا الحقل صعوبة الاشتقاق من معظم هذه المسميات فعندما نقول باللغة الانكليزية (compute) هل نقول باللغة العربية حسب ؟ إن هذا لا يميز الفعل عن المعنى التقليدي . أم نقول احتسب ؟ وعندما نقول بالانكليزية (computerise) هل نقول حسبنة أم نقول حوسبة أم كمبترة ؟ وكذلك بالنسبة لكلمة (hardware) التي يمكن أن يطلق عليها بالعربية الماديات والأجهزة والمكونات المادية وكلمة (software) التي يمكن أن تكون برمجيات أو براجيات أو مواد لينة !

عند التكلم باللغة الانكليزية عن التحولات المطلوبة في أسلوب ما من أسلوب يدوي الى أسلوب آلي فان لدينا عددا من المصطلحات على درجة لا بأس بها من الدقة فنقول (mechanisation) أي ميكنة أو مكننة . ونقول (automation) لنعني أتمتة (ان صح التعبير) ونقول (computerisation) لنعني حسبنة أو حوسبة أو كمبترة . وهي مصطلحات لا تستعمل بالدقة نفسها عندما نتكلم بالعربية . ويبدو لي أن الناطقين بالعربية هذه الأيام أكثر تزمتا تجاه لغتهم مقارنة لما كان عليه سلفهم . فاللغات الحية عبر العصور تقاس بمدى تقبلها للمعرب والمولد والدخيل في مفرداتها ، وليس عيبا أن تنفذ الى اللغة كلمات دخيلة من لغات أخرى شريطة أن تنحت بالمظهر المقبول لمفردات اللغة ، وذلك عندما تعجز اللغة عن تعريب أو توليد بعض المصطلحات .

ما هي مكونات تقنية المعلومات ؟ يمكن تقسيم هذه المكونات الى مجاميع أربعة رئيسية .

أ ـ الماديات ، أو المكونات المادية (hardware) وهي المكونات الصلبة التي تتعامل معها تقنية المعلومات وبالأخص الألكترونيات والأجهزة والوحدات المساعدة .

ب ـ البرمجيات ، أو مجموعة البرامج التي بدونها لا يمكن للمكونات المادية أن تكون مفيدة وهي النتاج الفكري لمن يقوم بحل المسألة ووضع الأسلوب المبرمج لها . ومن البرمجيات برامج تعنى بادارة الأجهزة واستغلال مواردها بكفاءة يطلق عليها برامج نظام التشغيل (operating system) . ومن

البرامج ما يعنى بترجمة برامج مكتوبة بلغات أقرب ما تكون الى اللغات الطبيعية ، الى اللغة التي تفهمها الآلة ويطلق على مثل هذه البرامج مجمّعات لغات البرمجة (compilers) . ومن البرامج ما يعنى بالتطبيقات وهي أقرب إلى ذهن المستفيد وحاجته ، مثل برامج احتساب الأجور وفواتير الكهرباء وإدارة الأفراد والمخازن وغيرها . وهذا النوع من البرمجيات يطلق عليه البرمجيات التطبيقية .

ج ـ الاتصالات ، وهو ذلك الجزء من التقنية الذي يعنى بوسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية بين نقطة وأخرى . وتقنيات الاتصالات أقدم تاريخيا من عمر الكومبيوتر . وقد حصل التلاحم بين هاتين التقنيتين عندما ظهرت الحاجة لترابط أجهزة الكومبيوتر وأطرافها عن بعد . فاضطر المتعاملون مع المنظومات الكبيرة الى استخدام شبكات الاتصالات التي كانت تستخدم لنقل الكلام والاشارات البرقية لربط المطاريف (terminals) بالكومبيوتر أو ربط الكومبيوترات بعضها ببعض . ونمت الحاجة إلى انشاء شبكات متخصصة لتراسل البيانات (data communications) ومن ثم ، وبسبب التطور الذي تحقق في مجال الالكترونيات ، تكاملت الخدمات بين تراسل البيانات والتراسل التقليدي للصوت والصورة في أجهزة الكترونية تعتمد الدارات الالكترونية الرقمية (DIGITAL CIRCUITS) والشبكات العمومية المتكاملة .

د ـ المعلومات وهي مجموعات البيانات المدخلة والمخرجة التي تتعامل معها مجموعة التقنيات التي ورد ذكرها . ومصطلح المعلومات مصطلح غير دقيق أيضا نحاول تمييزه من خلال مفاهيم قد تكون غير متعارف عليها لدى البعض ، يمكن اعتبار المعلومات الخام التي لا تعني شيئا للمتعامل معها بيانات (data) ، تتحول عند اكتسابها المعنى المفهوم الى معلومات (information) . والمعلومات ليست هدفا بذاتها ما لم تتحول الى معرفة (knowledge) . لنضرب مثلا للتمييز بين هذه الحالات :-

يمكن لطالب في سنة ثانية ابتدائي أن يقرأ العبارة جذر الرقم ١٦ = ٤ ، إلا أنه لن يفهم معناها ، فهي بالنسبة له رموز قد تعني مفرداتها شيئا له إلا أنها لا تعطيه معنى مترابطا ، ولو قرأ العبارة نفسها طالب في الاعدادية أو الثانوية لفهم بأن جذر ١٦ = ٤ أي ٤ × ٤ = ١٦ ، وهي علاقة رياضية مفيدة ، فهي بالنسبة لطالب الاعدادية أو الثانوية معلومات .

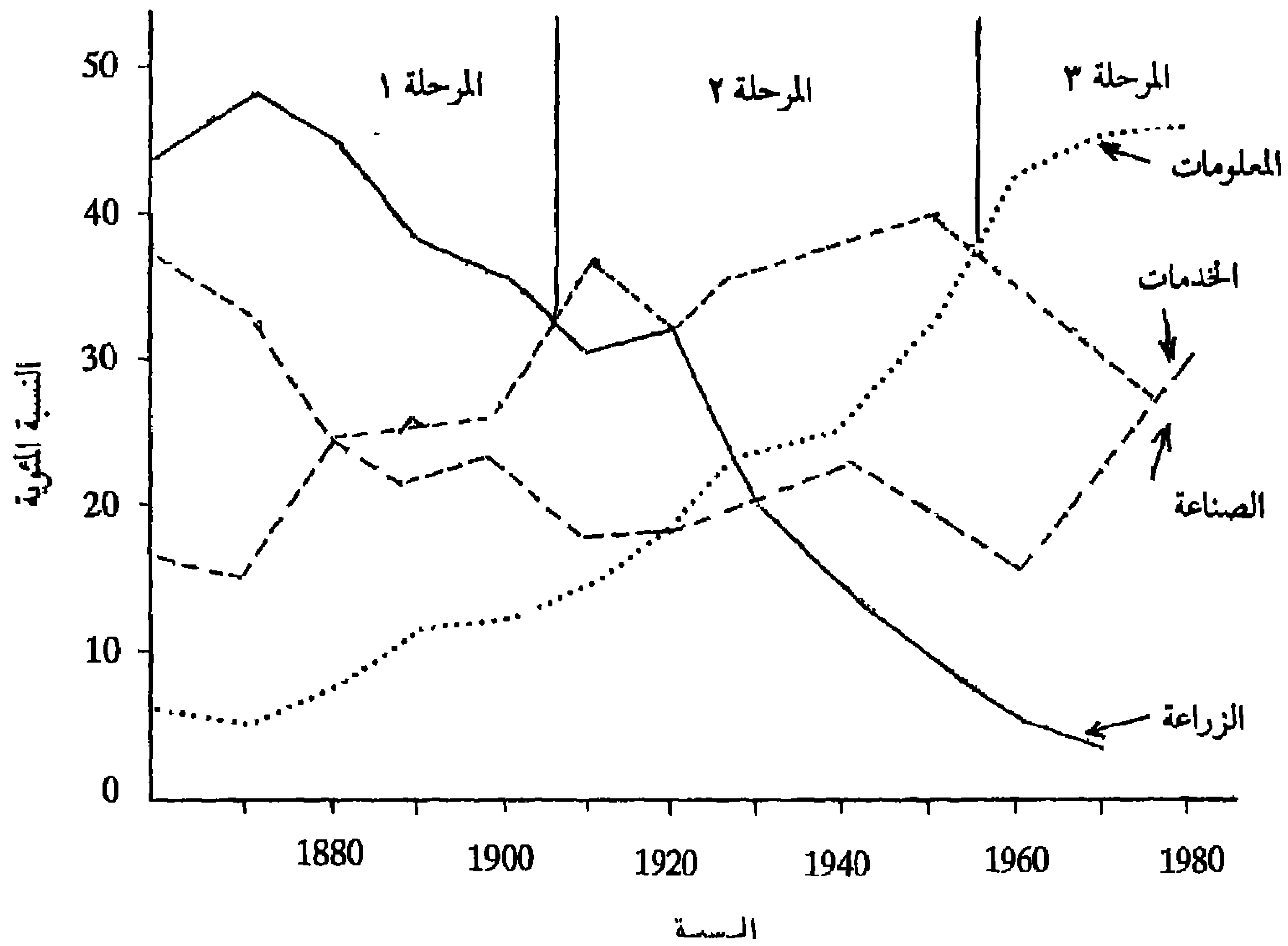
أما المعرفة فهي عندما تتحول هذه المعلومة الى وظيفة مفيدة (أو غير مفيدة) من خلالها يحقق هدف ما بسبب الحاجة الى هذه العلاقة الرياضية . فالهدف من البيانات (التي هي مادة خام) هو تحويلها الى معلومات (التي هي ناتج وسيط) . والهدف من المعلومات هو تحويلها الى معرفة (أي ناتج نهائي أو ناتج وسيط لتحقيق ناتج نهائي أبعد) .

٤ ـ مجتمع المعلومات

ما زالت البلدان النامية تتكلم عن التصنيع التقليدي ومقوماته لمجتمعاتها بينما تمر البلدان المتقدمة الآن في مراحل ما بعد المجتمع الصناعي .

ففي الولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال ، كانت حصة صناعة المعلومات من دخلها القومي لعام ١٩٦٧ ٢٥٪ من الاجمالي العام . أضف الى ذلك أن ٢١٪ من الاجمالي نفسه أنفق أيضا على أمور ذات علاقة بـالمعلومات كالتخطيط والتنسيق والادارة والاشراف . وكانت حصة القوى العاملة في قطاع المعلومات من إجمالي القوى العاملة ٤٦٪ حصلت على دخل يعادل ٥٣٪ من الدخل القومي للعمالة . وفي عام ١٩٧٩ وصلت نسبة العمالة الى ٥٢٪ وحصلت زيادة متناسبة طردا في كافة المؤشرات ذات العلاقة باتجاه زيادة حصة المعلومات من الأنشطة التنموية للمجتمع الامريكي (10) (3) .

تتفق الدراسات التي أعدت حول التحولات الجارية في طبيعة المجتمعات المتقدمة على أن نسبة القوى العاملة للصفة الطاغية في هذه المجتمعات تحولت من الزراعة الى الصناعة ثم الى المعلومات والخدمات . يبين الشكل (٣) هذه التحولات عبر السنين بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية .



الشكل (٣) تحولات العمالة في المجتمع في الولايات المتحدة الامريكية

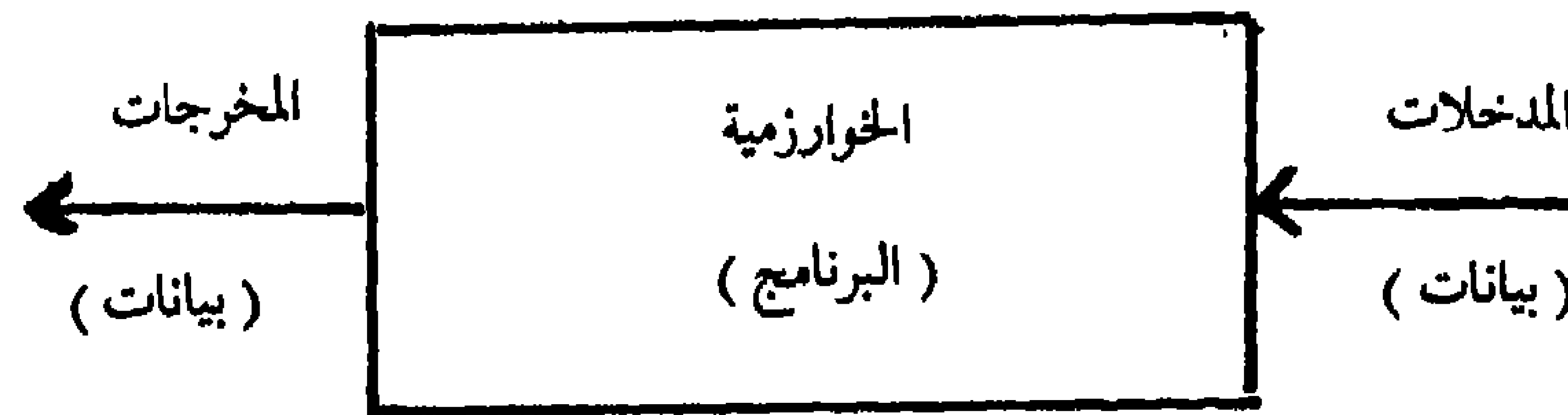
ما هو موقف البلدان النامية إذن من هذه التحولات التي تمر بها الدول المتقدمة ؟ هل تبقى هذه الدول تحاول حل مشاكلها التنموية من خلال الدخول في صناعات تقليدية تجعلها أكثر وأكثر اعتمادا على الدول المتقدمة ، أم تحاول ابتكار وصفة أو وصفات جديدة لها تتخطى فيها الاحباطات التي عانتها عندما حاولت اللحاق بالدول الأكثر تقدما صناعيا ؟ وهل ستعاني الآن المشاريع الضخمة التي حاولت بعض الدول الغنية بـالبترول الـدخول بهـا من التوقف

والكساد والمنافسة وشحة العمالة المحلية وانخفاض الكفاءة وتضخم التحميلات الادارية ؟ أم تحاول وصفات اقتصادية صغيرة تحقيق نجاحات تنموية متواضعة ، وان فشلت فإن فشلها لن يكون كارثة ، إذا ما قورن بفشل المشاريع الضخمة ؟ وهل ستتحول البلدان النامية فعلا الى مجتمعات للمعلومات أم ستتخذ طريقا مختلفا للاتجاه المبين في الشكل (٣) ؟

من الصعب جدا في غياب الاحصائيات الدقيقة في مثل هذه المجتمعات ، رسم ملامح العمالة في البلدان النامية ، الا أن من المتوقع جدا ألا تكون التغيرات التي تطرأ على بعض البلدان النامية ـ وبالأخص البلدان العربية ـ مختلفة كثيرا عن التغيرات التي حصلت في البلدان المتقدمة مع اختلاف نقاط الانطلاق والبعد الزمني المستغرق لكل مرحلة .

٥ ـ مفهوم الخوارزمية (البرنامج) ومفهوم البيانات

كلمة (algorithm بالللغة الانكليزية مشتقة من اسم عالم الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي (٧٧٩ ـ ٨٥٠ م) الذي اشتهر في بغداد زمن الخليفة المأمون ، وكان له الفضل في تحديد معالم علم الجبر والأساليب الوصفية لحل المعادلات الآنية من الدرجة الثانية (2) [٣] . ويمكن للعرب اذا ما أرادوا تخليد ذكرى الخوارزمي أن يستخدموا كلمة « خوارزمية » كما سبقهم الغرب بذلك للدلالة على الأسلوب الوصفي المحدد لحلول المسائل ، الذي هو حالة شاملة أكثر عموما من البرنامج الذي هو ترجمة الخوارزمية الى لغة الكومبيوتر . ومن الضروري التمييز بين الخوارزمية (أو بمعنى أقل دقة البرنامج) ومدخلاتها ومخرجاتها (الشكل ٤) .



الشكل (٤)

وينسحب هذا التمييز عند الكلام عن برمجيات الكومبيوتر والبيانات المطلوبة لهذه البرمجيات . البرنامج أو الخوارزمية هو أسلوب الحل الواضح والدقيق الذي يفهمه الانسان والآلة ، والمدخلات هي البيانات التي يحتاجها البرنامج لكي يعمل بالأسلوب المحدد له ليستخرج بيانات (قد تكون نتائج أي معلومات أو معرفة) يستفاد منها لغرض أو آخر .

هذا إذن هو المفهوم المبسط للبرنامج والبيانات . وقد يقع الكومبيوتر في خطأ ما بسبب خطأ في برنامجه أو خطأ في بياناته المدخلة . والتمييز بين الخطأين مهم لمعرفة مصدر الخطأ وأسلوب المعالجة .

من المفاهيم الأساسية أيضا أن من الصعوبة بمكان (فيما عدا الحالات البسيطة نسبيا) إثبات صحة الخوارزمية أو البرنامج بشكل مطلق الا أنه يمكن اختبار صحته لجزء من المدخلات المفروضة التي تعطي نتائج صحيحة ضمن

الاختبار ، لذا يتطلب الأمر « صيانة » البرنامج ومراقبة أعطاله على مدى الزمن الذي يعمل فيه (أي ضمن دورة حياة البرنامج) ، وليس بالغريب أن تُكتشف بالبرنامج أخطاء بعد مرور سنوات على استعماله . كما أن الأخطاء تُعزى في حالات عديدة الى البيانات المدخلة . فأخطاء البيانات المدخلة يمكن أن تكون من نوعين : نوع يمكن اكتشافه بواسطة الطرق البرمجية بسبب وجود علاقة رياضية أو منطقية ما بين أجزائه أو بينه وبين بيانات مصدرية أخرى ، مثال ذلك إدخال تاريخ يوم ما بهذا الشكل xx/xx/xxxx مثال (١٩٨٦/١٢/٢٩) على هيئة ثلاثة حدود ، فيمكن القول إن الحد الأول (اليوم) يجب ألا يتعدى الرقم ٣١ في بعض الحالات و ٣٠ في حالات أخرى و٢٨ أو ٢٩ في حالات أخرى . والحد الثاني (الشهر) يجب ألا يتعدى ١٢ . ويمكن الربط بين مفترضات الحدين الأول والثاني بحيث يمكن اكتشاف أخطاء التاريخ المدخل بسهولة نسبية . أما النوع الثاني من الأخطاء فلا يمكن اكتشافه بسهولة ، مثلما يحدث إذا ما أدخلنا للبرنامج نفسه الذي يتعامل مع التاريخ تاريخا مقبولا من النواحي الميكانيكية التي تم ذكرها إلا أنه خطأ لأنه ليس هو التاريخ الصحيح ، أو عندما يطلب برنامج لاحتساب العمر تاريخ ولادة شخص ما ، ويعطى لـه تاريخ خاطىء الا أنه تاريخ مقبول . [٤] .

وفي معظم الحالات يتعامل الكومبيوتر مع البيانات والبرامج بشكل مختلف ، إذ يتم تخزين البرنامج في حيز معلوم من الذاكرة وتخزن بياناته في حيز آخر . وهذا مفهوم أساسي لمبدأ مشاركة أكثر من مستخدم واحد في استعمال برنامج واحد في الوقت نفسه دون المساس ببيانات مستفيد ما على حساب مستفيد آخر .

ولغرض التعامل مع الكومبيوتر من خلال مفهوم حل المسألة أو الخوارزمية تطورت عدة لغات للبرمجة كانت في بداية اختراع الكومبيوتر بدائية تعتمد الشفرات المعقدة التي يسهل على الكومبيوتر فهمها ويصعب على الانسان التعامل معها . وبمرور الزمن اتجه تصميم لغات البرمجة لصالح الانسان فظهرت لغات أقرب الى اللغات الطبيعية ، وبالأخص اللغة الانكليزية ، فأصبحت لغة الكومبيوتر تشبه في تركيبها وفهمها تراكيب وسلاسة اللغة الطبيعية البسيطة المفهومة ، وتركز التعقيد على أسلوب الحل فظهرت لغات ذات قابليات متفاوتة ، قسم منها يصلح لحل المسائل الادارية والحسابية (مثل لغة كوبول COBOL) ولغات أخرى تصلح لحل المسائل الرياضية والهندسية مثل Fortran و PL/1 وأخرى مفيدة في فهم التراكيب المنطقية وأعداد الخوارزميات الرياضية لعلم الكومبيوتر (مثلALGOL و PASCAL و C) ALGOL 60 و 68 . كما ظهرت في اتجاه آخر ، ومع تطور موضوع الذكاء الاصطناعي ، لغات أخرى تعتمد مفاهيم جديدة لمعالجة وحل المسائل ، مثل لغة Prolog و LISP ، بدلا من لغات البرمجة التقليدية . أما في المجالات التعليمية ومع انتشار المايكروكومبيوتر بين الطلاب والشباب فقد تطورت لغات برمجة مثل (Basic) و (LOGO) لتسهل على هؤلاء تعلم البرمجة بشكل مبسط .

٦ ـ لمحة سريعة عن مراحل دخول الكومبيوتر في البلدان العربية

لم تصاحب دخول الكومبيوتر بعض البلدان العربية مع بداية الستينيات أية مفاجئات أو انجازات مدهشة ، حاله في ذلك حال العديد من الوسائل التقنية التي دخلت مجتمعات نامية مشابهة [٢] . والحاجة لادخال الكومبيوتر في معظم هذه البلدان جاءت في كثير من الحالات نتيجة معاناة واخفاقات في التنظيمات الادارية وأساليب العمل أكثر مما كانت بسبب التطور الطبيعي والاقتصادي للحاجة والتفاعل مع الطلب .

وقد كانت دول المغرب العربي ، وبالأخص الجزائر وليبيا ، من الدول التي دخلها الكومبيوتر من خلال شركات البترول ، وكذلك بعض دول المشرق العربي مثل العراق والمملكة العربية السعودية والكويت . وفيما عدا ذلك ، فقد كانت البنوك الأجنبية والمحلية ، وبالأخص في لبنان ، من أول القطاعات التي اعتمدت الكومبيوتر في أعمالها . أما في الدول العربية الأخرى مثل مصر ، وبعد ذلك العراق ، فقد كان للقطاع الحكومي دوره الواسع في إدخال الكومبيوتر بسبب تضخم العمليات المركزية التي تقوم بها الدولة كالإحصاءات والفواتير والعمليات المالية عموما . وجاءت بعد ذلك حاجة بعض الجامعات والكليات العلمية الى الكومبيوتر ، فكانت الجامعة الأمريكية في بيروت من أولى الجامعات التي أنشأت مركزاً للكومبيوتر وكذلك جامعة القاهرة وكلية الهندسة في جامعة بغداد وكلية البترول والمعادن (الآن جامعة البترول والمعادن) في المملكة العربية السعودية .

وفي الستينات وبداية السبعينات كانت الدول تقارن بأعداد الكومبيوترات المنصوبة فيها كمعيار للتقدم في هذا المجال وكانت الدول العربية التي في المقدمة من ناحية العدد والاستخدام هي الجزائر والمملكة العربية السعودية والعراق ، تتبعها بعد ذلك مصر باتجاه مختلف نوعاً ما . أما الآن وبعد انتشار المايكروكومبيوتر وأحجام مختلفة من الأجهزة والوسائل فلا يمكن الركون إلى العدد كوسيلة لقياس مدى انتشار تقنية المعلومات أو تقييمها . فمعيار التقدم والمقارنة في تقنية المعلومات بين دولة وأخرى أصبح أكثر صعوبة من السابق ، أما من الناحية العملية فقد تكون درجة انتشار الاستفادة من التطبيقات الممكنة على هذه الأجهزة هي المعيار الأساسي الذي لا يمكن لمعيار غيره أن يفوقه في الأهمية . وبالرغم من وضوح المعيار إلا أن من الصعب قياسه بسهولة . وبدون شك ، لا يمكن الخلط ما بين استغلال الأجهزة (utilisation) وما بين فاعليتها (effectiveness) وخاصة بعد أن أحدث المايكروكومبيوتر ووسائل المكتب ثورة جديدة ضمن ثورة المعلومات نفسها ، بحيث لم يعد من الممكن لعدد ساعات تشغيل هذه الأجهزة أن يكون المعيار المناسب لدرجة الاستفادة .

لقد تخلفت عن ركب الثورة الصناعية معظم الدول النامية وجميع الدول العربية على وجه الخصوص . كما وقد سبق ركب ثورة الكومبيوتر الاولى هذه الدول أيضا . وبانتشار الثورة الجديدة (ثورة المايكروكومبيوتر) قد تكون لدى بعض هذه الدول فرصة جديدة أخرى للحاق إذا ما تفاعلت هذه الدول مع الثورة الجديدة بشكل مختلف . وهي ستتخلف عنها إذا ما عاملتها بالطريقة نفسها التي تعاملت بها مع الثورات التقنية السابقة . فلو أردنا تصنيف البلدان العربية من خلال درجة انتشار تقنية المعلومات فيها ، فقد لا نصل إلى نتائج كمية ومعبرة . إلا أن من المفيد الاشارة إلى أن الدول التي حققت بعض التقدم والتطور في هذا المجال هي تلك التي أتاحت لإخصائييها ومواطنيها التعامل مع وسائل هذه التقنية بحرية تامة ووفرت لهم المستلزمات الضرورية لتطوير هذه الوسائل وتكييفها للحاجات المحلية . فالوحدات الصغيرة لمعالجة البيانات المتمثلة بالمايكروكومبيوتر ستتيح للفرد التعامل مع التطبيقات والاستخدامات الصغيرة التي تخدم تطوره ورغباته وتوفر له وسيلة اقتصادية رخيصة للاقتناء وتحدياً للخلق والابتكار . إن مثل هذه الوسائل لم تكن ممكنة عندما كان الكومبيوتر كبيراً ومكلفاً . ولا يمكن للانتشار والابداع والابتكار أن يتحقق إلا عندما تكون القيود على اقتناء وسائل تقنية المعلومات كالمايكروكومبيوتر وبرمجياته وملحقاته واستخداماته متاحة للجميع .

٧ ـ التطبيقات السائدة في البلدان العربية

إن غالبية التطبيقات السائدة في البلدان العربية تندرج ضمن أحد الأصناف الآتية :

أ ـ التطبيقات الحسابية والإدارية : وهي تكوّن النسبة العظمى للتطبيقات التي دخلت الأقطار العربية من مدخل توفير الجهد البشري الحسابي والإداري وتشتمل على تطبيقات احتساب الأجور والحسابات المالية وحسابات المخازن واعداد الفواتير بمختلف أنواعها . وقد وفرت هذه التطبيقات بعض الكوادر إلا أن الوفر المتحقق في هذا المجال عموما لم يكن بالمستوى الذي كان يتطلع إليه المستفيدون . وفي الكثير من الحالات خلقت التطبيقات الجديدة مشاكل جديدة أضافت عبئاً جديداً إلى المشاكل القديمة لضعف التفاعل ما بين الجهات المستفيدة والأنظمة الجديدة ، وذلك لأسباب عديدة أهمها قلة اهتمام المستفيد بالأنظمة المكبترة وما تتطلبه من دقة في التعامل لم يتعود عليها سابقاً ، فضلاً عن سوء تصميم هذه الأنظمة أساساً من قبل إخصائيين حديثي الخبرة .

ب ـ التطبيقات الاحصائية : وهي تلك التطبيقات التي اعتمدتها الأجهزة المركزية للإحصاء في الدول وعوضها الكومبيوتر فيها عن الوقت المستغرق لجدولة النتائج الاحصائية ، فاستعملت الكومبيوتر كبديل لأجهزة الطباعة السريعة . ولم تتطور في مثل هذه المؤسسات . إلا في حالات محدودة جدا ، القابليات على تحليل البيانات والتنبؤات واعداد المؤشرات والاتجاهات التي هي من الأهداف الأساسية للأنظمة الاحصائية .

جـ ـ التطبيقات التجميعية والرقابية : وهي التطبيقات التي استخدمتها المؤسسات الفوقية لمتابعة مشاريعها أو أداء دوائرها التفصيلي ، وهي في العديد من الدول متخلفة زمنياً عن حالات اتخاذ القرار بحيث تتحول معلومات القرار إلى معلومات تاريخية ساكنة حتى قبل إدخالها إلى الكومبيوتر .

ولقد قام العديد من الدول والحكومات بتطبيق أنظمة رقابية للمعلومات التي تخص الوافدين والمواطنين من خلال أنظمة السفر والأحوال المدنية والضمان والتقاعد وغيرها . وفي مثل هذه الدول ترصد لمثل هذه المنظومات مبالغ ضخمة لارتباط مثل هذه التطبيقات بأهداف أمنية سواء كانت سياسية أم اجتماعية . وفي غياب التشريعات التي تحمي الأفراد من سوء استخدام المعلومات والبيانات المجمعة عنها ، أسوة بما هو موجود في بعض الدول المتقدمة ، تشكل مثل هذه التطبيقات انتهاكاً لحرية الأفراد مما يجعل الاهتمام بوضع التشريعات الملائمة لحماية الفرد (رغم جهله حاليا بخطورة الأمر وعجزه عن اتخاذ موقف مضاد) من مثل هذه الحالات أمراً ضرورياً لابد منه .

د ـ التطبيقات العلمية والتعليمية : وهي محدودة جداً ومحصورة في بعض المؤسسات العلمية والجامعات ، وهي ليست بالنسبة التي هي عليها في الدول المتقدمة . من بين الأسباب التي أدّت إلى محدودية مثل هذه التطبيقات مسألة العرض والطلب للبحث العلمي وتخلف الأساليب التعليمية والبحثية

في مثل هذه المؤسسات ، إذ يعير العديد من الجامعات في الوطن العربي أهمية أكبر للتطبيقات الادارية والحسابية مما يعيره لإتاحة الكومبيوتر للطالب . والمطلع على مفردات المناهج التعليمية في الجامعات العربية يدرك مدى تخلف هذه المفردات عن مستجدات التقنية والنسبة القليلة غير المقبولة من الساعات المخصصة للحصص العملية . أضف إلى ذلك انخفاض مستوى الكادر التدريسي . وهناك بعض التطبيقات العلمية المرتبطة ببعض الصناعات البترولية في المنطقة ومعظمها من التطبيقات الجاهزة التي تشترى من الدول المتقدمة . وفي كثير من الحالات يقتصر دور الكادر المحلي على التشغيل أو المتابعة أو الإشراف . كما أدخلت بعض المكاتب الهندسية في بعض الدول العربية في السنين القليلة الماضية بعض البرامج الجاهزة في مجال التصاميم الهندسية بواسطة الكومبيوتر (computer-aided engineering) . وهي خطوة إيجابية لا تخلو من تحديات للنهوض بواقع المهندس في البلدان العربية الى المستوى العالمي المقبول ، إلا أن مدى انتشار مثل هذه التطبيقات مازال محدوداً في معظم البلدان العربية وذلك لقلة المشاريع التي تصمم وتنفذ من قبل الشركات والمؤسسات المحلية .

٨ ـ شبكات المعلومات وشبكات الاتصالات

تعتبر المكتبة التقليدية في المجتمعات عموماً المصدر الواضح للمعلومات عند التكلم عن البحوث والدراسات . فمنها يستقي الباحث أو الدارس أو العالم مصادره ليبني عليها بحوثاً ودراسات جديدة تصب في النهاية في المكتبة التي استقى منها مصادره . وتعتبر هذه الدورة الحياتية المغلقة للمعلومات أساسا لتراكم العلم والتكنولوجيا في العالم . وبما أنه من الصعب تخيل مكتبة واحدة مهما كانت كبيرة تحتوي على كافة المصادر التي يحتاجها الباحث ، بات من الواقعي تعاون عدد من المكتبات في تبادل المصادر . ونشأت من جراء ذلك شبكات لتبادل المعلومات ما بين المكتبات ، تهدف بالأساس لتسهيل عملية البحث عن المصادر للباحثين . وقد تكون الجامعات أول من فكر في تبادل المصادر وذلك لحاجة طلاب الدراسات العليا عموما لمعرفة ما يقوم به زملاؤ هم أو الذين سبقوهم في جامعات أخرى من بحوث مقاربة لبحوثهم . وهكذا نشأت الحاجة لدى المكتبات الجامعية والمؤسسات المشابهة لتبادل الفهارس والمستخلصات بالشكل الورقي التقليدي ، ابتداء ، وبعد ذلك باستعمال رقائق وأفلام المصورات الدقيقة (micrographics) .

ومع تطور الكومبيوتر واستخدام أنظمة المعلومات تم وضع العديد من فهارس المكتبات الضخمة في البلدان المتقدمة ضمن قواعد للبيانات سهلت على الباحث الحصول على المعلومات من خلال المطاريف ، باستخدام الكلمات الدليلية ، من المصادر التي يحتاجها ضمن خطوات متسلسلة من البحث المنطقي الذي يضيّق بشكل تدريجي مساحة المصادر الخاضعة للكلمات الدليلية ليصل في النهاية إلى المصادر المحددة التي تفي بمتطلبات العلاقات المترابطة لهذه الكلمات الدليلية أو الواصفات (descriptors) .

وظهرت من جراء تطور قواعد البيانات هذه مراكز للمعلومات تعنى بتوفير العديد من الملفات في موضوعات مختلفة ، ومن مصادر مختلفة ، مبوبة على شكل تسجيلات وكلمات دليلية . ويتم البحث في هذه الملفات باستعمال لغة استفسار مبسطة بوساطة غير المتخصصين لتحديد المصادر المطلوبة في موضوع أو موضوعات محددة . وأشهر هذه المراكز

مركز ديالوج في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية الذي تحتوي قاعدة بياناته على أكثر من ٢٠٠ ملف في مختلف فروع المعرفة . وهذه القاعدة محملة على منظومة كومبيوتر تعتبر من أضخم الكومبيوترات في العالم مرتبط بها آلاف المطاريف منتشرة في مختلف قارات العالم . ومثال آخر لمركز معلومات مشهور هو مركز أوربت في كاليفورنيا أيضا ، وهو مشابه في تخصصاته لمركز ديالوج آنف الذكر . تطلبت الحاجة إلى تبادل المعلومات ما بين المكتبات ومراكز المعلومات قبل اختراع الكومبيوتر إلى وسيلة لتناقل المعلومات والوثائق ما بين هذه المراكز . واستخدمت وسائل الاتصالات حسب ظهورها وتطورها . فاستخدم البريد التقليدي ، ومازال مستخدما لحد الآن ، وكذلك التلكس والهاتف ، وبعدئذ الرقائق المصغرة والتصوير البرقي (الفاكسملي) والكومبيوتر . ومن المتوقع استخدام وسائل أخرى مستقبلا كالقرص الليزري وغير ذلك من وسائل الاتصال التي مازالت قيد التطوير . ويطلق على خيوط الارتباط هذه ما بين مراكز المعلومات اسم شبكة المعلومات . فلا علاقة إذن ما بين شبكة المعلومات واختراع الكومبيوتر . إذ أن شبكات المعلومات كانت قائمة في المجتمعات المتقدمة قبل ظهور الكومبيوتر . وما حصل بعد ظهوره هو أن الكومبيوتر أضيف إلى قائمة الوسائل التي بوساطتها يمكن تبادل المعلومات بشكل أفضل من السابق ويحتاج هذا التبادل إلى شبكة للاتصالات تتيح استخدام خطوط الترابط لتناقل أو تراسل البيانات ما بين نقطة وأخرى . ويوجد العديد من شبكات الاتصال التي تعتمد ، وحسب ظهورها التأريخي في البلد المعني ، إمّا على استخدام شبكة الهاتف العمومية أو استخدام شبكة خاصة كما هو الحال في معظم بلدان العالم المتقدم التي بدأت استخدامها للشبكات في الستينات والسبعينات أو باستخدام ما يطلق عليه الخدمة المتكاملة للاتصال (ISDN) حيث توفر الشبكات الحديثة هذه إمكانية استخدام شبكة موحدة لتراسل الصوت والبيانات في آن واحد وبكفاءة عالية . يمكن القول إذن ان شبكة المعلومات تمثل الترابط الوظيفي التطبيقي ما بين مراكز المعلومات . أما شبكة الاتصالات فتمثل الترابط المادي الهندسي ما بين نقاط الشبكة . وقد ظهرت مع نهاية السبعينات لدى بعض الدول العربية والمنظمات الاقليمية دعوات باتجاهات مختلفة لإنشاء شبكة عربية للمعلومات . ومعظم هذه الدعوات (وليس جميعها) كانت ومازالت تذكرني بالرجل الذي يمتلك « حلا يفتش من خلاله عن مشكلة مناسبة » . إذ ما جدوى الكلام عن شبكة اتصالات عندما لا نجد حاجة واضحة أو طلباً واضحاً لتبادل المعلومات ؟ إن الحاجة للشبكة يجب أن تتطور من خلال الطلب الفعلي لتبادل المعلومات ما بين مراكز المعلومات . ويبني الطلب على أحجام محسوبة اقتصاديا لتبادل المعلومات تبرر الاستثمارات الضخمة المتوقعة لإنشاء مثل هذه الشبكات . ولكننا نجد في معظم البلدان العربية أن تبادل المعلومات ما بين المراكز الوطنية والجامعات هو أقل بكثير من الحد الأدنى المعقول . فلا نجد تبادلاً للفهارس ما بين المكتبات المتجاورة التي لا تبعد الواحدة عن الأخرى سوى بضعة كيلو مترات ، ولا نجد الزخم المعقول لطلب المعلومات ، ولا الترويج الكافي لخدمات المعلومات بالشكل الذي نراه في الدول المتقدمة . وبالرغم من كل هذا نرى حماسا غريبا لدى العديد من المسؤولين في البلدان العربية ، وبعض المنظمات ، لإنشاء شبكة اتصالات قبل أن يحاولوا إقامة شبكات للمعلومات تستخدم الوسائل الحالية للاتصال وهي كافية لأحجام البيانات المتبادلة . ولم أعثر لحد الآن على دراسة لتحديد أحجام البيانات التي يمكن تداولها ما بين البلدان العربية تبرر استعمال شبكة متخصصة لتراسل البيانات .

وما هي طبيعة المعلومات التي ستجري في عروق هذه الشبكة بعد إنشائها ؟ وهل هناك تبادل أفقي للمعلومات ما بين البلدان العربية أم أن الحاجة إلى تبادل المعلومات هي ما بين البلدان المتقدمة والبلدان العربية ؟ أليس الأجدر بنا

تشجيع تبادل المعلومات ما بين المراكز العربية باستخدام الوسائل التقليدية قبل التورط في شبكة لن تستغل ، أسوة بمشروع عرب سات الذي حصلنا من خلاله على تبادل برامج تلفزيونية نقتل فيها ساعات طويلة مملة ؟ إذن لا يمكن الكلام عن الشبكات دون الكلام عن الحاجة والجدوى . ومهما يتداول عن الترويج من خلال انشاء الشبكة أولاً ثم تصعيد الاستخدام بعد ذلك فإن هذا الأسلوب غير مجدٍ أو مبرر .

٩ ـ اللغة العربية والكومبيوتر

لا شك أن شعبية أي تقنية مرتبطة بخصوصيات المجتمع الذي تنتشر فيه وتقنية المعلومات أكثر من غيرها من التقنيات الأخرى مرتبطة بشكل عضوي باللغة السائدة في المجتمع . ذلك لأن مدخلات ومخرجات هذه التقنية هي المعلومات ، والمعلومات المتداولة في مجتمع ما يجب أن تكون بلغة المجتمع نفسه . وقد يبدو للقارىء غير المتخصص أن البلدان العربية تملك من القدرة الاقتصادية والسكانية ما يجعلها متمكنة من فرض احتياجاتها على مصنعي الأجهزة والبرمجيات ، إلا أن هذا لم يكن صحيحا في الماضي ومايزال كذلك حتى الآن إلى حد كبير بالرغم من حصول تطورات إيجابية في هذا الجانب .

وعند الكلام عن اللغة العربية والكومبيوتر لا نقصد بذلك المصطلحات وتوحيدها فقد عالجنا ذلك في قسم سابق من هذه الدراسة بل نقصد به الجوانب الآتية :

أ ـ المدخلات والمخرجات .
ب ـ المعالجة اللغوية للنصوص العربية .
جـ ـ الوسائل والأدوات التشغيلية .

ففيما يخص المدخلات والمخرجات لم تستطع الدول العربية منذ الستينيات ولحد الآن اعتماد شفرة موحدة للحروف والرموز العربية بالرغم من أن الشفرة ليست هدفاً بذاتها بل وسيلة للانطلاق نحو مجالات مهمة تكون اللغة العربية مستلزماً أساسياً للتعامل مع الكومبيوتر .

من ضمن المعوقات التي حالت دون الوصول إلى الشفرة العربية الموحدة الخلط ما بين طريقة الكتابة وما بين اللغة ، والتشبث ببعض الخصائص الثانوية للغة واعتبارها خصائص أساسية . كذلك الاهتمام بأشكال الحروف وتغيرها من موقع إلى آخر دون الاهتمام بالمحتوى اللغوي للنص . وبالرغم من أنني من دعاة تطويع التقنيات لتتماشى مع اللغة إلا أن الإيمان المطلق بهذا الشعار دون القبول بالتفاعل ما بين اللغة والتقنية قد يكون مكلفاً من الناحيتين الحضارية والاقتصادية . إن التقيد بأشكال للحروف وفرضها بشكل تعجيزي ، والخلط ما بين فن الزخرفة والخط ، وما بين هدف اللغة الأساسي كوسيلة للاتصال والتفاهم ونشر المعرفة قد أدى إلى غموض الأولويات .

ويسبب التأخر في وضع القياس الموحد للحروف العربية وحركاتها ، تأخر من جراء ذلك العديد من البحوث والدراسات والتطبيقات ذات العلاقة باللغة ، ومن ضمنها التطبيقات الخاصة بالألسنيات وتوثيق المعلومات

واسترجاعها ، إذ أن البحث عن المعلومات باللغة العربية من خلال الكلمات الدليلية أو التقارب الصوتي مايزال متخلفا إذا ما قورن بما وصلت اليه مثل هذه التطبيقات في اللغات الحية الأخرى .

ويمكن في هذا السياق إثارة بعض الجوانب التي تهم معالجة اللغة العربية والتي مازالت تثير الجدل منذ سنين غير قليلة(9).

أ ـ الحد الأدنى من الرموز التي تمثل اللغة العربية . هناك خلط ما بين اللغة والكتابة ، وما بين الكتابة والخط وما بين الكتابة والطباعة . وهذا الخلط أدى إلى تأخير الاتفاق على شفرة عربية موحدة . فاللغة هي الأساس ، والكتابة تعبير يدوي عنها ، والخط هو تحويل هذا التعبير إلى فن ، والطباعة هي الاستفادة من الآلية في ترويج الفكر المعبر عنه في اللغة . ومعالجة اللغة ودراسة جوانبها غير محكوم بشكل الحرف أو خطه . وعلماء اللغة يدعون دائما إلى تبسيط الكتابة لتحقيق الهدف الأساس وهو نشر النتاج الفكري العربي والإسلامي في أوسع رقعة جغرافية واجتماعية ممكنة .

والدراسات التي ظهرت خلال السنين الماضية تشير إلى أن الحد الأدنى لتمثيل النصوص العربية غير المشكولة (أي غير المحركة) يتحقق باستخدام ٣١ رمزاً هي الحروف الهجائية الثمانية والعشرون إضافة إلى الهمزة والتاء المربوطة والألف المقصورة وقد تعود العرب (صواباً أو خطأً) قراءة النصوص غير المشكولة إلا أنهم لم يتعودوا ولم يعودوا أنفسهم على قراءة الحروف العربية عند طباعتها بشكل واحد . والحركات ضرورية جداً لفهم معنى النص العربي وإهمالها يحد من انتشار اللغة وتعلمها بالشكل الصحيح وستستمر الأجيال تلو الأجيال في هبوط مستمر في مستوى اتقانها للغة العربية . وأحد أسباب هذا الهبوط هو إهمال التشكيل .

ولغرض تمثيل النصوص العربية المشكولة نحتاج إلى حد أدنى من الرموز يمكن من خلالها توليد الحركات الأخرى المطلوبة . والحد الأدنى يتمثل بالفتحة والضمة والكسرة والمدة والشدة والسكون . ويمكن مثلا توليد التنوين في معالجة النصوص من خلال فتحتين أو ضمتين أو كسرتين متعاقبتين تظهران عند الطباعة أو العرض بالشكل المألوف .

ب ـ تغيير شكل الحرف في الكلمة بتغير موقعه فيها . يصر العديد أن هذه الخاصية هي من الخصائص الأساسية للغة العربية إلا أنني أعتقد غير ذلك . فتغيير شكل الحرف من موقع إلى آخر مرتبط بالكتابة اليدوية وسريانها والمعروف أن كتابة اللاتينية وتغيير أشكال الحروف من موقع إلى آخر تتبع الاسلوب نفسه إلا أن الشعوب الأوربية عندما مكننت الطباعة حاولت استخدام الحرف المعياري الذي لا يختلف شكله من موقع إلى آخر وبذلك اختصرت الجهود وبسطت صناعة الطباعة إلى الحد الذي خدمت فيه نشر لغاتها في العالم بأسره .

وبسبب تطور تقنية الألكترونيات أصبحت معالجة الرموز وتغييرها ضمن خوارزميات أو برامج بسيطة نسبياً أمراً سهلاً وفي متناول مصنعي هذه الأجهزة . ولذلك ظهرت الأجهزة التي تتعامل مع ما

يسمى بخوارزمية « تحليل السياق » (context analysis) وهو برنامج يصمم ضمن أجهـزة الادخال والاخراج يمكّن المستخدم من إدخال شكل واحد للحرف ويقوم البرنامج الداخلي لجهاز الإدخال بتحويله آلياً إلى شكله الموقعي قبل عرضه أو طبعه على وحدة الطبع . في هذه الحالة استخدمت الوسائل التقنية المستجدة لإبقاء حال الطباعة العربية مشابهة للكتابة اليدوية . هل ياترى أحسن برنامج تحليل السياق إلى اللغة العربية أم أساء إليها ؟

جـ ـ هل يمكن للنصوص العربية غير المشكولة أن تشكّل بشكل آلي أو شبه آلي ؟ من الدراسات التي آمل أن أراها قريبا معالجة النصوص غير المشكولة أو النصوص المشكولة جزئياً وتحويلها إلى نصوص مشكولة . قد يكون تحقيق ذلك صعباً إلا أن تشجيع البحث في هذا المجال مطلوب وضروري . ولأن التشكيل مرتبط بالمعنى فالخوارزميات المطلوب تصميمها لمعالجة ذلك قد تكون معقدة والنجاحات الجزئية في هذا الاتجاه مفيدة جداً لتفهم تراكيب الجمل في اللغة العربية ومعالجتها آلياً .

د ـ هل تكتب الأعداد العربية من اليمين إلى اليسار أم من اليسار إلى اليمين ؟ ويجيب معـظم العرب على هذا السؤال بعجالة فيقولون تكتب الأعداد من اليسار إلى اليمين وهي إجابة نظلم بها اللغة العربية والعرب الأوائل الذين نشروا استعمال الأرقام العربية في العالم . والسبب في ذهاب العديد من الناس إلى الاعتقاد أن الأعداد تكتب من اليسار إلى اليمين هو تعود العرب خلال هذا القرن على نطق معظم الأعداد من اليسار إلى اليمين خلافاً للأسلوب الذي كان شائعاً بين العرب في القرون السابقة . ونطق الأعداد من اليسار إلى اليمين لا يتم بشكل مطلق من قبل المتكلم بالعربية هذه الأيام فنقول خمسة عشر ونكتبها من اليمين إلى اليسار ونقول تسعة وتسعين ونكتبها باتجاه نطقها ، لكننا نقول مائة وخمسة وعشرين ونكتبها عندما لا نفكر بها بتسلسل نطقها نفسه أي نكتب الواحد ثم الخمسة ثم الاثنين وكذلك الحال في ألف وتسعمائة وسبع وثمانين ١٩٨٧ .

هل نقبل بهذا الواقع ونستنتج أن الأعداد تكتب من اليسار إلى اليمين ؟ فهي ليست كذلك ولماذا لا نعود إلى الطريقة المنطقية في نطق الأرقام من اليمين إلى اليسار باتجاه النص العربي نفسه ؟ فنقول سبعاً وثمانين وتسعمائة وألف .

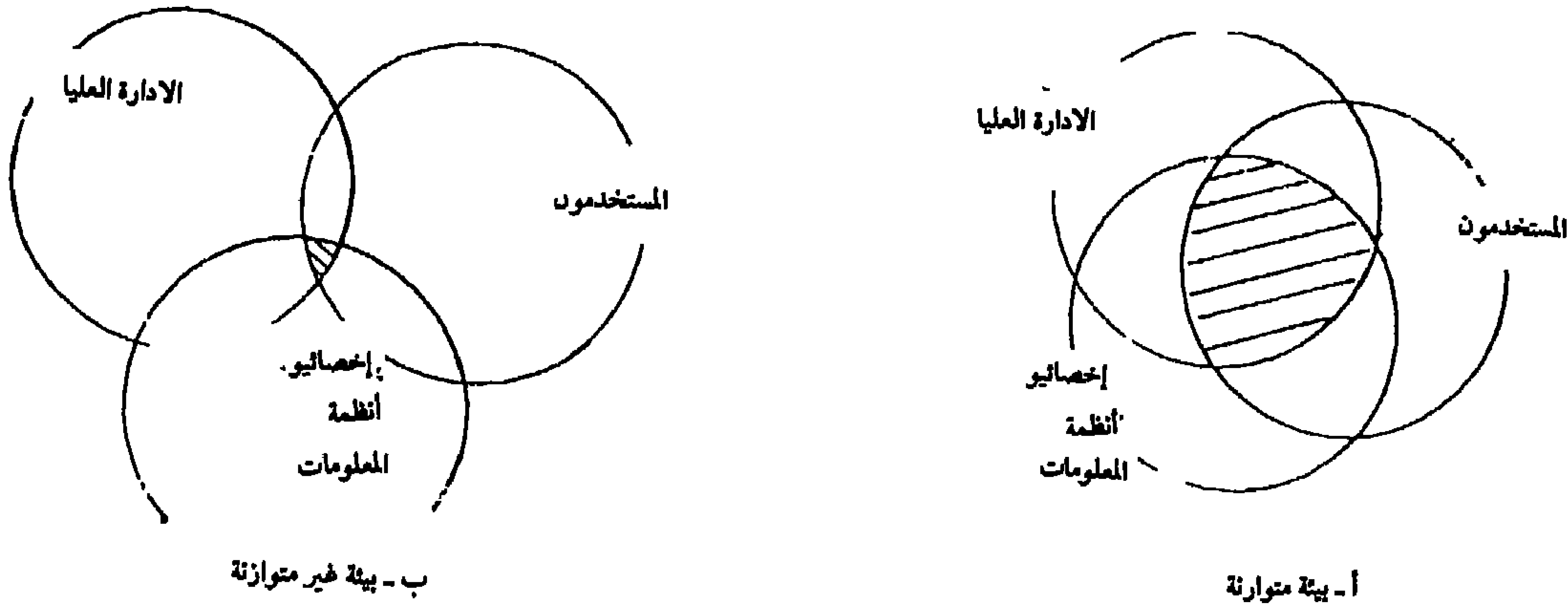
وللأسف فالشركات المصنعة لأجهزة الكومبيوتر والاتصالات شجعت العرب على تفضيل كتابة الأرقام من اليسار إلى اليمين لتسهيل معالجتها من قبل الأجهزة وشبكات الاتصال ولغـات البرمجـة . وبالرغم من أن ذلك سهّل الحل على الشركات إلا أنه أساء إلى منطقية اللغة العربية . فأصل نظام الأعداد والحساب عربي . وعندما نقل الاوربيون الحساب عن العرب نقلوا الأرقام والعمليات الحسابية أيضا . فالأوربيون يجمعون ويطرحون ويضربون من اليمين إلى اليسار والكومبيوتر عند معالجته النصوص اللاتينية يعالج الحروف من اليسار إلى اليمين ويعالج الأرقام من اليمين إلى اليسار . وكنت في يوم ما أفخر بأن من أهم ميزات لغتنا العربية أن اتجاه الحروف والأرقام فيها واحد على خلاف اللغات اللاتينية .

ومن بين الجوانب الأساسية المرتبطة باللغة العربية والكومبيوتر موضوع الوسائل والأدوات التشغيلية . وتقع ضمن هذا الجانب الوسائل التعليمية وبرمجيات التشغيل ولغات البرمجة . فمازالت المواد التعليمية المتوفرة باللغة العربية بشقيها الأكاديمي والعملي شحيحة وبالرغم من حدوث زيادة ملحوظة فيها خلال السنوات القليلة الماضية بسبب ثورة المايكروكومبيوتر والجهود المبذولة في توفير مثل هذه الوسائل التعليمية باللغة العربية . إلا أنها مازالت دون النسبة المقبولة . قد لا تكون اللغة العربية كأداة عملية مهمة للمحترفين والمهنيين ، إلا أن أهميتها بالنسبة للمراحل التعليمية أمر يجب ألا يستهان به . فعلى سبيل المثال لا أرى ضرورة لوجود لغات عربية على نمط كوبول وفورتران لبرمجة النظم الإدارية والعلمية في الوقت الحاضر ، بينما أرى في الوقت نفسه أن وجود لغات عربية على نمط « بيسك » أو « باسكال » أو « لوكو » لتعليم الطلاب في البلدان العربية لحل المسائل بوساطة الكومبيوتر وتفهم هياكلها أمر في غاية الضرورة . إن وجود لغات عربية للبرمجة ليس هدفاً بذاته بل إن تنمية القابلية على التحليل الوصفي الخوارزمي للمسائل وضرورة توجيه الشباب لإتقان أسس تحليل المسألة بلغتهم الأم هو الهدف ، فالتحول بعد إتقان المفاهيم الأساسية لحل المسائل إلى لغة أجنبية ليس أمراً صعباً .

١٠ ـ ارتباط تقنية المعلومات بالاستيعاب الحضاري للمجتمعات

لا توجد تقنية أخرى ، فيما عدا الكتابة ، مرتبطة بحضارة المجتمعات مثل تقنية المعلومات . والتعثر الذي يصادف ادخال تقنية المعلومات في مجتمع ما أصعب معالجة من تقنيات أخرى لا تعتمد على المعلومات . من الواضح من التسمية أن هذه التقنية لها علاقة بالمعلومات المتداولة في مجتمع ما فهي مرتبطة بلغته وعاداته وسلوكيات أفراده ولها علاقة بالنظام السياسي والاجتماعي والديني الذي يخضع له . وقد يكون من السذاجة بمكان محاولة المقارنة ما بين النجاحات التي تحققت في بعض البلدان المتقدمة وبلدان أخرى نامية أو فيما بينها . ومن الأمثلة على فشل بعض الأساليب الناجحة في بعض البلدان الغربية المتقدمة عند تطبيقها في بلدان متقدمة أخرى ما عاناه الاتحاد السوفيتي عندما حاول تطبيق أنظمة إدارة الانتاج الصناعي على منشآته باستعمال مفاهيم البرامج الجاهزة في الدول الغربية ، فاصطدم بالأهداف الأساسية التي وضعتها الادارات العليا في المنشآت وهي أهداف تبني تقييم أداء هذه المنشآت على مفاهيم الدولة الاشتراكية المركزية التي هي مغايرة إلى حد كبير للأهداف التي تحاول أنظمة إدارة الانتاج بوساطة الكومبيوتر تحقيقها من خلال تعظيم المرونة وتقليص الكلف[٦] . وفي العديد من البلدان النامية يمكن التمييز بين فئات ثلاث من المتعاملين مع أنظمة المعلومات ـ الفئة الأولى وهي فئة الادارات العليا المتحمسة في المراحل الأولى إلى إدخال الوسائل الحديثة في مؤسساتها ، والفئة الثانية هي فئة المتخصصين المتحمسين للدخول في المتاهات الداخلية التفصيلية للمنظومات المعقدة التي يتعاملون معها ويحاولون برمجتها وإدارتها ، والفئة الثالثة فئة المستخدمين . ومساحة الالتقاء ما بين الفئات الثلاث تختلف باختلاف النضوج السلوكي لهم جميعا . وهذا النضوج مرتبط بدوره بمدى عمق التوازن والتلاحم ما بين مصالح هذه الفئات في ادخال تقنية المعلومات في اعمالها . يبين الشكل (٥) حالتين الأولى .

(أ) لحالة البيئة المتوازنة التي يكون فيها تقاطع الأهداف ما بين الفئات الثلاث على أعظمه ، والبيئة الثانية .
(ب) حيث يكون التقاطع على أصغره أو لا يوجد تقاطع على الاطلاق .



الشكل (٥) تقاطع الفئات الثلاث

ينتج من تباين الأهداف ما بين الفئات تصميم أنظمة شكلية لا تحقق درجة مقبولة من الفاعلية . والسبب في ذلك في معظم الحالات يعود إلى تباين الأهداف . وأكثر أنظمة المعلومات نجاحاً في البلدان العربيـة هي تلك المرتبطة مدخلاتها ابتداءً بشكل واضح بمخرجاتها . من هذه الأنظمة أنظمة الأجور وأنظمة الحسابات المالية ، فهي في معظم المؤسسات أنظمة ناجحة لارتباط مخرجاتها بمستفيدين لا يقبلون بأخطاء ترتكب في حقهم (قسيمة الأجور) ، وكذلك الحال بالنسبة لفواتير الكهرباء والماء والخدمات الأخرى والحسابات الختامية ، إذ أن التغذية العكسية الآنية التي تحصل من جراء الخطأ الذي يصيب المخرجات تؤدي إلى إحكام تصميم مثل هذه الأنظمة أكثر من غيرها . واذا حاولنا أن نتحقق من صحة الاحصائيات المتراكمة والاتجاهات والسلاسل الزمنية والمعدلات في هذه الأنظمة نفسها فسنرى درجة الأخطاء المتراكمة ، لقصور وبساطة متطلبات المستخدمين لهذه الأنظمة عن تقديم لمثل هذه المعلومات التحليلية .

وأكثر الأنظمة فشلاً في معظم البلدان النامية هي تلك التي لها علاقة بوفورات اقتصادية غير آنية أو غير واضحة . ففي احصائية حصلنا عليها مؤخراً لتطبيق نظام إدارة المخازن في عدد من المنشآت الصناعية ، وجد أن أكثر من ٩٠٪ من هذه المنشآت لا يحدد في تسجيله المواد المخزنية الحدود القيدية للمواد (الأعلى والأدنى وإعادة الطلب) ولا يعيد النظر فيها بشكل يوفر الاستثمار السليم في شراء المواد المخزنية . وكذلك الحال بالنسبة لنظم أخرى يمكن أن تحقق مردودات اقتصادية عالية مثل نظم إدارة الصيانة ونظم إدارة الانتاج والنظم الإحصائية والتوثيقية .

ويمكن القول إن معظم أنظمة المعلومات التي حققت نجاحاً في التطبيق على الكومبيوتر في البلدان النامية هي تلك الأنظمة التي ليس لحوسبتها جدوى اقتصادية أو تنموية طموحة والتي لم تكن تعاني أساساً من مشاكل اقتصادية أو تنظيمية تذكر قبل الحوسبة . أما الأنظمة التي يمكن لها أن تحقق مردودات اقتصادية واجتماعية عالية عند الحوسبة فهي تلك الأنظمة المتعثرة بوضعها اليدوي والتي تترك ضمن الأسبقيات إلى أسفل السلم ، ففي معظم الحالات يستمر التعثر بعد الحوسبة . إن عدم الاهتمام بمثل هذه الأنظمة ومستلزماتها ظاهرة سلوكية في المجتمعات النامية لا يمكن تغييرها بسهولة حتى بعد الحوسبة ما لم تعالج النواحي السلوكية للأفراد .

إن سلوكيات الأفراد في الوحدات الإنتاجية في مثل هذه البلدان مرتبطة بالاستيعاب الحضاري لأنشطة هـذه الوحدات ، فهل تمت هذه الأنشطة ضمن المجتمع بشكل متوازن ؟ أم فرضت عليه من خلال خطط تنموية غير مرتبطة بواقع الفرد الاجتماعي والاقتصادي ؟

١١ ـ السياسات المركزية والسياسات اللامركزية في تقنية المعلومات :

اختلفت اتجاهات الدول العربية في شأن تقنية المعلومات خلال العقدين الماضيين ، فبعض الـدول التي تتبع التخطيط المركزي لجأت إلى تكوين هياكل فوقية مرتبطة بأعلى المستويات لوضع الاستراتيجيات اللازمة والتخطيط لنشر التقنية في مختلف مرافق الدولة . وفي حالات كثيرة ، حاولت الدخول في التفاصيل التنفيذية لمشاريع تقنية المعلومات . وحاولت دول أخرى ترك التطور للصدف والتفاعل من خلال المشاريع الخاصة مع الدول المتقدمة ومؤسساتها . وهناك عدد قليل من الدول العربية حاولت اتباع طريق وسط ما بين الاتجاهين .

وبالرغم من الفوائد الظاهرية للأسلوب المركزي في التعامل مع تقنية المعلومات والتشجيع الذي حظي به هذا الاتجاه من بعض المنظمات الدولية والأقليمية ، إلا أن هذا الاتجاه لم يستطع أن يحقق أهدافاً تذكر لأسباب عـديدة أهمها : ـ

أ ـ تحول مثل هذه الهياكل إلى أنظمة بيروقراطية ثقيلة حالها في ذلك حال العديد من المؤسسات المركزية التي تملك القرار ولا تملك المصلحة .
ب ـ قلة الخبرة لدى الكوادر التي تعمل في مثل هذه الهياكل .
جـ ـ ضخامة المهمة المركزية الملقاة على عاتق مؤسسة واحدة إذ أن فشلها يؤدي إلى فشل الأنظمة الموكلة لها في كافة أجهزة الدولة .
د ـ اتجاه تقنية المعلومات في تطورها نحو نشر الأجهزة الصغيرة والمعالجة اللامركزية للمعلومات من خلال تطوير الميني والمايكروكومبيوتر مما جعل من الصعب ، بل من المستحيل ، على هذه الهياكل المركزية مواكبة احتياجات القطاعات المختلفة من معالجة البيانات .
هـ ـ دخول تقنية المعلومات مرحلة الشعبية في بعض الحالات مما جعل من الصعوبة على الهياكل المركزية التشبث بمسك الخيوط التي أصبحت أكثر عدداً مما تستوعبه الهياكل المركزية .

لقد اكتشفت الدول المتقدمة عيوب هذا الاتجاه في مراحل مبكرة واكتفت بإناطة دور التوجيه والاستشارة والترويج لمثل هذه الهياكل المركزية . وقد حاولت العديد من هذه الهياكل في بعض البلدان العربية تغيير ملامحها وسماتها لتأخذ دوراً مختلفاً ، إلا أن مثل هذا التغيير الاضطراري ينطوي بين خفاياه على حسرة على الماضي القريب . وتحاول مثل هذه الهياكل بين الحين والآخر العودة الى الأساليب المركزية للمراحل السابقة .

أما الدول التي سمحت لهذه التقنية أن تنمو حسب الظروف والحالات ، فعانت هي أيضاً من عجزها عن تطوير قواها العاملة الوطنية واعتمدت إلى حد كبير على العمالة الأجنبية الوافدة لمشاريعها ، واتجه النمو في الاستثمار في مجال

الحوسبة في كثير من الحالات لأسباب خارجة عن إرادة الحاجة الفعلية المحلية . وما أكثر المشاريع التي تتنافس عليها شركات أجنبية مع شركات أجنبية أخرى ، يكون الاستشاري والمنفذ فيها أجانب أيضاً ، بعيدين عن الواقع الفعلي للمستفيد والمتطلبات المحلية .

وعلينا تعلم الدروس من الدول التي سبقتنا سواء في الأخطاء أو المنجزات فلا نعيد اختراع العجلة كما يقول المثل .

وتساهم بعض المنظمات الدولية والأقليمية ، بقصد أو عن غير قصد ، في تشويش أفكار متخذي القرارات في الدول النامية (4) . ففي بعض الحالات يكون التحديد والتقييد والاجراءات الادارية في مراحل مبكرة من إدخال التقنية الى المجتمعات عاملاً حاسماً في تأخرها . وهذا ما حدث فعلاً في حالات عديدة حيث ان أدبيات وسياسات تقنية المعلومات المنشورة من قبل بعض الوكالات والمنظمات الدولية تدعو إلى مركزية العمل . وهذا ما يصفق له الكثير من موظفي أجهزة الدولة في الدول النامية كوسيلة لتكوين الهياكل الادارية المهيمنة . ومثل هذه المحددات ليست مرتبطة بنظام سياسي دون آخر بل هي ملازمة لحداثة الخبرة التي تتصف بها الدول النامية . فالملاحظ أن بإمكان الدول ذات التجارب الطويلة تصحيح المسار وتقبل النقد الذاتي . وهذا ما حصل فعلاً في العديد من الدول مثل فرنسا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا ، كما أن هذه الدول تقبل في الكثير من الأحيان بأهداف أكثر تواضعاً من الأهداف التي تحاول أن تضعها لنفسها بعض الدول النامية .

١٢ ـ الكومبيوتر وتنمية القوى البشرية :

صاحبت دخول الكومبيوتر في البلدان العربية في الستينيات ولحد الآن ظواهر خاصة بالمنطقة العربية إلى حد كبير ، قد لا يوجد لها مشابه في البلدان الأخرى .

أكثر الذين اتجهوا للعمل في مجال الكومبيوتر من الشباب العربي كانوا وما زالوا إلى حد كبير ، من الاختصاصات الهندسية والعلمية بالرغم من أن النسبة الكبرى من التطبيقات السائدة في المنطقة كانت وما زالت ، تطبيقات إدارية وتجارية . ويعود هذا الاستقطاب إلى أن خريجي الاختصاصات الهندسية والعلمية من الجامعات العربية هم أكثر الخريجين ممارسة لأمرين مهمين ، هما من مستلزمات العمل على الكومبيوتر . الأول : إتقانهم اللغة الانكليزية مقارنة بغيرهم من الخريجين ، والثاني : تعودهم على المنطق الرياضي التحليلي في تعاملهم مع الموضوعات التي درسوها في الجامعات . فالمراقب لحقل العمل في الكومبيوتر في معظم البلدان العربية ، في الستينات والسبعينات على وجه الخصوص ، يرى العديد من المهندسين وخريجي فروع الفيزياء والرياضيات.يعملون كمبرمجين لأنظمة حسابية وإدارية . والذي حظي منهم بفرص أفضل اتجه نحو برمجيات المنظومة واستطاع أن يدخل في تفاصيل برامج التشغيل واللغات البرمجية ، إلا أن عدد هؤلاء قليل . وقد اختلف هذا الاتجاه نسبياً في الثمانينات بعد ظهور المايكروكومبيوتر ولكنه لم يتغير كلياً . فالذي حصل هو أن عدداً من الجامعات العربية أصبحت تخرج أعداداً محدودة من أقسام علم الكومبيوتر الذي بدأ ينتشر بشكل ملحوظ في بعض البلدان العربية ، وإن كان لا يزال غائباً في البلدان العربية الأخرى .

نتج من جراء هذا الواقع أمران : -

الأول : الهدر الواضح في التخصصات التي يمتلكها خريجو الدراسات الهندسية والعلمية ، إذ لا تتاح لهم ممارسة الحد الأدنى مما تعلموه في الجامعات بعد التخرج .

الثاني : بُعد هذه التخصصات عن الخلفية الأكاديمية المطلوبة لتصميم التطبيقات الادارية والتجارية مما أدى إلى فقدان المستفيدين الثقة في التعامل مع الكومبيوتر لصعوبة التفاهم مع المبرمجين ومحللي الأنظمة .

وقد دفعت جميع الأطراف ثمناً باهظاً لهذه الحالة ، فالإدارات العليا لم تحقق الأهداف التي من أجلها أدخلت الكومبيوتر في مؤسساتها ، أو على الأقل لم تحققها في فترات زمنية معقولة أو اقتصادية . وعانت ادارات المستفيدين من فشل الأنظمة المحوسبة أو على الأقل من مقاومة منتسبي هذه الادارات لهذه الأنظمة الجديدة . وفوق هذا وذاك بقي العاملون في البرمجة والنظم متقوقعين في مراكز الكومبيوتر (الأبراج العاجية) يضعون اللوم على الجميع سوى أنفسهم ، فاللغة المشتركة بين كافة الأطراف مفقودة .

من الأمور التي يشكو منها حقل تقنية المعلومات في البلدان العربية ضعف الإحصائيات والأرقام التي يمكن مقارنتها ما بين بلد عربي وآخر من ناحية ، وما بينها وبين بلدان العالم الآخر . ويرجع سبب ذلك إلى غياب الجهة العربية المسؤولة بشكل واضح وهادف عن هذا الحقل المهم . وقد حاولنا الحصول على بعض المعلومات التقريبية عن بعض البلدان العربية وهي لا تشكل عينة وافية يمكن الاستنتاج على أساسها . فالجدول (١) يبين تراوح النسب المئوية المكونة لاختصاصات الكومبيوتر المختلفة في عدد من البلدان العربية(٦) .

	النسبة المئوية
مديرون	٣ - ٩
محلل أنظمة	٧ - ٩
مبرمجون	١٦ - ٢٩
مشغلون	١٤ - ١٨
مهندسون	٣ - ١٠
مدخلو بيانات	٣٣ - ٥٠

جدول (١) تراوح نسب اختصاصات الكومبيوتر في بعض البلدان العربية

وقد لا تكون هذه التراوحات مختلفة عن النسب العالمية في البلدان الأخرى ومن الصعوبة بمكان معرفة نوعية وكفاءة هذه المستويات مقارنة بالدول الأخرى ، إلا أن تعثر التطبيقات في البلدان العربية قد يقودنا إلى الاستنتاج بأن النوعية ليست بالمستوى المقبول .

أما أعداد العاملين الاجمالية التقريبية لبعض هذه البلدان فمبينة في الجدول (٢) الذي يبين أيضاً نسبة هؤلاء العاملين لكل مليون نسمة وكذلك نسبة المواطنين لغيرهم ، لبعض دول الخليج العربي (المملكة العربية السعودية والكويت) .

البلـــد	العاملون في الكومبيوتر (١٩٨٥)	نسبة المواطنين لغيرهم	عدد السكان (مليون)	عموم العاملين لكل مليون نسمة	العاملون المواطنون لكل مليون
السعودية	٢٠٠٠	٣١ ٪	٩	٢٢٢	٦٩
الكويت	١١٠٠	١٩ ٪	١,٨	٦١١	١١٦
العراق	٢٠٠٠	١٠٠٪	١٥	١٣٣	١٣٣
الأردن	١٥٠٠	٩٥ ٪	٣,٥	٤٢٩	٤٢٠
سوريـــا	٥٠	١٠٠٪	٩	٦	٦
	٦٦٥٠		٣٨,٣		

جدول (٢) نسب العاملين في الكمومبيوتر لبعض الدول العربية

ويكن الاستنتاج من الأرقام المبينة في الجدول (٢) ، وبكثير من التقريب واذا ما صح اعتبار هذه الدول عينة مقبولة لباقي الدول العربية ، أن معدل العاملين في البلدان العربية في مجال الكومبيوتر هو بحدود (٢٢٠٠٠) اذا ما اعتبرنا أن عدد سكان البلدان العربية هو (١٣٠) مليون نسمة .

لقد وسّع ظهور المايكروكومبيوتر رقعة مهن الكومبيوتر في البلدان العربية ، وساعد ذلك أيضاً على فتح عدد من الجامعات العربية لتخصصات ذات علاقة بالكومبيوتر ضمن أقسامها أو تكوين أقسام جديدة لعلم الكومبيوتر فيها .

من خصوصيات حقل الكومبيوتر ارتبـاطه الـوثيق بأمـرين أساسيـين ، الأول : هو أن تعليم الشبـاب علوم الكومبيوتر لا يمكن أن يتم بشكل متكامل وفعّال دون الاعتماد على اللغة الأم في تدريس المفردات بكـافة جـوانبها التحليلية والتركيبية . ولا يعني ذلك بالضرورة استخدام لغات عربية للبرمجة فذلك أمر ثانوي ، إنما ضرورة توفـر المراجع والأدلة والكتب المنهجية باللغة العربية لتعليم الشباب تراكيب الكومبيوتر والمعلومات والخوارزميات اللازمة لحل المسائل .

والأمر الثاني : إيجاد الحلول الصحيحة وتصميم النظم التطبيقية الودودة لكسب ثقة المستفيدين من الكومبيوتر في مرافق المجتمع المختلفة للتفاعل بصورة أفضل مع نظم المعلومات والعاملين على تصميمها وبرمجتها وتقليص الحلقات الوسيطة ما بين المستفيد والكومبيوتر .

١٣ ـ الكومبيوتر والتعليم :

تطرقنا بشكل مختصر إلى التعليم الجامعي والكومبيوتر في الفصل السابق . ونخص هذا الجزء للتكلم عن التعليم المدرسي (الابتدائي ، الاعدادي ، والثانوي) .

يرتبط الكومبيوتر بالتعليم من جانبين . الجانب الأول ، وهو الواضح ، هو تعليم الكومبيوتر ومكوناته وبرمجته في المدارس بمختلف مستوياتها . والجانب الثاني هو استخدام الكومبيوتر كوسيلة للتعليم والتعلم في الموضوعات المختلفة وعلى كافة المستويات . وهنا يبرز دور المؤسسات التعليمية التي عليها توفير البرمجيات اللازمة لهذا الجانب . وفيما يخص الجانب الأول فقد جرت خلال السنين القليلة الماضية محاولات محدودة لتجربة تعليم الكومبيوتر وبرمجته في المراحل الأعدادية والثانوية في بعض الدول العربية ، إلا أن مثل هذه التجارب لم تحقق التواصل المنشود الذي يؤهلنا لتقييم تلك التجارب . فمعظمها تجارب عفوية تخلو من العمق ومعرفة ما يمكن الاستمرار به وما يمكن تعميمه ، وبلغ الأمر في بعض الحالات إلى تبني حماس فرد واحد أو أفراد معدودين لتجربة شخصية لا تخلو من الاعتباطية .

وفي دول أخرى لم يستطع الكادر التعليمي التقليدي التأقلم على تدريس الموضوع الجديد فأصبحت مثل هذه التجارب رهينة توفر بعض الاختصاصين من خارج الكادر التعليمي لمثل هذه المهمة وهذا أمر لا يحقق لتدريس هذا الموضوع التكامل المنشود مع المقررات الأخرى .

ليس من الصعوبة في الوقت الحاضر تخيل لغات برمجية تربوية لتعليم حل المسائل للطلاب بمختلف الأعمار ، فهناك تجارب عالمية حققت النجاح يمكن الاستفادة منها وتطويرها لتلائم الطالب العربي . وبالرغم من أن لغات البرمجة في الحياة العملية لا يشترط بها أن تكون باللغة العربية الا أن لغات البرمجة التعليمية وخاصة بالمراحل التعليمية الأولى يجب أن تكون باللغة العربية . ولا يتوقع من طلاب المدارس ممن هم دون سن الرابعة عشرة تقريباً أن يتعلموا حل المسائل بلغة أجنبية فوجود لغات على نمط لغة لوغو و بيسك وبرولوك باللغة العربية للأغراض التعليمية أمر ضروري لترسيخ مفاهيم وتراكيب تقنية المعلومات لدى الطلاب . ويأتي دور المقررات والكتب المنهجية ، في مثل هذه الحالات ، ليكون العون الرئيس للتدريس . ويسبق ذلك برامج تدريبية للتدريس متزامنة مع البدء بالمقررات الجديدة . فبدون ذلك ستكون الهوة واسعة ما بين التدريس وتقنية المعلومات من جهة ، وما بين الطالب وتقنية المعلومات من جهة ثانية . وخلافاً للمقررات التعليمية الأخرى التي يمكن تدريسها دون أجهزة مختبرية لا يمكن لموضوع الكومبيوتر تدريسه دون الاعتماد على جهاز مايكروكومبيوتر شخصي في أقل الحالات ، وعلى شبكة مترابطة منه في الحالة المثالية . الا أن اقتناء مثل هذه الأجهزة في بعض الدول التي لديها القابليات المادية على الشراء يعفيها من التخطيط الصحيح والمنسق والمتوازن ما بين تدريب المعلم وتقديم المقررات بدفعات معقولة للطالب لكي يتمكن من استيعاب المفاهيم الجديدة التي لم يتعود عليها سابقاً في مدرسته أو في بيته .

ان المدارس والمؤسسات التعليمية التي اعتبرت ادخال تعليم الكومبيوتر في مناهجها أمراً منفصلاً عن المقررات الأخرى ستجابه الفشل . ولا بد من تعظيم الترابط ما بين هذا الموضوع الجديد والموضوعات الأخرى المقررة للطالب وحسب المستويات التعليمية .

أما التعليم بوساطة الكومبيوتر فهو أمر مختلف الى حد كبير . فقد تستعمل الكومبيوتر في التعليم دون أن تعلم الكومبيوتر . ولكي يستفاد من الكومبيوتر في التعليم توجد برمجيات يطلق عليها برامج تأليف المسارات (course authoring) . وهي برمجيات تسهل على المعلم تصميم خطواته التعليمية لموضوع ما ضمن تسلسل للسؤال والجواب يسهل على الطالب استخدامه ، ليس فقط للتعلم ، بل لاختبار ما تعلمه . وبالرغم من توفر العديد من هذه البرمجيات باللغات اللاتينية الا أن عددها باللغة العربية محدود جداً وكذلك قابليتها . وتجارب استخدام مثل هذه البرمجيات ما زالت محدودة في معظم البلدان العربية .

١٤ ـ المايكروكومبيوتر :

يمكن اعتبار المايكروكومبيوتر ثورة تقنية جديدة قائمة بذاتها ضمن ثورة الكومبيوتر التي بدأت في الأساس مع بداية الخمسينات . لقد ظهر المايكروكومبيوتر أول ما ظهر في النصف الثاني من عقد السبعينات ، الا أن وقعه العالمي لم يتحقق الا مع بداية الثمانينات . ويمكن اعتبار جهاز أبل (Apple) الجهاز الرائد في نشر هذه التقنية ، الا أن ثورة المايكروكومبيوتر لم تنتشر الا مع ظهور جهاز ا. ب. م الشخصي (IBM PC)[١] عام ١٩٨١ . لقد وفر هذا الجهاز مزايا لم يكن متعارفاً عليها في الكومبيوترات الكبيرة أو الصغيرة التي سبقته . أهمها : ـ

أ ـ انفتاحية التصميم . صمم جهاز ا. ب. م الشخصي تصميماً مفتوحاً مكّن الاختصاصيين من معرفة دقائقه بشكل واضح ، وسمح لهم باضافة التحسينات والتوسعات بشكل متنوع وسلس . وقامت شركات عديدة بتسويق هذه التحسينات التي تتيح لمستعمل الجهاز توسعات واستخدامات أكبر مما كان ببال شركة ا. ب. م أساساً .

ب ـ نظام التشغيل الموحد . اعتمدت شركة ا. ب. م نظام تشغيل موحد لادارة الجهاز حصلت عليه من شركة صغيرة أصبحت من جراء هذا الاختيار من عمالقة الشركات الصغيرة للبرمجيات هي شركة « مايكروسوفت » . أطلق على نظام التشغيل هذا MSDOS وأصبح القياس في عالم أنظمة التشغيل ، وهو أمر لم يكن له سابق في الكومبيوترات الكبيرة ، وبحيث أصبح من السهل على مستخدم المايكروكومبيوتر الشخصي أن ينتقل من جهاز الى آخر دون التعثر في استخدامه بسبب اختلاف نظام تشغيله .

ج ـ حزم البرمجيات الجاهزة . وبسبب الميزتين السابقتين أتيحت الفرص للعديد من الشركات الصغيرة والأفراد لتصميم برمجيات تطبيقية يستخدمها المستفيد في الكومبيوتر الشخصي دون الحاجة الى برمجته (كما سيأتي ذكر ذلك بشيء من التفصيل في الفصل القادم) . من هذه التطبيقات برامج معالجة الكلمات ومعالجة الجداول وقواعد البيانات وغيرها . ويمكن نقل هذه التطبيقات من جهاز الى آخر دون مشاكل « اللاتوافقية » التي تتعرض لها البرامج وملفات البيانات في الكومبيوترات الكبيرة .

د ـ تعدد مصنعي الأجهزة المتوافقة . لقد شجعت المزايا آنفة الذكر العديد من الشركات الصغيرة والكبيرة على حد سواء على تصميم أجهزة كاملة التوافقية مع جهاز ا. ب. م الشخصي . وظهر من جراء التنافس العالي الذي تحقق من جراء الانفتاحية في التصميم والقياس في البرمجيات أجهزة أعلى أداء وأقل ثمناً . ومع انتشار جهاز ا. ب. م الشخصي والأجهزة المتوافقة معه أخذت حصة جهاز إبل في سوق المايكروكومبيوتر بالانحسار التدريجي . من ناحية

أخرى وبالرغم من امتلاك أجهزة ا. ب. م الشخصي والاجهزة المتوافقة معه حصة في السوق إلا أن حصة ا . ب . م . من سوق المايكروكومبيوتر الشخصي بدأت بالانخفاض التدريجي لصالح الأجهزة المتوافقة التي باتت تصنع في دول يمكنها انتاج أجهزة رخيصة الثمن كاليابان وتايوان وكوريا وسنغافورة . وحققت بعض الشركات الأوربية نجاحات نسبية في هذا المجال ، مثل شركة اوليفتي وفيليبس وامستراد .

لقد أنتجت شركة ا. ب. م ثلاثة أنواع رئيسة من هذه الأجهزة هي PC (١٩٨١) و XT(١٩٨٣) و AT (١٩٨٤) ، وهناك أنواع أخرى لا تستحق الذكر . وبلغ تراكم مبيعات الشركة عالمياً من هذه الأجهزة في منتصف عام ١٩٨٧ كالآتي : (13).

	عدد الأجهزة
PC	٣٢٦٤٠٠٠
XT	٢١٧٣٥٠٠
AT	٩٠٦٠٠٠
	٦٣٤٣٥٠٠

واذا ما اعتبرنا أن مجموع هذه الأجهزة يشكل ٤٠٪ من مبيعات أجهزة الشركات الأخرى فان مجموع الكومبيوترات المتوافقة مع ا. ب. م في العالم يبلغ أكثر من (١٥) مليون جهازاً . وكما قامت ا. م. ب بقيادة حملة نشر المايكروكومبيوتر عالمياً ونجحت في ذلك من خلال انفتاحية التصميم واستعمال البرمجيات القياسية ، فهي تحاول الآن بعد أن بدأت حصتها في السوق العالمية بالهبوط بمحاولة القضاء على التوافقية والتنافس من خلال أجهزة جديدة (PS/2) صعبة الاستنساخ والتقليد أعلن عنها في نيسان (ابريل) ١٩٨٧ . ومهما يكن الأمر ومهما تكن النوايا فلا يمكن إيقاف هذا الانتشار في المستقبل القريب فسواء انتشرت الأجهزة الجديدة ومعها نظام التشغيل الجديد (OS/2)، أولم تنتشر ، فالزخم الذي تراكم خلال السنين القليلة الماضية وقابليات العديد من الشركات المنافسة لا يمكن.أن تتوقف بهذه البساطة . لقد أصبح من الممكن شراء جهاز متكامل ومتوافق مع أجهزة ا. ب. م مع ملحقاته بسعر لا يتعدى ـ/ ٢٠٠٠ دولار ، واتجاه انخفاض الأسعار مستمر إلى الآن . وقد يبدو هذا الثمن زهيداً بالنسبة لمواطني بعض الدول العربية التي لا تشكو من ندرة العملة الصعبة الا أنه باهظ بالنسبة للعديد من مواطني الدول العربية الأقل حظاً في مدخولاتها ، فالسعر المعقول لمواطني الدول النامية أقل من ذلك بكثير .

أمابالنسبةللأجهزةالأصغروالتي يطلق عليها اسم الكومبيوتر البيتي فمن المتوقع لمثل هذه الأجهزة أن تقتصر على الألعاب المسلية ، وان تندمج في قابلياتها لتكون أشبه بالحاسبات الشخصية آنفة الذكر . وبالرغم من توفر العديد من البرمجيات التعليمية على مثل هذه الأجهزة ، إلا أنها لن يكتب لها التوسع الذي تشهده الكومبيوترات الشخصية .

لا يمكن لنا اختتام هذا العمل دون التعرض الى البرمجيات وحقوق نشرها واستنساخها . فالبرمجيات على الكومبيوترات الكبيرة والصغيرة باهظة الثمن الى حد ما ، ومع ظهور المايكروكومبيوتر أُتيحت لمستخدميه برمجيات رخيصة الثمن إذا ما قورنت ببرامج الأجهزة الكبرى . الا أن هذا الرخص النسبي خلق مشكلة لناشري هذه البرمجيات ومستخدميها في آن واحد . ان مفهوم حقوق تأليف البرمجيات ما زال مفهوماً غامضاً عالمياً والجهد المبذول لكتابة البرنامج يصعب تسجيله كبراءة اختراع والأصعب من ذلك حمايته من التقليد والاستنساخ . ومهما قام ناشرو البرمجيات بمحاولات لتصعيب الاستنساخ فإن عملية الاستنساخ ستستمر بشكل أو بآخر والحل الوحيد بعيد المدى يتحقق من خلال تسعير هذه البرمجيات بشكل يجعل من غير الاقتصادي استنساخها . عند ذلك سيفضل المستخدم شراء النسخة الأصلية بدلاً من النسخة المنسوخة. وواقع الحال في الدول النامية يجعل شراء النسخ الأصلية من البرمجيات مسألة مكلفة بشكل كبير ، وخاصة في تلك الدول التي تعاني من مشاكل العملة الصعبة ، فحقوق النشر لصالح الدول المتقدمة في مثل هذه الحالات تتعارض مع الكلف الباهظة التي ستدفعها هذه الدول الى مجهزي البرمجيات . لقد ظهر العديد من شركات « القرصنة » في مجال البرمجيات ، في دول كتايوان وكوريا ، تبيع هذه البرمجيات بأسعار أقل بكثير من أسعارها المعتمدة من الشركات الأصلية . وتلقى مثل هذه البرمجيات وأدلة تشغيلها رواجاً منقطع النظير حتى في الدول المتقدمة نفسها . ونحن أمام تناقض سلوكي ، سواء وجدت التشريعات التي تحمي حقوق التأليف أم لم توجد في الدول النامية وهو : « هل يحق للجائع الفقير سرقة رغيف الخبز من مالكه الغني أم لا ؟ » .

١٥ - التطبيقات الشاملة :

التطبيقات الشاملة (generic applications) مصطلح يطلق على تلك التطبيقات التي لها سوق أفقية تشمل العديد من الاختصاصات ، وليست مقتصرة على نطاق ضيق من المستفيدين . ومن أمثلة التطبيقات الشاملة برمجيات معالجة الكلمات وبرمجيات معالجة الجداول (spreadsheets). وتأريخ التطبيقات الشاملة أقدم من تأريخ المايكروكومبيوتر الا أن المصطلح بدأ بالرواج بعد ظهور المايكروكومبيوتر . لذا فقد اشتهر المصطلح باشتهار المايكروكومبيوتر ، واشتهر المايكروكومبيوتر بانتشار التطبيقات الشاملة[1] . قد يظن البعض أن معظم المتعاملين مع المايكروكومبيوتر هم اختصاصيون تعلموا البرمجة وأتقنوها في مدارسهم وجامعاتهم ومن ثم بدأوا يتفاعلون مع هذه الآلة الجديدة التي يهابها الكبار أكثر من الصغار . والواقع هو غير ذلك ، فلو كانت البرمجة هي الأداة الوحيدة المتوفرة للتعامل مع هذه الأجهزة لما انتشرت . انما الذي نشرها هو ظهور البرمجيات الشاملة . ولا يُعتقد أن انتشار المايكروكومبيوتر في البلدان العربية سيكون مختلفاً . فبالرغم من اندفاع الشباب الى مثل هذه الأجهزة للأغراض التعليمية أو اللعب ، الا أن المايكروكومبيوتر سيحقق شعبيته في المجتمع العربي من خلال برامج مفيدة للكبار والمؤسسات . وقد بدأ الآن انتشار المايكروكومبيوتر في البلدان العربية كبديل للآلة الكاتبة من خلال برامج معالجة الكلمات التي تتعامل عادة باللغتين العربية والانكليزية وتتيح لمستعملها تعديل وتوسيع وتغيير واعادة ما يحرر دون الحاجة الى اعادة الطبع كما يحصل على الآلات الكاتبة التقليدية ، وبالرغم من ارتفاع سعر المايكروكومبيوتر النسبي اذا ما قورن بالآلة الكاتبة الا ان هناك اقبالاً واضحاً من قبل المستخدمين على هذه الأجهزة كبديل للآلة الكاتبة من ناحية ، وعلى أمل أن تتوسع تطبيقات المستخدمين في وقت لاحق لتكون أكثر من آلة كاتبة صماء .

وبالرغم من الانتشار النسبي لبرمجيات معالجة الكلمات باللغة العربية الا ان معظمها ، بل جميعها ، لا يرقى الى مستوى البرمجيات المماثلة باللغات اللاتينية . ففي اللغات اللاتينية يوجد العديد من الوسائل التي تتيح اختيار اشكال مختلفة من الحروف للطبع ، وكذلك توجد المعاجم المخزونة على المايكروكمبيوتر لاكتشاف الاخطاء الاملائية وايجاد المرادفات للكلمات . وبالرغم من ان الاملاء الصحيح في اللغة العربية يخضع الى متطلبات ومعايير مختلفة عن اللغة الانكليزية ، الا ان من المفيد معالجة المشاكل الخاصة باللغة العربية كالتمييز بين كتابة الظاء والضاد مثلا أو معرفة الكرسي الذي تجلس عليه الهمزة لبعض الكلمات بموجب موقعها من الاعراب في الجملة . أما المرادفات فهي مفيدة للغاية كوسيلة لتنويع اختيار الكلمات والجمل في النص ، كما ان من المفيد برمجة الوسائل التي تعين المستخدم على تشكيل النصوص ولو بشكل جزئي . كل هذه تسهيلات غير متوفرة في برمجيات معالجة الكلمات العربية اليوم .

اما اذا انتقلنا الى مجموعة البرمجيات المستخدمة لاغراض طباعة المكتب (desk-top publishing) ، فلا يوجد في الاسواق حاليا سوى برنامج أو اثنين فقط وهما دون مستوى الحد الادنى المناسب للطباعة العربية اما معالجة الجداول فهو مفهوم لم نتعرف عليه بعد في البلدان العربية بشكل واسع بالرغم من فائدته التي لا تضاهي اذا ما تعودنا على استخدامه . فبرامج معالجة الجداول برامج لاعداد الجداول بشكل مرن يسهل علينا ربط العلاقات الرياضية والمنطقية ما بين الأعمدة والاسطر . واول من صمم مثل هذا البرنامج شابان امريكيان في نهاية السبعينات كان غرض احدهما وضع برنامج لمساعدته على حل واجباته البيتية في دورة الماجستير التي كان فيها في مدرسة هارفارد للاعمال . ونتج عن البرنامج الذي اعده بمعونة زميله المبرمج في معهد مساشوسست للتكنولوجيا (MIT) البرنامج المعروف (Visicalc) وهو مختصر للعبارة (Visible Calculations) أو الحسابات المرئية . وانتشر استعمال هذا البرنامج بشكل واسع في نهاية السبعينات وبداية الثمانيات ، الا ان برنامجا آخر ظهر عام ١٩٨٢ طغى عليه واصبح البرنامج الاكثر رواجا في الولايات المتحدة الامريكية على المايكروكومبيوتر دون منازع ، هذا البرنامج هو برنامج (Lotus 1-2-3) الذي وفر استخدام معالجة الجداول وربطها برسوم بيانية وسهل عمليات قواعد البيانات المبسطة والاستفسار على هذه الجداول . يوجد الآن اكثر من مليوني نسخة رسمية مبيعة من هذا البرنامج عالميا . أما اذا حاولنا معرفة العدد الفعلي لهذا البرنامج من خلال النسخ « المسروقة » فالعدد هو أضعاف المليونين .

LEAVES FOR 1986

	total	jan	feb	mar	april
TWD	12553	908	924	1134	1092
ORD	864	87	127	47	46
SICK	246	40	29	57	32
MARTERNITY	62	31	31	0	0
PARENTAL	364	82	28	62	60
TOTLOSS	1536	240	215	166	138
PERCENTAGE	12%	26%	23%	15%	13%
NET	11017	668	709	968	954

شكل (٦) نموذج لجدول معد بوساطة برنامج معالجة الجداول

تستعمل برامج معالجة الجداول لاعداد الجداول المالية والانتاجية وكثير من الأنشطة التي تحتاج الى متابعة من خلال جداول المقارنة والمجاميع . ولا يخلو نشاط في أية مؤسسة من الحاجة لمثل هذه البرامج ، لذا حققت رواجا فاقت فيه برمجيات معالجة الكلمات ، ذلك لأن برمجيات معالجة الكلمات اقتصرت في استخدامها عموما على مستخدمي الآلات الكاتبة ، وبعض الذين يعرفون الضرب عليها ، اما الذين تعلموا اعداد الجداول فهم أكبر عددا ، وفرت لهم هذه البرمجيات قابليات ليس لها بديل سابق لتحليل الجداول واستخراج النتائج والاستنتاجات من خلال بدائل تقودهم الى معرفة ما الذي يحصل لو غيرنا بعض المتغيرات ، بشكل او بآخر .

من البرمجيات الشاملة الأخرى برامج قواعد البيانات . وهي برامج تسهل على المستخدم توثيق بعض المعلومات التي كان من المعتاد توثيقها بوساطة البطاقات على شكل تسجيلات في علاقات تسمح من خلال لغة للاستفسار باسترجاع معلومات من محتويات القاعدة تخضع لشروط أو صفات معينة . وكمثال على التطبيقات البسيطة التي يمكن استعمال برمجيات قواعد البيانات فيها دليل الهاتف (الاسم ، العنوان ، الرقم . .) أو دليل المواد المخزنية (رقم المادة ، الوصف ، الكمية ، السعر ، حد إعادة الطلب . . .) الى آخر ذلك من التطبيقات المتنوعة التي لا تخلو الحاجة إليها في وحدة العمل الصغيرة أو للافراد المهنيين .

وتوجد برمجيات اخرى تقع ضمن هذا النوع من البرمجيات لادارة الوقت وهو مصطلح بديل للأجندة هذه الايام . هذه البرمجيات تسهل على مستخدمها تثبيت مواعيده وتنبهه عليها في الوقت المناسب ، وتزول له رقم الهاتف الذي يرغب الاتصال به ، وتوفر له الربط مع برامج لمعالجة الجداول ومعالجة الكلمات والرسوم البيانية في الوقت نفسه . هذه البرمجيات العملية بمجملها هي التي ساعدت على نشر المايكروكومبيوتر بالشعبية التي هو عليه الآن ، وليس لغات البرمجة او البرامج التعليمية .

من اهم الاسباب لعدم انتشار المايكروكومبيوتر بالشكل الواسع في البلدان العربية من خلال التطبيقات الشاملة قصور التعريب في معظم الأجهزة المتوفرة في الاسواق ، وان كان التعريب متوفرا على بعضها فهو ليس بالقياس الثابت الذي يسهل استخدامه في جميع التطبيقات الحديثة والمستجدة . فنرى بعضها لا يستجيب الى الحروف العربية ضمن برنامج معالجة الجداول بينما يستجيب لها في برنامج قواعد البيانات او العكس وما لم تتوفر المرونة الموحدة للتعريب من خلال قياس واحد سيتعثر انتشار مثل هذه البرمجيات بين المستخدمين .

١٦ ـ الذكاء الاصطناعي وبرامج الخبرة

ظهرت خلال السنين القليلة الماضية مجموعة من لغات البرمجة تختلف في تكوينها الاساسي عن لغات البرمجة التقليدية ، مثل بيسك وفورتران وباسكال التي تعتبر لغات اسلوبية (procedural) في التكوين تحتم على المبرمج ان يكتب خطوات حل المسألة خطوة خطوة ، وعلى الكومبيوتر اتباعها بكل تفاصيلها . واللغات الجديدة ، التي يطلق عليها بعض الاحيان لغات الجيل الخامس ، لغات تعتمد على التصريح (declaration) بالعلاقات والقواعد التي تحكم ما بين المتغيرات ، فهي اقرب اذن الى الطريقة « الذكية » التي يفكر بها الانسان . من هنا جاء المصطلح لأن مثل هذه اللغات مناسبة في تركيبها لمجموعة التطبيقات التي تعتمد على الخبرة المتراكمة ، كأن يكون التطبيق لترجمة نصوص

لغة الى اخرى ، أو للعب الشطرنج ، أو لتشخيص الامراض ، أو للتصرف ضمن ظروف غير معروفة مسبقا . وبرامج الخبرة هي تلك البرامج التي تجمع خبرة العديد من الخبراء ضمن برنامج حواري (interactive) بالطريقة التي يتعامل بها الانسان المفكر لتقوده الى الاستنتاج أو التشخيص . صاحب رواج هذه اللغات أيضا مشروع تصميم وانتاج اجهزة الجيل الخامس الياباني الذي من المؤمل الوصول الى نتائج واضحة فيه مع نهاية الثمانينيات . فأجهزة الجيل الخامس أجهزة مناسبة للغات الجيل الخامس وهي بدورها مناسبة لتطبيقات الذكاء الاصطناعي « والروبوتيات » وبرامج الخبرة . وقد تكون الضجة التي تدور حول مثل هذه اللغات وتطبيقاتها ضجة مفتعلة ومتفائلة الى حد كبير فما زالت الاستخدامات عموما ، وبالأخص في العالم الثالث ، دون المستوى الذي تستطيع الاستفادة به من وسائل تقنية المعلومات المادية الممكنة استفادة عالية . فهل ياترى سيوفر الذكاء الاصطناعي وبرامج الخبرة الحل السحري لانتشال هذه البلدان من التخلف في هذا المجال ؟

والجواب في رأيي متشائم . فقد اثبتت التجارب العملية ضعف قدرة هذه الدول على استيعاب الثورة الصناعية التقليدية لما قبل السبعينات ، ولم تستوعب هذه الدول الثورة الصناعية الثانية التي حركها الكومبيوتر ولا الوسائل التي وفرها المايكروكومبيوتر في الثمانينيات . وقد نكون في حالة نبحث فيها عن الكعك بينما لا نجد الخبز اللازم الذي يسد جوعنا .

أما بالنسبة للدول المتقدمة ، فنظرتها الى مثل هذه اللغات وتطبيقاتها في الذكاء الاصطناعي نظرة اقتصادية بحتة ، اذ تشهد اسعار اجهزة الكومبيوتر انخفاضاً مستمراً بمعدل النصف كل اربع سنوات تقريبا بينما تشهد البرمجيات ارتفاعا مستمرا في كلفها . ففي بداية السبعينيات كانت كلفة البرمجيات تشكل ١٠٪ من كلفة المنظومة الكلية . واصبحت هذه الكلفة تشكل ٥٠٪ من اجمالي الكلفة عام ١٩٧٥ ، واكثر من ٨٠٪ في عام ١٩٨٥ ، وسبب اهتمام الدول المتقدمة بالبحث عن وسائل برمجية هو خفض هذه الكلفة وجعلها اكثر اقتصادية مما هي الآن . فعلى سبيل المثال ، يحتاج البرنامج المكتوب بلغة برولوك ، احدى لغات الجيل الخامس ، الى عشر عدد الاسطر الذي يحتاجه البرنامج نفسه عند كتابته بلغة باسكال ، وهي احدى اللغات الحالية الرائجة . وهذا سبب كاف ومقنع للتوجه نحو مثل هذه اللغات في المستقبل . وفي بلدان لم تعترف بعد بصناعة البرمجيات من الصعب علينا مناقشة مثل هذه الامور في الوقت الحاضر .

١٧ - عودة الى الشعبية (الصغير هو الأجمل)

ما هي درجة الشعبية التي حققها الكومبيوتر في البلدان العربية ؟ وأين نحن من تغلغل هذه التقنية في ثنايا المجتمع وشرائحه ؟ ان الشعبية التي وصل لها الكومبيوتر في جميع البلدان العربية لا تستحق الذكر ولا اعتقد ان أي بلد من البلدان العربية يحق له أن يغالي في ذلك وما حصل في الصناعة وثورتها أعاد نفسه في الكومبيوتر ، ذلك لان الكومبيوتر لم يكن ضمن أسبقيات الدول العربية المحدودة الموارد . أما البلدان العربية الغنية الموارد فقد اتجهت باديء ذي بدء الى التطبيقات الكبيرة فحاولت بناء تطبيقات الأحوال المدنية ومراقبة الحدود والتطبيقات الرقابية والاحصائية الاخرى . ولم تستطع ان تطور التطبيقات التي تخفف من هموم شعوبها ومشاكلها . وهكذا أصبح الكومبيوتر جزءاً لا يتجزأ من بيروقراطية الأجهزة الحكومية ، فالتطبيقات الكبيرة في الدول العربية عانت من الفشل نفسه الذي عانت منه المؤسسات

الصناعية الكبيرة فحساسيتها للفشل عالية . وبسبب الخبرة المحدودة ، وعدم تجاوب المستفيدين معها ، أدى كل ذلك الى الفشل في معظم الاحيان (7) .

أما المايكروكومبيوتر فهو الى حد كبير مختلف في فلسفته ومفهومه عن الكومبيوتر الاكبر . وقد يكون من المفيد التمييز بين مرحلة تطبيقات معالجة البيانات على الكومبيوتر ومرحلة تطبيقات معالجة البيانات على المايكروكومبيوتر كما هو مبين في الجدول (٣) .

التطبيقات الكبيرة على الكومبيوتر	التطبيقات الصغيرة على المايكروكومبيوتر
ـ اتساع نطاق الاهداف	ـ محدودية الاهداف وخصوصية التعامل
ـ تصميم النظام من وجهة نظر المؤسسة أو المنظمة .	ـ تصميم النظام يتم بشكل فردي الى حد كبير
ـ يجري اعادة النظر بهدف تقليل محتوى المهارة بالوظائف ذات العلاقة بالنظام	ـ ترتقي وظائف العاملين على هذه النظم للتفاعل معها بمهارة أعلى من السابق
ـ يفرض التقييس والسيطرة على التعامل مع هذه النظم	ـ يتطور التعامل ضمن مقاييس مستقلة لكل حالة أو تطبيق
ـ صعوبة تغيير النظام	ـ النظام مبني اساسا على المرونة
ـ الهدف الرئيس : الكفاءة	ـ الهدف الرئيس : الفاعلية
ـ طريقة التصميم : تحليل النظام وبرمجته	ـ طريقة التصميم : شخصية وفي اكثر الاحيان باستعمال التطبيقات الشاملة

جدول (٣) مقارنة التطبيقات على الكومبيوترات الكبيرة والصغيرة

وقد لا نكون منصفين عندما نحاول المقارنة المطلقة ما بين التطبيقات الكبيرة والتطبيقات الصغيرة بهذه البساطة ، فهناك دون شك تطبيقات لا يمكن لها ان تكون الا كبيرة ، ولا يمكن تنفيذها إلا على كومبيوترات ضخمة . الا اننا نتساءل عن مدى الجدوى الاجتماعية أو الاقتصادية لمثل هذه التطبيقات في مجتمعات قد لا تمثل هذه التطبيقات فيها سوى نزوات لحفنة من الموظفين في اجهزة الدولة يحاولون استنساخ تجارب مجتمعات اخرى قد تكون مختلفة تمام الاختلاف عن مجتمعات بلدانهم . ان مثل هذه التطبيقات لم تنتشر في الماضي تقنية المعلومات في مجتمعاتنا . وقد يكون ما قاله شوماخر في كتابه « الصغير هو الاجمل » (Small Is Beautiful) منطبقا الى حد كبير على ما يوفره المايكروكومبيوتر من بديل لنشر شعبية تقنية المعلومات في مجتمعات العالم الثالث بالرغم من ان شوماخر لم يقصد بذلك تقنية المعلومات ، بل كان يقصد الوحدات الانتاجية الصغيرة ، اذ ان شوماخر قال ما قاله عام ١٩٧٣ ، أي قبل ظهور المايكروكومبيوتر على مسرح الاحداث بعدة سنين ، لقد قال شوماخر في كتابه (11) :

نريد من العلماء والتقنيين ان يتجهوا في ابتكاراتهم ووسائلهم التقنية نحو توفير أجهزة ومعدات وطرق لخدمة الافراد والوحدات الصغيرة تتصف بالآتي :

- رخص الثمن لكي تقتني من الجميع
- تناسب التطبيقات الصغيرة
- تتوافق مع حاجة الفرد للابداع

١٨ - المعوقات

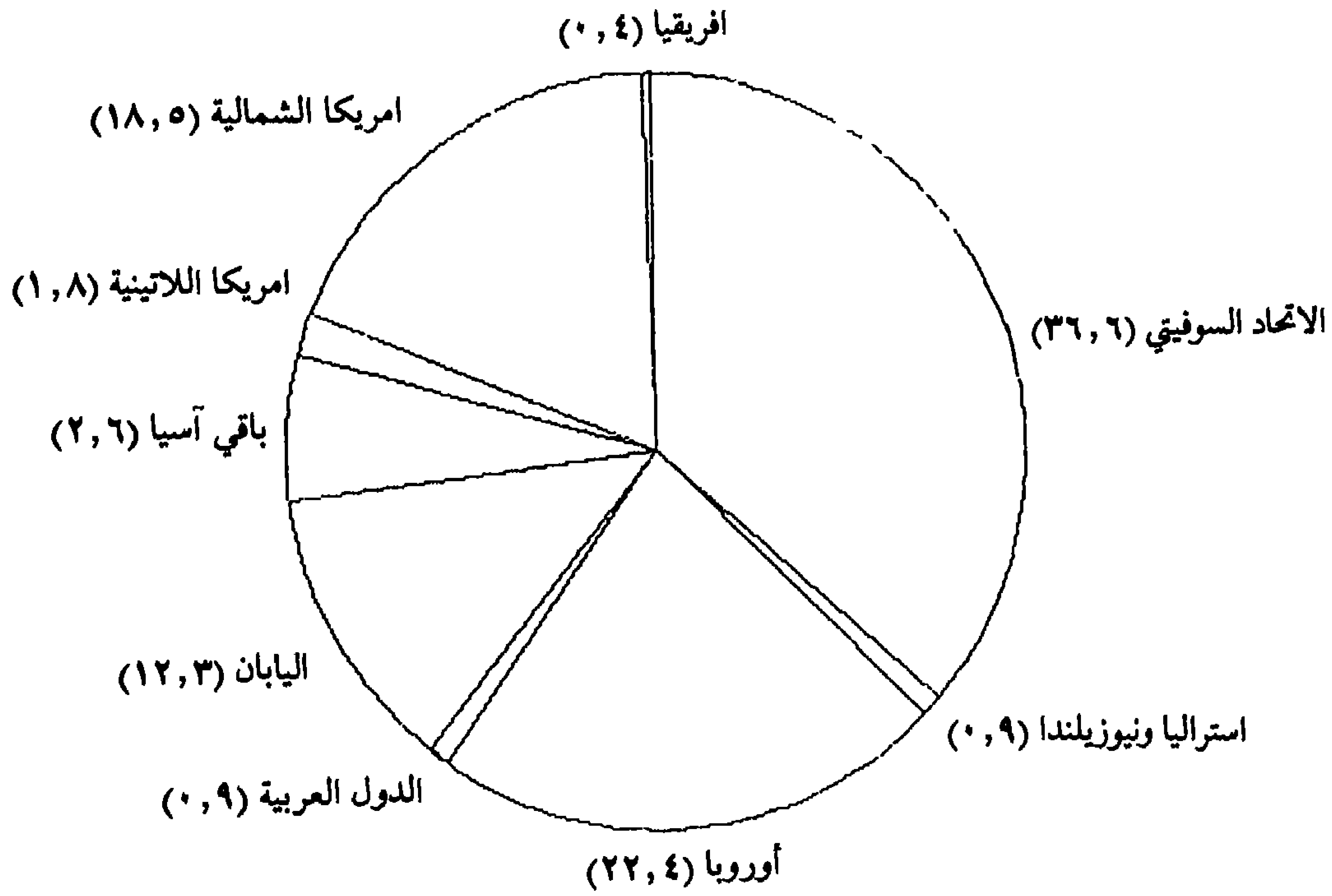
من خلال ما تم استعراضه في الفصول السابقة ظهر بشكل واضح وما بين السطور ايضا العديد من المشاكل التي تعاني منها تقنية المعلومات في البلدان العربية . ولا أريد في هذا الفصل تكرار ما ذكرناه بل أرى ضرورة سرد بعض هذه العثرات بشكل مختلف بعض الشيء .

من العثرات الاساسية التي تعوق انتشار تقنية المعلومات في البلدان العربية غياب الترابط المصيري ما بين هذه التقنية والحاجات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات العربية . فمهما قيل ويقال عن اهمية هذه التقنية ، فالحركة الذاتية لها ضمن المجتمع لا يمكن ان تنطلق دونما اكتشاف الحاجة الاقتصادية والاجتماعية للانطلاق . فلا يكفي ان نشجع هذه التقنية لكونها ظاهرة حضارية سبقتنا فيها امم اخرى ، ولا يكفي ايضا للحكومات ان تخصص المبالغ الضخمة في ميزانياتها لشراء الأجهزة والمعدات دون ان تنتبه الى البنى الارتكازية المطلوبة لتنمية هذه التقنية . ففي أكثر دول العالم الثالث ، تعتبر مراكز الكومبيوتر معارض لاطلاع الزوار عليها لاقناعهم بايمان هذه الحكومات بالتطور التقني . وفي كثير من مؤسسات العالم الثالث تدخل مراكز الكومبيوتر في دوامة العمل اليومي فتصبح جزءا من الجهاز البيروقراطي للمؤسسة وتضيع الاهداف وتصبح اليوميات والتوسعات وتهيئة المواقع والندوات والدورات والتخصيصات والتوظيف هي الاهداف بدلا من كونها الوسائل .

لقد حاولت في الآونة الاخيرة الرجوع الى العديد من الدراسات التي اعدتها بعض المنظمات العربية والاقليمية المهتمة بالصناعة فلم أر بين أي منها اشارة الى اهمية البرمجيات كصناعة استراتيجية . من خصائص هذه الصناعة الجديدة انها لا تحتاج الى موارد مادية كبيرة ، انما تعتمد على النتاج الفكري والتطبيقي للافراد والمجموعات . فصناعة البرمجيات ستكون الصناعة الفاصلة لاستغلال الالكترونيات في كافة القطاعات العسكرية والامنية والمدنية ، وستكون الدول الرائدة في التنمية خلال العقود القليلة القادمة هي الدول التي يمكنها تطوير قدراتها الذاتية في مجال البرمجيات . فلم تعد القطع الالكترونية الناتج النهائي الاستراتيجي للبلدان المتقدمة بل ما يخزن فيها من برمجيات تفصل ما بين استخدام وآخر ، بالرغم من تعاملها مع القطعة الالكترونية نفسها . وحتى تعترف الحكومات العربية بأهمية صناعة البرمجيات وتفهم محتواها وترعى العاملين فيها ستبقى تقنية المعلومات متعثرة . وهناك معوق آخر هو التعليم المدرسي والجامعي . ففي العديد من البلدان العربية ما زالت المدارس والجامعات تعتمد أسلوب الحفظ وزيادة كمية المعلومات ، ومعيارها الأساسي هو قدرة الطالب على تذكر ما قرأه في الكتاب المقرر لغرض الامتحان ، ولم تطور المدارس والجامعات القدرات الذاتية للطلاب على التحليل والاستنتاج واساليب وضع الحلول الدقيقة العامة

(الخوارزميات) لمجموعة المسائل الخاضعة لقواعد مشتركة . وللأسف ، فإن من أهم الأسس التي تعتمد عليها تقنية المعلومات القدرات التحليلية والتركيبية .

وامتدادا لهذه المشكلة نفسهاالبلدان العربية لم تعر اهتماما كافيا للبحث والتطوير . وقد يكون موضوع البحث والتطوير مرتبطا بالحاجة الاقتصادية للمجتمعات ، فيمكننا القول بأن البحث والتطوير لم يتطور لغياب الصناعة المحلية ، على عكس ماهو عليه في البلدان المتقدمة . وهذا غير صحيح أيضا . لماذا لم يتطور البحث والتطوير في مجال صناعة البترول أو الزراعة . اليست هذه نتاجات محلية ؟ اذن الامر اعمق من ذلك . في احصائية نشرتها اليونسكو عام ١٩٨٣ عن نسب العاملين في مجالات البحث والتطوير في العالم بلغت نسبة العاملين في هذا المجال في الدول العربية ٠,٩٪ من مجموع العالم (الشكل ٧) وهذا دليل واضح على تدني الاهتمام بالبحث والتطوير (14) . ولقد اوردت ذلك لأن العمل في تقنية المعلومات له ارتباط وثيق وذو طبيعة مشابهة الى حد كبير لنشاطات البحث والتطوير عموما .



الشكل (٧) حصص مناطق العالم من البحث والتطوير

وهناك معوق اخر هو اللغة . يقال إن تنقل التقنيات يتم من خلال لغة المجتمع ولا يمكن نقل التقنية بلغة اجنبية . واللغة بالنسبة لتقنية المعلومات ذات تبعات اعمق بكثير من أية تقنية اخرى كما ذكرنا . فالسلعة الاساسية لهذه التقنية هي المعلومات ، والمعلومات تكون المدخلات والمخرجات في تقنية المعلومات . فكيف لهذه التقنية ان تنمو في مجتمع ما بلغة اجنبية ؟ . ولأن وسائل التعامل مع هذه التقنية وفهمها تحتاج الى مستويات عديدة ، فإن ارتباط هذه التقنية بلغة المجتمع أعقد مما يبدو لأول وهلة :

- فلكي نفهم هذه التقنية ونفهمها للاحداث والشباب علينا توفير المراجع والكتب ووسائل الايضاع باللغة العربية .

- ولكي نفهم الاحداث والشباب كيف نبرمج هذه الأجهزة علينا توفير لغة تعليمية بسيطة باللغة العربية .

- ولكي ندخل البيانات ونخرجها من هذه الأجهزة علينا توفير الأجهزة والبرمجيات التي تتعامل مع رموز اللغة العربية وتراكيبها .

- ولكي نسهل تبادل وتراسل البيانات والمعلومات ما بين شرائح المجتمع ووحداته والمجتمعات الأخرى علينا التعامل مع رموز اللغة ضمن قياس متوافق ومفهوم عبر شبكات الاتصالات .

- ولكي نترجم اجراءاتنا في اعمالنا وبيوتنا ومؤسساتنا الى اجراءات تستخدم وسائل تقنية المعلومات علينا أن نوفر هذه السوائل باللغة التي نستخدمها في اجراءاتنا واعمالنا وسلوكنا اليومي .

- ولكي نعالج اللغة العربية معالجة علمية جديدة ونسهل قواعدها ومعانيها ونبحث في هياكلها وتشكيلها وترجمة نصوصها الى لغات اخرى أو ترجمة نصوص لغات اخرى اليها علينا البحث في الخوارزميات والبرمجيات اللازمة التي توفر لنا هذه المعالجات المتقدمة .

فلا حياة لتقنية المعلومات في البلدان العربية دون تكييفها الى اللغة العربية ، والعكس للأسف صحيح أيضا فلا حياة للغة العربية اذا ما اهملنا تكييفها لتقنية المعلومات .

في دراسة اعدت عام ١٩٨٤ من قبل برنامج الامم المتحدة للتنمية/ المكتب الاقليمي للدول العربية ، عن واقع حال تقنية المعلومات في بعض الدول العربية تم تشخيص محاور اساسية تكمن فيها مشاكل ومعوقات تنمية التقنية في هذه الدول منها :- (12)

- في مجال سياسات تقنية المعلومات - وبالرغم من الاهتمام الظاهري لكافة الحكومات باهمية تقنية المعلومات ، فإن التنسيق الاقليمي وتبادل الخبرات والتقييس في المنطقة العربية ضعيف جدا .

- في مجال ادارة التقنية والتبعيات الاجتماعية والاقتصادية - بينت الدراسة ضعف التخطيط وغياب المعايير الاقتصادية والاجتماعية في اختيار التطبيقات ، وبالمقابل غياب الوعي الاجتماعي والاقتصادي لمستقبلي هذه التقنية وتقييمها . فالعديد من التطبيقات الضرورية للمجتمعات النامية في مجالات الهندسة والطب والزراعة ورفع مستوى الفرد تكاد تكون مفقودة ، بينما يتم التركيز على التطبيقات الادارية والخدمية والتوثيقية .

- في مجال التعليم والقوى العاملة لا يكفي تدريب وتعليم الاعداد المحدودة من العاملين في مجالات تقنية المعلومات دون تطوير قدراتهم على تدريب الآخرين . وانتقدت الدراسة كذلك مستوى التعليم الجامعي في مجال تقنية المعلومات والنقص الواضح في الكوادر التعليمية المؤهلة لتدريس موضوعات تقنية المعلومات المختلفة . كما اشارت الدراسة الى هجرة العديد من المتخصصين في هذه المجتمعات الى مجتمعات توفر لهم وسائل ممارسة المهنة والدخل المناسب معا .

كما اشارت الدراسة الى غياب التفاعل الافقي ما بين العاملين ، وذلك بسبب غياب الجمعيات المهنية التي تحتضنهم وترعى تطويرهم .

ـ في مجال اللغة ـ اهتمت الدراسة بامرين اساسيين : الاول مستوى اتقان الخريجين للغة الاجنبية ومدى قابليتهم على متابعة اختصاصهم بلغة اجنبية ، والثاني اهمية توفير الاجهزة والوسائل التي يمكنها التعامل باللغة العربية .

١٩ ـ الأسبقيات

يقع العديد من الدراسات ، في محاولة منها لوضع الحلول « الشاملة والمتكاملة » لمسائل معقدة ، في مأزق العموميات والتبسيط والتفاؤ ل ، فتضع الأسبقيات بشكل عمومي لا يختلف عليه اثنان . وسأحاول جهد الامكان في هذا الفصل الابتعاد عن هذا الاسلوب المعتاد ، فالاسبقيات تختلف باختلاف طبيعة البلد . وبالرغم من وجود قاعدة عريضة مشتركة ما بين البلدان العربية الا أن خصوصيات البعض تختلف عن خصوصيات البعض الآخر . ووضع الأسبقيات بالتسلسل الصحيح لا يعني النجاح وعدم وضعها بالتسلسل الصحيح لايعني الفشل أيضا .

وقد سئم المواطن العربي من سماعه العديد من المصطلحات الرنانة كوضع الاستراتيجيات لهذه الصناعة أو تلك ، أو وضع الخطط المتكاملة للتنمية القومية ، وأمور ضبابية أخرى ، فالاسبقيات التي ساضعها ليست سوى ارشادات تنطبق بتباين على حالات مختلفة .

أهم هذه الأسبقيات معرفة التطبيقات التي تخدم المجتمع . واذا كان لابد لي من استخدام كلمة استراتيجية في هذا السياق ، فلابد من وضع استراتيجية واضحة للتطبيقات الواجب تطويرها . وتتحكم التطبيقات في توفير المستلزمات ، وهي في حالتنا البرمجيات والاجهزة والموارد البشرية المطلوبة ، فاذا ما تم توضيح مسار التطبيقات ، تمكنا من وضع سياسة واضحة لمستلزمات التنفيذ .

وبعد التطبيقات ، تأتي أهمية إعطاء الأسبقية لصناعة البرمجيات في مجتمعات لا يتوفر فيها الفهم الواضح لأهمية هذه الصناعة أو حتى مفهومها . ولأن هذه الصناعة لا تحتاج الى موارد مادية فالتركيز عليها وبناؤ ها ضمن وحدات برمجية صغيرة منتجة من أهم التوجهات الواجب الاهتمام بها .

ومن ضمن الأسبقيات أيضا مسألة التعريب وما تحتاجه التطبيقات والبرمجيات من بحث وتطوير في مجال تسخير تقنية المعلومات لحاجة اللغة وتطوير اللغة لحاجة التقنية فالتفاعل لا يمكن أن يكون باتجاه واحد .

وللتعليم أسبقية اساسية قد تكون أهم من كل الاسبقيات الأخرى على المدى الطويل . وارتباط التعليم بتطوير الشباب واستيعاب هذه التقنية لا يعني ادخال مقرر البرمجة في هذه المرحلة الدراسية أو تلك ، بل يعني إعادة النظر بشكل شامل ، في استخدام الاساليب التحليلية والتركيبية لحل المسائل ، فحماس الادارات التربوية لشراء الأجهزة للمدارس والجامعات لا يكفي .

والاسبقية الباقية هي التدريب المتزامن مع الحاجة وبالاعداد اللازمة ، فالزيادة في كثير من الحالات أسوأ من النقصان . والتدريب الذي يعود منه المتدرب ليعمل في مجال آخر بعيدا عما تدرب عليه ضياع في الجهد والمال . لا يكفي ان ندرب ونعلم افراد المجتمع من خلال الاحتكاك والتعرف على تجارب الدول الاكثر تقدما ، مالم نُنمِّ لدى هؤلاء القدرة على التعاون المهني المثمر لتوسيع معرفتهم لتشمل افرادا آخرين ، كي لاتقتصر الفائدة على الذين تدربوا تدريبا

مباشرا . من مستلزمات توسيع نقل التقنية توفر الروح الجماعية للعمل المهني والابتعاد عن الفردية واحتكار المعرفة ، لانني ارى ظواهر عديدة منها في بلادنا العربية اكثر مما اراه في مجتمعات وبلدان اخرى من العالم . وقد أكون مخطئا في تصوري هذا ، وان لم اكن ، فإن ترسيخ الروح الجماعية في العمل التقني اهم ركيزة لانتشاره في المجتمع واعطائه الدرجة المقبولة من المهنية .

٢٠ ـ الخاتمة

تعرضت في هذه الدراسة الى العديد من المحاور التي يقع مجملها بشكل مباشر أو غير مباشر تحت مظلة تقنية المعلومات بمعناها الواسع . ولا افترض أن ما تعرضت اليه يشمل كافة المحاور الواجب التعرض لها عند التحدث عن تقنية المعلومات وخصوصيات هذه التقنية بالنسبة للوطن العربي . وكثير من الآراء والافكار التي طرحتها يعكس آراء شخصية قد يكون بعضها مثارا للجدل والنقض . الا أن هذه الآراء تعكس معاناة مواطن عربي يعمل في مجال سريع التطور في البلدان الاكثر تقدما ، بطيء التطور في بلداننا . وآمل أن لايكدر ما استعرضت من افكار وآراء أحدا ، أو مجموعة ، من قريب أو بعيد ، ومن الله التوفيق .

***

المصادر العربية

١ ـ الدبوه جي ، عبدالاله؛ دور وسائل معالجة المعلومات في تطوير العمل الاداري المنظمة العربية للتنمية الصناعية ـ ندوة الادارات العليا ١٩٨٦

٢ ـ تطور الاعلامية في الوطن العربي ـ معالجة تشخيصية تقرير معد لمؤتمر الاستراتيجيات وسياسات الاعلامية (سبن) ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٧٨

٣ ـ الدبوه جي ، عبدالاله؛ الخوارزميات في التاريخ

٤ ـ شلال والدبوه جي؛ مبادىء علم الحاسبات الالكترونية والبرمجة بغداد ١٩٧٨

٥ ـ الدبوه جي ، عبدالاله؛ الوحدات الانتاجية الصغيرة وتطبيقات الحاسبة الالكترونية مجلة الصناعة ، العدد الثاني بغداد ١٩٨٦

٦ ـ مجموعة من التقارير المقدمة للاجتماع الإقليمي لخبراء الحاسبات الالكترونية لانشاء شبكة تنسيق وتعاون اقليمية في مجال الاعلاميات ـ عمان ١٩٨٥ .

* * *

المصادر الاجنبية

1- Bair, James H.& Mancuso, Laura "The Office Systems, HP 1985

2- Zemanek, Heinz "Dixit Algorizmi" Vienna 1979

3- Dertouzos, Michael, et al "The Computer Age", The MIT press 1980

4- Dewachi, Abdulilah, "Computing and the Third World", Infotech State of the Art Conference on politics and Computing, London 1979

5- Engberg, Ole, "Who Will Lead the Way to the Information Society?"

6-Mc Henry, William K.& Goodman, SeymourE. "MIS in Soviet Industrial Enterprises" CACM (VOL 29 NO. 11) 1986

7- Birnbaum, Joel S. "Toward the Domestication of Microelectronics" CACM (VOL 28 NO. 11) 1985

8- "SRI Report on Office Automation" 1979

9- Dewachi, Abdulilah, " P roblem Areas in the Treatment of Arabic in Hardware and Software Systems", Computer Processing of the Arabic Language Conference, Kuwait 1985

10- Porat, Michael U., Communication Policy in an Information Society, State of the Art Conference on Politics and Computing" London 1979

11- Schumacher, E.F, "Small is Beautiful", Harper, New York 1973

12- Computers, Informatics and Development in Some Arabic-Speaking Countries, UNDP (RBAS), New York 1984

13- Infoworld, May 1987

14- UNESCO Statistics 1983

* * *

عبد الاله الديوه جي

- ولد في مدينة الموصل في العراق عام ١٩٤٠ وأكمل دراسته الثانوية فيها
- حصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربائية في جامعة لندن عام ١٩٦٣ ثم عمل كمهندس تصاميم في شركة انكلش اليكترك ليو إحدى أوائل شركات الكومبيوتر في بريطانيا عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٥ بعدها عاد الى العراق ليعمل في احد اوائل مشاريع الكومبيوتر في المؤسسة العامة للكهرباء .
- اكمل دراسة الماجستير في جامعة لندن في علم الكومبيوتر عام ١٩٧٢ واجرى بحوثه فيها في مجال تقييم اداء منظومات الكومبيوتر ونظم تشغيلها .
- اشرف على مشروع نصب الكومبيوترات الموزعة وتصميم انظمة ثمطية لخدمة المنشآت الصناعية منذ عام ١٩٧٦ .
- نشر عددا من البحوث والدراسات والمقالات في مجال استعمالات الكومبيوتر في التطبيقات المختلفة ، وله بحوث عديدة في مجال استخدامات اللغة العربية والكومبيوتر ، ونشر له مؤخرا كتاب باللغة العربية في علم الحاسبات والبرمجة .
- اشرف على العديد من البحوث في الدراسات العليا للجامعة التكنولوجية ومجلس البحث العلمي كان بعضها في مجال تطوير لغات برمجة عليا باللغة العربية ، والبعض الآخر في قياس اداء المنظومات .
- عمل كمدير لادارة بنك المعلومات الصناعية في منظمة الخليج للاستشارات الصناعية في دولة قطر للفترة من ١٩٧٩ الى ١٩٨١ .
- يشغل منذ عام ١٩٨١ ولحد الآن منصب المدير التنفيذي لمركز الحاسبة الالكترونية في وزارة الصناعة العراقية .
- يشغل أيضا عضو مجلس ادارة المركز القومي للحاسبات الالكترونية وعضوا لمجلس ادارة شركة الصناعات الالكترونية .
- سبق وان شارك كعضو في اللجنة المشرفة على مركز الكويت العلمي المشترك بين معهد الكويت للابحاث وشركة IBM .
- يقوم بتقديم المشورة الفنية للعديد من المنظمات العربية والاقليمية والدولية في مجال تقنية المعلومات والتوثيق الآلي .
- زميل معهد المهندسين الكهربائيين البريطاني (IEE) ومهندس مجاز . زميل جمعية الكومبيوتر البريطانية (BCS) .

عضو قديم في معهد المهندسين الالكترونيين والكهربائيين الامريكي (IEEE) .

عضو في رابطة الكومبيوتر الامريكية (ACM) .

***

اللغة العربية والحاسوب*

نبيل علي

١ : لماذا هذا البحث ؟

١ : ١ عن أهمية قضية اللغة والحاسب

يسعى البحث إلى عرض بعض الجوانب الأساسية لعلاقة اللغة العربية بالحاسب الآلي في محاولة لابراز أهمية هذه القضية التي تاهت معالمها بين التبسيط المسرف للفنيين من جانب ، والتجاهل الحاد من قبل اللغويين من جانب آخر . والقضية ، حتما ، من الصعوبة والتشابك بحيث تستعصي معها الحلول ، أو الحيل ، المبسطة والمستوردة ، وهي أيضا من الأهمية والحيوية بصورة تفرض أقصى درجات الاهتمام وتأتي في مقدمة الأولويات لاعداد مجتمعاتنا العربية لمجتمع الغد القريب : مجتمع المعلومات ، وهو المجتمع الذي ستسوده عمالة المعلومات وصناعاتها وخدماتها .

تنطلق كثير من الأمم ، شرقها وغربها ، متقدمتها ونامیتها ، في وضع الخطط القومية لاعداد مجتمعاتها لعصر المعلومات : اجتماعيا ، واقتصاديا ، وسياسيا . وتعتبر قضية تطويع تقنيات الحاسب الآلي للمتطلبات المختلفة للغات القومية ـ وربما العكس أحيانا وبدرجة أقل ـ أحد المحاور الرئيسية لعملية الاعداد المذكورة إن لم تكن أهمها على الاطلاق .

يمكن تقسيم الدوافع وراء هذا البحث إلى :

- دوافع تقنية
- دوافع لغوية
- دوافع عامة

١ : ٢ دوافع تقنية

١ : ٢ : ١ مشروع الجيل الخامس :

أول الدوافع وأعمها هو اقتراب ظهور الجيل الخامس من الحاسبات الالكترونية ، وهو مشروع السنوات العشر الذي أطلقته اليابان والمخطط له

* الارقام الواردة تشير الى المراجع في شأن كل واحد من موضوعات الدراسة .

أن يكتمل بنهاية عام ١٩٩١ . يهدف المشروع أساسا ، إلى إحداث نقلة نوعية حادة في تصميم نظم الحاسبات ، وعتادها ، وتشغيلها ، وتطبيقاتها ، حيث يسعى المشروع إلى تطوير كمبيوتر « ذكي » قادر على التحليل والاستنتاج المنطقي ، وذلك من خلال أساليب الذكاء الاصطناعي التي من أهم مقوماتها القدرة الآلية للتعامل مع اللغة : مبانيها ومعانيها ، أصواتها وخطوطها ، رموزها ومدلولاتها ، معطياتها ومفاهيمها .

لقد كانت الحاسبات « الذكية » ، وستظل ، حلم علماء الحاسب ومهندسيه ومستخدميه ، وقد بشر عالم نظرية الأوتوماتيات الشهير تورنج ، ومنذ ما يزيد عن نصف قرن ، بإمكانية إنتاج آلة تحاكي في قدراتها كثيرا من قدرات البشر الذهنية . خلال الأربعين سنة الماضية ، ومنذ ظهور الحاسب في بداية الأربعينات ، وعبر أربعة أجيال ترمز إلى مراحل مميزة من تطورها التقني ، ظلت الحاسبات رغم كل ما حققته من إنجازات باهرة في جميع الميادين محصورة في قدرتها الهائلة على تخزين المعلومات وتنظيمها واسترجاعها ، بجانب سرعتها الفائقة في تنفيذ العمليات الحسابية (عدة بلايين عملية في الثانية الواحدة) . إن مشروع الجيل الخامس يحاول أن يخلص الحاسب من أسر ميكانيكية « آلة الادخال والاخراج » التي فرضت على تصميمه منذ ظهوره ، آلة فون نيومان ذات المعالجة المركزية المتلاحقة .

كلما أمعنا النظر في المعمارية المقترحة لحاسب الجيل الخامس ونظم تشغيله وتطبيقاته المستهدفة ، تأكد لنا الدور الرئيسي الذي تلعبه اللغة في هذا المشروع الطموح الذي يسعى في الدرجة الأولى إلى تطوير حاسب لغوي في بنيته ونظامه وتطبيقاته ، حاسب ذكي قادر على التعامل اللغوي ، تحليلا وتركيبا ، يميز الأصوات ويولدها ، ويحلل النصوص ويؤلفها ، حاسب منطقي ذي قدرة على توصيف المشاكل وحلها ، والتأكد من صحة المعطيات ، واستخلاص النتائج وإيجاد الحلول . إن نجاح العلماء والمهندسين في تطوير حاسبات ذكية سيفتح الباب على مصراعيه لكثير من التطبيقات اللغوية التي ظلت ولوقت قريب من قبل الخيال العلمي .

وعلى الرغم من أن نجاح مشروع الجيل الخامس لم يتقرر بعد ،ويشكك البعض في إمكانية تحقيقه ، إلا أن جميع البوادر تشير إلى إنجازات مذهلة مرتقبة سنكتفي هنا بذكر بعضها :

ـ الترجمة الفورية بين عدة لغات : إن دمج هذه الامكانية في مقسمات الهواتف سيجعل من الممكن الاتصال الهاتفي بين أفراد يتكلمون بلغات مختلفة .

ـ آلات كاتبة تعمل بالاملاء ، أي قادرة على تمييز الكلام المنطوق وتحويله للمقابل المكتوب .

ـ آلات قارئة قادرة على تمييز النصوص المكتوبة وتحويلها إلى المقابل المنطوق .

ـ نظم آلية للفهرسة والاستخلاص والاختزال .

ـ إجراء الحوار بين المستخدم والحاسب ونظم الروبوت باستخدام اللغات البشرية « الطبيعية » مباشرة ودون الحاجة إلى لغات برمجة خاصة أو شفرات اتصال معينة .

بالنسبة لغير الناطقين بالانجليزية ، أو اليابانية يحمل مشروع الجيل الخامس في طياته كثيرا من التحديات القاسية بالقدر نفسه الذي يبشر فيه باحتمالات ضخمة لتعويض بعض جوانب التخلف في مجال المعلوماتية لكل الجماعات

اللغوية في عالمنا ، إن استيعاب أبعاده اللغوية ـ التقنية تعد إحدى المسئوليات الأساسية للعلماء والمختصين العرب ، ولا يقتصر الأمر على النواحي ذوات الصلة المباشرة باللغة والحاسب فقط بل يتجاوزها إلى كل الأمور المتعلقة بها من قريب ، أو بعيد ، خاصة في مجالات التعليم والتثقيف والاعلام والتصنيع .

١ : ٢ : ٢ ظاهرة انفجار المعلومات :

إن تضخم المعلومات وتعقدها يتطلبان سرعة ودقة في تجميعها وتحليلها ومعالجتها وتوزيعها واسترجاعها . لقد عجزت الوسائل البشرية للفهرسة والاستخلاص والتحليل عن ملاحقة هذا الكمّ الهائل من المعلومات التي تنهال علينا من مصادر عديدة ومتباينة . تمثل المعطيات المصاغة لغويا القسم الأكبر من فيض المعلومات ، ولذا فعملية السيطرة عليها لا بد وأن ترتكز في جوهرها على أسس لغوية متينة .

تصنف معظم مجتمعاتنا العربية ضمن تلك « الجائعة معلوماتيا »(٢) ، وحاجتنا ماسة لاستغلال مورد المعلومات كأحد المقومات الأساسية للعملية التنموية ، ومرة أخرى تبرز أهمية قضية اللغة العربية والحاسب كمدخل أساسي لاستغلال هذا المورد الهام .

١ : ٢ : ٣ الانتشار في استخدام الكمبيوتر التعليمي :

لقد بات واضحا عجز الكتاب المطبوع كوسيلة لتقديم المادة التعليمية ، وكذلك عدم فاعلية وسائل التعليم التقليدية الأخرى أمام تضخم المادة التعليمية وتعقدها . يطرح الحاسب نفسه كبديل منطقي لزيادة فاعلية التعليم وإنتاجية التعلم ، ومواجهة زخم المشاكل المتأصلة التي تعاني منها نظم التعليم « بالجملة » ذات الطابع التلقيني والسطحي . ينظر الكثيرون إلى الحاسب كمصدر أمل وحيد لاحداث التغيير الحتمي الذي طال انتظاره بالنسبة لنظم التعليم الرسمية ، وغير الرسمية على حد سواء . يتطلب هذا مراجعة شاملة لمعظم الجوانب اللغوية والتقنية للمنظومة التربوية ككل ، ويتوقف نجاحنا في هذا ، أساسا ، على مدى نجاحنا في تطويع وتهيئة الوسائل التقنية للمتطلبات الخاصة للغة العربية والمستخدم العربي .

١ : ٢ : ٤ التعامل باللغات الطبيعية للتحاور مع الكمبيوتر :

يتم التخاطب حاليا مع الحاسب باستخدام لغات برمجة رسمية « اصطناعية » ، أو لغات استفهام خاصة باسترجاع المعلومات . تتطلب هذه اللغات إلماما دقيقا بعديد من التفاصيل الفنية والأساليب الاجرائية . ومع التوسع في تطبيقات الحاسب ، وانتشار الحاسبات الميكروية في المكاتب والمنازل برزت الحاجة إلى إسقاط جميع الحلقات الوسيطة التي تفصل بين المستخدم وآلته الجديدة . أدى ذلك إلى التفكير في استخدام اللغات البشرية « الطبيعية » في التحاور مع الحاسب مباشرة . يقصد بكلمة « طبيعية » هنا اللغة التي تستخدم في الحياة اليومية بكل ما يكتنفها من خطأ ، ونقص ، ولبس ، وحذف ، وتحوير ، ونبر وتنغيم ، وانفعالات .

إن محو « الأمية الكمبيوترية » في مجتمعاتنا العربية لا يتطلب فقط توفير لغات برمجة عربية بل يلزمه أيضا إتاحة الوسائل العملية لاستخدام اللغة العربية ذاتها للتحاور المباشر مع الحاسب .

١ : ٢ : ٥ النشر الالكتروني :

تشير جميع الدلائل إلى أن وسائل النشر الالكتروني ستسحق الطباعة التقليدية معلنة سقوط « حضارة الورق » التي سادت المجتمع الانساني منذ اختراع روتنبرج للآلة الطابعة عام ١٤٤٠ م[٣] ويقوم النشر الالكتروني بتوزيع المعلومات من خلال وسائط إلكترونية كالأقراص والشرائط الممغنطة والأقراص والشرائح الضوئية (التسجيل بالليزر) ، أو بثها من خلال لوحة الاعلانات الرقمية وشبكات تبادل التلكس عن بعد « تيليتكس » ، أو تبادلها من خلال شبكات الفيديو « فيديوتكس » ، وذلك علاوة على نظم نقل البيانات الأخرى .

أدخلت بعض الدول العربية نظام الفيديوتكس ، وبدأت بعض الشركات العربية في توزيع برامجها التعليمية على الشرائح الالكترونية والأقراص الممغنطة وأشرطة الكاسيت والفيديو ، وتوفر شبكة القمر الصناعي العربي « عربسات » قنوات الاتصال اللازمة لاقامة شبكات نقل البيانات القطرية والاقليمية .

إن القرص الضوئي ذا طاقة التخزين الهائلة (قرص واحد يمكن أن يسع ما يوازي ١٠٠٠ كتاب مطبوع) هو ورقة البردي الجديدة[١] التي ستغير بشكل أساسي الصورة التي اعتدنا عليها للكتاب والمكتبة ، وتعيد صياغة العلاقة الجذرية بين منتج المعرفة ومستهلكها بصورة جديدة يصعب تصور آثارها .

يدعو هذا إلى استحداث طرق مبتكرة لاسترجاع المعلومات وتكثيفها « ضغطها » وذلك لزيادة طاقة وسائط تخزينها وقنوات تبادلها . يتطلب استرجاع وضغط النصوص العربية استغلال خصائص لغوية معينة للغة العربية حيث ثبت عدم جدوى استخدام الوسائل المصممة للغة الانجليزية في حفظ النصوص العربية أو استرجاعها .

١ : ٢ : ٦ طغيان الانجليزية كأساس لتقنيات الحاسبات والمعلومات :

منذ بداية ظهورها ، اتخذت تقنيات الحاسب والمعلومات من اللغة الانجليزية أساسا لها[٤] ، ومظاهر ذلك عديدة ، وتشمل تلك المتعلقة بتفاصيل البناء الداخلي لعتاد الحاسب ، ولغات برمجته وملحقاته (شاشات مرئية/آلات طابعة . الخ) . لقد طورت كل هذه العناصر أصلا لتتوافق مع مطالب استخدام اللغات اللاتينية بصفة عامة ، واللغة الانجليزية بصفة خاصة .

نظرا لبساطة اللغة الانجليزية ، مقارنة باللغات الأخرى ، فقد فرض الأساس الانجليزي قيودا تقنية على المعالجة الآلية لمعظم اللغات . وتزداد حدة هذه القيود كلما اتسع نطاق التباين اللغوى بينها وبين لغة الأساس أي الانجليزية . تمثل اللغة العربية واللغة الانجليزية - من وجهة النظر الحواسبية - طرفي نقيض ، وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور كثير من العقبات الفنية في تعريب الحاسبات (٢) ، وجعل من اللغة حاجزا آخر يضاف إلى جملة حواجز أخرى تفصل بين المستخدم العربي ، وهذا الوافد الجديد الذي نشأ ونما في بيئة لغوية مغايرة ، بل أكاد أقول متناقضة .

تشير الاتجاهات الحديثة لتصميم الحاسبات ونظم المعلومات والاتصالات إلى مرونة النظم الآلية في تخلصها التدريجي من سطوة الأساس الانجليزي ، ويسعى المصمِّمون حاليا لاكسابها خاصية « العمومية اللغوية »[٥] . وربما كان في قدوم الجيل الخامس من اليابان أحد العوامل الأساسية في إحداث « التوازن اللغوي » لتقنيات الحاسب والمعلومات

وذلك للاختلاف البين بين اليابانية والانجليزية . ويطرح ذلك على المستوى العربي سؤالين أساسيين بينهما ارتباط وثيق :

السؤال الأول : كيف نتحاور مع القيود التي فرضها الأساس الانجليزي في نظم المعالجة الآلية العربية دون ترخص أو تبسيط في خصائص العربية وقواعدها ، أو وضع قيود مفتعلة على مطالب المستخدم العربي واستخداماته ؟

السؤال الثاني : كيف تُسْتَغَل وتُطَوَّع الاتجاهات الحديثة لنظم الحاسبات وأساليب الذكاء الاصطناعي والميكرومعلوماتية في خدمة المطالب الخاصة باللغة العربية ؟ ، يمكن دمج السؤالين في واحد وهو : كيف نسخر التقنية في خدمة اللغة وليس العكس ؟ .

١ : ٢ : ٧ الترجمة الآلية :

تعد الترجمة الآلية أحد التطبيقات الأساسية للغويات الحواسبية . يسعى كثير من الدول والمنظمات الدولية والاقليمية (نذكر منها ، على سبيل المثال ، الولايات المتحدة وروسيا ومنظمة السوق الأوروبية المشتركة) لتطوير نظم ترجمة آلية ثنائية (من لغة إلى أخرى) ، وجماعية (من لغة إلى عدة لغات) .

ونظرا للطابع الاستهلاكي للمجتمعات العربية فيما يخص الانتاج العلمي والفكري تمثل الترجمة الآلية من اللغات الحية للعربية إحدى الوسائل الأساسية لتعويض الفقر الشديد في مواردنا العربية بصفة عامة ، وفي مجال المعلومات العلمية والتقنية على وجه الخصوص .

من المشين ، رغم توقعه ، أن نرى معظم الجهود التي تتم في هذا الصدد تجري خارج الوطن العربي وبخبرات معظمها غير عربية ، أو على الأقل غير لغوية[٦] .

تمثل الترجمة الآلية إحدى مناطق التفاعل الحاد بين اللغة والحاسب ، ولن يتوفر لها النجاح دون تأسيسها على فهم دقيق وشامل لجميع الجوانب اللغوية والحواسبية للغة العربية ، وتوفير الوسائل العملية للتعامل مع هذه الجوانب آليا .

١ : ٣ دوافع لغوية :

١ : ٣ : ١ قصور الدراسات اللغوية الحديثة :

لا يخفى على أحد القصور الشديد في الدراسات اللغوية الحديثة في مجال اللغة العربية ، ووراء هذا البحث الذي يتناول العلاقة بين العربية والحاسب ، دعوة لتحديث النظرة للغة العربية ككل وهو مطلب يناظر ما أدى إليه تزاوج الكمبيوتر مع اللغة الانجليزية وكثير من اللغات الأخرى كالروسية والفرنسية والسويدية والألمانية ، لقد احتاج الأمر إلى مراجعة شاملة لجميع جوانب المنظومة اللغوية حيث تفرض النظم الآلية على الموضوع الذي تعالجه انضباطا واكتمالا يتعذر بدونهما إخضاعه لمنطق الآلة وحسمها القاطع . وربما يكون في إقحامنا - أو اقتحامنا - للمشكلة على هذا المستوى إشارة إلى ما يمكن أن يؤديه الكمبيوتر في تعويض تخلفنا اللغوي : تنظيرا ، وتعقيدا ، واستخداما .

١ : ٣ : ٢ مشكلة تعليم اللغة العربية :

وهي بلا شك إحدى القسمات البارزة في أزمتنا اللغوية الطاحنة ، ومعضلة حادة على مستوى منظمة التربية ككل . يدرك الجميع الآثار السلبية لهذه المشكلة من حيث عزوف الكثير من أولادنا عن إتقان لغتهم الأم وتذوق مآثرها وتراثها ، وليس مجالنا هنا أن نناقش أسباب مأساة تعليم العربية ونتائجها الوخيمة ، فالقصد هنا أن نشير إلى عجز الوسائل التقليدية (كتابا أو معملا أو دوائر تلفزيونية مغلقة) في التصدي لهذه المشكلة ، وفي اعتقاد الكاتب أن الكمبيوتر يمكنه أن يقوم بمساهمة فعالة في هذا الصدد . إن ارتباط تعليم اللغة العربية بالكمبيوتر سيمحو من أذهان كثير من صغارنا ـ بل وكبارنا أيضا ـ مفهوما خاطئا ، أوشك أن يترسخ في أذهان الكثيرين ، وهذا المفهوم ينظر للعربية كلغة قديمة وعاجزة عن مواكبة التطور في جميع المجالات الاجتماعية الحديثة .

١ : ٣ : ٣ دخول تطبيقات الحاسب في مجالات العلوم الانسانية :

في مجال الانسانيات تتبوأ اللغة مكان الصدارة بلا شك ، ويتطلب ذلك أن نحدد « موضع » التحليل في الأنسجة الرقيقة التي تفصل ـ أو قل تربط ـ بين اللغة والعلوم الانسانية الأخرى ، ودعنا نحلق بخيالنا لنتصور ما يمكن أن يقوم به الحاسب في سبر أغوار العلاقة التي تربط بين اللغة وعلم النفس ، واللغة والأدب ، واللغة والنقد ، واللغة والشعر ، واللغة والتراث ، واللغة ونظرية المعرفة . إن الدخول في منطقة العلاقات المتداخلة التي تربط بين أزواج هذه العلوم لا بد أن يؤسس تحليلا دقيقا للقاسم المشترك بينها ألا وهو اللغة ، فبدون إخضاع اللغة العربية ذاتها لمنهجية العلم المضبوط ، ومطالب المعالجة الآلية الدقيقة سيتعذر علينا حتما أن نتناول علاقتها مع العلوم الانسانية الأخرى بصورة تحليلية دقيقة .

إن ضبط التنظير اللغوي للعربية ومعالجتها آليا هو ، من جانب ، بمثابة المظهر الذي يساعد على كشف موقع العلوم الانسانية على سلم النضوج العلمي ، ومن جانب آخر ، بمثابة « الجيرسكوب » العلمي الذي سيضبط نهج هذه العلوم « الفوقية » ويجعل من دخولها إلى مصاف العلوم الدقيقة المضبوطة .

١ : ٣ : ٤ التجني غير الموضوعي على اللغة العربية :

تتعرض اللغة العربية لهجوم شديد من الداخل والخارج وذلك لسحق الدعامة الأساسية للحضارة العربية والتراث العربي والاسلامي ، وآخر الادعاءات التي توجه ضدها هي عدم قابليتها للمعالجة الآلية بالكمبيوتر . (يذكرنا هذا بحملة مشابهة في بداية تطويعها لتقنيات الطباعة والتراسل الآلي) . إن إثبات زيف هذه الادعاءات على المستويين اللغوي والتقني ليس فقط ضربا من ضروب الحمية اللغوية ، ولكنه عامل هام لتخليص إخصائيي الحاسب ومستخدميه من أسر هذا المفهوم الخاطىء الذي يحد من طموحهم ، ويضع قيودا مصطنعة على أداء البشر ونظمهم .

١ : ٤ دوافع عامة :

١ : ٤ : ١ إقامة الحوار بين اللغويين والحواسبيين :

تعوز التفكير العربي عموما الدراسات العلمية المشتركة ناهيك عن التنازع والخلاف داخل أسوار المعسكر العلمي أو الفكري الواحد . في شقه السلبي ، يعد هذا أحد مظاهر عدم العلمية وتعذر لغة الحوار المؤسس على المنهجية العلمية

والمنطقية . إن تناول العلاقة بين اللغة ، قطب علوم الانسانيات ، والحاسب ، ذروة التقدم التقني ، ربما يتضمن إشارة إلى إمكانية إقامة الحوار ما بين الأطراف العلمية التي تقل بعدا .

إن البحث الراهن هو محاولة لدق إسفين في الكيان المتعتق لثنائية الثقافة التي تطغي على مجتمعاتنا العلمية تلك الثنائية التي هي أحد الأسباب الرئيسية في انكسار رؤ يتنا العلمية والثقافية وتشوه نتاجنا الفكري والتعليمي .

١ : ٤ : ٢ تأكيد ضرورة التوازن اللغوي والتقني :

قامت هذه الدراسة عن قناعة راسخة بأن العمل في حقل اللغويات الحواسبية يتطلب إلماما متوازنا بالنواحي اللغوية والتقنية ، ويعكس هذا البحث تجربة الكاتب الشخصية على مدى عشرين عاما في مجالات الكمبيوتر ، تطبيقا وتطويرا وبحثا ، والتي أضيف إليها نتاج رحلته المثيرة للتخلص من سذاجته اللغوية عبر مسار حلزوني متسارع للوصول إلى عمق لا يبدو له قرار .

رغم الاستعانة والاهتداء بكثير من المصادر العربية إلا أنه لا مفر من اللجوء في معظم الأمور إلى مصادر أجنبية متعددة وذلك نظرا لفقر المكتبة العربية لغويا وحواسبيا ، وإغفال الفكر العربي للثورة اللغوية التي أحدثها الكمبيوتر في مجال اللغة والثورة التقنية التي أدت إليها اللغة في مجال الكمبيوتر . لقد وضع الباحث ضمن أهدافه توفير بعض الجهد على الفنيين واللغويين على حد سواء . إن الهدف هو تحديد لنقطة بداية متقدمة نسبيا يرجى بها تخليص الحوار بين اللغويين والفنيين من بدائيته التي لا تخفى على أحد ، والتي تطغى على معظم اللقاءات العلمية والمهنية لمناقشة العلاقة بين اللغة العربية والكمبيوتر . ويكفي هنا أن يشار إلى أن كثيرا من المتخصصين ما زالوا يحصرون مفهوم المعالجة الآلية للغة العربية في المعنى الضيق لتعريب الحاسبات الذي لا يتجاوز القدرة على إدخال الحروف العربية من لوحة المفاتيح ، وطبعها على الورق ، أو إظهارها على شاشة عرض الوحدة الطرفية .

والخلاصة ، فإن التصدي للعلاقة بين العربية والحاسب هو ـ بلا شك ـ أحد المقومات الأساسية لاعداد المجتمعات العربية لعصر المعلومات القادم . إن إسقاط الحواجز المفتعلة بين أهل اللغة وأهل صنعة الكمبيوتر هو حتما بمثابة الخطوة الأولى التي تنطلق منها الجهود في اتجاه تحديد هذا الهدف .

٢ : هندسة اللغة

ربما يتساءل كثيرون كيف لدارس ذي خلفية هندسية أن يقحم نفسه في مجال يسوده بالتأكيد الطابع اللغوي ، ولا يخفى على القارىء أن بعضا من هذا الحرج ظل يصاحب الكاتب حتى بعد انتهائه من كتابة البحث ، وتمنى أن يتصدى للقضية أحد علمائنا اللغويين المحدثين حيث إلمام اللغوي بشئون الكمبيوتر هو ، بالقطع ، أمر أكثر منطقية وسهولة من إقحام الفني نفسه في خضم المتاهات اللغوية .

ولكن خشية أن يطول الانتظار وتحت ضغط أهمية القضية وعجلتها كانت هذه المغامرة العلمية سباحة ضد التيار ، وكان لا بد أن نرتضي لها تصورا عاما عن علاقة اللغة والهندسة ، يرى في اللغة موضوعا مثاليا للتناول الهندسي حيث تمثل اللغة منظومة معقدة متشابكة ، وينظر للهندسة بصفتها فن السيطرة على النظم المعقدة . تتميز الهندسة ـ وربما يعيبها في

رأي البعض ، وفي بعض الأمور ـ بقدرتها على تناول الموضوعات التي تفتقد الأساس النظري المكتمل وذلك بفضل اساليبها التقريبية وأغراضها العملية . في ظل هذا المفهوم تصبح اللغة العربية أكثر من غيرها حاجة للهندسة لقصور التنظير لها ، وما يعترى نظام تقعيدها من فجوات وعثرات .

ربما يبدو الحرج هنا مفتعلا في ظل اعتبار الذكاء الاصطناعي ، في كثير من جوانبه ، بمثابة الجانب الهندسي لنظرية اللغة ، بما يوحي بارتجال مصطلح جديد هو « هندسة اللغة » ، وإخصائيو الذكاء الاصطناعي هم مهندسوها الذين يسعون إلى استغلال المتاح من الحصاد اللغوي النظري والأمبريقي لتصميم وتطوير نظم للمعالجة الآلية للغة . يمكن لهذه النظم بدورها أن تكون عونا للغويين في بلورة نظرياتهم وشحذ افتراضاتهم ومعطياتهم واختبار صحة قواعدهم وتهذيبها .

حتى لا يبدو ما ذكر ضربا من ضروب التقنوقراطية البغيضة بات علينا أن نؤكد هنا أن اللغة ما زالت ـ وربما ستظل ـ دون السيطرة الهندسية الكاملة ، بل إن البعض ذهب ليؤكد أن الحدود التي يمكن أن تصل إليها الأساليب الآلية داخل نطاق اللغة أمر لا يمكن أن يترك الحسم فيه لمهندسي الذكاء الاصطناعي ، بل للتحليل النظري لعلماء اللغة وعلماء النفس والمنطق(٧) .

في ظل طابعه الهندسي التطبيقي يصبح البحث الحالي مجرد بداية تحتاج إلى التفريع والتفصيل والتعميق ، وخاصة أن المحاولة الحالية تتم في ظل مناخ علمي وتقني لم يستقر بعد ، فما زال حقل اللغويات الحواسبية دون تحديد كاف في مجاله ومنهجه ، وتفتقر اللغة في كثير من جوانبها إلى الأسس العلمية المستقرة ، ومعظم علوم الحاسب مازالت في نطاق « البرجماتيات » الهندسية . والحوار بين اللغويين والفنيين ما زال في بدايته . إن المحاولة الحالية هي دعوة يحدوها الأمل في أن تحظى قضية اللغة العربية والحاسب بالاهتمام الجدير بها من قبل جامعاتنا ومعاهدنا بل ومصانعنا أيضا ! ، ودعني أؤكد هنا أنه لن يتم ذلك إلا من خلال فريق من المتخصصين يكون للغوي فيه دور الريادة في هذا الحقل الحديث ، وإلا سيظل الأمر رهنا لتدخلات غير المختصين أو نهبا لاحتكارات الانتهازية العلمية والتقنية ، وما أشدها في مجتمعاتنا .

٣ : عن منهجية التناول ومشاكله

٣ : ١ أسس التناول

تفرض صعوبة الموضوع واتساعه ضرورة اتباع منهجية دقيقة في تناوله تناولا يبنى على أسس ومبادىء منطقية واضحة يمكن تلخيصها في الأسس التالية :

- مفهوم المنظومة
- اللغة هي المدخل
- العموميات اللغوية والخصوصيات العربية
- الدراسة التقابلية بين الانجليزية والعربية
- ثنائية التحليل والتركيب

- الحديث بلغة التداخل بين اللغة والحاسب
- التركيز على الجانب التطبيقي

إن مناقشة هذه الأسس والمبادىء يلقي كثيرا من الضوء على بعض جوانب إشكالية « اللغة - الحاسب » ، وهذا ما سنحاوله هنا بإيجاز .

٣ : ٢ مفهوم المنظومة

ويقصد بالمفهوم المنظومي توصيف الظواهر المعقدة بدلالة عناصرها الأبسط ، وكذا مجموعة العلاقات الداخلية التي تربط بين هذه العناصر ، والعلاقات الخارجية التي تربط الظاهرة بظواهر أخرى خارجها . يساعد هذا الأسلوب على الدقة والايجاز في وصف الظواهر المعقدة ، ويؤدي إلى إيضاح كيفية توزيع العمل بين العناصر المختلفة وطبيعة التداخل بينها ، ويساعد كذلك على تفسير تجليات الظاهرة بدلالة عدد محدود من المتغيرات والعوامل . إن الطرح المنظومي لكل من اللغة والحاسب هو وسيلة منهجية للسيطرة على زخم التفصيلات والتشابكات التي تحظى بها كل من منظومتي اللغة والحاسب كل على حدة كتوطئة لا بد منها لمحاصرة « غابة » التدخلات بينهما .

نظرا لنشأة الحاسب وتطوره في إطار هندسة المنظومات ، لذا فإن توصيفه المنظومي أسهل بكثير من ذلك الذي يخص اللغة ، والذي ما زال منظروها يحاولون في سعي حثيث تحليلها وتوصيف عناصرها وتحديد علاقاتها البينية .

٣ : ٣ اللغة هي المدخل

في مستهل البحث برز سؤال أساسي : هل المدخل في تناول الموضوع هو اللغة ويأتي بعدها الحاسب ؟ أم الحاسب وتتبعه اللغة ؟ أو بقول آخر ، هل ننطلق من اللغة لنفرعها ، صوتا وصرفا ونحوا ودلالة ، ولنناقش على ضوء هذا التفريع الجوانب الفنية المختلفة للمعالجة الآلية لكل من هذه العناصر كأساس نستطرد منه إلى جوانب تداخلها مع تطبيقات الحاسب التقليدية ؟ أم ننطلق من عناصر منظومة الحاسب وتطبيقاته كأساس لمناقشة الأبعاد اللغوية لكل منها ؟ ربما يبدو السؤال نوعا من السفسطة المنهجية ولكنه ، وعلى الرغم من صورته الظاهرة ، إحدى القضايا الأساسية في علاقة اللغة والحاسب . لقد شهد تاريخ العلاقة مرحلتين أساسيتين : مرحلة البداية وفيها سيطر الفنيون على الساحة لاخضاع اللغة لقيود الحاسب ، والمرحلة الحالية التي تشهد انتقال الهيمنة إلى جانب اللغويين بهدف تطويع تقنية الحاسب ونظم المعلومات للمتطلبات العديدة لمعالجة اللغة آليا .

إن البدء من اللغة هو المدخل المنطقي ، بل قل البديهي ، ويجيء متسقا مع منطق التسلسل الزمني بالاضافة إلى مبادىء تحليل النظم التي تفرض الانطلاق من مادة الموضوع تهيئة لاقامة النظم وتحديد مجالات التطبيق .

٣ : ٤ العموميات اللغوية والخصوصيات العربية

على الرغم من تباينها الواضح في تجلياتها الظاهرية « السطحية » ، تشترك جميع اللغات الانسانية ، الفصحى منها والعامية ، في الكثير من الخصائص المشتركة ، وترتكز منظوماتها على عدد قليل من المبادىء الموحدة والعامة . تعد هذه المبادىء والخصائص المشتركة أو ما يطلق عليها « العموميات اللغوية » إحدى الركائز المحورية التي تقوم عليها النظرية

اللغوية الحديثة(٨) . وهي بالنسبة لها كالبديهيات بالنسبة للنظريات الرياضية والهندسية ، ومحك التفصيل بين مناهج التنظير . فالعموميات اللغوية هي أداة التفسير ، وأساس التنظير ، ومنطلق التحليل . إن النظر إلى العربية ، أولا : بصفتها حالة خاصة من المنظومة اللغوية العامة ، وثانيا : باعتبارها فرعا من فروع فصيلة اللغات السامية ، يوفر كثيرا من الجهد النظري والتطبيقي على حد سواء . وسيساعد ذلك على رد كثير من ظواهرها وخصائصها إلى أصلها العام الذي تشترك فيه مع باقي اللغات الانسانية بصورة عامة ، واللغات السامية بصفة خاصة . إن الالتزام بهذا المبدأ يعد ضرويا لتخليص رؤ يتنا اللغوية من انغلاقيتها ، ومحدوديتها ، بل وغيبياتها أحيانا . ومن الجانب النظري ، يعد هذا عاملا أساسيا لدفع حركة التنظير اللغوي ، أما على الصعيد العملي فإن من البلاهة الفنية ألا نستفيد من الحصاد الهائل للأساليب التقنية التي طورت ، وستطور ، للمعالجة الآلية للانجليزية ولكثير من اللغات الأخرى مثل العبرية والفنلندية والألمانية والروسية واليابانية .

ولا حاجة بنا أن نوضح هنا أن ما نقصده بضرورة النظر إلى اللغة العربية في إطار العموميات اللغوية لا يعني طمس خصائصها ، أو إغفال سماتها المميزة ، فهذا أحد المفاهيم الخاطئة السائدة لفهم المقصود بالعموميات اللغوية التي تتصدى لظاهرتي العموم اللغوي والتباين اللغوي معا . إن لكل لغة رؤ يتها الخاصة في التعبير عن العالم خارجها ، وكل ما يعنينا هنا هو تحاشي التكرار ، وتأكيد ضرورة تفسير الخاص في إطار العام كلما أمكن ، وذلك حتى يكتسب تفسيره الأصالة والعمق ، وحتى يمكن أيضا تحليل علاقاته مع الظواهر اللغوية الأخرى .

٣ : ٥ الدراسة التقابلية بين اللغة الانجليزية والعربية

كما سبق وأشرنا فقد تم تطوير معظم تقنيات نظم الحاسبات والمعلومات متخذة من الانجليزية أساسا لها ، لذا ، وكما هو متوقع ، اتجه الجهد الأعظم في تعريب الحاسبات نحو اخضاع العربية ـ وبصورة متعسفة في كثير من الأحيان ـ للقيود الفنية الناجمة عن كون الانجليزية هي لغة الأساس . ليس من الحكمة في شيء أن يكون التصدي لهذه الظاهرة من خلال رد فعل متسرع يتجاهل الكم الهائل من الأسس النظرية والوسائل العملية التي أنجزت ، وستنجز ، في حقل اللغويات الحواسبية في حقل اللغة الانجليزية . إن استغلالنا لهذا النتاج العلمي والتقني الهائل لا بد أن يستند إلى تحليل دقيق لمواضع الوفاق والخلاف بين العربية والانجليزية وذلك على جميع مستويات المنظومة اللغوية ، ودراسة انعكاس ذلك على النواحي الحواسبية . بدون هذه النظرة التقابلية يتعذر تحديد ما يمكن نقله وتطويعه ، وما يمكن للعاملين في حقل الكمبيوتر العربي أن يضيفوه في هذا المجال الحيوي .

٣ : ٦ ثنائية التحليل والتركيب

يطغى على حقل اللغويات الحواسبية كثير من العناصر والتطبيقات التي يمكن ردها إلى ثنائية التحليل والتركيب ، ولكل مجال فرعي لها شقه التحليلي ، وشقه التركيبي (أو التوليدي) ، وسنكتفي هنا بسرد بعض الأمثلة من الجانب اللغوي :

الصرف	اشتقاق الجذور : تحليلي
	نحت المفردات : تركيبي
الأصوات	السمع : طابعه التحليل
	النطق : طابعه التوليد
الترجمة	تحليل لغة المصدر ، ثم ا
	تركيب المقابل بلغة الهدف

تحظى نظم معالجة اللغة آليا بوسائل ذات طابع تحليلي صرف ، وبأخرى ذات طابع تركيبي صرف . وهناك تطبيقات تجمع بين شقي التحليل والتركيب معا ، كنظم معالجة المعلومات والترجمة الآلية . ولا يتوقف الأمر على مجرد الجمع بين التحليل والتركيب بل نجد في بعض المواقف ضرورة تداخلهما بصورة يصعب معها الفصل بينهما ، ويقصد بذلك اتباع بعض النظم الآلية لأساليب التحليل بالتركيب والتركيب بالتحليل . في الأولى : نحلل ثم نعيد التركيب لاختبار صحة ما قمنا بتحليله أو افتراضه ، وفي الثانية : نركب ثم نعيد التحليل لنتحقق من سلامة التركيب .

إن النظر من خلال « منشور » التحليل والتركيب يصفي الرؤية ، ويقطّر المفاهيم ، ويبرز علاقات الترابط بين الظواهر المتباعدة ، أو التي تبدو متباعدة .

٣ : ٧ الحديث بلغة التداخل بين اللغة والحاسب

ليس الحديث عن اللغويات الحواسبية هو حاصل جمع الحديث عن اللغة والحديث عن الحاسب كل على انفراد . ولو كان الأمر كذلك لأصبحت المهمة هي مجرد تجميع آلي لمعارف وأفكار ومفاهيم لمجالين مختلفين . سيتركز الحديث على العلاقة البينية وذلك من خلال وحدة النهج ، وإبراز مواضع الوفاق والخلاف . إن الحديث بلغة التقاطع والتداخل بين اللغة والحاسب يفرض اللجوء إلى كثير من المصطلحات المستحدثة والدقيقة . والتي يتعذر بدونها تناول كثير من القضايا المتعلقة .

٣ : ٨ التركيز على الجانب التطبيقي

يزخر حقل اللسانيات والحاسبات بكثير من القضايا النظرية والمسائل الفلسفية ، والجوانب النفسية والاجتماعية ، وتركز هذه الدراسة على الجانب التطبيقي للغويات الحواسبية وما يتعلق به من أسس نظرية . والهدف من ذلك هو تأكيد الجانب العملي والتقني لعلوم الحاسبات في مجال اللغة ، وعلوم اللغة في مجال الحاسب .

٣ : ٩ مشاكل التناول

واجه البحث كثيرا من التحديات خاصة على الجبهة اللغوية التي يمكن تلخيصها في مشكلتين أساسيتين :

- فوضى المصطلحات وقصورها .
نقص البحوث والمراجع العربية .

بالنسبة للمشكلة الأولى ، لا يخفى على أحد فوضى المصطلحات التي نعاني منها في مجالي اللغة والحاسب على حد سواء ، ويكفي دليلا على ذلك أن نأخذ ما ارتجل من مصطلحات عربية مترادفة لرأسي موضوع اللغويات الحواسبية ذاتها : LINGUISTICS & COMPUTER

LINGUISTICS	COMPUTER
اللغويات	حاسب آلي
اللسانيات	حاسب إلكتروني
الألسنية	حاسوب
علم اللغة	دماغ إلكتروني
علم اللغة الحديث	حاسبة آلية
الدراسات اللغوية	حاسبة إلكترونية كمبيوتر

تمتد ظاهرة الترادف والارتجال إلى معظم المفاهيم الأخرى ولنأخذ على سبيل المثال مصطلحا أساسيا من علم اللسانيات هو "Semantics" وآخر من دنيا الحاسب وهو Informatics .

Semantics	Informatics
علم الدلالة	المعلوماتية
علم المعاني	الإعلامية
النحو العالي	الإعلاميات
البيان	الإعلام الآلي
السيمانتيك	الإنفورماتيك

من البديهي أن يؤدي ذلك إلى مشكلة أعقد بكثير في مجال متداخل كاللغويات الحواسبية حيث تتضاعف حدة المشكلة بصورة أسوأ .

بجانب ذلك ، فهناك كثير من المصطلحات دون مقابل عربي ، وهو ما فرض في كثير من الأمور ارتجال مصطلحات كثيرة يستحيل دونها استمرار العرض ، وعلى الرغم من مراعاتنا دقة دلالتها على الظواهر التي تعبر عنها إلا أنه لا يمكن الزعم بصحتها المطلقة .

أما عن مشكلة قصور البحوث والمراجع العربية فالمكتبة العربية فقيرة للغاية في مجال الدراسات اللغوية الحديثة ، وتندر البحوث اللغوية المتعمقة ، خاصة تلك التي تطبق نتائج النظرية الحديثة للسانيات ، أما على مستوى مراجع الحاسب العربية فلا يتجاوز المتوفر منها كتب المبادىء ، ولغات البرمجة ، وتراجم قليلة جدا لبعض المراجع في نظم المعلومات والمكتبات .

إذا انتقلنا إلى اللغويات الحواسبية ذاتها فسنجد معظم البحوث باللغة الإنجليزية . ومعظمها ذو طابع فني يركز على الأمور المتعلقة بالمعالجة الآلية للحروف العربية إدخالا وإخراجا ، وقليل منها يناقش بعض الأمور المتعلقة بالصرف

العربي . ورغم ندرة هذه الدراسات فلا يوجد حصر دقيق لها . ونحن في أمس الحاجة لدراسة بيبلوغرافية لحصرها ، تحاشيا لتكرار البحوث وهي ظاهرة متفشية في حقل تعريب الحاسبات ، ولعلم الكاتب تقوم كلية علوم الحاسبات والمعلومات بجامعة الملك سعود بالرياض بحصر بحوث التعريب على مستوى الوطن العربي .

٤ ـ منظومة الحاسب من منظور اللغة

سنعرض هنا وبإيجاز شديد عناصر منظومة الحاسب من منظور لغوي دون الدخول في تفاصيل فنية . يوضح (شكل ١ : أ) المكونات الرئيسية لمنظومة الحاسب والتي أهمها :

ـ عناصر الإدخال التي يغذي من خلالها المستخدم البشري معطياته المكتوبة أو المنظومة أو التي يقوم بإدخالها مباشرة من لوحة المفاتيح .

ـ وحدة التحكم المركزية التي تقوم بجميع العمليات الحسابية والمنطقية ، وتربط ما بين العناصر المختلفة لمنظومة الحاسب .

ـ وحدة الذاكرة التي تتضمن برنامج نظام التشغيل الذي يتحكم في إدارة نظام الحاسب ، وبرامج التطبيقات التي تتضمن تعليمات المستخدم في كيفية معالجة مدخلاته لاستخراج نتائجه .

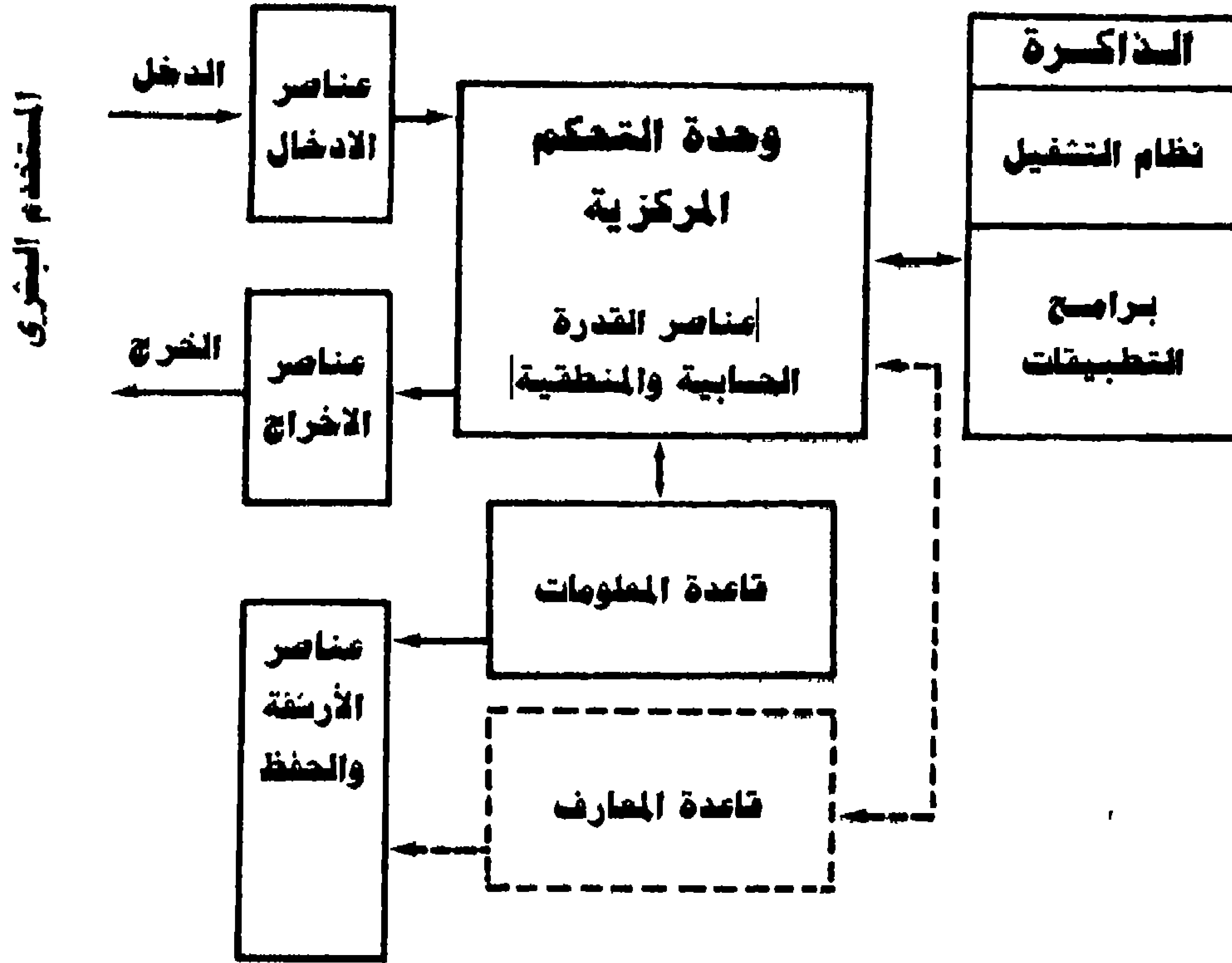
ـ قاعدة المعلومات التي تتضمن البيانات والملفات التي تتعامل معها برامج التطبيقات .

ـ عناصر الإخراج التي تمد المستخدم بالنتائج أو المعلومات المطلوبة سواء بإظهارها على الشاشة المرئية أو طبعها على الورق أو إخراجها في هيئة كلام منطوق . لقد تبلور دور الحاسب ليصبح أداة لحل المسائل والمشاكل مما ظهرت معه الحاجة لتجاوز الحدود الضيقة لمعالجة المعلومات إلى معالجة المعارف نفسها ، فالمعرفة هي الركيزة الأساسية في توصيف المشاكل وحلها ، والمعرفة هي حصيلة التفاعل العنيف بين ثالوث المعلومة والخبرة الإنسانية والحكمة في إنجاز القرارات وتقويم المواقف ، وهكذا برز إلى الوجود مفهوم قاعدة المعارف لتحتل مكانة قاعدة المعلومات في نظم الذكاء الاصطناعي والنظم الخبيرة ، وأصبحت هندسة المعرفة هي الوسيلة لتحويل المعرفة الإنسانية إلى صورة يمكن تخزينها واسترجاعها في قواعد للمعارف قابلة للتحديث إضافة وتعديلا وحذفا .

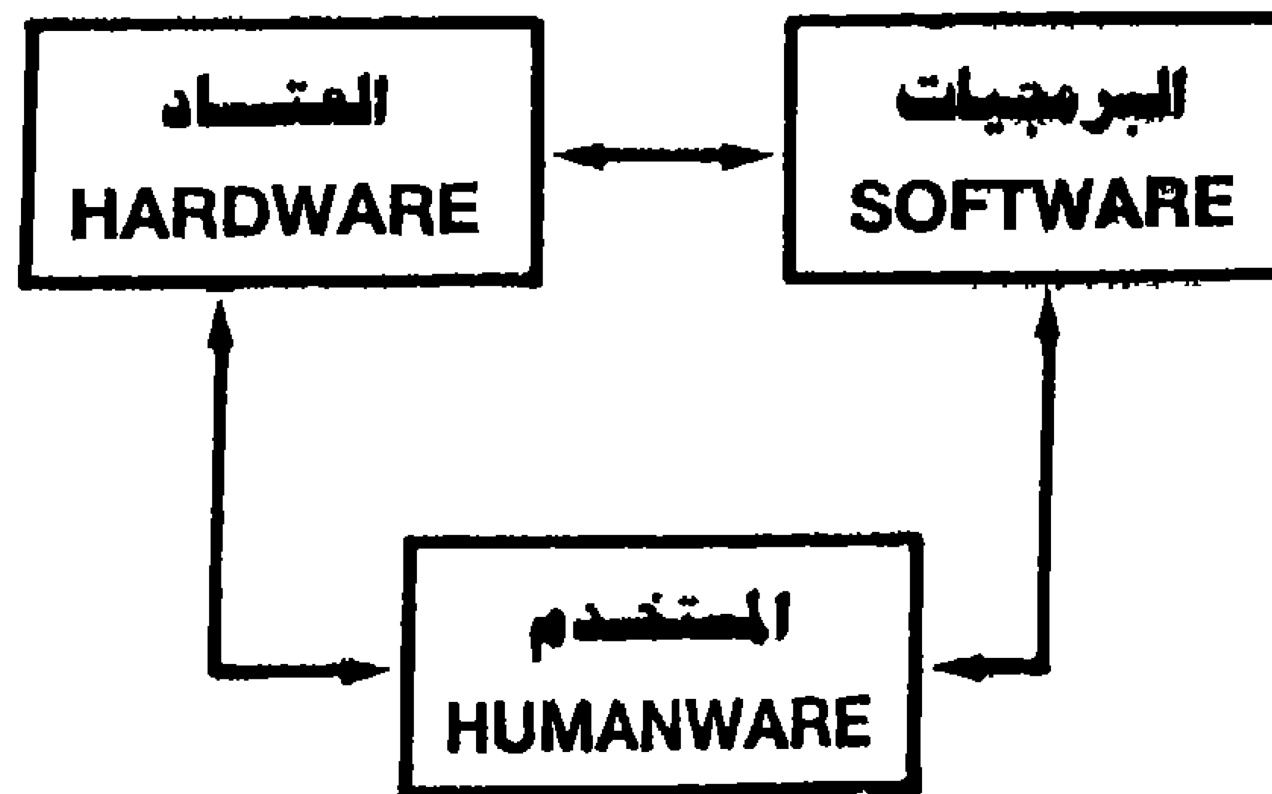
على مستوى أعلى من التجريد يمكن تمثيل منظومة الحاسب بثالوث : العتاد + البرمجيات + المستخدم (شكل ١ ب) . وتمثل البرمجيات الوسيلة العملية لتخزين الفكر الإنساني وهو يعمل .

تتفاعل منظومة الحاسب مع منظومات أخرى خارجها أهمها :

(١) المنظومة التكنولوجية (تصنيع الحاسبات والبرامج واستخدام نظم الحاسبات في الصناعة) .
(٢) المنظومة التربوية (تدريس مادة الكمبيوتر ، واستخدام الكمبيوتر لتعليم المواد الأخرى) .
(٣) المنظومة البيولوجية (اعتبارات الهندسة البشرية في تصميم نظم الحاسبات ، والتفكير في تصميم حاسبات باستخدام الخلايا البيولوجية) .



شكل ١ : أ المكونات الأساسية لمنظومة الحاسب



شكل ١ : ب العناصر الثلاثية لمنظومة الحاسب

وبنظرة سريعة لمنظومة الحاسب تتضح لنا على الفور الأبعاد اللغوية التي تتميز بها كل مكوناتها ، فعناصر الإدخال والإخراج عليها أن تتعامل مع المعطيات اللغوية ، ووحدة التحكم المركزية عليها أن تكتسب السرعة والتنظيم اللذين يؤهلانها للمطالب « القاسية » لمعالجة اللغة آليا ، وذاكرة الحاسب عليها أن ترتقي لتحاكي بعض وظائف الـذاكرة البشرية حتى يمكن تخزين واسترجاع المعلومات والمفاهيم اللغوية . وعلى نظم المعلومات أن تزيد من طاقتها وذكائها لتصبح قادرة على تنظيم واسترجاع هذا الكم الهائل من النصوص اللغوية وهكذا .

٥ ـ منظومة اللغة من منظور الحاسب

٥ : ١ ـ عناصر المنظومة

اللغة ـ بلا منازع ـ هي أكثر الصفات البشرية التي تميز جنسنا البشري ، وهي ليست مجرد نظام لتوليد الأصوات الناقلة للمعنى ، بل هي مرآة العقل ، ووعاء الفكر ، والهيكل الحديدي الذي يقيم صلب المجتمعات . إن كون اللغة نشاطا إنسانيا ، يمثل نزوعا وتخيلات وأفكارا ومشاعر داخلية ، كما يمثل قدرات عقلية خاصة بالإنسان . إن كون اللغة بهذا الاعتبار يجعل من الممكن استكشاف قوانين خاصة بنشأتها ونموها وتطوراتها المعقدة ، فليست اللغة نظاما عشوائيا بل منظومة متسقة تقيدها الضوابط وتحكمها القواعد المطردة . وفي المنظومة ، خلف شواردها وظواهرها وشذوذها ، يكمن كثير من التشابكات والتداخلات الدقيقة التي تدين للتحليل وتخضع للتقنين والتقعيد .

بداية دعنا نقر هنا بصعوبة تحديد نطاق المنظومة اللغوية وتكوينها الداخلي وذلك لتعدد مواضع تداخلها مع عديد من المنظومات الأخرى ، وعدم استقرار الرأي حول كثير من الأمور التي تخص عناصر بنيتها الداخلية والعلاقات التي تربط بينها .

يوضح (شكل ٢ أ) تمثيلا منظوميا للكيان اللغوي بصفته منظومة شاملة لعدة منظومات فرعية هي :

- منظومة الصوتيات (الفونولوجي)
- منظومة الصرف (المورفولوجي)
- منظومة النحو (السنتاكتيك)
- منظومة الدلالة (السمانتيك)
- منظومة المعجم
- منظومة المقاميات (البرجماتيك)
- منظومة الكتابة

في حين تمثل منظومة طبيعة الأصوات (الفونتيك) الشق الفسيولوجي لعمليات النطق والسمع ، تمثل منظومة الصوتيات (الفونولوجي) الشق التنظيمي لها حيث تقوم بمهمة نظام الإدارة لنشاط الأصوات اللغوية والذي يرتكز على مجموعة من القواعد الفونولوجية التي تحكم الطريقة التي تخرج بها هذه الأصوات وتتلون درجاتها ، وتحدد كذلك مواضع النبر وأنماط التنغيم وخلافه .

منظومة الصرف (الفونولوجي) هي المسئولة عن بنية الكلمات من حيث هيكل عناصرها والعلاقات التي تربط بين هذه العناصر . تعمل منظومة الصرف في ظل عدد من المبادىء والقواعد التي تحكم عمليات تكوين الكلمات (الاشتقاق) وتصريفها وتركيبها وكذلك دمجها مع العناصر الأخرى كالضمائر المتصلة ، وأدوات التعريف وحروف الجر وعلامات الإعراب وهلم جرا .

يحال إلى منظومة النحو مسئولية ترتيب الكلمات داخل الجمل وعلاقات « التعليق » التركيبي التي تربط بينها . تتضمن منظومة النحو عدة آليات تتحكم في ترتيب الكلمات داخل الجمل مثل تلك الخاصة بالتقديم والتأخير ، والحذف والإضافة ، والضمائر والاستتار ، وما شابه .

بصورة عامة وتقريبية تختص منظومة الدلالة (السيمانتيك) بالقضايا المتعلقة بالمعنى ، وهي تفرض قيودها على منظومة النحو بحيث تمنع توليد جمل سليمة نحويا وغير مقبولة دلاليا ، مثل : « نامت الصخور على صدر أمها » . تتعامل منظومة الدلالة مع أنواع متباينة من القرائن المعنوية(٩)، هي : الدلالة الوظيفية ، والدلالة المعجمية ، والدلالة السياقية ، والدلالة المنطقية .

يقصد بالدلالة الوظيفية (معاني المباني) تلك المتعلقة بمعاني الصيغ الصرفية (مثل معنى المطاوعة في كلمة انكسر ، والإكثار في كلمة مهذار) ، ومعاني الزوائد التصريفية (والتي تدل على العدد والجنس والغيبة والحضور) ومعاني التركيبات والأساليب النحوية مثل الإسناد والتعدية والاستفهام والتخصيص ، وهلم جرا .

أما الدلالة المعجمية فهي تلك الخاصة بالمعاني المطلقة التي ترتبط بالألفاظ ويتم إطلاقها عشوائيا كإطلاق لفظ « أسد » ليدل على حيوان الغابة الذي نعرفه فليس هناك علاقة منطقية ما بين اللفظ ومدلوله .

يقصد بالدلالات السياقية تلك التي يمكن استنباطها منطقيا من مضمون الجمل فإذا قلنا مثلا إن ملك النرويج قد زار جمهورية فرنسا فيمكن أن نستنبط أن النرويج دولة ملكية ، وأن هناك رئيسا للجمهورية لدولة فرنسا .

فيما يخص المعجم فهو رصيد الإرتجالات والاعتباطيات اللغوية ويمثل أحد عناصر المواجهة لمنظومة اللغة مع المعالم خارجها . تتفاعل منظومة المعجم مع جميع المنظومات الفرعية الأخرى . تتلقى المنظومة المعجمية قواعد تكوين الكلمات (أو الصيغ الصرفية) ومتونها المستحدثة (كالجذور والكلمات المنحوتة) ، وتستخرج منها الكلمات المشتقة ومعطياتها الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية التي تغذي المنظومات الفرعية الأخرى .

تمثل منظومة المقاميات العنصر الثاني لمواجهة المنظومة اللغوية مع العالم الخارجي(١٠). فهي تتعامل مع العوامل الواقعة خارج نطاق اللغة ولكن لها تأثيراً مباشراً على تفسير أو توليد التعبيرات اللغوية . تشمل العوامل الخارجية ظروف « المقام » الذي يتم فيه « المقال » أو الحدث اللغوي ، وكذلك درجة الصوت ونمط تنغيمه . فيمكن أن يدل التعبير اللغوي نفسه على معنى مختلف تماما لو تم نطقه في مقام مختلف ، ويمكن أن يكون ذات التعبير وَعْداً أو وَعِيداً ، تحذيرا أو ترغيبا وفقا لنمط التنغيم الصوتي المصاحب لنطقه .

لا يكتمل التواصل اللغوي على أساس المعرفة اللغوية المحضة بل يحتاج كذلك إلى معرفة ما عن العالم الخارجي الذي يعبر عنه . أو بقول آخر يتم التفاهم المتبادل بين المتكلم والمستمع على أساس افتراض خلفية معرفية مشتركة تربط بينهما . تتعامل منظومة المقاميات مع العلاقات التي تربط بين التعبيرات اللغوية والعالم الخارجي الذي تعبر عنه أو تحدث في إطاره .

قبل الانتهاء من الحديث عن عناصر المنظومة اللغوية نضيف هنا ـ وعلى استحياء ـ منظومة الكتابة ، فهي ورغم أهميتها ، دخيلة على المنظومة اللغوية ، وهي تابع لمنظومة الصوتيات ، لا يعني ذلك أن الصلة بين منظومتي الكتابة والصوتيات هي علاقة « واحد إلى واحد » فهناك حروف تكتب ولا تنطق ، وهناك ما ينطق وليس له نظير كتابي ، علاوة على نطق الحروف نفسها بطرق مختلفة حسب موقعها من الكلمة .

٥ : ٢ ـ علاقة المنظومة اللغوية بخارجها

ترتبط المنظومة اللغوية بعلاقات وثيقة مع عدة منظومات أخرى ، من أهمها :

- المنظومة البيولوجية
- المنظومة التربوية
- المنظومة التقنية
- المنظومة الثقافية

تمثل علاقة منظومة اللغة مع المنظومة البيولوجية ذروة التلاقي لعلاقة المنظومة بخارجها . فالنشاط اللغوي ينبع من البيولوجي ويصب فيه . تتلخص العلاقة في الأمور المتعلقة بوظائف الأعضاء لجهازي النطق والسمع من جانب (الفونتيك) ، والوظائف الذهنية اللغوية التي يقوم بها المخ البشري من جانب آخر (علم اللغويات الأعصابية)[١١] .

يمكن تلخيص علاقة اللغة مع المنظومة التربوية في شقي العلاقة الانعكاسية : « اللغة كمادة تعليمية » ، و « اللغة كوسيلة لتقديم المادة التعليمية » .

فيما يخص العلاقة بين المنظومة اللغوية والمنظومة التقنية فيمكن تفريعها إلى :

- علاقة اللغة بتقنيات الطباعة ومعدات المكاتب والأرشيف وما شابه .
- علاقة اللغة بتقنيات الحاسب (وهي موضوع البحث الراهن) .
- علاقة اللغة بتقنيات المعلومات ونظم الاتصالات .

مرة أخرى ، وأخيرة ، يمكن تلخيص علاقة اللغة بالمنظومة الثقافية في الشقين الرئيسيين : « اللغة كأداة للثقافة » ، و « اللغة كقضية ثقافية » . يشتمل الشق الأول على الأمور المتعلقة باستخدام اللغة في فنون الأدب والشعر والفن التشكيلي ، علاوة على علاقة اللغة بوسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية . أما الشق الثاني فيتناول نطاقا عريضا من القضايا العامة والخاصة مثل قضية التثقيف اللغوي ، وقضية العلاقة بين أزمة الفكر العربي وأزمة اللغة (مدى ارتباط التمييع الفكري بالتمييع اللغوي !) وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

٥ : ٣ ـ خصائص المنظومة اللغوية

تتسم المنظومة اللغوية بعدة خصائص مميزة من أهمها :

ـ الخاصية الخلاقة : ويقصد بها قدرة اللغة على إنتاج عدد لا نهائي من التعبيرات اللغوية(٨) .

ـ الاتساق والتماسك : ويقصد به صعوبة الفصل بين العناصر الفرعية للمنظومة اللغوية ، وكذلك اتساق الآليات اللغوية على اختلاف المستويات (آليات المماثلة ، والحذف ، والإضافة ، والإبدال ، والقلب ، والاسترجاع وهلم جرا) .

ـ الفائض اللغوي : يقصد بالفائض اللغوي ـ وبتبسيط شديد ـ أن الافصاحات اللغوية تتضمن في ثناياها عناصر متكررة يمكن اختزالها أو الترخص فيها حيث يمكن استنتاجها من علاقات الترابط بين العناصر اللغوية المختلفة .

ـ القوة والمرونة : رغم لبسها وغموضها ، وحذفها ، ونقصها ، واستتارها ، وإضمارها ، ولحنها وخطئها تظل الإشارة اللغوية ذات قدرة « غريبة » ومرونة هائلة للتعبير عن جميع المواقف ، المعتادة والطارئة .

ـ خاصية التعدد : تختلف اللغات الإنسانية عن نظم الشفرة الآلية في غياب الصلة المباشرة (علاقة واحد لواحد) بين الرمز والمدلول حيث تتعدد علاقة الصلة بينهما لتصبح من « الوحدة إلى المتعدد » أو العكس « من المتعدد إلى الوحدة » . وأمثلة ذلك كثيرة فالصوت اللغوي له أكثر من لون ، والحرف له أكثر من شكل ، واللفظ له أكثر من معنى ، ويمكن أن تتحد عدة مرادفات في معنى واحد وهكذا .

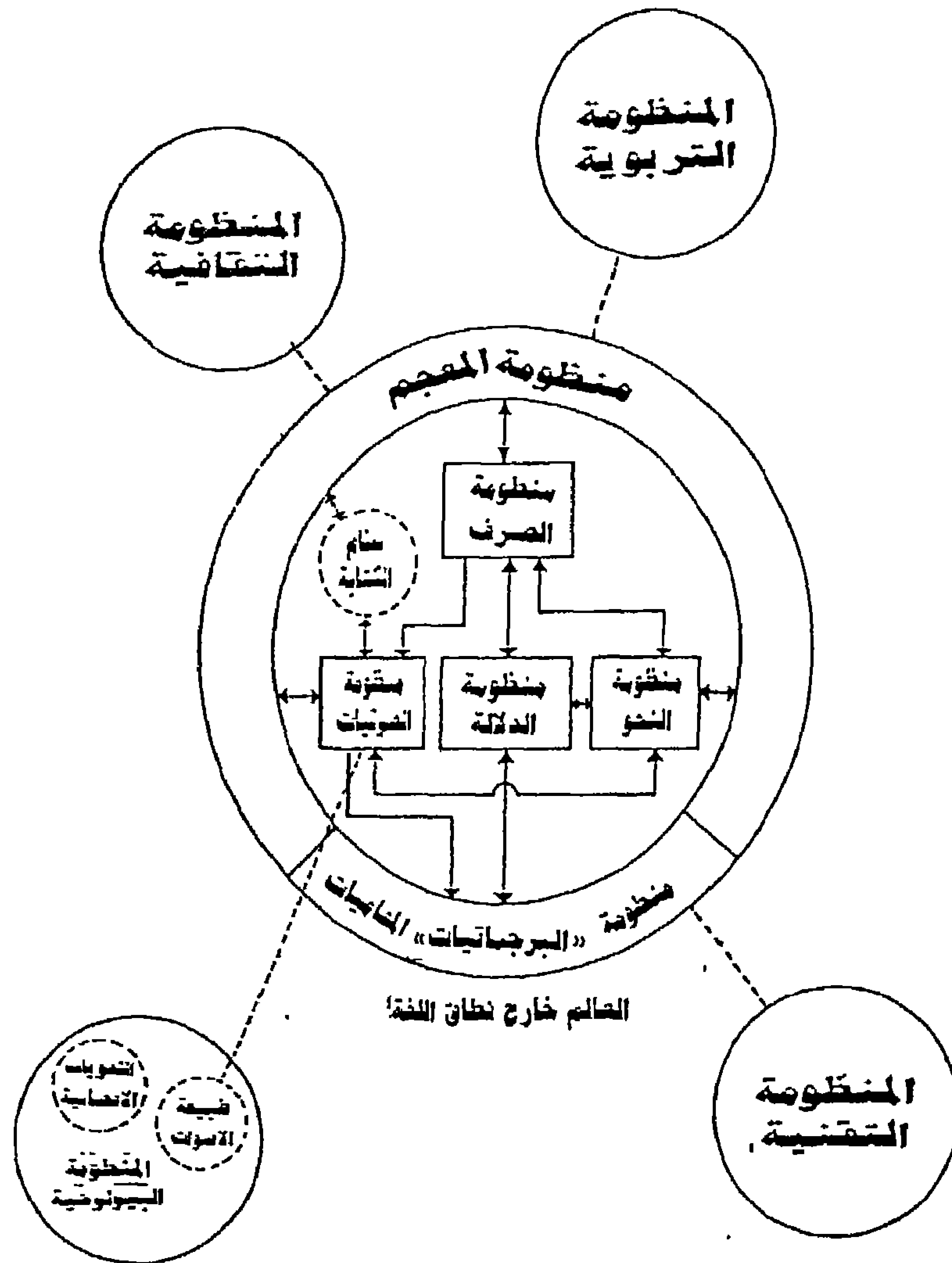
ـ الانتظام الإحصائي للغة : يمكن اعتبار الانتظام الإحصائي ظاهرة فوقية أو متغيراً تابعاً لتداخل كثير من المتغيرات المحكومة بالقواعد والقيود اللغوية المختلفة .

٥ : ٤ ـ خصائص منظومة اللغة العربية

مدخـــل

اللغة العربية أعقد اللغات السامية وأغناها صوتا ، وصرفا ، ونحوا ومفردات . وقد تحدث عنها كثيرون ، عرب ومستشرقون ، بعضهم يمجد عبقريتها وحكمتها وسحرها ، والبعض الأخر يرميها بالقصور ، والعجز عن ملاحقة التطور ، والصعوبة ، التي لا معنى ، ولا مبرر لها ، مما يستوجب تبسيط كتابتها وصرفها ونحوها .

سنحاول في عرفنا الراهن أن نتجاوز حدود الأحكام القيمية بتركيز الحديث على خصائص اللغة العربية باعتبارها إحدى الحالات الخاصة للمنظومة اللغوية العامة التي قمنا بتحديد إطارها .



شكل ٢ : الاطار العام للمنظومة اللغوية

في رأيي أن أهم خصائص منظومة اللغة العربية هي :

- التوسط اللغوي
- حدة الخاصية الصرفية
- المرونة النحوية وظاهرة الإعراب
- الانتظام الصوتي
- الحاسية السياقية
- تعدد نظم الكتابة
- اعتماد المعجم على الجذور
- شدة التماسك بين عناصر المنظومة اللغوية
- حدة الفائض اللغوي
- ثنائية الفصحى والعامية

٥ : ٤ : ١ ـ التوسط اللغوي

تتسم العربية بتوازن في معظم ظواهرها اللغوية . ويضعها هذا التوازن في منطقة وسط بين طرفي المحاور اللغوية وذلك على مستوى الكتابة ، والصرف ، والنحو ، وحتى الصوتيات . ففي نظم الكتابة ليست الأبجدية العربية فونيمية صرفة ، كما هو الحال بالنسبة للأسبانية والفنلندية والتشكيلية ، حيث يناظر كل حرف فونيما واحدا ، وليست مقطعية كاليابانية حيث تتكون الأبجدية من مقاطع ثنائية صامت تتبعه حركة ، مثل كا ، ما ، يا . فالأبجدية العربية رغم كونها فونيمية أساسا إلا أن نظام كتابتها يتضمن حروفا ذات طبيعة مقطعية وهي لا ، لأ ، أ ، إ ، ؤ ، ىء ، حيث تمثل كل من هذه الحروف صامتا يتبعه (أو يسبقه أحيانا) حركة قصيرة أو طويلة . ويجمع نظام الكتابة أيضا بين الحروف وحركات التشكيل والتي يعد استخدامها اختياريا .

أما بالنسبة للتركيب الصرفي « مورفوسينتاكتيك » لبنية الكلمات العربية فهي وسط بين لغات الكلمات المنعزلة وشبه المنعزلة كالإنجليزية والفرنسية ، واللغات ذات الكلمات المركبة لصقيا كالألمانية ، حيث يمكن أن يندمج في بنية الكلمة الواحدة عدة مورفيمات ، فالعربية تسمح باتصال الضمائر ، والحروف المقررة ، وأداة التعريف ، وأداة التنكير (التنوين) ، وأداة النفي أحيانا (لاسلكي) .

وفي نظامها النحوي أيضا ، تجمع العربية في ترتيب عناصر الإسناد بين نمطي الترتيب "SVO" ، "VSO" أي بين تقديم الفعل أو تأخيره عن فاعله . وحتى على مستوى الصوتيات تبدو العربية وسطا بين اللغات التي يتوقف نطق الكلمات فيها على تسلسل مقاطعها الصوتية فقط ، وبين اللغات التنغيمية التي تضيف قوالب تنغيمية في كلماتها ونقصد بذلك القوالب الصرفية .

فيما يخص خاصية تكوين الكلمات من أصولها تأتي العربية أيضا وسطا بين الإلصاق ، سمة اللغات اللصيقة كالتركية والفنلندية مثلا حيث يتم لصق الزوائد في بداية الكلمات أو نهايتها دون عجزها ، والانصهار حيث تتداخل

حروف الزيادة والحركات مع الحروف الأصلية للجذر ، فنرى في العربية التصريف يغلب عليه طابع الإلصاق ، في حين يطغى الانصهار على الاشتقاق .

ومن حيث خاصية الإعراب فالعربية (٣ حالات إعرابية وسطاً بين اللغات التي لا تتعامل مع الإعراب إلا في أضيق الحدود كالإنجليزية ، وتلك ذات الخاصية الإعرابية الطاغية مثل الروسية (٦ حالات إعرابية) . فيما يخص صيغ الأفعال ، تجيء العربية (١٥ صيغة للفعل) وسطا بين تلك ذات صيغ الأفعال المحدودة كالإنجليزية ، وتلك المفرطة في صيغ الأفعال كالإسبانية (٣٠ صيغة للفعل) .

٥ : ٤ : ٢ ـ حدة الخاصية الصرفية

تتسم اللغات السامية بخاصية الاشتقاق الصرفي المبني على أنماط الصيغ . لا تباري اللغة العربية أي لغة أخرى ، سامية أو غير سامية ، في حدة خاصيتها الصرفية حيث تتميز بالاطراد الصرفي والذي أدى بالبعض أن يصفها بأنها لغة جبرية (من الجبر الرياضي) إلى حد الاصطناع[١٢]. بجانب اطراد الاشتقاق . هناك أيضا ظاهرة التعدد الصرفي .

٥ : ٤ : ٣ ـ المرونة النحوية وخاصية الإعراب

نقصد بالمرونة النحوية هنا تلك الحرية النسبية التي نلحظها في ترتيب الكلمات داخل الجمل العربية .

وتفسيرنا لظاهرة المرونة النحوية يكمن في اعتبارنا لها كرد الفعل لعدة خصائص أخرى تتسم بها اللغة العربية وهي :

- انتظام الخاصية الصرفية .
- خاصية الإعراب التي تكشف عن كثير من العلاقات الوظيفية التي تربط بين الكلمات .
- خصائص الترابط التركيبي الأخرى ، التي ينعكس أغلبها في صورة قرائن صرفية أو إعرابية ، مثل علاقات المطابقة ، والربط ، والتضاد ، والخطية أو الرتبة المحفوظة[٩]. إن هذه التماسكات « المحلية » هي حتما أحد الأسباب الرئيسية وراء مرونة التعبير العربي ككل . إن غنى الجملة العربية بالقرائن الصرفية والنحوية يحررها بعض الشيء من قيود الترتيب الخطي للكلمات .

٥ : ٤ : ٤ ـ الانتظام الصوتي

الانتظام الصوتي في العربية أكثر من مجرد كونه متغيرا تابعا للقيود الفونولوجية أو الانتظام الصرفي . تكره العربية ـ كغيرها ـ تلاقي الأمثال والأضداد وتميل إلى تتالي الأشتات[٢] ـ وتتميز قواعدها الصوتية بالاطراد ، ويتسم نظام مقاطعها ، ونبرها بالبساطة والانتظام .

٥ : ٤ : ٥ ـ الحساسية السياقية

تتميز العربية بحساسية سياقية عالية ، يقصد بذلك اعتماد العناصر اللغوية على ما يسبقها ويلحقها من عناصر . يمكن اقتفاء مظاهر الحساسية السياقية على مستويات عدة ؛ فشكل الحرف العربي يتوقف على الحرفين السابق واللاحق

له ، ويمكن اعتبار أثر الحروف المجاورة في إيثار الحركات وظاهرة المماثلة والإدغام كمظاهر مختلفة للحساسية السياقية على مستوى الصوتيات ، أما على مستوى النحو فتعد علاقات التماسك التركيبي المختلفة كالإعراب والموافقة والربط والتضام مظاهر متنوعة لحساسية النحو السياقية . تعد الحساسية السياقية إحدى الركائز العامة لنظام التقعيد اللغوي حيث تضيف مصاعب جمة على صياغة القواعد ونظام ترتيبها .

٥ : ٤ : ٦ - تعدد نظم الكتابة

يمثل تعدد نظم الكتابة معضلة حقيقية للغة العربية خاصة في النواحي التعليمية والتقنية ، وكما نعرف ، تكتب العربية بثلاث طرق :

- كتابة تامة التشكيل
- كتابة مشكولة جزئيا
- كتابة خالية من التشكيل

لقد نشأت الكتابة العربية أصلا دون تشكيل ، وقد تعتق الاستغناء عن حركات التشكيل في العربية الحديثة إلى أن أصبح عدم التشكيل أحد الخصائص المتأصلة في كيان اللغة العربية ، وكل الدعاوي المنادية بضرورة الالتزام بالتشكيل هي نوع من التفاؤ ل غير الواقعي . وبجانب عدم واقعيته أضيف زاعما أنه يغفل أحد الأسس الهامة المقامة عليها المنظومة العربية ، ان التشكيل في مجمله سيظل مجرد أداة تربوية لتعليم صغارنا مبادىء العربية ، وعلى الجميع أن يتعايشوا « سلميا » مع هذه الحقيقة القاسية . ويؤدي غياب التشكيل إلى ظهور حالات مختلفة من اللبس تتداخل مع بعضها في تركيبات معقدة .

والسؤال الأساسي الذي نطرحه هنا هو : هل التشكيل أحد جوانب الفائض اللغوي أم غيابه أم نقص كتابي ليس له ما يعوضه من قرائن أخرى ؟ إن الأمر لا يحتاج إلى تأكيد فيما يخص أهمية النتائج المترتبة على مدى نجاحنا في الإجابة عن هذا السؤال المستعصي رغم بساطته الظاهرة .

٥ : ٤ : ٧ - اعتماد المعجم على الجذور

بصفة عامة ، يرتبط تنظيم المعجم بصلة وثيقة مع قواعد تكوين الكلمات لذا كان من الطبيعي أن يأتي معجمنا العربي معتمدا على الجذور وليس على الكلمات الأساسية المترتبة ترتيبا أبجديا كما هو الحال في الإنجليزية .

تتميز شجرة المفردات العربية بقلة الجذور وتعدد الأوراق ، شجرة ثقيلة القاع[٤]، فرغم صغر نواة المعجم ، ٥٠٠٠ - ٧٠٠٠ جذر تقريبا ، تتعدد المفردات بصورة هائلة بفضل الإنتاجية الصرفية العالية . وسمة أخرى للمعجم العربي هي طغيان الخاصية الثلاثية للجذور العربية التي لا تحتاج إلى تأكيد حيث تتواتر الجذور الثلاثية بمعدلات تفوق بكثير تلك الخاصة بالجذور الرباعية والخماسية .

٥ : ٤ : ٨ - شدة التماسك بين عناصر منظومة العربية

تتميز منظومة اللغة العربية بشدة التماسك بين عناصرها ، ومظاهر ذلك عديدة ، نذكر منها :

ـ العلاقة الحميمة بين النحو والصرف إلى الدرجة التي يصعب معها الفصل بينهما في معظم كتب القواعد العربية .

ـ التداخل الشديد بين منظومتي الصرف والصوتيات والذي يبدو واضحا في تعدد حالات الإبدال والإعلال ، ودورها الحاسم في بنية الكلمة العربية .

ـ العلاقة الوثيقة بين الصرف والمعجم حيث انعكست الخاصية الصرفية على تنظيم المعجم واستخدامه بشكل واضح ، حتى انفردت العربية بارتباط عملية الكشف على المعاجم بعملية التحليل الصرفي .

٥ : ٤ : ٩ ـ حدة الفائض اللغوي

حدة الفائض اللغوي هي نتيجة مباشرة لعدة عوامل ، سبقت الإشارة إليها ، نلخصها في :

ـ شدة التماسك بين عناصر المنظومة اللغوية .

ـ اطراد الخاصية الصرفية

ـ التباين الكبير في تواتر استخدام الجذور والصيغ الصرفية ، علاوة على صغر نواة المعجم ذاتها .

ـ التماسك النحوي نتيجة لعلاقات الموافقة والربط ، والتضام ، والرتبة المحفوظة ، علاوة على خاصية الإعراب .

الوجه المقابل لحدة الفائض اللغوي في العربية هو ارتقاؤها في خاصية التنبؤ Predictability ، أو تقدير المحذوف والمنقوص واللاحق على ضوء المتاح من المعطيات والقرائن ، بمعنى أن القارىء أو المستمع يمكنه أن يتنبأ بما سيجيء ، أو يجلو اللبس رغم غياب التشكيل أو أنواع الحذف الأخرى على أساس جزء الجملة الذي قرأه أو سمعه . وأهم أنواع الفائض اللغوي في العربية هو ـ وبلا منازع ـ الفائض الصرفي .

٥ : ٤ : ١٠ ـ ثنائية الفصحى والعامية

تقاسي اللغة العربية من ثنائية واضحة ، ومفزعة تفصل بين الفصحى والعامية . ولا تكتفي العامية بتشويه المفردات وإبدالها بل تتحلل من كثير من القيود والخصائص الأساسية في العربية كخصائص الترابط النحوي ، وقواعد تكوين الكلمات ، ونطق الأصوات وهلم جرا . إن ثنائية اللغة هي متغير تابع لإستاتية التطور اللغوي ، وتقاعس جهود التحديث والتطويع وقصور أساليب تعليم اللغة الأم ، والذي بدوره يعد نتيجة مباشرة لجمود نظم التقعيد اللغوي وتخلفها بصفة عامة .

والمحاولات لسحق العربية الفصحى لا تهدأ ، ستستمر ، وتأتي في صورة ضغوط خارجية وتفسخات وانقسامات داخلية في كيان المجتمع اللغوي ومعظم محاولات التصدي لها لا تتجاوز حدود الحمية اللفظية وغيبيات العواطف القومية ـ اللغوية .

٦ ـ العلاقة بين اللغة والحاسب

٦ : ١ ـ صلة وثيقة وعلاقة تبادلية

منذ ظهور الحاسب الإلكتروني في أواخر الأربعينات وصلته باللغة تتوثق وتتأصل ، وقد أخذت العلاقة بينهما طابعا تبادليا ؛ علاقة « هات وخذ » ولكي نضع أيدينا على « مفاتيح » هذه العلاقة علينا أن نتمثل العوامل التي أدت إلى هذا اللقاء المثير بين اللغة ، وهي قمة علوم الإنسانيات ، والحاسب الذي هو ذروة التقنيات الحديثة بلا شك ، يلزم لنا أيضا معرفة أين يلتقي الحاسب مع اللغة ؟ وأين يفترقان ؟ وما الصلات العلمية والتقنية التي تربط بينهما ؟ وذلك تمهيدا لاستعراض مظاهر العلاقة وجوانبها المختلفة والتي يمكن إيجازها في ثنائية العلاقة المنعكسة : « الحاسب كأداة للغة » ، و « اللغة كأداة للحاسب » .

٦ : ٢ ـ حتمية اللقاء وعوامله

كان من المنطقي ، بل من المحتم ، أن تلتقي اللغة والحاسب لسبب بسيط وأساسي ألا وهو كون الإنسان هو محور النشاط اللغوي بلا شك للغة ، في الوقت نفسه الذي يسعى فيه مصممو الحاسب وعلماؤه نحو محاكاة بعض وظائف الإنسان وقدراته . هذا إلى جانب اتخاذ اعتبارات الهندسة البشرية أساسا لتصميم نظم الحاسب وتشغيلها وتطبيقاتها .

لقد تدرج اللقاء حتى وصل إلى درجة عالية من التفاعل العلمي والتقني بصورة لم يسبق لها مثيل ، ووراء ذلك عدة أسباب وعوامل متوافقة في بعضها ومتباينة في بعضها الآخر ، وهي :

ـ التطور الهائل في علوم اللسانيات ، وخضوع معظمها للمعالجة الرياضية والمنطقية والإحصائية .

ـ التقدم المذهل الذي أحرزته تقنيات الحاسبات الإلكترونية في مجالات العتاد (المعدات) ، والبرمجيات والتطبيقات .

ـ ظاهرة انفجار المعلومات وما دعت إليه من ضرورة استحداث وسائل آلية لتنظيمها وتخزينها واسترجاعها .

ـ التقدم في علم الإحصاء الرياضي ، ودخول أساليبه مجالات التحليل اللغوي وذلك لتوصيف وتفسير الكثير من التجليات اللغوية .

ـ تطور الأساس النظري لعلم الاتصالات وذلك بظهور نظرية المعلومات والتي وضعت الأسس الرياضية لقياس كمية المعلومات ، وبذا خضعت ظاهرة الفائض اللغوي للتقويم الكمي .

ـ عجز الموارد البشرية للترجمة عن مواجهة التضخم الشديد في النتاج الفكري والأدبي مما برزت معه فكرة الترجمة الآلية كحل جذري لهذه المشكلة المتفاقمة .

ـ الوثبات العلمية التي تحققت في مجال علوم الحاسب خاصة في مجالات نظرية الأتوماتيات ، وتصميم لغات البرمجة ونماذج المحاكاة ومعمارية النظم الموزعة والمتوازية .

ـ انتشار الحاسبات الشخصية والمنزلية ، كنتيجة لظهور الحاسبات الميكروية بالغة الضآلة ، وما استتبعه ذلك من ضرورة تيسير العلاقة بين الحاسب ومستخدمه وذلك باستخدام لغات برمجة قريبة من اللغات الطبيعية .

ـ ظهور الحاسبات الإلكترونية فائقة السرعة مما أدى إلى التوسع في نظم الذكاء الاصطناعي والذي تعد آليات التعامل اللغوي من أهم عناصره . لقد مكن ذلك من تطوير نظم هندسية لمعالجة اللغة آليا في ظل قيود الحيز والزمن والكلفة التي تفرضها الجدوى الاقتصادية والفنية لمثل هذه النظم .

ـ بداية ظهور نظم الحاسبات الخبيرة التي تحاكي مهام الخبراء البشريين ، مثل تلك الخاصة بتشخيص الأمراض ، والاستشارات الفنية والقانونية ، وبعض النظم الآلية للتعليم الذاتي . لكي تحاكي هذه النظم الخبيرة نظيرها البشري ، يجب أن يتوفر فيها عديد من القدرات ، من أهمها : القدرة على الحوار مع المستخدم البشري بلغته الطبيعية بكل ما يعتريها من لبس ونقص وتلميح ، « وانفعالات » ، علاوة على توفر الخلفية اللازمة وذلك باختزال مضمون الخبرة البشرية بكل ما تشمله من معلومات ومعارف ، ومهارات ، وقرارات ، وكلها كما هو واضح ذوات أبعاد لغوية متفاوتة .

ـ انتشار استخدام الحاسب كوسيلة للتعليم بصفة عامة ، وتعليم اللغات بصفة خاصة .

ـ دخول تطبيقات الحاسب مجال علوم الإنسانيات ، كالتاريخ ، والأدب ، والنقد ، والمنطق ، وعلم الجمال ، ليضيف عاملا بالغ الأثر على علاقة الحاسب واللغة بصفتها الركيزة الأساسية للإنسانيات .

يمكن تلخيص ما أوردناه من عوامل وراء توثق علاقة اللغة والحاسب في ثالوث « اللغة ـ الحاسب ـ التطبيق » . لقد دانت اللغة للمعالجة الآلية من خلال التحليل الرياضي والمنطقي والإحصائي ، في الوقت نفسه الذي تهيأ فيه الحاسب للتعامل مع اللغة وذلك بالسرعة الفائقة ، وضخامة الذاكرة ، وضآلة الحجم وتوفر لغات البرمجة الراقية ، أما عن العنصر الثالث وهو التطبيق فقد برزت تطبيقات جديدة ذات طابع لغوي مثل البرامج التعليمية والترجمة الآلية واسترجاع المعلومات وتطبيقات الإنسانيات والذكاء الاصطناعي .

هكذا برزت الأسباب ، ودانت الأساليب ، وتحددت الأهداف مؤكدة حتمية لقاء اللغة والحاسب ، ذلك اللقاء المثير الذي أطلق ثورة حقيقية والتي ستتجاوز آثارها بالتأكيد حدود اللغة والحاسب إلى كثير من مجالات النشاط الإنساني الأخرى .

لقد أظهر اللقاء ، وبوضوح ، الحاجة الماسة إلى المراجعة الشاملة للمنظومة اللغوية ككل لسبر أغوارها واكتشاف ضوابطها ، وإعادة تمحيص حالات شذوذها ولصياغة قوانينها بشكل دقيق وقاطع ، هذا على جبهة اللغة ، أما على جبهة الحاسب فقد استوجب اللقاء تخلصه من تصميمه التقليدي ، آلة فون نيومان المركزية التي تعمل بنظام متتابع ، والذي توارثته أجياله الأربعة ، ليجيء الجيل الخامس حاسبا لغويا بالدرجة الأولى وليحل التوازي بدلا من التتابع ، والتوزيعية بدلا من المركزية ، والذكاء الاصطناعي رفيقا وموجها للقوة الحسابية المسيطرة .

٦ : ٣ مواضع الوفاق والخلاف بين اللغة والحاسب :

لكي نعي بشكل دقيق طبيعة العلاقة بين اللغة والحاسب علينا أن نبدأ بتفهم ما يجمعهما من مواضع الوفاق ، وما يفرقهما من نقاط الخلاف .

مواضع الوفاق :

يتوافق الحاسب مع اللغة في كثير من الأمور نلخصها هنا فيما يلي :

ـ محورية العامل الإنساني : في مجالي اللغة والحاسب .

ـ ضخامة الدور المجتمعي لكل من اللغة والحاسب : فاللغة هي صلب المجتمع الإنساني ، في حين يبشر الحاسب بنقلة نوعية له تحوله إلى مجتمع المعلومات .

ـ تغلغل المفهوم الثنائي في كل من الحاسب واللغة على حد سواء : تمثل ثنائية الصفر والواحد ، والإدخال والإخراج أهم أساسيات الحاسب على الاطلاق ، في حين يطغى مفهوم التقابل الثنائي على كثير من الظواهر اللغوية وعلى جميع المستويات . من أمثلة ذلك ثنائيات الرمز والمدلول ، المبني والمعرب ، الجهر والهمس ، الاشتقاق والجمود ، التأنيث والتذكير ، التقديم والتأخير ، الإظهار والاستتار ، وهلم جرا .

ـ الإشتراك في الوظيفة الاتصالية : حيث تعد الوظيفة الاتصالية من أهم أهداف النشاط اللغوي ، في الوقت نفسه الذي تعد فيه نظم الاتصالات شقاً أساسياً لنظم الحاسبات .

ـ التعامل الرمزي : يعتمد التعامل اللغوي والحواسبي أساساً على أبجدية من الرموز الأولية المتفق عليها . تستخدم هذه الرموز الأولية لتكوين إشارات مركبة خلال سلسلة متدرجة من عمليات التركيب والتي تتسم عادة بالخطية حيث تتسلسل الرموز اللغوية حروفاً داخل كلمات وكلمات داخل جمل وهكذا ، وتتابع إشارات الحاسب الميكانيكية والكهربية والإلكترونية في سلاسل متصلة لتكوين الإشارات المركبة .

مواضع الخـــلاف :

بقدر ما يتوافق الحاسب مع اللغة ، يختلف معها أيضاً في كثير من الجوانب التي تتراوح ما بين الأمور المنهجية العامة إلى الخصائص الداخلية الأساسية . من أهم مواضع الخلاف :

اختلاف المنظور العلمي : نتيجة لثنائية الفكر العلمي المتغلغلة ، تدرج اللسانيات ضمن العلوم الإنسانية ذات الطابع النظري ، في حين يطغى على علوم الحاسب الطابع التطبيقي والهندسي . ففي حين ينشغل المنظرون اللغويون بالبحث عن ظواهر الاطراد اللغوي والنقاوة النظرية الصرفة ، يسعى أهل الحاسب لإيجاد حلول عملية للمعضلات اللغوية وأحياناً ما يلجأون في ذلك لاستخدام قوة الحاسب الغاشمة لفرض الحلول على الأمور اللغوية التي يصعب معالجتها منهجياً . إن علماء الحاسب يجدون مصاعب حقيقية في تطبيق النظريات اللغوية على الحاسب ، ويحتاج الأمر غالباً الى عملية تطويع هندسي تمس أحياناً المباديء الأساسية التي أقيمت عليها هذه النظريات . ربما يرى البعض في ذلك تكاملاً أكثر منه تناقضاً ، إلا أن الواقع الراهن يخالف ذلك لغياب التنسيق وضعف الحوار بين الفريقين .

تتابع الحاسب وتوازي اللغة : عمليات الذهن البشري اللغوية متوازية ومتداخلة ، وهي ابعد ما تكون عن طابع التتابع الميكانيكي الذي « توصم » به عمليات الحاسب . ويسعى جمهور العلماء والفنيين حـالياً لإكسـاب الحاسب

خاصية التوازي ، أو شبه التوازي على الأقل ، ولكن وعلى ما يبدو سيمضي وقت طويل قبل أن نرى حاسباً يعمل بأسلوب المعالجة المتوازنة البحتة ذات الطابع التشابكي .

قطعية الحاسب وعدم قطعية اللغة : من وجهة نظر أخرى ، تعمل آليات الحاسب بأسلوب قاطع ويقصد بذلك ضرورة استقرار آلياتها على حالة محددة ، فلا مكان هنا للاحتمالات ، وانصاف المواقف ، والتقدير ، والتميع وهلم جرا . على العكس من ذلك فالمنظومة اللغوية تستأنس اللبس ، والترادف والغموض ، ولا غضاضة في التعميم والبعضية والتقدير وعدم اليقين وظلال المعاني .

يمكن القول أن الجهد الأساسي لعلماء اللغويات الحواسبية يتركز في استغلال أوجه التوافق بين اللغة والحاسب لتضييق هوة الخلاف بينهما . لقد فرض الحوار نفسه على فريقين من العلميين الموغلين في التخصص ليبدأوا رحلة مثيرة لإعادة اكتشاف اللغة وتثوير نظم الحاسبات والمعلومات .

٦ : ٤ مستويات تناول علاقة اللغة بالحاسب :

أشرنا سابقاً إلى الطابع التبادلي للعلاقة بين اللغة والحاسب والتي تعد نموذجاً مثالياً للجدل العلمي والتقني ، فتارة يكون الحاسب هو أداة التحليل اللغوي ، وتارة أخرى تكون اللغة هي وسيلة الحاسب في تطوير تصميمه ونظمه .

ولكي يمكن محاصرة الجوانب المختلفة للعلاقة الثنائية علينا أن نحدد منطقة التقاطع والمستويات المختلفة لتناولها .

بالنسبة لمنطقة التقاطع فسننظر لها من خلال اعتبار شقين أساسيين : الحاسب كأداة للغة ، واللغة كأداة للحاسب . أما مستويات التناول فتشمل كل عناصر منظومتي اللغة والحاسب وكذلك المنظومات الخارجية التي تتفاعل معهما .

٧ : الحاسب كأداة للغة :

٧ : ١ عامـــة :

مع تقدم الحاسب ، وتطور أساليبه ، ظلت تطبيقاته في اللغة تتفرع وتتعمق حتى غطت معظم أركان المنظومة اللغوية . وتتراوح التطبيقات ما بين تلك التي لا ترى في الحاسب إلا قوته الحسابية الغاشمة إلى تلك المقامة على أدق الأسس اللغوية ناظره إلى الحاسب كآلة ذكية قادرة على أن تتعلم وتعلم .

رغم تعددها وتفاوت أغراضها يمكن تصنيف استخدامات الحاسب كأداة للغة في عدة مجالات رئيسة :

- الاحصاء اللغوي .
- التحليل والتركيب اللغوي .
- الفهم الأتوماتي للسياق اللغوي .
- تحليل وتوليد النصوص (أو النتاج اللغوي) .

- ميكنة المعاجم .
- الترجمة الآلية .
- تعلم اللغة بالكمبيوتر .

تتناول الفقرات القادمة مجالات التطبيق المذكورة بصورة مختصرة ، وسنكتفي في عرضها هنا بالقدر الذي يسمح لنا بوضع الإطار العام للمعالجة الآلية لمنظومة اللغة ككل .

٧ : ٢ الإحصاء اللغوي :

لا يختلف دور الإحصاء في النطاق اللغوي عن ذلك في المجالات العلمية الأخرى حيث استخدم في ثلاثة أعراض رئيسة :

أولاً : التقويم الكمي لبعض الخصائص النوعية للتعبيرات اللغوية ، كتواتر الحروف ، والكلمات ، والصيغ الصرفية ، والموازين الشعرية ، وأنواع الأساليب النحوية ، وهلم جرا .

وسنكتفي هنا بمثالين عن المعدل النسبي لاستخدام علامات التشكيل في العربية[١٣] ، وأكثر الحروف الإنجليزية تواتراً[١٤] .

الحركة	المعدل النسبي	الحرف	المعدل النسبي
الفتحة (حركة قصيرة)	٤٣,٩٢٪	E	١٢,٧٪
الكسرة (حركة قصيرة)	١٧,٧٩٪	I	٩,٨ ٪
الضمة (حركة قصيرة)	١٣,٩٠٪	A	٧,٩ ٪
الفتح بالألف (حركة طويلة)	١٤,٧٦٪	O	٧,٨ ٪
الكسر بالياء (حركة طويلة)	٤,٢٤ ٪		
الضم بالواو (حركة طويلة)	٥,٣٩ ٪		

من التوزيع الإحصائي يتضح بشكل قاطع طغيان التحريك بالفتح في العربية . وميل الإنجليزية إلى الكسر (حرف E) ، وكذلك كره كلا اللغتين لحركة الضم . تشير الاحصائيات كذلك إلى تفضيل العَرَبية للحركات القصيرة عن الحركات الطويلة .

ثانياً : التوصيف الكمي لبعض العلاقات اللغوية ونكتفي هنا بمثالين أحدهما من العربية ، والثاني من الإنجليزية :

- مثال من العربية عن العلاقة بين طول جذر الكلمة ، وعدد مرات تكراره في معجم لسان العرب[١٥] .

طول الجذر	عدد مرات التكرار
٣	٦٥٣٨ (٧٠,٥٪)
٤	٢٤٥٨ (٢٧,٥٪)
٥	١٨٧ (٢٪)

ـ مثال من الإنجليزية عن العلاقة بين طول الكلمة في المعجم الإنجليزية وعدد الكلمات التي لها الطول نفسه[١٤] .

طول الكلمة (مقاسات بعدد حروفها)	عدد الكلمات التي لها الطول نفسه
٤	٨٧٩
٥	٩٣٦
٦	٨٩٥
٧	٧٧١
٨	٥٢٧
٩	٣٦٢
١٠	٢٦٠
١١	١٣٧
١٢	٧٩
١٣	٣٠
١٤	٨

تشير الإحصائيات الى التناقض الحاد في عدد الجذور العربية والكلمات الإنجليزية وذلك تبعاً لزيادة طولها .

تؤكد الأمثلة السابقة بشكل كمي « الخاصية الاقتصادية » للغة ، ونقصد بذلك ميلها الى تقليل الجهد والاختصار وهي الظاهرة التي تنعكس على كثير من أمور اللغة بدءاً من تلك المتعلقة باستخدامنا لأعضاء جهاز النطق ، إلى ميل التواصل اللغوي إلى حذف الشائع والبديهي ، واستخدام الخوالف (مثل صه) .

ثالثاً : يستخدم التحليل الإحصائي كذلك في تفسير بعض الظواهر اللغوية ، ومثال لذلك تفسير بعض ظواهر عدم الإطراد في قواعد الاشتقاق وتركيب الكلمة الإنجليزية[١٦] ، وتفسير ظاهرة القلب المكاني لدى الأطفال ، مثل قولهم « جبذ » بدلاً من « جذب » في العربية ، وSERVAL بدلاً من SEVERALفي الإنجليزية ، والذي فسرها ابراهيم أنيس[١٧] على ضوء الإحصائيات التي استخدم فيها « الجهاز العجيب » المسمى بالكمبيوتر . أو الحاسب الإلكتروني (مستخدماً ألفاظ أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس) نفسها والذي اتبع ذلك بقوله إن السر الحقيقي في معظم أمثلة القلب المكاني يرجع إلى اختلاف نسبة شيوع السلاسل الصوتية في كلمات اللغات ـ وربما يكون ذلك أوضح في اللغات السامية

ومنها اللغة العربية ، لأنها تعتمد في كلماتها على الجذور الأصلية ، ويقصد بذلك أن الطفل يميل إلى إبـدال أزواج الحروف المتتالية الأقل شيوعاً (مثل ج ذ) بتلك الأكثر استخداماً (ج ب) .

وربما لاحظ القاريء أن الأمثلة التي أوردناها تتناول الظواهر نفسها تقريباً في العربية والإنجليزية ، وهو بلا شك اختيار « مغرض » رغم موضوعيته ، وذلك لتأكيد عمومية الانتظام الاحصائي للغات ، والذي هو أحد مظاهر العموم اللغوي بصفة عامة ، وخاصية الفائض اللغوي بصفة خاصة .

٧ : ٣ التحليل والتركيب اللغوي :

يستخدم الحاسب في كثير من العمليات الأساسية للتحليل والتركيب اللغـوي ، والتي تعد إحـدى الخطوات التمهيدية للنظم المختلفة لمعالجة اللغة آلياً . وتغطي عمليات التحليل والتركيب الآلي المجالات اللغوية المختلفة فتشمل الصوتيات ، ونظام الكتابة ، والصرف ، والنحو ، والدلالة . وسنتعرض هنا بإيجاز شديد لبعض التطبيقات في كل من هذه المجالات مع التركيز على مفهوم ثنائية التحليل والتركيب : بصفتهما الطورين الأساسيين لعمل المنظومة اللغوية ، واللذين انتشرت ترديداتهما على مدى نطاق اللغويات الحواسبية .

الصوتيـــــات :

تحليل طيف الصوت اللغوي :

وهي إحدى العمليات الأساسية للنظم الآلية لتمييز الأصوات والتعرف على شخص المتكلم الذي سبق تخزين أنماطه الصوتية . تمثل هذه العملية أحد مواضع اللقاء بين علم اللغة وهندسة الإشارات ، حيث تغذي الإشارة الصوتية عادة على هيئة طيف من الموجات الكهرومغناطيسية لنظم تمييز الكلام . ولكي يتمكن النظام الآلي من التعرف على الرمز اللغوي الذي تحمله هذه الإشارة يجب تحليلها بطرق هندسية ورياضية ليستخلص منها الخصائص الأساسية للأصوات والمعاملات الرياضية التي يمكن من خلالها تمثيل نمط الإشارة الصوتية ، مثل سعتهـا ، وباعهـا ، ودرجة شـدتها ، ومعدلات انحدارها وصعودها . يتم مقارنة هذه المعطيات بتلك المخزنة في النظام وذلك لتحديد الرموز اللغوية التي تتشابه معها في هذه الخواص[١٨] .

توليد الكلام آلياً :

تقسم عمليات توليد الكلام إلى صنفين أساسيين :

نظم المفردات المحدودة لتوليد كلمات سبق تحليلها وتخزين البيانات الخاصة بشكل إشارتها الصوتية . مثال لهذا النوع من توليد الكلام هو ذلك المستخدم في ألواح التعليم الناطقة ، وفي صناعة السيارات لتنبيه السائق لقرب نفاد الوقود ، أو ضرورة ربط حزام المقعد ، وتتميز هذه النظم بوضوح النطق ، ويعيبها طاقتها المحدودة للغاية في تخزين المفردات . ليس لنظم توليد الكلمات المفردة علاقة تذكر باللغة فهي عملية فنية بحتة لتسجيل وتخزين الصوت في وسيط الكتروني مثلها في ذلك مثل نظم التسجيل على أشرطة الكاسيت .

نظم المفردات غير المحدودة وفيها يتم تحويل النصوص ـ التي يتم إدخالها من لوحة مفاتيح الحاسب أو التي تتم قراءتها آلياً ـ إلى كلام منطوق . يقوم نظام التوليد الآلي بتطبيق مجموعة من القواعد الفونولوجية لتحويل الحروف إلى التنويعات الفونيمية المختلفة وفقاً لما يسبقها ويتبعها من حروف أو مقاطع . يتم تحويل هذه الفونيمات إلى إشارة صوتية متصلة باستخدام وسائل الكترونية معينة لتضاف إليها بعد ذلك قوالب النبر وأنماط التنغيم لإخراج الصوت بصورة طبيعية أقرب ما تكون للصوت البشري ويعيب هذا النوع من نظم توليد الكلام عدم وضوح الصوت .

نظام الكتابة :

تحليل الكتابة : المقصود بتحليل الكتابة هو القدرة على تمييز أنماط الحروف آلياً ويتم ذلك بتكبيرها ومسحها إلكترونياً باستخدام معدات القراءة الضوئية . وكما في حالة الأصوات يتم بعد ذلك استخلاص الملامح الشكلية للحروف ومقارنتها بتلك المخزنة لأنماط الحروف المختلفة . ويمكن تصنيف نظم تحليل الكتابة إلى تلك الخاصة بتمييز الكتابة المطبوعة ، وتلك الخاصة بتمييز الكتابة بخط اليد ، والثانية بلا شك أعقد بكثير من سابقتها . وذلك للتباين الشاسع في شكل الحروف التي تتسم بها الكتابة اليدوية .

إظهار الكتابة آلياً : وهي تمثل الشق التركيبي لمعالجة نظم الكتابة آلياً ، وتشمل نظم الطباعة الآلية ، ووسائل إظهار حروف الكتابة على الشاشات المرئية « التلفزيونية » أو لوحات البث الإعلامي كتلك المستخدمة في المطارات وإعلانات الشوارع . وقد تنوعت أساليب الطباعة الآلية لتشمل الطبع بدق الحروف ، أو بدق النقاط (حيث يكون شكل الحرف من مجموعة نقاط) ، أو باستخدام نظام حرق الورق حيث يتكون شكل الحرف من نقاط يتم حرقها بفعل إشارة كهربية تسلط على نوع خاص من الأوراق .

يستخدم كذلك نظام نفث الحبر حيث يتم تشكيل الحرف بتسليط تيار من الحبر يقوم بنقش الحروف من عدة نقاط أما أحدث وسائل الطباعة آلياً فهي التي تستخدم أشعة الليزر وتتميز بالدقة العالية في إظهار شكل الحروف .

الصـــرف :

التحليل الصرفي : ويقصد به قيام النظام الآلي بتحليل الكلمات المغذاة إليه إلى عناصرها الصرفية الأولية ، (الصرفيمات) وتحديد بياناتها الفونولوجية ، والصرفية ، والنحوية ، وإليك مثالاً من العربية والإنجليزية .

مثال من العربية :

الكلمة المدخلة ، المغذاة للمحلل الصرفي الآلي : « والاستيطاني » مخرج المحلل الصرفي :

عناصر الكلمة	:	و + ال + استيطان + ياء النسب + علامة الضمة
جذر الكلمة	:	وطـــن
الصيغة الصرفية	:	استفعـــال

الميزان الصوتي : استيعـــال
قسم الكلام : اسم معنوي
مفـــرد
مذكـــــر
معـــرف
الحالة الإعرابية : مرفـــوع
العمليات الفونولوجية : ابدال الواو ياء

مثال من الإنجليزية :

الكلمة المدخلة المغذاة للمحلل الصرفي الآلي : UNACCEPTED مخرج المحلل الصرفي :

عناصر الكلمة : UN + ACCEPT + ED
ساق الكلمة : ACCEPT
قسم الكـــلام : فعل متعدٍّ
زمن الفعـــل : الماضي المركب

يوضح المثالان بعض أوجه الاختلاف في طبيعة التحليل الصرفي الآلي بين العربية والإنجليزية والتي يبرزها هنا اختلاف نتائج عملية التحليل .

تعد عملية التحليل الصرفي إحدى العمليات الأساسية وتدخل في العديد من التطبيقات مثل اكتشاف الأخطاء الإملائية وتصحيحها ، وميكنة المعاجم ، وتحليل النصوص ، وتمييز الأصوات ، واسترجاع المعلومات ، وهلم جرا .

التركيب الصرفي : ويمثل العملية العكسية للتحليل الصرفي حيث يغذي المركب الصرفي الآلي بجذر الكلمة (أو ساقها) والحالة الاشتقاقية والتصريفية والاعرابية المراد إخراج الكلمة على صورتها .

مثال :

عناصر المدخل المغذاة إلى المركب الصرفي الآلي :

جذر الكلمة : ق و م
الصيغة الصرفية : استفعل
بيانات التصريف : مضـــارع
معلـــوم
جمـــع
مؤنـــث
الحالة الإعرابية : الجـــزم
خرج المركب الصرفي : يستقمن

النحـــو :

التحليل النحوي : يقوم المحلل النحوي الآلي بتفكيك الجمل إلى عناصرها الأولية ، أو بقول آخر تحليل الجملة إعرابياً ، واستخلاص علاقات التحويل النحوي المختلفة وتمثيلها بصورة سافرة .

ومن أكبر مصاعب التحليل النحوي الآلي اللبس التركيبي المترتب على عمليات التحويل النحوي المختلفة كالتقديم والتأخير ، والإضمار والاستتار ، والحذف والإضافة ، والإشارة والوصل . وإليك مثالين للبس التركيبي من اللغة الإنجليزية[١٩] .

(١) Flying aircraft may dangerous

(٢) I saw the man in the picture in the hall of the hotel

حيث يمكن أن تفسر (١) بقراءتين : قيادة الطائرات ربما تكون خطرة ، أو الطيارات الطائرة ربما تكون خطرة . ومصدر الحيرة في (٢) يكمن في وجود أكثر من كلمة يمكن أن يرتبط بها الجار والمجرور ، فهل قصد المتكلم رؤية الرجل في صورة معلقة بصالة الفندق ، أو رؤية الرجل الذي في الصورة في صالة الفندق . ونكتفي هنا بمثالين من العربية .

(٣) رأيت سفينة بمنظار .

(٤) أفسدت سلوى الحلوى .

اللبس في (٣) مصدره كما في (٢) في وجود أكثر من احتمال للربط بين الجار والمجرور (بمنظار) فهل استخدم المنظار في رؤية السفينة ، أم رأى سفينة مركباً عليها منظار . مصدر اللبس في (٤) احتمال أن تكون كلمة الحلوى مفعولاً به أو فاعلاً متأخراً ، وسببه الأساسي هنا هو غياب علامات الإعراب الظاهرة . لا يعني ذلك أن الإعراب الظاهري يكفي لأمن اللبس التركيبي والدليل على ذلك المثال الموضح في (٣) .

قصدنا في اختيارنا للأمثلة السابقة توضيح الفرق في طبيعة اللبس النحوي بين العربية والإنجليزية .

التوليد النحوي الآلي :

وهو يمثل العملية العكسية لعملية التحليل النحوي ، حيث يغذي إليه المفردات المعجمية ، ونوع الأسلوب النحوي المطلوب (إنشائي أو خبري ، إثبات أو نفي) وهيكل تركيبه ، ليقوم المركب النحوي الآلي بتكوين الجملة في صورتها الأصلية ، ليجري عليها بعد ذلك العمليات الواجبة للتحويل النحوي المختلفة من تقديم وتأخير ، وحذف ، وإضمار ، وما شابه .

٧ : ٤ تحليل النصوص (النتاج اللغوي) :

استخدمت الأساليب الإحصائية والتحليل اللغوي في تحليل النتاج اللغوي : قديمه وحديثه ، منثوره ومنظومه ، وذلك للأغراض الأساسية التالية :

أولاً :

تحليل التراث وذلك لتحديد تاريخ نشأته ومصدره ومثال لذلك ما قام به الحاسب من تحليل أسطورة الإلياذة (١٥,٦٩٤ بيت ، ١١٢٠٠٠ كلمة) وذلك للتحقق من تفرد هوميروس بتأليفها[١١] . أكد تجانس التوزيع الإحصائي للنغمة الشعرية إنفراد هوميروس بتأليفها . والأمثلة كثيرة تتراوح ما بين تحليل روايات شكسبير إلى إثبات أصل الوثائق التاريخية في الديانة اليهودية والمسيحية[٢٠] .

ثانيــاً :

التقويم الكمي لخصائص الأساليب الأدبية ، ومظاهر التغير الفكري لدى الكاتب أو الفيلسـوف ، من أبرز الدراسات التي تمت في هذا الصدد تلك الدراسة التي أجرتها جـامعة ميجيـل بكندا في تحليـل مؤلفات الفيلسـوف الداغاركي الوجودي كيركجارد ، والتي وضعها في ١٧ سنة متصلة ، واكتشافهم بطريقة إحصائية مظاهر التغير الحاد الذي طرأ على تفكيره تجاه العقيدة المسيحية[١] .

وقد أصدر أحد مراكز البحوث العربية أخيراً (١٣) تحليلاً كمياً للاستخدامات الصرفية في القرآن الكريم ، والتي أظهرت بشكل قاطع التجانس الشديد في توزيع الصيغ الصرفية على مدى النص القرآني .

ثالثــاً :

التعرف الموضوعي على مدى تأثر الأدباء والشعراء بمن سبقهم ، ومن أشهر انجازات الكمبيوتر في هذا الصدد تلك الدراسة التي أجريت لمعرفة مدى تأثر الشاعر العظيم شيللي[٢٠] بسلفه الشاعر ميلتون . فقد أبـرزت المقارنـة الإحصائية لرواية شيللي الشهيرة "Prometheus Unbound" مع رواية الجنة المفقودة لميلتون نطاق المفردات المشتركة والتوزيع النسبي لمعدلات استخدام الشاعرين لها ، كما تمت مقارنة جمل الروايتين التي تضمنت أكثر المفردات المشتركة تواتراً لإعطاء معيار كمي لمدى تأثر شيللي بأسلوب سلفه .

يعتمد تحليل النتاج اللغوي على انتقاء تلك المؤشـرات التي تدين للتقـويم الإحصائي مثـل تواتـر استخدام المفردات ، والصيغ الصرفية ، وأنواع الأساليب النحوية ، وكلمات الربط كالمبنيات في العربية مثل : قد ، حيث ، بعض ، قبل ، بعد . والأمر كما يبدو واضحاً ما زال في بدايته ويحتاج الى الكثير حتى يصبح أكثر قدرة على الفهم الأتوماتي لمضمون النصوص ، والذي يعد أحد المقومات الرئيسية التي تؤهل النظام الآلي للتعامل مع ظاهرة الإبداع الفكري والأدبي بشكل أعمق ، والتي تحتاج بلا شك إلى أساليب أدق وأرقى بكثير من تلك القائمة على التبسيط المسرف الذي تتسم به أساليب التحليل الإحصائي .

٧ : ٥ الفهم الأتوماتي للسياق اللغوي :

الهدف الأسمي للنظم الآلية للتحليل اللغوي هو الوصول الى نظام اتوماتي لفهم السياق اللغوي في صورتـه المنطوقة والمكتوبة ويتعذر الوصول الى هذا الهدف طالما ظل عنصر الدلالة ، وما يتبعها ، بعيداً عن متناول التحليل الآلي

الذي طغى عليه طابع النحو التركيبي . عندما واجه النحويون جملاً مثل تلك الموضحة في (٥) ، والتي لا غبار عليها من الناحية التركيبية أضافوا على نظم التحليل النحوي بعض القيود الدلالية المرتبطة بمعاني المفردات وعلاقاتها وتوقعاتها ضمن ما يصلح أن يصاحبها من ألفاظ .

(٥) ذهب الجبل إلى الحديقة فوجدها جالسة تبكي :

إن الفصل المفتعل بين مستويات التحليل اللغوي الأربعة (الصرف والنحو والدلالة ثم السياق) مناقض في أصله لطبيعة عملية الفهم الإنساني للنص اللغوي ، ومعظم المحاولات التي تجري حالياً تسعى لتجاوز هذه العقبة الرئيسية من خلال تطوير نظم تتكامل فيها جميع جوانب المعرفة اللغوية والسياقية لاستخلاص المعنى المقصود من النص . إن الفهم لا يمكن تمثيله بنموذج تحليلي متتابع ، بل هو عملية ذات طابع « جشتالتي » تتعامل مع النماذج والأنماط والأطر ، ولا ترى في القرائن المعنوية ، مع اختلاف مصادرها وطبيعتها ، مجموعة من الجزر المستقلة المنعزلة . ويمثل تحليل المعنى معضلة حقيقية للنظم الآلية ، والسؤال الأساسي المطروح هنا فيما يخص حل هذه المعضلة هو : هل ننتظر ما وعد به الأصوليون في أن هناك عدداً قليلاً من المبادىء تحكم الذكاء الإنساني وهي وحدها - إن تم اكتشافها - تكون بمثابة مفتاح اللغز الحقيقي لعملية الفهم ، أو ننندفع وراء الاتجاهات العملية لاختزال عملية فهم السياق إلى عدد محدد من المفاهيم والعلاقات التي تربط بينها من خلال ما يعرف بالشبكات الدلالية ، أو مخططات المفاهيم (١٢) . على ما يبدو فإن الاتجاه الثاني هو الذي سيسود تحت واقع الاعتقاد الراسخ أن حل لغز الذهن الإنساني يحتاج إلى وقت يصعب تحديده ، أو ربما لن يكشف عن سره أبدا .

٧ : ٦ ميكنة المعاجم :

تستخدم المجامع اللغوية إمكانات الحاسب لميكنة معاجم اللغات ، والتي أصبحت من الضخامة بحيث يستحيل تنظيم وتحليل الكم الهائل لمعلوماتها يدوياً . تشمل تطبيقات الحاسب في المجال المعجمي الاغراض الرئيسة التالية :

- تخزين المعاجم على شرائح الكترونية ، أو على وسائط ممغنطة ، كالاقراص الممغنطة أو الضوئية ، وذلك لاستخدامها في أغراض الترجمة الآلية ، والتعليم ، واكتشاف الأخطاء الإملائية وذلك علاوة على أغراض المعالجة الآلية الأخرى .

- تحليل العلاقة بين مفردات المعجم وعناصره ، كالعلاقة بين جذور الكلمات ، والصيغ الصرفية (أو قواعد تكوين الكلمات) المطبقة عليها ، أو العلاقات المعنوية كعلاقات الترادف والاشتراك اللفظي ، والتضاد ، أو العلاقات الموضوعية التي تجمع بين عائلات المفردات (مصطلحات رياضية ، مصطلحات طبية . . .) .

- تحليل لغة تعريف المعجم ، وهي التي تستخدم لتوضيح دلالات مفرداته وتعد هذه الدراسات ذات أهمية خاصة لبحوث الدلالة المعجمية ، حيث تسعى إلى الوصول إلى نواة المعجم ذاتها وكذلك المبادىء الأساسية التي تحكم صياغة مفرداته .

٧ : ٧ الترجمة الآلية :

تعد الترجمة الآلية إحدى الغايات النهائية التي تصب فيها معظم روافد نظم التحليل والتركيب اللغوي ، ولذا ـ وبجانب كونها تطبيقاً قائماً بذاته ـ ينظر البعض إلى الترجمة الآلية كنموذج آلي للمنظومة اللغوية الشاملة لدراسة ظواهرها المختلفة وتلك المتعلقة بالتباين بين اللغات ، أوبقول آخر ، استخدام نظام الترجمة الآلية كمعمل الاختبارات والتجارب اللغوية ، علاوة على كونه قاعدة معلومات فعالة لبحوث علم اللغة المقارن . تواجه الترجمة الآلية كثيراً من المشاكل اللغوية والفنية من أهمها :

١ ـ عدم التقابل الكامل بين مفردات اللغات .

٢ ـ التباين في طبيعة تراكيب الجمل بين اللغات المختلفة ، خاصة بين تلك التي تنتمي لفصائل لغوية متباينة ، كالعربية والإنجليزية ، وذلك على سبيل المثال .

٣ ـ تعدد المكافيء اللغوي للجمل عند ترجمتها من لغة إلى أخرى .

٤ ـ المشاكل المتعلقة بمعالجة عنصر الدلالة لغوياً والتي سبق لنا الإشارة اليها .

٥ ـ ضخامة حجم المعاجم ، المطلوبة والتي لا تقتصر على معاجم الكلمات فقط بل تشمل أيضاً معاجم الصيغ المسبوكة (Idioms) والاستعارات .

٧ : ٨ تعلم اللغات بالكمبيوتر :

اتسعت تطبيقات الحاسب التعليمية خاصة في مجال الرياضيات وتعلم اللغات . تتراوح برامج تعليم اللغات ما بين تلك الخاصة بألعاب الكلمات لتنمية حصيلة المفردات ، الى مناهج متكاملة لتعليم قواعد النحو والصرف وتقوية مهارات القراءة والكتابة .

ويواجه تعلم اللغات بالكمبيوتر عدة مصاعب أهمها :

ـ غياب عنصر الكلام حيث ما زالت النظم الآلية لتوليد الكلام وتمييزه دون المستوى المطلوب للاستخدامات العملية .

ـ احتياج معظم البرامج إلى سعة تخزين هائلة لحفظ المادة التعليمية خاصة في مجالات تعليم القراءة والإنشاء .

ـ صعوبة محاكاة المواقف الطبيعية للاستخدام اللغوي لتأكيد مبدأ الطابع الاتصالي في إكتساب المهارات اللغوية .

لحل بعض هذه المشاكل يسعى البعض إلى دمج الكمبيوتر مع وسائل تعليمية أخرى لزيادة فاعلية التعلم . وتجري محاولات حالياً لربط الكمبيوتر التعليمي بمعمل التدريب على الأصوات اللغوية ، واستخدام الأقراص الضوئية ذات سعة التخزين الهائلة والتي ستسمح بتخزين النصوص ، والأصوات والكلام ، والصور الثابتة والمتحركة ، وهي عناصر هامة في زيادة فاعلية الوسائل التعليمية .

٨ : اللغة كأداة للحاسب :

٨ : ١ عامـــة :

أشرنا سابقاً إلى شدة العلاقة التبادلية بين اللغة والحاسب . ويزعمي ، أن أثر اللغة على الحاسب يفوق مدى تأثيره عليها . لقد وضعت اللغة بصماتها على جميع عناصر منظومة الحاسب : عتاده ، وبرمجياته ، ونظم تشغيله ، واستخداماته ، بل وهيكل معماريته وأسس تصميمه أيضاً .

يتجلى الأثر اللغوي على نظم الحاسبات في أوضح صورة في هياكل تصميم حاسبات الجيل الخامس حيث تمثل آليات اللغة بالنسبة لها نواة ذكائها الاصطناعي ، وغلافاً تتواصل من خلاله بصورة طبيعية مع مستخدميها مع اختلاف طوائفهم ولغاتهم (١) .

يمكن تصنيف استخدامات اللغة كأداة للحاسب لعدة مجالات رئيسة :

- نظم استرجاع المعلومات .
- لغات البرمجة العليا .
- نظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) .
- نظم التعامل باللغة الطبيعية .
- معمارية الجيل الخامس .
- تطبيقات الذكاء الاصطناعي .

فيما يلي استعراض موجز لكل من هذه المجالات .

٨ : ٢ نظم استرجاع المعلومات :

أدى تضخم حجمُ المعلومات ، وتنوع مصادرها ، وسرعة إنتاجها وتقادمها إلى صعوبات جمة في تجميعها واسترجاعها والتخلص من نفاياتها (التلوث المعلوماتي !) . من جانب آخر ، يتحرك ثقل نظم المعلومات حالياً من التعامل مع البيانات الرقمية والإحصائيات العددية والمعلومات الإشارية (بتمثيل الوثائق بعناوينها وأسماء مؤلفيها وذلك على سبيل المثال) ، إلى النفاذ إلى مضمون الوثائق الأصلية ذاتها . لهذا السبب ، ينتشر بسرعة استخدام بنوك المعلومات « المصدرية » التي تتعامل مع النصوص الكاملة للكتب والدوريات والصحف والنشرات والتقارير الفنية ، ووثائق البحث العلمي بل ودوائر المعارف وبجمعاتها أيضاً . وساعد على ذلك توفر وسائط التخزين ذوات السعة الهائلة كالأقراص الضوئية ، والأقراص الممغنطة الضخمة ذوات الكثافة العالية .

وهكذا وجدت نظم المعلومات نفسها في مواجهة لغوية حادة ومثيرة في الوقت نفسه ، حيث فرض عليها التعامل مع كم هائل من المعطيات اللغوية التي تتراوح في طبيعتها ما بين موضوعية ودقة الصياغة العلمية ، و « سيولة » ومجازية ورمزية لغة الخيال والشعر . لقد انتقلت المسألة من سعة التخزين إلى كيف يمكن استرجاع المعلومات المطلوبة من هذا الكم الهائل من المعطيات المخزنة .

يمكن تلخيص طبيعة عمل نظم استرجاع المعلومات في المهام الرئيسية التالية :

(أ) إدخال بيانات مصادر المعلومات ، واكتشاف وتصحيح الأخطاء يدوياً أو آلياً .

(ب) تحليل مضمون الوثائق .

(ج) تخزين الوثيقة كلها ، أو معلومات إشارة عنها (اسم المؤلف ـ عنوان الوثيقة ـ الكلمات المفتاحية ـ مستخلص الوثيقة أو موجز عنها) .

(د) قبول طلب البحث عن المعلومة والذي عادة ما يقدم بدلالة سلسلة من الكلمات المفتاحية تربطها معاملات العلاقات المنطقية الثنائية « و » ، « أو » مثال : (الحاسب أو المعلومات) والصرف (يعني هذا الطلب استرجاع مصادر المعلومات المتعلقة (بالحاسب والصرف) أو (المعلومات) و (الصرف) .

يتم تحديد الكلمات المفتاحية على ضوء مكانز عامة تغطي الموضوعات العامة ، أو مكانز خاصة تتعامل مع موضوعات محددة .

(ﻫ) مطابقة معطيات طلب البحث مع بيانات الوثائق المخزنة في بنك المعلومات .

(و) إظهار نتيجة البحث في صورة مصادر المعلومات التي تتطابق مع معطيات الطلب .

تعرف العمليات الواردة في الخطوات أرقام (ب ، ج ، د) بعمليات الفهرسة والاستخلاص ، وهي تمثل أكثر عمليات نظم استرجاع المعلومات صعوبة . ويرجع ذلك أساسا لأبعادها اللغوية المتعددة . وتسعى النظم الآلية للفهرسة والاستخلاص لتوفير الجهد البشري وتوفير الوقت اللازم لها ، وكذلك لتحاشي الخطأ والانحياز في كشف مضمون الوثائق بشريا .

ويقصد بالفهرسة الآلية عملية انتقاء الحاسب لعدد محدود من الكلمات تستخدم كمفاتيح لكشف المضمون الموضوعي للنصوص وذلك لتسهيل عملية استرجاعها آليا ، أما الاستخلاص الآلي فهو قيام الحاسب باختيار عدد قليل من جمل النص تعرض في ترتيب ورودها نفسه داخل النص الأصلي وبغض النظر عن ترابطها المنطقي ، بحيث يمكن اعتبارها تمثيلا تقريبيا لمضمون النص . وعليه ، فالاستخلاص الآلي هو استئصال ميكانيكي بحت ، وهو بذلك أدنى بكثير من العملية المعقدة لتجريد معنى النصوص لتركيز مضمونها واستخلاص لبها وجوهرها . وهكذا ومادام الهدف هو التقريب ، يطرح الاحصاء اللغوي نفسه مرة أخرى كوسيلة أمبريقية لميكنة عمليات الفهرسة والاستخلاص (٢١) . وتتخذ عملية الفهرسة الاحصائية من الكلمات التي تتواتر بمعدلات عالية داخل النص كلمات مفتاحية لكشف مضمونه ، وذلك بعد عزل الكلمات الخالية من المضمون (مثل : قد ، أن ، هذا) والتي يتكرر استخدامها في جميع النصوص بغض النظر عن موضوعها ، المشكلة الأساسية هنا هو الترادف اللفظي والمعنوي (الطلاق = الانفصال بين الزوجين) حيث تستخدم كلمات مختلفة للدلالة على الموضوع نفسه ، في الوقت نفسه الذي يمكن أن تعبر فيه الكلمة ذاتها عن عدة موضوعات . من مشاكل الفهرسه الآحصائية أيضا انتقاء كلمات مفتاحية زائفة يتكرر استخدامها دون دلالة على مضمون يذكر .

يبدأ الاستخلاص الآلي من حيث انتهت الفهرسة الآلية ، حيث تمده بالكلمات المفتاحية ذات معدل التواتر العالي . يقوم المستخلص بتحديد ثقل كل جمل النص بدلالة معامل كمي يتم حسابه بدلالة عدد الكلمات المفتاحية الواردة فيها . تختار الجمل ذات أعلى معامل للثقل لتمثل النص الكامل .

رغم ما يجري حاليا من محاولات لتهذيب الطابع الاحصائي المحض لنظم الفهرسة والاستخلاص الآلي وذلك من خلال تطعيمها بعناصر تحليل صرفية وتركيبية ، إلا أنها لا تخرج عن كونها تبسيطا مسرفا لعملية ذهنية معقدة . إن « فن » استرجاع المعلومات لم يرتق بعد إلى المستوى الذي يمكن اعتباره علما « نقيا » قائما بذاته ، وما زال الخلط بين مفهوم استرجاع المعلومات واسترجاع الوثائق يعوق سرعة تطوره في هذا الاتجاه (٢٢) يفتقد علم استرجاع المعلومات إلى الأسس النظرية . ويعد هذا أمرا طبيعيا لكونه تابعا من الناحية النظرية لعلم اللغة التي لم تستقر جميع أمور تنظيرها بعد ، خاصة فيما يتعلق بالدلالة السياقية ، وهي صلب عملية استرجاع المعلومات بلا منازع .

٨ : ٣ لغات البرمجة العليا :

أشرنا سابقا إلى أهمية لغات البرمجة لكونها أحد المقومات الأساسية لمنظومة الحاسب . وقد صنفناها ضمن فصيلة اللغات الاصطناعية لنفرق بينها وبين اللغات الطبيعية « الانسانية » . ولغات البرمجة هي الحلقة الوسطى بين الآلة والانسان المستخدم الذي يستعمل اللغة لصياغة أفكاره في صورة يمكن أن تفهمها الآلة الصماء . يتحدد مستوى لغات البرمجة بين التدني والرقي على أساس موقعها النسبي ، اقترابا أو بعدا ، على محور « الانسان ـ الآلة » . في بداية ظهور الحاسب استخدمت لغات البرمجة الدنيا التي تقترب بشدة من طبيعة الآلة وتتعامل بصورة مباشرة مع تفاصيلها الداخلية ، حيث لا تخرج تعليمات لغات البرمجة الدنيا عن كونها أعداداً رقمية ، أو رموزا ، والتي تتطابق بشكل مباشر مع العمليات الأساسية التي تقوم بها وحدة التحكم الحسابية المنطقية لمعالج نظام الحاسب . نظرا لهذه العلاقة التناظرية بين تعليمات البرمجة وعمليات الحاسب الأساسية فإنه يسهل تحويلها مباشرة إلى لغة الآلة الداخلية على هيئة إشارات ونبضات كهربية .

ونظرا لطبيعتها الرقمية أو الرمزية ، وارتباطها بتفاصيل الحاسب الداخلية ، ظل استخدام لغات البرمجة الدنيا قاصرا على الفنيين من إخصائيي الحاسب وفرض الانتشار السريع لتطبيقات الحاسب ضرورة إتاحة وسائل برمجة لجماعة أكبر من المستخدمين ، فظهرت لغات البرمجة العليا مثل لغات الفورتران والكوبول والبيسك لتيسير برمجة الحاسب لغير الاخصائيين . وقد استلهم علماء الحاسب في تصميمهم لهذه اللغات كثيرا من خصائص اللغات الرسمية مثل لغات الرياضيات والمنطق ، وافترضوا كذلك كثيرا من خصائص اللغات الانسانية (الطبيعية) وعلى رأسها الانجليزية بالطبع . لقد سعى المصممون لمحاكاة اللغات الطبيعية في قوتها ومرونتها التركيبية واستيعابها لظواهر الترادف والاشتراك اللفظي .

في معظم لغات البرمجة العليا يتم تحويل تعليماتها إلى لغة الآلة من خلال برنامج تحويل يعرف بالبرنامج المترجم compiler ويتم تشغيله بعد انتهاء مخطط البرنامج من وضع برنامجه بالكامل . ويتنافى هذا مع طبيعة الحوار المباشر بين الانسان والآلة . لذا فقد صاحب ظهور الحاسبات الميكروية الشخصية ـ وبدافع التبسيط ـ انتشار نظم البرمجة التي تعمل بأسلوب التفسير المباشر التي تقوم بترجمة فورية لتعليمات مستخدمها إلى لغة الآلة بمجرد إدخاله لها .

ومع التوسع في تطبيقات الحاسب اللغوية ، ظهرت عدة لغات ذوات طابع لغوي (smallTalk,prolog , lisp) قادرة على التعامل مع سلسلة الرموز اللغوية وبرمجة العلاقات البنيوية والمنطقية لعناصرها المختلفة . وقد واصلت لغات البرمجة سعيها الحثيث لاسقاط الحاجز اللغوي بين الآلة والمستخدم باستخدام اللغات « الطبيعية » ذاتها ، كالانجليزية واليابانية ، لبرمجة الحاسب مباشرة ، وهو الموضوع الذي ينتقل إليه الحديث في الفقرة القادمة .

٨ : ٤ نظم التعامل باللغات الطبيعية

حان الوقت لوقفة قصيرة نحدد فيها المقصود بمصطلح « اللغات الطبيعية » والذي تكرر استخدامنا له في مواضع سابقة دون تحديد كاف . يقصد باللغة الطبيعية تلك اللغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية ، مكتوبة أو منطوقة ، في السرد والحوار ، وبكل ما يكتنفها من لبس ونقص ، وأخطاء لغوية ، وإشارات إلى ما سبق ذكره ، وحذف ما يمكن استنباطه بداهة ، أو من واقع القياس أو بافتراض علم المستمع به على ضوء الخبرات والمعارف المشتركة التي تربطه بالمتكلم . تفترض نظم اللغات الطبيعية قدرا من اللغة الفصحى ولكنها ومع تطورها ستسعى أيضا إلى استيعاب اللهجات العامية . تستخدم نظم اللغات الطبيعية « حاليا » في ثلاثة مجالات رئيسية هي :

١ ـ البرمجة باللغة الطبيعية أي إحلال اللغات الانسانية كاليابانية والانجليزية محل اللغات الاصطناعية كالفورتران والبيسك .

٢ ـ التعامل مع نظم المعلومات باللغة الطبيعية دون الحاجة للغة وسيطة تستخدم فيها الكلمات المفتاحية وتراكيبها المنطقية .

٣ ـ الحوار مع الآلة من خلال الأسئلة والاجابات كما هو الحال في النظم الخبيرة والتي ضربنا لها مثلا بنظام تشخيص الأمراض .

وبجانب القدرات الآلية التقليدية ، يجب أن تكون نظم التعامل باللغات الطبيعية قادرة على :

١ ـ اكتشاف الأخطاء اللغوية (إملائية ، أو نحوية) والتغاضي عن بعضها ، وتصحيح الممكن منها أو الرجوع إلى المستخدم لتصويب مدخلاته .

٢ ـ قبول التراكيب الناقصة ، والتعبيرات المبتورة والتي تتسم بها طبيعة الحوار عادة ، حيث يتضمن الحوار إشارات مقتضبة ، تفرض طبيعة استمراره أن تكمل فقرات الحوار بعضها البعض بأقل تكرار لما سبق .

٣ ـ في الحالة المنطوقة ، يجب أن يكون النظام الآلي قادرا على تفسير المقصود بتلوين درجات الصوت (التنغيم ، والتطويل وما شابه) .

٤ ـ إجلاء اللبس النحوي والصرفي واللفظي والدلالي ، وفض الخلط الناجم عن تداخل الأصوات وما يطرأ عليها من تشوهات في الحالة المنطوقة .

٥ ـ رد الضمائر إلى مراجعها ، والتعويض عن المحذوف والمفترض ، وإرجاع المترادفات إلى أصلها المشترك .

٦ ـ الالمام بخلفية الموضوع الذي يتناوله الحوار من حيث بنية مفاهيمه ومعاني مصطلحاته واختصاراته .

٧ ـ التعرف على غرض المتكلم ، ومتابعة سياق الحديث . وما يصاحبه من تغيرات في غرض المتكلم ، وخطته في إدارة دفة الحديث .

وجملة القول ، إن التخاطب مع الآلة باللغة الطبيعية يتطلب تغييرا جذريا في علاقة المستخدم مع آلته ، فالأمر لم يعد طابعه التلقي السلبي لمجموعة من التعليمات لتقوم بتنفيذها ، بل هو في جوهره مساهمة إيجابية من قبل الآلة لتبادل الايضاحات ، والوصول إلى الفهم المشترك . لقد أصبح لزاما على النظام الآلي أن يستوعب متحدثه البشرى بأن يتكيف بصورة دينامية مع عاداته اللغوية ، ولوازمه اللفظية ، وهفواته النحوية وأخطائه الاملائية ، بل وعلى النظام الآلي أيضا الا يفترض « مسبقا » إلمام مستخدمه بما تحويه قاعدة معلوماته ، أو معارفه ، من مصطلحات ومعطيات ومفاهيم .

٨ : ٥ نظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) :

كان الأساس في التفريق بين إجيال الحاسب المتتابعة ، والتي يرمزون بها إلى مراحل تطوره ، هو نوعية التقنيات الأساسية المستخدمة في تصنيع عناصر بنائه . وهو بهذا تقسيم من وجهة نظر الصانع وليس من وجهة نظر المستخدم والذي يجب أن يستند فيه التقسيم على نوعية التطبيقات وكيفية التعامل بين الانسان والآلة . يمكن تقسيم التطبيقات الأساسية لمراحل تطور الحاسب إلى ثلاث نقلات نوعية :

- معالجة البيانات
- معالجة المعلومات
- معالجة المعارف

ففي البداية كان النظر إلى الحاسب بصفته آلة حاسبة ذات قدرة هائلة على « سحق » الأرقام . سادت نظم معالجة البيانات تطبيقات المرحلة الأولى والتي اقتصرت في معظمها على استخراج كشوف الحساب والمرتبات والتسويات المحاسبية وقوائم المخزون والفواتير وما شابه .

وقد مضى وقت طويل قبل أن يكتشف الفرق الكبير بين البيانات والمعلومات من حيث كون المعلومات هي ناتج تحليل البيانات وذلك بفرض استخراج المؤشرات والعلاقات والمقارنات والتنبؤات ومعاملات الارتباط ، والتي على ضوئها تتخذ القرارات . أو بقول آخر موجز ، تبدأ المعلومات عندما تنتهي البيانات . وهكذا ظهرت نظم المعلومات متخذة من قواعد البيانات أساسا لها . بجانب البيانات المباشرة ، تتضمن قواعد المعلومات العلاقات التي تربط بين عناصر البيانات والتي لها مغزى بالنسبة للأهداف الموضوعة لنظام المعلومات .

ومرة أخرى يأخذ التطور الحلزوني دورته المتصاعدة ليتضح في هذه المرة الفرق الشاسع بين المعلومات والمعارف . إن معظم المعارف استنتاجية أكثر منها حسابية أو بيانية ، فهناك فرق كبير بين ما تحتويه الكتب وقيام البعض باستيعاب مادتها واستغلالها في تعريف المشاكل وحلها . إن المعرفة هي حصيلة الامتزاج الخفي لثالوث : المعرفة ، والخبرة ، والحكمة البشرية ، ودعنا نبسط هنا لنقول « أن الحكمة تبدأ عندما تنتهي المعلومة » . ورغم وضوح الحقيقة في أن المعرفة الانسانية هي أهم الموارد على الأطلاق إلا أنها ، وفي وضعها الراهن ، مبعثرة ومنثورة ومبددة بين ثنايا الوثائق والكتب ، أو في أذهان ذوي المعرفة والخبرة والذين هم عرضة للضياع والفناء . وعلى الرغم من كل ما نسمعه ونراه من إنجازات هائلة إلا أن مورد المعرفة الانسانية مازال مهدرا بدرجة كبيرة وقد بات في أمس الحاجة إلى أساليب فعالة وعملية لتصونه وتنميه وتحسن استغلاله . لقد ترسخ الاعتقاد أن المعرفة موضوع يمكن أن يدين للسيطرة

الهندسية ، وهكذا خرج إلى الوجود مفهوم جديد يعرف بقاعدة المعارف ليمثل إحدى الركائز الرئيسة لحاسب الجيل الخامس ولتصبح البديل الأرقى لقواعد المعلومات ولتصبح وعاء لذخيرة المعارف وشبكة العلاقات والتفاعلات التي تربط بينها .

يجب أن تتوفر في نظم قواعد المعارف أو « النظم الخبيرة » أربعة مقومات أساسية (١) :

وسيلة لاكتساب المعرفة وترشيحها وذلك من مصادرها البشرية والمادية وهي المهمة التي يقوم بها « مهندسو المعرفة » من خلال استجوابهم المفصل للخبراء وتحليلهم الدقيق لمصادر المعلومات ، وتمحيصهم الهادف للحالات التي يمكن فيها استغلال هذه الخبرة وتطبيق هذه المعارف .

- أساليب منهجية وعملية لتمثيل وتخزين حصيلة المعارف التي تم تجميعها وتحليلها وذلك في هيئة قاعدة للمعارف قابلة للتحديث : اضافة ، وحذفا ، وتعديلا .

- توفير الوسيلة التلقائية التي يمكن من خلالها استغلال مضمون قاعدة المعارف في حل المسائل والاجابة عن الأسئلة التي تعرض عليها .

- تمثيل هذه المعارف والعلاقات التي تربط بينها بصورة يسهل تخزينها واسترجاعها وتحديثها .

- توفير وسائل آلية لاستنتاج واستخلاص المعارف وتطبيقها لحل المسائل وتفسير الظواهر آليا .

تدخل اللغة في مجال نظم قواعد المعارف من أوسع أبوابه ، كيف لا ومعظم المعارف يتم تمثيلها أو التعبير عنها في صورة لغوية . إن هذا الكم الهائل والمهدر معظمه ، من الخبرة الانسانية والذي تحمله المعلومات اللغوية ، المكتوبة والمنطوقة ، لم يخضع بعد للتحليل المعرفي الدقيق ، وما زال الأمر رهنا لعشوائية الاسترجاع والاستقراء . لقد سبق لنا أن أحلنا إلى الآلة مهمة سحق الأرقام واسترجاع المعلومات ، وقد حان الوقت أن نلجا إليها لترشيح خبراتنا وتخزين معارفنا المكتسبة وصيانتها وزيادة استغلالها حتى لا تظل حبيسة الكتب والأذهان عرضة للتبدد والضياع .

٨ : ٦ معمارية الجيل الخامس :

تمثل معمارية الجيل الخامس نقطة المصب لكثير من روافد استخدامات اللغة كأداة للحاسب ، وسنستعرض هنا وبايجاز كيف أثرت اللغة على معظم عناصر منظومة الحاسب بصورة جوهرية (١) .

المعمارية العامة :

على ما يبدو فقد تخلص حاسب الجيل الخامس من أسر اللغة الانجليزية الذي ساد الأجيال الأربعة السابقة حيث تميز تصميمه بالمرونة والتجريد بالقدر الذي أكسبه القدرة على التعامل مع عدة لغات .

وحدة المعالجة الرئيسة :

الانتقال من المعالجة المتابعة المتسلسلة لأسلوب المعالجة المتوازية وذلك لتلبية مطالب التحليل والتركيب اللغوي ، والقدرة على حل المسائل .

الذاكرة :

التحول من الذاكرة المركزية التي تعمل بأسلوب البحث عن المحل (البحث من خلال معرفة العنوان أو كما يسمونها ذاكرة صناديق البريد) إلى ذاكرة موزعة متداعية أي تعمل بأسلوب البحث عن المضمون أو المحتوى .

وسائط التخزين :

التوسع في استخدام تقنيات الأقراص الضوئية ذوات السعة الهائلة والتي ستمكن من تخزين النصوص الأصلية للوثائق والكتب والمراجع مما سيكون له أثر كبير في تعميق علاقة اللغة بالحاسب .

تعامل المستخدم مع الحاسب :

الانتقال من لغات البرمجة الاصطناعية الرسمية إلى استخدام اللغات الطبيعية . والسعي إلى استخدام الكلام المنطوق في التعامل مع الحاسب إدخالا وإخراجا .

التطبيقات :

الارتقاء من ميكانيكية معالجة البيانات والمعلومات إلى ذكائية معالجة المعارف .

٨ : ٧ تطبيقات الذكاء الاصطناعي :

يمكن تصنيف تطبيقات الذكاء الاصطناعي إلى أربعة مجالات رئيسة :

- نظم محاكاة القدرات البصرية والحركية للانسان .
- نظم الاستنتاج وحل المسائل آليا .
- تمثيل المعارف آليا (النظم الخبيرة) .
- نظم التعامل باللغات الطبيعية .

وما يهمنا هو سرد بعض تطبيقات الذكاء الاصطناعي في المجالين الأخيرين :

- نظم الترجمة الفورية بين لغة وأخرى أو بين مجموعة من اللغات في الوقت نفسه .
- الآلات الكاتبة التي تعمل بالاملاء .
- الآلات القارئة التي تحيل النصوص المكتوبة إلى كلام منطوق .
- برامج التعلم الذاتي الذكية القادرة على التكيف ديناميا مع قدرات المتعلم وأدائه .
- النظم الخبيرة مثل نظم تشخيص الأمراض ، نظم التدريب ، نظم المشورة العلمية ، نظم المخابرات العسكرية والعلمية .
- فهرسة واستخلاص واختزال النصوص آليا .
- الاسترجاع الذكي للمعلومات بحيث لايقتصر الامر على البحث عن الكلمات المفتاحية بل يتجاوزه إلى استخلاص المفاهيم ذوات المغزى الدلالي للاستفهام المطروح بغض النظر عن الكلمات والصيغ المستخدمة في التعبير عنها داخل النصوص .
- نظم توليد النصوص كأن يقوم نظام الذكاء الاصطناعي بتجهيز مادة محاضرة عن موضوع علمي أو اجتماعي .

٩ : خصائص العلاقة بين اللغة العربية والحاسب :

٩ : ١ مدخل

قضية العلاقة بين اللغة العربية والحاسب هي بلا شك أهم القضايا في تهيئة المجتمعات العربية للدخول في عصر المعلومات . إن تمحيصنا الدقيق لخصائص هذه العلاقة ، بجانب كونه مدخلا هاما لمناقشة جوانب القضية المختلفة ، هو في حد ذاته مصدر هام يهدي الى منطلقات الحلول لكثير من المشاكل التي تشملها .

على ساحة الحاسب ، هناك مواجهة غير متكافئة بين اللغة العربية ، واللغة الانجليزية التي دمغت بمطالبها وقيودها أسس تصميم الأجيال الأربعة السابقة للحاسب .

ربما يتبادر للذهن هنا سؤال أساسي وهو : لماذا نتكلم عن خصائص لعلاقة لغة ما (العربية هنا) مع الحاسب ، في الوقت نفسه الذي أكدنا فيه مفهوم العموم اللغوي واتجاه تقنيات الحاسب للتخلص من الأساس الانجليزي ؟* وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نؤكد هنا إن وجود نظرية عامة للغة لا يفهم منه طمس خصائص اللغات التي تشملها بل يعني قدرتها على تفسير وتوصيف مظاهر الوفاق والخلاف في اطار عدد محدود من المباديء والمفاهيم العامة .

إن العموميات اللغوية هي بالضرورة ذات درجة عالية من التجريد لا تسمح بالتطبيق المباشر على الحاسب دون الهبوط الى مستويات اقل تجريدا وأكثر تفصيلا وتخصيصا .

هذا عن خصوصية اللغة ، أما عن اتجاه تقنيات الحاسب نحو المرونة اللغوية بتخليصها من قيود الأساس الانجليزي فهو الأمر الذي يحيل الى المستخدم مسئولية تطويع هذه القدرة التقنية لخدمة مطالب لغته الخاصة ولنسقط نهائيا حجة طالما لجأ اليها البعض في ضرورة اخضاع اللغة لقيود الحاسب . وفي ظل هذا المفهوم تصبح مسئولية اللغويين والفنيين العرب أوضح وأكبر .

جملة القول ، أنه لا مفر من التعامل مع خصائص اللغة العربية في علاقتها بالحاسب ، وسيمضي وقت طويل قبل ان تصبح النظم الآلية ذات شفافية لغوية عالية بالقدر الذي تختفي معه الفوارق اللغوية ـ ظاهريا ـ بحيث لا يدري المستخدم النهائي شيئا عما يقوم به الحاسب في استيعاب لغته الخاصة خلال آليات التعميم اللغوي بداخله .

إن التقدم الهائل في مجال اللغويات الحواسبية يحاصر « استرخاءنا » اللغوي والتقني في زاوية ضيقة ، فقد دانت الأساليب والدوافع لوضع علاقة العربية مع الحاسب تحت الفحص المجهري الدقيق ، ولا بديل للقدرات الذاتية في هذا الصدد الذي تستحيل معه رفاهية استيراد الحلول الجاهزة او جدوى الأساليب المختصرة أو قصيرة الأجل .

٩ : ٢ استراتيجية تعريب تقنيات الحاسب والمعلومات

برأيي أن تطور تقنيات الحاسب يأخذ مسارا يتحرك ، في أغلبه ، في اتجاه مصلحة اللغة العربية ، وعلينا أن نستغل الامانات الهائلة للميكرو أنفورماتيك والذكاء الاصطناعي ، ليس فقط لأغراض المعالجة الآلية للعربية أو

---

* طرح هذا السؤال من قبل عالم الحاسبات العربي القدير « صفوان بنجلون » خلال تعليقه على بحث ألقاه الكاتب في مؤتمر بغداد الدولي الثاني عن تقنيات وتطبيقات الحاسبات الإلكترونية ، مارس ١٩٨٦ .

التطبيقات التي تستخدمها ، بل لحل كثير من مشاكل أزمتنا اللغوية الحادة وعلى رأسها تخلف التنظير لها وقصور أساليب تعليمها . والبدائل المطروحة أمامنا كثيرة ومتعددة وبدون استراتيجية دقيقة وواضحة يصعب علينا تعويض ما فات ، واللحاق بما حل علينا فعلا ، ومواجهة ما سيجيء به الغد القريب ، وما أكثره . فلا مكـان هنا « لإعـادة اختراع العجلة » ، كما يقول المثل الانجليزي المشهور ، أو الاستمرار في انجرافنا الساذج وراء مثاليـات زائفة تستـتر وراء شعارات الأصولية اللغوية . إن الموقف يحتاج منا أقصى درجات الاقتراض والتطويع العلمي والتقني على أسس من وعينا الدقيق بخصائص لغتنا وأهداف تنميتنا الاجتماعية ، وكل ما ذكرناه عن قيود الأساس الانجليزي ، لا يمكن ان يكون القصد من ورائه أن نقذف للبحر بالحصاد الهائل للإنجازات العلمية والتقنية في مجال اللغة الانجليزية ، بل قصد به تأكيد اهمية ترشيد عملية الاقتراض والتطويع ، وإبراز الجوانب التي يتحتم فيها البحث عن حلول جذرية لبعض مشاكل معالجة العربية آليا .

إن مواردنا اللغوية ، والعلمية ، والتقنية ، والبشرية ، والاقتصادية لا تسمـح لنا بـاستمرار حـالة الفـوضى الشديدة التي شهـدتها المـراحل الأولى لتعـريب الحاسبـات والتي اتسمت بغياب الخـطط وتشتت الجهود ، وتكـرار البحوث ، وتضارب الآراء ، علاوة على السطحية اللغوية وتحاشي الدخول في المشاكل الحقيقية ، والانعزال شبه التام عما يجري حولنا في ساحة اللغويات الحواسبية .

نقترح هنا بعض الأسس والمباديء التي يمكن أن تساعد في بلورة استراتيجية واضحة وهادفة لتعريب الحاسبات وهي :

التعرف على أوجه الوفاق والخلاف بين اللغة العربية وتقنيات الحاسب .
دراسة الموقف الحالي لتعريب الحاسبات لتحديد معوقاته ومنطلقاته .
دراسة أوجه الاختلاف بين العربية والانجليزية فيما يخص الاطار العام لمعالجة اللغة آليا .
تحديد قائمة بالمنطلقات الأساسية لمعالجة اللغة العربية آليا على ضوء الفهم العميق لمطالب العربية ، وعلى أساس اقتفائنا الحثيث للاتجاه الذي يسير فيه تطور تقنيات الحاسبات .

٩ : ٣ أوجه الوفاق والخلاف بين اللغة العربية والحاسب

وصل سوء الفهم في علاقة اللغة العربية بالحاسب الى حد وصفها بعدم قابليتها للمعالجة الآلية ، وفي رأيي أن في هذا نوعا من التجني المتسرع والذي يتجاهل كثيرا من الحقائق اللغوية والفنية . وأكاد أجزم ان النظرة العميقة والمتأنية ستكشف كثيرا من الأمور التي تجعل من العربية موضوعا مثيرا للمعالجة الآلية بقدر يفوق اللغة الانجليزية نفسها . سننطلق في مناقشة أوجه الوفاق والخلاف بين اللغة العربية والحاسب من مجموعة الخصائص التي تميز منظومة اللغة العربية والتي سبق طرحها في الفقرة (٤ : ٥) .

ونبدأ بمواضع الوفاق : لقد وصفت العربية بكونها لغة جبرية[١٢] لشدة انتظام كثير من خواصهـا الصرفيـة والاعرابية والصوتية ، وكذلك للصلة الوثيقة بين مبانيها ومعانيها . يؤكد هذا قابليتهـا لاختزاليـة التقعيد والبـرمجة الآلية . بجانب ذلك يمتاز المعجم العربي بصغر نواته من الجذور والصيغ الصرفية في الوقت نفسه الذي تتعدد فيه

مفرداته كنتيجة للانتاجية الصرفية العالية . يمثل ذلك وضعا مثاليا لميكنة المعاجم واقامة شجرة المفردات التي تربط بين العناصر المعجمية الأولية بدءا من الجذور وانتهاء بالكلمات في صورتها النهائية التي تظهر بها داخل النصوص .

أما عن الفائض اللغوي الذي تنتشر ظواهره في كيان منظومة اللغة العربية فهو سلاح ذو حدين : فمن جانب يسمح الفائض اللغوي بضغط النصوص العربية لتصغير حيز تخزينها في ذاكرة الحاسب ووسائطه ، ويساعد النظم الآلية على تعويض ما يترخص فيه التعبير اللغوي من قرائن ، كاسقاط علامات التشكيل أو حركات الاعراب ، ومن جانب آخر يعد الفائض اللغوي للعربية مصدرا للتعدد والتباديل التركيبية التي تمثل احدى العقبات الأساسية لمعالجة اللغة آليا .

فيما يخص شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية يمثل ذلك صعوبة على مستوى التعامل الآلي مع العناصر اللغوية المنفردة (نظام الكتابة الصوتية ، الصرف ، النحو ، المعجم ، الدلالة) حيث يصعب فك اشتباكها مع العناصر الأخرى . أما على مستوى معالجة السياق المستمر فيعد هذا التماسك نفسه ميزة حقيقية نظرا لأن الفهم الأتوماتي يعتمد على العلاقات والترابطات بقدر يفوق اعتماده على العناصر المفردة .

وإذا انتقلنا الى مواضع الخلاف بين اللغة العربية والحاسب فسنجد معظمها يرجع لأسباب خارج اللغة ، وليس في صميم اللغة نفسها .

نلخص مواضع الخلاف فيما يلي :

تعدد نظم الكتابة العربية (مشكولة أو غير مشكولة) وما يصاحب غياب التشكيل من حالات معقدة ومركبة حيث تؤدي للبس وهو بلا شك عقدة المشاكل للنظم الآلية للتحليل اللغوي .

ثنائية العامية والفصحى وما يتبع ذلك من مصاعب جمة على نظم التعامل الآلي باللغة الطبيعية .

قصور ألفاظ وصف اللغة بما لا يتفق ومطالب الدقة التوصيفية للنظم الآلية حيث تعتمد اللغويات الحواسبية على كثير من المصطلحات، والرموز التي يتعذر بدونها تمثيل كثير من المفاهيم والعلاقات التي تحظى بها تداخلات علوم الحاسب مع علوم اللغة .

تخلف نظام التقعيد حيث لا يصلح أساسا للبرمجة الآلية التي تعتمد اساسا على التمثيل الرياضي والمنطقي .

قصور أساليب تعليم العربية لدرجة يصعب معها تقبل هذه المنهجيات المتخلفة للأساليب المستحدثة لتعليم اللغات بالكمبيوتر .

مما سبق يتضح أن أهم مصادر الخلاف مرتبط بقصور الهياكل الأساسية لكياننا اللغوي . وعلينا ان نواجه الحقيقة السافرة بأن قضية اللغة العربية والحاسب هي مسألة لغوية في المقام الأول ، والحل فيها يكمن في استغلال خصائصها الداخلية واستكمال هياكلها الأساسية من نظم تقعيد ، ومعاجم ، ومناهج تعليمية ، ومصطلحات ، وبحوث أساسية .

٩ : ٤ عن الموقف الراهن لتعريب الحاسبات :

في مجمله ، لا يخرج الموقف الراهن لتعريب الحاسبات عن كونه أحد النتائج المنطقية لأزمتنا اللغوية الحادة وواقع حالنا على صعيد العلم والتقنية .

وتحدد الملامح التالية الصورة العامة للوضع الراهن :

أولا : استيعاب العربية في نطاق التقنيات المصممة أصلا للغة الإنجليزية ، سببه ضغط الدوافع العملية واللهفة التجارية لتطبيقات معالجة البيانات . وقد اتخذت عملية الاستيعاب المذكورة عدة طرق يغلب عليها الطابع الفني غير اللغوي ، مثل :

ـ الإحلال شبه الميكانيكي للعربية بدلا من الإنجليزية . وأمثلة ذلك كثيرة نذكر منها احلال الحروف العربية بدلا من الانجليزية في الطابعات ، واحلال المقابل العربي للرسائل الانجليزية التي يتم التخاطب من خلالها مع نظم التشغيل ونظم استرجاع المعلومات مع بقاء كل شيء آخر على ما هو عليه .

ـ تبسيط اللغة العربية كتقليل عدد أشكال الحروف ، وإغفال حركات التشكيل ، وتجنب قواعد الابدال والاعلال (كما هو الحال في معظم محاولات الصرف الآلي) .

ـ التحايل على القيود الفنية لتلبية مطالب العربية كتوسيع نطاق الشفرة الانجليزية المحدودة في عدد رموزها وذلك باستخدام ما يعرف بحروف « الزوغان » والتي يتم من خلاله تمثيل بعض الحروف العربية بدلالة رمزين بدلا من رمز واحد ، بأن نستخدم ـ على سبيل المثال ـ زوج الرموز المقابلة لحرفي A,E لتمثيل حرف الطاء العربية .

ـ آخر الطرق ، وأشدها عنوة ، هو تحويل النصوص العربية الى مقابلها الصوتي بالحروف اللاتينية وذلك لاعدادها للمعالجة الآلية ، وأوضح مثال على ذلك هو ترجمة عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها الى الحروف اللاتينية في نظم قواعد المعلومات البيبلوغرافية .

إن استيعاب اللغة العربية آليا في نطاق اللغة الانجليزية هو عملية خاطئة من أساسها وذلك لسببين رئيسين :

(أ) : أن اللغة العربية ، بصفتها أعقد اللغات السامية ، والانجليزية ، والتي تعد من أبسط لغات الفصيلة الهندية ـ الأوروبية ، يمثلان طرفي نقيض على مدى المحور اللغوي .

(ب) : أن العربية في معظم أمورها اللغوية أعقد من اللغة الانجليزية لذا ، فعملية استيعابها في نطاق الانجليزية هو بمثابة منطق معكوس لاستيعاب الأعقد في نطاق الأبسط .

وليس من الغرابة في شيء أن تؤدي عملية الاستيعاب « بالقسر والاذعان » المذكورة الى كثير من المشاكل التي تعوق انتشار الحاسب في المجتمعات العربية في وقتنا الحاضر ، وستؤدي ـ إن لم نتخلص من آثارها وبسرعة شديدة ـ إلى مزيد من المشاكل الأكثر خطورة وعمقا في المستقبل القريب .

ثانيا : أحد الملامح الرئيسة للوضع الراهن لتعريب الحاسبات هو التركيز على عنصر الحرف ، فمعظم الجهود قد انصبت على كيفية طباعة النصوص العربية واظهارها على الشاشات المرئية . وكنتيجة منطقة لهذه السطحية اللغوية ، طغى الجانب الفني على الجانب اللغوي وظل الحوار بين أخصائي الحاسب واللغويين شبه منعدم . الا أنه بدأت تظهر في الآونة الأخيرة بوادر مشجعة لدخول الحاسب في مجالات الصرف والمعاجم والصوتيات .

ثالثا : من الشواهد البارزة أن معظم جهود تعريب الحاسبات كانت تأتي إلينا من خارج الوطن العربي وخاصة من الولايات المتحدة ، وكندا ، والمملكة المتحدة ، وفرنسا . ومن الطبيعي أن يكون الدور الاساسي هنا لموردي تقنيات الحاسبات ونظم المعلومات وهم ، بحكم التعريف ، يضعون أهداف التسويق أمام مطالب التعريب . ويجب أن نشير هنا إلى جهود ومبادرات كثير من المؤسسات والمنظمات العربية في حقل تعريب الحاسبات وعلى رأسها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والمنظمة السعودية للتوحيد القياسي ، والمركز القومي للحاسبات بالعراق ، ومعهد الكويت للأبحاث العلمية ،واللجنة الاقتصادية لغرب آسيا ، ومعهد البحوث السوري ، ومعهد علوم اللسانيات بالمغرب ، ومعهد بحوث الإلكترونيات بالمركز القومي للبحوث بمصر وكذلك معهد الدراسات الاحصائية التابع لجامعة القاهرة ، ويجب ألا ننسى المساهمة الجادة لبعض الشركات العربية الرائدة في هذا المجال ، وكذلك جهود المراكز العلمية لبعض الشركات متعددة الجنسيات .

رابعا : غياب البحوث الأساسية في حقل اللغويات الحواسبية ، فمازال اهتمام جامعاتنا ومعاهدنا ، ومجمعاتنا اللغوية دون المستوى المطلوب ، وفي حدود علمي لم يدخل علم اللغويات الحواسبية أيا من كلياتنا حتى الآن .

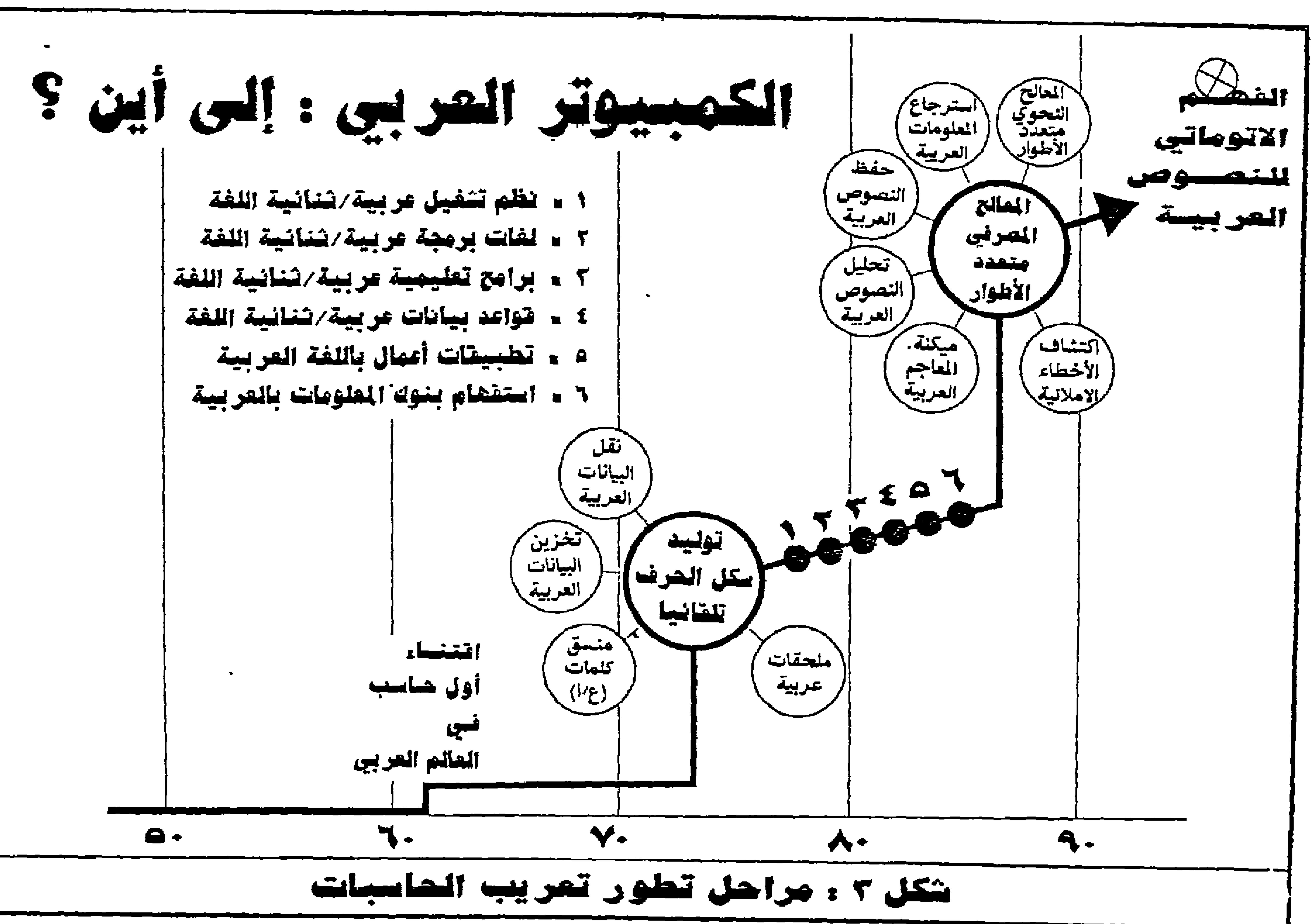
تحظى العربية حاليا خاصة في جوانبها الصرفية والإعرابية ، باهتمام كثير من الجامعات الأمريكية والأوروبية . وهناك عدد لا بأس به من الدراسات الإحصائية واللغوية الحديثة في مجال الفونولوجي والصرف والنحو العربي .

خامسا : آخر ملامح الصورة العامة لتعريب الحاسبات هو تركيزها على شق البرمجيات من منظومة الحاسب وهناك عدد من المبادرات المشجعة لإقامة بيوت خبرة متخصصة في نظم الحاسبات العربية وبرمجتها . أما في جانب العتاد فهناك بعض المشاريع ، في السعودية والعراق والجزائر للتجميع والتصنيع الجزئي للحاسبات الشخصية لأغراض الاستخدام المكتبي والمدرسي والمنزلي .

٩ : ٥ مراحل تطور تعامل اللغة العربية مع نظم الحاسبات :

قبل الحديث عن تطبيقات الحاسب كأداة للغة العربية ، دعنا نستعرض مراحل التطور المختلفة منذ بداية ظهور الحاسب إلى يومنا هذا والتي يمثلها المخطط : في (شكل ٣) . كان معهد التخطيط القومي في مصر هو أول مؤسسة عربية تقتني حاسبا آليا وذلك عام ١٩٦٢ أي بعد ١٤ سنة من ظهور أول حاسب إلكتروني . وفي الستينات لم يكن هناك تعريب يذكر حيث اقتصر الأمر على طباعة الحروف العربية (لطباعة الأسماء ، والعناوين وماشابه) وذلك بإحلال الحروف العربية بدلا من الإنجليزية .

جاءت أول نقلة نوعية في ١٩٧٢ عندما تم تطوير نظام آلي لاختيار شكل الحرف العربي تلقائيا حسب الحرف السابق والحرف التابع له ، وبذلك اختصرت لوحة المفاتيح العربية لتشمل فقط الحروف الأصلية مثل (ع ، ك ، س)



شكل ٣ : مراحل تطور تعريب الحاسبات

وأحيل إلى الحاسب مهمة اختيار الشكل المناسب . ومكن ذلك من دخول الحاسب المعرب في التطبيقات التقليدية مثل معالجة (تنسيق) الكلمات العربية ، تطوير ملحقات عربية (طابعات وحدات فرعية ذوات شاشة مرئية) ، وكذلك تخزين الرموز العربية بصورة فعالة على الأقراص الممغنطة . علاوة على ذلك أتاح نظام توليد شكل الحرف تلقائيا إمكانية تبادل البيانات العربية من خلال شبكات التلكس ونقل البيانات حيث اختزلت شفرة تبادل البيانات لتشمل الحروف العربية الأصلية دون أشكالها التي أصبحت من مسئولية نهايات الاتصال توليدها أتوماتيا .

شهدت المرحلة من ١٩٧٢ حتى ١٩٨٥ سلسلة من التطبيقات الهامة مثل :

ـ استخدام العربية في نظام استرجاع المعلومات وذلك بإبدال الرسائل الإنجليزية للتعامل مع النظام بمقابلها العربي .

ـ ظهور لغات برمجة عربية مثل البيسك العربي واللوغو العربية .

ـ إقامة أول صناعة عربية في مجال البرامج التعليمية والتي ركزت على تعليم اللغة العربية بالكمبيوتر .

ـ محاولات جزئية لتطوير محللات صرفية ذوات إمكانات محدودة .

ـ الاتفاق ، بعد عشر سنوات من المناقشات والمحاولات على الشفرة العربية الموحدة لتبادل البيانات .

بنهاية ١٩٨٥ حدثت النقلة النوعية الثانية بنجاح إدارة البحوث والتطوير في شركة العالمية للبرامج بتطوير أول معالج صرفي (محلل ومولد) متكامل قادر على التعامل مع الأطوار المختلفة للكلمة العربة المشكولة وغير المشكولة وناقصة التشكيل ، وهكذا تم الانتقال من مستوى الحرف إلى مستوى الكلمة لتبدأ بذلك مرحلة جديدة لمعالجة اللغة العربية آليا (٢٣) .

وبتوفر المعالج الصرفي الآلي أصبح دخول العربية ممكنا في نظم آلية متقدمة مثل :

ـ ميكنة المعاجم العربية والتي تعتمد على استغلال خاصية الانتاجية الصرفية التي تربط بين قائمة الجذور والصيغ الصرفية التي تطبق على كل جذر منها .

ـ تحليل النصوص ، وقد تم استخدام المعالج الصرفي بالفعل في تحليل النص القرآني .

ـ اكتشاف الأخطاء الإملائية وتصويبها ، والذي يعد إحدى الإمكانات الأساسية لنظم معالجة الكلمات .

ـ ضغط النصوص العربية ، حيث أمكن التخلص من قدر كبير من الفائض الصرفي (مكن ذلك من تخزين النص القرآني فيما يوازي ثلث حجمة الأصلي تقريبا) .

ـ استرجاع المعلومات العربية ، حيث تم وضع المعالج الصرفي في « قلب » نظام متكامل لتنظيم قواعد المعلومات المصدرية التي تتعامل مع النصوص العربية الكاملة . وقد استخدم النظام بالفعل في استرجاع آيات القرآن الكريم حسب الكلمات ، أو الجذور ، أو أجزاء الآيات .

ـ يمثل المعالج الصرفي شقا رئيسا في عملية التحليل النحوي للنصوص العربية المكتوبة والمنطوقة ، وبتطوير المعالج الصرفي متعدد الأطوار يجري حاليا تطوير معالج نحوي متعدد أطوار التشكيل ، وعلى ما يبدو سيكون النجاح في

مثل هذا الأمر هو النقلة النوعية التالية التي تمهد لاستخدام العربية في نظم التعامل باللغات الطبيعية ، حيث - إن نجح - سيمكن من تشكيل النصوص العربية الخالية من علامات التشكيل تلقائيا .

من هذا الاستعراض السريع لمراحل تطور تعامل العربية مع نظم الحاسب يتضح مدى حاجتنا لكثير من جهود البحوث والتطوير . ونظرة سريعة لما يتم على صعيد اللغات الأخرى توضح مدى تخلفنا الواضح في هذا المجال .

١٠ : الحاسب كأداة للغة العربية

نستعرض هنا بإيجاز شديد بعض الإنجازات التي تمت في المجالات المختلفة .

١٠ : ١ الإحصاء اللغوي :

- استخراج احصائيات الجذور المستخدمة في المعاجم العربية الشهيرة (١٥) .

- استخراج احصائيات عن الفائض اللغوي لتكرار الحروف العربية المفردة ، وأزواج الحروف المتتالية ، وثلاثياتها ، ومقارنة ذلك بنظيراتها في اللغة الإنجليزية (٢٤) .

- حساب إحصائيات تكرار استخدام الحروف والحركات والجذور الثلاثية والرباعية وأسماء الأعلام في النص القرآني وذلك باستخدام المعجم الفهرسي للقرآن الكريم كمصدر البيانات الأساسي (١٣) .

- تحديد التوزيع النسبي لاستخدام الصيغ الصرفية ، والحالات الإعرابية في النص القرآني ، وكذلك المؤشرات الأخرى لبنية الكلمات المتعلقة بدمج اللواصق : سوابقها ولواحقها ، مثل « ال » التعريف وضمائر الوصل وغيره .

- استخراج إحصائيات متنوعة عن طول الآيات وطول الكلمات في النص القرآني .

- استخراج إحصائيات عن أنواع الأخطاء الإملائية في الكتابة العربية .

- إتمام دراسة إحصائية باستخدام معامل الاحتمال الانتقالي لاختيار التوزيع الأمثل للحروف العربية على مخطط لوحة المفاتيح ، وكذلك لترتيبها على عجلات الحروف المستخدمة في الطابعات ، تعتمد الفكرة على توزيع الحروف التي يتكرر تتاليها (كالنون بعد الياء ، اللام بعد الألف) بالقرب من بعضها لتوفير جهد مستخدم لوحة المفاتيح ، أو تقليل مسافة الانتقال المتوسط لعجلة الطباعة عندما تنتقل من طبع حرف إلى الحرف الذي يليه .

١٠ : ٢ التحليل والتركيب اللغوي :

- هناك بعض المحاولات الأولية للتمييز الآلي للحروف والأعداد العربية المطبوعة ويقصد بذلك قراءة الحروف والأعداد وتحويلها إلى شفرة رقمية لتخزن على وسائط تخزين الحاسب أو في ذاكرته (٢٥) .

- هناك ذكر لدراسة من اليابان عن تمييز خط اليد العربي وذلك باستخدام أسلوب التعرف على الأنماط .

- توليد أشكال مختلفة من أنماط الحروف العربية مختلفة الأحجام والأشكال وذلك ، باستخدام عدد محدود من عناصر التشكيل الأولية التي يمكن أن تدخل في تشكيل العديد من الحروف (٢٦) .

ـ توجد عدة محاولات لتطوير نظام آلي للتحليل والتركيب الصرفي بعضها يفترض التشكيل الكامل والبعض الآخر يفترض غيابه بالكامل ومعظمها يتعامل مع الموازين الصوتية (آفال ، فال) دون الصيغ الصرفية ويتجنب كثيرا من مشاكل الإبدال والإعلال (٢٧ ، ٢٨) .

ـ تطوير معالج صرفي آلي متعدد الأطوار قادر على التعامل مع الكلمات تامة التشكيل ، والخالية من التشكيل ، أو المشكلة جزئيا . ويعتمد المحلل الصرفي على الصيغ الصرفية ، ويطبق القواعد الفونولوجية المختلفة للإبدال والإعلال ، وقد اجتاز المعالج بنجاح كبير الاختبار القاسي لتحليل وإعادة تركيب جميع كلمات النص القرآني (٢٣) .

ـ محاولات أولية لتوليد الكلام العربي آليا بتحويل النصوص المدخلة من لوحة المفاتيح إلى مقابلها الصوتي (٢٨ ، ٢٩) . مازالت جودة الصوت الناتج عن هذه النظم الآلية دون المستوى المطلوب وتحتاج لجهد في تهذيبها لتحسين خواص النبر والتنغيم .

ـ هناك عدة محاولات جارية لتطوير معالجات آلية للنحو العربي ، تسعى لإعراب الجملة العربية آليا .

ـ هناك بدايات لتمييز الكلام العربي المنطوق على مستوى الكلمات العربية المنفردة . ويحتاج انتقال مثل هذه البحوث إلى المراحل المتقدمة لتمييز الكلام المتصل إلى عناصر وتقنيات عديدة مازال معظمها رهن البحث .

١٠ : ٣ ميكنة المعاجم :

ـ تم ميكنة معجم جيب إنجليزي / عربي لأغراض التعليم يتم توزيعه على شريحة إلكترونية مصحوبة بعدة تمارين وألعاب كلمات لتنمية حصيلة المفردات (٣٠) .

ـ تم ميكنة المعجم العربي على هيئة مصفوفة ثنائية لقائمة الجذور والصيغ الصرفية الممكن تطبيقها عليها . ويشمل المعجم المعطيات الصرفية والنحوية والدلالية اللازمة للتطبيقات المختلفة لمعالجة اللغة العربية آليا . ويعد هذا المعجم الآلي مصدرا لا غنى عنه لدراسة الإنتاجية الصرفية للغة العربية ، وعلاقة الترابط الأخرى للعناصر المعجمية المختلفة (٢٣) .

١٠ : ٤ تحليل النصوص :

ـ تم استخراج المعجم المفهرس للقرآن الكريم آليا وذلك باستخدام المحلل الصرفي الآلي متعدد الأطوار السابق ذكره (١٣) .

ـ احصائيات تحليلية لدراسة الظاهرة الصرفية في النص القرآني (١٣) .

ـ ورد ذكر لبعض المحاولات لاستخدام نظرية المعلومات لدراسة أنماط الشعر العربي .

ـ تم تطوير برنامج لتمييز بحور الشعر العربي آليا (٣١) .

١٠ : ٥ الترجمة الآلية :

ـ هناك عدة محاولات تقريبية (نظام ٩٥٪) لترجمة الوثائق الفنية والعلمية من الإنجليزية للعربية أشهرها نظام (سيستران) الذي طورته إحدى الشركات الفرنسية (٦) وهو تطوير لنظام بدائي للترجمة تم وضعه في الستينات للترجمة من الإنجليزية للروسية وذلك لاستخدامه في برنامج التعاون الفضائي بين روسيا والولايات المتحدة .

ـ هناك ذكر لبعض المحاولات للترجمة المحدودة من العربية إلى الإنجليزية .

١٠ : ٦ نظم الفهم الأتوماتي :

ـ محاولة لتطبيق مفاهيم التحليل الدلالي على نصوص صغيرة (أقل من ٣٠٠ كلمة) تغطى موضوعا واحدا محددا وذلك لاستخدامها في نظم الإجابة عن الأسئلة وقد تم تطبيقها على بعض فقرات من الدستور اللبناني (٣٢) .

ـ تطوير برنامج فهم أتوماتي للنصوص العربية في نطاق محدود ، (وذلك لحل بعض تمارين علم الميكانيكا آليا) وذلك باستخدام مخططات المفاهيم (٣٣) .

ـ برنامج لتوليد النصوص العربية في موضوع محدد (٣٤) .

معظم هذه المحاولات لا تخرج عن كونها تطبيقا مباشرا لبعض النظم المناظرة التي تستخدم اللغة الفرنسية على جوانب محدودة من النصوص العربية التي تغطي موضوعا واحدا معينا ، أو نظاما ضيقا للغاية من الموضوعات .

١٠ : ٧ تعليم اللغة العربية بالكمبيوتر :

ـ هناك عدة محاولات مشجعة لاستخدام الكمبيوتر المنزلي في تعليم قواعد اللغة العربية . علاوة على كثير من برامج الألعاب التعليمية مثل برامج المحاكاة وألعاب الكلمات .

ـ تم تطوير برنامج (عربي / إنجليزي) لتأليف المناهج ، وهو ذو امكانات متعددة ، حيث يمكنه التعامل مع النصوص العربية واللاتينية ويغطي نطاقا عريضا من الأسئلة ، وطرق عرض المادة التعليمية وتحريكها (٣٥) .

١١ : الإطار العام لمعالجة اللغة العربية آليا

١١ : ١ ثنائية التحليل والتوليد

يمكن القول بصورة عامة أن نظم المعالجة الآلية للغة ، على اختلاف مستوياتها تقوم بوظيفتين أساسيتين :

ـ وظيفة تمييز العنصر اللغوي « الشق التحليلي » .

ـ وظيفة توليد العنصر اللغوي « الشق التركيبي » .

بشكل عام تعد عمليات التمييز أعقد من عمليات التوليد حيث تتعامل الأولى مع مدخل متغير لا يمكن تحديده سلفا ، ولا يفترض وجوب صحته لغويا أو معنويا .

هذا عن طبيعة الوظائف الأساسية التي تقوم بها نظم المعالجة الآلية ، ولننتقل الآن لتحديد الإطار العام لمعالجة اللغة العربية آليا وذلك على أساس مبدأين أساسين :

ـ تحديد الإطار العام على مستوى معالجة المعلومات ومعالجة المعارف حيث تتفاوت بينهما المهام اللغوية للنظام الآلي بشكل كبير .

ـ تحديد الإطار العام للغة الإنجليزية أولا ثم بعد ذلك للغة العربية لتتضح الفروق بينهما والتعديلات المطلوب إضافتها على النظم المصممة للغة الإنجليزية لتلبية مطالب اللغة العربية .

١١ : ٢ الإطار العام لمعالجة المعلومات

يوضح شكل ٤ الإطار العام لمعالجة المعلومات بالنسبة للغة الإنجليزية . يتكون الإطار العام من العناصر الرئيسة التالية .

ـ قاعدة المعلومات
ـ وسيلة تحديث المعلومات
ـ وسيلة استرجاع المعلومات
ـ قاموس البيانات الذي يتضمن تعريفات المصطلحات المستخدمة في قاعدة المعلومات ، والمكانز التي تتضمن قوائم الموضوعات العامة والتفصيلية التي يتم اختيار الكلمات المفتاحية منها .

يتم إدخال المعلومات الجديدة سواء باستخدام لوحات مفاتيح الوحدات الطرفية ، أو قراءة الوثائق تلقائيا من خلال معدات القراءة الضوئية التي تقوم بتمييز النصوص المكتوبة آليا . وتشمل عملية إدخال المعلومات المراد إضافتها إلى قاعدة المعلومات على عمليات التحقق من صحة المعلومات ، واكتشاف وتصحيح الأخطاء الإملائية والنحوية ، وكذلك عملية ترميز (تكويد) عناصر المعلومات بما يتفق والمواصفات المحددة في قاموس البيانات .

تتلقى وسيلة استرجاع المعلومات مدخلاتها على هيئة طلبات بحث عن معلومات معينة . يتم صياغة طلبات البحث عادة باستخدام الكلمات المفتاحية التي يتم تحديدها بالرجوع إلى المكانز ، العامة أو المتخصصة . هناك اتجاه حاليا للاستغناء عن المكانز وإطلاق حرية المستخدم في صياغة طلب بحثه حيث يقوم النظام نفسه برد المفردات الحرة التي يستخدمها إلى قائمة الكلمات المفتاحية التي يتعامل معها النظام في كشف الوثائق . وتقوم وسيلة استرجاع المعلومات بمقارنة البيانات الواردة في طلب البحث مع ما تتضمنه المعلومات الإشارية للوثائق المخزنة (كالعناوين والكلمات المفتاحية والمستخلصات) ، واستخراج قائمة بالوثائق المطابقة .

ويختلف الإطار العام لمعالجة المعلومات في اللغة العربية عن ذلك للغة الإنجليزية في نقطتين أساسيتين (شكل ٤ ب) :

ـ من الطبيعي أن يتطلب دخول المعلومات الجديدة وبيانات طلب البحث بدون تشكيل ، أو بتشكيل ناقص . لإجلاء اللبس الناجم عن غياب التشكيل ، أو عدم اكتماله ، يجب تزويد نظم معالجة المعلومات العربية بمعالج

للتشكيل الآلي لاستكمال التشكيل في حالة الإدخال ، وإضافة علاقات التشكيل الواجب في حالة الإخراج وذلك لضمان القراءة الصحيحة للمعلومات المستخرجة .

ـ يلزم لعمل معالج التشكيل الآلي وجود معجم يتضمن جميع الجذور العربية ، والصيغ الصرفية المطبق عليها حيث يقوم المعالج بعمليات تحليل وتركيب لغوية مختلفة (صرفية / نحويـة / دلالية) يلزم لها كثير من المعـطيات المعجمية) .

على ضوء ما سبق يتضح أن الفرق الأساسي لمعالجة المعلومات بين اللغة الإنجليزية والعربية يكمن في مسألة التشكيل ، وضرورة استخدام الخاصية الصرفية في تخزين المعلومات واسترجاعها حيث لا يصـح استخدام النـظم الإنجليزية المبنية على الفرز الأبجدي للكلمـات حيث يتعذر ذلـك في العربيـة نتيجة لتغير بنية الكلمـة تحت وقع الالصاق ، نتيجة التصريف والانصهار ونتيجة الاشتقاق ، والتعديل بسبب عمليات الإبدال والاعلال .

١١ : ٣ الإطار العام لمعالجة المعارف

يوضح (شكل ٥أ) الإطار العام لمعالجة المعارف للغة الإنجليزية . وهو يشمل العناصر الرئيسية التالية :

ـ قاعدة المعارف والتي تشتمل على شبكات المفاهيم التي تمثل عناصر المعرفة (المفاهيم) والعلاقات الرئيسة التي تربط بينها .

ـ عناصر التحليل اللغوي المختلفة (تحليل صرفي / تحليل نحوي / تحليل دلالي / سياقي / منطقي) . لايعني التسلسل الموضح بالشكل بين عناصر التحليل اللغوي المختلفة ضرورة عملها بصورة متتالية ، حيث تعمل جميع عناصر التحليل عادة بشكل متكامل يغلب عليه طابع التوازي .

ـ آلة الاستنتاج التي تلغي مضمون قاعدة المعارف بحثا عن المعارف اللازمة لإجابة الأسئلة ، أو حل المسائل التي تطرح على نظام معالجة المعارف .

ـ وحدة توليد النصوص لتحويل سلسلة خطوات الإجابة ، أو الحل ، التي خلصت إليها آلة الاستنتاج إلى صياغة لغوية يفهمها المستخدم .

ـ وحدة التعامل اللغوي مع المستخدم لإقامة الحوار معه باللغة الطبيعية من خلال سلسلة الأسئلة والإجابات .

ـ معجم الكلمات الذي يمد جميع عناصر التحليل والتوليد اللغوي بالمعطيات المعجمية اللازمة لعملها .

من خلال أساليب هندسة المعرفة يتم اكتساب المعارف الجديدة من مصادرها المختلفة (الوثائق ، الكتب ، الخبراء البشريين . .) يتم تحليل المعارف المكتسبة ، لغويا ، ودلاليا ، لتمثيلها في قاعدة المعارف .

يختلف الإطار العام لمعالجة المعارف باللغة العربية (شكل ٥ ب) في ثلاثة أمور رئيسة :

ـ إضافة معالج التشكيل الآلي كخط مواجهة يفصل بين النظام ومصـادر الإدخال والإخـراج حتى يستكمل التشكيل الناقص في حالة الإدخال أو يضيف التشكيل الواجب في حالة الإخراج . ويلزم استخدام المعالج الآلي المذكور

(شكل ٤ ب) معالجة المعلومات باللغة العربية

(شكل ٤ أ) معالجة المعلومات باللغة الانجليزية

(شكل ٥ ب) معالجة المعارف باللغة العربية

(شكل ٥ أ) معالجة المعارف باللغة الانجليزية

في حالة النصوص المكتوبة ، وكذلك في حالة التعامل المنطوق للمعاونة في إزالة اللبس الناجم عن تداخل الكلمات المنطوقة وتشابهها .

- امتزاج عملية التحليل الصرفي والنحوي بصورة كبيرة لإزالة اللبس الناجم عن غياب التشكيل أو نقصانه .

- استخدام معجم الجذور والصيغ الصرفية بدلا من معجم الكلمات لتسهيل عمليات التحليل اللغوي المختلفة .

- وجود عنصر الدلالة الصرفية كحلقة وصل بين المعجم وعنصر التحليل الدلالي ، حيث تلعب المعاني الصرفية (معاني المباني) دورا هاما في الفهم الأتوماتي للتعبيرات اللغوية .

ومن مقارنة الإطار العام لنظم المعلومات ونظم المعارف للغتين الإنجليزية والعربية يتضح أن العربية تحتاج كل ما تتطلبه الإنجليزية ، بجانب عناصر أخرى يلزم إضافتها على هذه العناصر ، ويجب أن يتركز جهد التعريب فيها حتى لا يتبدد فيما لا يفيد ويضيف .

١٢ : المقارنة بين العربية والإنجليزية فيما يخص الإطار العام لمعالجة اللغة آليا

سبق وأشرنا إلى الفروق العامة بين منظومتي اللغة العربية واللغة الإنجليزية . لهذه الفروق آثارها الواضحة على معظم جوانب معالجة اللغة آليا . على مستوى الإطار العام لمعالجة المنظومة اللغوية ككل يمكن تلخيص هذه الفروق في النواحي التالية :

- تفترض النظم الإنجليزية علاقة الواحد إلى واحد في كثير من أمورها ، في حين تتسم العربية بشدة ظاهرة التعدد اللغوي فالحرف له أكثر من شكل ، والكلمة لها أكثر من تشكيل ، والمعنى الواحد له أكثر من مرادف ، والفعل له أكثر من باب ، والباب النحوي له أكثر من صيغة صرفية وهكذا . ويضيف هذا عبئا إضافيا على جميع عناصر التحليل والتركيب اللغوي .

- يطغى على النظم الإنجليزية الطابع التركيبي حيث يهيمن النحو على عملية التحليل اللغوي ، في حين يطغى الصرف على منظومة اللغة العربية حيث يعد محور النظم الآلية للتحليل والتركيب اللغوي ، حلقة وصل هامة بين المعجم وعنصر التحليل الدلالي .

- يجب أن تتميز النظم الآلية لمعالجة اللغة العربية بقدرات هائلة لإزالة اللبس الناجم عن غياب التشكيل أو نقصانه . لذا يعد معالج التشكيل الآلي عنصرا هاما يجب أن يسبق وظائف التحليل اللغوي ، في الوقت نفسه يحتاج معالج التشكيل نفسه إلى عمليات تحليل لغوي متعددة . من هنا تتضح العلاقة الدائرية في معالجة اللغة العربية آليا ، والتي لا ينفع معها أسلوب التحليل الهرمي متعدد المستويات ، وعلى ما يبدو تحتاج إلى أسلوب شبكي ذي دائرة مغلقة تتفاعل فيه معظم العناصر فيما بينها لتتضافر مع بعضها لفض اللبس الناجم عن غياب التشكيل . ويعد ما خلصنا إليه على التو نتيجة منطقية لشدة تماسك المنظومة اللغوية والتي أشرنا إليها في عدة مواضع سابقة .

ـ اعتماد المعجم العربي على الجذور بدلا من فروع الكلمات يعكس آثاره على معظم نظم معالجة اللغة آليا ويعد أحد المداخل الأساسية في التفريق بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية .

١٣ : منطلقات مقترحة لدفع حركة معالجة اللغة العربية آليا

ـ إعادة النظر لمشكلة التشكيل من أساسها .

. اعتبار الصرف أحد المداخل الأساسية لمعالجة اللغة العربية آليا .

ـ أقصى استغلال للمتاح من وسائل في اللغات الأخرى ، خاصة الإنجليزية والفرنسية واليابانية والألمانية .

ـ التركيز على المواضع التي تميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات .

ـ إعادة طرح نظام قواعد اللغة العربية في إطار النظرية اللغوية الحديثة .

ـ دراسة دقيقة لمطالب تعلم اللغة العربية بالكمبيوتر .

ـ استغلال الكمبيوتر في تنظيم وتحديث المعجم العربي .

ـ إدخال اللغويات الحواسبية في أقسام اللغات وعلوم وهندسة الحاسب .

❊ ❊ ❊

المراجع

(1) RICH, E."Aerificial Intelligence", MCGRAW-HILL, Inc , 1983.

(2) ALI, N. "Informatics in the Arab Region· A Diagnostic Study", A paper presented by ALECSO in the ıst SPIN Conference, Malaga Spain, 1978.

(3) LAMBERT S., ROPIEQUET S., 1986 "CD-ROM: The New papyrus", Microsott Press.

(4) ALI, N. and MURSI, M "Areas of Needed Research in Arabic Computational Linguistics", the 1st international information conference in Cairo, Co-sponsored By ASIS, December, 1982.

(5) ALI, N. and KHALIFA, F. "Arabic vs English. A Computational Linguistic View" Second International Baghdad Conference on Computer Techonology and Applicstions, Baghdad, March, 1986.

(6) PIGOTT, T.M. "How dose SYSTRAN Translate", a paper prepared for a meeting of Natural Language Translation Specialist Group of the British Computer Society, 1980.

(7) GRAVIN, P.L. (Ed.) "Natural Language and the Computer" McGRAW-HILL",

(8) CHOMSKY, N. 1965 "Aspects of the Theory of Syntax", Cambridge Mass. MTT press.

(٩) تمام حسان . « العربية مبناها ومعناها » ١٩٦٨ .

(10) SMITH, N. and wilson, D., "Modern Linguistics", Indiana University Press 1980.

(11) FROMKIN, V. and RODMAN, R. "Language", CBS College publishing, 1983.

(12) YUSHMANOV, N.V. (1961) "The Structure of Arabic Language", translated Moshe perlmann, Washington D.C Center for Applied Linguistics.

(13) ALI, N. "Morphological Analysis of the Holy Qur'an, to be published.

(14) BUTLER, C. "Statistic in Linguistics" Basil Blackwell, 1985.

(١٥) أحمد حلمي موسى : استخدام الآلات الحاسبة في دراسة ألفاظ القرآن الكريم « مجلة عالم الفكر ، مجلد ١٢ ، عدد ٤ » .

(16) ARONOFF, M. 1976 "Word Formation in Generative Grammar" Ling inq. Monogr. No.1 - Cambridge: MIT press.

(١٧) إبراهيم أنيس : « الحاسبات الإلكترونية في البحوث اللغوية » المجمع المصري للثقافة العلمية ـ العدد الثاني والأربعون .

(18) WAYNE, A.L. "Trends in Speech Recognition," Prentice-Hall, 1980.

(19) KING, M. "Parsing Natural Language", Academic Press, 1983.

(20) TUMBULL, J.J. (Ed.) "Computers in Language Studies". Published by NCC, U.K., 1973.

(21) HEAPS, H.S. "Information Retrieval Academic Press 1978.

(22) RIJSBERG, C.J. (Ed.) "Information Retrieval Research"; Butterworth & Co., Ltd., 1981.

(23) ALI, N. and ALSHAMY, A. 1986 "Multi Mode Morphological Processor for Arabic", Unpublished.

(24) WANAS, M.A. ZAYED, A.I., SHAKER, M.M. and TAHA, E.H., "First - Second - and Third Order Entropy of Arabic Text"; IEEE Trans. Int. Theory, Vol. IT 22 P. 123.

(25) HAJ HASSAN, F. 1985 "Arabic Character Recognition" Scientific Studies and Research Center, Syria.

(26) MAKAR, S. and ALAMEDDINE, O. "Antomatic Arabic Font Generation and Written Applications", IBM Kuwait Scientific Center, December, 1985.

(27) THALOUTH, B. and ALDANNAN, A. 1985, "A Comprehensive Arabic Morphological Analyzer Generator"; IBM Kuwait Scientific Center.

(28) MOURADI, A., RJOUANI, A., NAJIM, M., CHIADMI, D. "Text-to-Speech Conversion in Arabic", Second International Baghdad Conference ou Computer Technology and Applications, Baghdad March, 1986.

(29) Annual Report 1985 — IBM Scientific Center — Kuwait.

(30) Ali, N. "Design and Implementation of a Bilingual (English/Arabic) Pocket Dictionary", Unpublished.

(٣١) مصطفى حركات « برنامج تمييز بحور الشعر العربي على كمبيوتر صخر »

(32) WAKIM 1978 "Automatic Understanding of Natural Language Applied to Arabic", in French.

(33) GHEITH' M. 1980 "Realization of Understanding Program of Mechanics Exercises in Arabic," in French.

(34) MOCHR 1980 "Un Programme de Generation de l'Arabe".

(35) ALI, N. 1985 "Design and implementation of SAKHR Bilingual (Arabic/English) Course Authoring System", Unpublished.

* * *

الذكاء الاصطناعي ومعالجة اللغات الطبيعية *

علي فرغلي

جامعة الكويت

تمهيد

يلاحظ المتتبع لتطور البحث العلمي في السنوات الأخيرة اتجاهين هامين في مسار البحث، أولهما: التعددية interdisciplinary & multidisciplinary approaches وذلك لأنه يتضح يوما بعد يوم تشابك وتداخل فروع المعرفة المختلفة وتزايد عمليات التأثير والتأثر بينها[1]. فبعد أن كان العلماء في السابق يبالغون في تجزئة مادة البحث بهدف القاء النظرة الفاحصة الكاشفة على الظاهرة تحت الدراسة لفهمها فهما دقيقا مستهدفين معرفة خصائصها الذاتية مع استبعاد كل ما هو غير دال، اتضح أن هذه المغالاة في التخصص قد تؤدي الى اغفال العديد من الظواهر المؤثرة مع أنه قد يبدو لأول وهلة وكأنه لا علاقة للظاهرة بها. أدرك العلماء أيضا أنه الى جانب التخصص الدقيق لابد من النظرة الشاملة لاحراز التقدم العلمي. واتضح أكثر من أي وقت مضى مدى التشابك بين العلوم نفسها، فقد أثرت النظرية التوليدية Generative Grammar لعلم اللغة[2,3] وتؤثر في علم الحاسب الآلي، كما يستخدم علماء اللغة الحاسب الآلي في الاعراب parsing لاختبار صحة الانحاء التي يضعونها.

كما أن علاج عيوب واضطرابات النطق والكلام سواء العضوية منها أو النفسية لا يمكن أن يتم دون تعاون وثيق بين الطبيب المختص وعالم اللغة. ويشترك المهندسون وعلماء الصوتيات في تصميم أجهزة تخليق وتحليل الكلام.

---

* تم تمويل هذا البحث جزئيا عن طريق وحدة برامج الابحاث، جامعة الكويت، منحة أبحاث رقم AL002

(١) علي فرغلي ١٩٨٧ «علم اللغة والذكاء الاصطناعي» ورقة ألقيت في الندوة الدولية الأولى لجمعية اللسانيات بالمغرب، الرباط، تنشر في وثائق الندوة.

(٢) Chomsky, N. 1957. Syntactic Structures. The Hague : Mouton & Co.

(٣) Chomsky, N. 1965. Aspects of The Theory of Syntax, MIT Press, Cambridge, Massachusetts.

وأصبح من المستحيل في بعض الأحيان احراز تقدم في أحد المجالات دون الاستفادة من نتائج البحث في المجالات الأخرى . ولهذا لم يعد البحث العلمي مجهودا فرديا ذاتيا يقوم به أحد العلماء أو مجموعة من العلماء من تخصص واحد بل أصبح نشاطا جماعيا بالدرجة الأولى ، وتكونت فرق البحث العلمي من علماء من تخصصات مختلفة لممارسة الأبحاث التعددية وضمان النظرة الشاملة . ومن الطبيعي اليوم أن نجد علماء الرياضيات والطبيعة واللغة والحاسب الآلي يعملون كفريق واحد . وأنشئت المراكز الضخمة للأبحاث .

والاتجاه الثاني للبحث العلمي في السنوات الأخيرة هو ازدياد التداخل بين العلوم الطبيعية والانسانية[٤] . فرغم الاختلاف الواضح في مادة وأساليب البحث بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية فان هناك سمات مشتركة تميز العلوم الأساسية سواء الطبيعية منها أو الانسانية عن العلوم التطبيقية من أهمها أهداف البحث العلمي . وقد أدت التعددية الى مشاركة علماء الانسانيات مع باحثي العلوم الطبيعية في مشاريع أبحاث مشتركة مما كان له تأثير متبادل على مناهج الفريقين .

والذكاء الاصطناعي هو أحد العلوم الجديدة التي نشأت في ظل هذين الاتجاهين فهو علم تعددي ، وعلماء الذكاء الاصطناعي يأتون من خلفيات متعددة منها الحاسب الآلي والرياضيات والمنطق وعلم اللغة والفلسفة وعلم النفس ، كما أنه يجسد هذا التداخل والتلاحم الجديد بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ، فلا يقل اسهام بعض العلوم الانسانية كعلم اللغة وعلم النفس عن اسهام بعض العلوم الطبيعية كالرياضيات والحاسب الآلي .

تعريف الذكاء الاصطناعي

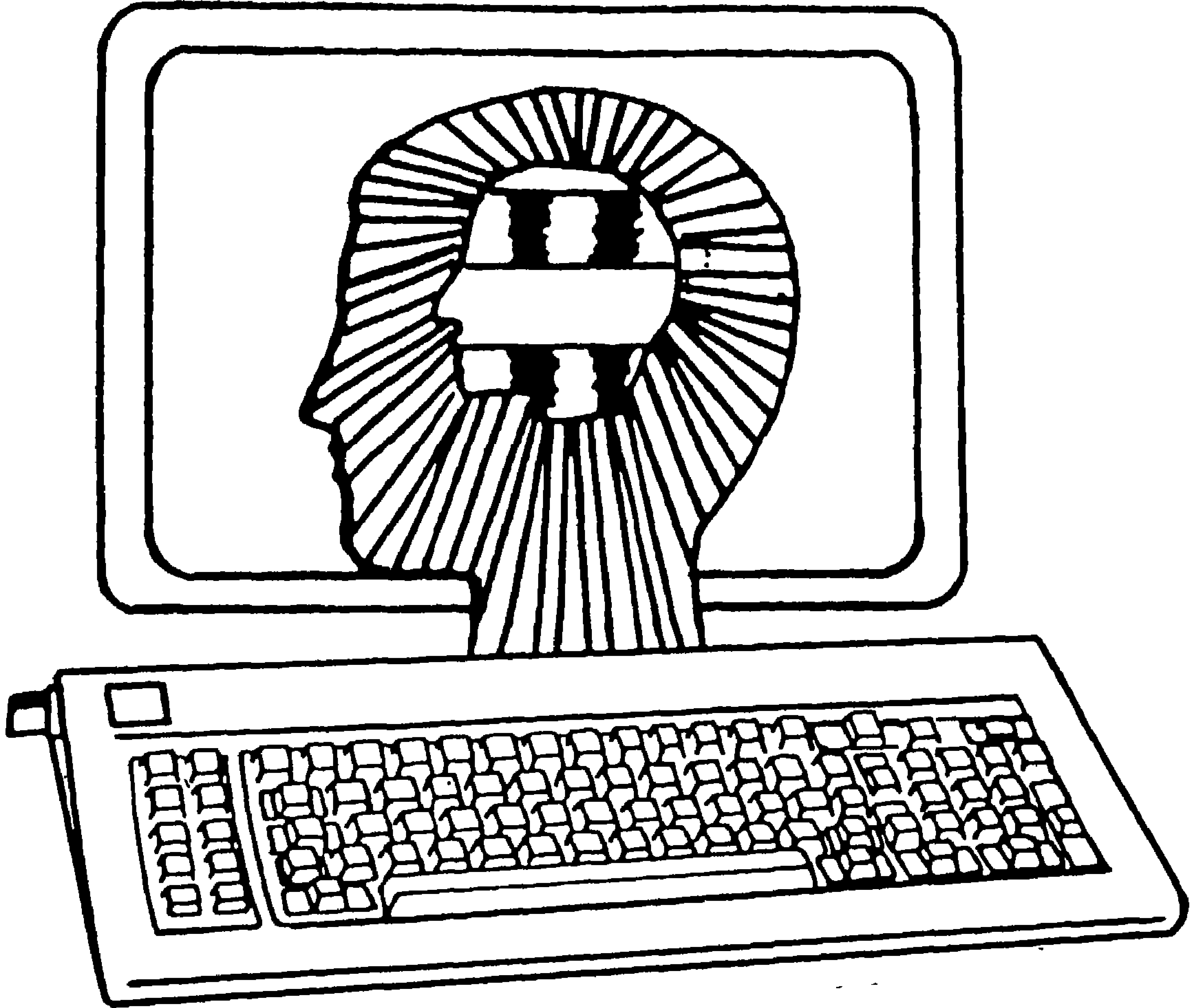
يختلف علماء الذكاء الاصطناعي في تعريفهم لهذا العلم ، فينظر ونستون[٥] اليه كأحد العلوم التطبيقية ويحدد الهدف الرئيسي للبحث في علم الذكاء الاصطناعي بأنه جعل الحاسبات الآلية أكثر ذكاء ونفعا للانسان ، ويرى أن الهدف الثانوي هو فهم الذكاء الانساني . بينما ينظر شارنياك وماك درموت[٦] الى الذكاء الاصطناعي باعتباره علما أساسيا يسعى لتفسير ظاهرة انسانية ، هي ظاهرة قدرات العقل البشري ، ويحددان هدف البحث الرئيسي في علم الذكاء الاصطناعي بأنه يسعى لدراسة القدرات العقلية الانسانية من خلال برامج للحاسب الآلي تحاكي هذه القدرات كما يمكن أن نرى في شكل (١) ، ويعترضان على استخدام كلمة « ذكاء » في تسمية هذا العلم ، لأن بعض القدرات التي يسعى هذا العلم لمحاكاتها لا تتطلب قدرا من الذكاء كالقدرة على الابصار والكلام . فكل طفل سليم العينين قادر على رؤية الأشكال من حوله وتمييز المرئيات المختلفة دون أي تدريب أو تعليم ومهما كانت درجة ذكائه ، وكذلك يستطيع كل طفل سليم الأذنين اكتساب لغة قومه بسهولة ويسر وفي فترة وجيزة نسبيا بغض النظر عن مستوى ذكائه . ولهذا يعتقد شارنياك وماك درموت أن كلمة « ذكاء » في « الذكاء الاصطناعي » قد تعطي انطباعا خاطئا أن هذا العلم لا يسعى لمحاكاة مثل هذه القدرات العقلية ، مع أنها تمثل حجر الزاوية بل التحدي الحقيقي لعلم

---

(٤) علي فرغلي ١٩٨٧ « الحاسب الآلي والعلوم الانسانية » ورقة القيت بالحلقة الدراسية حول مناهج البحث ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ، تنشر في وثائق الحلقة الدراسية .

(٥) Winston, P.H. and B. Horn : 1984, LISP, Second Edition, Addison Wesley, Reading, MA.

(٦) Charniak, E. & D. Mc Dermott : 1985, Introduction to Artificial Intelligence, Addison Wesley, Reading, MA.



شكل (١)

الذكاء الاصطناعي ومحاكاة قدرات العقل البشري

الذكاء الاصطناعي ، فمن بين ايضاءات الذكاء الاصطناعي أنه وجد أن تلك القدرات العقلية التي يجيدها الانسان دون تعليم أو تدريب ويقوم بها بشكل آلي دون أدنى تفكير مثل الابصار والسمع والكلام والحركة المتوازنة الرشيقة يصعب تماما على الحاسب محاكاتها . وهي تمثل تحديا حقيقيا لعلماء الذكاء الاصطناعي بينما تسهل كتابة برمجيات تحاكي القدرات العقلية التي يتعلمها الانسان عن طريق التدريب والتعليم مثل القيام بالعمليات الحسابية كالجمع والطرح والضرب والقسمة وحل المسائل الرياضية ، بل يتفوق الحاسب على الانسان بسرعته الفائقة ودقته الشديدة . ورغم أن كلا من علم الذكاء الاصطناعي وعلم النفس يسعى لفهم القدرات العقلية للانسان . . . إلا أن ما يميز الذكاء الاصطناعي هو منهجيته في تحقيق هدف البحث التي تتركز في عملية المحاكاة عن طريق كتابة برمجيات للحاسب الآلي وملاحظة سلوكها وتعديلها . ولم ندرك مدى تعقيد بعض الأنشطة الانسانية مثل فهم الكلام المسموع وتمييز الأشكال المرئية وغيرها إلا عندما شرع علماء الذكاء الاصطناعي في كتابة برامج لمحاكاتها ، فقد أدركوا حينذاك أننا لا نعرف إلا القليل من أسرار هذه الأنشطة العقلية ، وكان ذلك دعوة للعلماء المعنيين لاجراء مزيد من البحث لفهم أسرار هذه القدرات .

ويطرح بوني(٧) السؤال التالي : ما هو هدفنا الأساسي عندما نشتغل بالذكاء الاصطناعي ؟ هل هو لفهم الذكاء الانساني ؟ أم للاستفادة من الحاسب في معالجة المعلومات ؟ وهل يجب أن تحاكي برمجيات الذكاء الاصطناعي الطريقة التي يتوصل بها الانسان لحل المشاكل ؟ أم أن الطريقة لا تهم طالما توصلت البرمجية في النهاية الى حل بشكل أو بآخر ؟ ويحدد بوني موقفه بوضوح باختيار الشق الأول من هذه الأسئلة مشيرا الى صعوبة تعريف الذكاء الانساني ولكنه يرى أن هناك اتفاقا عاما على تحديد مظهر الذكاء الانساني على الوجه التالي :

أولا : التوصل الى حل للمشاكل والقضايا التي يتصدى لها الانسان بالرجوع الى المعلومات المتوافرة لديه ـ والتي قد تكون ناقصة ـ وخبرته في الحياة وتقديره للموقف ومعالجته المنطقية لكل هذه المعطيات التي ينتج عنها التوصل الى الحل .

ثانيا : القدرة على اتخاذ القرارات بناء على ادراك لجوانب الموقف والاحتمالات الواردة وعواقب أو نتائج كل من الاحتمالات ، ومعرفة النتائج المرغوب في تحقيقها واتخاذ القرار الذي يمكن من تحقيق هذه النتائج . ومثال ذلك تشخيص الأمراض ووصف العلاج اللازم .

ثالثا : القدرة على التعميم والتجريد وهي القدرة على استنباط القوانين العامة من الأمثلة المحدودة ومعرفة جوهر الشيء الذي لا يوجد الشيء بدونه . وهذا يتضمن القدرة على التمييز بين أنواع المعلومات المختلفة .

رابعا : التعرف على أوجه واحتمالات التشابه في المواقف المختلفة ، والتعامل مع المواقف المستجدة ونقل التجربة والخبرة الذاتية الى مواقف ومجالات جديدة .

خامسا : اكتشاف الأخطاء وتصحيحها بهدف تحسين وتطوير الأداء في المستقبل .

---

(٧) Bonnet, A. 1985. Artificial Intelligence : Promise and Performance, Prentice Hall International U.K.

سادسا : اكتساب المعلومات والتعلم من خلال الممارسة والتطبيق وترتبط القدرة على التعلم باستطاعة استشراف التماثل في الأشياء والقضايا والتوصل الى العموميات من الجزئيات واستبعاد المعلومات غير المناسبة .

اللغات الطبيعية

يستخدم علماء الذكاء الاصطناعي تعبير « اللغات الطبيعية » للاشارة الى اللغات الانسانية كاللغة العربية والانجليزية واليابانية والروسية وغيرها لتمييزها عن اللغات غير الطبيعية كلغات برمجة الحاسب الآلي والشفرات السرية وغيرها . وتستخدم جميع هذه اللغات للتفاهم والاتصال سواء بين الانسان والانسان أو بين الانسان والآلة ، كما أن لكل منها مفرداتها ونحوها وقواعدها اللغوية التي تحدد كيفية بناء « الجمل » كما تحدد المعنى الدلالي لكل من هذه الجمل . وتوضح الأمثلة التالية وجود النحو في جميع اللغات سواء اللغات الفصحى أو العامية ، وسواء اللغات الطبيعية أو اللغات غير الطبيعية .

١ ـ The boy hit the ball.

٢ ـ * hit the boy the ball.

٣ ـ غزة تتحدى الدبابات والطائرات الاسرائيلية .

٤ ـ * الدبابات والطائرات الاسرائيلية غزة تتحدى .

٥ ـ أنا مش مسافر بكره .

٦ ـ * مسافر مش أنا بكره .

٧ ـ (CAR)(A B C D)

A

٨ ـ * (CAR ((A B C D)

ERROR

UNDEFINED FUNCTION: A

الجمل ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ صحيحة لأنها تتبع القوانين النحوية للغات الانجليزية والعربية الفصحى والمصرية العامية ولغة البرمجة LISP على التوالي ، بينما ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ تخالف قوانين النحو ولهذا وضعنا علامة أمام كل منها لتفيد ذلك ، فرقم ٢ تخالف قواعد اللغة الانجليزية التي لا تسمح للجملة الخبرية العادية بأن تبدأ بفعل ، ورقم ٤ تخالف قواعد النحو العربي الذي يحتم وضع ضمير عائد مكان المفعول به الذي يتم تقديمه . وتخالف ٦ قواعد اللهجة المصرية بخصوص موقع أداة النفي « مش » ، وتخالف ٨ قواعد لغة البرمجة « ليسب » بأن العنصر الأول داخل المجموعة بين الأقواس لابد أن يكون اسما لوظيفة function ما لم توضع علامة quote قبل المجموعة . وعندما طلبنا من ليسب أن تأتي لنا بالعنصر الأول في المجموعة (A B C D) ووضعنا علامة quote قبلها في ٧ حصلنا على A وهي الاجابة الصحيحة بينما في ٨ لم نضع العلامة قبل المجموعة ، ولهذا اعتقد ليسب أن العنصر الأول في المجموعة هو اسم لوظيفة وبحث عن A بين أسماء الوظائف فلم يجدها ولهذا أجابنا أن هناك خطأ وأن وظيفة A غير معرّفة .

والذي يهمنا هنا أن نشير إلى أن لكل لغة سواء كانت فصحى أو عامية وسواء كانت لغة طبيعية أم غير طبيعية مفرداتها ونحوها اللذين يحددان الجمل الصحيحة well formed expressions في هذه اللغة . وتعلم لغة ما سواء كانت لغة طبيعية أو غير طبيعية يعني تعلم نحو هذه اللغة سواء بشكل واع أو غير واع .

والى جانب ما يجمع اللغات جميعا سواء الطبيعية وغير الطبيعية فان هناك سمات خاصة تميز اللغات الطبيعية عن غيرها ومنها :

١ ـ ترتبط اللغات الطبيعية بحضارة وثقافة وقيم وتقاليد الانسان .

٢ ـ تستخدم جميع اللغات الطبيعية الرموز الصوتية للتعبير عن الأشياء ويستعيض الانسان بهذه الرموز عما ترمز إليه .

٣ ـ تولد أنحاء اللغات الطبيعية عددا غير محدود من الجمل رغم أن نحو أي لغة يتكون من عدد محدود من القواعد اللغوية .

٤ ـ لم تنشأ أي لغة طبيعية بقرار ولم يصممها فرد من الأفراد .

٥ ـ لم تنشأ أي لغة طبيعية لهدف أو غرض محدد مثل لغات برمجة الحاسب الآلي والاسبرانتو وشفرات التجسس .

٦ ـ تمكن كل اللغات الطبيعية متكلميها من التعبير عن تجاربهم وعلمهم وأفكارهم وأحاسيسهم وأمانيهم وتتطور تلقائيا لتلبية احتياجات الانسان المتزايدة .

الذكاء الاصطناعي واللغات الطبيعية

سواء كان الهدف الأساسي للذكاء الاصطناعي هو دراسة القدرات العقلية للانسان من خلال بناء برمجيات لمحاكاة هذه القدرات أو جعل الحاسب أكثر ذكاء ونفعا للانسان فان دراسة القدرة اللغوية للانسان ومحاكاتها تعتبر من أهم مجالات البحث في علم الذكاء الاصطناعي . فاللغة هي وسيلة الانسان للتفكير والتعبير عن الأفكار والخواطر والمعلومات ونقل خبراته الى الغير ووسيلته للتواصل والتعليم والتعلم ولقضاء احتياجاته الاجتماعية . وتدخل محاكاة هذه القدرة اللغوية في معظم البرمجيات التي يضعها علماء الذكاء الاصطناعي ، كالنظم الخبيرة Expert Systems وتمثيل المعرفة والتعليم بمساعدة الحاسب . فان الجزء الأكبر من المعرفة الانسانية موجود في نصوص لغوية ولابد للحاسب من طريقة تمكنه من التعامل مع النصوص اللغوية لاستخلاص هذه المعرفة . كما يهدف الذكاء الاصطناعي الى جعل الحوار بين الانسان والآلة ممكنا بلغة أقرب ما تكون الى اللغات الطبيعية التي يستخدمها الانسان في حواره مع أقرانه . ومن هنا تأتي أهمية برمجيات معالجة اللغات الطبيعية .

معالجة اللغات الطبيعية

تهدف برمجيات معالجة اللغات الطبيعية الى محاكاة القدرة اللغوية للانسان في فهم ما يسمع بلغته وقدرته على التعبير عما يريد . ولهذا تنقسم مثل هذه البرمجيات الى نوعين رئيسيين هما التوليد والتحليل (انظر شكل ٢) . ومن الطبيعي أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا إذا أدركنا جميع أسرار وقوانين اللغة ويعترف كثير من علماء اللغة(٨،٩) بأننا لم نصل بعد الى وضع نحو كامل لأي لغة انسانية . وهذا لا يعني إنكار التقدم الهائل الذي أحرزه علم اللغة في ظل النظرية التوليدية Generative Grammar بمدارسها المختلفة وبشكل خاص في التحليل الرياضي للغة والاهتمام بالجانب الدلالي والبراجماتيكي في فهم النصوص اللغوية .

برامج توليد النصوص :

تتبع معظم برمجيات توليد النصوص الخطوات التالية(١٠):

١ ـ تحديد مضمون النص المراد توليده .

٢ ـ تحديد شكل وأسلوب النص .

٣ ـ تحقيق النص في صورته النهائية .

ويجب أن يقوم الحاسب عند تحديد مضمون النص بتحديد ما يجب أن يتضمنه النص اذا كان نصا توضيحيا لمسألة ما أو كان تبريرا لقضية ، أو كان يهدف للاقناع وأن يحدد ما يتضمنه إذا كان ردا على استفسار . وعند تحديد أسلوب وشكل النص لابد للحاسب معرفة وظيفة النص ونوعية قارئه وأن يعرف الاسلوب المناسب للموضوع . وفي مرحلة تحقيق النص في صورته النهائية تأتي مشكلة اختيار الألفاظ المناسبة والتراكيب اللغوية التي تناسب المضمون والقارىء . وعادة ما تكون برامج التوليد محدودة بموضوع واحد بل نستطيع القول أن أغلبية الأبحاث في معالجة اللغات الطبيعية تركزت في جانب التحليل .

التحليل الرياضي للغة

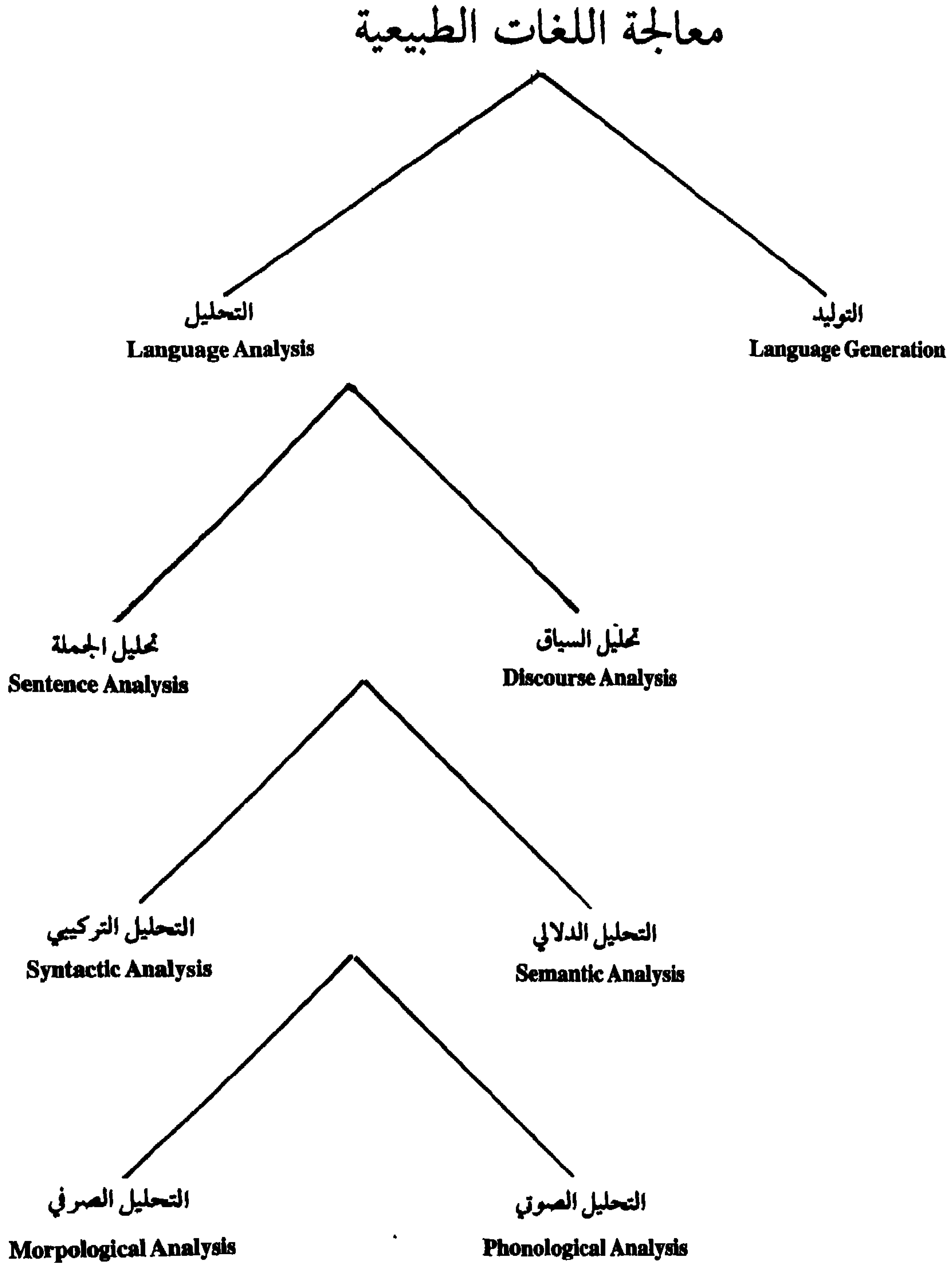
تنظر برمجيات معالجة اللغات الطبيعية الى اللغة بوصفها مجموعة من الجمل تتكون كل منها من رمز واحد أو أكثر من مفردات اللغة . وأن نحو اللغة يتكون من تحديد رياضي لهذه المجموعة من الجمل . ويمكن أن يتخذ نحو اللغة أشكالا مختلفة فاذا كانت جمل اللغة محدودة فيمكن إذاً وضعها في قائمة . ولكن يستحيل وضع جمل اللغات الطبيعية في قائمة لأن عدد الجمل لا نهائي ولهذا إذا رغبنا في تحليل لغة من هذه اللغات علينا أن نكتب برنامجا يستطيع الحكم على ما ندخله اليه اذا كان جملة في هذه اللغة أو لا ، ويكون السؤال هو ماذا يجب أن يحتويه برنامج كهذا ليستطيع اصدار الحكم السليم في كل حالة ؟ والجواب هو أنه لابد أن يحتوي على نحو هذه اللغة . ويأتي سؤال آخر : ما هو شكل هذا النحو ؟

---

(٨) Moyne, A. John : 1985, Understanding Language : Man or Machine, Plenum Press, New York.

(٩) Gazdar et al. : 1985, Generalized Phrase Structure Grammar, Harvard University Press, Cambridge, MA.

(١٠) Grosz, B., Karen Jones & Bonnie Webber (eds.) : 1986, Natural Language Processing, Morgan Kaufman, Los Altos, California.



شكل (٢) معالجة اللغات الطبيعية

Natural Language Processing

يتكون هذا النحو من رباعية[١١] quadruple :

(أ) مجموعة منتهية finite set تضم المفردات الموجودة في اللغة .

(ب) مجموعة منتهية تضم أسماء المركبات النحوية في اللغة مثل مركب اسمي ، جار ومجرور . . . الخ .

(جـ) رمز للاشارة الى الجملة a start symbol ، وليكن ج وينتمي لمجموعة المركبات النحوية .

(د) مجموعة من القواعد التوليدية على شكل س ← ص بحيث تكون س في م ن (مجموعة المركبات النحوية) و ص في اتحاد مجموعة م ن ومجموعة المفردات .

يستطيع هذا النحو توليد عدد غير محدود من الجمل ولكي ندلل على ذلك فلنفترض أن لدينا لغة تتكون مفرداتها من كلمتين اثنتين فقط هما « فلسطين » ، « عربية » ، وأن نحو هذه اللغة يسمح بأن تتكون الجملة من عدد مساو من كل من هاتين الكلمتين ويعني هذا أن ١ و ٢ صحيحتان بينما ٣ غير صحيحة .

١ ـ فلسطين عربية .

٢ ـ فلسطين فلسطين عربية عربية .

٣ ـ * فلسطين فلسطين عربية .

سيكون نحو هذه اللغة كالآتي :

مفردات (فلسطين ، عربية)

رمز الجملة (ج)

قواعد (ج ← فلسطين ج عربية وج ← لا شيء)

ويوضح شكل (٣) كيف يمكن توليد عدد لا نهائي من جمل هذه اللغة بهذا النحو .

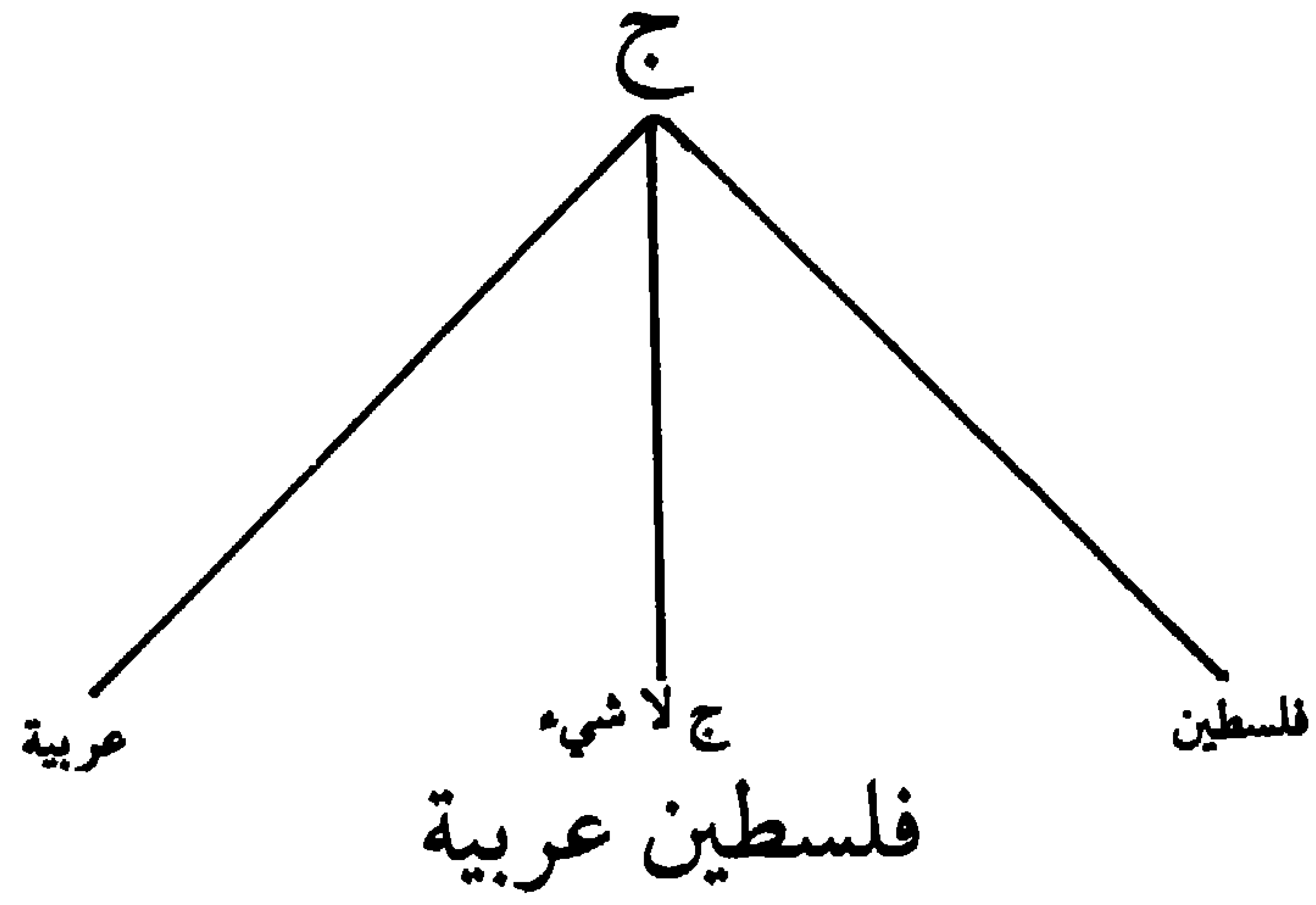
وقد أمكن باستخدام هذا النحو الرياضي كتابة برامج للاعراب parsing تُمكّن الحاسب من تكوين شجرة الاعراب للجمل التي تدخل اليه بل وأن يكوّن شجرات متعددة للجملة الواحدة اذا كان للجملة أكثر من معنى . ونود هنا أن نوضح أن المفهوم الحديث للاعراب يختلف عن مفهوم الاعراب في علم اللغة التقليدي[١٢] وسنوجز هنا أهم الفروق بين المفهومين :

الاعراب في مدارس النحو التقليدية :

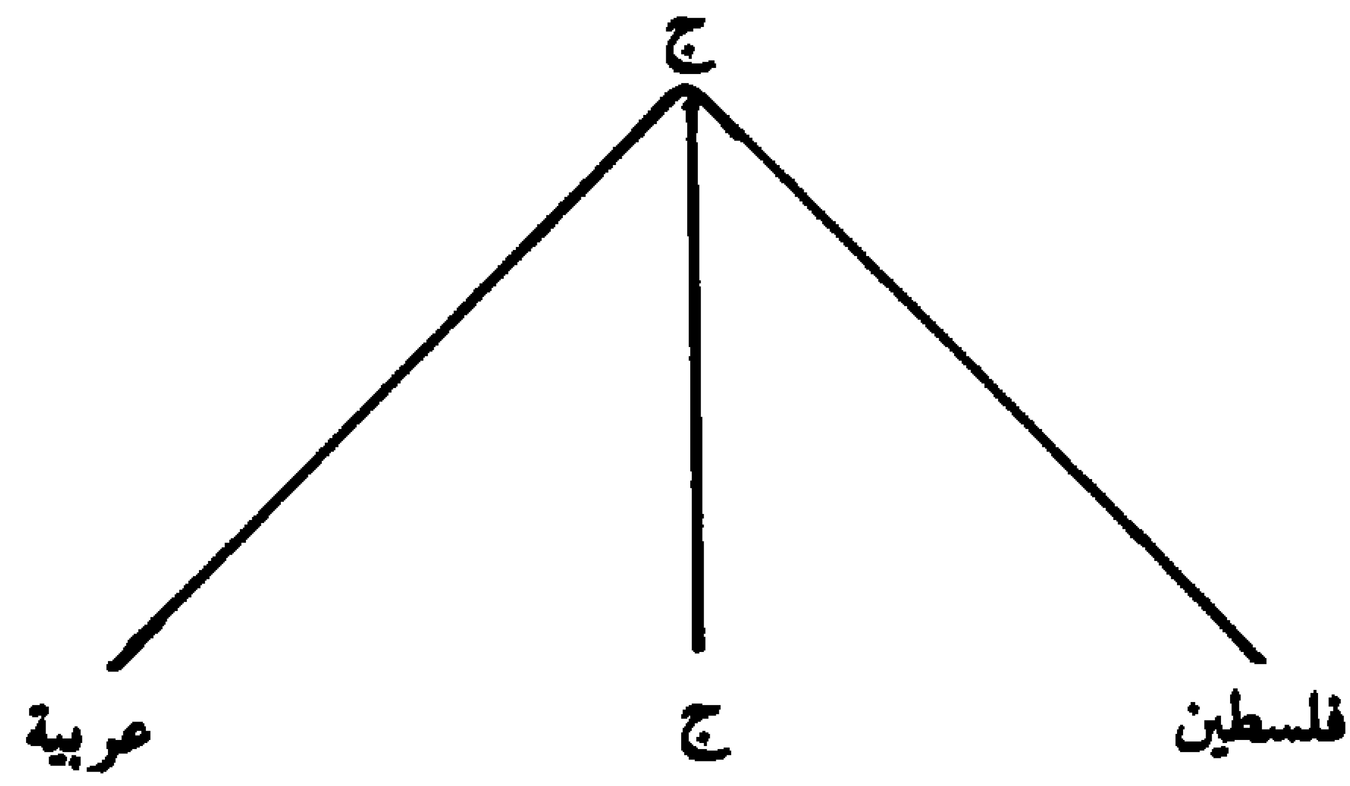
١ ـ الاعراب عملية فكرية يقوم بها الانسان وحده ، ولكن ليس كل انسان قادرا على الاعراب فهذه عملية تتطلب دراسة النحو ومعرفة قواعد النحو والصرف .

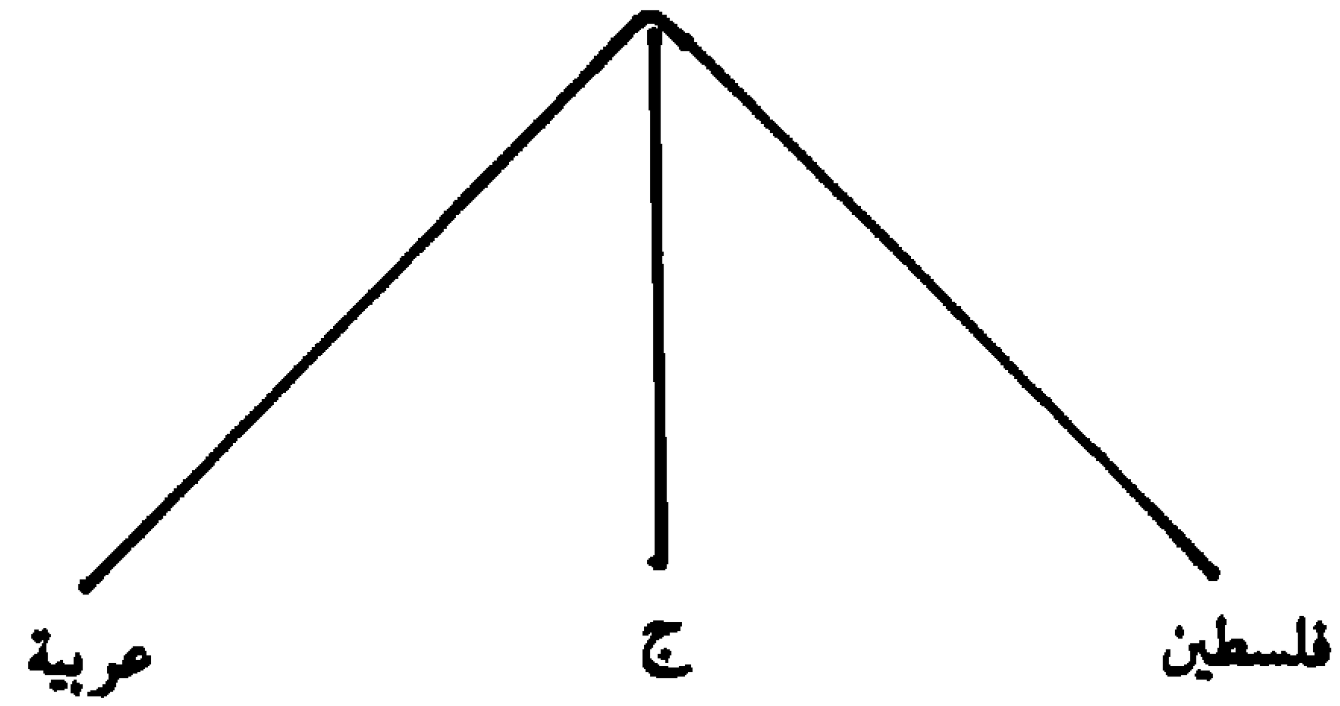
(١١) Savitch, W : 1982, Abstract Machines and Grammars, Little, Brown & Co. Boston, MA.

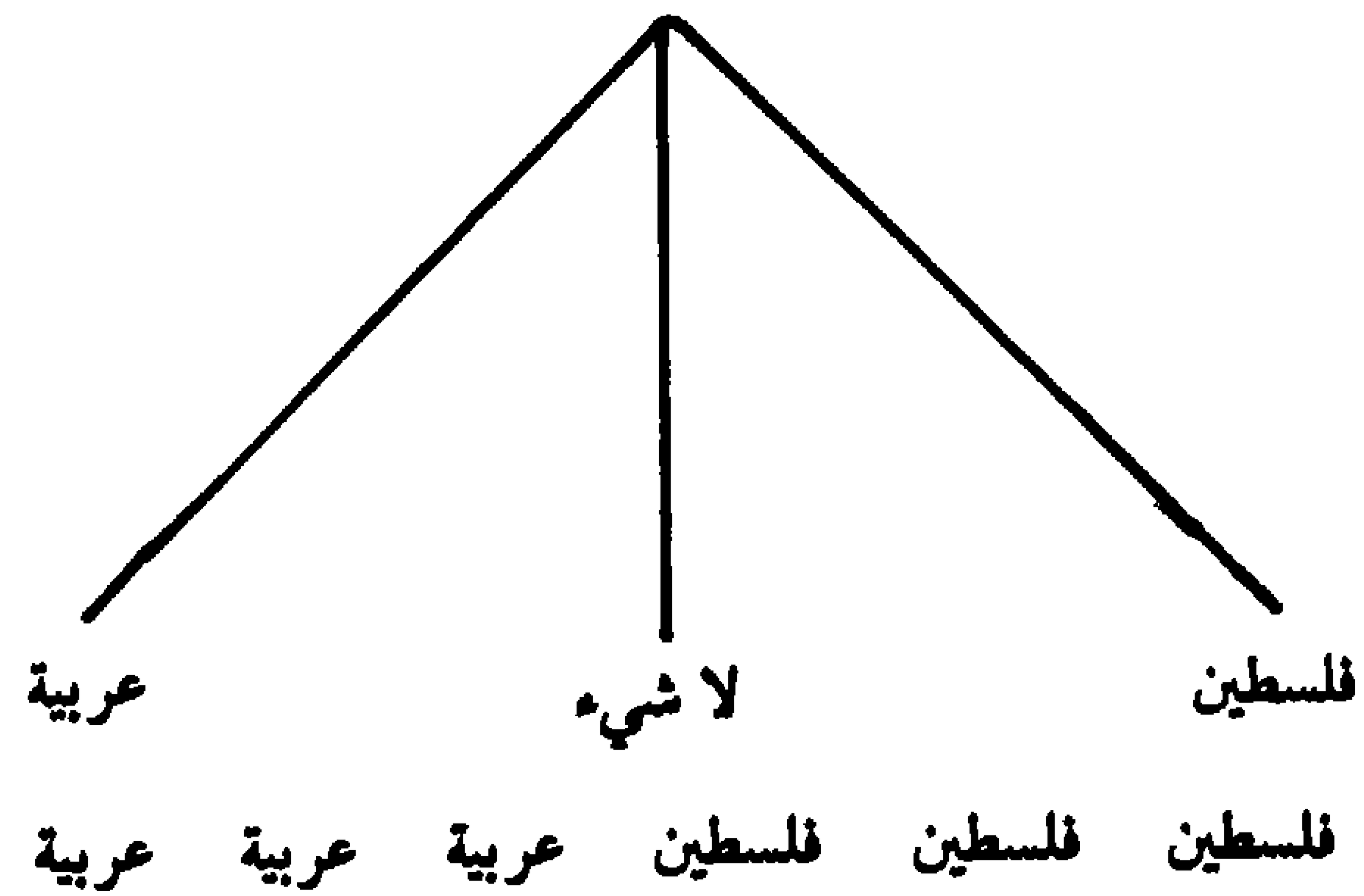
(١٢) Karttunen, L. & A. Zwicky : 1985, Natural Language Processing, Cambridge, MA.



فلسطين عربية







فلسطين فلسطين فلسطين عربية عربية عربية

شكل (٣) التحليل الرياضي للغة

٢ ـ ما يعرب لابد أن يكون لغة انسانية .

٣ ـ نتيجة الاعراب هي وصف وتحليل بلغة انسانية متضمنة بعض المصطلحات اللغوية كالمبتدأ والخبر. . . الخ .

٤ ـ دراسة الاعراب تساعد الانسان على تحسين قدرته اللغوية .

٥ ـ يمارس الانسان عملية الاعراب وهو مدرك لها ومنتبه لما يفعله .

الاعراب في مدارس النحو التوليدية

اكتسب الاعراب أبعادا جديدة منذ ظهور المدرسة التوليدية في علم اللغة ، وقد كان للأفكار الجديدة في علم اللغة الرياضي والحاسب الآلي والذكاء الاصطناعي وعلم النفس اللغوي أثر كبير في تغيير مفهوم الاعراب ، ومن أبرز الأفكار الجديدة حول الاعراب ما يلي :

١ ـ الاعراب ظاهرة طبيعية تحدث في عقول البشر ، لا تحتاج إلى تعليم ولا تدريب وإلا ما أمكن أن يتم التفاهم بين الناس . ولا يمكن للانسان أن يفهم ويستجيب للذبذبات الصوتية الصادرة من أعضاء جماعته اللغوية إلا إذا استطاع اعراب ما يسمعه وإدراك العلاقات النحوية والدلالية بين مكونات الجمل .

٢ ـ قواعد الاعراب أكبر وأشمل مما يعتقد التقليديون . فهي لا تقتصر على قواعد النحو والصرف أو تشكيل نهاية الكلمات ، بل تشمل أيضا القواعد الصوتية والدلالية وهي باختصار كل ما يعرفه الانسان عن لغته التي يتفاهم بها مع عشيرته .

٣ ـ قواعد الاعراب ليست تحليلية فقط بل هي التي تجعل سلوكنا اللغوي ممكنا فهي حيادية بين التحليل والتوليد .

٤ ـ ليس بالضرورة أن تكون نتيجة الاعراب وصفا وتحليلا ، بل في أغلب الأحيان تكون نتيجة الاعراب هي ادراك الانسان للرسالة اللغوية وقيامه بالاستجابة لها .

٥ ـ الاعراب ليس مقصورا على اللغات الطبيعية فجميع لغات البرمجة لها نظام اعرابي Compiler or Interpreter يقوم باعراب ما يدخل الى الحاسب الآلي والاستجابة المناسبة للتعليمات التي يتلقاها .

٦ ـ الاعراب ليس مقصورا على الانسان ، بل تقوم الآلة الآن بعملية الاعراب .

الترجمة الآلية Machine Translation

ازدادت أهمية الترجمة في السنوات الأخيرة واتسع دورها في المنظمات الدولية المختلفة التي تتطلب ترجمة الوثائق الحكومية المقدمة من الحكومات المشتركة بها الى لغات أخرى كما هو ملاحظ في السوق الأوروبية المشتركة التي تنفق أكثر من نصف ميزانيتها على الترجمة[١٣] . ويحتاج العلماء الى ترجمة سريعة للتقارير ونتائج الأبحاث التي ينشرها أقرانهم بالبلدان الأخرى . كما تقوم وكالات الاستخبارات للعديد من الدول بترجمة كميات هائلة من الوثائق والمعلومات . وتجد هذه المنظمات صعوبة في الحصول على المترجمين المؤهلين القادرين على ترجمة هذا الكم الهائل من المواد . وليس

(١٣) Lehman, W : 1984, Machine Translation in its Context, Working Paper LRC 84-4, The University of Texas at Austin.

أدل على ندرة المترجمين من قيام هيئة الأمم المتحدة بتعيين مترجمي اللغة العربية وتدريبهم على نفقة الأمم المتحدة لعدم توافر المترجم الجيد الذي يمكن أن يمارس عمله فور تعيينه . وفي ظل عالم تحركه الاقتصاديات يصبح الأمل في أن يقوم الحاسب بالترجمة أربعا وعشرين ساعة يوميا دون اجازة أو علاوة حلماً يستحق أن تنفق من أجل تحقيقه الأموال .

ومنذ ظهور الحاسب الرقمي Digital Computer في أواخر الأربعينات فكر علماء الحاسب في الاستفادة من سرعته الفائقة في البحث عن الكلمات وامكانية تخزين القواميس ثنائية اللغة فيه لعمل برمجيات للترجمة من لغة لأخرى . وسنعرض فيما يلي لتطور برمجيات الترجمة الآلية منذ الخمسينات حتى الوقت الحاضر .

الجيل الأول ١٩٤٦ ـ ١٩٦٦

تركزت المحاولات الأولى في الولايات المتحدة على الترجمة بين اللغة الروسية واللغة الانجليزية ، وكان التصور لدى علماء الحاسب أنه يمكن استخدام طرق حل الشفرات السرية التي اعتمدت على تحليل تكرار الحروف والكلمات في عملية الترجمة الآلية . وكان القاموس ثنائي اللغة من أهم مكونات برمجيات الترجمة . وكانت عملية الترجمة تتم على النحو التالي : يدخل النص المطلوب ترجمته الى الحاسب الذي يقوم بمطالعة كلمات النص كلمة كلمة ويبحث عنها في القاموس وعندما يجدها يستخرج الكلمة المقابلة لها باللغة الأخرى ويضيفها الى النص المترجم دون أي محاولة « لفهم » النص أو حتى تحليله من الناحية الصرفية أو النحوية أو الدلالية . وكان الأمر لا يزيد في حقيقته عن كونه ترجمة حرفية أي كلمة بكلمة . على أنه في بعض الأحيان كان يأتي بنتائج مشجعة . فلنتصور مثلا أننا أدخلنا إلى الحاسب أحد القواميس انجليزي ـ عربي وطلبنا من الحاسب ترجمة الجملة التالية :

Ali left for Cairo yesterday.

سيبحث الحاسب عن الكلمة الأولى في القاموس ثنائي اللغة الذي سيتضمن بالطبع أسماء الأعلام وسيجد أمام كلمة Ali اللفظ العربي « علي » فيضع اللفظ العربي على رأس النص المترجم ثم يبحث عن الكلمة الثانية وهكذا . وعندما ينتهي يكون قد كون الجملة التالية :

علي غادر الى القاهرة أمس .

وليس من الصعب ادخال بعض المعلومات الى الحاسب كوضع الفعل في أول الجملة العربية دائماً وبهذا نحصل على الجملة : غادر علي الى القاهرة أمس .

ونظراً لأن التجارب الأولية قامت على جمل محدودة مثل المثال الذي أعطيناه أعلاه فقد تحمس العلماء لامكانية بناء برامج لترجمة كافة النصوص ، وتدفقت الأموال لتمويل العديد من الأبحاث في هذا المجال . ونستطيع أن نوجز سمات المحاولات الأولى فيما يلي :

١ ـ الاعتماد على القاموس الألكتروني ثنائي اللغة .
٢ ـ استخدام طرق حل الشفرات السرية .
٣ ـ اعادة ترتيب الكلمات .

٤ ـ اعتبار الكلمة هي الوحدة اللغوية الأساسية للترجمة .

٥ ـ عدم النظر في بنية الجملة لتحديد العلاقات النحوية المختلفة بين أجزائها .

٦ ـ كان من أهم المشاكل اللغوية هي الكلمات التي تنتمي لأكثر من نوع صرفي homographs.

٧ ـ عدم دراسة تأثير السياق على معاني الكلمات .

٨ ـ لم يكن للتحليل الدلالي دور في برمجيات الترجمة الآلية .

وكانت التوقعات كبيرة جداً ، نوجزها فيما يلي :

١ ـ أن يقوم الحاسب بعمل المترجم .

٢ ـ أن تكون دقة الترجمة بنسبة ٩٥٪ .

٣ ـ سرعة فائقة للآلة .

٤ ـ أن تقوم الآلة بترجمة أي نص سواء كان نصاً علمياً أو أدبياً .

الا أن العلماء فوجئوا بمدى تعقيد اللغة الانسانية وكم المعلومات الهائل المستخدم في الترجمة . فاللغة الانسانية غامضة بطبيعتها ومعظم الجمل لها معان مختلفة ونحن لا ندرك هذا لأننا نسمع الجمل في سياق معين ونستخدم معرفتنا بالعالم كي نختار تلقائياً المعنى المقصود . فالجملة الانجليزية :

I Like her cooking.

لها على الأقل ثلاثة معان :

(أ) انني أحب ما تطبخه what she cooks.

(ب) انني أحب الطريقة التي تتبعها في الطبخ how she cooks.

(ج) انني أحبها وهي تطبخ I like her while she is cooking .

ولا يفيدنا هنا القاموس ثنائي اللغة للتعبير عن المعاني المختلفة . بل أن الكلمات نفسها لها أكثر من معنى ، فمثلاً كلمة late قد تعني (متأخراً) في المثال .He arrived late وقد تعني (أواخر) كما في Mubarak visits Washing-tonn in late January. كما يمكن أن تعني المرحوم كما في Late President Nasser . ثم أن الترجمة لا تتطلب فقط معرفة تامة باللغتين المترجم منها واللغة المترجم اليها بل تتطلب أيضا معرفة موضوع الترجمة لأن الترجمة الجيدة تتطلب فهم المترجم للنص فهما سليما وكاملاً .

وقد أدرك العلماء في الستينات استحالة قيام الحاسب بعملية الترجمة في ظل التقنية المتاحة في ذلك الوقت (١٤ ، ١٥) ودارت تقارير العلماء حول القضايا التالية :

---

(١٤) Weaver, W : 1955, "Translation", in Locke & Booth (eds) : Machine Translation of Languages, New York, Technology Press of MIT and Wiley.

(١٥) Slocum, J. : 1985, "A Sarvey of Machine Translation : its History, Current Status and Futnre Prospects", Computation al Linguistics, Volume 11, Number 1, PP. 1-18.

الفرضية الأولى :

تتطلب الترجمة الجيدة حدًا أدنى من « فهم » النص .

الفرضية الثانية :

من الصعب جداً أن يقوم الحاسب « بفهم » النص .

النتيجة المنطقية :

الترجمة الآلية غير ممكنة .

١٩٦٦

قرار أكاديمية البحث العلمي بالولايات المتحدة بعدم جدوى البحث في هذا المجال ووقف التمويل .

الجيل الثاني : الثمانينات :

الفرضية الأولى صحيحة .

الفرضية الثانية كانت صحيحة عام ١٩٦٠ .

ولكـــــن :

فهم الحاسب للنصوص اللغوية أصبح ممكناً باستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي الا أنه ما زال أمامنا شوط طويل .

اشكالية الترجمة الآلية :

١ ـ لا يمكن أن تكون الكلمة هي وحدة الترجمة الأساسية ، بل لا بد للترجمة أن تكون على مستوى الجملة والفقرة ، فكثير من الكلمات تتحدد معانيها من خلال ما يرد قبلها وبعدها من كلمات . ولم يؤد الاعتماد على القاموس ثنائي اللغة إلى حل مشكلة الترجمة إطلاقاً . فاذا أدخلنا قاموس المورد إلى الحاسب لكي تستخدمه برمجيات الترجمة الآلية لترجمة الجملة التالية : .While driving down route 72, John swerved and hit a tree فلو أخذت البرمجية تبحث عن معاني الكلمات في القاموس لوجدت أمام كلمة بسيطة مثل hit ما لا يقل عن ١٢ معنى ، كما هو واضح في شكل ٤ . والإشكالية هنا في كيفية اختيار المعنى المرادف لهذه الكلمة كما وردت في هذه الجملة بالذات ، والسؤال المطروح هنا هو : ما هي القوانين التي يمكن أن يستبعد الحاسب على أساسها الأحد عشر معنى الأخرى لكلمة hit؟ وما هي المعلومات التي نحتاج لإدخالها إلى الحاسب ليقوم باختيار المعنى الصحيح من بين البدائل المتاحة ؟

اشكالية الترجمة الآلية

ترجم الجمل الآتية للعربية

While driving down Route 72, John swerved and hit a tree

كلمة hit يقابلها في العربية

hit [hɪt] (vt.; i.; n.) (١) «أ» يضرب . «ب» يصدم ؛ يرتطم به . (٢) يُهلِك ؛ يزعج بشدة ؛ ينتقد بقسوة (٣) يكتشف أو يعثر على شيء وبخاصة بالمصادفة ؛ يحزر (to ~ the answer to a riddle) (٤) «أ» يلائم ؛ يطابق (This ~s my fancy.) . «ب» يصل ؛ يبلغ (to ~ town) . «ج» تعض (السمكة) على . «د» يجد أو يهتدي إلى (to ~ the right road). «هـ» يجيد التصوير أو الأداء (to ~ a likeness in a portrait) (٥) يسرف في الشراب (had been ~ting the bottle for days) (٦) يهاجم (٧) يقع ؛ يحدث ؛ يصيب (٨) يوفق إلى إحراز شيء §(٩) «أ» ضربة . «ب» ارتطام (١٠) نجاح ؛ عمل ناجح بشكل واضح (The play is a ~.) (١١) ملاحظة ساخرة الخ. (١٢) محصول وافر ، من الفاكهة بخاصة ، (ع) .

to ~ off يصور أو يصف بسرعة أو براعة .

to ~ on *or* upon يعثر على أو يكتشف بالمصادفة .

السؤال : كيف يمكن للحاسب اختيار المرادف الصحيح في العربية ؟

الإجابة : تعتمد عملية الاختيار على التحليل الدلالي للنص الانجليزي

شكل (٤)

٢ - يجب أن تحاكي برمجيات الترجمة الآلية عملية الترجمة كما يقوم بها الإنسان . ويتطلب هذا فهم عملية الترجمة الانسانية فهماً واضحاً وسليماً ونعني بهذا الآتي :

(أ) لا يستطيع الإنسان أن يقوم بترجمة نص دون أن يفهمه فهماً صحيحاً . وفهم النص شرط ضروري وإن كان ليس كافياً لقيام الانسان بترجمته . وتتطلب الترجمة قدرة المترجم على استخلاص المعنى الدلالي للنص واستيعابه وتمثله ، وقدرته أيضاً على التعبير عن هذا المعنى الدلالي بلغة أخرى بحيث يتلقى قارىء النص المترجم نفس الخطاب message الذي يتلقاه قارىء النص الأصلي . إذا كان ما ذكرناه هنا صحيحاً ، فكيف نتوقع إذًا من الآلة أن تقوم بترجمة نص دون أن « تفهمه » وتحلله دلالياً ؟

(ب) يتخصص المترجمون في مجالات معينة ، فمنهم من يتخصص في ترجمة النصوص الأدبية ومنهم من يتخصص في ترجمة النصوص العلمية ، بل وهناك من يتخصص في ترجمة نصوص علم بعينه كترجمة النصوص الطبية أو القانونية أو الرياضية . . . الخ . وذلك لأن فهم النص المطلوب ترجمته يتطلب حداً أدنى من المعرفة في مجال النص خاصة إذا كان نصاً علمياً ، كما تتطلب ترجمة النصوص الأدبية قدرة على تذوق التعبيرات الأدبية والصور الشعرية . فالمعرفة اللغوية وحدها لا تكفي للقيام بالترجمة ، ولهذا يضطر كثير من المترجمين الى القيام بدراسات في مجال النصوص التي يقومون بترجمتها . ولما كان من المستحيل أن نجد المترجم المتخصص في جميع المجالات ، فكيف نطلب إذا من الآلة أن تقوم بترجمة نصوص من كافة التخصصات دون أن نعدها لذلك ؟

(ج) كثيراً ما يختلف المترجمون حول تقييم النصوص المترجمة ، فمن الصعب تحديد ما نعني بجودة الترجمة ، وكثيراً ما يخضع الحكم على ترجمة ما بأنها جيدة أو لا للذوق الشخصي والأحكام الذاتية ، مما يثير مشكلة تقييم الترجمة التي تقوم بها الآلة .

(د) من المقبول تماماً في الترجمة الإنسانية أن يكون هناك مراجعون يقومون بمقارنة النص المترجم منه بالنص المترجم وإجراء التعديلات اللازمة . وهناك الكثير من الكتب المترجمة التي تراجع قبل نشرها رغم الكفاءة العالية لمترجميها . وعادة ما يختار المراجع من بين المترجمين لكفاءته وخبرته . وإذا كان من الطبيعي أن يراجع عمل المترجم فلماذا لا نقبل مراجعة ترجمة الآلة ؟

٣ - يعتمد التقدم في الترجمة الآلية على تقدم علماء اللغة في التحليل الدلالي وخلق نماذج صورية للدلالة يمكن للحاسب أن يستخدمها .وأدرك علماء اللغة جيداً صعوبة ودقة البحث في هذا المجال [١٦] ، كما يدركون أن التقدم فيه يسير ببطء شديد .

٤ - لا يقتصر فهم النصوص اللغوية على المعنى الدلالي ، فالمترجم يعتمد على فهمه للحياة ومعلوماته عن العالم ، بل ويستخدم قدرته على فهم المحاجاة وتتبع المناقشات والوصول إلى الاستنتاجات السليمة ، ولهذا فإن تقدم الذكاء

---

(١٦) Barwise, J. & J. Perry : 1983, Situations and Attitudes, The MIT Press, Cambridge, MA.

الاصطناعي في مجالي تمثيل المعرفة Knowledge Representation وبرامج الاستنباط Inference Engines سيؤدي إلى خلق جيل جديد من برمجيات الترجمة الآلية .

ملامح الجيل الثاني :

أولاً : الإعـــــــــــراب :

تتميز جميع برمجيات الجيل الثاني بأنها تستخدم برمجيات الإعراب . وهي في هذا تختلف اختلافاً كيفياً عن برمجيات الجيل الأول . وتستخدم برمجيات الإعراب عددا كبيرا من القواعد اللغوية كما تستخدم القاموس اللغوي . ويختلف شكل ووظيفة القاموس اللغوي في برمجيات الجيل الثاني عنها في الجيل الأول ، فلم يعد القاموس تلك القائمة بالكلمات ومعانيها في اللغة الأخرى بل أصبح لكل مدخل في القاموس عدد كبير من السمات النحوية والدلالية التي تعتمد عليها القواعد اللغوية في فك غموض بعض الكلمات والجمل disambiguating ، كما لم يعد القاموس يحوي جميع الكلمات بل أصبح يحتوي على جذور الكلمات فقط وأصبح هناك جزء من البرمجية لتوليد الكلمات المشتقة من الجذور باستخدام القواعد الصرفية والصوتية ، وقد كان لذلك أثر كبير في تخفيض حجم القاموس وبالتالي تقليل الوقت اللازم للبحث عن الكلمات فيه . وقد كان للتقدم الذي حققه علماء اللغة الحاسبيون في هذا المجال فضل كبير ، ففي سنة ١٩٧٠ صمم وودز(١٧) برمجية للتحليل اللغوي ATN ، وقد استخدمتها هيئة بان أميريكان للصحة بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية في مشروعها للترجمة الآلية من اللغة الإسبانية إلى الإنجليزية . وقد استخدم SPANAM في ترجمة ما يزيد عن مليون كلمة منذ عام ١٩٨٠ ، ويجري حالياً تطوير برنامج ENGSPAN للترجمة من الإنجليزية إلى الإسبانية باستخدام ATN للإعراب .

ثانياً : الأهداف أكثر واقعية :

١ ـ كان هدف برمجيات الجيل الأول أن تحل الآلة محل المترجم ، وذلك بأن تقوم الآلة بعملية الترجمة بأكملها دون تدخل من الإنسان ، ثم أصبح هدف برمجيات الجيل الثاني هو زيادة إنتاجية المترجم لا إحلاله ، وذلك بتزويده بالوسائل المعينة ، انظر شكل (٥) ، مثل القاموس الإلكتروني ، وأنظمة معالجة الكلمات ثنائية اللغة bilingual word processors ، وبنوك المصطلحات ، مما يجعل شراء مثل هذه البرمجيات مفيداً من الناحية الاقتصادية البحتة للمؤسسات والشركات بل وللأفراد من المترجمين .

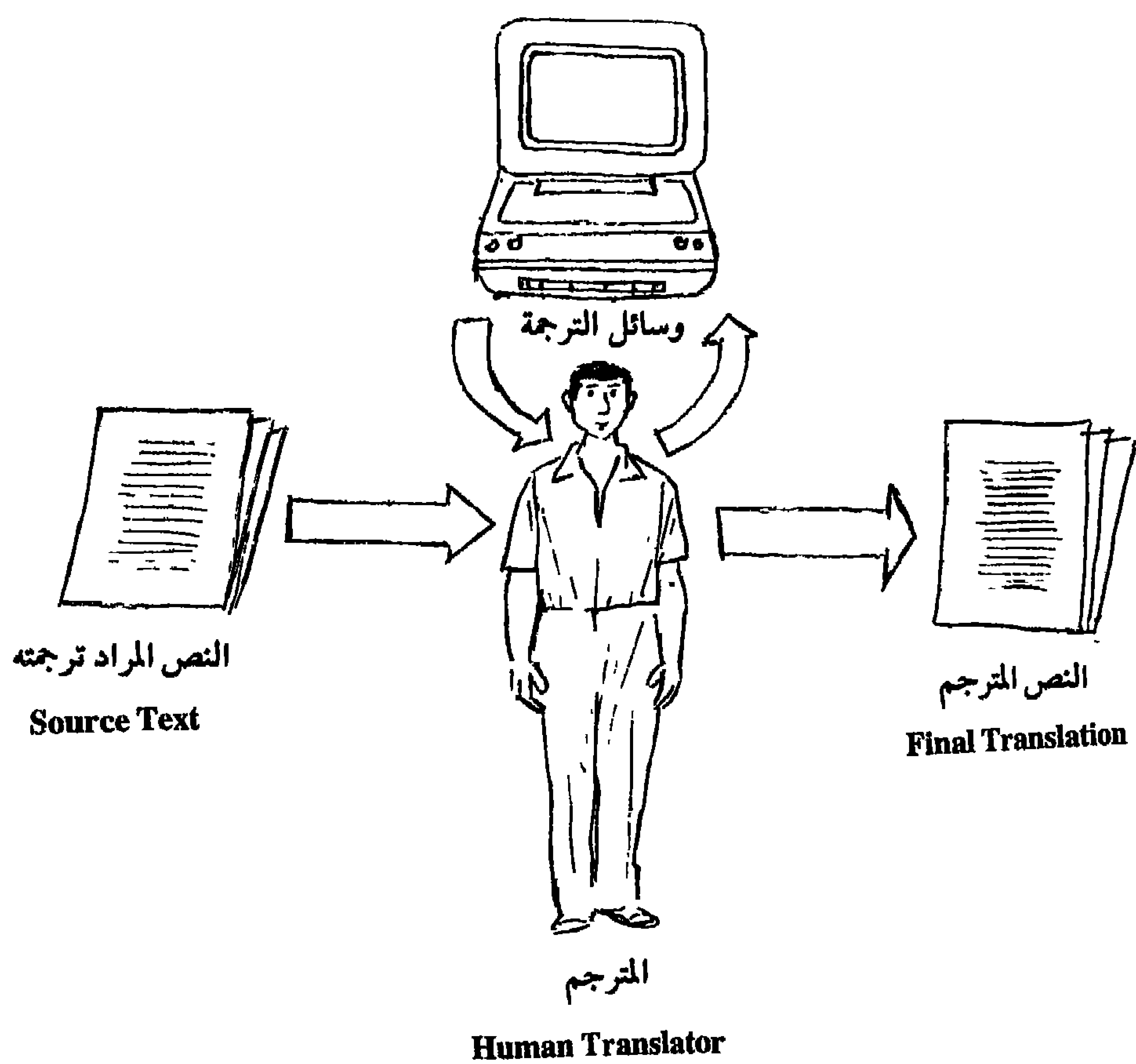
٢ ـ بعد أن تبين أن عملية المراجعة هي عملية طبيعية وأنها مرحلة أساسية من مراحل الترجمة كما يقوم بها الإنسان ، لم تعد برمجيات الجيل الثاني تستبعد إمكانية تدخل الإنسان في بعض مراحل الترجمة لمساعدة الآلة على ترجمة النص ، كما يوضح شكل (٦) واتجهت بعض البرمجيات إلى إعداد النص للآلة . ويعني هذا تقسيم بعض الجمل

---

(١٧) Woods, W : 1970, A Transition Network Grammar. for Natural Language Analysis. CACM 13 : 10, PP. 591-606.

Translation Aids

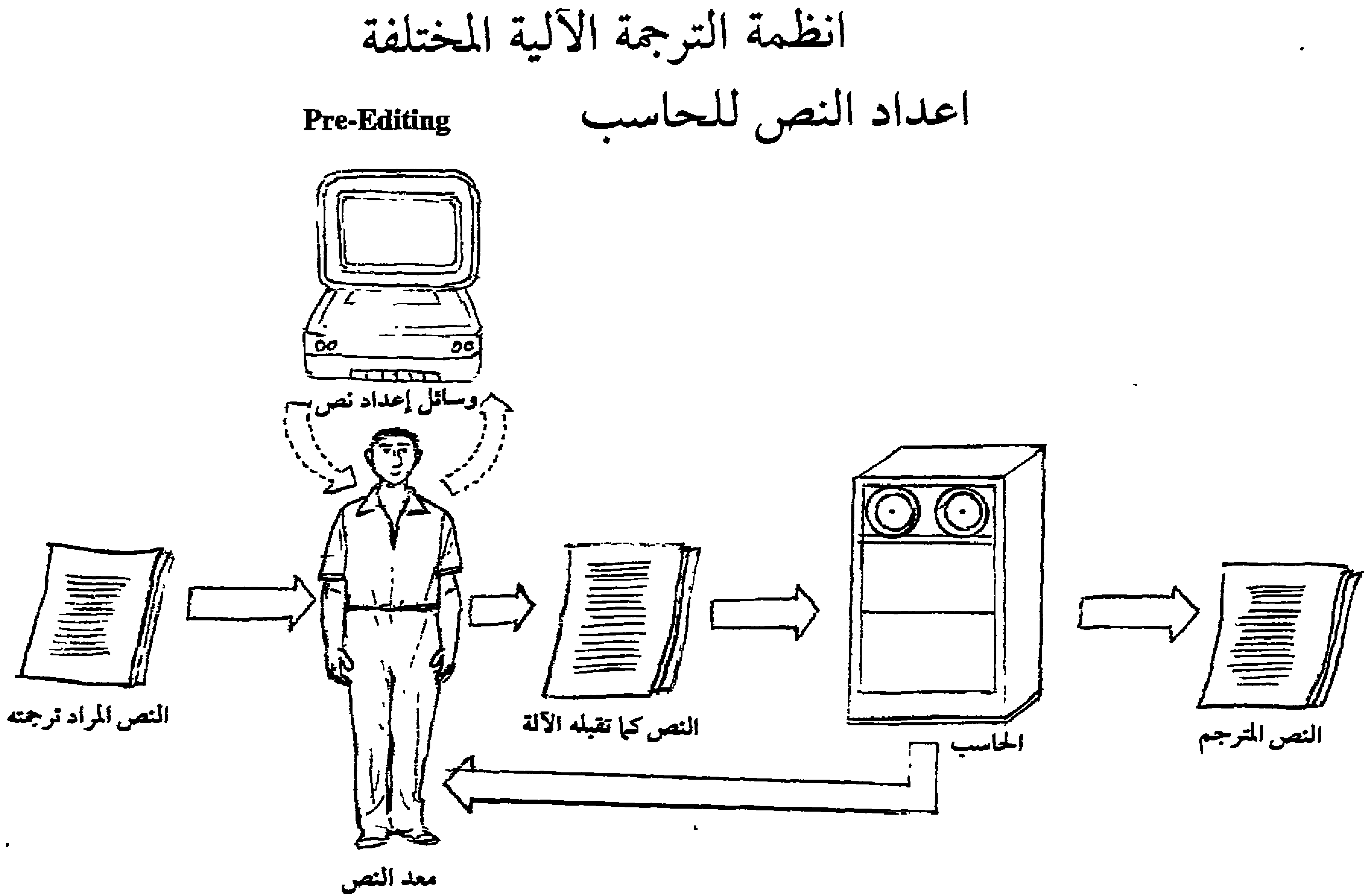
استخدام أدوات معينة في الترجمة



شكل (٥)

انظمة الترجمة الآلية المختلفة

اعداد النص للحاسب Pre-Editing



شكل (٦)

الطويلة مثلاً ـ والتي قد تسبب مشكلة للحاسب ـ إلى جمل قصيرة . ويتعرف مستعملو نظام الترجمة مع مرور الوقت على نوعية الجمل أو الأنماط اللغوية التي قد لا ينجح الحاسب في ترجمتها ، ويحاولون تغيير هذه الجمل لضمان صحة الترجمة التي تقوم بها الآلة . ويوضح شكل (٧) عملية مراجعة النص بعد قيام الحاسب بترجمته . ولا شك أن هذا أقرب لما يحدث في الواقع . ويقوم هنا المترجم بمراجعة النص المترجم بمساعدة نظام معالجة الكلمات . وهناك أيضاً نمط آخر من تدخل الانسان في عملية الترجمة ، وهو ما يمكن أن نسميه ترجمة تفاعلية . وفيها يتوقف الحاسب عن الترجمة عندما يكون أمامه خيارات مختلفة للترجمة دون أن تكون لديه المعلومات التي تمكنه من ترجيح أحدها ، فيتوقف عن العمل ويطلب من المترجم (انظر شكل ٨) أن يقوم هو بالاختيار . ويستمر في الترجمة بعد أن يحصل على رأي المترجم .

فإذا تعثر في مشكلة أخرى توقف مرة ثانية وهكذا . والمشكلة في الترجمة التفاعلية أنها تتطلب أن يكون المترجم موجوداً أمام الجهاز طول الوقت ، بينما لا تتطلب مراجعة النص بعد الترجمة وجود المترجم ، إذ يمكن للحاسب أن يترجم النصوص التي تدخل إليه أثناء الليل مثلاً ، وفي الصباح يجد المترجم ترجمة الحاسب جاهزة للمراجعة . ويطلق على هذه الأنواع المختلفة برمجيات الترجمة بمساعدة الحاسب Machine Aided Translation، تمييزاً لها عن البرمجيات التي لا تتطلب تدخل الانسان Machine Translation.

الذكاء الاصطناعي والترجمة الآلية :

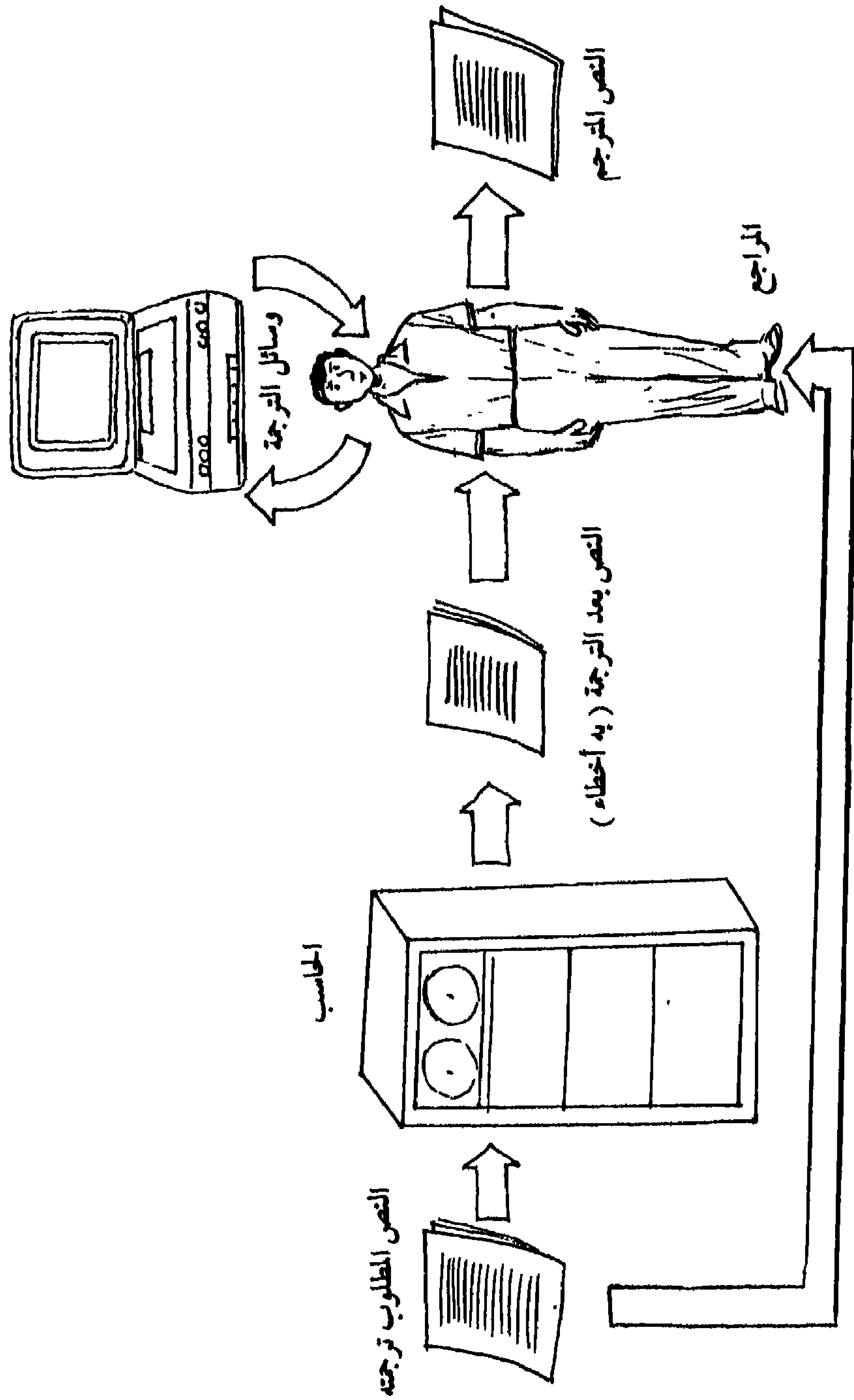
يجمع الباحثون في الترجمة الآلية كما يقول هتشينز(١٨) على أن تحتوي برمجيات الترجمة الآلية على نظام لنقل المعنى transfer system باستخدام التحليل الدلالي وبعض السمات الكلية للمساعدة في عملية النقل transfer. ولا شك أن برمجيات الترجمة الآلية تتطور كثيراً باستخدام التحليل الدلالي . ولكنني أتصور أن نجاح الترجمة لا يعتمد فقط على صحة التحليل الدلالي ، بل أن معرفتنا بالعالم تحدد في كثير من الأحيان فهمنا للنص اللغوي وتفسيرنا لمعناه . فإذا نظرنا الى الجملتين التاليتين :

a — I went down the river with the canoe.

b — I saw the woman with the red skirt.

وجدنا أن العلاقة بين القارب والنهر في الجملة الأولى تختلف تماماً عن العلاقة بين المرأة والتنورة الحمراء في الجملة الثانية . وسبب فهمنا لهذا الاختلاف لا يعود إلى فرق في الدلالة بل يعود إلى معرفتنا بالعالم حولنا . فنحن نعلم أننا نستطيع أن نميز الناس بما يلبسون ولكننا لا نستطيع أن نميز الأنهار بقارب . ولا شك أن ترجمة كلمة with ستكون مختلفة في الجملتين . وإذا أردنا من الحاسب أن يترجم الجملتين الترجمة الصحيحة فلا بد أن ندخل إليه معلومات عن الأنهار

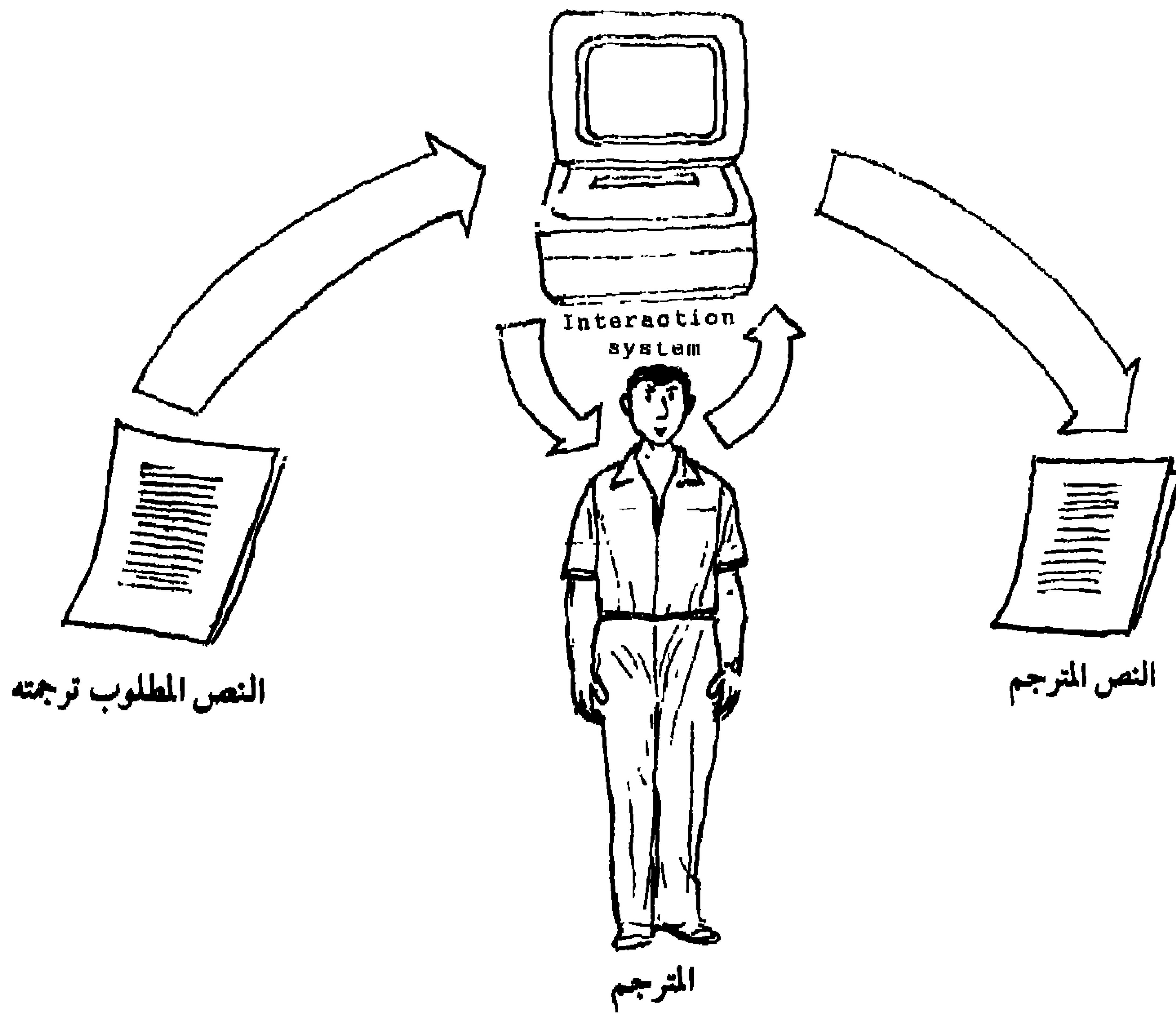
(١٨) Hutchins, W. J : 1982, "The Evolution of Machine Translatiou Systems" in Lawson (ed.) : Practical Experience of Machine Translation, North Hollnad, Amsterdam : PP. 21-37.


مراجعة النص بعد الترجمة
Post -Editing
النص المطلوب ترجمة
الحاسب
النص بعد الترجمة (به أخطاء)
وسائل الترجمة
المراجع
النص المترجم

شكل (٧)

Interactive MT

تدخل المترجم بشكل مباشر أثناء الترجمة



شكل (٨)

وما يمكن أن تعرّف به وعن الأشخاص وما يمكن أن يشار اليهم به . . . وهكذا . ومن هنا يأتي دور تقنية الذكاء الاصطناعي في تطوير برامج الترجمة الآلية ، فطرق تمثيل المعرفة المستخدمة في الذكاء الاصطناعي يمكن استخدامها في برمجيات الترجمة . ويوضح شكل (٩) نموذج برمجيات الترجمة باستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي حيث تمثل قاعدة المعرفة الدلالية ركنا هاما لترجمة النص إلى تحليل دلالي يمكن بعد ذلك تحويله إلى الشكل السطحي للغات المختلفة . ويوضح شكل (١٠) نتيجة التحليل الدلالي والاستدلال للجملة : While driving along route 72, John swerved and hit a tree. فالتحليل الدلالي للجملة يوضح أن هناك حدثا هو القيادة ، وأن هناك قائما بهذا العمل هو جون ، وأن هناك مكانا حدثت فيه عملية القيادة وهو طريق ٧٢ وأن السيارة من نوع صالون ، وأنها اصطدمت بشجرة . ويمكن استنتاج الآتي أنه إذا كان هناك ضحية للحادث فهو جون ، وسبب الحادث هو القيادة ، والضرر المحتمل هو إصابة جون وتحطم السيارة ، وأننا غير متأكدين من نتيجة الحادث . ويعبر هذا التحليل والاستنتاج عن « فهم » للجملة . ونستطيع التأكد من هذا بسؤال الحاسب مثلاً عن سبب إصابة جون أو عن مكان الحادث .

وأحب أن أشير الى أن تقنية الذكاء الاصطناعي لم تستخدم بعد في أبحاث الترجمة الآلية ، إلا أننا نتوقع أن تصبح جزءاً هاماً من هذه الأبحاث في المستقبل القريب .

نظرة مستقبلية :

تضاعفت المعرفة الإنسانية عدة مرات خلال السنوات الأخيرة ، وزاد الانتاج العلمي في شكل أبحاث وتقارير عن الأبحاث الجارية ، وزادت الدوريات والكتب العلمية زيادة كبيرة . ويقدر متوسط ما ينشر سنوياً في أي فرع دقيق من فروع المعرفة بما لا يقل عن ٢٤٠٠ مقالة سنوياً(١٩) . ومن المستحيل أن نجد المترجمين اللازمين للقيام بهذا العمل . ولا شك أننا أحوج إلى الترجمة الآلية من الغرب ، ومع ذلك فقد قامت الأبحاث عن الترجمة الآلية من الانجليزية إلى العربية في أرض غير عربية ، وبيعت برمجياتها لنا هنا . وفضلاً عن فائدتها العملية والعلمية ، بل والاقتصادية ، فانها تدفع باحثينا إلى فهم أعمق للغة العربية وإلى استيعاب أكبر لتقنية الذكاء الاصطناعي وإلى حل مشاكل الحاسب مع اللغة العربية .

الخلاصـــــة :

١ ـ أصبحت أهداف الترجمة الآلية أكثر واقعية .

٢ ـ اتضح مدى تعقيد اللغة الإنسانية وعملية الترجمة التي لا تعتمد فقط على المعرفة اللغوية بل تعتمد أيضاً على دراية المترجم بموضوع الترجمة ومعرفته بالعالم ، واستخدامه للمنطق السليم وقدرته على الفهم السليم للأشياء .

(١٩) Malnor, A : 1985, Instrumental Materials Development, paper presented at the IBM Europe Institute, Oberloch, Austria.

٣ ـ نجاح الأنظمة التي تترجم نوعية متخصصة من النصوص sublanguage .

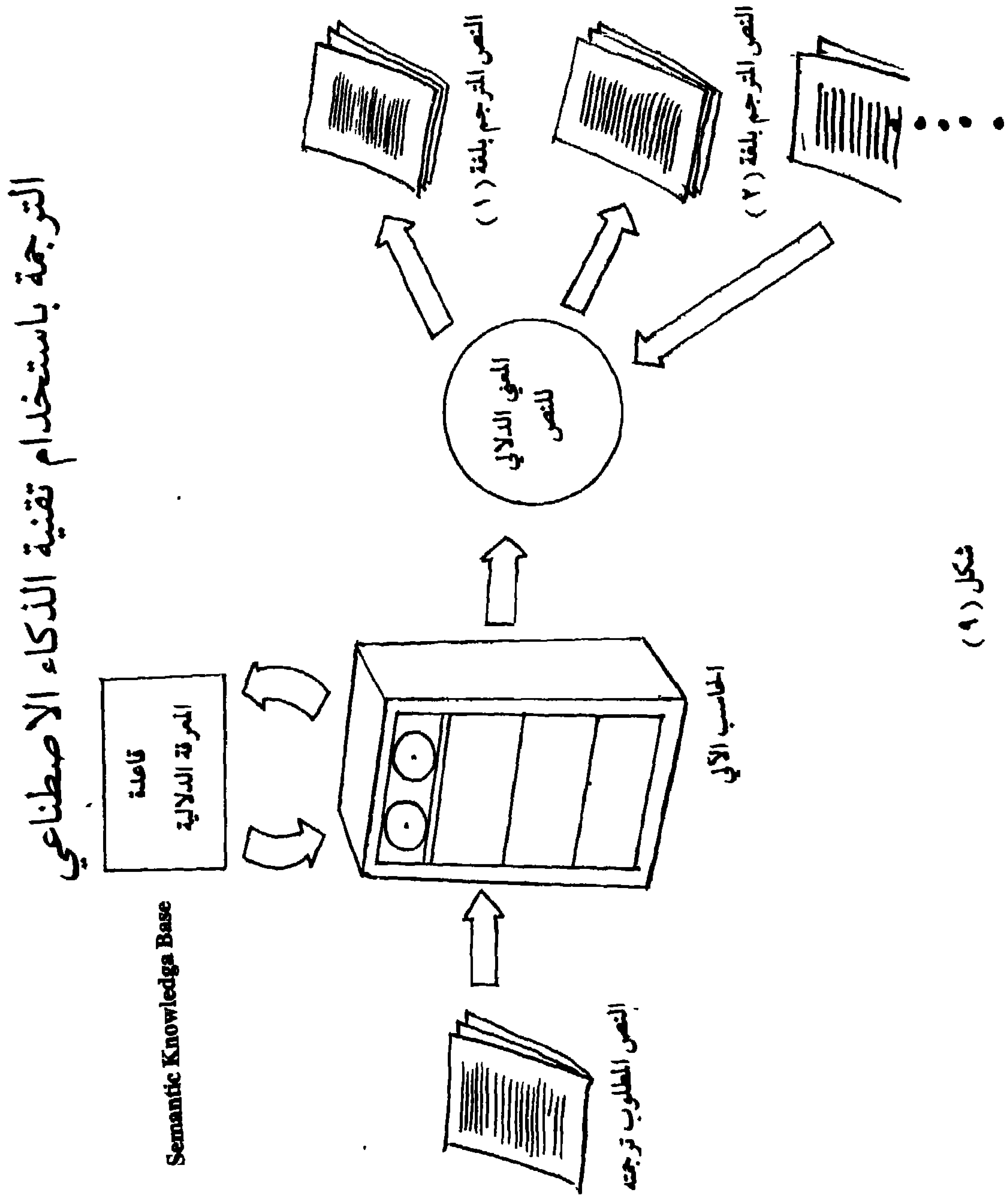
٤ ـ قبول مبدأ تدخل الإنسان في عملية الترجمة الآلية .

٥ ـ يجد الحاسب صعوبة بالغة في ترجمة النصوص الأدبية بينما يكون أكثر كفاءة في ترجمة النصوص العلمية .

٦ ـ صممت جميع برامج الترجمة الآلية للغة العربية خارج الوطن العربي .

٧ ـ ينبغي تشجيع الأبحاث في مجال الترجمة الآلية في العالم العربي .

❊ ❊ ❊


الترجمة باستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي
قاعدة
المعرفة الدلالية
Semantic Knowledga Base
الحاسب الآلي
المعنى الدلالي
للنص
النص المترجم بلغة (١)
النص المترجم بلغة (٢)
النص المطلوب ترجمته

شكل (٩)

الترجمة الآلية باستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي

EXAMPLE:

While driving down route 72, John swerved and hit a tree

ANALYSIS:

```
($DRIVE ACTOR: John
        LOCALE: (road NUMBER: 72)
        INTERFERENCE: (*PROPEL* ACTOR:(vehicle TYPE: passenger
                                OBJECT: tree))
```

INFERENCE:

```
($ACCIDENT VICTIM: John
           CAUSE: ($DRIVE ...)
           LOCALE: ...
           OUTCOME: *?*                [possible damage, injury]
```

SYNTHESIS:

بينما كان جون يقود سيارته في طريق ٧٢ ، انحرفت به ، واصطدمت بإحدى الأشجار

شكل (١٠)

تحولات الأزمنة.. وتعارضات الحداثة في شعر الخليج المعاصر

طه وادي
استاذ الادب العربي الحديث بجامعتي القاهرة وقطر

تناهب الليل أحشائي وأرقني
أن الصباح على أشلائها صلبا
على الخليج مصابيحي مهشمة
والقدس من سغب قد أطعمت خطبا
خليفة الوقيان

الخليج العربي - تلك المنطقة العزيزة من وطننا العربي الكبير - شُغلت بأدبه منذ فترة طويلة ، وتعرفت على كثير من أدبه وأدبائه ، سواء عن طريق العلاقة الإنسانية أو القراءة الخاصة أو الإشراف على بعض الرسائل الجامعية أو تدريس بعض نصوصه . وكان لزاماً عليّ ووفاءً مني أن أكتب عنه كتابا خاصا . ولكن المشاغل العامة والخاصة كثيرا ما تَحُول بين المرء وما يحب ويتمنى . وأرجو أن تكون هذه الدراسة بداية جادة لذلك المشروع .

والهدف من هذه الدراسة النقدية - حول شعر الخليج المعاصر - أمران جليلان :

الأول : بيان بعض القضايا الأدبية العامة التي تتصل بشعر الخليج ، على أساس أنه جزء لا يتجزأ من مسيرة الشعر العربي المعاصر كله . فنحن العرب جميعا - كما قال أحمد شوقي :

ويجمعنا إذا اختلفتْ بلادٌ
بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونطقُ

الآخر : الوقوف عند بعض السمات الخاصة ، التي تميّز شعر خليفة الوقيان - في ديوانيه : « المبحرون مع الرياح » (١٩٧٤) و « تحولات الأزمنة » (١٩٨٣) - باعتباره واحدا من الأصوات الشعرية المتميزة في إطار كوكبة شعراء الخليج .



١ - قضايا الشعر المعاصر في الخليج

١ - ١ في إطار المكان :

حينما نتحدث في إطار الدرس الأدبي - بشكل خاص - لا ينبغي أن تنسحب بعض المفاهيم السياسية على الأدب . فالخليج الذي نعنيه هنا ، ليس هو كل دول مجلس التعاون الخليجي . . وليس داخلا فيه - أيضا -

بشكل أو بآخر دولة العراق . وإنما نعني بالخليج هنا ، تلك الدول الخمس المتلاحمة والمتشابهة إلى حد كبير في ظروفها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهي : **الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية وعُمان** . والذي يجعلنا نستثني المملكة السعودية ، هو أنها دولة كبيرة تحتاج إلى وقفة خاصة لرصد مسيرة الأدب فيها ، وبيان سماته المتميزة . وقد ساير هذا التحديد بعض الدارسين مثل ماهر حسن فهمي في « تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج » ، وأحمد الجدع في « شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية » وخالد سعود الزيد في « أدباء الكويت في قرنين » ، ومحمد جابر الأنصاري في « لمحات من الخليج العربي » ، وعبدالله الطائي في « الأدب المعاصر في الخليج العربي » .



١ ـ ٢ في حدود الزمان :

هناك تحديد زمني أميل إليه كثيرا . . وهو أننا يجب أن نعي أن **الازدهارة الكبيرة للشعر ـ والأدب ـ في الخليج عمرها ربع قرن تقريبا** ، وهذه الفترة هي فترة الطفرة الاقتصادية والحضارية ، التي ظهرت مع تفجر الثروة النفطية مع بداية الستينات حتى اليوم . صحيح أن ثمة شعرا كان موجودا قبل ذلك ، ولكنه شعر « غير مُشكل » ، قد كان ذا نسيج فني واحد ، وينضوي كله ـ تقريبا ـ تحت إطار مدرسة « الإحياء » ، يستوي في ذلك معظم شعراء المنطقة أمثال : أحمد يوسف الجابر (قطر) ـ وفهد العسكر وعبدالله سنان وصقر الشبيب (الكويت) وسعيد الصقلاوي وحسين بن علي بن نفيسة وعبدالله بن علي الخليلي (عمان) وسلطان بن عويس وصقر بن سلطان القاسمي (الإمارات) . . فكل شعراء ما قبل النفط الذين أشرت إلى بعضهم ـ آنفاً ـ على سبيل المثال ، كلهم أصوات متنوعة الموهبة في إطار مدرسة الإحياء على اختلاف الدرجة ، لا أستثني منهم سوى بعض شعراء الكويت والإمارات والشاعر ابراهيم العريض (البحرين) ، الذي كان أسبق شعراء الخليج ـ بحكم ثقافته الإنجليزية والفارسية الواسعة ـ سواء من حيث كتابة الشعر من وجهة نظر رومانسية . . أو ترجمة الشعر شعرا ، أو كتابة بعض المحاولات المسرحية .

وإذا كان شعراء ما قبل النفط إشكالياتهم النقدية واضحة ومحسومة ، فإن الخلافات والتداخلات والتعارضات كلها ترد في شعراء ما بعد النفط . . وهؤلاء جميعا يتحركون زمنيا في دائرة محدودة . . هي دائرة ربع القرن الأخير فقط (١٩٦٢ م ـ ١٩٨٧ م) .



١ ـ ٣ قضية المصطلح :

قضية القضايا في نقدنا العربي اليوم هي قضية (المصطلح النقدي) . . لأننا نستخدم المصطلحات ـ أحيانا مفرغة من دلالاتها العلمية المحددة . وأصبح النقد يتسم بذاتية مفرطة وجموح غير مبرر ، فأصبح لكل ناقد ـ كما يرى الناقد الرومانسي ميخائيل نعيمة ـ « غرباله » أو موازينه الخاصة التي « ليست مسجّلة لا في السماء ، ولا على الأرض ، ولا قوة تدعمها وتظهرها ، قيمةً صادقة سوى قوة الناقد نفسه »[1] .

ماذا نعني بالمعاصرة إذن حين نصف شعر الخليج بها ؟

المعاصرة مصطلح ذو دلالتين : إحداهما زمنية أو تاريخية ، والأخرى أدبية نقدية :

أ ـ المعاصرة زمنيا :

المعاصرة زمنيا . . أو تاريخيا ، لا تتجاوز ثلث قرن من الزمان ، فالتاريخ المعاصر لأي قطر من الأقطار لا

(١) ميخائيل نعيمة · الغربال ط مؤسسة نوفل ـ بيروت ـ العاشرة ، ص ١٦

يتجاوز تلك الفترة ، التي تستوعب حركة (جيل) من الأجيال . وعمر الجيل في المتوسط هو ثلاثون سنة تقريباً . . وعليه يتحدد معنى المعاصرة زمنيا .

ب ـ المعاصرة أدبيا :

المعاصرة باعتبارها مصطلحا نقديا . . لا يمكن أن نصف بها أديبا إلا إذا كانت تتوفر في أدبه شروط المعاصرة ، أي يكتب بأحدث الأساليب والأدوات الفنية التي حققها الأدب في عصره . إن الأديب الذي يستلهم رؤيته وأدواته وطرائق تعبيره وأنساق أساليبه من عصر سابق . . لا يمكن أن يكون معاصرا البتة . والشعر ـ على وجه التحديد ـ يشهد اليوم تناقضات حادة وتداخلات مزعجة . هناك من ناحية لا يزال في الخليج ـ وفي غيره من الأقطار العربية ـ شعراء يمثلون الإحياء . . وآخرون يمثلون الرومانسية . . وغير أولئك وهؤلاء نجد من يمثلون الواقعية . وليت الأمر اقتصر عند هذا الحدّ من التعارض . . فذلك أمر مفهوم . . وقد يكون ـ أيضا ـ مشروعا في إطار مجتمعات مثل مجتمعاتنا .

ولكن الإشكالية تتبدى في أننا نجد شعراء يكتبون الشعر في إطار النسق التقليدي أو الشكل العمودي ـ مثل عبدالله البردوني (اليمني) ـ ويطرحون فيه رؤية واقعية معاصرة . ثم هناك آخرون ـ وكثيرا ما هم في الخليج . . وفي غيره ـ يكتبون في إطار شعر التفعيلة المعاصر (الحر) ، ويطرحون فيه رؤى رومانسية أو إحيائية أحيانا . . ومن هؤلاء على سبيل المثال : خليفة الوقيان ومحمد الفايز (الكويت) ، مبارك بن سيف آل ثاني (قطر) ، غازي القصيبي وعلوي الهاشمي (البحرين) .

بناء على ما سبق أن وضحناه تختلف المعاصرة زمنيا عنها فنيا . . لذلك نقول : إن كلمة (المعاصر) التي استخدمت في عنوان الدراسة تعني دلالة زمنية فحسب .



٦ ـ ٤ أهم الشعراء المعاصرين :

من أهم شعراء الخليج المعاصرين ـ زمنيا ـ الأسماء التالية ، موزعة بحسب الدول[٢] .

---

(٢) يراجع في هذا المجال .

ـ خالد سعود الزيد : أدباء الكويت في قرنين ط . ذات السلاسل ، الكويت (الثالثة ١٩٧٦

ـ مجموعة من الباحثين : دراسات في أدب البحرين ط . المنظمة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩

ـ أحمد الجدع : شعراء معاصرون في الخليج والجزيرة العربية ط . دار الضياء ، الأردن ، الثانية ، ١٩٨٥

ـ ماهر حسن فهمي : تطور الشعر الحديث بمنطقة الخليج ط . الرسالة ، بيروت ، الأولى ، ١٩٨١

ـ محمد كافود . الأدب القطرى الحديث ط . قطرى بن الفجاءة ، قطر ، الثانية ، ١٩٨٢

ـ محمد سعيد عبد الحليم · الشعر العمانى ط . وزارة التراث والثقافة ، عمان ، ١٩٨٦

ـ وزارة الثقافة العمانية : باقة من الشعر العمانى ط . وزارة الثقافة ، عمان ، الثانية ، ١٩٨١

ـ عبد الله الطائى : الأدب المعاصر في الخليج العربى ط . القاهرة ، ١٩٧٤ .

عمان :

عبدالله بن علي الخليلي ـ سعيد الصقلاوي ـ حسين بن علي بن نفيسة ـ عامر محمد سليمان العامري ـ موسى بن علي بن هلال العبري ـ يعقوب بن سيف الأغبري ـ سيف بن أحمد بن ناصر السيفي ـ هلال بن سعيد بن عرابة العماني ـ سالم بن علي الكلباني ـ خالد بن مهنا البطاشي ـ عبدالله بن علي السدراني ـ ناصر بن حمدون بن سيف الحارثي ـ ناصر بن سالم بن سليمان الرواحي ـ هاشم بن سعيد بن صالح الطائي ـ محمد بن عبدالله بن سعيد القاسمي ـ ذياب العامري .

الإمارات العربية :

صقر بن سلطان القاسمي ـ سالم بن علي العويس ـ سلطان بن علي العويس ـ خلفان بن مصبح ـ ابراهيم المدفع ـ مبارك بن سيف الناخي ـ مبارك العقيلي ـ عبدالرحمن العبادي ـ عارف الشيخ عبدالله الحسن ـ حمد بوشهاب ـ مانع سعيد العتيبة ـ ظبية خميس .

قطر :

عبدالرحمن قاسم المعاودة ـ أحمد بن يوسف الجابر ـ علي بن سعود آل ثاني ـ مبارك بن سيف آل ثاني ـ عبدالله محمد جابر ـ محمد بن خليفة العطية .

البحرين :

ابراهيم العريض ـ عبدالرحمن رفيع ـ علي عبدالله خليفة ـ قاسم حداد ـ عبدالله السبتي ـ علي الشرقاوي ـ يعقوب المحرقي ـ علوي الهاشمي ـ منى غزال ـ غازي القصيبي حمد محمد النعيمي ـ عبدالحميد القائد ـ فوزية السّندي .

الكويت :

أحمد السقاف ـ عبدالله حنين ـ علي السبتي ـ خالد سعود الزيد ـ فهد العسكر ـ صقر الشبيب ـ خالد الفرج ـ محمود شوقي الأيوبي ـ عبدالله سنان ـ أحمد مشاري العدواني ـ محمد الفايز ـ خليفة الوقيان ـ عبدالله العتيبي ـ سعاد الصباح ـ يعقوب السبيعي ـ جنة القريني



٢ ـ سمات إيجابية

٢ ـ ١ الشعر العربي تراث متصل :

الشعر فن العربية الأول ، وهو تراث متصل الحلقات متوارث السمات منذ ستة عشر قرنا تقريبا ، لسبب منطقي واضح ، مؤداه : أن اللغة ـ أداة الشعر ـ لا تزال هي إياها . ومادامت اللغة مستمرة ـ وسوف تظل بإذن الله ـ فسيبقى كل جديد في الشعر محتفظا بكثير من خصائصها التركيبية وقواعدها الصوتية وقدراتها الدلالية .

وقد ترتب على هذا التواصل لتراث الأمة ، أن وجدنا تقاربا شديدا في ديوان الشعر على امتداد العصور واختلاف الأقطار . كما أن الانتقالات الأساسية التي تحكم تطور الشعر ـ من خلال المدارس الأدبية ـ في وطن عربي ، هي بعينها التي تحدث في بقية الأوطان ، مع قدر من التفاوت النسبي في الفترة الزمنية والدرجة الفنية ، أي أن المدارس الأدبية الكبرى ، وهي : الإحياء (الكلاسيكية الحديثة) . . والتجديد الرومانسي . . والواقعي المعاصر ، ظهرت كلها عبر مراحل تطور الشعر الحديث في كل وطن عربي . وقد تباين ظهور هذه المدارس تاريخيا بحسب اختلاف طبيعة الحركة الاجتماعية ، والحضارية والثقافية في كل قطر على حده .

وعلى هذا فإن الشعر المعاصر في الخليج جزء من تراث الأمة ، يخضع لقاعدة عامة مؤداها : أن ما يسير عليه الكل ، يسير عليه الجزء بالضرورة .



٢ ـ ٢ ـ الوحدة لا تنفي التمايز :

على الرغم من التماثل الكبير بين إطار التجربة الشعرية في الخليج والإطار العام لحركة الشعر العربي الحديث كله ـ سواء من حيث المدارس التي تنتظم مسيرته ، أو الجماليات التي تميز بنيته ـ إلا أن ذلك لا ينفي التمايز الخاص لشعر الخليج . وعند قراءة شعراء الخليج نجدهم مرتبطين بواقعهم المحلي ارتباطا حميما ، ويعتزون به اعتزازا يذكر بنبرة الفخر في الشعر القديم . من ذلك قول محمد الفايز[٣] :

وطني وفيكَ من النجومِ سموُّها
ومن العروبة روحُها القهارُ
غنيتُ فجرك والظلامُ يشدني
شدا ، وتعصر أضلعي الأكدارُ
شطآن رملك واحةٌ بعطارُ
وأجاجُ بحرك سُكّر وخُمار

ومن نفس المنطلق يعبر خليفة الوقيان عن اعتزازه بقومه « المبحرون مع الرياح » فيقول[٤] :

يا مبحرون وفي محاجركم
نهران من نبع الهوى شُقّا
إني لأمحكم وإنْ عبثا
طال السُّرى بمتاهةٍ غرقى

ويستمر إلى أن يختم القصيدة بهذا البيت :

قلبي لكم في كل مفترقِ
زيتُ السراجِ بليلكم يشْقَى

وحول الاعتزاز بالوطن والأهل يقول أيضا مانع سعيد العتيبة[٥] :

مرحبا يا من إليكم ظمىءَ القلبُ وجاعْ
مرحبا يا خيرَ آباء ، لقد طال الوداعْ

كذلك نجد الشاعر العماني عبدالله السدراني يفتخر بوطنه قائلا[٦] :

تتوالى في سيرها الأيام
وتمر الشهور والأعوامُ
وعُمان تعلو وفي قمة المجد
لها في المسيرة الإقدام
إنها القلعة المنيعة للعرْب
والطودُ العالي الذي لا يُرام

وهكذا صار الشعر « أنشودة الخليج » ـ كما نجد في شعر مباركَ بن سيف الذي يُحيِّي وطنه وأهله قائلا[٧] :

لك يا خليجَ تحيةٌ وولاءُ
هي ذي القلوبُ ونهجها القدماءُ
في الحب في الأخلاق في شيم الذرا
في العهد إنّا للعهود وفاء
بوابةُ التاريخ في أنشودةٍ
ضاءتْ على أبياتها الآلاء
بوابة التاريخ إن شرَّعْتَها
ألفيتَ مجداً سقفُه الجوزاء
يا خيرَ من أنسَ الوجودَ جمالُهُ
إن الحياة بحُسْنه زهْواء

---

(٣) محمد الفايز : النور من الداخل ط . الكويت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠

(٤) خليفة الوقيان : المبحرون مع الرياح ط . ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٧٤ ص ١٣ .

(٥) مانع سعيد العتيبة : المسيرة ط دار الفجر ـ أبو ظبي ـ السابعة ، ١٩٨٤ ص ٥٣ .

(٦) وزارة الثقافة ، عمان : باقة من الشعر العماني ط . وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان ، ١٩٨١ ، ص ٢٢

(٧) مبارك بن سيف آل ثاني : أنشودة الخليج ط الشرقية ، قطر ، الثانية ، ١٩٨٤ ، ص ١٧

ويستمر - في مطولته - إلى أن يقول مفتخرا :

الـروحُ دونك - يـاخليـجُ - رخيصـةٌ
مُـزجتْ مـع البحْـر العفيفِ دِمـاءُ
مـا كنتَ يـومـاً للغـريبِ مَنـازلاً
أبـدا ، ولا حَـطتْ بـك النُّـزلاء

وتتحول أنشودة الفخر بالوطن والخليج إلى قدر من النجوى الحزينة والتأمل الباكي عند شعراء الواقعية ، فنجد علوي الهاشمي - على سبيل المثال - يقول[٨] :

« آه يـا وطـنـا عـذّبـتـني مـلامحُـه ،
وهي تصعدُ كالغيمِ فوقَ سلالمِ روحي . .
فينشقّ جسمي نصفينْ ، يدخلني البرق
ينشق قلبي نصفين ، يسكنني الرعد » .



٣ - ٢ - المجالات الدلالية :

إذا ما حاولنا أن نتبين القضايا التي يدور حولها ديوان الشعر المعاصر في الخليج - لنرى إلى أي حد ترتبط بالواقع الذي أبدعها - فسوف نجد أن الدراسات الحديثة في مجال « علم الدلالة » تساعد على ذلك كثيرا . « وتعد نظرية « المجالات الدلالية » (Semantic Fields) من أهم نظريات البحث اللغوي المعاصر ، وتعتمد في دراسة المعنى على المنهج التحليلي ، الذي يهدف إلى تحديد ملامح البنية الدلالية للمفردات داخل النص بطريقة موضوعية دقيقة . ويعرّف المجال الدلالي بأنه مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها ، وتوضع تحت مسمّى عام يجمع كل ما يتصل بالمجال . ويعرّف « أولمان » المجال بأنه قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبّر عن مجال معين من الخبرة . أما « لـوينز » فيـرى أنه مجموعة جزئية لمفردات اللغة . أما « نَيْدا » فيعرف المجال بأنه مجموعة من المعاني المشتركة في مكونات دلالية معينة[٩] :

وإذا كنا نرى أن مفردات المعجم الشعري تعبر عن قضايا الواقع الخليجي - كما صورها شعراؤه - فسوف نجد - بناء على النظرية السابقة - أن أهم الحقول أو المجالات الدلالية ، التي يدور حولها شعر الخليج المعاصر هي :

الإنسان - الطبيعة - الكون

الوطن - العروبة - الثورة

ولا شك أن الحديث عن مجال واحد من هذه المجالات الدلالية المختلفة يحتاج إلى دراسات واسعة ومتأنية ، ولكن بحسبي أن أشير إليها - هنا - كرؤوس موضوعات ينبغي أن يُشغل بها الشباب الدارسون في الخليج اليوم - وهم كثير !!



٤ - ٢ - القضية القومية :

أشرت آنفاً إلى أهم المجالات التي تنضوي تحت إطارها المجالات المتنوعة لتجربة الشعر المعاصر في الخليج . بيد أن هناك مجالاً أحبه وأقدره - بضمير العالم ووجدان الأديب ، لأني عربي الهوى والعقيدة من منبت الشعر إلى أخمص القدم - ذلكم المجال هو الشعر القومي ، الذي يصدر لدى الشاعر الخليجي عن عاطفة نبيلة والتزام أصيل . من هنا نجد الشعر يعزف - دوْماً - على كل الأوتار الخاصة بالقضية القومية . ولا شك أن « الجامعة العربية » هي الرمز الحي للوحدة والأمل الحقيقي من أجل غد أفضل . نجد خالد الفرج يتحسّر

---

(٨) علوي الهاشمي · العصافير وظل الشجرة ط . الشركة العامة ، البحرين ، الأولى ، ١٩٧٧ ، ص ١١

(٩) نورة يوسف فخرو روميات أبي فراس - معجم ودراسة دلالية . رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة ، ١٩٨٧م-١ ص ٣

متأملاً على تلك الحال المتردية التي وصل إليها العرب ممثلين في الجامعة فيقول[١٠]:

عقدتِ احتماعَك يا جامعةْ
فهل أنتِ مبصرةٌ سامعةْ ؟
سئمنا الكلامَ فهل من فعالٍ
فإن الأعادي بنا طامِعةْ
أسبعُ عجائبُ هذا الزمانِ
نزلنا إلى دَرك (السابعة)
كفانا ولائمَ فيها الدسومُ
تمصُّ من الأمة الجائعة
كفانا أحاديثَ لا تنتهي
كفانا وعودُكم المائعةْ
كفانا خنوعٌ وها أنتم
ملايينُ في رقعةٍ واسعة
كثيرون في قلةٍ من خلافٍ
غنيون في أنفسٍ قانعَة
قصارى السياسي في سعْيِه
إذا فاز (بالنقطةِ الرابعة)[١١]
فياربٌّ رحماكَ أنقذْ حماك
وخُذْ بيديْ أمةٍ ضائعة

وإذا كانت الجامعة العربية عاجزة اليوم عن القيام بدورها المنشود ـ مما يجعلنا نردد دعاء الفرج إلى الله لينقذ حماه ـ فإن « مجلس التعاون الخليجي » يقوم بدور أكثر توفيقا ونجاحا من مجلس الجامعة الأم ، لذلك نجد مبارك بن سيف يشيد بهذا الدور الوحْدوي في تحقيق خير الخليج وتحقيق أمنه ، قائلا[١٢]:

وأتى بنوك اليومَ بعد فراقهم
فسبيلُهم بعدَ الفراقِ إخاءُ
يبنون مجدَك وحدةً عربيةً
فهمُ الى سبقِ العَطاء ظِماء
وهمُ إلى لمِّ الشتاتِ سوابقٌ
وهمُ إلى هَدْي الأُلى رُفقاء
يحدوهمُ خيرُ الخليجِ وأمنهِ
إن الإخاءَ تعاونٌ وبناء

وما دام الحديث عن الوحدة القومية فاني أود أن اشير الى القصائد الكثيرة التي قيلت في رثاء جمال عبد الناصر ، باعتباره الداعية الجسور الى الوحدة والقومية . . . من ذلك هذا الرثاء الحار الذي ينشده احمد الجابر[١٣] :

يا امة فقدتْ جمالَ جمالها
وكمال بهجتها وفخرَ النادي
قد مات من أبقى لكم من سيْله
حقلاً من الإصدار والإيرادِ
هذه مبادئُه وتلك خطوطُها
داعي الفلاحِ على الطريق يُنادِي

وهناك قضايا قومية كثيرة وقف عندها الشعراء مثل نكسة يونيو ١٩٦٧ . وقضية فلسطين .. وثورة الجزائر . والحرب العراقية الإيرانية .. واستشراف يوم الوحدة المأمول .

---

(١٠) خالد الزيد : خالد الفرج ، حياته وآثاره ط . الربيعان ، الكويت ، الثانية ، ١٩٨٠ ص ٥٩

(١١) النقطة الرابعة هى الجهة التى توزع المعونات (الأمريكية) على الدول النامية والشاعر يتهكم على بعض الساسة الموالين لأمريكا

(١٢) مبارك بن سيف آل ثاني : أنشودة الخليج ص ١٠٠ .

(١٣) يحيى الجبوري ، محمد قافود : ديوان أحمد بن يوسف الجابر ط الدوحة الحديثة ، ١٩٨٣ ص ٧ .

وخلاصة القول أن الإنسان الخليجي - كما يصوّر في الشعر . . وفي الحقيقة - مؤمن بقوميته ، معتز بعروبته ، لذلك يعكس شعره هذا الارتباط الشديد بمصير أمته العربية .



٢ - ٥ - المرأة شاعرة :

من الظواهر الاجتماعية الصحية والصحيحة أن المرأة في الخليج اليوم صارتْ لها مكانة مرموقة في حركة المجتمع ومسيرة العلم والتعليم . . وقد واكب هذه الحركة الاجتماعية النشطة أن دخلت المرأة - بثقة ونجاح - المجال الثقافي على اختلاف مجالاته وتنوع ميادينه . وما نودُّ الإشارة إليه هنا هو أن المرأة قد بدأت تخطو - برفق وتؤدة - نحو ميدان الأدب وكتبت القصة قبل أن تكتب . . . ولكن المرأة الخليجية المعاصرة بدأت تدخل عالم الشعر بقوة وتمكن ، كما سبق أن دخلته أخوات لها من قبل في أقطار عربية أخرى مثل مصر والعراق .

ويكفي أن أشير في هذا المجال الى ثلاث شاعرات - على سبيل المثال - فقط :

الأولى : سعاد عبدالله الصباح (الكويت) ، وقد صدرتْ لها أربع مجموعات شعرية ، من أهمها : أمنية - و - رسالة الى ولدي .

الثانية : منى برهان غزال (البحرين) ، وقد صدرتْ لها أربع مجموعات شعرية هي : تمرد الشوق (١٩٧٦م) - زهرة عبّاد الشمس (١٩٨٣م) - لغة التساؤلات الضبابية (١٩٨٥م) - السنبلة والحصاد (١٩٨٧م) .

الثالثة : ظبية خميس (الامارات) ، وقد صدرت لها بعض القصص ، ومجموعتان شعريتان ، هما : صبابات المهرة العمانية (١٩٨٥) - قصائد حب (١٩٨٥) وأود ان اشير هنا سريعا - وقد أعود لذلك مرة أخرى - إلى أن شاعرة الخليج قد وصلت بشعرها الى درجة طيبة كما انها طرقت مجال الشعر (الحرّ) ، وقدمت فيه بعض تجارب ناضجة ،

٣ - ظواهر سلبية

٣ - ١ - التداخل في الرؤية والتشكيل :

رصدنا في نقاط سريعة - بعض الجوانب الايجابية في شعر الخليج المعاصر . غير ان الكمال - في هده الحياة - مطلب عريز المنال . وقد آن لنا أن نتأمل الوجه الآخر للظاهرة الأدبية ، حالة كونه متمثلاً في بعض الظواهر السلبية . . . التي تبدو بشكل لافت وخطير ، لذلك تنبغي الاشارة اليها - أيضا - حتى يصل البحث الى غايته الموضوعية .

أدى تفجر النفط في بلاد الخليج الى « طفرة حضارية » عالية الدرجة ، وأصبحت منطقة جذب وعمران ، وانتقلت من البداوة والتنقل الى الحضارة والاستقرار ، وأخذت بأساليب الحياة الحديثة في كل المجالات المادية والاجتماعية . وسار التعليم (في الداخل أو الخارج عن طريق البعثات في الدراسات العلمية والانسانية) بخطا سريعة وناجحة الى حد بعيد .

وهنا أحس الشاعر - باعتباره ، طليعة شعبه - أن عليه أن يختصر الزمن ، وأن يسابق تيارات الحداثة . وتطلع الى المجتمعات المتقدمة من أمته في مجال الابداع ، وحاول ان يواكبها . من هنا ظهرت تيارات واشكال متباينة ، وحدث قدر من التّداخل العفوي أو الفوضوي في الرؤية الفنية . وأخذ بعض الشعراء نتيجة لذلك يتنقلون بين أشكال الكتابة الشعرية دون عاصم فكري ، يهب الشاعر اقتناعا فنيا بأن شكلا ما من أشكال التعبير ، هو الجدير أو الملائم لعكس وجهة

نظره الفنية . ولكن الرغبة في ركوب أحدث الموجات الشعرية ادى الى تأرجح بعض الشعراء مع اكثر من شكل فني في صياغة القصيدة .

ونجد هذا القلق الفني - أحيانا - عند الشاعر الواحد . . بل نجده أيضا في ديوان واحد . فنجد الديوان يجمع بين القصائد العمودية وقصائد التفعيلة - دونما فارق واضح في الرؤية الموحية له بالتعبير . ومن أمثلة الشعراء الذين يجمعون بين النسقين المتضادين (العمودي والحر) :

غازي القصيبي ومحمد الفايز ومبارك بن سيف آل ثاني وعلي عبدالله خليفة وصقر القاسمي وخليفة الوقيان وعبدالرحمن رفيع (الذي يكتب الشعر الفصيح بشكليه ، ويكتب أيضا الشعر النبطي ، حيث أن له ديوانا كاملا من الشعر النبطي عنوانه « سوالف دنيا ») .

ومن الأمثلة الشعرية التي تؤكد هذه الازدواجية أو الثنائية قصيدة للشاعر القطري مبارك بن سيف عنوانها « سفينة غوص » يقول في مطلعها(١٤) :

« إنما أنت بقيةْ
قد رماها الزمنُ الطاحنُ
للأرض وصيّةْ
ترقبُ الأمسَ حبيباً عائدا
قد توارى خلفَ أستارِ السنين
فلقد دارتْ رحى الأيام دوره
وغدا الغوصُ وحكايات تُغنّى
قصةً نامتْ بأعماقِ الوجود » .

وحول المضمون نفسه الذي يتصل بعالم البحر وقضاياه نجده - في الديوان ذاته - يكتب قصيدة أخرى (عمودية) الشكل . . يقول في مطلعها(١٥) :

تعالى إليّ - مياهَ الخليجْ ... تعاليْ كلحنٍ حبيبٍ حبيبْ
خُذيني الى وطنِ النيّراتِ ... وشطٍ على المائجات رحيب
تدفقنَ كالعطرِ في بهجةٍ ... وأدنينْ شطاً يكادُ يغيب

ولاشك أن (ازدواجية) الشكل هذه من أهم الظواهر السلبية اللافتة في ديوان الشعر الخليجي . ولا ريب في أن هذه الظاهرة لها ما يبررها في الواقع ذاته . . . على أساس أن (الواقع) هو المفسر الحقيقي لكل ظاهرة انسانية أو أدبية . إن الطفرة الحضارية التي أعقبت ظهور النفط دفعت الى محاولة سريعة من أجل اختصار المسافات على المستويات كافة . وعلى هذا نجد المدارس الثلاث (من : إحيائية وورومانسية وواقعية) موجودة . . والأخطر من هذا - كما ذكرت - أن بعض الشعراء قد يتأرجحون في أطر أكثر من مدرسة أدبية في وقت واحد .

ويدفعني رصد هذه الظاهرة الى القول :

إن كل شاعر له مطلق الحرية في اختيار الرؤية والشكل اللذين يعبران عن شخصيته الأدبية ، فالعمل الأدبي - اولا . . وأخيرا - مغامرة . . بيد أنها مغامرة ، يجريها الأديب بكامل وعيه من أجل اختيار موقفه الفكري والأدبي ، الذي يتلاءم مع طبيعة مجتمعه - وليس مع طبيعة شطحاته الخاصة وعواطفه الجامحة . . !!

كذلك فإن وصف الشاعر . . بأنه إحيائي أو رومانسي . . أو حتى واقعي ، هذا الوصف لا يهبه ميزة ، ولا يسلبه رفعة ، فكل مدرسة أدبية لها شعراء عظام

(١٤) مبارك بن سيف آل ثاني : الليل والضفاف ط. قطر الوطنية ، الدوحة ، ١٩٨٣ ص ٧

(١٥) الليل والضفاف - قصيدة « مسافر على أمواج الخليج » ص ٢١

حالدون ، لأنهم كانوا مخلصين في انتماءاتهم . . واعين بما تفرضه عليهم حرية الفن من ضوابط وقيود .

وأخيرا . . فإنه في مجتمعات مثل مجتمعاتنا العربية نجد أكثر من اتجاه أو مدرسة ممثلين في الساحة الأدبية . لكن هذا التجاور . . وذلك التواكب لا ينفي البتة أن هناك (مدرسة) بعينها هي التي تتسق ـ وحدها ـ مع طبيعة المرحلة التي يمر بها المجتمع . أو على وجه التحديد تتسق مع فكر الشريحة المتقدمة ـ ثقافيا ـ في المجتمع تلك الشريحة التي تؤمن بالأصالة والمعاصرة في وقت واحد من أجل كل جديد يتطلع الى غد أفضل للحياة والفن .



٣ ـ ٢ ـ التقرير . والخطابية :

لا تزال الرؤية الاحيائية ـ أو بمعى أوضح النظرة التقليدية ـ ذات هيمنة واسعة على كثير من الشعراء ، حتى بعض أولئك الذين يقتربون مى المنظور الرومانسي أو الواقعي ومع ذلك يطمح بعض الشعراء الى تغيير الواقع والثورة عليه ـ من خلال الشعر ـ غير أن أدواتهم التعبيرية ـ أحيانا ـ لا تكون مكتملة ، لذلك يصبح الأسلوب الشعري أقرب الى التقرير والمباشرة ، كما تتحول القصيدة ـ أحيانا ـ إلى خطبة حماسية ، ولا سيما اذا كان الشاعر يعبر عن قضية ساخنة ، سواء في مجال المدح أو السياسة أو بعض قضايا المجتمع .

من ذلك على سبيل المثال هذا المطلع لإحدى قصائد المدح التي نظمها الشاعر العماني خالد بن مهنا البطاشي[١٦] :

بالجدِّ يسمو للمكارم من سَما
حاولْ بجدّك أن تنال الأنجُما
متجشما أهوال كلِ عظيمةٍ
وأقدمْ شجاعاً في الحوادث مُعلِّما
واعلَمْ بأن المجدَ ليس ينالُه
منْ لم يذقْ مرَّ المتاعب مَطْعما

فهذه الصياغة التقريرية لا تأتي بجديد على مستوى التركيب اللغوي أو الدلالية المعنوية . . وإنما هي حكم سائرة تدعو للكرم والشجاعة والمجد .

وعلى نفس المنوال في المبنى والمعنى نجد هذه الحكم السائرة ـ أيضا ـ عند مانع سعيد العتيبة ، حيث يقول ـ على لسان أبٍ ينصحُ أبناءه ويحذرهم من الغرور بالمال والدنيا[١٧] :

احذروا فالمالُ يفضي دائما نحوَ الغرورْ
هو ذُو حدّيْن : فيه الخيرُ أو فيه الشرور
وطريقُ الخير دوْماً بين ظلماءٍ ونور
هذه الدنيا فصولٌ بيننا تمضي وتدور
ولياليها حَبالى بصروفٍ قد تجور
نحنُ للتشييدِ في الأرض أساسٌ من صخور

فالشاعر هنا يرصُّ مجموعة من الحكم السائرة التي يعرفها عامة الناس ، ولا تأتي بأي جديد أو مفيد .

ومى عجب أن تصل هذه الخطابية الى شعر الرثاء . . . وهو مجال ـ بغض النظر عن جانب التقليد فيه ـ يدعو الى التأمل الحزين ، والتفكير الهادىء ، غير أن الشاعر (عبدالرحمن المعاودة) أحال القصيدة الى (مندبة) وأخذ يصيحُ بصوت عالٍ[١٨] :

نبأ أقضَّ مضاجعَ العلياءِ
من أرض مصرَ إلى ربا الزوراءِ
رِيعتْ له قطرٌ وريعَ لوقعِه
كل الخليج بمحنةٍ وبلاءِ

(١٦) باقة من الشعر العماني ص ١٨
(١٧) مانع سعيد العتيبة : المسيرة ص ١٠٦ .
(١٨) عبد المعاودة . القطريات جـ ٣ ص ١٤٧

ومشى الأسى في قلب كل مواطنٍ
وكذا البنونَ بمأتمِ الآباءِ

كما نجد صوت الخطابة عاليا في قصيدة يصف فيها الشاعر (خليفة الوقيان) بغداد . ومع ذلك يستخدم أربعة أساليب للنداء في مطلع القصيدة ، حيث يقول(١٩) :

بغداد ، يا شفةَ الزما
نِ البكرِ ، والوجدِ المصفّى
يا توأمَ التاريخِ تر
تجلُ المنى سيفا وحرفا
يا غيمةً يسع العوا
لم ريُّها منْحا وعطفا

وتبلغ الخطابة درجة عالية الصوت الى حد كبير في الشعر السياسي . . . وبخاصة اذا اتصل الموضوعُ بقضية الصراع مع الاستعمار أو الصهيونية ، كما نجد في هذا الجزء من قصيدة سياسية لأحمد السقاف(٢٠) :

يا قائد العرْبِ إن العرْب قد نفرتْ
إلى القتالِ تلبّى القدسَ والحرما
فارفعْ لواءك منصورا فما عقمتْ
عروبة أنجبتْ عمْرا ومعتصما
وسرْبها نحو مجدٍ هزّه خور
فظنَّ بعضُ الأعادي أنه انهدما
حسبُ الفجيعةِ صبرٌ غيرُ محتملٍ
قلُوبنا منه تشكو الحزنَ والألما
وفي النفوس براكينٌ مدمرةٌ
إن تنطلقْ تزرعُ الأهوالَ والنِّقما
فأنتَ في كل يومٍ باعثٌ أملاً
وأنت في كل يومٍ شاحذٌ هِمما

٣ ـ ٣ ـ التجريب . . . والغموض :

الشعر ـ كما ذكرت ـ مغامرة محسوبة ، يحاول فيها الشاعر أن يحدد طرائقه التعبيرية وأساليبه في التخيل وبناء عالم القصيدة . وتظل المغامرةُ في الشعر مأمونة العواقب اذا اتسمتْ بقدرٍ من المنطق الفني يجعلها في اطار المقبول والمعقول . ولا ينفي عنها التلقائية والدهشة . بيد أن المغامرة تتحول ـ أحيانا ـ الى مقامرة والى قدر من التجريب الشكلي العقيم ، إذا فقدت التجربة الشعرية تلقائيتها العذبة وبكارتها المستحبة ، لذلك قيل في تعريف الشعر قديما : « الشعرُ ما أشْعَرك . . !! » .

ولعل أكثر التجمعات الشعرية جريا وراء التجريب وسعيا نحو حدة المفارقة هي كوكبة شعراء البحرين ، مثل . قاسم حداد وعلى الشرقاوي وعلوي الهاشمي وأحمد مدن . والتجريب يصل ـ أحيانا ـ الى درجة عالية من الغموض لا نجده في بنية القصيدة من حيث التركيب اللغوي والدلالة المعنوية فحسب ، وإنما نجده ـ أيضا ـ في طريقة الكتابة ، التي تعتمد على بعض الأشكال الهندسية ، لتضع داخلها بعض أجزاء من القصيدة . والشاعر أحمد مدن يكتب قصيدة « صباح الكتابة والطرقات » ، التي يفتتح بها ديوانه على هذا النحو(٢١) :

غصةٌ في مواسمنا
هذه الهداة المستقاة ،
كنومتنا
تحصدُ الروحَ في سطرنا
تقتفينا

(١٩) خليفة الوقيان : تحولات الأزمنة ط . دار العروبة ، الكويت ١٩٨٣ ـ ص ٣٣

(٢٠) خالد سعود الزيد · أدباء الكويت في قرنين حـ ٢ ص ٢٧٧

(٢١) أحمد مدن : صباح الكتابة
ط الشرقية ، البحرين ، ١٩٨٤ ص ٣

هل يصبِّحني جسدٌ ،

كاشتعالِ التيقظِ

أو كانطفاء النُّعاس

يتصافح هذا الحضورُ الجميلُ

ووجهي

ويغرقني بتفاصيله المشْهبةْ

إنني أنزعُ الساعةَ البكرَ من لحظةٍ مدهشةْ

ألصباحاتُ فارغةٌ ،

والتوجُس يشعل بابي

ويرمي الندى

بين خديَّ وهذه الوسادةِ ،

تهطل غيمةُ روحي

قطرة

قطرة

قطرة مشتعلة .

اعتلاني شحرة شوق ويكتبُ هذا النشيدْ : هاهنا غُصنُنا ينبتُ الحرفَ من حولنا نتعلم كيف نطير ؟!

فالشاعر هنا يملك بالفعل قدرة على التخيل والتعبير ، وهو صاحب رؤية ، لكنه يخلق عالما شعريا يشذ كثيرا عن النسق المألوف . . . فهو حين يقول : « غصة في مواسمنا - هذه الهدأة المستقاة - كنومتنا » ، يأتي أولا بالمشبه به (غصة) قبل المشبه وهو (الهدأة) . ثم يأتي بتشبيه آخر حين يشبه الغصة (بالنومة) . وهذه سمة لازمة عنده ، وهي الاكثار من التشبيهات غير المؤتلفة لمشبه واحد مثل : « جسد كاشتعال التيقظ أو كانطفاء النعاس ».

والتركيب في بناء الصورة عنده لا يقتصر على التشبيه فقط ، وإنما يتعدّاه الى الصور الاستعارية مثل : « التوجس يشعل بابي ، ويرمي الندى » .

والغموض نسبي الى حد ما في هدا المقطع . . وإنْ كان هذا لاينفي أن الشاعر يوحي لنا بذلك الغموض - أحيانا - مع عنوان القصيدة مثل (أنا / هو . . ملامح / مرايا) .

ويصل الغموض إلى درجة أبعد عند على الشرقاوي منذ هذا العنوان الغريب جدا الذي سمي به أحد دواوينه « المزمور (٢٣) لرحيق المغنين شين » . كما تطول القصيدة عنده - وعند غيره - طولاً مغلقا لا مبرر له . كما نجد في قصيدة « الطين »[٢٢] . فالقصيدة عبارة عن أجزاء متناثرة يصعب تصور وحدة تخيلية لها .

وهذا التعقيد في التركيب نجده - أيضا - عند علوي الهاشمي - واذا ما تجاوزنا العنوان المتكلف للقصيدة ، وهو (الرحيل في خضرة النار) . . فسوف نجد أيضا أن الشاعر يستخدم طريقة الكتابة بين القوسين ، ليشير بها الى أن هناك اكثر من مستوى تشكيلي في بناء القصيدة .

« أخط لكِ الشِّعر . .[٢٣]

(أسحبُ عنقي على شفرة الخنجر . الآن يلمعُ موتي على حدِّه الحزنُ

يلسع قلبي) .

وأنتِ هناك على طرقاتِ البلاد البعيدة

(أقبِّل موتي

وأعشق كل الذين يموتون قبلي وبعدي

وأحرقُ تاريخ صمتي)

وأتبعُ عينيك . . أتبع خطوك . . أتبعك ، انتظري . . »

---

(٢٢) علي الشرقاوي . المزمور (٢٣) لرحيق المغنين شين ط دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٣ ص ١٧ .

(٢٣) علوي الهاشمي . العصافير وظل الشجرة ط الشركة العامة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٥

فهذه الطريقة في استخدام الأقواس بشكل مزعج طوال القصيدة . . لافائدة منه ولا جدوى له . بالاضافة الى أن نسيج القصيدة ـ سواء ما كان منه بين قوسين أو بدونهما ـ يحتاج الى اغراق في التأويل حتى نلم شتات قصيدة مبعثرة .

وقد وقف عند هذه الظاهرة ـ ظاهرة الغموض ـ في شعر الخليج بعض من تصدوا لدراسته مثل ماهر حسن فهمي ، الذي يقول : « أدرك الشعراء الشباب دور الغموض وقيمته الفنية في تقديم القصيدة الحديثة ، وطمعا منهم في بناء قصيدة غامضة : تكلّف بعضهم ، وخان بعضهم قصور لغوي لعدم تمكنه من أساليب اللغة أو لقلة التجارب ، وطمع آخرون في تحقيق كسب سريع ، فكتبوا الشعر قبل أن تنضج لديهم التجارب الشعورية وتنضج الأفكار . ومن الطبيعي أن تأتي القصائد في مثل هذه الأحوال مغلقة ، وبدلاً من أن يكون الغموض سببا في نجاح القصيدة وثرائها ، يصبح عاملا من عوامل التعقيد ، وتأتي قصائد الشعراء معتمة مستعصية على الادراك »(٢٤) .



٣ ـ ٤ ـ النثرية في التشكيل :

إن لكل نوع أدبي سمته الفارقة في الإبداع . . فاذا جاز للكاتب القصص ـ أحيانا ـ أن يفيض في الوصف والسرد وحشد الجزئيات والتفاصيل ، فان الشاعر مطالب ـ دوما ـ بأن يحلّق مثل النسر ، وأن يعتمد على التركيز والتكثيف والعمق . . ومن هنا تأتي ضرورة (المجاز) في الشعر . إن لغة الشعر لغة خاصة خارجة عن المألوف ، وتتسم بالعمق والتكثيف في آن واحد . ومع ذلك نرى بعض شعراء الخليج يميلون الى قدر من النثرية في تشكيل مقاطع القصيدة . كما نجد في هذا الجزء من قصيدة « أغنيتان للحروف المحترقة » للشاعر محمد الفايز :

« يارحلة الأعصابِ في الشرقِ الحزيْن(٢٥)
شرقِ الرجال القاطنينْ
بحدائق العنقاء . والجدران تنسفها العيون
الحاملاتُ الفجرَ في آماقها . والسائحون
يتحدثون عن السجاجيد القديمة ، عن حذاء
صنعته جاريةٌ من الشرق القديم
عن مُدية تركية
عن كنزِ مقبرة يقال :
حفارها قد كان ينحتُ من جماجمها
مباخرَ للنساء
عن زوج أقراط وفضية معضد . والذكرياتْ
هل كلُّ ما ورثته « لولوة » عن أبيها حين مات
فليشربِ الأعرابُ ماء البئر ، وليتسكع المتسكعون
في كل منعطف ودهليز . ويا صدأ الحديدْ
كلماتنا انتحرتْ على صنمٍ وجيدْ » .

فهذه التفاصيل السردية الكثيرة ، لا تلائم جوهر التجربة الشعرية ، فالشعر لا يتحمل الثرثرة مطلقا ، والشاعر حين يشكل مقاطع قصيدة بمثل هذه التفاصيل المشتتة فإنه يزهق روح قصيدته . ومن المعروف أن محمد الفايز بدأ كاتب قصة (؟!) وعندما تحوّل الى الشعر ، لم يستطع ـ فيما يبدو ـ أن يتخلص من هذه الثرثرة النثرية في بناء بعض أجزاء قصيده . وهذه السمة موجودة على نحو ما عند بعض شعراء البحرين ، الذين يغرمون بتطويل القصيدة وحشد كثير من التفاصيل في مقاطعها ، واحداث قدر من التركيب والتوليد والتصنّع في بناء الصورة الشعرية .



(٢٤) ماهر حسن فهمي . قضايا في الأدب والنقد ط . دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٦ ص ٢٢٠

(٢٥) محمد الفايز : النور من الداخل ص ٥١ .

٣ ـ ٥ ـ غياب الموسيقا :

من أشد الظواهر السلبية خطورة عند بعض الشعراء الأخطاء العروضية الفادحة التي تنتشر في تجاربهم بشكل مزعج . واكثر الشعراء ترديا في الأخطاء العروضية بعض أصحاب الشعر (الحر) ، ولا سيما الراغبين منهم في استخدام « التدوير » واستباحة كل الرخص العروضية ، لذلك نجد بعض الشعراء يقدمون تجارب فجّة تخلو من الموسيقا ، وتفتقد سلامة الوزن وأحيانا صحة التركيب .

وسامح الله « الأخفش » الذي أضاف الى عروض « الخليل بن أحمد » وزنا جديدا سماه « المتدارك » ، وهو يتكون من ثماني تفعيلات من (فاعلن) . وهذا الوزن يستخدم تاما ومجزوءا . . كما انه يأتي على عدة أضرب ، وتتحول تفعيلته من (فاعلن) الى (فاعلاتن) و(فاعلان) و(فعلن) أحيانا .

وقد توسع كثير من شعراء الشعر الحر في توظيف هذا البحر بأضربه المختلفة . . كما استعملوا بحرا آخر سهل الاستخدام ، وهو بحر « الرجز » ـ الذي يسميه بعض العروضين « حمار الشعراء » لسهولته ويُسره . . كما أنه « حمّال » لكثير من الأوجه العروضية التي يمكن أن تتحول اليها تفعيلته الأساسية ، وهي (مستفعلن) التي تتحول إلى أكثر من ضرب . كما أن هذا البحر يجوز معه تغيير قافية كل بيت . ويعوّض عن ذلك « بالتصريع » بين شطريْ البيت .

ومن المعروف ان شعراء الشعر الحر يميلون كثيرا إلى توظيف البحور « واحدة التفعيلة » التي تسمى أيضا « البحور الصافية » . . لكن **هناك فرق بين اليُسر الذي تسمح به البحور الصافية وسوء الفهم لقواعد العروض .** إن (الوزن) هو الحد الأدنى الجامع المانع ، الذي يحول الكتابة إلى شعر . . . وبدونه لا يكون هناك شعر بالمرة . . وإنما يكون هناك عبثٌ واستهتار . ولا أريد أن أسمّي بعض من يمثلون هذه الظاهرة . . لأن هذا العيب الخطير لا ينبغي أن يقع فيه أي شاعر أو أية شاعرة . !!

ومن الأمور غير المبررة أيضا عند شعراء الشعر الحر . . الاهدار الشامل للقافية . إن رواد هذه الحركة الجديدة لم يتخلصوا من القافية تخلصا مطلقا . . وإنما نوّعوا في طريقة الاستخدام ، وظلوا محافظين على القافية بشكل ما ولكن بعض الشعراء الشبان والشابات يهدرون القافية إهدارا تاما مع سبق الاصرار . ونسوا أن للقافية وظيفة جمالية بالنسبة للموسيقا . والموسيقا هي الشرط الأول للشاعرية .

وبالمناسبة ـ أيضا ـ فإنني أرفض بعض المحاولات الأدبية تحت ما يسمى بـ « قصيدة النثر » . فهذا النوع (المحايد) من الكتابة يرفضه عالم الشعر وعالم النثر على حد سواء . من هنا أكرر قول الحطيئة :

الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سلمُه
إذا ارتقى فيهِ الذي لا يعلمُه
زلتْ به إلى الحضيض قدمُه
يريدُ أن يعربَه فيعجمه

وفي نهاية الحديث عن السلبيات التي وقع فيها بعض شعراء الخليج . . أقول إن بعض هذه السلبيات موجودة عند شعراء آخرين في الوطن العربي . فمثلا ظاهرة الغموض في الشعر موجودة عند أدونيس وعفيفي مطر وبعض شعراء المغرب العربي . ولكن الحديث هنا عن البيئة الخليجية ، لذلك فإن تفاعل الشاعر مع بيئته ، وتفاعل البيئة بكل أبعادها معه ، كانت المهاد الذي أنبت هذا الثمر . اغتراب الانسان الخليجي وإحساسه

بأنه يعيش في بيئة سريعة التغيّر ، ويعجز عن فهمها ، وتعجز عن فهمه[٢٦]

وأياً ما كانت المبررات التي يمكن أن تلتمس لبعض الظواهر السلبية في شعر الخليج . فإن ذلك لا يجيز مطلقا الغموض والنثرية وضعف الأدوات اللغوية والعروضية . وأنا عندما أسمع شعرا يعكس بعض هذه العيوب الفنية الواضحة أستعيد قول أحد النقاد القدماء : إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل . !! .



٤ ـ المبحرون مع رياح العروبة

الافتتاحية والمنظور :

هذه قراءة في شعر خليفة الوقيان . . الشاعر الكويتي ، الذي صدرت له مجموعتان هنا : « المبحرون مع الرياح » (١٩٧٤ م) ، و « تحولات الأزمنة » (١٩٨٣ م) . وعلى هذا فهو شاعر مقلّ ، لا يحب الثرثرة ، ويتهيب الدخول إلى محراب الكلمة ، إذا لم يجد ما يقوله .

والوقيان حين تدخل عالمه تدرك منذ الوهلة الأولى أنه شاعر عربي القلب والملامح . . وأعني بـ « العروبة » ـ هنا ـ أنه واعٍ بتقاليد الشعر العربي على مستوى : سلامة الكلمة . . وصحة التركيب . . وإشراق العبارة . . وجلاء الموسيقا . . ووضوح الفكر ، هذا بالاضافة إلى أنه (ملتزم فكريا) بقضايا القومية العربية . وبحكم كونه من الكويت الشقيق ، فإن أسخن قضايا العروبة عنده هي : قضية الصراع العربي ـ الفارسي . . أو « الشعوبية الجديدة » ، التي تهدد أمن العراق ودول الخليج العربي معا !!

ولا شك أن هذا الالتزام القومي هو الذي دفعه لكي تكون رسالته للماجستير « القضية العربية في الشعر الكويتي » (١٩٧٧) . والوقيان يؤكد في شعره أكثر من مرة عبر نسقيْ الشعر المعاصر (العمودي والحر) هذا الالتزام القومي ، فيقول[٢٧] :

لي في الخليج همومٌ ولو أحمّلها
« رضْوَى » لناءتْ بها هاماتُه سأما
نارُ المجوس بأرض الطُهْر موقدةٌ
وليس تَشهدُ « مهدياً ومعتصما »
لو سار « أحمد » في أنحائها لشكا
من عجمةٍ واغترابٍ سحنةً وفما

ويختم القصيدة متحسرا بقوله :

كأنني أبصرُ الايوان ثانيةً
يطلُّ فوقَ خليج العُرْب مُبتسما

فالشاعر يوضح أن همومه ـ في الخليج ـ ينوء بحملها جبل « رضوى » بالحجاز ، وأن أطماع الفرس ـ الذين كنّي عنهم بالمجوس ـ تشتعل بأرض العروبة (لاحظ الاستعارة) ، ولكنها مع ذلك لا تجد من يطفئها مثلما أطفأها قادة عظام مثل « المهدي والمعتصم » . ويشير إلى أن المتنبي « أحمد بن الحسين » لو مشى هذا الجزء يضمّن المعنى الذي ذكره المتنبي من قبل حين وصف « شعب بوّان » في معرض مدحه لعضد الدولة بن بويه ، حيث يقول : [٢٨]

مغاني الشِّعْب طيبًا في المغاني
بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ
ولكن الفتى العربيُّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

(٢٦) ماهر حسن فهمي : قضايا في الأدب والنقد ص ٢٨٠

(٢٧) خليفة الوقيان · تحولات الأزمنة ط . دار العروبة ، الكويت ، ١٩٨٣ ص ٤٢

(٢٨) أبو الطيب المتنبي · ديوان المتنبي ط المكتبة الثقافية ، بيروت ص ٥٤١

وفي قصيدة أخرى من الشعر الحر - (سماها « تحولات الأزمنة » ، أي أن زمان المجد العربي قد توقف ليحلّ محله زمان المجد الفارسي !!) - يؤكد هذه الريبة . . وذلك الخوف من التحول(٢٩) :

« هنيئاً لثوارنا
في ثغورِ العواصمْ
يقيمون صرحًا
من الخزف الفارسيّ المنمق
يبوسُون كل اللّحى والعمائم
يسلون سيفَ الكرامات
والمعجزات
يعيدون مجدَ الرقى والتمائم
يصلون في معبدِ النار
يمشون في ركب « ماني »
ليوم الخلاص
يديرون في حفل « قورش »
نخبَ الهوى البابلي المعتّق .

وهكذا نجده مستشعرًا بقوة خطورة الصراع العربي الفارسي ، ومؤكدا خطورة الموقف وتردى الحال ، حتى لا يعود عصر « المانوية » (الوثنية) ، ويشرب المنتصرون الأعاجم من أتباع « قورش » نخب الانتصار على « بابل » (العراق) .

نتيجة لهذا كله رأيت - أن (المنظور القومي) هو المفتاح الأساسي لدراسة شعر الوقيان على مستوى : الموقف الفكري والأداة الفنية ، لذلك جعلت عنوان الدراسة « المبحرون مع رياح العروبة » .

مع الديوان الأول :

يحدد العمل الأول - في الغالب - نوعية الموهبة الأدبية لصاحبه ، كما يؤذن ببيان المحاور الفكرية والفنية التي يدور حولها إبداعه . وانطلاقا من هذه المقولة نتوقف عند الديوان الأول للوقيان ، وهو « المبحرون مع الرياح » . ولعل أهم خطوة تساعدنا على فهم ماهية الشعر وأدواته عند الشاعر ، هي أن نحاول معرفة (الفلسفة الفنية) التي يصدر بوعي منها شعره . إن كل شاعر - في أدبنا الحديث - ينتمي بالضرورة إلى فلسفة أدبية لمذهب من المذاهب الكبرى ، وهي : الاحياء والرومانسية والواقعية . وتحديد هوية هذه الفلسفة يساعد على تفسير كثير من جوانب العملية الابداعية . ومَن نافلة القول التأكيد على أن تحديد الفلسفة الأدبية للشاعر ليست إدانة له أو إشادة به أو مصادرة لخصوصية تجربته وسمات تميّزه .

والملمح الذي يطالعنا به الوقيان من خلال ديوانه الأول أنه شاعر (رومانسي) ، يحلّق في المجالات الأساسية للانسان الرومانسي الذي يؤمن بالحب المثالي ، ويعاني من الغربة والقلق ، ويتوحد مع الطبيعة . . ويعبّر عن ذاته بأكثر مما يعبر عن الآخرين(٣٠) . ولا ينفي هذه الحقيقة ماقد يشير إليه العنوان من إيحاءات جانبية ، فقد نظن منذ الوهلة الأولى أن المبحرين مع الرياح . . هم الصيادون من أبناء الخليج . وقد يوحي هذا بالتالي أن الديوان أقرب إلى الواقعية منه إلى الرومانسية . ولكن شتان بين الموضوع وطريقة التناول في الأدب . فأي موضوع صالح لأن يعبّر عنه من خلال أية فلسفة فنية .

(٢٩) تحولات الازمنة ص ٢١
(٣٠) لمزيد من التفصيل عن الرومانسية والشعر يراجع
- طه وادي : شعر ناجي : الموقف والأداة ط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢
- محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية ط . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

وبناء على هذا يصبح المحور الأول في تجربة الوقيان في هذا الديوان هو : التعبير عن الحبّ والتغنّي بالمحبوب . وشعر الحب عنده ـ كما عند غيره من شعراء المدرسة ـ يحلق في عالم الخيال ويهوّم في سماء المُثل ، لذلك يتمنى أن تكون المحبوبة على هذه الصورة المجنحة(٣١) :

أحبكِ شيئا يفوقُ الخيالا
يبدُ في ناظريّ المُحالا
وحلماً يرفُّ على كل جفن
ويأبى إذا مادنا أن يطالا
أريدك سرًّا ، ولستُ أريدُ
لسّرى بين الورى أن يقالا
وأهوى بعينيكِ ألفَ سؤالٍ
لأني عشقتك يوماً سُؤالا

ومما يؤكد أن هذا المجال (العاطفي) محور أصيل في إطار تجربته ، أنه يتجلى بشكل بارز في ديوانه الثاني ، وهو يتغنّى بهذا في أكثر من قصيدة ، من ذلك على سبيل المثال قوله مناجياً الحبيبة الغضبى في قصيدة « عتاب »(٣٢) :

ربةَ الحسن والعتابُ يطولُ
واشتياقي أليك ثقيلُ
أنتِ لي فكرةٌ ومعنىً جميلٌ
وحديثُ المحبّ ما لا يقول

وتظل أشواق الشاعر مبعثرة حتى آخر قصيدة في الديوان ، فيناجي المحبوبة مناجاة أقرب إلى الرجاء والتضرع قائلا(٣٣) :

خُذيني إلى عينيك شوقًا مبعثرا
وأشلاءَ أحلامٍ ووهماً مُصوّرا
ولا تجعلي بيني وبينك ومضةً
تطيبُ بها اللقيا عتاباً مكررا
لعلى مشتاقٌ ولكن لساعةٍ
فما ضرَّ لو طال اللقاءُ ، وبكّرا
ولا تسأليني في غدٍ كيف نلتقي
كفى أن أراكِ اليومَ أمرًا مُقدّرا

هذا هو المجال الأول الذي تتجلى فيه شاعرية الوقيان ، ويبدع فيه أعذب تجاربه . وقد تركت هذه النظرة الرومانسية الواضحة بصمات إنسانية مختلفة على كل المجالات الأخرى في شعره .

وغير أن الانسان الرومانسي ـ في الحقيقة والفن ـ ينشدُ خيالاً مجنّحا في واقع موحل ، ويتمنى حياة رغدةً في غابة شوك .. لذلك سرعان ما يرتدُّ حيرانَ أسفا . والحيرة والوحدة والأزمة حين تأخذ بتلابيب الرومانسي ، لا تجعله يفكر في العودة إلى الناس .. إذ كيف يعود إلى من « حطّموا تاجه وهدوا معبّده » ـ كما يقول إبراهيم ناجي ، لذلك يفر بعيدًا عن الناس ، ويستسلم لمشاعر « الغربة والقلق » . وهنا نصل إلى المحور الثاني في شعر الوقيان .

الغربة والقلق :

تُشكل هذه الوحدة الدلالية مجالاً يوازى المجال السابق من حيث السيطرة على مخيلة الشاعر . وهذا المحور الانساني الحزين عند شعراء الرومانسية يصورهم في صورة كسيرة الخاطر ، جريحة الفؤاد ، مهيضة الجناح . والشاعر يؤكد هذه الخواطر الحزينة في قصيدة « عودة المغترب » التي يقول فيها(٣٤) :

لملمتُ بقيا شراعاتي وأجنحتي
وعدتُ من رحلةٍ للغيب مغتربا

(٣١) المبحرون مع الرياح .. قصيدة « خيال » ص ١١٣ .
(٣٢) تحولات الأزمنة ص ١٣٨
(٣٣) تحولات الأزمنة ـ قصيدة « أشواق مبعثرة » ص ١٤١ .
(٣٤) المبحرون مع الرياح .. ص ٢٣

صحبي على الدربِ أحلامٌ مشردة
أطعمتُها الشك والأشواق والنصبا
أبحرتُ من أفقٍ داجٍ إلى أفق
معفّرٍ بشعاع الشمس ما خُضبا
تنأى بقبته الأقمارُ يتبعها
ساعٍ تلفعَ من ثوب الدجا سُحبا

ويستمر الى أن يقول :

فإنني لم أزل من غصةٍ كبدا
في كل مفترق أشقى به سلبا
مضيعٌ أنا مُذ أسلمتُ أشرعتي
لكل عاصفٍ شرقٍ جُنّ واضطربا
وما ترحلتُ من شوقٍ إلى سفرٍ
لكنَّ بي عطشا للنور مغتصبا

والرومانسي لا يمل من تصوير هذه المشاعر الحزينة ، التي تكتشف له عما في البشر من زيف وخداع ، لا يتلاءمان مع ما يحمل من طهر ونقاء ، كأنما الحياة قد صارت مسرحاً لعبث ، لا تنتهي مشاهده . وهذا بعض ما توحى به قصيدة « زيف » التي يقول فيها(٣٥) :

حيثما قلبتُ طرفي لا أرى
غيرَ زيفٍ عشيتْ منه العيونْ
ووجوهٍ مسخَ العارُ بها
عاره من خجلٍ في العالمين

من هنا يلحُّ الرومانسي ـ دوما ـ على التعبير عن نفسه بصورة « الحائر الأبدي » .. الذي يبحث في الكون « عن ثقب من رجاء » (كما يرى ناجي) ، ولكن الحائر تزداد باطراد حيرته ، فيعاوده الاغتراب المبكى .. والقلق المشجى ، كأنه (منفى) يحمل صليب أحزانه أينما سار . ويعبّر الشاعر عن بعض هذه المعاني في قصيدة « غربة » قائلا (٣٦) :

غريب إن مضيتُ وإن أتيتُ
وناءٍ إنْ دنوتُ وإنْ نأيْتُ
أُقلبُ في وجوه الناسِ طرفي
وأسألُ في الدروب إذا مشيتُ
وكلٌّ يبتغي في السيْر قصدًا
وأسعى لستُ أعرفُ ما ابتغيت
كأني واقفٌ والدربُ حولي
يموجُ بأهله أنّي مضيت
يمزّقني إلى ما لستُ أدري
حنينٌ من لواعِجه اكتويت
ويعصفُ بي شتاءٌ من ضياعٍ
كناءٍ ما له في الأرض بيتُ

وهكذا يحس الرومانسي المأزوم أنه أمسى « سراجا ما به في الليل زيت » . وجميل أن تأتي هذه الصورة من شاعر يعيش في بلاد النفط .

ويرى إبراهيم عبدالرحمن أن الوقيان أسرف « إسرافا واضحًا في تصوير معاناته من واقعه ، وغربته بين قومه في قصائد عديدة (٣٧) . ولكن القضية ليست قضية إسراف في التعبير .. إنما الحقيقة أن هذه فطرة الرومانسي ، **فهو حين يخفق في عاطفته الذاتية ، يحاول أن يغلف أحزانه الخاصة برؤية عامة لكثير من مشكلات المجتمع وقضايا الكون ، ومن ثم تتحول هذه الرؤية الحزينة العامة إلى حالة سخط عاطفي غير مبرر أحيانا ـ وهذه** سمة لا تقتصر على شاعر رومانسي دون سواه . غير أننا نجد الوقيان يحاول ـ أحيانا ـ أن يربط بيت الأحزان الخاصة والعامة ، ويستشرف الأمل حلما رومانسيا مشرقا

(٣٥) المبحرون مع الرياح . ص ٣٠
(٣٦) المبحرون مع الرياح . ص ٥٩
(٣٧) ابراهيم عبد الرحمن : بين القديم والجديد ط. مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٧٧

دون تحديد للسبيل الموصلة إليه.. وهذا ما نستشفه في الجزء الأخير من قصيدته « عودة المغترب »(٣٨) :

يـا شـاطيء الأمسِ أشيـائـي مبعثـرةٌ
عـلى الـدروب كـمغـدورٍ قـد اسْتُلِبـا
تـنـاهـبَ الـليـلُ أحـشـائـي وأرّقـني
أن الـصبـاحَ عـلى أشـلائـهـا صُـلبـا
عـلى الخليـجِ مصـابيحي مـهـشـمـةٌ
والقـدسُ من سغبٍ قـد أشبعتْ خـطبـا
فـهـاتِ كـفـك إني عـائـدٌ عَـجِـلٌ
حـتى ألـلم شـيئـاً بـات . منتهبـا
إني عـلى مـوعـدٍ لـلفـجـر تـنـسـجُـه
ضفـافـك الخضـرُ معشـوقًـا ومـرتقبـا

وهكذا يمزج الشاعر بين أحزانه العاطفية الخاصة وأحزان الوطن الخليجي (حيث صارت المصابيح مهشمة) ومأساة الواقع العربي (حيث القدس قد ملت من الخطب والكلام) . ويشير - في النهاية - إلى الفجر (الأمل) إشارة مبهمة . . لا ندري من أن يأتي . . ولا كيف يكون ؟! وتلك عادة الرومانسي وهي : التأرجح بين أقصى المتناقضات . . !!

مع الديوان الثاني :

يؤكد كثير من النقاد أن الشاعر حيث تظهر لديه - في مرحلة تالية - حقيقة جديدة من حقائق الفكر أو الفن . . فإن هذا لا ينفي أنها كانت غير موجودة لديه بقدرٍ ما في عمل سابق . وحين نقرأ الديوان الثاني للوقيان « تحولات الأزمنة » نجد أن القضية (القومية) تبرز فيه بشكل واضح ، منذ القصيدة الأولى . . التي سمى الديوان باسمها . وهذا المجال لم يأت من فراغ وإنما جذوره في الديوان الأول . . في القصائد الخاصة ببيروت وذكرى وعد بلفور ، وعلى هذا تتشكل ملامحه قوية . . لتجاور المجالينْ السابقين : (الحب - والغربة) ، ويصبح هذا المجال هو (القضية) الثالثة الكبرى في شعره .

وهناك قصيدة سماها الشاعر « القضية » إشارة إلى أنها شاغله الأكبر ، خشية أن تأتي مرحلة تتحول فيها الأزمنة لصالح الفرس ضد العرب . وهو يستعير فيها من إهاب التاريخ الاسلامي أقنعة وأسماء كثيرة يضمنها معانيه وأخيلته ، لكي يستثير النخوة في وجدان الأمة ، من ذلك قوله(٣٩) :

وأرى « بـابـك » في الحـفـل سعـيـدا
يحتسي نخبَ انـتـصـارِ الخرميّـة
و « بنـو العبـاسِ » في كـل سـريـرِ
يـعـشـقـون الأرض كـأسـاً وصبـيّـة
يحلبـون الـضـرع إن جـاد وإمـاً
جـفَّ ، يمتـصـون أعـراقَ الـرعـيـة
مـن فـقـير يـعـلكُ الجـوعَ ويُـعـطى
جـشـعَ الـبـحـر عـظامـاً بـشـريـة
جـدُّه كـان عـلى بـاب « بُـخـارى »
في زمـان الفتـح ، في البعـد ، ضحيـة
وأبـوه في صـقـيـع الـليـل يـشْـقَـى
في ثـغـور « بـسـجـسـتـان » قـصـيـة
و « بنـو العبـاس » في أحضـانِ « يحيى »
كـالـدُّمَى تسقى الكؤوس « البـرمكيـة »
فـترى العـرشَ بـأجـفـانِ السكـارى
قـائـمـاً بـين الـسـيـوف الأعـجـمـيـة

وتلح على مخيلة الشاعر كثير من المواقف والأسماء التاريخية المستدعاة ، مثل : أوثان الشرك وطقوس الوثنية - بابك الخرمي الذي قام بثورة في القرن الرابع الهجري - مدينة بُخارى وثغر سجستان الفارسيتان -

(٣٨) المبحرون مع الرياح . . ص ٢٦ .
(٣٩) تحولات الأزمنة قصيدة « القضية » ص ٤٧ .

يحيى البرمكي . . وزير هارون الرشيد - السيوف الأعجمية - الحسن بن سهل - الفتح بن خاقان - الفضلات الكسروية : نسبة إلى كسرى أنو شروان - الفضل بن سيار - خراسان . . التي تقترن كثيرا بأبي مسلم الخراساني - البنود العلوية .

كل هذه الرموز الفارسية في مقابل بعض رموز أخرى عربية . . لكي تقوى حدة الصراع القومي مثل : خلفاء بني العباس - الجموع اليعربية - غضبة مضرية - العروش الأموية .

ويوضح الشاعر في النهاية أن إظهار القضية في شكل الصراع بين السنة والشيعة أمر حقيقي . . لأن القضية في حقيقتها - كما يذكر الشاعر - قضية صراع بين الحق والظلم :

همهمُ أن يعمرَ البغيُ وما من .
شأنهم نشرُ البنود العلويّة

والشاعر يعبر عن هذه القضية القومية من خلال النسقين العمودي والحر . ومما تشير إليه « المذكرة التفسيرية » التي افتتح بها الديوان ، وسمّاها « وجهة نظر » حين يقول :

« ونحن لا نلوم الذين يكفرون بطاقات الجماهير العربية ، والذين ينهارون ويشيعون الانهيار ، لأن المشكلة تكمن في ضعف عقيدتهم القومية ، ولكننا نلوم النقد حين يبارك نهجهم المدمّر وقواهم الخائرة »



رسالة الى مخبر بدوى :

لا أستطيع أن أنهى الحديث عن ديوان « تحولات الأزمنة » دون أن أشير الى قصيدة طريفة فيه ، عبارة عن رسالة موجهة الى « مخبر بدوى » . والمخبر . . تلك الشخصية الكريهة يقدم الشاعر لها صورة كاريكاتورية ساخرة ، فهو حين يذهب للاستخبار - متنكرا - يكون باهتا مثل الظل ، جامدا مثل الحائط ، لا يدرى هل هو بعرس أم بمأتم ؟ لذلك يطلب منه - في النهاية - أن يقول لمن أرسلوه ما شاء من أحاديث مفتراة ، ولكن اذا استيقظ ضميره فينبغى أن يقول لهم : إن الخطر الحقيقى - الذى يشبهه الشاعر بتنين غريب . . رمزا للخطر الخارجى - سوف يأتى من وراء البحر ، ليطفىء شمس الحرية ويسرق قوت الأطفال :

« وإذا جئت غدا (٤٠)
كى تسرد القول المرجّم
قل لهم ما شئت
ما شاءوا
وما لم تك تعلم .
قل ، وقل . . حتى ترى للدار
للأطفال ، للصحراء
في جوفك مأتم .
قل . . وقل ما شئت
لكن حين تندم
قل لهم إن وراء البحر تنينا غريبا
همه أن يطفىء الشمس
وأن يسرق من طفلى قوته
قل لهم إن وراء البحر غولا
يتقدم » .

وهذه القصيدة يقدمها الشاعر في صورة تمتزج فيها موسيقا الشعر بتفاصيل القص وحركة الدراما ، لذلك فهى قصيدة جيدة التشكيل ثرية الدلالة ، عميقة الرؤية .

ولكن الأمر الذى أود إثارته بمناسبة هذه القصيدة ، هو : ان الوقيان - مثل كثير غيره من شعراء الخليج المعاصرين - يتنقلون - دون مبرر مفهوم - بين النسق

(٤٠) تحولات الأزمنة . . ص ٦٧

العمودى والنسق الحر . وهذه (الثنائية) تشى - من حيث الشكل على الأقل - أن الشاعر لا يزال مترددا وقلقا في اختيار نسف للقصيدة ، يراه متسقا مع طبيعة تكوينه الذاتية وفلسفته الفنية الخاصة .

والذى لا ريب فيه هو أن (تجاور) المذاهب الأدبية والأشكال الفنية معد بشكل ما . . ونجد هذا التأرجح المذهبى وذلك القلق الفنى عند كثير من الكتاب والشعراء ، لذلك نرى بحكم - تعقد بنية الواقع العربى - هذا التداخل البين . واذا كان من الصعب السيطرة على حركة الواقع . . فإننا نملك - على الأقل - قدرا من حق السيطرة على الأدب والشعر ، ونطمح أن يستقر كل أديب أو شاعر على المذهب والشكل اللذين يراهما متوائمين مع فلسفته وقدراته .



وقفة جمالية :

المبدأ الأساسى في تقويم العملية الابداعية أن الشكل والمضمون يسيران في اتجاه واحد ، سواء ناحية التقليد أم ناحية التجديد . وإذا كان الاطار الفكرى والقالب العمودى (الشكل الغالب في معظم القصائد) يضعان الوقيان في إطار الرؤية الرومانسية ، فإن جماليات الشكل عنده أيضا تتسق وطبيعة ما أنجزته هذه المدرسة على يد أعلام كبار في تاريخ شعرنا الحديث من شعراء المهجر والمشرق على حد سواء .

ويمكن أن نوجز أهم السمات الجمالية لشعر الوقيان - والتى هى في الوقت نفسه سمات عامة لكثير من شعراء الرومانسية - فيما يلى :

١ - العنوان :

لم يكن من المألوف في الشعر القديم أو الاحيائى أن يستخدم الشاعر عنوانا لديوانه أو إحدى قصائده ، فقد كانت القصيدة - في الغالب - يتسع إهابها لأكثر من محور جزئى (أو - غرض) . وفي ظل المدرسة الرومانسية بدأ الشعراء يتخذون (عنوانا) لكل قصيدة . . كما أن لكل ديوان من أعمال الشاعر - أيضا - عنوانا خاصا به . والحرص على وضع العنوان يدل دلالة أكيدة على أن الشاعر يعى أن تجربته تدور حول قضية ما ، لذلك يبرزها في العنوان بشكل مباشر أو رمزى .

فالوقيان يستفتح ديوانه الأول بقصيدة جعل عنوانها عنوانا للديوان كله وهى « المبحرون مع الرياح » . ويتسق عنوان هذه القصيدة العمودية مع مضمونها ، فهى تعبر عن أبناء الخليج الذين كان الصيد رمزا دالا عليهم في مرحلة ما قبل النفط وعند كتابة القصيدة (١٩٧١) . كما أن العنوان لا يخلو من دلالات رمزية تتلاءم مع الرؤية الرومانسية الحزينة التى يعبر عنها الشاعر في الديوان .

وكما استهل الشاعر ديوانه الأول بالقصيدة التى سمى الديوان باسمها يكرر ذلك أيضا - في الديوان الثانى ، حيث يفتتحه بقصيدة من الشعر الحر ، هى « تحولات الأزمنة » ، وينسجم العنوان فيها مع المضمون ومع السمة الغالبة في الديوان كله ، وهى التعبير عن قضية الصراع العربى / الايرانى . . ومحاولة إيقاظ الأمة حتى لا تتحول الأزمنة ، وحتى لا « تغتال اسماءها الأحرف اليعربية / تُستبدل الضاد / تجتث أعراقها الأبجدية / يشكو « الايادى » عدل الامام « ابن شروان » .

ومن الملاحظ في هذا الجزء أن الشاعر يتخذ لنفسه قناع الشاعر الجاهلى « لقيط بن يعمر الايادى » ، الذى سبق أن حذر قبيلته « إياد » عندما كان بأرض « الحيرة » في العراق ، وعلم أن الفرس يعدون العدة لغزو قبيلته ،

فأرسل يحذرهم في أكثر من قصيدة . . ويقول في إحداها (٤١) :

أبلغْ إيادا وخلّلْ في سراتهمُ
إنى أرى ـ الرأىَ ـ إن لم أُعْصَ ـ قد نصعا
يا لهفَ نفسى إن كانتْ أموركُمُ
شتّى ، وأُحكِم أمرُ الناسِ فاجتمعا



٢ ـ الصورة الشعرية :

الصورة الشعرية في إطار مدرسة الاحياء قريبة الى حد كبير من أنواع البيان والمجاز التى أشارت اليها كتب البلاغة العربية ، لذلك تسمى أحياناً « الصورة البيانية » نسبة الى علم « البيان » ، الذى يدور في إطار موضوعات أربعة هى : المجاز المرسل ـ التشبيه ـ الاستعارة ـ الكناية .

وقد تجاوزت الصورة لدى الرومانسيين إطار البلاغة التقليدية ، وصارت أكثر تركيبا وتعقيدا وتوليدا . . وتعتمد على مصادر معنوية في التشكيل ولم تعد زينة شكلية لتجميل المعنى ، وإنما أصبحت تمثل المعنى نفسه . . أى أنها تؤدى المعنى جميلا . . أو تقدم (المعنى ـ و ـ الجمال) في تركيب واحد . وهذا الجزء من قصيدة « خيال » يوضح ـ الى حد ما ـ كيف تجدد بناء الصورة عند الشاعر الرومانسى :

أريدك نورا يدومُ ويبقى
إذا كل حىّ على الأرض حالا(٤٢)
وبدرا يمزّق وجهَ الليالى
يشعُّ على الكون، إمّا تعالى
وشمسا تطل على كل صوب
تعافُ الأفولَ وتأبى ارتحالا
ولحنا يمرُّ على كل ثغرٍ
وليس يُمل إذا ما توالى
أريدك شيئاً بعيدا بعيداً
يحاذرُ أن يُجتنى أو يُطالا

فالشاعر هنا يقيم خمس صور من التشبيه البليغ ، وهى : أريدك : نورا . . وبدرا . . وشمسا . . ولحنا . . وشيئا ، لكنه يفصل ويولد في كل منها ، كما أنه يبدأ من معنى مألوف ليصل به الى صورة غير متحققة في الواقع ، فنحن مثلا نعرف (النور) . . لكن أى نور ذلك الذى يبقى بعد أن يتحول كل حى على الأرض . . ثم أى (بدر) ذلك الذى يمزّق (وجه الليالى) . . والليالى هنا رمز للآلام والأحزان . . ثم أى (شمس) تلك التى تكره الغياب وترفض الرحيل . . وأى (لحن) ذلك الذى يمر على كل فم ولا يُمل اذا توالى وتكرر ؟!

كما أن هذه الأبيات تشير الى شىء جديد في تشكيل الصورة قائم على فكرتى الالحاح ، والمزج بين العناصر المتباعدة أو المتناقضة ، كما نجد بين المرئى (النور) والمسموع (اللحن) ، وبين المعنوى النور والمادى (أريدك شيئا بعيدا . .) .

ومبحث « الصورة » عند الشاعر الرومانسى يعدّ من أهم المجالات ، لأنه طور في طبيعتها وطريقة تركيبها ووظيفتها . . لأن الرومانسية تعتمد على الخيال المجنح على كل مستويات العملية الابداعية ، ذلك أنه « نتيجة

(٤١) ديوان لقيط بن يعمر الايادي ، تحقيق عبد المعين خان طه . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٣٥ .
(٤٢) المبحرون مع الرياح . . ص ١١٦ .

لانطواء الرومانسى على نفسه ، وطغيان شعوره وعاطفته أن يضيق ذرعا بعالم الحقيقة ، فيطلق لنفسه العنان في أحلام يعوض بها ما فقده في عالم الناس من حولـه ، ووجد في هذا الانطلاق إشباعا لآماله غير المحـدودة » (٤٣) .

٣ ـ سهولة المفردات :

كانت المفردات اللغوية في حد ذاتها مطلبا جماليا عند شاعر الاحياء ، لأن الاحياء كـان فلسفة أدبيـة شاملة تنتظم العملية الشعرية برمتها . ولكن نقاد الرومانسية وشعراءها نظروا الى (اللغة) نظرة صحيحة . . ورأوا انها ليست سوى مجرد وسيلة للتعبير عن الذات ، من هنا نزلت اللغة عندهم من برجها المعجمى ، لتصبح قريبة الى حد كبير من لغـة الحياة . فليس ثمـة لغة شعـرية وأخرى غير شعرية ، فكل مفردة يستطيع الشـاعر من خلال السياق أن يهبها قدرة لا تحدّ على الدلالة . وعلى هذا فإن الشعر الرومانسى يمنح اللغة ـ رغم سهولتهـا طاقات دلالية هائلة كما أن لكل شاعر يستخـدمها فى الغالب ـ الاعم ـ بدلالة خاصـة به هـو . . . ومن ثم يصبح لكل شاعر (معجمه الشعرى الخـاص) الذى يهب (الكلمة) دلالات جديدة لم تكن لها فى المعجم أو فى الاستخدام العام .

وهذا المعنى يؤكده الوقيان حين يقول : (٤٤)

إنى لأرفضُ أن أكـونَ صدًى سـواى ، فـلا أكـون
إنى لأكـره أن أقـولَ ، كـما يـقـول الآخـرون

هذا بالاضافة الى أن الرومانسى يعبر عن ذاته . . ولذاته الى حد ما ، لذلك فهو يعبر عن ذاته بلغة مفهومة له .

٤ ـ ثراء الايقاع الموسيقى :

ربط الكلاسيكيون الشعر بالرسم والتصوير ، أما الرومانسيـون فقد ربطوه ـ وهم على حق ـ بـالغناء والموسيقا ، لذلك فإن موسيقا الشعر الرومانسى تبدو ثرية هزجة . ويأتيها هذا الثراء من عدة أمور :

أ ـ المضمون الذاتى الذى يعبر عنه الرومانسى يهب العبارة الشعرية تدفقا معنويا ، أى أن المعنى له دور ما في إبراز الثراء الموسيقى للشعر .

ب ـ مال الرومانسيون بـدرجة كبيـرة الى استخدام (البحور الصافية) . . أو واحدة التفعيلة ، التى توحّد المجموعات الكمية للصوت داخل العبارة الشعـرية ، وهذا ما يبرز ثراء الموسيقا بشكل واضح .

جـ ـ لجأ الرومانسيون كثيرا الى القصيدة المقطعية ، التى تتشكل من عدة مقاطع ، وقد يتكون المقـطع من بيتين أو أربعة أو خمسة . . ومع كل مقطع تتغير القافية ـ التى قد تكون أيضا داخلية وخارجية . ولاشك أن تنويع القافية يلون الموسيقا ، ويجعلها بالضرورة تابعة للمعنى الجزئى الذى يعبر عنه الشاعر في كل مقطع .

وقد حقق الوقيان كثيرا من هذه الأمور في ديوانيه . . وهـو من الشعراء القـلائل في الخليـج ، الـذين يخلوا شعـرهـم من الأخطاء العـروضية واللغـوية . . ويتسم شعره بثراء موسيقى واضح .



٥ ـ الوحدة الفنية :

القصيدة الرومانسية ـ في مجملها ـ تعبير عن الذات الشاعرة . والرومانسى شاعر غنائى بالدرجة الأولى . .

(٤٣) محمد غنيمي هلال . الرومانتيكية ص ٧٣
(٤٤) المجرون مع الرياح . . ص ١٢٥

فكل موضوع ـ إن صح أن ثمة موضوعات في الشعر ـ يعبر عنه من وجهة النظر الشاعرة ومن زاوية (الرؤية الخاصة) لصاحبها . وقد دعا نقاد الرومانسية كثيرا الى ما أسموه (الوحدة العضوية) ، وانتقدوا الشعر الاحيائى من ناحية كونه تشكيلا مزدحما للقضايا (أو ـ الأغراض) التى يحشدها الشاعر في القصيدة .

وقد استجاب شعراء الرومانسية لدعوة نقادهم ـ وبخاصة أن كثيرا من هؤلاء النقاد كانوا شعراء ـ أيضا ـ مثل : عباس محمود العقاد وميخائيل نعيمة وأحمد زكى ابو شادى وإبراهيم العريض وأبو القاسم الشابى وغيرهم . وقد ترتب على مبدأ الوحدة في القصيدة الرومانسية أن صارت أكثر اختصارا عن القصيدة الاحيائية ـ التى كانت تطول بدرجة واضحة (كما نجد عند محمود سامى البارودى وأحمد شوقى ومحمد الجواهرى وعبد الجليل الطباطبائى على سبيل المثال) . ولا نبالغ إذا قلنا إن القصيدة الرومانسية ـ من حيث الطول ـ أشبه بالقصة القصيرة بينما الاحيائية أقرب الى الرواية .

نتيجة لكل ما سبق ـ كانت القصيدة عند الوقيان ـ كما هى عند غيره من شعراء المدرسة ـ ذات وحدة فنية على المستويات كافة منذ العنوان حتى الكلمة الأخيرة في نهاية القصيدة . ومعنى هذا أن هناك وحدة تربط كل عناصر البناء الشعرى من حيث التركيب والصوت والدلالة .



هذه هى السمات العامة التى تميز شعر الوقيان في إطار شعراء الخليج المعاصرين . ومن عجب أنه مقل جدا مع أنه يمتلك أدواته الفنية بشكل جيد . . كما أنه صاحب رؤية ملتزمة : تشكل الحلم القومى وتحتضن الانسان العربى من أجل غد أفضل .

أيها الشاعر المحلّق

عُدْ الى ساحتك . . فقد طالتْ غيبتك . !!

* * *

تأثير "ألف ليلة وليلة" على الأدباء الروس في القرن التاسع عشر

دراسة تحليلية لبعض الأعمال الأدبية عند أ. أ. كريلوف (ل. ن. تالستوي)

نادية سلطان

يعتبر الأدب جسرا راسخا تلتقي فيه الثقافات المختلفة ، حيث يمكن أن يتم من خلاله التعرف على مظاهر الحياة المتنوعة للشعوب سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، بالإضافة إلى التعرف على تقاليدها وعاداتها . فالأدب مرآة حقيقية تعكس حياة الشعوب متضمنة مدى تقدمها وازدهارها أو مدى تأخرها واضمحلالها ، وهو ـ أيضا ـ يساعد على تبادل الفكر بين شعوب العالم في مختلف بقاع الأرض ، ولا جدال في أن تلاقي الثقافات القديمة من يونانية ورومانية وهندية وعربية إسلامية وما تم فيما بينها من أخذ وعطاء ، انعكس في آداب الكثير من الشعوب على مر العصور لثراء مضمون هذه الثقافات وسعة معينها ولا تزال بصماتها ظاهرة بشكل واضح في أعمال الأدباء والفنانين ، وستبقى تلك البصمات طالما بقي الإنسان في محاولته للخلق والابداع .

وللثقافة العربية دور مهم في تطور الآداب الأوربية الغربية بجانب الآداب الشرقية ، في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وتمتد جذور الثقافة العربية التي أثرت في الآداب الأوربية إلى الإنجيل والقرآن من ناحية ، وإلى الشعر والنثر العربي بكل ضروبه ولا سيما موضوعات مجنون ليلى وعنترة بن شداد وألف ليلة وليلة وغيرها من ناحية أخرى . كما أن تأثير الحضارة العربية الإسلامية قد تغلغل في مناطق كثيرة مع الفتح الإسلامي وما صاحبه من نشر لمقومات الثقافة العربية ولغة العزب .

وكانت قصص الليالي بالنسبة لبعض المستشرقين من بينهم سينكوفسكي وكذلك لكبار كتاب روسيا في القرن التاسع عشر أمثال كريلوف وجوكوفسكي وبوشكين وتورجينف وتشرنيشفسكي وليف تالستوي مصدرا لبعض مؤلفاتهم حيث أمدتهم بعالم وافر من الشخصيات والحوادث والمناظر .

ويجدر بنا أن نلقي الضوء على تأثير بعض الأدباء الروس في القرن التاسع عشر «بألف ليلة وليلة» من خلال التحليل الفني لعدد من مؤلفاتهم، وتحديد أوجه التأثير سواء كان هذا التفاعل مباشرا أو غير مباشر باستخدام الشعر الغنائي الرقيق، والأسلوب الشرقي المنمق، والخيال والهجاء، والسخرية التي تهدف الى تهذيب الصغار والكبار على السواء، وكذلك عالم السحر الخارق والبذخ الشرقي بوجه عام وبساطة الشرق وسحر لياليه. الواقع أن «ألف ليلة وليلة» قد أثرت على عديد من الكتاب الغربيين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، جوته وشيللر في المانيا، وشينيه وفولتير في فرنسا، وبايرون الذي لم يكن الوحيد من بين هؤلاء الكتاب الإنجليز الذين قرأوا «ألف ليلة وليلة» بنهم وقد أفصح عن ذلك قائلا «لقد قرأت «ألف ليلة وليلة» دون أن أبلغ العاشرة من العمر»[1]. أما والترسكوت فأكد أنه «يعرف القليل عن الشرق، إذا لم يضع في الحسبان ذكريات طفولته عن قصص ألف ليلة وليلة»[2] أما الشاعر أ. تينسون فكان من أبرز الأبطال المفضلين لديه شخصية هارون الرشيد تلك التي أوحت له بقصيدة «ذكريات ألف ليلة وليلة». كما أثرت «ألف ليلة وليلة» في أدب الأطفال ـ أيضا ـ فها هو هانز أندرسون الدانمركي كاتب قصص الأطفال، والتي ترجمت مؤلفاته إلى كثير من لغات أوربا يقول عنه مؤرخوه أن «أدبه نبع مما كان يقصه عليه أبوه. ومما قرأه في ألف ليلة وليلة»[3].

بيد أن مؤلف «ألف ليلة وليلة» اعتبر في بادىء الأمر كمادة للتسلية والتشويق وقد عبر عن ذلك الدكتور طه حسين حينما قال «هذا الكتاب الذي خلب عقول الأجيال في الشرق والغرب قرونا طوالا، والذي نظر الشرق إليه على أنه متعة ولهو وتسلية، ونظر الغرب إليه على أنه كذلك متعة ولهو وتسلية ولكن على أنه بعد ذلك خليق أن يكون موضوعا صالحا للبحث المنتج والدرس الخصب»[4] لما يتضمنه المؤلف، كما نعتقد، من موضوعات ذات اتجاه ديني وأخلاقي وتاريخي، هذا بجانب النقد الاجتماعي.

وقبل أن تتعرف روسيا القيصرية على مؤلف «ألف ليلة وليلة» وصلت إليها نماذج من القصص العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عن طريق الدولة البيزنطية. إذ كان لها الفضل العظيم في تصدير الثقافة المترجمة إلى روسيا القديمة، وذلك بالإضافة إلى الهجمات المتبادلة بين القبائل التركية وقوات الأمراء الروس في ذلك الوقت، أضف إلى ذلك أن لأوروبا التي تأثرت بالأدب العربي دوراً لا بأس به في نقل تلك الآداب إلى روسيا والتي انتقلت إلى أوروبا الغربية عن طريق الأندلس إذ كانت همزة الوصل بين الشرق وأوروبا ولا ننسى في هذا المقام دور بلاد القوقاز وآسيا الوسطى التي تأثرت بالحضارة العربية الإسلامية، والتي نقلتها بالتالي الى الدولة الروسية، ومن ناحية أخرى قام عدد من الرحالة الروس بنقل أخبار متفرقة عن بلاد الشرق والمغرب العربي في نواحٍ متعددة، إلا أنها لم تكن ذات تأثير فعال أو جديرة بالاهتمام لدى القارىء الروسي العادي. وما أن حل القرن الثامن عشر وفي عهد بطرس الأول ـ عصر الانفتاح العلمي والثقافي والاقتصادي ـ حتى بدأ الاهتمام باللغة العربية حيث أنشئت أقسام

(١) أ. م. كاتارسكي. «الموتيفات الشرقية في الأدب الانجليزي في القرن التاسع عشر». مجلة شعوب آسيا وافريقيا، موسكو، العدد ٣، ١٩٧٤، ص ١٠١ (باللغة الروسية)

(٢) المرجع السابق. ص. ١٠١

(٣) سهير القلماوي. «ألف ليلة وليلة»، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، الطبعة الرابعة، ص. ٦٩

(٤) المرجع السابق ص. ٨

الاستشـراق في الجامعـات والمعاهـد المختلفـة إذ اهتم القيصـر بطرس الأول بضـرورة التعرف عـلى اللغات الشرقية ، ومن بينها اللغة العربية والتركية وذلك لحروبه المستمرة مع تركيا للخروج إلى البحر الأسود . وفي عهده أنشئت أول مطبعة بالحروف العربية عام ١٧٢٢م وقد أشرف عليها ديمتري كانتمير . وكان بطرس الأول قد أصدر قرارا عام ١٧١٦م بضرورة ترجمة القرآن الكريم كاملا وقد تم ذلك نقلا عن الترجمة الفرنسية التي قام بها دي ريية على يد باسينكوف ويقول المستشرق الروسي كراتشكوتسكي « والحق يقال أن القرآن وألف ليلة وليلة كانا بمثابة الآثار العظيمـة للأدب العـربي التي استطاع أجدادنا التعرف عليها في القرن الثامن عشر »(٥).

وكـان لظهـور العـديـد من المقـالات في الصحف الـروسية القـديمة التي تتحـدث عن الثقافـة والحضارة العـربية أثـر كبير في تـذوق القارىء للمؤلفـات ذات الأصل العربي . ففي المجلة المسماة « التسلية المفيدة » تحدّث م . خيراسكوف في مقال له بعنوان « قرض الشعر العربي عام ١٧٦٢م ذكر فيها خصائص الشعر العـربي وصلتـه بهارون الـرشيد حيث جـاء فيهـا أن « الشعـر الوصفي والعاطفي كان معروفـا لدى العـرب في عهد الخليفـة هارون الـرشيد الـذي اهتم بالعلوم والفنـون المفيدة والضرورية ، وأحل الثقافة والتعليم وكان يقرض الشعر معاصـراً للملك شارل العـظيم(٦) وفي صحيفة « الشفاء من الملل » نشر مقال بعنوان « إلى الملك العظيم شارل المعاصر لهارون الـرشيد » وفي صحيفـة « قضاء وقت ممتع ومفيد » عام ١٧٧٩م تضمنت بعض النوادر التاريخية التي تـرتبط بصورة أو بـأخرى بـاسم هارون الـرشيد وأسـرة البرامكـة وكذلـك بعصر الخـلافـة في بغداد . وبالإضافة إلى هذا ظهر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر العديد من القصص العربية والمترجمة من اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانيـة ومنها عـلى سبيـل المثـال : « الغصن الـذهبي » ١٧٨٢م وقصـة « الأمير العربي شهير أو مملكة الحب » ١٧٨٤م وغيرها كثيرة وكان لهذا كله أهمية خاصة لدى الكتاب والقراء على السواء ، حيث تهـدف إلى التذوق الفني والفهم والإدراك والعاطفة .

ومما هو معروف أن أوروبا قـد تعرفت عـلى مؤلف « ألف ليلة وليلة » عن طريق الترجمة التي قام بها أنطون جالان الفرنسي (١٦٤٦م ـ ١٧١٥م) في عام ١٧٠٤م ـ ١٧٠٧م حيث من المعـروف أنه منـذ ذلـك الـوقت أصبحت « ألف ليلة وليلة » الكتاب المفضل في أوروبا والجدير بالإشارة أن ترجمة جالان لم تكن كاملة وكانت تضم اثنى عشر جزءاً . أما الترجمة الأولى باللغة الروسية لمؤلف « ألف ليلة وليلة » فقد قام بترجمته فيلاتاف في موسكو وعلى مدى ثمانية أعوام (١٧٦٣م ـ ١٧٧١م) عن اللغــة الفـرنسيــة . وظهـرت طبعــة أخـرى في سمـالينسك عـام ١٧٩٦م . ونتيجة للنجـاحات التي أحرزها المؤلف حيث أنه لم يلق الاهتمام لدى الأدباء فحسب ، بل لدى القراء ـ أيضا ـ إذ تكالب القراء على شرائه للاستمتاع بقصصه وحكاياته وقد أشار أحد النقاد إلى أن القراء كانوا يفضلون مؤلف « ألف ليلة وليلة » على المؤلفات الأدبية الأخرى وقد أبدى بعض الكتاب شكواهم من عدم شراء العامة لكتبهم مما سيؤدي ذلك إلى موتهم جوعا . وهذا مما أدى إلى طبع ترجمة فيلاتاف لمؤلف « ألف ليلة وليلة » أربع مرات على مدى أربعين عـاما : ١٧٦٣م ، (١٧٧٦م ـ ١٧٨٤م) ١٧٨٩م ، ١٧٩٦م ، ١٨٠٣ . وقد قام بترجمة « ألف ليلة وليلة » من الأصل العربي إلى اللغة الروسية م . أ . ساليه في عام

(٥) أ . ى . كراتشكوفسكى « مقالات عن تاريخ التعريب في روسيا » ، موسكو ـ لينتجراد ، ١٩٥٠ ، ص . ٥٤ (باللغة الروسية) .
(٦) المرجع السابق ، ص . ٦٦

١٩٢٩م ـ ١٩٣٩م . وقد كانت هناك محاولة لترجمة « ألف ليلة وليلة » من الأصل العربي على يد أ. ن. جوسيف (١٨١٠م ـ ١٨٣٥) تلميذ المستشرق الروسي سينكوفسكي والذي كان قد تخرج في عام ١٨٣٢م ولكنه توفي في القاهرة دون أن يبلغ من العمر الخامسة والعشرين . وعن فترة وجوده في الشرق لمدة ثلاث سنوات كتب وصفا لرحلاته والتي تعرف عليها القراء[7] .

إن معظم الأوربيين عامة والأدباء خاصة قرأوا ومازالوا يقرأون في سنوات الطفولة مؤلف « ألف ليلة وليلة » لأنه يعتبر بحق مثل صندوق الدنيا حيث يربط عالم الخيال والسحر بعالم الإنسان بطريقة مبتكرة وغير مألوفة ، كما أنه غني بالحكايات الطريفة المرتبطة بحياة طبقات مختلفة من الشعب والمليئة بالمغامرات والأعمال البطولية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كان يدّرس ضمن المواد التي كانت تدرس في معهد الاستشراق بجامعة بطرسبورج عام ١٨١٦م .

اهتم المستشرقون الروس بنشأة وأصل « ألف ليلة وليلة » . ففي بادىء الأمر كان فريق يعتقد أنها ذات أصل فارسي ـ هندي وآخرون يؤكدون أنها عربية الأصل كما أكدوا أن تأليف الأثر ينتسب إلى مؤلف واحد ثم تغيرت هذه الفكرة وأصبح الرأي السائد الآن بين كثير من العلماء المستشرقين انها ذات أصل فارسي ـ هندي ، بغدادي ، مصري وقد أيد هذا الرأي كل من أ. ي. كريمسكي[8]، أ. م. فلشتينسكي[9]. وهم يعتبرون أن الذي قام بتأليف « ألف ليلة وليلة » أكثر من مؤلف ، وقد تم وضعه خلال سنوات طويلة شملت كثيرا من الإضافات والتغييرات . وقد تم ترجمة « ألف ليلة وليلة » عن المؤلف الفارسي « ألف حكاية لهزار إفسان » الذي كان يضم حكايات فارسية ـ هندية ترجمت إلى اللغة العربية في القرن التاسع الميلادي ثم أضيف إليه عديد من الحكايات تصور حياة الخلافة ببغداد في القرنين التاسع ـ والعاشر ، وضمت كذلك قصصا عن مغامرات سندباد وأهم ما فيها أنها ترتبط بالبيئة الاجتماعية . وفي القرن الثاني عشر انتقلت « ألف ليلة وليلة » إلى مصر وأصبحت أكثر رواجا في عصر المماليك في الفترة ما بين القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وقد أضيف إلى الأثر قصص مرتبطة بالتاريخ المصري القديم وموضوعات تتعلق بالتعاويذ والخاتم السحري والمصباح السحري . ومنذ الغزو العثماني لمصر عام ١٥١٧م زاد عدد الليالي وتم تدوين « ألف ليلة وليلة » في القرن السابع عشر .

ونود الإشارة هنا إلى أن الموسوعة الأدبية الروسية[10] قد تضمنت معلومات عن أصل « ألف ليلة وليلة » ، هذا الموضوع الذي كان محورا لعديد من الأبحاث العلمية كما تطرقت إلى سبب ظهور المؤلف وقصة شهر زاد مع شهريار ، وأن الليالي تناولت القصص العربية المتنوعة والتي تتسم بروح الفكاهة والحكمة ، واهتمت بالناحية التعليمية والتهذيبية والإرشادات والوعظ . كما تعرضت إلى ترجمة الليالي بكل اختصار . وتستمر الموسوعة الروسية في الإشارة الموجزة جدا إلى الأثر الذي أحدثته على فولكلور الشعوب الآسيوية والأوربية ، وكذلك على الأدب وأن بعض قصص الليالي قد انعكس

(٧) المرجع السابق ، ص . ١١١ ـ ١١٢

(٨) أ . ي . كريمسكي . « تاريخ الأدب العربي الحديث » ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص ٧٩ ـ ٨٣ (باللغة الروسية)

(٩) أ . م . فلشتينسكي « ترجمة مختارات من حكايات ألف ليلة وليلة » من اللغة العربية » ، موسكو ، ١٩٧٣ ، ص ٣ ـ ١٠ (باللغة الروسية)

(١٠) الموسوعة الأدبية المختصرة ، موسكو ، ١٩٧٢ ، ح ٧ ، ع . ٧٠٤ . (باللغة الروسية)

في بعض الأفلام السينمائية الأمريكية مثل : « لص بغداد » ١٩٢٤م ، « رحلات سندباد السبع » ١٩٥٨ ، « علاء الدين والمصباح السحري » ولم تتناول الموسوعة من قريب أو بعيد تأثير هذا المؤلف على الكتاب الروس .

أثارت ترجمة « ألف ليلة وليلة » إلى اللغات الأوربية بما فيها الروسية فضول الدارسين وشغفهم للتعرف على الشعوب الشرقية ، فبدأت الزيارات إلى الشرق عامة والبلاد العربية خاصة وأخذوا يدونون في كتبهم عادات وتقاليد هذه الشعوب وكان لهذا أثره السريع فاتجه بعض الكتاب والأدباء إلى تقليد الكتاب تقليدا مباشرا كما فعل تشولكوف في بعض مؤلفاته مثل « الساخر » (١٧٦٦م - ١٧٦٨م) و « حكايات روسية » (١٧٨٠م - ١٧٨٣م) وفي عام ١٨٧٧م صدر في موسكو مؤلَّف أدبي من أربعة أجزاء يكاد يكون مشابها لقصص « ألف ليلة وليلة » و « الحكايات العربية في قالب من الشعر » تحتوي على ما يقرب من ٧١٤٦٠ بيتا من تأليف ف . أ . كازادايف الذي توفي في أواخر الثمانينات من القرن الماضي وقد أشار أ . ي . كراتشكوفسكي إلى أن هذا المؤلَّف لم يطرح بالأسواق للبيع ، وإنما أهداه إلى أقرب أصدقائه ، ولذلك فإنه لم يدرج ضمن المؤلفات النادرة التي تأثرت كغيرها بألف ليلة وليلة ، وقد اعتمد الكاتب في عمله هذا على ترجمات اللغات الأوربية المنقولة إلى اللغة الروسية . والجدير بالذكر أن كازادايف كان يشغل منصب محافظ لمدينتي كورسك وتولا في عهد القيصر نيقولاي الأول كما أنه زار الكاتب الألماني جوته في عام ١٨٢٩م - ١٨٣٠م[١١].

ومن أوائل الأدباء الذين أعطوا جُل اهتمامهم بالمؤلفات الشرقية وبخاصة العربية منها ونقلوها إلى القارىء الروسي في أوائل القرن التاسع عشر تبدو أمامنا شخصية المستشرق الروسي سينكوفسكي الذي صدرت له مسلسلة أدبية بعنوان « مجموعة من القصص الشرقية » على صفحات المجلات الأدبية التي كانت تصدر في ذلك الوقت مثل « النجم القطبي » وكذلك « زهور الشمال » وغيرها ، والتي يرجع مصدرها إلى « ألف ليلة وليلة » . فعلى سبيل المثال نشرت قصة « البدوي » عام ١٨٢٢ م ، و « فارس الحصان الأشهب » عام ١٨٢٣ م والتي علق عليها الشاعر الروسي بوشكين « بأنها قصة عربية رائعة[١٢] غير أن أ . كراتشكوفسكي يؤكد أن هاتين القصتين ترجمة من كتاب « أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس »[١٣] ١٦٨٦/ ١١٠٠ للأديب المصري محمد دياب الاتليدي حيث يتضمن كتاب الاتليدي حكايات وقصصاً تعكس الحقبة التاريخية التي تبدأ من بداية خلافة أبي بكر حتى أواخر الخلافة العباسية أيام المعتصم بالله .
وإذا ما اعتبرت هذه المؤلفات بمثابة ترجمة عن اللغة العربية فقد استطاع في « البدوية » ١٨٢٧م و « اللص » ١٨٢٩م وقصة أخرى عن « عنترة بن شداد » ١٨٣٢م أن يتحرر من الترجمة وصاغ المضمون بأسلوب أدبي يتناسب مع ذوق القارىء الروسي ويقول سينكوفسكي عن قصة « عنترة » بأنها « ليست هذه ترجمة من العربية وليست محاكاة لقصة « عنترة » العربية ، ولكنه عمل مبتكر يتمتع بروح الشعر العربي »[١٤] وليس من باب الصدفة أن يتأثر

(١١) أ . ي . كراتشكوفسكي . « مقالات عن تاريخ التعريب في روسيا » موسكو - لينينجراد ١٩٥٠ ، ص . ١٦٠ (باللغة الروسية) .
(١٢) أ . ي . كراتشكوفسكي . « المؤلفات المختارة » ، موسكو - لينينجراد ، ١٩٥٥ ، ج ١ - ص . ٢٢٥ . (باللغة الروسية) .
(١٣) المرجع السابق - ص . ٢٣٣ .
(١٤) المرجع السابق ، ص . ٢٤٢ .

سينكوفسكي بالأدب العربي وينكب على دراسة وترجمة ما يناسب ذوق القارىء الروسي في تلك الفترة بالذات ـ فترة انتشار التيار الرومانسي . فقد سافر إلى كل من سوريا ولبنان عام ١٨٢٠م وتعرف هناك على مخطوطات الأدب العربي الكلاسيكي ، ويتذكر سينكوفسكي تلك الأيام التي قضاها في لبنان عام ١٨٢٠م فيقول : « في كوخ بسيط بأحد الأديرة المارونية بذلت قصارى جهدي في التعرف على المخطوطات العربية . . ونجحت في نسخ أهم مواردها وقرأت في عجلة ما لم أستطع نسخه . . وفي الوقت الذي قمت بتدوين مقتطفات منها سجلت أروع ما فيها من جمال الوصف »(١٥) وكان سينكوفسكي على اتصال دائم ووثيق بالمستشرقين في أوربا وبخاصة مدرسة فينا حيث كان يعمل فيها أستاذه اللبناني الأصل أنطوان عريضة أستاذ اللغة العربية ، والذي كثيرا ما ساعد سينكوفسكي في التعرف على المخطوطات العربية . وكان سينكوفسكي دائما ما يذكر فضل أستاذه عليه واصفا إياه بالعالم الفقيه .

من هؤلاء الذين تأثروا بمؤلَّف « ألف ليلة وليلة » الكاتب الروسي أ. كريلوف الذي ولد في بطرسبورج عام ١٧٦٩م ـ وتوفي عام ١٨٤٤م . كان صحفيا وأديبا ودرس العديد من اللغات الأوربية من بينها الفرنسية والإيطالية . توفي والده وهو في العاشرة من عمره وعمل في عديد من الوظائف ليعاون أسرته . كتب أعمالا أدبية في مجال الأوبرا والمسرح ثم بدأ العمل في مجال الصحافة عام ١٧٨٩م وشارك في إصدار بعض المجلات الشهرية وكان يفضح فيها بطريقة ساخرة أسلوب الرشوة وسرقة الخزائن والنفاق . وفي عام ١٧٩٢م أصدر مجلة « المتفرج » والتي نشر على صفحاتها قصة « كعيب » ولكن سرعان ما أغلقت هذه المجلة بسبب الانتقادات التي توجهها إلى الطبقة الحاكمة . ومن بين الأعمال الأدبية التي كتبها كريلوف « كعيب » وهي قصة شرقية . . كتبها ليسخر من الحكم المطلق الدكتاتوري السائد في عهد كاترينا قيصرة روسيا والتي تعتبر بحق من أروع ما كتب من أعمال أدبية لما تتمتع به من عبق الشرق ، كما أجمع على ذلك نقاد عصره . وبطل القصة يسمى كعيب ذلك البطل الذي ينطلق وراء تحقيق أحلامه ولا يبالي من المصاعب التي تصادفه . يبدأ الكاتب قصته واصفا كعيب بأن اسمه كان معروفا لدى العالم كله وهو أحد الحكام الشرقيين الذين يتمتعون بالنفوذ والشهرة الواسعة ، وكم من الشعراء وصفوه بالشمس الساطعة والثراء الطائل الذي لا ينضب أبداً . ثم يسترسل كريلوف في وصف القصر الذي يعيش فيه الحاكم كعيب فبناؤه من حجر المرمر الأسود اللون محاطاً بآلاف الأعمدة المرمرية ، وركائزها من الذهب الخالص وأن حوائط القصر رائعة الزخرف ، مصقولة كالمرآة إذا نظر المرء إليها رأى نفسه . . وكانت نوافذ القصر مشيدة على الطراز الإيطالي المعماري الحديث . . كانت أسقف القصر مغطاة برقائق الفضة الخالصة ولذا كان القصر يبدو للناظرين كأنه يتلألأ كاللؤلؤة ، ينبهر من يدخله لما فيه من ذهب ودرر وأحجار كريمة وببغاوات جميلة(١٦) ورغم هذا الثراء الفاحش والانتصارات الرائعة التي تحققها قواته في الحرب إلا أن كعيبا كان يعاني من الكآبة والملل . في أثناء سرد هذا الوصف يذكرنا الكاتب كريلوف أن الحاكم كعيب كان واسع الاطلاع وكان يحفظ القرآن وكثيرا ما قرأ مؤلَّف « ألف ليلة وليلة » بل أنه يحفظه عن ظهر قلب لشغفه الشديد بها ففي قصص

(١٥) المرجع السابق ، ص . ٢٣٢ .
(١٦) أ . أ . كريلوف . « المؤلفات الكاملة » ، موسكو ١٩٤٥ ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .

الليـالي معجزات وخـوارق جـاءت عـلى لسـان شهـر زاد »[١٧].

ذات ليلة استطاع السلطان كعيب أن ينقذ فأرا من مخالب قطه المفضل فيتحول الفأر إلى حوريـة مسحورة حيث تعرض على الحاكم أن تنفذ له أي أمر مهما كان صعوبة تحقيقه لأنه أنقذ حياتها . أعطت الساحرة خاتما للسلطان وأبلغته بأن عليه أن ينفّذ مـا كتب على هـذا الخاتم . في اليوم التالي وجد السلطان مكتوبا على الخاتم « عليك بأن تسرع وتبحث عن إنسان هو اليوم عدو لك ولكنه سيحبك حبا جما ، كما يمكن القول عنه بأنه صديق ولكن في نفس الوقت يكرهـك . ذلك الشخص هـو الذي يمكن أن يخلّصك من اليأس والملل »[١٨]. اجتمع كعيب الخليفة مع وزرائه ليتشاور معهم كيف يتغيب عن الحكم دون أن يعرف الشعب بخروجه ، ووعد وزراءه بأن يغدق عليهم العطاء إذا ما توصلوا إلى رأي سديد بأن يهدي من يتوصل إلى فكرة مثل مجموعة القصص العربية كاملة ـ ويقصد بهـا « ألف ليلة وليلة » ـ ذات غلاف من جلد الغزال وليس هذا فقط بل سيهديه أيضا ترجمة كتاب « كونفوشيوس » الحكيم الصيني المعروف . وفي نهاية الأمر يرفض كعيب مشورة وزرائه . . أخلد كعيب إلى نفسه في حجرة وحيدا يفكر لعله يجد حلا . وفي أثناء إمعانه التفكير وقعت عيناه على كتـاب كانت الساحرة قد أعطته له ـ أيضا ـ . . بدأ السلطان يقـرأ الكتاب فوجد قصيدة مدح لأحد وزرائه كان قد حكم عليه بالشنق لأنه يتقاضى الرشوة . . بعد أن قرأ هذا أخـذ كعيب يمعن التفكير وتـوصل إلى أنـه يجب عليه التريث سواء عنـدما يجـزي العطاء أو عنـدما يعـاقب أحدا . بعد ذلك أخذ السلطان يتحدث إلى نفسه غاضبا لأن الساحرة أعطت له هـذا الكتاب « كي يـرى حلما جميلا ولكن هأنذا أمعن التفكير في أمـور شعبي »[١٩] ولكن سرعان ما أخلد السلطان إلى النوم ورأى الساحرة التي عرضت عليه أن يخرج خلسة في ملابس بسيطة حتى لا يعرفه أحد من أتباعه ، وأن تضع مكانه دمية لها نفس سمات السلطان ووعدته بأن تقوم هذه الدمية في أثناء غيابه بـأعمال بـطولية تـزيد في نفـوس شعبه الجميـل والعرفان له .

يصف الكاتب الروسي كريلوف كيف خرج كعيب خلسـة دون أن يعلم أحد شيئـا عنه ، ورغم صعـوبة ووعورة الطريق والمصاعب التي يصادفها في أثناء رحلته إلا أنه يواصل مسيرته ، ويقابل أفراد شعبه ويعايشهم عن قرب ويعرف منهم أخطاء حكمه . . . ففي بادىء الأمر قابل شاعرا عجوزا حيث استرسل في الحديث مع كعيب وأبلغـه أن كتابـة قصـائـد المـدح لا تؤدي إلى المخـاطر ، فكم كتب من قصـائـد لبعض الـوزراء في القصر ولكنهم لم يغدقوا عليه العطاء حيث شُنق أحدهم لأنه كان يحصل على الرشاوي والآخر رغم أنه إنسـان طيب إلا أنه لا يتمتع برجاحة العقل .

وفي عتاب الحاكم للشاعر بأنه يمدح الأشخاص بما لا يتمتعون به من صفات حميدة فأجاب الشاعر أن القصيدة إذا ما كتبت في قالب من السخرية والتهكم فسرعان ما تكشف أمر الشخص على حقيقته . كما على الشاعر ألاّ يصور الأبطال كـما هم في الواقـع ، ولكن كما يتخيـل الشاعر كيْف يجب أن يكونوا . من هذا الحوار يتضح أنه لا يجب على المرء أن يفخر بمدح الشعراء لأنه كثيرا ما يعمي الانسان عن الحقيقة . ان لقاء كعيب بالشاعر لم يكن محض صدفة وإنما له أهمية بالنسبة لأحداث القصة

---

(١٧) المرجع السابق ، ص . ٣٥٠ - ٣٥١ .
(١٨) المرجع السابق ، ص . ٣٥٢
(١٩) المرجع السابق ، ص . ٣٦٢

من ناحية ، وتأثر الكاتب كريلوف بالليالي من ناحية أخرى . فكم حوت الليالي من أشعار في مدح الخليفة . ومن المعروف أن الشعراء العرب - دائما - كانوا دعاة للخليفة ولذلك كان على الخلفاء بحكم تعرض الشعراء لهم ولأن على تلك الأشعار التي يكتبونها معاشهم مضطرين إلى إمعان النظر فيما يقال من شعر . بالإضافة إلى أن الأدب عامة والشعر خاصة يعتبر الفن الأساسي دون سائر الفنون الأخرى فلم يكن هناك رسم ولا نحت ولا مسرح . وعندما طلب الخليفة أن يستريح من عناء الطريق أعطى الشاعر له قصاصات من الورق وقال إنها أحسن من ريش النعام الذي ينام عليه الخليفة(٢٠) واصل السلطان كعيب رحلته بين المراعي والحقول وقابل راعي أغنام . تلك المهنة التي كان يرغب السلطان أن يمارسها إن لم يكن حاكما للبلاد . وفي أثناء الحديث يعرف أنه سعيد بأسرته ولكن زوجته ذهبت إلى المدينة تبيع الدجاج والحطب لكي يشتروا ملابس تقيهم من برد الشتاء القارس . تألم الحاكم لما يعانيه أتباعه من الحياة وأنه لم يصدق بعد هذا قول الشعراء الذين يصفون حياة شعبه بالسعادة والهناء . ويستمر الخليفة في رحلته وفي أثناء سيره يتأمل ويفكر ويتساءل . . ها هو يجوب البلاد أكثر من ثلاثة أشهر يسافر ويرحل من مكان إلى آخر ولم تتحقق السعادة بعد التي وعدته بها الساحرة . وها هو ملك البحار واليابس والذي لم يخفْ أبدا من أحد كاد أن يكون فريسة لذئب جائع في هذا المكان الموحش القريب من المقابر ، حيث وجد حجرا ينام عليه ليستريح قليلا ثم يخرج من جيبه قطعة صغيرة من الخبز والجبن . وهنا الكاتب يؤكد على لسان كعيب أن الإنسان يحتاج إلى شيء بسيط ليسد جوعه ، وليس هناك حاجة إلى البذخ والإسراف ، بعد ذلك يستغرق كعيب في النوم وإذا به يرى أمامه شبح الإنسان المدفون تحت الحجر الذي ينام عليه . . أخبره هذا الشبح غير المعروف الاسم حيث طمس اسمه من على الحجر . كم من انتصارات قد حققها ولكنه في نفس الوقت كان سببا في تعذيب شعبه ، ولذلك منذ مماته وهو يتعذب ولكن بعد مقابلته لكعيب سينعم بالرضاء ويكف عن تعذيب النفس ، حيث سيسدي له بنصيحة ووصية بأن يعمل كل ما في وسعه لإسعاد شعبه لأن سلطة الحاكم تمنحه الفرصة لتحقيق هذا ثم يختفي الشبح . . يستيقظ كعيب ويواصل رحلته وفي نهاية الطريق يجد كوخا صغيرا . . وينبهر الخليفة بجمال الطبيعة التي تحيط بالمكان ثم يرى فتاة رائعة الجمال ولكنها متكدرة الحال إذ تبحث عن صورة لوالدتها المتوفاة . . يبحث الخليفة مع الفتاة سويا عن الصورة المفقودة . . ويجد الخليفة الصورة المفقودة ويعطيها للفتاة ويكون سببا في إسعادها . . تستضيف الفتاة روكسانا ووالدها الخليفة والذي لم يفصح لهما عن حقيقة شخصيته ولكنه أطلق على نفسه جاسان . أحب جاسان روكسانا من أول نظرة لما تتمتع به من جمال رائع ونفس طيبة وبادلته هي الشعور نفسه لطيبة قلبه وحسن معاملته ولما لمست من نبله وتواضعه . وفي أثناء الحوار مع روكسانا ووالدها تبين كرههما الشديد للخليفة كعيب . . وقالت روكسانا لجاسان أنها بقدر ما تكن من حب شديد له بقدر ما تمقت وتكره الخليفة كعيب لأن أحد أتباعه كان سببا في تعاسة ومأساة هذه الأسرة حيث كان والدها يعمل قاضيا وكان يتصف بعدالة حكمه . وذات مرة حكم في قضية كان طرفها أحد أتباع الخليفة ضد رجل بسيط من عامة الشعب وجاء الحكم في صالح هذا الرجل البسيط فما كان من الرجل ذي النفوذ والسلطة أن انتقم من والدها ونزع منه ممتلكاته ، وسطا على منزله وحكم عليه وعلى أسرته بالإعدام ، فأسرع والدها وزوجته والابنه إلى الفرار والهرب من هذا البطش

(٢٠) المرجع السابق ، ص . ٣٦٤ - ٣٦٦

والظلم . لم تتحمل الأم الكارثة وماتت من الصدمة . أما الأب والابنه فواصلا الهروب في الصحراء وعاشا في هذا الكوخ . . عرف جاسان الحقيقة وإذا به يثور وتنتابه حالة من الذعر وتعتقد الأسرة أنه قد أصابه الجنون ، وسرعان ما يعود كعيب إلى قصره ويرسل رئيس الحاشية لاستدعاء الوالد والابنة روكسانا إلى القصر ولأول مرة يعرفان الحقيقة وهو أن جاسان هو الخليفة كعيب الذي أعاد للقاضي العادل ممتلكاته . . وفجأة تظهر الساحرة قائلة : هكذا تعرفت في أثناء رحلتك الطويلة هذه على أشياء كثيرة عن حال شعبك وها هي السعادة تعود لك وتتخلص من الملل والكآبة ويتزوج الخليفة كعيب من روكسانا . .

بإلقاء الضوء على مضمون قصة « كعيب » للكاتب الروسي كريلوف من الممكن أن نلاحظ أثر الليالي فيها . ومن بين الخصائص الفنية لقصص الليالي التي تأثر بها كريلوف كثيرة فعلى سبيل المثال نجد بعض الألفاظ والمصطلحات والتعبيرات التي تتصل بالحضارة العربية والإسلامية مثل القرآن ، الخليفة ، سلطان ، قاضي ، مفتي ، شهرزاد ، ديوان ، الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، حريم ، سراي . . كذلك تأثر الكاتب بالصور العديدة التي كشفت عنها الليالي عن حياة الشرق والتي تصور بذخ القصور التي استوحت مصدرها من عهد هارون الرشيد فها هو كريلوف يصور بذخ وثراء القصر الذي يعيش فيه الخليفة كعيب يساعده في وصفه الخيال الواسع المرتبط ببساطة الشرق وسحره . ويذكرنا قصر كعيب هذا بذلك الملك الذي بنى لابنته سبعة قصور « القصر الأول من البلور ، والقصر الثاني من الرخام والقصر الثالث من الحديد الصيني والقصر الرابع من الجزع والفصوص والقصر الخامس من الفضة والقصر السادس من الذهب والقصر السابع من الجوهر » وذلك كما جاء في الليلة ٢٠٨ أو ذلك القصر الذي يمتلكه عذرا اليهودي « حيطانه من ذهب وطوبه من فضة » (الليلة ٧٣٧) هذه السمات التي وصفت بها القصور السبعة وكذلك قصر عذرا اليهودي جاءت مكتملة في قصر واحد عند كريلوف مع الإضافة بأن هذا القصر تشيدت نوافذه على الطراز الإيطالي الحديث كي يتناسب مع ذوق وبيئة القارىء الروسي .

إذا كان البطل في كل قصة من قصص الليالي ملكاً أو سلطاناً تقريبا ، كذلك كان البطل في قصة كريلوف الخليفة كعيب الذي ارتبط اسمه دائما بالحروب محققا النصر وإن كان وصف الحروب مليء بالمبالغة والخيال . ولم يرتبط وصف الحروب في القصة باسم الخليفة كعيب فقط وإنما ارتبط ـ أيضا ـ بهذا الشبح الذي ظهر للخليفة في أثناء نومه في المقابر . كانت شجاعته خارقة وأخبار حروبه مسلية وتدل على أنه بطل عادي . . وكم جاءت في الليالي مثل هذه الشخصيات البطولية مثل شخصية الملك عمر النعمان في « حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان » في الليلة ٥٩ حين تصف شهرزاد الملك عمر النعمان « كان من الجبابرة الكبار قد قهر الملوك الأكاسرة والقياصرة » .

وشخصية الخليفة كعيب تذكرنا بهارون الرشيد الذي يحتل جزءا كبيرا من قصص « ألف ليلة وليلة » ففي أول قصة يصف كريلوف الخليفة كعيب وهو يرتدي الملابس الفاخرة . وكم مدحه الشعراء فأغدق عليهم العطاء كما هو الحال في عصر هارون الرشيد .

ومن الملامح التي تذكرنا « بألف ليلة وليلة » في قصة كريلوف هروب الخليفة كعيب متنكراً في شخصية رجل بسيط ، ذلك في أثناء مقابلاته مع بعض الأشخاص يتعرف على أخطاء حكمه وعذاب الفقراء والمعدمين من رعيته ويأمر باقامة العدل ومجازاة الخير بالخير والشر بالشر

عند عودته إلى القصر ، غير أن هارون الرشيد في الليالي لم يخرج وحيدا وإنما كان في صحبة وزيره الخاص جعفر البرمكي ومسرور السياف ويعتبر هذا تشابها أساسيا يذكرنا بأسلوب ومعاملة هارون الرشيد كما يحكي التاريخ من قصص عنه والتي تصورها الليالي عن جولات هارون الرشيد متنكرا يتفقد أمور رعيته ، كما جاء في قصة الحمال والثلاث بنات (الليلة ٩) وقصة محمد علي بن علي الجوهري (الليلة ٣٢١) . وقد لعب الفأر في قصة « كعيب » دوراً مهماً في تطور أحداث القصة فيتحول إلى ساحرة فترشد وتنصح حتى تصل بالخليفة إلى ما أراده من خير وتقدم له العون للشفاء من الملل والكآبة ، وتضيف إلى القصة عناصر الطرافة مما تزيد من قيمتها الفنية والليالي بها العديد من موضوعات السحر والخوارق وقصص الحيوان الذي يلعبْ فيه دور المعلم أو الواعظ ، وتتغنى الليالي بالحب العذري . وكذلك يتحمل الخليفة كعيب كثيرا من الصعوبات والأهوال في سبيل تحقيق سعادته ليتخلص من الملل والكآبة رغم أن قصره مليء بالجواري والحريم إلا أنه لا يسعد بحياته هذه ، ولكن في لقائه الأول مع روكسانا كان لقاء حب لأول وهلة فقد أحبها كعيب من أول نظرة ، فكم هي جميلة تذكرنا بحكاية هارون الرشيد في (الليلة ٦٥٦) عندما قابل الفتاة العربية وأعرب عن سحر جمالها . مما تقدم من الممكن أن نلاحظ تأثر الكاتب الروسي كريلوف بقصص (ألف ليلة وليلة) وأن قصة « كعيب » مليئة بالطابع الشرقي حيث يلمع أصداء الأسلوب الشرقي والخيال وقصص الفانتازيا وتصوير عالم السحر الخارق الذي حظيت به الليالي . كذلك نجد أن حياة الخليفة كعيب الشخصية هي مصدر أحداث القصة . والقصة اعتمدت على حوادث كثيرة ، ورغم كثرتها جاءت مسلسلة وأن هذه الأحداث التي جرت وتلك العجائب التي نتابعها إلى آخرها تأتي في النهاية بإحقاق الحق ومجازاة الخير بالخير والشر بالشر إلى أن يسود العدل دائما .

وكما جاء في الليالي كيف كان يتنقل هارون الرشيد بين الرعية ، الذي كان آية في العدل ويسهر على مصالح رعيته . ويسافر كعيب ويتنقل بين الرعية ويتعرف على أمورهم التي كانت ستظل خافية لو مكث وراء جدران قصره ، بل ويحسن معاملة الفقراء ويساعدهم . فما كاد يعرف قصة القاضي وابنته روكسانا حتى فتح أمامهم الأبواب إلى العز والثراء بعد ما كان القاضي يهرب من بطش أتباع الخليفة وبعد أن تنكرت له الدنيا .

وكما جاء في « ألف ليلة وليلة » كيف تساعد الساحرة إنسانا عرفانا بجميله فها هو الفأر تحول إلى ساحرة بعد أن أنقذه كعيب من القط ويحفظ له الجميل ويصبح طوع أمره ويظل وفيّاً له إلى أن يفوز بالسعادة ويبتعد عن الكآبة .

قبل إلقاء الضوء على تأثير مؤلف « ألف ليلة وليلة » على كاتب آخر من الكتاب الروس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ونقصد به الكاتب الروسى المعروف ليف تالستوى (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) نود أن نشير الى المكانة العظيمة التى احتلها ليف نيقولا يفتش والتى لم يبلغها أديب آخر داخل أو خارج روسيا . وقد أطلق عليه لقب القيصر الثانى لروسيا أو القيصر غير المتوج . وقد كتب أحد الصحفيين في يومياته يقول :

« ان في روسيا يوجد قيصران أحدهما نيقولاى الثانى أما الآخر فهو ليف تالستوى » . . ثم يطرح الصحفى تساؤلا : فمن منهما أقوى ؟ إن القيصر نيقولاى الثانى لا يستطيع أن يفعل شيئا مع تالستوى كأن يهز عرشه في الوقت الذى يستطيع فيه تالستوى ، دون أدنى شك ، ان يهز عرش نيقولاى الثانى . . . فليحاول أحد أن يمس تالستوى ستجد العالم كله يصرخ ، أما الادارة الحاكمة فستتحمل عواقب ما تفعله » .

استطاع ليف تالستوى من خلال أعماله الفنية أن يصور أهم الأحداث في روسيا منذ بداية القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين . فقد كان روائيا ، ومؤلفا للمسرح وقاصا ، وكاتبا للمقالة وناقدا ، وفيلسوفا ومصلحا دينيا . فمن أهم مبادئه أن يتسلح الانسان بالايمان وأن تغيير المجتمع الى الأحسن والوصول به الى الكمال لا يتحقق بمجابهة العنف بالقوة وانما بالتمسك بالدين الذى لايزال هو أساس المجتمع .

التحق ليف تالستوى في عام ١٨٤٤ م بجامعة قازان ، حيث كان يقيم عند عمته ، بقسم اللغات الشرقية . لم يستمر طويلا بالدراسة فيه ثم تركه والتحق بكلية الحقوق . اهتم ليف تالستوى منذ بداية حياته بدراسة الثقافات المختلفة وبخاصة الثقافة العربية الاسلامية التى تلعب دورا كبيرا في اقامة وتطوير مجتمع تسوده العدالة والمحبة . كان ليف تالستوى يثقف نفسه بالاطلاع الواسع والقراءة لكثير من المؤلفات الأوربية فعلى سبيل المثال قرأ مؤلفات جوته وشيلر وسيرفانتس وديكنز وتأثر بجان جاك روسو . كما قرأ ترجمة القرآن الكريم التى قام بها كريمسكى وكذلك مؤلف « ألف ليلة وليلة » وتضم مكتبة ليف تالستوى بعض الكتب الخاصة بتاريخ حضارة الشرق والدولة البابلية والأشورية ، وكذلك عن الأدب العربي والفولكلور والتى كان قد تم طبعها في روسيا في هذا الوقت أو كانت مترجمة من اللغتين الانجليزية والفرنسية . كذلك اهتم تالستوى بأعمال وكتب المفكرين العرب القدماء ومن بين من اهتم بأعماله العالم والشاعر المعروف الحريرى (١٠٥٤ ـ ١١٢٨) وقد جاءت بعض أقوال الحريرى ضمن كتاب ليف تالستوى بعنوان « أفكار الحكماء كل يوم »[٢١]

بعد أن انتهى ليف تالستوى من كتابة روايته « الحرب والسلام » وفي بداية عام ١٨٧٠ م انشغل قليلا عن كتاباته الأدبية واهتم بتأليف كتب ليس الغرض منها فقط تعليم الصغار ، ولكن كذلك لتمحو أمية الكبار ، واهتم بقضية التعليم الشعبى ودأب على وضع برنامج جديد للتعليم ، اذ كأن يأمل في تغير طريقة التدريس وتربية روح شاعرية عند الأطفال وافتتح بصدد هذا الشأن مدرسة بضيعته الخاصة في ياسنايا باليانا في عام ١٨٤٧م . ولدواعى سفره الى القوقاز أغلقت المدرسة في عام ١٨٥١م ، وفي عام ١٨٥٩م أعيد فتحها وكان تلاميذ المدرسة من أولاد الفلاحين . وإذا كان كتاب « مبادىء القراءة » الذى وضعه في عامى (١٨٧١ م ـ ١٨٧٢ م) قوبل بالرفض من قبل السلطات المختصه لاستخدامه الألفاظ الشعبية تلك السمة التى كان يعتبرها ليف تالستوى أساسا لعمله فلم ييأس وأخرج كتابا آخر جديدا لمبادىء تعليم القراءة في عامى (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥ م) وأضاف اليه أربعة كتب أخرى للقراءة العامة والاطلاع ، وقد تضمنت العديد من الحكايات الروسية والعالمية والتى تتضمن القيم الدينية والأخلاقية والعلمية وكذلك الخيالية . ولم يتوقف الأمر على وضع برنامج للتعليم أو تأليف كتب ، وإنما شارك في تدريس مواد مختلفة لتلاميذه بالمدرسة مثل تعليم حروف الهجاء والحساب والدين والتاريخ والجغرافيا . وقد أدى اهتمامه بقضية التعليم الى القيام بجولة لزيارة العديد من دول أوروبا للوقوف على ماهو جديد في هذا المضمار وعند تأليفه كتبه هذه كان لزاما عليه أن يتخلى عن التحليل النفسى وعدم الاسهال والاستطراد وطابع الاطناب وأن يتحرر من الجمل الطويلة ، وبصدد هذا الشأن كتب يقول في عام ١٨٧٢ م « ان تأليف كتاب « مبادىء القراءة » من

---

(٢١) أ . أ . شيفمان . ليف تالستوى والشرق ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص . ٤٤٤ ـ ٤٤٥ (باللغة الروسية)

الممكن أن يمتد العمل به مئة عام لاعداده . . . فيجب علي أن أكون على علم بالآداب اليونانية والهندية والعربية وأن أكون على معرفة ـ أيضا ـ بالعلوم الطبيعية كالفلك والطبيعة ويتحتم عليّ أن أقوم بعمل مضنٍ تجاه لغة الكتاب حتى يكون كل شيء جميلا ومختصرا وبسيطاوأهم من ذلك ان يكون واضحا »[٢٢] .

اهتم ليف تالستوى بالعالم العربي وحاول أن يوطد علاقاته بعلمائه وبعديد من مواطنيه البسطاء ، فعلى سبيل المثال ، تبادل الرسائل مع الشيخ الامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) عن طريق الفنان الانجليزى سيدنى كوكويل[٢٣] وقد رد عليه تالستوى في رسالة بتاريخ ١٣ مايو ١٩٠٤م حيث أعرب عن سعادته لاتصاله بأحد المنورين العرب وأبلغه اتفاقه مع تلك المبادىء الدينية والأخلاقية التى ينادى بها . ولكن الشيخ محمد عبده لم يرد على رسالة تالستوى حيث وافته المنية . كانت هناك رسائل متبادلة مع مواطنين آخرين مثل ذلك الصحفى الذى يرجو من تالستوى أن يترجَم الى اللغة العربية رواية « انا كارينينا » وذلك بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٠٨ م[٢٤] كذلك كانت هناك رسالة متبادلة بين ليف تالستوى واحدى المواطنات السوريات التى درست في موسكو وعادت الى وطنها تطلب منه أن تنشر معلومات عن حياته وترجمة مؤلفاته ومرسل هذا الخطاب في ١٠ أكتوبر ١٩٠٤م .[٢٥]

والحق أن ليف تالستوى اهتم بالثقافة العربية وآدابها وكذلك بالفولكور وقرأ في طفولته المبكرة « ألف ليلة وليلة » بحماسة ، وكتب يشير كيف أثرت عليه قصص « ألف ليلة وليلة » وبخاصة قصة « علي بابا والأربعين حرامى » ، « الأمير قمرُ الزمان » . « لقد أحب ليف تالستوى حكايات « ألف ليلة وليلة » وامتدحها كثيرا ففي أحد مجالسه مع أصدقائه قص عليهم حكاية من « ألف ليلة وليلة » ، والتى تقول ان أميرا قد تحول الى حصان بوساطة إحدى الساحرات . وأشار بأن على الشباب ضرورة قراءتها والتعرف عليها فهى تحمل بين طياتها مواعظ أكثر فائدة من قراءة مقال عن « ماهى الليبراليه » .[٢٦]

وعندما بدأ يكتب كتاب القراءة للأطفال استوحى من الفولكلور والملاحم وكذلك من قصص « ألف ليلة وليلة » بعض الموضوعات التى تعكس معتقدات الشعب وعاداته الدينية ، وتصور مظاهر حياة الشعب الاجتماعية منذ الطفولة الى الموت . كذلك لما تتضمن من حكم ومواعظ البسطاء من عامة الشعب وتدعو الى الخير والصدق والأمانة والجمال والى التمسك بالقيم والمثل الأخلاقية وتندد بالشر والظلم . وهى تلك المبادىء التى تصدى لها ليف تالستوى في كتاباته وعكست نزعته الانسانية . وحبه للخير ليسود بين الناس ومحاربة الشر والظلم على الأرض . ولذا تجلت عبقرية تالستوى كأديب ومربٍ ومصلح اجتماعى في كتاباته للأطفال ، ولاغرو أن يكمن الخير والصدق والأمانة في مضمون أعماله هذه والتى كانت محور تفكيره وأساس فلسفته في رواياته الأخرى .

من بين هذه الحكايات حكاية « الملك والقميص » والتى اعاد صياغتها . تروى الحكاية عن مرض أحد الملوك والذى وعد بأن يعطى نصف مملكته لمن يداويه . اجتمع الحكماء وقال أحدهم اذا وجدوا شخصا سعيدا ،

---

(٢٢) ل . ن تالستوى . « المؤلفات الكاملة » ، موسكو ، ١٩٥٣ ، ج ٦١ ، ص . ٢٨٣ (باللغة الروسية) .
(٢٣) أ . أ . شيفمان ليف تالستوى والشرق ، موسكو ، ١٩٦٠ ، ص . ٤٣٥ . (باللغة الروسية)
(٢٤) المرجع السابق ، ص . ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .
(٢٥) المرجع السابق ، ص . ٤٣٦ ـ ٤٤٠ .
(٢٦) التراث الأدبي « ليف نيقولا يفتش تالستوى » ، موسكو ، ١٩٣٩ ، ج . ج . ٣٧ ـ ٢٨ ، ص ٤٦٠ (باللغة الروسية) .

وخلعوا قميصه وألبسوه للملك فسيشفى الملك على الفور . . « سافر أتباع الملك في جميع أنحاء المملكة ولكنهم لم يعثروا على انسان واحد سعيد . فلم يكن هناك شخص واحد راض بكل شيء . . فإذا كان هناك شخص غنى لابد من أن يكون مريضا وان كان هناك من بصحة جيدة فإنه فقير . وإن كان هناك غنى ومعافى كانت زوجته معيبة أو أولاده من السيئين . كل يشتكى من شيء ما . . وذات مرة كان ابن الملك يسير بالقرب من منزل فلاح بسيط وترامى الى سمعه أن شخصا يقول : « الحمد لله لقد عملت بما فيه الكفاية وأكلت حتى الشبع والآن سأذهب وأنام . . ماذا أريد أكثر من هذا ؟ . . فرح ابن الملك وأمر أتباعه بأن يخلعوا قميص هذا الشخص ويعطوه من النقود كل ما يريد ويرسلوا القميص الى والده الملك . وصل أتباع الملك الى الانسان السعيد وحاولوا أن يخلعوا قميصه ولكن هذا الانسان السعيد كان فقيرا جدا لدرجة انهم لم يجدوه يرتدى قميصا » .(٢٧)

هكذا جاءت حكاية « الملك والقميص » قصيرة ومبسطة ومفهومة ومسلسلة الأحداث وأن ـ الموعظة التى أراد أن يصورها تالستوى جاءت في نهاية الحكاية ، إذ أن ليف تالستوى أبرز أن « هذا الشخص السعيد كان فقيرا جدا لدرجة أنه لم يجدوه يرتدى قميصا » . هكذا أوضح ليف تالستوى أن الشخص البسيط المحب للعمل رغم أنه فقير ليس لديه القميص . إذ أن السعادة ليست في النقود ولا بالمناصب ، إنما السعادة في العمل ولمن يعمل .

مثال آخر ـ حكاية « الوزير عبد الله » وتروى أن لدى كسرى فارس وزيرا عادلا يدعى عبد الله . وذات مرة في أثناء ذهابه الى كسرى مارا بالمدينة تجمعت الجماهير ثائرة ، وما إن شهدت الجماهير الوزير حتى التفت حوله ، وأوقفت جواده واخذت تتوعده بقتله إذا لم يلب مطالبها ، تجاسر شخص ما وأمسك بلحيته وجذبها . عندما سمحوا للوزير بالذهاب ذهب الى كسرى وطلب منه أن يساعد الشعب ولا يعاقبه ازاء اساءته له . في صباح اليوم التالى ذهب الى الوزير صاحب دكان فسأله الوزير : « ماذا تريد » ؟ قال صاحب الدكان : « لقد أتيت أفشى سر ذلك الشخص الذى أساء اليك بالأمس . . انى أعرفه . إنه جارى واسمه ناجيم . أرسلت له ليأتوا به اليك لتعاقبه » أذن الوزير لصاحب الدكان بالانصراف . وأرسل لاحضار ناجيم . خمّن ناجيم أن أحدا ما قد بلغ عنه . وما أن ذهب الى الوزير ما بين الحياة والموت من الخوف إلا وركع عند قدميه . شده الوزير ورفعه الى أعلى وقال له : « إنى لم أرسل اليك لكى أعاقبك ولكن لكى أقول لك أن لديك جارا ليس أمينا . لقد أفشى سرك . فاحترس منه . اذهب في رعاية الله »(٢٨)

نجد هنا أن ليف تالستوى استخدم الألفاظ العربية مثل وزير ، عبد الله بالاضافة إلى الموعظة غير المباشرة وهى حسن اختيار الصديق والجار وأن يكون على خلق كريم .

إن السمة المميزة لقصص الأطفال لدى ليف تالستوى هى إظهار الشجاعة والأمانة والعدل ، والى جانب هذا يستخدم تالستوى الأسلوب السهل ويبتعد عن المغالاة والتصنع ولذا جاء تصويره صادقا . وقد ظهر هذا واضحا في حكاية « القاضى العادل » والتى تتلخص في أن أميرا جزائريا يسمى بوكاس ، أراد أن يتعرف بقاض عادل في مملكته ، تكون لديه القدرة على معرفة الحقيقة على الفور ولا يستطيع أى غشاش أن يهرب من

---

(٢٧) ل . ن . تالستوى . « مجموعة مؤلفات من عشرين جزءا » ، موسكو ، ١٩٦٣ ، ج ١٠ ص . ١٨٣ (باللغة الروسية) .
(٢٨) المرجع السابق ، ص . ٣٩

قصاصه . تنكر الأمير في زى تاجر وامتطى حصانه نحو المدينة وفي طريقه اقترب منه شحاذ أعرج وطلب منه صدقة ، فتصدق عليه ، أراد الأمير أن يواصل رحلته إلا أن الشحاذ قد تشبث برداء الأمير وطلب منه أن يأخذه معه الى المدينة ، وما أن وصلا اليها رفض الشحاذ أن ينزل من على ظهر الحصان وادعى أن هذا حصانه . ذهبا الى القاضى ليحكم بينهما وفي أثناء وجودهما في المحكمة استمعا الى قضيتين : الأولى يدعى فيها رجل من رجال العلم وأحد الفلاحين . أن المرأة التى تقف أمام القاضى ـ زوجة كل منهما فأمرها القاضى بأن يحضرا في صباح اليوم التالى ليعرفا حكمه . أما القضية الثانية : جاء الى المحكمة جزار وبائع زيت وكان الجزار يمسك بنقود في يده ، أما بائع الزيت فقابض بيديه على يد الجزار التى بها النقود ويدعى كل منهما أن هذه نقوده . بعد أن سمع القاضى شكواهما طلب منهما أن يتركا النقود ويحضرا في اليوم التالى . بعد ذلك استمع الى حكاية الأمير المتنكر في زى تاجر والرجل الشحاذ الأعرج فأمرهما بأن يتركا الحصان ويحضرا في اليوم التالى . وفي اليوم التالى اجتمع حشد كبير من الناس للاستماع الى حكم القاضى . في القضية الأولى أمر القاضى بأن يأخذ العالم زوجته ، أما الفلاح فيُضرب بالعصا خمسين مرة . وفي القضية الثانية أعطى القاضى النقود للجزار وأمر أن يعاقب بائع الزيت بالضرب خمسين ضربة بالعصا . أما بالنسبة للأمير بوكاس والشحاذ الأعرج فأمر أن يأخذ التاجر الحصان . أما الشحاذ الأعرج فيُضرب بالعصا خمسين مرة . تعجب الأمير المتنكر من قرار القاضى وذهب يسأله كيف توصل الى تلك الأحكام . فأبلغه بالنسبة لزوجة العالم والفلاح : لقد دعوتها تسكب الحبر في المحبرة فقامت بتنظيفها ثم صبت الحبر فيها بسرعة وبحنكة فاتضح أنها تعودت أن تقوم بهذا العمل وأن هذا ليس بغريب عنها . ولو كانت زوجة الفلاح لما استطاعت أن تقوم بهذه المهمة . وبناء على ذلك تكون زوجة العالم . وبشأن القضية الثانية : وضع القاضى النقود في كوب من الماء فلم يظهر زيت على سطح الماء ، فإذا كانت تخص بائع الزيت فلابد أن يكون بها آثار زيت من يد البائع . ولكن لم يظهر زيت على سطح الماء ولذا فالجزار على حق في دعواه . أما بالنسبة لك وللشحاذ الأعرج فعندما طلبت منكما أن تتعرفا على الجواد من بين العشرين حصانا فتعرف كل منكما عليه ولكن عندما اقتربت أنت من الجواد تلفت الحصان برأسه ومدها نحوك وحينما لمسه الأعرج بيده تضايق الحصان ورفع رجله عن الأرض وبذلك عرفت أنك صاحب الحصان الحقيقى . بعد ذلك أخبره التاجر بأنه ليس تاجرا وانما هو الأمير بوكاس جاء ليعرف حقيقة ما يقال عن القاضى بأنه عادل وطلب منه أن يطلب ما يشاء وأن الأمير سيلبيه في الحال . إلا أن القاضى قال : انى لست بحاجة الى عطايا . فأنا سعيد بأن الأمير قد تأكد من عدالتى . . وامتدحنى .(٢٩)

ما من شك أن قصة « القاضى العادل » خضعت الى تأثر ليف تالستوى بقصص « ألف ليلة وليلة » فأهم ما تتسم به حكايات بغداد تلك الصفة وهو أن الشخصية الرئيسة كانت الخليفه الذى كان يتنكر في زى تاجر ويجول في المدينة حتى يتعرف على أحوال رعيته . وها هو الأمير بوكاس الجزائرى ينزل من عرشه ويتفقد أحوال شعبه ليتعرف على القاضى العادل الذى يحكم بالعدل . وكم هو يتمتع بذكاء وحنكة في عمله . ونستطيع أن نتبين التشابه بين هذه الحكاية وكذلك حكايات « ألف ليلة وليلة » بما تتمتع به من ابراز الفضائل الانسانية والتى

(٢٩) المرجع السابق ، ص . ١٣٣

لا تكاد تتغير على اختلاف البيئات وأهمها الحق والوفاء والصراع بين الخير والشر والنور والظلام . والواضح - أيضا - أن الباعث لكتابة تالستوى لهذه الحكايات محاولة منه للتغلب على تناقض المجتمع ومقاومة الانحراف والتسلط فالعدل يجب أن يكون أساس المجتمع .

وهناك مثال آخر عن اعادة صياغة حكاية « الملك والصقر » وهى نفس الحكاية التى جاءت في الليله « (٥) من « ألف ليلة وليلة » حيث تحكى أنه ذات مرة في رحلة صيد كان يقوم بها الملك وقد أطلق وراء الأرنب صقره المفضل والمحبوب لديه . أمسك الصقر بالأرنب ثم أخذ الملك الأرنب من الصقر وذهب يبحث عن مصدر للماء ليشرب . عثر الملك على مصدر للماء في أعلى التل ، ولكن كان الماء يسقط قطرة قطرة . وجد الملك في سرج الحصان كأسا فوضعه تحت مصدر الماء . كان الماء يتساقط ببطء قطرة قطرة وعندما امتلأ الكأس بالماء رفع الملك الكأس الى فمه وأراد أن يشرب وفجأة انتفض الصقر على يد الملك وضرب بجناحيه الكأس وألقى بما في الكأس من ماء . وضع الملك الكأس مرة أخرى تحت مصدر الماء وانتظر طويلا حتى امتلأ بالماء الى حافته وعندما بدأ يرفع الكأس مرة أخرى الى فمه ، انتفض الصقر وسكب الماء . في المرة الثالثة عندما بدأ الملك برفعه نحو شفتيه سكب الصقر الماء مرة أخرى . غضب الملك ورمى الصقر بكل قوته بصخرة فقتله وسرعان ما اقترب خدم الملك وأسرع أحدهم وصعد الى ينبوع الماء حيث الماء وفير ويمكن ملء الكأس بالماء بسرعة للملك . لم يُحضر الخادم الماء - أيضا - وعاد بالكأس فارغا وقال للملك « هذا الماء من المستحيل شربه حيث يوجد هناك عند الينبوع ثعبان أطلق سمه في الماء » فقال الملك :

« لقد كافأت الصقر بسوء الجزاء . ففي الوقت الذى كان ينقذ فيه حياتى قتلته .[٣٠]

هذا مضمون الحكاية عند ليف تالستوى . أما في الليالى فاختلف المضمون بعض الشىء . فعلى سبيل المثال : كان الملك فارسيا . وأنه أطلق الباز وراء غزالة . وأن الباز لطش الغزالة على عينيها الى أن أعماها ودوخها فسحب الملك دبوسا وضربها . . كانت ساعة حر والمكان قفرا لا يوجد فيه ماء فعطش الملك وعطش الحصان . . الماء كان ينزل من شجرة مثل السمن . في بداية الأمر بعد أن امتلأت الطاسة وضع الملك الماء قدامه واذا بالباز لطش الطاسة فقلبها . . عندما امتلأت الطاسة مرة ثانية وضعها الملك أمام الباز ظنا منه أن الباز عطشان فلطشها ثانيا . . فغضب الملك ، وعندما امتلأت الطاسة ثالثا قدمها للحصان فقلبها الباز بجناحيه . . ثم ضرب الملك الباز بالسيف . . فصار الباز يقيم رأسه يقول بالاشارة أنظر الذى فوق الشجرة فرفع الملك عينه فرأى حية والذى يسيل هو سمها . فندم الملك وصاح حزنا وأسفا على قتل الباز .[٣١]

من الواضح أن مضمون هذه الحكاية من قصص « ألف ليلة وليلة » ولكن ليف تالستوى قام بتلخيصها وحذف بعض التداخل في الحدث الرئيس . وأن ليف تالستوى اهتم في نهاية الحكاية بتوضيح الغاية . فإذا كان الملك في الليالى « حزن وأسف على موت الباز » فان ليف تالستوى أكد سوء فهم الملك للصقر ورغم الصقر له إلا أنه قتله قائلا « لقد كافأته بسوء الجزاء . ففي الوقت الذى كان ينقذ حياتى قتلته » . وفي نفس الوقت حافظ تالستوى على غاية القصة .

استنادا الى الأمثلة التى استشهدنا بها والتى تكشف عن تأثر الكاتب الروسى ليف نيقولا يفتش تالستوى

---

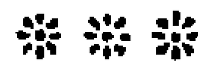
(٣٠) المرجع السابق ، ص . ١١٨

(٣١) ألف ليلة وليلة « دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع » ، بيروت ، ١٩٨١ ، « الليلة الخامسة ، ص ١٩ - ٢٠ .

بقصص « ألف ليلة وليلة » فإن مضمون هذه الأعمال بالدرجة الأولى يظهر المثل الأخلاقية والمعتقدات الدينية ، والمواعظ والوفاء والصدق والعدل ، تلك المبادىء التى تتمسك بها الشعوب على مدى عصور التاريخ المختلفة والتى حظيت بها الليالى .

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى أن المستشرقين دائما يؤكدون كيف أثرت الأعمال الأدبية عامة ومؤلفات داستايفسكى ، وتالستوى ، وتشيخوف خاصة على الكتاب العرب على الرغم أن التعرف على الأدب الروسى لم يتم إلا في أواخر القرن الماضى وأصبح واضحا الآن بعد هذه الدراسة كيف أثرت « ألف ليلة وليلة » على الكتاب الروس في مؤلفاتهم منذ بداية القرن التاسع عشر . فلم يكن الغرب هو الذى أثر في الشرق . فقد كانت البداية هو تأثير الشرق في الغرب وفي العصر الحديث لا يزال الكتاب في روسيا يشيدون بمؤلف « ألف ليلة وليلة » فها هو مكسيم جوركى قد تعرف على « ألف ليلة وليلة » والتى كانت من بين الأعمال الأدبية الخالدة التى قرأها وقال عنها : « بالنسبة لى شخصيا علىّ أن أعترف بأن حكايات « ألف ليلة وليلة » قد أثرت على تفكيرى بصورة ايجابية عندما كنت أصغى لجدتى وهى تقص علىّ هذه الحكايات . . لقد قرأت هذه الحكايات العربية وأنا لم أبلغ من العمر الثانية عشرة بعد . . وإنى على يقين تماما بأن التعرف على هذه الحكايات خاصة وعلى كنوز الابداع الشعبى يعتبر بالدرجة الأولى مفيدا خاصة بالنسبة للكتاب الشبان المبتدئين » ويضيف مكسيم جوركى أن هذه الحكايات « تساعد على تطور خيال الكاتب وتحتم عليه ان يضع نصب عينيه قيمة الخيال بالنسبة للفن . . والأهم أن هذه الحكايات تثرى الحصيلة اللغوية . . وانى إذ أحيى « الأكاديمية » لاصدارها هذه الترجمة لقصص « ألف ليلة وليلة » نقلا عن العربية اذ تعتبر من أهم الأعمال الثقافية التى قام بها المترجم . »(٣٢)

وهكذا سيظل مؤلف « ألف ليلة وليلة » مادة غنية لا تنضب أبدا ، تساعد المؤلفين على الخلق والابداع اذا اعتمدوا جل الاعتماد عليه سواء بالتأثر المباشر أو في اعادة صياغة الكثير منها بما يتفق مع الكاتب بأسلوبه الفنى . وأنها كانت ولاتزال مصدر وحى والهام للكتاب والأدباء على مر السنين .



(٣٢) « كتاب ألف ليلة وليلة » من ثمانية أجزاء ، ترجمة من اللغة العربية ، ليننجراد ، ١٩٥٨ ، ج ١ ، ص . ٥ - ٨ (باللغة الروسية)

مطالعات

موقف النقاد العرب القدماء من الغموض دراسة مقارنة

ابراهيم سنجلاوي
جامعة اليرموك

يرمي هذا البحث إلى الكشف عن موقف النقاد والبلاغيين العرب القدماء من الغموض . وسيتناول الباحث هذه القضية في ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يناقش فكرة الوضوح التي سيطرت على مفهوم البلاغة العربية القديمة وأصبحت ترادف البلاغة والبيان وتقترن بعمود الشعر العربي .

أمّا القسم الثاني : فيعالج الغموض بطريقة مباشرة في الأبواب التي خصصها النقاد القدماء للغموض وبينوا ضروبه وأسبابه وأفصحوا عن موقفهم منه .

وأمّا القسم الثالث : فيعرض لمفهوم الغموض عند « امبسون » (Empson) في كتابه « سبعة أنماط من الغموض » (Seven Types Of Ambiguity) ويقارن مفهومه عن الغموض بمفهوم الغموض الذي توصل إليه الباحث لدى النقاد العرب القدماء .

إن دراسة الغموض لدى النقاد القدماء والكشف عن طبيعته أمر بالغ الأهمية لا سيما وأن الدراسات الحديثة للنقد العربي القديم وقضاياه ـ على كثرتها ـ تفتقر إلى دراسة شاملة ومستقلة لهذه القضية . وكل ما يتوفر عنها لا يتجاوز حد المعالجات الجزئية القاصرة عن تقديم تصور شامل لمفهوم الغموض عند القدماء ، إذ جاءت معظم هذه المعالجات بشكل هامشي في مجال بحث الدارسين المحدثين لمفهوم الوضوح عند البلاغيين القدماء . ومن أمثال هؤلاء بدوي طبانة واحمد بدوي . إذ يذهب طبانه إلى أن الوضوح لا يكفي في تقدير الأعمال الأدبية ، وأن التركيز عليه قد يقصى العمل الأدبي عن فنيته ، فالوضوح عند طبانه لا يعني الوضوح الساذج والكشف المبتذل[1] ، فهو يجد قدرا من

(١) انظر : بدوي طبانه ، قضايا النقد الأدبي (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٢) ، ص١٤٨ .

الغموض الذي يرفع العمل الأدبي عن المباشرة بالقدر الذي يرفض فيه الغموض الذي يصل حد الانغلاق . وينحو أحمد بدوي نحوا مشابها لطبانة في اعتناقه لما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني ، بأن الوصول إلى المعنى بعد الطلب والبحث والتأمل يكون أشهى للنفس وأوقع في القلب . وأن البحث في طلب المعنى لا يعني أن يكون الكلام معقدا غير مفهوم بل يكون المعنى طريفا غير مبتذل يحتاج في فهمه إلى التريث والتأمل ، أما التعقيد الذي يتطلب جهدا ومشقة للوصول إلى المعنى من غير أن يجد السامع والقارىء معنى قيما يساوي جهده في المشقة والبحث فهو أحق أنواع الغموض بالذم ، كما يؤكد أهمية الغموض الشفيف الذي يزيد في شرف المعنى وفضله ويؤثر في السامع .[٢]

وقد تعرض بعض المحدثين أيضا للغموض لدى النقاد القدماء وهم في صدد حديثهم عن الغموض في الشعر الحديث ، ولم يعلقوا على ذلك كثيرا ولعلهم فعلوا ذلك ليثبتوا أهمية الغموض الذي جعلوه لباب الشعر ومقياسه الأول ، وليشيروا إلى أن القدماء قد فطنوا إلى أهميته .

ومن هؤلاء (أدونيس) فقد نقل قول أبي اسحق الصابي بأن « أفخر الشعر ما غمض »[٣] ولكنه رغم اقتطافه هذه الجملة التي تدل على أهمية الغموض ، وعلى اهتمام القدماء به ، فهو يعود إلى وصف الشعر العربي القديم بالوضوح وبأن لغته لغة تعبير وليست لغة إيحاء[٤] ، ويستثني من ذلك بعض الشعراء من أمثال أبي تمام .

ولست أريد أن أناقش أدونيس في هذا الحكم على الشعر القديم رغم أن حكمه هذا يقصي الشعر القديم إلى حدّ ما عن جوهر الشعرية في نظره ، وهو جوهر يقوم على الغموض مع أن الغموض لا يمكن أن يكون على درجة واحدة ، إذ إن الغموض في الشعر والأدب في كل عصر يرتبط بظروف العصر الثقافية والاجتماعية ، ويلائم دور الأدب والشعر في تلك المرحلة التاريخية . وليس من الانصاف أن يتوقع المرء من الشعر القديم ، بملابساته التاريخية والاجتماعية وما كان يؤديه من دور ، غموض الشعر الحديث بمعطياته التاريخية والاجتماعية أيضا .

ويرى أدونيس أن سبب الوضوح في الشعر القديم كان مبدأ ايديولوجيا أساسيا ، فالدين قد كشف عن الحقائق الكونية وأصبح البعد الديني يعادل البعد الأدبي ، واذا كشف الأصل الديني عن كل شيء ، فإن الأصل الأدبي كشف عن كل شيء لم يكن للشعراء المتأخرين الا أن يحتذوا حذو المتقدمين ، وأن المجتمع العربي بعد الاسلام عاش في عالم يقين وأصبح الوضوح ممارسة فكل شيء واضح ويمكن ممارسته دون تشكك ، وكما أنه كان يفترض من الشاعر أن يكون عالما ، أي أن يقدم معرفة واضحة وأفكارا واضحة مثله مثل الخطيب ومثل المنطقي .[٥]

---

(٢) انظر : احمد احمد بدوي ، اسس النقد الأدبي عند العرب (القاهرة · دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالفجالة ١٩٧٩) ، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ .

(٣) انظر : أدونيس ، زمن الشعر (بيروت : دار العودة ، ١٩٨٣) ص ٢٧٦

(٤) انظر . أدونيس « محاولة في تعريف الشعر الحديث » مجلة شعر ، العدد (١٩٥٩)

(٥) انظر : ادونيس ، زمن الشعر ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ومن الباحثين المحدثين الذين تعرضوا للغموض في النقد العربي وهم في صدد حديثهم عن الغموض في الشعر الحديث ، انظر · علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربية الحديثة (بغداد · دار الفصحى للطباعة والنشر ، د ت) ص ٩١ ـ ٩٢ . وعز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية (بيروت ، دار العودة ، ١٩٨١) ، ص ١٨٧ ـ ١٨٩ .

والباحث لا ينكر تأثر النقد العربي القديم بالمنطق وبتطبيق كثير من قواعده على النقد الشعري ، إذ أصبحت المقدمات الشعرية توازي المقدمات المنطقية وأصبح الشاعر ينافس الخطيب والمنطقي في سعيه للاقناع والتأثير ، ولعل هذا نتيجة تأثير المنطق الأرسطي وكتاب الخطابة لأرسطو ، كما أن ميدان الشعر قد تناولته مدارس مختلفة من مثل الأصوليين والفقهاء وعلماء الكلام ، وكان نتيجة ذلك أن طبق الكثير من القوانين المنطقية على الشعر وعلى اللغة أيضا . ولهذا أصبح الميل إلى الوضوح والتحديد أكثر منه إلى الغموض ، ولكن هذا على مستوى النقد والنقاد . فهل تأثر الشعراء في نظمهم بهذه القوانين المنطقية التي حاولت بعض البيئات التي تناولت الأدب بالدرس تطبيقها ؟ ولا ينكر الباحث تأثر الشعراء بالنقود التي تظهر في عصرهم ولكن هذا لا يعني أن الشاعر يتخلى عن شاعريته ويصبح مطبقا لهذه النقود . ثم ما قولنا بالشعر الجاهلي والاموي اللذين لم يشهدا الكثير من الترجمات والحركات النقدية والفكرية التي شهدها العصر العباسي ؟ وبماذا نفسر وضوح الشعر في هذين العصرين ؟ هل نقول : إن الاسلام هو الذي فسّر كل شيء ، ولذلك جاء الشعر الأموي واضحا ؟ وإذا صح هذا على الشعر الأموي مع أنه في معظمة ابن شرعي للشعر الجاهلي ، فهل يصح هذا على الشعر الجاهلي ولم يكن هناك دين يكشف للانسان عالم الكون وينزله من عالم الشك إلى عالم اليقين ؟ ومع أن الاسلام ولّد الطمأنينه في نفوس وكشف أسرار الكون فقد مدّ أفق الانسان إلى عوالم ميتافيزيقية ، إذ نقله من الأرض إلى السماء ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن الشاهد إلى الغائب وأصبح الكون كله علامة وظاهرة تقودان المسلم إلى عوالم غيبية يتشوّف إليها وينزع إلى الكشف عنها .

وانطلاقا من هذا يمكن القول ـ خلافا لما طرحه أدونيس ـ إن الاسلام قد نقل الشاعر العربي من الوضوح الذي يعني الظاهر إلى الغموض الذي يعني الغيب ، ثم ما قولنا في الشعر الجاهلي ؟ هل نفسر وضوحه بسذاجه المرحلة التاريخية(٦) التي عاشها الانسان في ذلك الوقت كما يقولون ؟ مع أن هذه السذاجة المزعومة كانت نتيجة النظرة الدينية إلى ذلك العصر الذي يمثل الشرك والوثنية من وجهة نظر الدين .

ولست على يقين مما يقال عن وضوح الشعر الجاهلي ، إلا في حدود ما كتبه النقاد القدماء عن هذا الشعر ، فاذا توقفنا عند تلك الحدود التي تحدث عنها القدماء عن الشعر الجاهلي ، فالشعر الجاهلي واضح ، ولكن لا بد من ملحوظات في هذا الصدد وهي أن النقد العربي القديم كان يقف عند البيت أو البيتين*، ولا يتجاوز ذلك إلى القصيدة برمتها ولا إلى بحث العلاقات بين أجزاء القصيدة . فإذا كان الغموض يعني غموض البيت أو الصورة فقط ، فنحن نتفق مع الباحثين الذين يقولون إن الشعر الجاهلي واضح ، وإذا كان الغموض يعني إلى جانب البيّت أو الصورة غموض العلاقات في القصيدة برمتها فإنني أتردد في قبول فكرة الوضوح في الشعر الجاهلي .

ويرى محمد الهادي الطرابلسي ان النقد العربي القديم قد عرف بعض أنواع الغموض ولكنه يعود ليقول

---

(٦) انظر مثلا : محمد عزام ، بنية الشعر الجديد (المغرب ، دار الرشاد ، ١٩٧٦) ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

* وان اتفقت جدلا مع الباحثين في وضوح الابيات المفردة في الشعر الجاهلي ، فماذا نقول عن كتب المعاني الكثيرة التي كانت تهتم بالأبيات التي تحتاج الى تفسير ، ويختلف الناس فيها وهي كتب كثيرة من مثل : كتاب معاني الشعر لابي عثمان سعيد بن هارون الاشناندالي . وقد تحدث السيوطي في المزهر عن انواع الالغاز التي تصدعها العرب ورأى ان اكثر ابيات المعاني من هذا النوع ، وأنها أبيات تحتاج ان تسأل عن معانيها ، كما ان هذه الالغاز تقع من حيث اللفظ والتركيب والاعراب .
انظر : المزهر للسيوطي . جـ ١ (القاهرة مطبعة محمد علي صبيح واولاده ، د . ت) ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

بأن القصيدة الجاهلية واضحة ، فهي مقسمة إلى أقسام من مثل النسيب والرحلة والغرض .(٧) وعندما نعرف كل قسم نتوقع ما فيه ، ولكنني أريد أن أسأل عن هذا الاختلاف الذي حدث في العصر الحديث حول تفسير مقدمة النسيب بين الباحثين ، ويستطيع المتتبع أن يجد أكثر من عشرة أبحاث مختلفة يصل بعضها إلى نتائج متضادة . * فهل هذا الاختلاف يعني وضوح الشعر الجاهلي ؟ ! ثم هل كشف لنا الباحثون المحدثون عن علاقة عناصر النسيب بعضها ببعض ، وعلاقة النسيب بالرحلة وبغرض القصيدة بطريقة قاطعة حتى نجزم بوضوح الشعر الجاهلي ؟ ثم هناك ظواهر كثيرة في القصيدة الجاهلية لم تفسر حتى الآن والمحاولات التي جرت لتفسير مثل هذه الظواهر ما زالت رجما في الغيب . فكيف نفسر على سبيل المثال أن النسوة في رحلة الظعائن يحملن في الغالب على جمال ذكور ، وأن الشاعر في رحلته لا يركب إلا ناقة وهذا يتكرر بنسبة تتجاوز التسعين بالمئة في رحلة الشاعر في القصيدة الجاهلية ؟ ثم كيف نفسر اختفاء اسم الناقة في رحلة الشاعر ، فالشاعر الجاهلي لا يذكر الناقة بلفظها وإنما بإحدى صفاتها باستثناء بعض الأمثلة القليلة التي ذكر فيها الشاعر الجاهلي الناقة بلفظها ؟ وعندما يقع ذلك بمثل هذه الكثرة والتردد هل يفسر على ضوء المصادفه ؟ أن هـذا الشعر ينطوي على نظام خاص مازلنا نجهله ؟ وهل نقتنع بما قاله بعض القدماء لتفسير هذه الأمور وننتهي من إثارة الجدل ويصبح الشعر الجاهلي واضحا ؟

وهل وقفت الأمم الأخرى في فهم أدبها القديم على ما قاله القدماء عن ذلك الأدب وعدوه واضحا لا يحتاج إلى مزيد من النظر ؟ فنحن نعرف أن مسرحية أوديب ملكا لسوفوكليس ، كانت تعالج اعتقاد اليونان القدماء بالقدر الأعمى ، وهذا ما كان يفهمه اليونانيون القدماء منها ، ولم يخطر ببالهم عقدة اوديب ، والبحوث الكثيرة التي دارت حولها ، وأخرجت منها ما لم يكن يتوقعه القدماء على الاطلاق . ولو توقف أصحاب هذا التراث عندما قاله قدماؤهم ، لأصبح تراثا ميتا ومنفصلا عن حاضرهم لا يربطهم به شيء ، بعد أن انتهت أهمية العقيدة القديمة التي كان يفهمها قدماؤهم من هذه المسرحية .

ومهما يكن من أمر ، فقد سيطرت فكرة الوضوح على النظرة إلى شعرنا القديم . فما طبيعة هذا الوضوح الذي سيطر على التفكير البلاغي والنقدي ؟ .

ـ ١ ـ

إن محاولة الكشف عن طبيعة الوضوح تستدعي دراسة لمفاهيم البلاغة ، والبيان ، والفصاحة ، عند النقاد والبلاغيين القدماء ، ومعرفة معانيها اللغوية ، ثم مقارنة هذه المعاني بما أصبح لها من دلالات اصطلاحية في كتب البلاغة والنقد .

البلاغة : من بلغ يبلغ بلوغا وصل وانتهى ، والبلاغ ما يتوصل به إلى الشيء المطلوب . والبلاغة الفصاحة ، ورجل بليغ حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارته كنه ما في

(٧) انظر محمد الهادي الطرابلسي ، « مجلة فصول ، الغموض في الشعر » المجلد الرابع ، العدد الرابع (ستمبر ١٩٨٤) . ص٢٩ ، ٣١ .

* انظر . المقالات التالية وهي من بين المقالات الكثيرة التي تعرضت لتفسير النسيب في القصيدة · سهير القلماوي ، « تراثنا في اضواء حديثة » مجلة الكاتب ، العدد الثاني (١٩٦١) . ص ١٣٤ . وفالتر براونه « الوجودية في الجاهلية » مجلة المعرفة السورية العدد ٤ (١٩٦٣) : ص ١٥٨ ـ ١٥٩
وانظر

Jaroslav stetkevych, The Arabic Qasidah: From Form and Content to Mood and Meaning, Harvard Ukrainian Studies, 3/4 (1979 — 1980): 585.

قلبه .[٨] أما الفصاحة : البيان وكلام فصيح أي بليغ وأفصح الصبي إفصاحا إذا فهمت ما يقول في أول ما يتكلم ويوم مفصح لا غيم فيه ولا قر ، والفصح الصحو من القر وأفصح اللبن ذهب اللبأ عنه ، وفصح اللبن اذا اخذت عنه الرغوة وأفصح الصبح بدا ضوؤه واستبان وكل ما وضح فقد أفصح وكل واضح مفصح ، والفصيح في اللغة المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه ، وقد أفصح الكلام وأفصح به وأفصح عن الأمر .[٩]

أما البيان : البين في كلام العرب جاء على وجهين يكون البين الفرقة ويكون البين الوصل بأن يبين بينا ويبين بينونة وهو من الأضداد . والبيان ما بين به الشيء من الدلالة وغيرها وبان الشيء بيانا اتضح فهو بين وأبنته أوضحته واستبان الشيء ظهر وتبين الشيء ظهر - ايضا - وفي المثل قد بين الصبح لذي عينين أي تبين . والبين من الرجال الفصيح والسمح من الرجال والبيان إظهار الفصيح بأبلغ منه .[١٠]

ومن الجلي أن المعاني اللغوية لهذه الألفاظ الثلاثة تلتقي حول الوضوح والابانة وهي بهذا المعنى تخالف الغموض ولا تتصل به ، اللهم ما نجده في كلمة (بان يبين) التي تعني الظهور والاختفاء في وقت واحد ، فهي تتضمن قدراً من الغموض ، فهل تلتقي هذه المعاني اللغوية للكلمات المذكورة بمعانيها الاصطلاحية ؟ .

لقد أورد الجاحظ تعريفات كثيرة للبلاغة عن كتاب البيان والتبيين . ومن بين هذه التعريفات ما يقوله معلقا على كلام كلثوم بن عمرو العتابي - الذي يقول عن البليغ : « ان كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ »[١١] - : « لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه . . . وإنما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجال كلام العرب الفصحاء » .[١٢]

وهذا التعريف للبلاغة لا يتضمن معنى التوصيل فحسب وإنما يشترط أن يكون التوصيل جاريا على أساليب العرب الفصحاء أي يستعمل ما تستعمله لغة العرب من أساليب في القول لا تهدف الى التوصيل فحسب ، وإنما تهدف إلى التوصيل المؤثر ، وهذا يرفع البلاغة عن مستوى التبليغ البسيط والمباشرة الساذجة ويحتفظ بدورها في التأثير في السامعين ، والأثر هو من أهم الأمور التي اعتنت به البلاغة العربية ، وجعلته ميزة الكلام الرفيع ، وميّزت بينه وبين الكلام الفاتر . ومن الواضح أن هذا التعريف يرتبط بالمعنى اللغوي من حيث توصيل المراد وتوضيحه ، ولكنه يزيد عليه إذ إن التوصيل هنا يتم حسب شروط تجعل من عملية التوصيل عملية أدبية أطلقوا عليها اسم البلاغة ، وأطلقوا على الكلام الذي يجري على أصولها الكلام البليغ . ويرى الجاحظ في تعريف آخر للبلاغة أنه « اذا كان المعنى شريفا . واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة

(٨) انظر : جمال الدين بن منظور ، لسان العرب (بيروت : دار صادر د . ت) مادة : ب ، ل ، غ .
(٩) انظر : المصدر نفسه ، مادة : ف ، ص ، ح .
(١٠) انظر : المصدر نفسه ، مادة : ب ، ي ، ن .
(١١) ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة ، ١٩٤٨) جـ ١ ، ص ٦٥ .
(١٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

الكريمة »[١٣] وهنا يبرز ارتباط البلاغة بالتأثير الذي قامت عليه كما هو واضح في كتب البلاغة العربية القديمة. وكما يرى عبد الله الغذامي أن البلاغة « قامت في الاصل على هذا الاساس (اي الاثر) حيث كانت علما للقراءة أي علما للانحراف الأسلوبي. ولكنها أسقطت بعد ذلك في دوّامة العرف والتقليد. وصارت علما للهياكل الجاهزة، والتصاميم المعدة سلفا ... »[١٤] ويقول: « إن النقد الأدبي عندنا قد انحرف عن جادة الصواب، وصار علما للقوالب والمضامين، بينما كان في أصله عند فصحاء العرب علما لجماليات النص. وكانوا يحرصون على جمال القول وشدة أسره (أي أثره). وما خالف ذلك أخرجوه عن الأدب »[١٥] ويرى عبد الله الغذامي ـ أيضا ـ أن القراءة الصحيحة للنص هي محاولة تتبع الأثر بل إن الدراسة التشريعية تبدأ من الأثر لتصل إلى أصله ومنبعه.[١٦] والحقيقة أن التأثير وأهميته وسيطرته على البلاغة العربية أمر لا يحتاج إلى كبير إثبات فقد كان التأثير بؤرة عنايتهم واهتمامهم حتى عند ناقد عظيم من مثل عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن نجاح النظم هو في توليد الأثر ونقل المعنى بصورة مؤثرة.[١٧] ويتضح هذا بوضوح في تعليق القاضي الجرجاني على قصيدة البحتري التي مطلعها:

ألام على هواك وليس عدلا
إذا احببت مثلك أن الاما

بقوله « ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده وتفقّد ما يداخلك من الارتياح، ويستخفك من الطرب اذا سمعته، وتذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك، ومصورة تلقاء نظرك »[١٨] ومع أننا لا ننكر أهمية التأثير في الشعر، ولكننا نقول: إن هذا التأثير في النقد العربي القديم قد توقف عند حدود الانطباعات الشخصية وإثارة القارىء وذكرياته وتخيلته ليتمثل بعض مواقف الشاعر وتجاربه، ولم تجعل من الأثر نقطة البداية باستثناء محاولة عبد القاهر في البحث عن أسباب النظم فلم يتوقف عند حد التأثير كما توقف غيره، وقد نجح في كثير من محاولاته لتعليل جمال النظم الذي يعني جمال الأثر وقوته. واختتم الحديث عن الجاحظ بهذا التعريف للبلاغة، الذي اختاره من بين التعاريف الكثيرة. « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك »[٢٠]. وهذا التعريف في ظاهره يعطي معنى الوضوح التام ويقترب من دلالة الوضوح بالمعنى اللغوي أي أن يكون الكلام مباشرا تصل إلى معناه مباشرة، كما قال الأصمعي عن البليغ « انه من طبق المفصل وأغناك عن المفسر »[٢١]. ولكننا نلاحظ

---

(١٣) المصدر نفسه، ص ٨٣

(١٤) عبدالله الغذامي، الخطيئة والتكفير (السعودية، النادي الادبي الثقافي جلة، ١٩٨٥) ص ٢٨٧.

(١٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٧

(١٦) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٤ ـ ٥٧، ٢٨٩

(١٧) انظر. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٨)، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(١٨) علي بن عبدالعزيز الجرجاني ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، ت محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي (القاهرة · دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٦) ص ٢٧

(١٩) انظر: مصطفى ناصف، دراسة الادب العربي (بيروت: دار الاندلس) فصل الانطباعات والعجز عن مواجهة النص.

(٢٠) الجاحظ، البيان والتبيين، حـ ١، ص ١١٥.

(٢١) المرجع نفسه. جـ ١، ص ١٠٦.

تركيز الجاحظ على لفظة (قلبك) في عبارته السابقة ، كما ركز عليها في قوله « صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة » وهذه الملحوظة تجعل قول الجاحظ يرتبط بالتأثير ، ولا ينحصر في عملية التبليغ المباشر ، فالعملية هنا ليست عملية توصيل فقط بل قد يعني قوله هذا أن القلب قادر على امتصاص الأثر بسرعة وبدون وسائط ، وهذا يجعلنا نتذكر طريقة التوصيل في الموسيقا ، إذ إن الموسيقا تؤثر في القلب والمشاعر مباشرة ، حيث نتوهم أنها تصل إلى القلب قبل أن تقرع السمع ، وتثير في نفوسنا كثيرا من المعاني ، ولعل هذا ما عناه الجاحظ في قوله السابق لا سيما وأنه قد أولى أثر العمل الأدبي وقدرته على هز نفوس المتلقين عناية خاصة . فرغم إيمانه الشديد بالوضوح ، إلا أن الوضوح الذي يتطلبه مشروط بالتأثير ، والتأثير قد يتعارض مع الوضوح والظهور التام . ولهذا نرى صاحب الصناعتين الذي أخذ الكثير من أقوال الجاحظ عن البلاغة والفصاحة يرى أن : « ما كان سهلا ، ومعناه مكشوفا بينا ، فهو من جملة الرديء المردود »(٢٢) فكأنه يعدّ الافصاح المباشر عيبا . ويفضل الجاحظ الكتابة أحيانا ويعدّها أبلغ من الافصاح ، كما يتضح من قوله « ربّ كناية تربي عن الافصاح »(٢٣) وهذا مما يبعد كلام الجاحظ قليلا عن الوضوح بمعناه اللغوي او بمعناه الساذج . أما العسكري فيعرّف البلاغة بقوله « البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه من نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » .(٢٤) أما ابن سنان فقد أشار إلى اضطراب الناس في تعريفهم للبلاغة وفرّق بين الفصاحة والبلاغة ورأى « أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ . والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني . . . وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا » .(٢٥)

أما عبد القاهر فقد استعمل هذه الألفاظ الثلاثة : الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان بمعنى واحد ، وهذا يتضح من قوله « فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا . وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم » .(٢٦) ويعرفها السكاكي في مفتاح العلوم بقوله : « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » .(٢٧) وهو بهذا التعريف أدخل مباحث علم المعاني والبيان إلى البلاغة . ويتضح على ضوء ما سبق أن معنى البلاغة الاصطلاحي :- لا ينفصل عن معناها اللغوي ، ولكنه لا يتوقف عنده فهو التوصيل بصورة مقبولة وحسنة ، وبعبارة أخرى بصورة مؤثرة ، وتوصيل الكلام جريا على خواص تراكيب العربية واستعمال المجاز والتشبيه والكناية كما في قول السكاكي ، فهذا لا يعني التوصيل المباشر وإنما يعني نوعا خاصا من التوصيل الذي هو خصيصة من خصائص التوصيل الأدبي بوجه عام والشعري بوجه خاص ، ولهذا يقول جابر عصفور : « إن غاية الشعر هي التأثير ، والتأثير يعني تغيرا في

(٢٢) ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، تحقيق مفيد قميحة (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤) ص ٧٩ .

(٢٣) الجاحظ : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧

(٢٤) ابو هلال العسكري ، الصناعتين . ص ١٩

(٢٥) انظر : ابو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان ، سر الفصاحة ، صححه وعلق عليه عبدالمتعال الصعيدي (القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده ، ١٩٥٢) ص ٦٠

(٢٦) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص ٣٥

(٢٧) احمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (بغداد : مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٣) جـ ١ ، ص ٤٠٥

الاتجاه وتحولا في السلوك . والبداية الاولى للتأثير هي تقديم الحقيقة تقديما يبهر المتلقي من ناحية ، ويبهره بها من ناحية أخرى . وذلك أمر لا يمكن أن يتم بمجرد النظم العادي للأفكار ، بل يتم بضرب بارع من الصياغة ، تنطوي على قدر من التمويه ، تتخذ معه الحقائق أشكالا تخلب الألباب وتسحر العقول ، فتتبدى الحقائق من خلال ستار شفيف يضفي عليها إبهاما محببا يثير الفضول ويغذي الشوق إلى التعرف » .(٢٨)

أما البيان في الدراسات البلاغية ، فقد اهتم به الجاحظ اهتماما كبيرا في كتابه « البيان والتبين » وجاء بتعريفات كثيرة ، كما فعل في حديثه عن البلاغة . ينقل الجاحظ تعريف جعفر بن يحيى للبيان « بأن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركه ، ولا تستعين عليه بالفكرة . والذي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل » إن معنى البيان هنا هو الوضوح والاستغناء عن إعمال الفكر للوصول إلى المعنى فهو يشبه حديث الأصمعي السابق عن البليغ بأنه « من طبق المفصل وأغناك عن المفسر » .(٢٩) وإذا تجاوز الباحث التعريف السابق للبيان إلى بعض أقوال الجاحظ فإن مفهوم البيان السابق سيتغير على نحو ما . يربط الجاحظ بين المعاني والألفاظ إذ لا يتصور وجودا معينا ومحددا للمعاني بمعزل عن الكلمة ومشتقاتها ، فالمعاني في النفوس تكون مستورة بحكم المعدومة وكأنها في حالة سديمية لا أشكال لها .(٣٠) فمن الممكن أن يفهم هنا بأن البيان لم يعد مجرد عملية توصيل فحسب عن طريق إعطاء الحالة السديمية للمعاني أشكالا محددة ، وإنما يشير إلى أن البيان القولي هو عملية جمالية ونفسية يحاول الأديب أن يعطي لمعانيه الغائمة في نفسه ذوات معينة ويخرجها من عالم العماء على شكل تعبير أدبي ، ولهذا فإنه ليس من الضروري أن يعني ذلك الوضوح التام بالنسبة للمتلقي ، ومما يقوي هذا الفهم ما يراه الجاحظ بأن المعول عليه في البيان الذي يعني الأدب هو « إقامة الوزن وتميز الألفاظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع ، وجودة السبك فإن الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير »(٣١) وفي هذه الأمور يتميز الأدب عن غيره من أشكال البيان ولا يعود البيان يعني هنا عملية الاظهار والافصاح فحسب لأن الاظهار والافصاح لا يحتاجان إلى هذا الاهتمام بالصياغة ، فالجاحظ يقرن الأدب بالتصوير وأنواع الصبغ . وإذا كان الأدب بهذا المفهوم عند الجاحظ فهو يتجاوز مستوى التوصيل المباشر إلى مستوى ما يثيره فن التصوير والصبغ من التأثير الجمالي في النفس ومن إثارة كثير من الأفكار والمشاعر ، وهذا لا يتفق مع معنى الوضوح البسيط والاظهار المحدد للمعاني .

وقد أصبح البيان عند السكاكي فرعا من فروع البلاغة يهتم بالتشبيه والمجاز والكناية وإيرادها على وجوهها وهذا يؤكد أن معنى البيان معنى أشمل من التوصيل فالمجاز والاستعارة يحتفظان في باطنها بدفء اللغة وشحنتها العاطفية القادرة على تفجير المعنى في نفس المتلقي وإعطائه حرارة ترفعه عن درجة الكلام المباشر الفاتر . وهكذا فإن معاني البلاغة والفصاحة والبيان تتضمن مستوى من مستويات الغموض الذي

(٢٨) جابر عصفور ، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي (القاهرة · المركز العربي للثقافة والعلوم ، ١٩٨٢) ، ص ٧٣

(٢٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، جـ ١ ص ١٠٦

(٣٠) انظر المصدر نفسه ص ٧٦

(٣١) الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط٣ ، ١٩٦٩) ، حـ ٣ ، ص ١٣٢

رأوا فيه غموضا ضروريا للعمل الأدبي ، ولهذا لم يطلقوا عليه لفظ الغموض بل أطلقوا عليه بلاغة وبيانا وعلى هذا ينبغي أن نفرق بين الوضوح بمعناه اللغوي والوضح عند البلاغيين .

ويتخذ الحديث عن الوضوح وجها آخر ، إذ يرتبط الوضوح بعمود الشعر العربي الذي أصبح يمثل الوضوح في مقابل الخروج على هذا العمود الذي أصبح يمثل الغموض . ويظهر هذا جليا في الخلاف الذي احتدم بين النقاد في عصر أبي تمام ومن بعده المتنبي ، فمن الممكن أن يلخص النقاش الذي دار حول الشاعرين الكبيرين بأنه كان يدور حول الوضوح والغموض ، فالذين يذكرون الشعراء الأوائل ويتمسكون بعمود الشعر العربي يريدون أن يثبتوا أهمية الوضوح ، والذين يحبون الدفاع عن الغموض يحتجون بحركة التجديد عند أبي تمام ، ويلتمسون الأعذار لبعد الخيال والاستعارة .

والحقيقة أن النزاع الذي دار حول أبي تمام يثير مشكلة خطيرة بالنسبة إلى ما نسميه (الغموض) ، فالغموض أصبح يرادف الخروج على عمود الشعر العربي الذي حدده البلاغيون ، وهذا يعني أن الغموض في هذا المعنى لايضاح الفهم أو التوصيل إلى المتلقي . كما يتضح من الخبر الذي يورده العسكري عن قصيدة لأبي تمام « وسمع أعرابي قصيدة أبي تمام :

« طلل الجميع لقد عفوت حميدا »

فقال : إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشعر من جميع الناس وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه . ونحن نفهم هذه القصيدة بأسرها لعادتنا بسماع مثلها لا لأنّا أعرف بالكلام من الأعراب »[٣٢]. وهذا يعني أن القضية ليست قضية غموض واستغلاق المعنى وإنما هي خروج على المألوف ، ولهذا كان يقال عن شعر أبي تمام « إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل »[٣٣] وكأن شعره ضد كلام العرب ، وما فعله أبو تمام أنه حاول أن يخط لنفسه طريقة جديدة يضيف فيها إلى الشعر العربي القديم ، وكان خروجه على عمود الشعر خروجا واعيا وليس جهلا به ، وهو من أكثر الشعراء القدامى ثقافة ومعرفة بالشعر القديم ـ كما تدل على ذلك مختاراته المشهورة ـ ومع ذلك فإن خروجه لم يكن خروجا تاما أو تغيرا شاملا « فقد أحدث شعره انقلابا تغير فيه نظام الدلالة والمعنى ، ونظام التعبير ، ونظام الفهم »[٣٤]. إذن كان خروج أبي تمام خروجا جزئيا ومحددا ونوعا من التطوير لكثير من التقاليد الشعرية القديمة التي هضمها وتمثلها ، وأعطاها صورة معاصرة قادرة على نقل تجربته ، فقد انتهك الألفة التقليدية التي كانت قائمة بين الألفاظ . كما انتهك الصورة القديمة التي استقرت منذ العصر الجاهلي وحاول أن ينشىء علاقات جديدة بين الكلمات ، وهذه المحاولة في رأي أدونيس ، هي محاولة للعودة إلى بكارة اللغة ، وبعبارة أخرى هي نوع من تطهير الألفاظ مما علق بها من الابتذال ، وخلق سياق جديد يقدم معنى متجددا وإمكانات متنوعة لمعان كثيرة.، وهذا هو علة الغموض عنده[٣٥]. ولعل ما فعله أبو تمام كان ضربا من الإحساس بعبء التراث الشعري السابق عليه ، وقد أحس به الجاهليون ، وعبّر عنه شعراء من مثل زهير وعنترة .

(٣٢) العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٣٣) المرزباني ، الموشح (القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٣٨٥هـ) ، ص٢٩٤ .

(٣٤) ادونيس ، زمن الشعر (بيروت : دار العودة ، ١٩٨٣) ، ص ٢٧٩ .

(٣٥) انظر : ادونيس ، الثابت والمتحول (بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٦) ، جـ٢ ، ص ١١٦ ـ ١١٨ .

يقول زهير :

مـا أرنـا نـقـول إلا مـعـارا
أو معـادا من قـولـنـا مكـرورا

ويقول عنترة :

هـل غـادر الشعـراء من متـردم
أم هـل عرفت الـدار بعـد تـوهم

والحقيقة أن عبء التراث الفني يشكل دائما تحديا للشعراء وبخاصة الشعراء المثقفون بهذا التراث وأن أكثر الشعراء إحساسا بثقل الماضي هم الذين سبروا غور هذا الماضي وثقفوه . وفي حلبة التحدي ، لا ينجح إلا شاعر عظيم من مثل أبي تمام الذي استطاع أن ينمي شاعريته في تربة الماضي وينبت غراسا جديدة تنتسب إليه ، وإن كانت جذورها تضرب في أعماق الماضي . وهكذا فإن الغموض عند أبي تمام يبدو ضربا من الانقطاع الجزئي عن التقاليد الفنية السابقة عليه وتطويرا للماضي الشعري وإعطاء وجه غير مألوف ، وإضافة إلى هذا فهناك أشياء ساهمت في غموض شعر أبي تمام غير ما قلناه ، فثقافته العميقة وتبحره في علوم عصره قد أضفت نوعا من الغموض على بعض أشعاره إلى جانب إشاراته إلى بعض الأخبار التاريخية التي يتوقف فهم النص على معرفتها .

ومما يتصل بالحديث عن طبيعة الوضوح الذي يمثل درجة من درجات الغموض ، الحديث عن أضرب من البلاغة والبيان ، يمكن أن تدخل في مجال الغموض على مستويات مختلفة ، كما نجد في حديث عبدالقاهر الجرجاني عن الاستعارة ، والكلام البليغ المتوقف على دقة الفكر والربط بين أعناق المتنافرات .

تحدث عبدالقاهر في أسرار البلاغة عن الاستعارة في الأسماء ، وفرّق بين نوعين من هذه الاستعارة :

النوع الأول : وهو أن ينقل الاسم عن مسماه إلى شيء معلوم من مثل رأيت أسدا ، أي رجلا شجاعا .

والقسم الثاني : أن ينقل الاسم من معناه ويوضح موقفا لا يبين فيه شيء يشار إليه من مثل قول لبيد :

وغـداة ريـح قـد كشفت وقـرّة
إذ أصبحت بيـد الشمال زمـامها

فقد جعل للشمال يدا ، وليس لدينا مشار إليه يمكن أن نجري عليه كما أجرينا الأسد على الرجل ، والفرق بين القسمين أن التشبيه الذي هو جوهر الاستعارة في رأي عبدالقاهر يأتي في القسم الأول عفوا وبسهولة ولا يأتي في القسم الثاني إلا بعد تأمل وفكر ، وعبدالقاهر يجعل من هذا اللون من الاستعارة منزلة أرفع من النوع الأول لأنه يحث السامع على التفكير للكشف عن المعنى[٣٦]. ولهذا يقول : « من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى ، وبالميزة أولى وكان موقعه من النفس أجل وألطف وكانت به أظن وأشغف »[٣٧] .

ولكن عبدالقاهر يستدرك في حديثه عن المعنى الذي يحتاج إلى تأمل ومكابدة للوصول إليه بأنه لم يرد الإغراق في التعمية والتعقيد ، وإنما أراد الغموض الذي يكسب المعنى شرفا ويزيده فضلا ، ويريد القدر الذي لا يقتل جمال المعنى ولا يكلّف التعب والإرهاق الكثير ، ولذلك يقول « وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه نحو قوله :

فإن المسك بعض دم الغزال »[٣٨]

(٣٦) انظر : عبد القاهر الجرجاني ، اسرار البلاغة ، صححه الشيخ محمد عبده القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده ، ١٩٥٩) ص ٣١ - ٣٢

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

ويكشف عبدالقاهر عن وظيفة الغموض الذي يطلبه بقوله : « وإنما يزيد الطلب فرحا بالمعنى وأنسا به وسرورا بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلا فأما إذا كان معه كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ، ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به . ولذلك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدي عليك »[٣٩]. وما يؤكد تصور عبدالقاهر لدور الغموض في حث القارئ على المشاركة واستمتاعه بلذة اكتشاف المعنى حديثه عن الكلام الدقيق الذي يحتاج إلى تأمل . فهو يرى أن الكلام قد يكون في نهاية الوضوح ولكنه مع ذلك يحتاج إلى إعمال فكر إذا كان المعنى لطيفا . كما أنه يحتاج إلى الانتقال من مستوى في المعنى إلى معنى آخر أو من المعنى إلى معنى المعنى ، وهذا ما يشير إلى اهتمام عبدالقاهر بتعددية المعنى إلى جانب ربطه بين الغموض والتأثير[٤٠]، وهذه أبيات للبحتري يعلق عليها عبدالقاهر :

دان على أيدي العفاة وشاسع
عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر افرط في العلو وضوؤه
للعصبة السارين جدّ قريب

بقوله : « ولست تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله « كالبدر افرط في العلو » إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز في كونه دانيا شاسعا وترقم ذلك في قلبك ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثاني من حال البدر ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وترد البصر من هذه إلى تلك وتنظر إليه كيف شرط في العلو الإفراط ليشاكل قوله « شاسع » لأن الشسوع هو الشديد من البعد ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهي في القرب فقال « جدّ قريب » . فهذا الذي أردت في الحاجة إلى الفكر وأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيله »[٤١].

ويعلل عبدالقاهر جمال هذين البيتين بالأثر الذي يبعثانه في النفس نتيجة حث القارئ أو السامع على شق المعنى ، والانبعاث في طلبه فيتحدث عن علوق معنى البيتين في النفس وما تحسه من الأنس بعد إنشادهما[٤٢] . ويدخل في هذا الكلام الذي عدّه عبدالقاهر من الكلام البليغ الذي يحتاج إلى دقة نظر ونفاذ بصيرة إقامة الشبه بين الأشياء المختلفة والجمع بين أعناق المتنافرات[٤٣] وهذا يكشف عن إدراكه لأهمية الغموض الواجب الوجود في الشعر ، الذي ينتج عن الكثافة الشعرية والإبداع الشعري ، الذي يتضح بصورة جلية عند أبي تمام حيث يمكن أن نلخص فيه تجديده وقدرته على ربط المتنافرات والكشف عن التشابه بينها وعن العلاقة الخفية بين المتضادات . وكانت هذه الميزة هي عنوان شاعريته وإبداعه وإثارته للدهشة والجدل في آن واحد . وهكذا فإن الجرجاني يجعل من الغموض الذي تحدث عنه دون أن يطلق عليه اسم الغموض علامة للجودة وأساسا للشعرية الحقة ، ولعل ذلك يعود إلى أن لفظ الغموض اكتسب معنى سلبيا ، ولذا فهو يتحدث عن هذه الأضرب التي تحتاج إلى دقة في التفكير وتأمل للوصول إلى معناها في باب الكلام البليغ الذي لا يناقض الوضوح . وعبدالقاهر دقيق النظر في تفريقه بين هذا

(٣٩) المصدر نفسه ، ص١١٢ .
(٤٠) المصدر نفسه ، ص٩٠
(٤١) المصدر نفسه ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٤٢) انظر المصدر السابق ، ص ٩٠
(٤٣) نفسه ، ص١١٨ ـ ١١٩ .

الغموض الضروري ، الذي هو من أركان الشعر المهمة وبين نوع آخر يسميه التعقيد الذي يذمه ويقصيه عن البلاغة والبيان وهو التعقيد الذي ينتج فيه الغموض عن اضطراب في النظم أو عن وضع الألفاظ وضعا لا تقتضيه معاني النحو . وشبيه بما قال عبدالقاهر حديث الفخر الرازي التالي عن تلطيف الكلام « وأما تلطيف الكلام فهو أن النفس إذا وقفت على تمام المقصود لم يبق إليه شوقا أصلا ، لأن تحصيل الحاصل محال . وإن لم تقف على شيء منه أصلا لم يحصل لها شوق إليه . فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعضها فإن القدر المعلوم يشوقها إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم ، فتحصل ـ لها ـ بسبب علمها للقدر الذي علمته لذة وبسبب حرمانها من الباقي ألم . فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة واللذة إذا حصلت عقيب الألم كانت أقوى ، وشعور النفس بها أتم . وإذا عرفت هذا ، فنقول : إذا عبّر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة حصل كمال العلم به فلا تحصل اللذة القوية ، فتحصل الحالة المذكورة التي هي كالدغدغة النفسانية ، فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألذ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية »(٤٤).

ومن الأنواع البلاغية التي يمكن إدراجها تحت (الغموض) : الاتساع والتأويل والترجيح والإبهام والتورية والتلويح والإيماء ، وهي من الأبواب التي لم يصنفها النقاد تحت الغموض بل عدّت من ضروب البلاغة والبيان ، وبخاصة إذا ما عد الغموض نوعا من تعددية المعنى ، أو احتمال تعدد القراءات .

الاتساع كما يرى ابن رشيق « أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل ، فيأتي كل واحد بمعنى . وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ ، وقوته ، واتساع المعنى »(٤٥)، ويقول الحموي عنه إن « هذا النوع يتسع فيه التأويل على قدر الناظم فيه وبحسب ما تحتمله ألفاظه من المعاني »(٤٦) ولا تخرج أقوال معظم النقاد والبلاغيين القدماء على ما ذكره ابن رشيق والحموي ، ويبدو أن الاتساع هنا يعني تعدد المعاني والاحتمالات ، كما يبدو من أقوال النقاد القدماء أن الغموض الناتج عن التعددية يرجع إلى قوة احتمال اللفظ واتساع المعنى ، ويعني ثراء العمل الأدبي وقدرته على إعطاء القارئ احتمالات كثيرة ، وهذه سمة من سمات النص الشعري الأصيل . ومن خصائص الصورة الشعرية الناجحة القادرة على إثارة المعاني الكثيرة ، ولعمري إن هذا هو الغموض الواجب الوجود في الشعر .

يناقش ابن رشيق قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

مثالا على الاتساع ، « فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر ، ويحسن مقبلا مدبرا ، ثم قال « معا » أي جميع ذلك فيه ، وشبهه في سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطه السيل من أعلى الجبل ، فإذا انحط من عال كان شديد السرعة فكيف إذا أعانته قوة السيل من ورائه .

وذهب قوم إلى أن معنى قوله « كجلمود صخر حطه السيل من عل » إنما هو الصلابة ، لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والريح كلما كان أصلب . وقال

(٤٤) جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب (بيروت . دار التنوير ، ١٩٨٣) ص ٣٢٦ .
نقلا عن الفخر الرازي ، المحصول في علم الأصول ، تحقيق طه جابر فياض العلواني جـ ١ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .
(٤٥) ابن رشيق ، العمدة (بيروت دار الجيل ، ١٩٧٢) ، جـ ٢ ، ص ٩٣
(٤٦) ابو بكر علي بن حجة الحموي ، حزانة الادب وغاية الارب (القاهرة . المطبعة الخيرية ، ١٣٠٤هـ) ص ٤٣٠

بعض من فسّره من المحدثين : إنما أراد الإفراط فزعم أنه يرى مقبلا مدبرا في حال واحدة عند الكر والفر في شدة سرعته ، واعترض على نفسه ، واحتج بما يوجد عيانا ، فمثله بالجلمود المنحدر من قمة الجبل ، فإنك ترى ظهره في النصبة على الحال التي ترى فيها بطنه وهو مقبل إليك ، ولعل هذا ما مر قط ببال امرىء القيس ، ولا خطر في وهمه ولا وقع في خلده ولا روعه »(٤٧).

كما يسوق الحموي بيتا آخر لامرىء القيس مثالا على الاتساع :

إذا قامتا تضوع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل

ويعلق عليه بقوله : « فإن هذا البيت اتسع الند في تأويله فمن قائل تضوع منهما نسيم الصبا ومن قائل تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبا ومن قائل تضوع المسك منهما بفتح الميم يعني الجلد بنسيم الصبا »(٤٨).

ويتصل بالحديث عن الاتساع الحديث عن التأويل الذي ناقشه ابن الأثير باستفاضة وهو يرى « أن التأويل غير محصور والعلماء متفاوتون في هذا ، فانه قد يأخذ بعضهم وجها ضعيفا من التأويل ، فيكسوه قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية »(٤٩) ويقسم ابن الأثير تأويل المعاني إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول : أن يفهم من الكلام وجه واحد ولا يحتمل منه التأويل وأما القسم الثاني أن يفهم من الكلام الشيء وضده . ويرى أن هذا القسم قليل الوقوع في الكلام وأنه من أدق التأويلات المعنوية ، وذلك لما في دلالة اللفظ على الشيء وضده من الغرابة . ويضرب على هذا القسم أمثلة من شعر المتنبي :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا
لمن بات في نعمائه يتقلب

ويرى بأنه يمكن أن يستخرج وجهان لهذا البيت ، الوجه الأول أن المنعم عليه يحسد المنعم ، والثاني أن المنعم يحسد المنعم عليه(٥٠). ومثل هذا التأويل يصنعه في البيت التالي :

فان نلت ما أملت منك فربما
شربت بماء يعجز الطير ورده

إذ يرى « أن هذا البيت يحتمل مدحا وذما وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح ، لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ . وصدر البيت مفتتح بأن الشرطية ، وقد أجيب بلفظة « ربّ » التي معناها التقليل ، أي لست من نوالك على يقين ، فإن نلته فربما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده . وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح وكثيرا ما كان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره »(٥١). ويمضي ابن الاثير في ضرب الأمثلة من شعر المتنبي التي تعطي معنى الضدّين وتفهم على وجه المدح والذم . وأما القسم الثالث فهو أن يعطي الكلام المعنى ومثله ويرى أن هذا أكثر وقوعا من القسم الثاني في الشعر وفي كلام العرب ويأتي ببيت أبي تمام التالي مثالا على ذلك :

للشعر طول إذا اصطكت قصائده
في معشر وبه عن معشر قصر

ويبين ابن الأثير وجهين من التأويل لهذا البيت : أحدهما

---

(٤٧) العمدة ص٩٣

(٤٨) الحموي ، الخزانة ص ٤٣٠

(٤٩) ابن الأثير ، المثل السائر ، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة (القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٩) ، جـ١ ، ص٧٥ .

(٥٠) انظر · المصدر السابق ، ص٧٦ - ٧٨

(٥١) نفسه ص٧٨

أن الشعر يتسع وينتشر بمدحك ويضيق بمدح غيرك ، والآخر أن الشعر يفخر بمدحك ويخمل بمدح غيرك ، فلفظة « الطول » قد يفهم منها الفخر من مثل قولنا طال فلان على فلان ، وقد تفهم على أنها ضد القصر(٥٢).

ويرتبط بالتأويل الترجيح وذلك أن احتمال الكلام أكثر من معنى يقتضي الترجيح بين المعاني أو أن الأمر لا يخلو أن يرجح بعض القراء معنى على آخر ، ومع وجود الترجيح فإنه لا يلغي وجود أكثر من معنى في الكلام ، بل إن الترجيح يؤكد احتمال الكلام لأكثر من معنى . ويتضح ارتباط الغموض بالترجيح من المثال التالي من شعر جزء بن كليب الفقعسي ، وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فرده :

تبغّي ابن كوز والسفاهة كاسمها
ليستاد منا أن سنونا لياليا
فلا تطلبنها يا ابن كوز فإنه
غذا الناس مذ قام النبي الجواريا

يعلق ابن الأثير على البيت الثاني : بانه يشتمل على معنيين : تام ومقدّر ، ويرى ـ أيضا ـ أن هناك وجها آخر للمعنى التام . أما التام فإن ابن كوز قد خطب ابنة الشاعر في سنة جدب فرده وقال له : لقد أصبح الناس يغذون البنات بعد أن حرّم النبي صلى الله عليه وسلم وأدهن ، ولهذا فأنا اغذو ابنتي ولولا ذلك لوأدتها . والوجه الآخر للمعنى التام انه بعد امتناع الناس عن وأد البنات كثرت النساء ولهذا يطلب منه أن يتزوج بعضهن ويخلّي ابنته . وأما المعنى المقدر الذي يعلم من مفهوم الكلام وليس من ظاهره أنه لو زوجّه ابنته كان وكأنه وأدها لأنه لا فرق بين تزويجه إياها ووأدها وهذا ذم له(٥٣). يتضمن تعليق ابن الأثير على البيت الثاني مفهوم الغموض الذي أصبح يعتدّ به في الشعر الحديث ، وهو الغموض الذي يعني كثرة الاحتمالات ، وتعدد مستويات الفهم للنص الأدبي . وأصبح هذا الغموض في الدراسات النقدية الحديثة سمة من سمات الحداثة وثراء النص .

ومما يلاحظ أن ابن الأثير لا يرى الغموض في كثير من الحالات يتأتى من المفردات ، وإنما يتأتى من التركيب ، وهو غموض كما صرّح بذلك لا يرفضه ، إذ يقول : « الألفاظ المفردة ينبغي أُن تكون مفهومة سواء نظما كان الكلام أم نثرا ، وإذا تركبت فلا يلزم ذلك »(٥٤). وهذا فهم عميق لمفهوم السياق اللغوي وقدرته على خلق معان جديدة للألفاظ تختلف عن معانيها قبل دخولها في السياق فكلمات العبارة قد تكون واضحة ، ومع ذلك نحتاج للوقوف على معناها إلى استنباط وتأويل ، ذلك لأن السياق يخلق للمفردات معاني جديدة ، وهو ما يعبر عنه ابن الأثير بتداخلها في التركيب وإعطائها صورة خاصة .

ويشكل الإبهام ضربا آخر من الغموض*. والإبهام

---

(٥٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٩ ، ٨٤

(٥٣) انظر : المصدر نفسه ، ص٩٢

(٥٤) انظر · المثل السائر ، جـ ٤ ، ص ٨

* لقد استخدم عز الدين اسماعيل لفظ الابهام استخداما سلبيا وهو يدل في استعماله على ما كان يطلق عليه القدماء اسم التعقيد الذي ينتج عن التعقيد اللفظي ، او اختلاط الضمائر وتداخل التراكيب النحوية ، وقد اخرجه عبدالقاهر الجرجاني من صفة البلاغة كما حذر منه بشر بن المعتمر بقوله · (ان التعقيد يشين الفاظك ويستهلك معانيك) وهو يعكس الابهام الذي رحب به النقاد القدماء ، لأنه يدل على ثراء المعنى وتعدد الاحتمالات في فهم النص والحقيقة ان عز الدين اسماعيل محق في التمييز بين نوعين من الغموض ، الغموض الذي هو سمة من سمات البلاغة وعنصر اساسي من عناصر الشعرية وبين التعقيد الناتج عن اضطراب التراكيب النحوية والحقيقة ان كمال خير بك قد وافق عز الدين اسماعيل في الفرق بين الغموض والتعقيد ، ولكنه استخدم لفظ الغموض والتعقيد ولم يستخدم لفظ الابهام للدلالة على التعقيد ـ راجع ما كتبه : عز الدين اسماعيل ، المرجع السابق . ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

هو الكلام الموهم لأن له أكثر من وجه ، وإبهام الأمر أن يشتبه فلا يعرف وجهه ، واستبهم عليه الأمر : لم يروا كيف يأتون له(٥٥). ويقول عنه العلوي « اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهما فإنه يفيد بلاغة ويكسبه إعجابا وفخامة وذلك إذا قرع السمع على وجهة الإبهام ، فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب »(٥٦) ويورد أمثلة عليه من مثل قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » يريد بذلك الطريقة أو الحالة أو المحصلة ، إلى غير ذلك من المحتملات المتعددة وأي شيء من هذه الأمور قدرته ، فإنك لا تجد له من البلاغة وإن بالغت في الإفصاح به . الذي تجده من مذاق الفصاحة مع الإبهام من وجهة أن الوهم يذهب معه كل مذهب لما فيه من المحتملات الكثيرة »(٥٧). ويرى بعض النقاد أن الإبهام « أن يقول المتكلم كلاما مبهما يحتمل معنيين متضادين ، كقول بعضهم في الحسن بن سهل لما تزوج المأمون بنته بوران :

بارك الله للحسن
ولبوران في الختن
يا إمام الهدى ظفر
ت ولكن ببنت من

فلم يعرف مراده « بنت من » ، هل أراد به الرفعة أو الضعة ؟ »(٥٨).

ويرى ابن الأثير أن الإبهام كثير سائغ في القرآن الكريم ، ويعدّه من سمات البلاغة ، وذلك لذهاب الكلام فيه كل مذهب وإيقاعه على احتمالات مختلفة(٥٩). ويضرب أمثلة على ذلك من بينها قول دريد بن الصمة :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه
فلما علاه قال للباطل ابعد

ويعلق ابن الأثير على البيت بقوله « ففي قوله : صبا ما صبا ، من الإبهام الذي لو قدرت ما قدرت في تفسيره لن تجد من فضيلة البيان ما تجد له من الإبهام »(٦٠). ومع ثناء كثير من النقاد القدماء على هذا النوع من الغموض ، فإننا نجد العسكري يأخذ على جرير قوله :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فهو يرى أن هذا الكلام قد استبهم ، ولا يدرك معناه إلا بالتوهم ، وأن الشاعر لم يفصح عما فعله بل ترك السامع لا يدري أي شيء أشار إليه من أفعال قام بها بعد الرحيل في قوله : « فعلت ما لم أفعل » ، هل أراد أن يبكي أو يهيم على وجهه أو يتبعهم في سيره ، أو يأخذ منهم شيئا يتذكرهم به ، واحتمالات كثيرة يجوز أن يفعلها العاشق عند فراق أحبته(٦١). يعارض بدوي طبانه العسكري في تعليقه على هذا البيت بقوله : « ان الشاعر لو كان واضحا أو حدد ما كان يفعل وقت الرحيل أو وقت الوداع ، أيا كان ذلك الفعل ، لفهم المراد وتحقق المقصود وانقضت لذة الشعر بمجرد سماعه ، أو بمجرد قراءته ، ولكن الشاعر تعمّد ذلك للإبهام حتى يحتفظ المعنى بكليته ، ولا يتحول إلى جزئية ضئيلة ، كواحدة من تلك الافتراضات التي افترضها الناقد في

---

(٥٥) انظر : اللسان ، مادة : ب ، هـ ، م .

(٥٦) يحيى بن حمزة العلوي ، كتاب الطراز (مصر : مطبعة المقتطف ، ١٩١٤) ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .

(٥٧) انظر المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٥٨) شهاب الدين النويري ، نهاية الارب (القاهرة : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، د . ت) جـ ٧ ، ص ١٧٤ .

(٥٩) انظر : المثل السائر ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٦٠) المصدر نفسه . ص ٢٦٢ .

(٦١) انظر : الصناعتين ، ص ٤٣ .

حرصه على التوضيح والتعيين »[٦٢]. وقد نعى ابن الأثير على مفسري الشعر اهتمامهم البالغ بمقصد الشعراء وإهمالهم جوانب أكثر أهمية بقوله « وقد غلط مفسرو الأشعار باقتصارهم على شرح المعنى ، وما في الشعر من الكلمات اللغوية ، وتبين مواضع الإعراب فيه دونما تضمنه من أسرار البلاغة والفصاحة »[٦٣]. وهذا يشير إلى مدى اهتمام مفسري الأشعار بالكشف عن مراد الشاعر ومقصده ، كما رأينا من اهتمام العسكري بالمقصد في بيت جرير السابق .

ومن هذا الغموض الذي لا يتجافى مع البيان والوضوح ، الكناية . فقد ذكر الجاحظ أنه « ربّ كناية تربى عن الافصاح » والكناية تمثل ضربا من الغموض ولكنه غموض رفعه النقاد الى مرتبة أعلى من الافصاح ، والكناية كما يدل عليها لفظها « مشتقة من الستر فيقال كنيت الشيء إذا سترته وأجرى هذا الحكم في الألفاظ التي يستر فيها المجاز بالحقيقة فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا »[٦٤] . والكناية كما يعرفها ابن الاثير « كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز »[٦٥] . وهكذا فإن الكناية بخلاف الاستعارة يجوز حملها على الحقيقة وعلى المجاز ، وأن معناها المجازي لا يلغي معناها الحقيقي ، وكلا الاحتمالين يصح به المعنى ولا يختل ، ففي قوله تعالى « أو لامستم النساء » يجوز حمله على الحقيقة والمجاز دون أن يختل المعنى ، « ولهذا ذهب الشافعي رحمه الله الى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد ، فأوجب الوضوء على الرجل اذا لمس المرأة . وذلك هو حقيقة في اللمس . وذهب غيره أن المراد باللمس الجماع »[٦٦] وقد كنى عنه باللمس ، وإن جواز حمل الكناية على الحقيقة والمجاز دون أن يختل المعنى يجعلها تختلف عن غيرها من أقسام المجاز الذي لا يجوز حمله إلا على جانب المجاز خاصة . ويرى ابن سنان أن الكناية في موضعها والتكنية عما يجب أن يكنى عنه ، أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة ، ويذكر بيت امرىء القيس في هذا الصدد :

فصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا
ورضت فذلت صعبة أي إذلال

لأنه كنى في ذلك عن المباضعة .[٦٧] ويتحدث الحاتمي في حلية المحاضرة عن الكناية فيقول : « ان العرب تكني بالشيء عن غيره على طريق الاتساع »[٦٨] .

ويمكن أن يدخل في سلسلة الغموض الذي عد من أبواب البلاغة ولم ينظر اليه على أنه شيء يضاد الوضوح الذي كانوا يشترطونه في الكلام البليغ الاشارة واللمحة الدالة والتلويح والايماء بشرط أن ما يوماً إليه من الأخبار أو الأمور المومأ اليها واضحة ومعروفة ومشهورة ، فالاشارة في رأي صاحب العمدة « من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها الا الشاعر المبرز والحاذق

---

(٦٢) بدوي طبانه ، قضايا النقد الأدبي ، ص ١٤٩ .

(٦٣) ابن ابي الحديد ، الفلك الدائر على المثل السائر ، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانه (القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٩) ، ص٣٩

(٦٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٥٣

(٦٥) نفسه ، ص ٥٢

(٦٦) نفسه ، ص ٥١ .

(٦٧) ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، صححه وعلق عليه عبد المتعال الصعيدي (القاهرة . مكتبة محمد علي صبيح واولاده ، ١٩٥٢) ، ص ١٩٢

(٦٨) الحاتمي ، حلية المحاضرة (بغداد دار الرشيد ، ١٩٧٩) ص ١١ .

الماهر ، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه »(٦٩) . أما العسكري في حديثه عن البلاغة وأبوابها فيرى أن « عامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحي فيها والاشارة الى المعنى أبلغ ، والايجاز هو البلاغة »(٧٠) . وينقل قولا آخر في تعريفه البلاغة بأنها « علم كثير في قول يسير » . والايجاز بالقصر عند ابن الأثير يدل على محتملات متعددة .

كما يمكن أن تدخل التورية أو ما يسمى الابهام والتوجيه تحت هذا النوع من الغموض الذي رحّب به القدماء ، والتورية كما يقول الحموي : « مصدر وريت الخبر اذا سترته ، وأظهرت غيره كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر ، وهي في الاصطلاح أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز أحدهما قريب والآخر بعيد ودلالة اللفظة عليه خفية فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك ولأجل ذلك يسمى هذا النوع إيهاما » .(٧٣)

ولعل حديثهم عن تلك الأضراب السابقة يرتبط بمفهوم الشعر خاصة والكلام الأدبي بوجه عام لدى النقاد القدماء من حيث اعتماده على الاشارة ، واللمحة الدالة والايجاز واستعمال الاستعارة ، والمجاز وغيرها مما يجعل الكلام مؤثرا وباعثا لخيال السامع وذاهبا في تفكيره كل مذهب ، ومثيرا للغرابة والدهشة وقريب من هذا حديث حازم عن التخييل الذي جعله جوهر الشعر إذ يرى أن موقع التخييل « يحسن من النفس أن يترامى بالكلام الى أنحاء من التعجيب ، فيقوى بذلك تأثر النفس بمقتضى الكلام ، والتعجيب يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي الى مثلها فورودها مستندر مستطرف إلى ما يقل التهدي إليه من سبب للشيء تخفي سببيته ، أو غاية له ، أو شاهد عليه أو شبيه له أو معاند ، وكا الجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما الى الآخر وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أن تستغربها »(٧٤) . ويقول أيضا : « وكلما قرب الشيء مما يحاكي به ، كان أوضح شبيها ، وكلما اقترنت الغرابة والتعجب بالتمثيل كان أبدع »(٧٥) . فالتخييل هنا مرتبط بالغموض والتأثير في آن ، فالتخييل الذي يصعب التهدي اليه ويحتاج إلى تأمل وتفكير للوصول الى معناه ، ويشير الدهشة والاستغراب يتصل بالغموض ويخدم مطلب التأثير الذي سيطر على البلاغة العربية وأصبح يميز الكلام الفني من الكلام الفاتر الذي لا يعد من البلاغة . ولعل حازما يشير الى قدرة الشعر على تجديد أشياء الكون أو تصويرها بطريقة مدهشة وكأن الانسان يراها أول مرة ، وهذا ما يشير اليه لفظ التعجيب الذي استخدمه حازم كما يشير اليه كلامه عن ربط الأشياء مع افتراقها ، أو خفاء سبب هذا الارتباط وهذا يوضح دور الشعر في الكشف عن العلاقات بين أشياء الوجود أو يعيد بناء علاقات الوجود بطريقة مدهشة ومثيرة . أليس

(٦٩) العمدة ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص٣٠٢
(٧٠) العسكري ، المصدر السابق ، ص٢٣ .
(٧١) المصدر نفسه ، ص٤٨
(٧٢) المثل السائر ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص٣٤٨ .
(٧٣) الخزانة ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
(٧٤) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الادباء ، (بيروت : دار المغرب الاسلامي ، ١٩٨١) ، ص ٩٠ .
(٧٥) المصدر السابق ، ص ٩١ .

هذا هو الغموض الواجب الوجود في الشعر ؟ هذا الغموض الذي جعله النقاد المحدثون جوهر الشعرية ومقياس جودتها ، فقد أصبح الغموض من ميزات الشعر المعاصر وربط النقاد بين الشعرية والغموض الذي يفترق عن التعقيد اللفظي ، أو اضطراب التراكيب ، وهو شيء قد فطن له القدماء ، وأقصوه عن البلاغة وكأنهم أخرجوه من دائرة الغموض الذي استحسنوه وسموه بأسماء كثيرة ليتجنبوا ما يكتنف لفظ الغموض من جوانب سلبية .

ـ ٢ ـ

وحين الانتقال للحديث عن الغموض عند الصابي وابن سنان الخفاجي* فإننا ننتقل إلى درجة أخرى من الحديث عن الغموض اذ يتحدثون عن الغموض بطريقة مباشرة ويطلقون عليه اسم الغموض . تعرض صاحب الفلك الدائر للغموض وهو في صدد مناقشته لحديث ابن الأثير الذي يفرق فيه بين النثر والشعر ويخالف فيه الصابي الذي اشترط الغموض في الشعر ولم يشترطه في النثر . ويعيد صاحب الفلك حديث أبي اسحق الصابي عن الغموض فيقول : « كلما كانت معاني الكلام أكثر ومدلولات ألفاظه أتم ، كان أحسن ، ولهذا قيل خير الكلام ما قل ودلّ . . لأن المعاني إذا كثرت ، وكانت الألفاظ تفي للتعبير عنها احتيج بالضرورة الى أن يكون الشعر يتضمن ضروبا من الاشارة وأنواعا من الايماءات ، والتنبيهات فكان فيه غموض كما قال البحتري :

والشعر لمح تكفي إشارته
وليس بالهذر طولت خطبه

ولسنا نعني بالغموض أن يكون كأشكال اقليدس المجسطي ، والكلام في الجزء ، بل أن يكون بحيث إذا ورد على الأذهان بلغت فيه معاني غير مبتذلة ، وحكما غير مطروقة . . . فذلك القدر من المعنى هو الذي يعنيه أبو اسحاق الصابي من الغموض لا غير »(٧٦) ومع أن أبا اسحاق يختلف مع ابن الأثير في التفريق بين الشعر والنثر إلا أنهما يلتقيان في قضية الغموض على نحو ما ، وإذا كان ابن الأثير يرفض قول الصابي « أفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه »(٧٧) . ويفضل الوضوح في الشعر والنثر إلا أنه يكشف عن نوع الوضوح الذي يقصده ويقبله فقد اشترط ابن الاثري الوضوح في الألفاظ ، ولم يشترطه في التراكيب كما ورد في حديثه عن التأويل الترجيح . وعلى أية حال فإن الحديث الذي جاء به صاحب الفلك الدائر عن الغموض ، يتناول طبيعة التعبير الشعري ، فكأنه يميز بين لغة الشعر ولغة النثر فيرى أن لغة الشعر تقوم على الاشارة ، وعلى اللمحة والايماء ، بعبارة أخرى فإن هذا قد يعني أن اللغة الشعرية ليست لغة تعبير بقدر ما هي لغة إيحاء ، وهذا يلتقي مع كلام أبي هلال العسكري عن البلاغة التي تقوم على الوحي واللمحة والاشارة ، ويتصل بمفهوم الغموض في الدراسات النقدية المعاصرة التي ترى أن الغموض ركن أساسي من أركان الشعرية .

أما ابن سنان الخفاجي فقد تعرض لمشكلة الغموض وهو بصدد مناقشة رأي أبي اسحاق الصابي في التفريق

(٧٦) ابن ابي الحديد ، الفلك الدائر على المثل السائر ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

(٧٧) ابن الأثير ، المثل السائر ، حـ ٤ ، ص ٧

(*) لقد سبق الصاحبي ابن سنان في مناقشة الغموض وما يؤدي الى اشكال المعنى وارجعه الى اللفظ أو التركيب او المعنى .

انظر احمد بن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة وسننه العربية في كلامها ، تحقيق احمد صقر ، (القاهرة . البابي الحلبي ، ١٩٧٧) ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٧٨) انظر ابن سنان ، سر الفصاحة ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١

بين الشعر والنثر ، فقد رأى أن الكلام ليس مقصودا بذاته ، وإنما قصد منه التعبير عن المعنى يتوصل به الناس إلى مقاصدهم فإذا تعذر الفهم فلا قيمة للكلام ، فالمتكلم يجب أن يجتهد في بلوغ الفهم ما أمكن ثم يتعرض للأسباب التي يغمض من أجلها الكلام بتقسيمها إلى ستة أقسام : اثنان منها في اللفظ في انفراده ، واثنان في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض ، واثنان في المعنى . . . أما الغموض الناتج عن اللفظة المفردة أن تكون اللفظة غريبة وحشية ، أو أن تكون من الكلمات المشتركة في اللغة من مثل كلمة الصدى التي تعني العطش والطائر والصوت في بعض الأجسام ، وليس في الكلام ما يرجح المقصود منها . وأما إذا كان في الكلام دليل على المعنى المقصود في اللفظ المشترك فلا عيب في استعماله كقول أبي الطيب المتنبي :

ودع كل صوت دون صوتي فإنني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

أما الغموض الذي ينتج عن تأليف الألفاظ بعضها مع بعض فينتج عن الايجاز المفرط وإغلاق النظم كأبيات المعاني في شعر أبي الطيب وغيره . ويرى أن افراط الايجاز وإغلاق النظم يخرجان الكلام عن الفصاحة والبيان ويسببان غموضا يراه عيبا وخللا بشروط البلاغة ، ذلك أنه يرجح الوضوح في الكلام وينفر من الغموض في النظم والنثر . أما الغموض الذي ينتج عن المعنى إما أن يكون المعنى في نفسه دقيقا من مثل مسائل الكلام في اللطيف أو أن يحتاج فهم المعنى في الكلام إلى مقدمات قد يبنى عليها ، فإذا لم تكن هذه المقدمات معروفة فلا يقع الفهم وفي هذه الحالة يشترط ابن سنان أن يحاول المتكلم بقدر استطاعته أن يحسن العبارة عن المعنى ، ويبالغ في إيضاح الدلالة ليضاهي ما في المعنى من الدقة واللطافة بما في العبارة من الوضوح والظهور ، كما يرى أن الكلام إذا احتوى على مقدمات أو أشار الى أخبار فينبغي أن تكون الأخبار مشهورة ، والمقدمات معروفة حتى لا يستغلق الكلام .[٧٨] ويبدو من حديثه أنه لا يرى في الغموض ميزة أو أداة فنية تزيد في فضل المعنى كما رأينا ـ عند عبد القاهر وغيره من النقاد الذين نفروا من المعنى المكشوف الذي لا يحتاج الى فكر وتأمل .

ولا يختلف حازم القرطاجني[٧٩] في تناوله للغموض عن ابن سنان الخفاجي الا أنه فصّل في ذكر الاضراب التي يقع فيها الغموض ، وضرب أمثلة أكثر . وعلى أية حال فهو يرجع وجوه الاغماض الى المعاني أو الى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى ، ومنه ما يرجع إلى الألفاظ والمعاني معا . وليس من الضروري التفصيل في ضرب الغموض التي ذكرها حازم ، ذلك لأن ابن سنان قد ذكر أكثرها . لقد وقع حازم وابن سنان على علة الغموض الرئيسة ، إذ أعاداها الى اللفظ والتركيب والمعنى . وهذا هو الأساس الذي بنى عليه « امبسون » كتابه « سبعة أنماط من الغموض » . ومع ذلك فينبغي الاشارة إلى أن موقف حازم من تلك الأضرب التي ذكرها من الغموض لم يكن موقفا ايجابيا ، فقد اشترط شروطا وقدم حيلا للكاتب يستطيع بها أن يرفع الغموض عن الكلام . وعلى أية حال وبغض النظر عن موقف حازم من الغموض ، فهو يلتقي مع بعض الأضرب التي ورد ذكرها سابقا من مثل بعض ألوان البلاغة والبيان تحت اسم الغموض لون من التعسف ، وبخاصة أن المتتبع لكتب النقد والبلاغة القديمة يلاحظ أول وهلة مدى اهتمام النقاد القدماء بفكرة الوضوح . كما أن النقاد المحدثين قد حكموا على غالبية الشعر

(٧٩) انظر : حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص ١٧٢ ـ ١٨٨ .

العربي القديم ـ كما مر سابقا ـ بالوضوح لأسباب مختلفة ورأوا أن لغة ذلك الشعر لغة تعبير وليست لغة إيحاء ، وأن كثيرا مما يمكن أن يسمى غموضا في الشعر القديم ضرب من الطلاسم أو المعاظلة اللفظية ، واضطراب التراكيب ومن تلك الأنواع التي ليست من جوهر الغموض الضروري للشعر . ولم يلتفت المحدثون إلى كثير من الضروب التي تتضمن شيئا من الغموض أو تشكل مستوى من مستوياته لأن القدماء لم يطلقوا عليها اسم الغموض من جهة ولوقوع المحدثين تحت سيطرة فكرة الوضوح في البلاغة العربية والشعر العربي القديم .

لقد كان في كتاب (أمبسون) (سبعة أنماط من الغموض) ما يسوغ للباحث أن يضع أنماطا كثيرة من البلاغة العربية القديمة تحت مظلة الغموض .

لقد درس « أمبسون » الغموض في كتابه دراسة مستفيضة وجعله جوهرا للشعرية ومقياسا لها وأداة للدراسة والتحليل ، وقد مضى في دراسته من أقل المستويات التي يمكن أن تتحسس فيها غموضا بل إنه قد افترض الغموض حتى في الجمل الاخبارية المباشرة ، وحاول أن يستغل الغموض في دراسته للشعر استغلالا تجاوز فيه الحد الذي ينبغي الوقوف عنده . يعرف أمبسون الغموض بقوله « الغموض يمكن أن يعني عدم القطع فيما تعنيه أو ترمي لأن تعني أشياء كثيرة أو احتمال أن تعني هذا أو ذاك أو كليهما معا ، وحقيقة أن جملة لها عدة معان »[٨٠] .

فجوهر الغموض عند « أمبسون » يكمن في تعددية المعنى وكثرة محتملاته وقد أولى النقاد العرب القدماء هذه التعددية عنايتهم ، كما هو واضح في حديثهم عن الاتساع والابهام والتأويل وغيرها من الضروب البلاغية التي تفتح مجالا للقراءات المختلفة . وعلى ضوء هذا فليس من التعسف في شيء ادراج تلك الصنوف التي فيها مجال للتعددية تحت الغموض بعد أن فتح « أمبسون » باب الغموض وجعل منه أداة سحرية لتحليل الشعر وفهمه . أما دقة المعنى وبعد غوره تلك التي أشاد بها الجرجاني فإن « أمبسون » يرى « أن الغموض يكون محترما ما دام يسند تعقيد الفكر ولطافته أو اكتنازه أو ما دام ندحة يستغلها الأديب ليقول بسرعة ما قد فهمه القارىء ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة فكر ويبهم الأمر دون داع »[٨١] . وهذا ما يذكر بحديث عبدالقاهر الذي يرى أن التأمل وكد الفكر في الكشف عن المعنى يجب أن يكافأ بدقة المعنى ولطافته . أما اذا كان كد الفكر في غير طائل فلا قيمة للتأمل والمماطلة ولا داعي لها . ويكشف « أمبسون » عن وظيفة الغموض بأنه ليس مطلبا بحد ذاته أو أداة مستقلة . ولكن ينبغي في كل حالة أن ينبع الغموض من المقتضيات الخاصة للحالة . وليس هناك ما هو أقدر على تبرير وجود الغموض من الاثارة وتحقيق المتعة والفائدة[٨٢] . كما يلتقي « أمبسون » مع عبدالقاهر الجرجاني الذي يرى أن الشعر الجديد يحتاج إلى دقة في التفكير وتأمل للوصول الى معناه إذ يرى (أمبسون) أن القصيدة الجيدة لا يكون معناها مباشرا وهي تحتاج إلى ذكاء خاص للكشف عن معناها ، أما القصيدة الرديئة فهي التي يعيبها التحليل ، ذلك أنها تحتاج الى مثل هذا الجهد الذهني فمعناها مباشر

(٨٠) William Empson, Seven Types of Ambiguity (New York, New Direc- tions, 1966), p.4.

(٨١) ستانلي هايمن ، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة احسان عباس ومحمد يوسف نجم (بيروت دار الثقافة ، ١٩٧٨) ، حـ٢ ، ص ٥٦

(٨٢) انظر : Empson, seven Types of Ambiguity, p. 235.

مكشوف .[٨٣] « فامبسون » يرى أن الغموض ليس مطلبا في حد ذاته واذا لم يزد في فضل المعنى ويعلي من أثره في النفس فلا مسوغ له .

أما أنماطه السبعة فهي في جملتها تعالج الغموض الذي ينتج عن اللفظ أو العبارة أو المعنى أو عن كل هذه الأمور مجتمعة وهذا هو الأساس الذي بنى عليه حازم وابن سنان أسباب الغموض في الشعر والأدب . ومن المفيد هنا مناقشة هذه الأنماط على نحو موجز للكشف عن مدى التقائها بتلك الأضرب التي تعرض لها النقد العربي القديم .

النمط الأول :

أن تكون الكلمة أو العبارة مؤثرة من وجوه مختلفة في آن ويدخل تحت هذا النمط الذي هو أوسع أنماطه أشياء كثيرة ،[٨٤] من مثل الغموض الذي ينتج عن مقارنات عدة جوانب للتشابه والتناقض مع مجموعة جوانب للاختلاف أو نتيجة صفات المفاضلة أو نتيجة الاستعارة المسيطرة ، أو ما ينتج من معان إضافية نتيجة الايقاع الشعري ، ويرى أن تعريفه لنمطه الأول من الغموض يغطي تقريبا كل ما هو مهم في العمل الأدبي[٨٥] ، كما يربط « أمبسون » بين الغموض والتأثير وشراء المعنى[٨٦] ، ويجعل من الغموض من بين الجذور الرئيسة للشعر[٨٧] ، ولعل ضرب مثال على هذه المقولة يكشف بوضوح عن مدى التلاقي بين « امبسون » والنقاد العرب القدماء . يقول (الكزاندر بوب) (Pope) من قصيدته « السيدة التعيسة » (Unfortunate Lady)

لا ينفعك كم عشقت ، وكم أجللت مرة
ولمن نسبت ، أو لمن ولدت ، كوم رماد هو كل ما يبقى منك
هذا هو كل ما أنت ، وما سيكون كل المتكبرين .

ان الجزأين المكونين للبيت الثاني يبدوان بديلين دون أي مبرر واضح وهذا يعني الكثير إذا كانت المقابلة جدية فلفظة (whom) التي تعني « لمن » يمكن أن تعني أن أحد أقاربها رفيع النسب ووالدها وضيع أو العكس . وكذلك تعني مع أنك عشقت بشكل كبير ، والبيت الأخير يقابلها مع المتكبرين ليلمح إلى وضاعتها فهي تتوحد معهم في المصير[٨٨] وهو الموت . والغموض في مثال « أمبسون » لا يختلف كثيرا عن المثال التالي الذي قيل في الحسن بن سهل لما تزوج المأمون ابنته بوران :

بارك الله للحسن
ولبوران في الختن
يا امام الهدى ظفر
ت ولكن ببنت من ؟

فلم يعرف مراده « بنت من » الرفعة أو الضعة ؟

أما النمط الثاني الذي يكون فيه الغموض على مستوى الكلمة والتركيب عندما يدمج معنيان أو أكثر في معنى واحد[٨٩] ، وهذا مثال من (شكسبير)

(٨٣) انظر : Ibid., p.246.
(٨٤) انظر : Ibid., p.2
(٨٥) انظر : Ibid., p.3
(٨٦) انظر : Ibid.,
(٨٧) انظر : Ibid.,
(٨٨) انظر : Ibid., p,p.22
(٨٩) انظر : Ibid., p. 48

(Shakespeare) من مسرحيته « ماكبث » (Macbeth) .

أن قدر لها أن تنفذ ، فعندما تنفذ فإنه جميل أن تنفذ بسرعة .

If it were done, when 'tis done, then 'twere well it were done quickly;

فالغموض هنا ينبع من الكلمة والتركيب معا فتنفذ أو تعمل تفيد أنه لا يرغب في تنفيذ الجريمة ولكنه لما كان مضطرا لتنفيذها تحت ضغط زوجه ، فهو يأمل أن تنفذ بسرعة ، فالسطران الشعريان يعنيان الرغبة في التنفيذ وعدمه[٩٠] . وهذا يوازي تعليق ابن جنى الذي ينقله ابن الأثير على بيت أبي الطيب المتنبي في مدح كافور .

وما طربي لما رأيتك بدعة
لقد كنت أرجو أن أراك فأطربا

« لم تزد على أن جعلته أبا زنّة » وهذا القسم من الكلام يسمى « الموجه » أي له وجهان . وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه »[٩١] ، ويأتي ببيت آخر للمتنبي في مدح كافور :

فإن نلت ما أملت منك فربما
شربت بماء يعجز الطير ورده

فهذا البيت كما يرى ابن الأثير يحتمل مدحا وذما كما رأينا في حديثه عن التأويل والغموض في هذا البيت يتأتى من التركيب . فيعجز الطير ورده قد تعني أن الشاعر لم يكن على يقين من نواله وبأن نواله بعيد بعد الورد الذي يعجز الطير في الوصول إليه مع أن البيت في ظاهره المدح .

أما النمط الثالث من الغموض فهو مسألة لفظية بحتة يحدث عندما يكون هناك فكرتان مرتبطتان بالسياق فحسب يعبر عنهما بكلمة واحدة في نفس الوقت[٩٢] ، ويدخل تحت هذا النمط ما يسميه بالتورية (Pun) ، ويتضمن - أيضا - ما يسميه النقاد القدماء بالمشترك اللفظي ، وهو أن تعني كلمة واحدة فكرتين كما في كلمة الصدى التي تعني الطائر المعروف وتعني رجع الصوت . وقد عدّ ابن سنان وحازم هذا النوع من الغموض المذموم ، واشترطا أن يكون في النص قرينة تدل على المراد كما يتضح في بيت المتنبي الذي ساقه ابن سنان مثالا على الاشتراك الجائز . وهذا مثال يسوقه (أمبسون) على هذا النمط اذ توصف (دليلة) (Delilah) بأنها :

ذلك الشيطان الجميل الخادع ، إنها مصيدتي القاضية[٩٣] .

That specious monster, my accomplished snare.

ولبيان التورية في البيت لا بد من إثباته بلغته ، فكلمة (Specious) تعني جميلا وماكرا . فالتورية تكمن في هذه الكلمة ، والأمثلة العربية كثيرة على التورية ولا حاجة لذكرها .

ومما هو جدير بالملاحظة أن « امبسون » يربط بين وظيفة التورية وتأثيرها الاضافي الذي تخلقه في النص[٩٤] . وهذا يلتقي مع ما تحدث عنه النقاد

(٩٠) انظر . Ibid., p. 49

(٩١) ابن الأثير ، المثل السائر ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٩٢) انظر : Ibid., p. 102

(٩٣) انظر : Ibid.,

(٩٤) انظر . Ibid., p. 102

القدماء عن وظيفة التورية ، وما تخلقه من أثر . لأنها تذهب في النفس مذهب الايهام وتخفي المعنى القريب بمعنى بعيد وتترك القارىء في أودية الحدس ليكشف المعنى المراد .

أما النمط الرابع من الغموض فهو عندما تحتمل عبارة معنيين مختلفين أو أكثر يتظافران لتوضيح حالة ذهنية أكثر تعقيدا لدى الكاتب[٩٥] ، ويأتي بأبيات للشاعر (جون دون) (John Donne) من الأناشيد المقدسة (Holy Sonnets) مثالا على هذا النمط ، ويكفي إثبات جزء من الأبيات الذي اختارها أمبسون لتوضيح هذه الحالة :

ماذا لو أن الحاضر آخر ليل في العالم ؟
فلتنظري أيتها الروح في قلبي ، حيث تسكنين ،
صورة المسيح المصلوب ، وخبري ،
إن كان ذلك الوجه يخيفك ،
الدموع في عينيه تطفىء الضوء المدهش ،
والدم النازف من رأسه المخروق يملأ تجهماته ،
وهل يستطيع ذلك اللسان الذي استغفر لأعدائه
الشرسين البغضاء أن يحكم عليّ بجهنم ؟ لا ،
لا ، ولكن كما في وثنيتي .
قلت لكل صويحباتي الدنسات . .[٩٦]

والغموض في النص السابق يتأتى من النص الكامل للأبيات وهو مبنى على وجود معنيين مختلفين تتظافر أبيات النص على توضيحه ، إذ يشير البيت الأول من القصيدة نوعا من الرعب أول وهلة لدى القاريء ، ولدى متابعة الشاعر الذي تفزع روحه المذنبة من الخوف والرعب وهي تنظر إلى صورة المسيح المصلوب القاطن في قلبه ولكنه يطمئنها بأنه لاداعي للخوف ، لأن المسيح في صلبه يقدم الغفران للأرواح المذنبة وهكذا فإن الأبيات تحمل معنيين متضادين المعنى الأول الذي يشير إلى الخوف من الذنب والخطيئة ، والثاني الذي يمثل الغفران المتجسد بالمسيح ويلاحظ في الأبيات الأخيرة ، التي لم نترجمها ، قناعة الشاعر التي تحمل معنى يجمع الفكرتين السابقتين وهما أن الأشكال المرعبة أول وهلة قد تحمل في طياتها دواعي الطمأنينة والأمن . وأن الأشكال الجميلة قد تحمل العنف والدمار وكل ذلك ليطمئن روحه ويوصلها الى قناعة بأن كل شيء يحمل ضده بداخله ، وهذا المثال وان تجاوز الكلمة والتركيب الا انه يكشف عن تعددية المعنى أو ثنائيته التي اهتم بها « امبسون » أبلغ اهتمام وجعل منها جوهر الغموض .

إن تعددية المعنى وثنائيته واضحة في حديث القدماء عن الاتساع وفي حديث حازم القرطاجني عن القلب الذي عده من الغموض ولكن الاختلاف بين مثال جون دون السابق والأمثلة العربية على الغموض ، هو أن النقاد القدماء كانوا يركزون في حديثهم عن الغموض على البيت الواحد أو الصورة الشعرية الواحدة شأنهم في كل نقودهم ، إذ لم يتجاوز نقدهم البيت او البيتين ولم يتناولوا القصيدة برمتها .

أما النمط الخامس فهو يحدث عندما يكشف الكاتب فكرته في أثناء فعل الكتابة حيث يظهر تشبيه لا ينطبق على شيء بالذات ، ولكنه يقع بين شيئين عند انتقال الشاعر من أحدهما الى الآخر[٩٧] . وهذا مثال من

---

(٩٥) انظر : Ibid., p. 133
(٩٦) انظر : Ibid., p. 140
(٩٧) انظر : Ibid., p. 155

مسرحية شكسبير : « العين بالعين » (Measure For Measure) تدفعنا طبائعنا (الحرية أو الشهوة) وراء ذاك الشر المتعطش كما تلتهم الجرذان سمها القاتل ، وعندما نشرب نموت .

Our Natures do Pursue
Like Rats that ravyn downe their proper Bane
Athirsty evil, and when we drink we die,

من الواضح أن الفكرة الأولى هي أن الشهوة نفسها هي السم ولكن كلمة ملائم (proper) تعني سما ملائما للجرذان ولكنها تعني ـ أيضا ـ (صحيح وطبيعي) وهكذا فان أكل السم يتناغم مع سقوط الانسان (نتيجة الأكل من الشجرة الممنوعة) ان شرب الماء ضروري وصحي للانسان إذ لا يمكن تجنبها ، وهكذا فان سمها الملائم (Proper Bane) تصبح غامضة ، لأنها تشير الى الماء والسم معا[٩٨] وعليه فان الغموض يتأتى هنا من دقة الفكرة ومن التعبير ـ أيضا ـ وهذا ما دعاه حازم بالغموض الذي يتأتى من المعنى والعبارة معا . ولعل بيت « حميد بن ثور » يشابه المعنى الذي جاء به مثال شكسبير السابق :

أرى بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلما[٩٩]

ولقد استحسن النقاد القدماء هذا البيت دون الكشف عن سبب استحسانهم ، ولعل ما في البيت من غموض هو علة هذا الاعجاب ، فالسلامة في البيت تعني معنيين متناقضين ، فهي السلامة التي ضد الداء والمرض وتعني الداء والمرض ، فالسلامة ضرورية لنا لنعيش ونمارس حياتنا ولكنها في الوقت نفسه تقودنا الى الموت والهلاك .

ـ أما النمط السادس من الغموض وهو الذي ينتج عندما يكون الكلام متناقضا ويجبر القارئ على أن يبتكر تأويلات او ان تكون عبارة ما لا تقول شيئا وذلك لتناقضها أو لعدم علاقتها بما يقال فيجبر القارئ على ابتكار تفسيرات وتأويلات[١٠٠] ، وهذه فقرة تصف زليخة دبسن (Zuleika Dobson) وتعد مثالا جيدا على هذا النوع :

لم تكن زليخة جميلة على نحو كامل .

فهذه العبارة لا تفترض بأنها كانت أي شيء مألوف ، ولا نفترض بأنه يمكنك تصور شكلها بسهولة أو أنها لم تكن على وجه الاحتمال من النوع غير المألوف الذي ينال إعجابك فالخيال هنا يتحرر رغم أنه لم يتم قول شيء على وجه التحديد . والسؤال الآن ما هو هذا النوع التام من الجمال ؟ ثم يقول عنها :

كانت عيناها واسعتين قليلا وأهدابها أطول مما هو ضروري ، ولعدم معرفة مدى السعة الممكنة ، فان القارىء ليس لديه أي وسيلة للتأكد فيما اذا كان عليه أن يسحر بجمالها أم يصدم وهل هذا يعني ان تركيبة ملامحها غير جميلة أم أن جمالها صارخ ومتطرف[١٠١] ، وهذا النوع الذي لا تعني فيه العبارة شيئا محددا هو من الأمور التي تحدث عنها النقاد العرب القدماء ، وهذا بيت جرير التالي خير مثال على هذا النوع :

لو كنت ادري أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

(٩٨) انظر : Ibid., p. 155
(٩٩) العسكري ، الصناعتين ، ص ٤٩
(١٠٠) انظر : Ibid., p. 176
(١٠١) انظر : Ibid., p. 177

وقد انتقده العسكري بسبب أن عبارة (فعلت مالم أفعل) لم تحدد مقصد الشاعر بل تترك القارئ يذهب كل مذهب في الحدس والتخمين لمعرفة ما يمكنه أن يفعله العاشق بعد الرحيل . إلا ان كثيرا من النقاد قد استحسنوا هذا البيت ، وهذا اللون من عدم التحديد لما يعطي خيال القارئ نوعا من التحرر الذي تحدث عنه (امبسون) في المثال السابق كما مرّ في مناقشة هذا البيت عند الحديث عن الإبهام .

ـ أما النمط السابع فهو الذي ينتج عن التناقض الكامل الذي ينعكس في انفصال في ذهن الكاتب وذلك عندما يكون المعنيان الخاصان بالكلمة هما المعنيين المتقابلين اللذين يحددهما السياق وأن الأثر العكسي هو بيان انقسام رئيس في ذهن الكاتب وهذه الحالة شائعة على درجات متفاوتة(١٠٢) . ويأتي (امبسون) بمثال من قصيدة (درايدن) (Dryden) انشودة ليوم القديسة سيسيليا (Song for St. Cecilis's Day)

قعقعة البوق العالية تدعونا الى السلاح
مع أنغام الغضب الحادة
وإنذار بالخطر المميت
والدقة المزدوجة ، المزدوجة ، المزدوجة
للطبل المرعب
تصرخ ، اسمع فالعدو قادم ،

اهم ، اهجم ، فالتراجع أصبح متأخرا جدا .

ويعلق « امبسون » بقوله : من الغريب أن في جو البساطة البطولية والطيش وفي حمى الرغبة الملتهبة في خوض المعركة ان يقال إنّا لا نستطيع تفادي المعركة او الخروج منها الأن ، وان علينا ان نخوضها بقدر استطاعتنا ، ان هذا يكشف عن التقاء الرغبة في الهرب بالرغبة في المواجهة . ومع أنهم لم يعزموا على التراجع الا أن هذا لا ينفي تفكيرهم فيه ، غير أن التراجع أصبح متأخرا لكلا الطرفين ، والتفكير فيه ينطبق على المهاجين كما ينطبق على العدو . ومن هنا يأتي التناقض والانقسام ، أي أن كلمة تراجع في الشطر الأخير ، تعني أن التراجع أصبح متأخرا بالنسبة للعدو كما أصبح متأخرا بالنسبة للمهاجين ، وعليهم أن يخوضوا المعركة على أية حال(١٠٣) . ويمكن أن يعد البيت التالي الذي أورده عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز مثالا صالحا على هذه المقولة :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناي الدموع لتجمدا(١٠٤)

فقد حدد السياق معنى كلمة تبعد وأعطاها معنى القرب فهي تحمل معنيين متقابلين المعنى الأول البعد المادي والمعنى الثاني الذي خلقه السياق هو القرب المعنوي فالشاعر قريب قربا ماديا ولكنه بعيد بعدا نفسيا عن أحبابه ولذلك فهو بعيد وقريب ، وهذا هو الانفصال القائم في ذهن الشاعر ، فهو يرغب بالبقاء قريبا ولكنه يرغب أيضا بالبعد الذي يعني القرب النفسي أو حضور أحبابه في نفسه بشكل يجعلهم أقرب منه في بعده عنهم .

فكلمة التراجع في عبارة (درايدن) السابقة تعني الرغبة الحقيقية في الهرب ولكن السياق قد جعل لها معنى آخر ، إذ أصبحت كلمة (التراجع) تعني الرغبة في

(١٠٢) انظر : Ibid., p. 198
(١٠٣) انظر : Ibid., p., p. 198 — 199
(١٠٤) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ص ٢٠٧ .

الهجوم كما تعني الرغبة في الهرب مثل كلمة (بعد) في عبارة الشاعر (سأطلب بعد الدار) السابقة .

وهكذا فان هذا البحث يكشف عن مفهوم الغموض لدى البلاغيين والنقاد العرب القدماء ، ذلك المفهوم الذي ارتبط باثراء النص الأدبي والشعري وذلك لأنه يقوم على تعدد المحتملات ، ودقة المعنى وبعد غوره وعدم مباشرته ، وقد اتضح أن النقد العربي قد سبق امبسون في الاهتمام بالغموض بالمفهوم الذي طرحه امبسون بل زاد عليه في ضروب اختصت بها البلاغة العربية والشعر العربي .

كما أن البحث يغير النظرة السلبية التي ارتبطت بالغموض والتي من أجلها لم يسم النقاد القدماء كثيرا من الأضرب التي تدخل في باب الغموض غموضا ، إذ كشف عن أن الوضوح الذي سيطر على التفكير البلاغي القديم لا يناقض الغموض كما لا يعني المباشرة وانما يرتبط بالتأثير ويخدمه ولهذا فهو يجافي الوضوح البسيط ويدخل في باب الغموض الشفيف .

***

المصادر والمراجع

ـ العربيــــة :

(١) ابن ابي الحديد : الفلك الدائر على المثل السائر ، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٩م .
(٢) ابن الأثير ، ضياء الدين نصر الدين الأثير الجزري : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٩م .
(٣) ابن رشيق ، ابو علي الحسن العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، جـ٢ ، بيروت : دال الجيل ، ١٩٧٢م .
(٤) ابن سنان ، ابو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد : سر الفصاحة ، صححه وعلق عليه عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده ، ١٩٥٢م .
(٥) ابن فارس ، احمد بن فارس بن زكريا : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها ، تحقيق السيد احمد صقر : القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧٧ م.
(٦) ابن منظور ، جمال الدين · لسان العرب ، بيروت : دار صادر ، د . ت .
(٧) ادونيس ، علي احمد سعيد · زمن الشعر ، بيروت : دار العودة ، ١٩٨٣م .
(٨) اسماعيل عز الدين : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، بيروت : دار العودة ودار الثقافة ، ١٩٨١م .
(٩) بدوي ، احمد احمد : أسس النقد الأدبي عند العرب ، القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر بالفجالة ، ١٩٧٩م .
(١٠) الجاحظ ، عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، جـ١ ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨م .
(١١) الجاحظ ، عمرو بن بحر : الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، جـ٣ ، القاهرة : ١٩٤٥م .
(١٢) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الاعجاز ، بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٩٧٨م .
(١٣) الجرجاني ،القاضي علي بن عبدالعزيز : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٦م .
(١٤) الحاتمي ، محمد بن الحسن بن المظفر : حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، تحقيق جعفر الكتاني ، جـ٢ ، بغداد : دار الرشيد للنشر ، ١٩٧٩م .
(١٥) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، بيروت : دار الغرب الاسلامي ، ١٩٨١م .
(١٦) الحموي ، ابن حجة · خزانة الأدب وغاية الأرب ، القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٣٠٤هـ .
(١٧) زايد ، علي عشري : عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، بغداد : دار الفصحى للطباعة والنشر ، د . ت .
(١٨) السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين : المزهر في علوم اللغة وانواعها ، تحقيق احمد جاد المولى ومحمد ابو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي ، القاهرة : مطبعة علي محمد صبيح واولاده ، د . ت .
(١٩) طبانة ، بدوي : قضايا النقد الأدبي ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢م .
(٢٠) عزام ، محمد : بنية الشعر الجديد ، الدار البيضاء : دار الرشاد ، ١٩٧٦م .
(٢١) العسكري ، ابو هلال : كتاب الصناعتين ، تحقيق د . مفيد قميحة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م .
(٢٢) عصفور ، جابر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٣م .
(٢٣) عصفور ، جابر · مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي ، القاهرة : المركز العربي للثقافة والعلوم ، ١٩٨٣م .
(٢٤) العلوي ، يحيى بن حمزة : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز تصحيح سيد بن علي المرصفي ، القاهرة : مطبعة المقتطف ، ١٩١٤م .
(٢٥) الغذامي ، عبدالله محمد : الخطيئة والتكفير ، جدة : النادي الأدبي الثقافي ، ١٩٨٥م .
(٢٦) المرزباني ، محمد بن عمران : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، باعتناء محب الدين الخطيب ، القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٣٨٥هـ .
(٢٧) مطلوب ، أحمد : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، جـ ١ ، بغداد : مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٣م .
(٢٨) ناصف ، مصطفى : دراسة الأدب العربي ، بيروت : دار الاندلس ، د . ت .
(٢٩) النويري ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ٧ ، القاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، د . ت .

ـ المترجمــة :

(١) هاين ، ستانلي النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة احسان عباس ومحمد يوسف نجم ، جـ ٢ ، بيروت دار الثقافة ، ١٩٧٨ .

ـ الأجنبية غير المترجمة :

1 — Empson, William: Seven Types of Ambiguity New York: New Directions, 1966.

الدوريـــات :

ـ العربيــة :

(١) ادونيـس ، مجلة شعر اللبنانية ، محاولة في تعريف الشعر الحديث ، دار مجلة شعر ، صيف عام ١٩٥٩ .

(٢) بروانة ، فالتر ، الوجودية في الجاهلية ، مجلة المعرفة السورية ، العدد ٤ ، ١٩٦٣ .

(٣) الطرابلسي ، محمد الهادي ، مجلة فصول ، الغموض في الشعر ، المجلد الرابع ، العدد الرابع ، سبتمبر ١٩٨٤

(٤) القلماوي ، سهير ، تراثنا في أضواء حديثة ، مجلة الكاتب ، العدد الثاني ، ١٩٦١

ـ الأجنبيــة :

1 — Stetkevych, Jaroslav, The Arabic Qasidah: From Form and Content to Mood and Meaning, Harvard Ukrainian studies, 3/4 (1979 — 1980).

* * *

السريالية والجنون

سمير غريب *

السريالية هي تلقائية نفسية خالصة ، نعبر بواسطتها ـ سواء شفاهة أو كتابة أو بأية طريقة أخرى ـ عن الوظيفة الحقيقية للتفكير . . تفكير يملي في غياب كل تحكم يمارسه العقل ، وخارج أية سيطرة مسبقة لجماليات أو أخلاقيات » .

هكذا يعرف أندريه بريتون السريالية في البيان الأول للجماعة السريالية الذي صدر عام ١٩٢٤ . ومن هذا التعريف المختصر تبدو على الفور أن ثمة علاقة خاصة بين هذا الإتجاه الفني وبين عالم « اللاعقل » ميزت هذا الاتجاه عن غيره من الاتجاهات الفنية الحديثة . وكلمة حديثة هنا نذكرها مع تحفظ بأن تاريخ الفن عرف في فترات زمنية سابقة فنانين وأدباء اقتربوا من هذا العالم . وإن كانت السريالية كمصطلح حديث أطلقه الشاعر الفرنسي المعروف « أبوللينير » لأول مرة عام ١٩١٧ عند حديثه عن مسرحيته « نهودتيريزيا » "Les Mamelles de Tieresies" ، وكاتجاه فني قاده الشاعر والروائي والناقد الفرنسي أندريه بريتون على مدى ما يقرب من نصف قرن ، قد نظّرت لهذه العلاقة وحاولت ممارستها عمليا في تجارب مختلفة وابداعات متنوعة سوف نعرض لها فيها بعد .

تعبير « سريالية » Surrealism يعني « ما فوق الواقع » ، ولا يعني هذا التعبير تماما « عالم اللاعقل » أو « الجنون » اذا اعتبرنا أن الجنون هو جزء من الواقع المعاش ، أو أن المجانين بشر يتعامل معهم عقلاء ـ على الأقل ـ أطباء وباحثون في الأمراض العقلية . . لكن السريالية تعتمد أساسا في إبداعها على « لا وعي » الفنان أي أن يستمد عمله من لا وعيه ، وهذا يتطلب إزاحة كل تحكم للوعي عن طريق ما يختزنه لا وعي الفنان من صور ورؤى وأفكار . ولكي تتم هذه

---

* كاتب وباحث مصري في جريدة الأخبار ، من مؤلفاته في مصر ـ هيئة الكتاب ١٩٨٦

الإزاحة ، ويتمكن الفنان من تسجيل هذا « السيال » الآتي من لا وعيه ، لابد من لحظات معينة وتحضير وتدريب ووسائل سنعرض لها . وقد اعتبروا أن « الحلم » من اللحظات الهامة التي ينفتح فيها لا وعي الفنان فأولوا أهمية كبيرة « لتسجيل أحلامهم » في إبداعهم ، على اعتبار أن الحلم متواصل ويحمل آثار تنظيم . الذاكرة وحدها تدعي لنفسها حق تقطيعه ، حتى عدم الالتفات إلى الحالات الانتقالية وتقديم سلسلة أحلام بدلا من حلم ، كما جاء في البيان الأول(1).

ويؤكد نفس البيان في نهايته على أن السريالية « بنيت على الاعتقاد في الحقيقة العليا لخلق أشكال التداعي المهملة حتى الآن ، وفي القدرة الكلية للحلم ، وفي اللعبة المجردة للفكرة . . تقود السريالية إلى تدمير نهائي لكل الآليات النفسية الأخرى وأن تحل محلها في حل المشاكل الأساسية للحياة » . . ويقول أندريه بريتون : « أعتقد في انحلال مستقبلي لهاتين الحالتين اللتين تكونان في الظاهر متناقضتين ، وهما الحلم والواقع ، إلى نوع من الواقع المطلق يكون سرياليا لو استطاع أحدنا أن يناديه كذلك » .

كل هذا يفسر اهتمام السريالية بعالم الجنون على اعتبار أنه العالم الذي تندمج فيه الحقيقة بالوهم وتسقط سيطرة الوعي عن تفكير وسلوك المجانين . كانت لدراسة بريتون في علم النفس وعمله في بعض المستشفيات في علاج الأمراض العقلية تأثير كبير عليه وعلى السريالية . فقد شرع بريتون ـ الذي ولد في ١٨ فبراير ١٨٩٦ ـ في دراسة الطب عام ١٩١٣ ، إلا أنه جُنّد بعد اشتعال الحرب العالمية الأولى وأُلزم بالعمل في مستشفى « نانت » . وهناك تعرف على جندي شاب اسمه « جاك فاشي » كان طالبا في مدرسة الفنون الجميلة ثم جنّد وأصيب في ساقه ، وكان فاشي شخصية غير عادية أثرت كثيرا في بريتون . وفي عام ١٩١٧ انتقل بريتون إلى العمل في مستشفى عسكري للأمراض العقلية في « سان ديزييه » ، وهناك عمل مع « د. ليروا » الزميل السابق للدكتور « جون مارتان شاركو » رائد علاج الهستيريا باستخدام التنويم المغناطيسي ، والذي أطلقوا عليه « نابليون العصاب » . وقد انهمك بريتون مع ليروا في نظريات وتطبيقات علم النفس الكلاسيكي ، وشارك في علاج حالة بارانويا لجندي لم يكن يعتقد في حقيقة الحرب . كان يعتبر أن الإصابة والموت زيف ، وأن إطلاق القذائف خدعة ، مما أثار لدى بريتون التفكير في اندماج الحقيقة بالوهم . وأخذ يؤمن بنظريات فرويد حول اللاوعي وكبت العقد وتفسير الأحلام ، واستوعب نظرية التداعي التي بدت له حافزا شعريا جديدا تماما . . وقد التقى بريتون وفرويد في منزل فرويد في إحدى ضواحي فيينا عام ١٩٢١ ، وقد أفادته هذه الزيارة كثيرا . وعندما انتقل بريتون إلى باريس ليعمل في مستشفى « دي لابيتيه » واصل دراساته النفسية مع د. جوزيف بابنسكي أكبر طبيب نفسي في فرنسا آنذاك .

كان بريتون يخرج من المستشفى ليلتقي بأصدقائه الذين كون معهم الجماعة السريالية على مقهى « دي فلور » ويحدثهم عن تجاربه وآرائه ، وقد توصلوا في مناقشاتهم إلى قناعات مشتركة بدأت تظهر في إبداعهم المبكر مثل مجموعة الشاعر « فيليب سوبو » « أكواريوم » التي صدرت عام ١٩١٧ ، وقصيدته « مرآة » التي وصفها بريتون بأنها « ترتيلة للامعقول ، ماء من ينبوع اللاوعي » .

لم يقتصر اهتمام السرياليين على الأمراض العقلية ، بل اهتموا أيضا بظواهر نفسية أخرى . فلقد استفادوا

(1) Ander Breton; Manifestes surrealites. pari s 1924-30. p. 22.

من بحث أجراه « تيودور فلورنوا » Theodore Flaurnoy على الوسيطة الروحية « كاترين ميللر » التي عرفت باسمها المستعار « هيلين سميث » . تابع فلورنوا على مدى خمس سنوات ـ ١٨٩٤ ـ ١٨٩٩ ـ جولاتها اللاعقلانية الظاهرة بينما هي في حالة اللاوعي . وإذا صدقنا فكرة إحلال الروح فإن الوسيطة كانت تتحدث أحيانا كأميرة هندية ، وأحيانا أخرى على أنها ماري انطوانيت ، وأحيانا تتحدث عن زياراتها لكوكب المريخ وتصف ملابس ولغة أهل هذا الكوكب . وقال فلورنوا إن هناك حقيقة نفسية في كلامها وتصرفاتها ، ونشر عام ١٩٠٠ تقريرا بنتائجه في بحث بعنوان « من الهند إلى كوكب المريخ » نسب فيه لنشاط الوعي تحقيق مواهب إبداعية . وعرضت الرسوم التي رسمتها الوسيطة في حالة اللاوعي في جنيف وباريس .

لماذا السريالية ؟

ما هي الدوافع والمبررات وراء لجوء السرياليين إلى عالم اللاوعي والأحلام والتجارب الروحية والجنون طريقا للإبداع الفني ؟ أو ما هي مبررات نشأة السريالية نفسها ؟ .

هناك أسباب تتصل بالظروف التاريخية التي أحاطت بمولد السريالية الحديثة وأخرى تتعلق برؤية السريالية للفن والأدب ، وهي أسباب متداخلة بطبيعة الحال :

١ ـ الحرب :

ولدت السريالية من الحرب العالمية الأولى ، وما كادت تتضح حتى اكتوت بنيران حرب عالمية ثانية . في المعارك التي بدأت بين الفرنسيين والألمان في فبراير ١٩١٦ مات حوالي نصف مليون شخص ، ولم تسفر عن منتصر ، وكان من بين ضحايا هذه المعارك الشاعر أبوللينير نفسه الذي أصيب بشظية في رأسه ، وشاهد فيليب سوبو ـ أحد مؤسسي السريالية ـ زملاءه يموتون بحمى التيفوس على جبهة القتال التي ذهب إليها مجندا ، ومرض هو أيضا طوال ثلاثة أشهر أشرف فيها على الموت . وقد عرفنا فيما سبق أن بريتون كان يشارك في علاج الجنود المصابين .

لقد شارك السرياليون قبل تأسيس جماعتهم في جماعة « دادا » ـ وهو اسم لا يعني شيئا ـ هذه الجماعة نفسها تشكلت من فنانين شبان من ألمانيا ورومانيا وسويسرا هربوا من جحيم الحرب ، والتقوا على مقهى « فولتير » في زيورخ لينقلوا عروض مقاهي ميونخ وعروض ميلانو المستقبلية إلى موقف عدمي في الفن والمجتمع . بدءوا بقراءة الشعر والأغاني والرقص ، ثم أخذوا في تنظيم المحاضرات وإقامة المعارض . . وكان انتعاشهم هذا تحديهم للعالم في خراب الحرب . قال الشاعر الروماني تريستان تزارا الذي قاد الدادا عند مولدها : « لا أستثني أحدا ، الريح هبت في قوة العاصفة . ضمير بعد ضمير ككتل ضخمة تتساقط بسرعة . حكمة وجنون معا ، ولا أحد يدري أين ترقد النهاية » . . وفي العدد الثالث من مجلة « دادا » الذي صدر في نهاية عام ١٩١٨ كتب تزارا بيانا قال فيه : « دادا لا تعني شيئا . لا مجال للرحمة . يبقى لنا بعد المجزرة أمل في إنسانية مطهرة . كل ما ننظر إليه زائف . نحن ضد الأنظمة . إن الأكثر قبولا بين الأنظمة هو ألا يكون لك مبدئيا أي نظام » .

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لم ينته القلق ولا الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في أوروبا ، فكان طبيعيا أن تبدو بوادر حرب عالمية ثانية . . في عام واحد ـ ١٩٣٦ ، غزت إيطاليا أثيوبيا ، واحتلت ألمانيا إقليم الراين ، وبدأت الحرب الأهلية الأسبانية . . وحينما أعلن موسوليني احتلال أثيوبيا صاغ أندريه بريتون بيان « ضد الهجوم » وقعه أكثر من ٨٥٠ من السرياليين والمتعاطفين معهم .

٢ ـ الفوضى السياسية والاجتماعية :

عندما تحيط الفوضى بالناس يصبح من الصعب مطالبتهم بالعقل والتصرف بحكمة . . هذا هو الوضع الذي عاشه السرياليون الفرنسيون طوال سنوات ما بين الحربين . لقد شاهدوا الحكومة الفرنسية ترسل الجنرال « ويجان Weygand » إلى بولندا بينما ترسل قواتٍ مسلحة إلى سوريا وتتدخل في شئون تركيا ، كل ذلك في عام واحد : ١٩٢٠ . وبينما كان السرياليون يشاهدون اتساع رقعة الشوفينية التي يعادونها بسيطرة موسوليني على ايطاليا عام ١٩٢٢ ، شاهدوا أيضا شارل موروا يقود حملة ضد الجمهورية الثالثة ويطالب بعودة الملكية الوراثية ، بينما شاهدوا « ليون دوديه » يهاجم البروتستانت والماسونية واليهود والمهاجرين ويستحسن وسائل موسوليني . . أية فوضى تلك ؟ وكيف تنعكس على فنانين وأدباء شبان موهوبين ؟ من لم يستطع منهم الصمود انتحر . وهكذا شاهد المجتمع الفرنسي انتشار ظاهرة الانتحار خلال تلك السنوات . وقد اهتم بها السرياليون أكثر من غيرهم منذ انتحر جاك فاشي عام ١٩١٩ بـ ٤٠ جراما من الأفيون ، ثم انتحار رينيه كريفيل ، وحاول الشاعر لوي أراجون نفسه الانتحار عام ١٩٢٨ في غرفته بأحد فنادق فينسيا بتناول جرعة كبيرة من المخدرات . وقد تضمن أول عدد من المجلة التي أصدرها السرياليون بعنوان « الثورة السريالية » في ديسمبر ١٩٢٤ تحقيقا عن الانتحار دار حول إجابات عدد من محرريها على سؤال : هل الانتحار حل ؟ وقد استشهد بريتون في ردّه بكلمة تيودور جوفروي « الانتحار كلمة سيئة التشكيل . الشخص الذي يقتل ليس نفس الشخص الذي يقتل » .

إزاء كل هذا لم يكن غريبا أن يصدر السرياليون بيانا في ٢٥ يناير ١٩٢٥ يذكر بعهد الثورة الفرنسية ، يعلنون فيه ضرورة القيام بثورة « نحن نربط كلمة سريالي بكلمة ثورة » ويوجهون تحذيرا للعالم الغربي بشكل خاص ، بأن « السريالية سوف تفجر قيود العقل ، ولو أدى الأمر إلى استخدام مطارق مادية » .

وهكذا ـ في جملة ـ يعبرون عن لب رؤ يتهم : تغيير الواقع بتفجير قيود العقل . . وهم لا يقصدون بالطبع أن يتحول العالم إلى عالم من المجانين لا يمكن التعامل معهم أو فيما بينهم . ولكنهم يقصدون أن هذا العالم الغربي أصبح عالما من المجرمين ـ وليسوا المجانين ـ وأن هذا الواقع جاء نتيجة آراء واتجاهات معينة تتحكم في تفكير هؤلاء المتحكمين في العالم . . هذه الآراء والاتجاهات المتحكمة في التفكير هي المقصودة بتعبير « قيود العقل » . . ولكي يتحول هذا العالم إلى عالم من الخير والحب والفن ، لابد من تحطيم تلك القيود . . ولم يتوقف السرياليون عن إصدار البيانات المؤكدة لذلك مثل البيان الذي أصدروه في سبتمبر ١٩٢٥ بعنوان « الثورة أولا ودائما » ، وقد جاء هذا العنوان معارضا لبيان أصدرته منظمة يمينية اسمها « العمل الفرنسي » تحت عنوان « السياسة أولا » ، بدأ بيان السرياليين بتوضيح ضرورة الثورة ورفض الأفكار التي قامت عليها الحضارة الأوربية ومناهضة الظلم الاجتماعي والطبقي ، وقد أعادوا نشر نفس البيان في العدد الخامس من مجلتهم « الثورة السريالية » الذي صدر في الشهر التالي .

٣ ـ في نفس تلك الفترة الزمنية شهدت أوربا بشكل عام ، وفرنسا بخاصة ، ظاهرتين إيجابيتين :

زخم فني تمثل في قدوم فنانين من دول مختلفة بينها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية ، كانوا يلتقون في مقاهي حي « مونبارناس » مثل « لادوم » و « لاكوبول » و « روتوند » ، وهناك مثلا تعرف الأديب

الروسي إيليا اهرنبورج صاحب الرواية المؤثرة « ذوبان الجليد » على فنان قادم من أسبانيا مثل بيكاسو ، وآخر قادم من رومانيا مثل « برانكوزي » . ولعل اللجنة التي شكلها بريتون عام ١٩٢٢ للتحضير لمؤتمر دولي حول « اتجاهات الروح الحديثة والدفاع عنها » تعبر عن هذا الزخم الفني الذي شهدته باريس آنذاك . فقد تكونت اللجنة من روبير ديلوناي الرسام الذي طور التكعيبية لما يسمى بـ « أورفيزم » ، وفرنان ليجيه الذي أبدع اتجاها خاصا به في المدرسة التكعيبية ، وأميدي أوزنفان المدافع عن الأحكام الكلاسيكي ، ورروجيه فيتراك محرر مجلة « مغامرة Aventure » التي ضمت مجموعة من الشعراء الشبان ينتمون بأفكارهم إلى أبوللينير وبريتون . . وغيرهم من أصحاب الاتجاهات المتنوعة .

كان طبيعيا في هذا الجو أن تظهر اتجاهات جديدة . . تزايد الاهتمام بعلم النفس وانتشار الجماعات الروحية : فقد انتشرت الكتب النفسية مثل كتاب تشارلز ريشيت "Charles Richet" بحث فيما وراء النفس ، وكتب رينيه جينو "Rene Guenon" عن الفلسفة الشرقية ، وكتاب دوركايم حول القوة الرمزية السحرية للطواطم والتصورات العقائدية الأخرى في استراليا . . بالإضافة إلى انتشار الدراويش والوسطاء الروحيين وقارىء الغيب . وبغض النظر عن الفروق الأساسية بين هذه الاتجاهات الروحية والسحرية التي لم تختف حتى في أكثر الدول تقدما علميا وتكنولوجيا وبين علم النفس ، فقد ساعد نمو هذا العلم وانتشار تلك الاتجاهات السرياليين على الالتفات إلى الجوانب الخفية أو المهملة في الإنسان وعلى البحث في لا وعيه كمنبع للإبداع ..

بعد كل هذه العوامل والمؤثرات السابقة وبسببها جاء السرياليون برؤية جديدة للجمال والابداع . . رؤية تعتمد على أن « الواقع يشع من حيث تحديده . . لا يوجد الجمال إلا فيما هو غير واقعي . الانسان هو الذي أدخل الجمال إلى العالم . وينبغي الابتعاد أكثر عن الواقع لانتاج ماهو جميل . . ان مؤلفات السرياليين هي على وجه الخصوص اعترافات موسوسين وشكاكين[٢] »

وقد استلزمت هذه الرؤية إعادة النظر في موضوع « الإلهام » كمفجر لإبداع الفنان ، وطالب السرياليون « بالتوقف عن النظر إليه كأمر مقدس[٣] » . . لأن المفجر للإبداع عند السريالي تلك اللحظة التي ينفتح فيها لاوعيه أمام تداعيات الذاكرة ليسجلها الفنان بأدوات مختلفة كالكلمات أو خامات الرسم أو الموسيقا . . . الخ . وهو الأسلوب الذي أطلقت عليه السريالية « الآلية » أو « التلقائية » . الفنان عند ممارسة هذا الأسلوب يمتزج فيه الخيال بالحلم ، بالرغبات المكبوتة ، والعقد بالرغبات غير المكبوتة وأحداث من الواقع . . ويمكن القول إنه فضلا عن أن هذا الأسلوب يحمل رؤية فنية جديدة ، فإنه من خلاله أيضا يفرج الفنان عن كل ما يكبته ، وفي الإفراج عن الكبت علاج وتوازن نفسي : فهل إذا أتيح لكل انسان التعبير عن رغباته المكبوتة وممارستها علنا أن تحل مشكلاته النفسية وتتحقق سعادته ؟ ليس الأمر بهذه البساطة أولا لأن هذه المشاكل النفسية ناجمة عن مشاكل وراثية واقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ، وبالطبع لا يمكن تصور عالم يخلو من تلك المشاكل إلا المجتمع الفاضل أو « اليوتوبيا » مستحيلة التحقيق . وثانيا ، لأنه بافتراض تصور إتاحة الحرية للإنسان لممارسة رغباته المكبوتة فسوف تنجم عنها مشاكل أخلاقية طبقا للقيم السائدة في المجتمع .

(٢) Idem p 20.
(٣) Idem p. 38.

على كل حال فهذه رؤ يـة السريـالية التي « لا تهتم بحجة الفن أو حتى بحجة ضد الفن ، ولا بالفلسفة أو ضد الفلسفة ، أي أنها لا تهتم بكل مالا يؤدي إلى إفناء الكائن في التألق الداخلي المسكـون بروح النـار وليس بروح الجليد » . . هذا التألق الـداخلي ـ أو الانفعـال الذي يهز أعمق أعماق الكائن « لا يكتمل ظهوره إلا لدى الاقتراب من العنصر الخيالي في هـذه النقطة التي يفقد معها العقل البشري سيطرته ، ولا يستطيع هـذا الانفعال أن يرتسم في إطار العالم الواقعي ، ولا مناص له في تعجله إلا في الاستجابة للنداء الخالد المنبعث من الرموز والأساطير (٤) » .

من المميزات التي نجدها لدى السرياليين أن رؤ يتهم تلك لم يتوصلوا إليها بالتفكير النظري والقراءة والبحث الجمالي والتاريخي . . لكنهم قرنوا باستمرار تفكيـرهم بممارساتهم ، بل قرنوا التفكير بالتدريب العملي ، وقد سـاعـدهم تكـوينهم الشخصي على المضي في هـــذا الطريق ، وجاء إبداعهم المتنوع تطبيقا عمليا لآرائهم وأفكارهم . . كانت شخصياتهم مؤهلة للخروج على المألوف وتحمل تبعات هذا الخروج من معارضة أو عداء نظري وعملي ، وكانت ممارساتهم سعيا وراء « تحـطيم قواعد العقل » ، وجاء إبداعهم غريبا أو شاذا في نظر الكثيرين وبخاصة من الحريصين على قواعد العقـل ، سواء كانوا فنانين أو غير فنانين . . وحكم البعض على مجمل شخصياتهم وممارساتهم وإبـداعهم بالجنـون . . فهل كانوا مجانين بالفعل ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤ ال علينا بالاقتراب منهم أكثر ، بالتعرف على شخصياتهم والدخول في تدريباتهم وممارساتهم والربط بين ذلك وما نتج عنه من إبداع .

ربمـا تستوقفنـا شخصية « جـاك فاشي » أكـثر من غيرها . فهو فضلا عن غرابة شخصيته ، أثر في بريتون تأثيرا كبيرا بعد أن تعرف عليه عام ١٩١٥ في مستشفى « نانت » حيث عولـج فاشي بعـد أن نجا من المـوت بأعجوبة لأنه « يرفض أن يموت في زمن الحـرب » . . ظل فاشي في « نـانت » بعد خـروجه من المستشفى . عمل على المراكب في نهر اللوار ، وكان شخصية سريالية حية . . يرتـدي سلسلة مختلفة من المـلابس الرسميـة لبعض المهن ، ويضع عدسـة على عينـه اليسرى فقط (مـونوكـل) . كان يـذهب مع بـريتـون إلى السينـما ويتسابقان في معرفة نهاية الفيلم . يعود بريتون إلى فاشي في أكثر من كتاب لـه : « كان فـاشي يتنزه أحيـانا في شوارع نانت مرتديا ملابس ضابط فرسـان أو طيار أو طبيب . يصادفك أحيانا دون أن يبدو عليه أنه رآك ، ويواصل طريقه دون أن يلتفت إليك ، لم يكن يمد يده ليقول صباح الخير أو إلى اللقاء . كان يسكن داخل غرفة جميلة مـع شـابـة لم أعـرف قط ســوى اسمهـا الأول (لويز) . كان يضطرها إلى الجلوس ساعـات جامـدة وصامتة في إحـدى الزوايـا أثناء جلوسي معـه . تقدم الشاي عند الساعة الخامسة فيشكرها بقبلة يطبعها على يدها . إذا صدقنا ماقال فهو لم يقم أية علاقة جنسيـة معها » . .

استخلص بـريتون من شخصيـة فاشي شكـلا من أشكال التعبيرات المفضلة لدى السرياليين هو مايسمى بـ « الفكاهة السوداء » . يقول بـريتون : « كـان وعيا فائقا يمنح علاقات فاشي بالذات سياقا غريبا جنائزيـا مقلقا للغاية . . من هذه العـلاقات تنبجس الفكـاهة السوداء (٥) » . .

« الفكاهة السوداء » يعرفها جاك فاشي نفسه بـأنها « الحس باللاجدوى المسرحية وبدون غبطة قطعـا » .

(٤) أندريه بريتون · حدود السريالية غير الفاصلة . ترجمة عصام محفوظ . النهار ٣/ ٩/ ١٩٧٤

(٥) كميل قيصر داغر . اندريه بريتون المؤسسة العربية للدراسات والنشر . ١٩٧٩ . ص ٥٦ .

ويفسر جورج حنين ـ رائد السريالية في مصر ـ تلك الفكرة بقوله : « إن الفكاهة السوداء هي الحس بكل المقبل من اللاجدوى في حياة تنقصها الغبطة الكافية [٦] » . قد تبدو الفكاهة السوداء في نظر الكثيرين تشاؤ ما مدمرا أو غير بناء أو سلبية ؟ ناتجة عن اليأس . لكن حتى اليأس نفسه عند السرياليين « ليس بأي حال من الأحوال وسطا راكدا ، حيث يطفو الى الأبد خيال الضعفاء . فإن اليأس لا ينتظر . اليأس جارف . اليأس يقتحم الأبواب . يصدع المدن . اليأس هو العاصفة التي من ورائها تنبثق عوالم الخلاص العظيمة [٧] » . . وهذا نموذج أيضا على رؤية السريالية للأشياء ، وهو في نفس الوقت مثال للرد على من يتهمون السريالية بكل ماهو سلبي ومدمر في الأدب والفن .

أنهى جاك فاشي حياته مثلما عاشها ، انتحر في يناير ١٩١٩ ـ قبل أن تولد رسميا الجماعة السريالية ـ بتناول ٤٠ جراما من الأفيون ، واستحق وصف أندريه بريتون له بعد وفاته « بأنه » سيد من الماضي في فن التعلق قليلا ـ أو بلا اهتمام ـ بأي شيء . . وقد بلغ من تأثير فاشي في بريتون أنه كتب عنه « رحل عنا بصورة غامضة شاب في الثالثة والعشرين من عمره له أجمل نظرة شاهدتها يوم على الكون » . . وكتب بريتون : « تعلقت في الأدب بجاري وابوللينير ونوفو ولوتريامون ، إلاأنني أدين لجاك فاشي بأكثر ما لأي منهم . إن الزمن الذي قضيته معه في نانت عام ١٩١٦ يبدو لي شبه مسحور ، لن يغرب عن بالي أبدا [٨] » .

أما الشاعر والروائي فيليب سوبو فكان يطلب السجق من بائعات الزهور . يشد سلسلة الطوارىء في الأتوبيس ليقف فجأة . ويسأل الركاب عن تواريخ ميلادهم . يذهب لبيوت أصدقائه ويسأل عن نفسه : هل سوبو عندكم ؟ أحيانا عندما تكون الشمس ساطعة يفتح مظلة للمطر ، ويدعو فتاة لتحتمي من هطوله . وكان يدعو زبائن المقهى لمشاركته الشراب دون أن يعرفهم . .

وهكذا آخرون من السرياليين . . رينيه كريفيل عندما التحق بهم في شتاء ١٩٢٢ كانت لديه خبرة في تحضير الأرواح من سيدة رأت أنه يملك قوة « وسائطية » . . وانطونان أرتو كتب إلى جاك ريفيير في يناير ١٩٢٤ خطابا يعترف فيه : « أنا رجل يعاني كثيرا في عقله ، ولهذا لي الحق في الكلام[٩] » . .

عن سلفادور دالي أشهر فنان سريالي يكفي في هذا المقام ـ حتى نعود للحديث عنه مرة أخرى ـ أن نقرأ له عن نفسه (وقد كتب وتحدث كثيرا عن نفسه) : « هناك دالي غريب الأطوار ، كلاسيكي ، كاثوليكي ، روماني ، وروماني من أصدقاء رومانيا لأن هذا البلد سيكون من أوائل الشعوب التي ستعيد الملكية لأوربا » ـ أو قوله : « أنا شديد الإعجاب بحياتي ، إنها فعلا الحياة التي تناسب النابغة دالي ، شيء واحد يزعجني هو حزن أبي إزاء تصرفاتي . كان أبي قاضي مدينة فيجيراس (في أسبانيا) ، وكان يحزن عند رؤيتي أدخل المقهى وعلى رأسي رغيف خبز [١٠] » .

بدأ السرياليون نماذج غير عادية حتى قبل تكوينهم لجماعاتهم السريالية ، وأثناء عملهم مع الدادا : في مهرجان الدادا الذي افتتحوه في ٢ مايو ١٩٢١ في جاليري سان باري ، ارتدوا قفازات بيضاء . . ماء

---

(٦) سمير غريب . السريالية في مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ ص ١٢٠ .
(٧) المصدر السابق ص ١٢١
(٨) كميل قيصر داغر مصدر سابق ص ١٠١ .
(٩) المصدر السابق . ص ١٠٥
(١٠) نزيه خاطر ـ النهار ١١/ ١٠/ ١٩٧٤ .

لوى أراجون كالقطط ، وأخذ بنجامان بيريه وسيرج شاركون يرعشان أيديهما طوال الوقت بينما يصيح جورج ريبمون بلا انقطاع « إنها تمطر على الجمجمة » . . جاك ريجون كان يقف قرب الباب ليعد بصوت مرتفع عدد حبات اللؤلؤ التي تضعها الزائرات معلنا وصول كل سيدة ومرافقها مقلدا صوت السيارة . بريتون نفسه كان يمضغ أعواد الثقاب ، بينما يلعب سويو وتزارا « المساكة » . رغم أن بريتون كان أكثرهم « اتزانا » بالمفهوم العادي . .

لماذا فعلوا مافعلوه ؟ لأنه عندما دخل « كي ثان دونجن » الفنان الحوشي السابق الذي أصبح أكثر فناني البورتريه في باريس أناقة - تلقى من الدادائيين خطبة مطولة من الشتائم . وعندما دخل أندريه جيد تلقوه بالسباب : « وثن الصالونات » . . أي أن كل مافعلوه كان احتجاجا على القيم التقليدية في الفن السائد ، ليس احتجاجا فقط بل ومعارضة لها . . مثلما نشروا في اكتوبر ١٩٢٤ كتابا يهاجمون فيه أحد أعلام الأدب الفرنسي الحديث « أناتول فرانس » ويصفونه بأنه « جثة » ، وهي الكلمة التي اختاروها عنوانا لكتابهم الذي شارك فيه بريتون وأراجون وبول ايلوار وسويو ، أشاروا فيه إلى ما أسموه بالجرائم التي ارتكبها أناتول فرانس ، إساءة استعماله للغة التي وجدها أراجون « تبجح عارم بل وتوجد فقط وراء تقديرات سوقية » . وبعد أن وصفه أراجون بـ « دجال لعين للعقل » تساءل مستنكرا « من العار أن تمنح هذه الأمة القائمة اسمها له فهل هي - حقيقة - مسرورة بذلك » .

من ذلك أيضا مافعله الشاعر المعروف بول ايلورا عندما اصطحب المخرج الروسي الكبير ايزنشتاين في فبراير ١٩٣٠ إلى مسرح الكوميدي فرانسيز لمشاهدة مسرحية جون كوكتو « الصوت الانساني » ، وعندما شاهدا مشهدا تتحدث فيه ممثلة مع حبيبها في التليفون ، قاطعها ايلوار ملوحا بصحيفة وصائحا : « قذر ، كفى ، كفى ، انه يبورد على الطرف الآخر » . . وكان ايلوار يشير الى ما أشيع عن علاقة خاصة بين ديبورد وكوكتو ، الا أن الجمهور هاجم ايلوار وطرده من المسرح بعد أن أحرق أحدهم ركبته بسيجارة . .

إذن هذه الشخصيات غير العادية كانت مؤهلة ومستعدة للقيام بالتدريبات والتجارب التي قاموا بها تحقيقا لرؤيتهم وأفكارهم في « التلقائية النفسية الخالصة » ، فماذا فعلوا ؟

كانوا يعقدون « جلسات روحية » في منزلي بريتون وبيكابيا . كان روبير دسنو أسرعهم للدخول في حالة اللاوعي . كان يحتاج فقط إلى أن يغلق عينيه ويشرب البيرة ويسرح ، ثم ينطلق في بلاغة وتتدفق الكلمات من فمه . . وعندما يدخل أحدهم حالة اللاوعي ، يرد على إجاباتهم . مثلما سألوا دسنو ذات مرة « ماذا ترى ؟ » فأجاب : « الموت » . وعندما سألوه « ماذا ترى من ايلوار ؟ » - وكان ايلوار يضع يده عليه - أجاب « إنه أزرق » . وعندما سألوه عن بيريه قال « سيموت في مقطورة مليئة بالناس » . . وهكذا . .

أحيانا تكون الجلسات مثلما حدث عندما تنبأ كريفيل بموت أصدقائه . وفي جلسة أخرى حرضهم على الموت الجماعي ، وبعضهم استيقظ عندما شعروا بأنهم يخنقون أنفسهم ، وذات مرة لاحق ايلوار بسكين . وعندما وصلت الجلسات إلى هذا الحد الخطير توقفوا عنها .

بالطبع لم يكن المقصود من مثل هذه الجلسات أن يتحول السرياليون إلى « محضري أرواح » أو عرافين . ولكنها كانت جزءاً من تمريناتهم وتجاربهم للوصول إلى « منطقة إشراق وبوح شعري » كما جاء في تعليق أندريه بريتون عليها · « إن ما مثلته تلك المعجزة هي مقدرة

دسنو على الانتقال إرادياً وبسرعة من تفاهات الحياة الجارية إلى منطقة إشراق وبوح شعري » من تلك المنطقة يمكن أن تتفجر لغة جديدة للكتابة ، وصوراً ورؤى جديدة .

لم يكونوا مجانين . فالجنون خلل في وظائف العقل ينتج عنه عدم قدرة المجنون في التحكم في تصرفاته وسلوكه ، ولا يستطيع تحديد هدف لها ، وبالتالي فلا يستطيع المجنون أن يبدع أي شكل من أشكال الفن ، لأن أي شكل من أشكاله يقوم على نظام معين ، وعند ما يقول أصحاب شكل معين بأنهم يحطمون « قواعد » هذا الشكل ، فهم ينشئون نظاماً جديداً بتحطيمهم للنظام القديم . والمجنون غير قادر على إحداث أي نظام .. السريالية التي قامت ثورة على كل أشكال الفن السابقة وضعت في النهاية شكلاً للعمل السريالي أصبح اليوم معروفاً ومألوفاً ومقوماً يناقشه الفنانون والنقاد ، ويمنحونه الجوائز لاعتبارات معينة يرونها توفر للعمل الفني مقومات العمل الفني .. وكل هذا نظام . وقد جاء في البيان الثاني للسريالية الذي صدر عام ١٩٢٩ « أن فكرة السريالية تميل إلى استعادة شاملة لقوتنا النفسية » ، وهذه جملة توضح أن السريالية ضد الجنون كخلل في وظائف العقل ومرض مدمر .. بل إنها مع صحة الإنسان الفائقة » . كيف نستعيد قوتنا النفسية ؟ يجيب البيان « عن طريق الدخول في أعماقنا والإضاءة المنظمة للأماكن الخفية والإظلام المنظم للأمكنة الأخرى ـ وهذا هو النظام الذي أشرت إليه الذي يبدع فناً ـ ثم يضيف البيان « والنزهة الدائمة في عقر دار المنطقة المحرمة » .. هذه المنطقة المحرمة هي منطقة اللاوعي التي لا نستفيد منها في إبداعنا بل ونكذب عليها فنتحول إلى مرضى بدرجات متفاوتة ، ويأتي إبداعنا بقدر متفاوت من الادعاء والزيف والخضوع لقواعد تؤكدها ..

السرياليون كانوا على « وعي » بكل هذا ، يعرفون هدفهم ويعرفون وسائلهم . كانوا واعين بأهمية « اللاوعي » في الإبداع الفني . وعندما انفصل بريتون عن الدادا ألقى محاضرة ليلة افتتاح معرض بيكابيا في برشلونة في نوفمبر ١٩٢٢ اقترح فيها « إعادة قوانين عهد الأرهاب لتتعامل مع مثل هذه الانحرافات العقلية » قاصداً الدادا . وقاصداً أن « الانحرافات العقلية » لا يمكن أن تنتج إبداعاً ، وانما هي انحرافات وأمراض ..

وعندما ألقى أبو لليندر محاضرة في خريف ١٩١٧ حول الروح الشعرية الجديدة ، أرجع هذه الروح إلى الشعراء الذين « سيقودونكم باتقاد ويقظة إلى العالم الليلي المنغلق للحلم » ، أي أن هؤلاء الشعراء « يقظون » لما يريدون أن يصلوا إليه وما يريدون أن يصلوا إليه هو العالم الليلي المنغلق للحلم « يريدون أن يفتحوه ويستمدوا منه ابداعهم .. وهم وجدوا الوسيلة التي تسمح بالاستفادة من هذا العالم ومن « المنطقة المحرمة » ، منطقة اللاوعي ، تلك الوسيلة هي الكتابة أو التصوير الآلي أو التلقائي . والمنطقة المشتركة بينهم وبين المجانين أن المجانين يتحدثون أيضاً بلا وعيهم ، لكن هذا الحديث لا ينتج عنه فن لأن هناك خللاً معيناً في العقل لا يسمح بأن ينتظم الحديث في شكل ابداعي ما . وقد أورد عصام محفوظ مثالين للكتابة التلقائية أحدهما فقرة من كتاب « الحبل بلا دنس » الذي كتبه أندريه بريتون مع بول ايلوار عام ١٩٣٠ ، والآخر فقرة من خطاب أحد المرضى النفسيين في مستشفى « دير الصليب » في لبنان .

من كتاب « الحبل بلا دنس » : « مرحباً يا سادتي ، مساء الخير يا سيداتي ، وجماعة الغاز . سيدي الرئيس أنا تحت أمرك ، عندي فانوس في الدراجة . وضعوا القط ، الكلب ، أمي وأبي ، أولادي ، النسر في غرفتهم الصغيرة الصغيرة . وضعوا هذه النماذج الفقيرة في المقطورة التي تدور مفاصلها ، تدور تدور . من جسر

لآخر تسقط الاثر مثل ضربات السيوف . المقبرة في طرف القرية قرب البلدية . هذا لا يساعد على إعادة ربط حلقات العائلة في زمن المجاعة » . .

أما مريض دير الصليب فيقول : « لحضرة الحكيم . . حكماً الخ . من بعد اليوم أعرض . لما كان هذا الدير والصليب ، الذي هو ليس كتابة عن ورش أشغال وتعمير وسرقات كذا الخ . التابع اتجادية وادي شحرور العليا مستشفى دير ماريوحنا . مكان مشاهير اللصوص من قديم الأزمنة وطوابقه السفلى ملصوقتين العماد فوق الشحتار كذا وأكثرية الموجودين فيه من العدمانيين بالعاهات والمتسولين واللصوص . ولم يتم ترسيمه وتعميره الآن سوى بدسائس أعظم وأفظع لصوص عرفهم التاريخ والنازحين اليه من تلك الأنحاء الذين دوخوا البلاد بدسائسهم وفظائعهم وسرقاتهم الخ . لذلك يقتضي وضع قرار إلى المراجع التنفيذية بتجريد أعظم غارات جوية بالحرائق ساحقة ومشتركة عليه . حضرت عزتلو أفندم دامت معاليكم . ابن عمي المدعو . . . بمناسبة انتخاب رئاسة الجمهورية في البلاد يقتضي تغيب اللي بيغني عن الراديوهات ويتداخل في كل المسائل المهمة ، وفي كل شاردة وواردة ويسيطر على المرافيء بأسطوله[11] » .

واضح من النموذجين أن « التفكيك » والتداعي في الأول يختلف عن الثاني . فخطاب المريض يبدو انعكاساً لأزمة نفسية ما ، وتعبير عن معاناة من « لصوص » معينين حيث تكررت كلمة سرقة أكثر من مرة . بينما يخلو النموذج الأول من هذا « القصد المرضي » فضلاً عن الاختلاف الثقافي الواضح في لغة وتركيب جمل كل من النموذجين . وسوف تتضح الفروق أكثر مثلما تتضح سمات الابداع السريالي عندما نتعرض لنماذج من هذا الابداع . .

الكتابة الآلية :

يحكي أندريه بريتون في البيان الأول : « حدث ذات مساء قبل النوم أن التقط جملة ملفوظة بوضوح . جملة غريبة لا تحمل أثر الأحداث التي كنت ممتزجاً بها في تلك اللحظة . جملة بدت لي ملحة . كنت أعد نفسي لتجاوزها إلا أن طابعها العضوي جذب انتباهي . كانت شيئاً شبيهاً بـ (ثمة رجل شطرته النافذة إلى شطرين) مصحوبة بالتمثل البصري الضعيف لرجل تقطعه من النصف الأعلى نافذة عمودية إزاء محور جسمه ـ فهمت أنني أمام صورة من نموذج نادر ، سرعان ما راودتني فكرة إدخالها ـ الصورة ـ في مادة البناء الشعري لدى . وسرعان أيضاً ما أفسحت المجال أمام تلاحق يكاد يكون متقطعاً لجمل لم تكن أقل مفاجأة بل تركتني تحت تأثير انطباع أن تحكمي في ذاتي حتى ذلك الحين كان وهمياً ولم أعد أفكر بوضع حد للصراع اللانهائي الذي يحدث داخلي » . بريتون هنا يسترجع ويحلل ميكانزم كتابة آلية بدأت من لحظة كشف ، أو التقاط صورة من اللاوعي أدخلها في بناء شعري . . وبنفس الطريقة يحلل تجربتهم الأولى في الكتابة الآلية التي ظهرت في كتابه المشترك مع فيليب سويو « الحقول المغناطيسية » .

يقول بريتون : « بدا لي وما يزال ـ تشهد على ذلك الطريقة التي بلغتني بها جملة الرجل المقطوع ـ أن سرعة الفكر ليست أكبر من سرعة الكلام ، وأنها لا تتحدى بالضرورة اللغة ولا حتى الريشة التي تجري . ضمن هذه الحالة ، شرعت مع فيليب سويو الذي أخبرته باستنتاجاتي الأولى نسود الصفحات غير مبالين بما يمكن أن يتأتى عن ذلك من الناحية الأدبية . تكفلت سهولة الإنجاز بالباقي . كان بوسعنا في نهاية النهار أن يقرأ الواحد للآخر حوالي ٥٠ صفحة كتبناها بهذه الطريقة

(١١) عصام محفوظ ـ النهار ١٠/٩/١٩٧٤

ونقارن بين النتائج . كانت كتابات سوبو وكتاباتي تنمان عن تماثل واضح : نفس عيب البناء . نفس نقاط الضعف . لكن هناك أيضاً اختيار جيد لصور متميزة لم نكن نستطيع إعداد أي منها عن تصميم مسبق . هناك أصالة خاصة جداً . وبعض الجمل الهزلية الحادة . بدت لي الفروق التي بين نصّينا ناتجة أساساً عن مزاج كل منا لأن مزاج سوبو أقل جموداً من مزاجي . ولقد أخطأ في توزيع بعض الكلمات على شكل عناوين في أعلى بعض الصفحات بروح ماكرة بلا شك - إذا سمح لي بهذا النقد الخفيف . . وأنا أعترف بإنصاف أنه عارض دائماً وبشدة أي تعديل أو تصحيح مهما كان صغيراً في سياق أي مقطع من النوع الذي كان يبدو لي غير مناسب . وكان محقاً تماماً في ذلك » .

هكذا رفض بريتون وسوبو إدخال أي تعديل على بناء العمل السريالي بعد الانتهاء من كتابته حرصاً على الفكرة الأساسية في الكتابة السريالية وهي تدفق الصور والأفكار من اللاوعي . رغم أن هذا التعديل قد يكون مفيداً للعمل من حيث البناء الشكلي . وبعد ٤٨ عاماً من هذه التجربة - وبعد قطيعته مع السريالية - يصفها الشاعر لوى أراجون بقوله : « أصبحت الحقول المغناطيسية عمل مؤلف واحد برأسين ، النظرة المزدوجة وحدها سمحت لفيليب سوبو وأندريه بريتون بالتقدم على الطريقة التي لم يسبقهما إليها أحد . في تلك الظلمات التي كانا يتكلمان فيها بصوت عالٍ . إن علينا أن ننظر إليه اليوم على أنه ، في مطلع هذا القرن ، اللحظة التي ينعطف فيها كل تاريخ الكتابة[١٢] » . .

وقد كتب بريتون عديداً من أحلام نومه قصائد . مثلما نجد في مجموعته « ضوء الأرض » حيث ذكر خمسة أحلام . في الحلم الأول نراه سائراً في ممر مظلم ثم يأتي للقائه جني يقوده عبر درج طويل هابط ، ليتركه عند الدرجة الأخيرة في ردهة واسعة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء . يجد في الجزأين الأولين شاباً يؤلف قصائد ناشرا حوله مخطوطات متسخة ، وفي الجزء الثالث الأكبر مقعد فارغ أمامه طاولة تبدو معدة لي . أتخذ مقاماً أمام الورقة البيضاء ، أخضع للإيحاء ، وألزم نفسي بتأليف قصائد . لكن فيما أستسلم للعفوية العظمى ، لا أتمكن من الكتابة على الورقة الأولى إلا هذه الكلمة : الضوء . حالما أمزقها أكتب على الثانية : الضوء . ثم على الورقة الثالثة : الضوء[١٣] » . .

لم تولد الاستفادة من اللاوعي والأحلام في الأعمال الفنية مع السرياليين ، فقد عرف تاريخ الفن أعمالاً حققت هذه الاستفادة سواء في الشعر أو في التصوير ، لكنها كانت أعمالاً متناثرة لم تؤسس اتجاهاً كما فعل السرياليون ، وتستحق هذه الفكرة مناقشة مستقلة على كل حال . . في الفن التشكيلي على سبيل المثال ترى في أعمال بروجيل وبوش في أواخر القرن الخامس عشر ملامح ومخلوقات خيالية من أعماق اللاوعي وبخاصة في لوحة بوش المسماة « حديقة الملذات الأرضية » . كما يقترب من السريالية فنان مثل هنري روسو (١٨٤٤ - ١٩١٠) وقبله المصور الانجليزي وليم بلاك (١٧٥٧ - ١٨٢٧) . .

قبل إعلان السريالية نفسها نجد الفنانين : مارسيل دوشامب ومان راي وفرانسيس بيكابيا عام ١٩١٤ يبتكرون في نيويورك أعمالاً ضد « ميكانيكية العالم » . ويصف جون آرب أعماله من الجواش والنحت البارز في تلك الفترة بأنها كانت « محاولة لتعليم إنسان ما نساه : أن يحلم وعيناه مفتوحتان . . نحن أعلنا أن أي شيء يعمله الإنسان هو فن . . الأرض الكبيرة فن ،

(١٢) كميل داغر - مصدر سابق - ص ٢٧ .

(١٣) المصدر السابق - ص ١٠٣ .

العندليب فنان كبير[١٤] » . . وقد طوّر دي شامب وبيكابيا في نيويورك أثناء الحرب العالمية الأولى أسلوباً أطلقوا عليه « الرسوم الآلية » الخادعة أو الوهمية Pseudo-Mechanical diagrams من خلال التعبير عن الوظائف والرغبات والإحباطات الجنسية . هذه الاستقصاءات للغرائز في صراعها مع التقاليد جعلت رسومهم شقرات نفسية هامة بالنسبة للتحليل النفسي الفرويدي .

لكن كتاب أندريه بريتون « السريالية والتصوير » يعد أول محاولة نظرية لتوضيح الاتجاه السريالي في الفن التشكيلي ، وقد نشر الكتاب على شكل مقالات في مجلة « الثورة السريالية » ، وفيه يعرف التصوير السريالي بأنه « الذي يربك المشاهد ، ويحرض استجابته من عين اللاوعي فضلاً عن عين الوعي[١٥] » .

منذ ولادة السريالية أخذت شكل الظاهرة العالمية ووجدت تجاوباً وانتشاراً من الفنانين الشبان وبخاصة في أوربا . فكان ماكس أرنست أول فنان أجنبي يدخل فيها ثم توالى الأعضاء : من أسبانيا خوان ميرو ، وسلفادور دالي . ومن بلجيكا رينيه ماجريت وبول ديلفو ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية ازدهر الجانب التشكيلي في الحركة أكثر ، فدخلها من انجلترا الفنان رولاند بينروز ، والفنان دافيد جاسكوين ، وشكلا الجماعة السريالية في لندن مع آخرين . . وهكذا .

نلاحظ هنا أنه مثلما أن لا وعي الإنسان يختلف من إنسان لآخر وأحلامه تختلف أيضاً ، نجد أيضاً أن أعمال السرياليين تمتعت بتمايز وتشريع واضح فلم يعتمدوا أسلوباً أو تكتيكاً شكلياً واحداً مثلما في التكعيبية أو البنائية . سلفادور دالي مثلاً سريالي بأسلوب طبيعي ، بينما ميرو سريالي بأسلوب أقرب إلى التجريد . . وهكذا . فالهدف الأساسي كما حدده ماكس أرنست « ليس الحصول على منفذ لما تحت الوعي ونلوين مضمونه بطريقة وصفية أو واقعية ، بل ليس حتى الحصول على عناصر مختلفة للاوعي أو بناء عالم خيالي من هذه العناصر . إن الهدف هو إزالة الحواجز الطبيعية والنفسية بين الوعي واللاوعي - بين العالمين الداخلي والخارجي - وخلق واقع متفوق تكون فيه العناصر الواقعية واللاواقعية والتأمل والعمل والوعي واللاوعي متجمعة ومختلطة لتسيطر على مظاهر الحياة[١٦] » . .

هناك عناصر مشتركة بين السريالية والرسوم البدائية وفنون الأطفال من حيث إن هؤلاء يتركون أنفسهم بقدر ما يستطيعون أحراراً في التعبير عن أحلامهم ورغباتهم ورؤاهم الداخلية ، من هنا نفهم اهتمام السريالية بتلك الفنون لدى الهنود الحمر وجزر الأوقيانوس والطواطم المكسيكية التي كانوا يعرضونها إلى جوار أعمالهم ويستخدمونها أيضاً . بل إن ويلفريدو لام الكوبي وجد علاقة بين السريالية والودونية السحرية (الودونية دين زنجي أفريقي الأصل انتشر بين زنوج هايتي ويقوم على السحر والعرافة) .

من جهة أخرى تأتي السريالية في الفن التشكيلي طفرة . بل يمكن القول إنها أتت في ظروفها التاريخية المناسبة . فهي خطوة في تطور الفن الحديث منذ القرن التاسع عشر حين دخل الفنان في مركز العمل الفني ، وحين بدأ تغيير وضعه ليكون شعبياً - أي ينتقل من كونه رسام الصفوة ليختار موضوعات ويعيش حياة العامة . ومنذ بدأ التأثيريون وسط تيار المصورين الأكاديميين

(١٤) مقالات جون أرب وآخرين - طبعت في نيويورك ١٩٥٨

(١٥) **Andre Breton. surrealisn et peinture. New yonrk 1945. p. 43.**

(١٦) **Naville weston : kaleid ascope of Modern Art. Harrop. London 1972. p. 83.**

يبـرزون شخصياتهم الفـردية في المنـاظـر الـطبيعيـة ، واستخـدموا في ذات الـوقت تلك المناظـر للتعبيـر عن ذواتهم . وبلغ هذا الاتجاه ذروته عند سيزان . وهكذا وجدت التكعيبية والمستقبلية مناخاً مواتياً . حتى إذا بدأ اليـأس من تحقيق الأهداف التقليـدية للصـورة ـ مثل التعبير عن البيئة بشكل واقعي أو رمزي أو توضيحها أو زخرفتها ـ وبدأ أيضاً اليأس من دقة العقل والاعتماد على المدركات المادية وحدها والبحث عن طـريقة لتـوصيل مـدركـات معينـة لـلآخـرين لكي يحسـوا بهـا بنفس الإحساس الصادر منه . . اذ بدأ كل ذلك كانت الدادية ثم السريالية خطوات طبيعية على طريق الفن .

الناقد الانجليزي الكبير هربرت ريد يصر عـلى أن تسمية السريالية بالواقعية المتفوقة Superrealism هي الأكثر دقة . ويوضح أن هذه « الواقعية المتفوقة » تخلق صوراً من العناصر الواقعيـة ، إلا أنها مبنية من واقـع مستقل . لكن بأية وسيلة يظهر هذا الواقع المستقل ؟ يفترض أن هناك وسائل للتلقي والإدراك اللاواعي . إنني أستخدم فقط نوعاً من التنبؤ لوصف سر من أسرار الحياة . لقد توفرت الرغبة في الحـركة الفنيـة الحديثـة المعروفة باسم « الواقعيـة المتفوقـة » التي تتجاوب مـع خيالات ما تحت الوعي . وذلك لكي نتمكن من تقديم واقعية كينونتنا بصورة أكيدة . ان اللاوعي لعب بالتأكيد دوره في فن الماضي ، إلا أن هذا الميل كان غير مرغوب فيـه مع تقـدم الحضارة وبـروز العقـلانيـة بـل وكـان مقموعاً[١٧] » .

أما نافيل ويستون فيرى أن التصوير السريالي ينقسم الى نمطين : نمط يسمح فيـه للعقل الـلاواعي بتوجيـه الـخطوط والأشكـال والألـوان عـلى طـريقـة التنـويم المغناطيسي ، وتصبح فيه الصدفة أكثر أهميـة . ونمط آخر يؤكد الشخصية المتعذر تفسيرها للخبرة الانسانية عن طريق تلازم أشياء وبيئات مألوفة وغير مألوفة على طريقة تشبـه الأحلام . أي تكـوين علاقـات لا يمكن التنبؤ بها وغير متـوقعة . يمثـل النمط الأول من وجهة نظره فنانون أمثال مـاكس أرنست وميرو وجـون أرب وماسون ، ويمثل النمط الثاني فنانون أمثال تونجي ودالي وماجريت[١٨] . .

لا نستـطيع هنـا الحديث بـالتفصيل عن الفنـانـين السرياليين ، لذا قد يكون مفيداً أن نأخذ منهم نموذجين لنتعرف على تطبيقاتها للسريالية والفروق بينهما ، هذان الفنانان هما ماكس أرنست وسلفادور دالي وهما حالتان سـرياليتـان رغـم اختلافـاتهـا الشخصيـة والأسلوبيـة الكبيرة .

ولد الفنان الألماني ماكس أرنست عام ١٨٩١ وتوفي في باريس عام ١٩٧٦ . درس الفلسفـة وعلم النفس وتاريخ الفن ، اهتم بشكل خاص بالرومانتيكية الألمانية ونيتشه وكتابات فرويد . لكنه تفرغ للرسم . وجدت أعمال ماكس أرنست أقصى تقدير لها عند الناقد ج. هودين الذي قال إن الوسائل ومناهج التعبير في التصوير السريالي تطورت بعد ماكس أرنست . ويرى أنه ليست هناك نظرية سريـالية تستـطيع إنصـاف القيمة الفنيـة للفنان ، وخواصه الجمالية وابتكاره لأشكال وأساليب تخيلية ، وإحساسه باللون الذي يصدم المشاهد ويقنعه أن ماكس أرنست مصور في المقام الأول وسريالي في المقام الثاني[١٩] . أو كما وصفه بريتون : « ضوء يلقي عـلى حياتنا الداخلية » ووصفـه أيضاً « بفنـان الامكانيـات المطلقة » .

مثلت أعمال مثل « فيـل سيليب » ـ ١٩٢١ ـ فترة الـلاوعي الفرويـدي وتطبيق الآليـة عند أرنست بينـما

(١٧) Herbert Read : Aconcise History of Modern Panting p. 130

(١٨) Naville weston. Idem p. 70.

(١٩) J. P. Hodin : Modern Art and the Modern Mind. Cleveland and London 1972. p. 143.

الصور التي نفذت بأسلوب الدعك Frottage توازنت فيها بشكل جيد معاني التصوير النقية مع الموقف النفسي التحليلي . في نفس العام بدأ أرنست في الكولاج بالربط بين موضوعات غير متشابهة لم تؤد إلى تصور جديد تماماً ولكنها أدت الى موقف جديد ، قصصي ، أو تأليف درامي لتصورات مدركة مندمجة في جو قصصي . كثير من هذا الكولاج يبدو مثل لقطات سينمائية أو مسرحية أو أجزاء مقطوعة مشوشة من حكايات غريبة . أساس جمالية الكولاج عند أرنست هو التداعي والتورية . أعماله الأخيرة تبدو فيها نزعة نحو الجمع بين التجريد الهندسي وعناصر سريالية ، على العكس من لوحاته المبكرة التي تبدو فيها واقعية فوتوغرافية كعنصر أساسي في التعبير عن عالم أحلامه وتفكيره .

لقد اهتزت مثالية ماكس أرنست منذ أحداث الحرب العالمية الأولى فوقع ضحية لعدمية الدادا وفيها أجبر على النظر إلى المفاهيم الإنسانية والدينية على أنها اختراعات شريرة للروح البرجوازية في عصره . وبانتقاله مع السريالية غادر أرنست عالماً داخلياً فارغاً من الأفكار الجميلة والكونية والأخلاقية ، إلى عالم آخر يضم شخوصاً لديها نضال لفهم الحياة وتفسيرها عن طريق تصورات رمزية . وهو بهذه الحالة نموذج لتوضيح الفارق بين الدادائي والسريالي . وقد أبدع بعد تركه للدادا أسلوبه في الكولاج والدعك ، وهي أساليب للآلية النفسية ، أو كما حدد بريتون : أساليب للتعبير عن الوظيفة الحقيقية للفكر » .

سلفادور دالي :

يقول ج. هودين « خول الفرق بين ماكس أرنست وسلفادور دالي : « من ماكس أرنست إلى دالي نمر من علم النفس الى الطب النفسي[٢٠] » . . لذلك قد تبدو شخصية الفنان « دالي » هنا أهم من إبداعه . . كيف ؟ ؟

ولد سلفادور دالي في ١١ مايو ١٩٠٤ في « فيجيراس » إحدى مدن منطقة كاتالونيا في شمال شرق أسبانيا . أثرت هذه المنطقة الساحلية في أعماله فيما بعد ، وربما يبدو هذا بوضوح في لوحته « صيد التونة » التي رسمها متأثراً بحكايات الصيادين التي كان يسمعها في طفولته . . كشفت زياراته لصديق العائلة الرسام المعروف « بيشو » عن استعداده الفني مما شجع أسرته على إرساله إلى مدرسة الفنون الجميلة في مدريد عام ١٩٢١ . خلال فترة دراسته تأثر برسوم المدرسة الميتافيزيقية الإيطالية وخاصة أعمال « دي كيريكو » و « كارا » بالرغم من أن أعماله في تلك الفترة ضمت لوحات تأثيرية وبورتريهات طبيعية .

سافر دالي إلى باريس لأول مرة عام ١٩٢٩ ، وكان في استقباله على محطة القطار الفنان الكتالوني أيضاً ـ خوان ميرو الذي قدمه إلى بريتون وجماعة السرياليين . في باريس تعرف دالي على « جالا » زوجة الشاعر بول ايلوار ودعاهما إلى منزله في أسبانيا . هناك نما حب خطير بين دالي وزوجة الشاعر فعاد ايلوار وحيداً بلا زوجته . ولم تفارق جالا دالي من بعد إلا ميتة ، ودخلت جالا في نسيج شخصيته الغريبة : أهدى إليها كتابه « يوميات عبقري » قائلاً : « إلى ملهمتي جالا جراديفا ، هيلين طرواده ، القديسة هيلانة ، جالا جاليتا بلاسيدا[٢١] » . وذكر في كتابه « كيف تصبح دالي » ان جالا هي التي صنعته .

في عام ١٩٣٠ قدم دالي ما أسماه « البارانويا النقدية » محاولاً تأسيسها كنظرية في النقد الفني وأسلوب

(٢٠) Idem p. 62.
(٢١) Salvador Dali : journal d'un geuie. edition de la table ronde 1964.

في الإبداع ، كما حاول تطبيقها على أعماله . وكان مصطلح البارانويا قد بدأ ينتشر في ذلك الوقت وبخاصة في كتابات جاك لاكان . إلا أن نظرية دالي تبدو غامضة وغير مترابطة . فالبارانويا هي « اضطراب أو خلل عقلي وذهني يتسم بهذيانات متواصلة فيتوهم المصاب بها حالات من العشق أو العظمة أو الغيرة أو الاضطهاد . وقد تصاحبها هلوسة في بعض الأحيان . وقد وصف ايميل كرايبلين البارانويا بأنها تطور باطني النمو على نحو تدريجي إلى حد يمكنه من الرسوخ قبل اكتشافه بحيث يؤدي إلى قيام نظام هذائي دائم ثابت الأركان ، مع احتفاظ المرء احتفاظاً تاماً بالوضوح والترتيب في الفكرة والإرادة والفعل[٢٢] » . وإضافة دالي لمصطلح النقد على مصطلح البارانويا يعني أن تمر البارانويا من خلال عين الفنان أو أسلوبه الفني . وقد عرف دالي نظريته بأنها « انفجار منظم وعنيف لرغبة إنسانية، وأسلوب عفوي لإنتاج تداعيات لا منطقية تستثمر حالة الهذيان » . .

ويمكن اعتبار أسلوب دالي في « الجنون النقدي » نوعاً من التحليل النفسي الذاتي للجنون الخاص . حيث رجع دالي كثيراً لأعمال فرويد التي قرأها أثناء دراسته في مدرسة الفنون الجميلة . ونشر عام ١٩٣٠ في مجلة « السريالية في خدمة الثورة » مقالة بعنوان « الحمار المتعفن » يشرح فيها هذا الأسلوب . تأثر بها طبيب نفسي شاب ـ في ذلك الوقت ـ هو جاك لاكان وتعرف على دالي ، وبعد عامين نشر بحثاً عن « علاقة البارانويا بالشخصية » . . وقد تعرف دالي على فرويد عام ١٩٣٨ حينما كان فرويد مريضاً في لندن ، وكتب فرويد فيما بعد في أحد خطاباته عن دالي : « إن هذا الاسباني الشاب ذا العيون الرائعة الحادة وأسلوبه المعروف افتتن بما تحمله السريالية للمجانين الكاملين[٢٣] » .

تعتبر لوحة (الانسان غير المرئي) التي رسمها دالي فيما بين ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ ، هي عمله الأول الذي حاول فيه تطبيق أسلوبه « البارانويا النقدية » . وهي لا تصور إنساناً طبيعياً ، ولكنها تصور منظوراً لعناصر معينة فيه : النظرة ، ياقة القميص . الخ . وهناك لوحات عديدة على نفس الأسلوب انجزها بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ من أشهرها « وجه ماي ويست » و« سوق العبيد » . في « جنونه النقدي » تجاوز دالي اللوحة بشكلها التقليدي ومزجها بالمجسمات مثلما فعل في « جاكت أفروديت » حيث لصق عشرات الكؤوس بداخلها مادة تركوازية اللون على جاكت زيتي اللون فوق قميص يبدو من فتحته مشد صدر ـ سوتيان ـ امرأة . وقد وجد هذا العمل من يقول عنه : « إن الكؤوس على الجاكت تذكرنا بالسهام على جسد القديس سباستيان[٢٤] » ، وقد حاول دالي تطبيق نظريته في البارانويا النقدية على تحليل أعمال فنية مشهورة فنشر مقالة بعنوان « مقدمة بارانويا نقدية للصورة الغائبة لأجراس ميللية » يحلل فيها اللوحة المعروفة باسم « الأجراس » ويرفق بمقالته صوراً لبعض لوحاته تطبيقاً لنفس الأسلوب . ثم نشر بعد ذلك مقالة أخرى بعنوان « أسطورة تراجيدية لأجراس ميللية » . بل إن دالي كان متأثراً بالأجراس التي كان يراها كل يوم أثناء طفولته في المدرسة وعلى حوائط الممرات ، وأعاد تصورها عام ١٩٢٩ في لوحة ذات حس أسطوري تراجيدي : تحول الظلط على البلاج إلى رجل وامرأة ، والصخور إلى تماثيل لشخوص عملاقة ومتصدعة ، ورأى الانسان كما يرى الحشرات في متحف للتاريخ الطبيعي . .

الواقع أن دالي من أكثر الفنانين الذين لا تنفصل اللوحة عن شخصياتهم . فكما قدم لنا دالي جنوناً نقدياً

(٢٢) الدكتور أسعد رزوق : موسوعة علم النفس ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٧ .

(٢٣) Petit Journal Salvadore Dali. Centre Georges Pompidou. Paris 18 December 1979-14 April 1980.

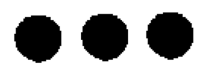
(٢٤) Idem.

على اللوحة ، صنع من نفسه أيضاً حالة من البارانويا . وإذا كان دالي قد تدرب على أن يفتح الطريق إلى لا وعيه وأن ينهل منه الصور والرؤى التي رسمها مستفيداً من قراءاته في علم النفس مثل غيره من الفنانين السرياليين ، فهو من أكثر الفنانين السرياليين وعياً بما يفعله وتحكماً فيه . وبهذا استطاع أن يقدم لنا أسلوبه المميز الذي صور فيه عالماً غير واقعي وغير منطقي بتفاصيل واقعية ، وأسلوبه في الرسم أكاديمي حريص على البناء الفني والعلاقة اللونية وهو هنا كالعالم الذي يمسك في مختبره ببعض السوائل ويمزجها عن علم بها فتنتج أبخرة ملونة تثير عجب البسطاء ويعتبرونها نوعاً من السحر والقدرات الخارقة للعالم . . وربما لذلك لم يحظ فيما بعد بتقدير بريتون ، واعتبره البعض « الولد السيء للفن » واعتبره آخرون مهرجاً . . لكنه كسب من الجميع أكبر قدر من الشهرة والمال استطاع فنان حديث أن يكسبهما . . وكان دالي واعياً بكل ذلك . . لذلك فهو بين الفنانين السرياليين حالة خاصة جداً . .

وقد تحير كثير من النقاد وأطباء النفس معاً فيما يفعله دالي هل هو حالة من حالات البارانويا فعلاً أم يدعي كل ذلك ؟ لقد تجاوز دالي كل الكتاب النرجسيين ونشر سلسلة من الكتب كلها تحمل اسمه مثل : « خطاب مفتوح إلى سلفادور دالي » ـ ١٩٦٦ ـ « دالي بقلم دالي » ـ ١٩٧٠ ـ « كيف تصبح دالي » ١٩٧٣ .

يوم افتتاح متحف دالي في مسقط رأسه شاهد الصحفيون لوحة تقليدية رسمها للجنرال ديجول فسألوه عنها فقال : « لقد طلبوا مني ذلك وفرضوا عليّ صنعها بالأسلوب الأكاديمي ودفعوا لي الثمن الذي طلبته ، ثم إنني غير منبهر بشخصية الجنرال ديجول . . شخصان فقط يبهرانني : أنا وزوجتي جالا[٢٥] » . . هذا فضلاً عن المواقف اليومية له والتي تعمد فيها أن يبدو كائناً غريباً ، كان يدخل في افتتاح معرضه مرتدياً ملابس من العصور الوسطى وممتطياً صهوة حصان . وقد صنع من وجهه المميز بشاربه الطويل « ماركة مسجلة » . وبالطبع فإن وسائل الإعلام ترحب وتروج لمثل هذه الشخصيات رواجاً لها وبالتالي فقد ساعدت دالي على نشر « صورته » أو « تسويقه » عبر العالم . .

وقع دالي في السنوات الأخيرة فريسة لاكتئاب نفسي . وفي محاضرة عام ١٩٧٧ ألقاها الدكتور خوان انطونيو أوبيول وهو الطبيب النفسي الذي كان يعالج دالي ، قال عنه : « إن سلفادور دالي أغرب رجل عرفته في حياتي . فهو أبعد الحالات النفسية عن الطبيعة دون أن يكون مجنوناً ، وأبعد الحالات عن الجنون دون أن يكون طبيعياً[٢٦] » . . وهذا الوصف يؤكد ما قلته عن تعمد دالي لإظهار شخصيته كتطبيق حيّ لنظريته في البارانويا النقدية . مزيج من الموهبة والمهارة الفنية والذكاء الشديد وادعاء الجنون رغبة في الشهرة والخلود والنقود . .



لم يكن السرياليون مجانين ، وهم أكثر الفنانين اقتراباً من العالم الآخر : اللاواقعي واللاعقلاني . . لقد سعوا لتطبيق وظيفة الفن ـ طبقاً لبريتون ـ الذي يسعى (أي الفن) الى تحرير الدافع الغريزي وهدم الحاجز الذي يقف في وجه الانسان المتمدين ، ذلك الحاجز الذي يجهله البدائي والطفل » . .

(٢٥) نزيه خاطر ـ النهار ١١/ ١٠/ ١٩٧٤

(٢٦) شوقي الريس ـ دالي في غموض الحياة والموت ـ مجلة النهار العربي والدولي ٧/ ٩/ ١٩٨٠

رواية تكوين الشخصية

The Bildungsroman

دراسة مقارنة

نضال الموسى

يجمع النقاد على أن رواية تكوين الشخصية ذات طابع الماني مميز ، باعتبارها أداة تعبير فنية عن مجموعة متمازجة من العوامل الفكرية والاجتماعية والسياسية الخاصة بالمجتمع الألماني ، الا أن الدراسة المقارنة تكشف النقاب عن مواطن شبه جوهرية سواء من الناحية الشيماتية أو البنيوية بين « رواية تكوين الشخصية [١] بهويتها الألمانية ، وروايات انجليزية وفرنسية [٢] تدور الأحداث فيها حول تتبع مراحل التطور الداخلي لبطل شاب ، ووصف كفاحه من أجل تحقيق الذات ، ومايترتب على ذلك من معاناة قد تكون ناجمة عن سوء تقديره لامكاناته الذاتية في مقتبل العمر ، أو نتيجة انسياقه وراء طموحات صعبة المنال ، ولاسبيل إلى تحقيقها على أرض الواقع إما لضعف عزيمة البطل أو لما ينخر قواه من انقسام ذاتي يفضي به الى الضياع والفشل في اختيار خط سير واضح له في الحياة . وغالبا أيضا ما يجد البطل الشاب نفسه في صراع مع ظروف اجتماعيه غير مواتيه لتحقيق طموحاته الفردية مما يؤدي الى وقوعه ضحية لانقسام مرير بين الحلم والواقع . وكلما اتسعت الشقة بين هذين النقيضين كلما زاد نفور البطل من بيئته وتعاظم حجم متاعبه في سعيه الذي لايكل لتحقيق ما تصبو اليه نفسه الطموحة ، غير مبال في البداية لضخامة

---

١ - أنظر :

Magdi Wahba, **A Dictionary of Literary Terms English-French-Arabic (Beirut-Librairie Du Liban, 1974),P,44.**

يترجم مجدي وهبه المصطلح الألماني Bildungsroman إلى التعبير العربي « رواية تكوين الشخصية » ، أما في اللغة الانجليزية فقد درج النقاد على استعمال مصطلحات مثل The Novel Of Youth او The Apprenticeship Novel في الاشارة إلى هذا النوع المميز من الرواية .

٢ - من أفضل الدراسات المقارنة بين الرواية الألمانية والرواية الإنجليزية كتاب « شوزان هاو » :

Susanne Howe, **Wilhelm Meister and his English Kinsmen: Apprentices to Life** (New York, 1930).

وهناك كتاب آخر للمؤلف « جيروم باكلي » Jerome H. Buckley, **Season of Youth: The Bildungsroman from Dickens to Golding** (Cambridge, 1974).

في الكتابين نجد تأكيدات واضحة على الصفة المميزة للرواية الألمانية . ومن أشهر الدراسات المقارنة باللغة الانجليزية بين الرواية الالمانية والرواية الفرنسية كتاب « برنارد ن . شيلنج »

Bernard N. Schilling, **The Hero as Failure(Balac and the Rubempre Cycle** (Chicago, 1968).

في هذا الكتاب يتناول المؤلف بالشرح والتحليل عدة روايات فرنسية ، وعلى الأخص رواية « بلزاك » Balzac « الآمال الضائعة » **Lost Illusions** ، حسب التقاليد الفنيه لرواية تكوين الشخصية .

القوى التي تتضافر لاحباط مخططاته ، الى أن ينتهي به الأمر في المراحل الأخيرة من الرواية كشخص أكثر حكمة ونضجا بفضل تجاربه الحياتية ، ومن ثم أكثر وعيا وإدراكا ليس لقدراته الذاتية فحسب ، بل للفجوة الشاسعة التي تفصل بين الحلم والواقع ، وما تقتضيه ضرورات الحياة من التخلي القسري عن أحلام الشباب الوردية ، والتكيف مع العالم االواقعي . هذه بصورة مقتضبة الخطوط العريضة لشكل وموضوع رواية تكوين الشخصية .

وتعد رواية « جوته » Goethe « فلهلم مايستر » Wilhelm Meister (١٧٩٥ ـ ١٧٩٦م) أشهر نموذج لمثل هذا النوع من الرواية ، وطبقا لما يراه « هيجل » Hegel [٣] يعد بطل رواية تكوين الشخصية الحديثة حفيدا لبطل مغامرات الفروسية . Chivarlic Romance التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، تلك المغامرات الرومانسية التي يخوض البطل فيها سلسلة من المجازفات بحثا عن « الكأس المقدسة » Holy Grail . ويمر بمختلف التجارب التي يتعرض فيها لأشق الصعوبات كي يتمكن في نهاية المطاف من الحصول على لقب فارس ، اللقب الرفيع الشأن الذي يعرض البطل نفسه لأخطر الأهوال من أجل نيل شرف الحصول عليه ، بعد أن يكون طبعا قد وعى كل الدروس والعبر التي تتضمنها تلك المغامرات والتجارب المعدة في الأصل لاختبار صلابته وصقل وتنمية شخصيته . ولكن بدلا من المغامرات الوهمية والصراع الخيالي الذي ينخرط فيه فارس مغامرات العصور الوسطى الرومانسية ، يجد بطل رواية تكوين الشخصية الحديثة نفسه كما اسلفنا نهبا لصراع داخلي لما يتمزقه من أهواء وطموحات متضاربة ، بالاضافة الى صراعه الخارجي ضد المجتمع الذي يحول في الغالب بينه وبين تحقيق مايراوده من أحلام يحل السعي وراء تحقيقها محل بحث فارس العصور الوسطى عن « الكأس المقدسة » .

يرتبط البعد الاجتماعي للصراع في رواية تكوين الشخصية ، وفقا لما تبرزه بشكل واضح وجلي رواية « جوته » التي لها فضل تحديد النموذج الأصلي لبنية وموضوع هذا النوع من الرواية ، بالتحرك التاريخي للطبقة البرجوازية نحو التحرر والتخلص من سطوة الطبقة الأرستقراطية في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . وتجدر بنا الإشارة هنا الى أن ظهور الرواية كشكل أدبي مميز يقترن في الأصل بنشأة وبداية تحرر الطبقة البرجوازية وعلى حد تعبير « هيجل » تعد الرواية « ملحمة » برجوازية في صراعه الفردي ضد قوى المجتمع المناهضة لتطلعاته ، يبدو بطل رواية تكوين الشخصية أكثر تشابها مع بطل « رواية التشرد » Picaresque Novel التي شاعت في اسبانيا في أواخر القرن السادس عشر . في كلتا الحالتين يتورط البطل في صراع مرير ضد المجتمع ، ولكن اذا كان موقف المتشرد تجاه المجتمع يتخذ شكل ثورة أو حتى محاولة تدمير للمجتمع الذي يصر على اعتباره غريبا عنه ، فإن بطل رواية تكوين الشخصية لايلجأ الى إشهار عدائه السافر نحو المجتمع ، (مع أن ذلك لا ينطبق تماما على بطل الرواية الفرنسية لأسباب خاصة كما سنرى بعد قليل » ، ولكنه يبدى تبرما بالظلم الاجتماعي الواقع عليه نظرا لانتمائه في الغالب الى الطبقة الدنيا الفقيرة ، مما يولد عنده عقدة بالنقص ، وحساسية شديدة يتضاعف معهما تبرمه الاجتماعي حتى يأخذ شكل الرغبة العارمة في

٣ ـ انظر :
Georg Lukacs, **Goethe and his Age**, translated by Robert Anchor (London; Merlin Press, 1968), pp. 59-60.

تحطيم القيود الاجتماعية المفروضة عليه ، والتي تقف حجر عثرة في طريقه الشاق نحو تحقيق أسمى الغايات . وهناك فرق جوهري آخر بين البطلين يمكن في نظرة المتشرد الى الحياة (كمسرح) يلعب عليه دورا ، أو مايطيب له من أدوار ، معتمدا على ذكائه ومايتمتع به من قدرات مميزة على الخداع تمكنه من تحقيق أهدافه التي تكون في العادة خارجة عن القوانين الاجتماعية ، بينما تمثل الحياة بالنسبة لبطل رواية تكوين الشخصية « مدرسة » ، يتلقى فيها الشاب الغض دروسا في أهميتها الكبيرة العنصر الأساسي ، أو حتى العمود الفقري لقصة بحثه عن ذاته . تعني بذلك الاهتمام الخاص الذي توليه رواية تكوين الشخصية التغيرات أو التطور السيكولوجي والداخلي الذي يطرأ على البطل لدرجة يمكن معها القول أن الأحداث الخارجية هنا تستمد فاعليتها وأهميتها بمقدار ماتسهم في تطور البطل ونموه من النواحي النفسية والمعنوية ، كل ذلك على عكس مانجده في رواية التشرد ، حيث يستند البناء الدرامي للحبكة الروائية وديناميكية سرد الأحداث على الوقائع المختلفة في حياة البطل ، ومايمر به من تجارب قد تؤدي به الى تغيير نظرته الى الحياة أو تبني استراتيجية مختلفة من أجل تنفيذ مخططاته ، ولكن التغير [٤] لايعني بالضرورة التطور السيكولوجي والداخلي الذي يميز بطل رواية تكوين الشخصية التي يعود الفضل في ظهورها الى الروائيين الألمان ، حتى قبل أن ينشر « جوته » روايته الشهيرة « فلهلم مايستر » .

ففي عام (١٧٦٧) أي قبل أن ينشر « جوته » روايته بثلاثين عاما تقريبا ظهرت رواية معاصره « فيلاند Wieland » تاريخ أغاثون « The History of Agathon التي لا تختلف كثيرا في شكلها عن رواية التشرد من حيث استخدام طريقة السرد الابيزودي Episodic ، إلا أنه وكما هو الحال في رواية « جوته » ، يطوع « فيلاند » ذلك الشكل التقليدي للرواية لخدمة أهدافه الخاصة في جعل الأحداث تعنى في تصوير تطور البطل الداخلي التدريجي استنادا على تغيرات سيكولوجية مقنعة تفضي بها التجارب الكثيرة التي يمر بها البطل من أجل اعطائه الفرصة للتوصل الى معرفة الذات Self-Knowledge وتعلم فن الحياة [٥] . وبالفعل ان أغاثون الذي نلتقي به في آخر الرواية يختلف كثيرا عن البطل المثالي الشاب الذي تسيطر عليه الأحلام الرومانتيقية في الأجزاء الأولى من الرواية ، وماقصة حياته الا سلسلة من التجارب التي تسهم كما هو مقصود بها في خلاصه التدريجي من أحلامه وطموحاته غير الواقعية ، واعداده لتقبل أمور الحياة كما هي في الواقع .

هذا هو نفس الدرس الذي يتحتم على بطل رواية « كارل فيليب مورتس » Karl Philipp Moritz (انتون رايزر) Anton Reiser (٩٠ ـ ١٧٨٠) تعلمه بعد أن مر هو الآخر بتجارب عديدة أحدثت فيه تغيرات سيكولوجية واضحة ، مما دفع به في نهاية الرواية الى تبني مواقف أكثر واقعية ، أو حتى اعادة النظر في مفهومه لمعنى الحياة ، وطبيعة الدور الذي يمكنه القيام به . وبعد ذلك طبعا تطورا مهما في حياة بطل تتقاذفه الأهواء المتنازعة دون أن يتمكن من تحديد خط سير واضح له في

---

٤ ـ يذهب بعض النقاد إلى الاعتقاد بأن بطل رواية « التشرد » ينحدر من سلالة بطل « هومر » Homer أوديسيوس بينما يعد النبي يعقوب عليه السلام النموذج الأول للشخصية المتطورة ، كما هو الحال بالنسبة لبطل رواية تكوين الشخصية .

راجع :

David H. Miles, "The Picaro's Journey to the Confessional: The Changing Image of the Hero in the German Bildungsroman", PMLA vol. 89 (1974), pp. 980-90.

٥ ـ تجدر بنا الاشارة هنا إلى أن الاسم الثاني « مايستر » لبطل رواية « جوته » ، يعني تعليم البطل حتى يصبح خبيرا بفن الحياة .

الحياة الى ما قبل نهاية الرواية بقليل . ومن الجدير بالذكر أنه في مقدمته للرواية يبين « مورتس » عزمه على تسليط الأضواء على ما يدور داخل البطل كمحور ارتكاز للأحداث ، ويفصح الكاتب عن عزمه هذا بصورة أكثر بروزا في اختياره للعنوان الكامل للرواية : **Anton Reiser: A Psychological Novel** . ويرى بعض النقاد انه كان لرواية (مورتس) أثر كبير على صياغة الشكل النهائي الذي اختاره « جوته » لرواية « فلهلم مايستر » ، التي فرغ « جوته » من كتابه النسخة الأصلية منها دون أن يعمل على نشرها سنة (١٧٧٥) .

ولكن كل ذلك لم ينجح في زحزحة رواية « جوته » عن مكانتها المرموقة ، ليس كأشهر نموذج لرواية تكوين الشخصية فحسب ، بل أيضا العمل الذي تحددت بوساطته الملامح العامة ، وتم رسم الشكل المميز لهذا النوع من الرواية .

يرتبط توجه الرواية الألمانية نحو الاهتمام الكبير بتصوير مايدور داخل البطل على حساب الأحداث الخارجية بالصبغة القومية المميزة للثقافة والفلسفة الاجتماعية الألمانية . هذا ماتؤكده تعليقات « توماس مان » Thomas Mann حول نشأة ومضمون رواية تكوين الشخصية : « ان أهم صفة يتميز بها الألماني والتي تشكل مصدرا رئيسا لاحترامه لذاته هو انشغاله بعالمه الداخلي . ولم يكن من قبيل الصدفة ان الألمان هم الذين قدموا للعالم الرواية الانسانية المعنية بتكوين الشخصية . وما عناية الفرد الالماني بالتنمية الذاتية وتطوير الشخصية الانتاج اهتمام ثقافي قومي عام بمبدأ الفردية الذي يرتكز على الدعوة لبناء وتنمية الجوانب المختلفة للشخصية سعيا وراء مايمكن وصفه بعبارات دينية « الخلاص الروحي ذو الصبغة التقوية » . . . انه نوع من الثقافة تحتل الشؤون الدنيوية فيه مرتبة أقل شأنا من العناية بالتطور الروحي ، وكما يقول مارتن لوثر : « الحياة الدنيا وضيعة الشأن » . [٦]

هكذا نرى العلاقة العضوية الوثيقة بين طبيعة الرواية الألمانية والاتجاهات القومية الدينية والفكرية والاجتماعية . ولكن عبارات « توماس مان » لاتمثل كل الحقيقة اذا ما أردنا الوقوف على كافة الأسباب الكامنة وراء انصراف البطل عن الاهتمام بالشؤون الدنيوية ، وانكبابه على السعي لتنمية شخصيته ورفع مستوى ثقافته الذاتية في رواية تكوين الشخصية الألمانية .

وفقا لما يراه عدد كبير من المهتمين بالأدب الألماني ومن أهمهم « ارنولد هاوزر » Arnold Hauser ، يرجع السبب الحقيقي للتركيز على قضايا الثقافة وتطوير الجانب الروحي وبخاصة بين افراد الطبقة الوسطى في المانيا الى تردي الأحوال ، وتخلف هذه الطبقة وعجزها عن أن تأخذ دورها في صنع الأحداث ، وتحقيق المكاسب الذاتية نظرا لسطوة طبقة النبلاء ، وتفرد هذه الطبقة بمسك زمام الأمور في ألمانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حارمة بذلك أبناء الطبقة الوسطى الفقيرة من أن يلعبوا دورا ذا شأن على الصعيدين الاجتماعي والسياسي ، وقد أدى ذلك بأفراد الطبقة الأخيرة الى الانكباب على الذات والتوجه نحو العمل على تنمية ورعاية القدرات الفردية الداخلية في محاولة للتعويض عما فاتهم تحقيقه من طموحات على مسرح

---

٦ ـ انظر :

W.H. Bruford, **The German Tradition of Self-Cultivation: Bildung from Humboldt to Thomas Mann** (Cambridge University Press, 1975), p I.

الحياة العامة . (٧) ولنا في رواية « فلهلم مايستر » خير دليل على ما يؤيد وجهة النظر هذه . في هذه الرواية يعلن البطل بصراحة تامة أن اهتمامه بالثقافة الذاتية ليس عملا طوعيا نابعا من إحساس حقيقي بالزهد في الحياة ، كما توحي عبارات « توماس مان » ، بمقدار ماهو انعكاس لحرمانه من تحقيق أحلامه في الارتفاع بمستواه على الصعيد الاجتماعي نظرا لشدة وطأة القيود الاجتماعية المفروضة عليه كفرد ينتمي الى الطبقة الوسطى المحرومة . بالفعل ، من بداية الرواية حتى نهايتها يلازم فلهلم مايستر احساس قومي بالمرارة من جراء انتمائه الى الطبقة الوسطى ويعد زواجه من فتاة من النبلاء في نهاية الرواية أهم حدث في حياته ، لما يتيحه له مثل هذا الزواج من فرص ليحيا حياته متحررا من القيود الاجتماعية التي تجعل من الصعب عليه تحقيق مبدأ الشمولية Totality في بناء الشخصية المبدأ الذي يحكم حياة النبلاء ـ حسب تفكير فلهلم مايستر ـ مما حدا به الى بذل كل مافي استطاعته للانتماء الى هذه الطبقة ، أو على حد تعبيره ، « العب من ماء آبارهم » بغية إرواء ظمئه لتحقيق الشمولية في شخصيته ، بصفتها محور ارتكاز مفهوم Bildung ، دون مواجهة أية عوائق اجتماعية .

ضمن هذا الإطار ليس بالإمكان تقييم تطلعات فلهلم مايستر الارستقراطية بموازين مادية صرفة دون التجني على مايتمتع به من اثيرية وحس مرهف يسموان به عن أن يكرس جل جهوده للجري وراء تحقيق طموحات مادية مبتذلة المقصود هنا هو التأكيد على أن محاولة تسلق السلم الاجتماعي ، أحد الموضوعات الأساسية في رواية تكوين الشخصية ، لاتمثل بحد ذاتها هدف فلهلم مايستر المنشود الا بمقدار ماتفسح له المجال في المقام الأول ليوسع من آفاق حياته الخاصة ، وأن يعيش وفقا لرغباته وميوله الطبيعية في منأى عن أي قيود أو عوائق اجتماعية . وتتجلى أثيرية فلهلم وحساسيته المفرطة في تعلقه بعالم المسرح كملاذ له من عالم التجارة البغيض الذي تأنف نفسه الانخراط فيه نزولا على رغبة والده ، ويرى فلهلم مايستر في المسرح أيضا بديلا لعالم النبلاء لما توفره مهنة التمثيل من فرص ليلعب أدوارا مختلفة تجد فيها الجوانب المتعددة من شخصيته فرصة للتطور تلبية لرغبته الرئيسة في البحث عن تحقيق الشمولية . يعكس لجوء فلهلم مايستر الى المسرح ضمن اطار القضية الأخيرة مدى صعوبة الانتقال من طبقة دنيا الى طبقة عليا في المانيا ابان تلك الفترة التي كتبت فيها الرواية ، والا لما لجأ فلهلم مايستر الى هذه الوسيلة مدفوعا برغبته الجامحة في اغناء تجربته الحياتيه .

يحتل موضوع الجري وراء تحقيق مبدأ الشمولية في رواية « جوته » أهمية خاصة كقوة موازنة للنظرة الأحادية الجانب الى الفرد وفق تعاليم الحركة التقوية Pietism ذات النفوذ القوي في المانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الحركة التي تعير اهتماما خاصا لتنمية الجانب الروحي للفرد على حساب الجوانب الأخرى . ويشكل هذا المبدأ التقوى القوة السلبية الرئيسة التي تعصف بحياة أغاثون ، وتكون مصدرا لكل مايلقاه من متاعب في حياته في عالم يصعب على الفرد أن يمارس حياته فيه بشكل طبيعي الا بتحقيق توازن بين مطالب الجسد والروح والعقل ، ومن شدة احساس أغاثون بضرورة قهر الغرائز المادية يشير اليه أحد شخوص

٧ ـ انظر : Arnold Havser, The Social History of Art (London: Routledge & Kegan, 1962), pp. 98-99.

يشتمل هذا الكتاب على تحليل قيم لانشغال الألمان المميز بالثقافة الذاتية ، ويرد المؤلف هذه الظاهرة إلى أسباب اجتماعية وسياسية ، وبخاصة تردي أحوال الطبقة الوسطى في ألمانيا

الرواية على أنه انسان قادم من « كوكب » آخر . وفيما يبدو أنه رد على ماينادي به أتباع الحركة التقوية يعمد « فيلاند » الى جعل تطور بطله الروحي مرهونا باقتناعه التدريجي بضرورة تحقيق شيء من التآلف والانسجام بين مطالب الجسد والروح ، والعقل والعواطف ويتجسد ذلك بشكل جلي ، وان يكن على الصعيد الرمزي في الوفاق التام الذي يتم التوصل اليه بين (أبوللو Apollo) و (ديونيسوس Dionysus) في نهاية الرواية ، كدليل رمزي على ماتوصل اليه البطل من قناعة بضرورة تحقيق التوازن في بناء الشخصية وعدم قهر جانب من جوانبها انصياعا لما يمليه جانب آخر أكثر تسلطا وقوة .

يستمد هذا البعد الرمزي لموضوع البحث عن الذات في الرواية أهمية خاصة لارتباطه بما يسمى « الحركة الهيلينية الألمانية » التي بدأها « ونكلمان » Winckelmann بما أبداه من شغف شديد بإحياء التراث الاغريقي وبعث الروح الانسانية التي تمثل جوهر الحضارة الهيلينية القديمة في المجتمع الألماني الحديث . والى جانب « ونكلمان وفيلاند » شارك العديد من الفلاسفة والكتاب ورجال الفكر الألمان [٨] أمثال « شيلر » Schiller و « فلهلم فون هامبولت » Wilhelm von Humboldt في محاولة احياء روح الحضارة الهيلينية القديمة ، ولم يكن « جوته » بالطبع أقل شغفا من كل هؤلاء بالطابع الانساني للحضارة الهيلينيه ، بل انه يؤكد أن الأغريق هم أفضل من توصل الى فهم معنى الحياة بما أولوه من عناية خاصة لمبدأ الشمولية : تقديس حق الفرد في أن يطور كافة الجوانب المختلفة لشخصيته في أحد كتبه يقول « جوته » « بامكان المرء أن يحقق الشيء الكثير عن طريق الاستخدام السليم لأي عنصر من قدراته ، ولكنه قادر على انجاز أشياء غير عادية اذا نجح في توجيه عدة قوى للعمل معا ، ولكن من المؤكد أنه سيأتي بشيء فريد وخارج عن المألوف اذا ما استطاع استغلال كافة قواه ، وهذا مايميز حياة القدماء وبخاصة الإغريق » . [٩]

ولاغرابة إذًا في أن يجد مبدأ الشمولية طريقة كعنصر جوهري يستنير به ويعمل على على هديه « جماعة البرج The Society of the Tower » رواية « فلهلم مايستر » وبخاصة في اعداد براجمهم التعليمية المناهضة لمبادىء الحركة التقوية على الأقل كما يتضح من قصة حياة بطلة « اعترافات الروح الجميلة » Confessions of 'Beautiful Soul' التي يخصص « جوته » الجزء برمته من الرواية لسردها موضحا بطريقة غير مباشرة مخاطر اتباع تعاليم الحركة التقوية التي تنتمي اليها البطلة ، خصوصا عندما يصور العلاقة بين مرض البطلة وفشلها في التكيف مع البيئة التي تعيش فيها وبين ولعها الشديد بتعاليم الحركة التقوية . ومن الجدير بالذكر أن « جوته » يعمل متعمدا على تهيئة الفرصة لفلهلم للاطلاع على قصة حياة بطلة الاعترافات كتحذير له من مغبة التركيز على تطوير جانب واحد من الشخصية .

وإذا كنا نجد في رواية « فيلاند » ورواية « جوته » اشارات غير مباشرة الى تعاليم الحركة التقوية ، والى

---

٨ - راجع :

E.M. Butler, The Tyranny of Greece over Germany: A Study of the Influence Exercised by Greek Art and Poetry over the Great German Writers of the Eighteenth, Nineteenth and Twentieth Centuries (Boston, 1935).

يشتمل هذا الكتاب على استعراض لسطوة الحضارة الاغريقية القديمة على عقول ومخيلة الكتاب ورجال الفكر الألمان ، ومحاولتهم إحياء التراث الهيليني القديم .

٩ - انظر :

Roy Pascal, The German Sturm und Drang (Manchester University Press, 1951), pp. 162-163.

المخاطر التي تترتب على التطبيق العملي لهذه التعاليم ، فان « أنتون رايزر » تزودنا بمثال واضح وصريح للنتائج السلبية والخطيرة لتغلغل مبادىء هذه الحركة الدينية وبخاصة فيها نشاهده من معاناة البطل المؤلمة ، واحساسه بالضيق والضجر الدائم كواحد من أتباع الحركة التقوية التي يضيق أنتون رايزر ذرعا بتعليمها ، الى أن ينتهي الأمر بهروبه ولجوئه الى عالم المسرح الذي يجد فيه أنتون رايزر ، كما هو الحال بالنسبة لفلهلم مايستر ، ملجأ يحميه من التعرض للتشويه الناجم عن تنمية جانب واحد من شخصيته ، هذا بالاضافة الى مايوفره له المسرح من فرصة لينجو بروحه من القيود الاجتماعية التي تحد من حريته بنفس الأسلوب الذي تصوره رواية « جوته » .

ولكن مهما قيل عن محاولات هؤلاء الروائيين الألمان للتصدي لهيمنة النظرة الأحادية الجانب الى الانسان في تعاليم الحركة التقوية ، فانهم جميعا مدينون لهذه الحركة في استخدامهم لأساليبها في تصوير موضوع التنمية الذاتية ، وان يكن ذلك في إطار دنيوي موسع ليشمل العناية بتطوير الجوانب المختلفة للشخصية ـ الحافز الرئيس ، كما أوضحنا في شرحنا السابق في حياة بطل رواية تكوين الشخصية الألمانية .

تلك هي الصفات الرئيسة التي تميز بطل رواية تكوين الشخصية الألمانية عن بطل نظيرتها الفرنسية حيث يمثل السعى لتحسين الوضع الاجتماعي والاندفاع الحاد لتحقيق المجد والشهرة بأى ثمن ذروة ماتهفو إليه نفس البطل الذي يشارك الأبطال الألمان طموحهم وميولهم الرومنتيقية ، وان كان أقل حساسية منهم لما ينطبع عليه من حب للمادة ، الأمر ، كما بينا منذ قليل ، الذي يتنافى مع نظرة بطل رواية تكوين الشخصية الألمانية الى الحياة . ففي رواية « بلزاك » Balzac « الآمال الضائعة Lost Illusions » (٤٥ ـ ١٨٤٣)« مثلا يمثل الانتماء الى الطبقة الأرستقراطية تمهيدا لتحقيق المجد والشهرة محط آمال البطل الشاب « لوسيان تشاردون » الذي يذهب به الأمر الى حد التخلي عن أسرته وانكار أمله كثمن لانتمائه الى الطبقة الارستقراطية ، ذلك تمشيا مع رغبة معشوقته الارستقراطية مدام دي بارجتون وتزودنا « الكوميديا الانسانية » Human Comedy بعدد كبير من الأبطال الشباب المنتمين للطبقة البرجوازية الفقيرة والمتعطشين للارتفاع بمستواهم الاجتماعي ، هؤلاء الشباب الذين فتحت لهم الثورة الفرنسية الباب على مصراعيه كي يسعوا لتحقيق ماتزينه لهم مخيلاتهم من طموحات جامحة في وقت تمت فيه هزيمة الطبقة الأرستقراطية وتجريدها من امتيازاتها على يد الطبقة البرجوازية المحررة ، لدرجة أنه أصبح بالإمكان وصول ملك برجوازي إلى الحكم في فرنسا عام ١٨٣٠م . كل هذه العوامل متداخلة خلقت مايمكن وصفه بحمى قومية من الطموح الذي لاحدود له في فرنسا في أعقاب الثورة الفرنسية وبخاصة بين أبناء الطبقة البرجوازية الفقيرة . في وصفه لهذا التيار العارم من الطموح في فرنسا يقول « ستندال » Stendhal في روايته غير المكتملة « لوسيان لوين » Lucien Leuwen (١٨٣٥) : « أسهم الطموح اللامحدود في اثارة شهوة أفراد أدنى طبقات المجتمع للتقدم ، حتى أن صبي صانع الأحذية بات يحلم في أن يصبح نابليون » . (١٠) وفي « الآمال الضائعة » يضع البطل الطموح نصب عينيه أن يكون نابليون فرنسا في مجال الأدب والصحافة ، أو على الأقل أن يحقق من المجد والشهرة ماحققه « روسو » Rousseau

١٠ ـ انظر :
Stendhal, Lucieu Leuwen, translated by H.L.R. Edwards, 2 vols. (London: John Lehman, 1951), vol. II p. 24.

تلعب قصص نجاح نابليون وروسو دورا مهما في حياة عدد كبير من أبطال الروايات الفرنسية الذي يشقون طريقهم في الحياة يحدوهم الأمل في أن يحققوا ماحققه نابليون وروسو من مجد وشهرة رغم انتمائهما (نابليون وروسو) الى الطبقة الفقيرة مما يضفي على أسطورة نجاح كل منهما مزيدا من الجاذبية ذات التأثير السحري في حياة أبطال الرواية الفرنسية فهذا جوليان سورل بطل رواية « ستندال » « الأحمر والأسود » Red and Black (١٨٣٠) لايرضى هو الآخر بديلا عن أن يكون نابليون فرنسا الجديد على الرغم من انتمائه الى أسرة متواضعة من الطبقة البرجوازية . وجنبا الى جنب نسخة من مذكرات نابليون التي يتخذ جوليان سورل منها مصدر الهام له من أجل الوصول الى ذروة المجد والشهرة ، نجده يحتفظ بنسخة من « الاعترافات » The Confessions (١٧٧٠) لروسو لنفس الغرض .

ونتيجة للتأثير السحري القوي لأسطورة نجاح نابليون عليه يعجز جوليان سورل عن أن يحدد هدفا معينا في الحياة ، ويرفض فرصا كثيرة للعمل من شأنها أن تحقق له حياة سعيدة لولا سطوة الأسطورة النابليونية على مخيلته . ويبقى جوليان سورل أسيرا لاعجابه الشديد بنابليون الى أن يتم زجه في السجن قبل اعدامه بقليل في زنزانته الانفرادية يجد جوليان فرصة لاعادة حساباته ، وتتوفر له لحظات هدوء أو ما يمكن وصفه بمصطلحات وجودية لحظات صدق مع النفس يتمكن خلالها من التوصل الى قناعة تامة باستحالة تحقيق آماله المنشودة لأسباب شخصية وأخرى اجتماعية خارجة عن ارادته تماما كما يحدث في رواية « بلزاك » ، حيث يتعلم لوسيان تشاردون وبخاصة في باريس دروسا لاتقل قسوة ومرارة عن الدروس التي تعلمها جوليان سورل في العاصمة التي يتوافد اليها الأبطال في الرواية الفرنسية طمعا في تحقيق المجد والشهرة كما فعل بالضبط روسو ونابليون ، اللذان يعدان الأبوان الروحيان للابطال الشباب في الرواية الفرنسية . ولكن الواقع قلما يتمشى مع طموحات الشباب المهاجرين من القرية الى العاصمة التي يرون فيها في البداية مسرحا معدا لهم ليلعبوا عليه ماتزينه لهم مخيلاتهم من أدوار مهمة الى أن يتضح لهم أن باريس ليست الا مدرسة يتعلمون فيها أن النجاح في الحياة حليف ذوي العزائم القوية والا تحولت الطموحات والأحلام الى آمال ضائعة كما يحدث بالفعل في روايات ستندال وبلزاك .

تسهم التجارب الحياتية التي يمر بها الأبطال في الرواية الفرنسية اسهاماً كبيرا في تكوين شخصياتهم ، وكثيرا مايلتقون بأشخاص يكبرونهم سنا مهمتهم تقديم ثمرة تجاربهم في الحياة للبطل الشاب كجزء طبعا من الهدف التعليمي العام الذي تتميز به رواية تكوين الشخصية . ففي رواية « جوته » مثلا تتم مهمة تعليم فلهلم مايستر وفق خطة موضوعة من قبل مايسمى « جماعة البرج » The Soceiety of the Tower . صحيح ان عملية تعليم ارشاد البطل في الرواية الفرنسية لاتخضع لبرنامج دوغماتي Dogmatic محدد كما نجد في الرواية الألمانية ، الا أن هناك مواقف مهمة في حياة البطل يتعلم فيها عبرا ودروسا ، اما بشكل تلقائي أو على يد شخص أو أشخاص يتطوعون لتوجيهه الى اتباع الطريق السوى لما يتمتعون به من خبرة وحكمة . ففي رواية « الآمال الضائعة » يشرف فوترين Vautrin الشخصية البلزاكية المعروفة على تلقين لوسيان تشاردون دروسا في الحياة العلمية . وفي أحد المواقف المهمة يبين فوترين للوسيان تشاردون أن محنة الشباب في فرنسا في أعقاب الثورة نابعة من توسيع آفاق الطموح على يد نابليون ، الأمر الذي أودى بالشباب للسعي المحموم وراء أكثر الطموحات ،

غير آبهين لما هم قادرون بالفعل على القيام به ، أو آخذين بعين الاعتبار المعطيات للواقع . هذا ما يتوصل إليه في العادة العديد من أبطال الروايات الفرنسية بعد حياة حافلة بالأحداث والمغامرات ، كما تشهد على ذلك ، بصورة تفوق في روعتها واثارتها كل مايوصف من قصص البحث عن الذات في الرواية الفرنسية ، قصة حياة جوليان سورل الذي تتجسد فيه روح طموح الطبقة البرجوازية في فرنسا في الجزء الأول من القرن التاسع عشر على أقوى وأروع صورها .

ليس إقدام الأبطال الشباب في الرواية الفرنسية على المضي من أجل تحقيق أكثر الآمال طموحا مقارنة بالزهد الذي يميز أسلوب حياة بطل رواية تكوين الشخصية الألمانية إلا انعكاسا لتحرير الطبقة البرجوازية في فرنسا على عكس وضع الطبقة الوسطى في ألمانيا . في هذا الصدد نجد تشابها كبيرا بين الرواية الفرنسية والرواية الانجليزية التي تتناول موضوع تحقيق الذات . ففي رواية « ديكنز » Dickens « الآمال الكبيرة » Great Expectations (١٨٦٠) يضمر البطل بب الذي يعمل صبي حداد النية على أن يصبح (جنتلمان وعالم) ، مدفوعا في سعيه لتحقيق مثل تلك الأحلام بالفرص المتاحة لأبناء طبقته للوصول إلى أعلى المناصب . وينطبق ذلك على ديفيد كوبرفيلد في رواية « ديكنز » التي تحمل نفس الاسم كعنوان لها . إن أهم هدف يسعى ديفيد كوبرفيلد إلى تحقيقه هو الارتفاع بمستواه الاجتماعي والحصول على لقب ـ جنتلمان ـ الهدف الذي لا يقل أهمية بالنسبة له عن نجاحه كروائي . بالطبع ليست هذه التطلعات الاجتماعية مقصورة على أبطال « ديكنز » ، فهنالك العديد من الأبطال في الرواية الانجليزية الذين يجذبهم اللقب الرنان ـ جنتلمان ـ ومن أبرزهم أرثر بندنس بطل رواية « ويليام ثكري » William Thackeray « تاريخ بندنس » The History Of Arthur Pendiness (١٨٤٨ ـ ٥٠) ، في هذه الرواية التي يشار إليها أحيانا على أنها أول رواية تكوين شخصية انجليزية تسيطر على مخيلة البطل فكرة الالتحاق بجامعة كمبرج ، ليس حباً في العلم ، بل طمعا بالدرجة الأولى في الارتفاع بمستواه الاجتماعي والحصول على لقب ـ جنتلمان ـ لنفس الأسباب أيضا يكرس بطل رواية « تشارلز كنغسلي Charles Kingsley « التون لوك » Alton Locke (١٨٥٠) حياته للالتحاق بجامعة كمبرج .

يأتي سعي الأبطال لتحقيق الثقافة الذاتية في الرواية الإنجليزية ضمن إطار مفهوم « الاعتماد على النفس » Self-Help الذي يشكل عنصرا مهما في التراث الثقافي الانجليزى وبخاصة في الجزء الأول من القرن التاسع عشر ، بمقدار ما يعني هذا المبدأ بالثقافة الذاتية للفرد يبدو قريب الشبه من مفهوم « البلدنج » Bildung الألماني ، إلا أن المبدأين يفترقان فيما يوليه الأول من اهتمام بتحسين الوضع الاجتماعي للفرد إلى جانب تنمية قدراته العقلية ومواهبه ، بينما يقتصر مفهوم Bildung على تقديس الثقافة والتنمية الذاتية للفرد ، دون إعارة اهتمام كبير للفوائد المادية . ومن الجدير بالذكر هنا أنه في كتابه الشهير « الاعتماد على النفس » Self-Help(١٨٥٩) يخصص المؤلف « صمائيل سمايلز » Samuel Smiles الفصل الأخير للتحدث عن صفات الجنتلمان ، ويوجه الدعوة إلى أبناء أمته ليتحلوا بهذه الصفات بنفس الحماس الذي يدعوهم به إلى العناية الشديدة بقضايا الثقافة والتعليم والتطور الروحي كوسيلة للارتفاع بمستواهم الحياتي .(١١)

١١ ـ انظر :

Samuel Smiles, Self-Help (London: John Marray, 1905) The Last Chapter.

هكـذا ، ، ففي رواية « التـون لوك » مثـلا ، فعلى الرغم من افتتان البطل الشديد بالفكر والثقافة الألمانية واعجابه بطموحـات وأحلام فلهلم مـايستر وبخـاصة عنايته بالثقافة الذاتية الخالصة ، فإن مبـدأ « الاعتماد على النفس » الذي يجمع بين الثقافة الـذاتية وتحسـين الوضع الاجتماعي يفرض نفسه كقوة محركة رئيسة في حياة « التون لوك » كما هو الحال حقيقة في كل الروايات الانجليزية التي تتخذ من موضـوع البحث عن الذات محورا رئيسا لأحداثها .

كما بينا عند المقارنه بين الـرواية الألمـانية ونـظيرتهـا الفرنسية ، يمكن تعليل توجه الرواية الانجليزيـة نحو الجمع بين الثقافة الذاتية وتحقيق النجاح في الحياة إلى ما تتمتع به الطبقة الوسطى في إنجلترا من حرية ، ومن ثم الفرص المتاحة لأفرادها لتحسين أوضاعهم على الصعيد الاجتمـاعي . في كتابـه **Early Victorian Britain 1832-51** يتحدث المؤلف J.F.Harrison عن تزامن ظهـور مبـدأ Self-Help مـع اليقـظة في الأوسـاط العمالية ، وبـين أفراد الـطبقة الفقيـرة في بريـطانيا في النصف الأول من القـرن التاسـع عشر ، الفتـرة التي شهدت إنشاء جمعيات أطلقت على نفسها Mutual Improvement Societies[١٢] هدفها النهوض بشؤون الـطبقـه الفقيـرة ، ومسـاعـدة أفـرادهـا عـلى تحسـين أوضاعهم .

ولكن تحرر الطبقـة البرجـوازية وإمكـانية التحـرك والانتقال من طبقة دنيا إلى طبقة عليا ـ سواء في فرنسا أو انجلترا ، مقارنـة بالأوضـاع الاجتماعيـة المتحجرة في ألمانيا ـ لا تعني بالضرورة أن طريق الوصول إلى ما يهدف إليه الفرد بات سهلًا وممهدا . فالحقيقة أن الصعوبات والعـراقيل التي يـواجهها الأبـطال الشباب في الـرواية الانجليزية أو الفرنسية لا تقل عما يعترض طريق فلهلم ورفـاقه الألمـان من مشاق في كفـاحهم المضني لتحقيق الذات . ولكن الصراع بين البطل والمجتمع في الرواية الألمانية يتميـز بأنـه أقل حـدة مما هـو عليه في الـرواية الإنجليزية والفرنسية في درجات متفاوته ، كما سنـرى بعد قليل .

بالامكان رد ما يتسم به الصراع بين البطل والمجتمع من هدوء في الرواية الألمانية بالـدرجة الأولى إلى ميـل البطل للزهد في الحياة كما أوضحنا ، ومن ناحية أخرى هنالك علاقة مباشرة بين طبيعة الصراع وما ينطوي عليه مبدأ الفرديـة في ألمانيـا من التأكيـد على أن كيـان المرء كفرد ، يستند إلى حـد كبير عـلى مدى التـزامه بـروح الجماعة ، والعمل من أجل الصالح العام . في وصفه لعلاقه الانسجام والتكامل بين مبدأ الفردية ، والحس الجمـاعي يقـول « فـريـدرش شليجـل » Eriedrich Schlegel : « أن من يفرض عليه إحساسه بالفرديـة الابتعاد عن المجتمع سيجد نفسه عاجزا عن الاستمتاع بالحياة بأسمى صورهـا ، لأن ذلك يعتمـد على الحس الجماعي ، ولن يتأتى للفرد تطوير ذاته بشكل مكتمل ، وتحقيق الخلود إلا من خلال ارتباطه بالقـوى الروحيـة للكون واندماجه في المجتمع » .[١٣] وفي نفس السياق يقـول الفيلسـوف الألمـانى « فلهلم فـون هـومبلت Wilhelm Von Humboldt الـذي تزخـر كتـابـاتـه بالإشادة بمبدأ الفردية ، الذي يشكل القاعدة الأساسية

١٢ ـ انظر :

J.F.C. Harrison, **Early Victorian Britain 1932-51** (Fontana, 1971), p. 168.

١٣ ـ انظر :

Eugene N. Anderson, "German Romanticism as an Ideology of Cultural Crisis", **Journal of the History of Ideas, vol. II (1941), p. 309.**

لمفهوم Bildung : الانسان حيوان اجتماعي بطبعه لأنه بحاجة ماسة إلى الآخرين ، ليس من أجل الحماية أو المساعدة أو الإنجاب فحسب ، بل لاحساسه التام بذاته عن طريق انتمائه للجماعة ، ويقينه أنه لا يمكن تصور وجود الضمير « أنا » إلا إذا وجد الضمير « نحن » . . . هكذا فإن الفرد ليس إلا جزء من الجماعة التي تتكون من مجموعة من الأفراد » .(١٤)

لا غرابة إذاً في أن تركز رواية « جوته » على تنمية البطل لقدراته كفرد في نفس الوقت التي تولي فيه عناية خاصة بتعليمه في أن يتحمل مسئولياته كاملة كعضو في المجتمع الذي ينتمي إليه . وتجسد قصة حياة فلهلم مايستر هذه المبادىء بصورتها المثلى وبخاصة فيما يبديه من الاستعداد التام في الأجزاء الأخيره من الرواية للتخلي عن أنانيته وتركه جانباً . الأحلام التي أدت الى قوقعته وعزلته عن المجتمع لدرجة أننا نلتقيْ به في الروايه(١٥) التي تعد متممة للرواية قيد الدرس ، يعمل طبيبا لما توفره له هذه المهنة من اتصال مباشر بالآخرين وتقديم العون لهم .

شتان بين ما ينتهي إليه الأمر من نبذ الأنانية والابتعاد عن روح الفردية في اتجاه المجتمع من جانب البطل في الرواية الألمانية وبين عدم الانسجام ، لا بل القطيعة التامة التي يسفر عنها الصراع الطويل بين الفرد والمجتمع في الرواية الفرنسية . ينسجم مثل هذا التباين انسجاما تاما مع ما هنالك من فروق أساسية بين مبدأي الفردية في كل من المانيا وفرنسا . فإذا كان المبدأ الألماني لا يقر بوجود حد فاصل بين الفرد والمجتمع ، بل على العكس يصر على تأكيد الانسجام فيما بينهما ، ينزع مبدأ الفردية في فرنسا إلى الفصل التام بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع مما يؤدي بالتالي إلى غياب الانسجام بينهما ، أو حتى جنوح العلاقة بين الفرد والمجتمع إلى أن تأخذ طابع العداء . دعنا نسجل هنا الملامح العامة لمبدأ الفردية الفرنسية كما يراها المؤرخ الفرنسي « لويس بلانك » Louis Blanc « إن مذهب الفردية يعني سلخ الفرد عن مجتمعه وجعله الحكم الوحيد لشؤون حياته وما يحيط به ، وتقوية إحساسه بما له من حقوق ، دون إعارة اهتمام لما يترتب عليه القيام به من واجبات ، وإعطائه أيضا الفرصة لممارسة قوته ، ومن ناحية عامة تعني الفردية سياسة عدم التدخل Iaisser-Faire . إن الفردية التي أطلقها من عقالها لوثر فقدت صبغتها الدينية بمرور الوقت ، واتجهت لتعميق شعور الانسان بقيمته كفرد ، مع ما يصاحب ذلك من مشاعر العزلة والقلق والاحساس بالخطر الداهم الناجم عن مسئولية الفرد الشخصية في حل مشاكله وسط خضم هائل من التناقضات » .(١٦)

نجد في هذه العبارات صدى لما ينوه به « روسو » في كتابه الشهير العقد الاجتماعي The Social Contract (١٧٦٢) عن الحاجه الماسة لتنظيم العلاقة بين الفرد والمجتمع ، لما بين الطرفين من تناقضات وتضارب مصالح طبقا للتصور الفرنسي لما تعنيه الفردية التي وضع أسسها « روسو » في كتاباته الفلسفية . وقدم لنا صورة

---

١٤ ـ انظر :
Wilhelm von Humboldt, **An Anthology of the Writings of Wilhelm von Humboldt: Humanist without Portfolio**, translated by Marianne Cowon (Detroit, 1963), p. 72.

١٥ ـ راجع :
Goethe, **Wilhelm Meister's Travels**, translated by Thomas Carlyle (London, 1907).

١٦ ـ انظر :
Steven Lukes, **Individualism** (Oxford, 1979), pp. 11-12.

درامية مجسدة لها في « الاعترافات » ، حيث نجد وصفا مفصلا للعداء السافر والتناقضات الحادة بين « روسو » والمجتمع التي كان من نتيجتها قراره الشهير في أن يعيش كناسك في عزلة تامة عن المجتمع . في الفصل السادس من « العقد الاجتماعي » نقرأ هذه العبارات التي تلقي مزيدا من الضوء على طبيعة صراع لوسيان تشاردون وجوليان سورل (أتباع روسو) مع المجتمع : « ليس بوسع الأفراد خلق قوى جديدة ، ولكن بإمكانهم توحيد وضبط وتوجيه القوى المتوفرة لديهم كوسيلة وحيدة للتغلب على أي نوع من أنواع المقاومة التي قد تهدد بقاءهم . ولا يتأتى التوصل إلى تحقيق محصلة هذه القوى المتفرقة إلا باتحاد الأفراد . للحفاظ على وجوده ، فكيف يتحقق له الاندماج مع الجماعة دون أن يعرض نفسه للخطر وإهمال واجباته تجاه نفسه . تتلخص هذه القضية على النحو التالي : كيف السبيل إلى إيجاد شكل من أشكال الاتحاد الذي يوفر للفرد الحماية بفضل ما يتمتع به من قوة جماعية مع مراعاة حق الفرد في السعي لتحقيق متطلباته الذاتية وتمتعه بحريته كما لو كان لا ينتمي إلى أي اتحاد ؟ هذه المعضلة الأساسية التي يحاول العقد الاجتماعي إيجاد حل لها » .(١٧)

تزودنا هذه العبارات وتعليقات « بلانك » بصورة واضحة للعناصر الرئيسة لمبدأ الفردية الفرنسية بما ينطوي عليه من عدوانية وعدم توافق مطالب الفرد مع المصلحة العامة للمجتمع ، مما يضفي على الصراع بين البطل والمجتمع في الرواية الفرنسية طابعا قوميا يتصف بالعنف والحدة . ففي رواية « ستندال الأحمر والأسود » يعلن البطل حربا شعواء ضد المجتمع وبصورة خاصة الطبقة الارستقراطية . وفي مناسبات عديدة في خضم صراعه من أجل تحقيق أهدافه الفردية يستخدم جولينا سورل صورا مستمدة من عالم الحروب والمعارك ، مدللا بذلك ليس على العدوانية التي يشتمل عليها مبدأ الفردية الفرنسية فحسب ، بل مؤكدا أيضا ما يشوب العلاقة بين الفرد والمجتمع في فرنسا من عدم انسجام وتناقضات حادة تؤدي في النهاية بجوليان نفسه إلى دخول السجن الذي يرمز إلى عزلته التامة في الجزء الأخير من الرواية . يحمل السجن نفس الدلالة الرمزية في حياة لوسيان تشاردون(١٨) الذي يشاطر جوليان حربه المعلنة ضد المجتمع ، ويلجأ أيضا كما نجد في « الأحمر والأسود » إلى استخدام عبارات حربية ، وبخاصة في محاولاته تحطيم الأسوار التي تحيط بها الطبقة الأرستقراطية نفسها حفاظا على امتيازاتها ولتكون سدا منيعا امام ابناء الطبقه البرجوازية في محاولاتهم المستميته للاحتكاك بالطبقه العليا كوسيلة لنيل نصيبهم مما يتمتع به أفراد هذه الطبقة من نفوذ وجاه ، في وقت كما ذكرنا سابقا شهد العديد من المكتسبات والانجازات التي حققتها الطبقة البرجوازية في فرنسا في العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، وبداية القرن التاسع عشر من ناحيه أخرى ، تجد عدوانية البطل في الرواية الفرنسية متنفسا لها في نظرته إلى نساء الطبقة الأرستقراطية كأهداف عسكرية يتحتم عليه الاستيلاء عليها كنقطة انطلاق نحو تحقيق أحلامه الاجتماعية . ويبلغ الأمر بجوليان في هذا المجال إلى الاستعانة بمذكرات نابليون كمصدر لوضع استراتيجية محكمة لغزو قلب معشوقته الارستقراطية « ماتيلدا » . وفي رواية « بلزاك » يستنفذ البطل الجزء الأكبر من قواه في محاولة فرض إرادته على السيدة الأرستقراطية « مدام دي بارجتون » التي بقى قصرها على الدوام حصنا منيعا أمام محاولات البطل البرجوازي « لوسيان تشاردون ».

١٧ - انظر :
Jean-Jacques Rousseau, **The Social Contract**, translated by Maurice Crenston (Penguin, 1968), p. 60.

١٨ - يتم سجن لوسيان تشاردون في رواية أخرى من روايات بلزاك التي تحمل عنوان **A Harlot High and Low.** والتي تعد مكملة لرواية « الآمال الضائعة » .

لغزوه ، إلى أن تم له ذلك بفضل موهبته الشعرية . ولكن بدلا من تمهيد الطريق أمام لوسيان تشاردون لتحقيق طموحاته ، يفجر وصوله إلى قصر معشوقته الأرستقراطية صراعا بين الفتى البرجوازي وأفراد الطبقة الأرستقراطية لا يقل في حدته وعنفه عن المعارك الطاحنة التي أعقبت وصول « جوليان سورل » إلى قصر « مدام دي رينال » في القرية ، أو بعد الانجاز العظيم الذي حققه في باريس بغزو قصر الماركيز « دي لامول » حيث تشتد حدة الصراع بين « جوليان سورل » والأرستقراطيين إلى درجة إشهار السلاح بالفعل .[١٩] .

بهذا لا يتميز الصراع في الرواية الفرنسية عما هو عليه في الرواية الألمانية فحسب ، بل عن الصراع في الرواية الانجليزية أيضا ؛ فعلى الرغم من مشاركتهم للأبطال الفرنسيين طموحاتهم الاجتماعية ، وكذلك ما يلاقونه من عوائق يصعب تذليلها في سعيهم وراء تحقيق الذات ، يتجنب أبطال الرواية الانجليزية الدخول في صراع سافر مع المجتمع يمكن مقارنته بما يحدث في الرواية الفرنسية . وفي نفس الوقت تختلف طبيعة الصراع ودرجة حدته في الرواية الانجليزية عما ألفيناه في الرواية الألمانية . مرة أخرى يكمن السر هنا في الطبيعة المميزة لمبدأ الفردية الانجليزية الذي يرتكز بشكل رئيس على محاولة التوفيق بين مطالب الفرد والمجتمع مع الاقرار بوجودهما كوحدتين منفصلتين لا سبيل إلى دمجهما التام ، حسبما تقره الفلسفة الاجتماعية الألمانية ، وفي الوقت نفسه دون أن تعني عملية الفصل هذه اعتبارهما وحدتين متناقضتين على النسق الفرنسي . ففي كتاب « الاعتماد على النفس » الذي يمجد فيه « سمايلز » مبدأ الفردية ، ويدعو إلى الأخذ به باعتباره أساس تقدم ورخاء المجتمع الانجليزي ، نجد أيضا دعوة للتحلي بنكران الذات . وتتلخص فلسفة « سمايلز » الاجتماعية في أن البنيان القوي للمجتمع يعتمد على اقتران نكران الذات بمبدأ الفردية المستنيرة التي تختلف في جوهرها عن توجه الفرد للعمل على تحقيق مصالحه المادية دون مراعاة للمصلحة العامة ، أو مصالح الآخرين ، ومع هذا فإن فلسفة « سمايلز » لا تصل إلى نفس المدى الذي تذهب إليه الفلسفة الاجتماعية الألمانية من حيث إيجاد رابطة عضوية واضحة بين اكتمال تطور الفرد وتنمية حسه الجماعي ، مما يضفي على مبدأ الفردية الانجليزية مسحة من الليبرالية تناظر الطابع الاجتماعي الغالب على الفردية الألمانية .

يبرز الطابع الليبرالي المميز لمبدأ الفردية الانجليزية أكثر وضوحا للعيان إذا ألقينا نظرة على أفكار « جون ستيوارت مل » John Stuart Mill أكثر المفكرين الانجليز تحمسا لارساء دعائم مبدأ الفردية كمنهج عام يتحتم على المجتمع الانجليزي السير على هديه كوسيلة مثلى لتحقيق التقدم والحرية ، في مقالته الشهيرة « عن الحرية » On Liberty يذهب « مل » في دفاعه القوي عن مبدأ الفردية إلى حد السماح للفرد بالخروج على طرق التفكير التقليدية ، والثورة ضد الأنماط السلوكية التي لا تتمشى مع ميوله واستعداداته الطبيعية شريطة أن يتمتع ذلك الفرد بمواهب فريدة وقدرات خارقة لا يتأتى لها التطور والنمو ضمن ما يرسمه المجتمع من حدود ، ويضعه من قوانين لا يجوز لأحد أن يتخطاها . ويصل حماس « مل » في الدفاع عن الفردية ذروته في هجومه الصارخ ضد الرأي العام Public Opinion وبخاصة عندما يتعارض مع رغبة الفرد صاحب القدرات الخاصة في أن يعيش استجابة لما تمليه عليه ميوله ونزعاته

١٩ ـ نشير هنا إلى الخلاف الحاد بين « جوليان سورل » وأحد رواد صالون الماركيز « دي لا مول » الارستقراطيين في باريس ، حيث كاد الأخير يطلق النار على « جوليان سورل » .

الطبيعية . ويلتقي « مل » مع « سمايلز » في عدم إبدائه هو الآخر أي قسط من الحماس لربط إحساس الفرد بكيانه التام بمدى تطور مشاعره الاجتماعية ـ النتيجة الحتمية لرحلة البحث عن الذات في رواية تكوين الشخصية الألمانية .

تتجسد مواطن الخلاف هذه بين مبدأي الفردية في البلدين بصورة عملية في التباين بين عودة « فلهلم مايستر » إلى الاندماج في المجتمع في نهاية الرواية ، العودة التي تتوج إعداده التدريجي ليمارس دورا فعالا في المجتمع بعد فترة من العزلة ، وبين عجز « بب » مثلاً عن الوصول إلى الانسجام التام مع المجتمع في نهاية « الآمال الكبيرة » . صحيح إن « بب » يمر بعدد كبير من التجارب التي تهدف إلى تحريره من قبضة أحلامه الرومنتيقية ، وترويض نزعاته الفردية تمهيدا لاعداده للتكيف مع الواقع في النهاية ، إلا أن قراره النهائي في الرحيل إلى الشرق (أو ما يمكن وصفه قراره الروحي) يحمل في طياته دلائل رمزية على استمرارية إحكام قبضة الميول الفردية والأحلام الرومنتيقية على مخيلته ، تلك الميول والأحلام التي تسببت في انسلاخه عن واقعه ، وعدم قدرته على الانسجام مع المجتمع على طول الرواية . وفي « ديفيد كوبرفيلد » يلقي قرار البطل النهائي في أن يكون كاتبا روائيا (بما يتيح له العيش في عزلة تامه عن المجتمع إذا أراد ذلك) ظلالاً من الشك حول خلاصه التام من ميوله الفردية وإحساسه باللاانتماء .

أما في رواية « ثكري » « تاريخ أرثر بندنس » فليست موافقة البطل على الزواج من لورا (الشخصية النسائية التي تجسد الحياة الواقعية في الرواية) إلا تعبيرا عن حالة اليأس التي انتابت البطل الشاب في النهاية بعد أن عانى ما عاناه من الاحباطات وخيبات الأمل الناجمة عن فشله في أن يحقق أحلام شبابه ، أكثر من كونها دليلا على قناعته بالتقبل الطوعي للواقع كما يفعل بطل رواية تكوين الشخصية الألمانية عن قناعة تأمة بعدم جدوى التمسك بأحلام وطموحات رومنتيقية .

يعد أبطال « ديكنز » و« ثكري » أكثر حظا من « التون لوك » الذي يلقى حتفه في النهاية من فرط إحساسه بالمرارة من جراء سلسله الاحباطات وخيبات الأمل المتلاحقة التي مني بها في سعيه غير الموفق للالتحاق بجامعة كمبرج ، والحصول على لقب جنتلمان . هنالك أوجه شبه كثيرة بين « التون لوك » وبطل رواية « توماس هاردي » Thomas Hardy « جود الغامض » Jude The Obscure (١٨٩٥) . الذي يعد واحدا من الأبطال الانجليز الشباب الذين يتجسد فيهم مبدأ Self-Help على أحسن صوره . وتتمتع رواية « هاردي » بأهمية خاصة لما نجده فيها من تصوير درامي لأفكار « مل » الخاصة بمبدأ الفردية الذي استهوى[٢٠] « هاردي » نفسه ، ووجد طريقة كالحافز الرئيس في حياة « جود » وابنة عمه « سو » . فإذا كان موت « جود » في نهاية الرواية يدل دلالة رمزية على عدم قدرته على الاستمرار في الحياة بعد فشل كل ما بذله من الجهود ليعيش استجابة لرغباته الفردية ، فإن « سو » تموت معنويا بعودتها للعيش مع فلتسون (الذي يمثل جاني العيش وفقا للتقاليد والانصياع لما تمليه إرادة المجتمع في الرواية) بعد ما منيت به هي الأخرى من فشل ذريع لتحيا وفق مبادىء « مل » . وليس قرار « سو » التحول إلى سلوك طريق الزهد في النهاية أيضا إلا دليلا آخر على رفضها للواقع وتفضيلها التقوقع كبديل عن العيش على

٢٠ ـ ورد في قصة حياة « توماس هاردي » تأليف زوجته الأولى « فلورنس هاردي » ، أن هاردي كان يحفظ مقالة « مل » عن الحرية عن ظهر قلب .

عكس ما تشتهي ، تماما كما ينبثق قرار « جود » اتباع طريق الزهد في النهاية عما يتملكه من إحساس شديد بالحسرة لعجزه عن تحقيق طموحاته ، وفي ذلك يختلف الأمر أيضا عما نجده في الرواية الألمانية ، حيث يتوصل البطل في النهاية إلى قناعة نامة بأن السعادة الحقيقية في الحياة تكمن في الزهد وإنكار الذات .

تتبلور هذه القضية بصورة أكثر وضوحاإذا ما تحدثنا عن دور « توماس كارليل » Thomas Carlyle كوسيط همه نقل الرواية الألمانية (وبخاصة عنايتها الشديدة بموضوع الزهد Entsagung) إلى القراء الانجليز مدفوعا بذلك في المقام الأول برغبته القوية للتصدي لطغيان مد البايرونية Byronism في بريطانيا في الجزء الأول من القرن التاسع عشر . ففي عام ١٨٢٤ قام « كارليل » بترجمة رواية « فلهلم مايستر » إلى اللغة الانجليزية . وفي سنة ١٨٣٦م نشر روايته الرائعة « سارتر ريسارتس » Sartor Resartus متخذا من روايه « جوته » نموذجا له وبخاصة في صياغة الجزء الثاني من روايته « المعنى » بوصف تكوين شخصية البطل وبحثه عن ذاته . وتجدر الاشارة هنا إلى أن « كارليل » عمد إلى اختيار بطل ألماني الأصل لروايته ، حتى تسهل عليه مهمه الدعوة إلى الزهد في الحياة ، وما يقترن بها من ضرورة تنمية الحس الجماعي لدى الفرد كما نراهما يتجسدان في حياة البطل بعد نجاحه في التغلب على انشغاله التام بمشاعره الذاتية ، وعزلته عن المجتمع في المراحل الأولى من حياته . وربما لهذا السبب فشلت الرواية في أن تكون النموذج لرواية تكوين الشخصية الانجليزية كما كان يهدف المؤلف . إن أقرب محاولة في الرواية الانجليزية للسير على نمط « جوته ـ كارليل » تتوفر في أعمل « ديكنز » نظرا لتأثره الشديد ـ كما هو معروف ـ[٢١] بفلسفة « كارليل » الاجتماعية ، ومع ذلك ، كما سبق أن بينا في هذه الدراسة المقارنة ، بقي أبطال « ديكنز » انجليزيين لحما ودما ، وبخاصة في تجسيدهم لروح الفردية الانجليزية .

هكذا فإن « توماس مان » على حق عندما يقول : « إن مبدأ الفردية الألمانية يتميز بانسجامه مع مبدأ الأخلاقية الاجتماعية والتي تسمى اجتماعية الدولة ، المختلفة تماما عن فلسفة حقوق الانسان والماركسية . لأن فردية عصر التنوير أو الفردية الليبرالية في الغرب تتعارض مع المبدأ الاجتماعي » .[٢٢] بالفعل يتجسد هذا التمايز بصورة جلية كما بينا ، وبخاصة في طبيعة الشكل النهائي لرحلة البحث عن الذات في رواية تكوين الشخصية الألمانية ، ومايقابلها في فرنسا وانجلترا .



---

٢١ ـ راجع . Mildred G. Christian, "Carlyle's Influence upon the Social Theory of Dickens". **The Trollopian** vol. 2 (1947).

٢٢ ـ انظر . Steven Lukes, **Individualism**, p. 22.

المراجع الاجنبيه

Bruford, W.H.The German Tradition of Self-Cultivation: 'Bildung' from Humboldt to Thomas Mann (Cambridge, 1975).

Buckly, Jerome Hamilton, **Season of Youth: The Bildungsroman from Dickens to Golding** (Cambridge-Massaehusetts, 1974).

Cross, Wilbur L., **The Development of the Engish Novel** (London, 1923).

Qilmour Robin, **The Idea of the Gentleman in the Victorian Novel** (London, 1981).

Guerard, A L., **French Civilization in the Nineteenth Century** (London 1914).

Hauser, Arnold, **The Social History of Art,** 3 vols. (London, 1962).

Hegel, G.WW. F , AEsthetics: **Lectures on Fine Art,** trans. by T.M. Knox, 2 vols. (Oxford, 1957).

Hemmings, F.W.J., **An Interpretation of La Comedie Humaine** (New Yorkl 1967).

House, Humphry,**The dickens World** (London, 1942).

Howe, Susanne, **Wilhelm Meister and his English Kinsmen: Apprentices to Life** (New York, 1930).

Humboldt, Wilhelm von, **Humanist Without Portfolio,** trans. by Marianne Cowan (Detroit, 1963).

Lukacs, Georg **The Theory of the Novel, trans. by Anna Bostock (London, 1978).**

——— **Goethe and his Age,** trans, by Robert Anchor (London, 1968).

Lukes, Steven, **Individualism** (Oxford, 1973).

Mill, John Stuart, Utilitarianism, on Liberty, Essay on Bentham (Colllins, 1979).

Rousseau, Jean-Jacques, **The Social Contract,** trans. by Maurice Cranston (Penguin, 1968).

Smiles, Samuel, **Self-Help** (London, 1905).

Swales, Martin, **The German Bildungsroman from Wieland to Hesse** (Princeton, 1978).

***

الملحمة في التراث الأدبي العربي

ناصر يوسف العثامنة
جامعة اليرموك
١٩٨٧ م

يثير النقد العربي الحديث بشكل عام قضية الملاحم في الشعر العربي على شكل سؤال ذي شقين شديدي الترابط : أولهما يتعلق بما إذا كان في الأدب العربي نمط شعري ينطبق عليه التعريف الغربي لمصطلح الملحمة(١) أم لا ، وثانيهما يتعلق بتفسير الجواب على الشق الأول من السؤال في حالة كون هذا الجواب بالنفي . ويمكن تقسيم نقاد الأدب العربي المحدثين الذين يتناولون هذه القضية إلى ثلاث فئات رئيسة . أما الفئة الأولى فتضم أولئك النقاد الذين يجيبون على الشق الأول من السؤال بحماسة بالغة بالايجاب ويؤكدون أن في الأدب العربي ملحمة بالمفهوم الغربي أو بمفهوم مقارب له ويستنكرون بشدة أن يَنْعَى غيرُهم على هذا الأدب ، قديمه أو حديثه ، غياب الملحمة منه وأما الفئة الثانية فتضم النقاد الذين يجيبون على الشق الأول بالنفي ثم ينتقلون الى الشق الثاني في محاولة لتفسير ما يتراءى لهم من غياب للملاحم من التراث الأدبي العربي . وحين ينتقل نقاد هذه الفئة إلى الشق الثاني من السؤال نجدهم يختلفون بعض الشيء في تناوله ، فبعضهم يحل المسألة من جذورها ببساطة مدهشة فيرى بأسف بالغ أن السبب في غياب الملاحم من الأدب العربي يكمن في التخلف العقلي والحضاري عند العرب القدماء وفي قصور خيالهم عن تناول المعنويات أو الانطلاق إلى آفاق إنسانية عامة ، ويرى في إحجام العرب عن ترجمة أو تقليد الملاحم اليونانية بعد اطلاعهم عليها في عهد الترجمة في العصر العباسي دليلا آخر على جهل العرب وتعصبهم .

---

(١) يجدر بنا باديء ذي بدء أن نفرق بين الملحمة والقصيدة البطولية ؛ فكون موضوع القصيدة بطوليا شرط من شروط الملحمة ، ولكن هذا الشرط وحده لا يجعل من القصيدة ملحمة ، بمعنى أن كلمة قصيدة بطولية ولكن ليس كل قصيدة بطولية ملحمة فالبطولية صفة لموضوع العمل الأدبي ، وهي لذلك لا تحدد النمط أو الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه هذا العمل .

ويجدر بنا أيضا أن نفرق في بداية هذه الدراسة بين المفهوم الاصطلاحي لكلمة « ملحمة » ، بوصفها اسما لنمط أو جنس شعري معينه له طابعه وشروطه ومميزاته ، والمعنى المعجمي للفظة ملحمة بالعربية ، فالملحمة لغةً بنصب الميمين هي الموقعة العظيمة التي يكثر فيها التقتيل ، وهي بضم الميم الأولى ونصب الثانية القصيدة المحكمة النظم الملحمة النسج بغض النظر عن موضوعها أو النمط الأدبي الذي تنتمي إليه ؛ ويقال « لحم الأمر » بمعنى أحكمه والمراد بكلمة ملحمة في سياق هذه الدراسة هو بالطبع المعنى الاصطلاحي وليس المعنى المعجمي .

أنظر القاموس المحيط ، مادة « لحم » ؛ وكذلك محمد شوقي أمين ، « الملاحم بين اللغة والأدب » عالم الفكر . المجلد ١٦ ، العدد ١ (١٩٨٥) ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨

وبعضهم الآخر من نقاد هذه الفئة يبدي جدية أكبر في تناول المسألة فيُحْجِمُ عن استنكار هذا الغياب ويحاول ردَّه إلى أسباب دينية ولغوية وحضارية . (وسنعـرض آراء نقاد الفئتين الأولى والثانية مفصَّلة في مرحلةٍ تالية من هذا البحث) .

أمـا نقاد الفئـة الثالثـة فإنهم يعترضون عـلى طرح السؤالين من حيث المبدأ ويتساءلون مستنكرين عمّا إذا كان عدم انطباق مواصفات جنس أدبي غربيّ مُعينٍ على الانتـاج الأدبي العـربي أمـرا معيبـا ، خصـوصـا وأن الاصطلاح النقدي المتداول لهذا الجنس الأدبي الغربي قد استُمدّ من أعمالٍ أدبية نشأت في حضارة وبيئة معينتين تختلفان عن الحضارة والبيئة العربيتين . وينوّه نقادُ هذه الفئة بضرورة أن يُحْتَرَمَ الانتاج الأدبي العربي ، قديمـه وحديثه ، فيُدرس لذاته ويُقاس بمقاييس تنبع من داخله كما هو الحال مع كـل الآداب العالميـة الأخرى ، التي يـدرسُها أصحـابُها لـذاتهـا ويستنبـطون منهـا ، لا من خارجها ، مقاييس الحكم عليها والقوانين الداخلية التي تحكمُهـا وتميِّز بعض أجنـاسها عن بعض . وخـلاصة القول في هذه الفئة أنها لا تُنْكر غياب الملحمة الشعرية بمفهومها الغربي الدقيق من الأدب العربي ولكنها لا ترى في ذلك عيبًا ، بل هي ترى العيب كل العيب في النقاد الذين يُصرون على البحث في التراث الأدبي العربي عن هذا الجنس الأدبي أو ذاك لِمُجَرَّد أن النقاد الغربيين قد وجدوه في تراثهم الأدبي ، وفيمن يصرون كذلك على أن مشـابهة الأدب العـربي للآداب الأوروبيـة في أنماطهـا المختلفـة ضرورة من ضـروراته ودليـل على تقـدمه أو اتصافه بالابداع أو بالرقي .(٢)

ومـع تسليمنا التـام برفض إخضـاع الأدب العربي لمقاييس استُنبطت من خارجه فإننا لا نرى في هذه المقولة حَسْمًا للقضية المطروحة ولا مانعا من إعادة النظر فيهـا بحيث نتبين أوجـه الشبـه أو الاختـلاف بـين بعض الأجناس الأدبية العربية وما يقابلها في الآداب العالمية الأخرى ، خصوصا وأن وجود بعض الأجناس الأدبية ، ومنها الملحمة بمفهومها الواسع ، لا يقتصر على الآداب الغربية بل يتعداها الى غيرها من آداب الأمم الأخرى كالهنود والبابليين وغيرهم . ولعل الخطوة التالية في مجال إعادة النظر في هذه القضية برمتها على أمل الوصول الى حل لها ـ وهذا هو هدف أي بحث علمي جاد في أية قضية نقدية ـ تتمثل في مناقشة التوجهات النقدية لنقاد الفئتين الأولى والثانيـة لبيان مـا إذا كان أي منهـا يفي بغرض الاجابة على السؤال المطروح ، أو على الأقـل يسير في الاتجاه الصحيح نحو هذه الاجابة . وسَنُناقش آراء هؤلاء النقاد قبل أن نطرح أي جديد في هذه المسألة لعلنا نثبت أن القضية ما زالت مفتوحة للنقاش وتنتظر الحل المقنع الذي لا يأتي إلا بمزيد من الجدية في البحث والتفكـير والموضـوعيـة في استقصـاء الاحتمـالات واستجلاء الظواهر ومن ثَمَّ استصدار الأحكام من واقع ما يُحَكَّمُ عليه .

يستنكـر سعد الـدين الجيزاوي بشـدة القول بِخُلُوّ الأدب العربي القديم والحـديث من الملاحم ، فيقـول مستنتجا في خاتمة كتابٍ له عن الملاحم العربية :

---

(٢) أنظر فارق خورشيد ، في الرواية العربية عصر التجميع ط ٣ (بيروت · دار العودة ، ١٩٧٩) ، ص ٢١٤ ـ ٢٢١ ؛ وعلي عبدالحليم محمود ، القصة العربية في العصر الجاهلي ط ٢ (القاهرة . دار المعارف ، ١٩٧٩) ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ و٢٩٠

تتسم دعوة خورشيد إلى إنصاف الأدب العربي في هذا السياق بالجدية والانفتاح ، فلا تغلق الباب أمام الدراسات المقارنة ولا توحي بأي تعصب ضد الآداب العالمية الأخرى كالأدب الملحمي اليوناني على سبيل المثال . أما علي عبدالحليم محمد فيبدو أن حماسه المتدفق للأدب العربي يوقعه في تصور أن علاقة الأدب العربي بالأدب الغربي بعامة واليوناني بخاصة هي علاقة منافسة ، ولذلك نجده ينتقد ضمنياً المتحمسين للأدب اليوناني الملحمي وغير الملحمي وكأن حماسهم هذا يعني بالضرورة إهمالا للأدب العربي أو انتقاصاً من قيمته

« إن لفظ ملحمة لا يقتصر إطلاقه على ما تنطبق عليه كل خصائص ملحمة هوميروس . بل إنه يطلق على كل عمل أدبي في ميدان الشعر القصصي الذي يصور حياة الناس وبطولاتهم ومعاركهم .

ومن ثم فإن كل ما ورد في الشعر العربي من قصائد طويلة أو من مجموعات من القصائد في موضوع واحد تصور جوانب من تاريخ الأمة العربية وصراعها في معترك الحياة ، وحروبها . . أو تتحدث مثلا عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو عن بطولات أفراد . . . كل ذلك يعتبر (ملاحم) »[٣]

ولئن كنا لا نختلف مع الجيزاوي حول مضمون الفقرة الأولى من قوله فإننا نرى أنه فيما يستنتجه في الفقرة الثانية منه يجانب الصواب ويَنُمُّ عن خطإ كبير في فهم عنصر من أهم عناصر العمل الأدبي بعامة والقصيدة الملحمية على وجه الخصوص ، ألا وهو عنصر الوحدة العضوية . فليس من المعقول في عرف النقد الأدبي أن يعُدّ « كل ما ورد . . . من مجموعات من القصائد في موضوع واحد » ملاحم في الوقت الذي لا يختلف فيه اثنان على أن الملحمة الواحدة تبقى قصيدة واحدة مبنى وموضوعا مهما تعددت أناشيدها وكثرت أحداث قصتها أو استطراداتها . ولعل الجيزاوي في كتابه المذكور مفاده أن أدبنا القديم يزدحم بالشعر الحربي والقصصي وأننا « من هذا الشعر نستطيع أن نقيم أول ملحمة عربية وإن لم يكن واضعها واحدا . كما بُنيت الالياذة والأوديسة وهما ليستا لمؤلف واحد ، وإنما نظمها الشعراء الهومريّون ثم توالت سبتها لهوميروس »[٤] . والحق هو أن المعنى الذي يريده المحاسني هنا يعتمد كليًا على المقصود بكلمة « نقيم » ، فإذا كان المُراد باقامة أول ملحمة عربية من الشعر الحربي والقصصي العربي القديم هو إعادة سرد الأحداث المتضمنةِ في هذا الشعر في قصيدة قصصية واحدة ، فقد أصاب المحاسني وأخطأ الجيزاوي فهمه ، وإذا كان المراد بها هو وضع قصائد الشعر الحربي والقصصي العربي القديم الواحدة في ذيل الأخرى حتى يصبح لدينا عدد هائل من الأبيات فقد أخطأ كلا الناقدين الهدف بجهلهما ، أو تجاهلهما لحقيقة كون العدد الهائل من الأبيات لا يكون بالضرورة قصيدة واحدة ملحمية أو غير ملحمية . ولا يمكن الاستشهاد بالالياذة والأوديسة في هذه الحالة والتنويه باحتمال أن يكون لكل منهما عدة مؤلفين الا كلمة حق أريد بها باطل ، فالالياذة قصيدة ملحمية واحدة سواء كان هومر هو مؤلفها الأول أو كان الأخير في سلسلة من الشعراء الذين أعادوا صياغة أحداثها كُلها أو بعضها في قصيدة قصصية بطولية واحدة كان شكلُها النهائي هو الشكل الذي دُونت به ووصلنا على أنه جزء من التراث الشعري الاغريقي ، وما ينطبق على الالياذة في هذا المجال ينطبق على الأوديسة وعلى كل ملحمة أخرى بما في ذلك ملحمة جلجامش البابلية وشاهنامة الفردوسي وغيرهما .

ومن القائلين بوجود الملاحم في التراث الشعري العربي من يستعرض تاريخ لفظة « ملاحم » في كتب التراث الأدبي العربي القديم ويشير الى أنها وردت في كتاب الجاحظ البيان والتبيين وفي كتاب الأغاني وعند ابن خلدون ، وأنها عند هؤلاء تدل على نوع من الشعر يصف أحداث الأمم ووقائعها مما ينضاف الى المستقبل

---

(٣) سعد الدين الجيزاوي ، الملحمة في الشعر العربي (القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧) ، ص ٨٨ .

(٤) يقتبس الجيزاوي هذا القول في كتابه سابق الذكر (ص ٣٢) من كتاب زكي المحاسني ، أدب الملاحم والملحمة العربية (القاهرة ، مطبعة الأزهر ، ١٩٦٠) ص ٢ - ٣

ويُستدل عليه بأحكام النجوم ،[٥] ثم يستنتج بعد ذلك أن الملاحم موجودة في التراث الشعري العربي القديم كما هي في التراث الغربي بفارق واحد فقط .

« هو أن الملاحم العربية القديمة كانت تقص ما عسى أن يكون من أحداث الأمم والدول في المستقبل المُغيَّب ، وأما الملاحم في آداب الأمم الأخرى فتتناول قصص تاريخها الماضي وما يشيع فيه من أساطير » [٦]

ولا أظن صاحب هذا الرأي حين توصل الى استنتاجه هذا الا مُخطِئا ، رغم صحة ما أشار إليه من ورود لفظة « ملاحم » في كتب التراث العربي القديم ودلالتها على نوع معين من القصائد . لقد فات صاحب هذا الرأي أن الفوارق بين الملحمة بوصفها قصيدة قصصية بطولية لها محور مركزي محدد على صعيد الأحداث ، وعلى صعيد الشخص وتتسم بما يُميزها عن غيرها من الأجناس الشعرية بناء وموضوعا وهدفا ، فاته أن الفوارق بين هذا النوع من القصائد وبين المنظومات التي تصف الأحداث المستقبلية للأمم والدول دون أن تتركز حول حدث ما أو شخصية بعينها يتعدى كون الأولى تعالج الماضي بينما الثانية تعالج المستقبل . ولعل الأقرب الى الصواب أن تُعَد هذه المنظومات في باب المنظومات الاخبارية والأراجيز التاريخية التي هي أشبه شيء بالأراجيز العلمية ولا يمكن أن تُعَدَّ من نفائس الشعر القصصي ولا الغنائي ، إذ إنها « ليست في الغالب إلا سلسلة حوادث مصوغة في القالب الشعري البسيط لا تتناول إلا القليل من بديع التصوّر الذي يهيج النفس ولا مجال فيها للخيال » . [٧]

يتضح من هذا أن دعوى هذه الفئة من النقاد بوجود الملاحم في الشعر العربي القديم ، وإن لم تكن خطأ في ذاتها ، تبقى غير مثبتة بالأدلة النقدية وغير مدعومة بالأمثلة ، وبالتالي فإن الحل الذي يقدمونه للمسألة برمتها يبقى غير مقنع . فلننتقل إلى نقاد الفئة الثانية لنرى ما إذا كانوا أكثر اقناعا .

يجمع نقادُ الفئة الثانية على غياب الملاحم من أدب العرب ولكنهم يختلفون كثيرا أو قليلا في تفسيرهم لهذا الغياب . فعلى سبيل المثال ، يمضي شفيق البقاعي حتى نهاية الشوط في تبنِّيه للرأي الذي طالما ردده المستشرقون وبعض العرب الذين نقلوا عنهم[٨] ، فيقول مقارنا بين العرب والأوروبيين :

« إن من هذه النهضة الفنية والفكرية التي غزت عقول وقلوب الأوروبيين ، لم يكن للعرب فيها نصيب (كذا) . فالتخلف العقلي عند العرب كان هو الحائل بين القبول بها ورفضها . فالشعر العربي الجاهلي ما أتاح له الخيال العربي المحدود في تلك الفترة للانطلاق أبعد مما كان عليه (كذا) .... إن الاضطراب الذي وقع به الشعر العربي في بداوته أوقعه في عزلة عن العالم الخارجي كما أن العادات

(٥) محمد شوقي أمين ، « الملاحم بين اللغة والأدب » ، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٠

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٧) سليمان البستاني ، إلياذة هوميروس (بيروت : دار المعرفة ، بلا تاريخ) ، ج١ ، ص ١٧٥

(٨) أنظر ، على سبيل المثال ، أحمد أمين ، فجر الاسلام ط ٥ (القاهرة ، ١٩٤٥) ، ص ٣٠ ـ ٦٠ و ١٣٥ ـ ١٣٦ ، و النقد الأدبي (بيروت . دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧) ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ، ومحمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث (بيروت : دار الثقافه ، ١٩٧٣) ، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ ، و الأدب المقارن ط ٥ (بيروت دار العودة ، بلا تاريخ) ، ص ٦٠ ـ ٦١ ؛ وبدوي طبانه ، معلقات العرب ط ٣ (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٤) ، ص ، ٤٠٢ ؛ وعزالدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، عرض وتفسير ومقارنة ط ٢ (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص ٣١٢ ـ ٣١٥ و ٣٦٠ هامش ١ .

والتقاليد وقفت حائلا لتردع الجرأة منهم للتبادل الحضاري أو القبول به (كذا) . ومما لا ينكر على العربي ذلك التعالي والادعاء بأن الشعر العربي « ديوان العرب » ، هذا الادعاء كان كافيا أن يبعد عن هذا الشعر فرعين عظيمين من فنونه ويتمثلان في الشعر القصصي / الملحمي والشعر التمثيلي / الروائي / المسرحي . »(٩)

رغم أن الرأي الذي يحمله هذا النص يمثل اتجاها من اتجاهات النقد العربي الحديث فإنه أضعف من أن يكون صحيحا أو مقنعا . فأسلوب الاستدلال المستخدم أبعد ما يكون عن المنطق السليم حين يرى صاحب هذا الرأي في ما يسميه « ادعاء » العرب أن الشعر ديوانهم تعاليا ويجد فيه تفسيرا لغياب الشعرين القصصي والتمثيلي من أدبهم . إذ إن القول بأن الشعر ديوان العرب ليس ادعاء ينطوي بالضرورة على التعالي وإنما هو تعبير عن حقيقة فنية وتاريخية وحضارية لا سبيل إلى إنكارها . فهذا القول يعني في ما يعنيه أن العرب أودعوا شعرهم جُلَّ فكرهم وآمالهم وآلامهم وأحوال معيشتهم ، وهم لهذا يعتزون بهذا الشعر ، ولكنه لا يعني بحال من الأحوال أن العرب كانوا يسخرون من كل شعر غير شعرهم ولا أنهم كانوا يرفضون التنويع أو التجديد في شكل شعرهم أو مضمونه لمجرد أن الشعر ديوانهم . وإذا كانت بعض الأجناس الأدبية كالشعر القصصي أو التمثيلي غير مطورة بشكل مستقل خارج الاطار الغنائي العام في القصيدة العربية ، فإن لذلك أسبابا فنيةً وغير فنية أكثر عمقا وجذريةً من كون العرب يعدّون الشعر ديوانا لهم . ولا يعقل أن يُظَنَّ بأن الشعر ما كان ليُعَدَّ ديوان العرب لو أنه اشتمل على الشعرين القصصي والتمثيلي كجنسين أدبيين مستقلين . ثم إن « التخلف العقلي » ومحدودية الخيال والاضطراب سمات ينسبها صاحب هذا النص الى العرب وشعرهم جزافا ودونما رويّة أو تمحيص أو اثبات . وهو حين يفعل ذلك ينسى أو يتناسى أن إطلاق التعميمات بلا تحفظ وغياب الأدلة والبراهين على صحة ما يُدَّعى كافيان لاخراج أية دراسة من دائرة البحث العلمي الموضوعي وإدخالها في مجال الانحياز والارتجال وما فيهما من بُعْد عن الاستدلال المنطقي والاستنتاج العلمي الصحيح .

أما سليمان البستاني فإنه في مقدمة ترجمته الإلياذة هوميروس ، يعالج قضيتي إحجام العرب عن تعريب آداب الاغريق وعدم نظمهم للملاحم المطولة في شعرهم القديم ، فيرجع إغفال العرب ترجمة الالياذة بخاصة وآداب اليونان بعامة الى ثلاثة أسباب رئيسة هي الدين وعدم معرفة العرب لليونانية وعجز المترجمين الى العربية ، وهم من غير العرب ، عن نظم الشعر العربي ،(١٠) ويعيد عدم نظم العرب الجاهليين للملاحم المطولة على نحو ما يراد منها بعرف الافرنج إلى أسباب دينية واجتماعية وحضارية(١١) ولكنه ، خلافا لما يراه شفيق ابقاعي ، يجد ملامح ملحمية بارزة في شعر الجاهليين والمخضرمين - من مثل ما نجده في جمهرة أشعار العرب لأبي يزيد القرشي - بل إنه يرى في هذا الشعر « نوعا آخر من الشعر القصصي مما يعزّ وجوده في سائر اللغات وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في

(٩) شفيق البقاعي ، الأنواع الأدبية : مذاهب ومدارس (بيروت : مؤسسة عزالدين ، ١٩٨٥) ، ص ٢٥٧ أنظر أيضاً ص ١٧٣ - ١٧٥ و ٢٥٨ - ٢٥٩ . لقد آثرت أن أثبت هذا النص المقتبس حرفيا دون أي تغيير ؛ ومن المؤسف أن ما يظهر فيه من لحن في اللغة وركاكة في الأسلوب ليسا غريبين عن لغة الكتاب وأسلوبه بشكل عام

(١٠) البستاني ، الياذة هوميروس ، ج ١ · ص ٦٣ - ٦٧ .

(١١) المصدر السابق ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

حوادث مخصوصة »[١٢]: ثم إن البستاني يرى في المقامات المسجّعة ، بما يتخللها من الشعر ، وفي القصص الشعبية ، التي يمتزج فيها الشعر والنثر نوعا من ملاحم المولّدين خاصا بهم ، كما يعد رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي ملحمة نثرية « من أحسن ملاحم المولّدين . »[١٣]

والحق أن سليمان البستاني في محاولته لتفسير ما يراه من غياب الملاحم في التراث الأدبي العربي القديم يستخدم منهجا أقرب الى الموضوعية والبحث العلمي والتحليل المنطقي من منهج المستشرقين ومن أخذ عنهم من النقاد العرب ، فهاهو يقدّم لمحاولته هذه بما يفيد بأن هدف المقابلة بين أي نوعين من الأدب أو الشعر هو العثور على مناحي الشبه أو الاختلاف بينهما ، وليس المفاضلة بينهما أو إلصاق صفة الكمال أو النقص بأحدهما أو بالآخر :

« وليس من اللازم أن يكون شعر جميع الأمم على نسق واحد بل ربما كان هذا التباين من الأسباب المؤدية الى إبراز أنواع الجمال كافة على اختلاف صوره وأشكاله . فالشاعر القصصي من اليونان وخلفائهم كان إذا قصّ حادثة رواها كلّها شعرا وأما الشاعر العربي فينشد الشعر حيث يحسن وقعه وأكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب ويقول الباقي نثرا . وفي هذه الطريقة نوع من التفكيه المأنوس . وهي طريقة شعراء البادية حتى يومنا » .[١٤]

إن البستاني يشير هنا الى قضية مهمة وأساسيّة في مجال بحثنا هذا وهي إن القصص الشعري في العربية يتميز عنه في غيرها بخاصية تعاقب الشعر والنثر فيه لأغراض الرواية والتشخيص والايحاء . وتشكّل هذه الاثارة ، لأنها تتيح لنا أن نَعُدَّ النثر المطعَّمَ بالشعر أحد أشكال الملحمة ، خطوة أولى للبستاني في الاتجاه الصحيح نحو دراسة الملاحم العربية . أما الخطوة الثانية فتتمثل في أنه يَعُدُّ القصص الشعبي ، بما يمتزج فيه من شعر ونثر ، أدبا جديرا بالدراسة ، فهو يلْحِقُه بذلك النوع من الملاحم الخاص بالمولّدين والذي يضم في رأي البستاني المقامات المُسجَّعة . وسنحاول في ما تبقى من صفحات هذا البحث أن نُكْملَ بعضا مما بدأه البستاني وتابعه غيره من النقاد[١٥] فنتوسع في ما ألمحَ اليه إلماحا ونثْبت ما ذهب اليه من فرضيّات بالتحليل العلمي والمناقشة النقدية . لكنه لا بد من تفصيل القول أولا في مفهوم الملحمة عند الغربيين حتى يتسنى لنا تحديد أوجه المقارنة بين النماذج المختلفة للملحمة عندهم وما يقابلها في التراث الأدبي العربي .

إن أول ما يلفت الانتباه عند دراسة مفهوم الملحمة لدى الغربيين هو غياب التعريف الجامع المانع لهذا المصطلح . ويمكن ردُّ هذا الغياب ، كما يتضح من دراسة الأعمال التي يطْلق عليها اسم ملاحم والتعريفات المتعددة للمصطلح نفسه ، إلى ظاهرتين :

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(١٥) يعتمد فاروق خورشيد على هاتين النقطتين في محاولته الحادة لإثبات أن فن القصص والرواية قديم عند العرب ولاكتشاف نظير عربي متميز للملحمة العربية في السير الشعبية العربية غير أن اهتمام خورشيد يتركز في فن القصة والرواية ، لا في الملحمة ، ولذلك نجده يبحث في السيرة الشعبية العربية بوصفها عملاً أدبياً قصصياً بالدراسة أكثر مما يبحث فيها بوصفها نظيرا عربيا للملحمة الغربية وإثبات هذه الفرضية الأخيرة ـ أعني كون السيرة الشعبية نظيرا للملحمة ـ هو بالضبط عرض دراستنا الحالية أنظر كتابي فاروق خورشيد في الرواية العربية : عصر التجميع ، ص٧٢ ـ ٧٣ و ١٦٢ ـ ١٧٦ ، و أضواء على السيرة الشعبية (القاهرة . مطبعة مصر ، ١٩٦٤) ، ص ٣ ـ٣١ .

أولاهما أنه كثيرا ما يكون بين الأعمال الأدبية التي يسمى الواحد منها ملحمة من الاختلافات مثل ما بينها من التشابه إن لم يكن أكثر ، والثانية أن مفهوم الملحمة نفسه عند الغربيين قد تطور عبر العصور واتّسع باطّراد ليشمل شروطا ومواصفات تتغير بتغيُّر الذوق الفني العام وتتأثر بما تحمله روائع الفن الأدبي من سمات هي نتاج عصرها حينا ونتاج عبقرية فذة منفردة حينا آخر .

فهذا بول ميرتشانت (Paul Merchant) يشير في مستهل كتابه الملحمة الى صعوبة تعريف المصطلح الذي يحمل كتابه اسمه فيقول :

« ليست هناك فائدة تُرجى من محاولة الاتيان بتعريف بسيط لذلك النوع الأدبي الـذي يضم الاليـاذة (لهـوميـروس) والبـريلود (لـوردزورث) والحـرب والسلام (لتولستوي) »(١٦)

وهذا يعني أن الصعوبة في تعريف هذا المصطلح عند الغربيين إنما تنبع من حقيقة أنه مصطلح يطلق على أعمال أدبية يختلف بعضها عن بعض طبيعة وهدفا وأسلوبا . فالالياذة (The Iliad) كما هو معروف ، قصيدة قصصية بطولية طويلة تمجّد بطولة آخيل (Achilles) ، الاغريقي في حرب طروادة . أما البرلود (The Prelude) فسيرة ذاتية يحاول صاحبها « أن يؤرّخ لنموّه العقلي والروحي شعرا . »(١٧) وأما الحرب والسلام (War and Peace) فرواية نثرية . بل إن التنوّع في طبيعة الأعمال الفنية والأدبية التي يمكن أن توصف بأنها ملحميّة قد اتسع إلى حد اعتبار بعض الأفلام السينمائية الضخمة أعمالاً ملحمية ، كما أن استخدام كلمة ملحمة قد امتد ليشمل الآن ما يسمى « الشعر الملحمي الحديث » ، و « المسرح الملحمي (Epic Theatre) ومن أمثلة الشعر الملحمي الحديث (The Cantos of Ezra Pound) والأرض الخراب (The Waste Land) لاليوت (T.S. Eliot) وباترسون (Paterson) لوليام كارلوس ويليامز (William Carlos Williams) . وأما « المسرح الملحمي » فهو اصطلاح صاغه الألماني بيسكاتور (Erwin Piscator) في العشرينات من هذا القرن وتَبَنّاه بعده تلميذه الكاتب المسرحي المعروف برخت (Bertolt Brecht) ثم شاع استخدامه للإشارة إلى المسْرح الذي يشبه الملحمة في أنه يقوم على السرد ويتميز بكثرة عدد الشخصيات في المسرحية الواحدة ، وبتنوّع المادة الحدثية واتساع المساحة التي تغطيها زمانيًا ومكانيًا إلى درجة يكون الجمهور معها واعيًا لحقيقة كونه يراقب أحداثًا خياليّة يُراد له أن يَتَعَلّم منها درسًا ويتخذ تجاهها موقفًا معينًا(١٨) . وبهذا يختلف المسرح الملحمي عن المسرح التقليدي بمفهومه الأرسطي القائم على التشخيص وتكثيف الأحداث في لحظة الأزمة أو العقدة (crisis) ليتم شحن الجمهور بمشاعر الشفقة والخوف (pity and fear) عن طريق نقلهم إلى جو المسرحية بحيث يعيشون أحداثها كما لو كانت أحداثا حقيقية تجري أمامهم ويشاركون فيها . ولعله يحسن بنا أن نُذَكّر هنا بحقيقة أن وجود الملاحم كأعمال أدبية كان دائمًا سابقًا على ظهور التعريف نفسه ، فالأصل هو العمل الأدبي ، وإنما تأتي محاولة تصنيف الأعمال الأدبية في أنماط مختلفة تالية

---

(١٦) Paul Merchant, The Epic (Methuen 1971, reprinted. 1977 and 1979), P.I.

(١٧) T, G rehan, ed. The Poetry Of Wordsworth (London. Hodder and Stoughton, 1965, reprinted 1979), P.55.

(١٨) انظر : Paul Merchant, The Epic, PP.:7 8-84

وهناك مناقشة مسهبة للمفهوم الحديث لكلمة « ملحمي » والأمثلة على الأشكال الملحمية الحديثة ـ كالرواية والفلم السينمائي الملحميين ، والمسرح الملحمي والشعر الملحمي الحديث ـ في الفصل الخامس من هذا الكتاب ، وهو بعنوان « Forms Of Mdern Epic » ، ص ٧١ ـ ٩٤

لظهور هذه الأعمال إلى حيّز الوجود ، ثم يتم استنباط التعريفات التي تتفاوت في الدقة من ناقد إلى آخر ومن عصر إلى آخر ، من هذه الأعمال الأدبية ذاتها .

وينقلنا هذا إلى الظاهرة الثانية التي تُفَسّر غياب التعريف الجامع المانع لمصطلح الملحمة كنوع أدبي ، ألا وهي ظاهرة التطور المستمر لمفهوم الملحمة وانعدام الثبات أو الجمود في ما اقترحه النقاد عبر عصور الحضارة الغربية الطويلة من تعريفات لهذا النوع الأدبي . فابتداء بأرسطو (Aristotle) في القرن الرابع قبل الميلاد ومُرورًا بهوراس (Horace) في القرن الأول قبل الميلاد وايزيدور (Isidore) في القرن السادس الميلادي وسويداس (Suidas) في القرن العاشر الميلادي والإيطاليّيْن منتيرنو (Minturno) وكاستيلفيرتو (Castelverto) في القرن السادس عشر الميلادي والإنجليز كيمز (Kames) وفيلدنخ (Henry Fielding) وباي (Pye) في القرن الثامن عشر الميلادي والألمانيّيْن شيلر (Schiller) وهيجل (Hegel) في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وانتهاءً بنقاد النصف الأول من القرن العشرين مثل بورا (C.M. Bowra) وتيليارد (E.M.W. Tillyard) ولورد (Albert B. Lord) مرّ مصطلح الملحمة بمراحل تطور عديدة تراوحت دلالته عبرها بين التحديد الضيّق لمواصفات الملحمة بحيث لا تنطبق إلا على الملاحم اليونانية الكلاسيكية وما قلّدها من الأعمال التالية لها تاريخيا ورفض التسميات والمعايير الشكلية في محاولة لرصد العناصر التي يشترك فيها الكثير من القصائد والكتابات الأدبية النثرية بل التاريخية التي توصف بأنها ملحميّة[١٩] .

ورغم تطور مفهوم الملحمة عند الغربيين من عصر إلى عصر واختلاف نُقّاد العصر الواحد في تحديد مواصفاتها فإننا نستطيع استخلاص تصوّرٍ مُوَسَّعٍ وَمَرِنٍ لها يُسَجِّل الحد الأدنى من العناصر المشتركة بين الملاحم الكثيرة المعروفة دون أن يغلق الباب أمام النماذج المختلفة من القصائد الملحميّة بالمعنى الواسع للكلمة سواء منها ماهو موجود فعلاً أو ما قد تُنْتِجُه قرائحُ الشعراء في المستقبل . فالملحمة يمكن أن تعرف بأنها عمل أدبي طويل يروي قصة بطولية ذات أهمية جماعية نسبيّة (قومية أو قبلية) أو إنسانية عامة بأسلوب حماسيّ رفيع ولغة شعرية متميّزة من حيث إنها موحية ومنغومة أو موزونة .

وعندما يسأل النقاد الغربيون أَنْفُسَهم : « هل نجد مثل هذه الأعمال في تراثنا الأدبي أم لا » ؟ فإن سؤالهم هذا يُطرح مرة واحدة ويكون الجواب عليه بالإيجاب . إنهم يطرحون السؤال مرة واحدة لأن النقد الأدبي عندهم يعالج الأدبَيْن الرسمي والشعبي بنفس القدر من الاهتمام والاحترام ولا يجد في استخدام الأدب الرسمي للغة الفصحى سبباً لتفضيله على الأدب الشعبي الذي يستخدم اللغة المَحْكيّة ، كما لا يجد في استخدام الأدب الشعبي لِلُغة المَحْكيّة سبباً لفصله عن جسم التراث الأدبي أو إخراجه من دائرة الدراسة النقدية الجادة . ويأتي جوابهم على هذا السؤال طبعاً بالإيجاب ؛ فما قصائد **الإلياذة والأوديسة اليونانيّتَيْن والإنيادة (The Aeneid)** الرومانيّة **وبيوولف (Beowulf)** الإنجليزية **وأنشودة رولان (The Song of Roland)** الفرنسية إلاّ أمثلة قليلة على الملاحم في التراث الأدبي الغربي الذي يزخر بهذا النوع من القصائد .

أما عندما نطرح نحن السؤال على أنفسنا فإننا نُضْطَرُّ لطرحه مرتين : الأولى حين يتعلق الأمر بلغتنا الفصحى وأدبنا الرسمي المكتوب بها ، والثانية حين يتعلق الأمر

(١٩) لمتابعة تطور مفهوم الملحمة عند الغربيين عبر العصور المختلفة بشكل مفصل راجع مادة Epic في Alex Preminger, ed. Princeton Encyclodedia Of Poetry and Poetics (Princeton· Princeton University Press, 1974)

باللغة المحكية والأدب الشعبي الذي يتخذ هذه اللغة المحكية أداة تعبيرية له . وقد لا يكون هناك خلاف حول الإجابة على سؤالنا هذا عندما يتعلق الأمر باللغة الفصحى والأدب الرسمي ، فهي إجابة بالنفي في كل الحالات تقريبا[٢٠] ولكن الخلاف كل الخلاف حول تفسير هذه الإجابة من ناحية وحول رد فعلنا تجاهها ووجوب طرح السؤال للمرة الثانية أم لا من ناحية أخرى إن رد غياب الملاحم من الشعر العربي الرسمي الفصيح إلى ضحالة تفكير العربي وتعصبه رأي لا يقنع عاقلا كما بيّنّا . كما أن محاولة تفسير غياب الملاحم بمفهومها الغربي من الأدب العربي الرسمي الفصيح وحده تبقى عملاً ناقصاً مالم يأخذ أصحابها بعين الاعتبار حقيقة أن الأدب الرسمي الفصيح لا يشكل إلاّ جزءاً من جسم التراث الأدبي العربي وأن الجزء الآخر المُتمِّم له هو الأدب الشعبي . وعليه فليس من المُجْدي أن نَصْدُر في معالجتنا لغياب الملاحم من تراثنا الشعري الرسمي الفصيح عن عقدة نقص فنرد هذا إلى ضحالة تفكير العربي ومحدودية خياله وعدم عنايته بالمعنويات ، ولا أن نَصْدُر في تبريرنا لهذا الغياب عن جنون عظمة فندّعي أن لا حاجة بنا إلى الملحمة كفن شعري . فلنبحث بطريقة نقدية علمية عن أسباب « فنيّة » مقنعة لما نكاد نجمع عليه من غياب للملاحم من هذا الفرع بالذات من فروع تراثنا الأدبي ـ أي من شعرنا الرسمي الفصيح . ولنُحَجِّم المسألة بعد ذلك ونطرح السؤال نفسه في مجال اللغة المَحْكِيّة والأدب الشعبي الذي لا يجوز أن نستمر في فرض الانفصام بينه وبين توأمه الرسمي ، وبخاصة أن الغرب ـ وهو مصدر مصطلح الملحمة الذي نحاول تطبيقه على تراثنا الأدبي ـ لا يقر هذا الانفصام وما كان ليصوغ مصطلحه هذا بمدلوله المتعارف عليه لو كان ينكر تراثه الأدبي الشعبي أو يتبرّأ منه كموضوع للدراسة والنقد الأدبيّيْن .

إن للشعر العربي بمفهومه الرسمي التقليدي خصوصيات تجعل غياب الملحمة فيه أمرا طبيعيا ومتوقعا إلاّ عند من يتنكّر للمنطق ويُنْكر طبائع الأشياء . فالميل إلى الغنائية دون القصصية ، وتجنُّب الطول المُفْرط في القصيدة الواحدة ، والتزام الشاعر للقافية الواحدة في قصيدته كلها مهما بلغ طولها سمات تميز الشعر العربي الكلاسيكي عن غيره كما تميز القصائد البطولية في هذا الشعر عن الملاحم الغربية وغير الغربية . ولا يجوز أن نتوقع أن يروى الشاعر قصة بطولية مفصلة في قصيدة مطوّلة حين ينتمي هذا الشاعر الى تراث شعري آخر ما تتصف به قصائده الحربية هو القصصية[٢١] ، وتُعَدُّ القصيدة فيه طويلة إذا تجاوزت المئة بيت . إن تراثاً أدبياً لا يرى القصيدة الشعرية الرسمية بمعزل عن وحدة القافية أبداً لا يمكن أن يلجأ إلى الشعر لرواية القصة الطويلة المفصّلة . وإذا صَحَّ القول إن القصائد التي تعتمد المقاطع الشعرية المُقَفّاة (Stanzas) في بنائها أقل ملاءمة لرواية القصص الشعرية المطولة من تلك التي لا تقوم على المقاطع الشعرية ولا تستخدم القافية[٢٢] ، فإن الشكل الشعري للقصيدة العربية الكلاسيكية ـ وهي قصيدة تمتد وحدة القافية فيها كما هو معروف لتشمل القصيدة برمّتها ـ هو من أقل الأشكال الشعرية ملاءمة لرواية القصص الطويلة المفصّلة . وقد لاحظ غير ناقد هذه العلاقة بين وحدة القافية من ناحية

---

(٢٠) لقد ناقشنا في الصفحات الأولى من هذا البحث الرأي القائل بوجود المَلحمة بمفهومها الغربي في الشعر العربي الرسمي الفصيح قديمه وحديثه وتبينا خطل هذا الرأي .

(٢١) يعالج المؤلف هذه القضية بشكل تطبيقي ومفصل في الأطروحة التي كتبها لنيل درجة الدكتوراه ؛ أنظر

Naser Yousef al-Hassan, "Heroism in Old English and Classical Arabic Poetry: A Comparative Study Of four Battle Poems" (diss., Indiana University, Bloomington, 1982), PP. 101-139.

(٢٢) انظر مادة Narrative Poetry في Alex Preminger, ed. Encyclopedia Of Poetry and Poetics

وعدم شيوع الشعر القصصي في العربية والقصر النسبي للقصيدة العربية من ناحية أخرى . فهذا سليمان البستاني يُعَلِّق على ميزة اتساع القوافي في العربية فيقول :

« فقد يأتي الضرر من حيث يرجى النفع فإن اتساع القوافي في اللغة العربية من جملة أسباب التضييق على الشعراء ، إذ مهما طال الشاعر باعاً فلا يأتي على عددٍ معلوم من الأبيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة ولهذا كان من المستحيل نظم الألوف المؤلَّفة على قافية واحدة . وهذا من جملة أسباب ضعف الشعر القصصي في العربية (٢٣) .

غير أننا لا نزعم أن وحدة القافية في القصيدة العربية كانت هي السبب الوحيد أو حتى الرئيس لظاهرة غياب الملحمة من التراث الشعري العربي الرسمي الفصيح . فهذه الظاهرة أكثر تعقيدا من أن تُرَدَّ إلى سبب واحد بعينه . ولعل من أسبابها الأخرى كون السرد القصصي في القصيدة العربية بطبيعته متقطعا وإيجابيا وغير مُفصَّل لأن الشعر العربي بما فيه من شعر بطولي يميل إلى الغنائية أكثر مما يميل إلى القصصية ، ويرى في الوقائع المروية وسيلة لإثبات وجهة نظر الشاعر وبطله ولإعلاء شأنيهما أكثر مما يرى فيها مادة حدثية لقصة متكاملة تستحق أن تروى لذاتها(٢٤) . وهذا النوع من الاستخدام المُوجَّه للمادة الحدثية في القصائد العربية يمكن أن يلاحظ - أيضاً - في القرآن الكريم . فالقصص القرآني قائم على الإيجاز والإيحاء أكثر منه على سرد التفاصيل الكاملة والانتقال من قصة إلى أخرى قبل إتمام القصة الواحدة هو - أيضا - من السمات التي يمكن ملاحظتها في القصص القرآني الذي لا يهدف الى رواية القصة لذاتها بقدر ما يهدف إلى نقل العبرة والتأثير في المواقف ، والسلوك باستخدام الأمثلة القصصية وروايتها على شكل مقتطفات ليس فيها إلا الحد الأدنى من التفاصيل . ثم إن ورود شعر البطولة العربي ونشأته في سياقي الفخر والمديح يبعده عن القصص الموضوعي ويجعله أقرب إلى التاريخ الشخصي الحاضر منه إلى التاريخ الأسطوري أو الخرافي القديم فيصبح الشاعر - البطل (في حالة الفخر) والشاعر المادح (في حالة المديح) مَعْنياً شخصياً ومباشرة بالأحداث والشخصيات في قصيدته ، فيعالجها بأسلوب غنائي مباشر ، بدلاً من الأسلوب القصصي الدراميّ . وثمة عامل آخر قد يُفَسِّر جزئياً غياب الملحمة من الشعر العربي الرسمي الفصيح هو كفاية الشكل الفريد للقصيدة العربية التقليدية في صورتها النمطية الأولى التي عَنِي الشعراء بتقليدها فيما بعد ، حيث إن هذه القصيدة تشتمل على العناصر والملامح القصصية والغنائية والرعوية (التي تقابل Pastoral Poetry في التراث الغربي) وحتى المسرحية (حيث يمكن النظر إلى الشاعر العربي الذي يتحدث بصوته هو في قصيدته على أنه ممثل في مسرحية ذات شخصية واحدة ، فهو أقرب إلى هذا الدور منه إلى دور القصّاص الموضوعي المستقل عن مادة قصيدته في القصائد القصصية) . وإذا صح هذا فإنه يمكن القول إن القصيدة العربية الكلاسيكية نجحت في سد الحاجات الفنية والنفسية والاجتماعية ضمن إطار التراث الذي تنتمي اليه بحيث لم تبرز عند الشاعر العربي ولا عند جمهوره حاجة إلى تطوير أشكال شعرية

---

(٢٣) إلياذة هوميروس ، ج ١ ، ص ١٠١ .
انظر أيضاً :
M.C. Lyons and P. Cachia, "The Effect Of Monorhyme On Arabic Poetic Production," Journal Of Arabic Literature, I (1970(, 3-9.

(٢٤) راجع هامش ٢١ .

قصصية ودرامية ورعوية وغنائية منفصلة عن بعضها . ولعل التوسع في هذه القضية يخرجنا عن دائرة البحث الحالي ، فهي قضية شائكة ومهمة تصلح موضوعاً لدراسة مستفيضة ومتكاملة لشكل القصيدة العربية العمودية .

وخلاصة القول أن التراث الشعري العربي الرسمي الفصيح بوصفه أحد مكوّنات التراث الأدبي العربي يخلو من الملاحم بالمعنى الاصطلاحي للكلمة وإن كان غنيّاً بالقصائد البطولية غير القصصية . ولكن هذا لا يمكن أن يعني خُلوَّ التراث الأدبي العربي بكامله من القصة ، بطولية كانت أم غير بطولية ، فما من تراث أدبي قديم أو حديث إلا وفيه للقصة والحكاية الخرافية أو التاريخية مكان . وإذا كانت طبيعة الشعر الرسمي الفصيح في تراث أدبي ما لا تساعد على رواية القصص فإن هذا التراث لا بد أن يُطَوِّر لرواية قصصه وسائط أخرى قد تختلف كثيراً أو قليلاً عن الشعر الرسمي الخالص . ولعل هذا هو بالضبط ما حدث في الأدب العربي . وبكلمة أخرى فإن غياب الملحمة بوصفها نوعاً أدبياً من الشعر العربي الرسمي الفصيح لا يعني بالضرورة غيابها من التراث الأدبي العربي بأكمله ، كما أنه لا يشكل عيباً في تراثنا نعتذر له ولا نقصاً يجب علينا تعويضه أو تبريره . إنه غياب جزئي له أسبابه الذاتية والموضوعية التي تنبع من طبيعة التراث الشعري العربي الفصيح ، ولذلك فهو لا يشكل مشكلة للتراث الأدبي العربي نفسه ولا يسبب حرجاً لأصحاب هذا التراث . فما كان نزوع الأديب القصصي إلى استخدام الشعر الخالص أو النثر الخالص أو ميله الى المزيج بين الاثنين ليُحْسَبَ له أو عليه في مجال الموازنة بين الأدباء في التراث الواحد أو في ميادين الأدب والنقد المقارن . وينطبق هذا على الأدب العربي مثل ما ينطبق على غيره من الآداب العالمية .

إن المشكلة إذن ليست في الأدب العربي أو الشعر العربي ، وإنما المشكلة فيمن يُصرّون على اعتبار الجزء مساوياً للكل فيختزلون التراث الأدبي العربي ليصبح الشعر الرسمي الفصيح فقط ، وفيمن ينظرون بعين واحدة فلا يرون أن حضور الملحمة أو غيابها في الأدب العربي غير متوقف على حضورها أو غيابها في فرع واحد من فروع هذا الأدب هو الشعر الرسمي الفصيح ، ويجهلون أو يتجاهلون أن الأدب الشعبي العربي ومنه ما يُسمَّى «السيرة الشعبية» جزء لا يتجزأ من جسم التراث الأدبي العربي ورديف لا ينسلخ عن توأمه الرسمي بوصفه أداة تعتبر فنية تصور آلام المجتمع الواحد الذي يفرزها وتعبر عن آماله وقيمه وتعكس الأنماط الفكرية والسلوكية لأفراده وجماعاته . ولا بد لنا حتى تَصْدُق أحكامنا على التراث الأدبي العربي بمجمله من وضع حد للتجاهل والإغفال الذين مُنِيَت بهما السير الشعبية في تاريخ الأدب العربي ولا بد من إنقاذ هذه السير من محاولات أصحاب اللغة التقليديين محاربتها والتقليل من قيمتها الفنية والحضارية ، لنعيدها إلى مكانها الطبيعي من تاريخنا الأدبي ونُنَبِّه الأذهان ، كما يقول فاروق خورشيد .

«إلى أنها مولود طبيعي لتطور أدبي ، وأنها هي الصورة الحقيقية التي عَبَّر بها الشعب العربي عن نفسه ، ولن نستطيع أن نفهم حقيقة الشعب العربي ومكوناته دون فهمنا لأهمية هذه السير واحترامنا لقيمتها الأدبية(٢٥) .

ويبقى علينا حتى نَتَثَبَّت من وجود الملحمة بمفهومها الغربي في التراث الأدبي العربي بمجمله أو غيابها منه أن نبحث عنها في التراث الأدبي الشعبي بشكل عام وفي ما

(٢٥) فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، ص ٢٨ .

يسمى بالسيرة الشعبية بوجه خاص ، وهذا بالضبط ما عنيناه بطرح السؤال مرة ثانية .

ولا بد من التنبيه إلى أننا نتوسع في مدلول مصطلح الملحمة في هذه الدراسة والتوكيد على أننا إذ نبحث عن الملحمة في التراث الأدبي العربي إنما نبحث عنها بمفهومها الغربي الواسع والمرن . كما إنه ولا بد من التحذير في هذه المرحلة من البحث من توقع أو محاولة استخراج نص أدبي عربي يكون نسخة طبق الأصل لملحمة هومر الإلياذة أو الملحمة الإنجليزية القديمة بيوولف أو الكوميديا الإلهية لدانتي أو الفردوس المفقود لملتون ، فهذه الملاحم ، مثل غيرها من الملاحم الغربية العظيمة ، ليست نُسَخاً طبق الأصل لبعضها على الإطلاق ، وإنما هي أمثلة على الملاحم تختلف الواحدة منها عن أخواتها كثيراً أو قليلاً في الشكل والمضمون ولكنها تلتقي في كونها جميعا تدخل ضمن إطار التعريف الموسع لمصطلح الملحمة الذي سبق عرضه . وما سنحاوله في مجال البحث عن الملحمة العربية لا يهدف أبداً إلى إثبات وجود نصوص ملحمية عربية وجد مؤلفوها في الملاحم الغربية نماذج تُحْتَذى ويُنْسَج على منوالها[٢٦] . إن ما سنحاوله لن يعدو استخراج أمثلة من الأعمال الأدبية العربية يمكن إدخالها تحت المظلة الواسعة لتعريف الملحمة بوصفها عملاً أدبياً طويلاً يروي قصة بطولية ذات بعد قومي ودلالة إنسانية ويستخدم الأسلوب الحماسي واللغة الشعرية بشكل أو بآخر .

إن نظرةً أوّليّةً الى تغريبة بني هلال و سيف بن ذي يزن وسيرة عنترة ومثيلاتها من السير الشعبية تُظْهِر أن كُلّاً منها تروي قصة بطولية طويلة نسبيا ، ولكن هذا وحده لا يجعل من أي من هذه الأعمال الأدبية ملحمة بالمفهوم الغربي ، فلا بد لكي تصبح القصة البطولية ملحمة من توفر البعد القومي أو الانساني في أحداثها وشخصياتها كما أن الشكل الفني والقوالب اللغوية التي تنقل هذه القصة لا بد أن تستخدم الأسلوب الحماسي وترتبط بالشعر بطريقة أو بأخرى . فهل تتوفر هذه الشروط جميعاً في هذه السير الشعبية أم لا ؟ سنناقش تغريبة بني هلال[٢٧] على أنها عمل أدبي يُمَثِّل للسير الشعبية العربية ، وبالتالي لجانب من جوانب التراث الأدبي العربي ، لنرى ما إذا كانت تحمل الملامح الأساسية للملاحم بالمفهوم الغربي الواسع أم لا .

تضم المخطوطة الرئيسة للسيرة الهلالية ثلاث حلقات أو سير متتابعة تضرب الأولى منها ، وهي سيرة بني هلال في بلاد السرو وعبادة بجذورها في عصور ما قبل الإسلام وتشتمل على البنية العرقية للقبيلة وتوزيعها في المكان والزمان ، بينما تصور الثانية ، التي يطلق عليها « الرحلة » أو « الريادة » رحلة القبيلة من بلاد السرو إلى نجد والتقاهم ببني زغبة ـ قوم ذياب بن غانم ـ ذوي

---

(٢٦) اذا كان من الطبيعي أن يشمل وجه الشبه بين الأعمال الإبداعية التي تنتمي إلى نمط أدبي بعينه (في تراث أدبي أو أكثر من تراث) الصفات الأسلوبية البارزة كما يشمل المحاور الفكرية الأساسية والقيم المعبرة عنها فإنه من غير الطبيعي أن نجد تماثلاً تاما في الأسلوب بين مثل هذه الأعمال . وكما تؤكد روث فينجان (Ruth Fiunegan) في كتابها Oral Poetry. Its Nature, Significance and Social Context (Cambridge: Cambridge University Press 1977, P.190

فإن الكثير من العناصر الأسلوبية في الشعر الشفاهي والمكتوب على حد سواء ـ كالإيحاء والترميز على سبيل المثال ـ تعتمد على الوسط الاجتماعي لهذا الشعر وتحمل خصوصية الحضارة التي يظهر فيها وطابعها

أنظر أيضاً : فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، ص ٩ ـ ١٠ يلاحظ فاروق خورشيد في معرض الدفاع عن الأدب الشعبي العربي والدعوة إلى دراسته بجدية واهتمام أن العربيين أنفسهم عندما اهتموا بالملاحم اليونانية إنما اهتموا بها « كجوهر يكتشف ، فيدل على الجوهر الإنساني وراء الحضارات اللاتينية كلها » ، لا كنموذج يحتذى وينسج على منواله . ولعل أبناء الحضارات الأخرى ، كالعرب مثلا ، أحق بأن يهتموا بهذه الملاحم نفسها كجوهر لا كنموذج يحتذى حين يقارنونها بنماذج من أعمالهم الأدبية

(٢٧) تستخدم هذه الدراسة تغريبة بني هلال ط ٢ (بيروت : دار الكتب الشعبية ، ١٩٨٢) . وكل الإشارات إلى صفحات التغريبة والنصوص المقتبسة منها مأخوذة من هذه الطبعة ، مالم يرد تنويه بغير ذلك

الأصل القحطاني ومن ثم تحالفهم معهم ، وأما الحلقة الثالثة ، وهي الحلقة المعروفة بـ « التغريبة » فإنها تعنَى برواية مسار القبيلة باتجاه تونس الغرب هروبا من القحط والجفاف وبحثاً عن المرعى . وتصف صراعاتهم المريرة ضد حكام البلاد التي يجتازونها وجيوشها(٢٨) وتصف كُلٌّ من هذه الحلقات الثلاث بطولات الفرسان الهلاليين ضد خصومهم من القبائل الأخرى والانتصارات التي ينجحون دائما في إحرازها بسبب شجاعتهم وجَلَدهم وصبرهم على مكاره الحرب وبسالتهم فيها بالإضافة إلى ما يتصف به بعض أمرائهم وبخاصة أبو زيد من ذكاء وسعة حيلة واطلاع على علوم عصره ولغاته . وبمعنى آخر فإن التغريبة ، مثل باقي حلقات السيرة الهلالية ، تُكوِّن قصة بطولية طويلة مملوءة بالمغامرات الحربية والأفعال العنيفة(٢٩) ، وهذه ـ أعني القصصية والبطولة والطول من أهم سمات الملحمة الغربية . غير أن الملحمة بالمفهوم الغربي تمتاز ـ أيضا ـ بالبعد الإنساني أو الدلالة الجماعية (القبلية أو القومية) للأحداث والشخصيات كما تمتاز باستخدام الشعر وسيلة للقصص وباللجوء إلى اللغة الحماسية التي تُناسب موضوعها البطولي الحماسي . فما حظُّ التغريبة من هذا كله ؟

إن مصائر أبطال التغريبة ونتائج أعمالهم البطولية بعيدة كل البعد عن الاقتصار في أهميتها ومَرْدُودها على أصحابها من الأبطال وحدهم ، والأمثلة على ذلك في متن نص التغريبة كثيرة جداً . فأثر حبس الزناتي خليفة لمرعي ويحيى ويونس ، على سبيل المثال ، يجعل زحف الهلاليين جميعا باتجاه تونس حتميا كما أنه يحُول دون استقرارهم في أي بلد من البلدان التي هَزَموا ملوكها وتملّكوها في طريقهم إلى تونس . أي أن وقوع هؤلاء الثلاثة في الأسر يُشَكِّل أحدَ المحاور الحديثة الرئيسة في القصة والضابط المحدد لغاية التغريبة مكانيّا . فلو كان دافع التغريبة الوحيد هو البحث عن أرض خصبة وتجنّب المجاعة الناجمة عن جذب نجد لأمكن أن يختار الهلاليّون الاستقرار في إحدى الممالك التي فتحوها في أثناء تغريبتهم ، خصوصاً وأن بعض هذه الممالك ، إن لم يكن أغلبها ، يوصف في التغريبة بالخصب والغنى . وغَنِيّ عن البيان أن هذه الأهمية القبلية لما يحدث لمرعي ويحيى ويونس تتعدى قبيلتهم نفسها لتشمل كل الرقعة الجغرافية الممتدة بين نجد وتونس الغرب ، أي الوطن العربي الكبير بأكمله ، فَقَهْرُ بني هلال لحُكام البلدان المختلفة التي يمرون منها وفرضهم الجزية على من يُنَصِّبونه من الحكام الجدد يوازي في دلالاته وآثاره السياسية حركة الفتح الإسلامي لهذه المناطق بما تعنيه من تغييرٍ للولاء وقلبٍ للخارطة السياسية في المنطقة .

وأما الأبطال الثلاثة الأساسيون في التغريبة ، وهم أبو زيد وذياب بن غانم والسلطان حسن ، فإن مصير القبيلة الهلالية مجتمعة ، بل التحالف الهلالي بأكمله ، يعتمد على ما يجري لهم . فهذا أبو زيد يتمارض ويتخلف عن الركوب مع قومه لمقاتلة الأعجام وملكهم شاه فرمند ، بسبب لوم ذياب والأمير حسن له على سبي الأعجام لمارية بنت القاضي بدير ، فتكون النتيجة أن بني هلال ينهزمون أمام الأعجام بسبب غياب أبي زيد عن ساحة القتال ، ولا يتحقق لهم النصر إلاّ بعد عودة أبي زيد إلى المعركة :

« . . . . وتبعهم فرسان العجم حتى
دخلوا إلى الخيام وبدأوا ينهبون البيوت
ويسبون النساء والبنات ، فارتفع البكاء

(٢٨) أنظر شوقي عبدالحكيم ، سيرة بني هلال (بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٣) ، ص ٦ ـ ١٢ ؛ وكذلك عبدالرحمن أيوب ، « الآداب الشعبية والتحولات التاريخية والاجتماعية ، مثال . سيرة بني هلال » عالم الفكر ، المجلد ١٧ ، العدد ١ (١٩٨٦) ، ص ٢٣ ـ ٢٤

(٢٩) أنظر عبدالحميد يونس ، « السيرة الهلالية ملحمة فروسية شعبية » عالم الفكر المجلد ١٧ ، العدد ١ (١٩٨٦) ، ص ٤٧ ـ ٦٢ يناقش عبدالحميد يونس « الفروسية » ـ وهي أحد أنماط أو أشكال البطولة ـ على أنها تشكل خلاصةً للمقومات الرئيسة لسيرة بني هلال (ص ٤٨ ـ ٤٩ من المقال المذكور)

والنواح وزادوا في الصياح ، فلما سمع أبو زيد عويل النساء والأصوات هجم مع الأبطال والفرسان بالسيوف والرماح فالتقى بمعسكر لأعجام وحَكَّم برقابهم ضرب الحسام ، فَرَدَّهم عن المال والحريم فارتدوا منهزمين . . . . » .

(التغريبة ص ٣٤)

وتتكرر « موتيفة » (Motif) غياب البطل عن ساحة القتال مرة أخرى أثناء قتال بني هلال للبردويل وقومه ، وان كان بشكل مُغاير قليلاً . فهذه المرة يُقَيِّد الأمير حسن أبا زيد بقيد المملكة خوفاً عليه من البردويل لمدة يوم وليلة فتقع بين الهلاليين وقوم البردويل فى أثناء غياب أبي زيد وقعة مهولة ويكون

« ذلك اليوم على بني هلال أشد الأيام ، فقد كسرتهم عساكر البردويل وأرجَعوهم إلى الخيام ينوحون على مصائب الأيام ، ورجع البردويل إلى قصره فرحان . هذا كله والأمير أبو زيد مقيد . . . . » .

(التغريبة ، ص ٩٦)

لكن ، ما إن علم أبو زيد بهذا حتى « اغتاظ وتَكَدَّر وصارت عيناه تقدحان الشرر » وأَصَرَّ على زوجه عليا أن تفتح له القيد ففعلت . . .

« فوثب في الحال وشَدَّ على ابن الحيصا ولبس الدرع المُصَفَّح واعتلى على ظهر الجواد كأنه كتلة من الكتل أو قطعة فُصِلت من جبل وحفظ نفسه وحصانه بهياكل الطلاسم والأقسام وتَحَوَّط بآيات الله العظام وجدّ السير إلى أن وصل قصر البردويل . . . » .

(التغريبة ، ص ٩٧)

وكانت النتيجة بالطبع أن قَتَل أبو زيد خصمَه البردويل وحقق لبني هلال النصر بعد الهزيمة .

إن هذا ليُذَكِّرنا بدور آخيل في الإلياذة ، حين يعتزل القتال نتيجة مخاصمته مع الملك آجا ممنون فيؤدي غياب آخيل إلى هزيمة الإغريق ومطاردة الطرواديين لهم حتى خيامهم وسفنهم ولا يتحقق النصر للإغريق إلا بعد عودة آخيل لمقاتلة الطرواديين بعد أن قتل هؤلاء صديقه الحميم بتروكلوس . فكَان نتيجة الحرب في كلتا الحالتين ، حالة الهلاليين وحالة الإغريق ، معتمدة على وجود البطل المعنيّ أو غيابه ، فوجوده أو غيابه إذن يحدد اتجاه الأحداث ، ومصيره يؤثر دون شك على مصير قومه تأثيرا واضحا وكبيرا .

ونجد مثالاً آخر مشابها في حرب الهلاليين ضد الزناتي خليفة ، حيث يستشري خطر الزناتي ويشتد تقتيله للهلاليين فى أثناء غياب ذياب ، الذي كان سادة بني هلال قد أرسلوه ليحرس لهم « البوش » وأبا زيد ، الذي كان قعيد الفراش بسبب لدغة ثعبان (التغريبة ، ص ١٢٩ ـ ١٣٢) . ومع أن عودة أبي زيد إلى ساحة الوغى بعد شفائه تخفف قليلاً من وطأة حرب الزناتي وقومه على بني هلال ، إلاّ أن الزناتي يبقى سيد الموقف ويقتل من أمراء بني هلال ثمانين أميراً ويَعلّق رؤوسهم على سور مدينته ، وما كان هذا ليتوقف لولا حضور ذياب بعد لأي ومبارزته للزناتي وقتله أياه (التغريبة ص ١٤٢ ـ ١٤٩) . فما أشبه ذياب هنا بآخيل وما أشبه الزناتي بالبطل الطروادي هيكتور في الإلياذة .

وثمة دليل آخر في التغريبة على أن مصائر أبطالها الأساسيين وأعمالهم تهم قبيلتهم بشكل مباشر وكبير وتقرر مصيرها برمّته ، ألا وهو ما حدث في نهاية القصة من تَفَرُّق شمل القبيلة وذهاب ريحها نتيجة للخلافات بين الأمير حسن وأبي زيد من جهة ، وذياب بن غانم من

جهة أخرى على السلطة والغنائم التي حصلوا عليها بقضائهم على الزناتي وفتحهم تونس الغرب . فقبيلة بني هلال برمّتها تعاني من التمزق والضعف ، ويضطر بعض أفخاذها إلى الاحتماء بأقوام أخرى ثم إلى الاستعانة بالغرباء في صراعهم ضد بني عمومتهم ، كما يفعل اليتامى - أولاد أبي زيد والأمير حسن - حيث يهاجمون ذياب بمساعدة أبي الجود وزير الملك اليهودي شمعون ، ملك بلاد الكوع (التغريبة ، ص ١٩١ - ٢٠٠) .

وحقيقة الأمر أن أهمية بطولات أبطال التغريبة ومصائرهم أو أقدارهم لا تتوقف عند حد التأثير المباشر والحاسم على مصير قبيلتهم ، بل هي تتعدّى القبيلة لتصبح لها أبعاد ودلالات قومية ودينية وإنسانية واسعة . فأبطال التغريبة بوصفهم قادة جموع بني هلال يرمزون في مراحل مختلفة من القصة إلى العرب العدنانية في صراعهم ضد العرب القحطانية مرة[٣٠] ، ومرة إلى العرب عامة في صراعهم مع غير العرب من فرس وتركمان[٣١] ، ومرة ثالثة إلى المسلمين في عدائهم للنصارى واليهود وصراعاتهم ضد المجوس وعبدة النار[٣٢] . كما أن البعد الإنساني لأحداث التغريبة وشخوصها يظهر بجلاء في تصوير الراوي لأبطاله كمنافحين عن الخير في صراعه مع الشر وحماة للضعيف ضد قهر القوي (كما يحدث حين يقتل أبو زيد ومرعي ويحيى ويونس العبد سعيد مغتصب عرش بلاد العمق ويعيدون إلى وريث العرش الأمير التييم مغامس ملكه المُغتصَب وعروسه شاة الريم ، ص ١٠ - ١٤) ، وفي إيماء الراوى إلى قضايا تتعلق بطبيعة الإنسان وجوهره كإنسان ، مثل أنانية البطل الفرد وسَعْيِه لتخليص نفسه في ساعة الشدة ولو على حساب رفيقه أو أخيه (كما حدث لذياب وزيدان وهما في أسر أبي بشارة العطار ، ص ٧١) ، ومثل هرم الأبطال ووقوعهم في الضعف بعد الهرم (كما يحدث للبطل ذياب في آخر حياته ، ص ١٩٦ - ١٩٧) و اتصافهم أحياناً بالخوف (كما يحدث لأبي زيد في حادثة البِشْرِي أثناء عودته من نجد مع عليا ومرعي ، ص ١٨١) واستعدادهم للهرب أو طلب العفو حين يُبَارزون عَدُوًا عنيدا ومقتدرا (فقد هرب ذياب مع عسكره من أمام السركسي ، حاكم غزة ، وكذلك فعل أبو زيد والأمير حسن ، ص ٨٨ - ٨٩) . ناهيك بأن أبطال التغريبة بوصفهم بشراً يتصفون أحياناً بالقسوة على بعضهم (فالأمير حسن يحتال على بني زغبة فيقتل كثيرين من فرسانهم ثم يحبس ذياب سبع سنين ويرفض أن يشفع له أحد عنده ، ص ١٧٤ - ١٧٧) وأحياناً أخرى بالغدر والخسة (فذياب يقتل الأمير حسن وأبا زيد كليهما غدراً وغيلة ، ص ١٨٥ - ١٩٠) .

ولن ننسى تصوير الراوي لقضايا الصراع الإنساني الداخلي وما يضيفه هذا التصوير من عمق إلى البعد الإنساني في التغريبة فهذا أبو زيد يعيش صراعاً داخلياً بين وفائه بعهد قطعه شخصياً على نفسه من جهة

---

(٣٠) يظهر هذا في التعربية في « قصة شبيب التبعي » (ص ٧٦ - ٨٦) ؛ فشبيب نفسه « تبعي » وزوجته تبدأ رثائها له بقولها

تقولُ حبوبُ الحميريّة عما جرى ... بدمعٍ جرى فوْق الخدود سكيب

(ص ٨٥)

ويظهر الشيء نفسه في قصة الزناتي خليفة ، فهذا أبو زيد يهدد الأمير الحايلي ، أحد قادة جيش الزناتي ، قائلاً

لأقطعُ جنسكُم يا آل حِمْير ... وأفني قومَكُمْ عند القتال

(ص ١٥٦)

(٣١) يظهر هذا في التعربية في « حرب بني هلال مع الأعجام » (ص ٣١ - ٣٩) ، وفي « قصة الملك الغضبان » (ص ٣٩ - ٤٥) ، وفي « قصة التمرلنك » (ص ٤٥ - ٥١) على التوالي .

(٣٢) في التعربية يفتك أمراء بني هلال بالملك النصراني المراس وبقومه في قبرص (ص ٦١ - ٦٧) ؛ وكذلك يفتكون بالملك شمعون وأتباعه اليهود في بلاد الكوع (ص ١٩٤) ، كما أنهم يحاربون المجوس عابدي النار في « قصة أبي بشارة العطار » (ص ٦٧ - ٧٦) وفي « قصة الردويل بن راشد » (ص ٩٣ - ١٠٣)

وحرصه على مصلحة قبيلته من جهة أخرى . فهو يبارز العلّام ، ابن أخت الزناتي ، لعشرة أيام متوالية ويتجنب قتله لأنه كان قد تعاهد وإياه في سنة الريادة (التغريبة ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧) . وهذه سعدى بنت الزناتي أيضاً يتصارع داخلها حبُّها لوطنها وأبيها مع حبها لمرعي ، الأمير الهلالي الذي تحرص على استبقائه في السجن لتراه والذي يؤدي حبها له في النهاية إلى تضحيتها ليس فقط بأبيها وإنما بحياتها ، فهي تموت على يد ذياب نتيجة رَفْضِها له ولجوئها الى السلطان حسن ليُخَلِّصها منه ويزوجها من مرعى) التغريبة ، ص ١٧٠ ـ ١٧١) .

ومن أَوْجُه البعد الإنساني في التغريبة تلك الموتيفة (Motif) ، أو الفكرة التي تشكل جزئية في محور دلالي (Theme) أكبر منها ، المتمثلة في استحالة تَجَنُّب الإنسان لقدره المحتوم حتى لو علم به أو حُذِّرَ منه قبل وقوعه . وتتكرر هذه الفكرة بشكل لافت للنظر في التغريبة ؛ فكثيراً ما يُنْذَرُ شخوص التغريبة بشر أو موت سيقع لهم من خلال الأحلام أو يُطْلعون على أحداث مستقبلهم عن طريق المنجّمين وضاربي الرمل ، ولكنه لم يحدث ولو مرة واحدة أن استطاع أحدهم الإفلات بمّا يُتَنَبَّأُ له به من شر أو دمار نتيجة معرفته المسبقة بذلك . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها موقف الزناتي مع أبي زيد وصَحْبِهِ في بداية القصة عندما أُمْسِكَ بهم يتجسسون في تونس (ص ١٨) ، فرغم أن الزناتي ، كما تقول التغريبة ، « كان قد وقف على الخبر اليقين من المنجمين ، وبعد مفاوضات طويلة مع أرباب المجلس استقر الرأي على شنق أبي زيد ومرعي ويحيى ويونس » (ص ١٨ ـ ١٩) ، نجد أن الأمور قد عادت فسارت في الاتجاه الذي يخدم نفاذ حكم القدر القاضي بأن يعيش أبو زيد ليأتي بقومه لاستنقاذ رهائنهم وقتل الزناتي وتخريب تونس والاستيلاء عليها ، وهذا ما كان قد ظهر على أيدي المنجمين وضاربي الرمل لكل من الزناتي والعلّام وسعدى بنت الزناتي . فالقدر لا يمكن أن يوقف أو يُغَيَّر . ويحدث الشيء نفسه تقريباً مع شبيب التبعي : يحلم شبيب حُلماً مرعباً يفسره له وزيره عميرة وينذره من خلاله بخطر قدوم بني هلال ، ثم يستعين شبيب برمّال له اسمه عكرمة على كشف هوية أبي زيد وبعض رفاقه الذين تَزَيّوا بزيّ الشعراء وجاءوا بلاط شبيب للتجسس (التغريبة ، ص ٧٦ ـ ٧٨) ، غير أن هذا كله لا يفيد شبيبا في تغيير مسار الأحداث لصالحه ، فتسير الأمور بشكل ينفذ معه القدر المحتوم بقتل شبيب وسقوط مملكته على أيدي الهلاليين . ومن الأمثلة المشابهة ـ أيضاً ـ ما حدث للخفاجي عامر حين حلم حلماً علم بسببه أنه سيقتل إذا نازل الزناتي في اليوم التالي ، فتمارض الخفاجي ليتجنب هذه المنازلة ، ولكن الأحداث عادت فسارت بحيث يلتقي الخفاجي بالزناتي في ساحة القتال وينفذ فيه ـ أي في الخفاجي ـ حكم القدر فيقتل (التغريبة ، ص ١٣٠) . وكذلك ما حدث لزايد ملك « برنيجة » الذي رأى مناماً مزعجاً فاستعان بِرَمّالِه مسرور على تفسيره ورؤ ية المستقبل من خلاله فتنبأ له الرمّال بالهزيمة على يدي ذياب ؛ وهذا بالفعل ما حدث عندما التقى زايد وذياب في ساحة المعركة (التغريبة ، ص ١٦١ ـ ١٦٣) .

ومثل هذه الأمثلة كثيراً جداً في التغريبة ؛ وكلها تشير إلى حتمية نفاذ القَدَر وإلى عجز الإنسان بوصفه إنساناً ـ بغض النظر عن قُوَّتِه واقتداره ومدى نجاحه في التنبُّوء بما يخَبِّئُه له القدر ـ عن إيقاف نفاذ القدر أو تحويل خط سيره ؛ بل إن الإنسان كثيراً ما يسعى إلى قدر وحتفه برجليه رغم أنفه . فَقُوَّةُ الإنسان ومعرفته تبقى محدودة بعالمه وخاضعة للقُوى السماوية والغيبية بشكل عام ولسلطان القَدَر بشكل خاص . وجدير بالملاحظة هنا أن شخصيات التغريبة التي تصطرع مع القدر وتحاول تغيير مساره فتفشل تكون في العادة من الجانب المعادي لأبطال التغريبة ، بينما نجد انسجاماً تاماً بين القدر المحتوم من

ناحية وما يهدف اليه أبطال التغريبة ويحاولون تحقيقه من ناحية أخرى . فهناك اتجاه في رسم شخصيات الأبطال بشكل يجعلهم على وفـاق مع القـدر في إقراره لحتميـة انتصار الخير على الشر وتصوير أعداء هؤلاء الأبطال على أنهم يَقِفُون في وجه هذه الحتمية ويحاولون دونما فائدة أن يمنعوا تحقُّقها أوْ أنْ يُربكوها أو يؤجلوها . إن هذا الاتجاه في رسم الشخصيات ينسجم تماماً مع مثيله في الآداب الملحميّة العالمية ؛ حيث يكون مصير البطل الملحمي عادة هو النجاح في إثبات ذاته والانتصار البطولي على أعدائه ، لأنه في أهدافه وأعماله البطولية ينسجم مع القدر ويسهم في تحقيق انتصار الخير على الشر ، بخلاف البطل التراجيدي الذي يحاول إيقاف القدر أو تغيير مجراه دونما جدوى مِمّا يجعل نهايته دائماً مأساوية ومدمرة .

والشـرط الأساسي الأخـير الذي يجعـل من القصة البطولية الـطويلة ذات البعد الإنسـاني ملحمة بـالمعنى الاصطلاحي الغربي هـو أن تأخـذ هذه القصـة شكل القصيدة أو أن تُرْوَى شِعراً ولا بد لنا ونحن نعالج هذه النقطة في دراستنا للملحمة الشعبية العربية من العودة إلى ما أكّدناه غير مرة في ثنايا هذا البحث من أن ما حدث في تراثنا الأدبي لا يعدو تطوير واسطة لرواية القصص تختلف شيئاً ما عن الشعر العمودي الخالص ذي القافية الواحدة . ولئن لم تكن التغريبة قصيدة طويلة واحـدة فإننا لا نعدم فيها تَقَابُلاً بين الشعر والـنثر وتعاقُبـاً لهما يظهر أن لكل منهما دوره الخاص في خلق الجو القصصي البطولي للتغريبة وفي إيصال قصتها إلى خاتمتها المرسومة ونقل فكرتها الرئيسة إلى جمهورها . فبينما يتسع استخدام النثر في التغريبة لحمل عبء السرد القصصي ووصف الأحداث على لسـان الراوي نفسـه ، نَجِدُ أن الشعـر يُسْتَخْـدَمُ بشكل مـطردٍ في مـواطن الخـطاب المبـاشـر والمواقف الأكثر دراميّة ، مثل مواقف الفخر والتهديد والـوصف الحي الـذي ينـطلق عـلى ألسِنَـةِ شخـوص التغريبة مباشرة (٣٣) .

---

(٣٣) لقد سبق أن لاحظ البستاني هذه النقطة في مقدمة ترجمته للإلياذة ، كما أشرنا في هامش ١٤ من هذه الدراسة ؛ أنظر سليمان البستاني ، إلياذة هوميروس ، جزء ١ ، ص ١٧٠ - ١٧٢ أنظر أيضا Ruth Finnegan, Oral Poetry..., PP. 9-10 حين تورد المؤلفة أمثلة لتعاقب الشعر والنثر في نصوص ملاحم شعبية تنتمي إلى حضارات أخرى مختلفة غير الحضارة العربية .

ولابد من الأشارة هنا إلى أن القوالب العروضية التي تظهر بها المقطوعات الشعرية في التغريبة تتراوح بين القالب التقليدي القائم على وحدة البيت ذي الشطرين المتساويين وزنا (الصدر والعجز) والقوالب الجديدة التي استفيد فيها من الأشكال الشعرية المستحدثة كالموشح وما إليه (أنظر عبدالمجيد يونس ، « السيرة الهلالية ملحمة فروسية شعبية » ، ص ٥٨) ومن الأمثلة على استخدام القوالب الشعرية المستحدثة نص رسالة تهديد يبعثها الرماح إلى الأمير حسن ، ومن جملة مايقوله فيها

يا ابو علي القاني
في حومة الميدان
أريك طعن الران
ياما قتلت أماره
يا أبو علي في بالكْ
ان الدهر يصفى لكْ
لا بد ما تشوف حالكْ
وتشوف شي ماصارا
وتشوفني بالنومْ
وتقول حاني قومْ
مرعوب دايم دومْ
عقلك وذهنك طار
وحاك الراناتي غايرْ
من فوق أدهم طايرْ
بيده حسام شاهرْ
إن صاب راسك طارا

(التغريبة ، ص١٢٦)

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن لغة التغريبة حتى في الجزء النثري منها ـ وهو الجزء الذي يغطي المساحة الأكبر من النص ـ تتصف بما يُقرِّبُها من اللغة الشعرية بمعناها الواسع . فعلى صعيدٍ أفقي نجد أن تقسيم الراوي المنشد لجُمل النص إلى وحدات متساوية أو شبه متساوية ، واستخدامه للسَّجْع والفواصل بكثرة لافتة يجعلان نص التغريبة ، في أثناء الأداء أقرب إلى روح الشعر منه إلى النثر ، خصوصاً إذا تَذَكّرنا أن هذا الراوي كان يُنْشد النص إنشاداً ويستخدم الآلة الموسيقية « الربابة » لمصاحبة إنشاده (٣٤) . وعلى صعيد عمودي (أي فيما يتعلق بالأسلوب الأدبي من حيث ملاءمة الألفاظ والتراكيب المُسْتَعْمَلَة للمعاني الملحميّة المطروقة) ، نجد أن التغريبة تتصف باستخدام اللغة الحماسية والأسلوب البطولي البلاغي الرفيع بالمعنى الذي تواضع عليه دارسو الملاحم الشعبية العالمية من حيث اللجوء الى الألفاظ ذات الجرس الحماسي العالي والاستعانة بمختلف أنواع الاستعمال المجازي للغة ، وخصوصا التشابيه ، لخلق جو لغوي حماسي خاص ومتميز في ملاءمته لطبيعة الأحداث والشخوص الملحمية وبخاصة في مواقف الصراع والمبارزة الفردية أو الاقتتال الجماعي . ويوصف الأسلوب الشعري الخاص بالملاحم الأولية او الشعبية العالمية (Primary Epic) بأنه أسلوب متميِّز في لغته وألفاظه عن أسلوب الحديث اليومي بالقدر الذي تتميز فيه الأحداث والشخوص التي يعالجها عن أحداث الحياة اليومية وشخوصها ، ولكنه في الوقت ذاته أسلوب مألوف وعادي من حيث إن الجمهور يتوقعه ولا يستغربه البتة في السياق البطولي الذي يردُ فيه .(٣٥) . ولعل خير وسيلة للتدليل على توفر هذه الصفة في أسلوب التغريبة هي الاستشهاد بفقرة من الجزء النثري من النص تكون مُمَثِّلة للغة التغريبة في المواقف البطولية الحماسية بشكل عام . يقول راوي التغريبة في وصف مبارزة بين أبي زيد الهلالي والخزاعي وزير بدريس أمير حلب :

« فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر والنظام اغتاط الخزاعي من هذا الكلام وصدمه صدمة الأسد الضرغام ، فالتقاه أبو زيد وانطبق عليه الى ان سبق منهما ضربتان صاعقتان وكان السابق الخزاعي فالتقاه أبو زيد بدرقة البولاد فسقط السيف على رقبة الجواد فبراها كما يبري الكاتب القلم ، فوقع أبو زيد على الأرض وتحطم ، فأراد أن يعجِّل فناه واذا بفارس قد اقبل من وسط المجال وصاح صيحة تزعزع الجبال ، وانقض على الخزاعي مثل العقاب وقال ارجع ياكلب الرجال فسوف يحل بك الوبال ، وكان صراخ الأمير ذياب فالتقاه الخزاعي بقلب كالجبال واشتد بينهما القتال الى وقت الزوال وهما في ضرب وطعان وقد اختلف بينهما طعنتان قاتلتان وكان السابق الأمير ذياب ، فطعن الأمير الخزاعي بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع على الأرض يتخبط بدمه ، فلما رأت العساكر ما حلّ بوزيرها ، حملت في الحال على بني هلال من اليمين

(٣٤) حول دور الأداء (Performance) في تحديد مواصفاتها الأسلوب الأدبي للملاحم الشعبية بخاصة والشعر الشفاهي بعامة ، أنظر Ruth Finnegan, Oral Poetry. ., PP. 88-133, especially PP. 118-26.

وانظر أيضاً عبدالحميد يونس ، « السيرة الهلالية ملحمة فروسية شعبية » ، ص٤٨ و ٥٦ ـ ٥٨ .

(٣٥) انظر Ruth Finnegan, Oral Poetry .., PP. 109-110. تقتبس فينيغان في معرض تحليلها لأسلوب الملاحم الشعبية فقرة من كتاب C S Lewis, A Preface to Paradise Lost (Oxford: Oxford university Press, 1942), PP 20-21

يشبه لويس فيها لغة « الملاحم الأولية » (ومثالها الملاحم الهومرية) ، من حيث إنها خاصة وشعرية ، بلغة الطقوس الدينية (كاستعمال اللاتينية في الكنائس) التي تكون مختلفةً عن لغة الحياة اليومية ولكنها في الوقت ذاته تكون مألوفةً لدى جمهور المتعبدين في سياقها التعبدي الخاص من حيث إنهم يتوقعونها بعينها في هذا السياق ويجدون غيرها فيه نابياً

والشمـال بقلوب كالجبال وهم يصيحـون يـالشـارات الـوزير ! وقـاتلوا قتال الأبـطال ، فالتقتهم بنـوهـلال واشتبـك بينهم القتال وعـظمت الأهوال وجـرى الدم وسـال وتمـددت الـرجـال عـلى وجـه الـرمـال . . » (التغريبة ، ص ٥٨ ـ ٥٩) .

ولا يخفى ما في هذه الفقرة النثرية من ألفاظ وتراكيب حماسية متأججة ولا ما فيها من سجع وتقابل في العبارات وتشابيه تخرجها من دائرة الأسلوب النثري المألوف في لغة الحياة اليوميـة وتقربهـا من الأسلوب الشعري الخـاص بالسياق البـطولي الملحمي . ومثيلات هـذه الفقرة في التغريبة أكثر من أن تحصى .

وإذا صحَّ ما نـذهب إليه هنـا من أن الشكل الفني لتغـريبة بني هـلال بوصفهـا سيرة شعبيـة ممثلة للسـير الشعبية العربية لا يعدو أن يكون تطوير لشكل فني أدبي عـربي متميز يقـوم بوظيفـة الشعر الخـالص في التراث الملحمي الغربي ولكنه يحتفظ بخصوصيته العـربية من حيث انه يجمع بين الشعر الخالص والنثر المسجوع في اسلوب حماسي متأجج حيثما لزم ، اذا صح هـذا فإن التغريبة ـ ومن ورائها السير الشعبية العربية ـ تكون قد حققت الشروط الرئيسـة للملحمة الشعبيـة بمفهومهـا الغـربي : فهي قصة بـطولية طـويلة ذات اهمية قـومية واضحـة وبعد إنسـاني لا يمكن إنكـاره ، وإن لم تكن قصيدة بالمعنى الحرفي والتقليدي للكلمـة ، فهي عمل أدبي شعبي يستخدم اللغة الشعرية الحماسية المتميزة . بل إن التغريبة تُحقق ـ أيضا ـ بعض الشروط الثانـوية للملحمة مما لا يَشْتَرط الغربيون أنفسهم وجوده في كل الملاحم ، بل يكتفون بالاشارة الى توفُّره في بعضها ، ونعني بـذلك عنصـر الخوارق والمبـالغات التي تتعـدى حـدود المعقول وتتجـاهل قـوانين الـطبيعة المحسـوسة والمرئية . وما الضرب بالرمل لاستشراف الغيب والتنبوء بالمستقبل الذي يتكرر بكثرة لافتة في ثنايا التغريبة ، وما نـزول الخضر (عليـه السلام) لمسـاعـدة أبي زيـد في صراعه مع أبي بشارة العـطار (التغريبـة ، ص ٦٧ ـ ٧٠) ، ومـا اختفاء البـردويل بن راشـد تحت طافيـة الاخفاء ثم نزول « الملائكة العلوية » لمساعدة أبي زيد ضده بطرد « الملائكة السفلية » الى سابع أرض وإبطال عزيمتهم بحيث يمتنع على البردويل الاختفاء ويسهل على أبي زيد قتله (التغريبة ، ص ٩٤ ـ ٩٩) ، ما هذه كلها الا أمثلة على الدور الذي يلعبه عنصر الخوارق ومخلوقات ما وراء الطبيعة في تغريبة بني هلال .

ولا شك أن تغريبـة بني هلال لا تنفـرد بين السـير الشعبية العربية في توافر الشروط التي تجعل منها ملحمة بالمعنى الواسـع للكلمة . فـما ينطبق عليهـا مما تـظهره الدراسة الجادة والتفصيلية من مواصفات الملحمة ينطبق على غيرها من السير الشعبية مثل سيـرة سيف بن ذي يزن ، وسيرة الزير سالم ، وسيرة عنترة وسيرة الأميرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس ، وسيرة الأمـير حمزة البهلوان ، وغيـرها[٣٦] . والـواقـع أن أوجـه الشبـه ووشائج القربى بين السيرة الشعبية العـربية والملحمـة بمفهومها دائم التطور والاتساع ـ ونؤكد هنا عـلى دوام تطور مفهوم الملحمة واتساعه ـ هي من القوة والوضوح بحيث تفرض نفسها على الدراس الممحص وتقوده إلى أن يعد السيرة صيغة من صيغ الملحمة . فحتى أولئك النفر من الدارسين الذين يرون في السيرة عملاً روائيًا ، لا ملحمياً ، ويصرون على التفريق بين الملحمة الغربية والسيرة الشعبية العربية عـلى أساس أن السيـرة عمل نثري في أساسـه لا يلعب الشعر فيـه إلا دورا محدودا

(٣٦) أنظر شوقي عبدالحكيم ، السير والملاحم الشعبية العربية ط ١ (بيروت . دار الحداثة ، ١٩٨٤) ، ص ١٠٥ ـ ٢١١

ومقننا وعلى أساس أن البطل في معظم السير لا يرقى من حيث القدرة إلى مستوى البطل الملحمي الذي قد يصارع الآلهة ، نقول أنه حتى هؤلاء الدارسون لا يسعهم إلا الاعتراف بأن البطولة الأسطورية التي تجعل بطل سيرة كسيرة عنترة ، على سبيل المثال ، يتغلب على القوى الغيبية الكامنة وراء الأرصاد والطلاسم وينتصر في معركة ضد معاركه ضد الجان إنما هي بطولة ملحمية ، من النوع الذي نجده في الملحمة الشعبية الأولية وفي السيرة الشعبية العربية كلتيهما ، بل إن هذا النوع من البطولة يظهر ملتحما بكامل جسد السيرة الشعبية في نماذجها الأخرى ، غير سيرة عنترة ، أكثر مما هو في سيرة عنترة بالذات(٣٧) :

« هذا اللون من البطولة الملحمية وارد في كثير من السير العربية الأخرى مثل سيرة سيف بن ذي يزن ، إلا أنه في تلك السير يظهر هذا الطابع من أول فصل فيها ، أما سيرة عنترة فإنه لا يظهر فيها إلا ..... وقد أوشكت السيرة على الانتهاء ـ وكأنما عنترة هنا قد تحول الى بطل أسطوري كامل تؤيده قوى غيبية .... تجعل منه خرافة تسير على جواد من القسطنطينية إلى اليونان إلى بلاد الأندلس فشمال إفريقيا حتى مصر وهو يحارب في البر وفي البحر جميعا »(٣٨) .

وما أظن هذا النوع من البطولة مما نجده في الرواية بوصفها جنسًا أدبيًا متميِّزا .

كما أن وجود الطابع الملحمي في التراث الأدبي العربي لا يقتصر على الأعمال الشعبية ـ التي تمثلها السير ـ وحدها بل هو يتعداها ، كما لاحظ سليمان البستاني من قبل(٣٩) ، إلى أنماط من الأدب الرسمي الفصيح كالمقامة ، التي يتخللها الشعر ويقوم السجع فيها مقام الوزن الشعري وتزخر أحداثها بالموتيفات المألوفة في الملاحم . ولعل أقرب نماذج الأدب الرسمي العربي إلى الملاحم رائعة أبي العلاء المعري **رسالة الغفران** ، التي طالما قورنت بملحمة دانتي الكوميديا الإلهية (**The Divine Comedy**) . فرسالة الغفران يمكن أن تعد من الملاحم الثانوية المكتوبة : Literary Or Secondary Epic(بمعنى غير الأولية الشفاهية **Primary Epic**) التي تقارن بجدارة بملحمة فيرجيل (Virgil) الانيادة (**The Aeneid**) وملحمة ملتون (John Milton) الفردوس المفقود (**Paradise Lost**) بالإضافة إلى مشابهتها اللافتة لملحمة دانتي سابقة الذكر . فهي تشبه هذه الملاحم جميعا في تعقيد بنائها ورفعة لغتها وأسلوبها ، وفي خصوبة الخيال الذي أبدعها وعمق دلالات أحداثها، وتعدد أبعادها بحيث تشمل أبعاداً دينية وحضارية ، وثقافية وأدبية ولغوية تجعل من رسالة الغفران محاولة لتقويم الأطر المتعددة والخلفيات المعقدة للحضارة التي ظهرت فيها ، ألا وهي الحضارة العربية الاسلامية ، ولعل التعقيد ، في لغة الرسالة وعمق تناولها

(٣٧) أنظر فاروق خورشيد ومحمود ذهني ، فن كتابة السيرة الشعبية ط ٢ (بيروت . منشورات إقرأ ، ١٩٨٠) ، ص٤٣ ـ ٤٨ و ٢٥٤ ـ ٢٥٥ يصر الباحثان في هذه الدراسة على فصل السيرة الشعبية عن الملحمية الشعبية ويخرجان بنتيجة مفادها أن « السيرة الشعبية عمل روائي ، أو هي بداية العمل الروائي العربي ، وأن من كتبوها هم رواد فن الرواية العربية في أدبنا » (ص ٥٢) ،

ولعل محاولتنا في هذا البحث لإثبات أن السيرة الشعبية أقرب إلى الملحمة منها إلى أي جنس أدبي آخر تشكل ـ إذا كانت محاولة ناجحة ـ تفنيدا ضمنيا لاستنتاج فاروق خورشيد ومحمود ذهني وإبطالاً لمقولتها

(٣٨) المصدر السابق ، ص١٧٢

(٣٩) أنظر الهوامش ١١ ـ ١٣ أعلاه

لموضوعها عاملان حاسمان في إغلاق فهمها عند العامة والحد من ذيوعها بينهم ، بل إن الرسالة تعد قراءة غير سهلة عند عامة المثقفين العرب إن لم نقل عند الكثيرين من المتخصصين في التراث والأدب العربيين . واذا كانت رسالة الغفران عملا نثريا وليست قصيدة شعرية واحدة ، فإن هذا لا يخرجها من دائرة الملاحم بمعناها الواسع ، ومن ناحية أخرى فإن لغتها لا تقصر عن الشعر إلا في الوزن ، بل هي تتعدى الكثير من النصوص الشعرية في اعتمادها على الإيحاء والاستخدام المكثف للغة ألفاظاً وعباراتٍ ، وفيها تنم عنه من سعة الخيال وتجنب للمباشرة والتقريرية في إيصال أفكارها .

وأما العنصر الملحمي ، بمعنى توفر « ملاحم » ملحمية في النص الأدبي فهو موجود وملحوظ في معظم القصائد العربية الكلاسيكية البطولية إن لم يكن فيها جميعا . ونعني بالقصائد البطولية قصائد الفخر والمدح ووصف المعارك ، التي لاتكاد تخلو قصيدة منها من احتفاءٍ بالبطولة الحربية وتمجيد للأبطال بوصفهم نماذج للشخصية المثالية كما تصورها المجتمع العربي ـ شخصية الرجل الذي يفوق أقرانه بما يتصف به من قيم الشجاعة وقوة الشكيمة والجلد في أوقات الحرب والكرم والتسامح في أوقات السلم ، والمروءة والشرف وكرم المحتد في أوقات الحرب والسلم جميعا . ولعل من يود التحقق من وجود الملاحم الملحمية في الشعر العربي القديم بخاصة لا يحتاج أكثر من الرجوع إلى معلقة عنترة أو إلى أيام العرب في الجاهلية أو إلى جمهرة أشعار العرب لأبي يزيد القرشي أو إلى حماسة أبي تمام وبائيته في فتح عمورية أو إلى سيفيات أبي الطيب المتنبي ، وسيجد في هذه جميعاً وفي الكثير غيرها ملامح ملحمية واضحة لا سبيل إلى تجاهلها أو إنكارها . على أن الملامح الملحمية وحدها لا تجعل من القصيدة التى ترد فيها ملحمة . فكما بينا في بداية هذه الدراسة أن القصيدة البطولية شيء والملحمة شيء آخر(٤٠) .

وخلاصة القول أنه لو خلا تراثنا الأدبي بمجمله من الملاحم . أو من غيرها من الأنماط الأدبية ـ بالمفهوم الغربي لما كان ذلك عيباً ولا نقصاً فيه ، لأن لكل تراث أدبي أو حضاري خصوصيته وأنماطه التي تستخرج من داخله ولا تفرض عليه من الخارج ؛ ولكن الدراسة الجادة تكشف أن في التراث الأدبي العربي نمطا أدبيا يشاكل الملحمة الغربية في مضمونه من حيث إنه يجسد القيم البطولية ، ويحتضن الموروث الحضاري الشعبي على شكل قصص تشيد بالأبطال القبليين والقوميين وبطولاتهم ، وترفعهم إلى منزلة المثال الإنساني الرفيع الذي يقلد ويتعلم منه . ولكن هذا النمط الأدبي العربي يختلف عَن الملحمة الغربية في كونه يصاغ في قالب لا يقتصر على الشعر الخالص بمعناه العربي التقليدي المحكوم بالوزن والقافية كليهما ، بل يتعداه إلى استخدام مزيجٍ من الشعر والنثر في لغةٍ مثقلةٍ بالحماس المتأجج والموسيقا الداخلية القائمة على السجع والتقابل حسبما تقتضيه المواقف المختلفة داخل القصة التي يرويها النص . وهذا ا لنمط الأدبي العربي هو ما يطلق عليه في العادة اسم « السير الشعبية العربية » .

وختاماً فإنه لا ينقض استنتاجنا هذا أن يعترض عليه من يرون غياباً للملحمة في تراثنا الأدبي بقولهم إن السيرة « شعبية » ؛ فهذا لا يضيرها ، ومعظم الملاحم العالمية العظيمة شعبية . وقد آن لنا أن نتحرر مما ورثناه من انفصامٍ بين الرسمي والشعبي على صعيدي اللغة

(٤٠) أنظر هامش ١ أعلاه .

والأدب في تراثنا . وأما الاعتراض بأنها تفتقر إلى الدلالة القومية والبعد الإنساني فهو محض افتراء أو هو جهل بما تحمله السير الشعبية العربية من دلالات وأبعاد حاولنا الكشف عن بعضها في هذه الدراسة . وأخيراً فإن القول بأنها لا تروي أحداثها شعرًا لا يخرجها أبدًا من دائرة الملاحم ، خصوصا وأن لغتها وأسلوبها الحماسيين يؤكدان الصفة الملحمية فيها ، بينما يكشف تعاقب الشعر والنثر فيها عن شكل فني متميز يجمع بين صفتي القصصية والشعرية في إطار التقاليد الفنية الأدبية العربية .

***

صَدر حَديثًا

الجيل الخامس *
الذكاء الصناعي والتحدي الياباني للعالم

تأليف: ادوارد فايجنبوم وباميلا ماك كوردك
عرض وتحليل: مرفت غيث

تقديـــم :

في ربيع عام ١٩٨٠ تلقى فايجنبوم ، أحد مؤلفيْ هذا الكتاب تقريرا أوليا عن « الجيل الخامس للحاسوب »[1] (الحاسب الآلي) ، فألقى عليه نظرة سريعة وطرحه جانبا على أمل أن يعود الى قراءته قراءة متأنية في وقت لاحق . الا أنه التقى في نوفمبر من نفس العام بزميله دونالد ميشي (Donald Michie) ، أحد رواد بحوث الذكاء الاصطناعي في جامعة أدنبره ، الذي أكد له على أهمية هذا التقرير ، والذي اعتبره ميشي تحديا وتهديدا لتطور تكنولوجيا الحاسوب في الغرب . وهكذا عاد فايجنبوم ليعيد قراءة التقرير قراءة فاحصة .

وفايجنبوم هو مؤسس قسم علوم الحاسوب في استانفورد بالولايات المتحدة ، عام ١٩٦٥ . ومن المعروف أن هذا القسم هو من أقدم وأعرق أقسام هذه الدراسات في العالم ، وأنه واحد من أهم مدرستين لبحوث الذكاء الاصطناعي ودراسته في الولايات المتحدة . والواقع أن فايجنبوم الذي بدأ حياته العلمية في هذا المجال في منتصف الخمسينات حين عمل على تطوير واحد من أقدم أجهزة الحساب الآلي ، كان شريكا فاعلا منذ ذلك الحين في تطور البحوث في هذا المجال حتى صار علما قائما بذاته ومعترفا به في الأوساط الأكاديمية . ولفايجنبوم مؤلفات كثير يتركز القدر الأكبر منها على طبيعة عملية التعليم وبحوث الذكاء الاصطناعي وتطوراتها .

وفي صيف عام ١٩٨١ ، تلقى فايجنبوم نسخة كاملة من التقرير الصادر عن « الجيل الخامس » . وترك

* E.A. Feigenbaum & McCorduck: The Fifth Generation: Artificial Intelligence and Japan's Computer Challenge to the World, Addison Wesley, 1983.

(١) ومشروع « الجيل الخامس » مشروع تموله وزارة الصناعة والتجارة الخارجية (MITI) اليابانية وتشارك فيه مع مجموعة كبيرة من المؤسسات والشركات ومراكز البحوث في اليابان . ولقد أنشيء مركز أبحاث خاص لهذا الغرض في ابريل عام ١٩٨٢ ، يرأسه الدكتور فوتشي (Dr. Kazhiu Fuchi) .

التقرير لديه انطباعا قويا بأنه حقا حدث هام . وهكذا عندما تلقى دعوة من المركز الياباني لتطوير معالجة المعلومات لحضور مؤتمر خاص بالجيل الخامس ، لم يتردد لحظة في قبول الدعوة .

ويوضح المؤلفان أن الدافع الى تأليف هذا الكتاب هو قلقهم البالغ على الدور الذي يمكن أن تلعبه الولايات المتحدة بالنسبة للعصر الثاني للحاسوب (second computer age) ، حين يتحول استخدام الحاسوب الى معالجة المعرفة بدلا من معالجة البيانات (from information processing to knowledge processing) .

ويعرف هذا العصر الجديد بأنه عصر صناعة المعرفة (knowledge industry) وهو عصر تمثل المعرفة Knowledge فيه الثروة القومية الجديدة للأمم المختلفة . فالمعرفة قوة والحاسوب يعظم ويضاعف هذه القوة . وينبه المؤلفان الى أن اليابان قد أقرت خطة قومية مدتها عشر سنوات عرفت باسم الجيل الخامس لأنظمة الحاسوب الأمر الذي قد يجعل اليابان القوة الصناعية المسيطرة في العالم ، ان لم تتنبه الولايات المتحدة وتخطط لتدارك الموقف .

والكتاب يركز على ثلاثة مواضيع رئيسية هي :

(١) ثورة الحاسوب وكيفية تحقيقها .

(٢) تأثير برنامج اليابان للجيل الخامس للحاسوب على الدول الأخرى . مع ايضاح البرامج المختلفة في الدول الغربية .

(٣) الثمن الباهظ الذي تدفعه الدول التي لن تواكب هذه الثورة .



وفي الجزء الأول ، المعنون « الثروة الجديدة للأمم » ، يذكر الكتاب أن اليابانيين يتوقعون أن يكون في استطاعة مستخدمي الحاسوب محادثته بلغتهم ، ومن ايضاح بعض الصور له ، أو نقل رسائل بواسطة وحدات ادخال البيانات او بالرسائل الخطية . وهم يتوقعون مستوى خاصا من لغات الحاسوب الخاصة بالمعرفة لا يدع حاجة لدراسة لغات الحاسوب ، اذ سيكون في استطاعة الجهاز أن يعرف ما يريده مستخدم الجهاز عن طريق الأسئلة والأجوبة . وهذا الجهاز سيكون غير مكلف وسيحقق ما هو متوقع منه في المكاتب والمصانع والمطاعم والمنازل ، أي في أي مكان . ومن المنتظر أن يشيع استخدام هذا الجهاز في نهاية التسعينات . ومن المعروف أن المعرفة قوة ، فالجهاز الذي يقدر على استيعاب معرفة الانسان يستطيع استيعاب أي بعد من معرفته .

ويخطط اليابانيون للجيل الجديد من الحواسب الآلية بحيث يشمل تغييرات كمية في سرعة الحسابات والقوة والاستنتاج المنطقي (reasoning) . ويهدف تطوير الحواسب الى جعل الأنواع الذكية قادرة على مناظرة الانسان بلغاته القومية وفهم الكلام والصور ، وكذلك القدرة على التعلم ، وعمل الاستنتاجات ، واتخاذ القرارات ، والتصرف بالطرق التي نعتبرها جزءا شاملا من التفكير المنطقي المؤدي الى استنتاجات العقل البشري .

ومن المتوقع أيضا أن تتاح امكانية تطبيق نظام الميكنة ، كما ان تحقيق ميكنة الترجمة الفورية سوف يمكن أناسا من جنسيات مختلفة من فهم بعضهم البعض وتقليل المشاكل الناتجة من عدم الفهم أو الجهل بالمواضيع ، كما سيعمل على نمو التفاهم بين الثقافات المختلفة . وهكذا ، فإن الثروات القومية التي كانت تعتمد في الماضي على رصيد الدولة من الأرض والعمالة ورأس المال وعلى الثروات الطبيعية أو على تجميع الأموال والأسلحة أو على مستوى أنشطة الزراعة والتصنيع ،

سوف تعتمد في المستقبل على المعلومات والمعرفة والذكاء .

ان طبيعة القدر الأكبر من العمل على مستوى العالم « غير حسابية » . وحتى بالنسبة للعلوم والكيمياء ، فإن أغلب التفكير يتم بالاستنتاجات . وبعبارة أخرى ، فإن أغلب التفكير الذي يتم بواسطة اي خبراء متخصصين يكون بالمعالجة المنطقية وليس باجراء الحسابات . ولذا يتطلع اليابانيون لادخال نظم المعالجة المنطقية الآلية واستخدام المعرفة الرمزية في تطبيقات النظم الخبيرة (expert systems) . ولاشك ان اليابان قد انطلقت على المستوى الدولي بتوقع قوي بأنها سوف تكون الرائدة في تكنولوجيا الحواسب .

واليابانيون يميلون الى المعرفة ، كما يتضح من اتجاه البرامج التعليمية بالتلفزيون ومستوى أداء الطلبة في المدارس في المواضيع الرياضية والعلوم الطبيعية ، وكذلك عدد اليابانيين الذين أتموا الدراسات الجامعية ، وعدد الجماعات التي تتحد للمساهمة في إيجاد حُل لبعض المشاكل التي تواجههم . ومن كل ذلك يتضح مدى اهتمامهم بالمعرفة . وإذا كانوا يفتقرون الى الأراضي والثروات الطبيعية ، فهم يمتلكون عنصرا حيويا من الثروات الجديدة للأمم ، ويملكون الميل الى المعرفة والادراك ، ويرغبون في ادراج ذلك في تطوير التكنولوجيا التي ستعيد صياغة شكل العالم . ويهدف اليابانيون الى بناء تصميماتهم على وجهة نظر علمية ، كانت قد قدمت من خمسة عشر عاما في ابحاث الذكاء الصناعي الامريكي ، تعرف باسم نظم قواعد المعرفة Knowledge base system . ولقد أثبت هذا الأسلوب صحته عبر السنوات التي انقضت منذ أن بدأ يأخذ مكانته كطريقة أساسية في عمل العلماء الأمريكيين . وقد أطلق اليابانيون على جهازهم الجديد المقترح « نظام معالجة المعرفة والبيانات » Knowledge-Information Processing System ويتضمن هذا التعريف أهم خطوة لجعل برامج الحواسب تنفذ بذكاء . وهو يعني امداد هذه البرامج بكميات من المعرفة عن مواضيع محددة تهم اليابانيين بدلا من مبادىء مجردة . وهذا هو الفرق بين النظام الذكي وغير الذكي .



ويتصدى الجزء الثاني من الكتاب ، والمعنون « انها ليست مجرد ثورة الحاسوب الثانية ولكنها الثورة الهامة » ، للاجابة عن التساؤل عن امكانية جعل الآلة تفكر . وهناك أربع نقاط أساسية تثار عند الحديث عن ذكاء الحاسوب ، هي :

(١) الاحساس : فالحاسوب لايمكن أن يفكر ويدرك كما يدرك أي فرد فتعريف التفكير هو أنه خاصية من الخصائص الانسانية .

(٢) صعاب لا يمكن التغلب عليها : فالتفكير يتطلب القدرة على الابتكار والأصالة اللذين لا يتوفران في الآلة .

(٣) عدم وجود أمثلة : فحتى مع قدرة السلوك الذكي للآلة ، لم ينجح أحد ، على الرغم من قدرة الآلة على السلوك الذكي ، في جعلها تتصرف بطريقة كما لو أن أمامها أمثلة حية .

(٤) الأخلاق والذوق : فمع افتراض قدرة الآلة على الذكاء وعلى عمل شيء ، فقد يكون التصرف الأصح هو عدم القيام بعمل معين .

والخلاصة هي أن هناك مشكلتين أساسيتين . الأولى هي مجمل الذكاء الانساني ككل وما يقصد به ، والثاني هي قدرة الآلة على القيام بأي نوع من التصرف مهما كان . الا أن هناك بعض استراتيجيات للدلالة على الذكاء تعتبر غير شاملة . وهذه تشمل البحث عن

حل ، ابتكار حل واختباره ، المسببات العسكية ابتداء من أحد الأهداف . وأبحاث الذكاء الصناعي تسعى لجعل هذه الاستراتيجيات ممكنة . ومعظم الندوات عن الابتكار وحل المشاكل تدين لمحتويات الأبحاث الأولى للذكاء الصناعي .

ويعتبر الانسان ذا موهبة في تحويل الاشارات الحية الى اشكال ، وفي حل المشاكل التي تتطلب بعض الكياسة . ولكنه عندما يواجه كما كبيرا من البيانات فلا مفر من أن نعترف بأنه لا يواجهها بطريقة نظامية واحدة ، وبأنه يصاب بالنسيان والارتباك . ولقد ساعدتنا الكتابة وتكنولوجيا المراجع في التغلب على بعض هذه المشاكل . ونظم الحواسب ذات الاتصال المباشر ساعدت أكثر فأكثر . ولكننا يجب أن نفتخر بذكائنا في التعرف على امكانياتنا وحدودنا وكذلك في اختراع التكنولوجيا التي تكمل هذا النقص .

وهناك سؤال يجب طرحه وهو مدى الثقة في الذكاء الصناعي . واذا كان الرد هو عدم الاعتقاد في الذكاء الصناعي ، فذلك يعني عدم الاعتقاد بأنه يمكن القول إن الآلة تستطيع التفكير بغض النظر عما تفعله . وقد ووجه أول اقتراح بأن الآلة يمكنها التصرف بذكاء بصيحات عالية من الاعتراض . وبعد مضي عشرين عاما أصبحت الحواسب التي تلعب الشطرنج قادرة على الفوز بمسابقات وذلك بفضل الأبحاث في الذكاء الصناعي . والخبراء في أي مجال لا يملّون من تنبؤاتهم في شأن المستقبل . ونجد ، بالمقارنة ، أن تنبؤاتهم في شأن الذكاء الصناعي أقرب بكثير مما يتحقق عنها في التنبؤات في اي فرع آخر من العلوم . وسوف يساهم هذا ، بلا شك ، في خدمة علوم النفس والاجتماع والتخطيط أيضا .

ولا شك ان الاستغناء عن الحاسوب في عالم اليوم تترتب عليه نتائج خطيرة فهو قد أصبح بالنسبة لنا كالجريدة اليومية او المجلات الدورية التي نتسلمها بالبريد . وعلم الحواسب ، حتى في صورته الحالية ، يفتح عالما آخر ، تؤثر فيه كل الأحداث من بعد . فكما أن طاقة الانسان أمكن تطويرها بآلات ذات أغراض خاصة ، تطوير وتعظيم الطاقة الذهنية يصبح بدوره أمرا ممكنا .

وهناك هدف متعارف عليه خاص بتصميم شذرات الدوائر العالية التكامل (VLSI) ، اذ تعتبر هذه الشذرات عنصرا جوهريا في الحواسب الجديدة . وكل فرد ملم بالفكرة العامة عن الاسلاك والترانزيستور يدرك أهمية تجميع أكبر عدد ممكن من عناصر الدوائر الكهربائية والتوصيلات بينها في شذرة واحدة برخص وبكفاءة وبسرعة . وبهذا أصبح فن هذا التصميم مما يمكن اعتباره علما قائما بذاته . ويوجد ، بشكل عام ، اتجاهان لتحقيق اي تصميم : أحدهما الاتفاق مع أحد المنفذين لبناء بيت طبقا لمواصفات يرغبها . وسيكون هذا أعلى تكلفة من الأسلوب الثاني الذي تستخدم فيه المباني الجاهزة التي تنخفض تكلفتها نتيجة للانتاج الكبير . ولكننا لابد أن نأخذ في الاعتبار الغرض المطلوب في كل حالة ، الى اعتبارات الثمن .

وكلما زاد عدد المصممين وكلما تحسنت وسائل الاتصال بينهم توقعنا نتائج أسرع وأفضل . فاذا كان أحد المصممين يعمل عن طريق حاسوب شخصي مرتبط بشبكة معلومات ، فهو ربما لا يقوم بانجاز برنامج صعب فحسب ، ولكنه قد يرتبط باختراع كبير يقدم فيه تصرفا خلاقا ومبتكرا الى زملائه المرتبطين بنفس شبكة المعلومات . وهذا امتداد طبيعي لثورة الاتصالات التي بدأت بانتشار المبرقة والسكة الحديد وسهولة الاتصال منذ القرن التاسع عشر ، وما أدت اليه من تقدم الاكتشافات ونقل الاخبار عن أحدث نتائج البحث والتطوير بسرعة .

وقد أوضحت تجربة شبكة المعلومات في السبعينات قدرة الحاسوب على تغيير ما نفكر فيه ، بل وكيف نفكر . ومع ظهور النظم الذكية الخاصة بالجيل الخامس زادت السرعة والقدرة على معالجة المعطيات ، وعلى ايجاد المسببات ، وظهرت هندسة المعرفة Knowledge engineering التي تخدم غرضا يحتاجه الانسان ، بدءا من المسائل الطبية ووصولا الى تصميم منتج ، ومرورا باتخاذ القرارات الادارية ، وفي التعليم .

ويهدف اليابانيون الى ان يقدموا إلينا حاسوبا يمكن لأي فرد استخدامه ، اذ سيكون قادرا على العرض والفهم ونقل المعرفة بالصوت والصورة ، وليس فقط الحسابات العددية ، بل سيكون قادرا على استخلاص المسببات ايضا ، والتخمين والفهم والتصرف بذكاء . الا أن اليابانيين ليسوا وحدهم في هذا المضمار ، بل يتوقع أن تشاركهم فيه جنسيات أخرى متعددة . وسوف تكون الآلة الذكية بالنسبة لأطفالنا حقيقة مثلما كان الكتاب والتلفزيون حقيقة لأجيال أبنائنا .



ويتناول الكتاب في الجزء الثالث ، المسمى « خبراء في السليكون » ، موضوع النظم الخبيرة ، وهندسة ونطاق هذه النظم ، ومكانها من حيث التسويق ، وطبيعة عمل مهندس المعرفة ، وكذلك المشاكل التي تواجه النظم الخبيرة ، ثم يلقي الضوء على خصائص المعرفة حتى يصل الى استنتاج أن النظم الخبيرة هي بمثابة الثورة الثانية في الحواسب .

يعتمد الجيل الخامس ، وخاصة من حيث الذكاء الصناعي ، على ما يسمى بنظم قواعد المعرفة . فاذا لم تتطابق التجارب مع النظريات الأساسية ، أو لم يعرض البرنامج التصرف الذكي المتوقع منه ، فإن النظرية لن تحقق كل ما هو متوقع منها . فمثلا نظام فهم الكلام لا يهتم فقط بما تدور المناقشة حوله ، ولكن ايضا بمعاني الكلمات ، وقواعد اللغة ، وتركيب الجمل ، ومقاطع الالفاظ ، وبمعرفة اللغة المتحدث بها .

وتحتوي نظم قواعد المعرفة على كمية ضخمة من المعرفة التي تطرأ على الذهن عند انجاز مهمة معينة . وتعتبر النظم الخبيرة احد انواع نظم قواعد المعرفة بالرغم من استخدام التعبيرين كمترادفين . ويعرف النظام الخبير بأنه برنامج حاسوب يتم بناء المعرفة فيه ، والقدرة على أداء عمله ، بمستوى الخبير . ويتم بناء النظم الخبيرة بحيث تكون قادرة على شرح الخطوات والأسباب التي أدت الى اتخاذ القرار ، بل ان بعضها يشرح كيف تم استبعاد بعض البدائل واختيار اخرى . ويتم تشغيل النظم الخبيرة بكفاءة حيث يتركز الجهد في ايجاد المسببات ، لا في اجراء الحسابات . والخبراء البشريون لا يكتسبون خبرتهم فقط من المعرفة التي في المراجع ، ولكن ايضا بالخبرة والتجربة والخطأ ، وبذل الوقت والجهد ، ثم التعلم ومواجهة المشاكل وحلها .

وكما هو واضح ، فإن النظم الخبيرة تساعد في حل مشكلتين أساسيتين : الأولى هي وجود طرق عديدة تؤدي الى اعداد هائلة من الاحتمالات المتوقعة ، كما هو الحال في لعب الشطرنج . ولكن عقل الانسان عالج هذه المشكلة بكفاءة ، وذلك بالتخلص من الاحتمالات التي ينتظر أن تكون غير مثمرة . والمشكلة الثانية هي التعامل بكفاءة مع تفسير كميات هائلة من البيانات . وكلتا المشكلتين تأتي في التطبيقات العملية لمعظم النظم الخبيرة .

ويجب أن نلاحظ أنه ، بالنسبة لطبيعة وهيكل النظم الخبيرة ، تكون المعرفة هي المفتاح الأساسي في أداء النظام . ويمكن تقسيم المعرفة الى قسمين : الأول هو الحقائق الموجودة بالمراجع والدوريات والدورات التدريبية . أما النوع الآخر فهو معرفة تتوفر بالتمرين والخبرة في المجال ، يتم اكتسابها خلال سنوات . ويمكننا

القول ان هندسة المعرفة تقع تحت نظم الخبرة مع الأخذ في الاعتبار :

(١) مشكلة تمثيل المعرفة كهياكل بيانات في الذاكرة يمكن استرجاعها لحل المشاكل .

(٢) المعرفة المتاحة وطريقة استخدامها في حل المشكلة أو كيفية تصميم الاستنتاجات .

(٣) والنقطة الهامة هي كيفية اكتساب الخبرة أتوماتيكيا أو شبه اتوماتيكيا ، بحيث يتم نقل الخبرة من الانسان الى هياكل البيانات التي تمثل المعرفة بالحاسوب . وهذا يدفعنا الى تساؤ ل آخر وهو هل يمكن للحاسوب ان يتعلم ، أو كما تساءلنا من قبل ، هل من الممكن ان يفكر ؟ وبدقة أكثر ، نكون قد وصلنا الى ما يسمى بأبحاث اكتساب المعرفة knowledge acquisition ، حيث يقع عنق الزجاجة في الذكاء الصناعي .

ولقد تمت بالنسبة لهندسة المعرفة ، صياغة المتطلبات الأساسية التالية :

● لا يمكن أن تكون خبيرا لنظام خاص بك .

● من البداية ، يجب عدم التفريط في أي جهد ، بل يجب الاحتفاظ بأي ملخص أو مسودة لأفكارك .

● يجب اختيار المشكلة بدقة وتحديدها وتوصيفُها .

● إذا كانت التطبيقات على مستوى عال من الأهمية ، يجب أن تقطع مع الخبير أكثر من منتصف الطريق .

● إذا لم تجد من الأدوات ما يمكن استخدامها ، فابحث عن أداة جديدة .

● التعامل مع أي أشياء ، خلاف الحقائق ، ينتج عنه عدم التأكد .

● البرنامج الجيد يجب أن يختار الطرق التي تسهل تعديل المعرفة والاضافة اليها أو الغاءها .

● يجب اختيار المشكلة التي تغود بالفائدة والتي تتسم بالأهمية .

وهناك بعض مشاكل متعلقة بالنظم الخبيرة ، لم يتم حلها ، يجب أن نتعرض لها وهي : ان خبراء المعرفة لا يستطيعون بعد اعداد توصيف محدد وكامل للمشكلة . ذلك أن الخبير نفسه لا يعرف دائما حدود مشكلته ، كما ان نظم الخبرة ليست مرنة بالدرجة التي تمكننا من تعديلها بسرعة وسهولة ، اذ تتعامل في حدود ضيقة من الخبرة . ولا يزال تبادل المعرفة بين الانسان والآلة ضعيفا ، مما يؤدي الى محدودية الحوار الممكن بين البرنامج والمستخدم .

وأخيرا هناك مشاكل تواجه الانسان يجب مواجهتها ، مثل مشاكل عدد أو نوع العاملين . ومع أن الناس في حاجة الى نظم الخبرة الا أنهم لا يؤمنون بها .

والخلاصة هي ان نظم الخبرة تعتبر أداة لثورة ثانية في الحاسوب ، اذ تؤدي الى زيادة الانتاجية والربحية . وحتى بالنسبة للنجاح المحدود الذي حققته نظم الخبرة للذكاء الصناعي ، الا أن اليابانيين أخذوا على عاتقهم أبحاث تطوير البرامج التي تهدف في النهاية الى انتاج كمّ كبير من الأجهزة بسعر يناسب كل فرد .



ويعرض الجزء الرابع من الكتاب السمات التكنولوجية الرئيسية للجيل الخامس الذي أعلن عنه اليابانيون ، كما يستعرض وجهات نظر بعض الشركات في شأنها ، والسباق بين بعض التكنولوجيات المتاحة ونظم الخبرة ، ثم يناقش مشكلة التوافق بين الأجهزة وماذا يهدف اليابانيون من وراء ذلك .

هناك شركات من تلك العاملة في مشاريع الجيل الخامس ، مثل NEC ، تهتم بالأجهزة ونظم حل المشاكل باستخدام لغة PROLOG ، أو مثل NTT التي تهتم بالأجهزة وتتعامل مع لغة LISP ؛ أما التطبيقات الصناعية لنظم الخبرة فتعالجها شركة هيتاشي . والأهم من ذلك هو أن وزارة التجارة الدولية والصناعة (MITI) سوف تضمن المرحلة الأولى من

مشروع الجيل الخامس بتحملها عنصر المخاطرة الذي تخشاه الشركات . والوزارة لا تسهم في المشروع بالمال فقط ، والذي يقدر بأربعمائة وخمسين مليون دولار ، كميزانية تخصصها الوزارة للمشروع ، ولكن باشرافها على مشروع لم يسبق له مثيل من ناحية موردي الصناعة أو الأبحاث حتى يدخل في طور التنفيذ . ولا يمكن لأحد التنبؤ بالضبط بما سيكشف عنه المستقبل .

وتهدف تكنولوجيا الجيل الخامس الى تصميم وانتاج جهاز حاسب وهندسة معرفة على مجال واسع من التطبيقات تشمل نظم الخبرة ، اللغات القومية ، الفهم بواسطة الآلة والروبوت (الانسان الآلي) ، الأمر الذي يتطلب تطوير الأجهزة الحالية بحيث يتمكن الجيل الخامس من مساندة قواعد المعرفة والاستنتاجات المنطقية ، مثلما تنفذ الأجهزة الحالية العمليات الحسابية . ان معظم نظم الخبرة التي تم بناؤها بواسطة مهندسي المعرفة حتى الآن تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية :

أولها جزء يتعامل في قواعد المعرفة المطلوبة لحل المشكلة وللفهم .

والثاني لحل المشكلة واستنباط الجزء من النظم الذي ينتقي المعرفة المناسبة للمشكلة تحت الدراسة ، والمسببات التي تقود الى حل المشكلة .

وأما الأخير فيختص بطريقة الاتصال بين الانسان والآلة في صورة حوار بلغة الانسان .

ويتم تمثيل المعرفة في قواعد المعرفة عن طريق صور شكلية في هياكل الذاكرة بحيث يمكن استخدامها في حل المشكلة . وتوجد عدة طرق أخرى كتمثيلها على شكل أهداف مرتبطة بحلقات اتصال . وكذلك يمكن تمثيلها بواسطة مجموعة من القواعد rule base . ويقوم البرنامج بالبحث في هذه القوانين . ويمكن انجاز كل هذه العمليات بسرعة أعلى نسبيا عن طريق استخدام المعالجة المتوازية (parallel processing)، أي اجراء أكثر من عملية واحدة في نفس الوقت . ويتم تخزين المعرفة بواسطة قواعد البيانات ذات العلاقات relational . ويتم التعامل معها بواسطة قواعد جبر العلاقات (Relational Algebra) .

والخلاصة هي أن جوهر خطة اليابانيين هو تطوير أجهزة وبرامج لثلاثة أنظمة جزئية : قواعد المعرفة ـ نظام حل المشاكل ونظام استقراء الاستنتاجات ـ التفاعل بين الانسان والآلة . وقد تم تطوير الذكاء الصناعي على الجيل الأول ، ثم جرى تعديله بالنسبة للثاني والثالث ولكنه لم يتحقق كلية حتى الآن في الجيل الرابع .

ويهدف اليابانيون الى صنع شذرات تحتوي على عشرة ملايين ترانزيستور تحمّل بنتاج أبحاث مكثفة مع تطوير في تشغيل اللغات القومية وفهم الكلام ورسم الصور وفهم الأشكال ، ومراعاة أن معظم مستخدمي النظام ليسوا على مستوى الخبراء ، الأمر الذي يتطلب تركيز الاهتمام على اللغات القومية وتحليل الكلام وقواعد اللغة ومعانيها . اما بالنسبة للمخرجات ، فلا مفر من دراسة توليد الجمل sentence generation ، كما ان رسم الصور وفهم الاشكال لا يقلان اهمية عن معالجة اللغات وخاصة بالنسبة للحاسوب المستخدم في عمليات التصميم .

وهناك من وجهة نظر متخصصي الذكاء الصناعي ، بعض الانتقادات ، على نقطتين أساسيتين هما ، الأولوية المعطاة لوحدة التشغيل المنطقية ذات السرعة العالية ، ثم اختيار لغة PROLOG كلغة خاصة بوحدة التشغيل المنطقية ، كذلك بالنسبة للأبحاث غير المسيطر عليها التي يمكن ان تكون مضيعة للوقت ، مثل بحوث المعالجة المتوازية التي تزداد مشكلتها تعقيدا يوما بعد يوم .

ومن ناحية أخرى فلا شك ان اليابانيين قد حققوا نجاحا جزئيا ، فالمديرون المسؤولون عن مشروع الجيل الخامس يطمحون في تحقيق ١٠٪ من أهدافهم على الأقل . وبغض النظر عن نسبة النجاح ، فإن مشروع الجيل الخامس قد أمد اليابان بخبرة علماء يابانيين في خلق جيل جديد قادر على حل مشاكل مهما كان حجم تحديها . وقد أكد مشروع الجيل الخامس انتشار تكنولوجيا نقل الميكنة في الصناعة اليابانية وتطويرها للتسويق . ولقد قطع اليابانيون شوطا في نظم الخبرة ابتداء من الصفر حتى وصلوا الى مستوى لا يستهان به . فاختيار المشكلة يعتبر فنا في حد ذاته حيث يجب اختيار المشكلة بحيث تلائم فن هندسة المعرفة . فاذا كانت محددة بدقة وجودة ، واذا استخدمت أدوات جديدة غير المتعارف عليها فسوف تؤدي الى النهوض بهذا الفن .

وهناك تظهر مشكلة المواءمة التي غالبا ما يجري التساوم عليها ، وخاصة المواءمة مع أجهزة شركة .I.B.M التي تضمن أن البرامج التي جرى تطويرها على امتداد آلاف الساعات يمكن على الأقل استخدامها حتى لو كانت غير ملائمة أو غير كفؤة . وهكذا يبدو البعد عن مقاييس I.B.M أمرا مخيفا ، الأمر الذي جعل قلة فقط من الشركات تسلك هذا الطريق الوعر تجاريا . ولكن اذا صدق اليابانيون في تنبؤاتهم ونجحت خطط وزارة التجارة الدولية والصناعة في تحقيق اهدافها وانتزعوا زعامة صناعة معالجة البيانات في التسعينات من خلال تكنولوجيا الدوائر العالية الاندماج التي تعتبر من أعقد التكنولوجيات ، فان مشكلة المواءمة سوف تنتقل الى ملعب .I.B.M نفسها .

نأتي الآن الى سؤال يطرح نفسه وهو لماذا يقوم اليابانيون بكل ذلك ؟

والاجابة عن هذا هي أن اليابانيين يرون أن الذكاء الصناعي تترتب عليه عدة تغييرات مثل :

● زيادة انتاجية المواقع ذات الانتاجية المنخفضة .

● الجيل الخامس سوف يكون معاونا ذكيا للمديرين ويتصرف كاستشاري يجد المبررات ، ويتعلم تلقائيا ، ويمكنه الاتصال بقواعد المعرفة المطلوبة لاتخاذ القرارات الهامة .

● سوف يمنح الجيل الخامس اللغة اليابانية حيوية جديدة بحيث يمكن استخدامها في النظم غير العددية مثل الكلام والصور .

● سوف يوفر الجيل الخامس الطاقة والمصادر الطبيعية . ,

● سوف يساعد في تطوير امكانيات الانسان .

● سوف توفر نظم دعم القرارات مستوى عاليا من المعلومات لزيادة الفاعلية وتخفيض الوقت والتكلفة لاتخاذ القرارات .

● وأخيرا فإن أحد علمائهم رد عن هذا التساؤ ل بأنهم يحتاجون الى تكنولوجيا يابانية تعود عليهم بالمال اللازم للطعام والبترول والفحم ، واذا لم ينجحوا في تحقيق ثورة ثانية في عالم الحواسب فلن يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة .

اما بالنسبة لدراسة علوم الحاسوب في اليابان فلا تعتبر الجامعات اليابانية معاهد تعليمية مثلى لتخريج متخصصي المهنة ، اذ تأخذ الشركات على عاتقها مسئولية تنمية الموهبة وبالتالي فإن تعليم الحاسوب في الجامعات ليس على مستوى جيد حيث أن مُدّته سنتان فقط . وحتى بافتراض توفر الامكانيات فهذه ليست بالفترة الكافية . ومع ذلك ، فان بامكان اليابان ان تعتمد على مدارسها الأولية والثانوية لكي تعد جيلا من العاملين على الجيل الخامس القادرين على استخدامه أفضل استخدام .



يعرض الجزء الخامس من الكتاب موقف انجلترا من

اليابان ودورها في ابحاث الجيل الخامس وخططها المقترحة لمواجهة تحدي اليابان ، ثم ما توصلت اليه في النهاية لينتقل بعد هذا لدور فرنسا في هذا المجال . وقد يكون من المشكوك فيه ان مشروع الجيل الخامس قد أتى في وقته العلمي الصحيح ، ولكن من المؤكد انه يجيء في وقت الحاجة اليه بالنسبة لليابان ، اذ أن وزارة التجارة الدولية والصناعة عاقدة العزم على ان يكون لليابانيين دور رائد في الابتكار . فاليابانيون مقتنعون بانه سيؤمن لهم مركز الزعامة في المحيط الدولي في المستقبل القريب ، فتحقق اليابان بهذا نجاحا دوليا مرموقا ونتائج تكنولوجية هامة لمدى ليس بالقصير .

لقد دخلت انجلترا أبحاث الذكاء الصناعي في الأربعينات حين تكونت جمعية لمناقشة هذه الفكرة ، ثم انتقل العمل في هذه الأبحاث الى عدة جامعات حققت تقدما ملحوظا في تطبيقات حل المشاكل ، مثل الانسان الآلي واللغات القريبة من الانسان حتى أصبح لدى احدى الجامعات علماء يقومون بأبحاث لا يقل مستواها عن مستوى معمل للذكاء الصناعي .

واليابان وانجلترا لديهما ظروف متقاربة . فكلتاهما جزيرة تعاني من نقص الموارد الطبيعية . واليابان قد خسرت حربا ، بينما فقدت انجلترا امبراطورية مترامية الأطراف . فكلتاهما تتمتع بقوميات اقرب الى التجانس . الا ان انجلترا تدخل شتى المجالات بنظرة فاحصة ، وتملك قدرا من البترول ، بينما تتمتع اليابان بأن لديها تعليما عاما جيدا .

وكانت لجنة من متخصصي الالكترونيات قد نصحت وزير المعلومات التكنولوجية بأن يكون رد انجلترا على تحدي اليابانيين هو برنامج قومي لتكنولوجيا المعلومات المتقدمة يكلف ٣٥٠ مليون جنيه استرليني على مدى خمس سنوات . وساهمت الحكومة بثلثي الميزانية على ان يتم تمويل الباقي من الصناعة . وقامت هذه اللجنة بدراسة كل ما وصل اليه اليابانيون في ابحاث الجيل الخامس ، وأبدت اعجابها بأن اليابانيين حددوا خطتهم على مدى عشر سنوات بحيث يمكنهم استغلال النتائج الوسيطة والمنتجات ووحدات التشغيل والمفاهيم بمجرد ظهورها في السوق ، وخاصة في مجال هندسة المعلومات ووسائل الاتصال والحاسوب الشخصي والبرامج الجاهزة . ولكن هذه المملكة البريطانية مليئة بالعجائب ، فبعد وفاة أحد مشرفي اللجنة تراجعت الحكومة عن السباق الا انها لم تخرج منه تماما . وعموما ، فليس من الحكمة ان نحكم حكما نهائيا بفشل تجربتها في مجال الذكاء الصناعي ، كما فشلت معظم تجاربها قبل ذلك في مجال الحاسوب ، عندما أخفقت في تسويق أجهزة الحاسوب الكبير الحجم ، وان استثنينا من هذا نجاحها في تطوير لغة PROLOG .

والهدف من عرض تجربة بريطانيا في هذا المجال هو القاء الضوء على السلبيات التي واجهتها بوضع الاشياء في غير مواضعها السليمة ، ولسوء الادارة ، وبعض المعوقات الأخرى التي أدت الى مأساة تحولها من دولة فائزة الى دولة خاسرة .

واذا أردنا أن نرى كيف تخطط اليابان لفوزها ، وجدنا ان لها اسلوبا فريدا ينبع من ظروفها الخاصة التي من الصعب أن تتكرر ، ومن ثم فإنها تجربة تستحق دراسة فاحصة ، لا مجرد التهنئة .

أما تجربة فرنسا في هذا المجال فلها تاريخ سابق في أبحاث المعلومات في السنوات القريبة . ولقد كان المخطط ان يزيد الدعم الفرنسي للبحث العلمي والتطوير بنسبة ٦٪ الى ٨٪ لتطوير امكانياتها في أكثر من مجال ، وخاصة الالكترونيات . ولقد اهتمت فرنسا بأبحاث الجيل الخامس ، وتكونت لجنة خاصة من علماء وخبراء صناعة من القطاعين العام والخاص لصياغة الرد

على التحدي الياباني ، كما تم اعداد مركز خاص بباريس يهدف الى تدريب الدارسين على نطاق عريض ، وتطوير تكنولوجيا المعلومات ، ونشر نتائج هذا التطوير في الدول الأقل تقدما ، وذلك بافتراض ان دول العالم الثالث لا تحتاج الى دراسة تاريخ هذه الصناعة ولكن الى استخدامها ، مما سيعود على فرنسا بدعم مكانتها في مواجهة تحدي اليابان والولايات المتحدة الأمريكية . ولكن المركز سرعان ما تدهورت أوضاعه وهجره كبار الباحثين الذين أتوا اليه من الولايات المتحدة وأصبح يعاني من عقبات مالية خطيرة . ومع ان الحكومة تحاول تقليد اليابان في أسلوب المنح للأبحاث ، فان التساؤل يظل قائما حول قدرة فرنسا على التغلب على السلبيات التي تواجهها .

واذا تحدثنا عن تجربة باقي الدول في مواجهة هذا التحدي ، نجد ان سنغافورة اتجهت الى اعمال البرامج الجاهزة ليس فقط بدافع الربح ، ولكن لأن هذه الصناعة لا تتطلب أي نوع من الواردات وانما تعتمد على القدرات الذهنية للبشر . وفي ايرلندة تم تطوير تكنولوجيا المعلومات ، ومنحت تخفيضات مغرية في الضرائب لشركات الحاسوب التي تنقل جزءا من اعمالها اليها .

أما بالنسبة للاتحاد السوفييتي ، فدراسة الحاسوب ليست بالصورة الضخمة التي ترتبط في الأذهان عادة به ، حيث تدعم القدرات الذهنية في الدرجة الأولى . وفي السنوات الماضية اهتم السوفييت بما سبقهم اليه الأوربيون في صناعة الأجهزة وفن البرمجة ، وذلك بالاضافة الى الذكاء الصناعي . وهم يركزون الآن على الأبحاث العلمية التي يمكن تطبيقها في تكنولوجيات حديثة . ويتوقع السوفييت ان يحصلوا على أسرار هذه الصناعة بشرائهم لأي جهاز من السوق المفتوح وكشف تكنولوجيا هذا الجهاز . الا أن هذا يعتبر من الناحية العملية مضيعة للوقت ، ولا يتناسب مع درجة الفائدة الفعلية .



يعرض الجزء السادس من الكتاب سياسة اليابانيين في التقليد ويحاول اماطة اللثام عن السر وراء نجاحهم ، ثم يعقد مقارنة بينهم وبين الأمريكيين من حيث المميزات وأوجه النقص ، مؤكدا على تقدم اليابانيين بطموح وثبات في سياستهم لبناء المجتمع الصناعي الحديث ، ثم اعتماد الامريكيين على الشباب ، وأزمة النظم في الولايات المتحدة ، لينتقل بعد ذلك الى الخدمات الممكن تقديمها من الآلة الذكية ومقترحات الأمريكيين لمواجهة هذا التحدي ، وأخيرا فكرة انشاء مركز دولي لتكنولوجيا المعرفة .

ولقد اعتمد اليابانيون الى حد كبير على التقليد اكثر مما اعتمدوا على الخلق والابتكار . ويميل البعض الى الاعتقاد بأنه من الممكن منع اليابانيين من انجاز تقليد متقن لما يحتاجون اليه لانجاز مشروع حواسب الجيل الخامس . واذا اخذنا الشذرات كمثال ، وهي بمثابة المكون الحيوي لأي جهاز الكتروني ، وجدنا انهم قد قطعوا بالفعل شوطا طويلا تاركين الأمريكيين والأوروبيين في المؤخرة ، اذ أنتجوا شذرات سعتها ٢٥٦ كيلو بايت . ونلاحظ ان اليابانيين غاضبون من هذه السمعة وعاقدو العزم على ان يصبحوا قوة قائدة في تحقيق الجيل الخامس لكي يثبتوا للعالم ان لديهم قدرة فائقة على الابتكار .

وهناك سبب آخر لنجاح اليابانيين ، وهو أن المؤسسات الأمريكية تقوم بالتخطيط قصير المدى ، بينما يتمتع اليابانيون بمزايا كل من التخطيطين قصير المدى وطويله . فمن الناحية الاقتصادية يتيح ذلك الحصول على قروض بفائدة بسيطة دون حاجة لبيع بعض الأصول للحصول على احتياجات رأس المال . واذا

تساءلنا من اين تأتي البنوك اليابانية بكل هـذه الأموال السائلة لتمويل هذه الصناعات ، وجـدنا ان من بـين الأسباب أن معدل الادخار في اليابان بلغ ٢٠٪ ، بينما يصل في الولايات المتحدة الى ٥٪ فقط . وهذا المعدل عامل حيوي في نمو الاقتصاد .

ويستنتج الكتاب ان خطأ مدارس الأعمال الأمريكية هو انها كانت تقوم بتدريس علوم الادارة ، وفي حين أن ادارة الاعمال أصبحت فنا ، كما ان عملية صنع القرار تدرس في معاهد الأعمال الأمريكية بأسلوب البعد عن المخاطرة ، فهي لا تستفيد الاستفادة الكاملة من نظم مسـانـدة القـرار (Decision Support Systems) المتاحة حاليا التي يمكن ان يكون لها اثر محمود داخـل المؤسسة وفي النظام الاقتصادي ككل .

والأهم من ذلك ، هو ان الطلبة اليـابانيـين الذين درسوا الى جانب أقرانهم الأمريكيين يعودون الى وطنهم لاستخـدام سياسـة اتخاذ القـرارات في مجتمـع مختلف تماما .

وهناك أيضا سياسة سيكلوجية يتبعها اليابانيـون في معظم المصانع تتلخص في :

(١) الاعتماد على طموح الشباب .

(٢) احتـرام كل الآراء المـطروحـة ، وتـطويـر أفكـار جديدة ، ثم حسن استغلال الوقت .

(٣) الاستمتاع بالعمل وإضفاء جو البهجة عـلى محيط العمل .

(٤) الكفاح بثبات من أجل دورة العمل الوظيفية .

(٥) الاعتقاد بجدوى محاولات الأبحاث والتجارب .

وفي الجانب المقابـل ، أثبتت بعض الدراسـات ان خفض التلوث في الولايات المتحدة الأمريكية قد خفض الانتاجية بنسبـة ٢٦٪ بين عـامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٦ ، ومواصفات نوعية الهواء تعتبر اكثر صرامة في امريكا منها في اليابان ، بخلاف المواصفات القياسية الأخرى التي لا يوجد فيها اختلاف . ولكن الفرق الجوهري هو ان هذا النظام مطبق في اليابان بناء على اقتناع ، وليس بإجبار ، أو باتخاذ قرار ، وليس تنفيذا لحكم قضائي .

ويتميز اليابانيون بأنهم عندما يتعرضـون لمشكلة أو لموقف يتكلم بعضهم مع بعض في كل المناسبات بيسر ، لأنهم يتحدون في اللغة ، كما ان ثقافتهم متجانسة .

اما الغرب فهو متناثر ، سواء في الأفكار ، أو فرص اللقاء ، أو المستوى التعليمي والبيئة الاجتماعية ، الأمر الذي يؤدي الى انتشار الأفكـار ببطء بين من يملكـون افكـارا مختلفـة ، والى البطء في حـل المشـاكـل . والأمريكيون بالذات انفراديون لا يسعون لتبادل مكثف للآراء لحل المشـاكل وربمـا كانـوا لا يتقـابلون الا في الكنيسة . وهم عندمـا يتقابلون لبحث أوجـه خلاف تسودهم روح عدم الثقة ، اذ لا يوجد شعور قومي أو اهتمام مشترك يقرب وجهات النظر في شأن الخلاف .

يعتمد الامريكيـون منذ القـدم على الشبـاب لكي ينقـذهم من أي مشكلة تتعـرض لهـا البـلاد . وهم يعقدون الأمل عليهم في نجـدة بلادهم والحفـاظ على تاريخها . والشباب الأمريكي مليء بالحيوية ، وغالبا ما يختلف ويعارض الأجيال السابقة في عظاتها ، ويتعرض لانتقاداتها . ولكن مجرد عقد الآمال على الشباب دون اتـاحة الفـرص لتأهيلهم تـأهيلا جيـدا لا يحقق هـذه الآمال . وفي مجال الحواسب يقول أحـد رؤساء قسم دراسات الحاسوب في احدى الجامعات الأمريكية انـه يـواجه مشكلة ذات شقـين : همـا : أولا ، أن أجـور الاخصـائي حديث التخـرج تصل الى اضعـاف اجور الهيئة العلمية في الجامعة ، وثانيا ، أن الغالبية العظمى من الحاصلين على درجـة الدكتـوراه يفضلون بدورهم العمل في الصناعة . وهو يرى انها بهذا تلتهم البـذور التي تنتج للصناعـة حصادا وفيـرا من الأفراد المؤهلين تأهيلا جيدا ، ومن نتائج البحوث المفيدة .

ويضيف الى هذا مشكلة الأجهزة التي يتدرب عليها الطلبة . فهي أجهزة تتطور بسرعة ، بينما معدل التغيير سريع في هذا المجال . وهو يقترح حل هذه المشكلة عن طريق الشركات لتزويد الجامعات بشكل مستمر بأحدث الأجهزة التي يمكن للشركات استخدامها في أوقات معينة يتفق عليها بين الطرفين . ويجب ملاحظة أن رأس المال والتمويل اللازمين للتعليم والأبحاث العلمية لا يمكن أن يأتيا فقط من القطاع الخاص .

وليس من الجائز التقدم بشكوى للمفكرين خلال المستقبل القريب دون التلميح الى الأساليب والوسائل الجديدة ، حيث ان اولئك الذين يصرون على عدم مبالاتهم سوف يجدون انفسهم في متحف معزول بعيدا عن هؤلاء الذين يدركون أبعاد التطور ويستطيعون أن يتعاملوا مع المحيط الذي خلق هذا التطور .

وتحتاج الآلة الذكية ، بما تحويه من وحدة تشغيل بيانات المعرفة ونظم الخبرة ، الى مستخدمين اذكياء . ويعتقد بعض المتفائلين ان بإمكان الآلة نفسها ايجادهم بعد أن أبدى المتعلمون والآباء ورواد الثقافة عزوفا عن مفهوم الآلة الذكية ، كان له تأثير سلبي حتى الآن . وتقود هذه التجربة محاولات اكتشاف وتجربة امكانيات نظم الخبرة للمساعدة في توفير وسائل تعليمية وتدريبية لصيانة واصلاح المعدات . ولكن هناك ، في المقابل ، نظرة متشائمة تتوقع حدوث أخطاء لا يمكن تجنبها نتيجة لهذا التوجه .

وقد صرح اليابانيون انهم سوف ينتجون وحدة التشغيل خلال عشر سنوات . ولدى الأمريكيين عدة بدائل يمكن الميل اليها لمواجهة هذا التحدي :

(١) الاستمرار في الأبحاث قصيرة المدى والتطوير آخذين في الاعتبار ظروف السوق .

(٢) تكوين اتحاد مالي لهذه الصناعة لمواجهة تحدي اليابان .

(٣) الدخول في تحالف تضامني مع اليابان ، حيث كشفت تصريحاتهم في شأن الجيل الخامس عن الكثير من المعلومات .

(٤) عدم التركيز على انتاج الآلات ذاتها ، والاتجاه الى تطوير البرامج الجاهزة ، اذ ان الشذرات سوف تكون زهيدة الثمن ، علاوة على ان لديهم الخبرة في المنافسة وتحقيق الربحية في انتاج بعض الأجزاء من اجهزة الحاسوب .

(٥) انشاء معمل قومي متخصص في تكنولوجيا المعرفة .

(٦) الاستعداد لتهيئة المناخ لمجتمع ما بعد الصناعة .

وعندما يطرح اقتراح آخر ، هو تكوين مركز دولي لتكنولوجيا المعرفة يتم اعداده بواسطة كبيري رواد العلوم بالحكومة ، فإن الولايات المتحدة ستصبح رائدة بفضل ما تقدمه البحوث الجارية فيه من نتائج مفيدة في تطوير تكنولوجيا المعرفة . ومع ان التمويل لهذا المشروع يجب ان يأتي أولا من الحكومة ، الا انه لا يجب ان يكون مؤسسة حكومية لاتاحة المجال للادارة المدنية للعمل بالسرعة والكفاءة المرجوة . اما بالنسبة للعقبات المنتظرة ، فهي كيفية نقل هذه التكنولوجيا من المختبر الى مجال التصنيع ، ثم كيفية حماية الإبتكار على المستوى العالي ، وأيضا التكلفة الأولية التي تبدو مرتفعة .

يتناول الجزء الأخير من الكتاب شرح صعوبة التنبؤ بالمستقبل بشكل عام فيما هو متوقع من الحواسب في المستقبل القريب وما هو من الصعب التنبؤ به . لقد أصبح كل فرد مقتنعا الآن بأن تطوير الحواسب سوف تنتج عنه ثورة هائلة في معالجة المعلومات ، وتغييرات

مذهلة ابتداء من الرسائل الالكترونية حتى نظم الخبرة المتاحة ، حيث من المتوقع ان يتوفر نظام خبرة طبي يمكنه توصيف أحدث الأدوية للقطاعات والدول الفقيرة في جميع أنحاء الأرض .

كذلك توجد توقعات بالنسبة للصحف والدوريات التي يتم توزيعها بواسطة بعض الموزعين أو بالبريد ، اذ ستكون متاحة عن طريق شاشات العرض بالمنازل لاختيار ما نريده منها . وكذلك سيتم الاستغناء عن المكتبات التي تحوي العديد من المراجع حيث سيشمل الحاسوب جميع هذه المعرفة ، ويقدمها وقت الحاجة اليها بسهولة وفي اي مكان . وهناك أيضا وعود بالتوفير في عدة أوجه اخرى ، كالطاقة والورق والوقت كما سيكون هناك حسن اختيار للمعرفة ، وكذلك في تصميم المعرفة .

سوف تترتب على النجاح في خلق المعرفة آليا تأثيرات غير متوقعة . فعندما تستطيع الآلة استخدام كل المعرفة المعطاة لها ، واستخدامها بطريقة منتظمة ، وخلق الاستنتاجات أكثر مما نستطيع نحن ، فلن يستطيع أحد أن يتنبأ بما سوف يحدث . ولربما نسينا تماما كيف تنجز هذه الأعمال ، كما نسي معظمنا طريقة حساب الجذر التربيعي . ولكن ، من الناحية الأخرى ، لماذا نرهق أنفسنا بهذه العمليات العقيمة طالما ان هناك آلات حاسبة يمكنها انجاز ذلك بسهولة .

لا أحد يدري هل ستستطيع الآلة التفكير بعمق وبسرعة أكثر من الانسان . وهل يمكن لمعارف جديدة ان تكتشف عن طريق الآلة ؟ واذا تم هذا ، فما هي متضمنات هذه المعرفة ؟ هل شبكة المعرفة ، سواء عبر العالم ، أو بين اليابانيين ، سوف تحدث قلقا للعاملين بالجهاز الحكومي لخوفهم من الاستغناء عن مسئولياتهم ، والتقليل من الصلاحيات المتاحة لهم ؟ لا أحد يدري كيف يتم اكساب الانسان ذكاء خارقا ، يمكنه من تقييم المعرفة التي سوف يتعرض لها ، كما لا ندري مدى قدرة الآلة ذات القدرة على ايجاد المسببات وعلى ان تشرح للبشر هذه المشكلة أو حتى مستوى تعقيد مثل هذه الآلة .



في نهاية مؤتمر عام ١٩٨١ الذي نوقش فيه التقرير الأولي عن « الجيل الخامس » ، وجه مراسل مجلة بيزنس ويك (Business Week) الأمريكية سؤالا مباشرا الى فايجنبوم هو : « هل تعتقد ان بإمكان اليابان تنفيذ كل ما يعد به هذا البرنامج ؟» وكانت اجابة فايجنبوم هي انه يتوقع أن يتوصل اليابانيون الى حل بعض مشاكل البرمجيات التي يتطلبها البرنامج ، الا أن هذا سيتطلب قدرا ضخما من التجديد والابداع . وواصل المراسل استجوابه متسائلا عما اذا كان بامكان اليابانيين تحقيق ذلك . وكان رد فايجنبوم هو ان لديهم مائتي باحث يعملون في هذا السبيل ، وأن هذه في حد ذاتها قوة ضخمة . وقارن بين هذا الوضع والوضع في الولايات المتحدة فقال : ان لدينا في الولايات المتحدة اعدادا تفوق هذا العدد بكثير ، ولكنهم يعملون في جماعات صغيرة متناثرة ، لا تربط بين اهتماماتها خطة عمل شاملة تنسق جهودهم وتزيد مساندة الواحد منها لبقية البحوث .

واذا كان هذا الكتاب قد ركز على السباق الحضاري الذي يجري منذ مطلع هذا العقد بين اليابان وبين الغرب بشكل عام ، فانه لا يتعرض لمفهوم الذكاء الاصطناعي نفسه . وليس هذا بالأمر المستغرب من باحثين يسلمان بداية بهذا المفهوم ويعملان في بحوثه . والكتاب بهذا يطرح جانبا الحوار الحاد الذي يحتدم منذ ان جرت صياغة هذا الاصطلاح الجديد عن جوهره وعن معناه بالتحديد . وهو لا يتعرض لجوانب في الفكر

والفلسفة وعلم النفس والسلوكيات التي تثيرها هذه التسمية وتركز على غموض المفهوم نفسه . وهو في النهاية لا يحاول ان يستشرف المستقبل أو أن يتنبأ بما اذا كانت التوقعات المسرفة في التفاؤل ، والتي يصل بعضها الى حد الخيال الجامح ، في شأن ما ستحققه بحوث الذكاء الاصطناعي ، وهو لا يتخذ موقفا واضحا في شأن مسار هذه البحوث .

الا أن هذه القضايا كلها تخرج بحكم التعريف عن النطاق الذي حدده الكاتبان لموضوع كتابهما ، والبعد عن الخوض فيها في السياق الذي اختاره المؤلفان لا ينقص من قيمة الكتاب من حيث انه يفصل جوانب كثيرة في أعمال تطوير الحواسيب في مختلف دول العالم ومناطقه لا تلقى دائما الدراسة المقارنة المتعمقة . وسيصدر الزمن حكمه في نهاية المطاف عندما تتكشف كل أبعاد نتائج مشروع « الجيل الخامس » التي بدأت بواكيرها في الظهور . وسيبقى بعد هذا وذاك الفضل للكتاب في حفزه لهمم الكثيرين في الغرب وترشيد جهودهم في بحوث الذكاء الاصطناعي .

❋❋❋

علم الأصوات في القرن العشرين
نظريات القواعد ونظريات التمثيل

تأليف : ستيفن ر. أندرسون
عرض وتحليل : محمد سامي أنور
رئيس قسم اللغة الانجليزية وآدابها
جامعة الكويت

« علم الأصوات في القرن العشرين ، نظريات القواعد ونظريات التمثيل » من تأليف ستيفن ر. أندرسون ، أستاذ علم اللغة في جامعة كاليفورنيا ، لوس انجلوس بالولايات المتحدة الأمريكية وقد نشرته مطبعة جامعة شيكاغو عام ١٩٨٥ ويقع في ٣٧٣ صفحة .

يبدأ المؤلف مقدمة كتابه بتأكيد أن الهدف الأساسي للكتاب هو « تاريخ علم اللغة ولكنه ليس عن تاريخ علم اللغة » كسرد لمجرد التاريخ ، ولكن بغرض فهم المشاكل التي تناولها السابقون بطريقة جديدة ، فهو يزعم (ص ١٣) أن طبيعة مشاكل دراسة الأصوات تتضح أكثر من خلال تطورها التاريخي ، إذ أن الاهتمامات الحالية - على حد قوله - ليست وليدة فكر حديث مستقل ولكنها موروثة عن الأسبقين .

والمؤلف من أتباع النظرية التوليدية التحويلية التي نادى بها تشومسكي Chomsky وزميله موريس هالي Morris Halle، وهدفه من تناول تاريخ علم الأصوات في القرن الحالي ومفاهيمه العلمية المختلفة هو إثبات أن النظرية الحالية .

(أ) نمو طبيعي لما قبلها .

(ب) أنها تتناول كل المشاكل التي تناولها الأسبقون في مدارس متنوعة ، ولذلك فهي أكثر شمولية .

(جـ) أنها تمكنت من حل مشاكل لم يستطع الأسبقون حلّها ، ولذلك فقد وصل منهجها العلمي إلى مستوى شرح الظواهر اللغوية وإعطاء أسباب لها وليس مجرد وصف تلك الظواهر .

ولهذا فإن أندرسون يزعم (ص ١٣) أن « جدول أعمال البحث في الأصوات التي يتناولها المنهج الحديث

* Stephen R. Anderson, Phonology in the Twentieth Century, Theories of Rules and Theories of Representations, The University of Chicago Press, 1985.

قد وضعها لنا الأسبقون ، كما أن الحلول المحتملة لهذه المشاكل تخضع لنظرتهم مع أننا ربما نعتبر استنتاجاتهم غير مناسبة لنا ، ومع ذلك فإن جزءاً كبيراً من معلوماتنا نابع من أبحاثهم ولذلك فلكي نفهم هذه المشاكل علينا أن نعيد النظر فيها حتى نتعرف على المفاهيم ـ التي في ضوئها ـ تناول الأسبقون تلك المشاكل بالتحليل » ومحتويات الكتاب هي كما يلي :



سوف أحاول في تناولي لعرض هذا الكتاب أن أضرب أمثلة من اللغة العربية لتوضيح المسائل التي يعرض لها ، لأن الكتاب موجه أساساً لقارىء اللغة الإنجليزية ، ومعظم الأمثلة من تلك اللغة بالإضافة إلى بعض اللغات الأخرى ، كما أن اللغة العربية لم يرد ذكرها إلا في الصفحات ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٩٢ ، ولعل هذا يساعد على مناقشة الأمور التي سأعرض لها على صفحات هذه المجلة ومجلات عربية أخرى .



هدف الكتاب ـ كما قلنا سابقاً ـ هو التاريخ الفكري لعلم الأصوات إذ يعالج مشاكل التحليل الصوتي في إطار تطور منهجها العلمي وليس في إطار اجتماعي أو حضاري ، ومع أن المؤلف يبدأ في كل فصل بإعطاء معلومات وبيانات شخصية عن العلماء الذين يتناولهم والظروف التاريخية والاجتماعية التي عاشوا فيها إلا أن هذا ليس الإطار الذي في حدوده يتناول مشاكل علم الأصوات ، وإنما مقدمة عامة لتعريف القارىء بالعلماء الذين يعرض لهم ، هذه الخلفية الاجتماعية لا تمثل خطا متكاملاً ولا نقطة ارتكاز للبحث العلمي الذي يتناوله المؤلف .

وعند تناول المؤلف لمشاكل الأصوات فإنه قد بنى بحثه على مستويين مختلفين :

(أ) تقدم النظرية العامة لعلم اللغة وموقف كل عالم تعرض له من هذا التقدم .

(ب) التطورات الخاصة بعلم الأصوات التي ساهم فيها كل عالم أو ساهمت بها كل مدرسة لغوية .

هذا في الواقع يثير تساؤلاً مهما عن منهج الكتاب ، أودّ أن أبدأ به . هذا التساؤل هو :

ـ إلى أي مدى يصبح تاريخ أي علم كاملاً من ناحية الموضوع والعرض إذا لم يبرز الجوانب الاجتماعية والظروف التاريخية وتأثيرها على تطور ذلك العلم ؟

هذا التساؤل مهم لما يلي :

أولاً : إن علم اللغة مرتبط بالجوانب الاجتماعية وظروف البيئة التي يستخدم فيها ، فتبعاً لذلك تتحدد أهدافه ويبرز منهج البحث فيه ، وهذا يتغير أيضاً عبر العصور والعوامل التاريخية ، فنشأة النحو العربي مثلاً وكتابة القواعد بدأت عندما ظهر اللحن بين المسلمين من غير العرب .

ثانياً : إن علم الأصوات له علاقة وثيقة بالجوانب الاجتماعية وظروف المجتمع المختلفة ، وهذا ينطبق على الفونيمات (الأصوات المميزة لمعاني الكلمات) وتغيرها في النطق ، فالسود الأمريكيون مثلاً لا يفرقون بين [i] و [E] إذا جاءتا قبل [N] ، فالكلمتان **pin** و pen تنطقان [pin] . وهذا أيضاً ينطبق على الفونيمات فوق التركيبية Suprasegmentals ، ففي اللغة اليابانية نجد أن نطق كلمة hi بطبقة صوت مرتفعة أو منخفضة ذو دلالات مختلفة ، وفي اللغة العربية فإن نطق عبارة يا سلام في الحديث اليومي ربما يعني :

١ ـ مناداة شخص اسمه سلام .
٢ ـ التعجب .
٣ ـ الاستنكار .
أو ٤ ـ التشجيع .

وكل ذلك يعتمد على طول الألف في كلمة سلام وتنوع التنغيم وطول الوقف بين يا ، وسلام .

ثالثاً : إن الفلسفة النظرية لبعض المدارس اللغوية تختلف حول أهمية الإطار الاجتماعي لدراسة اللغة عموماً ، والأصوات خصوصاً ، وينقسم فلاسفة اللغة إلى أكثر من فريق حول هذا الموضوع ، فعلماء البراجماتيزم وتابعوهم من علماء اللغة مثل هاياكاوا Hayakawa وغيره يعتقدون أن اللغة لا تبرز إلا في مدلولها الاجتماعي ونذكر في هذا المجال الفلاسفة راسل Russell ، مور Moore ، ريتشاردز Richards ، فيتجنشتين Wittgenstein كارناب Carnap ، موريس Morris ، تارسكي Tarski وغيرهم كثير ، فيؤكد فيلسوف مثل تشيس Chase (1938) :

« إذا أردنا أن نفهم أنفسنا والعالم من حولنا فإن علينا أن نستخدم لغة يتفق بناؤها مع البناء العضوي من حولنا » (ص ٧) .

على أن اندرسون ـ مؤلف الكتاب موضوع العرض ـ من أتباع المدرسة التحويلية التوليدية التي تعتبر قواعد اللغة نظاماً عقلياً مجرداً يعكس القدرة العقلية للفرد Competence بعيداً عن المتغيرات الاجتماعية وغيرها . فتلك الظواهر متقلبة ولا يجمعها نظام واحد ، ولذلك فهي لا تصلح أن تكون جزءاً من نظام القواعد حيث لا تستطيع القواعد اللغوية أن تقدم « تفسيرا » لها ، فمهمة تناول تلك الظواهر يقع على عاتق علماء آخرين مثل علماء الأجناس والاجتماع .... الخ (انظر Bever et. al. 1976) ، ولذلك فإن أول عيب يؤخذ على منهج الكتاب أنه عرض تاريخي من جانب واحد يحاول فيه أن يبرز التطورات العلمية التي أدت إلى

ظهور المدرسة التي ينتمي إليها المؤلف ، على أن القصور الأخطر في هذا الكتاب كعرض تاريخي هو تركيزه على دراسة الأصوات دون ربطها في بعض الأحيان بالنظرية العامة لعلم اللغة عبر العصور ، والمؤلف على وعي بذلك ويثير هذا التساؤل بنفسه (ص ١) عن اقتصار موضوع كتابه على (أ) القرن العشرين و (ب) دراسة علم الأصوات ، ويدافع عن ذلك بالمقولات التالية .

١ ـ ان نظرية فرديبان دي سوسير وبودوان دي كورتينيه في أوروبا وفرانز بواس في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعتبر نظريات مختلفة عما قبلها ، ولذلك فهي تعتبر بداية الدراسات الحديثة في علم الأصوات ، ويزعم أن ذلك لا ينتقص من المنهج المتبع في الكتاب .

٢ ـ ان تقدم نظرية علم الأصوات في القرن العشرين كان متجانساً وأن المشاكل التي تشغل العلماء الآن لها « جذور » (ص ٣) في اهتمامات السابقين وبحوثهم ، وهو يعترف بأن تناول المشاكل اللغوية يتغير من عصر لعصر ، فمثلاً في القرن العشرين تحول البحث اللغوي من تناول اللغة والجمل المكونة لها إلى خصائص القواعد والتنظير للغة ، وزاد الاهتمام الآن بوضع الإطار العام لخصائص القواعد التي تجمع لغات عديدة أو ما يسمى بالقواعد العالمية Universal Grammar، وذلك لإعطاء أسس معينة تصلح لتحليل الظواهر اللغوية في لغات عديدة (ص ٦) ، وعلى هذا فإن تناول لغة بحد ذاتها يعتبر أسلوباً قاصراً ، أما تناول لغات عديدة ووضع أسس عامة لتحليل الأصوات فهو أقرب إلى روح العلم الحديث ، وهذا سبب كاف ـ كما يقول المؤلف ـ لدراسة تاريخ الأصوات في القرن العشرين دون الرجوع إلى الفترة السابقة على ذلك

٣ ـ ويبرر الجانب الآخر من المشكلة ـ وهو قصر الكتاب على علم الأصوات دون النظرية العامة للغة ـ بأن المنهج الشائع في أوائل هذا القرن ـ وهو منهج المدرسة البنائية ـ اهتم بدراسة الأصوات أكثر من اهتمامه بالصرف والنحو وجوانب اللغة الأخرى .

ولكن دفاع الكاتب نفسه به قصور نظري ، يتضح فيما يلي :

(أ) أن نظرية فردينان دي سوسير والعلماء الآخرين في بداية القرن العشرين كانت رد فعل للمنهج التاريخي المقارن في اللغات الأوروبية ، حاولت ـ كأحد اهتماماتها ـ بناء نظرية وصفية للغة والتفريق بين المذهب الوصفي والمذهب التاريخي في تحليل اللغة ، ولكن هل هذا التفريق في المنهج مقبول من كل اللغويين ؟ هذا ما ينكره كثيرون منهم ، على سبيل المثال أصحاب المدرسة الوظيفية في فرنسا وعلى رأسهم أندريه مارتينيه الذي يدمج المنهجين في تحليل الأصوات .

(ب) من ناحية العرض التاريخي فإن الكتاب موضوع العرض يعطي الانطباع بأن المدارس المختلفة في تحليل الأصوات تطورت في خط واحد أدى إلى صعوبات استطاعت المدرسة التحويلية التغلب على معظمها ، ولكن الواقع أن تحليل الأصوات تطور في بعض الخطوط المتوازية وشمل مستويات مختلفة من القواعد حتى أنه يمكن تقسيم تلك الاتجاهات إلى مدرستين : (انظر الفصل الأول في Sommerstein 1977) مدرسة الفونيم التقليدية ، والمدرسة التوليدية التحويلية .



ننتقل الآن الى تناول الجزء الثاني من عنوان الكتاب وهو : « نظريات القواعد ونظريات التمثيل » .

تتناول الفونولوجيا دراسة « النظام الصوتي للغة » وقد كان التركيز في البحث حتى الستينات من القرن

الحالي على البحث عن القواعد الصوتية في كل لغة على حدة ثم تحول إلى « التمثيل » للنظام الصوتي الذي تنطبق عليه قاعدة ما ، والقاعدة أحد الأركان الأساسية لبناء أجرومية في لغة بذاتها في حين أن « التمثيل » يهتم بالنظام الصوتي الذي يصلح لكل اللغات الطبيعية أي أنه « كامل الشمول » Universal.

الاهتمام التقليدي بالقواعد rules يركز على ملامح الأصوات التي تؤدي دوراً في لغة ما وتميز لفظاً عن لفظ وهو ما يعرف باسم « الفونيميات » Phonemics، أما الاتجاه الآخر الذي بدأ بعد عام ١٩٥٩ عندما نشر موريس هالي كتابه « النظام الصوتي للغة الروسية » The Sound Pattern of Russian فإنه يبحث عن « مبادىء عامة » principles تحدد نطق الكلمات والعبارات والجمل في لغة ما ، وإلى أي مدى تعتبر هذه المبادىء جزءاً من مبادىء عامة توضح النظام الصوتي لكل اللغات البشرية .

هذان الاتجاهان : الفونيمي التقليدي Phonemics، والمدرسة التحويلية التوليدية Transformational Generative Grammar يختلفان في النواحي التالية التي سيتم توضيحها بالتفصيل في ثنايا العرض :

١ ـ التركيز في المذهب الفونيمي (كما قلنا سابقاً) هو على القواعد rules، أما في المدرسة التوليدية فالبحث عن مبادىء عامة principles، ولذلك فإن لفظ « أجرومية » يستخدمه تشومسكي وهالي في كتابهما « النظام الصوتي للغة الانجليزية » ، "The Sound Pattern of English" دون توضيح ودون تحديد كاف فيما عدا ما يخص أساليب البحث اللغوي .

٢ ـ الاهتمام في المذهب الفونيمي على لغة معينة أو مجموعة لغات متصلة ، ولكن الاهتمام في المدرسة التوليدية هو البحث عما هو محتمل في كل اللغات البشرية .

٣ ـ لبرهان سلامة المنهج يعتمد المذهب الفونيمي على العناصر الداخلية للنظام اللغوي نفسه ، وتتمثل هذه العناصر الداخلية فيما يسمعه الناطق الأصلي للغة وحكمه عليه ، أو ما يسمى بالواقع النفسي للفونيم The Psychological Reality of the Phoneme ، أما المدرسة التوليدية فقد اتبعت هذا الاتجاه في بداية عهدها ثم بدأت تستخدم بالإضافة إلى ذلك عناصر خارجية في البحث مثل :

(أ) التنوع في اللغة من حيث النطق والاستخدام .

(ب) التغير التاريخي الذي تتعرض له اللغة .

(جـ) الرموز المستخدمة لكتابة الأصوات والكلمات .

(د) الكلمات المستعارة من لغات أخرى والتغير الذي تتعرض له عندما تنتقل إلى لغة أخرى .

(هـ) اللحن .

(و) اللعب بالألفاظ والجمل أو ما يسمى Language Games.

(س) اللغات السرية الخاصة المستخدمة بين الأفراد (انظر ـ أنور ـ ١٩٨١) .

٤ ـ مستويات التحليل اللغوي عند معظم أصحاب المذهب الفونيمي يجب أن تبقى منفصلة فلا يجوز عند الحديث عن الأصوات أن نلجأ لظواهر صرفية أو نحوية ، أما في المدرسة التوليدية فإن القواعد الصوتية تنطبق على نتاج المستوى النحوي بكل ما يشمله من حدود الكلمات ومكوناتها وتركيبها ولذلك فالمدرسة التوليدية تسمح بالخلط بين مستويات التحليل اللغوي المختلفة .

٥ ـ المنهج المستخدم في التحليل الفونيمي هو المنهج الاستقرائي inductive، أما في المدرسة التوليدية فالمنهج المتبع هو المنهج الاستدلالي deductive، فالأول يحلل بيانات معينة ويعطي قائمة بالأصوات والقواعد التي تحدد تتابعها وتحولها والأماكن التي تقع فيها . . . الخ ، أما المدرسة التوليدية فإنها تعطي افتراضات عامة وتحاول إثباتها بوسائل تحليل متعددة تتناول بيانات وظواهر من لغات مختلفة .

٦ ـ ونتيجة لهذا الفرق بين المنهجين فإن شكل « الأجرومية » (البناء الكامل لمستويات التحليل اللغوي) وكذلك النظرية اللغوية التي يعملان في اطارها تختلف تماماً ـ كما سنبين فيما بعد .

هذه هي أهم الفروق بين المدرستين وإن كانت هناك فروق أخرى بينهما وفروق داخل كلتا المدرستين كما سنحاول أن نوضح في الصفحات التالية :

البحث الفونيمي :

يبدأ البحث عن النظام الفونيمي للغة ما بكتابة شكل الكلمات المنطوقة Transcription باستخدام رموز صوتية Phonemic Symbols تفرق بين الأصوات المختلفة ، ويشترط فيها :

أولاً : إن الرمز الواحد يرمز لصوت واحد ، بحيث إن كل فونيم دائماً يتميز عن الفونيم الآخر ، وهو ما يعبر عنه بالقول :

Once a phoneme, always a phoneme.

ثانياً : إن الرمز الواحد لا يستخدم لصوتين متقابلين Contrastive.

ثالثاً : التنوع في الأصوات الذي يعتمد على ظروف صوتية مختلفة يعتبر تنوعاً مشروطاً ، وأن الأصوات التي تشارك في هذا التنوع تعتبر تنوعاً فردياً أو افراداً ، و allophones (ألوفونات) تعتبر أحد أشكال فونيم ما .

ولهذا فإن أول مستوى في هذا التحليل هو الفونيمات ثم يليه مستوى أصوات « التنوع الفردي للصوت » . ويوجد أعلى مستوى الفونيمات Phonemes مستوى آخر يوضح التفاعل بين الفونيمات والمورفيمات (الأجزاء ذات المعنى المكونة للكلمات) وهو المستوى المورفوفونيمي ، فمثلاً في اللغة العربية نعرف أن المورفيم « أ . . . ت » يدخل على الأصل الثلاثي ، ولكن الصوت (ت) يتغير أحياناً فعندما يضاف إلى « نَخَبَ » فإن الناتج هو « انتخب » (دون تغيير) ، أما في « صَحِبَ » فإن الناتج هو اصطحب (بتغير ت ← ط) ، ولهذا فإن تحول « أ . ت » إلى « أ . . ط » ناتج عن التفاعل مع الصوت « ص » في المورفيم « صحب » .

يركز الاتجاه الفونيمي ـ كما قلنا سابقاً ـ على الأصوات المميزة في لغة بعينها ، وكلمة مميزة مهمة هنا لأنه إذا سمع صوت في لغة ما ولم يساعد على التمييز بين معاني الكلمات فإنه لا يعتبر فونيما ، ففي اللغة العربية الصوت (س) والصوت (ص) فونيمان مختلفان لأن كلمة ساد غير كلمة صاد ، أما في الانجليزي فإننا نسمع الصوت [ص] في كلمات مثل Some, Saw . . الخ ولكنه يعتبر تنوعا فرديا للصوت (س) أي أنهما ليسا ألوفونين لأننا يمكن أن نبين الموضع environment الذي يقع فيه الصوت [س] ولا يقع فيه [ص] ، فالصوت [ص] يستخدم في اللغة الانجليزية في مواضع لا يستخدم فيها [س] بمعنى أن المواضع مقسمة بينهما ، فأينما حل الصوت [س] لا يحل الصوت

[ص] ، إذ أن وجود أحدهما يبعد الآخر أو أنهما لا يقعان في نفس الموضع وهو ما أطلق عليه mutually exclusive، ونتيجة لذلك فإن توزيعهما يكمل بعضه بعضاً ، فالأماكن التي يقع فيها [ص] والأماكن التي يقع فيها الصوت [س] هي كل الاحتمالات التي يمكن أن يقع فيها فونيم واحد /س/ أي أنهما يكملان بعضهما في التوزيع In Complementary distribution، وسبب ذلك أن هناك قاعدة يمكن استخدامها لوصف هذا التوزيع ، فالصوت [س] يتحول الى [ص] إذا وقع بجوار صوت خلفي ، وهذا نوع من المماثلة ، كما أننا نلاحظ أيضاً أن [س] و [ص] متشابهان جزئياً في النطق ، فكلاهما لثوى مهموس احتكاكي ، ولكن [ص] خلفية بينما [س] أمامية ، وهكذا عندما تتشابه الأصوات في بعض صفاتها ولكن توزيعها في المقاطع الصوتية يكمل بعضه بعضاً ، حسب الشروط التي أوضحناها في هذه الفقرة فإن تلك الأصوات تعتبر ألوفونات يجمعها فونيم واحد .

وقد تناول العلماء « الفونيم » من اتجاهات مختلفة أهمها :

١ ـ الاتجاه العقلي أو النفسي : هذا الاتجاه يعتبر الفونيم صوتاً يهدف المتكلم للوصول اليه ولكنه لا يستطيع التحقيق المثالي له لأنه من الصعب على الانسان عندما يكرر كلمة معينة أن ينطق الصوت نفسه ويأتي به متشابهاً في كل مرة ، (وقد أثبتت أجهزة التحليل الحديثة للأصوات صدق هذا القول) كما أن التغير في الصوت ربما يحدث نتيجة للأصوات المجاورة له .

وقد بدأ هذا الاتجاه مع العالم البولندي بودوان دى كورتينيه (١٨٤٥ ـ ١٩٢٩) ، كما أن العالم الأمريكي إدوارد سابير (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩) له اتجاه مشابه لهذا النوع من التحليل ، ففي مقالته المشهورة « الحقيقة النفسية للفونيمات The Psychological Reality « of Phonemes يروى كيف أنه أثناء إجراء أبحاث عن لغة البايوت الجنوبية Southern Paiute طلب من أحد الناطقين بتلك اللغة أن يكتب له الكلمة [pa pa] التي سمعها منه فكتبها له papa، فالصوت الثاني الذي سمع مختلفاً عن الصوت الأول جاء مشابهاً له في الكتابة ، والسبب في ذلك أن هذا الصوت يتغير حسب الأصوات المجاورة له ، أي أنه يعتبر صوتاً مجرداً أو صوتاً مثالياً ـ على حد تعبيره ـ An ideal Sound، وهذا ينطبق على لغات عدة ، ففي العربية مثلاً نكتب الكلمتين عندهُ و عمدة أحدهما تنتهي بالهاء والأخرى بالتاء المربوطة مع أنهما ـ في حالة الوقف ـ ينطقان بالهاء ، والسبب في ذلك أنه عندما نضيف الضمة في آخرها ، فالأولى تنطق عندهُ ، والثانية عمدةٌ ، أضف إلى ذلك أن الأولى تنتهي بضمير الوصل وتعتبر كلمتين بينما كلمة عمدة تعتبر كلمة واحدة .

ويلاحظ أن هذا المذهب النفسي المجرد لا يستطيع أن يقدم تحليلاً مقنعاً لبعض الظواهر الأخرى المتصلة بحالة نطق ما مثل تغير النطق من متكلم إلى آخر أو عندما يتنوع الصوت من منطقة إلى أخرى في بلد أو بلاد ينطقون بنفس اللغة مثل نطق كلمة عمدة بالتاء في حالة الوقف في بعض اللهجات العربية .

وقد أنكر العالم الأمريكي لينارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (١٨٨٧ ـ ١٩٤٩) و أتباعه هذا المبدأ المجرد لاعتناقهم للمذهب التجريبي ، كما أن العالم الانجليزي دانيال جونز Daniel Jones (١٨٨١ ـ ١٩٦٧) فضل المذهب المادي physical في تحليل مثل هذه الظواهر .

٢ ـ الاتجاه المادي : "physical" : في تحليل الفونيمات يعتبر مجموعة الأشكال المتغيرة لصوت ما فونيما واحداً أو

عائلة واحدة وهو الأصل اللاتيني لكلمة فونيم المكونة من phone « صوت + eme « مجموعة أو عائلة » وأن كل تغير فردي allophone ينتمي لهذه المجموعة ، فكلمة allophone هي أصلاً phone « صوت » + allo « قريب » (كما كانت تعني في اللغة الانجليزية القديمة) .

ولكي تكون هذه المتغيرات الفردية allophones مجموعة واحدة لا بد من توفر شروط معينة (سبق الاشارة لبعضها) وهي :

اولاً : أن تكون هذه التنوعات allophones متشابهة في طبيعة نطقها ولو جزئياً

ثانياً : أن أعضاء المجموعة الواحدة أي الألوفونات لا يمكن أن تقع مكان بعضها البعض ومثال ذلك الكلمتان الألمانيتان bund و bunt فهما ينطقان [bunt] ولكن عندما تضاف اللاحقة es فإن الأولى تصبح [bundəs] بينما الثانية [buntəs] فكان الألوفون [t] يقع عند نهاية الكلمة في حالة الوقف الكامل أما [d] فتستخدم إذا كان بعدها علة وهذا يعني أنهما ضمن فونيم واحد /t/ يجمع المتغيرات المختلفة حسب نطقها وهو ما يسمى « التفرد على المستويين « Bi-uniquences ، وهذا معناه » إذا اختلف لفظان في النطق فلا يمكن أن يعتبرا متساويين indentical ، وإذا تساوى لفظان نطقا فلا يمكن اعتبارهما مختلفين صوتياً أي أن الفونيم يجب أن يعكس هذا «التفرد» في النطق فلا يرمز لصوت آخر مختلف تماماً .

٣ ـ الاتجاه الوظيفي : والذي يمثله العالم الأمريكي بلومفيلد Bloomfield ينظر إلى الفونيم من ناحية تغييره لمعنى الكلمات ، فالصوتان (ك) ، /ق/ يعتبران فونيمين مختلفين لأنهما يتسببان في تفريق معنى كلمة كاد عن معنى كلمة قاد ، هذا الاتجاه لا يعتبر الفونيم « مجموعة من الأصوات أو الألوفونات » ولكن يعتبرها ذات ملامح مميزة distinctive features، هذه الملامح تعبر عن التقابل بين الأصوات المختلفة حسب نظام معين pattern يختلف من لغة لأخرى . هذه الملامح المميزة من أهم ملامح مدرسة براغ التي من أهم علمائها رومان ياكبسون Jacobson .

٤ ـ الاتجاه التجريدي : وهو الذي يتناول الفونيمات كظواهر صوتية بعيداً عن نطقها إذ هي وحدات مجردة تساعد على إقامة التقابل والتشابه داخل النظام الصوتي للغة ما (كما في كتابات العالم الأمريكي توادل Twaddell) ، وفي بعض الأحيان يضع العالم بعض الفونيمات المجردة في النظام الصوتي للغة ما رغم عدم تحقق هذا الفونيم في المستوى السطحي لنطق الجملة فمثلاً في اللغة اللاتينية (المثال التالي ص ٢٢١ في Sommerstein مأخوذ من Hockett) هناك تنوع بين [ك] و [و] مما يمكن تناول هذا التنوع في الكلمات التالية باستخدام فونيم مجرد هو (g^w) (الصوت /ج/ مصحوباً باستدارة الشفتين) :

nik + S	ثلج (مفرد ، مرفوع)
NIW + is	ثلج (مفرد ، مضاف)
wi : k + s + it	عاش
wı : w + it	يعيش
flu (w) + it	يتدفق
flu : k + s + it	تدفق

وحيث إن [k] و [w] يعتبران ألوفونين (تنوعاً لفونيم واحد) فهما يكملان بعضهما في التوزيع فالألوفون [k] يستخدم عندما يتبعه صوت مهموس ، وتستخدم [w] عندما تتبعها علة ، ولذلك يمكن إقامة فونيم يجمع بينهما يتكون من الملامح المميزة التي تجمع بين هذين الصوتين . وما يجمع بينهما هو صفة الأصوات الوقفية من

[K] ، والخلفية من [k] أيضاً والشفهية من [w] والجهر من [w] مجموعها يشكل الصوت [g^W] أي صوت وقفي خلفي شفهي مجهور .

وفي الواقع أن هذا الاتجاه التجريدي يستخدم في المستوى الذي يجمع بين الأصوات ومكونات الكلمات أي المورفو فونيم morpho-phonemics وهو الذي يتناول تحول أشكال الفونيم عند حدود المورفيم (المكونات الصغرى للكلمات) هذا الاتجاه المجرد يتضح في كتابات العالم الدانمركي لويس هيلمسلاف Louis Hjelmeslev (١٨٩٩ - ١٩٦٥) وعلماء حلقة كوبنهاجن اللغوية وعلى الأخص أولدال Uldall وغيره ، وهؤلاء العلماء لا يصرون على مبدأ التفرد على المستويين Bi-uniqueness (أي التفرد في التشابه والتفرد في الاختلاف) لأنهما في الواقع - كما سبق ذكره - يتناولون تنوع مكونات الكلمات ذات المعنى على مستوى المورفوفونيم . ونحن نلحظ هذا الاتجاه المجرد بشكل آخر في كتابات العالم الانجليزي فيرث Firth عندما يتحدث عن البروزودي prosody خاصة النبر والتنغيم بمعنى إقامة علاقات مجردة بين وحدات لغوية أكثر من الصوت تتضح مثلاً في العلاقة بين المقاطع ، هذه العلاقة تحدد إذا كانت قاعدة صوتية ما تطبق أو لا تطبق بناء على البناء الشكلي للمقطع وعلاقته بالمقاطع الأخرى .

ولكي نعطي مثالاً لذلك دعنا نتناول الكلمات التالية التي تبدأ كلها بالصوت [و] : وصل - وقى - ودّ ، وصّل . عندما نضع السابقة « يـ » قبل تلك الكلمات فاننا نلاحظ التالي :

أ - يـ + وصل	يـ + ∅ صل . يصل
ب - يـ + وقى	يـ + ∅ قى : يقي
جـ - يـ + ودّ	يـ + ودّ · يودّ
د - يـ + وصّل	يـ + وصّل : يوصّل

(وسوف نركز هنا على حذف (و) ونهمل التغيرات الصوتية الأخرى) . نلاحظ هنا حذف الصوت (و) في بعض الكلمات دون غيرها . لكي نفسر هذه الظاهرة دعنا نقسم الكلمات الى مقاطع :

أ - ى َ + و َ + صـ َ ل	← يَصل
ب - ى َ + و َ + ق ىَ	← يَقَى
جـ - ى َ + و َ د + د	← يـود
د - ى َ + و َص + ص َ ل	← يوصّل

إننا نجد في أ ، ب أن المقطع الثاني (و َ) ينتهي بعلة ولذلك فهو يحذف لأنه يكون ما يسمى بمقطع مفتوح open Syllable أو كما يقول بعض علماء الأصوات light syllaple « مقطع خفيف » أما في جـ ، د فإنه مقطع مغلق closed أو ثقيل heavy على حد تعبير البعض لأنه يحوي كل مكونات المقطع من بداية onset وتقفية Rime وتقفيلة coda، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن القاعدة الصوتية - وهي في هذه الحالة الحذف - لا تعتمد على صوت معين ولكن تعتمد على تتابع أكثر من صوت في تركيب أعلى مستوى من الصوت الواحد ، بل إن هذا التتابع يربط مقطعاً بآخر - ففي جـ ، د نجد أن المقطع الثاني ينتهي بصوت يبدأ به المقطع الذي يليه ، أي أن هناك علاقة بين هذين المقطعين تلك العلاقة لا تسمح بالحذف ، هذه العلاقة بين المقطعين تؤثر بالسلب والإيجاب على تطبيق قاعدة معينة في أحوال أخرى - ففي اللغة الانجليزية مثلاً نضيف اللاحقة ish إلى child لتعطينا childish ولا نضيفها إلى fish لتشابهها مع الجزء الأخير من الكلمة ish فكلمة fish ish* لا وجود لها ، لأن اللغة الانجليزية (في هذه الحالة) - على عكس اللغة العربية - لا تسمح بتكرار الصوت الذي ينتهي به مقطع معين في مقطع يليه بدليل أن كلمة fishes كلمة صحيحة . بل إن هذه القاعدة المجردة يمكن أن

تستخدم لتفسير عدم وجود الأصوات المشددة عموماً في اللغة الانجليزية ، فالكلمات التي تكتب بحرف مكرر لا تنطق الا بصوت واحد مثل allow annoy, الخ ، ولمزيد من التفاصيل حول هذه الظواهر راجع : (Anwar, 1985) .

الموضوع الأخر الذي اهتم بـه علماء الأصوات في القرن العشرين هو مدى الخلط بين المستويات المختلفة من القواعد في التحليل الصوتي (واللغوي عموماً) وعلاقتها بتناول الظواهر اللغوية المختلفة ، فإلى أي مدى يمكن عند تناول ظواهر صوتية أن يلجأ الباحث إلى بيانات عن الصرف والنحو ؟ .

لقد اختلف العلماء في هذه الناحية إلى فئتين :

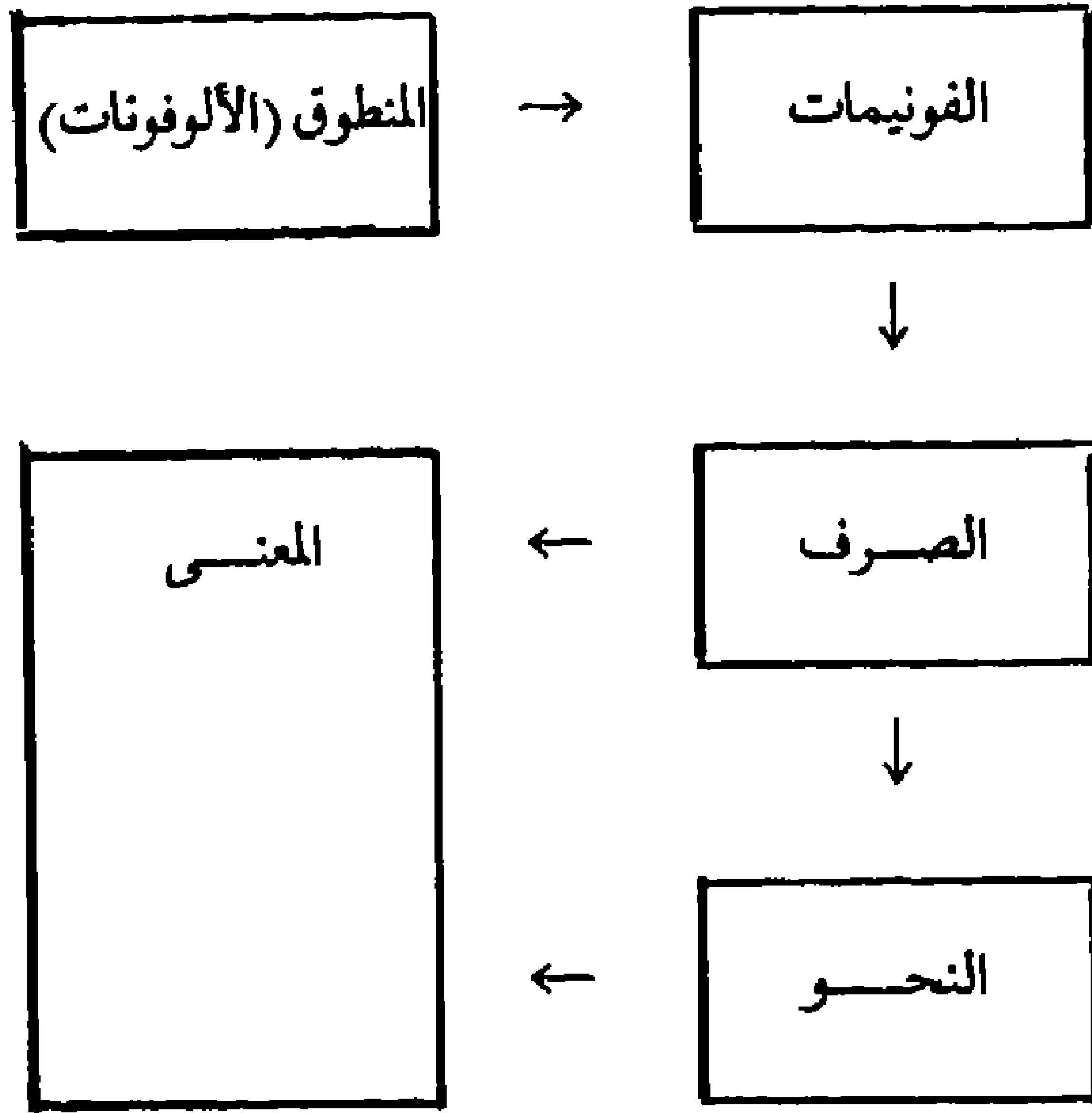
معظم أصحاب نظرية الفونيم التقليدية في أمريكا يفصلون بين المستويات اللغوية تماماً ولا يسمحون عند تحليل مستوى معين بالاستعانة ببيانات من مستويات أخرى سبق تحليلها أو تتبع مستوى لم ينته الباحث من تناوله ، وعلى رأس المتشددين في هذا الاتجاه العالم هوكيت Hockett بينما عالم آخر مثل بايك Pike كان في الأربعينات من هذا القرن يحاول إقناع الآخرين ـ دون جدوى ـ بأن هذا الفصل لا داعي له ويمكن لمن يتناول الأصوات أن يستعين بظواهر صرفية أو نحوية لتحليل ظاهرة صوتية ما ، كما أن أصحاب المذهب المادي Physical في تحليل الفونيمات لا يسمحون بالخلط بين هذه المستويات . وسبب الإصرار على الفصل بين المستويات اللغوية المختلفة في التحليل هو أن مدرسة الفونين التقليدية تعتمد على المنهج الاستقرائي inductive في محاولة للوصول إلى النظام الصوتي استنتاجاً من البيانات التي يتناولونها بالتحليل ، وهذا يعتمد على خطوات التحليل التي يهتمون بها كوسائل لتطبيق هذا المنهج ، ونلحظ ذلك في كتابات الكثيرين منهم (راجع Joos, 1957) حيث يهتمون بإعطاء قوائم مفصلة يجب اتباعها لتحليل الظواهر الصوتية المختلفة .

أدى الإصرار على عدم الخلط بين المستويات المختلفة إلى البحث عن وسائل تتناول التغير الصوتي الناتج عن قواعد الصرف والنحو ، فعند سماع تتابع بعض الكلمات أو مكوناتها (المورفيمات) نجد أن المعنى يختلف لأسباب غير فونيمية (حسب التعريف التقليدي) ففي اللغة الانجليزية مثلاً نلاحظ أن التتابع الصوتي [aiskri:m] يمكن أن ينطق بطريقتين تؤديان إلى معنيين مختلفين [ai skrim] « أنا أصيح » أو [ais kri:m] « آيس كريم » حسب مكان الوقف ، فاعتبروا هذا الوقف فونيما يفرق بين معنى العبارتين وأطلقوا عليه « المفصل » Juncture

وقد كان وليام مولتن William Moulton أول من استخدم « المفصل » في تحليله للغة الألمانية ، وهذا المفصل له ألوفونان « عند بداية المنطوق Utterance ونهايته يظهر كوقف غير محدد الطول duration ، أما داخل المنطوق فإنه وقف قصير كمبادل in free variationللصفر » (الكتاب موضع العرض ص ٩٩) ، ويلاحظ مولتون أيضاً أن فونيم الوقف الذي يرمز له بالعلامة (زائد +) يقع في نفس موقع الحدود boundaries للمكونات الصرفية والنحوية ، وقد ساعد هذا على إغناء فكرة الفونيم ، وأصبح الاتجاه المجرد قوياً ، كما أدى ذلك إلى التركيز على اعتبار الفونيم مجموعة جزئيات تضاف إلى بعضها البعض . كما نتج عنه إضافة فونيمات أخرى إلى القائمة مثل النبر والنغم . هذا الاهتمام الزائد باكتشاف الفونيمات في اللغات التي بحثها العلماء جعل اهتمامهم بالقاعدة

الصوتية ينحصر في إمكانية إدماجها في أساليب التحليل (الكتاب محل العرض ص ٣٠٠) لإثبات القوائم التي توصلوا إليها ، ولذلك فإن التمثيل لتلك القواعد جاء خالياً من أي حقيقة نفسية كما كان من المستحيل إعطاء تفسيرات عقلية rational لتلك القواعد لأنها كانت جزءاً من أساليب التحليل ، ولم يكن هناك أسباب من خارج النظام الصوتي أو بيانات أخرى تعطي تلك القواعد أهمية حقيقية كجزء من النظام الصوتي (وأجرومية اللغة) عموماً .

وقد ساعدت عوامل أخرى على تفريغ القواعد الصوتية من حقيقتها النفسية Psychological Reality ، فبالإضافة إلى المنهج الاستقرائي المتبع والإصرار في خطوات التحليل على فصل المستويات اللغوية المختلفة وما تبعه من استبعاد معظم أشكال التنوع في الأصوات Phonological variation ، كان هناك الاهتمام الزائد بمبدأ « التميز على المستويين » bi-uniqueness بين مستوى النطق Phonetics ومستوى التمثيل للنظام الصوتي Phonemic Representation . (ولكن أصحاب الاتجاه المجرد في تحليل الفونيم في أوربا مثل هيلمسلاف Hjelmeslev وفيرث Firth اتبعوا المذهب الاستدلالي deductive لأن النتائج التي كانوا يحاولون الوصول اليها اعتبرت مستقلة عن خطوات التحليل المتبعة ، وعلى عكس المذهب الاستقرائي فإن الأوربيين من أمثال هيلمسلاف وفيرث اعتبروا كل مستويات اللغة متوفرة عند أي مستوى من التحليل ويمكن الدمج بينها) . وأصحاب المذهب الاستقرائي يبدأون بتحليل الفونيمات بناء على تنوعها (الألوفونات) ثم يتناولون الصرف وبعده النحو ، وهذا هو شكل الأجرومية عندهم :



المدرسة التوليدية :

لقد كانت بداية المدرسة التوليدية رد فعل للقصور الذي بدأ في المدرسة التركيبية الأمريكية وكتابات معظم أصحاب مذهب الفونيم التقليدي . من المبادىء الهامة التي تعتمد عليها المدرسة التوليدية في الثمانينات (حيث تغير منهجها أكثر من مرة في الفترة من ١٩٥٧ ـ ١٩٨٠ بما لا يتسع المجال لعرضه هنا) مايلي :

(أ) قواعد اللغة : وظيفتها ـ ربط منطوق الجمل بمعناها .

(ب) العلاقة بين تمثيل الأصوات المنطوقة Phonetic Representation والتمثيل للمعنى ليست مباشرة ، إذ يتوسطها البناء النحوي للجمل .

(جـ) « معنى » الجملة هو معنى وظائف المكونات النحوية التي تتركب منها ، و« صوت » الجملة هو وظيفة المكونات الصوتية لها .

(د) هذه الوظائف مركبة .

(هـ) وظيفة الأجرومية هي توضيح العلاقات الممكنة بين الصوت والمعنى للغات عموما وليس للغة في حد ذاتها .

ونتيجة لهذا فإن وصف أي جملة يتطلب وصفا صوتيا phonological ، ووصفا نحويا ووصفا منطقيا . هذا

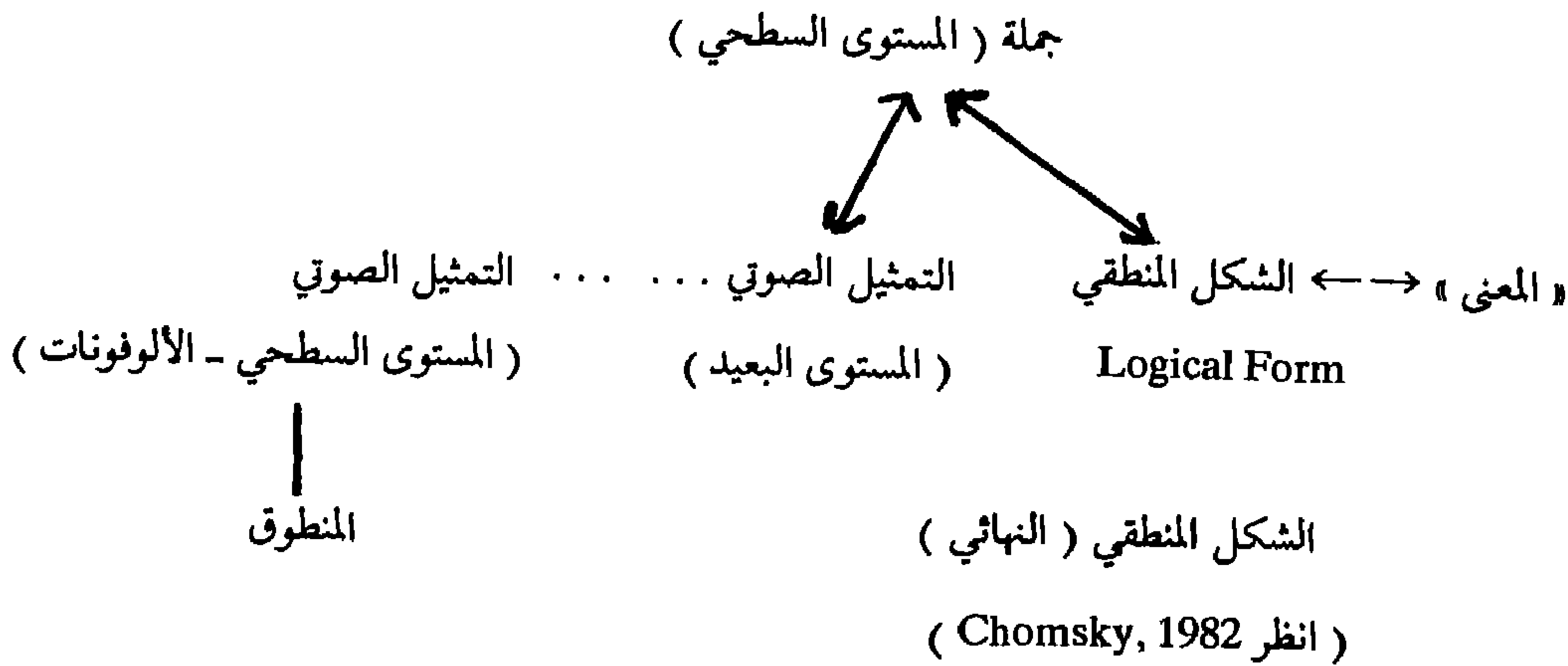
الوصف المنطقي في الواقع ليس تمثيلا لمعناها ولكنه تمثيل يوضح العلاقة بين التمثيل النحوي للجملة وتفصيل معناها . وكل « تمثيل » من هذه المستويات عبارة عن « مجموعة » Set ، وليست مستوى واحدا لأن لكل تمثيل قواعد rules تنطبق عليه قبل أن ينتقل الى المستوى الآخر ، ولهذا فان الأجرومية عندهم ـ تشمل المستوى الصوتي Phonological ، والمستوى النحوي ، والمستوى « النحوي ـ المعنوي » الذي يشمل النحو والمعنى .

والخط المنقوط في الشكل يرمز للقواعد التي تنطبق داخل مستوى معين ، فالعلاقة مثلا بين جملة (المستوى البعيد) وجملة (المستوى السطحي) تحددها القواعد النحوية ، أما الخط المتصل الذي يرمز له بسهم ذي اتجاهين فانه يرمز للقواعد التي « تفسر » تمثيلا خاصا بمستوى معين ليصبح جاهزا لتطبيق قواعد من مستوى آخر ، بمعنى « ترجمته » الى شكل فونولوجي (أو منطقي) .

وما يهمنا هنا بالطبع هو التركيز على الجزء الخاص بالأصوات في الأجرومية ، لقد نجحت المدرسة التحويلية ـ التي نشأت أصلا من البنائية الأمريكية في أن توحد بين التراكمات المختلفة في المدرسة البنائية ودمجها في نموذج متكامل للتحليل اللغوي وتجعل منها أجزاء عضوية تكون شكلا متكاملا لما تنطبق عليه القواعد اللغوية ، ولهذا فان القواعد الصوتية تنطبق على الأصوات من واقع تتابعها في تركيب نحوي ، فالتمثيل الصوتي Phonological Representation هو تقسيم نحوي يشمل الأصوات وتتابعها وحدودها boundaries (المفاصل Juncture) ووظيفتها النحوية . ووحدات التتابع الصوتي هي وحدات Segments (أو فونيمات تقريبا) متميزة ، وكل وحدة

ويمكن توضيح هذا البناء اللغوي كما يلي :

جملة (المستوى البعيد)



(انظر Chomsky, 1982)

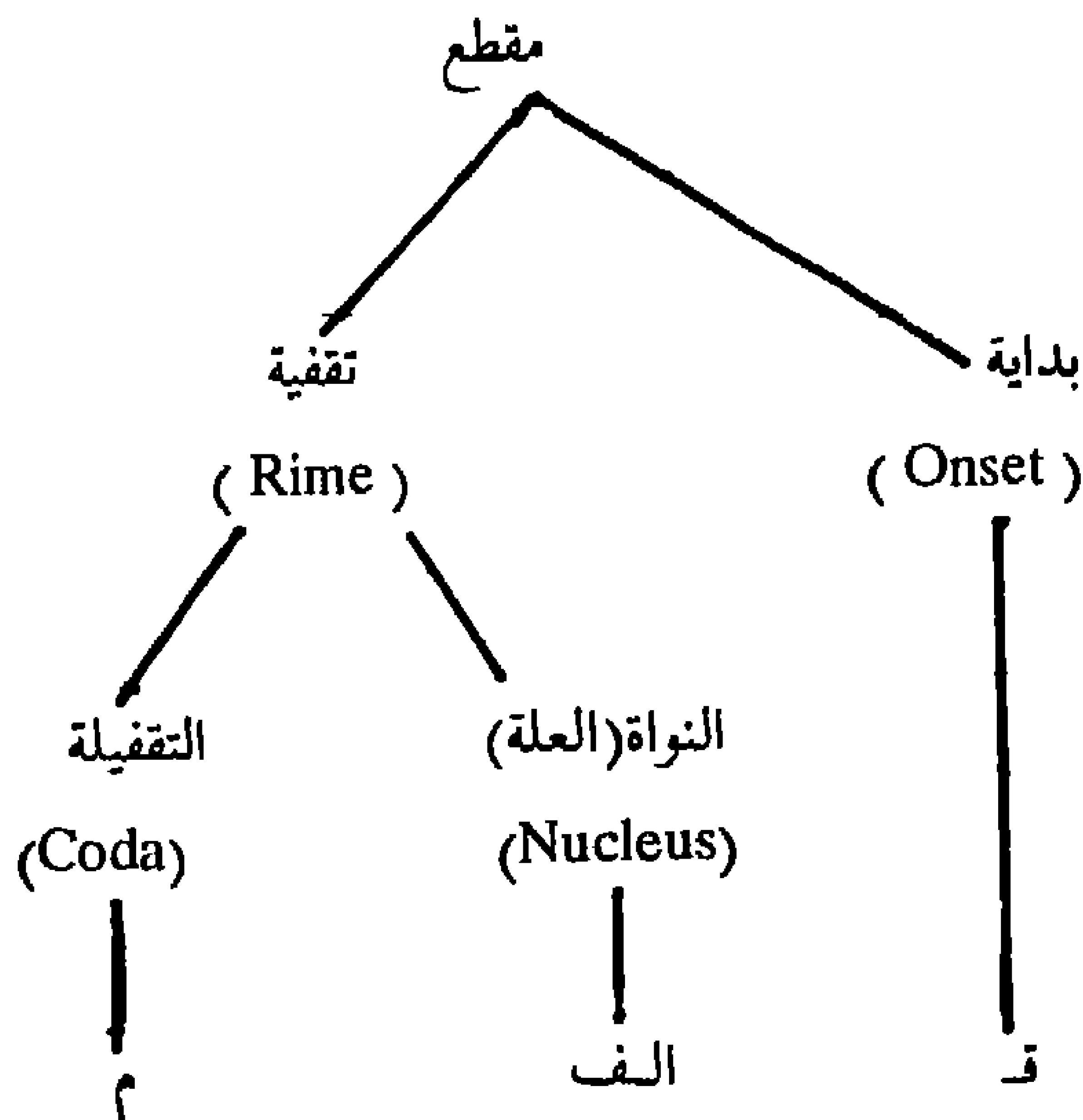
من ذلك عبارة عن مركب من الملامح المتميزة ، بما في ذلك الفونيمات فوق التركيبة Suprasegmentals مثل النبر والنغم . . الخ ويكون تتابع تلك الوحدات مصفوفة matrix ، وتتابع تلك الوحدات هو « تمثيل Representation » للشكل الصوتي للوحدات النحوية المنطوقة ، ويلاحظ كما سبق ذكره ، أن درجة الاتصال والتتابع بين تلك الوحدات يعتمد على المفاصل Juncture ، كما أن هذه المفاصل تعتبر أيضا بمثابة وحدات صوتية segments تنطبق عليها القواعد وفيما يلي توضيح لما يمكن أن يكون عليه التمثيل الصوتي :

[≠ ≠[وحدات صوتية + وحدات صوتية . .]≠[وحدات صوتية . . .]≠ ≠]
جملة اسم اسم فعل فعل جملة
(+ = مفصل داخلي بين المورفيمات)
(≠ = حد الكلمة)
(≠ ≠ = حد الجملة)

والعلاقة بين المستوى الصوتي البعيد والمستوى الصوتي السطحي تحددها قواعد صوتية يطلق عليها « قواعد اعادة التوفيق » Readjustment Rules والفرق بين المستوى الصوتي البعيد والمستوى الصوتي السطحي بسيط لأن كلا منها يشمل نفس التتابع من الأصوات في المصفوفة matrix وكذلك نفس التقسيم النحوي ، ولكن الفرق الأساسي هو وجود الحدود في التمثيل الصوتي عندما تطبق عليها بعض القواعد الصوتية . هذه الحدود (او المفاصل) تحول التركيب النحوي والمستويات المتعددة الى مصفوفة خطية linear حيث تطبق بعض القواعد الصوتية على أساس التقسيم النحوي أو على أساس المفاصل (أي التقسيم الصوتي) .

وفي أواخر السبعينات تحول الاهتمام داخل المدرسة التحويلية ذاتها الى اعتبار التمثيل الصوتي Phonological Representation مثل التمثيل النحوي ، ذا مستويات هرمية متعددة hierarchical ، وأن الوحدات الأساسية فيه هي المقاطع Syllables أي أنها ليست خطية linear (اقرأ McCarthy 1979) وإن كانت تنتهي بمستوى يعادل مستوى الوحدات segments في التمثيل الصوتي الذي أعطاه تشومسكي .

وهذا الاتجاه الجديد يقسم المقطع الى وحدات نوضحها بالمثال التالي لكلمة قام .



وأهمية هذا التحليل الصوتي للمقطع المتعدد المستويات تكمن في أن التمثيل الصوتي ليس خطيا linear وأن العلاقة بين التمثيل الصوتي والتمثيل النحوي مختلفة عن النظام السابق في المدرسة التوليدية ، ففي هذا الاتجاه الأخير لا تعتبر الأصوات مجرد توفيق للمستوى السطحي لأن التمثيل الصوتي له خصائص تحدد تركيبه ، وقد تطورت هذه النظرة إلى مراحل عديدة (راجع في ذلك كتاب Selkirk 1986) .

تحليل الانتقال من مستوى النحو إلى مستوى الأصوات يلقى اهتماما أكبر مما ظن تشومسكي وهالي في كتابهما « النظام الصوتي للغة الانجليزية The sound Pattern of English لأن العلاقة داخل التمثيل الصوتي (بمعنى المكونات الصوتية) ما هي الا علاقة بين تسلسل هرمي نحوي وتسلسل هرمي صوتي لأن المفصل الذي اعتبره علماء الفونيم التقليديون وكذلك تشومسكي مجرد جزء من المصفوفة الصوتية الخطية نادي الكثيرون باعتباره جزءا من التركيب الصوتي فوق البنائي Suprasegmentals (قارن في ذلك Selkirk 1981 و McCawley 1968 و Basb∅11 1978) ، ونتيجة لذلك فان بعض الاتجاهات (مثل Selkirk 1986) لا تدخل الفواصل الصوتية داخل نظام تحليلها للأصوات (قارن أيضا Hogg & McCully 1987) .

وعموما فان العلاقة بين المستوى النحوي الصوتي والتمثيل الصوتي لا تزال محل دراسات مختلفة ، وسوف تكون من بين الموضوعات التي سيتناولها المؤتمر العالمي السادس للأصوات في فيينا في شهر يوليو ١٩٨٨ ان شاء الله .

هذا وقد اتسع مجال البحث الصوتي من المقطع الى التفعيلة (أي العلاقة بين مقطعين متتابعين أو أكثر) إذ تتحدد طبيعة القواعد الصوتية داخل هذا التتابع (قارن Anwar 1983) كما أنه بناء عليها يمكن شرح توزيع بعض المورفيات (أجزاء الكلمات) وتتابعها .

* * *

هذا التطور الذي شهده علم الأصوات خلال القرن العشرين في الانتقال من التحليل الفونيمي التقليدي الى المنهج التوليدي ساعد على تقدم كبير في منهج تحليل الأصوات وتحديد وسائل التحليل وتقييم البراهين المختلفة وتوضيح الى أي مدى يمكن الاعتماد عليها في تناول الظواهر اللغوية المختلفة ، وأصبح العلماء يفضلون البراهين التي تتمتع بالخواص التالية :

١ ـ العمومية Generalization فكلما أمكن تفسير ظاهرة معينة بقاعدة واحدة بدلا من قاعدتين ، أو وصف عدة ظواهر متصلة بقاعدة واحدة ، كان ذلك نوعا من أبرز العموميات في النظام الصوتي ، وهذا لا يعني أن بعض الظواهر الصوتية ربما لا تحتاج لعدة قواعد لتفسيرها ولكن تفضل القواعد « العامة » إذا أمكن ان تحل محل القواعد المحدودة الشمولية » ، وهذا ما يعرف في فلسفة العلوم بالوصول الى مرتبة القانون lawfulness .

٢ ـ ولكي تكون الحقائق اللغوية التي يصوغها قانون ما عامة فانها يجب أن تكون بسيطة Simple ، فالعالم يوسع نطاق بحثه وفي نفس الوقت يقلل من عدد القوانين (او القواعد) الفردية المتفرقة التي تتناول الظواهر اللغوية . وبناء النظريات اللغوية الحديثة يعتمد على هذا التوازن بين التناقضين : زيادة الحد الأقصى لما تتناوله قاعدة ما ، وفي نفس الوقت اصدار الحد الأدنى من القوانين اللغوية . وربما يؤدي ذلك الى نوع من التضارب ، فزيادة الحد الأقصى لما تتناوله قاعدة ما ربما يتطلب الاطناب Redundancy في القاعدة أو التمثيل لها ، كما أن التبسيط للحد الأدنى في القواعد ربما يفرغ القواعد من قيمتها اللغوية ـ وكلا الاتجاهين مرفوض ، إذ المطلوب أن تكون القواعد اللغوية ذات دلالة محددة وأن تكون خالية من الزيادات الغير مطلوبة Redundancy-free ، عندئذ يصبح لهذه القوانين اللغوية القدرة على تفسير الظواهر اللغوية ـ لأن هذه القوانين على الأقل ـ تحول الظواهر المتناثرة التي تبدو غير مرتبطة الى « نظام » له خصائص علمية يمكن توضيحها .

٣ ـ ولكي تحقق القوانين العامة هدف « التفسير » هذا فلابد أن تكون هناك دوافع ومسببات وراءها أي لها مايبررها independently motivated وليست لغرض جزافي أو ملفقة ad hoc ، والقوانين التي لها ما يبررها تعني أنها مطلوبة لأسباب عدة وأن هذه الأسباب ليست مستقلة عن بعضها بل متكاملة في التركيب والمجال . وسوف أضرب مثلا من الأصوات العربية يوضح تلك الخواص ودقتها التي تبين القصور في المنهج التقليدي الحالي . فالتحليل الحالي لأصوات العلة في اللغة العربية واللغات السامية عموما يجمع على أن فيها ثلاثة أصوات علة /i a u/ وأن / a / تنقلب الى صوت خلفي مع التفخيم ، وتبقى صوتا غير خلفي مع الأصوات الغير مفخمة ، وحيث إن /i/ و / u / لا خلاف عليهما ، فان كاتب هذه السطور يعتقد أن اللغة العربية بها صوتا علة / a / و / ɑ / كصوتين أصليين ، وسوف أثبت هذه الافتراضية في الصفحات التالية لتوضيح دقة المنهج العلمي الحديث الذي يتسم بالعمومية والبساطة وأن له ما يبرره .

(انظر Anwar (In press))

يلاحظ في اللغة العربية الظواهر المتعددة التالية :

(أ) أن الكلمتين اللتين نسمعهما [عـَـ لـ ـَـ] إذا أضفنا لهما اللاحقة ـ نا (كفاعل) أو ـ نا كمجرور فإنهما تصبحان علونا ، وعلينا حيث تنقلب الألف الى [و] أو [ي] .

(ب) بعض الأفعال مثل قال وسار تصبح في المضارع يقول ويسير (أي أن قلب الألف إلى واو أو ياء يحدث داخل الفعل وليس مقصورا على الأفعال في أ) .

(جـ) هذه الظاهرة ليست مقصورة على المقاطع المفخمة أو العلة الطويلة (الألف) لأنها تشاهد في المقاطع المفخمة والمقاطع غير المفخمة وكذلك مع الفتحة (التي تنقلب ضمة أو كسرة) مثال ذلك :

سـام	←	يسـوم
صـام	←	يصـوم
عَـدّ	←	يعـد
عَـضّ	←	يعـض
سـار	←	يسـير
صـار	←	يصـير
كَـدّ	←	يكـد
قَـلّ	←	يقـل

(د) هذه الظاهرة أيضا مرتبطة بالصرف فاشتقاق المصدر يعتمد على هذا التحول من الألف إلى واو أو ياء

قـال	←	قـول
نـام	←	نـوم
سـار	←	سـير
عفـا	←	عفـو

(هـ) بل إن هذه الظاهرة متصلة أيضا بالأفعال المشددة :

قـال	←	قـوّل
سـار	←	سـيّر

(و) هذه الظاهرة أيضا متصلة بالإمالة حيث تنطق الألف الأمامية / ɑ / ← (i:) و (e:) وهذا لا ينطبق على الألف الخلفية / a: /

هذه الظواهر السابقة لها الخواص التالية :

١ ـ انها خواص عامة .

٢ ـ تظهر في مستوى الصرف وكذلك في مستوى الأصوات وفي المستوى الصوتي ـ الصرفي .

التحليل الحالي للغة العربية يقول إن الألف تنقلب واوا مع الأصوات الخلفية وياء مع الأصوات الأمامية

هذه العبارة التي تستخدم في التحليل التقليدي غير دقيقة لما يلي :

أولا : فيها تناقض لأنه ليس هناك دافع أو دليل مستقل independent evidence لهذا التحول ، إذ الاعتماد هنا على الشكل السطحي للأصوات .

ثانيا : هناك تعارض في العبارة ذاتها اذ كيف يتأتى ان يتغير صوت واحد الى صوتين مختلفين دون سبب واضح (يقول بعض اللغويين ان التحول يعتمد على نوعية المقطع هل هو مفخم أم لا ، ولكن البيانات السابق ذكرها في جـ أعلاه تفند ذلك) .

ثالثا : هذه العبارة لا تعكس احساس العربي نحو لغته ، لأنه عند كتابة بعض هذه الكلمات فانها تكتب بحرفين مختلفين ، فالكلمة التي بدأنا بها في هذا الجزء تكتب مرة علا ومرة على لأن قيمتها النفسية للعربي أنهما كلمتان مختلفتان ، ولذلك ففي اللغة العربية حرفان يشتركان في اسم واحد ولكنهما مختلفان ، **الألف والألف المقصورة بصورة الياء** ، وطبعا هذان الحرفان لابد وأنهما يرمزان لصوتين مختلفين ، أي أن الفرق كامن في ذات الصوتين ولا يعتمد على ظاهرة التحول التي يخضعان لها .

عندما يواجه عالم الأصوات بمشكلة من هذا النوع فانه يمكنه أن يبني تحليله على ماهو داخل التغير الصوتي للغة نفسها ، فهذه الظاهرة التي تؤدي الى نتاج صوتي مختلف يمكن وصفها بسهولة اذا اعتبرنا ان اللغة العربية فيها صوتان مختلفان هما /æ/ مثل الصوت الأول في أنا و /a/ مثل الفتحة الأولى في قَلَّ ، الصوت الأول (æ) أمامي يتحول الى [i] أي الكسرة والصوت الثاني /a/ خلفي يتحول الى [u:] أي الضمة وعندما يأتي كل منهما طويلا فإنهما يتحولان الى [i:] (الياء) و [u:] (الواو) بسبب طبيعتها وليس بسبب الأسباب المجاورة لهما ، أي أن القاعدة لا تعتمد على سياق معين بل مستقلة عن السياق Context-Free

هذا التحليل يمكن برهانه باستخدام بعض البيانات من خارج النظام الصوتي مثل :

(أ) اللهجات : في بعض اللهجات ينقلب الصوت /æ/ الى ياء مثل أنا ، في بعض اللهجات العربية تنطق [æniy] كما ان بعض الأشخاص ينطقون أربعاء بالصوت[æ] مع الألف والصوت [æ:] مع العين .

(ب) في احدى اللهجات اللبنانية تنقلب [u] الى [w] ثم [a:] في كلمة لوز التي تنطق لاظ (w في لوز أصلها [u]) .

وهذا يلاحظ في اللهجات العامية التي تنطق نَوْم ← نُوم ، مَوْت ←مُوت . . الخ ، وعلى ذلك فانه يكون من الأصح أن نفترض أن هناك صوتين في اللغة العربية أحدهما ينقلب واوا ، والآخر ينقلب ياء ، وهذا الافتراض صحيح على أساس أنهما صوتان مختلفان يرمزان للتقابل بين صوت أمامي وآخر خلفي ، وهذا الافتراض يظهر خطأ التحليل السائد للغة العربية على أن بها صوتا واحدا لأن صوتا واحدا يتحول الى [i] و [u] ليس له ما يبرره not independently motivated لأن الموضع المفخم في الأصوات يمكن ان ينقلب فيه الصوت واوا أو ياء كما سبق ذكره في جـ أعلاه .

بل ان هذه القاعدة يمكن ان تكون اكثر شمولا لو طبقناها على مجموعات من اللهجات العربية الأخرى (المثال التالي مأخوذ من (Anwar, (in press وسوف يكتب بالحروف اللاتينية كما ورد ذكره في البحث الأصلي) .

	Northern Arabic		Southern Arabic		
		Shahari	Mahri	Harsusi/	Botahri
سهل	Səhl	Sihi:l	Səihi:l	Si:hel	Schel
صقر	/Səgr/	Zəigor	Zogr	Zegr	—
	[Ṣ aqr]	Zəiga:r	Zo:gur	Zagar	—
			Zugo:wir	Zago:rit	—
مسجد	Məsjid	mezgəid	mezgəid	mesgəid	—
سلام	Səla:m	silum	Silo:m	Sə:lo:m	—
لا	la:	lo:, lu:	la:	la:	lo:
كوكب	Kawkəb	Kubkəib	Kubki:b	Kubki:b	Kubki:b

يلاحظ في هذه الكلمات التحول من æ ← e ← i ← æ

ومن a ← : o ← : u ← aw (كما في كوكب) وهذا يوضح أن اللغة العربية بها صوتان /æ/و/a/ (وعلى هذا يكون مجموع أصوات العلة بها أربعة وليست ثلاثة كما هو شائع الآن) (لمزيد من التفاصيل راجع البحث سابق الذكر) .

هـذه القـاعـدة العـامـة (ان للغـة العـربيـة صـوتـين/æ/ ، /a/) لهـا الخـواص العلميـة التي ذكـرناهـا آنفا ، فهي : تعتبـر « شاملة » لأنها تتنـاول الأصوات بناء على ذات صفاتها بعد ان كانت تحلل من خارجها (أي الموضع الذي تقع فيه في الكلمة ، هل هو مفخم أو غـير مفخم) ، ب . وهي ايضا عـامة لأنها تتناول الأصوات الطويلة / :æ/ ، / a : / والأصوات القصيرة/æ/و/a/ جـ . كما انها تبسط قواعد اللغة العربية لأنها تنطبق على اكثر من لهجة وتتناول ظواهـر صـوتية متعـددة في اطار قـاعدة واحـدة أي أن لها مـا يبررها ، بل انها يمكن ـ ان تطبق على لغات عـدة من اللغات السامية يظهر فيها هذا التغير في الصوتين /æ/ و/a/ (البيـانـات التـاليـة من البـحث الـسـابق Anwar (In Press)

نلاحظ هنا أن التحـول الذي يحـدث في اللهجات العربية يحدث أيضا في لغات ساميـة أخرى ، وهكـذا تصبح تلك القاعدة عامة بل انها يمكن ان تنـطبق على لغات اخرى مثل اللغة الانجليزية ، فالقاعدة المعروفة باسم « تحول العلة الكبير » The Great Vowel Shift يمكن تحليلها على هذا الأساس تماما (لا يتسع المجال هنا لتفصيل ذلك ، ولكنهـا نفس الظاهـرة ونفس التحول ونفس الخطوات تقريبا) .

كما أن هذه القاعدة تجعل القواعد الصوتية في اللغات السامية أكثر بساطة ولها مايبررها من اللهجات وحروف الكتابة وقواعد اللغة . . الخ ، أي أنها تتميز بالصفات التي يسعى العلم الحديث لتحقيقها في المنهج العلمي كما سبق ذكره اعلاه .

* * *

على أنه يؤخذ على هذا الكتاب مايلي :

١ ـ حاول المؤلف ان يجعل منه تاريخا لعلم الأصوات في القرن العشرين ، ولكن هناك قصورا في هذا المجال من النواحي التالية :

أ ـ الناحية الأولى في المنهج وقد سبق توضيحها فانه ليس تاريخا بالمعنى المعروف (انظر أعلاه) .

	Northern Arabic	Akkadian	Hebrew	Aramaic
حبل	ḥæbl (un)	ebl (u)	ḥebel	hæbl (a:)
ليلة	læylæt (un)	li:læ:t(u)	læylæ	lely (æ:)
ذكر	ðækær (un)	zikær (u)	zæ:qa:r	deqr (a:)
اذن	uðn (un)	uzn (u)	o:zen	uðn (a:)
ثور	θ awr (un)	šu:r(u)	šo:r	tawr (a:)
يوم	yawm (un)	u:m (u)	yo:m	yawm (a:)
ثوم	θ awm (un)	šu:m (u)	šu:m	tu:m(a)

ب ـ تناول جوانب نظرية عديدة حاول تقييمها على أساس تاريخي ولكن من وجهة نظره وفي ضوء النظرية التي يفضلها

جـ ـ انه يتناول النظريات المختلفة من ناحية تطورها وما يتبعها ، ولكنه لا يتناولها من ناحية تفهم المعاصرين لها ، لأن النقاد المعاصرين غالبا ما يساهمون بنقدهم في فتح آفاق جديدة أمام النظريات التي تستجد على ساحتهم ، ولذلك فانه مثلا لم يتناول بالتفصيل الكافي التطور الهائل الذي حدث في المدرسة البنائية في الولايات المتحدة وأن داخل هذه المدرسة كانت هناك اختلافات مثلا بين هاريس Harris ، وبايك Pike ، وهوكيت Hockett ، وهل Hill ، ومولتون Moulton ، وهم أبناء جيل واحد يصعب على أي عالم أن يقول ان منهج واحد منهم يطابق منهج الآخر .

د ـ يبدو اندرسون متحيزا للمدرسة التوليدية التي ينتمي اليها خاصة (ص٣١٢ ، ص٣١٣) عندما يعطيها فضل تطوير المذهب العلمي في التحليل اللغوي والاهتمام بتفسير الظواهر اللغوية دون الاقتصار على تنميق خطوات البحث ، وفي الواقع فان الكثيرين من العلماء السابقين على هذه المدرسة مثل هوكيت Hockett ، وهاريس Harris اهتموا بذلك أيضا ، ويجب ألا ننسى أن تشومسكي هو تلميذ هاريس ، وأن مباديء المدرسة التوليدية بدأت عنده قبل تشومسكي وان كان الأخير قد طورها في مجالات عديدة .

٢ ـ يؤخذ على أسلوبه التاريخي في العرض عدم التقيد بتسلسل التطور التاريخي للنظرية ، ويظهر ذلك جليا في الفصل الثاني عشر الخاص بالمدرسة التوليدية حيث يتناول حقبة معينة ثم ينتقل الى غيرها ثم يعود الى الحقبة الأولى وهكذا . وهذا لا يوضح التطور الزمني للمشاكل التي يتناولها .

٣ ـ في الفصل الثالث عشر يتناول الكاتب بعض أوجه النقص في نظرية تشومسكي حسب انتقادات الآخرين لها وخاصة مسألة التجريد في التحليل ، ولكنه لا يشرح نظريات هؤلاء النقاد بالتفصيل ، ولذلك فان شرحه للنظرية الطبيعية عند ستامب Stampe ، وشرحه لنظرية التفعيلات Metrical Phonology جاء ناقصا في جوانب عديدة ومحددا للغاية .

على أن هناك نظريات اخرى في علم الأصوات أهملها المؤلف تماما ، وخاصة اسهامات العلماء المهتمين بعلم اللغة النفسي ، وعلاقته بالأصوات مثال ذلك النشاط الحالي لقسم علم اللغة في جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة وعملهم المستمر منذ أوائل السبعينات .

٤ ـ يقول المؤلف في الفصل الثالث عشر إن نظريات علم الأصوات الحالية تطورت من كتاب تشومسكي وهالي « النظام الصوتي للغة الانجليزية » ، وهذا في الواقع خطأ فادح لأن النظرية الطبيعية عند ستامب Stampe تبتعد تماما عن المذهب التجريدي الذي هو أساس القواعد التوليدية وتعود الى الأساس الواقعي لنطق الأصوات واستخدام الملامح المميزة عند ياكبسون .



المراجـــع

باللغة العربية

أنور ، محمد سامي العوامل الداخلية والخارجية في تفسير الظواهر اللغوية ، مجلة الحصاد في اللغة والأدب (جامعة الكويت ، العدد الأول ١٩٨١ ، ص٤١ - ص٥٠) .

باللغة الانجليزية :

Anwar, Mohamed Sami. The Foot as prosodic and markedness Representation S.I.L.F. Actes du 10ᵉ Colloqne Pierre Martin (Ed.), Quebec, universite iaval 1983 pp. 262 - 265.

Anwar Mohamed Sami internal Syllabic Bindng and phonological processes: In Adjacency Essential?, Wiener linguistische Gazette, Beiheftz, Dressler, Wolfgang et. al. (eds.) 1984 pp. 9 - 13.

Anwar Mohamed Sami (In Pres). Semitic has Four Vowels. In Channon Robert & Linda Shockey (eds.) In Honor of Ilse Lehiste/ Ilse Lehiste 'puhendustess Dordrecht: Foris publications.

Basb , H. Boundaries and Ranking Rules in French Phonology. In B. de Cornulier & F. Dell (eds). Etudes de phonologie francaise. Paris: Centre National de la recherche Scientifique

Bever, Thomas Co, Jerrold J. Katz & D. Terence Langendren.

An Integrated Theory of Linguistic Ability, New York: Thomas Y. Crowell Co., 1976.

Chase R. The Tyranny of Words New York: Harcourt Brace & Co., 1938.

Chomsky N. & M. Halle. The Sound Patern of English New York: Harper & Raw, 1968

Chomsky Noam Lectures on Government and Binding the, Pisa Lectures Holland: Foris Publications, 1982.

Hogg, Richard & C.B. McCnlly. Metrical Phonology, A Coursebook, Cambridge: Cambridge University Press 1987.

Joos Martin. Readings in Linguistics Vol. I, Washington D.C.: American Council of Learned Societies 1957.

McCarthy, J. Formal Problems in Semitic Phonology and Morphology. Unpublished Ph.D. dissertation, M.I.T. 1979.

McCawley, J. The Phonological Component of a Grammar of Japanese The Hague: Mouton 1968.

Sommerstein Alan H. Modern Phonology, London: Edward Arnold, 1977

Silkirk E.O. On the Nature of Phonological Representation. In J. Anderson et. al. (eds.). The Cognitive Representation of Speech. Amsterdam North Holland 1981.

Selkirk E.O. Phonology and Syntax, The Relation between Sound and Structure Cambridge Mass.: M I T Press 1986.

❊ ❊ ❊

العدد التالي من المجلة
العدد الرابع - المجلد الثامن عشر
يناير - فبراير - مارس
قسم خاص عن
الدراسات المستقبلية

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية

(أ) الدراسات المستقبلية

(ب) الثقافات في العالم الثالث

(جـ) التجديد في الشعر

(د) الاتجاهات الحديثة في التربية

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو جماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتّاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

لة الإمارات	٥	دراهم	سوريا	٣	ليرات
عودية	٥	ريالات	القاهرة	٣٥	قرشًا
بحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
يمن الشمالية	٤,٥	ريال	ليبيا	٣٥	قرشًا
يمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	مسقط	٤٠٠	بيسة
راق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
نان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
ردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

إشتراكات :

بلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار

بلاد الاجنبية ٣,٠٠٠ دينار

ول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
ى بنك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع إسم وعنوان المشترك إلى :

زارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

المجلد الثامن عشر - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٨٨

الدراسات المستقبلية

- مستقبل البشرية في العالم الثالث
- الجهود العربية في استشراف المستقبل
- النماذج الرياضية في الدراسات المستقبلية

"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية : ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع فى نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ الف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة
وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ص. ب ١٩٣
الرمز البريدي 13002

٩٥٥

عالم الفكر

رئيس التحرير : حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير : دكتور أسامه أمين الخولي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٨٨م .
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص. ب ١٩٣ الرمز 13002 .

المحتويات

الدراسات المستقبلية

●●●

شخصيات وآراء

●●●

مطالعـــات

●●●

من الشرق والغرب

●●●

صدر حديثاً

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

من أجل استعمال ملائم للدراسات المستقبلية

المهدي المنجرة

أستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط ،
عضو أكاديمية المملكة المغربية ونادي روما ، رئيس
الجمعية الدولية للمستقبلية

تمهيد

تستلزم الدراسات المستقبلية أن يتسم تحليل معطيات الواقع واتجاهات الأحداث من جهة ، والطريقة المنهجية المتبعة من جهة أخرى ، بطابع الدقة والموضوعية . إلا أن الغاية من هذه الأداة تكتسي صبغة معيارية في جوهرها إذ هي استجلاء للمرامي والأغراض .

وتتأتى الجدة في الدراسات المستقبلية من صياغة تلك الأغراض في إطار ابتكار وإبداع أنساق قيم اجتماعية ثقافية ، وترجمة تلك الأغراض إلى مخطط عملي في شكل اختيارات بديلة وسيناريوهات ممكنة .

هل كانت الدراسات المستقبلية دائما في مستوى مهمتها ؟ سؤال في الصميم ، إذا ما اعتبرنا أن نجاح الدراسات المستقبلية لم يعد موضعا لأدنى تشكك . لقد قمنا منذ عشرين سنة خلت بتجربة التحليل المستقبلي حول مسار الدراسات المستقبلية ذاتها ، ولكن ظهر أنه من الصعب التكهن بدرجة نجاحها وأهميته ، إنه نجاح يستحق أن نفحصه عن كثب حتى تتجلى لنا التطورات المقبلة .

إن تقدم المناهج والتقنيات في الدراسات المستقبلية أصبح أمراً غير منازع فيه ، وإذا حدثت أحيانا مبالغات في استعمال بعضها ، كالنمذجة الرياضية مثلا ، فالخطأ لا يرجع إلى المنهج ، بل إلى كيفية استخدامه بدون مراعاة حدوده .

إن الانشغال الحثيث بالتحليل الكمي يبقى مرحلة ضرورية ليس فقط لضبط صلاحية المؤشرات بل أيضا لتجسيم الرؤى .

إن الدراسات المستقبلية كانت ومازالت تؤتي أكلها في بعض المجالات كالمجال العسكري عند الدول العظمى ـ ونشاط الشركات المتعددة الجنسية بدون أن تفشي أمرها . ويقل النجاح حينما يتعلق الأمر بأهداف تامة الضبط ، موحدة الملامح ، مع نظام لسلالم القرارات قويّ الهيكلة ، بالاضافة إلى وفرة هائلة في الوسائل وتقليص بالغ للمراقبة السياسية .

لكن التحدي إنما يكمن في إثبات فائدة وصلاحية الدراسات المستقبلية بتأكيد أولوية مشاركة السكان ، وتوريط مسؤولية الدوائر السياسية ، وبإصلاح المؤسسات ، وأخيرا بتطوير البنيات العقلية مع احترام تام لنظام القيم القائمة ولحرية اختيار الأشخاص المعنيين .

ذاك نموذج مازلنا بعيدين عنه . وكثيرا ما نلجأ حاليا إلى الدراسات المستقبلية لكون « أزمات » معينة ترغمنا على ذلك ـ ويتعلق الأمر ذاك بـ « مستقبلية تفاعلية » تقاوم الحاضر بتبرير الماضي عوضا عن ابتكار المستقبل .

تطلب النجدة كذلك من الدراسات المستقبلية حينما يصبح الواقع لا يطاق ، لتبرير هروب إلى الأمام إخلاء للحاضر . تلك « مستقبلية تخديرية » قريبة من الديماغوجية في بعض الأحيان .

تستعمل الدراسات المستقبلية أيضا للتأثير على الحركات الفكرية ، وذلك بحصر الأولوية لفائدة التصورات المستقبلية دون أخذ رأي المعنيين بالأمر . في هذه الحالة ، نكون أمام « مستقبلية الانتهاز » على المستوى الوطني ، أو « مستقبلية الاحتكار » على المستوى الدولي .

على الرغم من هذه السحب السوداء ، قطعت الدراسات المستقبلية أشواطا كبيرة نحو الأمام بفضل إخلاص عدد متزايد من باحثين متحمسين للمشروع ، ومن مسؤولين واعين بخطورة الرهان ، ولو أن تلك الدراسات لم تزل بعيدة كل البعد عن التمكن من إيجاد حلول للتحديات التي ستواجهها إنسانية الغد .

إن السلطات العمومية وكذا الهيئات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، في كثير من البلدان ، تُبدي ـ في التفتح إزاء ضرورة اعتبار البعد الزمني في أنشطتها ـ ما يفوق بكثير ما كانت عليه قبل ٢٠ سنة . إلا أن العقبات عديدة جدا .

إن المختصين في الدراسات المستقبلية لا يتوفقون دائما في استعمال خطاب في متناول الفهم ، إذ غالبا ما يتسترون وراء منهجيات تفضي صعوبة تقنياتها إلى حجب الغايات في نهاية المطاف ، كما أنهم باستخدامهم مفاهيم مغلقة وعبارات غريبة ينفرون المنقبين عن المستقبليات .

لكي يقود التوقع ، بمعنى سبق الأحداث ، إلى التجديد الاجتماعي ، لابد أن يمر عبر المشاركة . لقد تحسنت تقنيات الاستطلاع بقدر جليّ وأسهمت في تزايد معرفتنا بتطلعات الجمهور ، وإن كانت مزاولة هذه التقنيات مازالت محتكرة لفائدة انشغالات تجارية وسياسية قصيرة المدى . أما الاستطلاعات والدراسات التي تعالج التحولات السارية في النظم الثقافية الاجتماعية فما تزال نادرة ، ولابد أن نشير هنا إلى الدراسة القيمة التي أنجزتها الجمعية الدولية للمستقبلية سنة ١٩٨٥ حول « اتجاهات النمو الثقافي الاجتماعي في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OCDE) الى غاية ٢٠٠٠ » ، وكذا الدراسة الجارية حاليا حول تطور نظم القيم لدى الشباب الافريقي .

على المستوى العالمي ، يجب الاعتراف بأنه توجد الآن هيمنة فكرية ومنهجية على مستوى الدراسات المستقبلية ، وأنه ، عندما تحاول أوروبا ردعها وتتوفق أحيانا في محاولتها ببراعة ، فإن تلك الهيمنة تزداد حدتها من جراء الأنانية العرقية للبلدان الغربية ، تلك الأنانية التي تشكل ، ربما بكيفية غير واعية ، نوعا جديدا من الاستغلال لا يسهل معه التعاون الدولي . إن البلدان المستعمرة سابقا تعاني صعوبة كبرى في إعادة اكتشاف ماضيها الذي انتابه تشويه فظيع ، في الوقت الذي تكافح حاضرا وتصارع فيه عدم تكافؤ القوى في العلاقات السياسية والاقتصادية . فمن اللازم أساسا ، إصدار مدونة للأحوال المستقبلية للعالم الثالث ، لأن مصير الإنسانية مرهون بهذا الأمر . إن إزاحة بصمات الاستعمار عن المستقبل لأكبر عبئاً وصعوبةً من نزعه عن الماضي أو الحاضر .

إن هذا لا يعني ألبتة « تأميم » الدراسات المستقبلية ، إذ سيؤدي الأمر إلى عكس ما ترمي إليه ، إلى التناقض مع اتجاهات العصر التي تدل على تداخل متزايد لمشاكل ومصالح الشعوب . والهدنة المقترحة هنا إنما تهم استخدام الدراسات المستقبلية كمنهج عملي يعطي الأسبقية لاختيارات الشعوب فيما يتعلق بنموذج الحياة في المستقبل . فالأمر إذن لا يعني سوى نداء لصالح دمقرطة الدراسات المستقبلية داخل الدول وفيما بينها .

ولابد من التأكيد أيضا أن الخطأ متبادل ، إذ من المؤسف أن من أخطر علامات التخلف الاستخفاف في تقدير الأهمية الاستراتيجية للمستقبل . وأنه دائما يصعب التفسير والإقناع بقاعدة بسيطة ، تقضي أنه كلما ازداد خطرُ وحِدّةُ مُشكلٍ مصيري (الجوع ، البؤس ، الجهل ، المرض ، الصناعة ، التجارة . . .) ازداد تعلق الحل الحقيقي المناسب للحاضر بنظرة شمولية للمستقبل .

إن الانطلاق الحقيقي نحو النمو يبدأ عندما ينهض المسؤولون والمواطنون لتخطيط نظم ومعاملات من شأنها أن تحدّد ، في حرية وتضامن ، رؤيةً واضحة لمستقبل البلاد . في هذا الباب أيضا نلمح بعض بشارات الأمل في بعض بلدان العالم الثالث ، ومن ثم أهمية ترك حرية اختيار الطريق وابتكار الحلول من داخل الواقع ، وذلك مع احترام الكرامة والقيم الثقافية الاجتماعية لتلك البلدان ، إنما الإيثار ، في بعض الأحيان ، يكمن بالضبط وقبل كل شيء في فسح مجال الإفصاح لإيثار الآخرين .

وهكذا ، إذا تم احترام بعض القواعد البديهية ، لا مندوحة من أن تتوفر لدينا جميع الأسباب للاقتناع بأن الدراسات المستقبلية ستصبح أحد المجالات المفضلة لتعاون الغد ، تعاون سيتمحور حول الأفكار والابتكار ، أكثر بكثير منه حول المنتوجات والضغوط .

المهدي المنجرة

❊ ❊ ❊

الدراسات المستقبلية "الاشكاليات والآفاق"

عواطف عبدالرحمن

إن حياة البشر وتاريخ كل مجتمع عبارة عن جوهر تتداخل في إطاره الأحداث ، وتمتد الظواهر وتتشابك وتتفاعل عبر علاقة الانسان بالزمن الذى يتميز بخاصية الاندفاع الدائم نحو مستقبل غير منظور وغير متناه يحكمه قانون أساسى هو قانون التغير أو الصيرورة ، ذلك القانون الذى يلف كل شيء في هذا الكون بإيقاعاته المطّردة وتأثيراته المستمرة . ويقضى هذا القانون بكل حسم بأن الماضى يستحيل أن يكون حاضرا أو مستقبلا وذلك خلافا للمستقبل الذى يتحول بطبيعته الى حاضر ثم ماض . ومن المعروف أن الزمن يكتسب صفة النسبية من واقع صلته بالمكان والحركة . أما في التاريخ البشرى فإن نسبية الزمن ترجع الى صلته بالحياة المتغيرة دوما وبالانسان وقدراته الادراكية المتميزة على وجه الخصوص . فالإنسان سواء في خصوصيته كفرد ، أو عموميته كجماعة ، قادر على تقليص الزمن وتكثيفه وتحويل مساره في لحظات الابداع الكبرى أو الخلق أو العطاء الفذ مثل لحظات التوحد النادرة في حياة الشعوب التى تحدث في فترات الثورات أو الحروب الوطنية ، حيث تتحول اللحظة الزمنية وتصبح مساوية لمدى الدهر وتبدو كأنها تعادل مئات الحقب الزمنية الأخرى .

والواقع أن مسيرة الزمن متصلة لا تعرف الانقطاع غير أن اتصال مسيرة الزمن لا يعنى تكرار أحداثه ، فمن المسلم به أن التاريخ لا يكرر نفسه ولكن التغير المستمر لا يعنى انبتات الحاضر عن الماضى ، أو المستقبل عن الحاضر . فالمستقبل هو الحصيلة التراكمية للأحداث والتغيرات النابعة من المجتمع أو الوافدة عليه .

ويرجع تاريخ الاهتمام بالمستقبل الى البدايات الأولى للتطلع البشرى الى المعرفة الشاملة بالكون واستكناه غوامضه وأسراره وفي مقدمتها الزمن ، وذلك بهدف السيطرة على حركته والتحكم في مساره . ويمكن تبين

ذلك بوضوح في التراث الأسطورى والديني للبشرية حيث توجد الجذور الأولى لعلم المستقبل في صور وأشكال متباينة . وحقيقة الأمر أن إقبال المفكرين والمؤرخين على دراسة التاريخ كان يحمل دوما الرغبة الخفية في محاولة استشفاف المستقبل . ولم ينفرد العلماء أو الفلاسفة والمؤرخون بالعمل على الاقتراب من خفايا المستقبل بهدف الكشف عن إرهاصاتها وتكوين رؤية معينة لهذا المستقبل بل كان للشعراء والأنبياء دور خاص في هذا المضمار ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نشير الى شعراء الملاحم كهوميروس وجلجامش ، ومؤلفى اليوتوبيات كأفلاطون وتوماس مور ، وأنبياء العهد القديم كأرميا وأشعيا وحزقيال .(١)

ويضاف الى ذلك رؤى الأديان للمستقبل كحقيقة حتمية يتحرك إليها (المؤمن) دون أن يملك إمكانية تعديلها أو تحويل مسارها وليس للمؤمن سوى التسليم بها كما أنزلت . ورغم أن الفكر البشرى قد عمد منذ القدم الى دراسة وتأمل البعدين المعروفين للزمن والمقصود بهما الماضى والحاضر ، إلا أن الاهتمام باستطلاع المستقبل لم يغب مطلقا عن ذهن قدماء الفلاسفة والمؤرخين والأنبياء . فظواهر العرافة والكهانة والتنجيم التى تميزت بها الحضارات القديمة في مصر وبابل واليونان والهند تدل على الاهتمام المبكر الذى أولته البشرية منذ أقدم العصور لمحاولة استطلاع المستقبل وفهم مساراته .

إلا أن المستقبل لم يسبق له أن اعتبر (علما) إلا في العصور الحديثة ، وفي بدايات القرن العشرين على وجه التحديد حيث برز الى الوجود شكل جديد من الجهد الانسانى يختلف اختلافا نوعيا عما سبقه من محاولات في مجال البحث عن المستقبل . وعلى الرغم من أن لعلم المستقبل جذورا في تراث العصور السابقة الفكرى والأدبى والعلمى والدينى فإنه أصبح يحمل سمات عامة جديدة تجعله يختلف اختلافات أساسية عن الاستطلاعات السابقة للمستقبل . ومن سمات علم المستقبل اعتماده بصورة أساسية على العقل مقترنا بالخيال والعاطفة والحدس ، ومعنى ذلك أن الأرض الأساسية للتفكير المستقبلى هى أرض الوقائع والمعطيات لا أرض الأوهام والتخيلات . ومن سمات التفكير المستقبلى وعى المشتغلين به وعيا تاما بأهمية الزمن ، فهم يدركون أن لمشكلات اليوم جذورا في الماضى وأن تلك المشكلات لا تنشأ بين يوم وليلة وإنما تتكون تدريجيا وبصورة لا يلحظها غالبا الانسان العادى .(٢)

وهكذا نرى أن المستقبل ليس منبت الصلة بالحاضر أو بالماضى ، ولا يمثل فصلا جديدا في كتاب التاريخ يبدأ من فراغ بل هو حصيلة تراكمية لما يتتابع من الأحداث وعمليات التغير النابعة من داخل المجتمع أو الوافدة عليه من الخارج .

ومادام المستقبل ليس قدرا محتوما فإنه لا يمكن أن يكون في صورة فريدة غيرمتوقعة بل إن أمام كل مجتمع في لحظة معينة من تاريخه احتمالات متعددة للمستقبل ، وعليه أن يحاول الكشف عنها وتبين مساراتها وتحديد معالمها . وإذا كان من الممكن أن تتعدد صور المستقبل أمام أى مجتمع فإن ذلك يرتهن بحدود الحرية التى يحققها هذا المجتمع نفسه في محاولة

(١) انظر : ماجد فخري · تطور فكرة المستقبل في العصور القديمة والحديثة ـ مجلة الفكر العربي ـ العدد العاشر ـ ابريل ١٩٧٩ ـ بيروت . ص ١٠ ـ ١٢ ، ٢١ .

(٢) انظر : محمود زايد : علم المستقبل في وقتنا الحاضر ـ مجلة الفكر العربي ـ العدد العاشر ـ أبريل ١٩٧٩ ـ بيروت . ص ٢٦ ـ ٢٨

رسم صورة مستقبله بنفسه . وحين يقرر المجتمع أهدافا مستقبلية فإن صورة المستقبل لن تكون بالضرورة مطابقة لتلك الأهداف : فالارادة الجماعية على كل المستويات تحد من اطلاقها قيود كثيرة بعضها طبيعي مثل حجم الموارد الطبيعية المتاحة للمجتمع ، وبعضها اجتماعي مثل البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية السائدة في ذلك المجتمع ، وبعض هذه القيود داخلي في الأساس في حين أن البعض الآخر وافد على المجتمع نتيجة علاقاته المتعددة بمجتمعات أخرى . كذلك هناك بعض القيود التى يتعذر تجاوزها في المستقبل المنظور ، والبعض الآخر يمكن من خلال الدراسة التوصل الى امكانية تجاوزه . كذلك يتوقف الأمر على صانع القرار الذى اتخذه باسم المجتمع ، والمصالح التى يمثلها ودرجة وعيه بها ، ونتائج قراره المتشابكة وأثرها في المدى البعيد على الداخل والخارج[٣] . كل هذه الاعتبارات توضح أن الوعى بقضية المستقبل لم يعد من أمور الغيب التى ينفرد بها الكهان مثلما كان يحدث قديما في معبد دلفى باليونان ، بل أصبح المستقبل يدرج في عداد المباحث العلمية القابلة للتنسيق والتعليل اللذين تتصف بهما سائر العلوم لاسيما علم التاريخ الذى ينفرد بدراسة الماضى ويتميز بقواعده ومناهجه وأهدافه الواضحة المحددة ، فلماذا لا يكون لدراسة المستقبل علم له قواعده ومناهجه وأهدافه . . ؟

وقد يكون من الضرورى قبل أن نعرض بشىء من التفصيل لتاريخ علم المستقبل أو الدراسات المستقبلية والأطر النظرية والمنهجية التى تنظم هذه الدراسات ، والمدارس العلمية المعاصرة وموقفها من البحوث المستقبلية ثم النماذج العالمية لهذه البحوث ، يجدر بنا أن نشير الى مجموعة العوامل الموضوعية التى ساعدت على تحقيق هذه النقلة الكيفية في مسيرة الدراسات المستقبلية أو ما يسمى بعلم المستقبل . ويتصدر هذه العوامل جميعها ذلك الرصيد المعرفى الهائل الذى أصبح متوافرا لدى الباحثين وعلى الأخص المعنيين بالدراسات المستقبلية ، وذلك كنتاج طبيعى للثورة الكمية والكيفية التى حدثت في نطاق المعرفة العلمية في القرن العشرين . فلو نظرنا للأمر من الزاوية الكمية المحضة لتبين لنا أن كم المعرفة البشرية يتضاعف في الوقت الراهن خلال فترة تتراوح من ١٠ ـ ١٥ سنة ، وهو ماكان يستغرق في الماضى مئات السنين ، ويتزايد هذا المعدل بصورة مستمرة الى الحد الذى يتوقع أن يبلغ خمس سنوات فحسب عند نهاية القرن العشرين . وقد انعكس ذلك في عدد المجلات العلمية الذى أخذ يتضاعف منذ نهاية القرن التاسع عشر ، كما انعكس أيضا في عدد العلماء الذين يبلغون اليوم ثلاثة أرباع مجموع العلماء الذين عرفتهم البشرية منذ بدء تاريخها[٤] . ثانى هذه العوامل يتعلق بالتغيرات الكيفية الملحوظة التى طرأت على أساليب معالجة المعلومات التى تجسدت في التطور الهائل الذى شهدته صناعة أو تكنولوجيا المعلومات متمثلا في ذلك التلاقى بين تكنولوجيات الحاسبات الألكترونية من ناحية ، والاتصالات من ناحية أخرى ، مما ترتب عليه ازدياد الدور الذى يقوم به الكومبيوتر في مجال البحوث والادارة وتخزين المعلومات مما لم يكن متوافرا من قبل . وهو يتميز ليس بقدرته على انجاز العمليات الحسابية المعقدة التى يعجز عنها الانسان فحسب ، وإنما يتميز فوق ذلك بقدرته على تخزين هذه المعلومات واستعادتها في وقت قصير واستخلاص النتائج المنطقية المعقدة الناتجة عن تفاعل العوامل والمتغيرات المختلفة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو بيئية أو تكنولوجية ، مما يفوق بكثير قدرة الانسان على أدائها وإنجازها بنفس الكفاءة والسرعة .

---

(٣) انظر : إبراهيم سعدالدين وآخرون : صور المستقبل العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية وجامعة الأمم المتحدة ـ بيروت ـ ١٩٨٢ . ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) انظر : فؤاد زكريا : التفكير العلمي ـ سلسلة عالم المعرفة رقم ٣ الكويت ـ مارس ١٩٧٣ ـ ص ١٩٣ ـ ٢٠٠ .

أما العامل الثالث : فهو يتعلق ببروز علم رياضى جديد هو علم تحليل النظم ، وهو فرع من فروع الرياضيات ظهرت بداياته الأولى خلال الحرب العالمية الثانية ، وإن كان قد أحرز تقدما ملموسا خصوصا بعد استخدام الكومبيوتر الذى أسهم في تطور هذا العلم ، وشجع على استخدامه في مجال العلوم الاجتماعية وخصوصا فروع الاقتصاد والسياسة والادارة . وقد أسهم ذلك في دفع الدراسات المستقبلية خطوات كبيرة الى الأمام خصوصا على المستوى النظرى والمنهجى . ففى حين اعتمد الباحثون في الماضى على نظريات كنظرية التطور والدورات التاريخية في معالجاتهم لقضايا المستقبل ، مما أسفر عن الخروج بتعميمات شبه فضفاضة يعوزها الرصد العلمى الدقيق للجزئيات ، فإن هذا التطور النوعى الذى طرأ على البنيان النظرى والمنهجى للمعرفة العلمية متمثلا في ظهور علم تحليل النظم ، قد أتاح للعلماء والدارسين في مجال المستقبليات إمكانية الاستفادة الكاملة بكل ما يتيحه هذا العلم من الاستعانة بأحدث أساليب التحليل الاحصائى للجزئيات في إطار تكاملى مترابط(٥) .



البدايات والتطور :

تختلف الآراء حول تحديد البداية العلمية للدراسات المستقبلية . إذ يرى البعض أنها ترجع الى نهاية القرن الخامس عشر الذى شهد ظهور كتاب توماس مور المعروف باسم اليوتوبيا الذى يطرح فيه تصورا مستقبليا للمجتمع المثالى الذى يخلو من كافة أشكال الاضطهاد والظلم والأنانية . ثم تلاه في نهاية القرن السادس عشر حتى الربع الأول من القرن السابع عشر كتاب الفيلسوف الانجليزى الشهير فرانسيس بيكون المعروف باسم (أطلنطا الجديدة) وهو يطرح رؤية مستقبلية للعالم من خلال تصوره لمجتمع جديد يعتمد على العلم كوسيلة أساسية لتغيير العالم والسيطرة على الطبيعة وتحقيق مستويات حياتية أفضل للبشرية .(٦)

هذا ، بينما يعزو البعض الآخر أول محاولة لاستطلاع مستقبل الجنس البشرى على أسس علمية الى القرن التاسع عشر الذى شهد النبوءة الذائعة الصيت الخاصة بالسكان للاقتصادى الانجليزى توماس مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٤٣) ، الذى عرض في دراسته الشهيرة عن (نمو السكان) رؤية مستقبلية تتسم بالتشاؤم لحل التناقض الاجتماعى الناتج عن الثورة الصناعية ، الذى تمثل في تزايد أعداد الفقراء وتصاعد احتمالات الصراع الطبقى في ظل سيطرة الطبقة الرأسمالية في المجتمع البريطانى آنذاك . وتوقع مالتوس أن يتم التغلب على هذا التنافس من خلال الأوبئة والمجاعات والحروب التى تتولى تصفية الفقراء ، وايقاف تزايدهم الذى يهدد مصالح الفئات التى تتحكم في مصادر الانتاج والثروة والنفوذ السياسى . ولكن لم تتحقق توقعات مالتوس وتم حل هذا التناقض عن طريق آخر هو الاستعمار ، إذ بدأت

(٥) انظر : عبدالعظيم أنيس : مستقبل البشرية والنماذج العالمية ـ مجلة الهلال عدد يناير ١٩٨٥ ـ القاهرة ـ ص ٣٢ ـ ٣٥

(٦) لمزيد من التفاصيل انظر :

E. Cornish: The Study of the Future. Washington D.C. 1977 PP. 58-59

نقلا عن ماجد فخري ـ مصدر سابق ق ١٧ .

بريطانيا تتوسع في انتزاع مناطق شاسعة من قارتى آسيا وأفريقيا . وقد ترتب على استغلال الموارد الطبيعية والبشرية لهذه المستعمرات تحسنا ملحوظا في أحوال الطبقة العاملة خصوصا فقراءها في بريطانيا ، مما ساعد على حل الصراع بصورة سلمية على حساب شعوب المستعمرات في العالم الثالث . والواقع أن مالتوس قد طرح توقعاته التى لم تتحقق في حدود ما أتيح له من معلومات في إطار عصره .

ومن أبرز إضافات القرن التاسع عشر لعلم المستقبل ظهور الروائى جول فيرن (١٨٢٨ ـ ١٩٠٣) الذى استطاع في كثير من أعماله الروائية أن ينفذ ببصيرة حادة الى مجاهل المستقبل ، ويطرح العديد من التوقعات المثيرة للعقل والوجدان التى تضمنتها مؤلفاته وأشهرها (حول العالم في ثمانين يوما) ، (عشرون فرسخا تحت سطح الماء)[٧] .

وهناك إجماع بين مؤرخى علم المستقبل على أن الكاتب البريطانى هـ . ج . ويلز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦) قد قدم إضافات بارزة في تأصيل الاهتمام العلمى بالدراسات المستقبلية ، وذلك من خلال العديد من دراساته ذات الطابع المستقبلى مثل التوقعات (١٩٠١) ، واليوتوبيا الجديدة (١٩٠٥) ، وشكل الأشياء المستقبلية (١٩٣٣) ، وجميعها تدور حول استكشاف حياة وهموم الأجيال المقبلة . ويجىء هـ . ج . ويلز واسهاماته السابقة تكتمل سلسلة المفكرين والعلماء البريطانيين المستقبليين الذين أولوا اهتماما مبكرا للدراسات المستقبلية منذ نهاية القرن السادس عشر على يد الفيلسوف والعالم فرنسيس بيكون ، ثم الاقتصادى توماس مالتوس في بداية القرن التاسع عشر ، وأخيرا هـ . ج . ويلز الذى جسد روح التشاؤم التى طغت على أوربا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وتصاعدت بفعل الأزمات الاقتصادية والسياسية خلال العشرينيات والثلاثينيات ، وانتهت بالحرب العالمية الثانية ، مما كان له أسوأ الأثر على رؤية هـ . ج . ويلز لمستقبل البشرية ، وقد انعكس ذلك في كتابيه : (مختصر التاريخ) و (معالم تاريخ الانسانية) إذ أعرب عن قناعته بأن البشرية قد خسرت السباق بين الكارثة والتعليم ، فقد ربحت الكارثة السباق بصورة نهائية .[٨]

وبقدر ما أسهمت المحاولات السابقة في تشكيل الرصيد المعرفى للدراسات المستقبلية في إطار يتميز بالطابع العلمى ، فإن الدراسات المستقبلية لم تكتسب معناها الاصطلاحى علميا إلا في أوائل القرن العشرين على يد عالم الاجتماع س . كولم جيلفان الذى اقترح عام ١٩٠٧ اطلاق اسم (ميلونتولوجى) على حقل الدراسات المستقبلية ، وهى كلمة ذات أصل يونانى معناها أحداث المستقبل لكنها لم تحظ بالانتشار أو القبول في الأوساط العلمية ، ولذلك طواها النسيان . إلا أن المؤلف الألمانى أوسيب فلنختهايم (وهو من أصل روسى وقد تعرض للاعتقال والتعذيب على يَدَىْ النازى عام ١٩٣٥ ، ثم تمكن من الهجرة الى الولايات المتحدة) قد توصل الى اصطلاح بديل (Futurology) وهو الاسم الشائع لهذا المجال باللغة الانجليزية . أما الاصطلاح الفرنسى لعلم المستقبل فهو (Prospective) الذى ابتكره جاستون برجيه عالم المستقبليات الفرنسى . وقد شهدت الأربعينيات إقبالا ملحوظا على الدراسات المستقبلية خصوصا في الدول الصناعية المتقدمة . وقد تمثل هذا الاقبال في ازدياد عدد العلماء المشتغلين بالدراسات المستقبلية من

---

(٧) انظر : قسطنطين زريق نحن والمستقبل ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ . ص ٦٧ ـ ٨١

(٨) انظر E. Cornish: OP. Cit., PP 69-71.

جانب ، وفي إنشاء العديد من مراكز البحوث المستقبلية ثم في صدور الكثير من المؤلفات المنتمية الى هذا الميدان من جانب آخر . ومن أبرز هذه المؤلفات كتاب هيرمان كاهان (عام ٢٠٠٠) ، وكتاب شارلز داروين (المليون سنة التالية) ، وكتاب جورج سول (صورة الغد) .[٩]

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات المستقبلية بدأت تحظى بالاهتمام والانتشار وتتجه بعيدا عن الجزئية في تصورها للمستقبل مع بدء الستينيات ، حيث شهدت هذه الحقبة ظهور العديد من الدراسات المستقبلية في الدول الغربية ـ كما أبدت أجهزة التخطيط في الدول الاشتراكية اهتماما ملحوظا بهذه الدراسات من خلال الحرص على توفير قاعدة أعرض للمعلومات وخلفية أطول في النشاط التخطيطى .

وقد توالت بعد ذلك موجات متتابعة من الأعمال المتخصصة في ميدان الدراسات المستقبلية ، وظهرت أجيال جديدة في مختلف التخصصات مثل التعليم والمواصلات والطاقة الى جانب المتخصصين في الدراسات المستقبلية المتصلة بالاستراتيجية العسكرية .

وشهدت هذه الفترة ظهور سلسلة الفين توفلو عن المستقبليات التى بدأت بكتاب (صدمة المستقبل) ، (فالتعليم من أجل المستقبل) ، وأعقبها (الرجال المستقبليون) ثم (الوجه الثالث)[١٠] .

ومع مرور الوقت أصبح استشراف المستقبل همّا يشغل بال المنظمات الدولية والمعاهد العلمية والشركات المتعددة الجنسية علاوة على الحكومات منفردة أو بصورة جماعية . وقد تميزت الدراسات المستقبلية خلال حقبتى الستينيات والسبعينيات بثلاث سمات رئيسية :

أولها : الاعتماد على الجهد الجماعى وما يسمى بفرق البحث المتكاملة التى تستند الى تمويل حكومى أو دولى أو مؤسسات رأسمالية محلية أو عابرة القومية .

ثانيا : عالمية هذه الدراسات وظهور ما يسمى بالنماذج العالمية في بحوث المستقبل . وقد تولى العالمان الأمريكيان فورستر وميدوز مهمة بناء أول نموذج عالمى في هذا الصدد ثم نشرا تقريرهما النهائى عام ١٩٧٢ تحت عنوان (حدود النمو) ، وقد تم ذلك في إطار النشاط الذى يقوم به نادى روما في حقل الدراسات المستقبلية .

ومما تجدر الاشارة اليه أن نشاط النماذج الدولية قد ازداد كثافة في تلك الفترة عقب ظهور العديد من الأعمال الفكرية من العالم الثالث حول التنمية البديلة ، وضرورة الاعتماد على الذات بالنسبة للدول النامية ، وبروز تكتلات دولية جديدة للدول النامية مثل مجموعة السبعة والسبعين التى بدأت تطرح مطالب شعوب العالم الثالث في ضرورة تعديل الخلل القائم في العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب ، وهنا نلحظ أن هدف المشرفين على هذه النماذج العالمية لم

---

(٩) انظر : هاني عبدالمنعم خلاف : المستقبلية والمجتمع المصري ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٢٤ ـ القاهرة ـ أبريل ١٩٨٦ ـ ص ١٠ ـ ١٢ .

(١٠) انظر : هاني خلاف : مصدر سابق ـ ص ١٢ ـ ١٣ .

يعد مقصورا على مجرد التأثير في الرأى العام بل تجاوز ذلك الى العمل على صياغة سياسات المستقبل على المستوى العالمى من خلال تقديم نماذج اتساق كلية للعالم وظواهره الاقتصادية والاجتماعية .

كما ظهرت بعض الدراسات المستقبلية في المجال الاستراتيجي واتخذت طابعا عالميا رغم صدورها من هيئات محلية مثال بعض الدراسات الأمريكية عن (مستقبل الطاقة في العالم العربى) ، والدراسات الاسرائيلية عن (مستقبل اقتصاديات الشرق الأوسط) ، ودراسات فرنسية عن (مستقبل الذاتية الثقافية في العالم المعاصر)(١١) .

ثالثا : الاهتمام بتأصيل الأسس المنهجية للدراسات المستقبلية من خلال توظيف التراث المنهجى للمعرفة العلمية في شتى ميادينها الطبيعية والانسانية والاجتماعية والرياضية ، والاستعانة بالمنهج التكاملى والأدوات البحثية التى تكفل أكبر قدر من الموضوعية والدقة في تحديد أطر ومستويات التحليل في البحوث المستقبلية ، وقد شهدت السبعينيات بالتحديد طفرة في هذا المجال تمثلت في عقد العديد من المؤتمرات الدولية ، كما برزت في الاهتمام بإقامة العديد من المراكز والهيئات العلمية المتخصصة في الدراسات المستقبلية ، مثال : الاتحاد الدولى للدراسات المستقبلية في روما ، ومعهد علوم المستقبل (نيويورك) ، والجمعية العالمية لدراسة المستقبل (واشنطن) ، ومركز الدراسات المستقبلية (باريس) .

وقد بلغ عدد المؤسسات المهتمة بالدراسات المستقبلية في الولايات المتحدة فقط ستمائة مؤسسة في عام ١٩٦٧ ، كما انفردت السويد في عام ١٩٧٣ بإنشاء وزارة للمستقبل تابعة لرئاسة الوزراء . كذلك بدأت الدراسات المستقبلية تقتحم المناهج الدراسية المتخصصة في المدارس والجامعات إذ أصبحت تدرس في العديد من المعاهد والمدارس الأمريكية*

الإطار النظرى والمنهجى للدراسات المستقبلية

إشكالية المفاهيم والمصطلحات :

تتباين المفاهيم والمسميات التى ترتبط بالدراسات المستقبلية ، ويرجع ذلك في الأساس الى طبيعة علم المستقبل الذى ينتمى الى دائرة العلوم الاجتماعية حيث يندر الاتفاق على المفاهيم والمصطلحات . فمن الملاحظ أن أوسيب فلتخهايم يميل الى اعتبار علم المستقبل فرعا من علم الاجتماع ، وشبيها بعلم الاجتماع التاريخى ، وذلك رغم الاختلاف الأساسى بينهما الذى يتمثل في تركيز علم الاجتماع التاريخى على أحداث الماضى ، في حين أن علم المستقبل يستشرف أحداث الزمن الآتى مستهدفا تحديد مدى احتمال وقوعها(١٢) .

---

(١١) E. Corinsh: OP. Cit. PP 44-46.

* أشار الأستاذ هاني خلاف في كتابه (المستقبلية والمجتمع المصري) إلى أن الدراسات المستقبلية تشكل حاليا حوالي ٤١٥ مقررا دراسيا موزعا على ثماني عشرة ولاية أمريكية . ص ١٣ .

(١٢) محمود زايد : مصدر سابق . ص ٢٦ .

وبهذا يتحدد موقع علم المستقبل خارج دائرة العلوم البحتة كالرياضيات التى ينتظر منها أن توصلنا الى نتائج يقينية . فهو في الواقع علم يتناول الأحداث التى لم تقع بعد ، ويشير الى الفترات الزمنية التى لم تحل بعد ، وعندما تحل سوف تصبح حاضرا ، ولذلك يختلف علم المستقبل اختلافا جذريا عن علم التاريخ الذى يترك لنا شواهد عليه ، أما المستقبل فهو لا يوجد إلا في الذهن والخيال والخطط التى ترسمها له ، وإن كان هناك إرهاصات له فهى غير مؤكدة

ومع تعقد مجمل النسق السياسى الاجتماعى الاقتصادى وزيادة عدم اليقين المستقبلى ، تبرز مجموعة من الاختلافات تتعلق بالمصطلحات والمفاهيم التى يدور حولها علم المستقبل مثل التخطيط طويل المدى - النبؤات - الاسقاط - الاستشراف . فالمقصود بالتخطيط هو التدخل الواعى لاعادة صياغة الهياكل الاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة من السياسات المتكاملة والمتاحة لسلطة مركزية تملك امكانيات التطبيق الفعلى من متابعة وادارة وتنفيذ . ولذلك فإن التخطيط طويل المدى لا يوجد إلا في النظم أو الدول الاشتراكية التى تمارس قدرا من الاشراف المركزى على الحياة الاقتصادية ، يسمح لها برسم السياسات والبرامج ذات التخطيط الطويل أو المتوسط المدى(١٣) .

أما النبوءات فهى تستند الى الفكرة القائلة بأن المستقبل أمر محدد مسبقا والمطلوب هو الكشف عنه فقط ، وهنا نلحظ أن النبوءات أقرب الى مجال الممارسات الفردية منها الى مجال التجمعات البشرية الكبرى مثل الدولة أو مجموعة الدول . ويفضل البعض استخدام مفهوم التنبؤ للاشارة الى المحاولات الأكثر واقعية والتى تهتم برسم صورة تفصيلية للمستقبل مع عدم إغفال التشابكات المختلفة وردود الأفعال داخل النسق الكلى الذى يخضع للدراسة المستقبلية(١٤) .

وبالنسبة لمفهوم الاسقاط Projection فهو يستخدم للاشارة الى الدراسات التى تركز على المدى الزمنى القصير لاستخلاص الاتجاهات العامة والعلاقات الكمية المستقاة من متابعة ماضى الظاهرة المدروسة .

أما استشراف المستقبل فهو يعنى أنه اجتهاد علمى منظم يرمى الى صوغ مجموعة من (التنبؤات المشروطة) التى تشمل المعالم الرئيسية لمجتمع ما أو مجموعة من المجتمعات وعبر فترة زمنية لا تزيد عن عشرين عاما . واستشراف أبعاد المستقبل أمر لا علاقة له بالرجم أو التكهن فهو يعتمد على أساليب الاستشراف العلمى التى تقوم على فهم للماضى والحاضر والعوامل المختلفة التى أدت إليها . ولذلك فإن الاستشراف العلمى لأبعاد المستقبل يتوقف على كم ونوع المعرفة العلمية المتوافرة عن الواقع .

وفي ضوء المعلومات المتاحة يمكن استكشاف نوعية وحجم التغيرات الأساسية المحتمل أو الواجب حدوثها في مجتمع ما كى يتشكل مستقبله بصورة معينة(١٥) ومن المصطلحات الشائعة اصطلاح Futurology الذى انتشر في الدول الغربية وفي معظم الكتابات المستقبلية في العالم الثالث . وقد ارتبط تاريخيا بالتبشير بمستقبل التكنولوجيا وتأثيرها الحاسم

---

(١٣) انظر · إبراهيم سعدالدين وآخرون · صور المستقبل العربي - مصدر سابق - ص ٢٢

(١٤) انظر : المصدرالسابق - ص ٢٣

(١٥) انظر . نادر الفرجاني : حول استشراف المستقبل العربي - رؤية نقدية للجهود المحلية والخارجية المستقبل العربي - بيروت - مايو ١٩٨٠ - ص ٦٨ .

في تحديد صورة المستقبل بالنسبة للعالم ككل . وهو يعنى التبشير الجزئى ببعض جوانب المستقبل . أما اصطلاح Prognosis ، فقد ذاع استخدامه في الدول الاشتراكية التى تعتمد على التخطيط المركزى المقصود به توفير خلفية عريضة للمعلومات المستقبلية اللازمة للتخطيط الطويل المدى[١٦] .

إشكالية المنهج في الدراسات المستقبلية

من الملاحظ ان الاهتمام الواسع الذى حظيت به الدراسات المستقبلية في السنوات الأخيرة لم يواكبه اهتمام مماثل على المستوى المنهجى والنظرى ، إذ لم يحصل هذا الجانب إلا على قدر ضئيل من اهتمام الباحثين والعلماء قياسا الى الجهد والاهتمام الذى حظيت به الدراسات المستقبلية ذاتها . وقد يرجع ذلك الى ان الدراسات المستقبلية لم تزل بعد مسعى علميا حديث العهد ، فلم تستكمل بعد أطرها النظرية والمنهجية ، كذلك لم تزل منهجيتها وأدواتها البحثية موضع جدل وخلاف بين شتى المدارس والتيارات العلمية وخصوصا في إطار العلوم الاجتماعية . غير أن غياب أو ندرة هذا النوع من الدراسات لمناهج استشراف المستقبل لا يعنى استحالة رصد أبرز السمات التى تميزت بها المعالجات المنهجية للقضايا المستقبلية سواء تلك التى اتسمت بالطابع الجزئى أو التى اتخذت سمة النماذج الكلية ، والواقع أن اختلاف المعالجات المنهجية للبحوث المستقبلية قد حكمته مجموعة من المحددات والعوامل نوجزها على النحو التالى :

١ ـ مجال الدراسة المستقبلية .
٢ ـ التراكم المعرفى في مجال التخصص أو الفرع الذى أخضع للدراسة .
٣ ـ البعد الزمنى للدراسة .
٤ ـ الاطار النظرى للدراسة .
٥ ـ الانتماء القومى والأيديولوجى للباحث .

أولا : مجال الدراسة المستقبلية :

تبرز الشروط التى تتوافر في الدراسات المستقبلية على النحو التالى :
أ ـ مضمون محدد .
ب ـ منهج واضح المعالم .
جـ ـ قوانين واحكام كلية قادرة على تفسير جزئيات الظاهرة المدروسة .

وفيما يتعلق بالمضمون أو ما يمكن ان نطلق عليه مجالات الدراسة ، فمن الملاحظ أن الدراسات المستقبلية تركز على دراسة الواقع الراهن وكيفية نشوئه وتطوره التاريخى ، وتركز بصفة خاصة على دراسة البنى والأنساق الفرعية والعلاقات

(١٦) انظر : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٢٤ .

والعمليات التى يتم خلالها التغير والتطور في إطار النسق الكلى للمجتمع . وإذا كان تاريخ الدراسات المستقبلية يدلنا على أن الظواهر الطبيعية كانت تمثل المجال الشائع والميسور لهذه الدراسات بحكم ما تتسم به هذه الظواهر من ثبات نسبى في اطراد علاقاتها الداخلية ، ووضوح القوانين العامة التى تتحكم في حركتها وصيرورتها . غير ان الظواهر الانسانية والاجتماعية قد شغلت ولم تزل تشغل الجانب الأهم في الدراسات المستقبلية . وهنا تبرز قضايا السكان والموارد البشرية والموارد الاقتصادية وقضايا الانتاج والتنمية وتطوير المجتمع والتقدم التكنولوجى كاهتمامات أساسية على خريطة الدراسات المستقبلية . وفي داخل هذا الاطار ينصب الاهتمام بصورة أكثر بروزا على الجوانب الاقتصادية ثم التكنولوجية بينما لا تحظى الجوانب الثقافية والاجتماعية مثل الصحة والتعليم والقانون والاعلام والفن والقيم إلا باهتمام ثانوى . ونظرا لما تتسم به الظواهر الاجتماعية من تعقد وتشابك مما يستلزم لدراستها استخدام مناهج وأدوات بحثية تتميز بالتداخل والتركيب فضلا عن ضرورة توافر قاعدة عريضة من المعلومات المتطورة . لذلك يمكن القول بأن مجالات الدراسة في كل من علم النفس والاجتماع والسياسة والاعلام وسائر الميادين الثقافية والأيديولوجية لم تنل بعد ما تستحقه من جهود الباحثين المستقبليين ، وإن كانت النظرة الكلية التى يتبناها الكثير من هؤلاء الباحثين قد ألزمتهم بضرورة التناول الشامل للقضايا الجزئية التى يتم إخضاعها للدراسة المستقبلية . هذا وترتبط القدرة على تصور بدائل المستقبل بمدى فهم هؤلاء الباحثين للنسق الاجتماعى ـ الاقتصادى الحضارى بمكوناته الرئيسية من بنى وأنساق فرعية وعلاقات ، ومعرفة الكيفية التى تتفاعل بها الأحداث في إطار النسق الكلى[١٧] ، هذا ، وقد لوحظ أن معظم الدراسات المستقبلية تنحصر في محاولة فهم واستكشاف الظروف المحيطة بالانسان بهدف السيطرة عليها وتوجيهها لصالحه ، ولا تعنى كثيرا بدراسة طبائعه وسلوكياته أو أفكاره وقيمه .

ثانيا : التراكم المعرفى في مجال التخصص :

إذا كان الحاضر قد انبثق من الماضى فإن المستقبل يتحدد بصورة أو بأخرى بالواقع الراهن وينبعث منه . كذلك تتحدد الاختيارات المتاحة للانسان طبقا للظروف الموضوعية التى تحيط به ، والتى يتكون منها المجتمع ورصيد المعرفة العلمية المتوافرة عن القوانين التى تتحكم في الظواهر الانسانية والاجتماعية تاريخيا وآنيا ، والكيفية التى تعمل بها وإمكان توظيفها لخدمة الانسان . ولا شك أن كافة هذه العوامل عرضة للتغير والتطور سواء تم ذلك بصورة تدريجية أو اتخذ شكلا جذريا أو ثوريا . ومن هنا فإن الدراسات المستقبلية التى تتم على أساس مستوى المعارف المتاحة لابد أن تكون هى نفسها عرضة دائمة للتغير في ضوء ما يتراكم لدينا من معرفة بالواقع . وعلى ذلك فإن هذه الدراسات لا بد من أن تصبح عملية مستمرة تستفيد من هذا التراكم المعرفى كى تطرح رؤى مستقبلية جديدة في ضوء ما يستجد من أحداث واتجاهات . ويقدر أهمية توافر هذا الشرط بالنسبة للدراسات المستقبلية ونعنى به شرط التراكم المعرفى في مجال الظاهرة أو الظواهر التى يتم إخضاعها للدراسة ، فإن هذا التراكم يجب أن يشمل الاتجاهين الرأسى والأفقى ، والمقصود به اتجاه التعمق في بحث الظواهر نفسها واتجاه التوسع والامتداد الى بحث ظواهر جديدة . ويتفاوت التراكم

(١٧) انظر : إبراهيم سعدالدين وآخرون : صور المستقبل العربى ـ مصدر سابق ـ ص ١٧٨ ، ناهد صالح : المنهج في البحوث المستقبلية ـ مجلة عالم الفكر ـ مارس ١٩٨٤ ـ الكويت ـ ص ٢٠٣ .

المعرفى من ظواهر الى اخرى . ذلك أن العلم قد بدأ بنطاق محدود من الظواهر هى وحدها التى كان يعتقد أنها خاضعة لقواعد البحث العلمى ، على حين أن ميادين كثيرة كانت تعد أعقد أو أقدس من أن يتناولها العلم مثال علم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الاعلام(١٨) . وقد ترتب على ذلك وجود قدر ملحوظ من التباين في التراكم المعرفى المتوافر لدى كل فرع من هذه الفروع قياسا الى سائر فروع المعرفة العلمية مثل الاقتصاد والعلوم العسكرية والتكنولوجيا .. الخ . ولا شك أن لهذا التباين في نوع وكم التراكم المعرفى في المجالات السالفة الذكر آثاره الحاسمة في تحديد اتجاه الدراسات المستبقلية وحدودها وآفاقها علاوة على مناهجها وأساليبها البحثية .

ثالثا : البعد الزمنى للدراسة المستقبلية :

لعل أبرز ما يميز الدراسات المستقبلية وعى المشتغلين بها وعيا تاما بأهمية البعد الزمنى للظواهر التى يتصدون لدراستها ، فهم يدركون أنها لم تتشكل دفعة واحدة بل مرت بمراحل عديدة من النشأة فالتطور ثم النضج والاكتمال ، وأنه مهما كانت الصورة الآنية التى تبدو بها هذه الظواهر فلابد أنها تنتمى الى جذور ماضية . وإذا كان تحديد العمر الزمنى للظاهرة المدروسة يعد من الشروط الجوهرية لأى دراسة علمية تتناول تاريخ الظاهرة أو أوضاعها الحالية ، فإن هذا الشرط بالنسبة للدراسات المستقبلية يعد شرطا مشددا حيث ينظر الى عنصر الزمن كبعد قائم بذاته . فالدراسات المستقبلية سواء كانت استكشافية أو معيارية أو مختلطة تحرص على تحديد مدى زمنى لتنبؤاتها(١٩) .

ومن أبرز السمات المنهجية التى تتميز بها الدراسات المستقبلية تعدد الآماد الزمنية موضع الرصد واختلاف المعالجات الخاصة بما يسمى المستقبل القريب عن تلك المعالجات الخاصة بما يفيد مستقبلا متوسطا أو بعيدا . ويختلف المدى الزمنى لمراحل المستقبل طبقا لاختلاف الظواهر وتباينها سواء كانت ظواهر طبيعية أو انسانية أو اجتماعية . فما قد يعتبر مستقبلا منظورا بالنسبة لحالة المناخ أو الصحة لا يعتبر كذلك بالنسبة للتعليم أو القيم أو الفن . ويؤثر المدى الزمنى للتنبؤ بمستقبل الظاهرة المدروسة على الاطار المنهجى والاجرائى للدراسة المستقبلية .

وتتفاوت تصنيفات المدى الزمنى للدراسات المستقبلية من مدرسة الى أخرى ، وإن كان هناك شبه اتفاق بين أغلب الباحثين في هذا الميدان على عدم الاكتراث بما سوف يجرى في المستقبل غير المنظور أى الذى يمتد أبعد من خمسين عاما أو أكثر .

ويعد (تصنيف مينسوتا) الذى قام بوضعه مجموعة العلماء المنتمين لجمعية المستقبليات الدولية بولاية مينسوتا الأمريكية من أشهر التصنيفات التى تهتدى بها مختلف المدارس في الدراسات المستقبلية سواء هؤلاء الذين ينحون منحى استطلاعيا أو أولئك الذين يلتزمون بالنمط الاستهدافى أو المعيارى أو الذين يمزجون بين النمطين(٢٠) .

---

(١٨) انظر : فؤاد زكريا : التفكير العلمي - مصدر سابق - ص ١٧ - ٢٦ .

(١٩) انظر : ناهد صالح : المنهج في البحوث المستقبلية - مصدر سابق - ص ٢٠٨ .

(٢٠) انظر : E. Cornish: The study of future. Op. cit PP 88-90.

قسطنطين زريق : نحن والمستقبل - مصدر سابق - ص ٤٠ - ٤٣ .

وتتحدد ملامح تصنيف مينسوتا في ضوء تقسيم المستقبل الى خمس فترات يمكن تفصيلها على النحو التالى :[٢١]

١ ـ المستقبل المباشر ويمتد من عام الى عامين منذ اللحظة الراهنة .

٢ ـ المستقبل القريب ويمتد من عام الى خمسة أعوام .

٣ ـ المستقبل المتوسط ويمتد من خمسة أعوام الى عشرين عاما .

٤ ـ المستقبل البعيد ويمتد من عشرين عاما من الآن الى خمسين عاما .

٥ ـ المستقبل غير المنظور ويمتد من الآن الى ما بعد خمسين عاما أو أكثر .

رابعا : الاطار النظرى للدراسة :

يحتم العرف البحثى ضرورة التزام الباحث بتوضيح الاطار المنهجى والاجرائى سواء من ناحية المناهج المستخدمة أو أساليب جمع البيانات وتحليلها وسائر الخطوات التى اتبعها الباحث من أجل التوصل الى تحديد الصورة المستقبلية للظاهرة المدروسة . وهذا يستلزم في نظر الكثير من علماء المناهج أن يبدأ الباحث بتحديد الاطار النظرى للدراسة المستقبلية موضحا شتى المتغيرات التى سيقوم بالتركيز عليها ، فقد يكون التركيز على الأبعاد الدينامية للظاهرة التى يفيد فيها التحليل الكيفى كما يتطلب ذلك اطار المادية التاريخية ، وقد يكون التركيز على الأبعاد الكمية القابلة للعزل والتجزئة اذا كانت الدراسة تتم في ضوء البنائية الوظيفية التى تهتم بالثبات والتوازن[٢٢] .

كذلك على الباحث أن يضع في اعتباره المتغيرات العشوائية أو ما يسمى العوامل غير المنظورة آنيا ، هذا بجانب اهتمامه بالمتغيرات المحددة . وكلما اتضحت ملامح الاطار النظرى للدراسة المستقبلية ساعد ذلك على استيعاب قدرا أكبر من المتغيرات ذات الطبيعة الاحتمالية أو غير المنظورة آنيا ، كذلك لا بد أن يتضمن الاطار النظرى للدراسة المستقبلية تمييزا واضحا بين المتغيرات العضوية التى تتشكل منها بنية الظاهرة ذاتها ، والتى تتعرض لشتى أشكال التفاعل بحكم خضوعها لقانون الصيرورة والتغير ، وبين المتغيرات الأخرى المصنوعة بفعل إرادة خارجية أى خارج الظاهرة ، أى بفعل خطط مرسومة أو سياسات منهجية[٢٣] .

خامسا : الانتماء القومى والأيديولوجى للباحث :

بقدر تعدد وتنوع الفروع العلمية التى تعتبر أرضا مشتركة للدراسات المستقبلية ، فإن هناك تنوعا مماثلا في اتجاهات الباحثين المستقبليين وانتماءاتهم القومية والأيديولوجية ، مما يلقى بظلاله وانعكاساته على الدراسات المستقبلية بصورة مباشرة .

(٢١) انظر التفاصيل : Earle Joseph: The trends of future. Minnesuota. Feb. 1976. PP 25-30.

(٢٢) انظر : محمد عارف عثمان المنهج في علم الاجتماع جـ ١ ـ دار الثقافة ـ القاهرة ١٩٧٧ .

(٢٣) انظر : هاني خلاف . المستقبلية والمجتمع المصري ـ مصدر سابق ـ ص ٢٢ ، ٣٣

ولا شك ان الانتهاء الأيديولوجى للباحث في إطار التخصص الواحد أو انتماؤه الى دولة متقدمة صناعيا أو دولة نامية يلعب دورا لا يمكن إغفاله في تحديد مدخله في الدراسة المستقبلية التى يقوم بإجرائها ـ وقد سبق أن رأينا ان الاختلافات الأيديولوجية والانتماءات القومية لكل من الباحثين الفرنسيين والأمريكيين والسوفيت قد أسهمت في تشكيل الملامح العامة والفروق الجذرية بين كل من المدرسة الفرنسية والأمريكية والسوفيتية في مجال الدراسات المستقبلية . وقد برز هذا الاختلاف في كافة الجوانب بدءا بالأولويات ومجالات الدراسة والمناهج والأساليب البحثية وأنماط البحوث المستقبلية التى تميزت بها كل مدرسة على حدة . فإذا كانت المدرسة الفرنسية قد اهتمت بالتركيز على القضايا الفكرية والأيديولوجية وسائر المسائل ذات الطابع النظرى ، فإن المدرسة الأمريكية قد ركزت على المسائل العسكرية وقضايا التكنولوجيا والاقتصاد ، بينما اهتمت المدرسة السوفيتية بأمور التخطيط على المدى الطويل والمتوسط في مختلف القضايا المجتمعية (الاقتصاد ـ التعليم ـ الصحة ـ الدفاع ـ الثقافة . . الخ) ، ومن ثم فقد تبنت النمط المعيارى أو الاستهدافى في الدراسات المستقبلية .

ويلاحظ أنه رغم ما يردده جمهرة العلماء والباحثين في شتى فروع المعرفة العلمية من أن العلم لا وطن له ، إلا أن الانتماء القومى والتوجه الأيديولوجى لهؤلاء الباحثين يفرض نفسه منذ اللحظة الأولى على كافة الدراسات والبحوث التى تجرى في شتى المجالات المعرفية وخصوصا ميادين العلوم الاجتماعية والانسانية ، ويبرز هذا الطابع (القومى والأيديولوجى) على وجه الخصوص في مجال الدراسات المستقبلية حيث يؤثر على مجمل الخطوات المنهجية والاجرائية للدراسة فضلا عن تأثيره في تحديد الأولويات البحثية طبقا للأهداف المنشودة أو المتوقعة من الدراسة المستقبلية ذاتها[٢٤] .

أنماط الدراسات المستقبلية :

تسهم العوامل السابقة (مجال الدراسة المستقبلية والتراكم المعرفى في مجال التخصص والاطار النظرى للدراسة والفترة الزمنية التى يشملها التنبؤ والانتماء القومى الأيديولوجى للباحث) في تحديد نمط الدراسة المستقبلية التى يقوم الباحث بإجرائها . ويمكننا أن نميز بين أربعة أنماط رئيسية في الدراسات المستقبلية نوجزها على النحو التالى :

النمط الأول : هو النمط الحدسى « Intuitive »

ويستند هذا النمط الى الخبرة الذاتية في الأساس . ويرى البعض أن هذا النمط من الدراسات المستقبلية ينتمى الى العمل الفنى أكثر منه الى العمل العلمى ، حيث يفتقر الى القاعدة الموضوعية من البيانات والملاحظات التى يمكن بالاعتماد عليها تقويم التنبؤات التى يتوصل اليها الباحث تقويما علميا . ولذلك توصف هذه الدراسات بالذاتية ، فهى عادة تنبثق عن رؤية حدسية تعكس ذاتية الفرد وخبراته الخاصة . ويقوم هذا النمط على محاولة التعرف الى التفاعلات

(٢٤) انظر : فؤاد زكريا : التفكير العلمي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٢٧ ـ ٣٣٠ .

والتشابكات التى تؤدى الى صورة معينة يتوقعها سلفا الباحث دون أن يدعى إثباتها . وهنا تبرز أهمية العوامل الذاتية ، فالحدس ليس إلهاما ولكنه تقدير يراه بعض الناس الذين يُشْغَلون بهموم مجتمعهم ، ويسلمون علميا ببعض الأفكار والنظريات التى يمكن أن تلخص أو تعبر عن مصالح محددة(٢٥) .

النمط الثانى : هو النمط الاستطلاعى Exploratory

ويهدف هذا النمط الى استكشاف صورة المستقبل المحتمل أو الممكن تحقيقه عن طريق نموذج صريح للعلاقات والتشابكات . ويبدو هذا النمط أكثر موضوعية من النمط السابق ، وإن كان العنصر الذاتى لا يختفى منه تماما . إذ أن النمط الاستطلاعى يستخدم لاستكشاف الآثار المستقبلية المحتملة والقائمة على افتراضات معينة ، مما يعنى أن هذا النمط لا يصلح لاختبار كافة الافتراضات الخاصة بدراسة مستقبل ظاهرة ما ، بل تقتصر صلاحيته العلمية على استكشاف المسار المستقبلى للظاهرة المدروسة فى ضوء الافتراضات التى وضعها الباحث والتى لا تخلو من التأثر بمواقفه الذاتية واختباراته الأيديولوجية علاوة على انتمائه القومى . فنحن هنا ازاء عملية اختبار وتفضيل لا تخلو من الاعتبارات القيمية المسبقة .

وإذا كان النمط الحدسى يعتمد على حصيلة الخبرات الشخصية والذاتية للباحث ، فإن النمط الاستطلاعى من الدراسات المستقبلية يعتمد على قاعدة موضوعية من البيانات والمعلومات ذات الطابع الكيفى والكمى مما يستلزم الاستعانة بأساليب بحثية متقدمة تتمثل فى أساليب التحليل الرياضية والاحصائية وأسلوب تحليل النظم وبحوث العمليات . وقد شاع أخيرا استخدام الأسلوب المورفولوجى(٢٦) رغم حداثة اكتشافه فى مجال البحوث المستقبلية . ويحتل هذا الأسلوب أهمية خاصة فى إطار النمط الاستطلاعى للدراسات المستقبلية . ويركز هذا الأسلوب على ضرورة التعرف على كافة التأثيرات التى تحيط بالظاهرة المدروسة من خلال كشف تسلسلها سعيا لاستطلاع آفاقها المستقبلية المحتملة . ويتم استخدام هذا الأسلوب من خلال مجموعة خطوات تبدأ بتحديد المشكلة مع التركيز على أبرز معالمها أو ملامحها ثم محاولة النفاذ الى التفاصيل الخاصة بكل معلم أو ملمح من ملامحها وتحديد الأفق المستقبلى المحتمل له ثم تقويم هذه الاحتمالات .

النمط الثالث : هو النمط الاستهدافى أو المعيارى NORMOTIVE

يبدو العنصر الذاتى سافرا فى هذا النمط على عكس النمط السابق (الاستطلاعى) بل يمكن اعتبار هذا النمط تطويرا للنمط الحدسى المستمد من الخبرة والتخيل والبصيرة . وينطلق النمط المعيارى من العباءة الذاتية للباحث ولكنه

(٢٥) انظر كل من : ابراهيم سعدالدين وآخرون : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٢٤ ، ١٨٠ ناهد صالح : المنهج فى البحوث المستقبلية ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢٦) لمزيد من التفاصيل انظر : ناهد صالح ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

يتجاوزها مستفيدا بشتى الاضافات المنهجية التى استحدثتها العلوم التطبيقية والرياضية مع عدم إغفال أهمية الخبرات والاستبصارات . ويبدأ هذا النمط بتحديد أهداف معينة سلفا ثم يصوغ النموذج على نحو يسمح بتحديد الخطوات والسياسات الكفيلة بتحقيق أهداف الدراسة المستقبلية[٢٧] . ويتميز هذا النمط بالتدخل الواعى من أجل تغيير المسارات المستقبلية للظواهر المدروسة في ضوء أهداف محددة سلفا .

وقد استلزمت الطبيعة النوعية الخاصة لهذا النمط استحداث أساليب بحثية جديدة تمثلت فيما يسمى بالاستثارة الذهنية الجماعية وأسلوب دلفى ويعتمد كل من هذين الأسلوبين على رصد تصورات مجموعات من الخبراء والمتخصصين عن المستقبل المتوقع في مجالات تخصصهم ، وهنا يبرز الاسهام الذى قدمه العالم الرياضى الأمريكى أولاف هلمر عام ١٩٥٩ حيث نشر دراسة هامة عن (الاطار المعرفى للعلوم غير الأساسية) ، أوضح فيها إمكانية الاستعانة بشهادة الخبراء في المجالات العلمية التى لا يتوافر لديها رصيد معرفى يسمح باستخلاص القوانين العلمية ، وقد اعتمد في استقاء شهادة هؤلاء الخبراء على أسلوب دلفى الذى يقضى بالحصول على رأى كل خبير على انفراد ، وبدون علم زملائه . وقد أجريت عدة تعديلات على هذا الأسلوب بهدف الاستفادة من الاستخدامات الحديثة للكومبيوتر[٢٨] .

وخلافا للنمط الاستطلاعى نبدأ الخطوات المنهجية في البحوث المعيارية من رسم صورة المستقبل المستهدف تحقيقه ثم ننتقل الى الحاضر . ومن هنا جاء الاختلاف في الأساليب البحثية المتبعة في كل نمط . غير أن ذلك لا يمنع من اشتراكهما في بعض الأساليب .

ومن أبرز الأساليب المستخدمة في النمط المعيارى الأسلوب المعروف باسم شجرة العائلة[٢٩] Family Tree Method ، ويقوم على أساس تحديد الهدف المرغوب في تحقيقه مستقبليا بالنسبة للظاهرة المدروسة ، وهذا يمثل قمة الشجرة ، ثم ننتقل من هذا الهدف الى الحاضر الذى يتمثل في سائر فروع الشجرة ، ونبحث في البدائل المختلفة لكل فرع من هذه الفروع حتى نتوصل الى رسم صورة كاملة للبدائل المستقبلية المرغوب في تحقيقها . والواقع أن هذا الأسلوب رغم ما يتسم به من وضوح إلا أنه يستلزم بذل جهد مكثف يتميز بالدقة والشمول ، حتى يمكن استيعاب كافة الاحتمالات التى يطرحها الواقع الراهن للظاهرة وترتيبها وفقا لأهميتها ، ثم تحديد السياسات اللازمة لتحقيق كل هدف من الأهداف الفرعية ، ثم ربط مجمل هذه السياسات في صورة متكاملة تتضمن كافة العناصر والمؤشرات .

---

(٢٧) انظر : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ١٨١ .

(٢٨) انظر : E. Cornish: OP. Cit. PP 84- 87.

(٢٩) F. L. Polak: Prognostics, Ascience In making surveys and creates Future. Elsvier publishers, Amsterdam: 1971. PP 390-393.

النمط الرابع : نموذج الأنساق الكلية Feedback Models

ويركز هذا النمط على مجمل المتغيرات والتشابكات في إطار موحد يجمع بين النمطين السابقين في شكل تغذية مرتدة تعتمد على التفاعل المتبادل بينهما ، حتث لا تهمل ماضي الظاهرة المدروسة ولا تتجاهل الأسباب الموضوعية التى سوف تفرض نفسها لتغيير المسارات المستقبلية لها . كما يستفيد هذا النمط من مزايا النمطين السابقين ، أى يجمع بين البحوث الاستطلاعية التى تستند الى البيانات والحقائق الموضوعية ، وبين البحوث المعيارية التى تولى أهمية خاصة للقدرات الابداعية والتخيل والاستبصار . ويمثل هذا النمط خطوة متقدمة في المسار المنهجى للبحوث المستقبلية المعاصرة[٣٠] .

وفي مجال المقارنة بين الأنماط المختلفة للدراسات المستقبلية لا يمكن ترجيح كفة أحدها على الآخر ، بل يمكن القول إن جهود العلماء المستقبليين قد انصبت في الأساس على محاولة الجمع بين مزايا الأنماط الثلاثة الأولى والاستفادة بها في بناء النمط الرابع المعروف بنموذج الأنساق الكلية . وإن كان هناك تحذير يطلقه هؤلاء العلماء هو عدم إحلال النموذج الرياضى محل التحليل النظرى الذى يركز على الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية ، ومراعاة الا يكون النموذج ستارا يخفى اختيارات محددة لا يفصح عنها صراحة[٣١] .

ويمكن القول بأن بناء النماذج في مجال بحث التشابكات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم يزل مسعى علميا حديث النشأة ، ويحتاج الى المزيد من الجهد البحثي والتأمل .

أساليب ومستويات التحليل في الدراسات المستقبلية

يدور الكثير من الجدل حول المقارنة بين كل من الأسلوب الكمى والكيفى وصلاحية كل منهما لضمان الوصول الى أكبر قدر من الدقة والموضوعية . وأصبح من الشائع ترجيح كفة الكم على حساب الكيف في كثير من البحوث والدراسات الاجتماعية المعاصرة على أساس أن التكميم بصوره المختلفة (الرياضية والاحصائية) أكثر اختصارا ودقة في التعبير .

وقد انتقل هذا الجدل المنهجى الى ميدان الدراسات المستقبلية حيث يرى البعض أن الأساليب الرياضية توفر إمكانية التعامل مع المتغيرات الكمية بصورة تسمح بإدراك ما يمكن أن تؤدى إليه السياسات المختلفة من نتائج في الأمد الطويل ، وأصحاب هذا الاتجاه هم في الأغلب من العلماء البارزين في مجال بناء النماذج الرياضية .

(٣٠) انظر : F.L. Polak: Ibid. PP 262-267

(٣١) انظر صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ١٨١

ولا شك أن هناك خلطا غير مقصود بين المجالات البحثية التى يصلح لها كلا الأسلوبين الكمى والكيفى ومنطق استخدام كل منهما وحدود هذا الاستخدام . علاوة على أن أهداف الدراسة تفرض على الباحث الاهتمام بأبعاد معينة أكثر من سواها . ذلك أنه لا يوجد منهج واحد أو أسلوب تحليل بعينه بإمكانه أن ينهض بمفرده بدراسة ظاهرة ما أو عدة ظواهر ، ويحيط بها وصفا وتفسيرا مبرزا كافة جوانبها الكمية والكيفية .

فمن الواضح أن التحليل الكمى قد لا يتناسب مع بعض الموضوعات كعمليات التفاعل الاجتماعى أو التحليل التاريخى ، ذلك لأن الرقم الذى تمنحه أهمية قصوى هو شىء ثابت بمعنى أن الذين يعتمدون على التكميم يعزلون الحقيقة الاجتماعية عن مسارها الجدلى ، ويحاولون تثبيتها في لحظة ما ثم يتنبئون بمسارات معينة لهذه الحقيقة بناء على عملية التثبيت المتعسفة ،مفترضين أن العلاقات بين العوامل والمتغيرات التى يخضعونها للقياس هى علاقات دائمة وثابتة عبر الزمن وهذا افتراض خاطىء بسبب تناقضه مع قانونى الصيرورة والجدل الذى لا تستثنى منهما أية ظاهرة حية في هذا الكون . علاوة على أن ثمة ظواهر أو أبعادا في الواقع الاجتماعى أكثر دينامية وتغيرا من سواها ، وبالتالى فالاصرار على إخضاعها للتحليل الكمى يؤدى الى تزييف فهمها وقياسها والتنبؤ بمسارها المستقبلى . ويمكن القول إن الرياضة ليست إلا أداة من أدوات البحث العلمى ، وأن استخدام النماذج الرياضية لا يعنى بأى حال حيادية هذه النماذج ، فهى لا تقوم على افتراضات مجردة وإنما تتعامل هذه النماذج مع وقائع اجتماعية للباحث منها مواقف واعية خفية أو معلنة(٣٢) . وهذا لا يعنى أن نتغافل عن وجود موضوعات تقتضى دراستها التركيز على التحليل الكمى خصوصا الموضوعات التى تقيس الدرجة والشدة مثل الدخل القومى والسكان والناتج الزراعى والصناعى واستهلاك الطاقة . . الخ .

الأساليب الكيفية :

ويركز أنصار هذا الاتجاه على رصد وتحليل الجوانب الكيفية مثل قضايا الصراع الاجتماعى والأيديولوجى والقيم والفنون وسائر الموضوعات التى يغلب عليها الطابع الكيفى ، وإن كانت لا تخلو من أبعاد كمية . ولا يبالى أصحاب هذا الاتجاه كثيرا بالاهتمام ببعض المتغيرات الكمية التى قد تؤثر بالفعل على العوامل الكيفية التى يـركزون عليهـا دون سواها . وهنا لا نستطيع أن نتجاهل مجموعة الاعتراضات التى توجه الى الأساليب الكيفية في التحليل وأهمها الافتقار الى الدقة والموضوعية بسبب اعتمادها على الأحكام الانطباعية والذاتية واتسامها بالجزئية وإسقاط بعض المتغيرات أو إهمالها أثناء التحليل . فضلا عن صعوبة أو استحالة تكرار الأبحاث الكيفية في أغلب الحالات مما يؤثر على ثبات وصدق أغلب الأبحاث التى تعتمد على الأساليب الكيفية في التحليل(٣٣) .

(٣٢) انظر : عبدالباسط عبدالمعطي : البحث الاجتماعي ـ نحو رؤية نقدية لمناهجه وأبعاده ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ـ ١٩٨٤ ـ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، عواطف عبدالرحمن وأخريات : تحليل المضمون في الدراسات الإعلامية ـ العربي للنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

(٣٣) انظر : عواطف عبدالرحمن : مصدر سابق ـ ص ٢٤٦ ، ناهد صالح ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠١ .

التوازن بين الكمى والكيفى :

كيف يمكن الجمع بين مزايا الأسلوبين الكمى والكيفى في الدراسات المستقبلية . . ؟

هناك بعض الاعتبارات العامة التى يجب أن يضعها الباحث في اعتباره عند اختيار نوع التحليل الملائم مع مراعاة عدم الفصل التعسفى بين أنواع التحليل أو بترجيح كفة أحدهما على الآخر . بل لابد من وضع الأسلوبين موضع الاعتبار عند دراسة الواقع المجتمعى حتى لا يقودنا أى فصل بينهما الى تشويه الحقيقة الاجتماعية . وتتلخص هذه الاعتبارات فيما يلى :

١ ـ موضوع البحث وطبيعة الظاهرة المدروسة :

وتتضح أهمية هذا العامل بسبب تباين بعض أبعاد الواقع الاجتماعى وتفاوت الأبعاد الكمية والكيفية بين ظاهرة وأخرى فهناك موضوعات مثل الصراع الاجتماعى والوعى والتأثير الثقافي والحضاري والموضوعات التاريخية . كل هذه الموضوعات يغلب عليها الطابع الكيفى . في حين أن هناك موضوعات أخرى مثل الدراسات الديموجرافية يغلب عليها الطابع الكمى . مثل هذه الموضوعات أو تلك تقتضى من الباحث التركيز على الأسلوب الكمى أو الكيفى مع مراعاة الاحتفاظ بالأسلوبين ، ولكن بتفاوت أحدهما عن الآخر طبقا لطبيعة الظاهرة المدروسة .

٢ ـ نمط الدراسة المستقبلية :

قد يعتمد النمط الاستطلاعى في الدراسات المستقبلية على البيانات الكمية أكثر من البيانات الكيفية وإن كان النمط الاستهدافى لا يستغنى عن النوعين معا .

٣ ـ الاطار النظرى للدراسة المستقبلية :

إذا تمت الدراسة المستقبلية في ضوء البنائية الوظيفية التى تهتم بالثبات والتوازن فإن هذا يستلزم التركيز على الأبعاد الكمية القابلة للفصل والتجزئة والعد ، أما إذا ركز الباحث على الأبعاد الدينامية في إطار المادية التاريخية فإن التحليل الكيفى هو الأسلوب الأكثر ملاءمة في هذا الصدد .

٤ ـ مصادر البيانات :

تؤثر مصادر البيانات في اختيار الباحث للأساليب الخاصة بجمعها ومن ثم تحليلها . فالبيانات الجاهزة في سجلات أو وثائق البيانات الميدانية التى يجمعها الباحث من خلال المقابلة بأنواعها والملاحظة . هذا عدا البيانات

المستقاة من وسائل الاعلام التى غالبا ما يقتضى تحليلها استخدام أسلوب تحليل المضمون أو تحليل حقول الدلالة ، كما أنه يمكن استخدام ما يسمى بالتحليل الثانوى . وتتباين أدوات جمع البيانات بتباين معايير تصنيفها . فهناك أدوات يقتضى تحليل بياناتها استخدام نوع من التحليل الكيفى كتحليل المضمون ، كذلك في المقابلة الحرة غير المقننة عكس الاستبيان المقنن الذى يستلزم تحليلا كميا(٣٤) .

النماذج العالمية للمستقبليات ما لها وما عليها

إذا كانت العشرينيات قد شهدت بروز البدايات العلمية للدراسات المستقبلية ، فإن السبعينيات تمثل نقطة الانطلاق نحو العالمية بالنسبة لهذه الدراسات بعد أن حظيت بالاهتمام والانتشار مع بدء حقبة الستينيات حيث بدأ العديد من الدراسات المستقبلية في الظهور في الدول الغربية . كذلك تزايد اهتمام الدول الاشتراكية بهذا النوع من الدراسات من أجل توفير خلفية أعرض وأعمق للمعلومات المستقبلية التى تساعدها في نشاطها التخطيطى على المدى الطويل ، ولا شك أن تراكم المعرفة العلمية في مختلف المجالات وعلى الأخص المجال الاقتصادى فضلا عن تطور أدوات ومناهج البحوث الكمية خصوصا بعد ظهور الحاسب الالكترونى وانتشار استخداماته . هذه العوامل مضافا إليها الأزمات المتعددة الأوجه التى تعترض النظام الدولى الراهن مهدت الطريق وساعدت على هذه النقلة التى شهدتها الدراسات المستقبلية بخروجها من إطار المحلية الى العالمية . إذ أصبحت تتصدر قائمة الاهتمامات الاستراتيجية لدى المنظمات الدولية ولدى الكثير من التكتلات الحكومية وغير الحكومية على المستوى العالمى .

ويبرز في هذا المجال نشاط نادى روما الذى كان له السبق في طرح هذا النوع من النشاط الذى عرف بحركة النماذج العالمية في الدراسات المستقبلية . فقد تولى العالمان الأمريكيان فورستر وميدوز بتشجيع ورعاية نادى روما ـ مهمة بناء أول نموذج عالمى على الكومبيوتر يستطلعون من خلاله مستقبل العالم خلال المائة عام القادمة في عدد محدد من القضايا مثل الانتاج الصناعى والغذاء وتلوث البيئة وتزايد السكان ونضوب الموارد . وقد نشرت هذه الدراسة تحت عنوان (حدود النمو) في عام ١٩٧٢ .

وقبل أن أتناول هذه الدراسة بالقدر الذى تستحقه من التحليل أرى أنه من الضرورى أن أشير الى العوامل التى جعلت هذه الدراسة ـ رغم ظهورها في ثوب عالمى ـ تخرج من قلب العالم الرأسمالى وفي هذه المرحلة بالتحديد . هناك عاملان رئيسيان يكمل أحدهما الآخر . ويتعلق أولها بالأزمة التى تعانى منها الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، استحكمت حلقاتها في منتصف الستينيات بعد استكمال حركة التحرر الوطنى في العالم الثالث لمهامها الوطنية مما أتاح امكانية ظهور اجتهادات ورؤ ى فكرية وسياسية تسعى الى إنجاز مهام المرحلة الثانية لحركة التحرر الوطنى خصوصا في المجال الاقتصادى والثقافى . أما العامل الثانى الذى يكمن وراء ازدياد نشاط النماذج الدولية في حقبة السبعينيات فهو يتعلق بظهور تكتلات جديدة على المسرح الدولى تبلور وتحاول تجسيد مصالح شعوب العالم الثالث على شكل نماذج بديلة

(٣٤) لمزيد من التفاصيل انظر : عبدالباسط عبدالمعطي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٠ .

للتنمية ودعوات تطالب بمزيد من العدالة والتكافؤ في علاقاتها مع الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، وأبرز مثال على ذلك مجموعة السبعة والسبعين وكتلة عدم الانحياز . مما بات يهدد وبصورة ملحوظة مصالح مجمل النظام الرأسمالي العالمي الذي يتمثل في الشركات المتعددة الجنسيات بالاضافة الى الحكومات الغربية منفردة أو مجتمعة . ومن هنا يمكن تفسير سر تسارع العديد من الهيئات الغربية الى تقديم هذه النماذج التي زعمت لنفسها صفة العالمية . فقد تتابعت حركة النماذج العالمية في مجال الدراسات المستقبلية بعد ظهور (حدود النمو) في بداية السبعينيات . ورغم سمة العالمية التي تدثرت بها . إلا أن معظمها اتسم بالطابع الجزئي سواء ما يتعلق بالنطاق الجغرافي أو المدى الزمني أو المتغيرات التي شملتها هذه النماذج .

وسعيا الى التمييز بين هذه النماذج فإننا سوف نحتكم الى مجموعة من المعايير نوجزها على النحو التالي :

١ ـ النطاق الجغرافي للدراسة .
٢ ـ الأفق الزمني للدراسة .
٣ ـ هدف الدراسة (استكشافي أم استهدافي) .
٤ ـ المتغيرات التي يركز عليها النموذج المستقبلي .
٥ ـ الأساليب المنهجية المستخدمة .
٦ ـ الهوية الأيديولوجية للنموذج سواء كانت معلنة أو متضمنة .

وفي ضوء هذه المعايير يمكن التمييز بين ثلاثة أنماط من النماذج العالمية للدراسات المستقبلية وتتلخص فيما يلي :

النمط الأول : ويتضمن النماذج التي تم تقديمها في إطار الهيئات والمنظمات والحكومات الغربية . ويشمل ثلاثة أنواع من النماذج قدمت على أنها نماذج أنساق كلية للعالم وظواهره الاقتصادية والاجتماعية تهدف الى الاسهام في حل مشكلات العالم من خلال استكشاف آفاقه المستقبلية وتشابكاته المختلفة . وينتمي الى هذا النوع تقرير (حدود النمو) الذي قدمه نادي روما . ويمثل هذا الجهد محاولة رائدة في ذلك الوقت ، وقد تناول العالم على أنه كتلة واحدة متجانسة ذات حدود طبيعية ثابتة . وقد أكد أصحاب هذا النموذج على أن النمط الحالي للنشاط الانتاجي والتعامل مع البيئة يقودان الى الانهيار ، ومن أجل تفادي هذا المصير يقترح فورستر وميدوز وضع حدود اختيارية للنمو تتمثل في ضبط النمو السكاني في العالم الثالث وتحجيم التوسع الرأسمالي بهدف تحقيق التوازن المستقبلي المنشود(٣٥) .

وعند محاولة تطبيق المعايير السابقة على هذا النموذج الذي عرف (بحدود النمو) نلاحظ أنه قد تناول العالم ككل من ناحية النطاق الجغرافي . أما الأفق الزمني فقد امتد الى مائة عام بينما اقتصر هدف

(٣٥) انظر : -J-M- Richards on: Global Modelling (1) The Models. Futures Val-12.NO 5. october 1978 P. 388.
D.H. Meadows el al: The Limits to Growth New York-Univers books, 1972-P.
نقلا عن صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٠ ـ ٣٥

الدراسة على الاستطلاع فحسب مع طرح سيناريوهات مختلفة للنمو . وقد اقتصر النموذج على مجموعة من المتغيرات هى السكان والطاقة والموارد الطبيعية والانتاج الزراعى وغير الزراعى وتلوث البيئة . أما الأساليب المنهجية فقد اعتمد هذا النموذج على ما يسمى بديناميكية الانسان ، ومما يحسب لهذا النموذج إسهامه المنهجى في بناء نماذج الأنساق الكلية التى يعتبرها المتخصصون إضافة علمية جوهرية في هذا المجال(٣٦) .

ولعل أبرز المآخذ على هذا النموذج ادعاؤه الحياد ومحاولة إخفاء هويته الأيديولوجية(*) ومحاولة ادعاء البعد عن المعالجات الجزئية مما أدى الى وقوعه في أخطاء جوهرية أثارت حوله موجة من الانتقادات الحادة . وخصوصا أنه تعامل مع العالم كوحدة متجانسة متجاهلا الفروق الاقتصادية والاجتماعية والسياق التاريخى للأقاليم والمناطق المختلفة . فضلا عن تركيزه على عدد محدود من المتغيرات مما جعله عاجزا عن تقديم صورة واضحة عن مستقبل المناطق الجغرافية المختلفة في العالم . كما أن البيانات والمعلومات التى غذى بها الكومبيوتر كانت تفتقر الى الدقة والشمول .

النوع الثانى : من النماذج (نموذج ميزاروفيتش ويستل)(**) . انبثق هذا النموذج من قلب الانتقادات التى وجهت الى النموذج الأول (حدود النمو) . وقد حاول هذا النموذج تلافى السلبيات المنهجية والثغرات الخاصة بمحدودية النطاق الجغرافى وضآلة المتغيرات التى شابت النموذج الأول . ولذلك اهتم ميزاروفيتش ويستل بتقديم صيغة تفاعلية جديدة بين الانسان والحاسب الألكترونى من خلال بناء نسق يعتمد على التقسيم الأفقى للعالم (قسم العالم الى عشر مناطق) بالاضافة الى التقسيم الرأسى الذى يتفاعل بين مستويات متعددة فردية وجماعية واقتصادية وجغرافية . . الخ . وقد تضمن هذا النموذج تفاصيل أكثر عمقا وتنوعا غير أن نتائجه لم تختلف اختلافا جوهريا عن نتائج فورستر وميدوز في النموذج الأول . فقد التزم هذا النموذج بنفس الأفق الزمنى الذى يتعدى القرن العشرين كما اقتصر على الهدف الاستطلاعى الذى يطرح سيناريوهات مختلفة للنمو ، ولكنه استعان بأساليب منهجية أفضل من النموذج السابق تمثلت في استخدام أساليب الاقتصاد القياسى وتحليل المدخلات والمخرجات علاوة على تحليل الأنساق من خلال تفاعل التقسيم الأفقى والرأسى للعالم ومكوناته الجغرافية والبشرية والاقتصادية ، وتميز نموذج ميزاروفيتش ويستل في أنه يقدم صورة أقل قتامة لمستقبل العالم ، وإن كانت نتائجه تشير الى حتمية حدوث الانهيار ولكن ليس بصورة كلية ، ومن أجل تفادى هذا الانهيار يقترح نفس

---

(٣٦) انظر : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٥ .

(*) جاء في مقدمة التقرير المعروف باسم (حدود النمو) الذي طبعت منه ملايين النسخ أن أوريليوبتشي الذي يشرف ويمول نشاط نادي روما يساهم في شركتي فيات للسيارات وأوليفتي للآلات الكاتبة ويملك مؤسسة للاستشارات الهندسية والاقتصادية ويرى البعض أنه كان هو المحرك وراء حركة النماذج العالمية .

** شجع نادي روما عالمين احدهما امريكي (ميرزاروفيتش) وثانيهما ألماني غربي (بستل) على بناء هذا النموذج الذي عرف باسميهما ونشرت نتائجه عام ١٩٧٤ في تقرير بعنوان (البشرية عند مفترق الطرق) .

انظر : عبدالعظيم أنيس ـ مصدر سابق ـ ص ٣٥ .

الاقتراحات التى طرحها النموذج الأول والتى تتمثل في ضبط نمو السكان في العالم الثالث ويضيف إليها اللجوء الى الأساليب التعاونية على المستوى الدولى مثل اقتراح قيام نظام اقتصادى عالمى جديد ، ويعطى النموذج أمثلة محددة لأنواع التعاون المطلوب وممارستها بين الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة والدول التابعة .(٣٧)

والواقع أن هذا النموذج الذى تميز عن سابقه بالتعقيد المنهجى وتعدد المتغيرات التى تناولها لم يختلف بصورة جوهرية عن سابقه ، ويرجع ذلك الى سببين أولهما أيديولوجى وهو أن كلا النموذجين يتطلعان الى تحقيق هدف واحد هو إنقاذ مستقبل الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة على حساب شعوب العالم الثالث ، والسبب الثانى منهجى يتعلق بطبيعة المناهج الرياضية القاصرة عن التعبير عن التعقيدات الاجتماعية التى تعد جوهرية بالنسبة للدراسات المستقبلية .

النوع الثالث : نموذج ساروم Sarum ، لقد تم تصميم هذا النموذج تحت إشراف هيئة البيئة البريطانية وذلك من أجل تدارك الثغرات التى شابت النماذج السابقة وخصوصا ما يتعلق بعدم وضوح مناهجها من ناحية وعدم شمول ودقة بياناتها من ناحية أخرى . ويقسم هذا النموذج العالم الى ثلاث مناطق عالمية تختلف من حيث معدلات دخول الأفراد وهى على التوالى : الولايات المتحدة ثم الدول الصناعية المتقدمة وأخيرا الدول النامية والصين ، ولا يختلف هذا النموذج عن النموذجين السابقين سواء من حيث الأفق الزمنى أو الأساليب المنهجية . ويتميز عنهما في أنه لا يشترط ضبط النسل بنفس الصورة التعسفية التى ركز عليها كل من ميدوز وميزاروفيتش . كما أهمل بعض القضايا العالمية التى ركز عليها الآخران مثل تلوث البيئة . وقد ركز على دراسة امكانيات التوسع الأفقى والرأسى للزراعة ، ولذلك طرح نتائج تتميز بالتفاؤ ل بالنسبة لمستقبل الغذاء في العالم الثالث(٣٨) .

وبهذا النموذج ينتهى النمط الأول من النماذج العالمية وقد تضمن ثلاثة نماذج طرحت في أطار الهيئات والحكومات الغربية وقد تباينت قليلا في أساليبها المنهجية وقاعدة البيانات التى اعتمدت عليها ، ولكنها تميزت بسمة رئيسية هى أنها استهدفت المحافظة على النظام الدولى الراهن في إطار العلاقات والمصالح الرأسمالية الدولية القائمة

---

(٣٧) انظر : S.Cole: The global futures debate 1975- 1976. in C.Ereewan and Jahoda, Eds: World futures. Falmer, Brighton-Sussex University 1979.

Richardson: Global Modelling (1) the Models op.it PP 389-390.

نقلا عن صور المستقبل العربي - مصدر سابق - ص ٣٢ - ٣٧

(٣٨) انظر : Richardson: Global Modelling, op.cit- P 342-393.

النمط الثانى : ويتضمن نموذجا واحدا يمثل العالم الثالث طرحته مجموعة أمريكا اللاتينية وعرف باسم نموذج باريلوتشى(*) . وخلافا للنماذج الغربية التى حاولت إخفاء وجهها الأيديولوجى بادعاء الحياد والموضوعية فإن القائمين على هذا النموذج قد طرحوا منذ البداية انتماءهم للعالم الثالث وتبنيهم لرؤية مخالفة بصورة جذرية لمنظور أصحاب تقرير (حدود النمو) ، وقد أعلنوا ذلك خلال الندوة التى عقدها نادى روما في البرازيل لمناقشة هذا التقرير الذى وضعه فورستر وميدوز وقد تركزت انتقاداتهم على الجوانب التالية :

١ ـ توصيف الأوضاع الراهنة في العالم والخاصة بحالة البؤس والجوع وسائر الأزمات الحياتية التى يعانى منها ثلثا البشرية في العالم الثالث هى أمر واقع ولسنا في حاجة الى نماذج رياضية للتنبؤ بها ، وإن ربط حالة البؤس بفكرة الانهيار مغالطة كبرى لأن المجموعة القليلة من الدول الرأسمالية المتقدمة تمارس الاسراف في استهلاكها للموارد مما ينذر بحدوث الانهيار .

٢ ـ إن الحدود الطبيعية التى أدعت النماذج العالمية ثباتها لا تتسم بالصرامة التى بشر بها تقرير حدود النمو ، وأنه يمكن تجاوزها والتغلب عليها إذا ما اتبعت سياسات معينة لتفادى انهيار النسق العالمى تضع في اعتبارها مصالح الشعوب المنسية في العالم الثالث .

٣ ـ إن الاقتراحات التى جاءت في تقرير (حدود النمو) تهدف الى تحقيق التوازن والمقصود بها استمرار الفوارق الاجتماعية الراهنة بين الفقراء والأغنياء على مستوى الدول والأفراد .(٣٩)

وقد قسم هذا النموذج العالم الى أربع مناطق : واحدة تشمل الدول المتقدمة (الرأسمالية والاشتراكية) وثلاث مناطق تشمل القارات الثلاث ، وهو يتكون من ثلاث أنساق فرعية هى السكان والغذاء والموارد الاقتصادية . ويتميز هذا النموذج عن النماذج السابقة في الهدف إذ ألزمت مجموعة باريلوتشى نفسها بوضع نموذج عالمى معيارى لا يهتم بالتنبؤ بما سوف يحدث إذا استمرت التوجهات الراهنة في النظام العالمى ، وإنما اهتمت برسم طريق يساعد على التوصل الى إشباع الحاجات الأساسية لشعوب العالم خلال ستين عاما بدءا من عام ١٩٨٠ ، وذلك بشرط تخصيص ٢٪ من إنتاج العالم المتقدم للمساعدة غير المشروطة لشعوب آسيا وأفريقيا ، وبهذا تسقط الحجة الزائفة التى اعتمدت عليها النماذج الأخرى والتى تشترط تنظيم النسل في العالم الثالث من أجل تفادى الانهيار المتوقع للنسق العالمى الراهن .

وتتمثل القضية المحورية لهذا النموذج في تحقيق العدالة في توزيع الدخل وتحقيق الاستقلال الاقتصادى لشعوب العالم الثالث ، ويحدد القائمون على هذا النموذج ملامح المجتمع الجديد الذى يعتمد

---

*إشارة إلى مؤسسة باريلوتشي بالارجنتين وهي التي مولت هذا المشروع .

(٣٩) انظر : R. Petrella: Ideological basis and Impact of World Models: Acomparison. in Seminar of Future Forecasts and World models, Rio de Janiero, 28-11/3-12-1975.

على العدالة الاجتماعية والمشاركة الشعبية ، وتختفى فيه أشكال السيطرة الفردية القائمة على امتلاك وسائل الانتاج وأشكال الاستهلاك المبالغ فيها ويتم تخطيط الانتاج الذى يفى بالحاجات الأساسية للسكان طبقا لبرامج تنموية تستهدف تحقيق مصالح مختلف الجماعات السكانية دون تمييز .

ويتميز نموذج أمريكا اللاتينية باستخدام أساليب منهجية جديدة تعتمد على بحوث العمليات والاقتصاد والقياسى وما يسمى بالأساليب الأمثلية . كما أن الأفق الزمنى الذى التزم به النموذج يرتبط بالمدى الذى يتحقق خلاله إشباع الحاجات الأساسية للسكان(٤٠) ، وقد تم نشر هذا النموذج في تقرير تحت عنوان (كارثة أم مجتمع جديد) عام ١٩٧٦ .

النمط الثالث : (١) نموذج الأمم المتحدة (ليونتيف) :

ينطلق هذا النموذج من استراتيجية التنمية العالمية التى تبنتها الأمم المتحدة عام ١٩٧٠ لعقد التنمية الثانى . ويتم تقسيم العالم في هذا النموذج الى ١٥ منطقة لكل منها جدول (مدخلات ومخرجات) يضم ٤٨ قطاعا ، ويتم الربط بين مناطق العالم من خلال قنوات التجارة الدولية في حوالى أربعين فئة من السلع والخدمات ورؤوس الأموال . وقد تركزت محاور النموذج حول مجموعة من المتغيرات شملت تفاوت مستوى المعيشة بين القطاعات المتقدمة والأقل تقدما من البشرية في ضوء مشكلات الغذاء والتلوث والطاقة والزراعة والتجارة الدولية . وقد طرح النموذج تصورات مستقبلية للاقتصاد العالمى تتمثل في إيجاد مسارات بديلة للتنمية الاقتصادية على المستوى العالمى ، وتبدأ من عام ١٩٧٠ حتى عام ٢٠٠٠(٤١)* ، وقد أكد هذا النموذج على ما سبق أن أشرنا اليه في نموذج أمريكا اللاتينية على عدم وجود حواجز طبيعية تحول دون التنمية الشاملة والمستقلة في العالم الثالث ، وأكد أن الحواجز هى ـ أساسا ـ سياسة ـ اجتماعية ومؤسسية .

(٢) ـ نموذج المستقبلات الدولية :

تعتبر الدراسة المستقبلية ذات الطابع العالمى التى عرفت باسم (Interfutures) أو (ثنايا المستقبل)(٤٢) أحدث الدراسات المستقبلية التى تم إجراؤها على المستوى الدولى تحت إشراف منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ، وقد ركزت على استشراف الآفاق المستقبلية للتطور الاقتصادى للدول الصناعية المتقدمة في إطار علاقاتها بالدول النامية . وقد قسمت هذه الدراسة العالم الى ١٣ منطقة واهتمت

---

(٤٠) انظر . Amil car o. Herrera et al; catastrophe or a new society. A latin American world model Ottawa; international development research centre. 1976.

عبد العظيم أنيس ـ مصدر سابق ـ ص ٣٤ ، صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٩ ـ ٤١

(٤١) * انظر W. Leontif et al: The Future of the world economy prelimm ary report, New York, UN, Dept of Economic and Social Affairs 1976.

(٤٢) انظر : نادر فرجاني ـ مصدر سابق ـ ص ٧٨

بقضايا الطاقة والتصنيع واستيراد التكنولوجيا الرأسمالية ومجالات الاستثمار الخارجية والزراعة وخصوصا الانتاج الغذائى . وقد تضمنت كل منطقة من مناطق العالم ١١ قطاعا . وخلافا للنماذج السابقة حاولت هذه الدراسة التقليل من الاعتماد على الأساليب الكمية كما ركزت على العوامل الاقتصادية والتكنولوجية مع عدم إغفال الجوانب الاجتماعية وانتهت بمجموعة من التوصيات في إطار سيناريوهات بديلة للمستقبل تبدأ من عام ١٩٧٥ وحتى نهاية القرن الحالى . ومن أبرز التوصيات التى توصلت إليها هذه الدراسة ضرورة قيام الدول الصناعية المتقدمة بتقديم العون اللازم للدول النامية كى تصل الى مرحلة الاكتفاء التكنولوجى من خلال خلق التكنولوجيات الملائمة لاحتياجات وظروف مجتمعاتها .(٤٣)

ونقف عند هذا النموذج الذى يمثل نهاية سلسلة من النماذج العالمية لدراسة المستقبليات التى توالت حلقاتها مع بداية السبعينيات . ويلاحظ أن الدول الاشتراكية لم تسهم بصورة مباشرة في مجال النماذج العالمية رغم وجود العديد من الكفايات النقدية في هذا الموضوع . كما أن هناك مجموعة من العلماء في الدول الاشتراكية قد قدموا إسهامات بارزة في مجال المستقبليات وأبرزهم العالم السوفيتى ايجور لادا وجفيشيانى رئيس المعهد الدولى لتحليل الأنظمة في فيينا ، وأيضا العالم الرياضى المعروف جلوفانى ، ولكن اقتصرت جهودهم على الدراسات المستقبلية في إطار النظم الاشتراكية التى تعتمد على التخطيط المركزى . وإن كان ذلك لم يحل دون طرح ملاحظاتهم النقدية على موضوع النماذج العالمية . ويبرز في هذا المجال ما قدمه بعض علماء الدول الاشتراكية عن قصور العائد العلمى لهذه النماذج لأسباب أيديولوجية ومنهجية .

فقد أشار العالمان الرومانيان يوبيز وسلاك الى تأثير الانتماء الأيديولوجى لصناع النماذج على مجمل معالجاتهم المنهجية سواء فيما يتعلق بالفروض أو أساليب ومستويات التحليل ونوع المتغيرات التى يركزون عليها وبالتالى على النتائج والتوصيات التى يطرحونها .

وقد قام فريق سوفيتى بقيادة العالم جلوفانى بإعادة دراسة لنموذج نادى روما فتوصلوا الى نتائج مخالفة تماما لما جاء في التقرير المعروف بحدود النمو(٤٤) .

والواقع أن تحيز الهيئات التى أشرفت على هذه النماذج قد انعكس بصورة جلية في النتائج التى استهدفت ـ رغم الجهد العلمى المبذول فيها ـ تكريس العلاقات الدولية بصورتها الراهنة ماعدا النموذج الذى ينتمى لأمريكا اللاتينية ، وقد برز كصوت وحيد يطرح أولويات وقضايا واحتياجات شعوب العالم الثالث ومن هنا تبرز الحاجة الى استنهاض القدرات والكفاءات الفكرية لدى علماء ومفكرى العالم الثالث للاسهام بصورة جادة في هذا الجدل الدائر حول المستقبليات والبدائل المستقبلية ، وإلا فليس أمام شعوب العالم الثالث سوى مزيد من تعاسات التبعية ومواجعها .



(٤٣) انظر : OECD: Facing the Future OECD, Paris 1979 pp. 329-330, 403.

(٤٤) انظر : عبدالعظيم أنيس : مصدر سابق ـ ص ٣٦ ـ ٣٧ .

الدراسات المستقبلية في اطار المدارس المعاصرة

المدرسة الفرنسية :

تتميز المدرسة الفرنسية في الدراسات المستقبلية بالنشأة ذات الطابع الفلسفي والفكرى . فقد خرجت من أعطاف الفلسفة الوجودية وروادها من المفكرين الفرنسيين البارزين مثل جان بول سارتر وقد جاءت هذه النشأة مواكبة لانتهاء الحرب العالمية الثانية وما صاحبها من مرارات وتداعيات وجدانية أليمة . وقد لعب الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر دورا حاسما في بلورة النظرة الى المستقبل من خلال المحاضرات والكتابات التى قدمها في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد شهدت الخمسينيات نشأة علم المستقبل من خلال الجهود التى بذلها جاستون برجيه وزملاؤه حيث استخلص المفهوم الوجودى عن مسئولية الفرد وحريته في تشكيل حياته ، وحاول تطبيقها على الشعب الفرنسى كوحدة جماعية منسجمة وقادرة على إعادة تشكيل المجتمع الفرنسى الذى عانى من ويلات الحرب العالمية الثانية الى حد التعرض للدمار الشامل . وقد تبلورت جهود برجيه في إنشاء المركز الدولى لعلم الريادة في باريس عام ١٩٥٧[٤٥] . ويمثل هذا المركز حجر الزاوية في الدراسات المستقبلية في فرنسا حيث تابع تلاميذ برجيه وزملاؤه الجهود الرائدة التى بذلها في حقل المستقبليات ، وخصوصا جوفينال صاحب الكتاب الشهير (قدر الحدس) الذى صدر في منتصف الستينيات .

المدرسة الأمريكية والدراسات المستقبلية

بينما بدأ الاهتمام بالمستقبليات في فرنسا في الاطار الفلسفى والأديولولوجى ثم انتقل الى القضايا الاجتماعية والسياسية ، لوحظ أن الاهتمام بالمستقبل بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية في المجال العسكرى ثم انتقل الى المجال السلمى حيث شمل القضايا الاقتصادية والاجتماعية ثم تجاوز ذلك الى الميادين العلمية والتعليمية حيث توجت جهود الرواد المستقبليين بإنشاء العديد من الجمعيات والمعاهد العلمية لدراسة المستقبليات وتدريسها بالجامعات .

وترجع البداية الأمريكية في حقل الدراسات المستقبلية الى فترة الحرب العالمية الثانية ، حيث بددت تطورات الحرب وأحداثها الوهم الذى كان يسيطر على المسئولين الأمريكيين في أن الموقع الجغرافى المتميز للقارة الأمريكية قد يجنبهم مخاطر الحروب التى قد تندلع في أية لحظة في سائر مناطق العالم . ومن هنا جاءت البداية في المجال العسكرى حيث كانت مصحوبة بالرغبة في تطوير أساليب الدفاع والحماية العسكرية . ويمثل استطلاع كارمان المعروف باسم (نحو آفاق جديدة) ، والذى صدر عام ١٩٤٧ الحلقة الأولى في سلسلة الدراسات الاستطلاعية التى تم إجراؤها للتعرف على الامكانيات الدفاعية للولايات المتحدة ، وقد انتهت هذه الدراسات بتأسيس أول مركز للاستطلاع التكنولوجى البعيد المدى للجيش الأمريكى[٤٦] .

---

(٤٥) انظر : محمود زايد ـ مصدر سابق ـ ص ٢٧ ، ٣١ .

(٤٦) انظر : E. Cornish: op. cit PP 77-80.

ثم تطور الاهتمام في هذا الميدان وانتقل الى مجال الفضاء على مشارف الخمسينيات . وقد شهدت هذه الحقبة (الخمسينيات) بدء ظهور مشروعات مدنية تركز على الدراسات المستقبلية في الميادين الاجتماعية والتعليمية . وهنا يبرز الدور الريادى الذى قامت به مؤسسة راند الأمريكية حيث قامت بتشجيع مجموعة من العلماء والدارسين حيث قاموا بإعداد العديد من المشروعات البحثية التى تتناول الاحتمالات المستقبلية لبعض القضايا الحيوية بالنسبة للسوق الأمريكية والتعليم والصحة والسكان وأساليب الحياة الاجتماعية .

وفي إطار هذا المشروع الرائد ظهرت المحاولات الجادة لتأصيل الأسس العلمية والمنهجية لعلوم المستقبل ، ففى نهاية الخمسينيات وطوال حقبة الستينيات شهد المجتمع الأمريكى توالى ظهور العديد من الدراسات التى شكلت فيما بعد البنية الأساسية لما يسمى بالمدرسة الأمريكية في المستقبليات . وقد تجسد ذلك في تأسيس معهد المستقبل عام ١٩٦٨ ، وقد تزعم هذا العمل العالم الرياضى الأمريكى أولاف هلمر . وجاء في بيان التأسيس لهذا المعهد أنه يهدف الى استكشاف الامكانيات المستقبلية للمجتمع الأمريكى أولا ثم المجتمع الدولى ، وأيضا يهدف الى رسم صورة علمية للمستقبل المرغوب في تحقيقه بالنسبة للأمريكيين(٤٧) ويمثل معهد هدسن نقلة هامة في مسار الدراسات المستقبلية بالولايات المتحدة سواء في نوع الدراسات التى قدمها خصوصا في المجال العسكرى والاستراتيجى أو الاضافات المنهجية التى تمثلت في استحداث أسلوبين جديدين في الدراسات المستقبلية عرفا باسم السيناريو والمستقبل البديل(٤٨) . وقد راج استخدام هذين الأسلوبين في السنوات الأخيرة من قبل الباحثين المستقبليين الذين ينتمون لكافة التخصصات وللمدارس العلمية المتباينة .

وقد شهدت السبعينيات ظهور العديد من الهيئات والمعاهد المتخصصة في الدراسات المستقبلية امتدت على الساحة الأمريكية شمالا وجنوبا ومن أبرزها معهد نيويورك للمستقبليات والجمعية العالمية لدراسة المستقبل World Future Study . كما بدأت المحاولات لادخال الدراسات المستقبلية ضمن المناهج الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات . ويرى البعض أنها تبلغ حاليا ٤١٥ مقررا دراسيا موزعا على ١٨ ولاية أمريكية(٤٩) .

وغطت الدراسات الأمريكية عن المستقبل الاقتصادى والتكنولوجى للعالم الأوساط العلمية المتخصصة وبدأت تنتشر في دول العالم الثالث .

ومن أبرز الاسهامات المنهجية التى قدمتها المدرسة الأمريكية في مجال البحوث المستقبلية أسلوب (دلفى) Delphi Method الذى يمثل رؤية عصرية للدور الذى كان يقوم به كهنة معبد دلفى في الحضارة اليونانية القديمة بالنسبة للتكهن بالمستقبل . وقد أصبح هذا الأسلوب لصيقا بالدراسات المستقبلية وخصوصا أن استحداثاته المتنوعة في إطار هذه الدراسات قد أعطى عائدا خصبا في مجال التنبؤات التكنولوجية والاجتماعية . ويرجع ذلك الى أنه يجمع بين أكثر من أسلوب من أساليب الدراسات المستقبلية ، فهو يجمع بين الأسلوب الحدسى والاستطلاعى والمعيارى ، ويمكن تطبيقه على مراحل وفي كل مرحلة يمثل خطوة متقدمة منهجيا عن تلك التى تسبقها سواء في جمع

---

(٤٧) انظر : محمود زايد : مصدر سابق ـ ص ٣٣ .

(٤٨) انظر : E. Cornish: Op. cit P. 86.

(٤٩) انظر : هاني خلاف : مصدر سابق ـ ص ١٣ .

البيانات أو تحليلها واستخلاص مؤشراتها المستقبلية[٥٠] . وقد أثبت هذا الأسلوب أهميته وفاعليته في جمع وتحليل المعلومات خصوصا في الميادين التي لا تتوافر لها قاعدة عريضة من المعلومات .

المدرسة السوفيتية وبحوث المستقبليات

هناك فروق جذرية تميز المدرسة السوفيتية كرائدة للتوجه والتطبيق الاشتراكى العلمى المستند الى النظرية الماركسية اللينينية عن المدارس الغربية التى تلتزم النهج الرأسمالى مثل المدرسة الفرنسية والأمريكية في حقل الدراسات المستقبلية ، ويرجع ذلك الى أن التخطيط المتوسط والطويل المدى يعد سمة بارزة تلتزم بها كافة النظم الاشتراكية ، حيث تقوم بتطبيقه من خلال مجموعة من السياسات المتكاملة والمتاحة لها كسلطة مركزية تملك في مجال التطبيق إمكانيات كبيرة للتسيير والمتابعة وخلق الظروف الموضوعية لتحقيق هذه السياسات . ولذلك فالتخطيط طويل المدى يجد لنفسه مكانا بارزا في مجموعة الدول الاشتراكية التى تمارس قدرا كافيا من التدخل المركزى في الحياة الاقتصادية والثقافية ، وهو يحتاج الى خلفية أعرض في نوعيتها وأطول في مداها من الاسقاطات والتنبؤات والتحليلات المستقبلية . وتمثل هذه الخلفية حجر الزاوية في رسم المسارات المستقبلية الأكثر استقرارا ، كما أنها تفيد كثيرا في التنبه الى المخاطر والاختناقات المفاجئة مما يساعد على رسم السياسات الكفيلة بتجنب هذه المخاطر في الوقت الملائم[٥١] .

وقد بدأ الاتحاد السوفيتى في تطبيق هذه السياسة في منتصف الخمسينيات حيث أدرجت كجزء من برنامج الحزب ثم تم اقرارها عام ١٩٦١ وتوالت بعدها الحلقات المتتابعة من الخطط الخمسية .

ولم يتسع هذا البرنامج سواء من حيث مداه الزمنى وآفاقه التطبيقية إلا في حقبة السبعينيات وتمثل السنوات الخمس الماضية (١٩٨١ـ١٩٨٥) الفترة الثالثة التى تم خلالها تطبيق هذا الأسلوب حيث كانت خطط النمو الاقتصادى مسبوقة بدراسات خاصة بالتخطيط طويل المدى . وقد أسفرت هذه الدراسات عن وضع البرنامج الشامل للتقدم العلمى والتكنولوجى الذى تم توزيعه على ثلاث فترات زمنية :

تمتد الفترة الأولى : حتى عام ١٩٩٠ ، وقد أجريت الدراسات الخاصة بها على ضوء ظروف عامى ١٩٧٢ـ١٩٧٤ للاستفادة منها في إعداد الخطة الخمسية ١٩٧٦ـ١٩٨٠ .

وتمتد الفترة الثانية : حتى عام ٢٠٠٠ ، وقد أجريت الدراسات الخاصة بها على ضوء ظروف عامى ١٩٧٦ـ١٩٧٨ للاستفادة بها في الخطة الخمسية ١٩٨١ـ١٩٨٥ .

أما الفترة الثالثة : فهى تمتد حتى عام ٢٠٠٥ ، وقد أجريت الدراسات الخاصة بها على ضوء ظروف عامى ١٩٨١ـ١٩٨٣ للاستفادة بها في الخطة الخمسية ١٩٨٦ـ١٩٩٠ .

وقد أشرف على هذا البرنامج لجنة مؤقتة تابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية ، ثم تولاه بعد ذلك المجلس العلمي الذي تأسس عام ١٩٧٦ ممثلا الأكاديمية العلوم السوفيتية ولجان الدولة للعلم والتكنولوجيا ، وهي تهتم أساسا (بالتنبؤ في

(٥٠) لمزيد من التفاصيل انظر : ناهد صالح ـ مصدر سابق ـ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، محمود زايد ـ مصدر سابق ـ ص ٣٢

(٥١) انظر . إبراهيم سعدالدين : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٢٢ .

المجالات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية ، وتتكون من وحدات قطاعية ولجان إقليمية وفقا للتخصصات المختلفة(٥٢) .

ومنذ نهاية السبعينات (١٩٧٩) أصبح هناك شرط أساسي يقضي بأن كل خطة خمسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في الاتحاد السوفيتي لابد أن تكون مسبوقة بتخطيط طويل المدى يتراوح بين ١٠ ـ ١٥ سنة قادمة ، بحيث يرتبط هذا التخطيط بالخطط السابقة عليه في إطار البرنامج الشامل للتقدم العلمي والتكنولوجي لمدة ٢٠ عاما مقبلة . ومنذ ذلك الحين أصبحت الدراسات المستقبلية تمثل الخلفية الأساسية للبرنامج الشامل حيث توضع خطط التنمية ، وتقاس فاعلية البرامج والمشروعات والحلول الإدارية والتنظيمية الخاصة بهذه الخطط في إطار تنبيء شامل . وتتميز هذه الفترة بنشوء لجنة متخصصة ومتنوعة للدراسات المستقبلية على مستوى مركزي ، ولها فروع في شتى جمهوريات الاتحاد السوفيتي وقد عرفت باسم لجنة مشكلات التقدم العلمي والتكنولوجي . وتختص هذه اللجنة بدراسة المشكلات النظرية والتطبيقية في مجال الدراسات المستقبلية والتنبؤ الاقتصادي والاجتماعي على المستوى المحلي والعالمي(٥٣) . هذا وتعد مجموعة فيلينيس (Vilnius) التي تضم بعض العلماء السوفيت في مجال التنبؤ من أشهر فرق البحث في مجال المستقبليات ، وقد أحرزت تقدما محسوسا في التوصل إلى بعض المعايير المنهجية الخاصة بالتنبؤ الاقليمي في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية(٥٤) . كذلك لوحظ أن علماء المستقبليات في مناطق منسك ولينينجراد وريجاقد شاركوا في هذا الإنجاز العلمي . وقد أشار هؤلاء العلماء إلى أهمية البدء بتشخيص أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية على مستوى الأقاليم ثم وضع نظام للأولويات يليه البدائل الممكنة لتحقيق هذه الأهداف في إطار الموارد المتاحة . كما توصلوا إلى إعداد نماذج كلية تشمل التشابكات المختلفة باحتمالاتها المتعددة في مجالات التنمية كي يتاح اختيار أكثر العناصر كفاءة وفاعلية من بينها لتحقيق الأهداف المطلوبة . وقد ساعدت هذه الإنجازات في تطوير دراسات التنبؤ المعياري كما أبرزت أهمية الدراسات الاستكشافية في مجال المستقبليات .

ويلاحظ أن دراسات التنبؤ فى مجالات العلم والتكنولوجيا قد حققت درجة عالية من التقدم في الاتحاد السوفيتي ، بينما لم تزل الأبحاث في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية والجغرافية في طور التطوير ، وخصوصا مايتعلق بالجوانب التي تحدد (ماقبل التنبؤ) مثل الهدف والمشكلة البحثية والأولويات والفروض والمدى الزمني والطرق والتنظيم الخاصة بهذه البحوث التنبئية حيث تتدخل القيم والأهداف في رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه(٥٥) .

والواقع أن الاهتمام الأكبر لعلماء التنبؤ السوفيت يتجه إلى الجوانب النظرية والمنهجية والفلسفية للتنبؤ . وهناك مجموعة من الإشكاليات المنهجية والنظرية الخاصة بالتنبؤ كمجال متميز في حقل المستقبليات تستحق أن يتوقف عندها العلماء والباحثون مثل تحديد العلاقة المنهجية بين الوظائف الوصفية والتفسيرية والتنبؤ العلمي ، وكذلك المحددات الرياضية والاجتماعية والتاريخية للتنبؤ ومكانة التنبؤ في إطار الدراسات التحليلية والاستكشافية(٥٦) . هذا ويتجسد

---

(٥٢) Igor V. Bestu zhev Lada: Futures research in U.S.S.R. Academy of sciences of U.S.S.R. Moscow-1986.

(٥٣) Igor. V.B. Lada: Ibid-PP 2-4.

(٥٤) Igor. V.B. Lada: Forcasting and planning in U.S.S.R. Butterworth Company (Publisher) Feb. 1986.

(٥٥) Igor B. Lada: A Soviet Scientist Looks at Futurology-Courier UNESCO, April 1971 P. 24.

(٥٦) Igor. B. Lada: Forcasting, an approach to the problem of the Future. Moscow Journal 4-1972-P 38.

الاهتمام السوفيتي بالدراسات المستقبلية في مجموعة من النشاطات العلمية المنظمة التي تتمثل في تنظيم مجموعة من السيمنارات الخاصة ببحوث المستقبل وأبرزها سيمنار لينتجراد الخاص بالتنبؤ العلمي والتكنولوجي في المجال الصناعي ، وهذا السيمنار يتم تنظيمه سنويا منذ عام ١٩٧١ . وهناك ندوة كييف التي تجتمع مرة كل عامين منذ عام ١٩٦٧ ، والتي تضم ألف مشارك تقريبا وهي تركز أيضا على التنبؤ في المجال العلمي والتكنولوجي . وهناك سيمنار توفسيرسك السنوي وهو يهتم بمتابعة مشكلات الثبات في التنبؤ . أما سيمنار منسك فهو يختص بالتنبؤ في مشكلات المدن ، بينما يختص سيمنار فيلينيس بالتنبؤ الإقليمي ، ويختص سيمنار ريجا بوسائل التنبؤ ، ويركز سيمنار موسكو على التصميم . ومن أبرز المجلات العلمية المتخصصة في بحوث المستقبل جورنال موسكو الشهري وهو الوحيد الذي يغطي نطاقا واسعا من بحوث المستقبل . هذا عدا النشرات العلمية الدورية التي تصدرها السيمنارات السابقة الذكر والتي تتضمن أحدث البحوث في مجال المستقبليات ودراسات التنبؤ .

لقد استمرت الأبحاث المستقبلية في الاتحاد السوفيتي تعاني من النقص الشديد في المراجع والمنشورات الأكاديمية ، الأمر الذي شكل إعاقة لعمليات التدريب ، إلا أن هذه العقبة تم التغلب عليها إلى حد مامن خلال أول كتاب عام يختص بالتنبؤ الذي أعده أعضاء المجلس القومي للجمعيات العلمية والتقنية المعنية بعمليات التنبؤ العلمي والتكنولوجي ـ ولم يزل هذا الكتاب يستخدم كمرجع في التنبؤات العامة ، وأيضا يستخدم كمرجع للتدريب المتخصص(٥٧) .

ويبدأ الكتاب بمقدمة تهدف إلى إعطاء خلفية عامة عن التنبؤ ويعقب هذه المقدمة إشارة إلى التاريخ الخاص بدراسات المستقبل ، والتصورات الاجتماعية ، ومختلف مراحل أبحاث الدراسات الخاصة بالمستقبل في مختلف الأقطار .

ويعد هذا الكتاب بمثابة تقرير دقيق عن الأساليب المنهجية للتنبؤ وتطبيقاتها النوعية فى مجالات الجيولوجيا ، البيولوجيا ، الطب ، الجغرافيا ، الإيكولوجيا ، الفضاء ، العلم والتكنولوجيا ، الاقتصاديات ، علم النفس ، علم الاجتماع ، الديموجرافيا ، الأنتوغرافيا ، المعمار ، التربية ، الثقافة والفنون ، الدولة والقانون ، السياسة ، القانون الدولي والعلوم العسكرية .

وبالكتاب ملحق يتضمن معلومات أساسية عن المعاهد الرئيسية الخاصة بالتنبؤ على مستوى العالم ، كما يتضمن جزءا عن التجربة السوفيتية في مجال التنبؤ القطاعي ، وقاموس اصطلاحي وبيليوجرافيا عن الإسهامات الرئيسية في مجال التنبؤ في بحوث المستقبل التي ظهرت في الفترة من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٨٠ باللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبلغارية والمجرية والبولندية والرومانية والتشيكوسلوفاكية .



(٥٧) انظر I.V.B. Lada: Futures research in U.S.S.R. Op cit. PP 10-11.

الإسهامات العربية في حقل الدراسات المستقبلية

لاشك أن ما يبدو على الساحة العربية من افتقاد شبه تام للرؤية المستقبلية تتمثل في مجموعة من السمات تضع الوطن العربي في هذه المرحلة من تاريخه ، وبكل ما يزخر به من ثروات بشرية وطبيعية ، وما يحمله من تراث حضاري ، وما يواجهه من تحديات داخلية وخارجية ومايتعرض له من هدر لاعقلاني لامكانياته الهائلة المادية وغير المادية . كل هذه السمات وغيرها تضع الوطن العربي كله أمام مأزق تاريخي مخيف يوحي باحتمالات الانقراض التدريجي أو الاستمرارية والبقاء ، ولكن بشروط محددة لاتقبل المساومة تنحصر في حقيقة واحدة ساطعة هي الاهتمام بالمستقبل ليس من خلال التطورات التقليدية التي تمنح للظروف وللدخلاء والطامعين إمكانية تشكيل المستقبل العربي عوضا عن أبنائه ، وليس من منطلق الرؤي الجزئية ذات الأطر القطرية الضيقة ، وليس من خلال استيراد التكنولوجيا العالمية ، بل لابد أن تتولاها عقول عربية تستوعب بالمعايشة والمعاناة وأعمال العقل عبرة التاريخ العربي الحديث والمعاصر وخلاصة الواقع العربي الراهن بمايطرحه من إمكانيات للتقدم وقدرات خلاقة لتجاوز مواطن العجز الكامنة في التراث وأنماط الحياة اليومية وأساليب الفكر والسلوك المهيمنة على الأمة العربية أفرادا وجماعات .

ولقد تجاوزت معظم البلدان العربية مرحلة التنمية القائمة على مشروعات جزئية متفرقة ، واهتمت بإنشاء أجهزة ووزارات للتخطيط . وهناك إثنتاعشرة دولة عربية تبنت سياسات تخطيطية متوسطة المدى من بينها ثماني دول تمارس قدرا من السيطرة المركزية لا يمكن التقليل من أهميته ، وذلك من خلال أجهزة ووزارات التخطيط العربية(٥٨) وقد أولت بعض المنظمات العربية اهتماما ملحوظا للدراسات القطاعية سعيا للتوصل إلى تصورات إستراتيجية عربية مشتركة تمثل حلقة في سلسلة المحاولات المستمرة لتحقيق الحد الأدنى من التعاون العربي المشترك لمواجهة التحديات المستقبلية التي تجابه الوطن العربي ككل . وقد أسفرت هذه المحاولات عن مجموعة من الوثائق التي تعالج قضايا ذات صلة بالمستقبل العربي ، وتتلمس خطوط التحرك الاستراتيجي في المجالات المختلفة حتى نهاية القرن العشرين . وتهدف هذه الدراسات والوثائق إلى إعطاء قدر من التصور الاستراتيجي لآفاق ومستقبل تطور الأوضاع العربية في العديد من المجالات . وعلى المستوى القومي تزامن هذا الاهتمام بوضع الأستراتيجيات القطاعية مع بعض المحاولات التي بذلت من جانب العلماء العرب للسعي نحو صوغ نماذج كمية تضم الوطن العربي كله . وقد استلزمت هذه المحاولات ضرورة التعرف إلى النماذج العالمية ودراسة أساليبها الفنية وتصنيفاتها المختلفة سعيا للاستفادة بها فيما يمكن إجراؤه من دراسات مستقبلية على المستوى العربي . ونذكر في هذا المجال الإسهام الرائد الذي قدمته (مجموعة التخطيط طويل المدى للبلدان العربية) التي أنشئت بمعهد التخطيط القومي في القاهرة ، وأشرف على نشاطها الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن ، وكانت تضم كوكبة من العلماء والباحثين المصريين . وقد عملت هذه المجموعة بالتعاون العلمي مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي ومنظمة اليونيدو . ولقد أعدت هذه المجموعة التي عرفت باسم (مجموعة القاهرة) بعض الدراسات الهامة التي تمثل في مجملها مشروع نموذج عربي للمستقبليات ، إلا أن هذا المشروع لم يكتب له الخروج إلى دائرة التطبيق(٥٩) .

---

(٥٨) لمزيد من التفاصيل انظر : إبراهيم سعد الدين : وآخرون صور المستقبل العربي - مصدر سابق - ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٥٩) انظر : نادر الفرجاني : حول استشراف المستقبل العربي للوطن العربي رؤية نقدية للجهود المحلية والخارجية - مجلة المستقبل العربي - بيروت - مايو ١٩٨٠ .

ويضاف إلى هذا الجهد العديد من الدراسات ذات الطابع الفردي ، التي تفتقر إلى التكامل والشمول في تناول ومعالجة القضايا المستقبلية في تشابكاتها المعقدة . وفيما عدا ذلك هناك دراسة رائدة تتميز بالطابع الجماعي أصدرتها مؤسسة المشاريع والإنماء العربية عام ١٩٧٥ بإشراف أنطون زحلان تحت عنوان (الوطن العربي عام ٢٠٠٠)(٦٠) . وتتكون هذه الدراسة من مجموعة دراسات قطاعية تشمل السكان والتعليم والتحضر والموارد البشرية والزراعة والري والنفط والنقل والنمو الاقتصادي الكلي . وقد تضمنت هذه الدراسات توصيفا للأوضاع الراهنة لكل قطاع ثم إسقاطات مبسطة لمستقبل كل قطاع ، وفي النهاية تضمنت بعض التوصيات العامة .

وتفتقر هذه الدراسة إلى النظرة الشمولية المتكاملة كما أنها لا تستند إلى قاعدة علمية عريضة من المعلومات والبيانات .

وانطلاقا من الوعي العميق بأهمية وضرورة البدء بالخطوة الأولى على الطريق الطويل نحو التحكم في زمام المستقبل العربي . تلك الخطوة التي تتمثل في ضرورة بذل جهد عربي استثنائي من أجل خلق تيار وطني وقومي يؤمن بالدراسات المستقبلية باعتبارها السبيل الأوحد للنهوض الشامل والانطلاق نحو تشكيل المستقبل العربي ومن ثم امتلاكه . ولقد تمثلت هذه الخطوة في مشروع المستقبلات العربية البديلة(٦١) الذي يهدف في الأساس إلى إثارة الوعي حول أهمية الدراسات المستقبلية في الوطن العربي . وينطلق هذا المشروع من إدراك أن التطور المستقبلي للوطن العربي وتنميته لاتصنعه التطورات الاقتصادية فحسب ، ولا يشكله مجرد الزيادة المحتملة في بعض مؤشرات الإنتاج أو التوزيع أو الاستهلاك ، بل إن التنمية الحقيقية لا يمكن أن تتحقق إلا في إطار إجتماعي ـ اقتصادي حضاري شامل . ولذلك فقد تضمن هذا المشروع العديد من الدراسات المتعلقة بمختلف عناصر التطور الحضاري العربي . وتشتمل هذه المجالات :

١ ـ العلاقات بين البنى الاجتماعية والسياسية والتنمية .
٢ ـ عملية صنع القرار .
٣ ـ الديموقراطية والاتصال الجماهيري والمشاركة الشعبية .
٤ ـ الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية .
٥ ـ آليات التبعية .
٦ ـ الوطن العربي والنظام العالمي المتغير .
٧ ـ الآثار غير المدروسة للثروة النفطية .
٨ ـ الموارد البشرية .
٩ ـ موارد واستخدامات العلم والتكنولوجيا .
١٠ ـ الفنون والآداب .
١١ ـ الإطار المؤسسي للتكامل .
١٢ ـ التوحيد العربي وقضايا الأقليات .

(٦٠) انظر : نادر فرجاني ' استشراف المستقبل العربي ـ مصدر سابق

(٦١) شارك في تصميم المشروع مجموعة من المفكرين العرب وعلى رأسهم د إسماعيل صبري عبدالله وإبراهيم سعدالدين وأقرته جامعة الأمم المتحدة بطوكيو في ديسمبر ١٩٨٠ وقد أنجزت كافة دراساته الفرعية وإن لم تصدر بعد في دراسات منشورة .

مستقبل البشرية ، بين رؤى العالم الثالث وفظاظة العالم "نموذج باريلوتشي"

نادر فرجاني

تمهيد

في ابريل ١٩٦٨ اجتمع ثلاثون من الشخصيات العلمية والعامة من عشرة بلدان بدعوة من رجل الصناعة الايطالي أوريليو بيتشاي A. Peccei في مدينة روما لمناقشة المعضلات الحالية والمستقبلية التي تواجه البشرية[١] . ومن هذا الاجتماع نشأ نادي روما Club of Rome كهيئة غير رسمية تسعى لفهم النسق العالمي بأبعاده ، الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، المتشابكة . وقد أسفرت الأنشطة الأولى لنادي روما عن بدء مشروع بحثي تحت عنوان « مأزق البشرية » The Predicament of Mankind ، واستهدف المشروع فحص المشاكل المعقدة التي تواجه البشر في أنحاء العالم كافة : الفاقة وسط الوفرة ، تدهور البيئة ، فقد الثقة في المؤسسات ، الانتشار الحضري المنفلت ، اغتراب الشباب ، رفض القيم التقليدية ، التضخم والاضطرابات النقدية والاقتصادية الأخرى .[٢] وقد اصطلح فيها بعد على تسمية مجموعة المشاكل هذه : « مشكل العالم » World Problematique .

ومن المهم الاشارة هنا إلى أن التوصيف المقدم أعلاه لمشكل العالم يأتي من منظور الغرب المصنع ، وبالتأكيد لا ينطلق من الهموم الجوهرية لغالبية البشرية التي تعيش في بلدان العالم الثالث ، وإلا فأين زوايا التبعية والاستغلال ، وهي قسمات أساسية للتنظيم الاقتصادي ـ السياسي للعالم يرزح تحت عبئها البشر في جنوب الكوكب ؟ وليس هذا التوجه بمستغرب . فنادي روما نشأ في عقر دار الغرب المصنع ، ومن المنطقي أن يعبر عن التوجهات السائدة هناك في

(١) تعتمد هذه الفقرة على تصدير وليام واتس W. Watts لكتاب « حدود النمو » . D. H. Meadows, et al, The Limits to Growth; the New American Library, New York, Second Edition, 1975.

(٢) المرجع السابق ، ص× .

النظر الى العالم . وعلى سبيل التوضيح ، فإن اللجنة التنفيذية للنادي عند قيامه كانت تضم خمسة أفراد ، هم . منشىء النادي ، وكان ينتمي إلى إدارة اثنتين من كبريات الشركات الايطالية (فيات وأوليفيتي) ، ويدير أكبر الشركات الاستشارية الأوروبية في مجال الاقتصاد والهندسة ، بالاضافة إلى رئيس معهد باتيل بجنيف ، والمدير العلمي لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) ، ومدير مركز اليابان للأبحاث ، وأستاذ جامعي بالجامعة الفنية بهانوفر ، وآخر بمعهد ماساتشوسيتسي للتكنولوجيا(٣) . وبتفحص مراكز الثلاثة الأول ومعرفة أسماء وأعمال المجموعة كلها نجد أنه ما كان يتوقع لنادي روما أن يتخذ مواقف جذرية من التنظيم الاقتصادي ـ السياسي القائم للعالم .

وإن كان للمناقشات الأولى لنادي روما من فضل أكيد فهو في لفت الأنظار إلى التفاعل الوثيق بين الجوانب المختلفة لمشكل العالم ، وأن مأزق البشرية يعود في جانب أساسي منه إلى إهمال هذا التفاعل ، وقد أدى هذا التوجه إلى تكريس اعتماد أسلوب الأنساق Systems Approach في دراسة تطور العالم . وفي صيف ١٩٧٠ قدم جاي فورستر J. Forrester ، الأستاذ بمعهد ماساتشوسيتسي للتكنولوجيا ، في اجتماعات للنادي نموذجا بسيطا للعالم يقوم على حركية الأنساق Systems Dynamics ، وتمخضت هذه الاجتماعات عن تكوين فريق بحثي برئاسة دينيسي ميدوز D. Meadows ، الأستاذ بمعهد ماساتشوسيتسي للتكنولوجيا ، بدعم مالي من مؤسسة فولكس فاجن الألمانية . وقد توفر الفريق على دراسة خمسة عوامل رئيسية تحدد النمو في العالم ، كوحدة غير مجزأة : هي السكان ، والانتاج الزراعي ، والموارد الطبيعية ، والانتاج الصناعي ، والتلوث . ونشرت النتائج العامة لهذا المشروع البحثي لأول مرة في ١٩٧٢ في الكتاب ذائع الصيت : « حدود النمو »(٤) .

ولسنا بمعرض دراسة ما قام به أصحاب « حدود النمو » ولكن نود الاشارة فقط إلى بعض السمات العامة ، والنتائج الأساسية ، لهذا العمل نظرا لأنه ترك بصمات واضحة على تطور دراسات مستقبل البشرية : بداية ، يتسم انتقاء العوامل الرئيسية بمسحة غربية واضحة ، فالمشاكل التي يتناولها هي مشاكل العالم من وجهة نظر بلدان الغرب المصنع ، كما أسلفنا في توصيف اهتمامات نادي روما عامة . والنتيجة الجوهرية لهذا العمل هي ضرورة وضع قيود قصدية على النمو في العالم للوصول إلى حالة من التوازن . وتعني حالة التوازن هذه أن يكون عدد السكان وحجم رأس المال مستقرين نتيجة لضبط قوى الاضافة والانقاص بحيث تكون متساوية وعند مستوى متدن(٥) . أما إذا لم يحدث هذا فإن البديل سيكون توقف النمو على الكواكب نتيجة لتخطي الحاجز النهائي ، أي قدرة البيئة الطبيعية على تحمل النمو في البشر وتراكم رأس المال . ولكن هذا البديل يعني أيضا كوارث تحيق بالبشرية تتمثل في نفاد الموارد الطبيعية ، وانهيار البيئة ، والمجاعة .

ولقد شكل عمل فريق « حدود النمو » حافزا أساسيا للعمل الذي نحن بصدد عرضه ، أي نموذج باريلوتشي لمستقبل العالم . فقد نشأت فكرة بناء النموذج في اجتماع دعا إليه نادي روما ، في ريودي جانييرو في صيف ١٩٧١ ،

(٣) المرجع السابق

(٤) سبق الإشارة إليه وقد ترجم إلى العربية

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٣ ـ ١٧٩

لمناقشة ما توصل إليه فريق ميدوز حتى ذلك الحين . وفي هذا الاجتماع قرر المشاركون من أمريكا اللاتينية تكليف مؤسسة باريلوتشي للأبحاث ببناء نموذج للعالم يقوم على وجهات النظر التي عبروا عنها في النقاش .

ولكننا نرى من الضروري ، قبل أن نتحول لتقديم نموذج باريلوتشي ، أن نشير إشارة سريعة لعمل يُعَدُّ المرحلة الثانية لاهتمام نادي روما بمشكل العالم . إذ كلف النادي فريقا بحثيا بقيادة ميزاروفيك Mesarofic وبستيل Pestel ، والأول أستاذ أمريكي من أصل يوغسلافي ، والثاني أستاذ بجامعة ألمانية ، ببناء نموذج يتم فيه تقسيم العالم إلى مناطق ترتبط بعلاقات ، ويتم استخدامه لمناقشة « مشكل العالم » مع التركيز على مسألتي الطاقة والغذاء . وبهذه الصورة ، فإن هذا العمل يكون أرقى فنيا من المحاولة الأولى التي قادها ميدوز . وقد اكتسب عمل ميزاروفيك وبستل ، الذي نشر لأول مرة على الملأ في ١٩٧٤ على صورة كتاب « البشرية في مفترق الطرق »(٦) ، شهرة فائقة . وتعد هذه الدراسة ، في حركة النماذج العالمية ، نقيض نموذج باريلوتشي في أكثر من جانب . ورغم أننا لن نعقد مقارنة بين العملين ، إلا أن التقييم السليم لنموذج باريلوتشي يتطلب إيراد لمحة سريعة عن ذلك الآخر .

وتضم النتائج العامة لعمل ميزاروفيك وبستيل مجموعة من التوجهات والتوصيات الطيبة مثل ضرورة أن يواجه مشكل العالم في إطار عالمي يتبنى منظور الأجل الطويل ، ويعتمد التعاون بدلا من المواجهة(٧) . ولكن التحليل التفصيلي للعمل ينطوي على تحيزات غريبة واضحة ، فعلى سبيل المثال ، تمت مناقشة وضع النفط العربي في نطاق مناقشة الأوضاع العالمية للطاقة ، وتضمنت التوصيات المقدمة للمنطقة العربية في « مفترق الطرق » : أن أفضل سعر للنفط يكون أعلى من سعر ١٩٧٤ بحوالي ٥٠٪ ، وضرورة أن تتعاون المنطقة على إمداد الدول المصنعة باحتياجاتها من النفط . فهذه الاستراتيجية « فضلى » لأنها تؤدي إلى تحقيق أعظم تراكم ثروة للعرب في الدول المصنعة ، على حين تؤدي أي تصرفات بديلة ، مثل تقليل إنتاج النفط ، إلى تراكم أقل لثروة العرب في البلدان المصنعة . ولنلاحظ أن المعيار المستخدم في تحديد ما يعد ميزة للمنطقة هو تراكم ثروتها في الغرب المصنع ، وليس تنمية القدرات الذاتية للمنطقة ، أو التراكم الرأسمالي المحقق للتنمية داخلها . كذلك تضمنت التوصيات العامة ضرورة تخفيض نمو السكان في العالم عن طريق برامج الحد من النسل ، في العالم الثالث طبعا(٨) . وفي النهاية ، فإن تحليل هذه المجموعة لأوضاع العالم ، وبدائل مستقبله ، كان يفترض ، ضمنا ، استمرار جوهر التنظيم الاقتصادي ـ السياسي القائم للعالم . وياله من افتراض يذكرنا بقولة النفرى : « واقعد في ثقب الابرة ولا تبرح . . . وافرح » .

---

(٦) انظر M. Mesarovic & Pestel, E., Mankind at the Turning Point, the New American Library, New York, 1974.
وقد ترجم إلى العربية .

(٧) المرجع السابق ، ص١٤٣ ـ ١٥٧

(٨) يثير الإصرار على تخفيض معدل نمو السكان في العالم ، أي في العالم الثالث ، في أعمال نادي روما ، وغيره من الدوائر الغربية والدولية ، كثيرا من الريبة وهل يمكن أن نستبعد ، في هذا الصدد ، تذكر أن السبعينات شهدت لأول مرة في التاريخ الحديث زيادة نصيب العالم الثالث من سكان العالم على نصيب البلدان الغربية المصنعة ، وسيادة التوقع بأن يزداد هذا الفارق بمرور الزمن حتى ينخفض نصيب تلك الأخيرة إلى الثلث عند مطلع القرن القادم ؟

نموذج باريلوتشي للعالم

مؤسسة باريلوتشي هيئة بحثية خاصة تستمد اسمها من المنتجع الجبلي الصغير الذي يستضيف مقرها البحثي ، سان كارلوس دي باريلوتشي ، والذي يقع في جنوب غرب الأرجنتين على حدود شيلي . وقد أشرنا إلى البداية التاريخية لمشروع بناء نموذج للعالم بالمؤسسة بتكليف من مجموعة من المفكرين من أمريكا اللاتينية التي خولت لجنة من ستة من كبارهم الاشراف على المشروع . أما المشروع ذاته فقد قام به فريق رئيسي ، متعدد التخصصات ، من قرابة عشرين من الباحثين برئاسة أميلكار هيريرا A. herrera ، واضطلع فيه بدور بارز أوجو سكولنيك H. Scolnik ، ونشرت خلاصة للعمل بالانجليزية في كتاب صدر عن مركز أبحاث التنمية الدولية الكندي IDRC ، الذي مول المشروع جزئيا ، وذلك في ١٩٧٦(٩) . وقد نشر التقرير التفصيلي عن المشروع بعد ذلك بعدة لغات . ويقوم عرضنا هنا على ترجمة عربية للتقرير الموجز ، أعدها كاتب هذه الورقة(١٠) .

الاطار النظري

لا يقوم موقف نموذج باريلوتشي على حياد أيديولوجي مزعوم كما هو الحال في كثير من الدراسات المستقبلية ، خاصة تلك التي تتضمن بناء نماذج رياضية ، فهو ، على العكس من ذلك حيث يعترف واضعوه بداية بأنه معياري (normative) ، بمعنى أنه يحاول رسم طريق يوصل إلى غاية محددة سلفا . وهذه الغاية هي عالم متحرر من التخلف والبؤس . وفي هذا الصدد ، يتبنى النموذج تصورا للعالم يشترك فيه أعضاء فريق العمل ويلتزمون به بعمق .

والواقع أن كلمة « نموذج » تستعمل في التقرير عن المشروع بطريقتين : الأولى بالاشارة إلى مفهوم مجتمع « مثالي » ، والثانية للتعبير عن نموذج رياضي .

ويقدم المجتمع المثالي كرد على المدرسة الفكرية الشائعة في الغرب المصنع ، والتي ترجع مشكل العالم إلى النمو السريع للسكان ، ولقد قدمنا لها مثالين هامين في القسم السابق : « حدود النمو » و « البشرية في مفترق الطرق » . ولكن موقف باريلوتشي مختلف جذريا . فعندهم أن المشاكل الأساسية التي تواجه العالم ليست حدودا طبيعية تتعارض مع النمو السريع للسكان ، ولكنها اجتماعية ـ سياسية تنجم عن التوزيع غير المتكافىء للقوة بين البلاد ، وداخلها . ومن ثم فإن المجتمع المثالي الموصوف يقوم على أن الانسان لن يتحرر من القهر والتخلف في نهاية المطاف إلا عن طريق تغييرات جذرية في التنظيم الاجتماعي ـ السياسي للعالم . والمقترح هو تحول نحو مجتمع اشتراكي في الأساس ، يقوم على

(٩) A. Herrera, et al, Catastrophe Or New Society? A latin American World Model, IDRC, Ottawa, 1976.

(١٠) أميلكار هيريرا ، أوجو سكولينك وآخرون ، كارثة . أم مجتمع جديد ؟ نموذج للعالم من أمريكا اللاتينية ، ترجمة نادر فرجاني ، تقديم د . إبراهيم حلمي عبدالرحمن ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣

المساواة والمشاركة الكاملة لكل أعضائه في القرارات التي تؤثر عليهم ، وينظم فيه الاستهلاك والنمو الاقتصادي بطريقة تؤدي لتحقيق مجتمع متوافق مع بيئته .

وينتقد واضعو النموذج ، بداية ، نموذجي التنظيم الاجتماعي ـ السياسي السائدين في العالم المعاصر ، الرأسمالي والاشتراكي ، بتنويعاتها القائمة حاليا ، فالنموذج الرأسمالي يقوم على الملكية الخاصة ، والمبادأة ، والربح الخاص ، ويؤدي إلى نشوء مجتمعات قوامها أبنية طبقية يسود فيها عدم المساواة ، والسيطرة ، والاستغلال (واستعمال الحث والتشكيل كوسائل للضبط الاجتماعي) . ويتحقق ذلك داخل المجتمعات الرأسمالية ، وعلى صعيد النظام الرأسمالي العالمي . ويترتب على ذلك اغتراب الانسان في بلدان المركز الرأسمالية ، ووقوع البلدان المتخلفة في شرك التخلف والتبعية .

أما النموذج الاشتراكي ، فإن صورته المثالية تقوم على إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وإنشاء مجتمع لاطبقي يتسم بغياب السيطرة والاستغلال وعدم المساواة ، وتقترح إنشاء نظام عالمي جديد يقوم على التضامن وعلى تقسيم دولي يستبعد الاستغلال والسيطرة . ولكن التجربة التاريخية تشير إلى أن الأنظمة « الاشتراكية » قد اتسمت بوجود بيروقراطيات حزب ودولة تحولت إلى أبنية قوة شديدة المركزية ، وسلطوية ، وبالغة الجمود في التدرج الاجتماعي ، كما مالت هذه النخب إلى تكريس فروق اجتماعية تتوقف على مدى الانتماء إلى الأقلية التي تمسك بالقوة السياسية .

ويحرص فريق باريلوتشي على عدم إنكار السمات الايجابية لكلا النظامين . فالرأسمالية البرجوازية ، بثوراتها التقانية والسياسية ، كانت واحدة من أكثر التيارات التاريخية حركية وفعالية ، وفتحت عصراً من التقدم الانساني غير مسبوق ، بينما وضعت الثورات الاشتراكية نهاية لبعض من أكثر الأنظمة تخلفا في العالم الحديث .

كذلك لا يمكن إنكار أن الأنظمة الاشتراكية قد حققت إنجازات ذات أهمية تاريخية حقيقية . فقد تمكنت من كبت إحدى الدعائم الأساسية التي تفرز عدم المساواة عن طريق تأميم وسائل الانتاج . كذلك أظهرت هذه الأنظمة أنه يمكن إشباع الحاجات الأساسية لمعظم السكان في بعض من أكثر بلدان العالم تخلفا ، وبمعدلات يكاد لا يسبقها مثيل في التاريخ .

ولكن تبقى حاجة لتصور مجتمع جديد . وتتبنى رؤية باريلوتشي لهذا المجتمع قيمتين أساسيتين : المساواة الأساسية بين بني البشر ، ومفهوم التاريخ كعملية لا حد لها يتوقف اتجاهها في التحليل الأخير على رغبات وأفعال البشر . الأولى تشكل الأساس الصالح الوحيد لبناء عالم يسوده الوفاق ، والثانية شرط أساسي لتحقيق هذا العالم .

ولا تقدم رؤية باريلوتشي وصفا تفصيليا للمجتمع المنشود . ويعود ذلك إلى أن أي عملية تاريخية تكون ، في

جوهرها ، غير مسبوقة . وعلى وجه الخصوص ، فإن كل مجموعة حضارية غالبا ما تسلك طريقا متميزا لتحقيق ذات الغايات النهائية . ومن ثم ، لا يتضمن النموذج إلا وصفا إجماليا للمجتمع الجديد ينتظم حول العناصر الآتية :

١ ـ الغاية النهائية هي مجتمع مساواتي egaliterian على الصعيدين القطري والدولي . والمبدأ الأساسي لهذا المجتمع هو الاعتراف بأن لكل إنسان ، لمجرد وجوده ،حقا لا جدال فيه في إشباع حاجاته الأساسية ـ الغذاء ، السكن ، الصحة ، التعليم ـ والتي هي ضرورية لاندماجه الكامل والنشط في مجتمعه .

٢ ـ المجتمع المقترح ليس مجتمعا استهلاكيا ، ويتحدد فيه الانتاج بالحاجات الاجتماعية وليس بدافع الربح . ولا شك أن الحاجات الاجتماعية تتغير باستمرار ، وتتحدد مشروعية الحاجات في المجتمع الجديد عن طريق المشاركة الفاعلة لأعضائه . وعلى حين يكفل حق الفرد في التعبير الحر ، فإن اتخاذ القرارات يكون عن طريق آليات العمل الجمعي . وعلى أساس مدى الأهمية للمجتمع ، تناقش القضايا ، وتتخذ القرارات ، على مستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي ـ السياسي

٣ ـ ينتفي في المجتمع المقترح استخدام الملكية كوسيلة للحصول على القوة أو الميزات الشخصية . فبدلا من الملكية الخاصة أو ملكية الدولة ، تقوم أساليب لاستعمال وإدارة وسائل الانتاج باللجوء إلى آليات العمل الجمعي وحسب طبيعة وأهمية وسيلة الانتاج ، يمكن أن تقع مسؤولية إدارتها على وحدات انتاج ، أو لجان مؤقتة أو كومبونات دولة ، وستتوقف أساليب الاستعمال والادارة هذه على العادات والملامح الحضارية والتنظيم الاجتماعي .

٤ ـ يوفر تطبيق هذا النموذج المثالي في عدد متزايد من بلاد العالم الظروف الأساسية لخلق نظام عالمي متوافق ، قادر على نشر العدالة ، والرفاهية والديمقراطية ، وعلى اقتلاع جذور الحرب . ويمكن أن يؤدي ذلك إلى نشوء شكل من التنظيم الدولي يحترم حرية وذاتية كل الدول ، ويروج للاندماج التدريجي في جماعة دولية متحررة من النزعات الاقليمية .

الحدود الطبيعية للتنمية

لا يكفي بالطبع وصف مجتمع مثالي ، بل يلزم بيان إمكانية قيامه . ويقتضي ذلك إظهار أنه لا يتوقع أن تفرض محدودية الموارد الطبيعية . في المستقبل المنظور ، أي عوائق في سبيل تحقيق هذا المجتمع في صورة حدود طبيعية مطلقة كذلك يتعين تبيان أن دول ومناطق العالم ، وبخاصة الأفقر منها ، يمكن أن تبلغ الأهداف المرجوة خلال فترة زمنية معقولة ، بدءا من الموقف الحالي بالنسبة لتوافر رأس المال ، والقوى البشرية ، والموارد الطبيعية ، والاتجاهات السكانية ، الخ . .

ولتحقيق الهدف الأول ، أي بيان عدم وجود حدود طبيعية مطلقة في المستقبل المنظور ، قام فريق باريلوتشي بتحليل معمق لأوضاع الموارد الطبيعية والتلوث ، وأنشأ نموذجا رياضيا لمعالجة الهدف الثاني : إثبات أن كل بلاد أو مناطق العالم يمكن أن تنتقل من أوضاعها الحالية الى الأهداف المقترحة في مدى زمني معقول .

والقصد من تحليل أوضاع الموارد الطبيعية والتلوث هو بالطبع دحض المزاعم التي سادت دوائر عدة في الغرب المصنع ، وخاصة دراسة « حدود النمو » ، باستحالة قيام مجتمع عالمي يتمتع فيه كل البشر بمستويات معيشية ملائمة دون ضبط نمو السكان ، نظرا لوجود حدود طبيعية يستحيل تخطيها يفرضها نفاد الموارد الطبيعية المتوقع في المستقبل غير البعيد ، والآثار السامة للتلوث المتزايد . وترتبط بهاتين المسألتين إمكانية إنتاج الطاقة بكميات تتمشى مع زيادة عدد السكان وارتفاع مستويات استهلاك الفرد منها ، وهذه قضية اهتم بها الغرب المصنع بوجه خاص .

ويبدأ تحليل باريلوتشي لأوضاع الموارد الطبيعية ببيان أنه لا يمكن التعبير عن الثروة المعدنية لمنطقة ما بشكل مطلق وغير مشروط ، ولكن فقط بالنسبة إلى أوضاع اقتصادية وتقانية معينة . وحتى عندئذ يكون هناك هامش خطأ كبير . وعلى وجه الخصوص ، فإن تقديرات الاحتياطيات المعروفة من أي مورد معدني تتوقف على الظروف الاقتصادية والتقانية السائدة وقت التقييم ، أما في المستقبل فستؤدي تركيبات مختلفة من هذه الظروف إلى تعديل هذه التقديرات . وتدل الخبرة التاريخية على أن التعديل كان دائما إلى الأعلى ، وبفروق هائلة .

وينتهي فحص المعلومات المتاحة عن الموارد المعدنية في القشرة الأرضية وقاع البحر إلى أن الاحتياطيات المعدنية التي يمكن استغلالها بالفن الانتاجي الحالي ، أو المنتظر في المستقبل القريب ، يحتمل أن تكفي البشرية لقرون عديدة مستقبلا .

كذلك يفضي التحليل إلى ضرورة مراجعة المفهوم الشائع الذي يفترض أنه ما دامت الأرض محدودة ، فلا بد أن تكون مواردها كذلك . وهذا بالقطع صحيح . ولكن المغالطة التي تقدم كبرهان دامغ على الكارثة التي ستحل بالعالم نتيجة لاستمرار تزايد السكان ، تخلط بين المحدودية والنفاد . بخلاف استثناءات قليلة ، لا تفقد الكميات الهائلة من المعادن في قشرة الأرض بمجرد تعدينها واستعمالها ، ولكنها تستمر لتكون جزءا لا يتجزأ من الموارد المعدنية للكوكب . فقد تدخل مؤقتا في سلع رأسمالية أو استهلاكية ، وقد تدمج كيميائيا مع عناصر أخرى . ولكن ، على الرغم من هذا ، تبقى ولا تفنى . وقد أثبت الفن الانتاجي الحديث قدرته على إيجاد طرق لاستخلاص الموارد من أكثر التركيبات الجيولوجية تنوعا ، وعلى تدوير المواد التي استخدمت قبلا ، مرة أو أكثر في استخدامات جديدة .

أما بالنسبه لموارد الطاقة ، فقد أظهرت دراسات باريلوتشي أن الهيدروكاربونات ، في صورة سوائل وغازات ، يحتمل أن تبقى لمدة مائة عام تقريبا ، بينما قدر أن هناك مايكفي من الفحم ، على معدلات الاستهلاك الحالية لمدة حوالي

أربعة قرون . ولكن مصدر الطاقة المستقبلي الأهم هو الوقود النووي . وكان التقدير أن الاحتياطيات المحتملة من اليورانيوم والثوريوم تكفي لسد الاحتياجات من الطاقة إلى الأبد تقريبا . وعليه ، فإنه لايوجد داع ، من منظور التوافر المادي ، لتوقع مشاكل في مصادر الطاقة في المستقبل المنظور . وتؤكد الدراسة أن أزمة الطاقة التي ركز عليها الغرب المصنع هي ، في المنظور التاريخي ، ذات طابع عرضي .

وتفرق دراسات باريلوتشي عن التلوث بين البلدان الغنية والفقيرة . في الأولى يقترن التلوث بتوسع النشاط الصناعي ، والأعداد المتزايدة من السيارات وغيرها من معالم معدلات الاستهلاك المرتفعة . وضبط هذا النوع من التلوث ممكن بشرط وجود سياسات مكافحة مناسبة . أما في البلاد المتخلفة ، فينتج التلوث من الفاقة : تلوث الماء ، أوضاع سكن سيئة ، غياب الصرف الصحي ، الخ . . . والحد من هذا النوع من التلوث رهن بإشباع الحاجات الأساسية . وختاما ، فإن النمو الاقتصادي لايرتبط بالضرورة بزيادة التلوث . وعليه فإنه يمكن ضبط كل أنواع التلوث تقريبا إذا تم اتخاذ القرارات المطلوبة ، وتنفيذ الإجراءات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة .

النموذج الرياضي ونتائجه

ذكرنا أن مشروع باريلوتشي تضمن إنشاء نموذج رياضي كأداة لاستكشاف إمكانية قيام المجتمع المقترح . ويقوم النموذج الرياضي على أنه ، في المجتمع الجديد ، يكون الهدف الرئيسي لنسق الإنتاج هو إشباع الحاجات الأساسية : الغذاء والسكن ، والتعليم والصحة ، طبقا لمعايير معينة والنموذج الرياضي المستخدم هو ، في الجوهر ، نموذج اقتصادي ، أو بصورة ، أدق ، نموذج إنتاجي يتكون من خمسة قطاعات : الغذاء ، والسكن ، والتعليم ، والسلع الرأسمالية ، وأخيرا السلع الاستهلاكية والخدمات الأخرى . ويشمل هذا القطاع الأخير كل ما لا يدخل في الأربعة الأول . وتسمح دالة الانتاج المستخدمة بالاحلال بين العمل ورأس المال وتعكس التحسن في الإنتاجية استجابة للتقدم التقاني . وبعد إشباع الحد الأدنى من الحاجات الأساسية ، تخصص الموارد لترقية مستوى المعيشة باطراد .

والوظيفة الرئيسية للنسق الاقتصادي في النموذج الرياضي هي تخصيص رأس المال والقوة البشرية بين القطاعات الخمسة لتحقيق أفضل توزيع لعنصري الإنتاج طبقا لآلية رياضية تخصص الموارد لكل قطاع بحيث يعظم توقع الحياة عند الميلاد (life expectancy) عند كل نقطة زمنية أثناء تشغيل النموذج وقد اختير معيار توقع الحياة ، بدلا من مؤشر اقتصادي - مثل الناتج القومي الإجمالي للفرد ، كما هو معتاد في مثل هذه النماذج - نظرا لأن توقع الحياة يتحدد بالمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية ، كما أنه حساس للتغير فيها ، بدرجه أعلى بكثير من الناتج الإجمالي للفرد .

وإحدى السمات الرئيسية للنموذج التي تميزه عن أغلب النماذج التي بنيت حتى وقت إعداده ، وخاصة تلك التي تمت في إطار نادي رزوما ، هي أن حجم السكان يولد داخليا بواسطة نموذج فرعي يربط المتغيرات السكانية بالمتغيرات

الاجتماعية ـ الاقتصادية . ويعكس هذا النموذج الفرعي أحد المقومات الأساسية لمشروع باريلوتشي ، وهو أن الطريقة الوحيدة الكافية لضبط نمو السكان هي تحسين مستويات المعيشة .

وللتوفيق بين اعتبارات عدة ، تم تقسيم العالم في نموذج باريلوتشي إلى أربع مناطق ، تضم الأولى البلدان المصنعة وتمثل الثلاث الباقية قارات الجنوب الثلاثة : أمريكا اللاتينية ، وأفريقيا وآسيا .

وبدون الدخول في التفاصيل الفنية للنموذج الرياضي[١١] ، نورد فيما يلي أهم النتائج التي حصل عليها فريق باريلوتشي من تشغيل النموذج على الحاسب الالكتروني ، مع التأكيد على أن التواريخ المتضمنة في هذه النتائج تشير إلى الآفاق الزمنية التقريبية اللازمة لتحقيق أهداف معينة . وذلك بفرض الانطلاق من الظروف الابتدائية للمناطق الأربع في ١٩٦٠ ، وافتراض تطبيق السياسات اللازمة للوصول إلى المجتمع المنشود بدءا من ١٩٨٠ (أي بعد نشر نتائج النموذج بسنوات ثلاث) وحتى عام ٢٠٦٠ وبفرض أن تعتمد كل منطقة على مواردها الذاتية خلال عشرين عاما منذ عام ١٩٨٠ .

وكما يتوقع من الظروف الابتدائية ، يتم إشباع الحاجات الأساسية في البلدان المصنعة خلال السنوات القليلة الأولى لتشغيل النموذج . وعند نهاية تشغيل النموذج ، يكون الوضع السكاني مستقرا ، ويبقى ٢٧٪ من الأرض القابلة للزراعة غير مستغلة . وإضافة إلى ذلك ، تحتفظ هذه المنطقة ، ابتداء من نهاية الثمانينيات، برصيد من الغذاء يوازي استهلاك سنة . وتعني هذه الأرقام أن يصبح بمقدور المنطقة تطوير المستوى المعيشي لسكانها باطراد بعد مرور سنوات قليلة من تطبيق السياسات المقترحة .

وتتمكن أمريكا اللاتينية من إشباع الحاجات الأساسية في بداية التسعينيات ، أي بعد عشر سنوات من تطبيق السياسات المقترحة . وقبل نهاية القرن الحالي يمكنها توفير رصيد غذائي يكفي لمدة سنة ، ويبقى هذا الحال حتى عام ٢٠٦٠ ، بالرغم من زيادة عدد السكان إلى حوالي أربعة أمثال بحلول ذلك العام .

كذلك يمكن لأفريقيا إشباع حاجاتها الأساسية ، ولكن في فترة أطول من أمريكا اللاتينية ، إذ تبلغ هذا الهدف في عام ٢٠٠٨ ، ولكنها لا تستطيع الاحتفاظ بمخزون غذائي يتعدى استهلاك شهر واحد بحلول عام ٢٠٦٠ .

ولكن آسيا لاتتمكن من إشباع الحاجات الأساسية لسكانها على المستوى المرغوب حتى عام ٢٠٦٠ وتنشأ مشكلة آسيا في قطاع الغذاء . فبحلول سنة ٢٠١٠ ، تكون كل الأراضي المتاحة قد زرعت وتكرس الموارد الاقتصادية لزيادة إنتاج الماشية والأسماك . ولكن هذا لايكفي لتغذية السكان المتزايدين مما يؤدي لانهيار النسق الاقتصادي . ولايعني هذا أن آسيا تواجه مشكلة حدود مطلقة ، إذ تبقى في المناطق الأخرى مساحات كبيرة من الأراضي القابلة للزراعة

---

(١١) يمكن الرجوع للمصادر السابق الاشارة إليها للاستزادة عن هذا الجانب من مشروع باريلوتشي .

عندما يستقر عدد سكانها ، وبالتالي يمكن لآسيا أن تستورد الغذاء . اذ أنه من غير المتوقع أن تتمكن آسيا من زيادة الغلة الزراعية عن الحد المتحفظ المستخدم في حسابات النموذج (أربعة أطنان حبوب للهكتار في السنة) . وتظهر نتائج تشغيل النموذج بافتراض زيادة مستوى الغلة الزراعية بمقدار النصف ، وهو أمر في حيز المعقول ، أنه يمكن اشباع الحاجات الغذائية حول مطلع القرن القادم ، وتحقيق شمولية القيد في المدارس بحلول عام ٢٠١٠ ، بينما لايتحقق هدف المسكن لكل أسرة إلا في سنة ٢٠٢٠ . وعلى الرغم من هذا التحسن الكبير ، فإن قدرة آسيا على تغذية سكانها بكفاية من مواردها الذاتية تعاني قرب ٢٠٦٠ . ولاحل لمشكلة الغذاء في الأجل الطويل إلا بزيادة الغلة الزراعية عن ستة أطنان للهكتار أو بإنتاج الغذاء من مصادر غير تقليدية .

وبطبيعة الحال ، فإن النموذج الرياضي يمكن استخدامه في اختبار فروض مختلفة أو في استشراف عواقب افتراضات معينة . وقد استخدم فريق باريلوتشي النموذج الرياضي في مناقشة عدة قضايا تمثل شروطا مغايرة لتلك التي تمت تحتها التشغيلة القياسية التي لخصنا نتائجها أعلاه . ومن تلك القضايا نذكر التضامن الدولي وتوزيع الدخل .

ولاختبار أثر التضامن الدولي ، تم تشغيل النموذج بافتراض تخصيص البلاد المتقدمة لنسبة ضئيلة (٢٪) من ناتجها القومي الإجمالي للمعونة الاقتصادية لآسيا وأفريقيا على صورة تحويل صاف لرأس المال ، بدون تعهد بإعادة الدفع ، وذلك حتى يتم إشباع الحاجات الأساسية في المنطقتين المعانيتين . وتشير نتائج النموذج ، تحت هذه الافتراضات ، إلى تحسن واضح في توقيت ، ومستوى ، إشباع الحاجات الأساسية في كل من أفريقيا وآسيا .

كذلك تظهر نتائج النموذج أن الابتعاد عن التخصيص المساواتي للسلع والخدمات يؤدي إلى إعاقة إشباع الحاجات الأساسية ويعني الإبقاء على توزيعات الدخل الحالية ، على وجه الخصوص ، تأجيل إشباع الحاجات الأساسية بجيلين على الأقل . كما ينطوي ذلك على تكريس مايتراوح مابين ثلاثة إلى خمسة أمثال الموارد اللازمة لتحقيق الهدف بافتراض المساواتية .

خاتمة :

لاريب أن مشروع باريلوتشي هو من أهم الأعمال في مجال الدراسات المستقبلية التي تناقش مصير البشرية . وتعود أهمية هذا العمل إلى تبنيه ، صراحة ، لوجهة نظر اجتماعية ـ سياسية محددة ، وإلى بعض النواحي الفنية ، التي ألمحنا لبعضها فيماسبق .

ولكن مشروع باريلوتشي يكتسب قيمة كبيرة من حيث كونه العمل الكبير الوحيد في ميدان الدراسات المستقبلية الذي نبع من العالم الثالث تعبيرا عن رفض كثير من الأوضاع السائدة في العالم وقت إعداده ، بما في ذلك الدراسات المستقبلية ، وكشفا لخلفيات هذه الأوضاع ، واستشرافا لمستقبل أفضل وأكرم لكل البشر .

لقد بين النموذج الرياضي إمكانية إشباع الحاجات الأساسية لأغلب سكان العالم حول مطلع القرن القادم ، إذا ما طبقت السياسات المقترحة للوصول إلى المجتمع المثالي في رؤ ى باريلوتشي . وأظهر مشروع باريلوتشي برمته أن العقبات التي تقف حاليا في سبيل تحرر البشرية من الفاقة والبؤس ليست طبيعية أو اقتصادية بالمعنى الضيق ، وليست النمو السريع في حجم السكان . ولكنها في الأساس ، اجتماعية ـ سياسية .

وعليه فإن مشروع باريلوتشي قد أكد لنا أن مستقبل البشرية لايتوقف ، في النهاية ، على عقبات طبيعية لاتذلل ، وإنما على عوامل اجتماعية وسياسية هي من صنع البشر ، وبالتالي فإن في مقدورهم تعديلها وصولا لوجود إنساني أغنى ، ولكن أين العالم من هذا المسعى ، بعد أكثر من سنوات عشر على نشر نتائج المشروع ؟ هل اقترب العالم من مجتمع باريلوتشي الجديد ؟ أم زاد احتمال الكارثة ؟

بداية ، نذكر أن مؤسسة باريلوتشي قد قاست من عنت الحكم العسكري في الأرجنتين حتى قبل نشر نتائج العمل في المشروع بدعوى أن المؤسسة تشيع أفكارا يسارية هدامة . ومن جراء ذلك ، تفرق أعضاء فريق العمل في مشروع باريلوتشي في أنحاء المعمورة لايجمعهم إلا الحرص على نشر وترجمة العمل كي تذيع رؤ اه وأفكاره . ولم يعد بعضهم الى بلده إلا بعد انهيار الحكم العسكري منذ سنوات قلائل .

وليس مشروع باريلوتشي ، للأسف ، الأكثر انتشارا في مجال الدراسات المستقبلية لمصير البشرية ، حتى في العالم الثالث . وإن كان في هذا الأمر مدعاة للأسف ، إلا أنه ليس بمستغرب . فمشروع باريلوتشي قام ضد كل العناصر المهيمنة في بني القوة الحالية في العالم . ومن الطبيعي أن تحارب هذه العناصر انتشار مثل هذه الرؤ ى التي تنتصر للفقراء وتدعو لتقويض أركان الهيمنة والاستغلال في العالم .

واذا عقدنا مقارنة بين عناصر مشروع باريلوتشي وواقع العالم في السنوات التي تلت نشر نتائج العمل لوجدنا الشقة واسعة ، وربما تزداد اتساعا . فعلى مستوى الرؤ ى ، نقدر أن العالم لم يقترب من تبني سمات مجتمع باريلوتشي المنشود ، ولا من تبلور عمل يهتدي بالسياسات المقترحة للتحرك نحو المجتمع الجديد . والنتيجة ، على وجه الخصوص ، هي أن مستوى إشباع الحاجات الأساسية للبشر في العالم قرب نهاية الثمانينيات يقل كثيرا عن المتوقع من النموذج .

فمازلنا نعيش في عالم يعاني فيه الكثير من سكان الجنوب من نقص وسوء التغذية ، بينما يشكو الغرب المصنع من عبء بحيرات الحليب وجبال الزبد ، أما عن تردي أوضاع التعليم والسكن في البلدان النامية فحدث ولاحرج ، وعوضا عن تكريس المشاركة والمساواة نجد اتجاها متعاظما لتكريس القهر وتهميش الناس خاصة في بلدان العالم الثالث . وبدلا من تعميق قيم المساواة ، نواجه استقطابا متزايدا داخل مجتمعات العالم الثالث ، وعلى صعيد النظام الدولي . ويرتبط ذلك كله بموجة قوية من زيادة الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي عمت العالم منذ منتصف السبعينيات تحت شعار « الانفتاح الاقتصادي » ، حتى قاربت الاشتراكية أن تكون كلمة قذرة ، وفي النهاية ، فإن محصلة هذا كله هي مزيد من

تبني مثل المجتمع الرأسمالي الغربي ، ونمطه الاستهلاكي المدمر ، وخاصة بعد أن اهتزت أهم المحاولات المعاصرة لبناء « الإنسان الاشتراكي » في الصين الشعبية .

والخلاصة ، أننا نقدر أن العالم يقترب من الكارثة التي تنبأت بها دراسات نادي روما ، ولكن لأسباب غير تلك التي زعمتها هذه الدراسات . إن الاقتراب من الكارثة يعود كما بينت دراسة باريلوتشي ، إلى أسباب كامنة في أشكال التنظيم الاجتماعي ـ السياسي في العالم المعاصر .

ولايمكن الاحتجاج بواقع الحال في العالم على مشروع باريلوتشي . فالمشروع لم يحاول التنبؤ بمستقبل البشرية ، وانما قدم توقعات بما يمكن أن يكون عليه الأمر اذا تحققت افتراضات معينة حول السياسات الكفيلة بالتحرك صوب المجتمع المنشود . وحيث إن الافتراضات لم تتحقق ، فلا يتصور عاقل أن تتحقق النتائج المترتبة عليها .

إن رؤ ى باريلوتشي تبدو لنا كمولود بهي الطلعة ، مبشر بالخير ، مالبث أن عصفت به تصاريف واقع غاشم . لكن يبقى الأمل مابقيت الذكرى ، والمذكرون .

* * *

الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل "نظرة تقويمية"

محمود عبد الفضيل
أستاذ الأقتصاد بجامعة القاهرة

توطئة : حول منهجية الدراسات المستقبلية

مازالت الدراسات المستقبلية مسعى علميا حديث العهد نسبيا ، ومازالت منهجيتها وأدواتها التحليلية محل مناقشة وجدل حاد في الدوائر المهتمة بقضايا استشراف المستقبل . ولكنه على الرغم من تعدد الرؤ ى والمناهج ، فهناك اتفاق واسع حول أنه أوّحَدُ ليس هناك مستقبل واحد أوحد . . بل هناك عدة مستقبلات بديلة أو محتملة . ولذا فإنه من طبائع الأمور ، أن تتعدد القراءات الاستشرافية للمستقبل . . لأنه مستقبل مازال « تحت التشكيل » ، وليس « معطى نهائيا » يتم الكشف عنه من خلال نوع من قراءة الطابع . فعلى الرغم من أننا لا نمتلك المستقبل ولا نمسك بزمامه تماما ، إلا أننا نمتلك جزئيا تشكيل جانب هام منه .

واستشراف المستقبل هو جهد استطلاعى بالأساس ، يتسع لرؤ ى مستقبلية متباينة ، ويسعى لاستكشاف أو تكشف العلاقات المستقبلية بين الأشياء والنظم والانساق الكلية والفرعية في عالم يموج بالحركة ويتصف بازدياد درجة « عدم اليقين » ، ولذا يمكن تشبيه « النظرة الاستشرافية » بالوقوف على ربوة عالية لاستطلاع آفاق المستقبل المنظور ، كل بحسب ما يسمح به ملء بصره وبصيرته . فالجهد الاستشرافى المستقبلى هو نوع من « الحدس التاريخى » المستند الى قاعدة علمية .

ولذا فإن « الخطاب الاستشرافى » له طبيعة معرفية خاصة ، فهو خطاب احتمالى بالضرورة يتضمن تعيين المسارات الحرجة للمستقبل العربي . . . وحساب « الفرص » و « المآزق » المستقبلية ، في ضوء القيود

والامكانات القائمة والاحتمالية . وهنا تحتل « نسبية الزمان والمكان » أهمية خاصة في إطار « الخطاب الاستشرافي » ، إذ تتحدد الاحداثيات للمشاهد المستقبلية من خلال علاقات النسبية بين « الزمن الاستشرافي » و « الفضاء الاستشرافي » (Futuristic Space) .

وبقدر ما أن هناك جزءا من المسارات المستقبلية « حرا طليقا مفتوحا لكافة الاحتمالات والمفاجآت ، فهناك كذلك جانب من المستقبل مرهون سلفا (Cometted) ، بفعل الموروثات والقيود الاستراتيجية التي تثقل كاهل الحركة والفعل المستقبلي ، ولذا فإن عملية « التفاوض مع المستقبل » (Negotiating the future) هي رهان دائم لزحزحة وكسر القيود التي تشل حركة المستقبل ، دون القفز فوق الواقع الذى يحدد نقاط البدء في السباق نحو المستقبل[١] .

ولذا فإن الدراسات المستقبلية تسعى لاستشراف آفاق ودروب المستقبل الممكنة ، بهدف رسم خرائط للملاحة الصعبة في بحار المستقبل . إذ أن امتلاك « بوصلة » ما حول نمط التطورات والتحولات المستقبلية المحتملة ، يساعد راسم السياسة على تحديد درجات « الحرية » أو « المناورة » التاريخية . . حتى لا يصبح المستقبل قدرا محتوما تستقبله الأمم والشعوب دون حول أو قوة .

فحقيقة الأمر ، أن الصور المختلفة للمستقبل « تتوقف الى حد بعيد على القرارات التى تتخذ في الحاضر . ولذلك فإن محاولة استقراء آثارها التراكمية في الأجل الطويل ستساعد في ترشيد القرارات الحالية ، ابتغاء الاقتراب من أفضل البدائل التى يمكن أن تتاح في المستقبل »[٢] ، إذن العلاقة بين الحاضر والمستقبل هى علاقة جدلية ، تركيبية تأليفية بالضرورة .

ويقتضى ذلك بدوره تحديد القوى والمتغيرات الحاكمة لحركة المستقبل ، إذ أن إماطة اللثام والكشف عن تلك القوى المحركة (الظاهرة والباطنة) كفيل باستكشاف المسارات المستقبلية الممكنة . . وإعداد الحسابات المستقبلية اللازمة ، بما تنطوى عليه من هوامش خطأ وقفزات خيال .

أدوات الاستدلال المستقبلي

لعل من أهم المشاكل المنهجية الشائكة التى تواجه الباحث في مجال الدراسات المستقبلية هى التوصل الى بعض أدوات « الاستدلال المستقبلى » ، أسوة بأدوات « الاستدلال الاحصائى » (Satistical inference) التى استقر العرف عليها منذ أمد بعيد .

ورغم أن هناك نوعا من المقابلة والمشابهة بين كلا من « أدوات الاستدلال المستقبلى » و « أدوات الاستدلال الاحصائى » إلا أن المشاكل والصعوبات المنهجية التى تكتنف عمليات « الاستدلال المستقبلى » هى أعقد بكثير من تلك

---

(١) راجع : Mahbubul-Haq, "Negotiating the Future", Foreign Affairs (Winter 1980/87), pp. 398-417.

(٢) ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل العربي ، ط١ (بيروت : مركز الوحدة العربية ، ١٩٨٢) ، ص ١٧٤ .

التى تطرح نفسها في مجال الدراسات التنبئية التقليدية . فنهج الدراسات التنبئية هو بالأساس نهج الاسقاطات المستقبلية الاحتمالية المشروطة تماما بما يتم مشاهدته في الماضى . . مما يعنى قدرا كبيرا من الاستمرارية في السلوك(٣) .

وذلك في تقديرنا فرق جوهرى كبير عندما نعيش في عالم يموج بالتحولات والتغيرات الكيفية التى تجعل الدوالّ غير متصلة (Not Continuous) عبر الزمان ، وحيث المؤسسات والموارد الطبيعية والبشرية ومنجزات التكنولوجيا تشهد قفزات واسعة وتحوى انقطاعات هامة بالنسبة للخبرة التاريخية الماضية .

وبالتالى فإن أدوات الاستدلال المستقبلى لا يمكن لها أن تكون أدوات خطية ، ولا يمكن لها أيضا أن تخضع لحسابات الاحتمالات التقليدية (Conventional Probability Colculus) . . . بل لابد لها وأن تكون أدوات غير خطية تسمح بالانقطاعات والتحولات الهيكلية (Structural breaks) في البنيات المؤسسية ، وقاعدة الموارد وفي النظم التكنولوجية . كذلك لابد من اللجوء الى نهج جديد في تقدير وترجيح الاحتمالات حول سلوك المتغيرات الاحتمالية في المستقبل ويمكن لنا عقد مقارنة اجتهادية من جانبنا بين هيكل الاستدلال الاحصائى التقليدى ، ونهج الاستدلال المستقبلى التجديدى .

الخبرة العربية في مجال استشراف المستقبل

كثر الحديث مؤخرا عن هموم المستقبل العربى ومطالب المستقبل العربى . فتعددت الكتابات والمحاولات التى تسعى لاستشراف بعض الجزئيات المتعلقة بآفاق المستقبل العربى . وتراوحت تلك المحاولات ما بين الخطاب الفكرى والسياسى المرسل(٤) ، وبين الدراسات القطاعية الجزئية(٥) ، وبين الدراسات الخاصة بقطر أو مجموعة من الأقطار العربية(٦) . وعلى الرغم من أن تلك المحاولات ظلت جزئية ولا ترقى الى مستوى الرؤ ية الشاملة ، فإنها جميعها قد عبرت عن شعور عميق بالقلق إزاء المستقبل العربى وما يحمله في طياته من مخاطر ونذر .

---

(٣) لقد عبر عن ذلك بوضوح عالم الاقتصاد القياسي النرويجي الشهير (T.haarelmo) بالصيغة التالية "A statistical prediction means simply a (probability) statemeut about the location of a sample point not yet observed". If the probabillty Approach in Econometrics, supplement to Econometrica vol. 12 (July 1944) p. 105.

(٤) راجع بهذا الخصوص :

- حسن صعب ، المقاربة المستقبلية للانماء العربي (بيروت . دار العلم للملايين ، ١٩٧٩)
- قسطنطين زريق ، نحن والمستقبل (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠)
- قسطنطين زريق ، مطالب المسقبل العربي : هموم وتساؤلات (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٣) .
- أحمد صدقي الدجاني ، رؤى مستقبلية عربية للثمانينيات (عمان : دار الجليل ، ١٩٨٣)

(٥) راجع على وجه الخصوص :

- عمر الخطيب ، الوطن العربي عام ٢٠٠٠ : محاولة لاستشراف الأوضاع السياسية (القاهرة · مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٨٥) .
- هدسون وآخرون ، العقد العربي القادم : المستقبلات البديلة (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦)

(٦) راجع على سبيل المثال : المهدي المنجرة ، « المغرب الكبير عام ٢٠٠٠ » ، المستقبل العربي ، السنة ٦ ، العدد ٥٣ (تموز / يوليو ١٩٨٣)

بيان	هيكل الاستدلال الاحصائى التقليدى	نهج الاستدلال المستقبلى
(أ) الأدوات الرئيسية	حسابات الاحتمالات التقليدى Probability Calculus	مقولات احتمالية مشروطة Con-ditional Probability Statements
(ب) أسلوب استخلاص الاحتمالات	اشتقاق احتمالات موضوعية ObgectiveProbabiiities بالاستناد الى التوزيعات الاحتمالية المعروفة .	الاعتماد على التقديرات الذاتية للاحتمالات للحالات والمسارات المستقبلية المتوقعة (Different States of Affairs) .
(جـ) الأساليب التطبيقية الشائعة	أسلوب العينات وتصميم التجارب . القائم على مبدأ امكانية التكرار في ظروف مماثلة . Principle of repeated experiments	١) أساليب المحاكاة (**Simulation**) ٢) وبحوث العمليات (**Oper-ational research**) ٣) وتركيب السيناريوهات القائم على مبدأ عدم امكانية تكرار التجارب البشرية ، وعدم امكان تشابه الظروف التاريخية التى يجرى في إطارها تركيب السيناريوهات أو تمارين المحاكاة .
(د) هيكل الأخطاء	اختبار درجة معنوية النتائج ، وفقا لاختبارات احصائية مستقرة ، يتم بواسطة رفض أو قبول نتائج الاستدلال الاحصائى .	تحديد أحزمة ثقة (Confidence belts) تسمح بقبول أو رفض ترجيحات احتمالية معينة للتوقعات والمسارات المستقبلية .

ولم تخرج الكتابات ـ على تنوعها ـ عن كونها صرحات لاستثارة الاهتمام بهموم المستقبل في الضمير العربى ، في عصر سادت فيه روح السلبية والاستسلام والتواكل . ولكن تلك الدراسات والصرحات ساعدت على إيقاظ الوعى المستقبلى لدى النخبة ، وساعدت على استضافة المستقبل في مداولاتنا اليومية ومشاغلنا الفكرية .

وإذا كنا قد أشرنا الى الارهاصات الأولى للكتابات المستقبلية في وطننا العربى ، فإننا نود أن نركز هنا على الخبرة العربية في مجال الاستشراف والدراسات المستقبلية كما تمخضت عنها أعمال أكبر مشروعين بحثيين ثم إنجازهما في المنطقة العربية خلال الخمس سنوات الماضية . والمشروع الأول هو مشروع « المستقبلات العربية البديلة » ، وهو أحد المشروعات البحثية لجامعة الأمم المتحدة ، وأشرف على تنفيذه منتدى العالم الثالث ـ مكتب الشرق الأوسط تحت إشراف الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله منسق عام المشروع ، والدكتور ابراهيم سعد الدين المنسق المشارك للمشروع .

والمشروع البحثى الثانى هو مشروع استشراف مستقبل الوطن العربى الذى تم انجازه في إطار مركز دراسات الوحدة العربية تحت إشراف الدكتور خير الدين حسيب رئيس الفريق المركزى للبحث .

وباعتبار أن كلتا المحاولتين قد دشنت البدايات الأولى لمحاولات استشراف مستقبل الوطن العربى وولوج مجال الدراسات المستقبلية على نحو طموح وبعقول وخبرات عربية خالصة ، فإن الخبرات والدروس المستفادة من كلتا التجربتين تعتبر علامات هامة على طريق البحث المستقبلى في وطننا العربى . وإذا كان لتلك الدراسات شرف الريادة في هذا المجال الصعب . . فإن الدروس المنهجية المستخلصة وتقييم عثرات الطريق التى واجهتها تعتبر اضافة هامة للخبرة العربية في هذا المجال ، لكى تهتدى وتسترشد بها الأجيال القادمة من الباحثين على طريق المستقبل . وهذا بالتحديد ما سوف نركز عليه في الفقرات التالية .

مشروع المستقبلات العربية البديلة

تبنى المشروع منذ البداية مقولة « المستقبلات العربية البديلة » ، باعتبار أن المستقبل ليس قدرا محتوما ، وبالتالى لا يمكن له أن يجىء في صورة فريدة . « بل أمام كل مجتمع في لحظة معينة من تاريخه احتمالات متعددة للمستقبل يتعين الكشف عنها ومحاولة رسم المعالم الأساسية لكل منها[٧] ، ولذا فإن الدراسات المستقبلية ـ وفقا لرؤية منسقى المشروع ـ يجب أن تعنى قبل كل شىء « بمحاولة استشراف الصور المختلفة للمستقبل وفقا لفروض مختلفة فيما يتعلق بالمعرفة بالواقع وجذوره التاريخية ، والامكانات المتاحة وأساليب استخدامها المتباينة »[٨] .

وقد بدأ تنفيذ المشروع في يناير/ كانون الثانى عام ١٩٨١ من خلال التركيز على عدد من ميادين البحث ذات التأثير في استكشاف المستقبلات المحتملة للوطن العربى ، والتى لم يتم استكشافها على نحو مرض حتى لحظة بدء

(٧) ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل العربى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٣

المشروع . ورغم أهمية بناء نماذج كمية للتطورات المحتملة في الوطن العربي في مجموعه ، فإن منسقى المشروع قد قرروا منذ البداية أن أهداف مشروع « المستقبلات العربية البديلة » هى أكثر تواضعا وإن كانت لا تقل أهمية عن بناء النماذج الكميه[٩] .

إذ أن « استخدام النماذج الرياضية لا يعنى بأى حال من الأحوال حيادية النماذج . فنحن هنا لسنا ، في عالم الرياضة البحتة التى تقوم على افتراضات مجردة . وإنما تتعامل النماذج مع وقائع اجتماعية للباحث منها مواقف واعية أو مستبطنة ، صريحة أو كتومة[١٠] . وفي ضوء هذه الرؤ ية ، فقد حذر منسقا المشروع من مخاطر أن « يحل النموذج الرياضى محل التحليل النظرى اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وحضاريا ، وألا يكون النموذج ستارا يخفى اختيارات في تلك المجالات غير مفصح عنها »[١١] .

وفي ضوء تلك الرؤ ية النقدية لدور وحدود النماذج الرياضية في عمليات الاستشراف المستقبلى ، فقد تم تصميم المشروع على نحو يسمح بالتركيز على عدد هام من :

(أ) القضايا (issues) .
(ب) البنى (structures) .
(جـ) العمليات (processes) .

أى تلك القضايا والبنى والعمليات ، ذات التأثير الجوهرى في مسيرة المستقبل العربى ، بهدف التركيز على الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التى تؤدى بنا الى مسالك لتنمية بديلة والى صور متنوعة للمستقبل العربى .

واتساقا مع تلك النظرة ، فقد كان من المقرر أن يغطى المشروع اثنى عشر مجالا بحثيا هى :

(١) العلاقة بين البنى الاجتماعية ـ السياسية والتنمية .
(٢) عملية صنع القرار .
(٣) الديمقراطية والاتصال الجماهيرى والمشاركة الشعبية .
(٤) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية (حركات الصحوة الاسلامية والحركة التقدمية العربية) .
(٥) آليات التبعية .
(٦) الوطن العربى والنظام العالمى المتغير .
(٧) الآثار غير المدروسة للثروة النفطية .
(٨) الموارد البشرية .

---

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٨٢

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

(١١) المصدر نفسه ، ص ١٨١

(٩) موارد واستخدامات العلم والتكنولوجيا .

(١٠) الفنون والآداب كعناصر وحدة وتنوع في الوطن العربى .

(١١) الاطار المؤسسى للتكامل العربى .

(١٢) التوحيد العربى وقضايا الأقليات .

وقد تم تغطية كافة المجالات البحثية باستثناء مجالى : الموارد البشرية وموارد استخدامات العلم والتكنولوجيا ، وذلك لتعذر الحصول على الموارد المالية اللازمة[١٢] . وكان اختيار تلك « المناطق البحثية » - التى تجب التخصصات المعرفية الضيقة - محاولة من جانب مصممى المشروع للامساك بالقوى المحركة الأساسية التى تسهم في تشكيل المسارات الحرجة للمستقبل العربى .

وقد تمخضت كل « منطقة بحثية » عن اسهامات متميزة ضمها كتاب من كتب مكتبة المستقبلات العربية البديلة التى صدر منها حتى الآن اثنى عشر كتابا ، والبقية تأتى . وقد صبت كل تلك الدراسات - رغم استقلالية وخصوصية كل منها - في التقرير النهائى للمشروع الذى نوقش في ندوة موسعة عقدت في القاهرة خلال الفترة من ٢٥-٢٧ نوفمبر ١٩٨٦م .

وقد حاول التقرير النهائى لمشروع المستقبلات البديلة الربط بين المناطق البحثية المختلفة ، وابراز الصلة العضوية بين القضايا والبنى والعمليات الحاكمة لمسارات المستقبل العربى . وقد رصد التقرير أهم الاتجاهات التى تمخضت عنها الدراسات المختلفة في إطار المشروع ، باعتبارها اتجاهات تثقل الحركة المستقبلية وتلقى بظلالها الكثيفة على عمليات الانطلاق نحو مستقبل أفضل . ويمكن تلخيص أهم هذه الاتجاهات فيما يلى :

(١) هناك اتجاه ملموس لعملية التراجع عن مشروعات التوحيد القومى ، الى مزيد من التفكك والتقوقع القطرى .

(٢) الاتجاه المتزايد لتدويل الحياة الاقتصادية والاجتماعية العربية ، وإدماجها في إطار الشبكات الدولية لتدفقات التجارة والمال والتكنولوجيا والاتصالات والمعلومات . . مما رافقه فقدان متزايد للهوية الحضارية في كافة مجالات الفكر والثقافة والتكنولوجيا والعمارة وأنماط الاستهلاك .

(٣) أن التكنولوجيا المستوردة من الخارج حملت معها أنماطا فكرية وأيديولوجية واستهلاكية وتوزيعية جديدة ، عمقت من الازدواجية الفكرية والاجتماعية والثقافية في الوطن العربى .

(٤) أن هناك اتجاها متزايدا للاعتداء على البيئة وتخريبها . . . فقد فقدت « الأنساق البيئية » مقومات توازنها في منطقتنا العربية ، من حيث ارتفاع معدلات التصحر والتلوث ، واهدار القيم والعلاقات الجمالية .

(١٢) راجع د . ابراهيم سعد الدين ، « تقرير تجميعي عن نشاطات مشروع المستقبلات العربية البديلة في الفترة (١٩٨١ - ١٩٨٥) ، ملف المستقبلات العربية البديلة عدد خاص رقم ١٩ - ٢٠ (القاهرة : منتدى العالم الثالث - مكتب الشرق لأوسط ، يناير - ابريل ١٩٨٦) ، ص ٩

(٥) تزايد مفعول قانون النمو غير المتكافىء فيما بين البلدان العربية ، ليس فقط فيما بين البلدان النفطية وغير النفطية . . . بل داخل كل مجموعة على حدة . وقد أدى هذا بدوره الى ازدياد درجة التفكك القومى (الداخلى) وارتفاع درجة التدويل والاندماج مع العالم الخارجى (الرأسمالى) ،وقد انعكس ذلك في ارتفاع درجة تدويل العمليات الانتاجية وقطاعات المال والتجارة على وجه الخصوص .

(٦) نتج عن ذلك أن توجهات النمو والتراكم قد غدت محكومة باعتبارات خارجية وليس بمنطلقات داخلية « متمحورة حول الذات » ـ مما أدى الى الافتقاد الكامل للسيطرة على توجهات عملية التراكم وشروط اعادة الانتاج في المجتمع العربى .

(٧) تعيش المنطقة العربية حالة سيولة طبقية هائلة لم يسبق لها مثيل من قبل ، وذلك بفعل هبوط المال النفطى واتساع عمليات هجرة العمالة للخارج . . مما نتج عنه تبدلات هامة في المواقع الطبقية وتوسع مراتب « البورجوازية الصغيرة » في الريف والمدينة . وقد رافق ذلك انجاز رقعة ودائرة « الأنشطة الانتاجية » وتوسع دائرة « الأنشطة الطفيلية والريعية » ، مما نجم عنه اختلال بين في موازين القيم وأنماط السلوك

وقد حذر منسق مشروع المستقبلات العربية البديلة في أكثر من موضع من خطورة استمرار « النظرة الماضوية » لقضايا المستقبل ، والماضوية هنا ليست مرادفة « للسلفية » . . وإنما هى نهج سائد في الفكر العربى قائم على النظر لقضايا المستقبل بروح مشبعة بالحنين للماضى ، مما يجعل النظر لقضايا المستقبل « غير متحررة » . . . بل أسيرة لقوالب وصيغ الماضى . . . بينما المستقبل يحمل في طياته وثناياه أشياء وأشكال تبتدع لأول مرة(١٣) .

ونظرا لأن نهج « المستقبلات البديلة » هو نهج احتمالى بطبيعته ، فليس هناك « مسار مستقبلى » وحيد . . . بل هناك عدة مسارات حرجة مشروطة بظروف وقوى تاريخية محلية وعالمية . بل إن درجة اليقين والتأكيد لا ترقى حتى الى مستوى « نشرة الأرصاد الجوية » ، حيث هناك درجة أكبر من الترجيح الاحتمالى لحالة معينة من حالات الطقس ، ولذا فقد عكف الباحثون في قضايا الدراسات المستقبلية على تصميم وتركيب ما سمى « بسيناريوهات المستقبل » ، هى أشبه ما تكون « بالمشاهد المسرحية » التى يرفع عنها الستار . . وتحمل في داخلها ديناميتها الذاتية . . ويكون هدفها استثارة الفكر والتأمل حول قضايا وهموم المستقبل من خلال تلك المشاهد أو المسارات الاحتمالية .

وفي ضوء تلك الخلفية ، طرح مشروع المستقبلات العربية البديلة في وثيقته النهائية سيناريوهين (أو تصورين) للمستقبل .

(أ) السيناريو الاتجاهى ، وهو سيناريو يركز على صورة المستقبل القائم « المتوقعة » . . اذا استمرت الأوضاع في التطور في نفس الاتجاه الذى تم استخلاصه من واقع الدراسات والحوارات التى تمت في إطار المشروع ، ولاسيما تسارع عمليات التدويل للاقتصاد والمجتمع العربى ، وتصاعد الصراعات الطائفية والعشائرية ، وتراجع الحركات الاصلاحية

---

(١٣) راجع : محمود عبد الفضيل ، « كيف نتحاور مع المستقبل ؟ » ، مجلة الهلال ، عدد يناير ١٩٨٧ ، ص ١١١

والتحررية نتيجة الضعف التاريخي للبورجوازية المحلية ، وعدم تجانس الطبقات الوسطى في المجتمع العربي مما يحد من قدرتها على تبنى مشروع نهوض وتحرر على نحو ماشهدناه في الخمسينيات والستينيات .

بيد أن تبنى هذا السيناريو الاتجاهى لا يعنى بأى حال من الأحوال أن المستقبل سيكون امتدادا خطيا لما هو قائم . . . بل إنه قد يقود الى مزيد من التدهور والتردى للأوضاع القائمة في ظل انحسار مفعول « المتغير النفطى » أو بالأحرى « المخدر النفطى » . فلقد عاشت المنطقة العربية منذ منتصف السبعينيات على موجة من الأموال النفطية تركت بصماتها الواضحة على الدورة الدموية للاقتصاد والمجتمع العربي .

ومع النمو السكانى الهائل ، إذ تشير الاسقاطات الديموجرافية الى أن حجم سكان الوطن العربي ٢٠١٥ سوف يتراوح ما بين ٥٠٠ ـ ٧٠٠ مليون نسمة ، سوف تتعاظم الضغوط على الموارد الأرضية والمائية المتاحة . . . بحيث تصبح « براميل المياه » أغلى وأعلى قيمة من « براميل النفط » في حساب الزمن المستقبلي[١٤] .

وهكذا فإن المستقبل يحمل في طياته علاقة جدلية فريدة بين السكان كأفواه تأكل وكسواعد تعمل وتنتج ، وذلك يتوقف بلا شك على مدى كفاءة النظام الاقتصادى ـ الاجتماعى القائم على تعبئة الموارد البشرية المتاحة .

وخلاصة القول هنا ، أن « السيناريو الاتجاهى » هو ببساطة سيناريو استقالة العرب ونكوصهم عن صناعة مستقبلهم . . ومعنى ذلك أيضا أن غيرنا يمكن أن يشكل مستقبلنا كعرب . إذ أنه من الثابت أن بلدان العالم الثالث ـ ومن بينها بلدان المنطقة العربية ـ إذا فشلت في أن تشكل لنفسها مستقبلا أكثر استقلالية ، فإن مسيرة النظام العالمي سوف تحدد لها هذا المستقبل . . بما يتفق مع مصالح القوى المسيطرة في القلب من النظام العالمي[١٥] ، وبعبارة أخرى ، فإن هذا السيناريو هو سيناريو « استنزاف المستقبل العربي » وتسربه من بين أيدى العرب .

(ب) السيناريو البديل (التفاؤلى) .

رغم النزعة التشاؤمية التى سيطرت على رسم « السيناريو الاتجاهى » ، فإن هناك العديد من « البؤر والخمائر » في الوطن العربي التى يمكن لها أن تتفاعل لكى تصنع مستقبل أفضل . وبهذا الصدد يشير منسقا مشروع المستقبلات العربية البديلة الى الدراسات المستقبلية هى « محاولات لتصور سمات بدائل المستقبل المترتبة على الخيارات البديلة والمسارات المختلفة التى يحتمل أن تتخذها الأحداث أو يحددها صانعو القرار . وتتحدد هذه السمات المستقبلية كنتيجة للتفاعل المتبادل بين مجموعة الخيارات والمسارات المتخذة وبينها وبين مختلف جوانب النسق الاجتماعى ـ الاقتصادى ـ الحضارى ـ الذى يتكون منه المجتمع . وترتبط القدرة على تصور هذه السمات البديلة بمدى فهمنا للنسق الاقتصادى ـ الاجتماعى ـ الحضارى بمكوناته الرئيسية من بنى وأنساق فرعية وعلاقات ، ومعرفة الكيفية التى تتفاعل بها الأحداث في إطار النسق الكلى »[١٦] .

---

(١٤) راجع : محمود عبد الفضيل ، « كيف نتحاور مع المستقبل ؟ » مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢

(١٥) راجع : ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٧٨

ففي ظل الضعف التاريخي للبورجوازية المحلية ، تطرح بعض القوى والحركات نفسها كقوى حامله للتغيير ودافعة نحو مستقبل أفضل للوطن العربي . ويجيء على رأس تلك القوى : الحركة الراديكالية للصحوة الإسلامية والحركة التقدمية العربية . ولقد خص مشروع المستقبلات العربية البديلة تلك الحركتين بسلسلة من الدراسات والحوارات الغنية لتعيين مواطن القوة ومواطن الضعف . . ومدى قدرتها على حمل مشروع مستقبلي للنهوض والتحرر[١٧] .

وفي إطار هذا السيناريو ، تبرز أهمية العلاقة الجدلية بين قضية الديمقراطية وعملية التغيير الاجتماعي . . وتلك إشكالية مازالت تبحث عن حل مرض على جدول أعمال المستقبل . إذ أن من بين أهم القضايا المستقبلية ، في إطار هذا السيناريو البديل ، هو موقف الحركات والقوى التقدمية وكذا الحركات التي ينتظمها التيار الإسلامي من قضية التعددية السياسية » .

ويتبنى هذا السيناريو مفهوما للتنمية لاتصنعه التطورات الاقتصادية وحدها ، بل في إطار تصور حضاري شامل يقوم على إشباع الحاجات الأساسية ، والمشاركة الشعبية ، والمحافظة على توازن الأنساق البيئية ، والحفاظ على الهوية القومية في كل منحى من مناحي الحياة . ولن يتأتى هذا النمط من التنمية سوى في إطار من الاعتماد الجماعي على النفس في إطار المجموعة العربية . . وما يستتبعه ذلك من الانسلاخ التدريجي من إسار النظام العالمي وآلياته وشبكاته الأخطبوطية .

ولاشك أن هذا السيناريو « الاستهدافي » أو (« المعياري) إن جاز التعبير) ، إنما يمثل نظرة مستهدفة للمستقبل العربي المأمول لا تخلو من المثالية المشوبة بمسحة « تبشيريه » . (ولعل من أهم ماجاء على لسان منسق مشروع المستقبلات العربية البديلة في الكلمة الختامية للندوة التي انعقدت في القاهرة خلال الفترة : ٢٥ ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦ لمناقشة التقرير النهائي للمشروع ، أنه قد آن الأوان لكسر ثلاثية : « الأمير ـ أرباب السيف ـ أرباب القلم » ، وأنه يجب أن يكون هناك مكان متميز في دراسات وسيناريوهات المستقبل للجماهير الشعبية وعامة الناس ، إذ أنهم يضطلعون بدور كبير في صناعة التاريخ . والمستقبل . . ولاسيما في لحظات التحول والفوران التاريخي .

مشروع استشراق مستقبل الوطن العربي

ويعتبر هذا المشروع هو المشروع العملاق الثاني الذي تولى مسئولية تنفيذه والإشراف عليه مركز دراسات الوحدة العربية . وقد بدأ العمل الفعلي في المشروع منذ منتصف ١٩٨٣ بسلسلة من الندوات المصغرة والحوارات الواسعة مع مفكرين وممارسين عرب من اختصاصات مختلفة بهدف بلورة « وثيقة الإطار العام للمشروع » . ورغم العديد من عثرات الطريق ، وتبدل أعضاء الفريق المركزي للبحث ، فقد تم إنجاز التقرير النهائي للمشروع في صيف عام ١٩٨٧

(١٧) راجع بهذا الخصوص · ـ اسماعيل صبري عبد الله وآخرون ، دراسات في الحركة التقدمية العربية (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧)
ـ اسماعيل صبري عبد الله وآخرون ، الحركات الاسلامية المعاصرة في الوطن العربي (بيروت · مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧م)

والتقارير الرئيسية المساندة له . . ونوقش في إجتماع موسع عقد في مدينة تونس خلال الفترة : ١٧ ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٨٧ .

وحول المنهجية المختارة للبحث ، يشير فريق البحث إلى أن الدراسة تتبنى : « منهجية شاملة مع كل مايترتب على ذلك من تعقيدات منهجية ، فالمشروع يرمي الى بحث الآفاق المختلفة لمستقبل الوطن العربي بكل تشابكاته وتفاصيله . كما أنه يلتزم بارتياد المتوقع منه والمأمول به ، ويمتد بنظره إلى الأفق الزمني الذي يتسع لترجمة الطموحات إلى واقع ، والذي يسمح بربط وتتابع الظواهر المختلفة بما فيها غير الاقتصادية . والدراسة تقوم على جهد عربي خالص ، وتحاول أن تتمايز عن دراسات عربية أخرى اتهمت بجزئية نظرتها للمستقبل بسبب تركيزها على قطاع أو ظاهرة ، مع الإهمال النسبي لباقي القطاعات والظواهر ومجمل تشابكاتها مع ماعداها »[١٨] .

وقد تم التأكيد منذ البدايه على أن هدف الدراسة هو « الاستشراف للمستقبل » ، وليس « التنبؤ » . و « الاستشراف » هنا مقصود به « التحليل المستقبلي » Prospective analysis ، دون التقيد بأسلوب فنى معين أو منهجية ضيقة .

وتغطى فترة الاستشراف في هذا المشروع ثلاثة عقود تغطى الفترة : ١٩٨٥ ـ ٢٠١٥ ، يتم في إطارها الوصول الى تصورات متباينة للمشاهد الممكنة والمحتملة للمستقبل العربي .

وقد جاء تصميم المشروع طموحا ، إذ يسعى الى الإمساك بالتشابكات والعلاقات الجدلية بين :

(أ) الاقتصادى والاجتماعي .

(ب) السياسي والأيديولوجي

(ج) الداخل والخارج (ولاسيما في مجال التطورات الاقتصادية والتكنولوجية العالمية) .

(د) الحاضر والمستقبل (إرث الحاضر ورهن المستقبل)

وقد تمخض النشاط الاستشرافي ، في اطار هذا المشروع ، عن ثلاثة انشطة فرعية أساسية هي :

(١)المحاور المضمونية :

وهي تشمل ثلاثة محاور رئيسية هي : العرب والعالم ، المجتمع والدولة ، والتنمية العربية . وينضوى تحت كل محور من المحاور الثلاثة عدد من الدراسات الأساسية الخلفية ، وعدد من الدراسات التحليلية.المستقبلية التي تلقي الضوء على أهم المتغيرات الحاكمة للحاضر والمستقبل في إطار كل محور . . وتداعيات ذلك بالنسبة لمشاهد الحركة المستقبلية .

(١٨) راجع : د . خير الدين حسيب وآخرون ، مستقبل الأمة العربية : التحديات . . والخيارات (التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي) ـ وثيقة غير منشورة ـ ص ٣٥

(٢) المشاهد المستقبلية[١٩]

تم تركيب ثلاثة مشاهد مستقبلية « تسمح باستطلاع ماهو اتجاهي ، وماهو إصلاحي وماهو تحويلي . فالمشهد الأول (الاتجاهي) ينطلق من افتراض استمرار الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ على حالها . . أي استمرار منطق التبعية والتجزئة ، دون أن يعني ذلك أن المستقبل سوف يكون امتدادا ميكانيكيا للحاضر . فهناك احتمالات لمزيد من التدهور والتردي ». وكذا بعض التحسينات الطفيفة والترقيعات الجزئية ، تحت وطأة الأزمة .

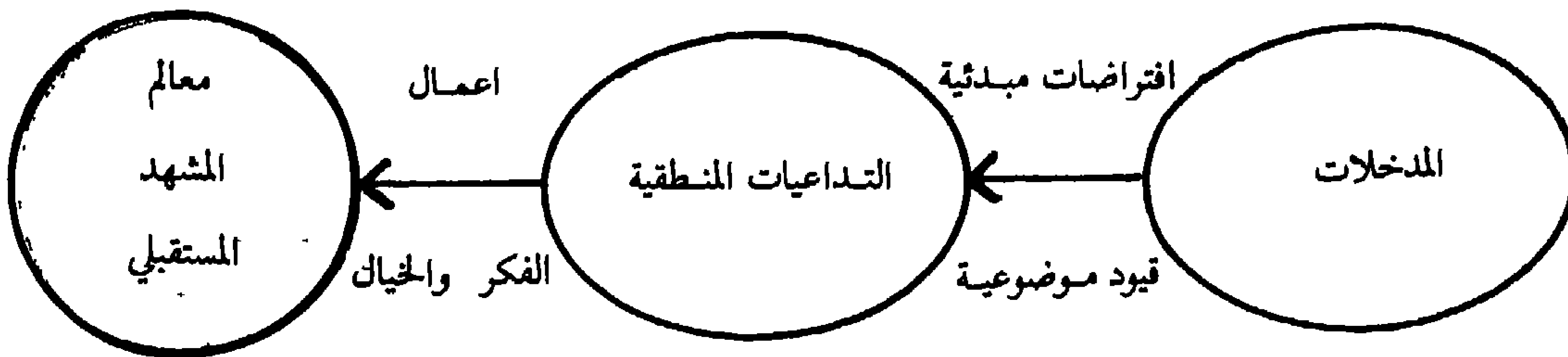
« والمشهد المستقبلي الثاني « هو مشهد اصلاحي ترشيدي بطبعه ، إذ يسمح بقدر من التكامل والتنسيق القطاعي العربي ونشوء بعض التجمعات الاقليمية بين أقطار متجاورة متشابهة في التوجهات والسياسات ، دون أن يستدعي ذلك تبدلات جذرية في بنيان السلطة ونظم الحكم .

والمشهد الرئيسي الثالث هو المشهد التحولي (أو الثوري) الذي يستطلع الأشكال الممكنة لنشوء دولة الوحدة العربية ببدائلها الاجتماعية والسياسية المختلفة .

النهائي للمشروع :

(ووفقا لما جاء في التقرير « يماثل منهم تطوير المشاهد المستقبلية مايحدث عادة عبر كتابة » « السيناريو » لأحد الأفلام أو المسرحيات . فنقطة البداية تكون دائما بطرح فكرة رئيسية ، تعد أساسا لبناء « السيناريو » . . ثم يتم توصيف العلاقات والهياكل المرتبطة بها ، ثم التنبؤ بتداعياتها المتتالية » .[٢٠] « المخرجات »

ويمكن لنا تصوير عملية تركيب المشاهد المستقبيلية على النحو التالي :



(٣) نشاط النمذجة (Modelling) : ينطوي نشاط النمذجة على صياغات كمية وكيفية لمجمل التفاعلات والتشابكات بين المتغيرات الحاكمة في ظل المشاهد المستقبلية المختلفة التي يتم فتح الستار عنها : مشهد استمرار التفتت والتجزئة ، مشهد التنسيق والتعاون ، مشهد الوحدة العربية . وذلك بهدف اختيار امكانية التطبيق وحيز الامكان في

---

(١٩) قرر الفريق المركزي للدراسة استعمال تعبير « مشاهد مستقبلية » بدلا من تعبير « سيناريوهات » .

(٢٠) مستقبل الأمة العربية : التحديات . . والخيارات ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨

الواقع العربي ، (Feasibility test) ،ومدى الاتساق الداخلي لكل مشهد في تداعياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية (Consistency test) .

وهنا يبرز الدور المحوري للنموذج كأداة للربط والتفاعل بين المحاور المضمونية الثلاثة السابق الأشارة اليها . . . بل يمكن اعتبار « النموذج » بمثابة الأداة المنهجية للتحاور والتفاعل بين « المحاور المضمونية » الثلاثة ، كما يتضح ذلك من الشكل رقم (١)

ولايقتصر نشاط محور « النمذجة » على ضمان الواقعية والاتساق بين تداعيات المشاهد المستقبلية المختلفة وتحقيق الترابط المطلوب بين « المحاور المضمونية » ، بل يمتد ليلعب دورا هاما في مجال الربط بين الأنساق الفرعية التي تم تعميمها : نميذج الموارد الطبيعية (موارد معدنية / أرض / مياه) ، نميذج المورد البشري ، نميذج المتغيرات الاقتصادية الكلية ، نميذج الظواهر غير الاقتصادية (الظواهر الاجتماعية والسياسية) . ويوضح الشكل (٢) نمط التشابكات والتفاعلات التي تتم داخل النميذجات (أو الانساق الفرعية) ، والتي تصب في النسق العربي العام .

« والنسق العربي » ـ في اطار دراسة استشراف مستقبل الوطن العربي ـ هو نوع من النموذج الاقليمي الدينامي الشامل ، ويقوم على الربط بين الأنساق والنميذجات الفرعية ، بما يحقق التفاعل بين الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . . وكذا المتغيرات الاجمالية والقطاعية . ويتم الوصول الى صورة متسقة « من خلال عمليات التصحيح المتتابع ، يلعب فيها عنصرا الخبرة والحدس المنضبطان دورا محددا وهاما » (٢١) .

ـ وتجاوبا مع الحجم الهائل للمشكلات والقضايا في التعامل مع فترة الاستشراف التي تمتد لثلاثة عقود ، فان تصميم النموذج العام (النسق العربي) يسمح بتقسيمات قطاعية تتناسب مع هذا المدى الطويل ، وحسب القطر أو المجموعة الاقليمية العربية المحددة (٢٢) .

وقد أظهرت خبرة فريق النمذجة أن « منهج التحليل المستقبلي يتطلب أساليب المحاكاة الأكثر تحررا من الأساليب القياسية والأكثر قدرة على ربط الانساق الفرعية » . اذ أن أساليب المحاكاة تناسب أسلوب التعبير عن منهجية الاستشراف « حيث تأتي تداعيات المشاهد معبرة عن تفاعل الواقع المادي من ناحية ، والاختيار (والرغبة) الانسانية من ناحية أخرى » (٢٣) .

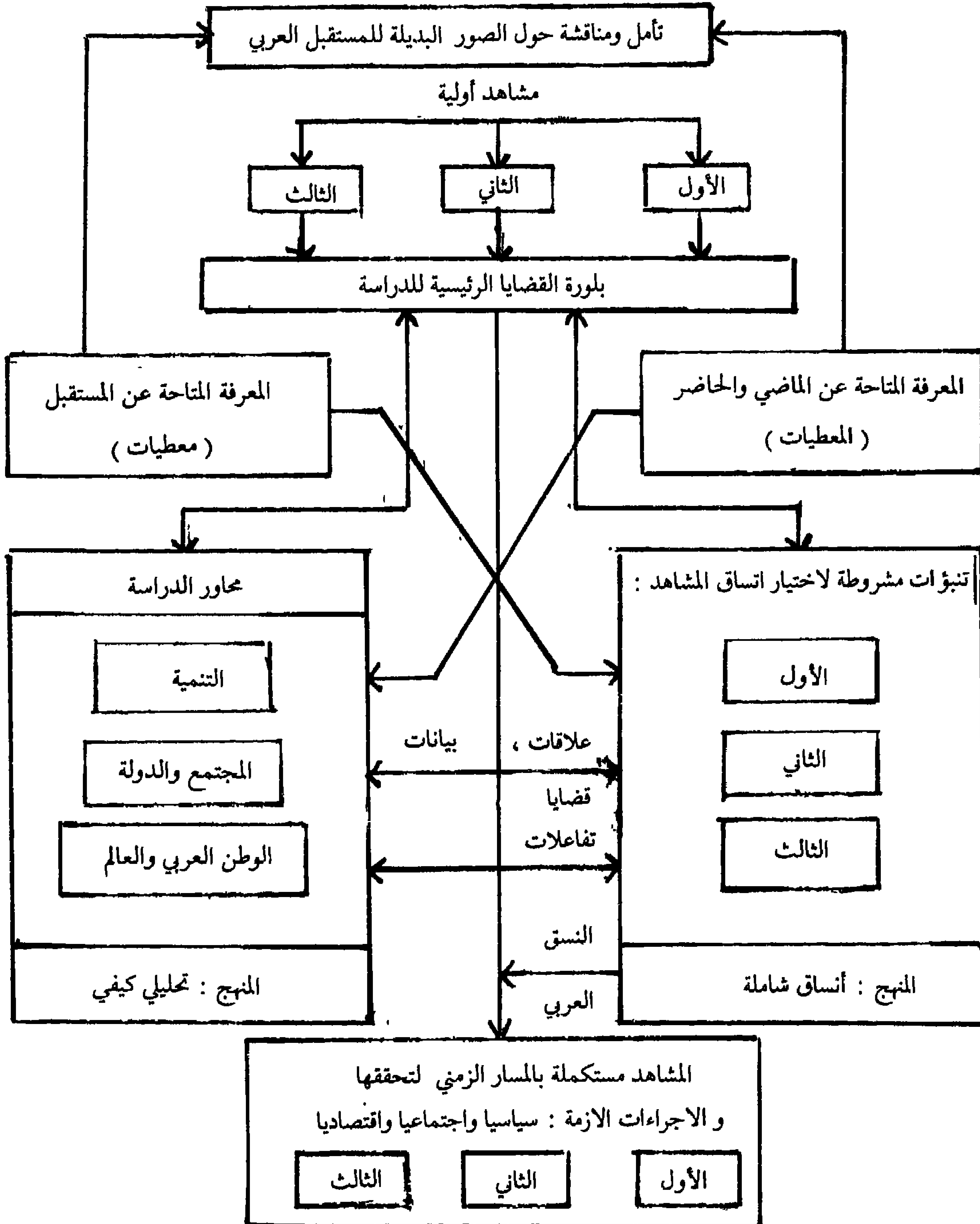
---

(٢١) مستقبل الأمة العربية : التحديات . . والخيارات ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

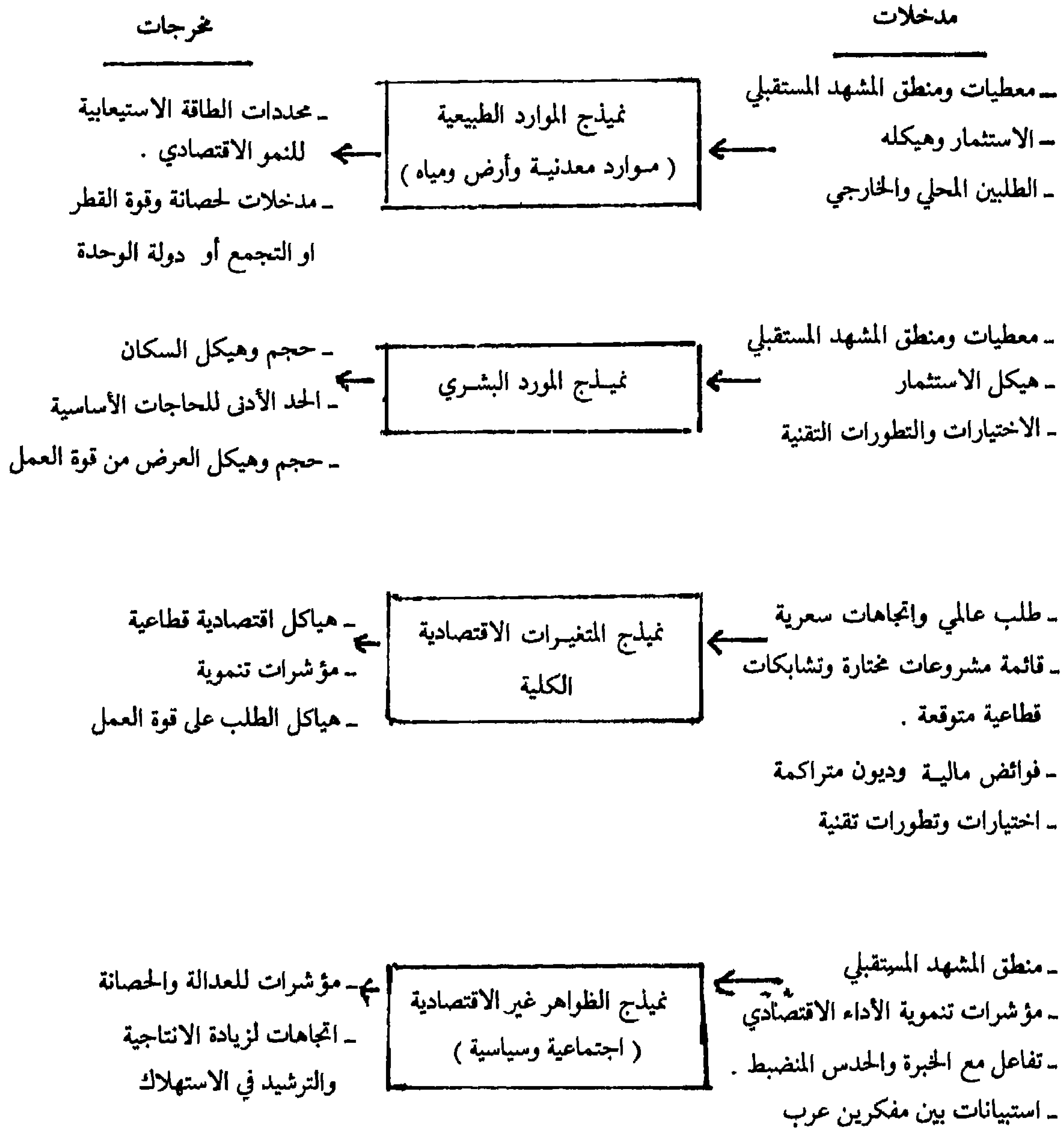
(٢٣) المصدر نفسه .

شكل رقم (١)
خطوات العمل في التحليل المستقبلي



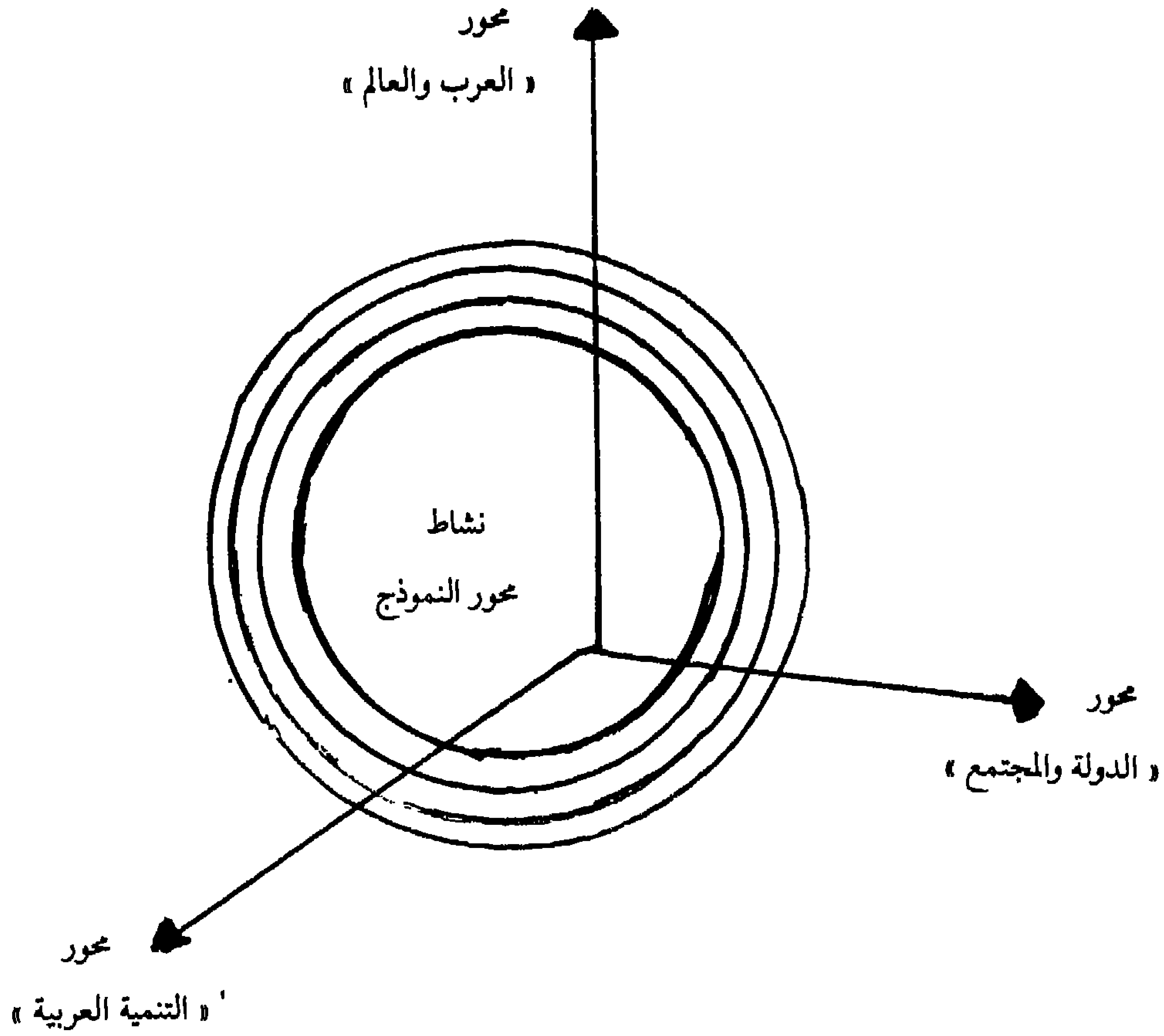
المصدر : مستقبل الأمة العربية : التحديات والخيارات (التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي) ، ص ٤٣

شكل رقم (٢)
نميذجات النسق العربي



المصدر : مستقبل الأمة العربية : التحديات والخيارات ، التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي ، ص ٤٤

ويمكن تمثيل العلاقة بين « المحاور المضمونية » الثلاثة ونشاط محور النمذجة على النحو البياني التالي :



وهكذا يلعب « النموذج » دورا هاما في الربط بين المحاور المختلفة ، وتدقيق ، التداعيات المنطقية للمشاهد المستقبلية ، واختيار مدى معنوية النتائج التي يتم الوصول إليها في اطـار سلسلة من « الجداول الاستشـرافية » . . المرتبطة بمشهد بعينه

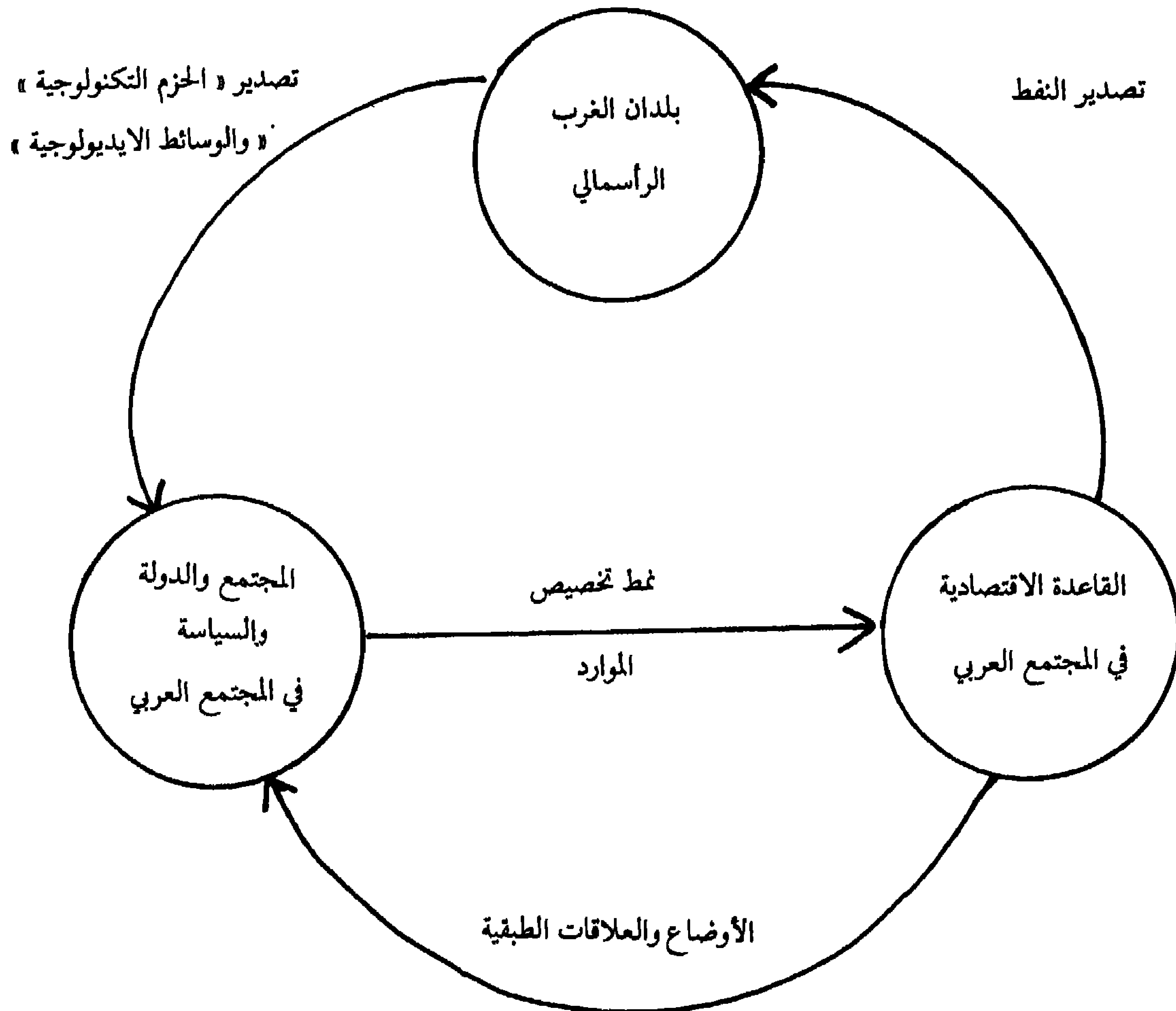
وعلى الرغم من أن خبرة عمليات« النمذجة» هي خبرة غنية بطبعها ويصعب تلخيص أهم نتائجها في مثل هذا العرض المختصر (٢٤) ، فقد أفصحت وتمخضت تلك المجهودات عن بعض النتائج الهامة ، نوجز أهمها فيما يلي :

(١) تساعد نتائج عمليات النمذجة على تحديد أهم الاختناقات المحتملة وأهم المآزق التي تكمن في ثنايا المستقبل . ويساعد ذلك بدوره على الكشف عن « نقاط الانكسار » و « نقاط الانقـلاب » في مسارات المتغيـرات الاقتصاديـة والاجتماعية الهامة . وذلك التحديد والكشف لنقاط « الانكسار و « الانقلاب » هام في حد ذاته ، للافصـاح عن التحولات النوعية والمحاذير الماثله ضمن المشاهد المستقبلية المختلفة .

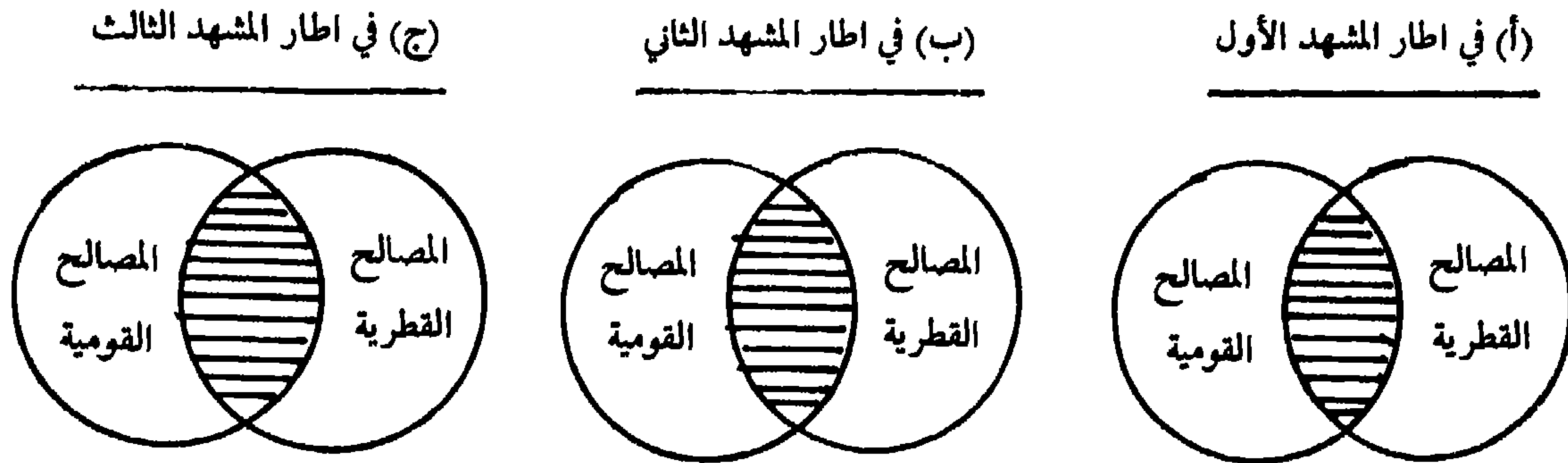
(٢٤) قام بالجهد الاساسي في مجال النمذجة في اطار مشروع (استشراف مستقبل الوطن العربي) ، الدكتور على نصار المستشار بمعهد التخطيط القومي (القاهرة) .

وكمثال لذلك ، فلقد كشفت « الجداول الاستشرافية » في اطار المشهد الأول عن انفجار للديون وانفجار للبطالة ، مما يهدد بأزمة اقتصادية خانقة على صعيد العديد من البلدان العربية اذا ما استمر منطق التجزئة واستمرت عمليات النمو المبتور والتابع . كذلك ، كشفت تفاعلات المحاور المختلفة في اطار النموذج عن « مأزق الدولة القطرية » على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، في إطار كل من المشهدين الأول والثاني .

(٢) تساعد عمليات النمذجة ـ اذا ما أحسن تعميمها ـ على فهم أفضل للعلاقات المتبادلة وآثار التغذية العكسية (Feed back effects) ، بين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأيديولوجي في مسيرة المستقبل العربي . ولعل خير مثال لتوضيح ذلك تلك العلاقات الجدلية والتبادلية الناتجة عن دور المتغير النفطي في التأثير على الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأيديولوجية في كل من الحاضر والمستقبل العربي ، صعودا وهبوطا . ويمكن توضيح تلك العلاقات التبادلية على النحو التالي :



(٣) تساعد عمليات « النمذجة » على فهم أفضل لجدلية المصالح القطرية في علاقتها بالمصلحة القومية الشاملة ، إذ أن المشاهد الثلاثة التي تم تركيبها هي في حقيقة الأمر محاولة للبحث عن « نقاط التقاطع » الممكنة بين مجموعة المصالح القطرية ومجمل المصالح والغايات القومية بهدف تعظيم المكاسب الجماعية القومية (Collective gains) . . . دون المساس ببعض خصوصيات المصالح القطرية ، كما تعرفها النخب الحاكمة « البديلة » . وكما تحددها اعتبارات التاريخ . والجغرافيا الموروثة . ويمكن لنا تصوير « نقاط التقاطع » بين المصالح القطرية والمصالح القومية في اطار المشاهد المستقبلية الثلاثة على النحو التالي :



وبالتالي تهدف « الجداول الاستشرافية » في اطار كل مشهد الى حساب « المكاسب الجماعية » في مواجهة « الخسائر الجماعية » ، في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والجيوربوليتكية .

(٤) ساعدت تمارين « النمذجة » على التأكيد على نسبية « قيود الموارد » (Resource constraints) في الزمان والمكان ، اذ أنه في ظل التطورات التكنولوجية والسعرية المتسارعة في ظل نظام عالمي متغير . . . يصعب الحديث عن قيود جامدة أو ثابتة (بما في ذلك الموارد المعدنية والمنجمية والطبيعية) . . فهي في حالة اعادة تقويم دينامي دائم (Dy-namic revaluation) . ولذا فان النظرة المستقبلية لقيود الموارد وغيرها من القيود يجب أن تكون نظرة نسبية متحركة ، بمعنى أنه يمكن « كسر » بعض القيود أو على الأقل « تحريكها » من خلال عمليات اعادة التنظيم الاجتماعي والسياسي . وهنا يجدر بنا أن نؤكد على أن هناك باستمرار فرصا جديدة « للمساومة التاريخية » على الصعيد العالمي يمكن أنْ تنفتح آفاقها للعرب من خلال المشهدين الثاني والثالث ، وتلك الفرص الجديدة « للمساومة التاريخية » هي التي تفسح الطريق أمام كسر وزحزحة الاستراتيجية والموردية .

وهكذا لاتوجد في التاريخ . الحالي والمستقبلي « حتمية تكنولوجية » أو « حتمية موردية » كتلك الحتمية الميكانيكية . التي تحدث عنها واضعو تقرير روما الشهير « حدود النمو » (٢٥) .

(٢٥) : Aurelio Pecei, Limits to Growth : A Report to the club of Rome (1968)

(٥) نظرا لأن جانبا هاما من مستقبل الأمة العربية يتحدد بمصير عدد من الصراعات الدائرة في قلب الوطن العربي وعلى حدوده ، وأبرزها : مصير وتطورات الصراع العربي الاسرائيلي ، مصير وتطورات حرب الخليج والصراع العراقي ـ الايراني ، مستقبل الصراعات الاجتماعية والاثنية والطائفية في عدد من البلدان التي تمثل بؤ را متفجرة (مثل لبنان والسودان) . . فان السيناريوهات المتصورة لتطور تلك الصراعات وأسلوب إدارتها سيكون (انعكاساتها الحادة على مستقبل المنطقة العربية في ظل المشاهد الثلاثة المعتمدة . وهنا يمكن للنموذج أن يلعب دورا هاما في استطلاع آثار « الأفعال » و « ردود الأفعال » في ظل السيناريوهات المستقبلية المحتملة ، من خلال محاكاة الأفعال وردود الأفعال . . بهدف الكشف عن « قوى التغيير » ومايمكن أن نطلق عليه » « قوى التحجيم » . مما يساعد على « حسن التقدير » و « حسن التدبير المستقبلي » .

(٦) ان مجهودات وعمليات النمذجة تفقد كل مصداقيتها وفعاليتها اذا كان الاطار الرياضي للنموذج المستخدم جامدا لا يسمح بالتغيرات التي تطرأ على الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، وكذا التغيرات التي تطرأ على « المعلمات » و « المعاملات الفنية » تحت تأثير التغيرات التكنولوجية وعمليات إعادة التنظيم الاجتماعي والاداري [٢٦] ولذا يجب أن تكون معالجة التغيرات التي تطرأ على « الهياكل » و « المعلمات » هي معالجة ديناميكية عبر فترات زمنية ، وقد نجح القائمون على أعمال النمذجة في اطار مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي على تطويع بعض المعلمات لتأخذ تلك التحولات الاقتصادية والاجتماعية بعين الاعتبار ، وإن لم يكن بالقدر الكاف .

حول التغيرات المهجية وبعض الدروس المستفادة .

رغم الجهد الكبير المبذول فى كلا المشروعين العملاقين : مشروع المستقبلات العربية البديلة ، ومشروع استشراف مستقبل الوطن العربي . . . تظل تلك المشروعات بدايات هامة لجهود لاحقة تواصل المسيرة وتستفيد من الأخطاء والدروس التي تمخضت عنها تجربة كل من المشروعين الكبيرين . ونظرا لما أتيح لكاتب هذا المقال من مشاركة متواضعة في أعمال كلا المشروعين المستقبليين ، أود أن أطرح في نهاية هذا المقال بعض الملاحظات النقدية حول الخبرة من كلا المشروعين :

(أ) حول منهجية بناء وتركيب « السيناريوهات المستقبلية »

عانت منهجية بناء « السيناريوهات » و « المشاهد المستقبلية » ، في كلا المشروعين من بعض نواحي القصور . . ولاسيما في مجال تحديد :

(أ) شروط الامكان (Feasibility condions)

(ب) شروط الاستمرارية (Sustainability · conditions)

(٢٦) توجد بعض الملاحظات المهجية الهامة بهذا الصدد في مقال هام للأستاذ راجنر فريش . RAGNAR Frisch, "Investment starting vs. Investment sinking," Economics of Planning vol. 7, No. 3, 1967, pp. 219-231.

اذ أن العبرة ليست فقط . بلحظة « فتح الستار » عن المشهد ، بل ان تداعى المشاهد الفرعية وتتابعها لابد أن يستند الى شروط تضمن استمرارية المشهد ، وتحول دون ارتداده أو تحلله . إذ لم تتم التفرقة ولم يتضح التمييز بشكل واضح بين كل مجموعة من الشروط في إطار كل مشهد .

كذلك فان « السيناريوهات » لم تخرج عن كونها « مشاهد استاتيكية مقارنة » ، تطرح قضايا واعتبارات مستقبلية أكثر من كونها تطرح آليات ومسارات دينامية للوصول للهدف المطلوب بدءا من نقطة الأساس والانطلاق [٢٧] ، ويرتبط بهذه النقطة غموض « آليات الانتقال » من مشهد (أو سيناريو) الى آخر ، فقد جاءت المشاهد المستقبلية كما لو كانت معلقة في الهواء . . وظلت أسئلة هامة معلقة حول امكانية الانتقال من مشهد لآخر أو « عدم الامكان » أصلا ؟ وكذا امكانية الارتداء والنكوص من مشهد متقدم الى مشهد متخلف ، فالمستقبل لايحمل في طياته اتجاها خطيا آحاديا (Uni-linear)لايقبل الانتكاس والارتداد .

وفي إطار تلك الصعوبات ، يبدو « المشهد الثاني » في اطار مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي كمشهد ملحق اما « بالمشهد الأول » ، باعتباره أعلى وأرقى مستويات الترشيد والتنسيق في ظل استمرار منطق التجزئة وتغليب النظرة والمصلحة القطرية واما كارهاصات لبداية « المشهد الثالث » : مشهد الوحدة العربية . وبالتالي فان الاستقلالية التاريخية والمستقبلية - من حيث الآليات والقوى الصانعة - لهذا المشهد هي موضع شك وتساؤ ل .

كذلك عندما تبنت منهجية بناء وتركيب السيناريوهات فكرة « فتحة الستار » عن المشهد المستقبلي موضع التحليل ، لم تفصح بالتبعية عن الفترة اللازمة « لتخمر التغيير » قبل أن يحدث التحول النوعي الذي يفضى الى نشوء وتحقق المشهد في « الزمن المستقبلي » المفترض .

(ب) حول بناء النماذج الرياضية

كما أن التكنولوجيا ليست وسيطا محايدا . . . بل هي وسيط محمل بالأيديولوجيا الصريحة أو الضمنية ، فكذلك يكون « النموذج الرياضي » . إذ أن طبيعة تصميم « النموذج الرياضي » تحكم سلفا نوعية النتائج والاسقاطات التي تم الوصول اليها في اطار مثل هذا النموذج فالعلاقات الهيكلية والمعادلات الأساسية التي يحويها النموذج يمكن لها أن تفضى الى نتائج متميزة سلفا ، ومنذ البداية Built-in biases ، وكأن النموذج هو نوع من العقلنة لنتائج محددة سلفا .

كذلك يمكن أن تفضى حلول النماذج الى « نتائج ماجنة » وغير مقبولة ، كما حدث أثناء الحوار الطويل والمضني بين « مجموعة النماذج » والمشرفين على « المحاور المضمونية » في اطار مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي . وهذا يؤكد مرة أخرى أن النموذج هو مجرد أداة . . وليس وثنا جديدا أو الها ينطق بالحكمة - والقول الفصل .

(٢٧) راجع محمود عبد الفضيل ، « كيف نتحاور مع المستقبل ؟ » ، مرجع سبق الاشارة اليه ، ص ١١٣ .

ولذا فهناك مجال واسع لتحسين بناء النماذج وتطويرها لاغراض الاستشراف المستقبلي والاقلال من أثر المحاكاة أو الأقتصار على تعديل مواصفات النماذج العالمية التي صممت في ظل ظروف تاريخية مختلفة وفقا لفروض مغايرة .

(ج) حول نمذجة الظواهر « غير الاقتصادية » .

عادة ما تثار صعوبات جمة حول نمذجة الظواهر « غير الاقتصادية » ، ورغم كل الجرأة المنهجية في اقتحام هذا المجال من جانب القائمين على أمر مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي . . . الا أن المحاولة تظل في بدايتها وعانت من عيوب منهجية أساسية . فالاعتماد المطلق على « أسلوب الاستبيان » لتحديد الأوزان والترجيحات اللازمة للظواهر والاعتبارات غير الاقتصادية ، يجعل كل نتائج الاستشراف في هذا المجال عرضة للتحيزات الذاتية والشخصية لمن قاموا بملء الاستبيان مهما حسنت نواياهم أو أوتوا من حكمة وعلم غزير .

ويزيد من مشاكل هذا الأسلوب أن « الاستبيان » قد اقتصر على استطلاع رأي النخبة . سواء أكانت نخبة سياسية أم نخبة فكرية . فلم تشمل العينة ممثلين للنقابيين ، وممثلين للحركات الشعبية الفاعلة ، وممثلين للشباب (رمز المستقبل) ، وهي فئات لها بلاشك لها ترجيحات وأوزان مختلفة ورؤى مستقبلية مغايرة لرؤي النخب الفكرية والسياسية .

وهنا يكمن مجال واسع للتحسين والتطوير في المستقبل في مجال الدراسات الاستشرافية . . حتى لاتكون دراسات استشراف المستقبل تمارين نخبوية ، تعمق من مقدار الفجوة القائمة بين « النخبة » و « الجماهير » .

(د) حول تصنيع البيانات

ثبت من خلال تجربة كلا المشروعين الكبيرين لاستشراف آفاق المستقبل العربي أن قاعدة البيانات اللازمة لأغراض الاستشراف هي قاعدة جد ضعيفة ، وأن العديد من البيانات الخام المتاحة هي بيانات غير موائمة لأغراض الجهد الاستشرافي . . . وأنها في أحوال كثيرة تحتاج لاعادة تصنيع (أو اعادة تشغيل) لكي تصبح صالحة لخدمة أغراض الاستشراف .

ولذا فان صناعة البيانات والاحصاءات لأغراض الاستشراف هي بالضرورة صناعة مستقبلية » يجب أن تتم وفق مواصفات معينة تمخضت عنها الخبرة التاريخية المتراكمة للجهد الاستشرافي الذي تم خلال السنوات الخمس الماضية .

وقد لانغالي كثيرا اذا ما قلنا ان قصور « قاعدة البيانات » تمثل احدى نقاط الاختناق الهامة التي تعيق تقدم مجهودات استشراف آفاق المستقبل العربي ، بخيره وشره .



وفي ختام هذا العرض الموجز للخبرة العربية في مجال استشراف آفاق المستقبل العربي ، نود أن نؤكد على أهمية تلك الدراسات التي تتعدد مسالكها وتتشعب دروبها فقد آن للعرب أن يكون لهم نظرتهم المستقبلية ، في عالم مليء بالتغيرات والتحديات الضخمة . . . بحيث يمكن استشراف المسارات الحرجة للمستقبل العربي ، وماتحفـل به من مشاكل وتحديات ، وماتنطوي عليه من طاقات وامكانات . فالأمور قد تطيب أو تخبث بالنسبة للمسارات الاحتمالية للمستقبل العربي ، بقد ما نتج في اعداد العدة والعتاد للمستقبل . . عن طريق « حسن الدرس والتقدير » و « حسن التدبير » معا . وما « الاستشراف » سوى الطلقة الأولى في معركة طويلة مريرة لفك الحصار الغربي حـول المستقبل العربي .

* * *

النماذج الرياضية والمحاكاة في اتخاذ القرارات والدراسات المستقبلية

معتز خورشيد
معهد الكويت للأبحاث العلمية

تمهيـد :

تهـدف هذه الـدراسـة إلى تـوضيـح دور النمـاذج الرياضية وأساليب المحـاكاة بـوصفها إحـدى الأدوات التجريبية في الدراسات المستقبلية ، إذ تسمح النماذج الـرياضيـة بـاختبـار الفـروض والسيـاسـات البـديلة واستشراف المسار المستقبلي للنظم المختلفة وهو ما ساعد على ترشيد عملية اتخاذ القرارات على المستويين الجزئي والكلي .

وبناء على ذلـك ، يتناول هـذا البحث خمس نقاط رئيسية هي :

١ ـ تصنيف النماذج الرياضية عـلى أساس هـدف البحث .

٢ ـ استخـدام النمـاذج للتنبؤ بسلوك الـوحـدات الانتاجية .

٣ ـ دور النمـاذج الكمية في تقييم المسـار المستقبلي للنظم الاقتصادية الكلية .

٤ ـ استخدام النماذج الرياضية لاتخاذ القرارات على المستوى الاقليمي .

٥ ـ تحليل المشكلات ذات الطابع الدولي باستخدام النماذج العالمية .

وبذلك يتضح للقارىء جدوى استخدام النمـاذج الرياضية وأساليب المحـاكاة عـلى المستويـات المختلفة لاتخاذ القرار .

أولا : مقـدمة :

يصعب عـلى الباحث العلمي في ظـل عصـر ثـورة المعلومـات وما صـاحبهـا من تـطور سـريـع في علوم الحاسب ، أن يتغاضى عن الدور الذي تقوم به النماذج الكميـة كأداة تحليليـة فعالـة في مختلف مجـالات العلم والمعرفة . فبرغم أوجه القصور في أسلوب النمذجة ، إلا أنه يمثل بالقطع إحدى الأدوات التجريبية المرنة التي

تسمح باختبار بدائل السياسات والحوارات المستقبلية مما يساعد متخذ القرار ـ على المستوى القطري والاقليمي والعالمي ـ على التعرف على الآثار المباشرة وغير المباشرة لقراراته ، وبالتالي قياس درجة المخاطرة المترتبة عليها .

وتهدف الدراسة الحالية إلى مناقشة دور النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة كإحدى الأدوات التجريبية المساعدة لعملية اتخاذ القرارات واستشراف التطورات المستقبلية . وهي موجهة بالدرجة الأولى للمجتمع العريض من الباحثين الذين يرغبون في التعرف على إمكانية وحدود استخدام هذه النماذج في الدراسات المستقبلية . لذلك حاولنا اختيار مجموعة من التطبيقات تغطي مستويات مختلفة من التحليل تبدأ بالنماذج التي تسعى إلى التنبؤ بالمسار المستقبلي واختبار السياسات على مستوى الوحدة الانتاجية وتنتهي بمجموعة من النماذج تقوم بدراسة المشاكل ذات الطابع الدولي أو العالمي .

ويتناول الجزء الثاني من هذه الدراسة ، المفاهيم الأساسية للنمذجة ، في حين يناقش الجزء الثالث الأنواع المختلفة من النماذج . أما الأجزاء التالية فتقدم للقارىء بعض مجالات التطبيق حيث تبدأ بنماذج تخطيط الوحدات الانتاجية وهي نوعية من النماذج تقوم بالتنبؤ بالسلوك المستقبلي متوسط الأجل الذي يترتب على اتخاذ مجموعة من القرارات والسياسات الادارية والمالية . يلي ذلك مناقشة للنماذج الاقتصادية التي تسعى إلى تحليل المسار المستقبلي للاقتصاد الكلي وقياس أثر التغيرات الخارجية على معدلات أدائه . أما نماذج التحليل على المستوى الاقليمي فيفرد لها جزء خاص يتطرق لدراسة سوق النقل البحري في منطقة غربي آسيا . وأخيرا ، يتناول الفصل الأخير من الدراسة ، تقييم مجموعة من النماذج العالمية التي تم بناؤ ها خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات بهدف دراسة بعض المشاكل ذات الطابع الدولي أو الاقليمي .

ويجب التنويه ، بادىء ذي بدء ، إلى بعض النقاط المحورية في مناقشتنا لدور النماذج الرياضية والمحاكاة في الدراسات المستقبلية :

١ ـ أن النماذج مهما تعددت أنواعها ، لا تخرج عن كونها أداة تجريبية صممت لتحقيق هدف بحثي محدد . وأن مدى الاستفادة منها يعتمد بدرجة كبيرة على وعي الباحث بإمكاناتها وحدود استخدامها ومدى تمثيلها للواقع . ذلك أن استخدام النماذج في غير موقعها أو لدراسة مشاكل لا تدخل في نطاقها قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج عكسية قد تفقد الباحث الاقتناع بجدواها .

٢ ـ أن الدراسات المستقبلية هي نتاج تفاعل فكري بين مجموعة من الباحثين في مختلف فروع العلم والمعرفة . وأن هذه الدراسات بطبيعتها تحتوي على العديد من المتغيرات الكيفية التي يصعب تمثيلها رياضيا وخاصة كلما امتد الأفق الزمني للتحليل . ومن ثم فإن استخدام النماذج الكمية يقتصر في هذه الحالة على اختبار اتساق السيناريوهات المستقبلية وتقييم الآثار المترتبة على السياسات والقرارات البديلة .

٣ ـ أن النماذج ليست إلا تجريدا للواقع ، وأن أسلوب النمذجة يقوم أساسا بعزل الظواهر ودراستها وهو ما اصطلح على تسميته بدرجة شمول النموذج . ويؤدي ذلك بالطبع إلى درجة من التقريب يجب أخذها في

الاعتبار عند تحليل النتائج . يضاف إلى ذلك أن النماذج الرياضية تعتمد على حجم ضخم من البيانات تتفاوت في درجة دقتها واتساقها بعضها مع البعض الآخر . لذلك فإن مستخدم النموذج يجب أن يكون على بينة بحجم الأخطاء المحتملة في التقدير قبل الاستعانة بنتائج النموذج .

٤ ـ يجب النظر إلى النموذج على أساس أنه يمثل جزءاً من العملية البحثية الكلية ، وبالتالي فإنه يجب توظيفه وتطويعه لتحقيق الهدف الرئيسي من الدراسة أو البحث . أي أن اختيار النموذج يعتمد بالدرجة الأولى على القضايا الرئيسية التي تناقشها الدراسة والأهداف المراد تحقيقها . ومن ثم فإن جودة أو درجة فعالية النموذج إنما تقاس بدرجة تمثيله للمشكلة محل الدراسة وليس على أساس جودة ودرجة تعقيد صياغته الرياضية .

ثانيا : مفاهيم أساسية :

نشأة فكرة بناء النماذج Model Building في العلوم الهندسية منذ فترة ليست بالقصيرة . إذ اتجه المهندس المعماري إلى بناء نموذج مجسم يمثل المبنى الذي يرغب في إنشائه . كما اتجه المهندس الميكانيكي إلى بناء نموذج مصغّر للماكينة التي يرغب في تصميمها ، يمكن استخدامه لاجراء الاختبارات اللازمة قبل تعميم النتائج على الماكينة أو المعدة الأصلية . كما اتجه البعض الآخر للاستفادة من التشابه أو التقارب بين النظم (أو الأنساق) الهندسية لاختبار آلية عملها الداخلي . فمن الممكن على سبيل المثال ، تمثيل عمل نظام ميكانيكي بمجموعة من الدوائر الكهربائية يمكن بسهولة اختبارها معمليا . وقد امتد استخدام هذا الأسلوب أيضا في العلوم الاجتماعية حيث يبحث علم « السيبرنطيقا Cybernetics » في تمثيل الظواهر والعلاقات التي تحكم عمل النظام الاقتصادي عن طريق نظام أو نسق هيدروليكي مثلا ، أي أن الفكرة الرئيسية هي صعوبة إجراء اختبارات معملية لدراسة آلية عمل (Mechanism) النظم ، مما يستدعي بناء نموذج مصغّر يعكس خواصها الأساسية حيث يتم اختباره ثم تعميم نتائج الاختبار على النظام الحقيقي . **ومن ثم فإن الفلسفة الأساسية لعملية النمذجة إنما تكمن في محاكاة عمل النظم (أو الأنساق) من خلال تمثيلها بنماذج تعكس آلية عملها أو خصائصها الرئيسية .**

ويمكن تقسيم النماذج بشكل عام إلى مجموعتين رئيسيتين : الأولى ، النماذج الطبيعية (Physical Models) ، والثانية ، النماذج الرياضية (Mathematical Models) ، كما يمكن تصنيف كل من المجموعتين السابقتين إلى عدد من المجموعات الفرعية الأخرى (كما يوضح الشكل رقم (١) .

وتختص دراستنا أساسا ـ وبشكل خاص ـ بالنماذج الرياضية نظرا لشيوع استخدامها ومواكبتها للدراسات المستقبلية وعملية اتخاذ القرارات . وفي هذا الصدد ، نود أن نحدد بعض المفاهيم الرئيسية التي سيجري استخدامها بعد ذلك في هذه الدراسة .

النظام أو النسق (System)

النظام هو مجموعة أو تجمع من الأجزاء أو الكيانات يتفاعل بعضها مع البعض الآخر ، ومع البيئة المحيطة بها ، بهدف الوصول إلى هدف مشترك .

فالنظام الاقتصادي الكلي (Macro-economic System) يحتوي على مجموعة من المؤسسات الوطنية مثل الشركات الانتاجية ، المؤسسات المالية ، الحكومة ، والقطاع العائلي يتفاعل بعضها مع البعض الآخر بهدف استخدام الموارد المحدودة لاشباع الحاجات المتزايدة . ويتفاعل هذا النظام الاقتصادي مع البيئة المحيطة به وهي الاقتصاد العالمي . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنه يمكن النظر إلى الوحدات أو الشركات الانتاجية كنظام إنتاجي (Pro-duction System) ، إذ يتكون من العمال والموظفين والماكينات والمواد الخام التي تتفاعل بعضها مع البعض الآخر للوصول إلى هدف محدد ألا وهو تحويل المادة الخام إلى منتج نهائي . ويعمل هذا النظام في إطار البيئة المحيطة به وهي النظام الاقتصادي الكلي . كذلك عند التحدث عن النظام الصحي (Medical System) فإنه يتكون من الأطباء ، والممرضات ، وعمال الصيانة ، والمعدات الطبية ، ووحدات العلاج الخ . . . وهذه المكونات يتفاعل بعضها مع البعض الآخر لتقديم الخدمات الصحية إلى الأفراد .

النماذج الرياضية (Mathematical Models)

هي مجموعة من النماذج تقوم بتمثيل آلية عمل النظم المختلفة بمجموعة من العلاقات والدوال الرياضية . وتحتوي العلاقات الرياضية للنموذج على نوعين رئيسيين من المتغيرات الكمية : المتغيرات التابعة ، والمتغيرات المستقلة .

المتغيرات المستقلة : (Independent Variables)

هي مجموعة المتغيرات التي يتم تحديدها من خارج النموذج أي يتم تحديدها بواسطة مستخدم النموذج أو متخذ القرار . وتنقسم هذه النوعية بدورها إلى متغيرات اتخاذ القرار ، والمتغيرات البيئية .

متغيرات اتخاذ القرار : (Decision Variafles)

هي مجموعة من المتغيرات المستقلة التي تمثل القرارات والسياسات التي نرغب في دراسة أثرها على الأداء المستقبلي للنظام محل الدراسة . فعلى سبيل المثال ، عند بناء نموذج اقتصادي كلي ، فإن الانفاق الحكومي ، الاستثمارات الحكومية ، الضرائب والرسوم الجمركية ، الدعم السلعي والطاقة الانتاجية لبعض القطاعات الاقتصادية ، من الممكن أن تمثل متغيرات اتخاذ قرار . أما في حالة نموذج تخطيط الوحدة الانتاجية ، فإن حجم الانتاج وبرنامج التمويل يمكن أن تمثل بدورها متغيرات اتخاذ قرار ، يتم اختبار آثارها من خلال النموذج المقترح .

المتغيرات البيئية : (Environmental Variables)

هي مجموعة من المتغيرات المستقلة تتحدد قيمها نتيجة لتفاعل مجموعة من العوامل الممثلة للبيئة المحيطة بالنسق أو النموذج . وبالتالي فهي تعتبر معطيات للنظام عليه أن يطوع أداءه للتأقلم معها . فعلى سبيل المثال ، يحتاج النموذج الاقتصادي الكلي إلى قياس مجموعة من متغيرات البيئة مثل : الأسعار العالمية للسلع والخدمات ، متوسط سعر الفائدة السائد عالميا ، والطلب العالمي على السلع والخدمات . أما في حالة نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ، فإن متغيرات البيئة تحتوي على الأسعار السائدة في سوق السلعة ، العرض الكلي والطلب الكلي على السلعة في السوق ، ومعدل الضرائب على الدخل وهكذا . .

المتغيرات التابعة : (Dependent Variables)

هي مجموعة المتغيرات التي يتم قياسها بواسطة النموذج وبالتالي فهي نتاج ثلاثة عوامل رئيسية :

- قيم المتغيرات المستقلة التي يحددها مستخدم النموذج .
- قيم معلمات النموذج .
- العلاقات الرياضية الممثلة للنموذج .

ثالثا : تصنيف النماذج الرياضية

يمكن في هذا الصدد الاستناد إلى عدد من المعايير لتقسيم أو تصنيف النماذج الرياضية ، أول هذه المعايير هو المشكلات أو القضايا الرئيسية التي يتصدى لمناقشتها النموذج . ففي مجال الاقتصاد - على سبيل المثال - يمكن تقسيم النماذج إلى نماذج تركز على قضية توزيع الدخل ، وأخرى تعالج مشكلة العمالة ، في حين تحاول نماذج ثالثة دراسة نمط التجارة الخارجية أو آلية عمل سوق الصادرات والواردات . بالمثل يمكن تصنيف نماذج علوم الادارة إلى نماذج تحليل مالي أو إدارة إنتاج أو تسويق . . . الخ .

أما المعيار الثاني الذي يمكن الاستناد إليه ، فهو الأفق الزمني للنموذج حيث يمكن التفرقة بين النماذج قصيرة الأجل والأخرى طويلة الأجل ، وبالطبع فإن هيكل وسمات النموذج تختلف باختلاف الفترة الزمنية للتنبؤ .

أما المعيار الثالث الذي يمكن الاستناد اليه ، فهو نطاق حدود تطبيق النموذج . فهناك النماذج الاقتصادية التي تركز على تحليل أداء الوحدات الانتاجية ، في حين أن نماذج أخرى تتصدى للتحليل الاقتصادي على المستوى القطاعي والقومي . كذلك يمكن الاشارة إلى النماذج العالمية وهي نماذج تستهدف تحليل المشكلات ذات الطابع الاقليمي أو الدولي .

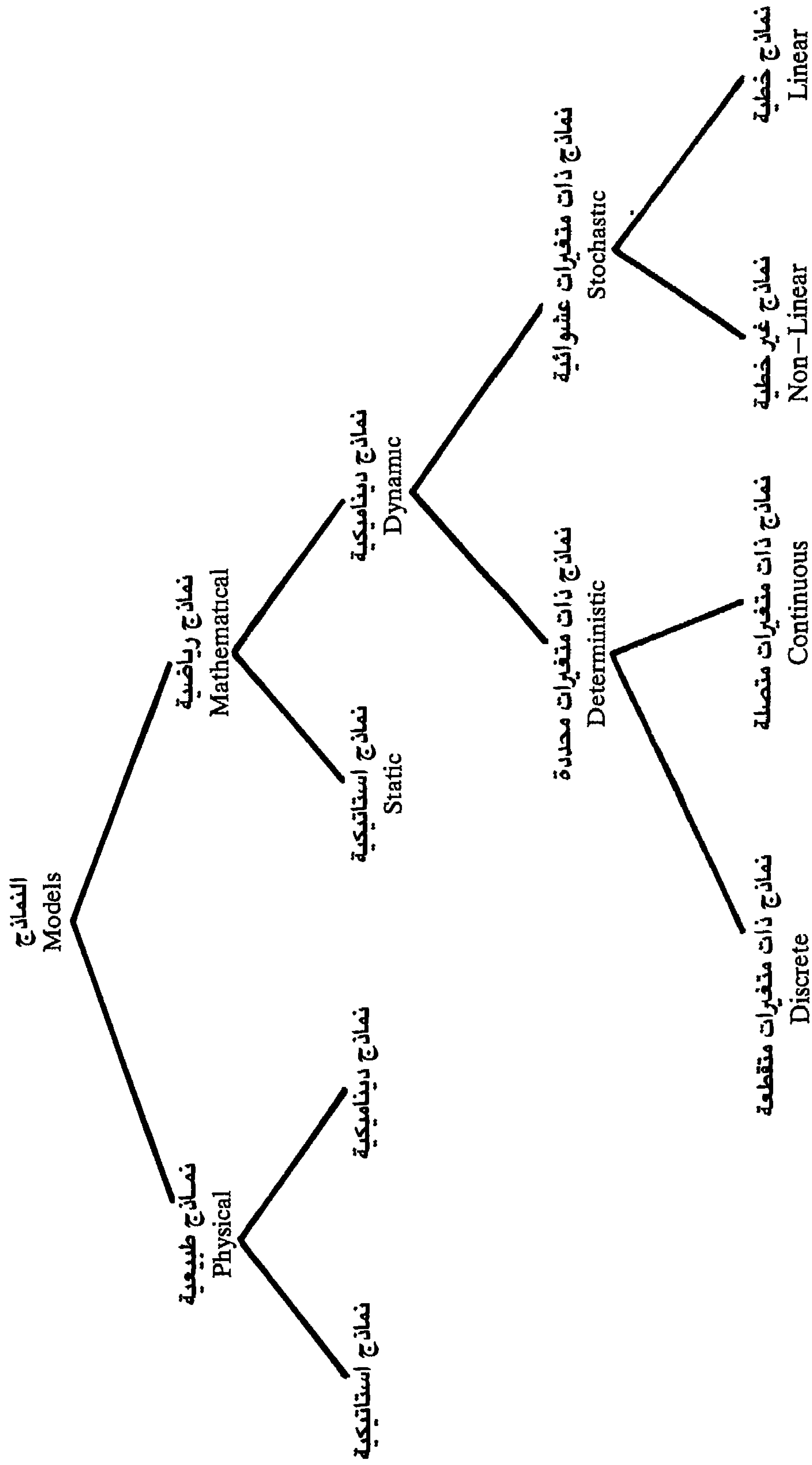
بالاضافة إلى ما سبق فإنه يمكن الاستناد إلى العديد من المعايير الفنية للتصنيف كما يوضح الشكل رقم (١) ، إذ يمكن تقسيم النماذج الرياضية بناء على ارتباط متغيرات النموذج بعنصر الزمن (نماذج ستاتيكية وديناميكية) أو بالأخذ في الاعتبار نوعية المتغيرات التابعة والمستقلة (نماذج ذات متغيرات عشوائية أو محددة - ونماذج ذات متغيرات متصلة أو متقطعة . . . الخ) ، كذلك يمكن الاستناد إلى خواص العلاقات الرياضية للنموذج ، حيث يمكن التفرقة بين النماذج الخطية وغير الخطية .

وبرغم أهمية المعايير السابقة للتصنيف ، فإننا سوف نستند إلى أساس آخر للتقسيم يساعد على تفهم استخدام أسلوب النمذجة في الدراسات المستقبلية ألا وهو الهدف من بناء النموذج . إذ يمكن تقسيم النماذج إلى ثلاث نوعيات رئيسية :

أ - نماذج التنبؤ بمتغيرات البيئة[١] (Forecasting Models)

---

(١) —Makridakis, S. (1983) "Farecasting Methods And Applications" John Wiley and Sons, New York.



شكل رقم (١) تصنيف النماذج استناداً إلى المعايير الفنية
(Technical Classification)

ب ـ نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام ومعدلات أدائه[٢] (Models for Predicting System Performance)

جـ ـ نماذج البحث عن الحل الأمثل[٣] (Optimization Models)

تهدف النوعية الأولى من النماذج إلى تقدير أو قياس القيم المستقبلية لمتغيرات البيئة المحيطة بالنظام . فعند بناء نموذج اقتصادي كلي لابد من تحديد القيم المستقبلية للأسعار العالمية ومعدلات التضخم ومتوسط أسعار الفائدة العالمي . أما هذه النوعية من نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية فتقوم بتقدير المؤشرات المستقبلية التي تعكس سوق السلع المنتجة مثل أسعار المنافسين وحجم العرض الكلي . . . الخ .

أما النوعية الثانية من النماذج ، فيمكن استخدامها في التنبؤ بآلية عمل النظام وقياس معدلات أدائه كدالة في متغيرات البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار . إذ يوضح شكل رقم (٢) أن هذه النوعية من النماذج تقوم بقياس قيم المتغيرات التابعة اعتمادا على القيم التي حددها مستخدم النموذج لكل من متغيرات البيئة ، ومتغيرات اتخاذ القرار والعلاقات الرياضية التي تمثل آلية عمل النظام . فهذه النوعية من نماذج الاقتصاد الكلي يمكن استخدامها لدراسة الآثار المستقبلية للتغير في الأسعار العالمية (متغيرات البيئة) ، أو لزيادة الاستثمارات الحكومية (متغيرات اتخاذ القرار) على الأداء الاقتصادي مقاسا بمعدلات نمو الناتج المحلي الاجمالي . أما هذه النوعية من نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ، فإنها تركز على تقييم الآثار المترتبة على السعر التوازني للسلع (متغيرات البيئة) ، أو الزيادة في الطاقة الانتاجية للوحدة (متغيرات اتخاذ القرار) .

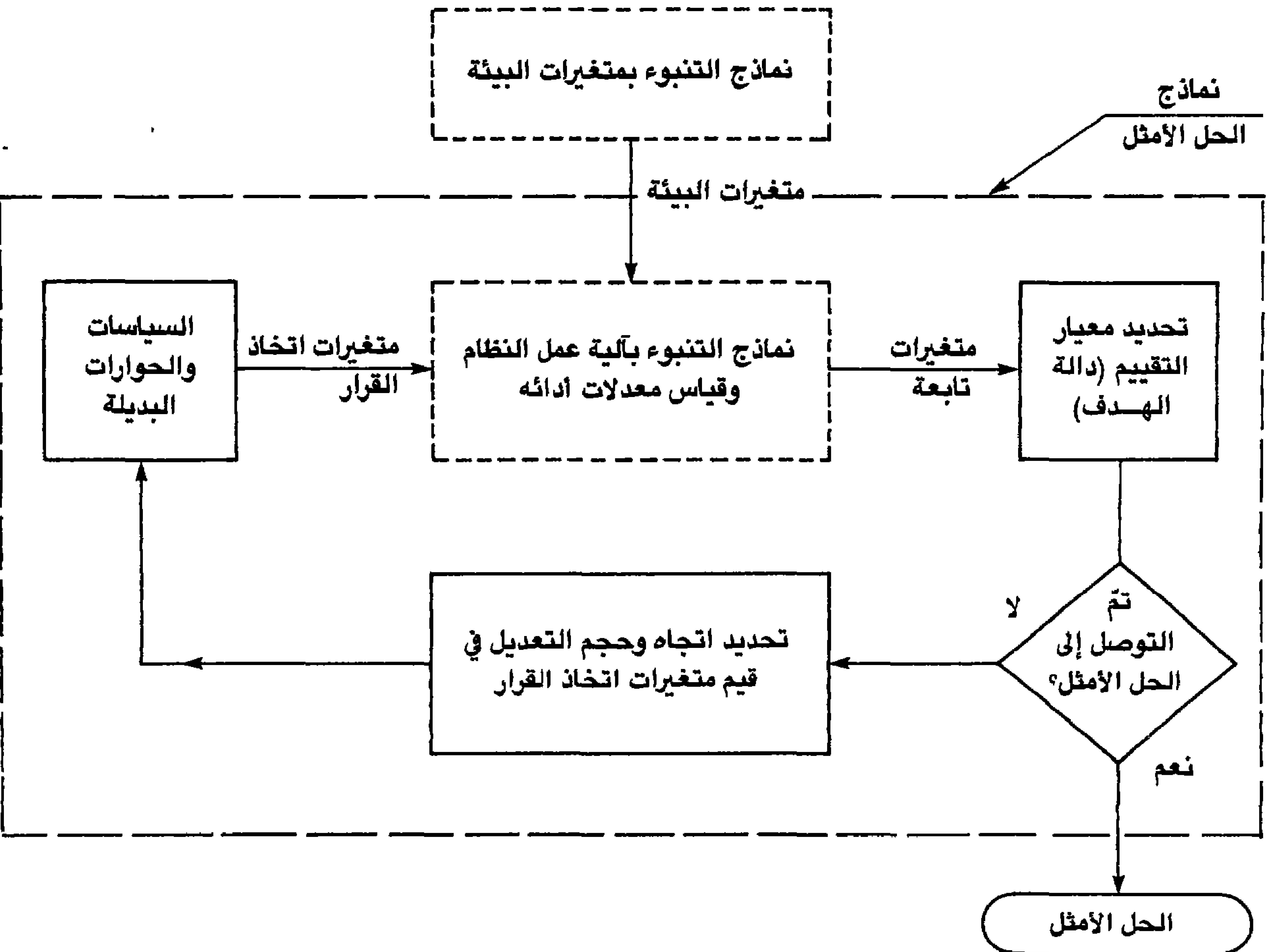
ويجب التأكيد في هذا المجال على أن هذه النوعية من النماذج تهدف إلى استشراف النتائج المترتبة على تطبيق مجموعة من السياسات والقرارات في ظل ظروف بيئية محددة دون محاولة الوصول إلى الحل الأمثل للمشكلة محل الدراسة . أي أن هذه النماذج لا تحتوي على آلية (ميكانزم) داخلية تمكنها من الوصول إلى الحل أو الوضع الأمثل .

أما النوعية الثالثة والأخيرة فهي نماذج الأمثلية أو البحث عن الحل الأمثل ، إذ تسعى هذه النماذج إلى قياس معدلات الأداء المثلى للنظام محل الدراسة . أي أنها تهدف إلى تحديد قيم متغيرات اتخاذ القرار التي تسمح بتعظيم قيم المتغيرات التابعة أو دالة رياضية تشملها . ونظرا لتعدد معايير التقييم التي يمكن الاستناد إليها بالاضافة إلى تعدد البدائل الممكنة للحل فإن الخطوة الأولى في بناء نماذج الأمثلية تكمن في اختيار دالة هدف ، تعكس تفضيل مستخدم النموذج أو المعيار الذي سيتم على أساسه تحديد الحل الأمثل . ومن ثم فإن الحل الأمثل الذي نصل إليه باستخدام هذه النماذج إنما يعتمد بالدرجة الأولى على توصيف دالة الهدف . ففي حالة النماذج الاقتصادية يمكن اختيار مستوى الرفاه الاجتماعي ، أو معدلات النمو الاقتصادي ، أو حجم الصادرات السلعية كدالة هدف نسعى إلى ايجاد القيمة المثلى لها . إلا أن اختيارنا لمستوى الرفاه الاجتماعي ، على سبيل المثال ، قد يؤدي إلى حل أمثل يختلف عن الحل الذي ينتج عن اختيار معدلات نمو القطاعات الاقتصادية .

---

(٢) — Gordin, G. (1978) "System Stimulations prentice Hall Inc., New Jersey.

(٣) — Luenberger, D. G. "Internation to Linear And Non - Linear programming" Addison - Wesley, Massachnsetts.



شكل رقم (٢) تصنيف النماذج الرياضية

وبالمثل ، يمكن في الدراسات ذات الطابع الدولي أن نحتار الفجوة بين دخول الدول المتقدمة والدول النامية كدالة هدف . وبالتالي فإن النموذج العالمي يسعى إلى تحديد القرارات والسياسات على المستوى الدولي والاقليمي التي تسمح بتقليص هذه الفجوة إلى الحد الأدنى خلال السنوات القادمة . كذلك يمكن صياغة دالة الهدف لتمثل معدلات نمو الانتاج العالمي من السلع والخدمات . حيث يكون التركيز في هذه الحالة على اختيار السياسات الدولية التي تعظم الناتج الاجمالي العالمي . أي أنه من الممكن الوصول إلى أكثر من حل أمثل بناء على الاختلاف في توصيف دالة الهدف .

نخلص مما سبق أن نماذج الحل الأمثل تتميز عن سابقتها بكونها تحتوي على آلية داخلية تمكنها من البحث عن الحل الأمثل من خلال تعريف دالة هدف تعكس تفضيل متخذ القرار . إذ يوضح الشكل رقم (٢) أن هذه النوعية من النماذج تسمح باختبار الحل الأمثل ، وفي حالة عدم تحقيقه فإنها تحدد اتجاه وحجم التعديل في متغيرات اتخاذ القرار للوصول إلى حل أفضل ، ثم تكرر هذه الخطوات حتى تحديد الحل الأمثل . ومن هنا تبدو صعوبة ودرجة تعقيد هذه النماذج وخاصة في حالة وجود عدد كبير من التغيرات .

ونود قبل البدء في مناقشة بعض مجالات تطبيق النماذج السابقة أن نوضح أنها جميعا تستخدم بشكل أو بآخر في الدراسات المستقبلية برغم الاختلاف في خصائصها وسماتها الفنية . فعند استخدام نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام في الدراسات المستقبلية فإننا ندخل في نطاق ما اصطلح على تسميته التنبؤ المشروط (Conditional Forecasting) أو محاكاة الحوارات البديلة (Scenario Simulation) . ذلك أن التنبؤ بالأداء المستقبلي للنظام أو المتغيرات التابعة يعتمد بالدرجة الأولى على اختيار المستخدم للحوارات البديلة (القيم المستقبلية لمتغيرات البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار) . أو بمعنى آخر ، فإن التغير في قيم متغيرات اتخاذ القرار يصاحبه تغير في الصورة المستقبلية التي يولدها النمـوذج للنظام محـل الدراسة .

أما نماذج الأمثلية فهي تسعى إلى ايجاد الحل الأمثل خلال فترة التنبؤ المستقبلي بافتراض دالة هدف يتم اختيارها مع تعريف بعض القيود التي تحدد النمو . أي أننا نبحث في التطور المستقبلي الأمثل لأداء الأنظمة المختلفة ، بناء على ذلك فإن النماذج الاقتصادية الكلية على سبيل المثال تسعى إلى الوصول إلى الصورة المستقبلية للنظام الاقتصادي التي تنتج من تعظيم معدلات النمو في الناتج المحلي الأجمالي وأخذا في الاعتبار القيود المتمثلة في هيكل وخصائص النظام وحجم الموارد المتاحة .

وفيما يلي نتطرق بشيء من التفصيل لبعض استخدامات النماذج الرياضية وأساليب المحاكـاة في الدراسـات المستقبلية وعملية اتخاذ القرارات . حيث نبدأ بنماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ثم نناقش النماذج الاقتصادية الكلية وصولا الى النماذج الاقليمية والعالمية وسنركز عند تناول كل من هذه التطبيقات على ثلاث نقاط رئيسية :

- القضايا التي يتناولها النموذج
- البعد الزمني للنموذج
- هيكل النموذج وسماته المميزة
- مناقشة لبعض نتائج النموذج

رابعا ـ نماذج تخطيط الوحدة الإنتاجية :

منذ بدء العقد السابق تعدد استخدام نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية[٤] (Corporate planning Models) سواء في الدول الصناعية أو الدول النامية ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أن هذه النوعية من النماذج تسمح باختيار العديد من القرارات أو الحوارات البديلة التي تعكس السياسات الإدارية والمالية للشركة ، كما يمكن استخدام هذه النماذج لدراسة المسار المستقبلي للوحدات الإنتاجية في ظل فروض مختلفة وتعديل هذا المسار عن طريق مجموعة متجانسة من السياسات أو قواعد اتخاذ القرار . وبرغم تعدد نوعيات النماذج المستخدمة في هذا المجال إلا أن نماذج المحاكاة (نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام) كانت الأكثر استخداما نظرا لسهولة تطويعها ومرونتها كأداة تجريبية .

١ ـ هيكل النموذج

فيما يلي نناقش باختصار أحد نماذج المحاكاة قام ببنائه كاتب هذه الدراسة وتم تطبيقه على بعض الوحدات الإنتاجية في جمهورية مصر العربية ودولة الكويت[٥] ، ويوضح الشكل رقم (٣) المكونات الأساسية للنموذج حيث ينقسم إلى ثلاثة نماذج فرعية : النموذج الفرعي لتخطيط الإنتاج ونموذجي التسويق والتحليل المالي . إذ يختص النموذج الفرعي للتسويق بتقدير حجم المبيعات خلال الفترة الزمنية للتنبؤ ونمط الأسعار السائد وحجم الانفاق الكلي على الدعاية والإعلان . ويستخدم النموذج هذه المعلومات بالإضافة إلى بيانات عن الفن الإنتاجي المستخدم وهيكل التكلفة لحساب الإنتاج وعناصر التكلفة المباشرة وغير المباشرة . وفي مرحلة أخيرة يقوم نموذج التحليل المالي باستخدام نتائج النموذجين السابقين أداء الشركة وتوليد القوائم المالية . ثم يقوم نموذج تخطيط الوحدة الإنتاجية بتكرار الخطوات السابقة سنويا حتى نهاية فترة التخطيط المستقبلي .

ومما سبق يتضح أن هذه النوعية من النماذج تقوم بتحديد المسار المستقبلي للوحدة الإنتاجية والذي ينتج من اتخاذ مجموعة من القرارات تختص بحجم الاستثمارات وسياسات التمويل والتسويق وتوزيع الأرباح بالإضافة إلى سياسات الإنتاج وإدارة المخزون .

وللتعرف على كيفية عمل النموذج يلخص شكل رقم (٤) الخطوات الرئيسية لعمل النموذج باستخدام خريطة تدفق معلومات مبسطة . إذ يبدأ نموذج المحاكاة بمجموعة القوائم المالية لسنة الأساس كقاعدة معلومات أو بيانات ثم يقوم في السنة الأولى للتنبؤ بإجراء مجموعة من الخطوات نلخصها فيما يلي :

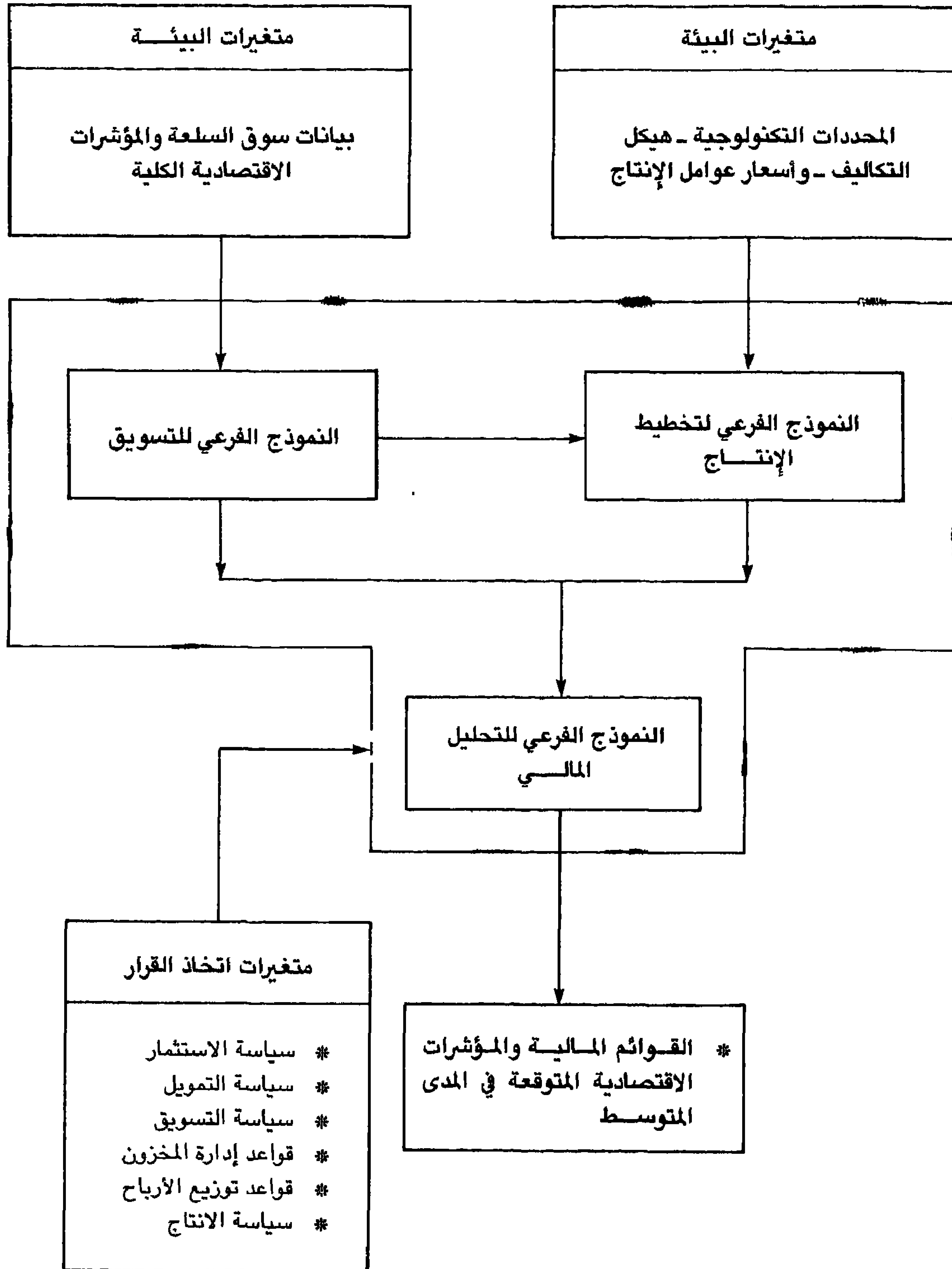
أ ـ يقوم النموذج بتحديد حجم الاستثمارات للسنة الأولى كدالة في إمكانات التمويل الذاتي وبرنامج الاستثمار الذي يحدده مستخدم النموذج .

ب ـ يحدد الإنفاق الاستثماري حجم التمويل المطلوب الذي يمكن تحقيقه عن طريق قروض طويلة أو متوسطة الأجل أو زيادة في رأس المال .

---

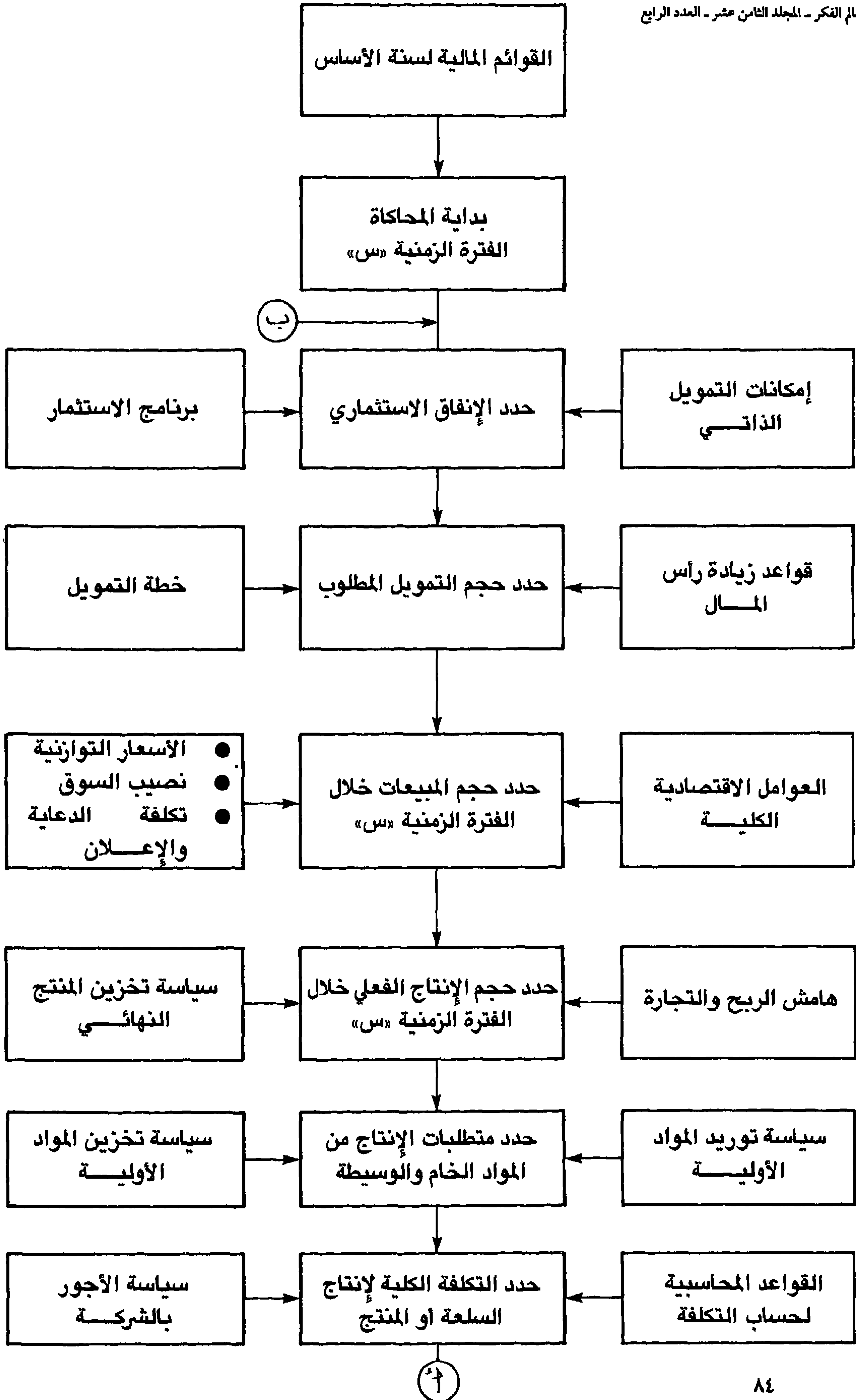
(٤) — Naylar, T. H. (1979) "Coporate planning Models", Addition Wesely pub. Company.

(٥) — Khorshid, M. and A. F. Abdel - Khalik (1985) "a Coporate simulation Model for Evaluating The performance of Industrial projects" proc. of the 20th Annual Conference on Statistics, Computer Sciences, and OPerations Research, Vol. 4, pp. 1—19, Cairo, Egypt.

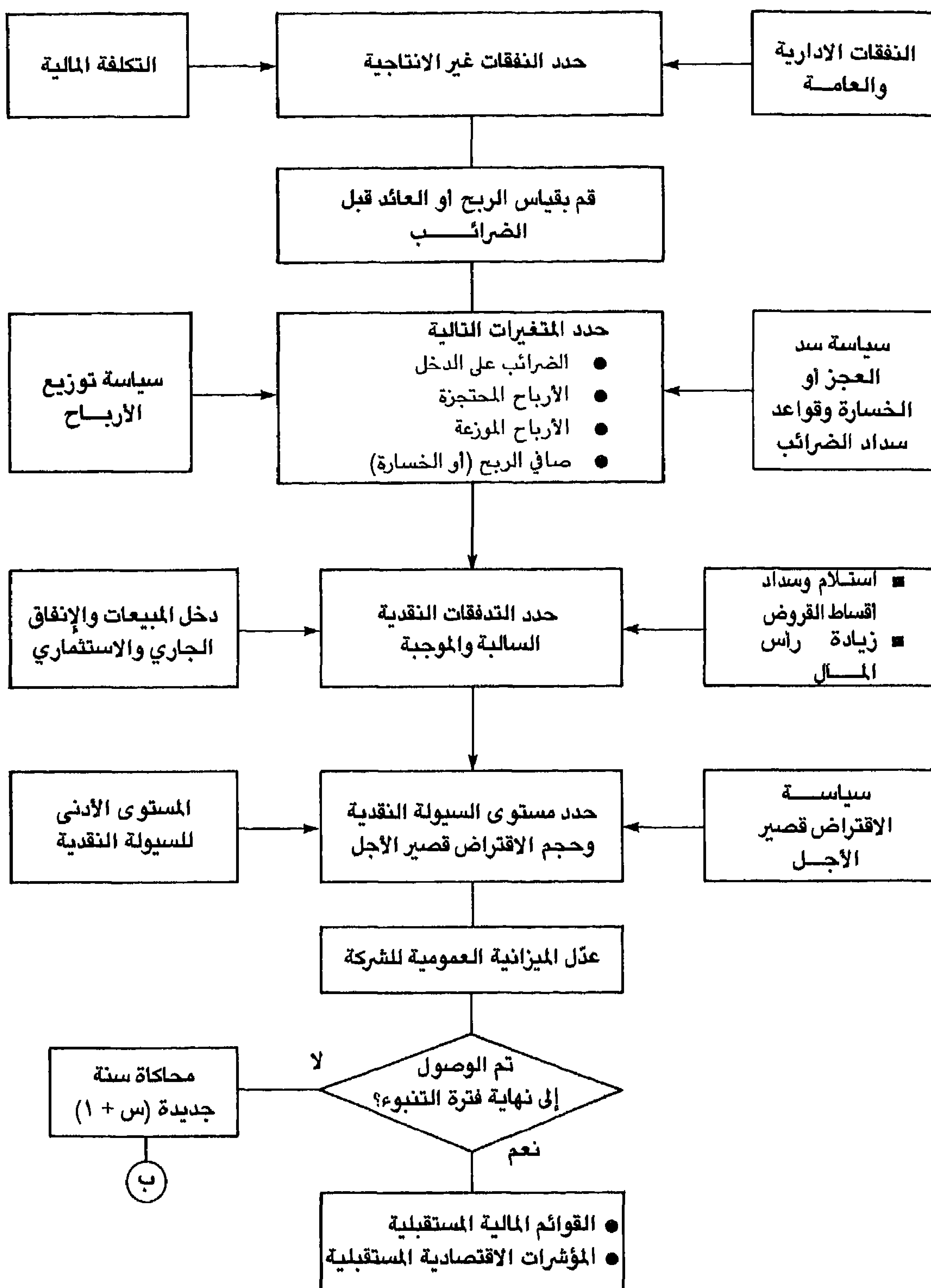


شكل رقم (٣) المكونات الأساسية لنموذج
تخطيط الوحدة الانتاجية

شكل رقم (٤) خريطة تدفق المعلومات لنموذج
تخطيط الوحدة الإنتاجية



شكل رقم (٤) تكملـــه



جـ ـ يستخدم النموذج الفرعي للتسويق المعطيات السابقة إلى جانب بعض المتغيرات الأخرى مثل الأسعار التوازنية للسوق وتكلفة الدعاية والإعلان لتحديد حجم المبيعات المتحققة في هذه السنة

د ـ بناء على سياسة التخزين للمنتجات النهائية يمكن تحديد الكمية المطلوب إنتاجها وبالتالي المتطلبات من المواد الخام الوسيطة .

هـ ـ يقوم بعد ذلك النموذج الفرعي للإنتاج بقياس النفقات المباشرة وغير المباشرة بناء على مجموعة من القواعد المحاسبية وسياسة الأجور وبعض قواعد السلوك .

و ـ يمكن عن طريق الإيرادات والنفقات الجارية حساب العائد حيث يقوم النموذج بناء على سياسة توزيع الأرباح باستقطاع الضرائب وتحديد الأرباح المحتجزة والأرباح الموزعة على حاملي الأسهم أو العاملين بالشركة وصولا إلى صافي الربح أو العائد .

ن ـ بناء على البيانات السابقة ومجموعة من العلاقات السلوكية والسياسات المقترحة يقوم النموذج بحساب جدول التدفقات النقدية وتحديد مستوى السيولة النقدية وقياس الحاجة إلى الاقتراض قصير الأجل لإدارة رأس المال العامل .

س ـ عند هذه المرحلة من التحليل تتوافر لدى النموذج المعلومات اللازمة لإعداد الميزانية العمومية الجديدة للشركة التي تعكس هيكلها المالي والإنتاجي .

ي ـ يقوم النموذج بعد ذلك بتكرار الخطوات السابقة لعدد من المرات يساوي الفترة الزمنية للتنبؤ ثم طباعة القوائم المالية والمؤشرات الاقتصادية والمالية التي تعكس مسار الشركة في المستقبل .

٢ ـ تطبيق على شركة لصناعة الورق (٦)

أنشئت شركة صناعة الورق في نوفمبر ١٩٧٧ برأس مال اسمي يقدر بـ ١٧٥٠,٠٠٠ دينار تمت زيادته إلى ٣٠٠٠,٠٠٠ دينار عام ١٩٨٤ ، ويتكون هيكل تمويل الشركة من قروض طويلة الأجل من البنك الصناعي بالإضافة إلى تسهيلات ائتمانية من البنوك التجارية ومنذ منتصف عام ١٩٨٢ حققت الشركة خسائر متراكمة نتيجة لانخفاض أسعار المنتجات الورقية المستوردة بالإضافة إلى العديد من المشاكل الفنية والتسويقية والمالية .

وقد اتخذت الشركة في الفترة الأخيرة مجموعة من القرارات الفنية مثل تحسين خطوط الانتاج القديمة وإضافة خطوط جديدة بالإضافة إلى عدد من القرارات الإدارية والمالية . ورغما عن ذلك فإن الشركة ما زالت تعاني من انحراف في هيكل تمويلها وفي الحاجة إلى مصادر تمويل جديدة . إذ يبلغ حجم القروض طويلة الأجل ما قيمته ٧٣٪ من مجموع الخصوم مما ساعد على زيادة الأعباء المالية للشركة ، وعدم قدرتها على سداد التزاماتها المالية .

بناء على ما سبق تم استخدام النموذج لمحاكاة المسار المستقبلي للشركة خلال الفترة من عام ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ حيث قمنا بتلخيص النتائج الرئيسية بالجدول رقم (١) وهي :

(٦) — Khorshid, M. (1987), "A Coporate Simulation Model For policy Experiments proc. of the Summer Comfernce on Computer Simulation, Mouterial, Canada

أ ـ حققت الشركة تحسنا ملحوظا في هيكل التكاليف ، إذ انخفضت نسبة النفقات غير الإنتاجية إلى التكلفة الكلية من ٣١٪ عام ١٩٨٥ إلى ما يقرب من ١٦٪ عام ١٩٩٠ ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى إعادة تنظيم الجوانب الإدارية بالشركة .

ب ـ ساعدت السياسات المقترحة في تخفيض قيمة الخسائر من ٧١٠ آلاف دينار في عام ١٩٨٥ إلى ١١ ألف دينار في عام ١٩٩٠ . مما أدى إلى تحسن ملحوظ في النسب المالية .

جـ ـ ازداد حجم مبيعات الشركة بشكل ملحوظ خلال فترة التنبؤ حيث يرجع ذلك إلى الاستثمارات الجديدة عام ١٩٨٦ والاستخدام الأمثل للطاقة الإنتاجية للمصنع .

د ـ إلا أن الانحراف في هيكل التمويل والحاجة إلى تمويل رأس المال العامل أدى إلى الحد من الآثار الإيجابية لسياسة الشركة . إذ اتجهت الشركة إلى الاقتراض قصير الأجل لتمويل رأس المال العامل وبالتالي ارتفعت نسبة القروض البنكية الأجل إلى مجموع الخصوم من ٢٧,٤٪ في عام ١٩٨٥ إلى حوالي ٣٥٪ في عام ١٩٩٠ .

نخلص من ذلك إلى أن الخطوات التصحيحية للشركة سوف تؤدي إلى تحسن في الربحية وهيكل التكاليف وإنتاجية رأس المال . إلا أن انحراف هيكل التمويل سينتج عنه زيادة في الطلب على القروض قصيرة الأجل مما سيؤدي في المستقبل القريب إلى مشكلة في مستوى السيولة النقدية . لذلك كان من الضرورة بمكان أن يعاد النظر في هيكل التمويل إما عن طريق زيادة رأس المال الاسمي أو إعادة جدولة بعض الديون ، وهو ما سعت الشركة بالفعل الى تحقيقه . إذ تمت الموافقة على تحويل جزء من القروض إلى رأس مال الشركة للوصول إلى هيكل مالي أكثر توازنا .

خامسا ـ نماذج الاقتصاد الكلي :

تمثل نماذج الاقتصاد الكلي(٧) Macroeconomic Models في عصرنا الحالي إحدى الأدوات أو الأساليب الهامة التي يستخدمها المخطط لاختيار اتساق الخطط الإنمائية متوسطة الأجل ودراسة المسار المستقبلي للاقتصاد الكلي . وقد ساعد على انتشار هذه النوعية من النماذج التطور السريع الذي حدث إبان حقبة السبعينيات في بناء قواعد البيانات الاقتصادية وإعداد مجموعة من برامج الحاسب الآلي تساعد في توصيف النماذج وإيجاد حلول مناسبة لها(٨) . وبرغم تعدد نوعيات نماذج الاقتصاد الكلي (نماذج الاقتصاد القياسي ـ نماذج المدخلات والمخرجات ـ نماذج البرمجة الخطية . . الخ) فإننا نركز في هذه الدراسة على نماذج التوازن العام General Eguilibrium Models .

ولما كانت نماذج الاقتصاد الكلي تتطلب قاعدة عريضة من البيانات أو الإحصاءات الاقتصادية والاجتماعية ، فقد اتجهت الجهود الأولية نحو بناء قواعد بيانات تسمح بالوصول إلى درجة عالية من الشمول والاتساق على المستويين

---

(٧) — Dervis K. et al (1982) "General Equilibrulm Models for Development policy" Cambridge University press, Cambridge.

— Taylor L. (1979) "Macro Models for Developing Countries" Mc Graw - Hill Book Company, New York

(٨) — Khorshid, M. (1985) "The Computerised TV Approach To Economic Modelling' IBK papers No. 18, Kuwait

الجدول رقم (١) المؤشرات المالية والاقتصادية لشركة الورق

المؤشرات الاقتصادية والمالية	١٩٨٥	١٩٩٠
	التوزيع النسبي (٪)	التوزيع النسبي (٪)
١ ـ الأصول الثابتة	٦٩,٩٩	٧٤,٣٠
٢ ـ الأصول الجارية	٢٧,١٣	٢١,٤٥
٣ ـ أصول أخرى	٢,٩٨	٤,٢٤
مجموع الأصول	١٠٠	١٠٠
١ ـ رأس المال	٣١,٤٨	٤٤,٧٢
٢ ـ الاحتياطيات	—	—
٣ ـ الأرباح المحتجزة	(١٦,٧٢)	(٣٦,٦٣)
٤ ـ القروض طويلة الأجل	٧٣,٧٧	٥٤,٠٤
٥ ـ القروض قصيرة الأجل	١١,٤٧	٣٧,٨٧
مجموع الخصوم	١٠٠	١٠٠
١ ـ النفقات الإنتاجية	٦٨,٥٣	٨٣,٥٢
٢ ـ النفقات غير الإنتاجية	٣١,٤٧	١٦,٤٨
التكلفة الكلية	١٠٠	١٠٠

الجزئي والكلي . ذلك أن البيانات الاقتصادية إن وجدت فإنها تتسم بعدم الاتساق . أضف إلى ذلك تعدد مصادر هذه البيانات واختلاف أساليب تقديرها مما قد يؤدي إلى العديد من الأخطاء . وانطلاقا من ذلك فقد تم تطوير أسلوب المحاسبة القومية التقليدي إلى نظام أكثر اتساقا وهو نظام الأمم المتحدة للمحاسبة القومية(٩) . حيث أمكن إعادة تنظيم البيانات الاقتصادية الكلية في شكل مصفوفة تعكس تدفق الدخل بين أجزاء الاقتصاد القومي . إلا أن توجهات هذا النظام كانت على جانب تولد الدخل القومي والإنتاج في حين أغفل جانب توزيع الدخل على الأفراد والمؤسسات الوطنية الأخرى . وقد أدى ذلك إلى قيام مجموعة من الباحثين في البنك الدولي للإنشاء والتعمير بتطوير نظام جديد للمحاسبة القومية اصطلح على تسميته « مصفوفة الحسابات الاجتماعية »(١٠) Social Accounting Matrix .

ويتميز أسلوب مصفوفة الحسابات الاجتماعية بمجموعة من السمات المميزة نلخصها في النقاط التالية :

أ ـ الشمول : حيث تحتوي مصفوفة الحسابات الاجتماعية على معظم المؤشرات الاقتصادية التي تعكس هيكل الاقتصاد القومي والعلاقات المتبادلة بين أجزائه . فلا تقتصر المصفوفة على هيكل الإنتاج والطلب على السلع والخدمات فقط بل تشمل أيضا دخل عوامل الإنتاج وتوزيعه على المؤسسات الوطنية .

ب ـ الاتساق : وهو يعني التوازن الكلي للنظام الاقتصادي ، اذ تتطلب المصفوفة تساوي الدخل مع الإنفاق على المستوى الكلي والقطاعي ، وبالتالي يمكن التعرف على المشاكل الناجمة عن تعدد مصادر البيانات من جهة وعدم دقة تقديرها من جهة أخرى .

جـ ـ المرونة في الاستخدام : وهو إمكانية تطوير وتطويع مصفوفة الحسابات الاجتماعية لتحقيق أغراض متعددة من التحليل . إذ تستخدم المصفوفة كأساس أو قاعدة لبناء نماذج اقتصادية كلية تسمح بدراسة المسار المستقبلي للنظام الاقتصادي .

هذا ، وقد صاحب التطور في بناء مصفوفات الحسابات الاجتماعية تطور متزامن في بناء النماذج الاقتصادية الكلية(١١) . وفيما يلي نناقش نموذج تجميعي مبني على منهجية مصفوفة الحسابات الاجتماعية استخدم لتحليل السياسات الاقتصادية في جمهورية مصر العربية . حيث نبدأ بعرض قاعدة البيانات التي اعتمد عليها النموذج تمهيدا لشرح هيكل النموذج وبعض النتائج التحليلية .

١ ـ قاعدة بيانات النموذج :

يبين جدول رقم (٢) مصفوفة حسابات اجتماعية تمثل هيكل الاقتصاد المصري للسنة المالية ١٩٨٠/٨١ .

---

(٩) — United Nations (1968) "A System of Natioinal Accounts" New York, U.S.A

(١٠) — pyatl, G. et al (1985) "Social Accounting Matrices - A Basis For planning" The World Bank, Washington, D.C, U.S.A.

معتز خورشيد (١٩٨٦) « الحسابات القومية ومصفوفات التوازن الاجتماعي » المال والصناعة ، العدد السابع ، بنك الكويت الوطني الكويت

(١١) — Centeral Agency For public Mobilization And Statistics (1984) "Social Accounting Matrices and Economic Modelling For Egypt" Nasr City, Egypt.

— Mohi el-Din (1982) "SAM Updaling and EconomyWide Modelling" Final Report, DRTPC, Cairo University.

جدول رقم (٢) مصفوفة الحسابات الاجتماعية

لجمهورية مصر العربية

مصفوفة الحسابات الاجتماعية لمصر (١٩٨٠ / ١٩٨١) مليون جنيه مصري			I عناصر الإنتاج			II مؤسسات (حساب جاري)				III	IV	V	VI	VII
			تعويضات العاملين	فائض التشغيل	عائد الأرض	عائلي	شركات خاصة	شركات عامة	حكومة	حساب رأس المال	النشاط الإنتاجي	سلع وخدمات	العالم الخارجي	المجموع
			١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
عناصر الانتاج	تعويضات العاملين	١							١٤٥٣		٤٦١١,٦		٢١٨٣	٨٢١٨,٥
	فائض التشغيل	٢									٩٨٥٩,١		٢٩,٩	٩٨٨٩
	عائد الأرض	٣									٤٠٠			٤٠٠
مؤسسات (حساب جاري)	عائلي	٤	٨١٤٨,٥	٤١٠١,١	٣٨٧,٩		١٩	١١٦,٥	٥٧٤				٢٦٦,٧	١٣٦١٣
	شركات خاصة	٥		٥٣٧		١		١	٦١٣	·				٥٣٩
	شركات عامة	٦		٥٢٢٢,٩	١٢,١	٢٨	٤						٤٦	٥٩٢٦
	حكومة	٧		٢٨,٠		٨٣٩,١	٣٤	٣٦٦٤,٦			٢٦٢	٤٥١,٣	٢٤,٨	٥٣٠٥
حساب رأس المال		٨				١٨٥٥,٣	٤٨٢	١٢٩٧	١٤٥٢				١٠٥٧,٥	٦١٤٤,٤
النشاط الإنتاجي		٩				١٠٨٢٦						٢٧٧٤٤,٧		٢٧٧٤٤,٤
سلع وخدمات		١٠							١٠٩٤,٩	٦١٤٤,٤	١٢٦١١		٤٦٤٨,٧	٣٥٣٢٥
العالم الخارجي		١١	٧٠,٠			٦٣,٦		٨٤٦	١١٨			٧١٢٩		٨٢٢٦,٩
المجموع		١٢	٨٢١٨,٥	٩٨٨٩	٤٠٠	١٣٦١٣	٥٣٩	٥٩٢٦	٥٣٠٥	٦١٤٤,٤	٢٧٧٤٤,٧	٣٥٣٢٥	٨٢٢٦,٩	

ويبين الجدول أن لكل حساب عمودا وصفًا في المصفوفة ، حيث يمثل الصف الدخل أو الايراد بينما يمثل العمود الإنفاق أو الاستخدام ، بالاستناد الى المبدأ السابق فإن كل معاملة مالية أو صفقة تتم تظهر مرة واحدة فقط ، وذلك كمدفوعات من عمود إلى صف . أي أن كل خلية في هذه المصفوفة تمثل من وجهة نظر العمود إنفاقا ، ومن وجهة نظر الصف إيرادا . ولضمان توازن الدخل مع الإنفاق في المصفوفة (وهي المتساوية الأساسية في علم الاقتصاد) لا بد من تساوي مجموع عناصر الصف مع مجموع عناصر العمود . وقد جرى تقسيم الحسابات في هذه المصفوفة المجمعة على النحو التالي :

- حساب عناصر الإنتاج ويشمل تعويضات العاملين وفائض التشغيل وعائد الأرض .
- الحساب الجاري للمؤسسات الوطنية ويشمل القطاع العائلي ، الشركات الخاصة والعامة ، والحكومة .
- حساب رأس المال للمؤسسات .
- حساب النشاط الإنتاجي .
- حساب السلع والخدمات .
- حساب العالم الخارجي .

بناء على ما سبق يمكن تفسير بيانات المصفوفة المبينة بالجدول رقم (٢) إذ يقوم على سبيل المثال النشاط الإنتاجي (العمود رقم ٩) بتقسيم الإنتاج الكلي إلى تعويضات العاملين (تقاطع الصف ١ مع العمود ٩) ، فائض التشغيل القومي (تقاطع الصف ٢ مع العمود ٩) ، عائد استخدام الأرض (تقاطع الصف ٣ مع العمود ٩) ، الضرائب على النشاط الإنتاجي (تقاطع الصف ٧ مع العمود ٩) ، والمدخلات الوسيطة (تقاطع الصف ١٠ مع العمود ٩) . كذلك يمكن توزيع الإنفاق الحكومي (العمود رقم ٧) على تعويضات العاملين بالحكومة (تقاطع الصف ١ مع العمود ٧) تحويلات الحكومة إلى الأفراد (تقاطع الصف ٤ مع العمود ٧) ، تحويلات إلى الشركات العامة (تقاطع الصف ٦ مع العمود ٧) ، الادخار الحكومي (تقاطع الصف ٨ مع العمود ٧) ، شراء السلع والخدمات (تقاطع الصف ١٠ مع العمود ٧) ، وأخيرا تحويلات الحكومة إلى العالم الخارجي (تقاطع الصف ١١ مع العمود ٧) ، وبنفس الطريقة يمكن تفسير المفهوم الاقتصادي لباقي بيانات مصفوفة الحسابات الاجتماعية .

بناء النموذج الاقتصادي :-

يتضح مما سبق أن مصفوفة الحسابات الاجتماعية تمثل إطارا محاسبيا أو قاعدة بيانات متسقة على المستوى الكلي والجزئي . أي أن المصفوفة توفر للباحث الاقتصادي صورة متوازنة تعكس السمات الرئيسية للنظام الاقتصادي الكلي .

إلا أن المصفوفة ، بجانب كونها إطار محاسبيا فإنها تساعد أيضا في بناء نماذج رياضية تستخدم لمحاكاة السلوك المستقبلي للنظام الاقتصادي وتنبع الفكرة الاساسية لهذا الأسلوب في بناء النماذج من أن المصفوفة تعكس تدفق الدخل بين أجزاء الاقتصاد القومي ، وبالتالي فإن كل عنصر أو خلية بالمصفوفة إنما تمثل مدفوعات من عمود إلى صف أو من حساب إلى آخر . فعلى سبيل المثال تظهر تعويضات العاملين في القطاع الإنتاجي بالجدول رقم (٢) كمدفوعات من

عمود النشاط الإنتاجي الى وصف تعويضات العاملين (٤٦١٢,٢ مليون جنيه مصري) ، بينما تـظهر تعـويضات موظفي الحكومة كمدفوعات من عمود الحكومة إلى صف تعويضات الموظفين (١٤٥٣ مليون جنيه مصري) .

بيد أن هذه التدفقات النقدية بين قطاعات الاقتصاد القومي تنتج من القرارات التي يتخذها الأفراد والشركات الإنتاجية والحكومة وباقي القطاعات الاقتصادية . وهي قرارات تحكمها مجموعة من قواعد السلوك أو اتخاذ القرار . فالشركات الإنتاجية تسعي إلى تعظيم الربح أو تخفيض التكلفة ، والمستهلك يسعى إلى تعظيم الفائدة أو المنفعة ، والحكومة تسعى إلى تخفيض عجز الموازنة العامة . . الخ . وبالتالي فإنه يمكن تمثيل كل خلية في المصفوفة بعلاقة رياضية تعكس قاعدة السلوك المستقبلي التي تحكم اختيار المؤسسات الوطنية .

نخلص من ذلك الى انه يمكن استبدال مصفوفة الحسابات القومية بمصفوفة أخرى تحتوي على مجموعة قواعد السلوك المستقبلي او العلاقات الرياضية التي تمثل النموذج الاقتصادي . ولعل ذلك يمثل الاساس النظري او الفكرة الاساسية للنماذج الاقتصادية المبينة على منهجية مصفوفة الحسابات الاجتماعية .

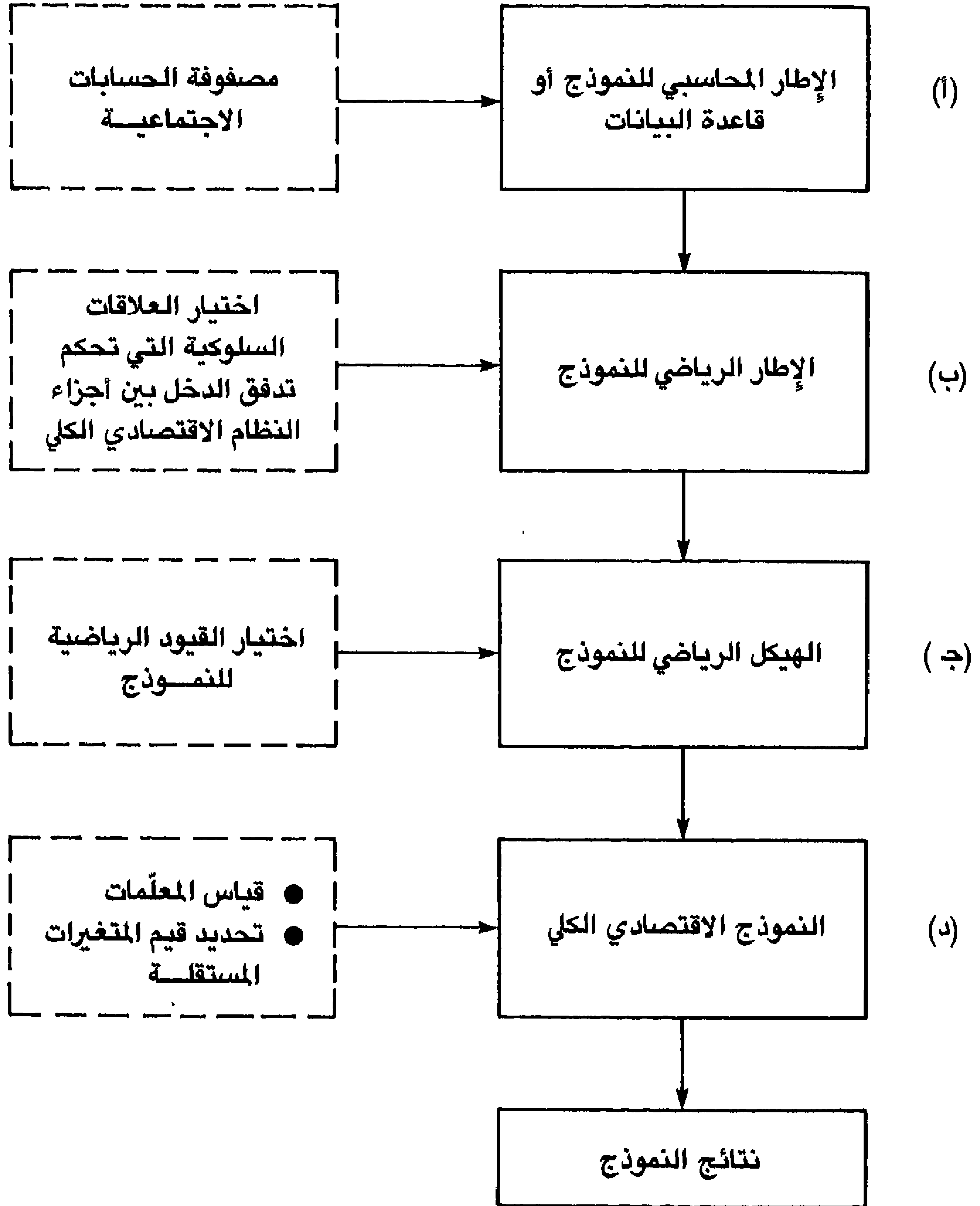
ويوضح شكل رقم (٥) الخطوات أو المراحل الرئيسية لبناء نموذج اقتصادي كلي يمكن تلخيصها كما يلي :ـ

أ ـ تحديد الإطار المحاسبي للنموذج :ـ حيث يتم في هذه المرحلة الأولية بناء مصفوفة حسابات اجتماعية تعكس هيكل الاقتصاد الكلي وسماته المميزة . وواقع الأمر أن عملية النمذجة تبدأ مع بداية تصميم وبناء المصفوفة . إذ أن اختيارنا للحسابات المكونة للمصفوفة ودرجة تفصيل بياناتها يعتمد بدرجة كبيرة على هيكل ودرجة تفصيل النموذج الذي نرغب بناءه .

ب ـ اختيار الإطار الرياضي للنموذج : وفي هذه المرحلة يقوم الباحث باختيار العلاقات السلوكية التي تحكم تدفق الدخل بين أجزاء النظام الاقتصادي أو بين أعمدة وصفوف مصفوفة الحسابات الاجتماعية .

جـ ـ تحديد الهيكل الرياضي للنموذج :ـ تمثل مجموعة العلاقات السلوكية المختارة في المرحلة السابقة مجموعة من المعادلات الرياضية بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ، وللوصول إلى حل لهذا النظام من المعادلات فإنه لابد من تساوي عدد المعادلات مع عدد المتغيرات التابعة . وحيث إن هذا الشرط لا يتحقق في غالب الأحيان فإنه يجب تحويل بعض المتغيرات التابعة إلى متغيرات مستقلة بحيث يتحقق شرط التساوي السابق ذكره . ويعني ذلك أن مستخدم النموذج عليه أن يحدد قيم بعض المتغيرات من خارج النموذج .

د ـ قياس النموذج الاقتصـادي :ـ ويتم في هذه المـرحلة قياس معلمـات النموذج وتحـديد القيم المستقبليـة للمتغيرات المستقلة التي ستستخدم لتشغيل النموذج .



شكل رقم (٥) مراحل بناء نموذج اقتصادي كلي

٣ ـ تطبيق على الاقتصاد المصري : (١٢)

شهد الاقتصاد المصري خلال حقبة السبعينيات معدلات نمو مرتفعة في معظم قطاعاته الإنتاجية . إذ بلغ معدل النمو السنوي في الناتج المحلي الإجمالي إبّان تلك الفترة حوالي ٩٪ إلا أن هذا النمو لم ينتج من زيادة في الكفاءة الإنتاجية للأنشطة الاقتصادية بقدر ما نتج عن توافر الموارد الخارجية : مثل ، تحويلات العاملين بالخارج ، العائد من صادرات البترول ، إيرادات قناة السويس بعد إعادة فتحها للملاحة الدولية ، وأخيرا الدخل المتولد من السياحة . حيث نمت هذه الموارد الخارجية خلال الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٠ بمعدل سنوي متوسط يقدر بحوالي ٤٠٪ وارتفع نصيبها في الناتج المحلي الإجمالي من ٦٪ عام ١٩٧٤ إلى ما يقدر بـ ٤٥٪ في عام ١٩٨٠ .

وقد ساعد توافر هذه الموارد خلال حقبة السبعينيات في إخفاء المشاكل الهيكلية التي يعاني منها الاقتصاد المصري التي تتلخص في النقاط التالية :ـ

أ ـ عدم كفاية الإنتاج الصناعي والزراعي لإشباع حجم الطلب المتزايد على السلع والخدمات .

ب ـ الزيادة في معدل التضخم في الأسعار الذي يقدر بما قيمته ١٥٪ إلى ٢٠٪ سنويا .

جـ ـ عدم مواءمة أجور العاملين بالقطاع العام لمستوى الأسعار السائد في سوق السلع والخدمات .

د ـ العجز المزمن في ميزان المدفوعات والميزان التجاري .

هـ ـ الزيادة المطردة في حجم الاستثمار بالمقارنة بحجم المدخرات القومية مما يؤدي إلى الاستدانة من العالم الخارجي .

و ـ النقص في مشروعات البنية الأساسية والحاجة إلى زيادة كبيرة في الوحدات السكنية لمقابلة النمو المتزايد في عدد السكان .

ن ـ انخفاض الكفاءة الإدارية في معظم القطاعات الاقتصادية ونقص الأيدي العاملة المدربة .

إلا أنه منذ بداية الثمانينيات تناقصت معدلات نمو الموارد الخارجية للاقتصاد المصري بشكل ملحوظ ، وينتظر استمرار هذا التناقص خلال حقبة الثمانينيات وبداية التسعينيات مما سيؤدي بالطبع إلى زيادة أعباء الديون الخارجية وارتفاع معدل التضخم في الأسعار وتفاقم المشاكل الهيكلية الأخرى . لذلك فإنه للمحافظة على مستوى النمو الذي تحقق خلال حقبة السبعينيات يجب على الحكومة المصرية إما أن تبحث عن مصادر أخرى للدخل أو ان تتبنى مجموعة متناسقة من السياسات التي تسمح بإصلاح المسار الاقتصادي وعلاج المشاكل الهيكلية المزمنة .

بناء على ما سبق فإن الحكومة المصرية أصبحت في حاجة إلى دراسة أثر التغيرات غير المناسبة في العوامل الخارجية وتقييم أثر السياسات الإنمائية البديلة على المسار المستقبلي للاقتصاد المصري ، وبهدف تحقيق ذلك تم بناء نموذج اقتصاديّ كليّ يعتمد على منهجية مصفوفة الحسابات الاجتماعية يستخدم كأداة تجريبية في مجال اختبار السياسات البديلة . وقد صمم النموذج لتناول عدد من القضايا الاقتصادية التالية :ـ

---

(١٢) — Khorshid, M. and O.M. Osman (1986) "An Economy Wide Model for Simulating The Behavior of The Egyptian Economy" Memo No. 1420, The Institute of National planning, Cairo Egyyt

ـ أثر التغير في معدلات نمو قطاع النفط ومشتقاته على أداء باقي أجزاء الاقتصاد القومي .

ـ أثر التغير في الأسعار العالمية للسلع والخدمات على حجم الصادرات والواردات والعجز في ميزان المدفوعات .

ـ أثر انخفاض تحويلات المصريين العاملين في الخارج على حجم الاستهلاك الخاص ومعدلات الادخار القومي .

ـ أثر التغير في الإنفاق الحكومي والسياسة الضريبية على العجز في ميزان المدفوعات وحجم الاقتراض من العالم الخارجي .

ـ أثر التغير في معدلات نمو الاستثمار القومي على السلوك المستقبلي للنظام الاقتصادي .

هذا وقد استخدم النموذج لدراسة سلوك الاقتصاد المصري خلال الفترة الزمنية ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧ حيث تم بناء ثلاثة سيناريوهات أو احتمالات منطقية للتطور المستقبلي وهي :

ـ السيناريو الأساسي

ـ السيناريو المتفائل

ـ السيناريو المتشائم .

حيث يفترض السيناريو الأول استمرار الظروف الخارجية التي بدأت في بداية حقبة الثمانينيات خلال فترة التنبؤ المستقبلي ، بينما افترض كل من السيناريوهين . . الثاني والثالث حدوث تغيرات مستقبلية أكثر تفاؤلا أو تشاؤما وبناء على هذه السيناريوهات استخدام النموذج لاختبار عدد من السياسات او القرارات الاقتصادية الكلية حيث يبين جدول رقم (٣) نتائج تحقق كل من السيناريو الاساسي والسيناريو المتشائم ثم أثر تطبيق بعض القرارات الاقتصادية المختارة مثل تشجيع الصادرات ، تخفيض الانفاق النهائي الحكومي ، زيادة الرسوم الجمركية ، . . . الخ.

ويمكن تلخيص النتائج في النقاط التالية :

أ ـ نظرا لحساسية الاقتصاد المصري للتغيرات الخارجية فقد أدى السيناريو المتشائم إلى انخفاض النمو في الناتج المحلي الإجمالي والقيمة المضافة في معظم القطاعات الإنتاجية مقارنتين بالمسار أو السيناريو الأساسي (العمودين الأول والثاني بالجدول رقم (٣)) . إذ انخفض معدل النمو السنوي في الناتج المحلي الإجمالي من ٥,٨ إلى ١,٧ خلال فترة التنبؤ . بيد أن النتائج أوضحت أن هناك تفاوتا في درجة تأثر القطاعات الانتاجية بالمتغيرات الخارجية إذ انخفض معدل النمو في قطاع الزراعة بمقدار ٨٦٪ في حين تناقص معدل النمو في قطاع الصناعة بمقدار ٥٩٪ فقط .

ب ـ أدى حدوث السيناريو المتشائم إلى نقص في دخول المؤسسات الوطنية مما أدى إلى انخفاظ في معدلات النمو السنوية للاستهلاك الخاص وحجم الواردات السلعية . كما أدى النقص في الإنتاج إلى انخفاض مماثل في الصادرات حيث حقق هذا القطاع معدلات نمو سالبة (أي تناقص في حجم الصادرات) خلال الفجوة الزمنية للتحليل .

جـ ـ ارتفع العجز في ميزان المدفوعات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي من ٢٠٪ إلى ٢٣٪ إذ يرجع بالدرجة الأولى إلى انخفاض حجم الصادرات وتحويلات العاملين من العالم الخارجي .

د ـ أدى تطبيق عدد من السياسات إلى تحسن في الأداء الاقتصادي المستقبلي برغم حدوث السيناريو المتشائم (العمود رقم ٣ بالجدول رقم (٣)) . وقد تركز هذا في ثلاثة مؤشرات رئيسية : الناتج المحلي الإجمالي في قطاع

جدول رقم (٣)

تحليل المسار المستقبلي للاقتصاد المصري

(نتائج السيناريو المتشائم والسياسات المقترحة)

المؤشرات الاقتصادية	متوسط معدل النمو السنوي) ٠/٠) بالأسعار الثابتة		
	المسار الأساسي ١٩٨٢ ـ ١٩٨٧	نتائج السيناريو المتشائم	نتائج السيناريو المتشائم + السياسات المقترحة
الناتج المحلي الإجمالي :ـ	٥,٨١٤	١,٧٦٧	١,٩١٧
ـ الزراعة	٣,٨٨٦	٥,٥١٩	,٩٥٩
ـ الصناعة	٦,٨٩١	٢,٧٦٥	٣,١٠٣
ـ التشييد والبناء	٦.٠٠٢	١,٧١٥	١,٧٠٠
ـ الخدمات	٦,٣٥٧	٢,٤٠٢	٢,٤٢٠
الاستهلاك الخاص	٤,٩٤٨	١,٤٢٣	١,٤٨٤
الواردات	٦,٠٧٤	٢,١٦٧	٢,٤٢٧
الصادرات	٥,٠٨٤	٠,٣٧٩	٤,٨٠٩
العجز في ميزان المدفوعات (نسبة من الناتج المحلي الإجمالي	٪٢٠	٪٢٣	٪١٧

الصناعة ، حجم الصادرات القومية ومقدار العجز في ميزان المدفوعات حيث ارتفع معدل النمو السنوي في القطاع الصناعي بمقدار ١٢٪ بالمقارنة بالسيناريو المتشائم بينما حقق قطاع الصادرات معدلات نمو تصل إلى ٤,٨ سنويا في حين انخفض العجز في ميزان المدفوعات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي إلى ١٧ بالمائة فقط .

نخلص مما سبق إلى أن النموذج الاقتصادي السابق يدخل في إطار نماذج التنبؤ بآلية عمل النظم (انظر شكل رقم (٢) وأنه يقوم بدراسة المسار المستقبلي للنظام الاقتصادي باستخدام أسلوب محاكاة الحوارات المستقبلية Scenario Simulation ، أو التنبؤ المشروط Conditional forecasting . إذ يقوم النموذج بمحاولة التعرف على التغيرات المستقبلية بناء على السيناريو أو الحوار المستقبلي (متغيرات البيئة) والسياسات المتبعة (متغيرات اتخاذ القرار) .

سادسا : نماذج التخطيط الإقليمي :

ناقشنا فيما سبق استخدام نماذج تخطيط الوحدة الإنتاجية ونماذج الاقتصاد الكلي في الدراسات المستقبلية متوسطة الأجل . أي أن النموذج يستخدم للتنبؤ بالمسار المستقبلي لفترة زمنية تتراوح من خمس إلى ثماني سنوات على الأكثر . هذه النوعية من النماذج يمكن تصنيفها ضمن نماذج المحاكاة . لذلك نتناول في هذا الجزء من الدراسة نموذج إقليمي يختلف عن النموذجين السابقين في النقاط التالية :-

أ ـ يمثل النموذج الحالي أحد نماذج البحث عن الحل الأمثل في شكل دالة هدف باستخدام مجموعة من القيود الرياضية .

ب ـ يستخدم النموذج في التنبؤ طويل الأجل أي لفترة زمنية تصل إلى ٢٥ عاما .

جـ ـ يقوم النموذج الحالي بتحليل السياسات أو القرارات على المستوى الإقليمي وليس المستوى القطري أو الجزئي .

وقد تم إعداد هذا النموذج كجزء من دراسة للجنة الاقتصادية لمنطقة غرب آسيا التابعة لمنظمة الأمم المتحدة (١٣) حيث سعت الدراسة إلى استشراف التطورات المستقبلية لقطاع النقل البحري في منطقة غرب آسيا والبرنامج المستقبلي لبناء سفن نقل النفط الخام . وقد نبعت فكرة هذا المشروع البحثي من تدني نسبة مشاركة دول منطقة غرب آسيا في نقل صادراتهم من النفط الخام بواسطة الأسطول البحري لهذه الدول ، فبرغم أن هذه المنطقة تقوم بتصدير حوالي ٤٠ في المائة من النفط الخام العالمي إلا أن نصيب دول المنطقة من الأسطول العالمي لا يتعدى ٢,٣ بالمائة . وقد صدرت مجموعة من قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظمة اليونكتاد UNCTAD لتشجيع الدول النامية على وجه العموم لزيادة مشاركتها في نقل السلع والمواد الخام عن طريق بناء أساطيل بحرية خاصة بها .

وبناء على ما سبق فقد اتجهت اللجان الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة لإجراء دراسات تهدف إلى التعرف على إمكانية التوسع في الأسطول البحري للدول النامية التي تعتبر هذه الدراسة جزءا منها .

---

(١٣) — Khorshid, M (1985) "Future prospects of Seaborne Trade And Fleet Development In The ECWA Region "Unpublished memo, UNECWA, Bagdad Iraq

١ ـ صياغة النموذج :

اتجه البحث في البداية إلى تحديد مستوى تفصيل النموذج حيث إن ذلك يؤثر على أسلوب التحليل المستخدم ودقة النتائج التي يمكن الحصول عليها ، وبما أن الدراسة المستقبلية تتطلب تحديد وسيلة نقل صادرات النفط الخام من دول منطقة غرب آسيا إلى باقي إجزاء العالم فقد تقرر إجراء التحليل بمنطقة غرب آسيا على مستوى الدولة بينما قسمت باقي أجزاء العالم إلى ثمانية أقاليم أو مناطق كما هو موضح بالجدول رقم (٤) . ويسمح هذا التقسيم من ناحية بالتفرقة بين أنماط نقل النفط الخام بين الأقاليم العالمية وبتوضيح السمات المميزة والسياسات المتبعة في دول غرب آسيا من ناحية أخرى . ولما كان النموذج سيستخدم للتنبؤ طويل الأجل بما يتضمنه ذلك من درجة عالية من عدم اليقين وصعوبة تمثيل بعض المتغيرات السياسية والاجتماعية فقد اتفق على دمج الأساليب الكميّة مع مجموعة من السيناريوهات أو الحوارات البديلة لاحتمالات التطور المتوقع في أداء الاقتصاد العالمي في المدى الطويل خاصة في الجزء الأول من الدراسة وهو التنبؤ بصادرات البترول الخام من دول غرب آسيا إلي باقي أجزاء العالم .

بناء على النقاط السابقة فإن النموذج الحالي يمكن استخدامه للإجابة عن بعض أو كل الأسئلة التالية :ـ

ـ ما هو الحجم المتوقع لصادرات النفط الخام حتى عام ٢٠٠٠ من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم ؟

ـ ما هو التطور المتوقع في الطلب على النفط الخام من أقاليم العالم وعرض النفط من دول غرب آسيا ؟

ـ ما هو حجم وتركيبة أسطول دول غرب آسيا حتى عام ٢٠٠٠ بافتراض أن دول المنطقة ترغب في نقل ٤٠٪ من حجم صادراتها من النفط الخام عن طريق أسطولها الإقليمي ؟

ـ ما هو عدد ونوعية السفن الإضافية التي تحتاجها منطقة غرب آسيا لنقل نسبة لا تقل عن ٤٠٪ من حجم صادراتها من النفط مع الأخذ في الاعتبار بمحددات موانيء المنطقة والطلب العالمي على النفط ؟

ـ ما هي التوزيعة المثلى للأسطول البحري لدول غرب آسيا على الخطوط الملاحية المختلفة بافتراض أن هناك تنسيقا على المستوى الإقليمي بين دول المنطقة ؟

للإجابة عن الأسئلة السابقة تم تصميم نموذج إقليمي ينقسم إلى نموذجين فرعيين :

ـ نموذج التنبؤ بصادرات النفط من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم حتى عام ٢٠٠٠ .

ـ نموذج اختيار الحجم الأمثل للأسطول البحري لمنطقة غرب آسيا الذي يسمح بنقل ٤٠٪ من حجم هذه الصادرات .

جدول رقم (٤) دول منطقة غرب آسيا وباقي أقاليم العالم

دول غرب آسيا	
١	البحرين
٢	جمهورية مصر العربية
٣	العراق
٤	الأردن
٥	الكويت
٦	لبنان
٧	سلطنة عمان
٨	دولة قطر
٩	المملكة العربية السعودية
١٠	سوريا
١١	الإمارات المتحدة
١٢	اليمن الشمالية
١٣	اليمن الجنوبية

أقاليم العالم	
١	شمال أمريكا
٢	جنوب أمريكا
٣	غرب أوروبا
٤	شرق أوروبا
٥	الشرق الأوسط
٦	قارة أفريقيا
٧	آسيا (عدا غرب آسيا)
٨	استراليا

ويوضح الشكل رقم (٦) الاطار المتكامل للنموذج الاقليمي الذي يمكن توصيفه على النحو التالي :

أ ـ في الخطارة الأولى يتم تجميع وتنظيم قاعدة معلومات تشتمل على البيانات التاريخية والمؤشرات الاقتصادية لدول غرب آسيا ومناطق العالم الأخرى .

ب ـ في الخطوة التالية يتم بناء سيناريوهات أو حوارات مستقبلية تعكس التطورات المتوقعة للاقتصاد العالمي في المدى الطويل . وقد تم تحديد سيناريو متفائل وآخر متشائم .

جـ ـ يقوم نموذج فرعي باستخدام البيانات التاريخية ومعطيات السيناريوهات المستقبلية بالتنبؤ بحجم صادرات النفط الخام من دول غرب آسيا (متجه العرض) ـ وواردات مناطق العالم الأخرى من نفط غرب آسيا (متجه الطلب) .

د ـ يعد نموذج فرعي آخر هدفه مقارنة متجه صادرات النفط حسب دولة المصدر (العرض) مع متجه واردات النفط حسب الإقليم (الطلب) بهدف الوصول الى حل توازني يضمن تساوي العرض الكلي مع الطلب الكلي خلال الفترة الزمنية ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠ ، وبالتالي نحصل على مصفوفة متوازنة تشمل حجم النفط المنقول بحريا (بالالف طن) تمثل صفوفها دول منطقة غرب آسيا بينما تمثل أعمدتها باقي أجزاء العالم .

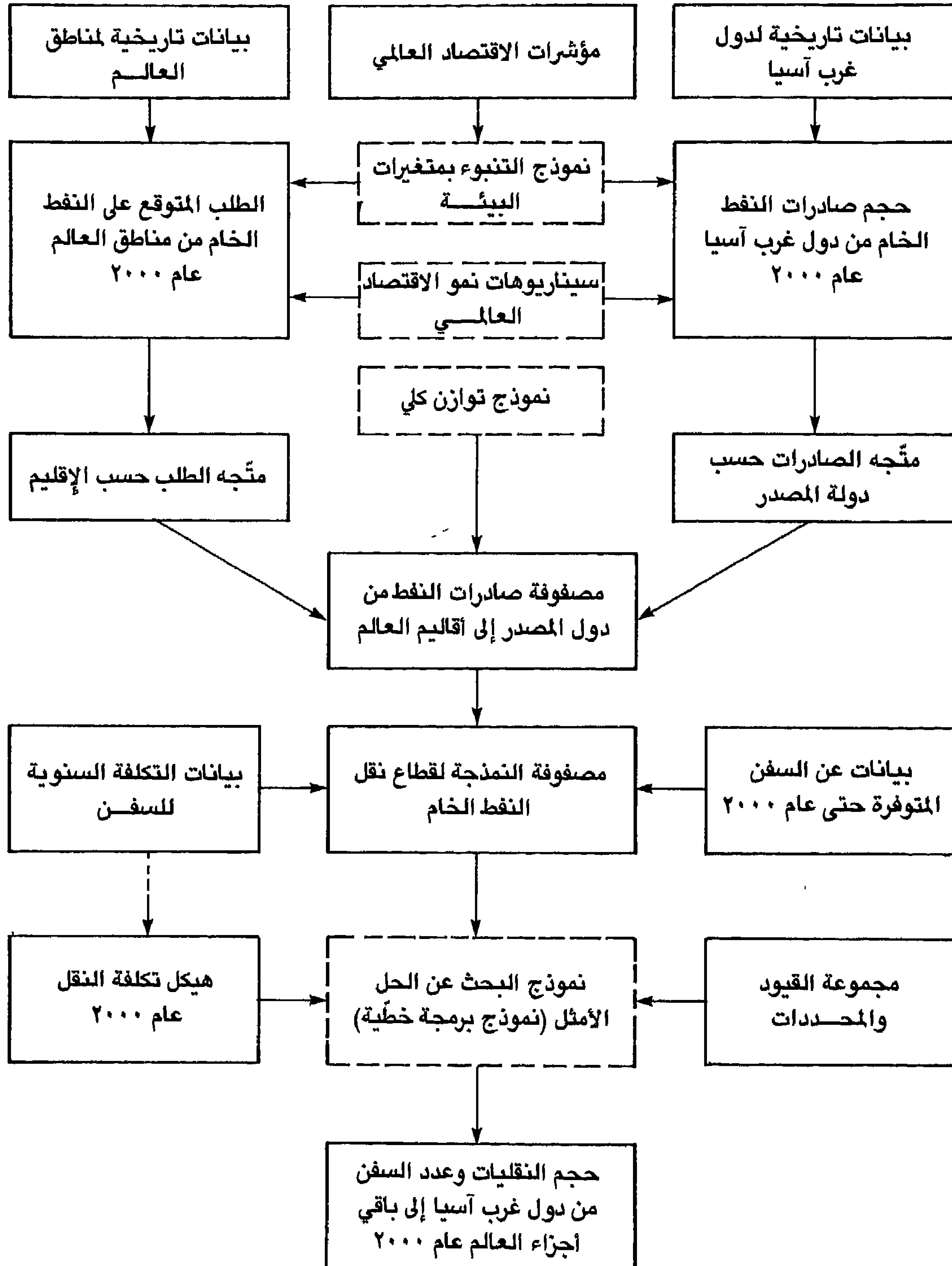
هـ ـ يقوم نموذج الحل الأمثل باستخدام بيانات مصفوفة صادرات النفط وبيانات عن هيكل تكلفة النقل البحري ومحددات الموانى وعدد السفن المتوفرة حتى عام ٢٠٠٠ ، للوصول الى الحجم الأمثل للأسطول البحري بمنطقة غرب آسيا في عام ٢٠٠٠ والتوزيعة المثلى لهذا الأسطول على الخطوط الملاحية التي تربط المنطقة بباقي اجزاء العالم . وقد استخدم في هذه الخطوة نموذج برمجة خطية وهو نموذج حل أمثل ينطبق عليه الخصائص والسمات التي ناقشناها في الجزء الثالث من هذه الدراسة . إلا أنه يتميز بأن علاقاته الرياضية تأخذ الشكل الخطي ! (linear relation) أي أن النموذج يتكون من دالة هدف خطية ومجموعة من القيود أو المتباينات الخطية .

٢ ـ نتائج النموذج :

يمثل الجدول رقم (٥) مخرجات النموذج الاقليمي وهو عبارة عن مصفوفة تبين صادرات النفط الخام من منطقة غرب آسيا عام ٢٠٠٠ . إذ تمثل صفوف المصفوفة الخطوط الملاحية من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم ، في حين تبين الأعمدة وسيلة النقل البحري سواء كان ذلك باستخدام الاسطول الاقليمي لغرب آسيا أو عن طريق سفن أجنبية . كذلك يقسم النموذج السفن المملوكة لدول منطقة غرب آسيا إلى وحدات متوفرة من الأسطول الاصلي حتى عام ٢٠٠٠ ، ووحدات جديدة تضاف بهدف زيادة نصيب دول غرب آسيا من الحجم الكلي لنقليات النفط الخام . كما يبين الجدول كذلك تقسيم أسطول منطقة غرب آسيا حسب الحمولة بالالف طن .

وبالطبع فانه يمكن ترجمة مصفوفة حجم صادرات النفط [جدول رقم (٥)] الى عدد السفن المطلوب إضافتها الى الأسطول القائم لتحقيق أهداف الدراسة ألا وهي زيادة مشاركة دول غرب اسيا في نقل نفطها الخام . حيث يوضح الجدول رقم (٦) الحجم الأمثل لأسطول النقل البحري لمنطقة غرب آسيا عام ٢٠٠٠ الذي يحقق النقاط التالية :

شكل رقم (٦)
الإطار المتكامل للنموذج الإقليمي



جدول رقم (٥) مصفوفة صادرات النفط من دول غرب آسيا إلى أقاليم العالم (عام ٢٠٠٠)

وسيلة نقل النفط الخام / الخطوط الملاحية		أسطول نقل النفط لمنطقة غرب آسيا							سفن نقل أجنبية
		وحدات متوفرة حتى عام ٢٠٠٠				وحدات جديدة			
		الحمولة بالألف طن				الحمولة بالألف طن			
		٣٠	٦٠	٨٠	٠٠٠	٣٠	٦٠	٠٠٠	
دولة المصدر	إقليم المتجه								
العراق	شمال أمريكا								
	جنوب أمريكا								
	غرب أوروبا								
	شرق أوروبا								
	أفريقيا								
	شرق آسيا								
الكويت	شمال أمريكا								
	غرب أوروبا								
	شرق آسيا								
	:								
المملكة العربية السعودية	شمال أمريكا								
	شرق آسيا								
	:								
	:								

ـ الحد الأدنى من حجم نقليات النفط الخام الذي حددته الدراسة بـ ٤٠٪ من الحجم الكلي للصادرات .
ـ الحد الأدنى من التكلفة الكلية لنقل الخام من منطقة غرب آسيا الى باقي أجزاء العالم .

وكما يوضح الجدول رقم (٦) ، فقد ارتبطت النتائج بحوارين (أوسينار يوهين) بديلين يعكسان التطورات المتوقعة في الاقتصاد العالمي خلال الفترة الزمنية ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠ أي أن النموذج يوفر لمتخذ القرار على المستوى الإقليمي الحل المستقبلي الأمثل بافتراض تحقق السيناريو المتشائم (او السيناريو المتفائل) ، وبالتالي فبافتراض تحقق السيناريو المتشائم ، على سبيل المثال ، يجب على دول غرب آسيا زيادة حجم أسطولها البحري بعدد ١٥٢ سفينة للوصول الى نسبة ٤٠٪ من الحجم الكلي لنقليات النفط ، بينما تحتاج دول المنطقة الى زيادة حجم أسطولها بعدد ٣١٩ سفينة في حالة تحقق السيناريو المتفائل (انظر جدول رقم (٦)) .

سابعا : النماذج العالمية :

خلال الخمس عشرة سنة الماضية تركز النشاط البحثي العالمي حول بناء عدد من النماذج تستهدف تحليل المشكلات ذات الطابع الاقليمي والدولي ، حيث استخدمت هذه النوعية من النماذج لتقييم الآثار المترتبة عل مجموعة من السياسات الوطنية والدولية على بعض المشكلات أو المتغيرات ذات الطبيعة الدولية .

ويمكن القول ان الاهتمام المتزايد بالنماذج العالمية يرجع الى اقتناع العديد من رجال البحث العلمي بأن العالم ككل يواجه عددا من المشكلات لا يمكن مواجهتها الا بتضافر الجهود الدولية ، (مشكلات البيئة ، الطاقة ، السكان ، . .) وقد سعت هذه النماذج الى تحقيق أحد الأهداف التالية(١٤) :

ـ التخطيط الكفء لانتاج الغذاء والمواصلات على نطاق العالم .
ـ الاستخدام الأمثل للموارد الأولية .
ـ تخفيض الفجوة في الدخول بين الدول المتقدمة والدول النامية .
ـ زيادة نصيب الدول النامية من الانتاج الصناعي العالمي .
ـ اشباع الحاجات الأساسية لدول العالم الثالث .

وحيث ان المشكلات الدولية تتميز بتعقيدها وارتباطها المتبادل فان النماذج العالمية تمثل من وجهة نظرنا أداة فعالة لتقييم الآثار المباشرة وغير المباشرة للقرارات التى يتم اتخاذها سواء على المستوى الاقليمي أو الدولي . ولقد ساعد على انتشار هذه النماذج التطور الذي حدث في السنوات الاخيرة في علوم الحاسب ونظم المعلومات .

وفيما يلي سنبدأ بمناقشة لبعض النماذج العالمية التي تم بناؤها خلال حقبة السبعينيات وبداية الثمانينيات ، ثم نتعرض بشيء من التفصيل لمكونات وهيكل نموذج استراتيجية التصنيع في الوطن العربي الذي تم اعداده بمعهد

(١٤) — Khorshid, Motaz (1985) "A Conceptual Review And Anlaysis of Global Models" The Egyptian Computer Journal, Vol. 13, November

جدول رقم (٦) التركيبة المثلى للأسطول البحري لنقل النفط الخام من منطقة غرب آسيا

أ ـ الحوار المتشائم Pessimistic Scenario

السنة	سفن متوافرة					إضافات جديدة					اجمالي الاضافات
	حمولة السفن بالألف طن					حمولة السفن بالألف طن					
	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	
٢٠٠٠	ـ	٢	٤	ـ	٢	٨٦	٢٤	١٤	١٩	٣٧	١٥٢

ب ـ الحوار المتفائل Optimistic Scenario

السنة	سفن متوافرة					إضافات جديدة					اجمالي الاضافات
	حمولة السفن بالألف طن					حمولة السفن بالألف طن					
	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	
٢٠٠٠	ـ	٢	٤	ـ	٢	١٢٧	٤٧	٤٠	٤٠	٦٥	٣١٩

التخطيط القومي (جمهورية مصر العربية) بتكليف من مركز التنمية الصناعية للبلدان العربية . هذا وسيرتكز التحليل على ثلاثة معايير رئيسية :

- هدف النموذج ونطاقه .
- هيكل النموذج وخصائصه .
- المزايا والعيوب .

١ - نموذج فورستر [١٥]:

تم إعداد هذا النموذج بواسطة فورستر تحت اشراف نادي روما ، وقام ميدوز[١٦] من جانبه بكتابة التقرير الخاص بنتائج الدراسة .

ويقوم نموذج كل من فورستر وميدوز بدراسة خمس سمات اساسية للنمو على المستوى الدولي ، وهي النمو السكاني ، التوسع الصناعي ، تلوث البيئة ، نضوب الموارد الطبيعية وشيوع سوء التغذية .

وعلى الرغم من الانتقادات العديدة التي وجهت الى النموذج ، الا انه مازال يمثل العمل الرائد على مستوى التحليل الكمي للمشكلات الدولية . فقد أظهرت نتائج النموذج ان العالم سيواجه مشكلات حقيقية على درجة من الخطورة سوف تتأثر بها كل من الدول المتقدمة والنامية على السواء . وأن الجهد الدولي لابد أن يوجه للقضاء على هذه المشكلات .

ولعل النقد الهام الذي يمكن ان يوجه الى النموذج هو معاملته للعالم ككل بوصفه كتلة واحدة . اذ استبعد النموذج تقسيم العالم الى اقاليم جغرافية او الى كتل متعددة .

ولعل ذلك يحد الى درجه كبيرة من امكانية استشراف سيناريوهات مستقبلية تستند الى هياكل مختلفة للتجارة الدولية وللتدفقات النقدية بين أقاليم العالم .

وأخيرا فان نموذج فورستر يدخل في نطاق نماذج التنبؤ بآلية عمل النظم (انظر شكل رقم (٢)) وهي نماذج تسعى الى محاكاة السلوك المستقبلي للعالم ككل او اقليم جغرافي منه .

٢ - نماذج مازاروفيتش / بستيل :[١٧]

تشارك هذه النماذج ، النموذج السابق في فلسفته . ذلك ان الهدف هو محاكاة سلوك النسق في المستقبل عن طريق تغيير ظروف البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار (السياسات الاقليمية والعالمية) .

---

(١٥) — Farrester, J.W. (1973) "World Dynamics" Cambridge, Mass., Wright - Allen Press

(١٦) — Meadows, D.L. And al (1974) "Dynamics of Growth In Finite World", Cambridge, Mass., Wright - Allen press

(١٧) — Mesarovic, M. and E. pestel (1974), "Multi - Level Computer Model of World Development Systems" proceedings of IIASA Symp., Laxenburg, Austria.

وقد قام مازاروفيتش ويستول بتطوير مجموعتين من النماذج العالمية ، تركز المجموعة الأولى على قضايا تخطيط الطاقة ، في حين تتجه المجموعة الثانية الى تحليل مشكلات انتاج المواد الغذائية ومشكلة المواصلات .

فنموذج الطاقة يستهدف على سبيل المثال ، دراسة سياسات الأسعار وانتاج الطاقة مع التركيز على منتجات النفط . وقد قسم العالم في اطار هذا النموذج الى عشرة اقاليم في حين مثل الأفق الزمني للنموذج خمسين عاما تبدأ عام ١٩٧٥ حتى عام ٢٠٢٥ .

يحتوى النموذج على عدد من النماذج الفرعية اذ يقوم النموذج الفرعي الاقتصادي بتقدير الناتج الاقليمي الاجمالي ، في حين يقوم النموذج الفرعي للسكان بتقدير عدد السكان . بناء على هذين التقديرين يتم قياس الطلب الكلي على الطاقة . يلي ذلك توزيع الطلب الكلي على الطاقة على الأقاليم المختلفة للعالم .

وخلال هذه المرحلة من عمل النموذج فان التحكم ينتقل الى النموذج الفرعي للطاقة لاستشراق تلك القضايا المتعلقة بتوافر الطاقة كمورد اولى .

وينتهي عمل النموذج بتوليد عدد من المؤشرات الاقتصادية مثل العجز في النفط العالمي ، الناتج الاقليمي الاجمالي ، تراكم رأس المال . . الخ .

ونود في هذا الصدد الاشارة الى ملاحظتين تتعلقان بهيكل النموذج . اما الملاحظة الأولى فهي اعتماد النموذج على اسلوب السيناريوهات او الحوارات البديلة . اما الملاحظة الثانية فهي نمط التجارة الخارجية في النموذج . اذ يتم ذلك عن طريق جمع كافة السلع في مجمع عالمي World Pool مع اهمال العلاقات الثنائية بين الدول او الاقاليم المختلفة . . مما يؤثر على دقة نتائج النموذج .

٣ ـ نماذج محاكاة الاقتصاد العالمي :

يمكن تصنيف هذه النماذج بوصفها نماذج محاكاة تركز على دراسة السلوك المستقبلي للنظام العالمي . ولعل السبب في معالجتها كفئة مستقلة انما يكمن في حقيقة ان مشكلات الاقتصاد العالمي تعتبر هي المكون الرئيسي في بناء هيكل هذه النماذج . اذ تسود المشكلات الاقتصادية عمليات تشغيل هذه النماذج في حين تتوارى جانبا المشكلات السياسية . وتتميز اغلب هذه النماذج بوجود عدد من النماذج الفرعية الاقليمية ترتبط ببعضها البعض عن طريق مصفوفات تدفق التجارة الخارجية . ويحتوي النموذج الفرعي لكل اقليم على جدول المستخدم المنتج الذي يربط بين هيكل الانتاج ومتجه الطلب النهائي على مستوى الاقليم .

وتحتاج هذه النوعية من النماذج الى حجم ضخم من البيانات والاحصاءات وهو مايمثل من وجهة نظرنا ، القيد الرئيسي على استخدام مثل هذه النماذج في تحليل المشكلات الدولية .

وفيما يلي نتناول بالتحليل نموذجين رئيسيين :

أ ـ نموذج مستقبل الاقتصاد العالمي (١٨) الذي تم بناؤه تحت مظلة الأمم المتحدة وأشرف على اعداد الباحث الاقتصادي المعروف فاسيلي ليونتييف .

ب ـ نموذج مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية(١٩) وهو يمثل مشروع مشترك لكل من مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية .

يهدف نموذج ليونتييف الى اظهار مجموعة من الارتباطات المتبادلة التي يمكن ان تحدث بين السياسات الاقتصادية والبيئية على أساس نمو الاقتصاد العالمي في المستقبل .

وبالتالي فقد تمت مقارنة صورة الاقتصاد العالمي السائدة سنة ١٩٧٠ بصور افتراضية اخرى (سيناريوهات) للاقتصاد العالمي لسنوات ١٩٨٠ ، ١٩٩٠ ، ٢٠٠٠ . ويتسم نموذج ليونتييف بدرجة عالية من التفصيل اذا ينقسم العالم في هذا النموذج الى ١٥ إقليما ويحتوي كل اقليم على ٤٥ قطاعا يمثلون الأنشطة الاقتصادية المختلفة . وترتبط الأقاليم المختلفة ببعضها البعض من خلال آلية معقدة للارتباط Complex Linkage mechanism تشمل الصادرات والواردات لحوالي ٤٠ مجموعة سلعية ، تدفقات رأس المال والمعونات وحجم الفوائد على الديون الدولية .

أما نموذج مؤتمر التجارة والتنمية للأمم المتحدة فيحتوي على احد عشر اقليما يتم ربطها باستخدام سبع مصفوفات تعكس هيكل التجارة الدولية . كما ترتبط الأقاليم ببعضها البعض من خلال موازنات للتدفقات النقدية بحيث يصبح الهيكل النقدي الدولي متاحا لأغراض التحليل ، ويحتوي النموذج الفرعي لكل اقليم على مايلي :

أ ـ جداول المستخدم / المنتج (٨×٨ قطاعات) تربط هيكل الانتاج بمتجه الطلب النهائي .

ب ـ تركيبة التكنولوجيا كما تعبر عنها المعاملات الفنية لجدول المستخدم / المنتج ومتغيرات دالة الانتاج .

جـ ـ النموذج الفرعي لمتجه الطلب النهائي المحلي شاملا الاستهلاك الخاص والعام ، والاستثمار الصادرات ، والواردات .

د ـ النموذج الفرعي للتجارة الخارجية وموازنة الادخار والاستثمار .

وبهذه الطريقة فان النموذج يستطيع ان يتصدى لقضايا مثل :

أ ـ السياسات المتعلقة بالتكنولوجيا .

ب ـ سياسات التصنيع والتجارة الدولية .

جـ ـ بعض القضايا الأخرى مثل مشكلة الطاقة والتوازن بين الانتاج الزراعي والصناعي . . الخ .

---

(١٨) — Leontief; W, et al (1977) "The Future of The World Economy", Oxford University press, Oxford

(١٩) — Joint UNCTAD - UNIDO project (1981) "The UNITAD System" progress Report, 17 Feb.

٤ ـ نموذج باريلوتشي العالمي :[٢٠]

يتميز نموذج باريلوتشي بعدد من السمات المميزة اذا ماقورن بالنماذج السابقة . ولعل اهم هذه السمات هي الأهمية الخاصة الموجهة الى المشكلات المستقبلية لبلدان العالم الثالث . لهذا السبب يقسم النموذج العالم الى اربع مناطق جغرافية . واحدة للدول المتقدمة وثلاث للدول النامية (افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية) .

وقد اعتمد بناء النموذج على أن الهدف الرئيسي للنسق (أو النظام) الانتاجي لاي مجتمع انما يتمثل في اشباع الحاجات الانسانية مثل مستويات التغذية ، والاسكان ، التعليم ، . . . الخ . ومن هنا ينقسم النسق الانتاجي الى خمسة قطاعات :ـ انتاج الغذاء خدمات الاسكان ، التعليم ، السلع الاستهلاكية ، والسلع الرأسمالية .

ويهدف النموذج الى تحقيق التوزيع الأمثل للعمل ورأس المال بين القطاعات الانتاجية للمجتمع بقصد تعظيم المؤشرات الانسانية المتمثلة في توقع الحياة عند الولادة .

أما النتائج التي وصل اليها النموذج فيمكن تلخيصها في ان اشباع الحاجات الأساسية يمكن تحقيقه في خلال ٦٠ عاما تبدأ سنة ١٩٨٠ ، وذلك اذا قامت الدول المتقدمة بتخصص مالا يزيد على ٢٪ من الناتج المحلي الاجمالي الى الدول النامية في أفريقيا وآسيا في حالة ما اذا ساد العلاقات الدولية نظام سياسي واقتصادي واجتماعي جديد . كذلك يصل النموذج الى أن المشكلة السكانية ليست المشكلة الملحة عالميا . ذلك أن المشكلة الاساسية انما تتمثل في قضايا توزيع الدخل وقدرة الدول النامية على خلق هياكل اقتصادية مستقلة تسمح باشباع الحاجات الأساسية للمجتمع .

٥ ـ نموذج اليونيدو للتعاون الصناعي العالمي[٢١]

يسعى هذا النموذج العالمي بدوره الى الوصول الى حل امثل لبعض المشكلات العالمية أو الأقليمية . وهو نموذج يهدف الى اختيار مجموعة من سياسات التصنيع لدول العالم في المدى الطويل . ويبين التقرير الخاص بالنموذج انه يركز على قضايا الاقتصاد العالمي ، فهو لا يهتم بقضية البيئة ، الموارد الطبيعية ، او الطاقة . وبهذا المعنى فهو نموذج اقتصادي عالمي للبحث عن الحل الامثل .

وقد تم صياغة دالة الهدف في النموذج على أساس اختيار السياسات الاقتصادية التي تسعى الى تعظيم نصيب الدول النامية من الانتاج الصناعي العالمي في عام ٢٠٠٠ .

ويمكن توصيف أسلوب عمل النموذج على النحو التالي . تبدأ عملية التقدير عن طريق استخدام نموذج للاقتصاد الوطني لتوليد متجه على المستوى الكلي بصف الأهداف المتوقعة او المستهدفة للاقتصاد في نهاية فترة التخطيط . هذه الأهداف تشمل على سبيل المثال الناتج المحلي الاجمالي ، الصادرات ، الواردات ، الاستثمار ، الى غير ذلك من

(٢٠) — Herrera, A. et al (1976) "Calastroph Or New Society - A Latin American World Model" OHOWA, International Development Research Center

(٢١) — UNIDO (1977), "Constructing The UNIDO World Industry Cooperation Model" progress Report, UnIDO, Vienna, Austria

المؤشرات الكلية . بناء على ذلك يقوم نموذج التناسق الدولي بالتنسيق بين المتجهات الكلية للدول على المستوى العالمي . اذ يستخدم هذا النموذج أسلوب البرمجة الخطية لتعديل اي مجموعة من الأهداف في ضوء المجموعة الأخرى . وبالتالي فان ناتج هذه العملية هو مجموعة من المتجهات على المستوى القطري متسقة على المستوى العالمي او الدولي . بعد ذلك يقوم نموذج التجارة التفصيلي بقياس تدفقات التجارة بين كافة الأقطار باستخدام مصفوفة تمثل هيكل او نمط التجارة العالمية . يعود التحكم في النهاية الى النموذج الوطني (اوالقطري) ليقوم بدراسة الآثار المترتبة على نمط التجارة الخارجية (الصادرات والواردات السلعية) .

نموذج استراتيجية التصنيع في الوطن العربي :(٢٢)

ساعد نموذج منظمة البونيدو الذي أشرنا اليه سابقا على أن يكون إطارا لدراسة استراتيجية التصنيع للاقطار العربية خلال الفترة ١٩٨٥ الى ٢٠٠٠ إذ استهدفت الدراسة الوصول الى مجموعة من الخطط الشاملة للتصنيع لكافة الأقطار العربية . وقد عهد مركز التنمية الصناعية للبلدان العربية الى معهد التخطيط القومي بالقيام بهذه الدراسة .

ويبين شكل رقم (٧) أن كل قطر عربي يجب أن يترجم توجهات الخطة الإنمائية إلى مجموعة مؤشرات تخطيطية (معدل الادخار ـ نسبة الواردات ـ . . . الخ) حتى يمكن للنموذج أن يقوم بحساب متجه اقتصادي كلي يشتمل على العناصر التالية :ـ

- الناتج المحلي الإجمالي
- القيمة المضافة في قطاع الصناعة .
- الصادرات والواردات السلعية .
- الادخار القومي
- الاستهلاك النهائي
- تكوين رأس المال الإجمالي
- الميزان التجاري
- حجم القوى العاملة

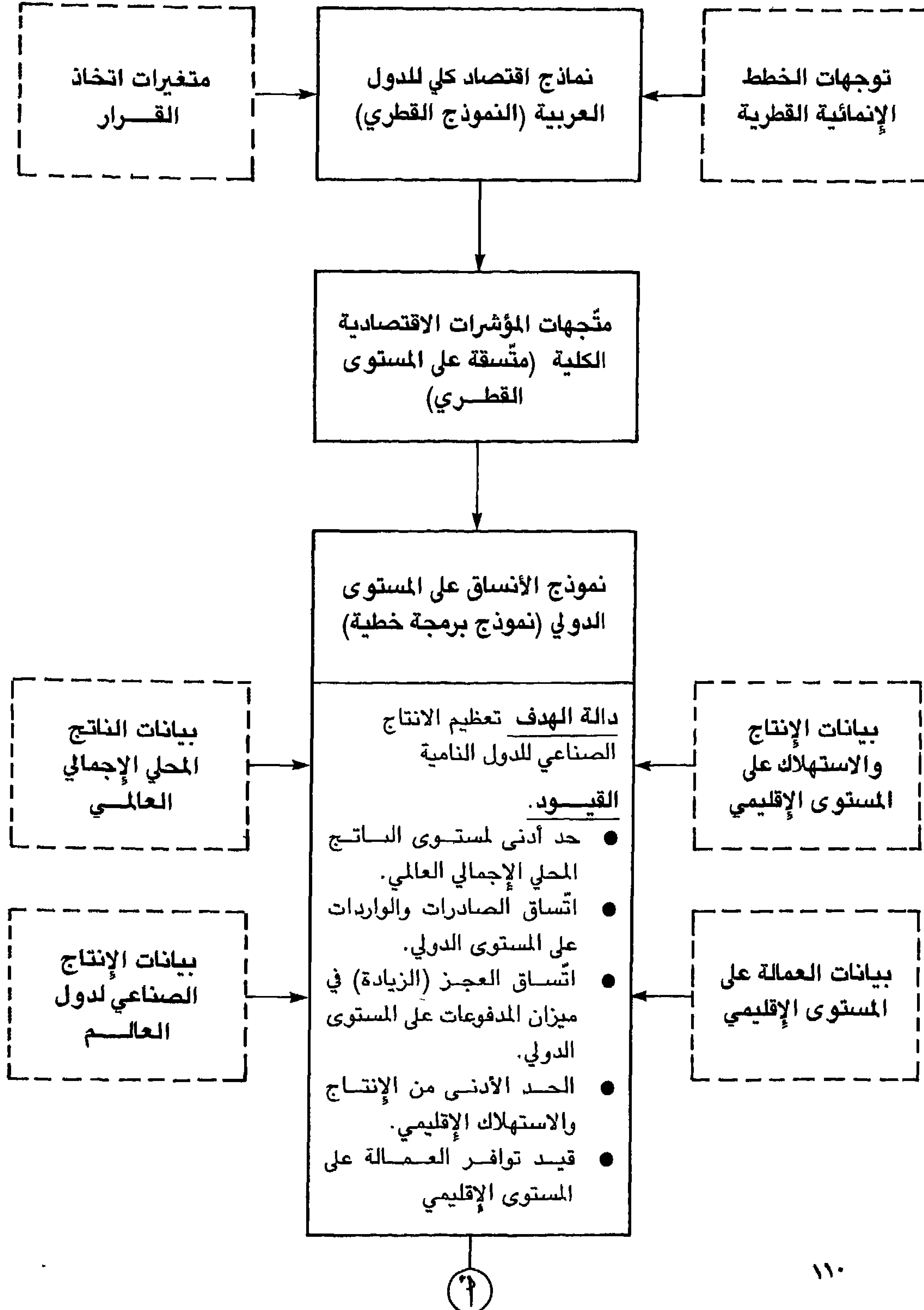
ويتم تعديل المتجهات القطرية بعد ذلك باستخدام نموذج للتناسق الدولي مشابه لذلك المستخدم في نموذج منظمة اليونيدو ، إذ يوضح الشكل رقم (٧) أن الدراسة استخدمت نموذج برمجة خطية للوصول إلى المتجهات الكلية المتسقة على المستوى الدولي . وقد تم صياغة دالة الهدف لتمثل أحد المعيارين التاليين :ـ

- تعظيم الناتج المحلي الإجمالي على المستوى العالمي .
- تعظيم الناتج الصناعي للدول النامية .
- هذا وقد استخدم النموذج العديد من القيود أو المتباينات الرياضية نذكر منها على سبيل المثال :ـ
- تحقيق حد أدنى من الإنتاج والاستهلاك لكل إقليم من أقاليم العالم .

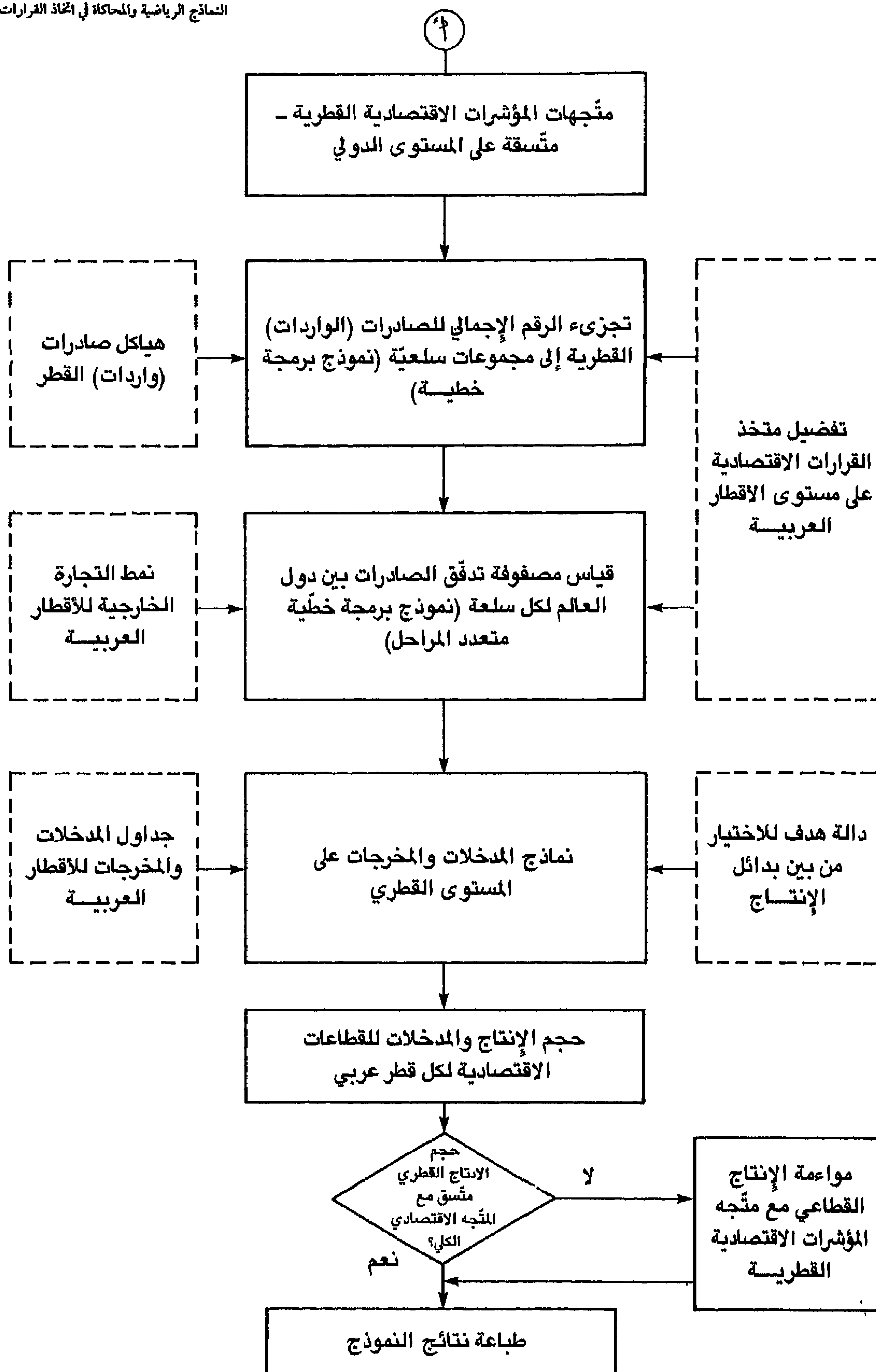
---

(٢٢) — Elshafei, A.N. (1979) " What Future Contribution Can O.R. Offer To Improve The World Understanding of Global problem" proc. of the IFORS Congress, pp. 181-212.

شكل رقم (٧) خريطة تدفق معلومات مبسّطة لنموذج استراتيجية التصنيع في الوطن العربي



شكل رقم (٧) تكملـــة



ـ الأخذ في الاعتبار توافر العمالة على المستوى الإقليمي .
ـ اتساق الحجم الكلي للصادرات والواردات على المستوى العالمي .
ـ اتساق العجز (الزيادة) في ميزان المدفوعات على المستوى العالمي .

أما قضايا التجارة الخارجية والصادرات القطاعية فقد عوملت معامله مختلفة في نموذج التصنيع العربي ، ذلك أن النموذج الجديد لايستخدم نمطا معياريا للتجارة كما هو الحال في نموذج اليونيدو ، بديلا عن ذلك ، فإن الصادرات الكلية في المتجه القطري يتم تقسيمها إلى مجموعات سلعية باستخدام نموذج برمجة خطية يأخذ في الاعتبار هيكل صادرات وواردات القطر من ناحية وتفضيل متخذ القرار على المستوى القطري من ناحية أخرى . ثم يقوم النموذج بعد ذلك بقياس مصفوفة تدفق الصادرات والواردات السلعية بين الأقطار العربية وباقي دول العالم باستخدام نموذج برمجة خطية متعدد المراحل .

وفي خطوة أخيرة تستخدم جداول المدخلات والمخرجات (جداول المستخدم/ المنتج) لكل قطر عربي لحساب مستويات الإنتاج القطاعي اللازمة للحفاظ على مستوى معين من الطلب المحلي والخارجي . وقد يواجه النموذج في هذه الحالة أكثر من بديل لحجم الإنتاج القطاعي . لذلك يتم توصيف دالة هدف خطية ، ويستخدم نموذج برمجة خطية لإيجاد الحل الأمثل الذي يأخذ في الاعتبار دالة الهدف المختارة ومجموعة القيود التي تمثل جداول المستخدم/ المنتج لكل قطر عربي .

وقد واجه النموذج صعوبات تتعلق بعدم توافر البيانات أو عدم دقتها . إذ يحتاج النموذج إلى جداول المستخدم/ المنتج لواحد وعشرين قطرا عربيا وهو أمر على درجة كبيرة من الصعوبة ذلك أنه عند إعداد النموذج لم توجد جداول المستخدم/ المنتج إلا لسبعة أقطار عربية . وقد تم بناء هذه الجداول في تواريخ مختلفة يعود بعضها إلى فترة الستينيات .

ثامنا : الخلاصة

استهدفت هذه الدراسة تعريف مجتمع الباحثين والمثقفين بدور النمذجة والمحاكاة في الدراسات المستقبلية واتخاذ القرارات على المستوى القطري والاقليمي والدولي . إذ تمثل النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة إحدى الأدوات التحليلية التجريبية الهامة التي تسمح باختبار بدائل السياسات والحوارات المستقبلية مما يساعد على ترشيد عملية اتخاذ القرار على المستويين الجزئي والكلي .

بناء على ذلك توجه الجهد نحو توصيف نوعيات نماذج التنبؤ بالسلوك المستقبلي واختيار مجموعة من التطبيقات على مستويات مختلفة من التحليل تبدأ بالنماذج التي تسعى إلى دراسة المسار المستقبلي للوحدات الإنتاجية والنظام الاقتصادي الكلي وتنتهي بمجموعة النماذج التي تقوم بالتصدي للمشاكل ذات الطابع الإقليمي أو الدولي .

والنماذج الرياضية مهما تعددت نوعياتها يجب النظر إليها كجزء من العملية البحثية الكلية ، وبالتالي فإنها توظف وتطوع لتحقيق الهدف من الدراسة . اذ يتوقف مدى الاستفادة منها على وعي الباحث بإمكاناتها وقيود استخدامها ومدى تمثيلها للواقع . ذلك أن النماذج هي تجريد للواقع أو صورة تقريبية للنظام محل الدراسة ، وبالتالي فإن قدرة النماذج على تمثيل الواقع إنما تعتمد على جودة الصياغة الرياضية ومدى تعقيد المشكلة ودرجة دقه واتساق البيانات المستخدمة في بنائها . وعلى الرغم من أوجه القصور في أسلوب بناء النماذج فإنها تمثل بالقطع أداه تجريبية مرنة وفعالة يصعب على الباحث العلمي في عصرنا الحالي التغاضي عن دورها الهام في مختلف مجالات العلم والمعرفة .

مراجع عربية :

١ـ معتز خورشيد (١٩٨٦) « الحسابات القومية ومصفوفات التوازن الاجتماعي » المال والصناعة ، العدد السابع بنك الكويت الصناعي ، الكويت .
٢ ـ مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٨٢) « استشراف مستقبل الوطن العربي » مقترح بحثي ، بيروت .

المراجع الأجنبية

1— Blitzer R.B. et al (1975) ''Ecomomywide Models and Development planning'' Oxford University press, Oxford,.

2— buffa, E.S. and J.S. Dyer (1978) ''Essentials of Management sciences/ Operations research'' john Wiley & sons, New York.

3— Derivs, K et al (1982) ''General Equilibrium models for development policy'' Cambridge press, Cambridge

4— Elshafei, A.N (1979) ''What Future Contribution Can O.R Offer to Improve The World Understanding of Global problems'' proc. of the IFORS Congress, pp. 181-212.

5— Forrester, J.W (1973) ''World Dynamics'' Cambridge Mass., Wright - Allen press.

6— Gordon. G (1978) ''System Simulation'' printice Hall Inc., New Jersy.

7— Herrera. A; et al (1976) ''Catastrophe or New Society A latin American World Model'' Ottowa, International Development Research Centre.

8— Khorshid. M (1985) ''A Conceptual Review And Analysis of Global Models'' The Egyption Computer Journal, Vol. 13, November.

9— Khorshid, M. (1987) ''A Corporate Simulation Model For Policy Experiments'' proc. of the summer comference on Computer Simulation, 27 - 29 July, Montrial, Canada.

10— Khorshid, M. and A.F. Abdel Khalik (1985) ''ACorporate simulation Model For Fvaluationg the performance of Industrial Projects'' proc. of the 20th Annual Conference on Statistic, Computer Sciences, and Opertions Research, Vol. 4, cairo, Egypt.

11— Khorshid, M. (1985), ''The Computerized TV Approach To Economic Modelling'' IBK paper No. 18, Kuwait.

12— Khorshid. M; et al (1987) ''Social Accounting Matrix For Kuwait - Structure, Documentation, and Analysis'' Tehnical Report, Kuwait Institute for Scientific Research. Kuwait.

13— Khorshid. M, et, al (1987) ''Description and Analysis of the Kuwait Economy - The Multiplier Model'' Technical Report, Kuwait Instiute for Scientific research, Kuwait.

14— Khorshid. M (1985) ''Future prospects of seaborne Trade And Fleet Development In The ECWA Region'' Unpublished memo, UNECWA, Bagdad, Iraq.

15— Leontief. A; et al (1977) ''the future of the world economy'' Oxford University press, Oxford:

16— Luenferger; D. G (1973) ''Introduction To Linear and Non linear programming'' Addison — wesley, Massach usettes.

17— Makridakis. S; et al (1983) "Forecasting Methods And Applications" John Wiley and Sons, New York.

18— meadows. D. L; et al (1974) "Dynamics of Growth In A finite World", Cambridge Mass., wright Allen Press.

19— Mesarovic M. and E. Pestel (1974) "Multilevel Computer Model of World Development Systems" proc. of IIASA Symp., LAxenburg, Austria.

20— Naylor. T. H. (1979) "Corporate planning Models" Addison Wesley Publishing Company.

21— Pyatt g; et al (1985) "Social Accounting Matrices - A basis For Planning" the World Bank, Washington D. C, U.S.A.

22— Pyatt. G; and J. Round (1979) "Accounting and fixed price Multipliers in a Social Accounting Matrix Framework", The Ecomomic Journal, vol. 89.

23— Tavlor. L (1979) "Macro - Models For Developing Countries" Mcgraw Hill, New York.

24— UNICTAD - UNIDO Project (1981) "The UNITAD System" Progress Report, 17-Feb.

25— UNIDO (1977) "Constructing The UNIDO World Industry Coopertion Model" Progress Report, UNIDO, Vienna, Austria.

26— United Nations (1968) "A System of National Accounts" New York, U.S.A.

***

الشخصية المسرحية

سامية أسعد

الشخصية عنصر أساسي من العناصر المكونة للمسرحية . فالمسرحية تعرّف بأنها حدث يتم بواسطة الشخصيات أو الممثلين ، في زمان ومكان محدد ، أمام جمهور من المتفرجين . والمسرح يعرّف بأنه علاقة ثلاثية بين الشخصية ، والممثل ، والمتفرج . وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، أعيد النظر في الشخصية ، روائية كانت أم مسرحية ، ضمن ما أعيد النظر فيه من قيم أدبية موروثة . ودخلت الشخصية فترة وصفت بأنها « أزمة » ، خضعت خلالها ، بعد أن كانت مفهوما راسخا ، لتحول جذري غيّر ملامحها ، وجعلها تختلف تماما عما كانت عليه ، بل هدد وجودها ذاته . وما هذه إلا بعض الأسباب التي جعلتنا نختار الشخصية المسرحية موضوعا لهذه الدراسة ، بالإضافة إلى أن هذا المفهوم الواضح يثير في الواقع أكبر قدر ممكن من الصعوبات النظرية .

تفتقر كلمة شخصية Personnage ، بداية ، إلى معنى محدد . فإذا رجعنا إلى القواميس العادية ، وجدنا أنها أطلقت أصلا على الشخص المرموق رفيع الشأن ، ثم على « الشخصية الخيالية ، رجلا كان أم امرأة ، التي تؤدي دورا في عمل درامي » .

ويقول ب . بافيس P.Pavis إن الكلمة الفرنسية Personnage الدالة على الشخصية المسرحية مشتقة من الكلمة اللاتينية Persona التي تعني القناع . وهذه الكلمة ترجمة للكلمة اليونانية التي تعني الدور Role ، ويقصد بها الشخصية الدرامية . والاستخدام النحوي لكلمة Persona للدلالة على المتكلم والمخاطب والغائب ، هو الذي أعطاها معنى الكائن الحي أو الإنسان .[1]

---

(١) انظر Dictionnaire du Théâtre., Paris, Iditons Sociales 1930, Page 288

ويعرف د . ابراهيم حمادة الشخصية الدرامية Dra-matis Personae ، أو كما يسميها الانجليز Character بقوله : « هو الواحد من الناس الذين يؤدون الأحداث الدرامية في المسرحية المكتوبة أو على المرسح في صورة الممثلين . وكما قد تكون هناك شخصية معنوية تتحرك مع الأحداث ، ولا تظهر فوق خشبة التمثيل ، فقد يكون هناك أيضا رمز مجسد يلعب دورا في القصة ، كمنزل أو بستان أو نحوهما » . (٢)

الشخصية المسرحية إذن كائن بشري يشار إليه في النص بعلامات لغوية ، ويتقمصه ممثل من لحم ودم على خشبة المسرح ، من خلال علامات غير لغوية تبنى فوق العلامات السابقة . حتى في النص المكتوب الذي لم يعرض ، تظل الشخصية كائنا حيا ، ما دام القارىء يعطيها هذا الشكل أو ذاك على مسرح خياله(٣) . لكن ، قد يتسع مفهوم الشخصية بحيث يتجاوز حدود الكائن البشري ، ويشمل بعض الأمور أو الأفكار أو الأشياء المجردة : مدينة بأكملها ، صورة ، سيف ، الخ . . .

وتعرف الشخصية المسرحية أيضا بمقارنتها بمفهومين كثيرا ما خلط النقاد بينها وبينهما ، ونقصد بهما الدور ، والشخصية الحقيقية Personne . كثيرا ما يدور الحديث عن الفتى الأول ، أو الخادم أو غيرهما من الأدوار التي توصف بأنها « كودية » Code ، لأن سماتها المميزة ترتبط ببعض التقاليد المسرحية والتاريخية الراسخة . وفي هذا السياق ، يجعل الكود Code من الشخصية التي تدخل إلى خشبة المسرح وفيها Figure مسرحيا معروفا ، أي سبق أن صعد إلى تلك الخشبة . ولعل أفضل مثال لهذا الدور الكودي هو الأقنعة التي كان يرتديها ممثلو « الكوميديا دي لارتي » ، وكانت تلخص السمات الأساسية لشخصية أصحابها . مثال ذلك قناع أرلكان ، الخادم النهم الذي يثير الضحك ، والدكتور ، الزوج المخدوع دائما ، وبييروه ، الخ . . ومن هذا المنطلق ، يعتبر الاسم أيضا دليلا كوديا ، شأنه شأن القناع تماما . فمجرد النطق باسم سجاناريل ، عند الحديث عن مسرحية موليير « دون جوان » ، يعيد إلى الذهن الدور الذي سبق أن قام به في عديد من المسرحيات الفرنسية الأخرى . وكذلك الأمر بالنسبة لسيده دون جوان ، الذي يجعلنا نرجع تلقائيا إلى أصله الأسباني ، والكاتب ت . دي مولينا الذي سبق أن رسم شخصيته من زاوية معينة هي غواية النساء . وغالبا ما توجد الوجوه المسرحية في الأشكال المسرحية الثابتة ، كالميلودراما أو الفودفيل . وينسحب هذا أيضا على المسرحيات التي تستمد شخصياتها من الأسطورة أو التاريخ . فهي تعود بنا إلى معرفة سابقة ، مما يجعل الشخصيات الشهيرة : نيرون ، وأوديب ، وكاليجولا ، الخ . . . تبدو وكأنها « ممسرحة » سلفا . ويزداد مفهوم الدور تعقيدا إذا انتقل الى مستوى آخر . فالشخصية المسرحية قد تؤدي دورا أو عدة أدوار في المسرحية الواحدة . على سبيل المثال ، يمكن أن نقول إن دون جوان ، في مسرحية موليير التي تحمل اسمه ، يقوم بأداء عدة أدوار : دور الابن العاق ، والزوج الخائن ، وزير النساء ، والمنافق ، أي إنه « يمسرح » حياته . من هذا المنظور أيضا ، يمكن أن نقول إن دون جوان يتولى

(٢) انظر معجم المصطلحات الدارمية والمسرحية ، القاهرة ، دار الشعب ١٩٧١ ، صفحة ١٨٥

(٣) لاينفصل الممثل عن الشخصية أبدا حتى على مستوى القراءة ، تظل الشخصية المسرحية ممثلا يمكن أن يعتلي خشبة المسرح في أي لحظة وعندما يخلصه الكاتب ، يكون نصب عينيه دائما تصويره على خشبة المسرح وتجد حالة قصوى ، إذا سرنا في هذا الإتجاه ، حالة الشخصية التي يرسمها الكاتب لكي يؤديها ممثل معين يتمثل جوهر الممثل إذن في تصوير إنسان ما ، وإعطاء الشخصية معنى ما

إخراج حياته الخاصة وحياة من يحيطون به ، داخل مسرحية موليير ، عندما يجعل من هؤلاء مجرد أدوار كودية : الزوجة المهجورة ، الأب المهان ، الخ . . .

من ناحية أخرى ، كثيرا ما يميل النقاد ، بل والناس العاديون ، إلى الخلط بين الشخصية المسرحية والشخصية الحقيقية[٤] ، لأن الشخصية المسرحية توضع أحيانا في مواقف كتلك التي تعيشها الشخصية الحقيقية في الحياة . ويزداد هذا الخلط نتيجة لتقمص الممثل للشخصية ، مما يجعل المتفرج ينظر الى الكاتب المسرحي على أنه خالق لشخصيات يمكن أن تكون حقيقية . أكثر من هذا ، وجدت بعض العبارات المسرحية الأصل ، مثل « الشخصية الموليبرية » (نسبة إلى موليير) التي استخدمت كوسيلة لبيان السمات الخاصة ببعض الشخصيات الحقيقية . ودخل اسم كل من طرطوف وهرباجون ، وهما من أسماء العلم ، اللغة الفرنسية ، حيث أصبحا اسمين يدلان على الشخص المنافق المخادع أو البخيل . وإزاء هذا الخلط ، نقول إن الشخصية المسرحية ليست سوى شخصية من « ورق » على حد قول آن أوبرسفيلد[٥] ، أي شخصية خيالية ، وهمية ، لا يتجاوز وجودها ، من الناحية الموضوعية ، وجود العناصر المكونة لها : الحركة ، والكلمة ، وتعبيرات الوجه ، الخ . . أما ماضيها ومستقبلها ، فهما الماضي والمستقبل الذي يعطيها الكاتب المسرحي لها . ويساعد على هذا الخلط ، كما أسلفنا ، خداع المتفرج بحديث الشخصية المسرحية ، والواقع المتمثل في جسم الممثل ، مما يجعله يسقط عليها تجربته ، وأحداسه الواقع ، ومعرفته بذاته وبالآخرين . وكان المسرح التقليدي يشجع مثل هذا الخلط ، لأنه كان يعطي الشخصية سمات مميزة من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، ويجعل لها ماضيا محددا معروفا ، يذكره في مقدمة العمل المسرحي ، بالإضافة إلى حرصه على أن تكون قابلة للتصديق ، من الناحية النفسية ، حتى لو كانت ثانوية . . . لكن الأمور تغيرت الآن ، وأصبح هذا الخلط بين الشخصية ، والدور ، والشخصية الحقيقية ، غير وارد ، نتيجة لما طرأ على الكتابة المسرحية ذاتها والتحليل النقدي من تطور وتغيير .

وأخيرا ، وليس آخرا ، تعرّف الشخصية المسرحية أيضا بمقارنتها بالشخصية الروائية ، لا سيما أن المسرح اعتبر لفترة طويلة فرعا من فروع الأدب ، ولم ينظر إليه كفن من فنون العرض إلا مؤخرا . وتظل الشخصية المسرحية قريبة جدا من الشخصية الروائية ، طالما بقيت في النص ، ولم تتجاوزه إلى العرض . وفي الرواية يوجد الراوي دائما وراء شخصياته ، فيما عدا السيرة الذاتية التي يستخدم فيها ضمير المتكلم : أنا . أما في المسرح ، فيتوارى الكاتب دائما وراء شخصياته التي تقول دائما « أنا » ، ولا يظهر أبدا ، اللهم إلا من خلال ما يرد على لسانها من أقوال ، وما تعرضه من أفكار . ويعني هذا أنه ينقل اليها سلطة الحديث ، ويفوض لها أمر ذلك . ويقتصر وجود الكاتب في النص المسرحي على ذلك النص الذي وصفه البعض بأنه ثانوي بالنسبة للنص الرئيسي الذي تنطق به الشخصيات ، ونقصد به الإرشادات المسرحية الموجهة في المقام الأول إلى المخرج . وجدير بالذكر أن الشخصية المسرحية تتحمل دائما مسئولية أقوالها ، ما دامت تقول « أنا » . وهناك

(٤) انظر كتاب M. Zeraffa عن الشخصية والشخصية الروائية peraonne et personnage, Paris, Editions Klincksieck 1969

(٥) انظر A. Ubersfeld, Lire le theâtre, Paris, editions sociales, 1978

فرق جوهري آخر بين الشخصيتين : في الرواية ، يجد الكاتب متسعا من الزمان والمكان يمكنه من رسم الشخصية ، وتحليلها من كافة الزوايا ، والرجوع إلى ماضيها كلما شاء ، وتحليل مشاعرها بدقة متناهية ، إذا أراد ، الخ . . . ومعنى هذا أنه يتمتع بحرية مطلقة . لكن الكاتب المسرحي محدود بزمان معين ومكان معين : زمان العرض المفترض ومكانه ، وزمان الحدث ومكانه . وأيا كان موضوع المسرحية ، يضطر الكاتب إلى التركيز على أهم العناصر ، عند المعالجة . ومن ثم ، يوظف الشخصية مسرحيا ، أي يركز على عناصرها التي تخدم الحدث فقط . على سبيل المثال ، في مأساة راسين « فيدرا » ، يصور لنا الكاتب أساسا مأساة المرأة العاشقة التي يدفعها الهوى إلى الهلاك . لذلك ، تتوارى فيدرا الأم ، وفيدرا الزوجة ، وفيدرا الملكة ، وتحتل فيدرا المُحِبّة مكان الصدارة في المأساة . واذا كانت جوانب الشخصية هذه قد بقيت في الظلام ، فذلك لأنها لا تخدم الحدث الذي جعله الكاتب محورا للمسرحية .



وجرت العادة عند النقاد على تقسيم الشخصيات المسرحية وتصنيفها ، استنادا إلى بعض المعايير المتعارف عليها . ومن الناحية الدرامية ، تقسم الشخصيات الى :

١ ـ شخصية رئيسية Protagoniste ، ويصفها د . إبراهيم حمادة قائلا إنها « الممثل الأول الذي كان يلعب الدور القيادي في الدراما الإغريقية ، ثم يلعب أدوارا أخرى في نفس المسرحية . أما الآن ، فهو الشخصية التي تلعب الدور الأساسي في المسرحية كنص مكتوب »(٦) .

٢ ـ شخصية ثانوية ، وتأتي في المرتبة الثانية ، وتتفاوت أهميتها من مسرحية إلى أخرى . في المسرح الكلاسيكي الفرنسي ، لا يلعب الخدم ـ وهم شخصيات ثانوية ـ دورا هاما ، عامة ، سواء في المأساة أو في الملهاة . فهم يستمعون إلى ما يقوله السادة ، ولا يعلقون عليه ، ويكتفون بتلقي الأوامر ، والإعلان عن دخول الشخصيات وخروجها . لكن ، توجد في هذا المسرح أيضا ، شخصيات مثل أونون Oenone وتعادل أهمية دور البطلة فيدرا . فأنون هي التي تحرك فيدرا وكأنها دمية ، وهي التي تدفعها إلى البوح بسر حبها لابن زوجها ، وإلى الكيد له وإلقائه إلى الهلاك ، الخ . . . كذلك ، يتجاوز الخدم عند موليير دورهم المحدود ، ويرقى سجاناريل في « دون جوان » إلى مستوى البطل ، ويقف على قدم المساواة مع سيده النبيل .

٣ ـ الشخصية التي نسميها اليوم كومبارس أو شخصية عرضية . مثال ذلك ، مبعوث الأمير في مسرحية موليير « طرطوف » . فهو لا يظهر إلا في المشهد الأخير من المسرحية ، عندما يأتي ليعلن لأورجون وأسرته أن الأمير قد عفا عنه ، وأنه جاء ليلقي القبض على طرطوف المنافق المحتال . وتظل الشخصية المسرحية قريبة جدا من الشخصية الروائية ، طالما بقيت في النص ، ولم تتجاوزه إلى العرض . وفي الرواية ، يوجد الراوي دائما وراء شخصياته ، فيما عدا السيرة الذاتية التي يتكلم فيها بضمير « الأنا » .

٤ ـ الشخصية الصامتة . ويدل اسمها ذاته على أنها لا تقول شيئا ، وإنما تعد جزءا من الديكور(٧) .

(٦) معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، صفحة ١٨٦

(٧) هناك تقسيم آخر يقترحه د إبراهيم حمادة فهو يرى أن الشخصيات نوعان « شخصيات منبسطة وأخرى كروية الشخصية الأولى لها وجه واحد ، كشخصية الحلاق والثرثار ، أو الفتاة الساذجة وسلوك مثل تلك الشخصية يمكن التنبؤ به إلى حد بعيد أما الشخصية الثانية فهي على عكس ذلك : إنها متعددة المظاهر ، وترى كما لو أنها كروية ، وفي تلك الحالة ، فسلوكها غير متوقع . (المرجع السابق ، صفحة ١٨٥)

ويمكن ترتيب الشخصيات الدرامية وفقا لمعيار اصطلاحي قديم : الحضور والغياب . فلقد جرى العرف المسرحي على اعتبار الشخصية التي تظهر كثيرا على المسرح أهم من مثيلاتها التي تظهر أقل منها . ويمكن قياس هذه الأهمية بإحصاء عدد المشاهد التي تظهر فيها بالنسبة لمجمل مشاهد المسرحية ، أو كمية أقوالها ، أو عدد السطور التي تشغلها هذه الأقوال . لكن . . . توجد حالات استثنائية تتعارض مع هذا المعيار ، لعل أهمها مسرحية موليير « طرطوف » . ففي هذه المسرحية ، لا تظهر الشخصية الرئيسية ، أي طرطوف ، إلا في الفصل الثالث . وظهورها متأخرة يتعارض مع التقاليد المسرحية التي كانت سائدة آنذاك . لكن الحديث في الفصلين الأول والثاني كان محوره دائما طرطوف . وبالتالي ، أفاد موليير من الأثر المسرحي الأكيد الذي يحدثه دخول طرطوف متأخرا . فالمتفرج يشتاق إلى رؤية هذه الشخصية التي طال الحديث عنها ، من وجهتي نظر مختلفتين تماما . وإذا اتجهنا الى المسرح المعاصر ، وجدنا مثالا صارخا لغياب الشخصية المحورية ، وذلك في مسرحية بيكيت « في انتظار جودو » . فجودو لا يظهر على خشبة المسرح ، في حين يعتبر الدافع الأساسي لوجود المسرحية . والمسرحية مادتها الانتظار الذي لن ينتهي الا بمجيء جودو . وطالما لم يأت ، يمكن أن تعود المسرحية إلى نقطة البداية ، وأن يتكرر الانتظار إلى مالا نهاية . معيار آخر : ظهور الشخصية بمفردها أو ضمن مجموعة ، أو مع نفس الشخصية دائما ، وارتباط الشخصية بالمكان ، الخ . . . . ومما لا شك فيه أن أهمية الشخصية من الناحية الدرامية تتوقف أولا وأخيرا على وظيفتها ، وهي أهم المعايير بلا جدال .

وأيا كان المعيار ، تعرف الشخصية دائما باختلافها . وهنا يكمن لب القضية . إن ما يميز « أ » عن « ب » هو مجموعة من أوجه الشبه والاختلاف التي يتحدد موقعها بالنسبة لعدد من المحاور السيمانطيقية المميزة التي تتسم بالتكرار . ويستند الناقد فيليب هامون Ph. Hamon إلى عدد من الثوابت الاختلافية في تعريفه للبطل . فهو يعطيه ١ ـ صفات مختلفة ـ « تستخدم الشخصية كدعامة لعدد من الصفات التي لا تتسم بها الشخصيات الأخرى أو تتسم بها ، لكن بقدر أقل »(٨) ، ٢ ـ وتوزيع مختلف ، ٣ ـ واستقلال مختلف ـ في حين تظهر بعض الشخصيات دائما بصحبة شخصية أخرى أو عدة شخصيات ، يظهر البطل وحده ، أو مع شخصية أخرى ، ٤ ـ ووظيفة مختلفة عن وظيفة سائر الشخصيات ، وتتحدد بمادة معينة .

ونشير أيضا إلى طريقة يمكن من خلالها تصنيف شخصيات المسرحية عامة ، قبل التعمق في دراستها . فإذا نظرنا إلى قائمة الشخصيات التي تسبق النص ذاته ، وجدنا أنها تتضمن بعض السمات المشتركة أو المختلفة . وتختلف هذه السمات وهذه القوائم باختلاف المسرحيات ، بطبيعة الحال . لكن ، يمكن من خلالها تجميع الشخصيات حول بعض المحاور التي تكاد تكون ثابتة : النوع ، السن ، المهنة ، الوضع الاجتماعي الخ . . . على سبيل المثال ، إذا نظرنا إلى قائمة شخصيات « زواج فيجارو » ، وجدنا أنها تتضمن أساسا : رجالا ونساء ، وسادة ، وخدما . ويتضح بالفعل ، عند قراءة النص ، أن الصراع يدور بين هذه المجموعات المتعارضة ، وأن قائمة الأسماء أعلنت عنه منذ البداية .



(٨) Ph. Hamon, Pour un statut semiologique du personnage, in Litteratnre, no 6, mai 1972, p.90

خضعت الشخصية المسرحية لتطورات عدة خلال تاريخها . ولن نسترجع هذا التاريخ بطبيعة الحال ، لكن ، لا بد من التوقف عند بعض المراحل الرئيسية التي تعد علامات على طريق تطور هذه الشخصية . وهذا « الفلاش باك » أمر لا بد منه لفهم النقد الحديث وتناوله لهذا العنصر المسرحي الهام .

أصبح للشخصية المسرحية ، منذ عام ١٧٦٠ ، مجموعة من السمات الخاصة التي تحدد ، منذ البداية ، انتماءها إلى واقع اجتماعي وتاريخي معين ، كما تحدد مكانها كفرد في المجتمع . وأصبح من الممكن تحديد حالتها الاجتماعية ، وماضيها ، ومهنتها ، وسيرتها الذاتية ، وشكلها ، وزيها ، الخ . . . . وعندما عرّف ديدروه Diderot « الدراما الجادة » بأنها دراما لها علاقة بالحياة اليومية التي يحياها كل منا ، اقترح تصوير بعض الوجوه المعاصرة التي تواجه نفس المشاكل التي يواجهها المتفرجون . وأصبح المسرح بالتالي مرآة يرى فيها المتفرج شبيهه ويتعرف عليه : « لم تعد المحاكاة وسيلة للتحرير ، أو النظر إلى العالم بعين نافذة ، بل وسيلة لإثارة اهتمام المتفرج ، والتقرب إليه ، وتدعيم رأيه في أيديولوجيا مجموعته الاجتماعية وأخلاقياتها . ويتمثل مفتاح هذا الاهتمام في حمل المتفرج على تطبيق ما يراه على خشبة المسرح على نفسه مباشرة »(٩) . والإيهام المسرحي هو السبيل إلى الوصول الى هذه الحقيقة . ومن هنا ، جاءت نظرية الحائط الرابع التي وضعها أنطوان Antoine . وعندما دخل المسرح عهده البورجوازي ، أصبح ميالا إلى إخفاء طبيعته المسرحية ، وأصبحت الشخصية فيه رمزا للبراءة والشرعية ، وأصبح المجتمع يمارس سلطته من خلالها ، ويقرر الصحيح وغير الصحيح وكان الجمهور البورجوازي يطلب ، من جانبه ، شخصيات تقدم صورة مثالية له ، كما يرى نفسه في عالم يسوده النظام . وهكذا تولت الشخصية المسرحية في القرن الثامن عشر ، عملية الدفاع عن نمط الحياة البورجوازي والأخلاقيات البورجوازية .

وفي القرن التاسع عشر ، لم تعد الشخصية مجرد انعكاس لأغلب المتفرجين ، وناطق باسمهم ، بل دخلت ضمن مجموعة من الشخصيات النمطية التي يفرزها المجتمع ، ويطلب تصويرها ، ويغيرها من جيل الى جيل . فمع عودة الملكية إلى فرنسا ، بدأت تتحدد ملامح الشخصية البورجوازية التي رسمتها الدراما الجادة في القرن الثامن عشر ـ وأصبح من المستحيل تخيل شخصية تفتقر إلى وجه ، وسيرة ذاتية ، ووضع اجتماعي ، ويشن وسمات محددة ، وتنتمي إلى قطاع اجتماعي معين تشير إليه مهنتها وثروتها . وهكذا انتمت الشخصية المسرحية إلى حياة الجماعة اليومية . ووجدت على خشبة المسرح الفرنسي ، بين ١٨٣٠ و ١٨٧٠ ، كل الحرف ، وكل الحالات الاجتماعية ، وكل الأوضاع البورجوازية ، الخ . . . . واتخذت الشخصية اسما يدل على وظيفتها ، وانتمائها الاجتماعي والجغرافي . وأشارت قائمة الشخصيات أو أشار النص إلى سنها . وأصبح لها لغة ، وزيّ ، وأكسسوار خاص بها . وكثرت المعلومات عن الزمان والمكان الذي تظهر فيه ، وتحدد هذا الظهور بالسنة ، بل باليوم . « غادة الكاميليا » مثلا تبدأ في صباح العاشرة في يوم من أيام عام ١٨٤٨ والأنشطة اليومية التي تمارسها الشخصية جعلتها قريبة من الجمهور . باختصار ، استخدمت كافة الوسائل للتعبير عن انتماء الشخصية البورجوازية إلى الواقع ، ووصفت الشخصية بأنها صورة فرد نمطي .

(٩) R. Abirached, la crise da personnage dans le théâtre moderne, Paris, gresset, 1978, P. 107.

ومع زولا ، ازدادت الشخصية اقترابا من الواقع . فلقد رأى أن على المسرح الحديث أن يبني شخصيات حية ، مع اعترافه بثقل الحتمية التي تحكم مصير الإنسان . وقال إنه يجب أن ننظر إلى الكتابة الدرامية في علاقتها بالطابع المادي لخشبة المسرح . فالديكور يلعب في العرض دور الوصف في الرواية . ومن ثم يصبح تعاون المخرج مع الكاتب أمرا لا بد منه . وأدخل أنطوان إلى المسرح البورجوازي إصلاحا حاسما ، عندما جعل منه جزءا من العالم المعاصر . وفي نفس اللحظة ، كان ستانسلافسكي يقوم بتجربة مماثلة في موسكو . وطرح كل منهما بطريقته الخاصة بعض الأسئلة الخاصة بالشخصية ، وأوجد علاقة وثيقة بينها وبين المكان الذي تسكنه ، كما يحدث في الواقع . والنتيجة : يجب إخفاء الطابع المسرحي للمكان ، ما أمكن ذلك . وسعى الكاتبان إلى تقديم أكبر قدر ممكن من الواقع على المسرح . وتحول أداء الممثلين نتيجة للإصلاح الذي أدخله انطوان . فلقد دعا الممثل إلى أن يكون الشخصية ، وأن يمتلك حياتها بارتدائه زيّها . وما دام للشخصية وجه محدد ، يتحتم على الممثل أن يعطيها جسده ويمتلك حركاتها . أما تفاصيل الأداء ، فتؤخذ عن ملاحظة الواقع مباشرة . وعلى الممثل أن ينسى جمهور الصالة ، ويتصرف وكأنه في مكان مغلق . باختصار ، حاول المسرح الطبيعي أن يقيم توافقا تاما بين الواقع وتصويره .

ورأى الكتّاب الرمزيون في الشخصية كائنا ينتمي الى عالم الحلم ، ويفتقر إلى خواص بعينها . فأعادوا إليها نقاءها كاملا . وأرادوا حمايتها من الممثل ، فطالبوا بعدم اعتلائها خشبة المسرح ، واقتصار دورها على الكلمة . وعمدوا إلى إزالة كل ما يمكن أن يربطها بالعالم المادي والتاريخ . فأصبحت بالتالي روحا تحررت من كل ما يعطيها سمة فردية ويخضعها للحظة الآنية : الطباع ، والحالة الاجتماعية والجسمانية والمهنة ، والانتماء إلى زمان ومكان معين . وما دامت كل آثار الواقع قد أزيلت ، لم يبق منها إلا كائن منسوج من الكلمات ، يخوض بعض التجارب الإنسانية . على سبيل المثال ، تدور أحداث « بيلياس وميليزانـد » Pelleas et Melisande في إطار طبيعي يصاحب الشخصيات ويعد انعكاسا لها ، إلا أنه غير محدد في المكان . وزمان الأحداث غير معروف أيضا . والقصة ذاتها بسيطة كالحواديت . ويحيط جو من الصمت بالشخصيات التي تتكلم لغة تجريدية موحدة . ويوجد حولها أقل قدر ممكن من الأكسسوار ، والأشياء المحسوسة ، أو أي شيء يشير إلى الواقع اليومي .

وطرأ أول تغيير جذري على الشخصية عندما كتب الفريد جاري A. Jarry مسرحيته « أوبو ـ ملكا » ، التي عالج فيها الشخصية على أنها قناع مستقل قائم بذاته ، وجردها من كافة السمات الفردية ، وأجبرها على اتخاذ شكل شخصية أخرى ، وجسمها ، وصوتها . وكان السبيل الوحيد إلى ذلك استخدام الممثل كدمية يفرض عليها سلوك مسرحي يتفق مع الصورة التي يراد تقديمها . لذا ، كان لا بد من إلباسها قناعا يتمثل في زي خاص ، وصوت خاص ، وإتيانها حركات تفهم عالميا . وهذا الزي لا يشير إلى زمان أو مكان بعينه ، والديكور التجريدي لا يحاكي الطبيعة ويقل عنها فلقد رأى جاري أن الشخصية يجب أن تكون « تجريدا يسير على قدمين » وعندما حذف الجهاز المسرحي الذي يحيط بها عادة ، جعل المعطيات المكونة لها تقتصر على ما هو جوهري فقط . وشخصيات جاري التي تخلصت من كافة أنواع الأكسسوار النفسي ، والتاريخي ، والاجتماعي ، تنشأ عن تعرية الدوافع ، والمشاعر ،

والغـرائز ، التي يعيـد الكاتب تكـوينها وفقـا لأسلوب جديد ومنطق جديد أيضا . ولا نعرف من أين أتت هذه الشخصيـات ، واسمهـا غـير مؤكـد ، حتى إذا كـان تـاريخيا ، فهـو خـال من المعنى . ويعني كـل هـذا أن الكاتب أفرغ الشخصية من كافة عناصرها الشخصية . كما أنه لا يشير إلى مشاعرها أو حالتها النفسية أو يتناولها بالتحليل . فأوبو يخلق قصته بنفسه ، ويجر وراءه دمى تشبهه لاماضي لهـا ولا مستقبل ، وتحـررت تمامـا من الزمان والمكان ، وقطعت كل صلة لها بالواقع ، ولكي يؤكد جاري استقلال أوبو التام عن الواقع ، جعل له أدوات خاصة به : خُطاف النقود ، والمكنسة ، وآلة نزع المخ ، الخ . . وإذا أراد الحديث مع ضميره ، حمله معه في حقيبته !!! وهكذا وجه جاري إلى الشخصيـة أول ضربة حقيقية ، بعد أن ظلت ثـابتة عـلى مدى قـرون عدة . وأفعال شخصيـات جاري تنبـع من الحاجـات الأولية للإنسان ، ويبلغ الكاتب بهذه الحاجات أقصى حـد من الفظاظـة : الجوع ، والـرغبـة ، والخـوف ، والنوم ، وغريزة البقاء ، الخ . . . . وإذ يعرض أوبو غرائزه ، نعجز عن مقارنته بنظير له في الحياة اليومية أو الحكم عليه من خلال قواعد الأخلاق . وهكذا نرى أن المحاكاة ، من وجهة نظر جـاري ، تقيم العلاقـة بين المسرح والعالم على أساس من التهكم .

ووجهت ضربة ثانية إلى الشخصية عندمـا قدم أ . آرتو A. Artaud نظريته عن المسرح في كتابه « المسرح وقرينه »(١٠) ، ويتضح من عنوان الكتاب أن آرتو يعتمد عـلى فكرة الشيء والشيء الآخـر الذي يجمـع بينهـما القرين ، ويزيل الفرق بين الأصل والصورة المأخـوذة عنه . والقرين في المسرح ، كما يراه ، هو قوى الحياة ، والقـوى التي تتكـون منهـا الأسـاطـير . وهـو أيضـا الطاعون ، حيث تبدو الحياة آفة ، وقوى المادة الخفية ، والقسوة ، مبدأ أي فعل وقانونه . ومثـل هذه النـظرة أعادت العلاقة بين المسرح والعالم ، وكـانت التقاليـد المسرحية قد استبعدتها منذ أرسطو . باختصار ، إذا كان المسرح قرين الحياة ، فإن الحياة قرين المسرح .

وتحتل القسوة مكانا مـركزيـا إلى جانب القـرين في نظرية آرتو ، لكنها لا تعني بأي حال من الأحوال إراقة الدماء . والجديد الذي أتى به آرتو هو الاهتمام بجانب التمثيل ، وجسم الإنسان وقدرته عـلى التعبير ، قبـل اهتمام جروتوفسكي بكل هذا فيما بعد . فهو يطلب أن تؤتي الحركة المسرحية بحيث تدعو الجسم كله إلى اتخاذ أوضاع تتفق مع الحالة التي أملتهـا . ومسرح القسـوة لا يرى أي أهمية لإجـراء الحوار بـين الشخصيات عن المشـاعـر والأهـواء ، والشهـوات والـدوافـع النفسية البحتة . فلا بد أن تستبدل الكلمة بالحركة . والمبدع الـوحيد الـذي يعترف بـه آرتو هـو المخرج . وفهمت الحركة المسرحية ، فيما مضى ، على أنها تأكيد أو تعليق على الكلمات التي تعبر عن المشاعـر والأفكار . لكن الحركة في مسرح آرتو توجد لذاتها . ويرجع آرتـو كل شيء بـطريقـة أو بـأخـرى ، إلى جسم الانسـان ، وأعضائه ، وأطرافه ، وحركاته ، وإذا أسلم هذا الجسم للخيال أو عالم الحلم ، أصبح مادة قـابلة للتشكيل ، وكافة التحـولات ، مادة متحـررة من الزمـان والمكان وتعتمل فيها الغرائز الأساسية التي تتصارع في العالم ، وهذا ما أدى بآرتو إلى استخـدام الدمى ، والأقنعـة ، والمـانيكـان ، الـذين يجسـدون ، من حيث الحجم ، واللون ، وطـريقـة السـير ، مـالا نـراه عن الانسـان والعـالم : الميلاد ، والقسـوة ، والـرعب ، والمـوت ، الخ . . . أي كل القوى الخفية . وأوصى آرتو في كتاباته

(١٠) Le theâtre et son double, Parise, Gllimard, 1964.

النظرية باستخدام المانيكان بطريقة منتظمة . وقال في أول بيان له عن مسرح القسوة إنه يريد استخدام مانيكانات يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار ، وتمثل ذقن الملك لير في العاصفة . والشيء الذي ينفرد به آرتو حقا هو التجاوز إلى المانيكان على مستوى آخر لتصوير أقران الشخصيات الحقيقية . ولجأ إلى هذا الأسلوب ، بما أمكن من وضوح ، عندما أخرج « صوناتة الأشباح » فهو ينبهنا إلى أن الشخصيات يمكن أن تستبدل « بقرناء لها لا يتحركون - في شكل نماذج مانيكانات - ، ويمكن أن يحتلوا مكانها فجأة » ويكتشف إلى جانب كل شخصية قرينا يرتدي ملابسها ، ويختفي كل القرناء - الممثلين بثبات مقلق ، وبطء ، وهم يعرجون ، في حين تنتفض الشخصيات وكأنها أفاقت من سبات عميق[11] . والممثل عنصر أساسي من عناصر الحدث ، ومحرك العرض . وعليه أن يعرف كيف يتحكم في حركته ، وأنفاسه ، وصوته . ويجب أن يعامل على أنه علامة « سليمة محايدة » ، وأن يصبح مادة لكتابة مسرحية تحرم عليه أية مبادرة . هذا ولم يفكر آرتو قط في استبعاد الممثل من المسرح ، لكنه أراد استخدامه كأداة فحسب ، شريطة إعداده لمثل هذا الاستخدام . ونلاحظ أن آرتو جعل الممثل يحل محل الشخصية . لكنه لم ير فيه آلة تسلم إلى المخرج ، بل طلب منه أن يكون واعيا ، وأن يتعلم كيف يسيطر على تفجر الأهواء في جسده ، وألا ينساق للصدفة والارتجال . ويرى آرتو أن أداء الممثل يقع عند نقطة التقاء العواطف وعضلات الجسم ، أي الأنفاس التي تغذي الحياة . وتحدث آرتو أيضا عن المس transe ، وقال إن على الممثل أن يولده ، بدون أن يغوص فيه ، والمس ، بالمفهوم الديني الذي يتخذه عند بعض الشعوب البدائية ، متفق كل الاتفاق مع أهداف مسرح القسوة . فهو حال ينغمس فيها الإنسان ، نتيجة لأداء بعض الطقوس ، حتى يبدو أن قوة عليا قد تملكته بإيجاز ، نقول إن الشخصية المسرحية كما رآها آرتو ممثل لا يلعب دورا ، وإنما يمثل حياته ، ويتحدث بلغة الجسد : الصرخة ، الحركة ، تعبير الوجه ، الخ . .

هكذا مهد كل من جاري وآرتو لتحول الشخصية المسرحية التقليدية إلى شيء آخر ، أو اتخاذها وجها مختلفا ، على الأقل . وعندما أعيد النظر في القيم والمفاهيم الموروثة ، أعيد النظر في مفهوم الشخصية عامة ، روائية كانت أم مسرحية ، كما أسلفنا . ونشير في هذا الصدد ، إلى أهمية كتاب ناتالي ساروت N.Sar-raute « عصر الشك » . الذي أكدت فيه انتقال الشخصية من عصر اليقين إلى عصر الشك . كانت الشخصية « تحاط بالعناية الفائقة . لم يكن ينقصها شيء . لكنها فقدت كل شيء تدريجيا ، أسلافها ، وبيتها المبني بعناية ، الذي يزخر من أعماقه إلى أعلاه بأشياء شتى من كل نوع ، حتى البسيط منها ، فقدت أملاكها وألقابها ، وأزياءها ، وجسمها ، ووجهها ، وذلك الشيء الثمين : طابعها الخاص ، وفقدت حتى اسمها[12] . . . . » ، وتستطرد الكاتبة قائلة : « واليوم ، تغمرنا الأعمال الأدبية بسيل متدفق من الأعمال التي يقال إنها روايات ، ونرى فيها كائنات بلا ملامح محددة ، لا تُرى ولا تُفهم ، و « أنا » مجهولة هي كل شيء ولا شيء ، وكثيرا ما تكون مجرد انعكاس للكاتب نفسه . واغتصبت هذه « الأنا » مكان البطل الرئيسي ، واحتلت مكان الصدارة . وحرمت

(١١) المرجع السابق ، صفحة ١٧٣ - ١٧٤

(١٢) L'ère du soupçon, Paris, Gallimard, 1956, Page 71 - 72

الشخصيات المحيطة بها من الحياة الخاصة ، وأصبحت مجرد رؤى ، وأحلام ، وكوابيس ، وأوهام ، وانعكاسات ، وأشكال من هذه « الأنا » القديرة ، أو توابع لها[١٣] » ، وهكذا دخلنا عصر الشك في الشخصية ، كما تقول ساروت . حدث كل هذا للشخصية الروائية ، وسرعان ما انتقل إلى الشخصية المسرحية ، فيما سمي بمسرح العبث أو اللامعقول .

ومع كتاب مسرح العبث ، عادت الشخصية إلى « درجة الصفر » ، إذا جاز القول . فقدت أول ما فقدت اسمها الذي اقتصر أحيانا على الحرف الأول منه . تدعى إحدى شخصيات مسرحية آداموف Ada-mov « المحاكاة التهكمية » « N» ويشير الكاتب أحيانا إلى الشخصية بوظيفتها : الموظف ، المفتش ، الأستاذ ، الخ . . . ، أو سنها : العجوز ، أو نوعها : الرجل ، المرأة ، أو وضعها الأسري : الابن ، الأم ، الأب الخ . . . فقدت أيضا وضعها الاجتماعي : نحن لا نعرف شيئا عن فلاديمير واستراجون ، بطلا « في انتظار جودو » ، ربما كانا من الصعاليك أو المهرجين ، ولا نعرف شيئا عن ماضيهما وحاضرهما أو سنهما ، أو حالتهما الاجتماعية عامة . وكل ما نعرفه عنهما نعرفه من إشارة عابرة وردت في النص إلى اشتغالهما في وقت ما في إحدى المقاطعات الفرنسية . وإذا أعطى الكاتب للشخصية اسما ، جاء هذا الاسم عاديا وخاليا من أية دلالات إضافية : جاك ، جان ، بيير ، الخ . . . ويعني كل هذا أن كل ما يرد في النص عن الشخصية يجعل منها نمطا جامدا خاليا من أي سمات خاصة ، ولا مرجع Refe-rent له في الواقع فلقد حول كتّاب العبث الشخصية إلى هيكل اجتماعي وأخلاقي ، ونفسي ، وحرموها من الماضي والمستقبل ، وعزلوها عن الجماعة التي تنتمي إليها ، وقطعوا كل صلة بينها وبين الآخرين . وأصبحت سماتها إن وجدت ، تهكمية ساخرة . ونتيجة لذلك ، أصبحت شخصيات مسرح العبث قابلة للتبادل فيما بينها ، وأصبح أداؤها آليا ، وصارت كلماتها تكرارا عابثا ، أي أنها تحولت إلى دمى . وقد يحدث في المسرحية شيء ما ، لكنه يحدث في خلالها ، لا بواسطتها أبدا . أصبحت الشخصية عاجزة عن التحكم في لغتها ، وخاصة في اللحظة التي تتجه فيها إلى التحلل ، ويجعل فيها الكاتب من اللغة دليلا لهذا التحلل . أصبحت تفتقر إلى وضوح الفكر ، والارادة ، والوعي بالذات . وأصبح وجهها وجسمها عنصرين لا يصوران شخصا بعينه ، بل شخصا مجهولا أو أكثر . وفي بعض الأحيان ، ظهرت بجسد مشوه مبتور ـ مثلما في مسرحية أداموف « المناورة الكبرى والصغرى » ـ أو خاضع للتحول : نرى مثلا كيف يتحول البشر إلى خراتيت في مسرحية أ . يونسكو I.onesco التي تحمل ذات الاسم . ومهما اختلفت شخصيات مسرح العبث ، تجمع بينها سمة مشتركة : عدم وجود أية علاقة بينها وبين الانسان العادي الذي يفعل شيئا ما ، ويفكر ، ويحس ، الخ . . . وانقطاع الصلة بين هذه الشخصيات والمسرح البورجوازي ، لأن الكاتب ، عندما يرسمها يعتمد مباشرة على الرؤى ، والأحلام ، والأفكار المتسلطة ، الخ . . . ويستمد أشكاله المسرحية من عالم اللاوعي ، في نفس الوقت الذي يواصل فيه مسيرته الجدلية ضد النماذج القائمة . ومن هنا ، جاء التهكم ، والميل الى رسم صورة كاركاتيرية للشخصية المسرحية .

وما هي الصورة التي اتخذتها الشخصية في المسرح المعاصر ـ في فرنسا على الأقل ـ ، بما أن مسرح العبث

(١٣) المرجع السابق ، صفحة ٧٢

أصبح اليوم مسرحا كلاسيكيا ، أي تقليديا ؟ يذكر ج . ب . سارازاك Sarrazac، في هذا الصدد ، الإمكانيات المتاحة اليوم أمام الكاتب المسرحي : « نعرف جيدا اثنتين من الإمكانيات المختلفة المتاحة للكاتب المسرحي في علاقته بشخصياته : اما أن يتراجع أمامها كلية ، وفقا لقانون المسرح الدرامي ، آملا أن تتحول هذه الكائنات - وهي من ورق - إلى كائنات حية مستقلة من لحم ودم ، اما أن يتحدث من خلالها ، ويعرض نفسه للنظر إليه على أنه محرك لبعض الدمى ، لا أكثر . . . وقد يوجد سبيل ثالث خاص بالكاتب المرحي الرابسودي : سبيل الشخصية . . . التي يصاحبها المؤلف طوال رحلتها المسرحية ، ويتابع تقلباتها خطوة خطوة ، ويرتبط بها ارتباطا وثيقا كما يرتبط دكتور فرانكشتاين بمخلوقه(١٤) . والشخصية - المخلوق Creature تخرج من العدم في بداية المسرحية ، وتعود إليه في نهايتها . ووجودها ذاته يتسم بالتناقض . فهي لا تحيا إلا طوال فترة العرض ، وترتبط بخالقها . والمخلوق « جوهر الشخصية الوحشي » كما يقول سارازاك . وقد نميل إلى تشبيهها بالحيوانية العقيمة نظرا لموقعها في مكان وسط بين الانسان والحيوان . لكن ، ترقد في أعماق أجساد هذه المخلوقات المشكوك في آدميتها ، نقاط التقاء رمزية ، تتمثل في الوعد بتحرير بشرية قد يظن أنها مقصورة على أصغر أبعادها ، لولا فيض جسدها . وقبل أن يعيد الكاتب مخلوقه إلى العدم ، يبلغ به أقصى حد للحيوانية ، أي اللاإنسانية . لكن هذا الكائن الحيواني هو الذي يربط الشخصية بالأسطورة ، ويمكن المخلوق من التعبير عن نفسه تعبيرا تاما . لقد سبق أن قال ج . كوكتو Cocteau عن جان جينيه J . Genet إنه « جعل الحيوانات تتكلم » ، وكان يقصد أنه يجري الكلام على لسان من لا يتكلمون . ونظرا لمرونة جسده الفائقة ، يعتبر المخلوق مكانا لتحول كامن ، تحول « أبيض » لم ترسم حدوده بدقة . وهو لا يتكلم ، بتلك اللغة الحيوانية التي تحرر الكلمات المحرمة تماما ، إلا لكي يقول لنا إنه إنسان لزم الصمت أو لم يسمع صوته قط . ويسوق سارازاك(١٥) مثال شخصيتين في مسرحية هـ . أخترنبوش H.Achterm-busch « ايللا » ، شخصيتان من المعذبين في الأرض ، أقرب إلى الحيوان منهما إلى الانسان ، مستبعدتان من عالم البشر : ايللا وابنها جوزيف ، اللذان يعيشان في عشة دجاج ، خلف الأسلاك . ويجري الكاتب الحدث على لسان الممثلين للمستوى الأدنى من البشرية - ويظل تحولهما ضمنيا ! - ، بل يجربه بلسان أحدهما فقط ، لأن الأم تظل قابعة أمام التلفزيون أو تدور حول نفسها في القفص . أما الابن جوزيف ، فابتلع كلمات أمه الصامتة ، وكل ما تقوله عن نفسها كامرأة مقهورة ، أقرب إلى مستوى الحيوان - تتنكر الأم في دور الدجاجة - الأم عندما ترتدي باروكة من ريش الدجاج - ، ويعيد ويزيد فيها طوال المسرحية . والشخصية - المخلوق شخصية فقدت وجهها ، بالمعنيين الحقيقي والرمزي لهذه الكلمة . فبدلا من أن ترقى إلى مستوى الفرد ، تفقد شخصيتها إلى أقصى حد ، ومن ثم ، تنتقل من « النمط » إلى « اللانمط » ، بل إلى الاختلاف المطلق . لكن ، « إذا كانت الشخصية الحديثة تبدأ في منطقة من الظل ، لا يزال الجسد فيها غير محدد المعالم ، . . . . نرى أنه يلقى بها ، في نفس الوقت تقريبا ، إلى أفق منير ، نفسرها فيه بأنها كيان رمزي(١٦) » ، ويرى

(١٤) L' avenir du drameSuisse, Editions de l'Aire, 1981, Page 78

(١٥) انظر المرجع السابق ، صفحة ٨٢-٨٣

(١٦) المرجع السابق ، صفحة ٨٤

سارازاك في شخصيات كل من بيكيت Beckett و ـ ج جينيه أفضل مثال للشخصية المنقسمة إلى جسد من ناحية ، وعلاقات رمزية من ناحية أخرى ، وترسم حركة متأرجحة تنشأ عنها جدلية جديدة للشخصية ـ الوجه ، والشخصية ـ المخلوق. على سبيل المثال ، لا ينفصل الموت عند بيكيت عن وجود الشخصيات . فهو يعمل معوله في البشرية الحية ، ويهدم شخصية الفرد ، ويجزئها ويبعثرها . في « نهاية اللعبة » ، يعيش ناج ونيل في صناديق القمامة ، في حين ينتقل كلوف وهو يعرج ، ويظل هام أسير المقعد المتحرك الذي يجلس عليه . وفي « الأيام السعيدة » ، تغوص ويني إلى نصفها ، ثم إلى عنقها في الأرض ، وفي « كوميديا » ، لا نرى من الشخصيات التي تعيش في جرار إلا رؤوسها . ويبلغ الأسلوب ذروته في « أنا ؟ لا ! » ، حيث لا يرى المتفرج ، في ظلام المسرح ، سوى وجه يحيط به أحمر الشفاه ، وهكذا يؤكد بيكيت ، من خلال بعثرة الجسم وتجزئته ، أن الجسم أصبح صوت النص ، ونتوءا جسمانيا ناطقا وإذا انفصل الصوت عن الجسد ، كرس فقدان الشخصية الوجه لهويتها ، تدريجيا ، وفقدانها نهائيا لأي صلة لها بالماضي ، وبالتالي ، استحالت عليها العودة إلى ذاتها . هذا وتدرك كل شخصية من شخصيات بيكيت أن ذاتها قد ماتت إلى الأبد .

وتميل الدراما المعاصرة عموما إلى توسيع مجال الشخصية ، من خلال جسم الشخصية ـ المخلوق والشخصية ـ الوجه الرمزية ـ أما ما أزيل ، في عملية التنقل المستمر بين المخلوق والوجه ، فهو تلك الحدود المطمئنة الخاصة بالإنسان الفرد ، الذي أصبح من المستحيل اعتباره مركزا للدراما . ولا يمكن أن تصل النزعة الطبيعية إلى هذه الشخصية الجديدة ، فضلا عن أن هذه الأخيرة لا تشجع المتفرج على التوحد معها أو التعرف عليها . ولا تمثل الشخصية ـ الوجه تحللا للشخصية الدرامية الجديدة ، وإنما وصفا جديدا لها ، يجعل منها شيئا ناقصا ونغمة نشاز ، تلجأ إلى المتفرج لكي يعطيها شكلا ، ويعني هذا أن على المتفرج أن « يبنيها » أثناء القراءة أو العرض .



والتغيير الجذري الذي طرأ على الشخصية المسرحية ، نتيجة لتطورها ، أدى إلى تغيير جذري أيضا في منطلقات النقد المسرحي عامة ، والنقد الذي يتناولها خاصة . وسار هذا النقد في طرق عدة ، محاولا اختيار ما يناسب المسرح ، ومادته ، وأشكاله الخاصة . فاتجه تارة إلى النقد السوسيولوجي ، وتارة إلى النقد التحليلي والنفسي ، وتارة إلى النقد السيميولوجي ، بدون أن يغفل بطبيعة الحال النقد الدرامي البحت . وأيا كان الاتجاه الذي سار فيه النقد المسرحي الحديث ، نلمس بوضوح أنه قضى على الشخصية المسرحية ككائن حي ، محدد السمات والملامح ، يتحدث عنه النقاد كما لو كان حقيقيا ، ويتوحد الممثل معه .

فجر النقد الحديث الشخصية ، وحولها إلى عدد من « الوظائف » ، فسلوك الشخصيات في الحديث لا يتوقف على طباعها ، وإنما على عدد من السمات المميزة التي يعطيها الكاتب لها ، ونفسرها نحن ، كما فسرها النقد التقليدي بأنها عناصر سيكولوجية . والواقع أن الكاتب يعطيها هذه السمات أو هذه الملامح لكي تؤدي وظيفتها ، وتشارك في الحدث . ولذلك يرفض النقد الحديث النظر إلى الشخصية على أنها وعي مستقل ويرى فيها مجرد وظيفة Fonction فعل actant أو دور . والشخصية كما يراها ليست كائنا ، أو مادة ، وإنما مكان نصي تؤدي فيه بعض الوظائف ، وينتج معنى تثريه كل قراءة جديدة . الشخصية إذن فعل ودور في آن واحد ، وهي تنتج عنها ، تحت وحدة اسم ما . ذلك أنها ، أولا

وقبل كل شيء ، صاحبة خطاب discours يقال باسمها . ومن ثم ، يمكن أن يجد التحليل النقدي والوظائف المختلفة للشخصية . وأن يبين أنها تتكون من تفاعل كل من هاتين الوظيفتين مع الأخرى ، ومن هذا التفاعل فقط . ودراسة الوظائف لن تستبعد الحديث السيكولوجي ، على عكس ما يقوله أصحاب المدرسة الشكلية ، شريطة أن يتناول هذا الحديث الشخصية في علاقتها الشاملة بالشخصيات الأخرى ، وأن يرى فيها نقطة التقاء القوى الفاعلة .

والفن المسرحي ، دون سائر الفنون ، فن تظهر فيه العلامات بأكبر قدر ممكن من الثراء ، والتنوع ، والكثافة ، لأنه يستخدم أكثر من نظام للمعنى . والعلامات فيه سمعية ، وبصرية ، ولغوية ، الخ . . . والكلمة فيه يستطيع ، بصفة خاصة ، أن تحل محل أغلب علامات الأنظمة الأخرى .

فالكلمة التي ينطق بها الممثل لها معنى لغوي أولا ، لكن نبرة الصوت قد تغير هذا المعنى ، وتعبيرات الوجه أو حركة اليد نستطيع أن تؤكده ، أو تنفيه ، أو تضفي عليه صبغة خاصة . ويتوقف معنى الكلمات أيضا ، وإلى حد كبير ، على التعبير الجسدي للممثل ، ووضعه بالنسبة للشخصيات الأخرى . وهذه بعض أسباب قد تبرر اختيارنا للمنهج السيميولوجي لدراسة الشخصية المسرحية .

ويجب أن يسبق هذه الدراسة وصف يدخل في اشكالية سيميولوجية بحتة . ونقصد بقولنا هذا إنه يجب أن ننظر أولا إلى الشخصية على أنها علامة ، أي أن نختار زاوية نظر تبني هذا الشيء بإدماجه في رسالة تعرف بأنها مجموعة من العلامات اللغوية . فالشخصية المسرحية تبني وفقا لمحور الزمان تحت عيني القارىء أو المتفرج ، تبني على مراحل ، حسب كود (شفرة) معين ، ولا تعود إلى الوراء . ويمكن أن تدرس من خلال ثلاثة اتجاهات أو ثلاثه محاور كبرى ، باعتبارها :

١ ـ عنصرا من العناصر المكونة لجملة ما ، ٢ ـ وعنصرا من العناصر المكونة لمجموعة سيميولوجية معينة ٣ ـ وصاحبة خطاب .

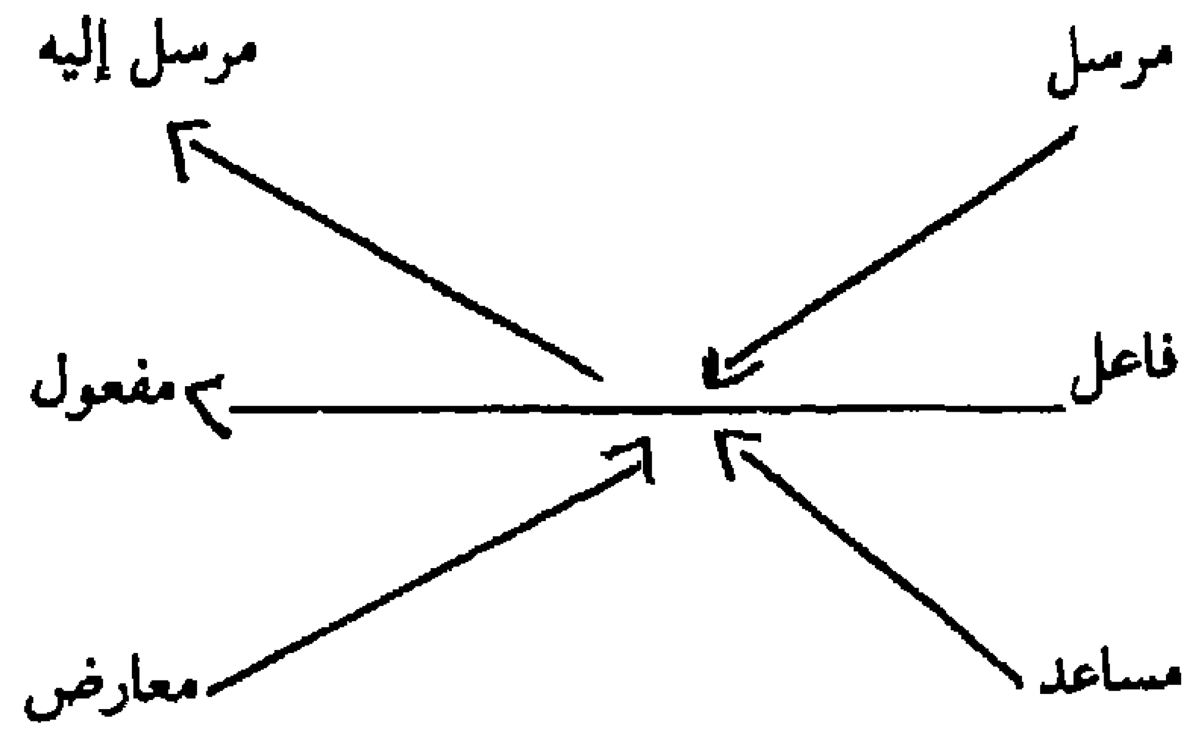
١ ـ نجد في أي مسرحية ، وكذلك في أي رواية ، موقفا رئيسيا أو مبدئيا يمكن أن نلخصه في جملة مكونة من فاعل وفعل ومفعول . ويمكن أن ينتقل بناء هذه الجمله إلى ما يسميه جريماس Greimas « نمط الأفعال » mod-ele actantiel : يقدم لنا هذا النمط طريقة خاصة لتناول بنية الحدث العميقة ، ويعطينا صورة للطابع الدرامي والديناميكي لمسرحية ما . وإذ نرسم هذا النمط ، نرسم صورة بنيوية للقوى الموجودة على خشبة المسرح ، في لحظة ما من الحدث الدرامي . ولكي تكون العلاقة بين هذه القوى مرسومة بوضوح ، علينا بتجاوز مفهوم الشخصية ، واستبداله بمفهوم الفعل actant ، المأخوذ عن التحليل البنيوي للقص . وتحت هذا الاسم ، تندرج لا الشخصيات فحسب ، وإنما أيضا الأشياء المجردة كالموت ، أو المدينة ، أو الهوى ، أو السلطة ، الخ . . . وهكذا يصبح الفعل كل الذين يلعبون دورا أو كل ما يلعب دورا في الحدث المسرحي . ووظيفة الأفعال هي نفس الوظيفة التي تقوم بها الكلمات في الجملة .

مثل هذا النمط يستبعدون دراسة الحدث كحكاية أو قصة فقط ، لأن مثل هذه الدراسة تظل سطحية ولا تمس الا مستوى السرد . ومن البديهي أن الحكاية والحدث شيئان مختلفان ويتكون هذا النمط من ستة أفعال :

ـ الفاعل والمفعول : وتربط بينهما رغبة شعورية أو لا شعورية ، سلبيـة أو إيجابيـة ، لكنها أسـاسية بـالنسبة للإنسان . ويتجه الفاعل إلى المفعول ، ويحاول التأثير عليه .

ـ المرسل والمرسل إليه : وهما مَنْ أو ما يدفع بالفاعل نحو المفعول ، ومن أو ما يهدف إليه الفعل .

ـ المساعد والمعارض : تساعد بعض القوى الفاعل أو تعوق مشروعاته ، والمساعد والمعارض هما ما أو من يساعد أو يعوق فعل الفاعل .



وضع الخانات الست لا يتغير . وقـد تكون بعض الخـانات ـ المسـاعد أو المعـارض مثـلا ـ خـاليـة ، أو متضمنة لعدة شخصيات ـ أو أشياء . وقد يتغير النمط مع تطور الحدث ، فيتحول المساعد إلى معارض أو يتغير المفعول . ففي « دون جوان » موليير تجد النساء في خانة المفعول ، وطلب المتعة في خانة المرسل ، في الفصلين الأول والثاني . لكن ، يطرأ تغيير في الفصلين الثالث والرابع ، ويميل دون جوان ، الفاعل ، إلى التأثير على القيم الدينية والاجتماعية .

والانتقـال من نمط إلى آخر يلقى الضـوء على بنـاء الحدث . وبالتالي ، تتضح المواقف الدراميـة المختلفة الناتجة عن تحوّلات تفاعل القوى التي تجسدها الأفعال ويستطيع الباحث أن يرسم نمط الأفعال ، استنادا إلى مشهد واحد ، أو عـدة مشاهـد ، أو فصل بـأكمله . وتعيين الأفعال يطرح الأسئلة أكثر مما يجيب عنها ، لكنه يعد ميزة لأنه يقدم وجهـة نظر خـاصة عن الحـدث ، ومنهجا ملائما للتطبيق . من حيث المبدأ ، يمكن تجربة كل شخصية كفاعل ، وملاحظة ما يترتب على ذلك من تغييرات في الخانات الأخرى . وهكذا نصل إلى تفسير جديد للحدث . مثلا ، جرت العادة ، في المسرحيات التي يعد الحب فيها عنصرا أساسيا ، على إدراج الفعل النسائي في خانة المفعول والفعل الذكر في خانة المفعول والفعل الذكر في خانة الفاعل ، بينما يمكن قلب هـذا الوضع ، وجعل الفاعل مؤنثا .

ويظهر المعنى الأيديولوجي ، بكافة متناقضاته ، على مستوى الأفعال . فاختيار المرسل والمرسل إليه يوجهان أسئلة للأبنية الاجتمـاعية ، ووراء الـدوافع النفسيـة . وحتى لو كان التحليل القائم على نمط الأفعال في حاجة إلى تحليـل النص تحليلا دقيقـا ، فهـو يـطرح الأسئلة الأساسية الخاصة ببناء الحدث الدرامي .

٢ ـ الشخصية المسرحيـة مجموعـة سيميولـوجية في الفضـاء المسـرحي . وهي تبـدو للقـارىء ـ المتفـرج كمجموعة من العلامات التي يجب أن تصنف ، وفقـا لعدد من الأبواب بدون اعطاء قيمة خاصة لهذه التفصيلة أو تلك : الشكـل المـادي ، والصفـات والعـلامـات السلوكية ، والعلامات النفسية ، وكـل ما نعـرفة عن ماضيها ، وكل ما نعرفة عن علاقاتها السابقة ، والحالية بالشخصيات الأخرى (صداقة ، عداء ، تنـافس) . يتعلق الأمر بعد ذلك بالنظر الى السمات المتشـابهة أو المختلفـة بـين الشخصيـات ، لأن من المسلم بـه أن الشخصية المسرحية تتميز بعدم تماسكها . وفي مرحلة أخيرة ، يبحث الدارس عن كل ما يتفق مـع « كود » (شفرة) للشخصية وُضع سلفا . وجدير بـالذكـر أن

ترتيب الأبواب يجب أن يحرص على التمييز بين ما يرد في الارشادات المسرحية ، وما يرد في أقوال الشخصيات . وفي الحالة الأخيرة ، لا بد من التفرقة بين ما تقوله الشخصية عن نفسها ، وما يقوله الآخرون عنها . ويلتقي هذا بالتفرقة التي أقامها أكثر من مؤلف بين النص الرئيسي والنص الثانوي . . ويتكون الأول من أقوال الشخصيات ، في حين يتضمن الثاني الارشادات المسرحية التي يقدمها المؤلف للمخرج ، وتختفي هذه الارشادات عندما ينتقل العمل المسرحي إلى خشبة المسرح . ونحن لا نلمسها إذن إلا عندما نقرأ المسرحية فقط ، أو عندما تؤدي وظيفتها في العرض . من ناحية أخرى ، يتخذ النص الرئيسي شكلا صوتيا مسموعا أمام المتفرج ، ما دام الممثلون ينطقون به . والنص الرئيسي ، في مجموعه ، عنصر من العناصر المكونة للعالم الذي يصوره العرض المسرحي . لذا يصبح التعبير enonciation عملية تتم في هذا العالم ، وتندمج في السلوك الشامل للشخصيات .

وهناك مجموعتان من العلامات المرئية تحتلان مكانة خاصة في المجموعة السيميولوجية التي تمثلها الشخصية : الزي ، والحركة . والزي أكثر الوسائل اصطلاحاً في تعريف الشخصية . وفي المسرح ، يدل الزي على الجنس ، والوضع الاجتماعي أو الطبقي ، والجنسية ، والدين ، وأحيانا ، يعرفنا بالشخصية التاريخية أو المعاصرة . وفي كل فئة من هذه الفئات ، يعني الزي أشياء شتى : الوضع المادي للشخصية ، وسنها ، وذوقها ، وسماتها . قد يشير الزي مثلا إلى صيني ثري ، ويشير بالتالي إلى جنسيته ووضعه الاقتصادي . وقد يشير إلى الجو ، والفترة التاريخية ، والمكان ، الخ . . .. لكن ، يقتصر الزي المسرحي عادة على علامة واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، لأن المسرح لا يستخدم إلا علامات الزي اللازمة لموقف درامي بعينه .

والحركة أيضا ، تعد من أكثر العلامات تطورا . وهي واحدة من أغنى الوسائل التي تستخدم للتعبير عن الأفكار ، وأكثرها مرونة : حركة اليد ، أو الذراع ، أو الساق ، أو الرأس ، أو الجسم كله . والحركة توجد العلامات وتوصلها . وتنقسم العلامات الحركية - وهي اصطلاحية بقدر قد يكثر أو يقل - إلى فئات عدة : بعضها يصاحب الكلمة أو يحل محلها ، والبعض الآخر يحل محل عنصر من عناصر الديكور (فتح باب وهمي مثلا) ، أو الزي أو الأكسسوار ، او البعض يعني شعورا ما أو انفعالا ما . لكن كلمة حركة لا تعني الحركة فحسب . فهناك أيضا التعبير الجسماني للممثل ، وعلامات الزمان والمكان التي يخلقها التكنيك الخاص بجسم الإنسان . ويوجد نظام كامل للعلامات الحركية المرتبطة بتنقل الممثل في فضاء المسرح ووضعه فيه : مكانه بالنسبة للممثلين الآخرين ، والأكسسوار ، وعناصر الديكور ، والمتفرجين ، وطريقة تنقله : السير البطيء ، السريع ، الدخول ، الخروج ، الخ . . . .

٣ - تعرف الشخصية أيضا بخطابها discours ، ونظام علاماتها اللغوية . هذا النظام معقد للغاية . وهو يدخل ضمن بنية أوسع من العلامات غير اللغوية . وتصاحب الخطاب المسرحي الذي يجب أن يدل على الوضع الاجتماعي للشخصية حركات الممثل ، وزيه ، والديكور ، وهم يدلون على الوضع الاجتماعي أيضا . ويستخدم الكاتب والممثل العلامة اللغوية كوسيلة للدلالة على الانتماء الاجتماعي أو القومي للشخصية . وعندئذ ، يصبح الخطاب علامة للمستوى الثقافي والاجتماعي للشخصية . وتوجد حالات تتمثل وظيفة الخطاب الأساسية فيها في العلامات التي يجب أن تصنف ، وفقا لعدد من الأبواب ، بدون إعطاء قيمة

خاصة لهذه التفصيلة اللغوية أو تلك الدالة على جنسية المتحدث وطبقته الاجتماعية أكثر مما تتمثل في مضمونه . من ناحية أخرى يستخدم المسرح بعض الوسائل الاصطلاحية ليفرق بين لغة أبناء الطبقة الشعبية ولغة الطبقة الراقية . ويلاحظ أن عددا كبيرا من المسرحيات الشعبية استخدمت بنجاح هذه اللغة الخاصة كدليل نفسي .

ووظيفة الخطاب تعبيرية في المقام الأول . فهو يعبر عن تجارب الشخصية وحالاتها النفسية ، لكن هذا التعبير ليس مجانيا ، لأنه يوصل رسالة معينة . فالشخصية التي ترسل رسالة ما تنقلها إلى المتلقي . والكلمات التي تقال على خشبة المسرح توجه دائما إلى شخص ما . صحيح أن هناك المونولوج ، وهو استثناء لهذه القاعدة ، لكن مكانه في الدراما الحديثة محدود ، لأنه يفتقر بالذات إلى هذه الوظيفة الاتصالية . وقد يتجاوز الخطاب التعبير إلى محاولة الاقناع ، وعندئذ ، يمارس وظيفته على الطرف الآخر في الحوار أو الشخصيات التي تعد جزءا من الحدث المسرحي الشامل . فالخطاب قد يسعى إلى التأثير على من يوجه إليه : « في أي صراع درامي يتطور في عالم المسرحية ، يعد الخطاب الذي يوجه إلى الشخصية شكلا من أشكال فعل المتحدث ، وفي نهاية الأمر ، لا يكتسب معنى حقيقيا بالنسبة للأحداث المصورة إلا إذا أسهم بطريقة حاسمة في تطوير الحدث[١٧] . » وأيا كانت وظيفته ، يوجه خطاب الشخصية إلى شخصية أو شخصيات أخرى ، ويوجه أيضا ، وبصفة خاصة ، إلى الجمهور . هذا ، وتسير عملية الاتصال في اتجاهين مختلفين : خشبة المسرح ، والصالة ، حيث جمهور المتفرجين .

وخطاب الشخصية المسرحية خطاب متقطع ـ فيما عدا المونولوج ـ ، قد يكون طويلا أو قصيرا . وهذه سمة تساعد على إعطاء الشخصية طابعا خاصا ، رئيسية ، ثانوية ، الخ . . وترتب على العلاقة بين الشخصية والخطاب رفض البعض للشخصية الصامتة ، واعتبار أي شيء يتكلم ـ جهاز راديو ، مكبر صوت مثلا ـ شخصية . لكن ليس هناك ما يمنع الشخصية من أن تتكلم في مكان ما من النص ، وتصمت في مكان آخر .

وتعرف الشخصية أيضا بعلاقتها بالشخصيات الأخرى . ونادرا ما نجد مسرحيات فيها شخصية واحدة . حتى مسرحية ج . كوكتو J . Çocteau « الصوت البشري » تفترض وجود شخصيتين ، إحداهما مرئية ، والأخرى لا ، وحوار لا نسمع الا جزءا منه فقط . وغالبا ما تكون هذه العلاقات متعارضة . وعلاقة التعارض هذه توحد العبارات المختلفة الخاصة بشخصيتين أو أكثر ، بحيث لا يمكن عزل تعبيرات إحداهما عن الأخرى ، والعكس صحيح . ونواة هذه العلاقة واحدة من تعبيراتها الملموسة ، مثلا أول عبارة تظهر وتدخل العلاقة من خلالها إلى المسرحي . ويرى يانسن Jansen أن هذه العلاقة « لا ترتبط حتما بثنائي محسوس من الشخصيات ، من أول التتابع الى آخره : فهذا المعارض أو ذاك يمكن أن يستدل من موقف إلى آخر . يجب تصور العلاقة اذن على أنها علاقة بين قطبين ، أو اطارين فارغين متعارضين يمكن أن تدخل فيهما أو تخرج منهما شخصيات مختلفة[١٨] . » والتعبير عن العلاقة ليس في حاجة إلى إظهار المتعارضين على خشبة المسرح ، لأن التعارض يمكن أن يذكر بلسان أحد

(١٧) R. Ingarden, Les fonctions du langage au théâtre, in poétique, uo 8, 1971, P. 535

(١٨) Esquisse d' une théorie de la forme dramatique, in langages, no 12, 1968, P. g2

المتعارضين أو طرف ثالث . والتعارض يختلف عن الصراع الذي تتمثل وظيفته في تجميع الشخصيات ، وتوحيد التعبير عن علاقة شخصية ما بالشخصيات الأخرى . أي أن تطور العلاقات بين الشخصيات يتم حول علاقة تعارض ، وعنه ينشأ الصراع .

ولكن لا يكون حديثنا نظريا صرفا ، نطبق المنهج المقترح لدراسة الشخصية المسرحية ، من منظور ومنهج حديث ، على مسرحية آرتور آداموف A. Adamov ، « البروفيسور تاران » .



نجد في « البروفيسور تاران » أربع عشرة شخصية . ومع ذلك ، نستطيع أن نقول إن شخصيات هذه المسرحية قليلة ، لأنها جميعا ثانوية ، فيما عدا تاران : جان ، المفتش ، الموظف ، المديرة ، الصحفية ، سيدة المجتمع ، الخ . . . أو مجرد أدوار : الشرطيان والسادة الأربعة الذين يتبادلون الأدوار ، أو شخصيات صامتة : الموظفة العجوز .

ويتميز تاران عن سائر الشخصيات بالحضور : فهو يحتل خشبة المسرح طوال اللوحتين اللتين تتكون منها المسرحية . ويتميز أيضا بخطابه - من الواضح أنه أطول من خطاب الآخرين - ، وسمة خاصة يشترك فيها مع أخته جان : أنه الوحيد ، مع هذه الأخيرة ، الذي يحمل اسما . ولسوف يتضح لنا أن لهذا الأسم وظيفة درامية رئيسية . وعندما يظهر تاران لأول مرة ، يدخل في النص شيئا أشبه بالفراغ السيمانطيقي الذي يمتلىء بالمعاني تدريجيا . يحملنا كل شيء إذن على أن نقول إنه الشخصية الرئيسية في المسرحية ، ولانقول البطل . وكان العنوان نفسه قد أبرز دور هذه الشخصية .

ويمكن تجميع العلامات المميزة لشخصيات المسرحية في خمسة أبواب : السن والنوع ، والشكل المادي ، والزي ، والوظيفة الإجتماعية . وإذا رجعنا إلى الارشادات المسرحية ، وجدنا أن باب السن يشار إليه بالعبارات الآتية : كبير السن ، قد يكون في الأربعين ، شاب ، عجوز ، بين بين ، سوالف رمادية ، الخ . . . ويُتمتع تاران بوضع مختلف مادام لم يدخل المنطقة التي لايتحدد فيها السن ، في حين دخلتها الشخصيات الأخرى . أما باب النوع ، فمكون من عناصر محددة : يلجأ أداموف إلى الاسم - جان - الذي يحمل في طياته معلومات عن نوع الشخصية ، أو العناصر اللغوية ، أو الصفة . وفي باب الشكل المادي ، ينتمي تاران إلى منطقة عدم التحديد . كل مانعرفه هو أنه يقول : « لي وجه لايمكن أن ينساه المرء إذا رآه مرة واحدة (١٩) . وإذا كانت هذه الثغرة قابلة للتفسير ، فيما يتعلق بالأدوار ، فهي على عكس ذلك ، في حالة تاران ، اللهم إلا إذا وصفناه بأنه إنسان يحلم ولا وجه له - لنذكر أن المسرحية كلها حلم سجله الكاتب - وأنه إنعكاس لأداموف ، عندما كان يحلم أيضا . والسمات الجسمانية المميزة للشخصيات هي : « عريض المنكبين » (المفتش) « أسمر للغاية » (الموظف) ، « شقراء » (الصحفية) ، « طويل القامة » (السيدين الثالث والرابع) ، « سمراء متناسقة القسمات » ، « صوت رتيب » (جان) . والزي لايقدم أية معلومات عن الحالة الإقتصادية أو الإجتماعية للشخصيات . ولايشير الكاتب إلا إلى لونه : « سترة سوداء وبنطلون مخطط » (المفتش) ، « يرتدي ثوبا أسود » (تاران) ،

(١٩) A. Adamov, théâtre, t. I, Paris, Gollimard, 1953, P. 222

« بلوزة رمادية » (المديرة) أو نوعه : أناقة السيدين الثالث والرابع . ويشير الزي بصفة خاصة إلى فصول السنة ، فالموظفة العجوز ترتدي (ثوبا خفيفا من القماش المشجر » ، وترتدي الصحفية « تنورة بثنايا وبلوزة بأكمام قصيرة » ، وكل هذا يدل على فصل الصيف . لكن السيدين الأول والثاني يرتديان « معاطف شتوية » . ويترجم هذا التعارض بين العلامات ، وهو أساسي في المسرحية ، على مستوى الشخصية الرئيسية ، بعدم تماسك السلوك ، والفرق الملموس بين القول والفعل ، والحركة والكلمة . وتقرر أمرا آخر : كل الشخصيات مجهولة ، فيما عدا تاران وجان . وهي لاتعرف إلا بوظيفة إجتماعية معينة ، تتفق كل الإتفاق مع الوظيفة المكلفة بها في المسرحية : استجواب تاراث (الشرطيان) ، تجاهل تاران (الصحفية ، وسيدة المجتمع) ، الخ . . ويتميز تاران عن الآخرين بأنه يجمع بين اسم : تاران ، ووظيفة : أستاذ ، وهما قطبا الحدث .

وإذا رجعنا إلى النص الرئيسي ، بصفة خاصة ، وجدنا أن تاران يمتلك صفات مختلفة وله وظيفة مختلفة ، وأن الاثنتين مرتبطتان إرتباطا وثيقا . ففي النص الرئيسي ، لايدور الحدث إلا عن تاران وشخصية غائبة هي البروفيسور مينار الذي إنتحل تاران شخصيته عن وعي . وهذا ويحتل تاران النص كله حيث يتكلم عن نفسه أو يتكلم الآخرون عنه . ويحمل خطابه معلومات نفسية وعلائقية وإجتماعية في المقام الأول . وفي النص الرئيسي أيضا ، يعرف تاران بمجموعة من العلاقات التي تحدد موقعه الإجتماعي والمهني . تتمثل أسرته في أخته وإبنه وأخته أو أخيه . وهو أستاذ جامعي مرموق : « أنا البروفيسور تاران ، رجل مرموق ، ألقيت محاضرات عديدة في الخارج . وفي الفترة الأخيرة ، دعيت إلى بلجيكا . وأحرزت نجاحا لم يسبق له مثيل . . . كان الشباب يتخاطف محاضراتي . . . كانوا يتشجارون ليحصلوا على ورقة مكتوبة بخط يدي (ص ٢١٨) . ولتاران ألقاب علمية ، ومؤلفات . ومن ثم كانت شهرته : « أتمتع بتقدير الجميع » (ص - ٢١٧) . لكنهم يقدرونه في الخارج أكثر مما يقدره أبناء بلده : « في الخارج ، يبحثون بمزيد من الجدية القضايا التي تهمني ، ويولونها أهمية لا أجدها هنا (ص ٢٢٢) . ويعرف تاران أيضا ببعض السمات الطبائعية والنفسية : فهويحب الأطفال ، لكنه لا يصدق مايقولونه ، ويشعر أنه مراقب ، وهذه أول ثغرة في تماسك شخصيته : « أعلم جيدا أنهم يراقبونني ، وأنهم يفتشونني بنظراتهم ، وأن أنظار الجميع مثبتة علي » (ص ٢١٩) ، في حين لا ينظر هو إلى أحد . وهو « ضنين بوقته » ، شأنه في ذلك شأن « كبار العاملين » . ولديه المال لكنه ينساه دائما في منزله ، لأنه شارد الذهن ، مثل كثير من العلماء والباحثين . وفي رأيه أن الجميع يمكن أن يشهدوا على شهرته وتمسكه بمبادىء الأخلاق . لكن تاران يفتقر أحيانا إلى الذوق . وهو يكره أن يخلع ملابسه على البلاج ، حيث يمكن أن يراه الجميع ، ولايحب أن يعود أدراجه أبدا : « لا أقدر على هذا ، ياسادتي ، ولم أقدر عليه قط . لا أجد القوة التي تجعلني أقطع طريقا وأنا أعلم أنني سأقطعه مرة أخرى ، وأرى تفاصيله مرة أخرى . . . وبصفة عامة ، أنا لا أحب المشي . ولا أستطيع العمل وأنا أمشي » (ص ٢٢٨) . وتتناقض المقولة الأخيرة تناقضا صارخا مع مقولة أخرى ترد في نفس المشهد : «عندما يكتب الإنسان ، بسرعة ، وهو سائر مثلا ، وكثيرا ما أعمل وأنا أمشي . . . » (ص ٢٢٩) . هذا التناقض هو أساس سلوك تاران ، الذي يعرف أيضا بعلاقته الماضية بأستاذ يدعى مينار . وفي خطاب الشخصيات الأخرى ، يعرف تاران بمقارنته بالبروفيسور مينار . إن تاران « يشبه قليلا » ، لكن

الآخر « أطول وأقوى بكثير » (ص ٢٢٤) . وتاران يمسك نظارته في يده ، مثل مينار ، وإحتمال الخلط بين الشخصيتين مبني على علامة حركية .

ويعرف تاران أخيرا ، على وجه الخصوص ، بسلوكه . ويشير هذا السلوك إلى عدم تماسك الشخصية وإنفصامها . فهناك فارق واضح بين مايقوله ومايفعله . على سبيل المثال نراه ينكر أنه تعرى أمام بعض الأطفال . وفي نهاية المسرحية يتعرى أمام المتفرجين المفترض وجودهم في الصالة . والتناقض جزء لايتجزأ من أقواله . وما يؤكده تنفيه الأحداث دائما . فهو يؤكد أنه ملأ صفحات كراسته ، ويتضح بعد ذلك أن في وسط الكراسة ثغرة ، أي صفحات بيضاء . وسلوكه كله مبني على التناقض من ناحية ، والإثبات/ النفي من ناحية أخرى . وفي هذا السياق ، تؤكد العلامة الحركية العلامة اللغوية ، والعكس صحيح . ويظهر عدم تماسك الشخصية ، بصفة خاصة ، في مشهد الخطاب الذي يرسله تاران لرئيس الجامعة ، وهو بمثابة محاكمة ، يمثل فيها الأستاذ المتهم بين يدي الرئيس القاضي (وهو شخصية غائبة) ، ليدافع عن نفسه ، ويبرر أفعائه . ويتضح أن الأحداث أنكرت دائما نوايا تاران . والانفصام الذي يطرأ على مستوى العلامات اللغوية محاكاة للانفصام الذي طرأ على شخصية تاران : فهو يعيش باسم مستعار ، ويبحث عن هويته المفقودة . هذا ولايمكن أن نرسم أكثر من نمط أفعال واحد لهذه المسرحية ، لأنها تؤكد وتبرز شخصية واحدة ، الفاعل تاران .

ويريد تاران أن يسترد هويته الضائعة واسمه المبتور ، المعادل الرمزي للبتر الجسماني والنفسي . والمرسل هنا شيء مجرد : المجتمع . فهو الذي سيعترف بهوية تاران . لكن مندوبي هذا المجتمع لايحتلون خانة المرسل ، بل نجدهم في خانة المعارض . وتعبر عن الفعل المعارض عدة شخصيات ، تقف حجر عثرة في سبيل سعي تاران : المفتش ، والشرطيان اللذان يخضعان تاران لتحقيق حقيقي ليحملوه على الإعتراف بجريمته ، والسادة الأربعة ، والصحفية ، وسيدة المجتمع ، جميعهم شهود لايتعرفون عليه ، وأخيرا ، رئيس الجامعة ، الذي يصدر ضده حكما قاطعا : « يترتب على كل هذا أنني لا أستطيع أن أدعوك إلى دورتنا القادمة . وتأكد ، ياسنيدي أنني آسف لتغيير الفكرة التي كنت قد كونتها عنك (ص ٢٢٦) . ورغم كثرة المعارضين ، لانستطيع أن نقول إن هناك صراعا ، لأن علاقات الشخصيات علاقات تعارض فقط . وتاران لا يدخل في صراع مع باقي الشخصيات لكي يسترد هويته . والأمر يتعلق ، بالنسبة له ، يتعرف الآخرين عليه ، وإعترافهم به ، وهو إعتراف لايمكن أن يتم إلا بواسطة هؤلاء الآخرين . والتعرف لا يأتي من الفاعل ، وإنما ينتج عن لقائه بالآخر . وتجدر الإشارة إلى أن تاران هو المعارض رقم ١ لرغبته ، نظرا لعدم تماسك سلوكه وتناقض أقواله . ولايساعد أحد تاران في سعيه . فخانة المساعد تظل خالية . وبالتالي ، ينتهي السعي إلى العدم ، الذي تعبر عنه ، هنا أيضا ، علامة حركية : يتعرى تاران أمام مساحة عارية ، وتعرية الشخصية ، والشيء ـ المفروض أن الخريطة تمثل سفينة حجز تاران مكانا عليها ـ يعنيان العدم ، وإستحالة إسترداد تاران للوحدة المفقودة ، إلى الابد ، وتاران ، المرسل إليه ، يجد نفسه ، في نهاية المطاف ، محروما من كل شيء ، حتى من تلك الكينونة الزائفة التي عاشها مدة طويلة . وهكذا إنتهت رغبته إلى الكبت والحرمان .

أخيرا ، نقول إن تاران صاحب خطاب تتداخل فيه الحركة والكلمة في عملية شاملة تخص المعنى . والعلامة

الحركية هنا تعلن عن العلامة اللغوية وتؤكدها . وخطاب تاران يبرز « أنا » تقابل التأكيد على الشخصية - البطل ، صاحبه الفعل . وتصطدم « أنا » بـ « نحن » الجماعة . تتكلم « الأنا » لتبرز ذاتها ، وتؤكدها ، وتنفى عنها الإتهام . والخطاب الذي يوجه على التوالي إلى كل من يتكون منهم « نحن » ، في مجموعة من المواقف - المواجهة ، يعد دفاعا حقيقيا . تدافع « أنا » عن قضيتها ، لتبريء نفسها . ويقول الكاتب في هذا الشأن : « كل مايحدث في المسرحية للبروفيسور حدث لي في الحلم . . . لقد جعلت البروفيسور يتكلم كما كنت أتكلم في الحلم »[٢٠] . والمطابقة بين نمط الأفعال والخطاب مطابقة تامة :

الفاعل = أنا = متهم
المعارض = نحن = نوجه الاتهام

تتهم « أنا » بالسرقة . لقد نسب تاران إلى نفسه هوية مينار ، ومهنته (أستاذ) ، وحركته (النظارة) ، وكتابته (الكراسة) ، وأفكاره (المحاضرات) . لكن دفاع تاران عن نفسه لايجدى ، والأنا لاتبرأ ، نظرا للفارق الدائم بين القول والفعل ، الماضي والحاضر .

والحركة نظام سيميولوجي آخر يمكن من تعريف الشخصية ودراستها ، والحركة قد تكون طبيعية ، وقد تتحول إلى حركات ثقافية . وهي ظاهرة إجتماعية ، سواء كانت طبيعية أو مكتسبة . وتركيب أصغر الوحدات الحركية ينتج أقوالا حركية ، والخطاب الحركي ذاته . فأي حركة تفترض ضمنا الإعتراف بوجود محور للاتصال ومُرسِل ومُرْسَلٍ إليه (القاريء/ المتفرج) . وقد تكون تكرارا للصوت ، أو الكلمة ، الخ . . .

وتاران مذنب ، لأنه أتى حركتين يعاقب عليهما ، وفقا لسنة المجتمع : خلع ملابسه أمام جمع من الأطفال ، وترك أوراقا في كبائن الإستحمام . وتقول الإرشادات المسرحية إن حركاته تعبر عن حالته النفسية ، ولا تحتاج إلى مساندة الكلمة . وإنهياره أمام الحقائق التي تفرض عليه ، كلما تقدم الحدث ، يرى من خلال العلامات الحركية الدالة على فقدانه لتوازنه الجسماني والمعنوي . وفي مقام آخر ، تتجمع الوحدات الحركية لتؤلف حركة بطيئة أو سريعة الإيقاع . فسيره بطول المسرح وعرضه يعني الإنتظار والتردد . وجريه أمام الأطفال الذين فاجئوه يعني الهرب : في حين يعبر جريه وراء المفتش والموظفين الذين إختفوا فجأة عن المطاردة . هذه مجموعة أولى من العلامات الحركية . وهناك مجموعة أخرى تدخل في عملية التواصل بين تاران والشخصيات الأخرى . وعندئذ ، يتدخل الوضع الذي يتخذه جسم المتحدث بالنسبة لمن يتحدث إليهم : فالمواجهة أو الالتفات مثلا يدخلان في علاقة مع المضمون الذي يعني قبول الإتصال أو رفضه . والمفتش يمحو المسافة التي تفصل بينه وبين تاران عندما ينهض ويضع يده على كتف البروفيسور ، وينهض مرة أخرى ذراعه . وتعني هاتان الحركتان الود : إحساس تاران بالأمان لحمله على الاعتراف وتوقيع الإقرار الذي يدينه . ونجد في المسرحية مشهدا هاما للغاية يعطي فيه الكاتب الأولوية للحركة بالنسبة للكلمة ، في ذلك المشهد ، يحاول تاران أن يتصل بعدد من الشخصيات الثانوية ليحملهم على الاعتزاف به . وتتمثل محاولته في تكرار بعض العلامات الحركية ، وفقا للمحور الأفقي

(٢٠) A. Adamov, théâtre 11, Paris, Gallimard, 1955, P. 12

للمكان : الاقتراب ، الابتعاد . فهو يقترب أولا من الصحفية ، ثم يقترب « بحياد وخجل » ، وعدة مرات ، من السادة الأربعة . لكن محاولته الدخول في مجال الآخرين تصطدم بمحاولتهم الهرب[٢١] : إذن ، أثارت رغبة تاران ردود فعل سلبية ، تدل على رفض الاتصال . وعندما يعاود الكرة ، يثير عدم الإكتراث ، بل والعداء . وتتضح أهمية العلامة الحركية في نهاية المسرحية ، عندما ينطق تاران بآخر جملة ، ثم « يلتفت إلى الخريطة وينظر إليها طويلا . . . ويمسك بها ، ويسير بخطا آلية متجها إلى خلفية المسرح ، ويبحث عن مكان يعلقها فيه . . . . . . وإذا يقف على أطراف أصابعه ، يتمكن من تعليق الخريطة . والخريطة مساحة كبيرة ، رمادية اللون ، خالية تماما : يدير تاران ظهره للجمهور ، وينظر إليها لحظة ، ثم يشرع في خلع ملابسه ، بمنتهى البطء . . . » (ص ٢٣٧) .



لقد حاولنا أن نرسم حدود الشخصية المسرحية ، واستعرضنا المراحل المختلفة التي مرت بها في تطورها ، وتوقعنا عند المنهج السميولوجي ، وقد يكون أنسب المناهج لدراسة الأدب المسرحي عامة ، ثم حاولنا تطبيقه على إحدى المسرحيات لنبين أنه يصلح كأداة للتحليل النقدي الحديث . ولانزعم أننا غطينا هذا الموضوع الواسع : الشخصية المسرحية ، بل حاولنا إيضاح بعض جوانبه . وقبل أن نختتم هذه الدراسة ، نشير إلى بعض النقاط الهامة الخاصة بالشخصية المسرحية .

النقطة الأولى : الشخصية في النص ، والشخصية في العرض : جعلت الشخصية المسرحية أساسا لكي يجسدها الممثل ، ولكي لاتبقى مخلوقا من ورق نعرف إسمه ، وكمية أقواله ، وبعض المعلومات المباشرة ، أو غير المباشرة عنه . وهي تكتسب بفضل الممثل ، دقة وتماسكا . كل ماكنا نقرؤه عنها ، بين السطور ، ونتخيله ، تحدد بإخراجها على خشبة المسرح : شكلها : والبيئة التي تعيش فيها ، الخ . . . صحيح أن إدراكنا الخيالي للدور الذي تقوم به قد قلّ ، لكن أضيف إليه منظور لم نتخيله نتيجة لتغيير موقف التعبير ، والنطق بمضمون النص . ويمكن ، بطبيعة الحال ، أن نعقد مقارنة بين الشخصية المقروءة والشخصية المعروضة ، لكن ، في حالة تلقي العرض ، لانهتم إلا بالشخصية الثانية . وفي هذه الحالة ، يختلف موقفنا عن موقف المخرج إختلافا عميقا ، إذ يجب أن ينطلق تحليلنا من الشخصية المعروضة التي تفرض علينا تفسيرا للنص وللعرض بأكمله . وفي هذا السياق ، يستحيل التوفيق بين وجهات نظر القاريء والمتفرج المثالي : فالأول يطالب بأن يكون أداء الممثلين متفقا مع رؤيته للشخصيات ومغامراتها ، في حين يكتفي الثاني بإكتشاف معنى النص من خلال المعلومات التي يقدمها له المخرج ، ومعرفة ما إذا كان المخرج قد جعل النص يتكلم بطريقة واضحة مفهومة ، تكرر مافيه أو تتناقض معه . ومع ذلك ، يحدث نوع من التعديل في تلقي الشخصيتين . لايمكن أن ترى الشخصية المقروءة إلا إذا أضفنا شيئا إلى خواصها المادية والمعنوية الواردة صراحة في النص ، فنحن نعيد تكوين صورتها إبتداء من بعض العناصر المبعثرة . وعلى عكس ذلك ، توجد في الشخصية المعروضة كمية من التفاصيل المرئية ، لانستطيع أن نحصيها أو نأخذها في الإعتبار عند إبداء رأينا . ومن ثم ، نستخلص السمات المناسبة ،

(٢١) انظر بالنسبة لهذا الموضوع E. T. Hall, La dimension cachée, Paris, seuil, 1971

ونطابقها بالنص ، لكن نختار الأداء الصحيح ونبسط الصورة الغنية التي تقدم لنا .

النقطة الثانية : تتعلق بعلاقة الشخصية بالممثل . جرت العادة على أن يقال إن الممثل لا خيار له : عليه أن يتقمص الشخصية ، أي أن يتوحد معها تماما . وبّين بريخت أن هذه نتيجة منطقية لنظام مسرحي كامل ، ظل راسخا لسنين عدة . ويستند في المسرح الموروث عن أرسطو على فكرة التوحد التام بين الجمهور والشخصيات التي تقدم له ، ويصبح الأمر ميسورا إذا توحد الممثل نفسه مع الشخصية ، أي تقمصها . ومن ثم ، طرح لفترة طويلة سؤال عن طبيعة الظاهرة التي تجعل الممثل « يلبس جلد » بطل وهمي . ورد ديدروه Diderot بقوله : إن الممثل لايمكن أن يكتفي بالإحساس ، وإلا كان أداؤه متفاوتا . ولابد أن ينتج مايعبر عنه عن بناء متماسك يحاكي نموذجا مجردا . . . ورأى بريخت أن الممثل ليس مضطرا إلى تقمص الشخصية ، بل عليه بالأحرى أن يقدمها للجمهور ، بحيث يوجد مسافة بينها وبينه . وبالتالي ، تصبح علاقة التوحد بين الممثل والشخصية ، تقريبا distanciation يبقى مسافة بين الممثل ودوره ويمكنه من نقد ذلك الدور . وينسحب هذا أيضا على علاقة المتفرج بالممثل ودوره .

وجدير بالذكر أن الحديث حول هذه العلاقة يدور الآن عن « بناء الشخصية »[٢٢] . فالشخصية المسرحية لاتقدم للممثل جاهزة ، بل عليه أن يبنيها ، آخذا بعين الإعتبار مايلي : الشخصية ، بين صفحات الكتاب ، بناء نصي يقدم الكاتب عناصره ، والممثل قارىء يبني الشخصية التي سيؤديها على مستوى الخيال ، مستعينا في ذلك بمعطيات النص . والشخصية ليست ثمرة البناء النصي وقراءته فحسب ، وإنما ثمرة أبنية مسرحية سابقة : هل يستطيع الممثل أن يتصور هاملت ، أو فيدرا ، أو أوديب ، بدون أن يرجع إلى الصور المسرحية التي قدمت لهم في الماضي . و « الشخصية » الوحيدة الموجودة بطريقة محسوسة هي البناء المسرحي الحالي الذي صنعه الممثل ، فهو صاحبة ومادته في آن واحد .

النقطة الثالثة والأخيرة : هل تبقى الشخصية المسرحية أم تموت ؟ قد يخشى ألا تبقى على قيد الحياة بعد أن تعرضت لعملية الهدم المستمر ، وأن تفقد الدور الذي ظلت تلعبه على مر السنين : دورها كدعامة لبعض العلامات . فضلا عن أن الكثيرين تحدثوا في السنوات الأخيرة عن « الأزمة » التي تمر بها . تقول آن أوبرسفيلد : « الشخصية المسرحية في أزمة ، وما هذا بالشيء الجديد . لكن لايصعب علينا أن نرى أن موقفها يزداد خطورة . فلقد أصبحت مقسمة ، ممزقة ، مبعثرة بين عدة ممثلين ، وأعيد النظر في خطابها . . . »[٢٣] . وأصدر ر . أبيراشد R. Abirached كتابا أعطاه عنوانا له دلالته : « أزمة الشخصية في المسرح الحديث » . وتساؤل أحد المخرجين عما إذا كان المنظور السيميولوجي سيجعل الممثل قردا أسيرا في نظام مغلق في العلامات . لكننا نقول ، مع ب . بافيس ، لاداعي لهذا القلق . فعلى الرغم من موت الشخصية الروائية ، وذوبان حدود الطابع في المونولج-الداخلي ، ليس من الواضح أن المسرح يمكن أن يستغني عن الشخصية ، وأنها ستذوب في قائمة من العلامات أو الخواص . لكن ، من

(٢٢) انظر A. Ubersfeld, L'ecole du spectateur, Paris, Fditions sociales, 1981 (pages 177 - 187)

(٢٣) Lire le théâtre, op. cit. P 119

الواضح أنها أصبحت قابلة للتقسيم ، وأنها لم تعد وعيا خالصا بالذات ، يلتقي فيه كل من الأيديولوجيا والخطاب ، والصراع الاخلاقي ، والعناصر النفسية . إلا أن هذا لايعني أيضا أن النصوص المسرحية المعاصرة ، والإخراج الحالي للمسرحيات قد إستغنوا عن الممثل ، أو الشخصيات . فتبادل الشخصيات وأدوارها ، وإنقسامها ، وتضخيمها ، الخ . . يجعلنا نعي مشكلة إنقسام الوعي النفسي أو الإجتماعي . قد يسهمون في هدم بناء الفاعل والشخصية ، لكنهم لن يستطيعوا عمل أي شيء ليمنعوا بناء أبطال جدد ، أو أبطال ـ متضادين anti - heros . الشخصية المسرحية لم تمت إذن كل ما هنالك أنها أصبحت متعددة الأشكال ، وأصبح من الصعب فهمها والإلمام بأبعادها . وفي هذا تكمن فرصتها الوحيدة للبقاء على قيد الحياة .

***

المراجع

نذكر المراجع الآتية ، بالإضافة إلى المراجع التي سبق ذكرها في الهوامش .

Assaad (Samia): Regards sur le Theatre d'Arthur Adamou, Paris, Nizet, 1981

Bonnefoy (C): Entretiens avec E. Ionesco, Paris, Ed. P. Belfond, 1966.

Duculot (J): pour pratiquer les textes de theatre, Paris, duculot, 1985

Helbo (A) et autres: Semiologie de la representation, Bruxelles, Ed. complexe 1975

Jacquart (E): le theatre de derision, Paris, Gallimard, 1974

Pavis (P): problemes de semiologie theatrale, Canada, presses de L' Universite du Quebec, 1976

Pavis (P.) :Voix et images de la scene, presses Universitaires de Lille, 1982

stanislavski (C): la formation de L' acteur, Paris, Payot, 1969

Vinaver (M): Ecrits sur le theatre, lausanne, Ed. de L'Aire, 1982

Virmaux (A): A. Artaud et le theatre, Paris, seghers, 1970

* * *

لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين

حسن الوراكلي *

تمهيد

أبو عبدالله لسان الدين محمد بن عبدالله بن الخطيب السلماني (٧١٣هـ/ ١٣١٣م - ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م) من أشهر الشخصيات الأدبية والعلمية التي تألقت بها صفحات التراث الاسلامي - العربي في عدوتي الغرب الاسلامي : الأندلس والمغرب . ومرد هذه الشهرة التي ظفر بها ابن الخطيب على توالي العصور إلى عدة أمور . أهمها :

١ - تعدد مجالات الإبداع والبحث التي أسهم فيها ابن الخطيب ، ووفرة ما أسهم به فيها من نتاج وتصنيف مما يدل على غناء الموهبة الأدبية وسعة الاهتمام العلمي . وهو أمر أسعفت معارف ابن الخطيب المتنوعة من جهة ، وظروفه الذاتية من جهة أخرى على إغنائه وتعميقه . وقد ألم هو نفسه بالحديث عن ذلك . فقال عن المعارف المتنوعة التي حصلها فيما قال : (. . . قرأت كتاب الله عز وجل على معلم المكتب الأستاذ الصالح أبي عبدالله بن عبدالولي العواد كتبا ثم حفظا ثم تجويدا إلى مقرأ أبي عمرو . . . ثم نقلني - أي والده - إلى أستاذ الجماعة الشيخ الخطيب أبي الحسن القيجاطي ، فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول ما انتفعت به وقرأت على الحسيب الصدر أبي القاسم بن جزي ، ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبدالله بن الفخار البيري . . . وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبي عبدالله بن بكر رحمه الله ، وتأدبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى أبي الحسن ابن الجياب ، ورويت عن كثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية . . . ومن أهل العدوة الغربية والمشرق الكثير بالإجازة . . . وأخذت الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي

(*) أستاذ كرسي الأدب الأندلسي بجامعة سيدي محمد بن عبدالله (المغرب) ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (تطوان) .

زكريا بن هـذيل ولازمتـه . . .)[١]، وذكر داء الأرق الذي ابتلى به طوال حياته حتى لقب بذي العمرين ، فقال يتحدث عن ليـاليه التي كـان يمضيها في الكتـابة والتأليف : (. . . فاتخذت الليل جملا لهذه الـطية . وامتـطيت غـارب العـزم ونعمت المـطيـة . بحيث لا مؤانس إلا ذبال يكافح جيش الدجـا ، ودفاتـر تلقح الحجا ، وخواطر تبتغي إلى سماء الإجادة معرجا)[٢].

٢ ـ عناية ابن الخطيب بالتعريف بتصانيفه ونشرهـا بـين جمهور المتعلمـين والمتأدبـين ، ومن مظاهـر هـذه العناية :

(أ) إخباره الشخصيات العلمية البارزة من عصريه بما يصدر عنه من جديد التأليف ، والاهتمام بانتساخه وبعثه إليها ، يدلنا على ذلك ما تحدث به هو نفسه في رسالة إلى ابن خلدون عن تقاييده وتصانيفه الجديدة ، ومنها كتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » الذي ألفه يعارض به ابن أبي حجلة جاعلا (الموضوع أشرف وهو محبة الله ، فجاء كتابا ادعى الأصحاب غرابته . . . والله يـرزق الاعانـة في انتساخـه وتوجيهـه)[٣] ، وما تحـدث به مؤلف (البستـان) في تـرجمـة أبي عبـدالله محمد بن أحمد بن علي الشريف من أن علماء الأنـدلس كانوا (أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب صاحب الأنبـاء العجيبـة والتآليف البـديعة كلما ألف تـأليفا بعثـه إليه وعرضه عليه ، وطلب منه أن يكتب عليه بخطه)[٤].

كما يدلنا على ذلك تنويه وزير بني مرين أبي القاسم بن رضوان في رسالة له إلى ابن الخـطيب بكتابـه « روضة التعريف » الذي كان بعث له بقطعة منه (وأما « كتاب المحبة » فقد وقف المعظم على ما وجهتم منه وقوفا ظهر بمزية التأمل ، وعلم منه ما تراه الآخر للأول . ولم يشله في أن الفضل للحاكي[٥]. . .) .

(ب) إرساله نسخا من بعض كتبه إلى مصر ووقفها على جميع المسلمين ينتفعون بها قراءة ونسخا ومطالعة ، ومن هذه الكتب (روضة التعريف بالحب الشـريف) و (الإحاطة في أخبار غرناطة) وغيـرهما من تـآليفه ، وجعـل مقرّهـا بالخـانقـاه الصـالحيـة سعيـد السعـداء بالقاهرة)[٦].

(ج) جلوسـه لتدريس مؤلفـاتـه وإقـرائهـا طلبـة العلم ، وقد عرفنا من هؤلاء أبا عبدالله بن بقي الذي أخذ عن ابن الخطيب في غرناطـة تآليفـه ورسائله[٧]. وأحمد بن الخطيب القسنـطيني الشهير بـابن قنفذ (ت ٨٠٩هـ) الذي ذكر في وفيـاته بـأنه سمـع (جملة من تـواليفه ـ أي ابن الخـطيب ـ قـراءتـه هـو في مجـالس مختلفة)[٨]. وأغلب الظن أن ذلـك كان في سـلا أيام إقامته بها (٧٦٠ ـ ٧٦٣هـ) . وإذا كان لنا أن نفيد من هذه الإشارة وتلك جلوس ابن الخطيب لإسماع مؤلفاته وإقـرائها طلبـة العلم في مختلف فترات حيـاتـه سـواء بالأندلس أو المغرب ، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنه كان أحرص على عقد هذه المجالس العلمية بالمغرب وخاصة

---

(١) انظر ، الإحاطة ، ٤: ٤٥٧ ـ ٤٥٨ (بتصرف)
(٢) انظر ، ريحانة الكتاب ، ١ ° ٢٢٤
(٣) انظر ، التعريف بابن خلدون : ١٢٨ ـ ١٢٩ .
(٤) انظر ، البستان : ١٧٥
(٥) انظر ، الإحاطة ، ٣ . ٤٥٥ .
(٦) انظر ، التعريف بابن خلدون : ١٢٩ ، ونفح الطيب ، ٧ : ١٠٥
(٧) انظر ، فهرست المنتوري : ٢٢٤ .
(٨) انظر ، وفيات ابن قنفذ ضمن كتاب « ألف سنة من الوفيات » ص ٨٥

في الفترات التي قيض له فيها الابتعاد عن مجال الحكم والسياسة والتخفف من أعبائها . وقد أشار إلى ذلك العباس بن ابراهيم فقال (وكان ابن الخطيب رحمه الله بعد فراره من ملوك بني نصر بالأندلس إلى ملوك المغرب من بني مرين واستقراره بالمغرب يدرس العلم به . وانتفع أهل فاس وغيرهم به[9]،[10]. . .) .

٣ ـ النهاية الفاجعة التي توالت مشاهدها نفاحة بالمرارة ، مفعمة بالألم : هروب واحتماء ، محاكمة وسجن ، إعدام وإحراق[11]. هذه النهاية التي أسدل بها الستار على حياة ابن الخطيب كان لها أثرها (في تحريك أقلام الوفاء له بعد وفاته . فقد طاف حول ساحته جماعة من الأعلام والأوفياء الكرام . منهم من قصد أداء دين اللسان فاستولى على أمد الإحسان . ومنهم من آنس من بيانه العجز فاكتفى بالإشارة عن البسط والبيان[12].

هذه أهم الأسباب التي أظفرت ابن الخطيب ذيوع صيت ، وصيرورة ذكر يتمثلان من لدن عصره إلى يوم الناس هذا في العناية التي أولاه إياها مصنفو كتب التاريخ والتراجم والآداب والمعارف . يترجمون به ، ويعرفون بآثاره ، ويروون أشعاره ورسائله .

ومع أن هذه العناية بابن الخطيب وتراثه الأدبي والعلمي يمكن تلمسها فيما كتبه عنه عصريّوه من مثل ابن خلدون[13]، وأخيه أبي زكريا[14]. وكذلك فيما كتبه أعلام من الجيلين اللذين تليا جيله من مثل أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر[15] (ت ٨٠٧هـ) من المغاربة . وابن حجر العسقلاني[16] (ت ٨٥٢هـ) من المشارقة . إلا أنها ، أي العناية بابن الخطيب ، إنما بلغت أوجها على يد المقري (ت ١٠٤١هـ) حين ألف كتابه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » (فإنه لم يحسن أحد إلى ابن الخطيب كإحسانه ، ولا في مجاميع الأدب الأندلسي ما يمكن أن يقارن بنفح الطيب في جمعه وإمتاعه[17]. وإلى هذا الكتاب نفسه يعود الفضل حديثا . في تزايد الاهتمام بابن الخطيب وآثاره سواء لدى المستشرقين في الغرب أو لدى الدارسين العرب ، فمنذ أن ظهرت طبعة (النفح) الأولى[18] في ليدن سنة ١٨٥٥م بإشراف ثلة من المستشرقين على رأسهم دوزي ، ثم تلتها الطبعة الثانية بالقاهرة في غضون سنة ١٢٧٤هـ ـ ١٨٥٧م وعناية الدارسين عربا ومستعربين . تتزايد بشخصية ابن الخطيب وتصانيفه . على أنه بوسعنا أن نلمح وراء هذه

---

(٩) انظر ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، ٤ : ٤٧٥

(١٠) من الجدير بالإشارة أن العناية بمؤلفات ابن الخطيب وآثاره في حلقات الدرس ومجالس التعليم استمرت بعد وفاته ، فوجدنا السلطان النصري محمد الغالب بالله يحبس نسخة من كتاب الإحاطة في المدرسة اليوسفية بغرناطة (على أهل العلم والطلبة . ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ـ انظر ، النفح ، ٧ . ٤ ـ ، كما وجدنا بعض شيوخ العلم في الأندلس يحدث طلبته بتآليف ابن الخطيب ورسائله ومنظوماته ـ انظر ، فهرسة المنتوري ص ٢٢٤ وفي القرن الثاني عشر منجد السلطان محمد بن عبدالله يبعث بمصنفات تاريخية وأدبية ، منها مصنفات ابن الخطيب ، إلى مصر لقصد تحبيسها على الطلبة . انظر ، الزياني ، أبا القاسم ، الترجمان الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا ص ٦٤ .

(١١) انظر ، تاريخ ابن خلدون ، ٧ ° ٣٤١-٣٤٢

(١٢) انظر ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ١ : ١٧ .

(١٣) انظر ، تاريخ ابن خلدون ، ٧ : ٣٣٢-٣٣٦ ، والتعريف ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٢ .

(١٤) انظر ، بغية الرواد ، ٣ : ١٧٥ ، ١٧٤ ٢٨٠-٢٨٧ ، ٢٩٩ .

(١٥) انظر ، نثير فرائد الجمان : ٢٤٢-٢٩٢ .

(١٦) انظر ، الدرر الكامنة ، ٣ : ٦٤٩-٤٧٤ .

(١٧) انظر ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ١ ° ١٨

(١٨) هي طبعة جزئية شملت القسم الأول فقط من الكتاب .

العناية أمورا أخرى ، فضلا عن كتاب (النفح) ، وهي :

(أ) طبع بعض المصادر التاريخية والأدبية التي عني أصحابها بالترجمة لابن الخطيب وذكر تآليفه والتنويه بفضله ، وأهمها تاريخ ابن خلدون الذي صدر في القاهرة عن مطبعة بولاق (١٢٨٤هـ) ، وكتاب (الاستقصا) للناصري وقد تم طبعه بمصر (١٣١٢هـ) ، وكتاب « أزهار الرياض » للمقري ، وقد صدر الجزء الأول منه في تونس عام ١٣٢٢هـ .[١٩]

(ب) ظهور بعض تصانيف ابن الخطيب مطبوعة بعناية مستشرقين أو ناشرين عرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، وكان بعض هذه التصانيف في التاريخ ، وبعضها في الرحلة ، وبعضها في التراجم ، وكان بعضها نظما ، وبعضها ترسلا . الأمر الذي أمكن معه الوقوف على أمثلة من أسلوب ابن الخطيب ومنهجيته في التأليف .

(ج) ارتفاع الدعوة ، في خضم المقاومة العربية ضد الهيمنة الامبريالية الغربية ، إلى بعث التاريخ العربي وإحياء تراث الامة الأدبي والعلمي والحضاري ، ومن ضمنه تراث الأندلس ، ومن ضمن هذا تراث ابن الخطيب ، وكان لهذه الدعوة صداها الملموس في أوساط الدارسين العرب بعامة ، والمغاربة بخاصة ، سواء داخل الجامعة أو خارجها[٢٠] .

(د) تمثل فئة من المستشرقين الأسبان وخاصة الأندلسيين منهم حقيقة تاريخ أمتها ووعيها بالدور العظيم الذي نهض به الأسباني المسلم العربي في نسج خيوط ذلك التاريخ وصياغة آثاره الثقافية والمعرفية والحضارية[٢١] ، وقد كان من أثر هذا وذاك اهتمام أقسام العربية والاسلام في كلية الآداب بالجامعات الأسبانية وخاصة آداب غرناطة ومدريد وبرشلونة ب (الموضوع) الأندلسي وتوجيه طلبة الدراسات العليا ، إسباناً وغير إسبان ، إلى تحقيق نصوصه التراثية وترجمتها ، ودرسها ، هذا فضلا عما أولاه الاستشراق خارج أسبانيا ، في ألمانيا ، وهولاندا ، وفرنسا ، وانجلترا ، تراث الأندلس الأدبي ، والفكري ، والتاريخي من عناية واهتمام منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ولنا ، بعد هذا ، أن نتساءل : ماذا كانت حصيلة الاهتمام بابن الخطيب وتراثه ؟ وما هي مظاهر هذه الحصيلة ؟

أما حصيلة هذا الاهتمام فيعكسها لنا الثبت البيبليوجرافي الذي عُنينا بجمعه مما وقفنا عليه من كتابات عن ابن الخطيب في مختلف المصادر والمراجع ، وهو يتألف من مئات العناوين التي تناول فيها أصحابها مختلف جوانب هذه الشخصية وتراثها الأدبي ، والفكري ، والتاريخي بالبحث والدرس في العربية وفي غير العربية من اللغات الحية .

وأما مظاهر هذا الاهتمام فتبدو في مجالات أربعة ، نتناولها بالدرس فيما يلي :

أ ـ مجال النشر والتحقيق

بالاضافة الى أن بعض تصانيف ابن الخطيب وآثاره كانت في أوائل ما عرف طريقة إلى الطبع من كتب التراث الأندلسي فإنها في جملتها تعتبر من أوفر كتب هذا

(١٩) صدرت عن مطبعة بولاق ، وهي أول طبعة تشمل مجموع الكتاب
(٢٠) انظر ، د إحسان عباس ، « الأدب في الأندلس والمغرب » ضمن كتاب آثار (الأدب العربي في آثار الدارسين) ص ٢٥٧
(٢١) انظر ، دراستنا « الأدب المغربي الحديث في اللغة الأسبانية » ، مجلة (عالم الفكر) مج ١٧ ع ١ ص ١٦٧

التراث حظا من النشر والتحقيق سواء لدى المستشرقين أو لدى الدارسين العرب .

١ - لدى المستشرقين

يمكن التاريخ لظهور آثار ابن الخطيب مطبوعة في العصر الحديث بنشر أرجوزة « رقم الحلل في نظم الدول » في النصف الأخير من القرن الثامن عشر بعناية الراهب ميخائيل الغزيري[٢٢] . ثم بعد ذلك بعقود من السنين نشرت بعض رسائل ابن الخطيب وأشعاره مضمنة في القسم الأول من كتاب « النفح » للمقري في ليدن سنة ١٨٥٥م بعناية جماعة من المستشرقين أشهرهم « دوزي » الهولاندي .

ثم توالت عناية المستشرقين بآثار ابن الخطيب ، فنشر المستشرق الإسباني (فرنثيسكو سيمونيت) سنة ١٨٦٠م الجزء المتعلق بمملكة غرناطة من كتاب « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » وجعله ملحقا بكتابه « وصف مملكة غرناطة تحت حكم بني نصر »[٢٣] . ثم نشر المستشرق الألماني (ماركوس مولر) سنة (١٨٦٦م) الجزء المتعلق ببلاد المغرب من الكتاب المذكور مع أثرين آخرين لابن الخطيب ، هما : « خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف » و « مفاضلة مالقة وسلا » في كتاب بعنوان « نخب من تاريخ الغرب العربي »[٢٤] . واهتمت طائفة من المستشرقين بكتاب « إعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » فنشر منه (فرنثيسكو كوديرا) الأبواب المتعلقة بأميري دانية : مجاهد وابنه إقبال الدولة[٢٥] ثم نشر المستشرق البرتغالي (دافيد لويس لويس) الأبواب المتعلقة بثوار المريدين في نهاية دولة الملثمين[٢٦] ، واعتنى المستشرق الاسباني (ملشور أنطونيا) بنشر الفصل الخاص بملوك إسبانيا المسيحية[٢٧] . أما ليفي بروفنصال فقد اهتم بنشر النص الكامل للقسم الثاني من (إعمال الاعلام . . .) ، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٤ بالمغرب . وفي إطار اهتمام الاستشراق بتراث ابن الخطيب التاريخي نشر (كاسبار رميرو) مجموعة من الرسائل الدبلوماسية استخرجها من كتاب « ريحانة الكتاب » تحت عنوان « مراسلات ديبلوماسية بين غرناطة وفاس في القرن الخامس عشر »[٢٨] .

كما عني الاستشراق بتراث ابن الخطيب الطبي ، وكان (ماركوس مولر أول من اهتمْ بهذا الجانب في تراث ابن الخطيب ، فنشر سنة ١٨٦٣م رسالة « مقنعة السائل عن المرض الهائل »[٢٩] . ثم نشرت المستشرقة الإسبانية (مارية دي لاكونثيثيون) عملين طبيين آخرين لابن الخطيب ، أولهما « عمل من طب لمن حب » (١٩٧٢) ، وثانيهما « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » (١٩٨٤) . وحظي كتاب « السحر والشعر » دون غيره من آثار ابن الخطيب الأدبية بعناية مستشرق إسباني هو (كونتيننتي فرير) فنشر الكتاب سنة ١٩٨١ ضمن مطبوعات المعهد الإسباني - العربي للثقافة بمدريد وعلى

(٢٢) انظر ، Bibliotheca Arabico - hispano Escurialensis, t.2pp. 177-246.

(٢٣) انظر ، Simonet, Francisco Javier, Descripcion del Reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas. (Maarid, 1860).

(٢٤) انظر ، Marcus, J. Muller Beitrage zur Geschichte der Westlichen Araber. (Munchen, 1866).

(٢٥) انظر ، Centenario Michele Amari, Vol. 2, pp. 130-133.

(٢٦) انظر ، Arabes mas obras de Alexandre Herculano. pp. 130-137 (Lisboune, 1911).

(٢٧) انظر ، Revista "AL-Andealus" Vol. 1 pp. 105-154 (1933).

(٢٨) انظر ، REvista del Centro de estudios historicos de Granada Y su Reino. Tomo II (1912), III (1913).١٧(1913 — 1914).

(٢٩) انظر ، Sitzungesberichte der K. Bayerisehen. Acedemie der unissenchaften, 2 pp. 1—34 (1863).

اهتمام الاستشراق عموما ، بكتب التصوف وتصانيفه واهتمام الاستشراق الإسباني ، على الخصوص ، متمثلا في أحد أعلامه وهو الأستاذ أسين بلاثيوس ، بتراث الأندلس الصوفي ، فإننا لم نعرف سواء من مستشرقي الإسبان أو من غيرهم أحدا عنى نفسه بنشر أثر من آثار ابن الخطيب الصوفية مثل « روضة التعريف بالحب الشريف » . وغاية ما نعلم في هذا الصدد أن المستشرق الفرنسي (ماسينيون) كان حاول أن يحفز همم تلاميذه إلى تحقيق (الروضة) ولكنهم لم يفعلوا[٣٠]. غير أن هذا لم يحل بين أفراد من الجيل الجديد من المستشرقين الاسبان والفرنسيين وبين دراسة « روضة التعريف » على نحو ما سنبين في فقرة أخرى من هذه الدراسة .

٢ ـ لدى الدارسين العرب

لم تمض على ظهور الطبعة الأوربية للنفح إلا بضع سنين حتى ظهرت الطبعة المشرقية للنص الكامل للكتاب فأتيحت بذلك للقارىء فرصة الاطلاع على حظ غير يسير من شعر ابن الخطيب وترسله ، كما أتيحت له بذلك فرصة التعرف على عناوين مؤلفات ابن الخطيب وتصانيفه في مختلف المعارف والفنون ، الأمر الذي نقدر أنه حدا ببعض المشتغلين بالعلم والأدب في المشرق والمغرب إلى البحث والتنقيب عن تلك المؤلفات والتصانيف والتفكير في نشرها . وهكذا نشرت في تونس عام ١٣١٦هـ ـ ١٨٩٨هـ أرجوزة « رقم الحلل في نظم الدول » ، وتولى الاستاذ شفيق العظم في القاهرة عام ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م نشر جزأين من الإحاطة ، ثم نشر بفاس عام ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م النص الكامل لكتاب « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » . وفي نفس التاريخ أو قريبا منه نشر بفاس أيضا طرف يقع في نحو ثمانين صفحة من كتاب « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء المائة الثامنة »[٣١]، ثم نشر الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب عام ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م القطعة المتعلقة من كتاب « إعمال الأعلام » بتاريخ إفريقية وصقلية[٣٢].

وقبل أن نلم بجانب آخر من جوانب الحديث في هذه الفترة تنبغي الإشارة إلى أن جل ما رأيناه نُشر من آثار ابن الخطيب ، سواء على يد المستشرقين أو على يد الناشرين العرب ، جاء مليئا بالتصحيف والتحريف خلوا من التخريج والتعليق ، ومع ذلك فإنه لم يخل من فوائد تمثل أهمها في حفز همم طائفة من الدارسين المتخصصين للاعتناء بآثار ابن الخطيب بما فيه بعض الآثار التي سبق نشرها وذلك بتحقيقها التحقيق العلمي الرصين ، وكان من أثر ذلك أن تعززت المكتبة الأندلسية ، على مدى العقود الأربعة الأخيرة ، بجملة من مؤلفات ابن الخطيب وتصانيفه نذكر منها في مجال التاريخ والرحلات والتراجم : « الاحاطة في أخبار غرناطة » (١٩٥٦) بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان ، و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » و « مفاضلة بين مالقة وسلا » و « معيار الاختيار » وقطعة من « نفاضة الجراب »[٣٣] (١٩٥٨) بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، والجزء الثالث من كتاب « إعمال الأعلام » (١٩٦٤) بتحقيق الأستاذين محمد ابراهيم الكتاني وأحمد مختار العبادي ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » (١٩٦٦) و « معيار الاختيار » و « أوصاف الناس في

(٣٠) انظر ، تصدير « روضة التعريف » بتحقيق الأستاذ عبدالقادر أحمد عطا . ص ١٣ .

(٣١) لم نقف على هذه الطبعة ، وقد ذكرها المرحوم الأستاذ عبدالسلام بن سودة في « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » ١ . ٢٦٧ رقم ١٠٨٣ . كما ذكرها المرحوم الأستاذ إدريس بلماحي القيطوني في « معجم المطبوعات المغربية » بطاقة رقم ١٩٧ ، ولم يشر إلى هذه الطبعة الدكتور إحسان عباس في مقدمة تحقيقه للكتاب

(٣٢) انظر ، Centenario Michele Amari Vol. 2 pp. 427—482.

(٣٣) نشرت هذه الرسائل تحت عنوان « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس » ـ جامعة الاسكندرية (١٩٥٨) .

التواريخ والصلات » وكلها بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانة . وفي مجال التراث الأدبي : « الكتيبة الكامنة » (١٩٦٣) بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، و « جيش التوشيح » (١٩٦٧) بتحقيق الأستاذ هلال ناجي ، و « الصيب والجهام والماضي والكهام » (١٩٧٣) بتحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر . و « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » (١٩٨٠) بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان . وفي مجال التراث الصوفي والسياسي والفقهي « روضة التعريف بالحب الشريف » بتحقيقين : أحدهما للأستاذ المرحوم عبدالقادر أحمد عطا ، وثانيهما للدكتور محمد الكتاني ، و « الاشارة الى أدب الوزارة » و « مقامة السياسة » (١٩٨٠) وكلاهما بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانة ، و « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » بتحقيقين : أحدهما للأستاذ عبدالحفيظ منصور (١٩٦٦) وثانيهما للدكتور عبدالمجيد التركي (١٩٨٣) . هذا فضلا عما أنجز من تحقيقات لأعمال أخرى في نطاق رسائل وأطروحات جامعية ولم ينشر بعد ، مثل « ديوان ابن الخطيب »[٣٤] بتحقيق الدكتور محمد مفتاح ، وكتاب « السحر والشعر » بتحقيقات ثلاثة : أحدهما للأستاذ قدور إبراهيم عمارين محمد[٣٥] ، وثانيها للدكتور كونتني فرير وثالثها للأستاذ محمد مفتاح[٣٦] .

على أن ما ينبغي التنبيه إليه هنا هو أن أثر الجهد الصادق المخلص المبذول في سبيل إخراج هذه الآثار على صورة علمية مرضية سمة تطبعها جميعها ؛ غير أنها ، مع ذلك ، ليست على مستوى واحد من حيث التحقيق العلمي الرصين تبعا لتفاوت محققيها في الأخذ بأسباب هذا التحقيق والتزامهم بقواعده وأشراطه . ومن ثم نستطيع أن نميز فيما أنجز من تحقيقات لتراث ابن الخطيب التاريخي ، والأدبي ، والفكري مستويين اثنين :

« أولهما استوفى من التوثيق والضبط ، والتصحيح والتدقيق ما جعل الأثر المحقق على الصورة التي وضعه بها مؤلفه أو أقرب ما يكون منها ، ومرد ذلك ، بدرجة أولى ، إلى مقدرة المحقق العلمية بعامة وتمكنه من مادة الأثر المحقق بخاصة . ويمثل لهذا المستوى بتحقيقات الدكتور العبادي لبعض آثار ابن الخطيب في الرحلة والتاريخ من مثل الرسائل الأربع التي نشرها تحت عنوان « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس » والجزء الثاني من « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » والقسم الثالث من « إعمال الأعلام » فقد أنفقت فيها من معرفته بقواعد التحقيق العلمي وشروطه ومن سعة اطلاعه على عصر مؤلفها في مختلف جوانبه ما استطاع به أن يجلو الآثار المذكورة ، سواء من حيث توثيق النصوص أو تعليق الحواشي ، أو صنع الفهارس ، على صورة مثلى أدى بها خدمة جليلة للمشتغلين بتاريخ المغرب والأندلس[٣٧] واستحق ثناءهم تنويههم[٣٨] ومثال آخر للتحقيق القائم على منهج علمي ، رصين وسليم يطالعنا فيما أنجزه الدكتور محمد الكتاني لكتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » ، فقد اعتمد فيه لتوثيق النص وإقامته تسع مخطوطات ما بين نسخ مغربية وأخرى مشرقية مغنيا إياه بهوامش تضمنت تخريجات وشروحا وتعريفات بالغة القيمة والأهمية في استجلاء النص ، هذا فضلا عما ذيل به

---

(٣٤) قدم ـ مع دراسة لشعر ابن الخطيب ـ لنيل دبلوم الدراسات العليا في آداب فاس (١٩٧٢م)

(٣٥) قدم تحقيقه ـ مع دراسة ـ لنيل الماجستير بآداب عين شمس بالقاهرة (٣٥م) (١٩٧٥) . قدم تحقيقه مع دراسة وترجمة إسبانية للنص ـ لنيل الدكتوراة بآداب مدريد المركزية .

(٣٦) قدم تحقيقه ـ مع دراسة ـ لنيل دبلوم الدراسات العليا بآداب فاس (١٩٨١م)

(٣٧) انظر ، د حسين مؤنس ، عرض لكتاب « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب مجلة المعهد المصري ع ١ ـ ٢ مج ٥ ص ٢٧٨

(٣٨) انظر ، عرض د محمد بنشريفة لكتاب (النفاضة) . مجلة الكتاب المغربي ع ٤ ص ٣٤٠

الكتاب من فهارس علمية تيسر عملية البحث فيه والافادة من محتوياته ، كل ذلك أضفى على تحقيق الدكتور الكتاني من الدقة والضبط والاتقان ما وفق به حقا (في تقديم نص هذا الكتاب للمكتبة العربية كأقرب ما يكون إلى أصله)[٣٩]، هذا ما جعل هذا التحقيق للروضة معتمد الدارسين ، في بحوثهم حول الفكر التصوفي عند ابن الخطيب[٤٠].

وثاني المستويين لم يستوف ما أستوفاه الأول من شروط التحقيق العلمي الدقيق مما جعل النص (المحقق) عرضة للتصحيف . والخطأ . والإضطراب ويمكن عزو ذلك إلى جملة أسباب . قد يكون منها عدم تمكن المحقق ، علميا من مادة الأثر الذي تصدى لتحقيقه . وقد يكون منها كذلك تنوع مادة هذا الأثر مما يستدعي تنوعا في الاختصاص العلمي عند المحقق أو المحققين . وقد يكون منها ، أيضا ، إغفال بعض نسخ الأثر المحقق مما قد يكون في الرجوع إليه وإعتماده في توثيق النقص وإقامته فائدة عظيمة . ويمثل لهذا المستوى بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان لكتاب « الإحاطة » فإن به من ألوان التصحيف والخطأ ماجعل عدد غير قليل من نصوص الكتاب غاية في الإختلال والإضطراب . الأمر الذي دفع ببعض الدارسين إلى كتابة مقالات يتعقبون فيها تصحيفات النص (المحقق) وأخطاءه مصححين مقومين[٤١] . ولعل أهم سبب في ضعف تحقيق (الإحاطة) يعود إلى تنوع مادتها . ففضلا عن الأدب بشعره وترسله . وهو مما لاعلاقة له بالتخصص العلمي للمحقق . تشتمل (الإحاطة) على التاريخ والجغرافية وغيرهما من المعارف والفنون ، ومن هنا كان تحقيق نصها (يحتاج إلى مجهود جماعي من الأدباء والمؤرخين والجغرافيين لتحقيق ماورد في هذه الموسوعة من أعلام وأماكن . وشرح أسلوبها المعقد على أساس علمي صحيح)[٤٢] . وإلى (الإحاطة) نضيف مثالا آخر هوالتحقيق الذي أنجزه المرحوم الأستاذ عبدالقادر أحمد عطا لكتاب « روضة التعريف » فإن به قصورا من نواح شتى . يتعلق بعضها بتوثيق النص إذ إكتفى المحقق في ذلك بإعتماد ثلاث نسخ مشرقية لم تسعفه على تصحيح ما بالنص من تصحيفات وأخطاء ، ولم تسعفه كذلك على سد مابه من ثغراب وملء مابه من إسقاطات ، ويتصل بعضها الآخر بتعليق الحواشي . فلم يعن بتخريج إقتباسات النص وإشاراته وشرح مصطلحاته . هذا فضلا عن أخطاء النص المطبعية وخلوه من الفهارس الفنية مما جعل هذا العمل دون مستوى التحقيق العلمي الجيد .

ب ـ مجال الدرس والبحث .

كانت مواهب ابن الخطيب الأدبية ومعارفه العلمية من الغناء والسعة بالدرجة التي أتيح له معها أن يجري قلمه بالتأليف في مختلف الفنون والعلوم من أدب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وتصوف ، وأخلاق ، وفقه ، وسياسة ، وطب ، وبيطرة ، وموسيقا ، وغير ذلك مما تدل عليه عناوين كتبه ورسائله . وتبعا لهذا تنوعت الدراسات والبحوث التي أنجزت حول شخصية إبن الخطيب وتراثه وتعددت سواء في العربية أو في غيرها من اللغات . على أننا ، مع ذلك ، نستطيع أن نصنفها في مستويين اثنين ، هما :

(٣٩) انظر ، مقدمة المحقق لكتاب (الروضة ج ١ ص ٧٩ .

(٤٠) Emilio de Santiago Simon, El poligrafo granadino Ibn al—Jatib y el sufismo, pp. 65—66.

(٤١) انظر ، سلسلة المقالات النقدية التي كتبها أستاذنا محمد بن تاويت حول (الإحاطة) في أعداد مجلة (المناهل) ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ .

واانظر كذلك العرض النقدي حول تحقيق (الإحاطة) للدكتور عبداللطيف عبدالحليم ، مجلة (أوراق) ع ٤ ص ٤٩ ـ ١١٠ .

(٤٢) انظر ، د. أحمد مختار العبادي ، من التراث العربي الإسباني ، مجلة (عالم الفكر) مج ٨ ع ١ ص ٦٨ (١٩٧٧)

١ ـ دراسات وبحوث عامة .

وهي التي أراد بها أصحابها تصوير حياة ابن الخطيب والتعريف بآثاره . ومثل هذه الغاية ، ولاسيا حين يتعلق الأمر بشخصية كشخصية ابن الخطيب في ثراء نشاطها وخصب إنتاجها ، تستلزم نفسا طويلا في البحث والتنقيب ، ومن ثم لم يقدم على النهوض بذلك إلا فئة قليلة العدد من الدارسين . كان السباق فيهم إلى الحلبة العلامة المحقق الأستاذ محمد بن أبي بكّر التطواني بتأليفه سنة ١٩٤٨ كتاب « ابن الخطيب من خلال كتبه »(٤٣) ، في جزأين ، رسم فيهما حياة ابن الخطيب معتمدا على كتبه ، ودرس آثاره دراسة تميزت بالتقصي والتعمق (مما ينم على إطلاع واسع وإستحضار لايقل عما تحدثنا به الروايات عن العلماء الأعلام من حفاظ الإسلام(٤٤) ويمكن القول بأن كتاب « إبن الخطيب من خلال كتبه » يمثل ، بما حوى من مادة علمية غنية عن حياة ابن الخطيب وآثاره . معلما بارزا في تاريخ الدراسات الخطيبية ، يفصل بين مرحلتين عرفتهما هذه الدراسات ، إحداهما وهي ماقبل ظهور هذا الكتاب ، يغلب على إسهاماتها عنصر (الترجمة) بما يطبعه من تكرار و « اجترار » مما جعلها ، أي الإسهامات ، تدور في حلقة واحدة ، هي حلقة الترجمة لابن الخطيب وسرد أسماء تصانيفه ، دون أن تقوى على مغادرتها في محاولة لإحداث حلقات أخرى للبحث حول ابن الخطيب وتراثه . أما المرحلة الثانية ، وهي مابعد ظهور كتاب « ابن الخطيب من خلال كتبه » . فقد حرصت إسهاماتها أو جلها ، مفيدة من طريف الدراسة المذكورة وجديدها ، ومتذرعة بكشوف جديدة لبعض مصنفات ابن الخطيب ورسائله ، على التعمق بالدرس والتحليل في جوانب متعددة من إبداع ابن الخطيب وفكره على نحو ماسنبين فيما بعد .

ومع أنه قد مضت على تأليف هذا الكتاب وطبعه مدة غير قصيرة ، ظهرت خلالها دراسات عامة وخاصة حول ابن الخطيب ، فإن كتاب الفقيه التطواني لم يعدم طرافته ولم يفقد جدته ، بل إنه لايزال كيوم ظهوره (يبهر القاريء بالأسلوب الرفيع ، والعلم الغزير ، والتحقيق المنقطع النظير)(٤٥) كما يقول أستاذنا الدكتور محمد بنشريفة .

أما العمل الثاني الذي عرفناه ضمن الدراسات والبحوث العامة عن ابن الخطيب فهو كتاب السان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري الذي ألفه عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان مضمنا إياه دراسة (مستفيضة لحياة ابن الخطيب وتراثه ، إستوعب فيها مراحل هذه الحياة السياسية والفكرية القلقة بتفصيل شاف)(٤٦) و(فهرسا جامعا مفصلا عن آثار ابن الخطيب ، يقوم على دراسة واقعية شاملة لهذه الآثار)(٤٧) ولكي ينجز المؤلف ذلك قسم دراسته ألى أربعة كتب ، أولها في حياة ابن الخطيب ، وثانيها في تراثه الفكري ، والثالث والرابع أدرج فيهما نماذج من ترسل ابن الخطيب وشعره ، وإذا كان المؤلف أعرب في مقدمة كتابه عن إعجابه بشخصية ابن الخطيب وتقديره لتراثه وخاصة التاريخي منه باعتباره في نظره (من بين تراثه الزاخر أقيم ما خلف لنا ، ولاسيا عن

(٤٣) صدر عن معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان سنة ١٩٥٤ وتنبغي الإشارة إلى ظهور دراسات أخرى عامة قبل هذا التاريخ ، ولكنها غير وافية مثل دراسة « دي ألدكوا » بعنوان « ابن الخطيب : حياته وأعماله التاريخية وقد صدر بباريس سنة (١٩١٧م) ودراسة « ملشور أنطونيا » بعنوان « العالم الغرناطي المشارك ابن الخطيب » ، وقد صدرت بالاسكوريال سنة ١٩٢٦ ، ودراسة الأستاذ أحمد السكندري ، وقد نشرت في خمس حلقات بمجلة (المعرفة خلال سنتي ١٩٣١ - ١٩٣٢ .

(٤٤) انظر ، تقدمة الأستاذ عبدالله كنون للكتاب ج ١ ص ٩ .

(٤٥) انظر ، د . محمد بنشريفة ، « من الجديد في شعر ابن الخطيب » مجلة كلية الآداب بتطوان ع ٢ ص ٨٧

(٤٦) انظر ، مقدمة المؤلف للكتاب ص ٣ .

(٤٧) نفسه ص ٥ .

تاريخ القرن الثامن الهجري في الأندلس والمغرب وعن أحداث عصره، وتاريخ الدولة النصرية بنوع خاص[٤٨]، فإنه قد أكد هذا النزوع التاريخي عنده في دراسته، فخص حياة ابن الخطيب في كتابه الأول بتسعة فصول استغرقت في مجموعها أزيد من ثمانين صفحة بينما خص تراثه بخمسة فصول وقعت في نحو خمس وسبعين صفحة. وهنا نلمس الفرق بين دراسة الأستاذ عنان والسابقة لها، فهذه، على عكس تلك، إكتفت بتحرير ترجمة مركزة لابن الخطيب في نحو خمسين صفحة ووقفت بقية الكتاب، أي نحو أربعين ومائتي صفحة، على دراسة تآليف الرجل معتنية، خلال ذلك، بإستخلاص مامن شأنه أن يكشف عن جانب من جوانب حياة ابن الخطيب وشخصيته وعلاقاته بعصرييه أو يبلور آراءه وأفكاره ومواقفه. ومن الجدير بالإشارة كذلك أن دراسة الأستاذ عنان لمصنفات ابن الخطيب، على مابها من جهد غير منكور، لم تسلم من مآخذ، غالبيتها من عدم إفادتها ـ أي الدراسة ـ من سابقتها[٤٩].

أما الدراسة الثالثة من الدراسات العامة حول ابن الخطيب فقد كتبها الأستاذ البحاثة الحسن السائح بمناسبة ذكرى مرور ستمائة سنة على وفاة ابن الخطيب ونشرها في كتاب بعنون «منوعات ابن الخطيب»[٥٠] عرف فيها بعصر ابن الخطيب وثقافته وصلاته وإهتماماته الأدبية والعلمية، وشفع ذلك بإختيارات من شعر الرجل وترسله، وكل ذلك أضفى على دراسة الأستاذ السائح طابعا تعريفيا لم يجد معه متسعا للتحري والتعمق أو إثارة تساؤلات لم يسبق إثارتها حول حياة ابن الخطيب وسيرته وإبداعه وفكره.

٢ ـ دراسات وبحوث خاصة.

لاتغني الدراسات والبحوث العامة التي يديرها أصحابها حول شخصية، مامن الشخصيات الأدبية والعلمية وتراثها. مهما كان حظها من الإستقصاء والإستيعاب، عن الدراسات والبحوث الخاصة، وهي التي يعني فيها أصحابها، عادة، بالحبث في ظاهرة خاصة في أدب الشخصية المدروسة أو في فكرها في محاولة لبلورة إهتمام أدبي أو علمي متميز عندها أو للكشف عن الجديد والطريف في إبداعها الفني، ونتاجها الفكري، غير أنه ينبغي أن نقرر، هنا، حقيقة ربما غفل عنها بعض الناس فانتقصوا بسبب ذلك من أهمية الدراسات والبحوث العامة، ذلك أن هذه، أي الدراسات والبحوث العامة لئن لم تتح لها طبيعتها، في الأغلب الأعم، وهي طبيعة التقديم والتعريف التعمق في الدرس والتقصي في البحث فإن ذلك ليس يحول بينها وبين إثارة تساؤلات وإستفسارات غالبا ماتكون هي البواعث على إنجاز الدراسات والبحوث الخاصة التي ليست تعدو أن تكون، في نهاية التحليل، أكثر من جواب، غير قطعي، بطبيعة الحال، عن تلك التساؤلات والإستفسارات.

مهما يكن من أمر فإن الدراسين، عربا وغير عرب، لم يتركوا، على مدى العقود الأربعة الأخيرة، جانبا من جوانب التراث الأدبي والعلمي لابن الخطيب دون أن يتناولوه بالبحث والتحليل حتى أصبحنا بإزاء عدد واف من الدراسات والبحوث المتخصصة عالج فيها مؤلفها شخصية الرجل الأدبية والعلمية (بما لاتزيد عليه)[٥١].

(٤٨) نفسه، ص ٣.

(٤٩) للتمثيل على ذلك تنظر من كتاب الأستاذ عنان الصفحات التالية، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٧ حيث تردد حول بعض كتب ابن الخطيب أوهام كان سبق للفقيه التطواني أن نفاها وحقق أمرها في كتابه. تنظر الصفحات، ٢: ٥٤، ٧٦، ٨٨

(٥٠) صدرت ضمن مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

(٥١) انظر، كنون عبدالله، عصف وريحان ص ٨٥.

وسنرصد ، فيما يلي ، أمثلة من تلك الدراسات والبحوث على النحو التالي :

أ - في الأدب

إذا تركنا جانبا ماكتب عن ابن الخطيب ضمن الكتب التي أرخ بها أصحابها للأدب العربي أو لفن من فنونه بعامة أو في الأندلس بخاصة فإن في طليعة الدراسات التي خص بها أصحابها ، فيما نعلم ، جانبا من الإبداع الأدبي عند ابن الخطيب تلك التي كتبها الأستاذ محمد بن البشير منذ ربع قرن حول (شعر ابن الخطيب وموشحاته)(٥٢) ، ونشرتها مجلة (البيشه)(٥٣) ، وهي ، على فقرها من حيث المادة الشعرية وعدم احتفالها بنقد ما اعتمدته منها وتحليل تعتبر رائدة في هذا المجال من مجالات الدراسات الخطيبية ، وإليها يعود حظ من الفضل فيما ظفر به شعر ابن الخطيب وأدبه ، فيما بعد ، من بحوث ودراسات جامعية من مثل ماكتبه الدكتور محمد مفتاح حول شعر ابن الخطيب ضمن التقديم الدراسي لديوان ابن الخطيب الذي جمعه من مختلف المصادر(٥٤) ، ومثل دراسة الأستاذ وهاب سعيد الأمين عن « شعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية »(٥٥) ، ودراسة الدكتور محسن العبادي بعنوان (لسان الدين بن الخطيب الأديب)(٥٦) ، وجميعها لم ينشر بعد ، إلا أننا أطلعنا على أولاها ، وتقع في نحو إثنتين وسبعين صفحة من القطع الكبير ، وهي دراسة وصفية للفنون الشعرية عند ابن الخطيب . أما من حيث مستواها التحليلي فهي دون ماسيعرف عن الدكتور مفتاح مؤلفها فيما بعد من شغف بالغ بالتحليل السيميائي للنص الشعري ، ولكنها ، أي الدراسة ، تسجل ، مع ذلك ، خطوة هامة في الدراسات الخطيبية المتعلقة بنتاج الرجل الأدبي والشعري خاصة .

أما في غير العربية فلعل أوفى دراسة حول شعر ابن الخطيب هي التي كتبها الدكتور (كونتينتي فرير) حول نص واحد من مطولات شعر ابن الخطيب هو قصيدته المسماة « المنح الغريب في الفتح القريب » ، غير أننا ، للأسف ، لم نطلع ، إلى الآن ، على الدراسة المذكورة مع حرصنا على ذلك . فلا سبيل ، إذن ، إلى وصفها وتقويمها .

ب - في التاريخ

فيما عدا دراستين جامعيتين ، لم تنشرا بعد ، عنيتا ، كما يدل على ذلك عنوانا هما(٥٧) ، بالجانب التاريخي في تراث ابن الخطيب فإن مانعرفه مما أنجز من دراسات وبحوث حول هذا الجانب لا يتجاوز عدده الأربعة : إثنتين بالعربية ، وأخريين بغير العربية ، إحداهما بالفرنسية والثانية بالإسبانية ، أطلعنا من هذه الدارسات على ثلاثة نعرض لها مرتبة بحسب تاريخ نشرها .

أولاها هي الدراسة التي كتبها الأستاذ محمد زنيبر ، وعنوانها (ابن الخطيب والتجديد في المنهج التاريخي)(٥٨) ، تناول فيها بالبحث (طريقة ابن

(٥٢) ظهرت قبل هذه الدراسة دراسة أخرى متخصصة لم نتمكن من الاطلاع عليها كتبها الأستاذ فؤاد أفرام البستاني بعنوان « ابن الخطيب وقيمة الموشحات

(٥٣) ع ١ (١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م) .

(٥٤) انظر ، شعر أبي عبدالله محمد لسان الدين بن الخطيب ، نسخة مرقونة بمكتبة آداب الرباط

(٥٥) انظر ، شعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية - نسخة مرقونة بمكتبة آداب القاهرة

(٥٦) انظر ، لسان الدين بن الخطيب الأديب ، نسخة مرقونة بمكتبة آداب القاهرة .

(٥٧) انظر ، كباني حليمة ، نفاضة الجراب لابن الخطيب (رسالة إجازة منها نسخة مرقونة بمكتبة آداب فاس) ، وانظر ، Faghia, Saadio, Nufadit al- yirab de Ibn al- Jatib (Edicion y estudio)

(أطروحة دكتوراة ، منها نسخة بمكتبة كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية - أسبانيا) .

(٥٨) انظر ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ع ٢ ص ٧٩ وما بعدها ٧٩ م

الخطيب في معالجة الكتابة التاريخية والروح التي كان يفهم بها التاريخ)[٥٩] ، وذلك من خلال دراسة تحليلية للعوامل الذاتية والموضوعية التي دفعت ، إلى جانب الميل الخاص ، بابن الخطيب إلى الإهتمام بالكتابة التاريخية ، وتصوره ، من خلال الكتابة المذكورة ، للمادة الأولى للتاريخ ومفهومه وصياغته ومنهجه في التعامل مع الأحداث . وقد إستخلص الباحث في ختام الدراسة نتائج لاتخلو من أهمية حتى ماورد منها في صيغة تساؤلات . غير أننا ، مع تنويهنا بما في الدراسة المذكورة من إجتهاد في التحليل والإستنباط ، لايفوتنا أن نشير إلى عيب تلبسها ، ويتمثل فيما طغى على فقرتين من فقراتها من حشو وإستطراد لاداعي لهما في دراسة موجهة إلى جمهور المتخصصين أما الأولى فقد ضمنها الكاتب عرضا مفصلا للفرق بين المنهاج اليوناني والروماني والمنهاج الإسلامي في كتابه التاريخ[٦٠] ، وأما الثانية فقد أفاض فيها القول عن صياغة التاريخ وأسلوبه[٦١] .

وثانية هذه الدراسات كتبها مستشرق ألماني هو « ولهلم هانرباخ » بعنوان « ابن الخطيب المؤرخ : الشعب ـ الحكم ـ الدولة »[٦٢] ، وهي دراسة ، كسابقتها ، تتوسل بتحليل نصوص ابن الخطيب التاريخية ، وخاصة التي ضمن كتابه « إعمال الأعلام » ، للكشف عن فكره السياسي والاجتماعي ، أي عن فكر ابن الخطيب بوصفه فيلسوفا للتاريخ وليس مجرد واصف لأحداثه ووقائعه وهذه الدارسة بما اعتمدت من منهج تحليلي وبما انتهت إليه من نتائج هامة تعتبر رائدة في وسط الإستشراق الذي ظل ، مدى قرن ، أي إبتداء بـ « سيمونيت »[٦٣] و « جاسبار »[٦٤] و « موللر »[٦٥] ، وإنتهاء بـ « ثيكودي لوثينا »[٦٦] . ينظر إلى كتب ابن الخطيب بإعتبارها مجرد حوليات تاريخ عادية ، ومدونات ، غير متميزة ، بأعلامه وأحداثه ، ولم يجرؤ ، أي الإستشراق ، أن يدرس ابن الخطيب بوصفه فيلسوفا للتاريخ .

أما الدراسة الثالثة فهي التي كتبها الدكتور أحمد مختار العبادي ، وهو يعود من أبرز الدارسين العرب لتراث ابن الخطيب ، فقد إهتم بهذا التراث على مستويين اثنين ، أولهما مستوى النشر والتحقيق ، وقد أسلفنا القول عن ذلك في فقرة سابقة من هذه الدارسة . أما المستوى الثاني فهو مستوى دراسة ابن الخطيب المؤرخ[٦٧] ، وأهم ماكتبه في ذلك دراسة (لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التارخية)[٦٨] ، وقد تناول فيها ، بمنهج وصفي ، بعد مدخل في عصور الحكم الإسلامي في الأندلس وخاصة عصر بني الأحمر ، حياة ابن الخطيب وبيئته وعلاقته بمعاصرة ابن خلدون ، ثم عرض لمؤلفاته ، وخاصة التاريخية منها . وأفرد (النفاضة) بوقفه مطولة ، ومع مافي هذه الدراسة مما يدل على سعة إطلاع ، ومعرفة بشخص ابن الخطيب وتراثه التاريخي ، إلا أنها لم تكشف عن جديد في الفكر التاريخي .

---

(٥٩) نفسه ص ٨٤ .

(٦٠) نفسه ص ٨٥ ـ ٨٨

(٦١) نفسه ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

(٦٢) انظر : Hoenerbach, Wilhelm, "El Historiador Ibn al-Jatib: pueblo, gobierno-estado". Andalucin Islamica, I pp. 43-63 (1980)

(٦٣) مستشرق إسباني (١٨٢٩ ـ ١٨٩٧)

(٦٤) مستشرق إسباني (١٨٩٨ ـ ١٩٢٥)

(٦٥) مستشرق ألماني (١٨٠٩ ـ ١٨٧٤)

(٦٦) مستشرق إسباني (١٩٠١ ـ ١٩٧٣)

(٦٧) ينظر مما كتبه د . العبادي في هذا الموضوع (في التاريخ العباسي والأندلسي) ص ٥٤٦ ـ ٥٥٣ . و (مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب) ، مجلة (هسبيرس) ع XLVI ٢٤٧ ـ ٣٥٣ (١٩٥٩) ، ومقدمة تحقيق الجزء الثاني من (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)

(٦٨) انظر ، مجلة (عالم الفكر) مج ١٦ ع ٢ ص ٢٩ ـ ٦٢ (١٩٨٥) .

مطالعات

ملحوظات حول المسرح التربوي
التجربة البريطانية

محمود الشتيوي
دائرة اللغة الانجليزية
جامعة اليرموك
اربد / الأردن

مقدمة

تولى بعض المؤسسات التربوية في الوطن العربي بعض الاهتمام للأنشطة الفنية كالمسرح المدرسي ومسرح الطفل ، لما لها من فائدة تربوية في تنمية قدرات الطالب الادراكية ، وصقل مواهبه العقلية والحسية والاجتماعية . فوزارة التربية والتعليم في الأردن ، على سبيل المثال ، تشجع مثل هذه الأنشطة الفنية عموما ، والمسرح المدرسي على وجه التخصيص ، فتقيم له المهرجانات السنوية التي تقدم فيها المسرحيات المدرسية من مختلف مناطق المملكة لاختيار أفضلها ، ودعما للمسرح المدرسي فقد جهزت الوزارة بعض المدارس الشاملة والكبيرة بقاعات مخصصة للمسرح ، ووضعت الحوافز لتشجيع الأنشطة المسرحية فيها ، فضلا عن استضافة الفرق المسرحية المدرسية ، وفرق مسرح الطفل المحلية ، وفرق من بعض الأقطار العربية لتقديم عروضها الى طلبة المدارس في الاردن . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن كليات المجتمع المتوسطة تطرح ضمن مقررات تخصص التربية الابتدائية مسرح الطفل لاعداد المدرس الذي سيعمل في مرحلة رياض الأطفال أو في المرحلة الابتدائية (١) .

ولاشك في أن الاهتمام بالمسرح المدرسي ومسرح الطفل لايقتصر على الأردن ، وانما يمتد الى دول عربية أخرى ، كدول الخليج العربية ـ الكويت والبحرين وغيرهما حيث تدعم أنشطة المسرح المدرسي لتصبح جزءا تربويا مهما في حياة الطالب المدرسية .

إن اهتمام الجهات الرسمية التربوية في بلادنا بالمسرح المدرسي نابع من تبنيها فلسفة التربية الحديثة في

---

(١) على سبيل المثال أقامت وزارة التربية والتعليم في الأردن مهرجانا لأنشطة المسرح المدرسي لطلبة مدارس المملكة في مدينة اربد يوم ٢٧/٥/٨٣ ، واستضافت فريقا مسرحيا مدرسيا من دولة قطر بتاريخ ٢٥/١ ـ ٦/٢/٨٥ حيث قدم الفريق مسرحية للأطفال ومسرح عرائس ، وقد كان الجمهور من طلبة الصفوف الابتدائية والاعدادية .

كون الأنشطة الفنية المدرسية ـ وعلى رأسها المسرح ـ تساعد في تنمية شخصية الطفل واعداده لفهم العالم من حوله . ولاتقل أهميتها في الكشف عن طاقات الطالب الزائدة عن مقررات المنهاج المدرسي .

ونظرا لأهمية المسرح التربوي ، فقد أوصى المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، في دورته الأولى المنعقدة عام ١٩٧٠م ، بانتهاج سياسة تربوية عربية تسهم في جعل المسرح التربوي يلعب دورا بارزا في العملية التربوية بحيث يصبح جزءا من حياة الطالب . ولتحقيق ذلك فقد أوصى المؤتمرون بانشاء مسرح بسيط في كل مدرسة ، وتزويد المكتبة المدرسية بكتب مسرحية ، وتكوين فرق مسرحية تقدم عروضا مسرحية في مواسم متعددة تحت اشراف مدرب خاص ، وتخصيص جوائز تشجيعية لهذه الفرق ، واجراء مسابقات بين الطلاب في التأليف المسرحي ، وتوظيف المناسبات القومية والتعليمية في المسرح التربوي ، كي يصبح المسرح التربوي دعامة رئيسة في العملية التعلمية والتعليمية (٢) .

لقد تبنت كثير من الدول ـ كبريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها ـ سياسة تربوية تهدف الى ادخال المسرح في المدرسة ،وذلك بعد أن تأكدت بالتجربة والدراسة ، ونتيجة لما توصلت اليه الدراسات في علم النفس والتربية الحديثة ، من أهمية الدور الذي يقوم به المسرح في العملية التربوية ، فقامت منذ أوائل الخمسينيات تقريبا بادخال المسرح في المنهاج المدرسي ، واستعماله بوصفه مادة منهجية قائمة بذاتها لتنمية قدرات التلاميذ على التعبير عن أنفسهم ، وبوصفه وسيلة تربوية ايضاحية لتدريس بعض المناهج المدرسية الأخرى .

إن المسرح التربوي المدرسي في البلاد العربية لايزال مجرد نشاط تؤديه بعض المدارس بين الفينة والأخرى حسب توافر العناصر المهتمة بالمسرح ـ والتي تكون في الغالب من مدرسي اللغة العربية ـ وحسب توافر الامكانيات المادية وتشجيع ادارة المدرسة لأنشطة المسرح المدرسي . ويبدو أن الوقت قد حان لكي يأخذ المسرح المدرسي مكانته الصحيحة بين المناهج المدرسية الأخرى ـ تماما كما هو الحال في الدول المشار اليها سابقا . وهذه الاستنتاجات مبنية على انشاء مسارح الطفل في الأقطار العربية (كمسرح الطفل الأردني ، الذي مقره عمان ، مثلا) ، ودعم الجهات الرسمية له ، وتشجيع نشاط المسرح المدرسي ، واقامة المهرجانات المسرحية المدرسية ، وتبادل الزيارات مع الفرق المسرحية المدرسية العربية للاطلاع على تجارب هذه الأقطار والاستفادة المتبادلة من الخبرات في كل قطر منها ، أضف الى ذلك اهتمام بعض دارسي المسرح بالمسرح التربوي والعمل على ادخاله في مقررات بعض دوائر المسرح في الجامعات والمعاهد العربية ، مما يمكن الطالب من دراسة نظريات المسرح التربوي وسبل تطبيقها عمليا في المدارس .

وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالمسرح المدرسي على المستويين الرسمي والفردي ، فقد لمست أثناء اعدادي لهذه الدراسة أن مفهوم المسرح التربوي لايزال غير واضح لدى الكثيرين من المربين ـ وخاصة القائمين على شؤون المسرح المدرسي ـ إذ غالبا ما يظن أنه لايختلف عن المسرح العادي في شيء من حيث الاعداد والاخراج والتدريب وما الى ذلك ، الا أن الممثلين هنا هم الطلاب ومكان العرض هو المدرسة .

(٢) محمد حريسات « دور المسرح في التربية » (المجلة الثقافية) عدد ٩ ـ ٨٥/٨٦ ص ٨٢ ـ ٨٩

إن سبب عدم وجود وضوح في الرؤية نابع من غياب المدرس المتخصص وقلة التجربة في هذا المضمار بالذات ، فأصبح المسرح المدرسي مجرد نشاط يؤديه الطلاب في أوقات فراغهم أو بعد ساعات الدوام المدرسي ، تحت إشراف معلم اللغة العربية أو غيره أحيانا ، ممن يجد في نفسه الميل الى مثل هذا النشاط ـ حتى وان لم تتوافر لديه الخبرة والمعرفة اللازمتان لذلك . وهذه المرحلة من التجربة المسرحية المدرسية طبيعية على أية حال ، وقد مرت بها الدول الأخرى ـ كبريطانيا ـ في بادىء الأمر ، حيث كانت مادة الدراما أو المسرح تقع تحت مظلة دائرة اللغة الانجليزية ، وحتى يومنا هذا لايزال كثير من المدارس البريطانية يقدم المسرح المدرسي من خلال دائرة اللغة الانكليزية .

إن الهدف من تقديم هذه الملحوظات حول تجربة المسرح التربوي في بريطانيا هو التنبيه الى أن استعمال المسرح التربوي لايقتصر على بلد دون آخر . والدليل على ذلك أننا نجد العديد من الدول تتبنى سياسات تربوية جادة لادخال المسرح في المنهاج المدرسي . فلابد إذن من دراسة المسرح التربوي بأشكاله المختلفة ، والوقوف على تجارب الأمم الأخرى في هذا المجال للاستفادة مما توصلت اليه من نتائج ، والعمل الجاد على تطوير المسرح التربوي في بلادنا من مجرد مسرح مدرسي هزيل يقوم به نفر قليل من المعلمين هنا وهناك الى تبنى سياسة تربوية واضحة لاعداد برامج المسرح التربوي على أساس سليم ، وادخاله في المنهاج المدرسي ، ولايتأتي ذلك دون وجود المعلم المختص ، ودعم الجهات التربوية الرسمية له ماديا ومعنويا . إن تدريس المسرح التربوي في مدارسنا لايقتصر على خدمة العملية التربوية وحسب ، بل يتعداها إلى العمل على اعداد جمهور مستقبلي للمسرح العربي الذي طالما يشكو القائمون عليه من قلة الجمهور وعزوفهم عنه .

الدور التعليمي للمسرح

من المعروف أن ادخال الأنشطة الفنية ـ ومنها المسرح ـ الى مدارسنا حديث العهد ، وقد جاء نتيجة لتطوير وسائلنا التربوية ومناهجنا المدرسية في ضوء دراساتنا لنظريات التربية الحديثة وعلم النفس ـ تلك النظريات التي نادت بضرورة التعلم عن طريق المشاركة ، وأشارت الى أهمية تدريس الفنون في العملية التربوية . ولكن الدور التعليمي للمسرح من جهة ، واتصال المسرح الوثيق بالمدرسة من جهة أخرى ، ليسا جديدين على عالم المسرح والمدرسة . انما الجديد هو ادخال المسرح الى المدرسة بوصفه منهاجا تربويا قائما بذاته ، ووسيلة تربوية لتدريس المناهج الأخرى . وقد بدأ ذلك منذ مطلع هذا القرن ـ وخاصة في بريطانيا ـ ولكنه لايخفي على أحد أن الدور التعليمي للمسرح قديم قدم المسرح نفسه ، فاذا ما استعرضنا تاريخ المسرح الغربي منذ أيام الإغريق حتى اليوم ، فانه يتبين لنا أن المسرح لم يكن وسيلة ترفيهية فقط ـ كما قد يظن البعض بل كان ـ ولايزال ـ وسيلة اتصال شعبية تقدم من خلالها معايشة لتجربة انسانية معينة فلقد كان المسرح الاغريقي ـ كمسرح صوفوكليس مثلا ـ مسرحا تعليميا أخلاقيا ذا علاقة وثيقة بمصير الانسان وشؤونه الحياتية . واستمر هذا الدور التعليمي الأخلاقي للمسرح عبر العصور ـ مرورا بالعصور الوسطى حيث استغل المسرح كوسيلة لتبسيط مفاهيم الديانة النصرانية للعامة من الناس . كما استغل كمنبر سياسي لنقل الفكر واحداث التغيير السياسي والاجتماعي لدى الجمهور وللتعبير عن الموقف السياسي الراهن . كذلك كان مسرح بسكاتور الألماني في القرن العشرين وبه تأثر بريخت في تكوين نظريته حول المسرح الملحمي . وقد استغلت بعض الحركات المسرحية في الولايات المتحدة المسرح كوسيلة اتصال تهدف الى نقد الوضع الاجتماعي

ونقد الموقف السياسي . كذلك أيضا كان مسرح ما سميّ بالجريدة الحية (The Living Newspaper) ومسرح (Federal Theatre Project) وكلاهما تأثر بمسرح بريخت السياسي .

وأما في مجال النقد الأدبي المسرحي ، فقد نبه النقاد والمنظرون المسرحيون منذ القدم الى الدور الأخلاقي للمسرح التعليمي . فهذا أرسطوطاليس الاغريقي يتحدث في كتابه (فن الشعر) عن دور المسرح (التراجيديا) في نفس المشاهد ، حيث يتمثل ذلك في احداث التغيير النفسي والأخلاقي لديه . واستمر النقد الارسطي ومفهومه للدراما ودورها التعليمي يؤثران على مدارس النقد الغربية ـ مرورا بالرومان وعصر النهضة ـ سدني (Sidney) الانكليزي ـ والقرن الثامن عشر ـ الانكليزيين درايدن (Dryden) ، وجونسون (Johnson)وحتى اليوم . وقد أجمع هؤلاء النقاد على أن للمسرح وظيفتين رئيستين : الأولى تعليمية والثانية ترفيهية ـ مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجانب الترفيهي وسيلة محببة لنقل المضمون التعليمي وتقريبه الى نفس المشاهد (٣) .

ولعل من المفيد هنا ـ زيادة في الايضاح ـ أن ننقل ما قاله مارون النقاش عن دور المسرح التعليمي الأخلاقي بقالب ترفيهي . لقد تحدث هذا الكاتب العربي الذي كان أول من كتب في المسرح العربي متأثرا بالمسرح الغربي في سياق حديثه عن مسرحيته « البخيل » (١٨٤٧م) قائلا : إن للمسرح وظيفة تعليمية الهدف منها نقل درس أخلاقي ضمن موقف درامي معين (٤) . لقد أدرك هذا الكاتب العربي بفطرته السليمة الدور التعليمي الأخلاقي للمسرح فقام بنقله الى اللغة العربية لتعم فائدته .

المسرح والمدرسة

ان التصاق المسرح بالمدرسة ليس بالجديد أيضا ، بل ان استعمال المسرح في المدرسة (في بريطانيا مثلا) قديم قدم المدرسة نفسها . فعلى سبيل المثال كانت الدراما في العصر الأليزابيثي تعد جزءا من المنهاج المدرسي ، وكانت تقتصر على تدريس النص الأدبي والاعتناء بالتمثيل . وظهرت نتيجة لذلك الفرق المسرحية المدرسية التي كانت تقدم عروضها للطلاب والجمهور العام (٥) . وقد استمر الاهتمام بالمسرح المدرسي في العصور اللاحقة ـ مرورا بعصر عودة الملكية (١٦٦٠) والقرن الثامن عشر . وبقي الأمر كذلك حتى أوائل هذا القرن . وكانت من أهداف المسرح المدرسي ـ بالاضافة الى دراسة النص المسرحي الأدبي وتعلم التمثيل والاخراج ـ مايلي :

(١) اكساب التلاميذ القدرة على اللفظ السليم ـ وخاصة عند تعلم اللغات .

(٢) اكسابهم القدرة على التكيف مع المواقف المختلفة والتعبير عن المشاعر والاحاسيس .

---

(٣) انظر ماكتبه سيدني Sidney في مقالته An Apology for Poetry وما كتبه درايدن Dryden في مقالة An Essay of Dramatic poesy وما كتبه جونسون Johnson في مقالته The Preface to Shakespeare

(٤) وردت آراء النقاش هذه في سياق حديثه عن مسرحيته (البخيل) انظر نيقولا النقاش ارزة لبنان . بيروت ، ١٨٦٩ ص ١٥ ـ ١٧ .

(٥) Ken Robinson "Drama, Theatre and Social Reality," in Ken Robinson, ed., Exploring Theatre and Education (London: Heinemann, 1980), pp. 141-144.

John Allen, Drama in Schools. Its Theory and Practice (London: Heinemann, 1979), pp. 10-16.

(٣) تنمية الشخصية لدى التلميذ (٦) .

تجدد الاهتمام بالمسرح المدرسي في أوائل هذا القرن في بريطانيا ، ولمعت أسماء بعض المعلمين ممن نادوا باستعماله كوسيلة في العملية التربوية وفي تدريس المناهج المدرسية . فعلى سبيل المثال كان كولدويل كوك (Caldwell cook) البريطاني من أوائل الذين تحدثوا عن دور الدراما في التدريس لأنها تعطي الطالب فرصة للمشاركة ، وتزيد قدرته على التحصيل لارتكازها على عنصر اللعب ، ذلك الشيء المحبب لدى الجميع (٧) .

لقد استعمل كوك المسرح في تدريسه لشكسبير (William shakespeare) ، وأصبحت الدراما لديه تعني المعايشة والتجربة . أي انه استعمل المسرح كوسيلة تساعد الطلاب على استيعاب المادة المدرسية والاستمتاع بها . وقد صاحب هذا الاهتمام بدور المسرح التربوي ظهور بعض الجهات التي رأت في المسرح وسيلة علاجية لمشاكل النطق والكلام (Speech Therapy) ، واتخذ المسرح شكل التدريب (Training) ، الهدف منه تدريب الناس الذين يعانون من مشاكل حركية (٨) .

المسرح المدرسي

لقد كان المسرح المدرسي ولايزال الشكل المسرحي التربوي المعروف لدى معظم المدارس - سواء أكان في الغرب أم في بلادنا . واذا ما أضفنا اليه مسرح الطفل الذي أخذ مكانته المرموقة في مجتمعات اليوم ، فانه يصبح لدينا وسيلة مسرحية قوية من شأنها خلق التفاعل بين التربية والمسرح . ومع أن كثيرا من المدارس في بلادنا لايزال ينظر الى المسرح المدرسي ومسرح الطفل على أنهما مضيعة للوقت لامكان لهما في المدرسة ، الا أن الدراسات المتخصصة ورأي جمهور المربين في الغرب وفي بلادنا يؤكد أهمية المسرح في التربية وضرورة التصاقه بالمدرسة . ولم يعد الهدف من المسرح المدرسي تدريب الطلاب على التمثيل أو اعداد ممثلين محترفين ، بل ان له وظائف أهم في الحياة المدرسية كالتجديد في الحياة الثقافية للمدرسة ، واعطاء الطلاب المشاركين تجربة مفيدة ، وخلق حلقة وصل مهمة بين المدرسة والمجتمع المحيط بها - وخاصة اهتمام الآباء بنشاط الطلاب . لذا فانه - اذا أريد للمسرح المدرسي أن يحقق مثل هذه الأهداف - يجب أن لاينحصر في كونه نشاطا سنويا للمدرسة ينفذ في نهاية العام الدراسي - كما هو متبع الآن في كثير من المدارس ، لأن ذلك ينفصل عن النشاط الصفي وينحصر في مجموعة الطلاب المشاركين في التمثيل فقط ، ولكن يجب أن يصبح المسرح المدرسي أكثر شمولا بحيث يشتمل على أنشطة نابعة من العمل الصفي أو النشاط اللامنهجي . فبالاضافة الى المسرحية المدرسية السنوية يمكن تطوير أنشطة مسرحية أخرى عن بعض المشاريع الصفية تقوم بها جماعات مختلفة من الطلاب ، وتقديم عروض مسرحية نابعة من المنهاج مثلا ، كعرض مسرحية مدرسية تدرس في المنهاج أو مسرحة منهاج ما . ويمكن استضافة فرق مسرحية مدرسية من مدارس أخرى ، ونقل المسرحية المدرسية الى المدارس الأخرى أيضا (بعملية تبادل) . أما النص المسرحي فقد يكون مكتوبا (مسرحية) أو يتم تأليفه

---

(٦) Ken Robinson, "Drama, Theatre and Social Reality" pp. 144-179.

(٧) Caldwell Cook, The Play Way (London: Heinemann, 1914).

(٨) Gavin M. Bolton, Drama As Education (London: Longman, 1984), pp. 1-21.

جماعيا ـ خاصة في حالة مسرحة المنهاج باشراك المعلم والتلاميذ ـ وربما باشراك مدرسين آخرين ممن لديهم الاهتمام بهذا النوع من النشاط .

ويوصي المختصون في المسرح المدرسي بمراعاة النقاط التالية عند الاعداد للمسرحية المدرسية :

(١) توزيع الأدوار على الطلاب الذين يجدون في أنفسهم القدرة على نقلها واتقان أدائها ـ أي أن يتم اختيار أفضل الطلاب بوساطة المقابلة وغيرها ، واختيار النص المسرحي الذي يتناسب مع البيئة المدرسية ، ومقدرة الطلاب على التمثيل . ويمكن في هذه الحالة اختيارمسرحية مكتوبة تتناسب والطاقات والمهارات المتوافرة لدى الطلاب أو أن يقوم المعلم والطلاب معا بتأليف النص المسرحي .

(٢) ومع أنه لابد من تحقيق مستوى رفيع للعرض المسرحي لافادة الجمهور والممثلين ، فانه يجب أن لايكون ذلك هو الهدف ، بل إن المهم تعزيز العلاقات الاجتماعية في المدرسة وإيجاد الجو التربوي الذي يتحقق بالعمل المسرحي . أي أن الهدف من العرض ليس التمثيل والاخراج بقدر ماهو الغاية التربوية التي تنعكس فائدتها على المدرسة والطالب .

(٣) يجب أن يكون العرض ممتعا ومثيرا للمشاركين جميعا .

(٤) ليس الهدف من التأليف الجماعي للنص المسرحي تقليد كاتب مسرحي معين بقدر ما هو وسيلة تعبيرية قائمة بذاتها [٩] .

مسرح الطفل

بالاضافة الى المسرح المدرسي الذي نبت في المدرسة نفسها ، فقد ثبتت للجميع أهمية مسرح الطفل في تنمية مواهب الأطفال والتلاميذ في المراحل المدرسية الأولى ـ الروضة والابتدائية والاعدادية . ومن هنا جاءت فلسفة تدريس مسرح الطفل في مقررات التربية الابتدائية لتأهيل المعلم والمعلمة القادرين على التعامل مع الأطفال وتنمية قدراتهم ، ثم ان مسرح الطفل مسرح تربوي بحد ذاته . وقد أكد ذلك بيتر سليد (Petèr slade) الذي يعد أول من وضع نظرية المسرح التربوي بعد معايشة طويلة أمضاها في خدمة مسرح الطفل . وقد ترعى مسرح الطفل وتشرف على شؤونه جهة مستقلة أو مؤسسة تربوية يقوم العاملون عليها باعداد برامج الأطفال التي تقدم اما في مدارسها أو في مكان آخر معين ينقل اليه الأطفال من المدارس . والهدف من تقديم عروض مسرح الطفل تعليمي وترفيهي .

لقد بدأ ينظر الى مسرح الطفل في بلدان عديدة ـ كبريطانيا ـ على أنه جزء متمم لحياة الطفولة السليمة . ولذا قامت الجهات الرسمية الحكومية وغيرها بالعناية به ودعمه ماديا ومعنويا . وزاد الاهتمام بمسرح الطفل نتيجة للدراسات التربوية الحديثة وعلم النفس التي تتعلق بعالم الطفل ، وتنادي بضرورة معاملته كإنسان صغير حسب سنه ، وعدم تطبيق عالم الكبار عليه . لقد أشارت بعض الدراسات التربوية الى أن الكبار كثيرا ما يسيئون تربية الناشئة ، ويحطمون عالمهم الصغير بجعلهم يعملون ما يريدون حسب مستوى فهمهم وادراكهم ، مع أن للصغار عالمهم البريء ، وحياتهم الخاصة الخالية من مشاكل العالم الكبير [١٠] . وكثيرا مايربك الكبار الصغار ويفسدون عليهم استمتاعهم بعالمهم الصغير .

---

(٩) Lynn McGregor et al, Learning Through Drama (London: Heinemann, 1977), pp. 154-156.

(١٠) John Holf, Why Children Fail (Penguin, 1977), p. 165.

لقيت مثل هذه الدراسات تجاوبا من الدول الغربية ـ كبريطانيا والولايات المتحدة وكندا ـ فأنشئت المسارح التي تعني بحاجة الطفل والشاب ، ودعمت البرامج المسرحية التربوية التي تهدف الى تنمية مواهب الطفل وصقل شخصيته . ففي بريطانيا أنشئت منظمة مسرح الطفل البريطاني(The British Children's Theatre Association : BCTA) عام ١٩٥٩م . وجاء في دستورها أن من أبرز أهدافها تربية الطفل من خلال الدراما والمسرح وتشجيع تذوق الأطفال وتقديرهم لفنون المسرح .

وفي الولايات المتحدة تفرع من منظمة المسرح الأمريكي (American Theatre Association) منظمة مسرح الطفل الأمريكي (Children's Theatre association of America) (CTAA) . وعملت هاتان المؤسستان على ادخال المسرح التربوي في المدرسة . وقد أصبح مسرح الطفل والمسرح التربوي يدرسان في كثير من جامعات هذه الدول وتمنح فيهما الدرجات العلمية العليا .

هذا ، وقد تبنت منظمة اليونسكو الدعوة الى الاهتمام بمسارح الأطفال والشباب ورعاية حاجات الشباب الخاصة ، وعقدت المؤتمرات الدولية تحت اشراف هذه المنظمة وتجدر الاشارة هنا الى أن بعض الأقطار العربية قد أولت مسرح الطفل اهتماما خاصا ، ودعمته بعد أن نال هذا النوع من المسرح ثقة القائمين على المؤسسات التربوية فعلى سبيل المثال أصبح مسرح الطفل الأردني مؤسسة تربوية بارزة في المملكة بحيث لم تعد نشاطاته تقتصر على أطفال العاصمة عمان ، بل تم نقله الى بعض مدارس المملكة لتعميم الفائدة .

المسرح والتربية

نستنتج مما سبق أن المسرح ليس بالجديد على المدرسة ، ولكن الجديد في الموضوع هو ذلك التفاعل الفريد من نوعه بين المسرح والتربية في سياق المدرسة بحيث أصبح المسرح وسيلة تربوية تسهم في تنمية قدرات التلميذ العقلية والاجتماعية وما الى ذلك . وهذا الدور الجديد للمسرح التربوي قد بدأ مع ظهور النظريات الجديدة في التربية الحديثة وعلم النفس ، تلك النظريات التي قلبت الدور التقليدي للمعلم والمدرسة . ولم يكن دور المسرح في التربية بمعزل عن التطورات التي حصلت في ميادين التربية وعلم النفس في هذا القرن . فلقد حاول الكثيرون من المدرسين وعلماء النفس تحديد دور المدرسة في تربية الطفل ، وطرحت أسئلة كثيرة تتعلق بتحديد مفهوم التربية ودورها ، وتحديد دور المدرسة في اعداد الطفل ليصبح إنسانا قادرا على المشاركة في صنع العالم من حوله . وقد تمخض الجدل الطويل عن تحديد مفهومين للتربية : الأول تقليدي ؛ والثاني تقدمي :

(أ) إن الدور التقليدي يرتكز على ايصال المعرفة (المنهاج المدرسي) الى الطالب ، ويتوقف دور المعلم على ايصال المعرفة ، وذلك عن طريق التلقين والقاء المحاضرات وعمل الامتحانات اللازمة للوقوف من خلالها على قوة حافظة الطالب وعلى مدى استيعابه وتمثله لما يحفظ ، فالطالب هنا كالإناء الفارغ الذي يقوم المعلم بملئه بالمعلومات ، وبعد اتمام عملية الملء هذه يتأكد من أن المعلومات موجودة فعلا في هذا الإناء . وواضح تماما أن بؤرة الاهتمام في العملية التربية هذه ليس الطالب بل النظام التربوي الذي يتبنى هذه الفلسفة التربوية (System-Centred) .

(ب) وقد ظهر في بداية هذا القرن تحول واضح في مفهوم التربية يناقض الطريقة التقليدية آنفة الذكر . لقد

رأى أتباع هذه الفلسفة التربوية أن الأساس في العملية التربوية هو الطالب ، لذا فلا بد من التركيز على فرديته كإنسان مستقل ، وخلق المناخ المناسب في المدرسة بحيث يوجد للطالب البيئة المناسبة للنمو الطبيعي واكتشاف الذات . فالطفل هنا كالبذرة يرعاها المدرس لتنمو نموا طبيعيا حتى تؤتي أكلها . لقد نادى أتباع هذه المدرسة بتغيير دور المدرسة بحيث تتحول من مجرد مكان يتعلم فيه الطفل القراءة والكتابة ويحفظ المعرفة بوساطة التلقين ، الى مكان يعيش فيه الطفل حياته الطبيعية حقا . لذا تطلب هذا التحول في دور المدرسة البحث عن طرق جيدية للتدريس ترتكز على الطفل نفسه ، فتقدم له المعلومة من خلال التجربة والنشاط والمشاركة ، كما تحول دور المعلم من مجرد ملقن الى دور مرشد (١١) .

لقد لخص جون ديوي الفرق بين هاتين الفلسفتين عندما قال إن مركز الجاذبية في النظام التربوي التقليدي يقع خارج الطفل ـ أي في المعلم والنظام والمنهاج التربوي ـ أما حسب نظام التربية التقدمية فإن الطفل هو أساس العملية التربوية ، ويجب أن ينظر اليه من خلال نشاطه (١٢) .

المشاركة أساس المسرح

لقد كانت التربية التقدمية من أهم العوامل التي مكنت الدراما من القيام بدور جديد في العملية التربوية في النصف الثاني من هذا القرن . فعلم النفس الحديث والنظريات التربوية الجديدة أولت النشاط المدرسي اهتماما كبيرا بوصفه وسيلة تربوية ايجابية وخاصة في المراحل الدراسية الأولى . لذا بدأ المربون بالاعتناء باللعب والتعلم من خلال المشاركة والتجربة . من هنا برز دور النشاط المدرسي وامكان التعلم بوساطته . فمن المعروف أن علماء النفس قد نادوا بأن مفتاح العملية التربوية يكمن في التجربة وحب الاستطلاع ، وكذلك في القوى الكامنة عند الطفل ـ وأفضل نشاط يشتمل على هذه العناصر مجتمعة هو اللعب .

إن مايربط نظريات التربية الحديثة والمسرح التربوي هو عنصر المشاركة ، ذلك العنصر الذي يرى المربون أنه عامل مهم في تنمية شخصية الطفل . والمشاركة في مفهوم المسرح التربوي ترتكز على عنصر اللعب . إن اللعب عند الطفل عملية تعلمية من شأنها تعميق تجارب الطفل الذاتية ، وتوسيع خياله ، واكسابه سلوكا اجتماعيا يساعده على العمل الاجتماعي وفهم الآخرين . فاذا كان هدف التربية كما يرى العالم فروبل (Froebel) هو مساعدة الطفل وارشاده كي يتمكن من التفكير بنفسه بدلا من جعله مجرد مستقبل للمعلومات ، فإن النشاط الذي يمارسه الطفل من خلال اللعب هو تعبير ذاتي مباشر يعمل على تنمية الطفل عقليا وجسميا وخلقيا (١٣) .

لقد نادى جمهرة علماء النفس ورجال التربية مثل ميلر (Miller)وبياجيه (Piaget)وغيرهما بضرورة استغلال عنصر اللعب في تنمية الطفل ، وخاصة أن اللعب شيء غريزي في الطفل وبالامكان تسخيره في خدمة العملية التربوية وذلك بوضع الأنشطة المدرسية

(١١) Gavin M. Bolton, Drama As Education, pp. 3-5.

(١٢) John Dewey, The School and Society (Chicago: University of Chicago Press, 1921), p. 35.

(١٣) W.N. Holmann, trans. The Education of Man by Frebel (New York: D. Appleton and Co., 1887), p. 55.

المختلفة والبرامج التي ترتكز على اللعب بشكل يحقق أهدافا تربوية مدروسة (١٤) .

لاحظ علماء النفس وعلماء التربية أن اللعب يبدأ عند الطفل بصورة نشاط فردي ذاتي . ولكن كلما كبر الطفل أصبح اللعب عنده نشاطا اجتماعيا يشاركه فيه الآخرون من أترابه في البيت أو المدرسة . أي أن اللعب يصبح عنده تجربة اجتماعية جماعية من شأنها تحقيق الاتصال الثقافي مع الآخرين . وقد لاحظ هؤلاء العلماء أن قيام الأطفال بلعبة جماعية ما يحتم عليهم احترام قواعد منظمة لهذه اللعبة ، والا أصبحت اللعبة فوضى وذهبت المتعة المرجوة منها .

لقد أشار الدارسون للمسرح التربوي إلى إمكان الاستفادة من هذه الخاصة الغريزية عند الطفل في أداء المسرح التربوي ، بحيث يكون المسرح التربوي في الصف امتدادا لعنصر اللعب عنده ، ولكن بشكل منظم مدروس ، الهدف منه تحقيق أهداف تربوية يضعها المدرس . من هنا جاء دور المسرح التربوي بوصفه وسيلة تعمل على تكيف النشاط المدرسي بشكل يضمن استغلال الطاقة الكامنة عند الطفل لتمكينه من المشاركة ، وبالتالي اكتشاف ذاته وتنمية خياله ومواهبه .

استفاد أنصار التربية التقدمية من هذه النظريات والمناقشات ورأوا أنه يمكن استغلال حاجة الطفل الى اللعب في العملية التربوية نفسها ، وذلك بتطوير طرق تدريس جديدة ترتكز على عنصر المشاركة والنشاط الصفي انطلاقا من مبدأ أن عمل الشيء أنفع بكثير من مجرد التحدث عنه أو الاستماع اليه . هذه الطريقة تعطي الطفل الفرصة كي يربط بين النشاط الذي يمارسه في المدرسة وبين مايتعلمه في المنهاج . وقد سبق أن حذر جون ديوى من خطورة فصل المعرفة عن المشاركة ، ودعا الى التعلم من خلال الأنشطة ، لأن من شأن ذلك رفع مستوى العملية التربوية (١٥) .

في مثل هذا المناخ التربوي والدعوات المتتالية الى التجديد في التربية وأساليب التدريس ظهر المسرح التربوي بمفهومه الجديد في كل من بريطانيا والولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى . ففي بريطانيا نشر بيتر سليد (P. SLade)كتابة المعروف « دراما الطفل » (Child Drama) (١٩٥٤) بعد سنين طويلة أمضاها في العمل في مسرح الطفل ، ووضع فيه أسسا جديدة للمسرح التربوي ترتكز أساسا على عنصر اللعب ، وتهدف الى تنمية الطفل من الداخل . وطبق في كتابه تلك النظريات التي تحدث عنها علماء النفس والتربية الحديثة كما أشرت سابقا . وقد تبع سليد أنصاره الذين نشطوا في نشر طريقته في المدارس الانكليزية أمثال برايان واي (Brian way) الذي ناقش في كتابه (Development through Drama) الدراما بوصفها وسيلة تساعد على تنمية الطفل . لقد استفاد المعلمان من نظريات التربية المختلفة التي انبثقت عن

---

(١٤) من أهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع انظر :

Jean Piaget, Play, dreams and Imitation (**New York: Routledge and Kegan Paul, 1962**).

- - - - -, The Psychology of the Child (**New York: Routledge and Kegan Paul, 1966**).

Susanne Miller, The Pscyhology of Play (**Pelican, 1968**).

Jerome Bruner, ed., Play (**Pelicon, 1968**).

(١٥) **John Dewey**, Experience and Education (**New York: Macmillan, 1938**), **p. 25.**

أعمال مربين من أمثال ديوي وفروبل وبياجيه ، وبدأ خليط من نظريات هذين المعلمين يؤثر على العملية التربوية ، وأصبحت فكرة التعبير الذاتي (Self- Expression) تدخل في روح المنهاج والدراما . لذا بدأ ينظر الى الدراما على أنها وسيلة مناسبة للتعبير عن الذات ، وأصبحت عبارات النمو الذاتي وتنمية الأحاسيس وايقاظ القدرات الكامنة هي الهدف من العملية التربوية (١٦) .

وأما في أمريكا فقد نشطت الدعوة الى تبني المسرح التربوي منذ الخمسينيات وان اختلفت التسميات . فبينما يطلق سليد وغيره من الانكليز على المسرح التربوي تعبير (Drama- in- Education) ، فإن نظراءهم الأمريكان قد أطلقوا عليه تعبير (Creative Dramatics) . وقد نشطت بعض الدول الأوربية وكندا وأستراليا في تبني المسرح التربوي الحديث في مسارحها ، فقد دلت دراسة تحت اشراف معهد المسرح العالمي (IT I) التابع لمنظمة اليونسكو على أن من بين سبع وعشرين دولة جمعت منها المعلومات حول استعمال المسرح في المدرسة أشارت ثماني عشرة دولة باستعمال المسرح في مدارسها .

تحديد مفهوم جديد للمسرح التربوي

إن المسرح المدرسي ومسرح الطفل وأي نشاط مسرحي آخر قد تقوم به المدرسة من وقت الى آخر - كاستضافة فرق مسرحية أخرى أو نقل الطلاب لمشاهدة عروض مسرحية أنشطة لامنهجية تدعم العملية التربوية ولكنها تعد من روافد المسرح التربوي الحديث .

فالمسرح التربوي بمفهومه الجديد وتدريسه في المدرسة شيء حديث العهد في المنهاج المدرسي ، وان فلسفته وتطبيقه لايزالان مدار جدل واسع النطاق . فالنظرة التقليدية الى المسرح ترى أن مكان الدراما في المدرسة ينحصر في تدريس أدب المسرح وربما تاريخه ونظرياته المختلفة ، وهذا يقع تحت مظلة اللغة الانكليزية . ولكن الاهتمام الجديد بالدراما قد غير هذه النظرة التقليدية فأصبحت الدراما التربوية تخصصا ذامدلول واسع تغوص جذوره في التربية . لذا أصبح مفهوم الدراما يعني استعمالها كعملية اجتماعية تستمد قوتها من قدرة الطالب على تمثيل الأدوار (Role-play) ووضع نفسه في حالات متخيلة معدة خصيصا كوسيلة للكشف عن الأفكار والتعبير عنها بوساطة الصوت والجسم . وأما أهداف مثل هذه المادة فتتلخص بالنقاط التالية :

أ - تنمية قدرات الطفل على التعبير الذاتي ،
ب - تنمية ادراكه لنفسه وللعالم من حوله ،
ج - تنمية ثقته بنفسه ،
د - تنمية أحاسيسه وخياله .

يلاحظ من كل ذلك أن هذه الجوانب كلها جوانب نفسية لحياة الطفل - وهي كثيرا ماتغني المنهاج المدرسي (١٧) .

إن أهم هدف للدراما التربوية هو تنمية الفهم والادراك لدى الطفل من أجل تمكينه من فهم نفسه وسلوكه والعالم من حوله . فمن خلال مشاركة الطالب في تمثيل الأدوار المتخيلة فإنه يستطيع فهم الحالة المطروحة بنفسه واكتشاف الحلول للمشاكل التي تثيرها الحالة ووضع الاقتراحات . أما الهدف الثانوي للمسرح التربوي فهو استعمال الدراما كوسيلة ايضاحية يمكن

(١٦) Ken Robinson, "Drama, Theatre and Social Reality," pp. 141-175.

(١٧) Lynn McGregor et al, Learning Through Drama, p. 4.

الاستفادة منها في تعميق فهم الطالب لقضية معينة تتعلق بالمنهاج - وخاصة ذلك الجانب الذي يتعلق منه بالمواضيع الانسانية والأدبية .

عند الحديث عن المسرح التربوي بمفهومه الحديث يواجه الباحث مشكلة إعطاء مفهوم دقيق للمسرح التربوي على ضوء الممارسات والنظريات الجديدة للموضوع- وخاصة أن أول مايتبادر الى الذهن عند الحديث عن المسرح التربوي ، المسرح المدرسي والتمثيل وما الى ذلك . والصعوبة في اعطاء تعريف دقيق للمسرح التربوي ناتجة عن تعدد الطرق والمدارس في هذا الموضوع- خاصة وأن المنظرين فيه أصبحوا كثرا ، ولكل منهم جماعته وطريقته - لابل إن مدرسي هذه المادة في المدارس الانكليزية مثلا لايتفقون على منهج معين أو مفهوم محدد ، فهم يتحدثون عن دور المسرح المدرسي بعبارات سبق أن أوجزتها ، ثم يعطونك وصفا عمليا للممارسات التي يتبعونها في تدريسهم للمادة . ثم إن أكثر الكتب الموضوعة في هذا الحقل الجديد اما أن تكون وصفية (وصفا لحالات تدريسية كأمثلة للاستفادة منها) أو تحليلية لنظرية المسرح التربوي .

وربما يكون من المفيد هنا أن أذكر الصفات الأساسية للمسرح التربوي كما عرفته منظمة مسرح الطفل الأمريكي ، فبعد مداولات دامت حوالي العامين كما تقول جيرالدين سيكس (Geraldine siks) ، توصلت هذه المنظمة الى تعريف عام شامل لمفهوم المسرح التربوي يشتمل على الأفكار التالية :

(١) المسرح التربوي شكل درامي ارتجالي لايهدف الى الاستعراض يؤديه الأطفال بارشاد من المعلم .

(٢) يقوم المشاركون باشراف من المعلم بتمثيل أدوار متخيلة من شأنها توسيع تفكيرهم وتجربتهم الانسانية .

(٣) هذا النوع من المسرح مقصور على الأطفال والشباب ، وقد تصلح العملية المسرحية نفسها لكل الأعمار (ومن هنا ظهر دورها العلاجي) .

(٤) المسرح المدرسي نشاط يقوم فيه المدرس بمساعدة الطلاب في الكشف عن المواقف والتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم من خلال التمثيل .

(٥) يقوم الطلاب بارتجال الحدث والحوار المناسب للقضية المطروحة أو التي يراد اكتشاف مدلولاتها ، وذلك باستعمال عناصر الدراما لاعطائها شكلا ومعنى .

(٦) الهدف الرئيس من المسرح التربوي تنمية الشخصية وتسهيل التعلم للمشاركين ، وليس الهدف منه اعداد ممثلين محترفين .

(٧) يمكن استعمال المسرح التربوي كوسيلة ايضاحية في تدريس مادة الدراما أو أي فرع من فروع المعرفة .

(٨) يساعد عنصر المشاركة على تنمية قدرات التلاميذ اللغوية ، وعلى تنمية مهاراتهم في حل المشاكل والابداع ، مما يعطيهم صورة مرضية عن النفس ويقوي لديهم الوعي الاجتماعي والتعاطف مع الآخرين ، ويوضح لهم القيم والمواقف المختلفة .

(٩) وبما أن المسرح التربوي يرتكز على قدرة الطالب على التمثيل من أجل فهم العالم من حوله ، لذا فإن هذه العملية تتطلب منهم التفكير المنطقي والربط بين الأشياء[١٨] .

---

(١٨) Geraldine Siks, "Drama in Education — A Changing Scene," in Nellie McCaslin, ed., Children and Drama (New York: University Press of North America, 1985), p. 6.

نستخلص من ذلك أن المسرح التربوي أصبح يعني طريقة تربوية للتعليم تساعد الطالب على التعبير عن نفسه ، والكشف عن قضايا وعلاقات مختلفة بوساطة مشاركته في لعب دور مميز (مرتجل) تنمي لديه القدرة على فهم العالم من حوله . ولايحتاج التلاميذ الى مهارات مسرحية أو دراسة لفنون المسرح من أجل المشاركة في الدرس المسرحي ، ولكن عليهم تحقيق المتطلبات التالية :

(١) تصديق الحدث أو الحالة المتخيلة التي سيقومون بأدائها .

(٢) على كل طالب تبني دور معين ومعايشة هذا الدور في خياله ووجدانه .

(٣) الاستمرار في اللعب والتعبير عن الحالات المرتجلة شفويا وحركيا .

(٤) التفاعل مع بقية المشاركين في لعب الحالة المتخيلة حتى النهاية .

أشكال المسرح التربوي

بالإضافة الى تباين نظريات المسرح التربوي وصعوبة اعطاء تعريف محدد لمفهوم المسرح التربوي بسبب طبيعته دائمة التغير ، فقد اختلفت أساليب هذا الموضوع وطرق تدريسه . إن معظم المؤلفات في هذا الحقل لاتعدو كونها غير وصف لمشاهد حصص مسرحية تطبيقية اتبع أصحابها أساليب شتى لتحقيقها . وهذا بالطبع يشكل صعوبة للمعلم ، وذلك عندما يتعين عليه أن يحدد الطريقة التي ينبغي له اتباعها اذ يتوجب عليه عندئذ دراسة كل ماكتب عن هذا الموضوع حتى يقرر بنفسه الطريقة المناسبة له ، وهذا يعني تعدد أساليب المسرح التربوي ، وأنه يجب دراسة كل نوع منه على حدة .

ولقد دلت الدراسات التي تناولت هذا الموضوع في المدارس البريطانية على أنه على الرغم من اختلاف الطرق الا أن هنالك عناصر مشتركة للمسرح التربوي . لابل إن اعطاء طرق محددة لتدريس هذه المادة سيؤدي الى « تجميد » العملية التربوية ، فالطريقة أو الأسلوب يعتمد بالدرجة الأولى على أهداف المدرس ، وعوامل أخرى كالصف وأعمار الطلاب والمكان المتاح والزمن وخلفية المدرس نفسه .

الارتجال أساس المسرح التربوي

لاحظ الباحث من خلال دراسته للمسرح التربوي ومشاهدته حصصه في بعض المدارس الانكليزية أن الصفة الرئيسة لحصص المسرح التربوي هي الارتجال (Acting-out) ، ويعني ذلك ترك الأطفال على سجيتهم ودفعهم في حالات متخيلة الى تمثيل أدوار مفترضة .

ليس الارتجال جديدا على المسرح ، فهو يستعمل في المسرح لاعداد الممثل وتدريبه من أجل السيطرة على أسلوبه وتغيير موقفه نحو الآخرين . ويساعد أيضا فيما يتعلق باكتشاف المعنى الضمني للنص المسرحي ، مما يساعد على تحليله . والارتجال أيضا وسيلة لخلق حالة معينة يكتشف بها الممثل نفسه . وهذه الحالة إما أن تكون مبنية على تجربة حقيقية عند الممثل ـ وهنا يساعد الارتجال على فهمها بشكل أفضل أو تكون حالة حقيقية ولكن الممثل لم يمر بها أو يعايشها ، وهذا يعني اكتشاف هذه الحالة وفهمها (١٩) .

لقد أصبح الارتجال العنصر الأساسي الذي يعتمد عليه المسرح التربوي ، فالهدف من الحصة المسرحية

(١٩) John O'Toole,Theatre in Education (London: Hodder and Stoughton, 1976), pp. 10-16.

اعداد تجربة منوعة يعيشها الأطفال بحيث يصبحون هم أنفسهم موضوع العملية التعليمية . فبوساطة تمثيل الدور أو ارتجال حالة مايقوم المعلم بوضع الأطفال في حالة متخيلة يتمكن الأطفال بوساطتها من اكتشاف المواقف وفهم مشاعر الآخرين .

الارتجال شيء طبيعي عند الأطفال ، ففي أثناء لعبهم يمثلون أدوارا مختلفة متخيلة حسب قواعد اللعبة . ويمكن استعمال الارتجال في مسرحة أي موقف من الحياة التي يرى المعلم أن من شأنها تعميق تجربة الطفل ، وحل بعض المشاكل السلوكية التي قد يواجهها . وقد يساعد على فهم قضية اجتماعية أو أخلاقية يواجهها الطفل في المجتمع .

إن الاساس في الارتجال ـ كما تقول دوروثي هيثكوت (Dorothy Heathcote) هو ايمان الطفل بالدور الذي يؤديه . أي أنه تجب معايشة الدور الذي يلعبه الطفل ـ ومن الواضح أن هذا الأسلوب تمتد جذوره الى مدرسة المخرج الروسي ستانيسلافسكي (Stanislavsky)الذي اعتمده في اعداد الممثل (٢٠) .

معلم المسرح التربوي

المهم في انجاح عملية الارتجال هو التخطيط السليم للحصة المسرحية ، والا انقلبت في غيابه الى فوضى وضاعت الفائدة المرجوة منها ، وخاصة عندما يفقد المعلم السيطرة على الأمر . وثمة خطوات ثلاث يجب اتباعها عند التخطيط للحصة المسرحية :

(أ) يجب أن يحدد المدرس أهداف الحصة بشكل واضح ،

(ب) يجب توضيح الخطوط العامة للدرس واطلاع الطلاب عليها ،

(ج) تجب اثارة الطلاب للمشاركة بحيث ينخرطون في النشاط دون اجبار . وهذا مهم جدا وخاصة في أول الأمر ، فقد يغلب الطلاب الحياء أو الضحك أو عدم التصديق ، لكنهم ينسجمون مع النشاط تدريجيا وينسون الواقع . ويجب على المعلم مراعاة توفير عنصر الاثارة حتى لايتطرق الملل الى نفوس الأطفال فيعزفوا عن الاستمرار ويفقدوا الاهتمام بالنشاط .

إن تحقيق الأهداف التربوية للمسرح التربوي يعتمد بالدرجة الأولى على المعلم ، فمهمته صعبة وحساسة إذ أنه يتحمل مسؤولية الحصة ، والعمل على تحقيق أهدافها ومتابعة المنهاج الذي يدرسه . ولايمكن تحقيق ذلك دون فهمه لسيكولوجية الأطفال ومعرفة الأمور التي تثيرهم وتهمهم ، واشراكهم في العملية المسرحية نفسها . ويتوقف عليه اختيار ما هو حسن من المواضيع ، فمعلم الدراما لايدرس الدراما بالمفهوم التقليدي ، بل عليه خلق حالات يستطيع الطالب أن يتعلم منها بنفسه بارشاد المعلم . لذا يمكن أن تحدد واجبات معلم الدراما بالنقاط التالية :

(١) خلق الحالة أو الحدث الذي يعطي الطالب فرصة التعبير عن الذات ويشركه في نفس الوقت في عملية تربوية ،

(٢) اختيار الموضوع الذي يهم الطالب ويدفعه الى المشاركة .

(٣) اختيار الأنشطة أو طرح الأوامر التي يستطيع الطلاب تنفيذها وتفيد في توسيع مداركم .

---

(٢٠) Liz Johnson and Cecily O'Neil , ed., Dorothy Heathcote: Collected Writings on Education and Drama (London: Hutchinson, 1985), pp. 44-53.

(٤) تعميق تفكير الطالب وشحذ القدرة الابداعية لديه .

(٥) ملاحظة المواقف التي من شأنها تنمية التفكير الذهني عند الطالب وتجنب تلك التي تضر بالعملية التربوية .

(٦) تغذية المعرفة التي يكتسبها الطالب بأنشطة مسرحية أخرى وبتمارين المتابعة ،

(٧)تشجيع التفكير الذاتي والتقويم عند الطالب .

(٨) معرفة الطلاب وكسب ودهم وثقتهم ، فبدون هذه الثقة لن يجد المعلم التجاوب أو التعاون لديهم . ويجب الاستماع الى آرائهم واحترامها بغض النظر عن أعمارهم . إن الثقة المتبادلة بين المعلم والطالب والتعاون الناتج عن ذلك يؤديان الى عملية الاكتشاف .

(٩) يجب على المعلم أن يتحلى بالموضوعية ، وأن يقوم العملية المسرحية ، وأن يعرف مدى نجاحها . واذا ماكان هناك فشل ، فعليه تحديد الأسباب لتجنبها[٢١] .

مثال توضيحي

يجب إعداد حصة المسرح التربوي بحيث تناسب أعمار الطلاب لأن مادة الدرس وطريقة أدائها تعتمدان بالدرجة الأولى على سن الطلاب والأهداف التي يضعها المدرس . ان من الأفضل أن يبدأ المدرس باختيار الموضوع الذي ينبع من معرفة الطلاب أنفسهم أو تجربتهم ، كأن يسألهم أسئلة من شأنها الكشف عن المادة التي تؤدي الى تحقيق أهداف الدرس . وربما يطرح المعلم في أثناء النقاش موضوعا معينا ، ويرقب مدى تجاوب الطلاب معه واستعدادهم لمناقشته وتمثيله ، ومن ثم فقد يكون الموضوع قصيرا بحيث لايشغل غير حصة واحدة ، وقد يأخذ شكل مشروع يتم تحقيقه على مراحل ـ وخاصة اذا ماتطلب دراسة وبحثا في المكتبة يقوم به الطلاب أنفسهم تحت اشراف المعلم . وغالبا ماتشكل مسرحة جزء من المنهاج مشروعا يتطلب عدة أسابيع لانجازه ـ وهذا أكثر مايكون في المدارس الثانوية . ولتوضيح ماسبق أسوق هنا مثالا يتعلق بمنهاج التاريخ في احدى المدارس الانكليزية التي تتراوح أعمار طلابها مابين ١٠ و ١١ سنة ، وهي مدرسة متوسطة .

عنوان الدرس : حريق لندن عام ١٦٦٦م :

يتعلق هذا الدرس بحريق لندن عام ١٦٦٦م ، ويهدف الى الكشف عما يكون قد حصل في أثناء الحريق . وضع المعلم أهداف الدرس على النحو التالي .

١ ـ إثارة اهتمام الطلاب بحادث تاريخي معين من أجل تشجيعهم على معرفة الكثير عنه ،

٢ ـ وضع التلاميذ في حالة معينة ـ تاريخية ـ توفر لهم فرصة تنمية اهتماماتهم ، وتساعد على تحسين التعبير اللغوي لديهم في موضوع معين ،

٣ ـ تعريف الطلاب بطرق (وأساليب) تأليف « قصة » مستمدة من وقائع التاريخ ،

٤ ـ زرع روح البحث العلمي لديهم .

بما أن هذا الموضوع يتطلب البحث في المكتبة عن المصادر والمراجع التاريخية ودراستها ، فإن المشروع ينفذ

(٢١) Cecily O'Neill and Alan Lambert, Drama Structures: A Practical Handbook for Teachers (London: Hutchinson, 1985), pp. 11-29.

على مراحل ، يتطلب انجازها غير حصة صفية . أولا ، قام مدرس المادة بتقسيم الصف الى مجموعات صغيرة ، وأخبر كل مجموعة على حدة أن حريقا قد شب في لندن عام ١٦٦٦م ، (لاحظ أهمية اعطاء التاريخ لأن الحادث قد وقع في الماضي ، في وقت يختلف كليا عن حاضرهم) . وقد أثير نقاش طويل حول هذا الموضوع ، وطرحت الأسئلة وقام المعلم باعطاء المجموعات المعلومات الضرورية . وفي الخطوة الثانية طلب من التلاميذ النظر في الكتب المتعلقة بالموضوع وصور الحريق والناس والشوارع . وبعد اجراء المطالعات اللازمة توصل التلاميذ الى الحقائق التالية :

أ ـ كانت معظم البيوت مصنوعة من الخشب متلاصقا بعضها ببعض في شوارع ضيقة .

ب ـ كان معظم الناس من الفقراء وقد ازدحموا في مساكن ضيقة .

ج ـ كانت وسائل النقل قليلة مما أعاقهم عن نقل أمتعتهم .

د ـ كان الناس يهربون الى النهر حيث الماء .

هـ ـ كان على الناس استعمال الأواني (دلاء) لنقل الماء من النهر لاطفاء الحريق ، اذ لم تكن هنالك اطفائيات .

وقد استعملت هذه المعلومات التي جمعها الأطفال كأساس للعمل المسرحي . وفي الخطوة التالية ، أخبر المعلم الطلاب أنهم من أهل لندن وأنهم في خطر من الحريق ، فما عليهم أن يفعلوا ؟ وقد استطاعت كل مجموعة تأليف قصة حول حريق لندن :

الحالة الأولى : تكشف عن وجود لص يسرق من كومة أمتعة ملقاة خارج فناء منزل . يقوم الناس بمطاردته فيهرب متجها نحو النهر تاركا الناس خلفه يصرخون عليه ويومئون بغضب . بعدها يعود الناس الى منازلهم لجمع أمتعتهم وانقاذها من الحريق الا أنهم يكتشفون أن النار قد حالت بينهم وبينها ، فيضطرون الى الهرب : بعضهم في الشوارع وبعضهم في النهر .

الحالة الثانية : تكشف عن سيدة ثرية تطلب من خادمتها حزم أمتعتها ومجوهراتها ووضعها على فرس هزيلة لاتحتمل الحمل الثقيل الذي وضع على ظهرها . وأخيرا يتدخل زوج السيدة ويقنعها بأن تترك أمتعتها وتحمل الطعام والملاحف فقط للحاجة اليها .

الحالة الثالثة : تكشف لنا عن مجموعة من الناس قد حزموا أمتعتهم وحملوها متجهين نحو النهر الذي يمثل مكان السلامة . ولكن في منتصف الطريق تكتشف احدى النساء أن طفلها مفقود ، فيبدأ كل واحد من المجموعة بالبحث عنه ، وأخيرا يجدونه نائما تحت أمتعة أحدهم ، فترتاح المرأة ويجتمع شمل المجموعة مرة أخرى فتحمل أمتعتها لتسلك طريق النجاة .

بعد أن انتهى التلاميذ من تأليف قصصهم هذه عن الحريق ، اجتمعوا معا لربط هذه القصص وتنسيقها معا لتكوين قصة واحدة متكاملة عن الحريق ـ وبالطبع كان المعلم يتدخل باقتراحاته وأسئلته البناءة ليساعد في عملية الدمج . ومن النقاط التي أثارها :

١ ـ أن يتفق التلاميذ على اتجاه النهر .

٢ ـ أن يتفقوا على هيئة معينة تميز الفقير من الغني .

٣ ـ أن يقرروا شكل المسرحية وتحديد مكان كل مجموعة .

٤ ـ امكان ادخال الموسيقا بوصفها مؤثرا صوتيا اذا اقتضت الضرورة .

وبعد هذا النقاش يقوم التلاميذ بارتجال القصة التي نسجوها حول الحريق ، ولا يتدخل المعلم الا اذا شعر

بحدوث تخلخل في العمل المسرحي ، وعندما يشعر بالحاجة الى تقديم اقتراح لربط جزئيات القصة (٢٢) .

إن مثل هذا التمرين يحقق فوائد عدة للعملية التربوية كتشجيع روح البحث العلمي والرجوع الى المراجع ، وتبادل الآراء ، وخلق التفاعل الاجتماعي ، والقدرة على تأليف القصة باستعمال الخيال ، وتعميق الفهم لحادث تاريخي ، وذلك بمعايشته فترة زمنية معينة يدرسها الطلاب في منهاج التاريخ المقرر .

نلاحظ مما سبق أن المسرح التربوي يتعلق بثلاث مناطق رئيسة :

الأولى : يقدم المسرح وسيلة « خيالية » يكتشف الطلاب من خلالها « الواقع » ، بمعنى أن الأساس في المسرح التربوي القبول بتمثيل الدور مما يمكنهم من كشف الواقع من حولهم .

الثانية : يستخدم المسرح التربوي بعض أساليب المسرح العادي : تأليف القصة أو الحدث ، والاتفاق على طريقة الأداء والحركة والتمثيل .

الثالثة : أن الدراما تعني التغير . فعلى الرغم من أن الحصة المسرحية عمل خيالي ، الا أنه يجب أن يكون الهدف (هو) العالم الحقيقي . ويجب أن يكون للتجربة قيمة انسانية .

ولاتوجد قواعد محددة لأداء الدرس المسرحي ، بل إن لدى كل معلم الخيار في اختيار الموضوع وطريقة اعداده ومسرحته ، ولكن الطابع الغالب على الحصة المسرحية هو الارتجال الذي يمكن الطلاب من معايشة جو متخيل أو تاريخي . أما بالنسبة لاختيار الموضوع فانه قد يكون متخيلا ، مستمدا من القصص والأساطير ـ وخاصة في مدارس الأطفال ، أو قد يكون مأخوذا من الواقع ـ واقع الحياة والمشكلات التي يعيشها الطلاب ـ وخاصة في المدارس الثانوية ، وربما يرتكز على المناهج في المدرسة ـ كالتاريخ والأدب .

أسلوب آخر للمسرح التربوي :

المسرح التربوي ديناميكي الحركة يواكب المتغيرات في علم النفس والتربية ويتجاوب مع احتياجات المدارس والمؤسسات التربوية ومع تطور عالم الطفل لذا تسعى السلطات المشرفة عليه الى تحسينه ومتابعة برامجه في المدارس والمؤسسات التربوية المختلفة ، وتعقد له المؤتمرات والندوات . وتجري الدراسات الميدانية وغيرها لتقويم فائدته للعملية التربوية وتحسين طرق برمجته في المنهاج المدرسي . وقد اتبع المسرح التربوي طرقا شتى قد تختلف في الأسلوب ولكنها تتفق في الهدف والنتيجة ، ومن أبرز أشكال المسرح التربوي وأكثرها قبولا لدى الجهات التربوية في المملكة المتحدة بعد حصة المسرح التربوي في المدرسة ، مايسمى بـ (المسرح في التربية : Theatre in Education) الذي ظهر في منتصف الستينيات ، واستطاع أن ينتشر في انحاء بريطانيا ويتخذ مراكز له في المدن والتجمعات السكنية الكبيرة ليعد برامجه المسرحية التربوية للمدارس على اختلاف مستوياتها . ولست هنا بصدد التأريخ لهذه الحركة أو الحديث عنها باسهاب ، فان ذلك مدون في العديد من الدراسات التي تناولت ظروف انشاء هذا

---

(٢٢) ورد وصف هذا الدرس في :

Cynthia Davies, "Drama Across the Curriculum in a Middle School," in Drama Across the Curriculum (London: Educational Drama Association, n.d.), pp. 19-21.

المسـرح وتركيبتـه وما الى ذلـك (٢٣) . ولكنني أود أن أتحدث هنا عن هـذا النوع من المسـرح لأنني أرى أنه بالامكان تكوين فرق مسـرح تربـوي على غـراره تتبع الجهات الرسمية المشرفة على التربية والتعليم في بلادنا .

يتضمن المسرح في التربية - كما يفهم من اسمه نفسه (Theatre in Education)عناصر المسرح والتربية والتعليم معا ، ذلك أنه يستعمل وسائل مسرحية لتقديم تجربة الهدف منها تربوي ، فبرنامج المسرح في التربية يحتوي على عناصر المسرح من جمهور ومكان عرض : - الجمهـور هم الطلاب ، ومكـان العرض عـادة ردهـة المـدرسة ، وبعض المؤثـرات الخارجيـة ، كـالصـوت والمـوسيقا والاضـاءة والملابس . أمـا كيفية استعمـال عناصر المسرح ومدى تعقيـدها فـان ذلك يعتمـد على طريقةالبرنامج المسرحي نفسه . ولكن يجب أن لايفهم أن المسرح في التربية صورة أخرى للمسرح العادي ، بل انه يختلف اختلافا جهوريا من حيث الاعداد والهدف والمضمون .

لقد تميز هذا المسرح من غيره بطبيعة العمل الـذي يتبعه والطريقة التي يسلكها لايصال المادة الى الطلاب ، لذا اتصف هذا المسرح بـ :

أ - أنه يعد بـرامج مسـرحية تـوضع لتؤدي هـدفا معينا ،

ب - أن فريق العاملين فيه هم من أشخاص تتوافر لديهم مهارات الاتصـال وحسن الأداء والاستماع الى الطلبة ، وهي صفات يتصف بها المعلم والممثل . لذا يـطلق على العـامل في هـذا الفريق اسم ممثـل - معلم (actor-teacher) لأنـه يؤدي وظيفـة المعلم في دور الممثل :

ج - أنه غالبا ما يعد البرامج بحيث يسمح للطلاب بالمشاركة الفعلية في الأداء المسرحي ،

د - أن جمهوره هم من طلبة المدارس ، ولايزيد عدد هذا الجمهور على صف أو صفين ،

هـ - أن البرنامج يقدم في المدرسة - أي في ردهتها وليس في المسـارح - ولكن عملية الاعـداد تتم عـادة خـارج المدرسة - أي في مكان اقامة الفريق ،

و - أنه كغيره من أشكال المسرح التربوي - لايرتبط بأية قواعد أو مذاهب مسرحية ، ولايقتصر البرنامج على مادة دراسية معينة دون أخرى ، بل يمكن مسرحة المنهاج أو أية مادة تربوية من واقع الحياة ، أو خيـالية ، بأية طريقة مناسبة تحقق الهـدف وتناسب أعمـار الطلاب الـذين سيقدم اليهم البرنامج(٢٤) .

اعداد برامج المسرح في التربية (TIE)

بما أن فريق المسرح في التربية وجد من أجل خدمة العملية التربوية ، لذا فان على أعضاء الفريق أو بعضهم

---

(٢٣) من افضل الدراسات التي كتبت عن هذه الحركه المسرحيه انظر :

John O' Toole, Theatre in Education.

Gavin M. Bolton, Towards a Theory of Drama inEducation(London: Longman, 1979).

Tony Jackson, ed., Learning Through Theatre (Manchester: Manchester University Press, 1980).

C. Redington, Can Theatre Teach? (London: Pergamon, 1983).

(٢٤) John D'Toole, Theatre in Education, pp. 10-16.

زيارة المدرسة التي سيقدم فيها البرنامج - وربما زيارة غير مدرسة - والتحدث مع المدير والمدرسين بشأن اعداد البرنامج - وعادة تأتي الاقتراحات بشأن مضمون البرنامج من المدرسة نفسها . بعد ذلك يكلف فريق من العاملين في المسرح في التربية ، وأحيانا ينضم اليهم بعض المدرسين المهتمين باختيار الموضوع ومناقشته وتحديد أهدافه - وغالبا مايستغرق الفريق وقتا ليس بالقليل يمضيه في البحث وجمع المادة العلمية من أجل اعداد البرنامج . وعند الانتهاء من جمع المادة ، يناقشها الفريق ويشترك في النقاش المدرس المعني وربما ممثل عن المدرسة أو الجهة الرسمية المعنية بالأمر . بعد ذلك تتم كتابة سيناريو البرنامج .

وعند اعداد برنامج المسرح في التربية يراعي الفريق الأمور التالية :

١ - يجب أن تكون مادة البرنامج وطريقة الأداء المسرحي متناسبتين مع أعمار الطلاب الذين سيعرض عليهم البرنامج . وهذا يتطلب من الفريق معرفة مستوى الجمهور الطلابي وأعمارهم سلفا .

٢ - على الفريق دراسة أهمية الموضوع الذي سيعرضه من الناحية التربوية وربطه بالمنهاج المدرسي ، وذلك قبل البدء بعملية الاعداد .

٣ - يجب دراسة فعالية الوسيلة المسرحية التي يستعملها الفريق في مسرحة المادة التربوية ، ومعرفة مدى تناسبها مع أعمار الطلاب . وهنا يقرر الفريق ما اذا كان من الضروري اعداد البرنامج بالشكل الذي يسمح للطلاب بالمشاركة فيه أو تقديمه دون مشاركتهم .

٤ - تقويم الجدوى التربوية للبرنامج ومعرفة مقدار الخدمة التي يوفرها البرنامج لأهداف المدرسة التربوية .

٥ - العمل على تقديم عرض متكامل من حيث الشكل والمضمون .

لابد من اجراء التدريبات اللازمة قبل العرض ، واذا كان البرنامج يتطلب مشاركة الطلاب فانه يتعين على بعض أعضاء الفريق القيام بزيارة المدرسة للعمل مع الطلاب في ورش مسرحية (Workshops) في أثناء ساعات النشاط المدرسي استعدادا لعرض البرنامج . واذا لم تكن مشاركة الطلاب ضرورية ، فان الفريق يقدم برنامجه في المدرسة دون سابق انذار . ويكون ذلك مفاجأة للطلاب . وقبل عملية العرض نفسها يقوم الفريق باعداد نشرات عن العرض تحتوي على تمارين متابعة وأسئلة وأنشطة مختلفة من شأنها تعزيز ما يتعلمه الطلاب من البرنامج . وأحيانا يقوم الفريق بزيارة ثانية للمدرسة بعد العرض بفترة زمنية للالتقاء بالطلاب لمناقشة البرنامج معهم [٢٥] .

وبما أن برامج المسرح في التربية موجهة الى المدرسة وتهدف الى تحسين أداء العملية التربية ، فإن على المشرفين على الاعداد للبرنامج مراعاة مايلي :

١ - حيث إن الهدف من المسرح في التربية تنمية قدرات الطالب فإن على أعضاء الفريق متابعة نظريات التربية الحديثة وعلم النفس المتبعة في الأنظمة التربوية والعمل على تجسيدها في البرنامج المسرحي .

---

(٢٥) لا يسمح المجال بإعطاء مثال توضيحي على ذلك ولكن يوجد العديد من الأمثلة في بعض الكتب السالفه وخاصة :-

Can Theatre Teach?

٢ ـ العمل على تطوير وسائل الاتصال مع الطالب من أجل ايصال المادة اليه بأسلوب شائق ، يقبل عليه الطالب بحماس ويعطيه القدرة على الكشف عن قواه الذهنية والخيالية ، وعلى الثقة بالنفس والتعبير عن الذات .

٣ ـ العمل على خلق جو من شأنه اثارة اهتمام الطالب وشحذ خياله . فاذا كان جو البرنامج مملا ، فإن ذلك يسبب عزوف الطلاب عنه وعدم اهتمامهم به .

٤ ـ إن فريق المسرح في التربية لايغني عن المعلم ، بل انه وسيلة يلجأ اليها المعلم لتوضيح موضوع ما أو تعميق الفكر في مادة ما . فأحيانا يكون الموضوع المدرسي مملا للطلاب بحيث لايبدون تجاوبا أو استعدادا لفهمه ، عندها يلجأ المعلم الى الاستعانة بخبرات الفريق الذي يقوم بدوره بزيارة المدرسة والتحدث مع الطلاب في هذا الموضوع ، وربما باعداد برنامج مسرحي يعالج نفس الموضوع بمشاركة الطلاب . لقد دلت الدراسات التي أجريت في المملكة المتحدة على أن زيارة الفريق الى المدرسة تثير اهتمام الطلاب وتكسر جو الرتابة الممل ، فكثيرا ما يشاهد الطلاب يساعدون الفريق في انزال المعدات ، واعداد المكان ، والتحدث مع أعضاء الفريق الزائر .

٥ ـ يجب اعداد البرنامج بالطريقة التي تمكن الطالب من « معايشة » فقراته والتفكير فيها ، واعطاء الاقتراحات واثارة الأسئلة ـ ويجب أن تأتي الاقتراحات أو الحلول من الطالب نفسه .

٦ ـ بما أن البرنامج يعد خصيصا للمدارس ، فلابد من العمل على ايجاد جو من الألفة والثقة المتبادلة بين الطلاب وأعضاء الفريق المسرحي . ويمكن تحقيق ذلك بزيارة المدرسة والتحدث الى الطلاب قبل العرض واظهار المودة نحوهم . ان من شأن هذه الثقة تحقيق اهتمام الطلاب بالعرض والاقبال عليه برضا والمشاركة في فقراته اذا مادعت الحاجة .

٧ ـ بما أن مدة العرض قصيرة واحتكاك الفريق بالطلاب محدود ، فان واجبات المتابعة وتعزيز أهداف العرض التربوية تقع على كاهل المدرس (٢٦) .

الخلاصة

لقد تعددت استعمالات المسرح اليوم بحيث امتدت الى عالم الطب فأصبح المسرح يستعمل بوصفه وسيلة علاجية Drama Therapy في الطب النفسي والطب الاجتماعي وتصحيح النطق والكلام (Speech Therapy) وغيرها مما لامجال للحديث عنه هنا ، لكنني اقتصرت البحث على الكشف عن استعمالات المسرح المختلفة في مجال التربية والتعليم ، وبينت أن المسرح التربوي قد اتخذ طرقا وأشكالا مختلفة . ومع اختلاف أصحاب النظريات في المسرح التربوي وتباين أساليبهم في تحقيق الأهداف التربوية ، فقد دلت الدراسات حول المسرح التربوي على وجود عامل مشترك بين هؤلاء جميعا،فالجميع يتفقون على أن المسرح التربوي يساعد على صقل شخصية الطفل وتنمية قدراته على التعبير عن النفس في المواقف المختلفة التي يواجهها في الحياة ، ويمنحه الثقة بالنفس والتفكير السليم في العالم من حوله وفهمه فهما جديدا على ضوء التجربة التي يعيشها في أثناء التجربة المسرحية ، لأن هذا الموقف يحتم على الطالب التفكير واعطاء الحلول المناسبة . ثم إن عنصر المشاركة

(٢٦) Ken Robinson, "Evaluating TIE," in Learning Through Theatre: Essays and Casebook of Theatre in Education, Tony Jackson ed. (Manchester: Manchester University Press, 1980), p. 91.

يدفع الطالب الى التفكير في القضية المطروحة بنفسه فيكتشف السلوك الناتج عن هذا الموقف .

إن من بين أهداف المسرح التربوي احداث التغير في تفكير الطالب نحو الافضل ، فكثيرا ما يستغل المسرح التربوي في تقديم قضية يكون الطالب قد اتخذ منها موقفا سابقا . وربما يكون موقف الطالب مبنيا على أساس انطباعات ومؤثرات اجتماعية فرضت عليه من الخارج . فطرح مثل هذه القضايا على شكل مسرحي واعطاء الطالب فرصة المعايشة يمكن الطالب من الكشف عن حقيقة الأمر مما يساعدة على تغيير موقفه تجاه كثير من مسلمات الحياة التي سبق له أن اعتنقها دون تفكير ذاتي . إن اشتراك الطالب في مسرحة مشكلة معينة ـ سواء أكانت اجتماعية أم منهجية ـ من شأنه أن يعمق فهمه لهذه المشكلة ، فيبدى رأيه فيها دون تأثيرات خارجية . ان هذا الدور الخطير للمسرح التربوي يحتم على القائمين عليه وعلى سلطات التربية الاعداد السليم للبرامج والدروس المسرحية بحيث تتلاءم مع أهداف التربية ومستوى الطلاب العلمي وتجربتهم في الحياة .

والمسرح التربوي أيضا ينمي الوعي الاجتماعي عند الطلاب . فمن خلال مشاركة الطالب في البرنامج المسرحي ، أوحتى مجرد مناقشته له والتعبير عن رأيه فيه يعطي الطالب الفرصة لمعايشة تجربة مع أترابه ، مما يوثق صلته معهم وينمي شخصيته الاجتماعية .

ان من واجب التربية الحديثة التركيز على المشاركة والنشاط التعاوني من قبل الطلاب بدلا من خلق جو المنافسة الفردية والأثر بينهم ، فالحياة ليست منافسة بقدر ماهي تعاون . ولاشك في أنه من الضروري تحسين وضع الفرد عن طريق المنافسة ، ولكن يجب أيضا الاهتمام بالعمل المشترك في مجالات الحياة ، وتنمية الاحساس الجماعي بين الطلاب . إن ما يؤخذ على النظام التربوي التقليدي فشله في تنمية تلك المهارات التي تساعد الطالب على التعاون والعمل مع زملائه بروح الجماعة(٢٧) .

* * *

(٢٧) John D'Toole, Theatre in Education, pp. 13-55.

المراجع الأجنبية

Abrams, M.H. ed. **The Norton Anthology of English Literature.** vol. 1. New York: W.W. Norton and Co., Inc., 1979.

Allen, John. **Drama In Schools: Its Theory and Practice.** London: Heinemann, 1979.

Bolton, Gavin, M. **Drama As Education.** London: Longman, 1984.

-------. **Towards a Theory of Drama in Education.** London: Longman, 1979.

Bruner, Jerome ed. **Play.** Pelican, 1968.

Cook, Caldwell. **The Play Way.** London: Heinemann, 1914.

Dewey, John. **Experience and Education** New York: Macmillan, 1938.

------. **The School and Society.** Chicago: University of Chicago Press, 1921.

Hodgson, John ed. **The Uses of Drama: Action As a Social and Educational Force.** London: Eyre Methuen, 1972.

Holf, John. **Why Children Fail.** Penguin, 1977.

Holmann, W.N. trans. **The Education of Man** by F. Froebel. New York: D. Appleton and Co., 1887.

Jackson, Tony ed. **Learning Through Theatre: Essays and Casebook of Theatre in Education.** Manchester: Manchester University Press, 1980.

Johnson, Liz and Cecily O'Neill ed. **Dorothy Heathcote: Collected Writings on Education and Drama.** London: Hutchinson, 1985.

Landy, Robert J. **Handbook of Educational Drama and Theatre.** Westport: Greenwood Pres, 1982.

McCaslin, Nellie ed. **Children and Drama.** New York: University Press of America, 1985.

McGregor, Lynn et al. **Learning Through Drama.** London: Heinemann, 1977.

McRae, John. **Using Drama in the Classroom.** Oxford: Pergamon, 1985.

Miller, Susanne. **The Psychology of Play.** Pelican, 1968.

Nunn, Percy. **Education, Its Data and First Principle.** London: Edward Arnold, 1920.

O'Neill, Cecily and Alan Lambert. **Drama Structures: A Practical Handbook for Teachers.** London: Hutchinson, 1985.

O'Toole, John. **Theatre in Education.** London: Hodder and Stoughton, 1976.

Piaget, Jean. **Play, Dreams and Imitation.** New York: Routledge and Kegan Paul, 1962.

- - - - - - - . **The Psychology of the Child.** New York. Routledge and Kegan Paul, 1966.

Redington, C. **Can Theatre Teach?** London: Pergamon, 1983.

Robinson, Ken ed. **Exploring Theatre and Education.** London: Heinemann, 1980.

Ross, M. **The Creative Arts.** London: Hutchinson, 1978.

Slade, Peter. **Child Drama.** London: University of London Press, 1954.

Stanley, Susan. **Drama Without Script.** London: Hodder and Stoughton, 1980.

Way, Brian. **Development Through Drama.** London: Longman, 1971.

Witkin, R. **The Intelligence of Feeling.** London: Heinemann, 1974.

Wootton, Margaret ed. **New Directions in Drama Teaching.** London: Heinemann, 1982.

المراجع العربية

١ - محمد خريسات . « دور المسرح في التربية » (المجلة الثقافية) عدد ٩ . ٨٥/٨٦ ص . ٨٢ - ٨٩ .

* * *

إفريقيا ومشكلة البحث عن الهوية

أحمد أبو زيد

في أواخر عام ١٩٨٤ عقدت في « مدرسة لندن للدراسات الشرقية والافريقية » London School of Oriental and African Studies حلقة دراسية عن « العرافة في دلتا النيجر » وكان المتحدث في هذه الحلقة أحد الدارسين الأفارقة من قبيلة الإيجو Ijow التي تسكن في المنطقة . وقد عرض الباحث الموضوع ضمن إطار من الثقافة والنظم الاجتماعية التي تسود هناك ، وذلك حتى لا ينتزع الموضوع من سياقه الثقافي والاجتماعي العام ، كما أعطى بعض المعلومات الأساسية عن تلك القبيلة التي يصل تعدادها الى حوالي نصف مليون نسمة يكاد نشاطهم الاقتصادي يقتصر على صيد السمك من الأنهار والجداول والخيران حول دلتا النيجر ، وأوضح كيف ينظر الناس هناك الى مجاري المياه في شيء من الرهبة التي تصل الى حد التقديس ليس فقط للدور الاقتصادي الذي تلعبه في حياتهم ، ولكن أيضا لأنها هي مأوى أرواح الماء التي تسيطر على حياتهم وتتحكم في حظوظهم وأقدارهم وتقضي بما يصادفهم من خير أو شر ، ولذا يحرص الإيجو على التقرب الى أرواح الماء بالأضحيات والقرابين في مناسبات معينة حتى تشملهم برعايتها وتبعد عنهم الشر والأذى . ويشرف على هذه المراسيم والطقوس فئة من العرافين الذين يتمتعون بمكانة دينية واجتماعية عالية باعتبارهم الوسطاء بين مجتمع البشر ومجتمع الأرواح . وإذا كانت قبيلة الإيجو عاشت في مواطنها لعدة مئات من السنين دون أن يعكر صفوها شيء ، بحيث حققت كثيرا من النجاح والازدهار المادي فالفضل في ذلك يرجع الى التوافق بين (المجتمعين) تحت إشراف هؤلاء العرافين الذين يستطيعون التنبؤ مقدما بنوايا الأرواح ومقاصدها ومطالبها ، ويحددون للناس ما ينبغي عليهم أن يفعلوه في كل حالة حتى لا تقف الأرواح أمام رغباتهم وتحرمهم الرزق والعيش والحياة على السواء .

وهذه كلها معلومات معروفة وتمتلىء بها وبأمثالها كتابات علماء الأنثربولوجيا الذين درسوا المجتمعات القبلية في افريقيا واهتموا بوجه خاص بدراسة الدين والسحر وما يتعلق بها من أفكار وأساطير عن الأرواح والشياطين وعوالم الغيب والقوى الاعجازية . ولقد كانت هذه الموضوعات تحظى دائما بإقبال الباحثين ليس فقط لطرافتها وغرابتها بالنسبة للقاريء الغربي ، وإنما أيضا - وهذا هو الأهم - لأنها تعطي صورة واضحة عن طريقة تفكير الانسان الافريقي ونظرته الى الحياة والكون وأسلوب تعامله مع الظواهر الطبيعية والكائنات المختلفة التي تعمر الكون . وقد درج علماء الأنثربولوجيا على احترام هذه الأنماط من التفكير التي تصدر عن منطق خاص قد يختلف عن منطق الرجل الأوروبي الحديث ولكنه منطق يقوم على أية حال على مبادىء محددة تتلاءم مع البناء الاجتماعي وتتفق مع النسق الثقافي العام السائد في تلك المجتمعات الافريقية . ولذا كان من الغريب أن يتحدث ذلك الباحث الافريقي عن تلك الظواهر المتعلقة بالعرافة بشيء من الاستهجان وينهي حديثه بقوله :

« في منطقة تسود فيها عبادة الأفعي واستخارة إله الشجر مع كل الممارسات العديدة التي ترتبط بتلك العبادات ، كان لابد لأسلوب حياة الناس أن يتأثر بطريقة سلبية . ولذا فلم يكن غرضي من هذا الحديث الوصول الى نظرية جديدة عن العرافة بقدر ما كان هو البحث عن حلول للمشكلات الانسانية » .

فكأن الباحث الافريقي يريد أن يقول إن غرضه من هذا الحديث هو عرض إحدى صور التخلف التي تقوم على اعتناق أفكار وأمور لا يعترف الأوروبيون بها ، وأنه يحاول العثور على أسباب تمسك تلك الشعوب التي تنتمي إليها قبيلته هو نفسه بهذه الحالة من التخلف التي يصفها بالسخف والبله ، وبالتالي كيف يتسنى للرجل الأوروبي أن يساعد هذه الشعوب والقبائل على الخلاص من هذه الحالة المتردية من التخلف والانحطاط[1] .

ورغم ما قد يبدو في هذا الموقف من غرابة - على الأقل في نظر علماء الأنثربولوجيا - فإنه يعبر الى حد كبير عن نظرة عدد كبير من المثقفين والدارسين الأفارقة في الخارج الى أنماط الحياة والقيم التقليدية في افريقيا ، ولقد تأثر هؤلاء الدارسون والمثقفون الأفارقة في ذلك بآراء وأفكار بعض علماء الغرب المتخصصين في الدراسات الافريقية والذين يدرسون النظم والثقافات الافريقية الوطنية من منطلق غربي ، ويخضعونها لأحكامهم التقويمية التي تستند الى المحكات والمعايير والمقاييس الغربية . ولقد كان ذلك هو النمط السائد في الدراسات الافريقية في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، ثم أخذ ينحسر بسرعة وإن ظلت له بعض الرواسب والبقايا في كتابات عدد قليل من العلماء الذين ظلوا يعتبرون أوروبا وثقافتها هي النموذج أو المثال الذي تقاس إليه بقية النظم والثقافات ، وأنه يتعين عليهم أن يتعرفوا من خلال بحوثهم سبل الارتقاء بتلك المجتمعات والثقافات حتى تصل الى المستوى الأوروبي في كل المجالات بما في ذلك مجال القيم والتقاليد والأخلاق وأساليب التفكير .

ولقد لاحظ ماجي بيس (المرجع السابق ذكره) أن نسبة كبيرة من الذين حضروا هذه الندوة كانوا من الأفارقة وأنه لم يبد عليهم أي أثر للامتعاض أو الاعتراض على ما يقوله المحاضر بل كانوا على العكس

(١) A. Maja-Paca, "Africa Observed" : The Times Higher Education Supplement : 4. 1. 1986, P. 15.

من ذلك تماما يوافقـونه في وجهـة نظره « كما لو كـان يسعدهم أن يروا مجتمعاتهم تتحدد في ضـوء الأوضاع والقيم والمعايير الأوروبية » ، وأن يروا أنفسهم « في مرآة الثقافة الأوروبية » . وهذا الموقف ـ على حد تعبير ماجي بيس أيضا ـ هو في آخر الأمر امتداد واستمرار للاتجاهات الامبريالية القديمـة وإن كانت تتخـذ شكلا آخـر أكثر خطورة لأن معظم الذين يعتنقون هذه الاتجاهات الآن هم من الأفارقة المثقفـين وليسوا من البـاحثين والعلماء الأجـانب ، وإذا كان هنـاك قلة من علماء الغـرب لا يزالون ينظرون الى افريقيا ونظمها وثقافاتها بتلك النظرة القديمة أو لايزالون يعتقدون أن رسالة الغرب تحتم عليه أن يأخذ بيد الشعوب الافريقية ويرسم لها ما يجب عليها أن تفعله ، ويحدد لها الطريقة المثلى التي ينبغي عليها أن تتصرف بمقتضاها وتسوس بها أمورها ، فإن المسئول عن ذلك هم في آخر الأمر ذلك اللفيف من الأفارقة المثقفين الذين تعلموا في جامعات الغرب بعد أن تلقوا تعليمهم العـام في مدارس الارسـاليات التبشيـرية في مـواطنهم الأصلية في افريقيا ، والذين ارتضـوا لأنفسهم بذلـك استمرار هذه الاتجاهات التي تؤكد تفوق الغرب وتميزه ليس في المجـالات المـادية والعلميـة والتكنـولـوجيـة فحسب ، بل أيضا في مجال القيم ، واعتنقوا ذلك النمط من أسلوب التفكـير الغـربي في نـظرتـه الى افـريقيـا والافريقيين .

ولكن هنـاك موقفـا آخر يقـابله ويختلف عنـه كـل الاختلاف ويتمثل في الجهود التي تبذلها فئة كبيـرة من الباحثين والدارسين والأدباء والفنانـين الأفارقـة لابراز شخصية افريقيا المستقلة المتميزة ، والاعتزاز بمقومـات هذه الشخصية رغم الاعتراف في الوقت ذاته بتخلف الشعوب والقبائل الافريقية عن ركب الحضارة الغربية الحديثة . وتتخذ هذه الجهود عدة أشكال ومظاهر لعل أبسطها وأوضحها وأهمها في الوقت نفسه الاتجاه المتزايد نحو الاعتماد على اللغات الوطنية ـ أو اللغات الكبرى على الأقل ـ ليس فقط في الكلام اليومي العادي بل أيضا في الكتابات الأدبية والعلمية والفكرية بدلا من استخدام اللغـات الأجنبيـة كـما كـان عليـه الحـال أيـام الحكم الاستعماري . وظهر بذلك ـ وبخاصة بعـد استقلال افـريقيـا في الستينيـات ـ عـدد من الأدبـاء والشعـراء والروائيين والسيـاسيين والمفكـرين الذين يستخـدمون لغاتهم الوطنية في التعبير عن موضوعات افريقية خالصة يستوحونها من الحياة الافريقية ذاتها أو التراث الافريقي الأصيل . ويندرج هذا الاتجاه تحت حركة عامة تعرف باسم « الزنوجة » أو « الزنجية Negritude » ، وهي الكلمة التي صاغها في الأصل الشاعر المـارتنيكي إيميه سيزير Aime Cesaire ، ثم انتقلت بعد ذلك من جزر المارتنيك الى افريقيا ووجدت استجابة سريعة لدى عدد من الشعراء والأدباء الأفارقة الذين قيض لبعضهم أن يتولى مناصب سياسية مرموقة أو أن يصبح من الزعماء السياسيين المشهورين مثل الشـاعر السنغـالي ليوبـولد سنجور الذي أصبح رئيسا للجمهورية وإن كانت هذه الحركة المشايعة للتـراث الافريقي والـزنجي وللثقافـة الافـريقية والـزنجيـة لم تمنـع أصحـابهـا من الكتـابـة بالفرنسية ، ولكن المهم هنا هـو أنها كشفت عن عمق التراث الافريقي وتنوعه وثرائه . كذلك ظهر جيل كامل من الأنثربولوجيين الأفارقة الذين عكفوا ـ ولا يزالون ـ على دراسة ثقافاتهم ومجتمعاتهم القبلية من وجهـة نظر افريقية خالصة . وهذه في الحقيقة جهود أقدم بكثير من حركة الزنوجة أو الزنجية بحيث نجد رجلا مثل الزعيم الكيني الشهـير جومـو كنياتـا Jomo Kenyata الذي أصبح زعيما وقائدا لاستقلال كينيا ورئيسا لها يكتب في العشـرينيات كتـابـه المهم « في مـواجهـة جبـل كينيـا Facing Mount Kenya » يسجـل فيـه كثيـرا من تفاصيل وعناصر الحياة والنظم والثقافة التقليدية هناك .

وعلى أية حال فإن الكتابات العديدة التي حظيت بها القارة في السنوات الأخيرة لا تخرج في مجملها عن أحد هذين الاتجاهين الرئيسيين : الاتجاه المتأثر بالنظرة الغربية التي لا تخلو من التعالي والتي يمكن اعتبارها إحدى بقايا تفكير القرن التاسع عشر بكل ما يحمله من نزعات استعمارية وأفكار تطورية تعلي من شأن الغرب على بقية شعوب العالم وثقافاته ومجتمعاته وقيمه وأخلاقياته ، والاتجاه القومي الذي يعتز بالتاريخ الافريقي ويفخر بتراث القارة ويعلي من شأن الثقافة والتقاليد والقيم والسلوكيات والعلاقات الافريقية الأصيلة ، وهو اتجاه لا يخلو من نظرة رومانتيكية تخفي كثيرا من مرارة الماضي الافريقي الأليم . وهذا لا يمنع بغير شك من وجود كثير من الكتابات والدراسات (الموضوعية) التي تحاول التحرر من كلتا النزعتين عن طريق جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات وتفسيرها من موقف يحرص على التوفيق بين النظرة الذاتية ورأي الأهالي أنفسهم في ثقافتهم وتقاليدهم وقيمهم مع التمسك بقدر الامكان بمقتضيات العلم ومتطلباته . ويتمثل ذلك على وجه الخصوص في كتابات علماء الأنثربولوجيا المعاصرين الذين قاموا بدراسات ميدانية متعمقة في بعض المجتمعات القبلية في افريقيا ، ويستوي في ذلك الأنثربولوجيون الأجانب والعلماء الوطنيون .



من الأعمال الموسوعية الهامة التي ظهرت في السنوات الأخيرة حول افريقيا ذلك المشروع الضخم الذي اضطلعت به منذ بعض الوقت جامعة كمبردج لكتابة تاريخ القارة وأشرفت على نشره تحت عنوان : The Cambridge History of Africa ، والمجلدات الستة الأولى من هذا العمل الضخم لم تفلح في أن تصل بتاريخ القارة الى أبعد من عام ١٩٠٥ ، وهذا يعتبر في حد ذاته اعترافا بعمق التاريخ الافريقي ودليلا على عدم صحة الدعوى التي أطلقها اللورد داكري وتابعه فيها أحد كبار المؤرخين البريطانيين وهو الأستاذ هيو تريفور روبر Hugh Trevor - Roper من أنه لا يوجد لافريقيا تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة وأن كل ما هنالك هو « تاريخ الأوروبيين في افريقيا » .

وقد أثار ظهور هذه المجلدات الستة من الكتاب نوعين متكاملين من الجدل أو الصراع الفكري على حد تعبير جيوفري هويتكروفت Geoffrey Wheatcroft[٢] ، الأول هو جدل سياسى بين اليسار واليمين حول وضع افريقيا السياسى في الوقت الحالى ، والثانى جدل أكاديمي بين المؤرخين البرجوازيين والمؤرخين الماركسيين حول ماضي القارة وتاريخها . فبعد أن توقفت عملية « التأريخ Historiography » الأمبريالي وتدوين الأحداث التاريخية أيام الامبراطورية ، ومن وجهة نظر استعمارية بحتة تقوم على ادعاء مسئولية الرجل الأبيض إزاء القارة المظلمة وهي المسئولية التي أصبحت ـ في نظر الكثيرين من الكتاب الغربيين ـ تمثل عبئا ثقيلا على ضمير الغرب ، ظهرت « مدرسة » من المؤرخين الليبراليين الذين كانوا يؤمنون بأن من واجبهم كمؤرخين أن يعيدوا للقارة اعتبارها واحترامها لذاتها . وأن من حق افريقيا أن يكون لها ثقافة وتاريخ مستقلين ومتمايزين عن ثقافة الرجل الأبيض وتاريخه ، كما كانوا يؤمنون بأن دور المشتغلين بشئون افريقيا يجب أن يتعدى موقف الاكتفاء بدراسة مشكلة حق افريقيا في الاستقلال ومشكلة الاضطهاد الذي تعاني منه شعوب القارة ومسألة التمييز

(٢) Geoffrey Wheatcroft; "In Search of a Continent"; T. L. S., 14 Nov. 1986, pp. 1285-6.

العنصري وما إليها الى موقف أكبر وأهم وهو الوقوف الى جانب افريقيا والتشيع لها ، وفضح الادعاءات الظالمة التي يحملها أنصار « النظام القديم » أو الوضع القديم الذي يعبر عنه لورد داكري والأستاذ تريفور روبر عن عدم وجود تاريخ لافريقيا السوداء يستحق الدراسة ، وأنه قد يصبح لنا مثل هذا التاريخ في المستقبل البعيد أما الآن فلا وجود لهذا التاريخ ، وأنه إذا كان هناك ما يمكن تسميته تاريخا للقارة على سبيل التجاوز فهو تاريخ ضحل للغاية ، وأنه لا يوجد خارج نطاق تاريخ الأوروبيين في أفريقيا سوى الظلمة الدامسة ، ولا تصلح أن تكون موضوعا للتاريخ .

ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء الليبراليين الذين عارضوا موقف داكري وتريفور روبر ، ورفضوا تفسيراتها وجدوا أنفسهم هدفا للهجوم من مدرسة أخرى أكثر تمردا وثورة على تلك التفسيرات ، ولم يكن يكفيها الاشادة بالتراث الافريقي أو الاعتراف بتاريخ افريقي خالص ومتمايز عن تاريخ الغزاة والمستعمرين للقارة ، وإنما كانت تنادي بضرورة تحليل ذلك التاريخ والتراث من منظور افريقي بحت ، ومن أبعاد افريقية خالصة على ما سبق أن ذكرنا . وقد ظهر ذلك الاتجاه واضحا في الجزء الذي ظهر مؤخرا من كتاب تاريخ كيمبردج عن افريقيا ، والذى يغطى فترة ما بعد عام ١٩٤٠ . كذلك ظهرت هذه الدعوة ـ ربما بشكل أوضح وأكثر صراحة ـ في آخر مجلد من عمل موسوعي آخر لا يقل أهمية عن « تاريخ كيمبردج » وهو كتاب « تاريخ افريقيا العام General History of Africa » الذي أشرفت عليه منظمة اليونسكو ، ويغطي هذا المجلد الفترة بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٥٠ .

ومن الطبيعي أن يلقى هذا الاتجاه المتمرد كثيرا من النقد والمعارضة من بعض العلماء الأوربيين الذين يرون فيه خروجا على التقاليد الأكاديمية الرصينة في كتابة التاريخ ونوعا من إقحام الأساليب الخطابية السياسية في مجال علمي بحت لا يحتمل مثل هذه الغوغائية الافريقية التي تتخفي تحت ستار العلم . ويستدل هؤلاء النقاد على ذلك بأن المؤلفين الذين تولوا كتابة تاريخ هذه الفترة (١٨٨٠ ـ ١٩٥٠) ، وهي فترة الغزو والاستعمار الأوروبي لافريقيا في أجلى مظاهرها ـ خصصوا الجانب الأكبر من ذلك المجلد ليس لدراسة عمليات الغزو وظاهرة الاستعمار بكل ما ترتب عليها من تقسيم للقارة وإخضاعها للحكم الاستعماري ، ولكن لدراسة حركات المقاومة الافريقية للمستعمرين الأوروبيين ، وعرضوا هذه الحركات بطريقة بعيدة عن روح العلم وعن النظرة الموضوعية التي يتحلى بها العلماء . وبطبيعة الحال فإن هذه الانتقادات (الأوروبية) تلقى بدورها من يرفضها ويعمل على تفنيدها . ولا يزال الجدل قائما[٣] .

وقد وجد هذا الجدل طريقه الى وسائل الاعلام بما في ذلك الاذاعة والتليفزيون وبخاصة في بريطانيا حيث أذيعت عدة برامج حول افريقيا والافريقيين ، ثم تحولت بعض هذه البرامج الى كتب تعكس وجهات نظر أصحابها ، ومن أهم هذه الكتب كتاب « قصة افريقيا The Story of Africa » الذي كان في الأصل سلسلة من الحلقات التليفزيونية قدمها بازل ديفيدسون Basil Davidson منذ أكثر من عامين ، وسلسلة أخرى من الحلقات ظهرت عام ١٩٨٤ بعنوان « الافريقيون The Africans » قدمها أحد علماء

(٣) انظر على سبيل المثال المراسلات والتعليقات التي ظهرت على صفحات الملحق الأدبي لجريدة التايمز في التواريخ التالية :
T. L. S.; 9 August 1985, 16 August 1985; 27 Sept. 1985.

السياسة الأفارقة وهو الدكتور علي المزروعي . الكتابان يعطيان فكرة واضحة عن بعض أوجه الاختلاف في النظرة الى مشكلات افريقيا وتاريخها وتراثها وأسلوب معالجة هذه المسائل والتعبير عن الرأي فيها .

وبازل ديفيدسون هو واحد من الكتاب البريطانيين الذين اشتهروا بمواقفهم المعارضة للاستعمار الأوروبي للقارة الافريقية والذين كرسوا كثيرا من الجهد والوقت للدعوة لدراسة وفهم الشعوب الافريقية وثقافاتها والوقوف الى جانبها في صراعها من أجل الحرية والاستقلال والحياة الكريمة . ويظهر ذلك في مجموعة الكتب التي أصدرها خلال أكثر من ثلاثين عاما حين أصدر كتابه عن جنوب افريقيا بعنوان « تقرير عن جنوب افريقيا Report on South Africa » (عام ١٩٥٢) ، وأحدث حين صدوره ضجة كبرى في الأوساط العلمية والسياسية على السواء[٤] . وتكشف أعمال ديفيدسون كلها عن محاولات صادقة لاستكشاف الطرق المتشعبة الوعرة التي تواجه القارة وبخاصة بعد الاستقلال والمزالق الخطرة التي تحف بهذه الطرق والتي قد تعطل انطلاق الشعوب الافريقية نحو التنمية والتقدم . ولم يكن ديفيدسون في مهاجمته للاستعمار الغربي لافريقيا يعطي أهمية لدراسة موضوعات معينة مثل تجارة الرقيق أو مساوىء أساليب الحكم الاستعماري بقدر ما كان يهتم بنقد وتفنيد مزاعم الأوروبيين ودعاواهم عن الرقي والاستعلاء السلالي والثقافي على الافريقيين ، ونزوعهم الى ازدراء كل ما هو افريقي والتجاوزات التي ترتبت على ذلك الاستعلاء والتي كان الأوروبيون يؤتونها في حق القارة وشعوبها ، وذلك فضلا عن رفضه للرأي الخاطيء القائل بأنه ليس للافريقيين تاريخ أو ثقافة إلا في أدنى المستويات وأن نصيبهم من ذلك لا يرتفع كثيرا عن نصيب الحيوانات مما كان يدفع الأوروبيين الى معاملتهم كما لو كانوا حيوانات بالفعل على ما يقول هويتكروفت (المرجع السابق ذكره صفحة ١٢٨٥) . ومع ذلك فإن كتابات ديفيدسون تصدر في آخر الأمر عن منطلق أوروبي رغم كل ما يقال عن تحررها وليبراليتها ، وهي من هذه الناحية تختلف اختلافا كبيرا عن كتابات العلماء والمؤرخين الأفارقة الذين يدرسون نفس تلك الموضوعات من وجهة نظر افريقية ، والذين يمثلهم خير تمثيل علي المزروعي في كل كتاباته وبخاصة كتابه الأخير الذي سبقت الاشارة اليه وهو كتاب « الافريقيون » .



(٤) تضم كتبه الأخرى التي تسير على النهج نفسه كتابه عن افريقيا بعنوان :

The New West Africa

وقد صدر عام ١٩٥٣ ، وكذلك دراسته التاريخية التي تقع في جزأين صدرا عام ١٩٥٩ بعنوان .

OLd Africa Rediscovered

ودراسة تاريخية أخرى موجزة صدرت عام ١٩٦١ بعنوان الأم السوداء

"Black Mother"

وقد أردفها بعد ذلك بدراسة أخرى عن ماضي افريقيا بعنوان :

"The African Past"

وذلك كله الى جانب كتابه القصير « دليل الى تاريخ افريقيا »

"Guid to African History"

ثم كتابه الذي أثار كثيراً من الجدل حين صدر عام ١٩٦٤ بعنوان :

"Which Way Africa : The Search for a New Society"

وغير ذلك من الكتب والمقالات التي تعكس مدى فهمه وتعاطفه مع شعوب القارة السوداء

علي المزروعي أستاذ افريقي من كينيا ولكنه تلقى تعليمه في جامعات الغرب ويشغل الآن منصب أستاذ علم السياسة في جامعة ميتشيجان ، وله كثير من الكتب والأبحاث في علم السياسة يتناول في معظمها الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في القارة الأم التي ينتسب إليها[٥] . وبعض هذه الكتابات كان في الأصل سلسلة من الأحاديث ألقاها في الاذاعة البريطانية مثل كتاب :

The African Condition : The Reith Lectures 1979 أو سلسلة من الحلقات التليفزيونية مثل كتاب « الافريقيون » .

وهذا الكتاب الأخير « الافريقيون » كتاب عام ـ كما يبدو من عنوانه ـ يعرض فيه الكثير جدا من الموضوعات والمشكلات ومظاهر الحياة اليومية في القارة الافريقية ولكنه يعالجها كلها من وجهة نظر محددة تتضح من العنوان الفرعي للكتاب وهو « التراث الثلاثي A Triple Heritage » ، والمقصود بذلك هو التراث الافريقي الأصيل والتراث الاسلامي ثم وطأة الحضارة الأوروبية الحديثة على المجتمعات الافريقية وثقافاتها التقليدية .

وفي ضوء هذا « التراث الثلاثي » يعرض علي المزروعي عددا من المشكلات والقضايا الهامة التي يكثر الحديث حولها في مجال الدراسات الافريقية مثل شخصية افريقيا (الشخصية الافريقية الأصلية وما طرأ عليها من تغيرات نتيجة للتأثيرات السامية Semetic ، والمؤثرات الوافدة من الغرب) ومثل ما يطلق عليه اسم « الآلهة الجدد » ، ويعني بذلك الأديان التي وفدت الى افريقيا بعد الوثنية الأصلية مبينا ما أحرزه الاسلام من تقدم وانتشار ومدى تراجع المسيحية أمامه أو على الأقل عدم قدرتها على الصمود في وجه الدعوة الاسلامية وعجزها عن أن تحقق نجاحا يتناسب مع الجهود المضنية التي بذلها ـ ولا يزال يبذلها ـ المبشرون ورجال الارساليات المسيحية المختلفة . بل إنه يتكلم عن ذلك التراث الثلاثي في مجالات التكنولوجيا اعتبارا من عصر الرق حتى عصر الاستعمار الأوروبي وموقف الغرب من « الثورة الصناعية » في افريقيا ، وموقف افريقيا الوثنية ، وافريقيا الاسلامية من العصر النووي ، ومثل الصراع بين المجتمع والدولة ، وبين الحرب والسلام في افريقيا الوثنية ، وافريقيا الاسلامية ، وافريقيا العصر الحديث بعد خضوعها للحكم الاستعماري ، وكذلك في مجال الأساطير (الأساطير الافريقية القديمة ، ونظرة الاسلام إليها ، ثم ما يسمه بالأساطير الحديثة المرتبطة بالمدنية الغربية ، وعجز الانسان الافريقي أمامها وانبهاره بقوتها وجبروتها الذي يماثل انبهاره بالقوى الغيبية الاعجازية في أساطيره القديمة) وغير ذلك من الموضوعات .

ومعالجة هذه الموضوعات على هذا النحو يكشف لنا في وقت واحد عن الاستمرار والاتصال بين هذه الأنماط الثلاثة من التراث رغم كل ما بينها من تعارض وتنافر قد يصل في بعض الأحيان الى التناقض . وهذه مسألة يلمسها في الحياة اليومية ذاتها الانسان الغريب على الثقافة الافريقية والذي لا يعرف شيئا عن ذلك التراث الثلاثي الذي يتكلم عنه علي المزروعي ، والذي يوجد جنبا الى جنب دون أن يصل الى حد الاندماج الكامل أو

(٥) من أهم هذه الكتابات وأكثرها شيوعاً الكتب التالية :

Towards a Pax Africana : A Study of Ideology and Ambition; Political Values and the Educated Class in Africa (1978); Africa's International Relations : The Diplomacy of Dependency and Change (1978); The Africans : A Reader (1986); World Culture and Black Experience.

بالاضافة الى عدد كبير جداً من المقالات في المجلات والدوريات التي تهتم بالشئون الافريقية .

الانصهار . ويبدو أن العقل الافريقي يستطيع أن يتقبل وجود هذه الأوضاع والمظاهر وأنماط السلوك المتناقضة ، ولا يكاد يرى فيها شيئا من الغرابة وذلك على عكس الزائر الغريب . فالسائح الأوروبي أو الأمريكي مثلا الذي ينزل في أحد الفنادق الكبرى الحديثة في افريقيا سوف يجد كل وسائل الراحة والرفاهية الحديثة هناك ، ولكنه سوف يلاحظ في الوقت ذاته أن جهازي الراديو والتليفزيون لا يعملان وكذلك الحال بالنسبة للتليفون ، وأن (توصيلة) الماء الساخن غير موجودة أصلا ، وإذا وجدت فإن أحدا لايكاد يهتم بتوصيلها وهكذا . ولا يعتبر المزروعي ذلك دليلا على التخلف أو الاهمال أو اللامبالاة بقدر ما يعتبره دليلا على التناقض الأساسي الذي تعاني منه القارة الافريقية في كل مجالات الحياة وأنماط السلوك الفردي والجماعي . فالتوجه نحو الغرب واقتباس أسلوب حياته هو مجرد (واجهة) تخفي وراءها حقائق افريقيا الواقعية . وهذه الحقائق هي موضوع الكتاب الذي كان في الأصل ـ كما ذكرنا ـ سلسلة من الحلقات التليفزيونية التي استغرقت تسعة أسابيع عرض فيها لثقافة القارة وتاريخها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة[٦] .

والبرنامج كله أشرفت عليه هيئة National Eudowent for the Humanities الأمريكية . وقد أسهمت بمبلغ ستمائة ألف دولار من التكاليف الكلية التي وصلت الى حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار . ولكن حين ظهر البرنامج في التليفزيون ثارت ثائرة الهيئة لأن البرنامج كثيرا ما كان ينزلق ـ حسب رأيها ـ الى نقد الغرب بأسلوب ساخر لاذع ، كما أنه لم يتوافر له القدر الكافي من الموضوعية والتوازن اللذين تهتم بهما تلك الهيئة ، ومن الأدلة على ذلك ـ كما تقول الهيئة أيضا ـ التعاطف الذي أبداه علي المزروعي مع العقيد معمر القذافي ، وقد وصل الأمر بالهيئة الى المطالبة برفع اسمها من المسلسل باعتبارها أحد المسهمين في تمويل ، كما رفضت بعد ذلك أن تسهم بأي مبلغ آخر اضافي لمواصلة البرنامج والتقدم به الى مراحل أبعد . وهذا مثال واحد لما أثارته هذه السلسلة من الحلقات ـ قبل أن تصبح كتابا ـ ثم زادت حدة الخلاف بعد ظهور الكتاب على اعتبار أنه يعكس وجهة نظر افريقية تختلف في كثير من الأحيان مع الآراء السائدة في الأوساط الغربية عن افريقيا والافريقيين .

وعلي المزروعي نفسه يعترف بأن أفكاره وآراءه لا تتفق بالضرورة مع الأفكار الأمريكية ، ولا تسير معها في نفس الخط ، وأنه ليس من المفروض أبدا أن تساير تلك الأفكار وتتطابق معها تماما ، كما أنه يقرر بصراحة ووضوح بأن معظم المشكلات التي تعاني منها افريقيا في الوقت الحالي يمكن ردها الى ما يسميه (التطفل) الغربي الذي كان يتخذ أحيانا شكل حركات التبشير والارساليات الدينية المسيحية ، وأحيانا أخرى شكل تجارة الرقيق ، وأحيانا ثالثة شكل الاستعمار الأوروبي الذي مزق القارة وقسمها الى دويلات عن طريق إقامة حدود (قومية) مصطنعة وتعسفية ، وأحيانا رابعة على شكل الرأسماليين الذين سرقوا ثروات افريقيا واستنزفوا مواردها الطبيعية . ولقد حملت هذه الأشكال من التطفل الى القارة من الفساد والخراب أكثر مما جلبته اليها من أسباب التطور والرقي والتنمية . ولذا فليس من الغريب أن يقابل الكتاب بكثير من الجفاء والنقد والسخرية على صفحات المجلات والدوريات في بريطانيا وأمريكا على السواء[٧] .

---

(٦) أود أن أشكر للسيدة الفاضلة الشيخة حصة صباح السالم الصباح أن وجهت نظري الى هذا الكتاب حين أرسلت الى نسخة منه أثناء عملي مستشاراً لتحرير مجلة عالم الفكر عسى أن يجد الكتاب طريقة الى القراء في شكل عرض للتعريف به وبصاحبه .

(٧) انظر في ذلك مثلاً :

T. L. S.; op. cit. : Time Magazine, 13 Oct. 1986, P. 47.

ولكن رغم تشيع المزروعي لافريقيا واعتزازه (بافريقيته) فإنه يعترف بأن الانجاز الذي حققته افريقيا خلال تاريخها الطويل لا يتناسب بحال مع ضخامة (التراث الثلاثي) العميق المتنوع ، ويتساءل عن سبب ذلك القصور أو العجز ، كما يلاحظ مثلا عدم الاهتمام ببذل أية جهود صادقة حقيقية في مجال التوثيق العلمي والتاريخي مما أدى الى ضعف « التقليد العلمي » في القارة بأسرها ، كما أن اللغات الافريقية ذاتها لغات هزيلة وضامرة في الأغلب . والأكثر من ذلك هو أن افريقيا تفتقر بشكل فاضح الى كثير من العناصر الثقافية التي يعطيها الأوروبيون أهمية بالغة ويعتبرونها من أهم مقومات وعلامات الحضارة والمدنية مثل القلاع والحصون والكاتدرائيات والاتفاقيات والعقود والمواثيق المدونة المكتوبة ، وأن غياب هذه العناصر كان في نظره من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور نزعة الاستعلاء الأوروبي بكل ما ترتب عليها من تمييز عنصري واستعباد للأفارقة . ومع ذلك فإن هذا كله لا يقلل في شيء من افتتان علي المزروعي بافريقيا والافريقيين بحيث يقتبس للتدليل على مدى اعجابه بهم بعض أبيات الشاعر المارتنيكي ايمي سيزير التي تصدق على الأفارقة .

الذين لم يخترعوا البارود أو البوصلة
والذين لم يذللّوا الغاز أو الكهرباء
والذين لم يكتشفوا البخار أو الفضاء
إن زنوجتي ليست صخرة تصدم بصمتها صخب النهار
إن زنوجتي ليست نقطة ماء عطنة على عين الأرض الميتة
إن زنوجتي ليست برجا ، ولا هي كاتدرائية ترتفع نحو السماء
إنما هي تغوص عميقا في لحم الأرض الأحمر القاني (صفحة ٧٣) .



دراسة أي شعب أو أي مجموعة من الشعوب لا يمكن أن تقوم في فراغ وإنما يجب دراسة هذا الشعب أو تلك المجموعة من الشعوب ضمن إطار شامل من الظروف والأوضاع الايكولوجية والتاريخية والأنساق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تؤلف كلها وحدة متكاملة تكشف في آخر الأمر عن « روح » ذلك الشعب أو تلك المجموعة من الشعوب . ومن الطبيعي أن يضع أستاذ متمرس مثل علي المزروعي ذلك المبدأ نصب عينيه وهو يدرس « الافريقيون » موضوع كتابه ، ولذا يمهد لدراسته بمحاولة تبيين « موقع افريقيا » من العالم . ولكنه لا يقصد بذلك الموقع الجغرافي أو الفيزيقي البحت ، فهذا تصور فيه بساطة وسذاجة ، ولكنه يقصد في المحل الأول موقع افريقيا من الثقافات الثلاث الكبرى التي تؤلف التراث الافريقي العظيم . ولا يجد المزروعي ، رغم اسلامه واسلاميته ، أي غضاضة أو حرج في أن يزهو بالتراث الافريقي الوثني الأصيل ويتغنى به . فهو تراث لا يزال حيا وقائما وماثلا حتى الآن في معتقدات الناس وأساطيرهم ، كما ينعكس في كثير من تصرفاتهم ومظاهر سلوكهم ويحدد علاقاتهم اليومية بعضهم ببعض . والسطر الأول من مقدمة الكتاب يقول :

« الأسلاف الافريقيون غاضبون . والذين يؤمنون بهؤلاء الأسلاف وقدرتهم يرون الغضب ماثلا في كل ما يحيط بنا . أما الذين لا يؤمنون بالأسلاف فإنهم يطلقون اسما آخر على مظاهر

ذلك الغضب . وكما يقول إدموند بيرك Edmund Burke إن الذين لا ينظرون وراءهم على الاطلاق ليروا صنع الأسلاف لن يستطيعوا النظر أبدا أمامهم لتحقيق الخلود » (صفحة ١١) .

ولكن ما الدليل والشاهد والبرهان على لعنة هؤلاء الأسلاف وغضبهم ؟

أول دليل على ذلك هو أنه لا شيء في افريقيا يسير في الطريق الصحيح ، وأن الأمور ليست على ما يرام في كل المجالات والميادين ابتداء من داكار غربا حتى دار السلام في الشرق ، ومن مراكش في الشمال حتى مابوتو في الجنوب . فالنظم والمؤسسات تفسد وتتهاوى ، والأبنية الاجتماعية تصدأ وتبلى وتتصدع كما لو كان الأسلاف صبوا على الأحفاد لعنة الدمار والخراب ، فتسلط العسكر على الكتاب والمثقفين من أجل السيطرة على النظم والحكم ، وسلطوا الأحراش كي تزحف على الطرق الممهدة ، وحكموا على البشر بأن تتناقص غلة الأرض وتكثر الأفواه الجائعة وتزداد ، وقضوا على البيوت بأن (تنشع) بماء الفيضانات بينما تتشقق التربة الزراعية من الجدب والجفاف وندرة الماء ، وحكموا على الناس بأن يترفع الأبناء عن أن تمسك أيديهم بالفأس لفلاحة أرض الآباء ، وأن يفضلوا على ذلك الرحلة والتجوال طلبا للعمل والرزق ، وأن يتقن الناس فنون الغش وأساليب الخداع والتدليس ، وأن يدس الرجل السم في ثمار الكولا التي يقدمها لصديق عمره ، وأن تتداعى الأشياء على ما يقول الروائى النيجيري الشهير شينوا آتشبي Chinua Achibe في روايته الأولى « الأشياء تتداعى Things Fall Apart » .

ولكن إذا كانت هذه هي لعنة الأجداد ، فما هي الجريمة ؟ وما هي خطيئة الأبناء ، والأحفاد ؟

الخطيئة الكبرى في نظر علي المزروعي هي ذلك الرباط القوي بين افريقيا والقرن العشرين ، وهو رباط يقوم على أسس خاطئة كما أن بنوده وشروطه فاسدة وغير صالحة لأنها تتطلب أن تدير افريقيا ظهرها للقرون السابقة والعصور الماضية من تاريخها الطويل ، وذلك في محاولة هزيلة جوفاء للعصرنة والتحديث دون اعتبار للاستمرار الثقافي . فهي إذن محاولة لسلخ افريقيا من (افريقيتها) ، وتجريدها من طابعها الافريقي وشخصيتها ـ الافريقية . وقد ترتب عليها ظهور التوتر والتمرد والعصيان الاجتماعي وكل التغيرات الاجتماعية السريعة المفاجئة التي عربدت في القارة كلها دون ضابط ، ولذا كان يجب في رأيه وقف ذلك التغير السريع ، أو على الأقل التحكم فيه وتوجيهه ، إذ ليس ثمة ما هو أخطر من التغيرات غير المحكومة وغير المقيدة وغير الموجهة . وإذا كان فرانكلين روزفلت قد ناشد الأمريكيين حين واجهت بلاده في الثلاثينيات الأزمة الاقتصادية التي أشاعت الخوف القاتل في نفوسهم أن يحاربوا الخوف وقال جملته الشهيرة : « إن الشيء الوحيد الذي يجب أن نخافه هو الخوف نفسه » ، فإن علي المزروعي يقول للأفارقة أبناء جلدته وهو يواجهون في الثمانينيات وباء التغير السريع في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية : « إن الشيء الرئيسي الذي يجب تغييره هو ميلنا نحن للتغيير » (صفحة ١١) .

فمنذ أن حصلت الدول الافريقية على استقلالها السياسي مرت بسلسلة طويلة من الانقلابات العسكرية والتغيرات الاقتصادية وعمليات الانسلاخ الثقافي عن (افريقيتها) والاتجاه ـ أو حتى الانحراف ـ نحو الغرب بخطا حثيثة . ولو قارنا ما حدث للافريقيين من تغيرات خلال جيل واحد فقط بما حدث لليهود مثلا خلال الألف سنة الأولى من الشتات لوجدنا أن التغيرات التي

طرأت على حياة الأفارقة وثقافتهم ونظمهم وقيمهم كانت أسرع وأكبر أثرا مما طرأ على حياة اليهود الذين أفلحوا في الاحتفاظ بشخصيتهم وذاتيتهم الثقافية ، بعكس الأفارقة الذين سارعوا الى الانسلاخ من الهوية أو الذاتية الافريقية الأصلية على الرغم من أنهم لم يتعرضوا لما تعرض له اليهود من شتات وتشتت . فعلى الأرض الافريقية تقوم حرب ثقافية طاحنة بين التقاليد الافريقية الأصيلة وبين القوى المدنية الغربية الحديثة . وأسلحة افريقيا في هذه الحرب الضروس هي العجز وعدم الكفاءة وسوء الادارة والفساد وتآكل البنية التحتية مما ينبيء بسوء المصير لو استمرت افريقيا في هذا الطريق ولم تحاول أولا التخلص من تأثير الغرب السيء واصلاح وسائلها وأساليبها ونظرتها الى الحياة مع الافادة من تراثها القديم الطويل . فالسؤال المهم هنا إذن هو : إذا ما كانت افريقيا سوف تفلح في استرداد شخصيتها أو تحاول على الأقل العمل على استرداد تلك الشخصية ومدى إمكان نجاحها في ذلك ، خاصة وأنه على الرغم من كل ما يقال عن اتساع نطاق التغييرات التي طرأت على المجتمع الافريقي ، فإن هذه التغييرات لم تطمس تماما ملامح القيم التقليدية المتوارثة . فلا تزال الفجوة واسعة بين الأبنية والنظم الاقتصادية والسياسية الحديثة المستوردة ، وبين القيم التقليدية أو تقاليد وأعراف الأجداد والأسلاف حسب التعبير الذي يستخدمه علي المزروعي . وصحيح أنه من الصعب أن ترجع افريقيا الآن الى عهدها السابق وأوضاعها القديمة السابقة على عصر الاستعمار ، ولكن هناك رغم ذلك فرصة للتراجع (الجزئي) ولإمكان إعادة العلاقات والروابط مع بعض تلك المعالم الأساسية القديمة ، ثم البدء من جديد في مرحلة التحديث والعصرنة تحت قوة الزخم الافريقي الأصلي . وصحيح أيضا أن أفارقة القرن العشرين يتعرضون لكثير من التأثيرات الثقافية المتباينة ، وأنهم يتأثرون بها أسرع مما حدث لليهود خلال الألف سنة الأولى من الشتات ، كما يذكر المزروعي في أكثر من مكان من كتابه ، ولكن الحرب بين الثقافات الأجنبية الوافدة ، والثقافة الافريقية الأصلية ، والثقافة الاسلامية التي تسود في كثير من ربوع افريقيا لما تنته بعد ، وإنما يبدو الأمر ـ على ما يقول المزروعي ـ كما لو كان الأسلاف استيقظوا أخيرا من سباتهم العميق وبعثوا من موتهم وبدأوا يقومون بهجوم مضاد لاسترجاع الطابع الافريقي الأصيل أو (الافريقية) الأصلية . وقد يكون لذلك بعض الآثار السيئة المؤسفة ولكنها مؤقتة كما أن النتيجة قد تستحق في آخر الأمر الاعجاب والثناء .

وهناك على أية حال مبدآن أساسيان يؤثران بالضرورة في أي حركة للاصلاح قد تقدم عليها افريقيا الآن أو في المستقبل :ـ المبدأ الأول هو ضرورة النظر (الى الداخل) أي نحو الأسلاف أو نحو الماضي ، بينما يقضي المبدأ الثاني بضرورة النظر (الى الخارج) نحو الانسانية بمعناها الواسع .

ويتطلب المبدأ الأول في نظر علي المزروعي (صفحة ٢١) قدرا أكبر من البحث المنهجي المنظم للظروف والأوضاع الثقافية التي يمكن أن تؤثر في نجاح أي خطة أو مشروع في أي مجال من المجالات السياسية أو الاقتصادية ، وذلك فيما يسميه أحيانا بدراسات الجدوى التي يجب أن تأخذ في الاعتبار ـ وبقدر أكبر من العناية والجدية ـ العناصر الثقافية وأنماط القيم والتقاليد والمعتقدات الأصلية ، أو ما يشير إليه في أحيان أخرى بضروة استشارة الأسلاف والأجداد عن طريق فحص ودراسة العادات والأعراف والممارسات الافريقية المتأصلة . ولكن لما كان العالم كله قد أصبح قرية كبيرة واحدة ـ حسب تعبيره أيضا ـ فإن افريقيا لن تستطيع أبدا أن تقنع بالنظرة الداخلية نحو ماضيها وحده ، لأن التوافق أو الترابط مع القرن العشرين يفرض عليها

الاهتمام بعالم الجنس البشري ككل . ولذا فإن دراسة ما أصاب القارة من تدهور وتفكك وانحلال قد تكون فرصة لاعادة التوافق والتراضي مع الأسلاف من ناحية ، وإقامة علاقات جديدة على أسس سليمة مع عالم القرن العشرين من ناحية أخرى . ويكمن وراء هذا كله ذلك « التراث الثلاثي » الذي يتألف من القوى الافريقية الأصلية ، والقوى الاسلامية ، وقوى الغرب الحديث ، وهي القوى الثلاث التي يجب أن تندمج وتتفاعل معا رغم كل ما قد يكون بينها من تنافر ، ولقد كان قبول الاسلام والتوجه نحو الغرب جزءا من استجابة افريقيا لحتمية النظر الى الخارج نحو العالم الأكثر اتساعا ، ولكن أسلاف افريقيا يطلون برءوسهم طوال الوقت لكي يؤكدوا أهمية بل حتمية النظر الى الداخل بحيث تتذكر افريقيا دائما ماضيها الخاص بها وتضعه نصب عينيها وهي تتقدم نحو المستقبل الجديد .

ولكن هذا كله لا يعطى إجابة شافية ومقنعة للسؤال الذي يضعه علي المزروعي في بداية الكتاب وهو : أين تقع افريقيا من العالم ؟



في محاولة ثانية للاجابة عن هذا السؤال يلخص علي المزروعي أبعاد فكرة التراث الثلاثي في عبارة موجزة بأن افريقيا ذاتها (اخترعت) الانسان ، بينما (اخترع) الساميون الأديان ، و (اخترع) الأوربيون العالم أو على الأصح فكرة العالم . وهذه الروافد الثلاثة تصب كلها في افريقيا ولكن بنسب ومقادير مختلفة .

فالدراسات الأركيولوجية والتاريخية تشير الى أن الموطن الأصلي للانسان هو شرق افريقيا ، وإن أعطوا للانسانية الأديان السماوية الثلاثة التي تقوم على فكرة التوحيد وهي اليهودية والمسيحية والاسلام ، بينما تولت أوروبا مهمة تطوير فكرة العالم في أعقاب رحلات الاستكشاف في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولكنها فرضت تصورها الخاص عن العالم وعن الكون على الشعوب الأخرى في مختلف القارات بما في ذلك افريقيا . وقد كان التأثير الأوروبي كبيرا جدا على تصور الافريقيين لأنفسهم كأفريقيين ، وعلى نظرتهم الى الكون ككل . وهو تأثير واضح في كثير جدا من المجالات . وليس أدل على ذلك من اتخاذ جرينتش في بريطانيا موقعا لتحديد متوسط الزمن mean time لضبط كل ساعات العالم ـ أو ساعات الجنس البشري بأكمله ـ واستجابة الساعات كلها لهذا الاختيار . أي أن موقعا صغيرا محددا في الجزر البريطانية هو الذى غير كل ساعات العالم ويتحكم فيها ويخضعها لسلطانه . وهذا مثال واحد عن مدى تأثير مجد بريطانيا الغابر على تصورنا للزمن العالمي (صفحة ٢٣) .

ولعل من أهم ما يميز العصر الذي نعيش الآن فيه هو أن صورة أي شعب عن نفسه تتأثر بالضرورة بالمكان أو الموقع الذي يربط هذا الشعب نفسه به ، سواء أكان هذا الموقع هو الاقليم أم القارة كلها التي يتصور ذلك الشعب أنه ينتمي إليها .فحتى الخمسينيات مثلا كانت السياسة الرسمية لحكومة الامبراطور هيلاسيلاسي تحرص على أن تؤكد أن إثيوبيا جزء من الشرق الأوسط أكثر منها جزءا من القارة الافريقية . ولكن الامبراطور هيلاسيلاسي نفسه اضطر الى أن يعيد النظر في تلك السياسة ويضع سياسة أخرى جديدة أصبح انتماء اثيوبيا بمقتضاها الى افريقيا بدلا من الشرق الأوسط ، وذلك بعد أن نالت الدول الافريقية الأخرى استقلالها ، وخشيت اثيوبيا أن تجد نفسها محاطة باتجاهات عبد الناصر (مصر) ، ونكروما (غانا) الراديكالية . أي أن سياسة عبد الناصر ومؤازرته للنزعة الافريقية ولحركات التحرر في شمال الصحراء وجنوبها دفعت الامبراطور الى تأكيد انتماء بلاده الى القارة الافريقية وأنها جزء منها . وهذه أمور معروفة ، ولكن الذي يستحق

النظر والتفكير فيه هو ما يذهب اليه المزروعي من أن التشابه الثقافي بين إثيوبيا وبقية مجتمعات القارة الافريقية ليس أشد قوة أو أكثر وضوحا من التشابه الثقافي بين شمال افريقيا والجزيرة العربية ، ومع ذلك فإن القرار (الأوروبي) بأن يعتبر البحر الأحمر هو الحد الشرقي لافريقيا أدى بشكل قاطع وحاسم الى منع الجزيرة العربية من أن تنتمي لافريقيا رغم كل ذلك التشابه الثقافي بينها وبين شمال القارة ، كما حكم على سكان الجزيرة العربية بأن ينظروا الى أنفسهم على أنهم جزء من غرب آسيا ، وليسوا جزءا من افريقيا عل الأقل من الناحية الثقافية . فمنذ بضعة ملايين من السنين حدث صدع في القشرة الأرضية في سطح افريقيا وظهر ذلك الأخدود الذي يشغله البحر الأحمر ، وساعد ذلك الشريط المائي الضيق على تحديد شخصية الشعوب التي تعيش على جانبيه . وقد آن الأوان ـ في نظر المزروعي ـ لأن نخفف من طغيان البحر الأحمر واستبداده وتحكمه في تحديد الشخصية الثقافية لتلك الشعوب ، إن لم يكن في الاستطاعة القضاء تماما على ذلك الطغيان والاستبداد .

واستبداد البحر الأحمر أو طغيانه هو في نظر علي المزروعي جزء من استبداد وطغيان التحيز الأوروبي في مجال الجغرافيا بوجه عام . فلقد حرص رسامو الخرائط الأوربيون على أن يحددوا موقع أوروبا ومكانها من خريطة العالم بحيث تأتي (فوق) ـ أي شمال ـ افريقيا وليس (تحتها) أو جنوبها . وهذا قرار تعسفي بحت بالنسبة للكون ككل . كما أن هؤلاء الرسامين أنفسهم هم الذين فرضوا أن تنتهي افريقيا من ناحية الشرق بالبحر الأحمر وليس بالخليج .

ومع ذلك ، ورغم هذه الاعتراضات والاشكالات التي يثيرها المزروعي حول هذا الموضوع فإنه لم يجد مناصا من أن يعترف في آخر الأمر موقع افريقيا هو بالضرورة غربي البحر الأحمر وشمال وجنوب الصحراء ، أي أنه يقبل التحديد المعترف به عالميا ، وإذا كان يرى في الوقت ذاته أن الحدود الحالية للقارة ليست فقط حدودا تعسفية وإنما هي حدود مصطنعة وضعها رسامو الخرائط الأوربيون في فترة سابقة كانت تتميز بالسيادة الأوروبية ، ثم يقول بلهجة مسرحية : « إنني لأغراض هذا الكتاب سوف أقبل البحر الأحمر على أنه أحد الحدود الافريقية . ولكنني أقبل ذلك مع الاحتفاظ لنفسي بحق الاعتراض » (صفحة ٣٨) . وقد يكون عرب الجزيرة أنفسهم غير راغبين في أن ينتموا الى افريقيا بدلا من غرب آسيا ، كما قد يكونون غير حريصين على أن يدخلوا عضوا في منظمة الوحدة الافريقية . ولكن إذا كان الامبراطور هيلاسيلاسي حمل لواء عودة اثيوبيا الى أحضان افريقيا كما تمكن عبد الناصر من أن يعيد الطابع الافريقي لمصر فلن يكون ثمة ما يمنع من إعادة التفكير في هوية عرب شبه الجزيرة ، إذ قد تساعد إثارة هذا الموضوع على نطاق واسع على تقبل الفكرة ، وعلى وضع حدود جديدة تبين أين تنتهي افريقيا وتبدأ آسيا .

والجغرافيا على أية حال هي أم التاريخ .

وقد لعبت البيئة دورا هاما وفعالا في التجربة الافريقية . والمقصود بالبيئة هنا ذلك المزيج المكون من الملامح الجيوفيزيقية والموقع والمناخ ، وهي ثلاثة عناصر أساسية تتفاعل معا بصفة مستمرة ونتج عن تفاعلها خلال الزمن ثلاث مفارقات ايكولوجية هائلة : المفارقة الأولى هي أن افريقيا كانت دائما قارة الحياة الوفيرة المليئة الغنية ، والموت العاجل السريع ، والمفارقة الثانية هي أن افريقيا كات الموطن الأول للانسان ، وأقل مناطق العالم صلاحية للسكنى والاقامة والتوطن ، والمفارقة الثالثة هي أن افريقيا كانت مهدا لواحدة ـ على الأقل ـ من الحضارات الانسانية الكبرى ، ومقرة للثقافات الوافدة اليها من الخارج (صفحة ٤١) .

فأفريقيا هي ثانية أكبر قارات العالم ، اذ تبلغ مساحتها ١١,٧ مليون ميل مربع . ويرتبط اسم أفريقيا ببعض أسلاف الجنس البشري مثل انسان الزنج Zinjanthropus، والانسان الماهر الحاذق Homo habilis، والانسان المنتصب القامة Homo erectus. ومن بين هؤلاء الأسلاف الأوائل يمكن أن نعثر على (آدم وحواء) اللذين انحدر منهما الأفريقيون المحدثون . ولكن على الرغم من أن أفريقيا تعتبر في رأي كثير من العلماء الموطن الأصلي للجنس البشري بعامة ، فانها لم تكن قط المكان المثالي لتوالد الانسان وتكاثره وازدياده ، لأن وفرة الحياة فيها كان يلازمها طوال الوقت الموت المبكر السريع العاجل . وهذه المفارقة مسئولة الى حد كبير عن ظهور واحدة من أكبر الحضارات الانسانية التي تدور حول الموت وهي الحضارة المصرية القديمة التي تعتبر بكل المعايير من أكثر الحضارات تعقيداً ورقياً في تاريخ البشرية . ففكرة الموت هي الفكرة المحورية التي يقوم عليها بناء الأهرام . وقد تكون بعض الثقافات الأخرى قد شيدت أبنية وصروحاً وأضرحة وقبوراً شاهقة لتجميد موتاها ؛ أما المصريون فانهم شيدوا الأهرام لتكون (مثوى) لموتاهم ، وهذا هو ما يشكل الفارق الجوهري بين الثقافة التي أنتجت تاج محل في الهند ، والثقافة التي أبدعت الأهرام في مصر . فتاج محل هو تحية إجلال وإكبار وحب وإعزاز ووفاء لزوجة متوفاة ، وقصيدة عشق نظمت أبياتها من الرخام ، أما الأهرام فانها الخلود بعينه مجسداً في الحجر . وثقافة الأهرام لم تكن تعترف بأي انقطاع أو انفصال جوهري بين الأحياء والموتى . . فالموت هو أشبه شيء بتغيير العنوان . وقد هدمت هذه الديانة المصرية القديمة على أيدي المسيحيين ؛ أي أن المسيحية والمسيحيين هم الذين حطموا في الحقيقة تلك الديانة قبل أن يأتي الاسلام الذي نجح على أية حال ليس فقط في أن يغير دين المصريين ويحولهم اليه ، ويقنعهم باعتناقه بل أن يغير أيضاً شخصيتهم ككل ، بحيث أصبح المصريون (عرباً) على الرغم من وجود من ينفي ذلك عنهم من بين المصريين أنفسهم .

وثمة حضارات أخرى كثيرة قامت منذ أقدم الأزمنة على ضفاف نهر النيل وغطت مساحات واسعة جداً من القارة ، وهي المناطق التي تشغلها الآن مصر والسودان وإثيوبيا ، كما كانت تتفاعل مع المجتمعات الأخرى المجاورة في أفريقيا وخارجها على السواء ، مما أدى الى ظهور حضارات البحر المتوسط . ولقد أسهمت بعض مناطق أفريقيا في تطوير الزراعة وتدجين بعض الحبوب والنباتات البرية . وكان لاتصال مصر وتفاعلها مع بلاد ما بين النهرين وبابل وأشور وفارس والنوبة وبلاد اليونان وروما أثر واضح في ذلك الانفجار الحضاري الهائل من الثقافات الكبرى في التاريخ الانساني . . ولا يزال كثير من العلماء حتى الآن يتساءلون عن مدى امكان قيام حضارات الاغريق مثلاً لو لم تكن قد سبقتها الى الوجود بالفعل الحضارة المصرية القديمة .

وقد تضافرت قوى الانسان الافريقي المبدعة مع الموقع والمناخ في ابتكار ذلك التنوع الهائل في أساليب وطرق المعيشة التي ظلت أفريقيا تتميز بها طوال تاريخها . فكان هناك في البداية أسلوب جمع الطعام الذي كان يتألف في العادة من الخضروات والفواكه البرية لكي يأتي من بعده ـ في بعض المناطق على الأقل ـ أسلوب الاغتذاء على الحيوان وما ارتبط بذلك من ظهور الجماعات التي تعيش على قنص الحيوانات الوحشية . ولا يزال هناك حتى الوقت الحالي في أفريقيا عدد من الشعوب التي تحتفظ بهذا النمط من الحياة الذي يقوم على الجمع والقنص مثل قبائل البامبوتي (أو الأقزام) في بعض غابات زائير ، والقبائل الخويزية أوجماعات البوشمن في صحراء كلهاري في جنوب القارة .

ومن المحتمل أن تكون ظاهرة الهوية أو الذاتية الجماعية التي نشأت في العصور القديمة قد بدأت مع ظهور هذه الأنماط الاقتصادية ، كما يحتمل أن يكون ذلك قد ارتبط بظهور حقوق الانتفاع بمساحات محدودة ومعينة من الأرض حتى تكون لكل جماعة الحق في ممارسة عمليات الجمع والقنص فيها وبذلك تكون قد توافرت الظروف الملائمة لقيام أسس التفاضل البشري ، وبالتالي الهوية الانسانية « الخاصة » . كذلك أدى القنص الى نشوء بعض التكنولوجيات البدائية البسيطة التي لعبت على أية حال دوراً هاماً في تعميق التفاوت والتفاضل بين الجماعات . وهناك فئة كبيرة ومتنوعة من أدوات القنص التي تتراوح من العصي الى الأحجار المستخدمة في صيد الطيور الى أشكال مختلفة من الهروات أو (العصي الطائرة) الى الحراب ذات الرؤوس المختلفة الأشكال ، والمصنوعة من العظام أو الصخور المشحوذة المسنونة أو بعض المعادن الى جانب القسي والسهام وغير ذلك من الأدوات التي تتطلب درجة معينة من الحذق والمهارة في الصنعة والاستخدام . وقد ارتبط بذلك كله قيام بعض الشعائر والطقوس والممارسات السحرية التي تتضمن نجاح رحلات الصيد والقنص ، كما أدت المهارة في صنع الأسلحة واستخدامها من ناحية ، والارتباط بمناطق وأماكن معينة من الأرض من ناحية أخرى إلى ظهور التفاوت الطبقي بشكل بسيط وساذج ، أو على الأصح ظهور ما يسميه علي المزروعي بالهوية أو الذاتية الطبقية والتفاوت العرقي والثقافي على السواء .



ومشكلة الهوية الافريقية هي في رأي علي المزروعي مشكلة معقدة الى أبعد حدود التعقيد ، ولا يمكن فهمها بعيداً عن السياق الثقافي الافريقي العام . واستقصاء التاريخ يتطلب منا الرجوع الى الأوضاع والظروف المكانية التي ارتبطت بها الأنشطة الاقتصادية ومارسها الافريقيون منذ أقدم عصور تاريخهم . وقد خضعت هذه الأنشطة التقليدية لبض التغيرات ولكنها ظلت قائمة طوال هذه القرون بل ولا تزال قائمة حتى الآن الى جانب العمليات والنظم الاقتصادية الحديثة المعقدة . فلقد اشتركت إفريقيا منذ البداية مع بقية أنحاء العالم في تطوير تلك العملية الهائلة التي أمكن بمقتضاها تدجين النباتات واستئناس الحيوانات البرية ، ووضعت بذلك أسس التمايز القوي بين الزراع والرعاة . فالزراع هم ذرية الأسلاف الذين قاموا بتدجين النباتات ، والرعاة هم أحفاد الأقوام الذين قاموا باستئناس الحيوانات . ولذا فان من المفارقات الغريبة أن تكون أكثر الثقافات تعرضاً للخطر هي ثقافة البدو الرعاة التي تتهددها الأوضاع والظروف الايكولوجية غير الملائمة وتيارات التحديث والعصرنة على السواء . وليس من شك في أن تأثير الجدب والجفاف أشد قسوة على الرعاة منه على الزراع وإن كانت الخسائر فادحة في كلا الحالين ولا يمكن التهوين منها . ولكن حين يعود المطر ترجع معه الحياة الى الأرض وينمو الزرع من جديد ، بينما عودة المطر لا يمكن أن تعيد الحياة مرة أخرى الى الحيوانات التي ماتت من العطش .

هذا التمييز الأساسي في الهوية الافريقية وفي أسلوب الحياة أدى الى ظهور أشكال أخرى من (الثنائيات) أو (الازدواجية) كما يقول المزروعي (صفحة ٧٨) . فكأن هناك بعض مظاهر المجد والعظمة في التاريخ الافريقي كما تتمثل في تلك الأبنية والصروح الضخمة المشيدة من الحجارة أو من الطوب وفي قيام بعض الامبراطوريات والممالك الافريقية التي عرفت نظام الحكومة المركزية ، ولكن كان هناك الى جانب ذلك تلك الجماعات القبلية البسيطة المتخلفة الى أبعد حدود

البساطة والتخلف التكنولوجي . وقامت على أساس هذه الثنائية مدرستان فكريتان بين الافريقيين أنفسهم : المدرسة الأولى ارتبطت بذلك المجد أو تلك العظمة الرومانتيكية ، وعمدت الى التغني والزهو بانجازات المجتمعات الافريقية الأكثر تقدماً وتعقداً ، والتي قامت مثلاً ببناء الأهرام أو تشييد الأبنية والصروح في زيمبابوي ، بينما لجأت المدرسة الأخرى الى التغني بمثالية التراث البدائي وفضائل ومميزات البساطة والحياة السهلة الهنيئة البعيدة عن التعقيدات التكنولوجية الحديثة . ولكن كلا النمطين من الحضارة الافريقية أصابه الضعف والوهن نتيجة لعدم الاهتمام بالتوثيق والتسجيل والتدوين . فقد أغفلت أفريقيا تدوين وتوثيق إنجازاتها الحضارية في مختلف المجالات وعبر العصور . وصحيح أن الذاكرة الافريقية (الخام) ذاكرة قوية للغاية بحيث أمكنها الاحتفاظ بكثير من ملامح الماضي حية في الأذهان ومتمثلة في الحاضر القائم الآن بالفعل ؛ ولكن هذا في حد ذاته يبين لنا مدى الحاجة الى تسجيل وتدوين لغات افريقيا وفلسفاتها وانجازاتها ، وتوثيق تاريخها الذي ينتقل عن طريق المشافهة من جيل لآخر قبل أن تضعف الذاكرة فيندثر تماماً ويمحي من الوجود . وباختصار ، فان الهوية الافريقية تتطلب الشعور والوعي بالذات وهذا الوعي يستلزم بدوره وجود تقاليد راسخة لتدوين وتوثيق الانجازات الافريقية في شتى المجالات .

وقد خضعت هذه الهوية التي ترتكز على أسس وركائز قوية من عناصر الشخصية القومية الأصلية لعوامل وتأثيرات خارجية أسهمت في اعادة تشكيلها وصياغتها . وأول هذه العوامل هي التأثيرات التي جلبتها الشعوب السامية الى القارة . واذا كانت المسيحية تعتبر ـ حسب ما يقول المزروعي ـ أكثر الأديان السماوية (نجاحاً) ، فان اللغة العربية هي أكثر اللغات السامية (نجاحاً) ، كما أن اليهود هم أكثر الشعوب السامية (نجاحاً) ، في العالم . وواضح أن معيار (النجاح) ـ كما يستخدم المزروعي الكلمة ـ يختلف من حالة لأخرى ، وأن الكلمة تستعمل هنا بطريقة غامضة وينقصها التحديد . ولكن الذي يهمنا هو أن المزروعي حين يتكلم عن التأثيرات السامية في الهوية الافريقية فانه يكاد يقصر حديثه على تأثير العرب والمسلمين مع بعض الاشارات الى المسيحية والى اليهود في مجالات معينة بالذات ، لأن التأثير الثقافي المسيحي واليهودي أخذ في التراجع والنقصان بشكل عام ، كما أن التأثيرات الغربية القديمة التي كانت تتمثل في بعض التيارات الثقافية اليونانية والرومانية تأخذ الآن شكل التداخل الأوروبي والأمريكي في مجالات أخرى عديدة ومتنوعة . وربما تساور الباحث بعض الشكوك حول قدرة هذا التراث العربي الاسلامي على الصمود ـ وبخاصة في المجال السياسي ـ أمام تلك الهجمة الأوروبية الأمريكية الشرسة التي لا تخلو من بعض التأثيرات اليهودية القوية . ولكن الملاحظ حتى الآن هو أنه رغم كل الجهود التي يبذلها اليهود للتغلغل في حياة افريقيا والافريقيين عن طريق الاسهام في بعض مشروعات التنمية فان العرب لا يزالون يتمتعون بنفوذ أقوى بكثير من النفوذ اليهودي ، كما أن رصيدهم الثقافي أكبر وأغنى وأعمق ، وليس من السهل القضاء عليه أو حتى التهوين من أهميته ، وبخاصة أنه يوجد حوالي مائة مليون مسلم في أفريقيا جنوبي الصحراء ، وهم يمثلون رصيداً ثقافياً هائلاً يفتقر اليهود الى ما يماثله . ويجب الا ننسى أن اليهودية ديانة « أشد خصوصية » من الاسلام إن صح هذا التعبير ، ولذا فانها لا تستطيع منافسة الاسلام أو المسيحية في تشكيل روح افريقيا وصهرها ، كما أن اللغة العبرية لا يمكن أن تنافس اللغة العربية كعامل مؤثر في التجربة الثقافية الافريقية أو كمصدر يمكن أن تستمد منه

اللغات الافريقية الوطنية بعض مفرداتها كما هو بالنسبة للغة العربية . ويظهر هذا الاختلاف في عمق التأثير وقوته واضحاً حين نقارن حالات الزواج بين الأفارقة والعرب المسلمين بالزواج من اليهود . ولذا فان الدم السامي الذي اختلط بالدم الافريقي هو دم عربي في المحل الأول ، وسوف يظل كذلك أبداً ليس فقط لأن اليهود أقل عدداً من العرب في افريقيا ، ولكن أيضاً لأن الانـدوجاميـة اليهوديـة والتنظيم القـرابي عنـد اليهـود يرفضان فكرة الزواج من الأغيار وذلك بعكس الحال في نظام القرابة العربي الاسلامي الذي لا يـرى ضيراً في « الزواج الاغترابي » أو « الاكسوجامي » ، ومع ذلك فيجب ألا ننسى أن اليهود هم الآن جزء من الحضارة الغربية وانهم يلعبون دوراً هاماً في تشكيل الفكر الغربي كما يظهر ذلك بوضوح في تأثير كارل ماركس وفرويد واينشتاين ، وأن تعاليم هؤلاء المفكرين والعلماء اليهود الغربيين وجدت طريقها الى أفريقيـا ، وأن الماركسيـة بالذات تعتبر من أهم العناصر التي توجه الفكر الافريقي في القرن العشرين .

والـواقع أن تـأثير الغـرب في أفـريقيـا يتعـدى دور الماركسية أو غيـرها من الأيـدلوجيـات ويمتد الى حـد التدخل في تحديد ملامح الهوية الافريقية بـل والانتماء الافريقي ذاته ومكانة الافريقيين في العالم ونظرتهم الى أنفسهم والى القارة التي ينتسبون اليها ، وهذه كلها أمور تدعو الى الاشفاق والسخريـة . فالـرجل الأبيض هـو الذي رسم للانسان الافريقي صورته ونظرته الى نفسه في اطار القارة الافريقية ، وهو الذي عمل على تشويه هذه الصورة نفسها خارج افريقيا فيما يسميه المزروعي ـ على سبيل المجاز ـ بالشتات الافريقي . ويصـدق هذا على افريقيا السوداء بشكل خاص وان لم تسلم افريقيا العربية شمال الصحراء من هذا التأثير المزدوج المتناقض بحيث أصبح للافريقي بوجه عام نوعان من الشخصية أو الذاتية تـرتكزان عـلى نظرتـه الى نفسه وهـو داخل قارته ، ونـظرته الى نفسـه والى القارة الافـريقية ذاتهـا وشعوبها وقبائلها وثقافتها وهو بعيد عنها في بلاد المهجر أو في (الشتات) . وعلى هذا الأساس فان المزروعي يرى (صفحـة ٩٩) أن أوروبـا لم تخلق فقط « الشتـات الافريقي » عن طريق (تصـدير) مـلايين العبيـد الى نصف الكرة الغربي فحسب ، بل إنها ساعـدت أيضاً على (اختراع) افريقيا كما نعرفها عن طريق محاولات تشويه مقومات الهوية الافريقية وتغيير ملامحهـا المميزة بحيث أصبح الأفارقة الذين يعيشون في الخارج ينظرون الى أنفسهم والى ثقـافتهم وقيمهم التقليديـة من زاوية أوروبية وبعيون الغرب .

ولقد تضافرت على خلق الهوية الافريقية بهذا المعنى عدة عوامل تبدو لأول وهلة أنها تعمل في عكس ذلك الاتجاه . فقد كان هناك أولاً تلك السيطرة المطلقة التي كان يمارسها رسامو الخرائط الأوربيون في تناولهم للتاريخ الفكري والعلمي للعالم خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، وتصور الأوروبيين للكون ونظرتهم الى بقية أنحاء العالم عـلى ما سبق أن ذكـرنـا . فـأوروبـا هي التي وضعت ورسمت وعينت حدود أفريقيا كما نعـرفها الآن وإن لم تكن هي التي اختـرعت اسم القـارة . ولكن ذلـك التحديد ساعد الشعوب والجماعات المختلفة التي تعيش داخـل تلك الحدود التي رسمهـا الأوروبيـون عـلى أن ينظروا الى أنفسهم على أنهم يؤلفـون وحدة جغـرافية متمايزة لها ثقافتها العامة وإن كانت تتشعب منها ثقافات فرعية متنوعة لا تتعـارض والشعور بـالوحـدة الشاملة الكلية . وكان هناك ، ثانيا ، عامل النزعة المعرفية أو التفرقة العرقية أو التفرقة العنصرية والدور الذي لعبته في تاريخ العالم كله بما في ذلك أفريقيا . وقد ظهر أثر هذه النزعة واضحـاً في معاملة الأوروبيـين المهينة للسكـان السود في القارة الافريقية ، ولكن هذه المعاملة السيئة

ذاتها هي التي أدت الى تعاطف الأفارقة فيما بينهم ، والى نمو الشعور بأنهم إخوة في أفريقيا ، وكان هناك ، ثالثاً ، عنصر الاستعمار ذاته وما ترتب عليه من تعصب الافريقيين وتمسكهم بفكرة الانتماء الافريقي ، ثم كان هناك أخيراً وليس آخراً تلك « العملية الجدلية » التي تمثلت في تقسيم افريقيا الى دويلات مصطنعة تقوم بينها حدود غير طبيعية مع محاولات إيقاظ وتقوية النعرات السلالية ، وتكوين جماعات صفوة متميزة على أسس جديدة تختلف تماماً عن الأسس التقليدية المتوارثة التي تقوم عليها جماعات الصفوة القديمة ، ولكن هذه الحدود المتقاطعة للهويات المحلية ساعدت بدلاً من ذلك على تعميق الاحساس بالهوية الافريقية على مستوى الاقليم أو حتى على مستوى القارة الافريقية كلها . (صفحات ٩٩ ـ ١٠١) . وهذا معناه أن كل عامل من تلك العوامل الأربعة كان له تأثير عكسي وأنها كلها أسهمت بشكل أو بآخر في تقوية الشعور بالانتماء الى القارة وتبلور الهوية الثقافية الافريقية الشاملة .

والمهم من هذا كله هو أن تأثير الغرب على افريقيا كان يسير في اتجاهين متكاملين ، الاتجاه الأول هو إضفاء الطابع الافريقي الواضح المعالم على هوية شعوب القارة وحصرها في نطاقه ، والاتجاه الثاني هو إزالة أو مسح ذلك الطابع الافريقي عن هوية الافريقيين الذين يتم (تصديرهم) من أرض الأجداد والأسلاف فيما يطلق عليه المزروعي اسم الشتات الافريقي . والمفارقة هنا هي أن أوروبا هي التي فتحت عيون الافريقيين بتصرفاتها ومواقفها على حقيقة أنهم (أفريقيون) بالمعنى الدقيق للكلمة . فقد أمكن إضفاء وتكثيف الصبغة الافريقية أو الطابع الافريقي على الافريقيين عن طريق رسم الخرائط بطريقة معينة ، ومن خلال النزعة الأوروبية العنصرية وتصنيف السلالات والشعوب والقبائل ووطأة الاستعمار والامبريالية المتعجرفة ثم تقسيم القارة وتمزيقها وما ترتب على ذلك كله من يقظة الوعي بضرورة البحث عن هوية متميزة ترتبط بقارة كاملة وتعلو وتسمو على عوامل التمزيق والتفتيت . وعلى ذلك فاذا كان يقال إن أوروبا هي التي قامت بأفرقة هوية سكان القارة ، فالواقع هو أن عملية الأفرقة تمت على الرغم من أوروبا وضد رغبتها . وان كان ذلك لا يمنع من القول إن الخدمة الكبرى التي قدمتها أوروبا للشعوب الافريقية ليست هي الحضارة الغربية التي تخضع الآن للحصار ، ولا هي المسيحية التي تقف الآن موقف الدفاع عن نفسها أمام الاسلام ، وانما هي تلك الذاتية أو الهوية (الافريقية) التي أصبحت أمراً واقعاً وحقيقة ملموسة رغم أن أوروبا لم تكن تهدف الى قيامها وظهورها على الأقل على هذا النحو من الوضوح والقوة والتماسك والاعتزاز والاعتداد الذي يكاد يقرب من العداء .



ولقد كان الدين يحتل دائماً في حياة افريقيا والافريقيين مكاناً بارزاً خلال كل تاريخهم المعروف ، أي أن معرفة افريقيا بالدين ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ كان أسبق من الناحية الزمنية على مجيء المسيحية والاسلام . فقد كان لافريقيا دائماً دياناتها وعباداتها ومعبوداتها ، وهي في مجملها أديان وعبادات تقوم على فكرة تعدد الآلهة من ناحية ، وعدم تمركز أي إله أو معبود منها في موضع أو مكان معين ومحدد بالذات ، وبذلك لم يكن الافريقيون يتصورون وجود أي من هذه المعبودات في السماء مثلاً على وجه التحديد أو يتصورونه على هيئة البشر مثلاً أو على أي هيئة أخرى ثابتة لا تتبدل أو تتغير وإنما كانوا يتصورونها ، أو يتصورون بعضها على الأقل ، ماهية قوة

العالم التي تدخل في كل شيء وتتغلغل في كل صور الحياة كقوة قائمة بذاتها ، وبذلك كان الكون كله وقوة الحياة كلها مظاهر لتلك الآلهة

فالتصورات الافريقية الأصلية ـ أو البدائية كما يحب البعض تسميتها ووصفها ـ عن الدين والآلهة لم تكن تصورات بسيطة تماماً أو على تلك الدرجة من السذاجة التي تبدو عليه كتابات الرحالة والمبشرين قبل أن يعكف علماء الأنثربولوجيا على دراستها وتبيين ما بها من عمق وسمو وتجريد . وهذا موضوع معقد على أية حال . ولم يجد علي المزروعي نفسه أهلاً للخوض فيه بالتفصيل . ولكنه يلاحظ مع ذلك أنه على الرغم من كل الجهود التي بذلتها الارساليات والبعثات التبشيرية لنشر الدين المسيحي في افريقيا ـ وهي جهود هائلة وجبارة بكل المقاييس ، فان من بين سكان افريقيا السود الذين يقدر عددهم جنوبي الصحراء بحوالي مائة وثلاثين مليون نسمة لا يزيد عدد المسيحيين الكاثوليك عن ثلاثة عشر مليوناً ، وعدد المسيحيين البروتستانت عن أربعة ملايين ، بينما يصل عدد المسلمين الى ثمانية وعشرين مليوناً ، ولا يزال خمسة وثمانون مليون نسمة حتى الآن يتبعون دياناتهم الافريقية الوثنية ، وان كان بعضهم يعتبرون ـ من الناحية الاسمية فقط ـ مسلمين ومسيحيين . . وعلى أي حال فالمسلمون في أفريقيا ككل ، بما في ذلك ما يسميه المزروعي افريقيا العربية ، يمثلون حوالي ٤٠٪ من مجموع سكان القارة .

ولكن مع ذلك فقد عرفت افريقيا أقدم صور أو أشكال المسيحية كما تتمثل في الكنيسة القبطية في مصر وإثيوبيا ، كما أنها تعرف الآن أحدث صور أو أشكال المسيحية كما تتمثل في بعض الكنائس الافريقية الحديثة التي نشأت وقامت على أيدي بعض الأفارقة المسيحيين من أمثال كيمبانجو Kimbangu في زائير ، والقديسة بياتريس أو الكاهنة آليس لانشينا Lanshina في زامبيا . وهي كنائس تعترف بامكان تولي النساء مناصب الكهنوت . وبذلك تكون هذه الكنائس الافريقية سبقت الغرب المسيحي في هذه الحركات التجديدية التي تحاول (أفرقة) المسيحية بوجه عام . وقد لقي أصحاب هذه الكنائس كثيراً من صنوف التعذيب على أيدي المستعمرين (المسيحيين) بتحريض من رجال الارساليات (المسيحية) أنفسهم ، ولكنهم أفلحوا رغم ذلك في إقامة كنائس متميزة ، لها أتباعها من المسيحيين الأفارقة ، وتقوم بينها منافسة قوية (لاقتناص) مزيد من الأتباع (صفحة ١٥٧) .

وهذا لا يعني أن افريقيا كانت في أي فترة من فترات تاريخها الطويل أسيرة تماماً للدين وحده أو لما تتضمنه الأديان والعبادات الافريقية من سحر وأساطير . فقد كانت هناك دائماً بطبيعة الحال الحياة الدنيوية المحسوسة الملموسة بكل مشاكلها ومطالبها ، كما كان هناك أيضاً الجهود القوية التي تبذلها أفريقيا للحاق بركب المدنية الحديثة التي تقوم على العلم والتكنولوجيا .

والرأي السائد في هذا الصدد هو أن افريقيا تدين للغرب بتطورها ونموها (الصناعي) السريع ، ولكن علي المزروعي ينظر الى المسألة نظرة أخرى لا تخلو من طرافة ، اذ أنه يرى أن الغرب هو الذي يدين لافريقيا بالشيء الكثير ، وأن تأثير افريقيا في التصنيع الغربي خلال القرون الثلاثة الأخيرة كان أكبر بكثير جداً وأعمق من تأثير الغرب على التصنيع في افريقيا ، على الأقل لأن مصادر الثروة كان لها دخل في تغيير الغرب ، ويستوي في ذلك الثروة البشرية التي تتمثل في عمل وجهد (العبيد) الذين يعتبرهم المزروعي جزءاً من تكنولوجيا الانتاج في

الغرب ، أو الامبريالية التي حلت محل استعباد الرقيق ، أو المواد الخام التي قامت عليها الصناعة الغربية . ولكن في الوقت الذي كان العبيد الافريقيون يؤلفون جزءاً من تكنولوجيا الانتاج في الغرب كان تجار الرقيق الأوربيون يؤلفون جزءاً من تكنولوجيا الهدم والتخريب في افريقيا ذاتها . فلقد توافق قيام تجارة الرقيق وتجارة الأسلحة . وبينما أسهم العبيد الذين وصلوا الى أمريكا بأعداد كبيرة ومتزايدة في رفع معدلات الانتاج في الغرب ، أسهم السلاح الوافد الى أفريقيا من الغرب في اثارة الحروب والمنازعات بين الأفارقة لتحطيم بعضهم بعضاً . وإذا كان التطور التكنولوجي في الغرب قد عمل على التخلص من العبيد لارتفاع تكلفة نقلهم والاحتفاظ بهم وتشغيلهم ، فقد ظهر نوع جديد من الرق والاستعباد في شكل العمال المأجورين الذين يقيمون ويعيشون بالقرب من مراكز الصناعة ويأخذون أدنى الأجور ثم يتخلص أصحاب رؤوس الأموال والمصانع منهم حين تضعف قدرتهم على العمل نتيجة لاستنزاف قواهم وحيويتهم . والطريف في الأمر أن بريطانيا التي كانت أكبر دولة تعمل في مجال نقل وشحن العبيد في القرن التاسع عشر أصبحت هي الدولة التي ترفع شعار تحريم الرق بعد أن انقضت حاجتها اليهم ومنهم . ومع ذلك فان تحريم تجارة الرقيق لم يقض تماماً على اسهام افريقيا في تصنيع الغرب ، وإن كان ذلك الاسهام اتخذ شكلاً آخر كما ظهر تحت اسم آخر يتفق ومقتضيات العصر .

وهكذا نجد أنه خلال القرون الثلاثة الأخيرة الماضية كانت افريقيا تسهم اسهاماً فعالاً في بناء الحضارة الغربية في شكل العمل الافريقي والأرض الافريقية والمواد الخام الافريقية في وقت كان الغرب يعمل على تعطيل وتعويق جهود افريقيا لتطوير ثقافتها الصناعية . وقد ساعدت الاسهامات الافريقية على ظهور وقيام الصفوة التكنولوجية في العالم الغربي كله ، بينما ساعد تأثير الغرب السيء الهدام على ظهور وقيام الفئات الذليلة الخانعة المتخلفة تكنولوجياً في القارة الافريقية ، ولكن كيف يمكن رد هذا التباين الصارخ الى شيء من التوازن ؟

لا يكاد على المزروعي يعطي لهذا السؤال اجابة شافية ومنطقية تقوم على أسس علمية سليمة ، وانما يعمد بدلاً من ذلك الى الأسلوب الخطابي الرنان الذي قد تجد له مثيلاً في بعض الكتابات الصحفية والسياسية العادية التي لا تكاد تخرج في مجملها عن ضرورة تحالف الأفارقة السود والسكان العرب الذين يؤلفون نسبة كبيرة من سكانها من ناحية مع الدول والشعوب العربية ـ أو من يسمون عرباً حسب تعبيره ـ من الناحية الأخرى والتعاون معاً من أجل اللحاق بركب الحضارة الحديثة وبأوروبا المتقدمة تكنولوجياً ، وأن ذلك التحالف يجب أن يتخذ شكل نوعين من التماسك هما التماسك الاستراتيجي في مواجهة الغرب والتماسك العضوي في علاقاتهم بعضهم ببعض . فالافريقيون والعرب يحتاجون باعتبارهم جزءاً من العالم الثالث الى تطوير الروابط والعلاقات التي تقوم بينهم حتى يمكنهم التعامل بطريقة أكثر فاعلية مع الدول الصناعية . ثم إن العالم الثالث ككل يحتاج في آخر الأمر الى استقلال إمكاناته المادية وقدراته وكفاءاته البشرية لما فيه صالحه الخاص .

وهذا كلام طيب ، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ هذا ما لا يتعرض له علي المزروعي .

ولقد سبق لعلي المزروعي أن عالج كل هذه المشكلات من نفس الموقف وبنفس الكلمات والألفاظ

تقريباً في بعض كتاباته السابقة وبخاصة في كتابه القصير الممتع عن الوضع الافريقي أو الحالة الافريقية . وهذا الكتاب كان أيضاً سلسلة من المحاضرات التذكارية المعروفة باسم محاضرات ريث عام ١٩٧٩ ، وان كان يتناول تلك الموضوعات من منطلق سياسي ولذا يعطي للكتاب عنواناً فرعياً هو تشخيص سياسي(٨) . ويعترف المزروعي في مقدمة الكتاب (P. VIII) أنه كتب تلك المحاضرات بأسلوب يجمع بين الطريقة الرسمية والطريقة غير الرسمية وبين المعالجة ألعلمية والنقاش الجدلي ، ولذا فان الكتاب يخاطب في الحقيقة مختلف مستويات القراء الذين قد يكون لهم بعض الاهتمام بافريقيا وشعوبها ومشكلاتها وعلاقتها بالعالم الخارجي ، كما يمكن اعتباره بمثابة تمهيد أو (بروفة) لكتاب « الافريقيون » .

ونقطة الانطلاق في هذه المحاضرات هي أن افريقيا كانت دائماً تلعب دور حلقة الوصل بين القارات القديمة الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا) ، بل إنها كثيراً ما كانت تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب لدرجة أنه في بعض الأحيان كان هناك شك حول اذا ما كانت تعتبر جزءاً من الشرق أو يمكن الحاقها بالغرب . وهذه « المنزلة المزدوجة » ـ حسب تعبير المزروعي ـ مسئولة الى حد كبير عن ذلك الغموض الذي كان يحيط بشخصية الجزء الشمالي من القارة (أي شمال افريقيا) وهويته بحيث انه كان يعتبر في وقت من الأوقات امتداداً لأوروبا كما حدث مثلاً أيام الامبراطورية الرومانية . بل إنه حتى في القرن السابع عشر ، وبالذات في عام ١٦٥٦ ـ كتب « الجغرافي الملكي » في فرنسا يصف افريقيا بأنها « جزيرة كبيرة جداً تؤلف القسم الثالث ـ أي الجزء الجنوبي ـ من قارتنا » . وليس ببعيد عن الأذهان على أية حال محاولات فرنسا لأن تجعل من الجزائر جزءاً من فرنسا وما أدت اليه هذه المشكلة من انقسام في الرأي العام الفرنسي في الخمسينيات ووصول ديجول الى الحكم عام ١٩٥٨ .

ولكن على الجانب الآخر كانت هناك علاقات ثقافية ودينية قوية تربط افريقيا بغرب آسيا من خلال الاسلام والعرب . وهذا هو ما يدفع على المزروعي في هذه المحاضرات الى وصف الاسلام بأنه دين « أفرو أسيوي » في المحل الأول من حيث إن معظم الشعوب الاسلامية تعيش في آسيا وافريقيا بنفس المعنى الذي يعتبر به المسيحية ديناً « أفروغربياً » لأن معظم الشعوب المسيحية تؤلف جزءاً من الغرب وجانباً من سكان افريقيا ، ولذا كانت افريقيا ـ من حيث تاريخ الدين ـ تحتل دائماً في رأي المزروعي مكاناً مركزياً في كل عمليات الجمع والتوفيق بين المسيحية والاسلام .

كذلك تتمتع افريقيا بكل المقومات التي تساعدها على القيام بدور فعال في سياسة العالم الثالث وهو العالم الذي يتألف من ثلاث قارات هي أمريكا اللاتينية الى الغرب ، وآسيا في الشرق ، وافريقيا في الوسط . ويربط بين أفريقيا وآسيا « تجربة الإذلال العنصري » على اعتبار أن شعوب القارتين لا ينتمون الى الجنس الأبيض ، بينما يربط بين افريقيا وأمريكا اللاتينية تجربة الاستقلال وذلك على اعتبار أن وضع أمريكا اللاتينية بالنسبة للولايات المتحدة يشبه الى حد كبير جداً وضع افريقيا من أوروبا الغربية . فكلتا القارتين كانت مجالاً للتغلغل والتوغل والتحكم من قبل قوى عاتية آتية من الشمال

---

(٨) ظهرت هذه المحاضرات في شكل كتاب بعنوان :
Ali A. Mazrui, The African Condition : A Political Diagnosis : The Reith Lectures 1979 : Heinema, London 1980.

وذلـك الى جـانب محـاولات التجـزيء والتقسيم والتفتيت ، وان لم تكن هذه العملية في أمريكا وصلت الى تلك الـدرجة أو الى ذلـك الحـد الـذي بلغتـه في افريقيا . ولكن المهم هو أن كلا من القارتين تنقسم الآن الى دول متنافسة ومتناحرة وأن بعض هذه الدول على درجة بالغة من صغر الحجم ، بالاضافة الى ذلك التشابه الواضح بينهما في توافر الثروات الطبيعية من المواد الخام ووفرة الامكانات الزراعيـة ووجود العنصر الأسود أو الزنجي مما جعـل دولة مثـل كوبـا تدعـو نفسها دولـة أفرو لاتينية .

وليس ثمـة مـا يـدعـو الى الـدخـول في تفـاصيـل الموضوعات التي عالجها المزروعي في هذه المحاضرات الست التي يضمها الكتاب نظراً لتشابهها مع الموضوعات التي تناولها كتاب « الافريقيون » على ما ذكرنـا . ولذا فقد يكفي أن نشير هنا الى أنه يحاول في هذه المحاضرات أن يحيط بأنماط الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في افريقيا من منظور سياسي باعتباره هو نفسه متخصصاً في العلوم السياسية ، وأن وسيلته الى ذلك هي مناقشة هذه الأمور من خلال ستة أنواع من المفارقات التي تميز الأوضاع العامة في تلك القارة .

فأما المفارقة الأولى فهي مفارقة الاقامة والسكنى من حيث ان افـريقيـا كـانت هي المـوطن الأول للجنس البشري ، ولكنها تعتبر في الوقت ذاته آخر مكان يصلح لـلاقامـة عـلى مـا سبق أن ذكـرنـا حـين تكلمنـا عن (الافريقيون) . وتتراوح أسباب أزمة الاقامة في تاريخ افريقيا الحديثة بين خطورة الأمراض الاستوائية وصعوبة الاتصـال والانتقال الى عـدم الاستقـرار السيـاسي في افريقيا السوداء الى التعقيدات القائمة في جنوب افريقيا حيث تسيطر الأقلية البيضاء على الأكثـرية الغـالبة من السكان السود الأصليين ، مما أدى الى هجـرة عناصر متنوعة وعديدة من السكان اما خوفاً من بـطش السود وغدرهم ، أو هرباً من استبداد البيض وقوانين التفرقة العنصرية . ويقـول المزروعي في ذلـك انه اذا كـانت افريقيا هي موطن الانسان الأول أو « مكان ولادة آدم » فـان جنة عـدن تعاني الآن كثيـراً من البؤس واليـأس والأسى .

والمفارقة الثانية هي مفارقة الاذلال والمهانة . وقـد تكون هناك شعوب وجماعات تعرضت للقسوة والوحشية والعنف أكثر مما تعرض الأفارقة ، ولكن الأغلب أنه لا توجد من بين هذه الشعوب من تعرض للاذلال والمهانة مثلما تعرض الافريقيون في تاريخهم الحديث . فلقد ذاق اليهود الكثير من آلام التعذيب أيام النازي كما تعرض سكـان أمريكـا الأصليون (الهنـود الحمر) ، وأهـالي استراليا الأصليون أيضاً لكثير من القسوة والوحشية التي كانت تهدف الى إبـادتهم والقضاء عليهم كشعـوب ، ولكن إذلال الافـريقيين وإهـانتهم وإهدار انسـانيتهم اتخـذت أشكالاً أخـرى لعل أهـونها هو معـاملتهم في بلادهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثالثة بعد البيض والملونين ، وأشدها وقعاً على النفس وإهدارا للآدمية هو (اصـطيادهم) مثلما تصـطاد الحيوانـات المتوحشـة ، وبيعهم كـرقيق وعبيـد للعمـل في مـزارع البيض في أمـريكا . وقـد تكون النـزعة العنصـريـة ـ كـظاهـرة اجتماعية ـ في سبيلها الآن الى الاختفاء . وإذا كـانت النزعات القبلية قد اندثرت في أوروبا أولاً ، وانها سوف تختفي وتزول في وقت من الأوقات من افريقيا ، فان النزعة العنصرية تحتضر الآن وتتراجع في افريقيا وسوف يأتي اليوم الذي تختفي فيه من أوروبـا أيضاً . أي أن افريقيا ستكون أسبق على أوروبا في اختفاء شكـل من أشكال التفرقة البغيضة بين البشر . وصحيح أنه لن يأتي

أبداً اليوم الذي تزول فيه من كل أنحاء العالم كل صور وأشكال التمييز الطبقي والطائفي ، ولكن العالم سوف يشفى بغير شك من كل النزعات القبلية ومن أمراض العنصرية .

المفارقة الثالثة هي مفارقة اكتساب الثقافة أو استعادتها واستيعابها وتمثلها أو ما يسميه علي المزروعي باسم تصادم الثقافات . فمع أن المجتمعات الافريقية بعيدة بحكم تقاليدها وقيمها وأوضاعها ونظمها التقليدية أشد البعد عن الثقافة الغربية وعن العالم الغربي فانها تستعير كثيراً من عناصر الثقافة الغربية وتخضع لها بسرعة تستلفت النظر . ومن الملاحظ أن سيطرة الأفارقة الذين خضعوا للثقافة الغربية على شئون أفريقيا قد فاقت كل الحدود ، كما يلاحظ أيضاً أن المسيحية انتشرت في افريقيا بأسرع ـ إن لم تكن أوسع ـ مما انتشرت به في أي قارة أخرى ، كما أن استخدام اللغات الأوروبية كوسيلة للتواصل والتفاهم في كثير من شئون الحياة اليومية داخل أرض الوطن أكبر منه في آسيا مثلاً ، كما أن النظم التعليمية التي وضع الأوربيون أسسها لا تزال هي المتبعة على الرغم من أنها تعمل على زيادة وتعميق ذلك التأثير (التغريبي) الخطير بحيث أصبح الافريقيون الآن موزعين بين محاكاة الغرب والتمرد على الغرب .

وتتمثل المفارقة الرابعة في عملية التجزيء والتقسيم والتفتيت ، فافريقيا ليست هي أصغر القارات من الناحية الفيزيقية ، ولكنها تكاد تكون أشدها تفتتاً وأكثرها انقساماً الى دويلات من الناحية السياسية بحيث تضم عدداً من أصغر دول العالم من حيث السكان والثقل السياسي . وكثيراً ما يكون هذا التقسيم قائماً على أسس عرقية أو لغوية أو دينية أو أيديولوجية دون النظر لأية اعتبارات أخرى . ومن الغريب أن هذه القارة التي تضم أقل من خمسمائة مليون نسمة تنقسم الى أكثر من خمسين دولة . وليس من شك في أن هذا التفتيت هو أحد المعوقات التي تقف في وجه جهود التنمية والاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، كما أنه يساعد على خلق شعور عميق بعدم الأمان وعدم الاستقرار في القارة بوجه عام .

وتتعلق المفارقة الخامسة بمشكلة التخلف والتباطوء في التنمية . فافريقيا ليست أفقر مناطق العالم ، ومع ذلك فانها تعتبر أشد بقاع العالم تخلفاً وتأخراً في المجال التكنولوجي ، ربما باستثناء المنطقة القطبية الجنوبية . ويزيد من ذلك التخلف أن اقتصادياتها موجهة بشكل عام لخدمة الغرب وان كانت هناك بعض الجهود المخلصة التي تحاول تصحيح هذه الأوضاع والقضاء على تلك التبعية الاقتصادية .

وأما المفارقة الأخيرة فانها تتعلق بالموقع الجغرافي الذي تحتله القارة الافريقية بين قارات العالم ، وهو موقع مركزي من الناحية الفيزيقية ، ولكنها مع ذلك تعتبر قارة (هامشية) من حيث وزنها السياسي وقدراتها العسكرية ، ولا يكاد يأتي قبلها في ذلك سوى القارة المتجمدة أيضاً . وليس من شك في أن ضعف افريقيا العسكري بوجه خاص هو المسئول الأول عن سقوطها فريسة للاستعمار . ولكن هل ستظل يا ترى على هذا الوضع وخاصة أن العالم يحاول زيادة قدراته العسكرية بمختلف الطرق وشتى الأساليب والوسائل . واذا كان ذلك يفوق قدرات افريقيا ويتجاوز امكاناتها ، فهل تستطيع الافادة من موقعها الجغرافي المركزي المتميز فتحمل على عاتقها مسئولية العمل على اقرار السلام في العالم والتوفيق والتقريب بين القوى المتطاحنة ، بحيث يمكن الكلام حينذاك عن السلام الافريقي بنفس المعنى

ونفس القوة التي كان العالم يتحدث بهما في وقت من الأوقات عن السلام البريطاني ؟

وهذا أيضاً سؤال آخر لم يحاول المزروعي الاجابة عنه .



وما أكثر الأسئلة التي يطرحها الباحثون والدارسون عن افريقيا وتراثها وثقافاتها وأسلوب تفكيرها ونظرتها الى نفسها والى الحياة والى الآخرين والى الكون دون أن يصلوا الى إجابات شافية . وربما يكون الأمر في حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث والى أن يشارك في ذلك أبناء افريقيا أنفسهم بقصد الوصول الى فهم أدق وأعمق ومن وجهة نظر افريقية خالصة لهذه المشكلات والقضايا ، وبذلك وحده سوف يمكن تحديد ملامح وأسس ومقومات هذه الهوية الافريقية التي يكثر الآن الكلام عنها .

* * *

السخرية في أدب المعري

عدنان عبيد العلي
أستاذ مساعد
كلية الآداب ـ جامعة البصرة

مقدمة

يحمل الناس في تكوينهم قدرا من الفكاهة ، والسخرية تتفاوت بتفاوت (فروقهم الفردية) كما تتفاوت بواعثها ، وغاياتها الجزئية ، مختلفة باختلاف الأشخاص ، والجماعات ، والبيئات ، فحين تتسع الانحرافات الفردية ، والاجتماعية ، وتتفشى مظاهر الفساد والقهر ، تبرز طائفة من الأدباء ، والمفكرين ، والمثقفين ، لتستخدم هذا اللون من القول ، والكتابة وسيلة للاصلاح ، والتقويم . فالانحراف والكبت يخلقان سخرية مريرة تقوم بفعل القصاص ، والعقاب ، كما تقوم بتخفيف أعباء الانفعال ، واستهلاك الكمية الفائضة من التوتر .

وهنا يجدر الانتباه ـ في جدوى ذلك القصاص والتقويم ـ إلى حقيقة إنسانية سلوكية مفادها أن من الناس من لا يرتدع خوفا من الأذى ، ولكنه يرتدع خوفا من أن يكون موضوعا للسخرية . لهذا كانت الأخيرة ضربا من (الالتزام) الأدبي فهي فن عقلي يقوم على النشاط الابداعي .

المعري أديب ملتزم

سخّر المعري شعره وأدبه لغايات أخلاقية ، وفكرية حفلت بالوعظ ، وغلب عليها الطابع العقلي والمضمون الفلسفي . فلم يرسل نفسه فيه على سجيتها ، ولم يستسلم للطبع بل صنع أدبه صناعة استعلى فيه على عواطفه ، كما استعلى في حياته العملية . ملتزما في أدبه مبدأ (الفن للفائدة) معتبرا غاية الأدب ، والشعر طلب الحقيقة ، والتهذيب ، وقد أعلن هذا في مقدمتي ديوانه (سقط الزند) و (اللزوميات) . ففي مقدمة الديوان الأول ـ التي كتبها متأخرة ـ قال : « لم أطرق مسامع

الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلبا للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان السوس »[١] وقد وصل به (التزامه) في مرحلة عزلته إلى بغضه شعر هذه المرحلة قائلا : « مدحت فيه نفسي فأنا أكره سماعه »[٢] . وفيه يقول تلميذه التبريزي : « رأيته يكره أن يقرأ عليه شعر صباه (سقط الزند) وكان يغير الكلمة إذا قرأته عليه . . . ويحتج على الاشتغال بغيره من كتبه كلزوم ما لا يلزم » .[٣]

وفي مقدمة (اللزوميات) اعترف بضعف شعره فيه بسبب (التزامه) قائلا : « من سلك هذا الأسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام (النظم) . . . وروى عن الأصمعي كلام معناه أن الشعر باب من أبواب الباطل فإذا أريد به غير وجهه ضعف »[٤] معلنا أن ديوانه هذا « توخي فيه صدق الكلمة ، ونزهه عن الكذب »[٥] ولم يكتف بهذا الالتزام الأخلاقي والفكري في شعره بل لقد خطط لهذا الديوان قبل نظمه تخطيطا (شكليا) كما يفعل الشعراء التعليميون بادئا نظمه بالهمزة ومنتهيا بالياء ، ومقيدا شعره بحرفين أو ثلاثة في الروى ملتزما بالمرفوع ، فالمنصوب ، فالمجرور ، فالساكن ، في كل روى معلنا هذا (التخطيط) و (التصنيع) في مقدمة الديوان .[٦] وبهذا يكون أبو العلاء أول بل وآخر شاعر عربي ينظم على طريقة خاصة كهذه ، ويطبقها منذ البدء على أبياته بيتا بيتا ، متوجا هذا التخطيط بعنوان غريب للديوان ، ومنطبق على منهجه ، ومضامينه تمام الانطباق فكان هذا العنوان خير « تعبير عن الكلف التي يظهر أنها استعيرت للديوان من كتب المناطقة لتدل على ما فيه من نسب ومعادلات بين ألفاظه وقوافيه »[٧] حتى ليمكن القول إنه لم يقل - معظم أدبه - من شعر أو نثر بل يعملها .

نقد النحاة واللغويين :

تناول أبو العلاء النحاة ، واللغويين بساخر نقده ، فقد أوعروا النحو ، وعقدوا مسالكه ، وأحالوه إلى طلاسم وألغاز بعد أن كان حلو المجتنى ، يسير التناول يلبى حاجات النطق ، فلم يكن فيه تخريج متكلف ، أو قاعدة مصطنعة يوم كان على يد الدؤلي والخليل ، ولكنه صار صعبا مطلوبا لذاته على يد الأخفش والكسائي والفراء وغيرهم . وصار له شيع وأحزاب تتناحر ، وتتشاتم ، وتقضي الوقت من غير طائل ، فعقد لهم في رسالة الغفران مجالس ساخرة ، وشغلهم بجمهرة من المسائل النحوية ، والصرفية ، واللغوية وجعلهم - في الفردوس - متحابين[٨] بعد أن كانوا في (الدار العاجلة) متباغضين ، وصاروا مصداقا لقوله تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانا على سرر متقابلين . لايمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين »[٩] ، فصدْرُ أحمد بن يحيى (ثعلب) هنالك قد غسل من الحقد علي محمد بن يزيد (المبرد) فصارا يتصافيان ، ويتوافيان . و (سيبويه) قد رحضت سويداء قلبه من الضّغن على (عليّ بن حمزة الكسائي)

---

(١) شروح سقط الزند ١/ ١٠
(٢) السابق ٣/١
(٣) نفسه ٣/١ .
(٤) اللزوميات ، ط مصر ٣٢/١
(٥) السابق ١٩/١ .
(٦) نفسه ١/ ١ وما بعدها
(٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د . شوقي ضيف ، ٣٩٩ .
(٨) رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطىء ١٦٩ - ١٧١ .
(٩) سورة الحجر ٠ ٤٧ - ٤٨

وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة ، و (أبو عبيدة) صافي الطوية لـ (عبد الملك بن قريب) أي الاصمعي .

وقد شَغَل النحاةُ بطلَ قصته (ابن القارح) بسفسطتهم حتى ضاع صك التوبة ، وجعل يلومهم على هذه الضجة . يقول بطله : « كنت قد رأيت في المحشر شيخا لنا كان يدرّس النحو في (الدار العاجلة) يعرف بـ (أبي علي الفارسي) وقد امترس به قوم يطالونه ويقولون تأوّلتَ علينا ، وظلمّتنا . فلما رآني أشار إليّ بيده فجئته فإذا عنده طبقة منهم (يزيد بن الحكم الكلابي) وهو يقول : ويحك أنشدت عني هذا البيت برفع الماء يعني قوله :

فليت كفافا كان شرّك كلّه
وخيرك عنّي ما ارتوى (الماء) مرتوى

ولم أقل إلاّ (الماء) بالنصب . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله فقلت : يا قوم : إن هذه أمور هينة فلا تعنتوا الشيخ فإنه يمت بكتابه في (القرآن) المعروف بـ (كتاب الحجة)[١٠] ، وأنه ما سفك لكم دماء ، ولا احتجن عنكم مالاً فتفرقوا عنه » .[١١]

ويعقد بين اللغويين ـ في جنته ـ حوارا[١٢] فينصرفون عمّا هم فيه من نعيم ليتجادلوا حول اسم سِلال في الجنة « فيقول أحدهم إن اسمها في العربية (بواسن) فيقول قائل : من ذكر هذا من أهل اللغة فيقول : قد ذكرها (ابن درستويه) الذي كان حاضرا هذه المجادلة (العابثة) فيقول له الخليل ـ في شك ساخر ـ من أين جئت بهذه الحرف ؟ فيقول ابن درستويه وجدته في كتب النضر بن شميل . فيقول الخليل : أتحق هذا يا نضر (فأنت عندنا الثقة !) فيقول النضر : قد التبس عليّ الأمر » .

فمعظم النحاة ـ عنده ـ أهل تزيد ومبالغة . لم يتورعوا من الاستشهاد بكلام طفل ، أو امرأة ليست بذات بال[١٣] ، وربما أنشد الكسائي ـ كما يقول ـ البيت والبيتين على غير سماع ، ورووا أن يعقوب بن السكيت صحف قول عدي ابن الرقاع[١٤] .

وبلغت سخريته بالنحاة أن جعلهم مشغولين ببطونهم بعد أن اطمأنوا لمكانهم في الجنة ، فأبو عبيدة اشتهى طاووسا مشويا من طواويس الجنة . وقد رآه طائرا يروق من رآه حسنا متمنيا أن يُشوىٰ بالخل . فيكون كذلك في صحفة من الذهب . فإذا قضي منهم الوطر انضمت عظامه بعضها إلى بعض ثم تصير طاووسا كما بدأ فتقول الجماعة ـ جياع الدار العاجلة ـ سبحان مَن يحيي العظام وهي رميم ! كما جاء في الكتاب الكريم : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أوَلَمْ تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . . . [١٥] » ليبدأ بعد ذلك جدل (عابث) حول موضع (يطمئن) امنصوبه بـ (لام كي) أم يجوز غير ذلك كالجزم بـ (لام الأمر) ويكون مخرج الكلام مخرج الدعاء .[١٦]

وحين تمرّ إوَزّة من فوقهم تشرئب أعناقهم فيشتهيها بعضهم مشوية أو (كردناجا) أي كبابا بالفارسية ، أو

---

(١٠) كتاب الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي
(١١) رسالة الغفران ٢٥٤ ـ ٢٥٥
(١٢) السابق ٢٨٠ ـ ٢٨١ .
(١٣) نفسه ٢٣٨
(١٤) رسالة الصاهل بتحقيق بنت الشاطيء ٣٠٤
(١٥) سورة البقرة ٢٦٠
(١٦) رسالة الغفران ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

معمولة بـ (سماق) أو بـ (لبن وخل) فتكون على ما يريدون . وحين بلغوا ما تمنوه قال أبو عثمان المازني للأصمعي : يا أبا سعيد ما وزن إوزة ؟ فيقول الأصمعي : أإليَّ تعرّض بهذا يا (فُصعُل)[١٧] ، وطالَ ما جئتَ مجلسي بالبصرة وأنت لا يرفع بك رأس[١٨] ، ويمضي جدل طويل بينهم ثم يقول الأصمعي للمازني : أليس أصحابك من أهل القياس يزعمون أنها (إفعلة) وبعد جدل حاد ، وشجار ، وصراخ يقول المازني : تأوُّلٌ من أصحابنا وادعاء ، لأن إوَزّة لم يثبت أن الهمزة فيها زائدة فيقول الأصمعي :

ريّشت جرهم نبلا فرمى
جرهما منهن فوق وفرار[١٩]

تبعتهم مستفيدا ثم طعنت فيها قالوه معيدا . ما مثلك ومثلهم إلّا كما قال الأول :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتد ساعده رماني[٢٠]

وقد أشار الأستاذ إبراهيم مصطفى[٢١] إلى أن في رسالة الغفران من رأي سيبويه وكتابه ، والسيرافي وشرحه ، وأبي علي وكتبه ما يدل على رأي أبي العلاء في نحو البصرة خلاصته : أنه يرى أن نحاة البصرة بقياسهم قد قوّلوا العرب مالا يقولون ، وأجروا على ألسنتهم غيرما يرضون ، وأنه انصرف عن بغداد لم يتلق من أحد من أئمة النحو بها ، وقرأ كتبهم فضاق صدرا بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل ، والغلو في التعليل ، والمضي مع القياس مضيا يراه المعري منتهيا إلى أن يجيز في العربية ما ليس فيها . وتجلت سخريته بالنحاة في خلاص أهل الجنة في ضياع النحو ، لأنهم سيتكلمون بلغة الأصول النقية التي لم تصلها يد نحوي « وإنما افتقر الناس في الدار (الغرارة) إلى علم النحو واللغة لأن العربية الأولى أصابها تغيير » .[٢٢] وبهذا يضع أبو العلاء أيدينا على فِكره اللغوي القائم على العودة إلى الأصول الأصيلة الصافية .

وبسبب انشغال النحاة بـ (العبث) و (الجدل) فقد كانوا فقراء أدركتهم (حرفة الأدب) في العاجلة) ، فقد قَدِم أبو عبيدة مع الأصمعي إلى البصرة طلبا للطعام . ثم يوجه أنظار نحاة عصره متهكما ساخرا « مَن بغى أن يتكسب بهذا الفن فقد أودع شرابه في شن (قربة باليد)[٢٣] » وذهب بعضهم لطلب (الامارة) كي يعيش . فسيبويه رغب في (ولاية المظالم) بشيراز ،[٢٤] وأن أبا بكر بن السراج عمل كتابه (الموجز) لرجل بزاز ،[٢٥] ولم يَنْسَ في هذا الاتجاه أن يعرّض بأبي تمام من أنه هلك بالموصل وهو على البريد . ثم يختم كلامه بالقول : « وصاحب الأدب حليف التصريد » .[٢٦]

وفي رسالة الملائكة (الصرفية) كان للسخرية فيها نصيب وافر من بعض الاشتقاقات المتكلفة ،

(١٧) من اسماء العقرب أو الصغير من ولدها ويوصف به الرحل اللئيم (هامش رسالة الغفران ، رقم ٤ ص ٢٨٣ .
(١٨) رسالة الغفران ٢٨٣ .
(١٩) البيت للأفوه الأودي من رائيته المشهورة (انظر هامش الغفران رقم ٢ ص ٢٨٤ وهامش ٥ من ص ٢٩٧)
(٢٠) رسالة الغفران : ٢٨٤ .
(٢١) المهرجان الألفي ٣٧٠ ، وانظر الغفران دراسة نقدية لبنت الشاطيء ٢١٦ - ٢١٧
(٢٢) رسالة الملائكة ٤٥ .
(٢٣) رسالة الغفران ٤١١ .
(٢٤) السابق ٤١١ - ٤١٢
(٢٥) نفسه ٤٢٥ .
(٢٦) نفسه ٤١٢ ، والتصريد : قلة العطاء (هامش الغفران) .

والتخريجات المصنوعة وبرغم تواضعه المسرف الذي نقرؤه في مقدمة الرسالة[٢٧] فإن الرسالة تحمل اعتدادا بالنفس ، وثقة عالية بمخزون المعرفة التي يمتلكها أبو العلاء لما أفاض فيه من تفنيد لآراء العلماء بعد استعراض لثقافته اللغوية . وتبدو هذه السخرية من انشغال النحاة بالهين الساذج ، وصرفهم حياتهم في بحث لغوي غير مهم . فهم في لحظات (الاحتضار) يتحاورون مع ملك الموت عن اشتقاق اسمه أو اسم الملك[٢٨] ، ولا يخفي ما في تلك المحاورة من سخرية بعقول الذين يفصلون في حديث الغيب مما لم يطلع عليه أحد .

وبعد عرضه للصراع بين النحاة في الاشتقاق العابث يردّ الملك ساخرا من أبي عبيدة النحوي الذي استشهد برأيه « وما أبو عبيدة وما هذه الأباطيل إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد وإلاّ فاخسأ (تباعد) وراءك . فأقول أمهلني فيقول الملك : هيهات ليس الامر إليّ إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، أم تراني أداري منكرا ونكيرا . فأقول : كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة أكثرها أعجمية مثل إسرافيل وجبريل وميكاييل فيقولان : هات حجتك وخل (الزخرف) عنك . فلا يزيدهما ذلك عليّ إلاّ غلظة ولو علمت أنهما يرغبان في مثل هذه (العلل) لأعددت لهما شيئا كثيرا من ذلك » .[٢٩]

وكان له اعتداد (ساخر) في رده على سيبويه في إحدى المسائل الصوفية في قوله من أن السماع من العرب لم يأت فيه نحو ما قال إلا أن يكون شاذا .[٣٠]

كما سخر من الفراء في أصل كلمة (لكن) بقوله : « وقد زعم الفراء أن أصلها لا كئن وهذه دعوى لا تثبت . . . ويجوز أن يكون شاذا » .[٣١]

وبهذا يمكن القول إن أبا العلاء يعتقد أن السماع هو الأصل في المعرفة اللغوية .

فلم يثق بالنحو المتخم بالتكلف والاصطناع ، والتأويل فهتف في كتابه الأيك والغصون :

يا نحو يا نحو
حتى لما كتب منك المحو
ما أنت وما الحاجة إليك
إنما يفتقر إلى تقوى الله
ما أشغلني إذا نودي بي عن أحكام النداء
ما ترخيم وضع
وكلام ضم وجمع
جر بالاضافة ونصب على الاغراء .[٣٢]

فلم ينتفع أحد بعد من نحوهم ولغتهم ، ولم يكهم علمهم الذي ضيعوا العمر فيه :

تولى سيبويه وجاش سيب
من الأيام فاختل الخليل
ويونس أوحشت منه المغاني
وغير مصابه النبأ الجليل
أتت علل المنون فما بكاهم
من اللفظ الصحيح ولا العليل[٣٣]

وقد كوى النحاةَ بميسم لاذع من نقده فتخيل جدلهم ونقاشهم مثل هدير الجمل وصخبه . إذ أضاع

---

(٢٧) ص ٥ - ٦ .
(٢٨) رسالة الملائكة ٦
(٢٩) السابق ٨
(٣٠) نفسه · صفحة س .
(٣١) رسالة الملائكة ١٩٣
(٣٢) اوج التحري للبديعي ٤٥ ، وأنظر مجلة أديب العدد الخاص حزيران ١٩٤٤م
(٣٣) اللزوميات ٢/ ١٨٦ ط مصر

المتأخرون النحو النقي الأصيل الذي خلفه الأوائل « فلو عاش الدؤلي حتى يسمع كلام الفارسي في الحجة ما فهمه - فيما أحسب - إلا فهم الأمة هدير السنداب[٣٤]

نقد الأدباء والرواة :

عني ابو العلاء بالرواية عناية بالغة . إذ أنها تمثل فكره النقدي التوثيقي ، والتزامه الأدبي . وقد جاء في نقده المنبث هنا وهناك ضروب من الرواية منها المجرد من النسبة ، أو المختلف في نسبتها[٣٥] ، وهناك رواية مع الترجيح . ولكن دون إبداء سبب لهذا الترجيح[٣٦] ، لعدم توفر المرجح . وهناك رواية تقترن بالترجيح ، والتعليل مع ذكر أسباب هذا الترجيح . وقد كان في ذلك كله ذا ذوق مرهف ، ودقة ، وسعة معرفة بأساليب العرب وأدبهم .[٣٧]

وفي استقرائنا لنقده (الملتزم) نجد سخرية تقويمية لأدباء عصره : يقول فيه :

وما أدب الأقوام في كل بلدة
إلى المين إلاّ معشر أدباء[٣٨]

بل لقد وجّه كلمة الأدب في أصل وضعها بأنها دعوة إلى الموت لا إلى الطعام :[٣٩]

وكل أديب أي سيدعى إلى الردى
من الأدب لا أن الفتى متأدب[٤٠]

فصناعتهم مذمومة تجلب الفقر ، برغم ما يبذله أصحابها من ذل ومهانة في بيعها في أسواق الملوك والأغنياء ، ويسخر أبو العلاء من بيع هذه الصناعة حين يضع هذا الحوار على لسان إبليس ، وأديب حلبي .

« يقول إبليس من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك فيقول : بئس الصناعة إنها تهب رغفة من العيش لا يتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . . . »[٤١] ، وفي هذا الاتجاه يعرض لعطف الملوك (المُذِل) على أهل الأدب قائلا : « ولم يزل أهل الأدب يشكون الغِيَر في كل جيل ويخصّون من العجائب بسجل سجيل . وهو يعرف الحكاية أن مسلمة بن الوليد أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله . وقال إنهم أهل صناعة مجفوة . وأحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين ، وانما ينجح بعضهم في ذات الزمين (تصغير الزمن) ثم لا يلبث أن تزل قدمه ويتفرى بالقدر ادمه . . . ، وإذا كان الأدب على عهد بني أمية يقصد أهله بالجفوة فكيف يسلمون من بأس عند مملكة بني العباس ؟ وإذا أصابتهم المحن في عدّان[٤٢] الرشيد فكيف يطمع لهم بالحظ المشيد ؟ »[٤٣] .

وليست تلك السخرية من أهل الأدب فحسب بل في

---

(٣٤) الفصول والغايات - للمعري بتحقيق محمود حسن زناتي ١٠٩ . والسنداب الجمل الغليظ الشديد (هامش الفصول)

(٣٥) أبو العلاء المعري - ناقدا ، لوليد محمود خالص . ٣٧ . وانظر أمثلة الرواية المجردة في رسالة الغفران ٣٢٩ ، ٥٦٢ . ورسالة الصاهل ٣٣٨ - ٣٣٩ ، ٦٢٨ ، والفصول والغايات ٨٣ ، ٨٩ ، ١٩٧ ، ٢٧٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٨٥ ، ورسالة الملائكة ١٠ ، ٩٧ - ٩٨ ، ٢٤٩ - ٢٥٠

(٣٦) أبو العلاء المعري ناقدا : ٤٠ . وانظر أمثلة في رسالة الملائكة) ٩٨ والصاهل ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٣٧) أبو العلاء المعري ناقدا ٤٤ . وانظر أمثلة ذلك في رسالة الصاهل ٥٤٠ - ٥٤٣ ، ٤٣١ ، ورسالة الغفران ٢٠٤ - ٢٠٧ ، ٣١٤ ، وعبث الوليد ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٢ - ٣٧٣ . وانظر في النحل والانتحال أبو العلاء المعري ناقدا ص ٦٠ وما بعدها وأمثلته في الصاهل ٤٥١ - ٤٥٢ ، ٥٥٢ ، ٣٥٦ ، ٥٠٣ ، ٥١٣ ، ٥٤٢ ، ٦٩٠ ، والفصول ٤٣٠ - ٤٣١ ، ٢٢١ ، ٤٦٩ ، ٣٨٤ ، ورسالة الغفران ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ورسالة الملائكة ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣٨) اللزوميات - ط مصر ١/ ٣٥ .

(٣٩) أصل (أدب) بتسكين الدال . الدعوة إلى الوليمة ومنه المأدبة والآدب : الداعي إلى الطعام . انظر لسان العرب ١/ ٢٠٦ - ٢٠٧ وتاج العروس ١/ ١٤٤ وجمهرة اللغة ٣/ ٣٦٦ ، ٨١ والمصباح المنير ١/ ٦ مادة (أدب)

(٤٠) اللزوميات - ط مصر ١/ ٧١ .

(٤١) رسالة الغفران ٣٠٩ .

(٤٢) عدانه أي أوله وأفضله (هامش رسالة الغفران رقم ٣ ص ٤١١) .

(٤٣) رسالة الغفران ٤١١

سخرية ضمنية من المجتمع والساسة الذين لم يقدروهم حق قدرهم . فالجهلاء يرفلون بحلل النعمة . في حين لا يجد الأدباء ما يسد رمقهم ، ولهذا صرخ في لزومياته صرخة (عبثية) استوت فيها كل الأشياء عنده فلم يعد هناك قيمة لكل ذي قيمة :

إنّا لما نحن فيه من عنت
فكلنا في تحيل ودلس
ما النحو ما الشعر والكلام وما
مرقش والمسيب بن علس
طالت عن ساهر دجنته
والصبح ناءٍ فمن لنا بغلس[٤٤]

ويعقد للرواة في رسالة الغفران مجلسا طريفا للمناظرة ، ساخرا من عدم تثبتهم إذ ما تكاد رحلته إلى الجنة تبدأ حتى يقدم طريقته المختارة في الرواية والنقل . فحين يتمثل بطله ابن القارح يقول البكري (وهما بيتان من الشعر) « فيهتف هاتف : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ فيقول الشيخ : نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء فيرويه لهم عن أشياخ العرب حرشة الضباب[٤٥] في البلاد الكلدات[٤٦] ، وجناة الكمأة في مغاني البداة ، الذين لم يأكلوا شيراز الألبان[٤٧] ، ولم يجعلوا الثمر في آثبان ،[٤٨] أن هذا الشعر لميمون بن قيس . . . »[٤٩] .

ثم يعرض ـ بأسلوبه الخاص ـ موكبا من الشعراء يسألهم عما نسب إليهم من شعر فينكرون ويتهمون رواته . ويثني إلى أعشى قيس فيقول : (أي ابن القارح) يا أبا بصير أنشدنا قولك :

أمن قتلة بالأنقا
دار غير محلوله

فيقول أعشى قيس ما هذه مما صدر مني وإنك منذ اليوم لمولع بالمنحولات .

وجاء بأبينا آدم يسأله عما نسب إليه من شعر قائلا : يا أبانا قد روى لنا عنك شعر منه قولك :

نحن بنو الأرض وسكانها
منها خلقنا وإليها نعود

فيقول : إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكني لم أسمع به حتى الساعة فيقول : فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت فقد علمت أن النسيان متسرع إليك ، وحسبك شهيدا على ذلك الآية « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما »[٥٠] . فيقول آدم (ع) أبيتم إلّا عقوقا وأذية إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة فلما هبطت إلى الأرض نُقل لساني إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت فلما ردني الله إلى الجنة عادت عليّ العربية فأي حين نظمت هذا

(٤٤) اللزوميات ط مصر ٢/ ٥٤ ـ ٥٥

(٤٥) حرشة الضباب جمع حارش وهو صائد الضب ، والحرش : الخديعة

(٤٦) الكلدات جمع كلدة وهي الارض الخليظة .

(٤٧) الشيراز اللبن الرائب المقطوع .

(٤٨) الثبان . واحد الثبن شيء كذيل القميص تعطفه وتثنيه فتجعل فيه ما شئت معاني المفردات السابقة من هامش (٤٥-٤٨) من هامش رسالة الغفران ، ص١٧٧

(٤٩) رسالة الغفران ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(٥٠) سورة طه / آية ١١٥ .

الشعر ؟ في العاجلة أم الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار (الماكرة) ثم يسأل ابن القارح آدم (ع) عن شعر نسب إليه لما قتل قابيل هابيل :

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مُغْبرٌ قبيحُ

فيقول آدم (ع) : أعزز عليّ بكم معشر أبيني أنكم في الضلالة متهوكون ، آليت ما نطقت بهذا النظيم ولا نطق في عصري وإنما نظمه بعض (الفارغين) فلا حول ولا قوة إلّا بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك إلى الأرض [٥١] .

ومن هذا الموكب امرؤ القيس ، والعلوي البصري ، عضد الدولة وغيرهم [٥٢] .

ومن نقده الساخر للرواية دفاع النابغة عن نفسه حيال تخرصات المصحفين من الرواة والكاذبين من النقلة فيقول أبو العلاء على لسان بطله (ابن القارح) « لله دَرّك يا كوكب بني مرة ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة وكيف لي بـ (أبو عمرو : المازني والشيباني وأبي عبيدة وعبدالملك وغيرهم من النقلة لأسألهم كيف يروون وأنت شاهد لتعلم أني غير المتخرص ولا الولّاغ فلا يقر هذا القول في حذنة [٥٣] أبي امامة إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر من غير مشقة نالتهم ولا كافة في ذلك أصابتهم . فيسلمون بلطف ورفق فيقول (ابن القارح) من هذه الشخوص الفردوسية ؟ فيقولون نحن الرواة الذين شثت إحضارهم آنفا . . . [٥٤] »

نقد الشعراء :

إن الفكر الأدبي الملتزم ، والنهج الأخلاقي الذي اطمأن إليه ابو العلاء ، وآمن به ، ودعا إليه هو الذي حدد مسار أدبه ، ومضامينه فآثر الصدق ، وربط الأدب بعجلة الأخلاق . فسخر من المديح قائلا : المديح في كل زمان ما رفع قدر مشئم ولا يمان [٥٥] ، ويتساءل « ما الذي أفاده رسول الله (ص) لما امتدحه كعب وحسان » [٥٦] ، ويسخر من شعر التكسب فيصفه على لسان الشاحج (البغل) « فإني كرهت أن أتصور بصور أهل النظم المتكسبين الذين لم يترك سؤال الناس في وجوههم قطرة من الحياء ، ولا طول الطمع في نفوسهم أنفة من قبيح الأفعال » [٥٧] لأن الآية ـ كما يقول ـ تشهد عليهم بالتخرص وقول الأباطيل [٥٨] : « الم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون [٥٩] » .

فالشعر عنده ـ « إذا جُعل مكسبا لم يترك للشاعر حسبا ، واذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنسب » [٦٠] .

---

(٥١) رسالة الغفران ٣٦٠

(٥٢) السابق . ٣٢٢ ، ٤٤٩ وانظر في نقده الرواية وسخريته من الاستشهاد غير الموثق ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٥٢ ـ ٣٥٩ ، ٣٧٧ ، ٤٢٩ ، ٧٤٤

(٥٣) الحذنتان : الاذنان ويعرد فيقال : حذنة بضمتين لنون مفتوحة مشددة (هامش الغفران ٢ ، ص ٢٠٦) .

(٥٤) رسالة الغفران ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٥٥) الصاهل ١٧٨

(٥٦) السابق ١٧٩ .

(٥٧) نفسه ٢١٩ .

(٥٨) رسالة الغفران ٤١٤ .

(٥٩) سورة الشعراء / آية ٢٢٥ .

(٦٠) احكام صنعة الكلام للكلاعي ٣٨ .

وفي هذا الاتجاه زخرت اللزوميات بالسخرية اللاذعة من شعر التكسب :

تكسب النـاس بـالأجسـاد فـامتهنـوا
أرواحهم بـالـرزايـا في الصنـاعـات
وحـاولـوا الـرزق بـالأفـواه فـاجتهـدوا
في جـلب نفـع بنظم أو سجاعات(٦١)

ومغـرم بـالمخـازي طـالـب صلة
مغـرى بتنفيق أشعـار لـه كسـد (٦٢)
يحـق كســاد الـشـعـر في كـل مـوطـن
إذا نفقت هـذى العـروض الكـواسـد (٦٣)

وسواء ـ عند المعري ـ المديح ، والهجاء حين يسبغ المادح صفات ليست في الممدوح :

إذا أثـنى علـيّ المـرء يـومـا
بـخـير لـيس فيّ فـذاك هـاج (٦٤)
سيـان عـنـدي مـادح متـخـرّص
في قـولـه وأخـو الهـجـاء إذا ثـلب (٦٥)

أما إذا أسبغ المادح على ممدُوحه من مستحيل الصفات البشرية فإن الهجاء خير منه :

إذا كـان التقـارض مـن محـال
فـأحسـن مـن تمـادحنـا التـهـاجي (٦٦)

وفي هذا الاتجاه يجمع المعري بطل قصته (الغفران) مع الشاعر الحطيئة فيصف هذا البطل الحطيئة بالصدق في هجوه نفسه (٦٧) ، لأن الهجاء عند الحطيئة يمثل الوجه الحقيقي لنفسه . ويذكره بممدوحه الزبرقان بن بدر فيقول الحطيئة : « انتفع بهجائي ولم ينتفع غيره بمديحي » (٦٨) .

أما الأخطل شاعر بني أمية فقد وسّده أبو العلاء دار اللهب فحاسبه حسابا عسيرا في خمرياته (٦٩) ، وجعل يذكره بأيام يزيد فيزفر زفرة يعجب لها الزبانية (٧٠) .

وحكم على أبي تمام ـ وفق منهجه الأخلاقي ـ فقال : « أمّا أبو تمام فما أمسك من الدين بزمام . . . فإن قذف في النار حبيب فما تغني المدح ولا التشبيب ، ولو أن القصائد لها علم . . . لأقامت عليه الممدودتان (٧١) اللتان في اول ديوانه مأتما . . . فناحتا عليه كابنتي (لبيد) ، وكأني بهما لو قضي ذلك لاجتمعت إليهما الممدودات ، كما تجتمع نساء معدودات فيجئن من كل أوب ، ويتواعدن المحفل على نوب . ولو فعل ذلك لبارتهن (البائيات) بمأتم أعظم رنينا ، وأشد في الحندس حنينا . . . (٧٢) » وهكذا يمضي مستقصيا قوافي ديوانه لتقوم كل قافية بندب ، وسخر ، ولوم . ثم أشفق عليه من النار . (٧٣) .

(٦١) اللزوميات ، دار صادر ١/ ٢٢٧ .
(٦٢) اللزوميات ، دار صادر ١/ ٣٧٢ .
(٦٣) السابق ١/ ٢٢٩ .
(٦٤) نفسه ، ط مصر ١/ ٢٠٨ .
(٦٥) نفسه ١/ ١٤٢ .
(٦٦) نفسه ١/ ٢٠٨ .
(٦٧) رسالة الغفران ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .
(٦٨) السابق ٣٠٨ .
(٦٩) رسالة الغفران ٣٤٥ .
(٧٠) السابق : ٣٤٧ .
(٧١) وهما قصيدتاه في المديح ، الأولى في خالد بن يزيد الشيباني ، والأخرى في مدح يحيى بن ثابت (هامش الغفران رقم ٢ ، ص ٤٨٤)
(٧٢) رسالة الغفران ٤٨٣ وما بعدها .
(٧٣) السابق ٤٨٨ .

ولم يعف أدب الأندلسي من سخريته ، وتهكمه لولوع أهله بالمبالغة قائلا : « كان لهم بالمغرب رجل (يعرف) بابن هانيء ، وكان من شعرائهم المجيدين فكان يغلو في مدح المعز غلوا عظيما» (٧٤) كما تعرض لشاعر أندلسي آخر له» (٧٥) يعرف بـ (ابن القاضي) ، ومن هذا المنطلق الأخلاقي هاجم (مهنة الأدب) ، وقال عنها : إنها صناعة خاسرة مهينة ، وقد سمعنا منه في (جنته) أن النابغة الجعدي يعيّر الأعشي بمدح الملوك ويرى زوجته الهزانية قد وفقت في تخلية هذا النابح الذي يطوف الأحوية على العظام المتبذة . وسمعنا منه أن حميد بن ثور في جنة الغفران يشكو ما لقي في الدنيا من هذه الصناعة » ولقد كان الرجل منّا يعمل فكره السنة والأشهر في الرجل قد آتاه الله الشرف والمال فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فعطاء زهيد » (٧٦) .

ثم رأينا ابن القارح ينصرف عن انتساخ آداب الجن ـ وكان قد همّ بذلك ـ ويقول : « لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل ، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فاحتلب منهم درّ بكي . . . » (٧٧)

وفي الغفران تجلّت سخريته من الشعر الشكلي ذي الجعجعة اللفظية القائمة على رنين الألفاظ ، ودونها في شعر وضعه على لسان (العفريت) أبي هدرش الخيثعور أحد بني الشيصبان وهما قصيدتان الأولى عشرون بيتا ومطلعها :

حمدت من حطّ أوزاري ومزقها
عني فأصبح ذنبي اليوم مغفورا

وعدد أبيات الثانية تسعة وتسعون . ومطلعها :

مكة أقوت من بني الدردبيس
فما لجنّي بها من حسيس (٧٨)

وفي القصيدتين تتجلّى براعة أبي العلاء ودقة حسه ، وسلامة ذوقه على نحو رائع غير مألوف . فقد استطاع أن ينطق بلسان جنّي ، ويروي مغامرته ويقصّ غزواته في بني الإنسان فيخيل ـ عند قراءة القصيدة ـ أن هذا صوت عفريت حقا ، وأنه من شعر الجن صدقا بقافيته وألفاظه ، وجرسه ، ووقعه ، ومعانيه . وقد واتته مقدرته الشعرية دون أن يتعثر ، وأسعفته ثروته اللغوية فاختار ما شاء من الفاظ ـ غريبة ذات رنين خاص كأنما جاء بها من قاموس الجن(٧٩) (يغبور ، الهيق ، الطنبوب ، عمروسا ، فرفورا ، الدردبيس ، رديس ، طسيس ، غبيس ، عربسيس ، يعاليل ، نكيس ، الانفليس ، الخفيس . . .) .

ومن الملفت للنظر أن الشعراء الذين التقى بهم في الجحيم أكثر من الشعراء الذين التقى بهم في الجنة وهم في الوقت نفسه فطاحلهم . فقال على لسان طرفة : « وددت أني لم انطق مصراعا ودخلت الجنة مع الهمج والطغام » (٨٠) ، ويقول أوس بن حجر : « ولقد دخل الجنة من هو شرّ مني ولكن المغفرة أرزاق كأنها النشب في الدار العاجلة» (٨١) .

(٧٤) نفسه ٤٦١ .
(٧٥) نفسه ٤٦٢ .
(٧٦) رسالة الغفران ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٧٧) الغفران ، دراسة نقدية لبنت الشاطىء ٢٤١ ، وانظر النص في رسالة الغفران بتحقيق المؤلفة ٢٩٢ ـ ٢٩٣
(٧٨) انظرهما في رسالة الغفران ٢٩٤ وما بعدها
(٧٩) الغفران ، دراسة نقدية لبنت الشاطىء ١٩٤ ـ ١٩٥ .
(٨٠) رسالة الغفران ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
(٨١) السابق ٣٤٢ .

وكانت سخريته لاذعة (مهينة) مع بطله ابن القارح الذي جعله يتوسل بالشعر لدخول الجنة قائلا على لسانه [٨٢] : « زينت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتا في رضوان خازن الجنان عملتها في وزن :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان [٨٣]

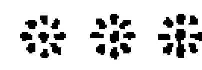
ووسمتها برضوان ثم ضانكت الناس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى فما حفل بي ، ولا أظنه أبه لما أقول . . . ثم عملت أبياتا في وزن :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا
وقطعوا من حبال الوصل أقرانا [٨٤]

ووسمتها برضوان ثم دنوت منه ففعلت كفعلي الأول . . . فلم أزل أتتبع الأوزان التي يمكن أن يوسم بها رضوان حتى أفنيتها ، وأنا لا أجد عنده مغوثة ، ولا ظننته فهم ما أقول ! وبعد أن يئس ابن القارح من استجابة رضوان صاح بأعلى صوته وقال له من بعض ما قال : قد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك فقال : وما الأشعار؟ فاني لم اسمع بهذه الكلمة قط الآ الساعة ! فقلت الاشعار جمع شعر . والشعر كلام موزون تقبله الغريزه على شرائط . . . وكان أهل العاجلة يتقربون به إلى الملوك ، والسادات ولكن رضوان طرده فانصرف إلى خازن آخر يتوسل إليه بالشعر ولقي منه ما لقي من الأول .

وسخر من أدعياء الشعر ، والضعفة الذين قالوا فيه مفردا للرجز حديثا خاصا بل وجنة خاصة جمع فيها الرجاز واختار لهم مكانا متواضعا فيه [٨٥] من رجّاز العرب : الأغلب العجلي ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وفذافرين أوس ، وأبو نخيلة ، وكل من غفر له من الرّجاز [٨٦] . فإذا عرض له رؤبة غاضبا مفاخرا قال له :

« لو سُبِك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة » [٨٧] .



---

(٨٢) نفسه ٢٤٩ وما بعدها

(٨٣) وهو لأمرىء القيس وتمامة (ورسم عفت آياته منذ أزمان) هامش الغفران ٨ ص ٢٤٩

(٨٤) البيت لجرير ، وهو مطلع قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل (ديوانه ، ط الصاوي ، ٥٩٣ في هامش الغفران رقم ١ ص ٢٥٠ .

(٨٥) رسالة الغفران ٣١٨ - ٣٢٠

(٨٦) السابق ٣٧٣ - ٣٧٥ .

(٨٧) نفسه ٣٧٥

المصادر والمراجع

١ ـ أحكام صنعة الكلام ـ الكلاعي الإشبيلي الأندلسي ـ تحقيق محمد رضوان الداية ـ مط النجوي بيروت ـ ١٩٦٦

٢ ـ أوج التحرى عن حيثية المعري : البديعي ـ تحقيق إبراهيم الكيلاني ـ مط الترقي ـ دمشق ١٩٤٤

٣ ـ تاج العروس ج١ ـ الزبيدي ـ دار ليبيا ـ بنغازي ـ بلا تاريخ

٤ ـ جمهرة اللغة ـ ج٣ ـ ابن دريد ـ مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ط١ ـ الهند ـ ١٣٤٥هـ

٥ ـ رسالة الصاهل والشاحج ـ المعري ـ تحقيق د. عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف مصر ٩٧٥

٦ ـ رسالة الغفران ـ المعري ـ تحقيق د. عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٦ ـ ١٩٧٧

٧ ـ رسالة الملائكة ـ المعري ـ تحقيق كامل كيلاني ـ المكتب التجاري ـ بيروت ـ بلا تاريخ

٨ ـ شروح سقط الزند ـ للتبريزي والبطليوسي والخوارزمي ـ تحقيق مصطفى السقا وجماعته ـ إشراف د. طه حسين ـ الدار القومية للطباعة والنشر ٩٦٤ ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٧م

٩ ـ عبث الوليد ـ المعري ـ تحقيق ناديا الدولة ـ الشركة المتحدة ـ بروت ـ بلا تاريخ

١٠ ـ أبو العلاء المعري ناقدا ـ وليد محمود خالص ـ مؤسسة الرياضي للطباعة ـ دار الرشيد للنشر بغداد ـ ١٩٨٢م

١١ ـ الغفران دراسة نقدية ـ د. عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ـ ط٣ ـ مصر ١٩٦٨م .

١٢ ـ الفصول والغايات ـ المعري ـ تحقيق محمود حسن زناتي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر ١٩٧٧م

١٣ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ ط٩ ـ مصر ١٩٧٦

١٤ ـ اللزوميات ـ المعري ـ مط التوفيقية ـ مصر ـ ١٣٤٢هـ . واللزوميات ـ ط دار صادر ـ بيروت ١٩٦١

١٥ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ـ ٩٥٥ و ٩٥٦

١٦ ـ مجلة أديب ـ عدد خاص ـ حزيران ١٩٤٤ .

١٧ ـ المصباح المنير ـ ج١ ـ الفيومي ـ مط الاميرية ـ ط٦ ـ القاهرة ـ ١٩٢٦م

١٨ ـ المهرجان الالفي ـ مط الترقي ـ دمشق ـ ١٩٤٥م

❊ ❊ ❊

صدر حديثًا

الرواية السوفيتية

تأليف : كاترينا كلارك

عرض وتحليل : مكارم الغمري
أستاذة بكلية الألسن
جامعة عين شمس

الرواية السوفيتية

مؤلفة كتاب « الرواية السوفيتية هى كاترينا كلارك الأستاذة بقسم اللغات السلافية وآدابها بجامعة أنديانا بالولايات المتحدة ، وقد صدر هذا الكتاب في طبعتين : الطبعة الأولى ظهرت في عام ١٩٨١ ، أما الطبعة الثانية فقد صدرت في عام ١٩٨٥ ، ويقع الكتاب في ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط ويتضمن مقدمة وأربعة أبواب مقسمة الى فصول وخاتمة ملحق بها قائمة بالمراجع التي تضمنتها أبواب الكتاب وفصوله .

يتطرق الكتاب لدراسة موضوع جد هام ألا وهو « الرواية السوفيتية » أى الرواية التي تمثل إنتاج القاعدة العريضة من الأدباء السوفيت الذين تنتمى كتاباتهم الى الحقبة السوفيتية من تاريخ روسيا والتي بدأت منذ عام ١٩١٧ .

وقد وفقت المؤلفة في اختيار موضوع الدراسة ، فالرواية السوفيتية هى بحق « مفتاح وثائقى لتاريخ الثقافة السوفيتي » ، فضلا عن ندرة الدراسات الغربية التي تناولت الأدب السوفيتي ، فرغم اهتمام الغرب بدراسة الأدب الروسى الكلاسيكى إلا أن الحقبة السوفيتية من تاريخ الأدب الروسى تظل معروفة بشكل لا يخلو من السطحية ولا يتسم بالنظرة المحايدة ، فالاهتمام - بالدرجة الأولى - يركز من جانب الباحثين على دراسة إنتاج الأدباء المنشقين الذين يمثلون قلة بالنسبة للأدباء السوفيت ، بالإضافة إلى ذلك فإن دراسات الأدب السوفيتى في الغرب - وكما تشير المؤلفة في صدر كتابها - لا تخلو من لهجة ساخرة يملؤها الشك .

ومرجع سخرية الغرب - كما تؤكد المؤلفة - يرتبط بالتصور غير المنصف لدى المثقفين في الغرب الذى يرى في الأدب السوفيتى نموذجا للأدب الموجه الذى يفتقد الى

الحرية في الإبداع وتعوزه الفنية الصافية مما انحدر بالأدب عن تراثه العظيم الذى عرفه العالم في روائع تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف وغيرهم من مشاهير الأدب الروسى الكلاسيكى .

تحدد الباحثة المنهج الذى تتبعه في دراستها للرواية السوفيتية وهو منهج يجمع بين الدراسة النقدية والتاريخية للنص ، وهذا منهج موضوعى وواقعى ، إذ يتجنب المغالاة في الدراسة الشكلية للنص ويأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخى والاجتماعى للنص الأدبى الذى يصعب بدونه ـ وخاصة في مجال الرواية السوفيتية ـ فهم تاريخ تطورها .

وتستهدف الدراسة التى يضمها الكتاب محل العرض إعطاء صورة أو إحصاء عام ديناميكى لتطور الرواية في إطار من السياق العام للثقافة السوفيتية ، وتقديم تفسير للتاريخ الثقافى لاستخدامات الرواية التى تعد أهم فنون الأدب الروسى على الإطلاق .

ويسير العرض في الكتاب على النحو التالى :

الباب الأول : الواقعية الاشتراكية قبل عام ١٩٣٢

ويعتبر هذا الباب أهم الأبواب في الكتاب وذلك للموضوعات الهامة التى يتناولها في فصوله الثلاثة : مذهب الواقعية الاشتراكية ، والبطل الإيجابي ، وكلاسيكيات الواقعية الاشتراكية في العشرينيات .

ومن المنطقى أن يتصدر الحديث عن الواقعية الاشتراكية هذا الكتاب ، فقد تُوِّج هذا المذهب الأدبى رسميا على عرش الأدب السوفيتى في بداية الثلاثينيات ، ومن ثم فالفهم الصحيح للواقعية الاشتراكية يساعد على النفاذ الى الكثير من رموز الأدب السوفيتى بشكل عام والرواية السوفيتية بشكل خاص .

وقد أثار هذا الاتجاه الأدبى السائد في الأدب السوفيتى جدلا في النقد فقد اختلفت الآراء حول تحديد مفهومه وسماته ، وقد أحسنت الباحثة صنعا حين جنبت القارىء الخوض في تحليل الآراء النظرية المختلفة التى تناولت التعريف بالواقعية الاشتراكية ، فهذه المجادلات النظرية كانت ستبعث لدى القارىء شعورا بالحيرة وعدم الوضوح ، أما النماذج الأدبية التى ينعكس فيها هذا المبدأ الأدبى فهى حقا خير معين لتفهم سماته .

وكما هو معروف صدر أول إعلان رسمى عن الواقعية الاشتراكية في عام ١٩٣٢ بعد تشكيل أول اتحاد رسمى للكتاب السوفيت ، ولم تتشكل نظرية الواقعية الاشتراكية للتو بعد الاعلان عن المصطلح ، ولكن أخذت الشخصيات الهامة في الأدب وعلى رأسها مكسيم جوركى ، تجتهد في شرح هذا المصطلح وتوضيحه في خطابات رسمية ، ومن خلال مؤتمرات اتحاد الكتاب . وقد واكب تأسيس اتحاد الكتاب في بداية الثلاثينيات حالة من الجيشان السياسى والاجتماعى في الاتحاد السوفيتى كان لها انعكاساتها في مجالات الحياة العقلية المختلفة التى أبرزها تجميع الأنشطة والجماعات الأدبية المختلفة لتصب جميعها في اتحاد الكتاب الذى رفع شعار الواقعية الاشتراكية . وكما تؤكد الباحثة ، لم تكن الواقعية الاشتراكية جديدة تماما وقت اعلانها ، فقد كانت لها بدايات في العشرينيات قبل أن تقنن في الثلاثينيات ، فقد كانت هناك في العشرينيات جماعات أدبية مختلفة تطلق على نفسها أسماء « الأدب الواقعى الاشتراكى » ، « والواقعية الاشتراكية » ، و « الرومانسية الثورية » ، « الراب »* . وقد عرّف

* « الراب » هى الحروف الأولى المختصرة للجمعية الروسية لكتاب البروليتاريين .

جدانوف الواقعية الاشتراكية على أنها « خليط من أحداث الواقع وأكثر الصور بطولية » . وقد شابه هذا التعريف ما كانت تدعو اليه جماعة « الراب » من الصدق في التصوير والبطولة والرومانسية والرؤية المستقبلية للواقع . وقد أجمع معظم النقاد السوفيت على اعتبار « التفاؤل » و « التزام الأدب » « وتلبية احتياجات الجماهير » من أكثر العلامات المميزة لأدب الواقعية الاشتراكية ، وكانت الرواية هى أكثر فن أدبي انعكست فيه سمات الواقعية الاشتراكية .

بعض عناصر رواية الواقعية الاشتراكية التى أبرزتها المؤلفة :

« الحبكة الرائدة » Master Plot

إن البحث في الرواية السوفيتية يتطلب العودة الى الروايات الملهمة أو « الحبكة الرائدة MasterPlot كما تطلق عليها المؤلفة ، حيث ترى فيها نماذج « كهنوتية » « ألزم الكتاب على اتباعها » ، وهذه النماذج بمثابة « الضلوع القائمة » في أدب الواقعية الاشتراكية ، وسنحاول في البداية أن نوضح ما هى هذه النماذج ؟

في كل أدب توجد عادة مؤلفات تنال حظ الشهرة والتقدير ، وفي عام ١٩٣٢ وبعد تشكيل أول اتحاد كتّاب ، بدأ الحديث عن مذهب الواقعية الاشتراكية الذى اختير ليكون راية أمام الجميع وقد أبرزت في هذا الصدد بعض الروايات الهامة والشهيرة التى تتجاوب مكوناتها مع الاتجاه الأدبي الجديد ، والتى يمكن أن تكون قدوة أمام الأجيال الجديدة من الكتاب ، وكانت هذه الروايات هى « الأم » ، « وحياة كليم ساجين » لجوركى ، و « تشابايف » لفورمانوف و « التيار الحديدي » لسيرافيموفيتش ، « والأسمنت » لجلادكوف ، « والدون الهادىء » لشولوخوف ، « ومسيرة الآلام » « وبطرس الأول » لإلكس تولستوى ، « والحرس الشاب » لفادييف ، « وكيف سقينا الفولاذ » لاستروفسكى . ويقدم تاريخ الرواية السوفيتية منذبدايته في عام ١٩١٧ أمثلة لروايات كتبت قبل التأسيس الرسمى للواقعية الاشتراكية في عام ١٩٣٢ ، وصارت بعد ذلك نماذج ملهمة أو « حبكة رائدة » على حد تعبير المؤلفة ، وقد ظهرت هذه الروايات بشكل طبيعى واستمدت بعض موضوعاتها من قصص السيرة الذاتية وذلك مثل رواية « تشابايف » لفور مانوف (١٩٢٣) ، « وكيف سقينا الفولاذ » لاستروفسكى . إذن فالنماذج « الرائدة » هى في الحقيقة مؤلفات متميزة تتوارى أفكارها وقيمها مع الأفكار الرائدة ، ومن ثم تركز عليها الأضواء كقدوة « ملهمة » ، ولذلك فإنه من الصعب التصديق على أن المؤلفات الملهمة التى ساهمت في تطوير تقاليد أدب الواقعية الاشتراكية هى « حبكة رائدة » أحكم تدبيرها من أعلى وفرضت كطقوس على الأدب .

وتؤكد المؤلفة على أنه من الصعب الحكم على الرواية السوفيتية دون الرجوع الى هذه النماذج ، فهى تعتقد بأن الكتاب قد دفعوا بشكل ما للسير على هدى هذه النماذج واتباع الكثير من رموزها ومحاكاة شخصياتها وحتى أحداثها وشكل بنيانها .

ولكن هل يعنى هذا « الاهتداء » افتقاد الرواية السوفيتية للتميز والابداع ؟

تؤكد المؤلفة على حقيقة تنوع الرواية السوفيتية وعلى طابعها الابداعى ذلك لأن الرواية السوفيتية رغم أنها تكتب ـ في بعض أشكالها ـ على هدى الرواية « القدوة » إلا أن ذلك لم يحل دون التطور الإبداعى لتقاليد الواقعية الاشتراكية . وخير مثال على ذلك رواية شولوخوف الرائعة « الدون الهادىء » التى نال عليها جائزة نوبل

للأدب ، ويرجع الفضل لهذا التنوع والتمايز في الرواية السوفيتية الى القدرة الإبداعية والموهبة الفردية للأدباء السوفيت ، بالاضافة الى ذلك فالعناصر المكونة للرواية نابعة من الأدب نفسه ، كما أنها تضرب بجذورها في تقاليد الرواية الروسية الراديكالية للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

« التلقائية والوعى »
« Spontaneity/Consciousness »

تعتبر فكرة ديالكتيك التلقائية والوعى حقيقة ـ كما تشير المؤلفة ـ نواة ودعامة في متن الرواية السوفيتية . وتستند هذه الفكرة إلى إمكانية إحراز التقدم التاريخى من خلال بلوغ درجة عالية من الارتقاء بالوعى وذلك من خلال ديالكتيك التلقائية والوعى ، بمعنى أنه إذا أمكن التحكم في الجانب « التلقائى » في الإنسان بغية الوصول به الى أعلى درجة من الوعى فسيمكن حينئذ بلوغ التغيرات المطلوبة في المجتمع من خلال توجيه هذا الوعى نحو الأهداف ، وقد جسد الأدب هذه الفكرة خلال صورة « البطل الإيجابى » الذى يعبر عن أعلى درجة من درجات الوعى .

البطل الإيجابى « The Positive Hero »

ويعتبر البطل الايجابى ـ حقيقة ـ « حجر الأساس » في الرواية السوفيتية ، فهذا البطل الذى قد يبدو عادة إنسانا عاديا (عامل ـ فلاح ـ جندى ـ موظف) يمثل رمزا للمثل والقيم ، ويعتبر بمثابة القدوة الملهمة التى توضح « ما يجب أن يكون » . إن البطل الإيجابى هو عادة نموذج يحتذى به ونبراس على الطريق .

أثارت صورة البطل الايجابى في الرواية السوفيتية استياء الغرب ـ كما تقول المؤلفة ، فقد شاهدوا فيه « المذنب الرئيسى » في الرواية نظرا لما يتسم به من مثالية وكمال يقتربان به من صور « القديسين » على حد تعبير المؤلفة التى تمضى فتقرر أن صورة البطل الإيجابى في الرواية السوفيتية ليست بجديدة ، بل هى تكملة للبطل الإيجابى الذى ظهر في أدب القرن التاسع عشر والذى لعب دورا هاما في التقاليد العظيمة للأدب الروسى الكلاسيكى ، فقد أوضح هذا البطل نماذج للتصرف قد يمكن بأمثلتها الوصول إلى حلول لمشاكل روسيا الاجتماعية ، وقد ساعد هذا النموذج على اجتذاب اهتمام الناس الى القضايا الاجتماعية فاتجه الى تصويره الكثير من كتّاب القرن التاسع عشر ، وكان في مقدمتهم دستويفسكى وتورجينيف وتشرينشفسكى الذى قدم في روايته « ما العمل » (١٨٦٣) نموذجا صادقا لهذا البطل . وفي هذا الصدد تؤكد المؤلفة على حقيقة تأثير الرواية الراديكالية للقرن التاسع عشر على الرواية السوفيتية ، وهو تأثير بيّن مسّ رموز الرواية وعناصرها .

حوار الأزمنة في الرواية السوفيتية

تميل الرواية السوفيتية الى إلغاء الحدود بين الأزمنة وحذف المسافة التى لا جسر لها بين الماضى الملحمى والحاضر التاريخى والحلم المستقبل . ويُحكم الروائىُ بناء عمله بشكل لا يسمح بالتعارض بين الماضى والحاضر والمستقبل . شاهد الغرب في هذه السمة التى تتميز بها الرواية السوفيتية نوعا من أنواع « الفصام النفسى » فقد أخذ النقاد على الرواية السوفيتية هذه الانتقالات الفجائية بين الأزمنة ، فهم يريدون أن تكون الرواية ذات بعد زمنى واحد إما أن تصف الحاضر أو الماضى أو المستقبل . وتؤكد المؤلفة على أن تقاطع الأزمنة في الرواية السوفيتية لا يبدو غريبا أمام من يدركون قيمها الفكرية ، فهناك بعد قيمى يخضع للماضى الملحمى

الذي يتناول أحداثا تاريخية هامة مثل ثورة ١٩١٧ والحرب الأهلية وبعض لحظات من التاريخ إبان حكم ستالين ، وقد أصبحت هذه الأحداث بمثابة الوقت العظيم المقدس الذى يمنح الحاضر هالة من التبجيل ، كما أن وصف المستقبل والحلم بزمن سوف تكون الحياة فيه أروع من الواقع ينبع من تحديد جدانوف للواقعية الاشتراكية على أنها « خليط من أحداث الواقع وأكثر الصور بطولية » . إن الزمن الحاضر في الرواية السوفيتية يتحدد معناه خلال علاقته بالماضى الملحمى وبالمستقبل الأسطورة ، ومن ثم فالتنقلات الزمنية في الرواية السوفيتية ـ كما تؤكد المؤلفة ـ يمكن أن تشاهد « كمواز لما يحدث في الديالوج الأفلاطونى الذى يتحرك من الديالكتيك العقلى الى الأسطورة الوهم » .

رواية « الأم » لجوركى

تنتقل الباحثة الى تحليل رواية « الأم » التى ابرزت كأول نموذج للواقعية الاشتراكية . وكما هو معروف تناولت أحداث رواية « الأم » وقائع حقيقية حدثت بالفعل في الفولجا في أحد أعياد أول مايو (عيد العمال) .

وقد اعتبرت « الأم » نموذجا لأدب الواقعية الاشتراكية ، لما تضمنته هذه الرواية من سمات مميزة لهذا الفن ، فقد قدمت الرواية عرضا لديالكتيك التلقائية والوعى من خلال الشخصيات الرئيسية وخاصة شخصية « الأم » التى تجسد ملامح البطل الايجابى في أبهى صوره . تؤكد المؤلفة على الطابع الرمزى لشخصيات « الأم » الذى تبرزه كأحد سمات التكنيك الروائى بها ، أما السمة الثانية فتراها المؤلفة في مجموعة الصفات التى يستخدمها جوركى في وصف الأبطال التى تعبر عن نوعية خاصة من الصفات الأخلاقية التى أضفت على الشخصيات طابعا مثاليا وجعلت من الرواية مستودعا لسلسلة من الروايات المشابهة .

تتطرق المؤلفة في تحليل رواية « الأم » الى نقطة هامة ، ألا وهى ارتباطها بالتراث الكلاسيكى للقرن التاسع عشر ، فقد كانت « الأم » حقيقة بمثابة « المعبر الذى مرت خلاله العبارات الخاصة بالراديكاليين الروس الى التعبيرات المحددة للبلاشفة » فقد انعكست في « الأم » الاصطلاحات المميزة للرواية الثورية في القرن التاسع عشر وأيضا فكرة البطل المضحى بالنفس أى « البطل الإيجابى » الذى نجد الكثير من أمثاله في الرواية الراديكالية وخاصة عند تورجينيف .

الواقعية الاشتراكية في العشرينيات

تستهل المؤلفة الحديث عن أدب العشرينيات بإعطاء صورة عامة للظروف التاريخية المتاخمة لهذه الفترة . وكما هو معروف ، نشبت الحرب الأهلية في أعقاب ثورة ١٩١٧ ، وكان النظام الجديد يواجه مرحلة حاسمة ووقتا صعبا حرجا ، وقد كان لصعوبة الوقت واختلاطه السبب في تعقد التيار الأدبى في العشرينيات ، فقد تعددت الجماعات الأدبية واشتدت المعارك بينها وخاصة من جانب الجماعة الأدبية المسماه « بالراب » . وقد جاء رد فعل الكتاب على الثورة متباينا ، فبينما أيدها البعض ورحب بها ، شاهد البعض الآخر فيها أحداثا مفجعة وقابلها بالرفض ، وقد كان ازدهار الجماعات الأدبية في العشرينيات السبب في خلق أدب متنوع اتسمت به هذه الفترة بالذات ، وذلك بالمقارنة بالفترات الأدبية التالية لها . ومع ذلك فرغم تنوع انتاج هذه الفترة إلا أنه ـ وكما تشير المؤلفة ـ « كان هناك الكثير من الشىء العام المشترك في أدب هذه الفترة » . وتبرز المؤلفة روايتى

« الأسمنت » لجلادكوف و « تشابايف » لفورمانوف بصفتهما من أهم مؤلفات العشرينيات .

رواية « الأسمنت » لجلادكوف

تتوقف المؤلفة بالتحليل عند رواية « الأسمنت » للأديب السوفيتي جلادكوف ، فهذه الرواية تعد من أهم الأعمال الأدبية التى تنتمى الى فترة العشرينيات . ترجع المؤلفة أهمية رواية « الأسمنت » إلى الدور الهام الذى لعبته هذه الرواية بالنسبة للفترات الأدبية التالية وخاصة بالنسبة لفترتى الثلاثينيات والأربعينيات حين أصبحت هذه الرواية بمثابة القدوة الملهمة أمام الأدباء الذين اتجهوا في أعمالهم الى وصف مرحلة البناء والانتاج ، غير أن أهمية هذه الرواية ترتبط - بالدرجة الأولى - بقدرتها الفائقة على التعبير عن معطيات ومتطلبات الفترة التاريخية التى ظهرت فيها ، فرواية « الأسمنت » تقدم نموذجا للرواية المعبرة عن ظروف فترة العشرينيات وما تضمنته هذه المرحلة من مشاكل اجتماعية وأخلاقية ، وقد تمكن جلادكوف في هذه الرواية من التعبير عن درامية الفترة التاريخية التى يتناولها في روايته وعن عنف الصراع بين القديم والحديث في تلك المرحلة .

ترى المؤلفة في رواية « الأسمنت » نموذجا لرواية الواقعية الاشتراكية في مراحلها « غير المتطورة » ، فهى في رأيها « جنين لم يكتمل النمو » . فقد انعكس في هذه الرواية ديالكتيك القوى الأدبية وما فوق الأدبية . والواقع أن هذه السمة التى تخلعها المؤلفة على رواية « الأسمنت » تكاد تكون مميزة لمعظم روايات الواقعية الاشتراكية التى ظهرت في العشرينيات ، ذلك لأن الواقعية الاشتراكية في تلك الفترة لم تكن قد أسست نظريا بعد ، ولم تكن سماتها قد تحددت تماما أمام الأدباء .

ديالكتيك « التلقائية والوعى » في العشرينيات

مع نهاية عام ١٩١٩ تغير ميزان القوى في ديالكتيك « التلقائية والوعى » لصالح « الوعى » بعد أن كان في صالح التلقائية في فترة الحرب الأهلية . وقد انعكس هذا التغيير في أبطال روايات العشرينيات الذين ظهروا يتحلون بالوعى ، وذلك كما في رواية سيرافيموفتيش « التيار الحديدى » (١٩٢٤) ، وروايتى ليبديسكى « الأسبوع » (١٩٢٢) ، « والكوميسار » (١٩٢٥) ، ورواية فورمانوف « تشابايف » (١٩٢٣) ، وروايات فادييف « ضد التيار » (١٩٢٣) ، « الطوفان » (١٩٢٤) ، « الانكسار » (١٩٢٧) .

وقد صارت ثلاث روايات من بين هذه الروايات قدوة ملهمة « حبكة رائدة » ونموذجا للرواية التى تعكس انتصار « الوعى » على « التلقائية » وهذه الروايات هى : « تشابايف » لفورمانوف « التيار الحديدى » لسيرافيموفيتش ، « والانكسار » لفادييف .

رواية « تشابايف » لفورمانوف

تتوقف المؤلفة بالتحليل عند رواية « تشابايف » لفورمانوف التى تعد بحق من أبرز روايات العشرينيات وأكثرها عمقا في التحليل النفسى والاجتماعى للشخصيات . جسد فورمانوف خلال البطل الرئيسى (تشابايف) فكرة تغلب الوعى على التلقائية ، وقد انعكست بوضوح هذه الفكرة خلال خطوط المضمون وأحداث الرواية .

تعرضت المؤلفة لبعض السمات العامة المشتركة بين هذه الرواية وكلاسيكيات الواقعية الاشتراكية المتأخرة فأشارت الى افتقار الرواية لأسلوب السرد كما هو متبع في

الروايات المتأخرة ، ولكن يوجد في رواية « تشابايف » راوٍ واعٍ جدا ، وهذا الشكل يعتبر نادرا في الأدب السوفيتي المتأخر . وتخلص الباحثة في تحليل رواية « تشابايف » الى الاشارة الى « تشابك العناصر الأدبية وما فوق الأدبية » في النسيج الروائي بها .

الباب الثاني : الثقافة الستالينية العالية

تتناول المؤلفة في فصول هذا الباب تحليل أهم اتجاهات الرواية السوفيتية إبان فترة حكم ستالين التي امتدت منذ عام ١٩٢٧ وحتى عام ١٩٥٣ .

يبدأ هذا الباب بمقدمة تتناول فيها المؤلفة الظروف التاريخية المصاحبة لهذه الفترة التي أعقبت المرحلة الأولى من خطة البناء التي جاءت في أعقاب الحرب الأهلية .

تنطلق الباحثة في تحليل موضوعات الرواية في تلك الحقبة استنادا إلى المفاهيم والأفكار الرائدة آنذاك التي لعبت دورا في تشكيل موضوعات الرواية ، فتؤكد على الحضور النافذ لموضوع « الآلة » في الرواية في فترة ستالين .

ومع نهاية الحرب الأهلية الأولى في روسيا في عام ١٩٢٠ ، اتجهت الدولة الجديدة بكل اهتماماتها لبناء اقتصاد جديد ، ورفع القادة شعار « الكهرباء » كطريق إلى الحياة الجديدة وكنهاية « للظلام » ، ورمزت الكهرباء إلى التقدم التكنولوجي وإلى المجتمع الذي يقوم على دعامة من العلم الحديث ، وأصبحت « الصناعة » و « الآلة » رموزا مرادفة للتقدم ، وافتتن قسم كبير من المجتمع السوفيتي باليتوبيا الصناعية ، ونما الاعتقاد بأن الصناعة المتقدمة وعصر الآلة سوف يكون في مقدورهما القضاء على كل الأمراض الاجتماعية المزمنة : الهوة بين المثقفين والأميين ، وبين المدينة والقرية ، وبين الأغنياء والفقراء .

وانقسم المثقفون في مشاعرهم تجاه الآلة ، القسم الأكبر كان يشجع الهيام بالآلة ، والقسم الآخر تكون لديه خوف إزاء زحف الآلة والتكنولوجيا ، وقد انعكس هذا الخوف ـ بشكل خاص ـ في إنتاج أدباء التيارات التجديدية والشكلية التي ترعرعت قبل الثورة واستمرت لسنوات بعدها .

ورغم أن المجتمع السوفيتي قد استمر في إعطاء التصنيع والآلة مكانة هامة ـ وقد فعل ذلك حتى يومنا هذا ـ إلا أن رمز الآلة لم يستطع أن يصمد لمدة طويلة ، إذ لم تستطع « الآلة » أن تحيط بالتغيير وبالتطور التاريخي وأن تؤسس الشرعية ، وأن تعبر عن مفاتيح الفكر السائدة ، ومن ثم فإن الهيام « بالآلة » لم يصمد طويلا في الأدب ، وأخذ عالم « الطبيعة » يزيح من أمامه عالم « الآلة » ، وبدت الطبيعة هي الملاذ من العالم الحضري ، فكثرت عدد الروايات التي تتغنى بمدح الطبيعة وتصور أبطالها كمغامرين في عالم الطبيعة . وحتى في الروايات التي كان يتناول فيها موضوع الرواية وصف المصنع ، فإن الكاتب كان لا يعدم الوسيلة لاستحضار « الطبيعة » إلى عالم « الآلة » ، فقد أصبحت هذه « الطبيعة » منبعا استعاريا غنيا بالنسبة للكتاب .

الإنسان والطبيعة

تبرز المؤلفة موضوع المواجهة بين الإنسان والطبيعة على أنه أحد أهم الموضوعات التي تطرقت إليها رواية الثلاثينيات .

رمز صراع الإنسان مع الطبيعة (الإنسان السوفيتي والجليد) إلى معنى من معانى صمود الإنسان ضد القوى التي تعترض طريقه فيتغلب عليها بالإرادة والتصميم . اتخذت دراما صراع الإنسان ضد الطبيعة رمزا « للقتال » ضد الأعداء الداخليين والخارجيين ، فكان الكتاب يلجأون إلى التعبير عن هذا « القتال » خلال

تنوع الصراع مع الطبيعة ، وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح في كلاسيكيات الرواية في الثلاثينيات التي تناولت أحداثا تاريخية مثل رواية استروفسكى « كيف سقينا الفولاذ » . تؤكد المؤلفة على المكانة المتميزة التي شغلتها الطبيعة في رواية الثلاثينيات ، حين كان هناك إدراكان للطبيعة : الطبيعة كحديقة للتآلف ، والطبيعة كساحة للصراع مع القوى الأولية .

« العائلة الكبرى » في الرواية السوفيتية

ويبرز موضوع « الحرب » ـ حقيقة وكما تؤكد المؤلفة ـ كأحد أهم الموضوعات التي تناولتها الرواية السوفيتية في الثلاثينيات ، وقد ارتبط الموضوع بالأحداث التاريخية الهامة التي خاضتها روسيا في العقدين الأولين من هذا القرن (الحرب الروسية اليابانية ، الحرب العالمية الأولى ، ثورة ١٩٠٥ ، ثورة ١٩١٧ ، الحرب الأهلية) ، وقد أسهم العزف على وتر الدفاع عن الوطن إزاء المخاطر على بلورة عملية الالتحام الشعبية وتأسيس فكرة المجتمع « كعائلة » كبرى يجب أن يتضافر فيها « الأبناء » ضد الصعاب ، وذلك تحت زعامة « الآباء » . وأصبح الوداد مع « العائلة » الأم يجُبّ الوداد مع العائلة الحقيقية القائمة على رابطة الدم ، فإذا تطلب الأمر الاختيار بين العائلتين فإن الاختيار يحسم لصالح « العائلة » الكبرى وتنبذ رابطة الدم من أجلها .

وقد تجسدت فكرة « العائلة الكبرى » (الآباء والأبناء) قبل منتصف الثلاثينيات في رواية استروفسكي الرائعة « كيف سقينا الفولاذ » وهي الرواية التي ترى بها المؤلفة خير تجسيد لملامح محددة من الثقافة الستالينية . فالرواية تتغنى بمدح الحرب الأهلية ومعاني النضال والبطولة وإرادة البلاشفة ، ولكن ـ وفوق كل شيء ـ تمد الرواية بقصة « حياة بطولية كاملة يمكن أن توظف كمثال للآخرين » ، وهذه الرواية تعد مثالا واضحا للاتجاه لصنع « الأبناء » ممن هم أقل في القامة السياسية ، وقد أصبح بطل رواية « كيف سقينا الفولاذ » (كورتشاجين) نموذجا للشخصية التي يجب أن يحتذى بها الناس . ونشير في هذا الصدد إلى أن فكرة « العائلة الكبرى » التي تبرزها المؤلفة كانت ترتبط في تلك الفترة بمفهوم آخر هام ، ألا وهو ضرورة إخضاع الفردي للعام كضرورة لإتمام مرحلة البناء التي أعقبت الحرب الأهلية .

تخلص الباحثة في تقييمها لفترة الثلاثينيات التي تقدمها في إطار ما أسمته بالثقافة الستالينية . إلى أنه في تلك الفترة كان هناك نسقان للواقع : عادي وفوق العادي ، وبالمقابلة نسقان للكائنات الحية والزمان والمكان . وتظهر قيمة الواقع العادي خلال تصويره لبعض أشكال الواقع الأعلى وجوهر المثال ، وحينئذ تصبح المعالم بين الرواية والحقيقة غير واضحة ، ومع ذلك فقد اتسم الأدب بالمقاومة بين « الأدبي وما فوق الأدبي » ، فكان هناك رد فعل مضاد ضد « الرواية الصناعية » ، وضد تطرق الأدب للدروس الموضوعية بهدف إبراز قيمة العمل الجماعي ، ونادى النقاد بأدب عن الناس يتناول « النمطي في الواقع » .

الفلكلور في أدب الثلاثينات

يشغل الفلكلور ـ حقيقة وكما تشير المؤلفة ـ مكانة هامة في أدب الثلاثينيات ، لعب الأديب مكسيم جوركي دورا كبيرا في إحياء الاهتمام بالفلكلور خاصة بعد عودته من الخارج في عام ١٩٣٢ ، فقد نادى جوركي بأدب يتخذ نماذج لأبطاله من الفلكلور . وقد نتج عن هذه الدعوة الاهتمام بجمع تراث الفلكلور وظهور عناصر الفلكلور في قصص السيرة الذاتية للزعماء

زواج الأدباء بين الفلكلور وبين الواقعية الاشتراكية ، وأصبح الأبطال أوسع من الحياة ، وأصبحت مآثرهم أكثر أسطورية ، وأصبحت لغة النص أكثر استعارية .

غير أن التوجه إلى الفلكلور من أجل إضفاء الشعبية والانتشار على الأدب لم يكن جديدا ، فقد كان هذا التقليد أحد ملامح الأدب الشعبي في القرن التاسع عشر . إلا أن وظيفة الفلكلور بالنسبة لأدب الثلاثينيات هي وظيفة مغايرة ، فقد كانت تتسق هذه الوظيفة مع المسئوليات التي طرحها الأدب الجديد ، فإلى جانب الوظيفة الجمالية أسهمت عناصر الفلكلور في تقريب مادة « الحقيقة » والمادة « الروائية » وساعدت على الإمداد بكلمات وسيطة لتوصيل الإدراك الجديد بالواقع .

بالإضافة إلى ذلك فقد لعبت عناصر الفلكلور دورا آخر هاما ، فقد حثّت على نبذ كل ما هو دنيوى وعابر ، وقد كانت هذه الدعوة بمثابة مذهب ديني جديد للخلاص وإعادة الميلاد ، وكان هذا المذهب في حاجة إلى لغة جديدة ، وقد وحدت هذه اللغة في الفلكلور الذي لعب دور الوسيط لإبلاغ هذا المذهب .

ـ الباب الثالث : تحليل لرواية سوفيتية تقليدية

تؤكد المؤلفة على الحرية النسبية التى أصبح يتمتع بها الأدباء بعد العالمية الثانية ، صحيح أن الادباء مازالوا وثيقي الصلة بنموذج الرواية « القدوة » ، إلا أنه كان هناك حيز متاح للحركة أمام الموهبة الإبداعية للكتّاب وأمام القدرة الخلاقة لهم . ولذا يستطيع المرء أن يجد حدا للأعمال الأدبية التي حافظت على صفاء الفن الروائي ، ومثال على ذلك رواية ألكسندر فادييف الشهيرة « الحرس الفتى » وهي الرواية التي ترى فيها المؤلفة « أحد أروع نماذج الواقعية الاشتراكية من منظور نوعيتها الأدبية » . وقد اعتبرت هذه الرواية رواية رائدة بالنسبة لأدب الأربعينيات ، وحصلت على جائزة أدبية من الدرجة الأولى في عام ١٩٤٦ .

وكما هو معروف ، تناولت رواية « الحرس الفتى » أحداثا واقعية مستمدة من قصة المقاومة الشعبية في منطقة كراسنادور في روسيا وقت احتلالها بالقوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية . وتوضح الرواية قصة التعذيب والمعاناة التي عاشها أعضاء إحدى جماعات المقاومة التي كانت تستعد لهجوم ضد الألمان واكتشف أمرها في آخر لحظة ، وقد منح أبطال المقاومة لقب البطولة عرفانا لاستبسالهم في التضحية بالنفس .

« الموت » و « الحب » و « النذالة » في الرواية الستالينية

تعد فكرة الفداء بالنفس من الرموز الهامة في الرواية في فترة حكم ستالين . إن « الموت » هو التضحية السامية ، التي يقدمها الشهيد من أجل الوطن والمواطنين ، وقد نبعت أهمية التضحية و « الموت » في سبيل حياة الآخرين من مضمون الأحداث التاريخية الجسام التي واجهت مصير روسيا منذ مطلع هذا القرن وحتى الحرب العالمية الثانية ، فقد ارتبطت هذه الأحداث بالدرجة الأولى بالتضحيات الإنسانية وهذه اللحظات التاريخية المصيرية تتوارى في الإدراك السوفيتي مع لحظات أخرى عظيمة مرتقبة في المستقبل . ومن ثم أصبح « الموت » قيمة رائدة في الأدب السوفيتى . وقد ورث الأدب السوفيتى هذه القيمة عن تراثه الكلاسيكى العظيم في القرن التاسع عشر ، فقد كانت نغمة « شهيد الواقع » ، و « شهيد التاريخ » من النغمات المميزة في

الأدب والنقد الروسي ، وكثيرا ما كانت تنتهي حياة البطل في رواية القرن التاسع عشر بالموت في المنفى أو السجن أو بالالتهاب الرئوي ، وكلها نهايات تؤكد على فكرة البطل الشهيد ، وقد نقل البلاشفة هذه القيمة الخاصة بالحكمة الراديكالية إلى فكرهم ، وظهرت هذه القيمة في رواية « الأم » ، وتباعا في مؤلفات الأدب السوفيتي واقترنت بالسير الذاتية للزعماء في التجربة السوفيتية ولعبت دورا رئيسيا في روايات الثلاثينيات والأربعينيات .

تؤكد المؤلفة على المكانة الخاصة التي تشغلها « التضحية » في الثقافة الستالينية حيث ترتبط « التضحية » بفكرة إضفاء الشرعية على الزعامة وعلى أحداث الواقع . أما « الحب » في رواية الثلاثينيات والأربعينيات فهو يشغل مكانة « هامشية » ، وهو لا يعتبر « قيمة » في حد ذاتها بالنسبة للأبطال ، فهو قد لا يعدو كونه وسيلة تساعد البطل على بلوغ الهدف أو « الوعي » ، ويتخذ الحب في الرواية الستالينية شكلا روحيا خالصا ، فالفتاة بالنسبة للبطل هي رفيقته الروحية وشريكة أفكاره .

أما « النذالة » أو « الدناءة » فتجد تجسيدا لها في صور الشخصيات السلبية التي تظهر في الرواية كأعداء للوطن يجب أن يقهروا ، وأن يطهر الوطن من شرورهم . إن مثل هذه الشخصيات هي تجسيد للطفيليين الذين يهددون كيان « العائلة » ، ومن ثم فإن شجاعة الأبطال تتجلى في القدرة على إقصاء هؤلاء الطفيليين والقضاء على تهديدهم .

الباب الرابع : الرواية السوفيتية منذ الحرب العالمية الثانية

تورد الباحثة في بداية هذا الباب وصفا عاما للظروف التاريخية والمناخ الأدبي لهذه الفترة ، فتشير إلى أن الروس قد خرجوا من الحرب منتصرين ، لكن تكلفة النصر كانت باهظة ، فقد خربت الحرب الكثير من منشآتهم ومصانعهم وأنهكت اقتصادهم ، وفوق كل شيء ضحوا بعشرين مليون نفس . .

شهدت الأربعينيات بداية الحرب الباردة والعودة إلى الصرامة . وقد كان الوقت صعبا بالنسبة للمثقفين ، وهذه الفترة تمتد في السنوات (١٩٤٤ ـ ١٩٥٣) ، تعد مرحلة أولى فيها وصف « بذوبان الجليد » . ثم تأتي الفترة الثانية بعد الحرب التي تطلق عليها المؤلفة فترة خروشوف وتمتد في السنوات (١٩٥٣ - ١٩٦٤) . عرف عن هذه الفترة تميزها بالمناخ الديموقراطي بالمقارنة بمرحلة ستالين ، فقد قضت هذه الفترة على الكثير من تجاوزات ستالين السياسية ، وأفرجت عن كثير من المعتقلين السياسيين ، وكفلت حرية أكبر للكتاب والمثقفين . وقد بدت هذه التغييرات « درامية للغاية » . أما الفترة الثالثة ـ حسب تأريخ المؤلفة ـ فتمتد من عام ١٩٦٥ وحتى يومنا هذا ، وهي فترة ما بعد خروشوف .

تشير المؤلفة إلى وجود وحدة بين الفترات الثلاث المذكورة من جهة الموضوعات المطروحة في الأدب والتي كان من أهمها : كيف يعيش الفرد ؟ ما هو الصدق الفني ؟ من هو المثقف الحقيقي الممثل لكل فترة من الفترات الثلاث ؟

احتفظت بعض الموضوعات الخاصة بفترة الثلاثينيات بمكانة في الأربعينيات وذلك مثل موضوع « الآباء والأبناء » ، وبعض عناصر عصر « الآلة » . وقد لقبت الأربعينيات في بعض التواريخ الأدبية باسم فترة جدانوف نسبة إلى المتحدث الرسمي لشئون الثقافة الذي أكد في هذه الفترة على ضرورة الحفاظ على أسس الواقعية الاشتراكية والحرص على « نقائها » والاهتداء

بروايايتها الرائدة مثل رواية « الأسمنت » لجلادكوف ، و « كيف سقينا الفولاذ » لاستروفسكي .

ومع نهاية فترة الأربعينيات تغيرت بعض رموز الثقافة نظرا لتغيير اهتمامات هذه المرحلة التاريخية فقد دخلت روسيا في هذه الحقبة في سباق مع الغرب في مجال الفضاء والمخترعات العلمية ، وقد انعكست هذه الاهتمامات على الأدب فظهرت رموز جديدة ترتبط بمعاني الثقافة ، العلم ، الفكر ، الفن ، التكنولوجيا ، واهتم الأدباء برسم صور الأبطال الجدد من العلماء والمخترعين والمبدعين ، وبات مسرح الأحداث في الأعمال الأدبية يأخذ مكانه في المعاهد العلمية ومراكز الأبحاث بدلا من المصانع والمزارع التعاونية ، كما ظهر في ثلاثية كافيرين « الكتاب المفتوح » (١٩٤٩ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٦) وأيضا رواية تريفونوف « الطلبة » (١٩٥٠) وغيرها من الأعمال التي تناولت وصف حياة العلميين .

وبات واضحا أن هناك تغييرا واضحا في القيم في السنوات التي أعقبت الحرب ، فقد عمقت تجربة الحرب من ثقة الناس بالنفس واعتقادهم بأن تجربة الحرب المريرة كان لها تأثير إيجابي على تقوية صلابة الإنسان وقدرته على الصمود ، وقد استحوذ هذا الشعور ليس فقط على الجنود الذين عركوا الحرب في الميدان بل أيضا على الزوجات اللائي قاسين العمل في الجبهة الداخلية ، ومرارة الوحدة ورحيل الزوج إلى المعركة ، ومن أبرز أمثلة الرواية التي انعكس بها هذا الاتجاه رواية الأديب بومينوف « شجرة البتولا البيضاء » (١٩٤٧) .

الرواية في عهد خروشوف :

تميزت الرواية منذ عام ١٩٥٣ وبعد موت ستالين بالتنوع في الموضوع والنزعة الليبرالية التي تتضح من خلال الخط النقدي الواضح لهذه الروايات وظهور أبطال « غير مقتنعين » ، فقد سقط بطل الثلاثينيات الملجم بالمثالية في الرزائل والمعاصي في أدب الخمسينيات ، وكان ذلك انعكاسا للدعوة التي ترددت في الأدب بضرورة تصوير « الحقيقة » .

شهد أدب الخمسينيات اهتماما كبيرا بالإنسان الصغير وبتصوير العالم الداخلي لهذا الإنسان ، وبرز على السطح موضوع الحدود بين الفردي والعام ، بين احتياجات الدولة وخصوصيات الفرد ومن أمثلة الرواية ذات الاتجاه الراديكالي تتوقف المؤلفة عند رواية الأديب ريدينستف « ليس بالخبز وحده » (١٩٥٦) ، وهي الرواية التي تناولت وصف معاناة أحد المخترعين الذي يقابل اختراعه الجديد بالجحود والنكران ، مما يدفعه إلى التصدي للدفاع عن اختراعه ، فيخوض صراعا من أجل تأكيد حقوق هذا الاختراع ، لكنه يهزم ويزج به في السجن . وترى المؤلفة أن شخصية البطل المخترع تعيد إلى الأذهان صور الأبطال الشهداء في الرواية الراديكالية للقرن التاسع عشر وهم الأبطال الذين كانت تنتهي حياتهم بالسجن أو بالنفي .

شهدت فترة نهاية الخمسينيات رد فعل مشابه لذلك الذي حدث في الثلاثينيات حين تمرد الأدب على رموز « الآلة » وواجهها « بالحديقة » ، فقد ترددت في فترة نهاية الخمسينيات الدعوة إلى العودة إلى « الحديقة » وإلى « العاصفة » الرومانسية . وقد تجاوب الأدب مع متغيرات الواقع الجديد فانعكست به نفحات التغييرات الجديدة خاصة بعد أن أطلق الاتحاد السوفيتي سفينة الفضاء سبوتنيك في عام ١٩٥٧ ، فمنذ ذلك الحين أصبحت موضوعات الفضاء في الأدب موتيفة تدعو إلى الفخار القومي وأصبحت علوات السماء ونجومها نغمات دارجة في الأعمال الأدبية .

ومنذ عام ١٩٥٦ فقد موضوع « العائلة الكبرى حيويته » خاصة بعد فضح مساوىء رب العائلة الكبير ستالين وبعد أن أشيعت تصرفاته . واستبدل الموقع معه موضوع « رواية الشباب » التي ظهرت لأول مرة في عام ١٩٥٦ وهي الروايات التي بلورت من جديد خلال أبطالها فكرة (التلقائية والوعى) . إن بطل رواية « الشباب » هو عادة شاب في سن المراهقة مالبث أن أنهى فترة الدراسة في المدرسة وهو يهجر مدينته (عادة موسكو أو لينينجراد) ، ويسافر في رحلة مع أصدقائه إلى أحد معسكرات الكشافة أو العمل الموجودة بعيدا جدا في مدن صغيرة نائية في الضواحي حيث تبدو الحياة أكثر نقاء ، وحيث تتاح له فرصة المشاركة في عملية « البناء والإنتاج » في هذه المدن . وبعد أن يخوض التجربة يقرر البقاء هناك ، وهجر مدينته الكبيرة . إن رحلة البطل من التلقائية إلى الوعي تنجز خلال الرحلة من المدينة « الزائفة » إلى الواقع « الحقيقي » الذي يستقر به . ومن الأمثلة الناصعة لهذا النوع من الروايات اكسينوف « تذكرة الى النجوم » (١٩٦١) ، وأيضا رواية الأديب كوزنيشوف « بقية الأسطورة » (١٩٥٧) .

هل فقد الفردوس ؟

تعرض المؤلفة في هذا الفصل من الباب الرابع لأهم الموضوعات الرائدة في النثر السوفيتي وخاصة الرواية في فترة الستينيات والسبعينيات .

مع الستينيات المبكرة بدا للجميع أن هناك « نثرا جديدا » يشق طريقه في الحياة الأدبية في الاتحاد السوفيتي ، وذلك من خلال أعمال بيتوف واكسينوف أبرز ممثلي الموجة الجديدة .

كان أعضاء هذه الموجة الجديدة يتطلعون الى أن « تلحق روسيا بمن سبقوها » في الغرب ، وقد قوبل هذا « النثر الجديد » بشيء من التحفظ من قبل الناشرين ، وكان رد الفعل هذا يرتبط بالتحفظ العام تجاه « التجريب » .

وإلى جانب تيار « النثر الجديد » كان هناك أيضا الكتاب التقليديون أمثال شوشكين وجينكيز ايتماتوف ممن كانت تحظى أعمالهم بانتشار واسع .

في عام ١٩٦٤ نُحِّيَ خروشوف ، وتربط المؤلفة بهذا الحدث « نهاية الليبرالية الثقافية » . وفي الوقت الذي بدأ فيه المثقفون الروس الاتجاه إلى إثراء وتطوير تقاليدهم الذاتية ، في ذلك الوقت بدا العالم الأدبي مقسما أكثر مما كان في وقت خروشوف . وقد كان التغيير في المناخ الاجتماعي والسياسي السبب في لجوء عدد من الكتاب والمثقفين الى الخارج ، والى النشر الذاتي غير المعلن (سام ايزدات) (تام ايزدات) . قدم هؤلاء المثقفون في أعمالهم التي كانت تتخذ أحيانا شكل المقال نقدا للمجتمع يستمد في بعض الأحيان مادته من حياة المعتقلين والمعارضين ، وكانت بعض هذه الأعمال تجريبية الطابع ولكنها جميعا كانت تشابه تيار الأعمال السائدة من جهة طابعها الإرشادي .

إتسمت أعمال الغالبية من الكتاب السوفيت ـ سواء من هاجروا خارج الوطن أو نشروا خلال قنوات غير رسمية ـ بنبذ الغرب ، وبالدفاع عن القيم الروسية الحقة ، كما تلونت هذه الأعمال « بالنغمة المعادية للسامية » .

ورغم ما يبدو من تنوع في الأدب السوفيتي خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، إلا أنه كان مايزال يشتمل على بعض السمات العامة المشابهة لتلك التي كانت سائدة في الفترة الأدبية إبان حكم ستالين خاصة فيما

يخص الرموز العامة (الآلة / الحديقة) ، (الآباء / الأبناء) .

تتطور الرواية السوفيتية الجديدة في مناخ يسمح لها بالتحرر من القيود المحكمة لتقاليد الواقعية الاشتراكية . ويمكن الاشارة الى بعض الموضوعات المتغيرة في الرواية في الخمس عشرة سنة الماضية مثل موضوع المدينة والقرية ، ومشاكل الحياة المعاصرة ، والموضوعات المرتبطة بأحداث الحرب العالمية الثانية ، والتقييم الناقد للحقبة التاريخية من حكم ستالين وخاصة فيما يخص تجربة التعاونيات التي هوجمت بشكل خاص في رواية الأديب بيلوف « في العشية » ١٩٦٧ .

غير أن مهاجمي ستالين قد قوبلوا بتيار جديد هو « الستالينيون الجدد » ، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن عهد ستالين الذي شاهدوا فيه زمنا للفخار القومي وخاصة فيما يتعلق بأحداث الحرب العالمية الثانية . ومن أبرز أمثلة الرواية التي تمثل هذا الاتجاه رواية شاكوفسكي « الحصار » (١٩٦٨) ، وهي الرواية التي تناولت وصف حصارلينينجراد إبان الحرب العالمية الثانية الذي استمر أكثر من تسعمائة يوم .

ويمكن ملاحظة اتجاه الرواية الحديثة الى الاهتمام بالموضوعات المتعلقة بالأسرة ومشاكلها كما في رواية ف . سيمين « سبعة في منزل » (١٩٦٥) ، ورواية ي . تريفونوف « المبادلة » (١٩٦٩) . وأيضا الاتجاه إلى الفنية والولع بالموضوعات النفسية والاجتماعية والأخلاقية التي تعالج مشاكل الفرد في علاقاته بالآخرين ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك رواية ي . تريفونوف « منزل على الجسر » (١٩٦٧) ، ورواية فالنتين راسبوتين « عش وتذكر » (١٩٧٤) ، وهي الرواية التي حازت على تقدير أدبي كبير ، وتناولت مشكلة أخلاقية هامة ألا وهي مشكلة الجندي الهارب من المعركة وانعكاس هذا التصرف على حياته وحياة عائلته . وتتميز هذه الرواية عن روايات الستالينيين « والستالينيين الجدد » بالقدرة على النفاذ إلى « الحياة الداخلية للشخصيات » وثراء الديالوج ودراميته .

شاب الكثير من الكتابات الحديثة شعور ما بأن الوطن لم يتمكن من بلوغ العصر الذهبي المنشود « الفردوس المفقود » كما انه يبدو أنه من الصعب الوصول إليه فيما لو أعيد ترتيب الحاضر وإصلاحه ، أو أرسل الناس « بعيدا عن موسكو » إلى مكان مايزال يحتفظ بالنقاء والقيم الثورية الحقة . فموسكو حقيقة راسخة وهي ماتزال الأكثر شعبية والأكثر انتشارا . ومن ثم بدأ الكتاب يقترحون رحلة بعيدة عن « موسكو » لافى المكان بل في الزمان ، وقد كانت بداية هذه الرحلات في الأدب في عام ١٩٥٧ حين خرج مؤلف الأديب سولوحنين « قرية فلاديمير الصغرى » الذي يصور رحلة إلى أعماق تاريخ روسيا التقليدية ، حيث القرى الصغيرة والنجوع ، والغابات ، والكنائس .

إن رواية الستينيات والسبعينيات تقدم طيفا من الحنين إلى الماضي : فقد كان « الستالينيون الجدد » يريدون بعثا لذلك العثر « البطولي » لزمن ستالين ، حين كان الرجال رجالا ، و« الأوامر أوامر » ، وحين كان هناك احترام متبادل ، وكان البعض يريد بعثا للعشرينيات بينما البعض الآخر يتطلع الى نماذج القرنين التاسع عشر والثامن عشر وهكذا .

وفي السنوات الأخيرة عاد الكثير من الكتّاب أمثال الأديب سوخولين للتطلع لإحياء الزمن المبكر الذي قدمته روسيا الخلوية في « روايات الشباب » التي تتحدث عن إمكان التغيير في مكان ما « بعيدا عن موسكو » حيث حديقة الكمال ، ولذا أصبحت القرية بالنسبة للأدباء تجسيدا لمعاني الشرف والكدّ والأصالة

لكل ماهو روسي حق . وقد امتزج تصوير القرية في السنوات الأخيرة ببعض الموتيفات الدينية ، وبروح النقد ، وفي بعض الكتابات غير العلنية بالبكاء على « الفردوس المفقود » ، وذلك كما ظهر في رواية مكسيموف « أيام الخلق السبعة » (١٩٧١) . وقد عاد من جديد الى الأدب موضوع « العائلة » الذي كان سائدا في ظل الثقافة الستالينية ، لكن الاهتمام هنا يوجه إلى العائلة « الصغرى » القائمة على رابطة الدم حيث يبحث الأديب عن الكمال في الروابط الأسرية .

وتعكس الرواية الجديدة سمة التقدير للماضي الذي يظهر من خلال التأكيد على التراث وعلى الهوية القومية للكتّاب ، ومن أجل تصوير الماضي يخرج الكتّاب على الضلوع القائمة للزمان والمكان في الرواية التقليدية ويستلهمون عناصر الفلكلور التقليدي والخيال العلمي ، مما جعل سمة الازدواجية في الزمان والمكان إحدى العلامات المميزة للمؤلفات الجديدة ، وخير تجسيد لهذه السمة رواية الأديب جينكيز لتيماتوف « ويطول اليوم أكثر من دهر » .

الخاتمة :

وتؤكد المؤلفة في خاتمة كتابها على المكانة الهامة التي يشغلها مذهب الواقعية الاشتراكية بالنسبة للأدب السوفيتي طوال الخمسين سنة الماضية ، فقد لبى هذا المذهب الأدبي احتياجات التطور الأدبي في العهد السوفيتي وليست « الواقعية الاشتراكية » بمذهب فُرض بشكل غير طبيعي على الأدب ، فهو بطبيعة النظم الأدبية لايمكن أن يفرض بشكل آلي على الأدب ، فضلا عن أن الكثير من السمات الهامة المكونة له هي امتداد لتقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي في القرن التاسع عشر فصورة « البطل الإيجابي » حجر الأساس في الرواية السوفيتية هي صورة قديمة موجودة في الكثير من روايات القرن التاسع عشر ، كما أن الحل الطوباري للمشاكل هو إحدى علامات رواية القرن التاسع عشر ، وقد صار سمة من سمات الرواية السوفيتية ورث أدب الواقعية الاشتراكية عن الأدب الروسى الكلاسيكي الاهتمام بالموضوعات التي تصور الانسان البسيط الكادح ، كما ورث عنه الاحترام الروسى التقليدى للانسان العادي الذي تلمسه بشكل خاص في روايات تولستوي ومعظم اعمال ادباء القرن التاسع عشر . وحتى الحنين الى الطبيعة الذي يبدو للبعض « مفتعلا » هو في الحقيقية حنين قديمٌ ميّز عواطف المثقفين الروس الراديكاليين ، وكذلك فكرة البطل الشهيد التي نقابلها في النثر السوفيتي هي في جوهرها نغمة قديمة ومميزة للأدب الروسي الكلاسيكي .

بالاضافة الى ذلك فليس بجديد أن يكون الأدب السوفيتي أدبا ارشاديا يرتبط بالأفكار السائدة ، فقد استمد الأدب الروسي الكلاسيكي قوته وخلوده من الارتباط « بالفكر » الذي يعبر عن مشاكل الواقع وآماله . فالعلاقة بين الأدب والعوامل غير الأدبية هي حقيقة - كما تشير المؤلفة - علاقة معقدة ، فمن جهة يعتبر الأدب اتجاها مستقلا له تقاليده ، ومن جهة اخرى لا يمكن أن يكون الأدب حرا تماما من العوامل غير الأدبية للثقافة الخاصة به ، فالأدب يتفاعل مع الظروف والعوامل المختلفة الخاصة بثقافته وبيئته ثم يكيف التأثير الناتج من هذا التفاعل كى يتوافق مع تقاليده الخاصة .
تؤكد المؤلفة على أن موضوعات الأدب السوفيتي في الفترة الستالينية التي تتوازى مع الستالينية كاتجاه ثقافي لا تعني أن هذه الموضوعات « قد صممت في حجرات المؤتمرات لتصب في الأوعية الأدبية ولكن على العكس فالكثير من أساليب الخبرة الستالينية قد اشتقت عن

نماذج أدبية ، فضلا عن أن « الحياة » ـ كما يشير أوسكار وايلد ـ « تشابه الفن » .

وتنطلق المؤلفة في تقييم طريق تطور الواقعية الاشتراكية من فكرة احتواء التاريخ الأدبي لمنتخب ثابت من العناصر وعملية طرد مستمرة لعناصر أخرى ، ولذا نجد الواقعية الاشتراكية تحتفظ بالعناصر التي تتوازى مع أفكارها الرائدة وتطرد الأخرى غير الضرورية ، وعليه فالواقعية الاشتراكية التي كانت قد بدأت تتشكل بداياتها في عام ١٩٢٠ كانت تُطوع عناصر من مختلف الاتجاهات الأدبية بما في ذلك الرمزية نفسها . لكنها كانت تلجأ الى ذلك مادامت هذه العناصر تتواءم مع الاحتياجات المحدّدة للفترة الأدبية .

لقد لعبت الواقعية الاشتراكية دورا مركزيا في الحياة الثقافية السوفيتية ، دورا ينبع من قوة أشكالها الرمزية التي تحيط بالقوى الرئيسية في الثقافة ، ومن ثم ، فتاريخ الواقعية الاشتراكية ليس تاريخا للأدب السوفيتى فحسب ، بل هو عنصر منظم في كل التاريخ الروسى الحديث .

ما بعد الخاتمة :

تتناول المؤلفة في هذا الجزء الاشارة السريعة الى بعض ملامح التغيير في الأدب السوفيتى في السنوات من ١٩٧٩ ـ ١٩٨٥ ، فتؤكد على الاتجاه الى إعادة تقييم أدب الستينيات والسبعينيات الذي يظهر في شيء من التحرر من خطوط الواقعية الاشتراكية ، وفي ظهور بعض الموضوعات الجديدة المرتبطة بعلاقة الشرق والغرب ، وبروز بعض النزعات القومية المعبر عنها في إنتاج أدباء القوقاز والبلطيق وآسيا الوسطى ، وأيضا في ازدهار عناصر الفلكلور . وفي السنوات الأخيرة يشار الى الأديب الكولومبى جابرييل جارسيا مركيز(*) كنموذج للكاتب القدوة .

مما سبق يتضح أن كتاب « الرواية السوفيتية » لمؤلفته الأمريكية كاترينا كلارك هو مرجع هام لدراسة الملامح المميزة للنثر السوفيتى خلال أهم فنونه : الرواية السوفيتية .

وتعكس هذه الدراسة نظرة غربية أكثر اعتدالا ، فقد أكدت المؤلفة على أن « الترانيم » الشكلية للواقعية الاشتراكية قد أثبتت تماسكا عبر الزمن لأنها كانت تقبض على أكثر الموضوعات توهجا ، وعلى المعتقدات الخاصة بالثقافة كلها ، فضلا عن كونها إمتدادا جديدا « لترانيم » الأدب الكلاسيكي في القرن التاسع عاشر ، ولكن من خلال لغة جديدة وبؤرة جديدة .

ونود أن نشير في هذا الصدد الى أن فترة الثلاثينيات بالذات قد تميزت بإدارة الأدب وتوجيهه ، وذلك نظرا للظروف الخاصة بهذه الفترة ، فالاتحاد السوفيتى يدين بوجوده ككيان حالي لفترة الثلاثينيات حين كانت تتم معجزة بناء قاعدة صناعية متطورة في زمن قصير جدا ، ومن اجل بناء هذه القاعدة كان ينبغي أن يعمل كل فرد بالطاقة العظمى التي يقدرها بعض الاقتصاديين بأنها عشرة أمثال الطاقة العادية . وماكان من الممكن الاعتماد فقط على الامكانيات المادية المحدودة من أجل تفجير هذه الطاقة العظمى ، بل كان لابد أيضا من أدوات روحية ومعنوية لتوليد القناعات الذاتية لدى المواطنين . وهنا يجيء دور الأدب والرواية ، ومن هنا

(*) الأديب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز حصل على جائزة نوبل للآداب على رواياته « التي يمتزج فيها الخيال بالواقع » ، وقد ترجمت بعض مؤلفاته الى العربية ومن أهمها روايته الشهيرة « مائة عام من العزلة التي صدرت عن الهيئة المصرية للكتاب في عام ١٩٨٣ ضمن سلسلة « الابداع العالمي » .

وظف الأدب ـ وفي مقدمته الرواية ـ توظيفا محكما لخدمة الأهداف القومية التي نُظِرَ إليها على انها مسألة حياة أو موت . هذا وقد قدمت المؤلفة تأريخا وتحليلا لمراحل تطور الرواية السوفيتية في اطار من سياق الواقع وأفكاره الرائدة ، وقسمت الفترات التاريخية الأدبية انطلاقا من معيار تغير القيادات السياسية وهو معيار لا يعبر تماما عن ديناميكية الفترات الأدبية وجوهرها . وكان الأحرى التأريخ لمراحل التطور الأدبي تبعا لكل فترة مع مراعاة الأحداث التاريخية الهامة التي تشكل علامة بارزة : فالفترة الممتدة من الحرب الأهلية حتى نهاية العشرينيات لها سماتها الهامة . وكان من الطبيعي ان ينعكس مناخ الحرية في هذه الفترة في مجال الأدب حيث ازدهرت وتفاعلت وتجادلت تيارات مختلفة . ثم تجيء الفترة الثانية وهي فترة الثلاثينيات حيث أخضع الأدب لوظيفة تفجير الطاقات الروحية للإنسان لانجاز الخطتين الخمسية الأولى والثانية ، أما الفترة الثالثة فهي فترة الأربعينيات وهي الفترة التي شهدت الحرب العالمية الثانية وكانت لهذه الفترة سماتها المميزة . الخ .

لم تكشف المؤلفة عن كل أبعاد تطور الجماعات الأدبية في العشرينيات والثلاثينيات ، وخاصة في العشرينيات التي تميزت بثراء التيار الأدبي وتعقده وتوتره البادى ، كما أنها أغفلت الحديث عن طريق تطور الرواية التاريخية التي ازدهرت بشكل خاص في فترة الثلاثينيات مثل رواية « بطرس الأول » لألكس تولستوي ، وأيضا الرواية الملحمية مثل رواية « مسيرة الآلام » التي كتبها أيضا ألكس تولستوي .

* * *

تأملات في الجريمة

تأليف : جايمس ولسن
عرض وتحليل الدكتور محمود الذوادي
عـالم اجتماع ـ جامعة لورنسيان ـ مقاطعة أنتاريو ـ كندا

المقدمة : الكتاب ومؤلفه :

جـايمس ولسن James Wilson هـو مؤلف هـذا الكتاب . وهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفـرد الأمـريكية المشهـورة عـالميا . وبـالتـالى فهـو ليس ذا اختصاص أكاديمي في علم الاجرام . ولكن مشاركاته العـديدة في البحـوث واللجان حـول ظاهـرة الجريمـة والوقاية منها في المجتمع الأمريكي منذ الستينيات أكسبته تجارب وأفكارا ضمّنها كتاب « تأملات في تجارب الجريمة Thinking About Crime » .

ولا ينبغي أن يفهم من عنوان هذا الكتاب أنه عبارة عن تأملات فلسفية بحتة حـول الجريمـة . صحيح أن المؤلف طالما تتهمه بعض الأوساط الأمريكية الثقافية بأنه ذو نزعة محافظة وأنه يميل الى سياسة التشدد والصرامة في تعامله خاصة مع من يسميه بصنف المجرمين الخطرين . وصحيح أيضا أنه يرجع ، من ناحية ، كثيرا من ازدياد ظاهرة الجريمة في المجتمع الأمريكي الحديث الى ضعف وتدهور أخلاقيات انضباط الأجيال الأمريكية منذ مطلع هـذا القرن وانتشـار عقليـة التعبـير عن الـذات Self Expression منذ الخمسينيات من ناحية أخرى . فعلى مستوى أول ربما يبدو ولسن وكأنـه الواعظ المتـأمل في الجريمة لا العالم صاحب التجربة في اللجان والمناقشات والقـراءات الواسعـة حول ظـاهرة الجـريمة . أمـا على مستوى ثان فالمؤلف يناقش مـواضيع فصـول الكتاب مستندا على معطيات غزيرة للبحوث العلمية المتوافرة في علم الجريمة حول كل قضية تطرق إليها . فمادة الكتاب دسمة من حيث المحتوى ومستوى التحاليل والمناقشات والتساؤلات التى يطرحها صاحب الكتاب . فالكتاب مرجع مهم لفهم العـوامل المؤثـرة في ظاهـرة الجريمـة بالمجتمع الأمـريكي الحديث . وهـو في الوقت نفسـه مصدر معرفي ثرى بالمعطيات التى يمكن أن تستفيد منها المجتمعات الأخرى بما فيها المجتمعـات العربيـة لا في

فهمها لبعض جذور الجريمة فحسب ، وإنما أيضا في التّبصّر بأسباب نجاح أو فشل سياسات مقاومة تفشي ظاهرتي الانحراف والجريمة .

ولـلاستفادة الكبـرى من معلومات وتحـاليـل هـذا الكتاب حاولنا تلخيص الأفكار الرئيسة كلّ على حـدة للفصول الاثنى عشر . أما الفصل الثالث عشر فلم نر ضـرورة في إنجاز محتـواه لورود كثـير من السيـاسـات المقترحة لضبط الجريمة في الفصول السابقة .

الفصـل الأول : الجريمـة وسط الـرفـاهيـة : تنـاقض الستينيات

إن محور هذا الفصل يدور حول علاقة ظاهرة الجريمة في المجتمع الأمريكي بازدهار هذا الأخير اقتصاديا على الخصوص في الستينيات . وتبدو هذه العـلاقة غـريبة بالنسبة لوجهة النظر القائلة يومئذ بأن القضاء على الفقر ورفـع مستـوى التعليم وتحسـين أوضـاع المسكن هي عوامل تؤدى بـالتأكيـد الى انخفاض نسبـة الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي . وقد ساد هذا الاعتقـاد خاصة بين المثقفين الليبراليين في عهد كلّ من الرئيس كندى وجونسون . إلاّ أن إحصائيات الجريمة بالولايات المتحـدة الأمريكيـة في الستينيات كـانت تناقض ذلـك الاعتقـاد . ومن هنـا جـاء عنوان هـذا الفصـل : Crime Amidst Plenty: The Paradox Of The Sixties فنسب الجريمة لم تزدد قليلا فحسب ، وإنما بلغت نسبا عالية لم يعرفها المجتمع الأمريكي منذ ١٩٣٠ . فبعض الجرائم كان ارتفاع نسبها أكبر ما عرفه القرن العشرون كله (ص ١٤) . فجرائم القتل ازدادت من $\frac{٦,٩}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٣٦ الى $\frac{٩,٤}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٧٢ ، وجـرائم السـرقـة ارتفعت من $\frac{٥٩,٤}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٤٦ الى $\frac{١٣١,٠}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٦٨ . أمـا استعمال المخـدرات فيشـير المؤلف الى ازدياده عشرة أضعاف بين ١٩٥٠ و ١٩٦٤ في كل من مـدينة نيـويورك وأطلنـطا وبوسـطن . كما أن معضلة البطالة قد تفاقمت بين الشباب الزنجى (١٦-١٩ سنة) بحيث كانت نسبتها خمس مرات أكثر من نسبة بطالة الكهول في ١٩٦٨ . وهناك من يذهب الى إرجاع هذا الوضع المتردى بالمجتمع الأمريكي في الستينيـات الى عامل تزايد الولادات Baby Boom بعد الحرب العالمية الثانية ، الذى أدى الى بطالة أكثر بين الشباب وتعاطي الهروين وتدهور وضعية العائلات . فالزيادة السكانية هـذه بلغت في أوائـل الستينيـات ٢,٦ (مليـونـا) . ويتطلب هذا في نظر نرمن رايدر Norman Ryder عملية تنشئة اجتماعية جبارة لا عهد للمجتمع الأمريكي بها من قبل (ص ٢٣) . لكن يرى ولسن أن عامل صغر السن لا يمكن أن يفسر لوحده كل المسائل الاجتمـاعية التى عرفها المجتمع الأمريكي في فتـرة الستينيات . فهنـاك عوامل أخرى لابد من أخـذها بعـين الاعتبار في فهم ازدياد ظاهرة الجريمة مثل عامل وسائل الاعلام وتزايد تنقل الناس وضعف قوة ردع المحاكم والشرطة . وينهى المؤلف فصله هذا بتأكيـده على أن سنـة ١٩٦٣ يمكن اعتبارها البداية الحاسمة لتدهور وتداع خطيرين بالنسبة لظاهرتي الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي (ص ١٥) .

الفصل الثانى : الجريمة والجيرة

يعـطي المؤلف أهمية كبـرى هنا الى مفهـوم الجيـرة (Community, Neighborhood) في عمليـة ضـبط الجريمة . فعلماء الاجتماع طالما وصفوا الجيرة بأنها ذلك

المحيط الذى يتسم برابطة تضامن قوية بين أفراده . فطريقة لباس الشخص وطبيعة كلامه (صوت مرتفع أو هادىء) واللون الذى يدهن به منزله ، والحريات التى يعطيها لأولاده في الجيرة كلها مؤشرات تدل لا على طريقة تفكير الشخص الخاصة فقط ، وإنما تعكس أيضا تأثره بما يعتبره جيرانه سلوكا سويا (ص ٢٩) . وهكذا فظاهرة تفشى الجريمة في الجيرة هي الى حد كبير نتيجة ضعف أواصر التضامن فيها . في هذا الجو الاجتماعي يصبح الأفراد لا يهتمون إلا بما ينفعهم شخصيا (ص ٢٦) . ويرى ولسن أنه بتدهور وحدة الجيرة في المجتمع الأمريكي منذ ١٩٦٠ أصبحت الجريمة والعنف من أهم مشاكل ومشاغل المبحوثين الذين قامت بدراستهم بحوث عديدة .

وفي هذا الصدد يعرض صاحب الكتاب الى ثلاث مجموعات وبيئاتها التى تعيش بها . هذه المجموعات هي : (١) المهاجرون و (٢) السكان البيض الفقراء ، و (٣) السكان السود . فلكل مجموعة مشاكلها التى لا تساعد على خلق مناخ يعزز التضامن الاجتماعى عندها . ففئة المهاجرين طالما تشكو من عدم سماكة جدران شققهم التى لا تحميهم من شغب الآخرين Walls are too thin to ensure-privacy (ص ٣٤) . أما الصنف الثاني فيسود فيه الخوف من العنف والاستلاب خاصة بين كبار السن منهم الذين لا يستطيعون مغادرة المركز القديم للجيرة Old Central City neighborhood لأسباب مالية وغير مالية .

أما السود الأمريكيون فقد أصبحوا في نظر المؤلف أكثر عزلة في العشرين سنة الأخيرة (ص ٣٥) . فأغلبيتهم مازالت تقطن داخل قلب المدينة . وليس هناك إلا أقلية من الطبقة الوسطى السوداء التى استطاعت تحاشي البقاء مع الأغلبية السوداء . فعدم توافر التجانس بين السود (مجرمين وغير مجرمين ، مدمنين وغير مدمنين ، طبقة وسطى وأخرى سفلى) وضع العراقيل أمامهم للمحافظة والدفاع على فكرة الجيرة .

وفي ضوء هذا التدهور لوسائل الضبط الاجتماعى غير الرسمية Communal Social Controls لا يرى صاحب الكتاب ـ كعدد متزايد من علماء الاجرام ـ أملا كبيرا في تعويض الوسائل الرسمية (كالشرطة مثلا) للوسائل غير الرسمية في ضبط الانحراف والجريمة . ومن ثم فالتنظيمات الحكومية الرسمية تصبح عاجزة الى حد كبير عن نشر الأمن والاطمئنان في المجتمعات التى تغلب فيها الوسائل الرسمية في تنظيم علاقات الناس ومجرى الحياة العامة في المجتمع (ص ٣٨) .

الفصل الثالث : تأملات في الجريمة

يتطرق ولسن هنا الى الزاد المعرفي الذى جمعه ويجمعه علماء الاجرام وباحثو العلوم الاجتماعية الآخرون حول ظاهرتي الانحراف والجريمة . ففي رأى المؤلف أن وجهة نظر العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع ، علم الاقتصاد . . . .) القائلة بأن ظاهرتي الانحراف والجريمة تعود أساسا الى عوامل الفقر والتمييز العنصرى وغيرها من عوامل الحرمان Other Privations (ص ٤١) لا تؤيدها معطيات واقع المجتمع الأمريكى المعاصر . فنسبة الجريمة ازدادت في المجتمع الأمريكي بدل أن تنخفض في فترة ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ التى تحسن فيها تحسنا ملحوظا كل من مستوى دخل الفرد الأمريكي ومرافق المدرسة والمسكن لكل الفئات الاجتماعية الأمريكية تقريبا . فأشهر الكتب الأمريكية الأكادمية في علم الاجرام لا يبدو أنها تتفق مع الرأى الذى يربط بين الجريمة والظروف المادية للمجتمع (ص ٤٢) . وأشهر هذه الكتب المرجعية جميعا كتابان : (١) مبادىء علم

الاجـرام Principles of Criminology لكـل من إدْوِنْ ساذرلند Edwin Sutherland ودنلد كـراسيّ Donald Cressy و (٢) جـنـوح الأحـداث والـفـرصـة : Delinquency and Opportunity لـرتشـارد كـلاورد Richard Cloward ، ولـويـد أهلن Lloyd Ohlin . فالمقولة الرئيسـة للكتاب الأول هي كـالتالي « السلوك الاجرامي هو حصيلة العمليات الاجتماعية نفسها التي يتـأثـر بهـا أي سلوك اجتمـاعي آخـر » (ص ٤٣) « Criminal behavior results From the same pro- cesses as other social behavior » .

ومن ثم فعمـل من يهتم بفهم ظاهـرة الجـريمـة أو الانحراف عمل ذو مستويين : (١) تبيـان كيف تتأثـر الجـريمة بعـاملي البنـاء الاجتمـاعي Social Structure والعمليات الاجتماعية Social Processes ، أي كيف تتأثر الجريمة بالطبقـة الاجتماعيـة وبالجيـرة وبالكثـافة السكانية . . . و(٢) تفسير كيف أن الأفراد يتم جلبهم الى ميدان الجريمة (عن طريق التقليد الاجتماعي ، عن طـريـق الاخـتـلاط الـتـفـاضـلي Differential Association ، عن طـريق تكـوين الاتجـاه Attitude Formation) . ومن منطلق منظورهما السوسيولجي يشن ساذرلند وكراسي هجوما شرسا على النظريات غير السوسيولجية التي اهتمت بدراسة ظاهـرة الجريمـة مثل النظرية الكلاسكية ذات الطبيعة السيكولجية لكل من بنتهام وبكاريا Bentham و Beccaria .

إن رفضهما للنظريات السيكولجية يرجع في الأساس الى اعتقادهما في « فرض السببية الطبيعية » The Hypth- ésis of natural causation ، يقـول هذا الفـرض بأن النظريات غير السيكولجية ترى أن الجريمة ظاهرة تفرزها الى حد كبير عوامل تتعدى قدرة الفرد الشخصية .

فنظرية ساذرلند وكـراسي كغيرهمـا من النظريـات السوسيولجيـة هي من نوع النـظريات التي تبحث عن أسباب الجريمـة Theories of the causes of crime في المجتمع . وهما لا يدعيان أن نظرية الاختلاط التفاضلي Differential Association ذات مصـداقية لا تشـوبها شائبة . وفي النهاية فنـظريتها لا تختلف عن نـظريات سوسيولجية أخرى تعتبر معادية لها . فكلها تنظر الى « أن السلوك الاجرامي سلوك يتعلمه الشخص أثناء احتكاك ودي intimate interaction مع الآخرين الـذين يحترم رأيهم . وهكذا تضع عملية التعلم هذه الفرد في صراع قيميّ Value Conflict مع بقية المجتمع الكبير . وهكذا فمنطلقات هذه النظرية لا ترى في الفقر ولا في التمييز العنصري (ندرة الجريمة بين اليابانيين الأمريكيين رغم تعـرضهم للتمييز العنصـري) أسبابـا رئيسة لـظاهـرة الجريمة .

فنظريات جنوح الأحداث السوسيولوجية الأمريكية المشهورة في الستينيات نظريات لا ترجع أساسا ظاهرة جنوح الأحداث الى عاملي الفقر والتمييز العنصـري . فنظرية عالم الاجتماع ألبرت كوهن Albert Cohen ترى أن جنوح أحداث الطبقة الاجتماعية السفلى ذو طبيعة غير نفعية Non-Utilitarian ، أي أن أعمـال التكسير والتحطيم Vandalism الشائعة بين جانحي هذه الطبقة ما هي إلا تعبير عدائي ضد قيم الطبقة الوسطى المادية النفعية . فجنوح أحداث هذه الطبقة يهـدف إذن الى التسلية Delinquenxy for fun لا للكسب المادي (ص ٤٤) .

وتأتي نظرية ولتر ملر Walter Miller لتضيف عدم اهتمـامها بتـأثير العـوامل الاقتصـاديـة كسبب رئيسي لـلانحراف والجـريمة . فجنـوح الأحداث وفقـا لهـذه النظرية ما هو إلا انعكاس للقيم الثقافية نفسها للطبقة

السفلى مثل الرجولة masculinity ، والخشونة Rouqhness ، وحب الأشياء المثيرة Love of excitement ، وحب الاستقلالية Personal autonomy . فهذه القيم طالما تؤدى بشباب (وبعض الشابات) الطبقة السفلى للدخول في صراع مع قيم وقوانين الطبقة الوسطى الأمريكية .

هاتان النظريتان وغيرهما من النظريات السوسيولوجية الأمريكية لفترة الستينيات ترى أن اتجاهات المنحرفين والمجرمين تتأثر كثيرا بالمجموعات الأولية مثل العائلة والأصدقاء . ورغم أن البحوث الميدانية لم تؤيد أيا من هذه النظريات . إلا أن هذه الأخيرة قد أسهمت في نظر ولسن بملاحظاتها الهامة حول ظاهرتي الانحراف والجريمة (ص ٤٥) . لكن هذه النظريات لا تصلح أن تكون أساسا لاتخاذ سياسة عملية اجتماعية بخصوص الجريمة . ومن ثم فالمشكل هنا يتمثل في خلط تحليل أسباب الجريمة بتحليل السياسة العملية لمقاومتها .

فمحاولة التعرف على أسباب الجريمة طالما تبحث عما يسميه علماء الاجتماع بالمتغيرات المستقلة Indepen-dent variables . أى تلك العوامل التى ليس لها في حد ذاتها من سبب . أما ما دعاه المؤلف بالأسباب المطلقة Ultimate causes ، فمن غير المنتظر أن تكون هذه الأخيرة موضوعا للسياسات العملية حول الجريمة . فالأسباب المطلقة لا يمكن تغييرها . فلقد أثبت علماء الاجرام بما لا يقبل الشك أن الرجال يرتكبون نسب جرائم أكبر من النساء ، وأن الشباب يرتكبون هم الآخرون جرائم أكثر (من أنواع خاصة) من الأشخاص الأكبر سنا . فعلى المستوى النظرى فتلك ملاحظات قيمة .

لكن على المستوى العملي فإنها ذات نفع قليل بالنسبة للمهتمين بالوقاية من الجريمة . إذ أنه لا يمكن تغيير الرجال الى نساء ، ولا تحويل الشباب الى كهول دون المرور بمراحل ما قبل الكهولة (ص ٤٦) . ويعتقد ولسن بناء على تجربته الشخصية - كعضو مستشار في عدة لجان أمريكية ومنها لجنة دراسة الجريمة - أن هناك قلة فقط من أصحاب الاختصاص في العلوم الاجتماعية الذين يميزون - عند غموض الأمور - بين ما يعرفونه كعلماء وبين ما يعتقدونه كمواطنين عاديين . وفي رأى صاحب الكتاب فإن علماء العلوم الاجتماعية لم يقضوا وقتا كافيا في مناقشة العلاقة بين المعرفة العلمية والاعتقاد . ومن هنا ، ففشل حلول الجريمة التى نادى بها علماء الاجرام والاجتماع تعود في الأساس الى كونها حلولا ذات أرضية أيديولوجية لا علمية . ويعترف المؤلف أنه اكتشف بعد فوات الأوان أن علماء الاجرام وكل علماء الاجتماع تقريبا هم جزء من تقليد فكرى Intellectual tradition ، لا يملكون مناعة ذاتية تحميهم من مغبة التسرع في تحويل آرائهم الى سياسة . إذ أن محور اهتمامات هذا التقليد الفكرى تنحصر في تلك الملامح الاجتماعية التى هي الى حد كبير خارج مجال كل من السياسة العملية والعلم نفسه (ص ٦٥) . ونقد ولسن للعلوم الاجتماعية في دورها الهزيل في فهم ظاهرة الجريمة لم يعد أمرا جديدا في رأى كاتب هذه المراجعة . فأزمة هذه العلوم أصبحت في الحقيقة أزمة عامة لا تقتصر على عجزها في مدِّنا بفهم نيِّر بالنسبة لقضايا الانحراف والجريمة بل تتعداه الى قضايا أخرى رئيسة مثل قضايا التنمية والتخلف . ومن ثم جاءت دعوة الكثيرين الى الاستغناء عن المعرفة التى جمعتها هذه العلوم أو المحافظة عليها شريطة تأسيسها على أرضية جديدة من حيث تصور الانسان والمجتمع ، ومفاهيم البحوث والنظريات الاجتماعية .

الفصل الرابع : الشرطة والجريمة

يناقش المؤلف في هذا الفصل الاستراتيجيات الشرطية الأمريكية ومدى تأثيرها على نسب الجريمة بالمجتمع الأمريكي . فمن أنواع الشرطة التى درسها الباحثون في هذا الصدد هي : (١) شرطة المشاة Foot Patrolmen و (٢) الشرطة العاملة المكثفة العدد More Cops on the Beat (ص ٦٤) . وهي تجارب شرطية تم اختبارها على الخصوص في مدينة نيويورك .

وتفيد نتائج هذه الممارسات أن الشرطة المتنقلة Police Patrol يمكن أن تخفض من نسب جرائم الشارع (أو الجرائم الخارجية على العموم) بطريقة ملموسة على الأقل في المدى القصير . لكن يشيرولسن الى إن تجارب مدينة نيويورك لهذا النوع من الشرطة في المناطق التى يمر بها القطار النفقي Subway ، لا ينبغي تعميم نتائجها الايجابية الى الجرائم التى يشهدها الشارع العام . ولقد قامت في هذا المضمار مؤسسة شرطية The Police Foundation لتقييم مدى نجاعة الأساليب الشرطية للحماية من الجريمة . وكان أول تقييم في مدينة كنساس Kansas لما يسمى بالشرطة الوقائية المتنقلة Preventive Patrol . وتقوم هذه الشرطة بمراقبة الجريمة مشيا على الأقدام أو ركوبا للسيارة . ويعتقد أن الشرطة الدائبة التنقل وبالتالى ذات الحضور المتحرك سوف تردع من تحدثه نفسه بالاجرام أو الانحراف (ص ٦٦) . وقد صنف المؤلف الشرطة الوقائية الى ثلاثة أنواع : (١) الشرطة الوقائية Control beats و (٢) الشرطة الاستفزازية Provocative Patrol و (٣) الشرطة الاستجابية Reactive Patrol . فالصنف الأول يقوم بالوقاية من الجريمة بالطريقة العادية . أي يتجول في سيارة واحدة في الشوارع عندما يكون غير مشغول بأمور أخرى مثل الرد على المكالمات الهاتفية . أما النمط الثاني فهو شرطة متجولة تكثف من مستوى تجوالها الوقائي بحيث تمر مرتين أو ثلاث مرات بالشوارع أكثر من الشرطة المتجولة العادية . أما النوع الثالث فله مناطق محددة يقوم فيها بعمله الوقائي ضد الجريمة . وعند إنهاء ذلك يغادرها للتجوال خارجها . ولما قام الباحث جورج كيلنج George Killing بتقييم هذه الممارسات الشرطية بعد سنة من تطبيقها ، وجد أن ليس هناك فرق جدير بالذكر بين هذه الأنواع الوقائية الثلاثة من الشرطة ، وذلك من حيث نسبة الجريمة ومستوى خوف المواطن منها ، ومدى رضاء هذا الأخير بعمل الشرطة (ص ٦٧) .

ولم تنقطع المحاولات والتجارب في هذا الميدان . ويتمثل البعض منها فيما يدعى بنموذج « الهجوم على الجريمة Crime attack model » الذى يستند على مبدأ أن أحسن استعمال لقوى الشرطة المتجولة هو في جعلها أكثر قربا ليس من المواطن وإنما من المنحرف المعروف Known offender ، أو للمكان حيث يحتمل أكثر وقوع الجريمة . ومن ثم يمكن إلقاء القبض على المجرم حال وقوع الجريمة ، أو على الأقل منعه من إتمام الجناية . وعندما قيم نموذج « الهجوم على الجريمة » من حيث استراتيجيات عمله (مثل ارتداء الزى المدني) ، لم تكن نتائجه واضحة بخصوص التخفيف من نسبة الجريمة (ص ٧٩) .

ويذكر المؤلف في النهاية ما أطلق عليه بأسلوب خدمة الشرطة للمجتمع المحلي Community Service Approach . وهي طريقة تهدف الى بناء ثقة بين الشرطة والمواطنين ، وبالتالى الى تعاون أكثر بين الطرفين ومن ثم الى انخفاض الجريمة . لكن التقارب بين الاثنين قد يجعل الشرطة غير قادرة أحيانا أن تقنع المجرمين أو الشهود الأبرياء بأنهم فعلا أفراد شرطة . ومثل هذا التعاون بين الشرطة والمواطنين قد يرفع من

معنويات الشرطة أو يحسن صورتها دون أن يحدث أى انخفاض في نسب الجريمة . ومنه يمكن القول بأن محاولة الشرطة التعرف والقرب من المواطنين قد لا تؤثر ايجابيا على نسب الجريمة كما رأينا في نموذج التجوال الوقائي . ويخلص ولسن الى القول « إن فهمنا في المرحلة الحالية لعمل الشرطة يجعل من الصعب استنتاج أية خلاصة عامة حول مقدرة الشرطة في الوقاية من الجريمة » (ص ٧٣) .

الفصل الخامس : النوافذ المهشمة : الشرطة وسلامة الجيرة

يقارن ولسن هنا بين دور الشرطة في ضبط السلوك الاجرامى / الانحرافي من جهة ودور الجيرة في ذلك من ناحية أخرى . فالبحوث حول دور الشرطة في التخفيف من نسب الجريمة تفيد ـ كما رأينا ـ أن الشرطة المتجولة ليس لها أثر يذكر على انخفاض الجريمة . ويرى المؤلف أن وجود الشرطة يخدع المواطنين بإعطائهم الانطباع بأنهم أكثر أمنا (ص ٧٦) . ومن ثم يناقش صاحب الكتاب مفهوم المجتمع المحلي المنحل Disordered Community وعلاقته بانتشار ظاهرة الجريمة . فعلماء النفس الاجتماعيون Social Psychologists والشرطة متفقون على المبدأ التالي : « إذا هشمت نافذة » ما في عمارة ما وتركت بدون إصلاح فإن ما تبقى من نوافذ العمارة سوف يلقى المصير نفسه في القريب العاجل If a window in a building is broken and is left unrepaired, all the rest of the windows will soon be broken (P 78) . فالنافذة المهشمة هي رمز في حد ذاتها على أن ليس هناك من يهتم بسلامة الجيرة . وفي هذه الحالة فإن تكسير نوافذ أخرى لا يكلف شيئا ، وقد يصبح ضربا من المزاح لبعض الناس . ويعتقد ولسن أنه في هذا النمط من الجيرة غير المتضامنة ينتشر التخريب vandalism ، وروح عدم التدخل Don't get involved فيما يجرى فيها . كما أن ظواهر الاجرام مثل تفشي المخدرات ، وسرقة السيارات وتهشيمها ، وانتشار ظاهرة البغاء تزداد في مثل هذه الجيرة . وهروبا من جو عدم الأمن في هذا المحيط الاجتماعي يغادر كبار السن خاصة الى أماكن أخرى بحثا عن أحياء أخرى أكثر طمأنينة . فتظهر في مثل هذا المحيط المخيف أنماط سلوكية جديدة تجعل الناس يتحاشون بعضهم البعض . وهكذا تضعف وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية (ص ٨٠) ، وهو عكس ما كان يتصف به المجتمع المحلي القديم الذى كان له وسائله الخاصة في السيطرة على الجريمة داخل حدوده .

Earlier Crime Waves had a Kind of built in self - Correcting mechanism: the determination of a neighborhood or Community to reassert control over its turf .

ويتضح مما سبق أن المؤلف ـ كغيره من الباحثين ـ يرى أن الدور الأساسي للشرطة للحفاظ على النظام والأمن يتمثل في تعزيز وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية . ومن الصعب أن تصبح الشرطة البديل لذلك مهما كانت جهودها (ص ٨٣) . ويرحب ولسن بظهور حركات شعبية (تمسك بيدها قوانين حفظ أمنها) بالمجتمع الأمريكي قد يصل عددها الى ٣٥٠ حركة . ومن أشهرها حركة حراس الجيرة Cummunity Watchmen ، وحركة الملائكة المراقبون Guardian Angels . لكن المعلومات مازالت قليلة بخصوص مدى نجاح هذه التنظيمات الشعبية (ص ٨٧) في التخفيف من حدة ظاهرة الجريمة بالمجتمع الأمريكي .

إن كاتب هذه المراجعة يرى في فشل الوسائل الرسمية لضبط الجريمة والانحراف بالمجتمع الأمريكي

درسا لمجتمعات العالم العربي والعالم الثالث . فهناك اتجاه عام في هذه المجتمعات النامية الى تعصير القوى الشرطية لحفظ الأمن العام والوقاية من الجريمة . أي أن هناك جهودا متزايدة لاستعمال الوسائل الرسمية لضبط ظاهرة الجريمة والانحراف ، وذلك رغم أن فاعلية الوسائل غير الرسمية قد أثبتت البحوث تفوقها في محاربة ظاهرتي الانحراف والجريمة . ومن هنا نعتقد أنه ينبغي على هذه المجتمعات أن تنشط وتقوى من وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية عندها .

الفصل السادس : الشرطة وعلاقتها بالجيرة

يشير المؤلف أن عوائق عدم نجاح عمل الشرطة في المجتمع الأمريكي تعود الى حد كبير الى طبيعة علاقتها بالجيرة حيث تمارس عملها . ففي الستينيات طالما وصفت هذه العلاقة بأنها كانت السبب الرئيسي لانتفاضات السكان السود . فمن جهة أطلق السود الأمريكيون عبارات جيش الاحتلال ARMY OF OCCUPATION والخنازير على الشرطة . ومن جهة ثانية استعملت الشرطة عبارات « المشاغبون » risters و « الفوضويون » Iawless على المواطنين السود . (ص ٩٢) ، وعندما أجريت بحوث حول العلاقة بين الطرفين تبين أن ثلث المستجوبين السود كانوا ينتقدون بشدة شرطة المدينة . ويعني هذا أن الأغلبية السوداء لا تعادي الشرطة ، وتدل البحوث نفسها أن العداء بين الشباب (الأبيض أو الأسود ، الغني أو الفقير . . . . .) والشرطة ظاهرة منتشرة . لكن تفيد البحوث في النهاية بأن السود هم أكثر الفئات انتقادا للشرطة (ص ٩٤) . ويرى ولسن أن نظرة الشرطة للمواطنين السود تغلب عليها السلبية ، ويرجع ذلك الى كون اتصال الشرطة بالمواطن الأمريكي الأسود الفقير يفوق اتصالها ببقية فئات المجتمع الأمريكي . فالشرطة طالما تتدخل في الخصومات العائلية Family quarrels في المناطق الفقيرة ، بينما تكون مثل هذه الخصومات في الأحياء ذات الرفاهية إما ذات طبيعة غير تهديدية أو أنها تبقى مستترة عن الرأي العام (ص ٩٦) . وأجمعت الشرطة السوداء والبيضاء على السواء بأن المجموعات الأكثر شغبا يمكن ترتيبها كالتالي : (١) الأغلبية السوداء most Negroes (٢) أغلبية الكهول الشباب most young adults و (٣) أغلبية المراهقين most adopescents . ويرجع صاحب الكتاب انبتار العلاقة بين السود والشرطة الى عامل اللون وظروف الحياة في محيط السود .

ويبدو أن الكراهية بين الجانبين تعود الى الواقع الاجتماعي السائد بينهما ، وليس الى صفات أو اتجاهات شخصية عند الطرفين . وتتمثل بعض ملامح الوضع الاجتماعي هذا في تناقض توقعات المواطنين مع توقعات الشرطة . ففي جريمة سرقة الممتلكات (كالتلفزيون مثلا) يود المواطن من جهة استرجاع بضاعته ، بينما يرى الشرطي من جهة أخرى صعوبة امكانية ذلك (ص ١٠٠) . فالمواطن يتمنى أن تقوم الشرطة بالبحث السريع والصارم بينما تجد الشرطة نفسها لا تملك القدرة التي تسمح لها بالقيام بمثل ذلك البحث لعدم توافر الوقت والامكانات .

وليس هناك في الحقيقة من عامل يثير العواطف ويقسم الآراء في المجتمع والجيرة أكثر من عامل لجوء الشرطة الى قتل المواطنين The Use of deadly Force أحيانا .

فتدل الاحصائيات أن نسبة المقتولين بهذه الطريقة تتراوح بين ٣ و ٤٪ . وللتخفيف من حوادث القتل التي تقوم بها الشرطة يرى صاحب الكتاب ضرورة اتخاذ سياسات صارمة بخصوص شروط إطلاق النار على

المواطنين . ومن ثم يدعو ولسن الى تقييم السياسات الحالية . فكل أقسام الشرطة تعترف بحق الشرطي في اطلاق النار على أى شخص اذا كان ذلك للدفاع عن نفسه in self-defense أو عن الآخرين . وصعوبة أخذ قرار حاسم وواضح في هذا الميدان ترجع الى سببين :

(١) أى المعايير يجب استعمالها للتيقّن بأن حياة الشرطي أو المواطن (المتفرج bystander) في خطر ؟

(٢) أينبغي أن يسمح للشرطي أن يطلق النار على المتهم الفارّ ؟ هل ينبغي التمييز بين الكهل والشباب أو بين الشخص الذى ارتكب (أو يريد أن يرتكب) جريمة عنف Violent Crime ، أو الشخص الذى اقترف (أو هو في طريقه الى اقتراف) جريمة لم يستعمل فيها العنف ؟ (ص ١٠٤) . ويرى المؤلف الحاجة الى تدريب الشرطة لتصبح أكثر كفاءة في أداء عملها . فعن طريق استعمال التدريب التأهيلي Sensitivity training مثلا يعتقد صاحب الكتاب أنه يمكن تعليم الشرطة موقف حل المشاكل بالتعاون مع المواطنين (ص ١٠٦) coperative problem solving بدل محاولة فرض التفوق عليهم والمحافظة على الاستقلالية الذاتية . ويخلص المؤلف الى تعداد بعض البدائل الأكثر ايجابية :

- أهمية تعاون الشهود مع الشرطة وذلك بإدلائهم بشهاداتهم في المحاكم .
- اختيار الشرطي الكفء الذى يستطيع ان ينمي حاسة المنافسة والثقة بالنفس . وهكذا يمكن ان يتصرف في ظروف الصراع والضغط بمرونة وبموضوعية .
- تكوين شرطة تستطيع التحكم في ظروف الصراعات والضغوط على تصرفاتها وتصرفات الآخرين وفقا للقوانين (ص ١١٣) .
- أفضل طريقة للتقليل من نسب الجريمة تتمثل في وجود سبل غير شرطية لمقاومة جرائم الشارع . وعليه فالحياة العائلية الحسنة ووجود الفرص الاقتصادية للشغل والحكم السريع للمحاكم والسجن الأكثر نجاعة . كل ذلك سوف يقلل من نسب الجريمة . ومن ثم تنقص الأعباء على الشرطة من جهة ، وتقل التوترات بين المواطنين والشرطة من جهة أخرى (ص ١١٤) .

ونتفق بهذا الصدد مع ولسن في أهمية علاقة الشرطة بالمواطنين بالنسبة لظاهرة الجريمة بالمجتمع . وفي الوطن العربي لاتكاد توجد دراسات علمية معروفة تتطرق الى هذه العلاقة الحيوية بين الشرطي والمواطن في السيطرة على الجريمة ، وذلك رغم تزايد نسب الجريمة في كل المجتمعات العربية بدون استثناء .

الفصل السابع : العقوبات والفرص

بينما يعتقد الانسان العادي أن استعمال العقوبة في المجتمع يؤدي الى انخفاض نسبة الجريمة فيه ، نجد علماء الاقتصاد والاجتماع مختلفين في ذلك فالأولون يتفقون مع المواطن العادي . أما علماء الاجتماع فيرون أن هذا الاعتقاد خاطىء من الأساس : « فالجريمة ، في نظرهم ، لاتزداد بمجرد معرفة الناس أنهم لايعاقبون على ارتكابها ، ولاتنخفض بسبب اتخاذ المجتمع سياسة متشددة مع المنحرفين والمجرمين » (ص ١١٧) ، ورغم هذا التباين في وجهة النظر فان ذلك يعني أن آثار الترهيب (الردع) Deterrence منعدمة تماما بخصوص التخفيف من ظاهرة الجريمة في المجتمع . اذ أن الادعاء بأن سياسات الترهيب ليس لها أي أثر على ظاهرة الجريمة ادعاء يتناقض مع أبسط واقع الحياة اليومي . فدراسات

العلوم الاجتماعية (لعلماء الاجرام والاجتماع والاقتصاد . .) بهذا الشأن تفيد ان الترهيب ينقص من ظاهرة الجريمة في المجتمع . وأفضل الدراسات بهذا الصدد هي دراسة الفريد بلومستاين Alfred Blumstein ، ودنيال ناجان Daniel Nagin لقد درس الباحثان العلاقة بين هروب الأمريكيين من الانخراط في الجندية Draftevasion والعقوبات المنصوص عليها لذلك . فاستنتجا بأن للترهيب أثرا رادعا (ص ١٢٣) . وتوصلت دراسات أخرى الى النتائج نفسها رغم استعمالها لمناهج مختلفة .

واذا كان الترهيب (وهو ثمن الجريمة Costs of crime) ذا تأثير ايجابي في ضبط الجريمة ، فهناك من يرى أن الحل الأساسي لظاهرة الجريمة يتمثل في توفير فرص الشغل Job Creation للمواطنين . اذ أن ذلك يشجع الفرد على العمل ، وبالتالي قطف منافع السلوك السوى The benifit of non'- Crime ، لكن علاقة تأثير البطالة على نسبة الجريمة ليس من السهل قياس العوامل المؤثرة فيها . وتعتبر دراسة هارفي برانر Harvey Brenner أشهر الدراسات في هذا الصدد . فصاحب الدراسة يدعى أنه وجد أن نسبة ازدياد البطالة بين ١٩٤٠ و ١٩٧٣ قد أدت الى ازدياد نسبة القتل Homocide . ولكن الباحث تحاشي ذكر وتحليل العوامل الأخرى ذات التأثير المحتمل على نسبة جريمة القتل مثل درجة يقينية Certainty ، أو شدة (Sevenity) عقوبة القتل ، وهي عوامل وجدها باحثون آخرون ذات تأثير مهم على جريمة القتل (ص ١٢٥) .

ويسوق ولسن بعد ذلك أمثلة من مشاريع أمريكية كان هدفها التعرف على علاقة التشغيل بظاهرة الجريمة . من هذه المشاريع مشروع The Manpower Demon-stration Rescareh Corporation وهو برنامج يهدف الى مساعدة مايسمى بأصحاب المشاكل الدائمة في حقل التشغيل بحيث يتم دمجهم في اعمال حقيقية في المجتمع المدني ، ويقع تدريبهم بطريقة مباشرة على العمل بينما يتقاضون رواتب على ذلك (ص ١٤٠) . وتبين بعد سنة ونصف من دخولهم هذا البرنامج أن الأشخاص ذوي السوابق السجنية Ex - Convicts ، والمنعزلين عن المجتمع Drop outs لم يصبحوا أكثر استعدادا للشغل من هؤلاء الذين لم يشاركوا في هذا البرنامج . ودلت الدراسات أن الشباب وذوي التجارب الاجرامية المحدودة ، ومن لهم ماض في الأدمان يتأثرون ايجابيات بمثل هذا البرنامج . لكن هذه الفئات ليست هي التي ترتكب معظم الجرائم التي تزعجنا . ومن ثم يرى صاحب الكتاب أن مسألة الاصلاح ليست عملية بسيطة يؤدي فيها ـ بالضرورة ـ توفير الشغل الى انخفاض الجريمة . فطالما تتدخل عوامل أخرى تجعل الوضع معقدا بالنسبة للطرفين : مختصي برامج الاصلاح والمجرمين والمنحرفين المراد اصلاحهم . ويخلص المؤلف الى القول « أعتقد أن أحكم السبل لاصلاح المجتمع هو المحاولة في زيادة كل من منافع السلوك السوى benifits of noncrime ، وثمن الجريمة Costs of crime في الوقت نفسه (ص ١٤٣) .

فمثل هذه المعادلة لضبط الجريمة تعكس منظورا ماديا لاتكاد تتدخل فيه قيم ومعايير التنشئة الاجتماعية غير المادية . وهو موقف يختلف الى حد كبير مع رأي المؤلف في آخر هذا الكتاب ـ كما سنرى ـ حيث يرى أن تنشئة الأجيال الأمريكية على ضبط النفس قبل ١٩٢٥ كان عاملا حساسا في انخفاض نسب الجريمة بالمجتمع الأمريكي .

الفصل الثامن : السجن

يؤكد ولسن على أهمية المحافظة على المؤسسة السجنية Prison كوسيلة لضبط الجريمة للحالات الثلاث التالية :

(١) الأفراد المعيدون للجريمة Recidivists . وهم يمثلون حسب الاحصائيات حوالي ثلثي كل المساجين بالسجون الأمريكية .

(٢) المنحرفون الذين لايؤدي سجنهم الى تشجيع آخرين لممارسة انحرافاتهم . فسجن السارق مثلا لاينتج عنه بالضرورة استقطاب شخص آخر لتعويضه في جريمة السرقة . فظاهرة التعويض هذه طالما تحدث مايسمى بالجريمة المنظمة Organized Crimeعلى أسس تجارية مثل جرائم المخدرات والبغاء (ص ١٤٦) .

(٣) أن لايصبح السجن مدرسة يتصلب فيها عود اجرام السجين . وليس هناك من أدلة مقنعة بأن هذا مايقع فعلا للسجين بالمؤسسة السجنية كما يدعى البعض . فالبحوث حول دور السجن بخصوص التخفيف من ظاهرة الجريمة تفيد أن النتائج ايجابية على العموم وخاصة اذا تم سجن المنحرفين الأكثر خطرا (ص ١٥١) . لقد توصل جرينوود Greenwood ورفاقه في دراسة Rand الى حصر بعض الصفات التي تجعل من المنحرف شخصا يميل الى ارتكاب عدد مرتفع من المخالفات فحصروا مايلي : (١) شخص كثيرا مايكون قد تمت ادانته في ارتكاب جريمة قبل بلوغه سن ١٦ . (٢) أو يستعمل المخدرات المحظورة قانونيا في أثناء المراهقة (٣) أو قد مارس عملا بنسبة أقل ٥٠٪ من وقته في السنتين السابقتين (٤) أو قد أدين من قبل بسبب ارتكابه الجناية نفسها (٥) أو قد سجن اكثر من ٥٠٪ مدة العامين السابقين .

ونظرا لاشكالية التعرف بطريقة قاطعة على أخطر المنحرفين ، ينادي ولسن بالحكم بمدد سجن قصيرة بالنسبة للمنحرفين الأقل ضررا على المجتمع . ويعتقد أن ضرورة القيام بعملية انتقاد المنحرفين الذين يلزم سجنهم عملية مهمة بالنسبة لضبط الجريمة . وينهي صاحب الكتاب هذا القسم من كتاب بالتشكيك في مدى أهمية حجة معارضي السجون على أساس أن هذه الأخيرة تزداد اكتظاظا كل يوم ويرى أن السؤال الأكثر أهمية هو : أي المنحرفين ينبغي سجنهم ، وأي نوع من السجون أكثر ملاءمة لطبيعة جريمتهم ، وأي مدة سجن ينبغي أن يقضوها ؟ ويحذر المؤلف من مغبة التبني الأعمى للمبدأ القائل : « أفضل طريقة لضبط الجريمة تتمثل دائما في اصدار أطول مدة سجن على الجاني » (ص ١٦١)

الفصل التاسع : عملية الاصلاح

ينطلق المؤلف في تقييمه لتجارب اصلاح المنحرفين من التقرير المشهور للباحث روبرت مارتنسن Robert Martinson وفريقه . وتستند نتائج هذا التقرير على أكثر من ٢٠٠ مشروع اصلاح وقع تطبيقها بالمجتمع الأمريكي على المنحرفين على اختلاف أنواعهم . وتفيد خلاصة هذا التقرير بأن وسائل الاصلاح مهما كان نوعها لايبدو أنها تؤثر ايجابيا (اصلاحيا) على معالجة المنحرف .. بل ان بعض التجارب الاصلاحية مثل العلاجات النفسية Psycho the rapies . قد زادت من نسبة العودة الى الجريمة Increased recidivism . يشير ولسن بأن الذي يميز تقرير مرتنسن ليس النتائج التي توصل اليها بخصوص فشل طرق الاصلاح المتعددة ، وانما الذي يميزه عن غيره من التقارير هو شموليته الفريدة (ص ١٦٢) . ومن ثم يتضح أنه لا التجربة السجنية ولامهارة المختص النفساني يمكن لهما تغيير شخصية الفرد المجرم . وهكذا فبنهاية ١٩٧٠ كان هناك اجماع من طرف العلماء والسياسيين على السواء على أن وسائل الاصلاح غير مجدية على العموم بحيث تسمح للمسؤولين باتخاذ سياسات واضحة بخصوص ضبط الجريمة في المجتمع (ص ١٦٣) .

والخلاصة من تقرير مرتنسن وغيره من الباحثين لاتعني أن ليس هناك أي برنامج اصلاحي فعال ، وانما تعني أنه لايوجد على الاطلاق أثبت أن هناك شيئا ما ذافاعلية اصلاحية .

The Conclusion that Marhinson was right does not mean that he or anyone else has proved that "nothing works" only that nobody has proved that something works (P. 167).

وبسبب كل ذلك بدأ التساؤل في المجتمع عن أهداف السجن ، وتصاعدت دعوة البعض الى تشديد عوامل الردع في نظام العدالة الجنائي . ورغم الفشل الذريع - كما رأينا - لتجارب الاصلاح ظل بعض الباحثين يحاولون تحديد سمات المنحرفين ذوي القابلية الكبرى للاصلاح . وتوصل أحدهم الى حصر الصفات التالية التي تجعل من الشخص أكثر استعدادا للتأثر بالعلاجات النفسية . ويرمز بالانجليزية لهذه الصفات باختصار YAVIN أي (شاب young قلق Anxius ، سهل الكلام Verbal ، وذكي Intelligent ، وعصابي neurotic) .

وينهي ولسن هذا القسم من الكاتب ببحوث تفيد أن الشباب المنحرفين الذين تعرضوا الى مراقبة أشد في أثناء عملية اصلاحهم قد انخفضت نسبة عودتهم recidivism الى الجريمة أكثر من هؤلاء الذين تعرضوا الى برامج علاجية نفسية (١٧٢) . وهذا يتماشى مع نتائج دراسة Cox Murray وفي مدينة شيكاجو التي تقول ان مايسمى بأسلوب الاستراتيجية المتسامحة مثل المراقبة المحدودة للمجرم في المجتمع المحلي Community فشلت في احداث أي تغيير مرغوب فيه في شخصية المجرم سواء سمينا هذه التغييرات ردعا أو اصلاحا . ومنه يرى المؤلف مع بعض الباحثين الآخرين أن تشديد وسائل مراقبة المجرم في المؤسسات أو المجتمع المحلي يمكن أن تؤدي الى تغييرات أفضل أو على الأقل فانها لن تؤدي الى حدوث جنوح الأحداث الأسوأ . وفي رأي صاحب الكتاب فانه صعب أن يجد المرء حجة لاتجعله يتبع هذا النمط من السياسة الوقائية من الجريمة(١٧٧) . أي أن اتخاذ سياسة صارمة في التعامل مع المجرم أثبتت جدواها الاصلاحي أكثر من سياسات الاصلاح المتساهلة في التعامل مع المنحرف . ومثل هذا الاتجاه هو نكسة فعلا وخاصة لنظريات العلوم الاجتماعية والانسانية التي جعلت مبدأ التعاطف مع المنحرف هو الأساس في عملية الاصلاح وارجاعه سالما الى المجتمع .

الفصل العاشر : عقوبة الاعدام

يبدأ صاحب الكتاب هذا الفصل بالاشارة الى أن الأمور اليقينية المتعلقة بتأثير عقوبة الاعدام على ظاهرة الجريمة يمكن حصرها في شيئين اثنين :

(١) عقوبة الاعدام تضع حدا لارتكاب الجريمة لدى الذين ينفذ فيهم الحكم .

(٢) عقوبة الاعدام ليس لها أي أثر اصلاحي على الذين يتم اعدامهم .

أما التأثيرات الأخرى المحتملة لعقوبة الاعدام على نسبة الجريمة في المجتمع فهي غير واضحة Everything else is uncertain (ص ١٧٨) . فنحن لانعرف ما اذا كان لتطبيق عقوبة الاعدام - كما مورست بالمجتمع الأمريكي - من أثر رادع على الجناة القتلة . وليس لنا علم أيضا فيما اذا كان لهذه العقوبة أثر رادع أكبر من بعض العقوبات الأخرى مثل عقوبات السجن الطويلة . ولاندري ما اذا كان هناك تمييز عنصري في تطبيق عقوبة الاعدام بالمجتمع الأمريكي . ويعترف ولسن أننا لانملك الحقائق الكاملة بخصوص مدى وطبيعة تأثير عقوبة الاعدام .

وفي رأيه أنه من غير المحتمل أن تتضح هذه الحقائق كاملة (ص ١٨١) . وفيما يتعلق بالتعرف على العامل الردعى لعقوبة الاعدام يذكر المؤلف أول دراسة بهذا الصدد وهي دراسة ترستن سلن Thorsten Sellinالذي لايؤيد هو نفسه عقوبة الاعدام . ومن النتائج التي توصل اليها هو ودونالد كامبيون Donald Campion أن نسبة الشرطة الذين قتلوا في الولايات الأمريكية حيث تطبق عقوبة الاعدام لاتختلف عن نسبة من قتلوا من الشرطة في الولايات الأمريكية حيث تستعمل هذه العقوبة .ولقد انتقدت هذه الدراسات بسبب ضعفها المنهجي وتعريفها لمعنى عقوبة الاعدام (ص ١٨٢) . وأحسن الدراسات لمعرفة تأثير عقوبة الاعدام هي مايسمى بالدراسات الطويلة المدى Longitudinal Studies . ويسوق المؤلف دراسة اسحاق اهرليش Isaac Ehrlich التي حاولت اكتشاف التأثير السنوي في اختلاف عدد الأشخاص المنفذ فيهم حكم الاعدام بالمجتمع الأمريكي بين ١٩٣٣ - ١٩٦٩ على نسبة جريمة القتل . وتقول هذه الدراسة ان اعدام شخص اضافي سنويا أدى الى انخفاض سبع أو ثماني جرائم قتل في العام .

وذهب كل من ولبن Wolpin واهرليش الى أن مجرد ادانة القاتل له تأثير هام على القتلة المحتملين (ص ١٨٥) .

يتطرق المؤلف في نهاية هذا الفصل الى مناقشة عامل التمييز العنصري Discrimination وعلاقته بتطبيق عقوبة الاعدام بالمجتمع الأمريكي فبحوث العالمين مارفن وولف جانجMarvin Wolfgangوأنثنى أمرستردام Anthony Amersterdamوجدت أن اعدام السود المرتكبين لجريمة الاغتصاب كان سبع مرات اكثر من اعدام البيض في الولايات الجنوبية الأمريكية . أما أهم دراسة في هذا المضمار فهي دراسة جاري كلارك Gary Kleckالتي أوضحت أن أخطر قصور في دراسات التمييز العنصري وعلاقته بعقوبة الاعدام يتمثل في عدم أخذ الباحثين بعين الاعتبار للملف السابق للمنحرف وعدم أعطاء أهمية الى خطورة الجناية المرتكبة التي أدت بالجاني الى عقوبة الاعدام . ويرى ولسن أن القضاة طالما يتأثرون في أحكامهم على الجناة بالظروف الخاصة للمجرم . ومع ذلك فان الاحصائيات التي تقدمها بعض الدراسات لاتدل دلالة نهائية على غياب عامل التمييز العنصري . ويختم صاحب الكتاب هذا الفصل « اذا كنا (نحن الأمريكيين) نعتبر عقوبة الاعدام موضوعا حيويا فعلينا أن ننظر اليها كقضية عدالة لاكقضية منفعة Utility ينبغي علينا أن نناقش ما اذا كانت عقوبة الاعدام أمرا مشروعا لجرائم بغيضة . وثقافتنا الأمريكية لاتجعلنا مرتاحين بطرح مثل هذه الحجج . وبترددنا هذا نحرم أنفسنا بطريقة غير مباشرة من مناقشة مسائل فلسفية خطيرة ، بينما نتباهى بمقدرتنا في ميدان المعرفة العلمية (ص ١٩٤) .

ومن المناسب أن تذكر هنا بعض الأسباب التي ساعدت في رأينا على الغاء عقوبة الاعدام في بعض المجتمعات الغربية المتقدمة . يمكن التطرق الى ثلاثة أسباب رئيسة :

(١)الاعدام لاينقص من الجريمة . وبالتالي يقول المعارضون لعقوبة الاعدام بأن ليس هناك فائدة ايجابية وقائية يجنيها المجتمع من تطبيق هذه العقوبة . فالحجة هنا حجة مبنية على المنفعية كما أشار ولسن أعلاه .

(٢) عقوبة الاعدام عملية بربرية لا انسانية لكونها تنتزع من الجاني حياته (وهي اعزشيء عند الانسان) التي يستحيل ارجاعها له بعد ذلك . هذا الموقف موقف وجيه على المستوى النظرى لكنه متحيز على مستوى

الواقع . فكيف يجوز الدفاع عن حق الجاني في الحياة دون اعطاء المجني عليه هذا الحق نفسه ؟

فعدم معاملة الطرفين (الجاني والمجني عليه) بعدالة مطلقة تنقص من ناحية انسانية الضحية التي فقدت الحياة وتزيد من ناحية أخرى في انسانية الجاني الذي يتمتع بالحياة ، وأي معنى يبقى لمفهوم العدالة كمثل انساني أعلى اذا لم يطبق بشأن أغلى شيء (الحياة) للانسان من جهة ، وأخطر شيء له (سلبه حق الحياة) من جهة أخرى ؟ . ومن ثم فليس هناك مايبرر هذا الموقف المتحيز على أسس أخلاقية Ethical انسانية . ولعل الذي يعطي شيئا من الشرعية لهذا التحيز في هذه المجتمعات هو طرح قضية عقوبة الاعدام على أساس النظرة المنفعية السابقة الذكر وعلى أساس أن قيم تلك المجتمعات تعبر احتراما أكبر للكائن الحي (الجاني) . وبذلك تفصح مثل هذه القيم على طبيعتها المادية لا الانسانية .

(٣) شاع الاعتقاد في بعض المجتمعات الغربية الحديثة بأنه يمكن اصلاح المنحرفين بكل أنواعهم بمافيهم الجناة القتلة . وقد استند هذا الاعتقاد الى حد كبير على آراء ونظريات العلوم الاجتماعية المعاصرة . وبفشل سياسات الاصلاح وتزايد نسب الجرائم بما فيها جرائم قتل اطفال أبرياء بعد التمتع بهم جنسيا في هذه المجتمعات ، نادت بعض الفئات الرسمية والشعبية في كندا مثلا في صيف ١٩٨٥ باعادة عقوبة الاعدام .

وعندما يقارن المرء بين موقف بعض التشريعات الوصفية الحديثة كما رأينا وموقف الشرائع السماوية من عقوبة الاعدام يجد أن الاختلاف بينهما يتمثل أساسا في مفهومهما للعدالة . فالديانات كافة حريصة كل الحرص أن يعاقب الجاني المتعمد بمثل جنايته لا أكثر ولا أقل . ومن ثم جاء مبدأ السن بالسن والعين بالعين والنفس بالنفس . أي اعطاء المجني عليه أو أهله حق ممارسة العدالة كاملة من الجاني .

فموقف الاسلام المتمثل في « ولاتقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق يوحي بأن عقوبة الاعدام ماهي الا جزء من المفهوم السماوي الكبير للعدالة بين بني آدم .

الفصل الحادي عشر : مخدر الهروين Heroin

يعتقد المؤلف أن كثيرا من الاعتقادات السائدة حول مخدر الهروين لاتستند في الحقيقة على أرضية متينة . من هذه الاعتقادات الخاطئة اعتبار البعض أن استعمال مخدر المثدون يمكن أن يكون بديلا للهروين ، وأن سماح المجتمع بتعاطي الهروين يؤدي الى انخفاض ملموس في جريمة النهب Predatory Crime ، وأن تشديد القوانين لمستعملي الهروين ينتج عنه ارتفاع مهول في ثمن هذا المخدر (ص ١٩٥) .

وللفئات الأمريكية المختلفة مواقف متعددة ازاء الهروين ، فالبعض يعتبر سجن مدمن الهروين عقابا . ويرى آخرون أن تعويض الهروين بالمثدون هو علاج طبيعي مناسب . وهناك فئة ثالثة تعتقد أنه من واجب المجتمع الأمريكي حق التدخل في ايقاف مضار مخدر الهروين .

ولابد من التذكير في هذا المجال أن هناك أكثر من صنف لمستعملي الهروين . فالبعض يجربه مرة واحدة ولايعود اليه ألبتة لأنه وجده غير ذي جاذبية . أما الفئة الثانية فهي قادرة على التخلي عنه رغم أنها وجدت في استعماله نكهة لذيذة . وأخيرا هناك عدد كبير من الأفراد الذين تنطبق عليهم فعلا صفة الادمان . ويردف ولسن أننا لانعرف بدقة عدد كل صنف من هذه الأنواع الثلاثة . ولكن تزايد المستعملين للهروين لم تؤكده منذ ١٩٦٠ شهادات الشرطة ومراقبي تجارة المخدرات فقط

وانما تثبته أيضا عدد الوفيات الناتجة عن تعاطي الهروين (ص ١٩٨) .

يعرض صاحب الكتاب الى اربع نظريات لتفسير ظاهرة تعاطي الهروين بالمجتمع الأمريكي :

(١) ازدياد الدخل الفردي في فترة الازدهار في الستينيات .

(٢) تكاثر حركات الشباب المنادية بممارسة الحرية الشخصية على كل المستويات .

(٣) كانت حرب فيتنام فرصة مناسبة للجنود الأمريكيين للحصول على الهروين ، وذلك للتخفيف من حياة الملل والخوف وتدني المعنويات .

(٤) استمرار انهيار التركيبة الاجتماعية وخاصة للعائلات السوداء ذات الدخل المنخفض . وأدى هذه الوضع في نظر المؤلف الى بروز ظاهرة الشلل Street Peer groups كحل للفرد الذي تشكو بيئته من التضامن الاجتماعي (١٩٨) .

أما علاقة تعاطي الهروين بظاهرة الجريمة فصاحب الكتاب يقول اننا لانعرف الكثير عن هذه العلاقة (ص ٢٠٤) . فالذي نعرفه الى حدما في هذا الميدان هو أن معظم جرائم مدمني الهروين تتمثل أساسا في جرائم بيع المخدرات والسرقة robbery والسطو قصد السرقة Burglary .

ويعتقد ولسن أن المناقشات التي دارت وتدور بالمجتمع الأمريكي بشأن الترخيص ببيع الهروين أن ليس هناك من يرغب في السماح ببيعها في الصيدليات أو غيرها ولايوجد من يدعو الى اعطاء الطبيب حق كتابة وصفة الهروين (ص ٢٠٧) . ولايرى صاحب الكتاب أن ترخيص بيع الهروين سوف يقلل من انتشارها بالمجتمع الأمريكي . وينادي المؤلف بتدخل السلطات الحكومية الأمريكية في قضية الهروين اذ أن ارتفاع نسبة الوفيات من هذا المخدر قد زادت كما رأينا (ص ٢١٨) ويقترح رفع ثمن الهروين كوسيلة للتخفيض من ظاهرة تعاطيه . (ص ٢٢٠) .

الفصل الثاني عشر : الجريمة والثقافة الأمريكية

قد يكون من المفيد ـ في رأي المؤلف لفهم وتفسير ظاهرة الجريمة بالمجتمع الأمريكي أن نعكس تساؤلنا ، فبدلا من أن نبحث عن أسباب ازدياد نسبة الجريمة كما رأينا ، علينا أن نوجه تساؤلنا كالتالي : لماذا تخفض أو تستقر نسب الجريمة في المجتمع ؟

ففي ١٧٨٧ حين اجتمع مايسمى بمزارعي الدستور The Farmers of the constitution في مدينة فيلادلفيا Philadelphia لم تكن قضية الجريمة مسألة مهمة بالنسبة للأمريكيين . وأفضل احصائيات الجريمة تفيد أن نسبة الجريمة استقرت بعد ازديادها بالمجتمع الأمريكي بين ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ . ويبدو أن مدينة نيويورك بدأ يدب فيها شعور الخوف من الجريمة ، وذلك بعد ١٨٣٠ عندما شرع البناء الاجتماعي للمدن الأمريكية في التغير .

فما يدعى بالمجتمعات الصغيرة Communities كان لها الأثر الكبير في ضبط سلوك الأفراد والجماعات في فترة ما قبل الثورة الأمريكية ، وذلك عن طريق صرامة المعايير الأخلاقية والإدانات الشعبية Public humiliations ، وانتشار ممارسة الواجبات المتبادلة . وبالإضافة إلى هذه الملامح الاجتماعية الضابطة للانحراف والجريمة يذكر ولسن عوامل أخرى ساعدت على انخفاض نسبة الجريمة بالمجتمع الأمريكي قبل القرن العشرين :

(١) انخفاض نسبة الولادات بين ١٨٠٠ ، ١٩٠٠

(٢) التصنيع لم يؤد ، كما هو شائع ، في هذه الفترة بالذات إلى ضعف العلاقات الاجتماعية بل إلى تقويتها ، وذلك ـ حسب رأي ولسن ـ لما في نظام المدرسة والمعمل من ضبط للسلوك (ص ٢٢٧) .

(٣) في هذه المرحلة يشير المؤرخ إلياس N. Elias إلى انتشار عملية التحضر Civilizing Process ، وبالتالي إلى الإقلاع عن ممارسة العنف .

(٤) تأثير القيم الفيكتورية Victorian Values على السلوك في كل من بريطانيا وأمريكا مع مجيء التصنيع .

(٥) شهدت العقود الأولى للقرن التاسع عشر حركات دينية عرفت باليقظة الثانية الكبرى The Second Great Awakening أدت إلى تجمع الناس في جمعيات تطوعية Voluntary associations

(٦) أما ما يسمى بحركة الاعتدال Temperance Movement ، فقد كان لهذا في نظر صاحب الكتاب تأثير كبير على عملية الضبط الاجتماعي لظاهرتي الانحراف والجريمة . فتحت تأثير هذه الحركة قامت ولاية ماين Maine الأمريكية بتحريم صناعة المشروبات الكحولية . وفي ظرف أربع سنوات لحقت بها ولايات نيويورك وكنتكت وماستشوست بولاية ماين . وأدى ذلك في نظر المؤلف الى خلق شخصية أمريكية ذات قدرة أكبر على الانضباط . ومن ثم جاء انخفاض الجريمة .

The inner life was organized around the need for self control, the delay of personal gratification, and the management of social relations on the basis of social restraint (234).

ولكن بمجيء ١٩٢٠ انتهت فترة الضبط الذاتي والاجتماعي ، ودخل المجتمع الأمريكي فيما سماه صاحب الكتاب بمرحلة انتصار مبدأ التعبير عن الذات The Triumph of Self - Expression التي أرجعها إلى العوامل التالية :

(١) تعاطي المثقفين وسكان المراكز الحضرية للكحوليات في الأماكن العامة لاعتبارهم ذلك علامة على التحضر .

(٢) انتشار النظريات النفسية لفرويد Freud ابتداء من سنة ١٩٢٠ بين بعض الفئات الاجتماعية المؤثرة . وهي نظريات - كما هو معروف - ترى في ضبط الغرائز الإنسانية أمرا غير مقدور عليه . .

(٣) كما ساهمت في موجة التحرر الجنسي دراسات عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مرجريت ميد Margaret Mead لقبائل الصامين Somoan Tribes حيث وجدت أن سعادة هذه القبائل مرتبطة بممارسات للحرية الجنسية (٢٣٥) .

(٤) أصبح الاهتمام في المجتمع الأمريكي بتربية الأطفال يتمثل في تنمية الشخصية Personality Development وليس في تكوين خلقه Character ، وهكذا وقع التحول في رأي ولسن من موقف ضبط الغرائز والنوازع إلى موقف إعطاء الأولوية إلى التعبير عن الذات . ويعترف المؤلف في النهاية بأن هذه العوامل لا يمكن أن تفسر كل شيء عن ظاهرتي الجريمة والانحراف في المجتمع الأمريكي الحديث . فعوامل التمييز العنصري وعنف البرامج التلفازية ، مثلا . لابد أن تكون لها تأثير على تفشي ظاهرة الجريمة في هذا المجتمع (ص ٢٤٠) .

(٤) قصور كتاب « تأملات في الجريمة » .

إن كتاب « تأملات » في الجريمة هو - كما رأينا - وصف وثائقي وإحصائي لواقع الجريمة بالمجتمع الأمريكي الحديث . كما أنه تقييم لفشل سياسات إصلاح المجرمين (أو المنحرفين) من ناحية وعجز العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة على تكوين نظريات - موثوق بروحها العلمية تسهل ترجمتها إلى سياسات اجتماعية فعالة توقف أو تقلل من نسبة ازدياد الجريمة من ناحية أخرى .

إن أكثر ما يشكو منه كتاب ولسن في رأينا هو عدم طرحه لإشكالية الجريمة من خلال تصور فكري متناسق وواضح المعالم لا يسمح بالتعامل مع معطيات الجريمة الأمريكية المتعددة الوجوه فحسب ، بل يساعد في النهاية على تأسيس أطر معرفية سميكة تدفع بحركة البحث العلمي في عالم الجريمة إلى التقدم بخطا ثابتة .

ومحاولة منا لتوسيع النقاش في إشكالية ظاهرة الجريمة قررنا إنهاء هذه المواجهة « بتأملات في التأملات » نجمع فيها آرائنا الخاصة وبين بعض التيارات الفكرية الحديثة التي تعالج مسألة الجريمة والقضايا المرتبطة بها من قريب أو بعيد . وأملنا أن يسهم ذلك في فهم أكبر ، وتفسير أحسن لحيثيات الجريمة في المجتمع الإنساني الحديث على الخصوص .

(٢) ملاحظات أساسية لفهم طبيعة الجريمة

(أ) نعتقد أن أي طرح ناضج يهدف إلى فهم الجريمة كظاهرة اجتماعية يتحتم عليه الانطلاق من الأوليات . إن الفرد والمجتمع هما بدون منازع الأساسان الأولان لهذه الظاهرة . فالأول هو الذي يمكن أن ينحرف أو يجرم ، والثاني هو الإطار الذي يرتكب فيه الانحراف أو الجناية ، ففي غياب الحياة الجماعية ذات القوانين والعادات والأعراف يصعب الحديث عن الجريمة والانحراف . فبالتأكيد أن حي بن يقظان أو ربنسون كروزو لم يكن يشغله معنى الانحراف أو الجريمة كما شغل المجتمعات الإنسانية على مر العصور . فالجريمة والانحراف هما إذن حصيلة تفاعل بين هذين الزوجين (الفرد والمجتمع) .

(ب) بالنسبة لحجم الجريمة/ الانحراف بالمجتمع يمكن القول إن هناك علاقة مباشرة بين توافر درجة عالية من التضامن الاجتماعي من جهة ، وقلة الانحراف / الإجرام من جهة ثانية . فالمجتمع الذي تتعاون فيه بطريقة مثل كل بنياته الاجتماعية وقيمه ومعاييره الثقافية ، وقطاعاته الاقتصادية وفئاته العرقية والدينية الخ . . . للعمل لصالح الجميع هو مجتمع - حسب تعريفنا له هنا - يتمتع بأعلى درجة للتضامن الاجتماعي . في مثل هذا الترابط الاجتماعي فإن طاعة أفراد المجتمع والتزامهم بما تحدده وسائل الضبط الاجتماعي فيه تصبح ممارسة شائعة بين الأغلبية الساحقة للمجتمع ، وبعبارة أخرى فإن الانحراف / الإجرام هو ظاهرة نادرة في مجتمع ذي بنيان مرصوص (تضامن وترابط اجتماعيين سميكين) يشد بعضه بعضا .

(ت) إن قوة التضامن الاجتماعي مهما كانت عالية ليست كافية للقضاء نهائيا على الانحراف / الإجرام في المجتمع . إذ لا يعرف التاريخ الإنساني مجتمعا اختفت فيه كلية ظاهرة الانحراف / الجريمة . وعليه فقوة التضامن الاجتماعي هي شرط ضروري للتخفيف من نسبة الانحراف / الجريمة ، ولكنها شرط غير كاف لاستئصال الانحراف / الجريمة تماما من الساحة الاجتماعية .

(ث) إذا كان التضامن الاجتماعي الأمثل لا يمحو الانحراف / الجريمة بصفة مطلقة ، فهذا يعنى أن سلوك الشخص لا يتأثر بالعوامل الاجتماعية (عوامل التضامن الاجتماعي) وحدها ، وإنما هو يتأثر أيضا بالعوامل النفسية والبيولجية التي تشكل طبيعة بنية شخصيته كفرد . وبالتعبير الحديث للعلوم الاجتماعية يمكن القول بأن الفرد (ممثلا في شخصيته) هو متغير مستقل Independant Variable إلى حد غير قليل من حيث تأثيره على ظهور الانحراف / الجريمة بالمجتمع . وباختصار فإن مقادير الفرد لا تتحكم فيها بتعسف مقاليد وسائل الضبط الاجتماعي ، إذ أن الفرد أثبت أن

له قدرة على التأثير على المجتمع واتخاذ حتى موقف المعارض منه . ومن ثم فالفرد يؤثر في المجتمع ويتأثر به .

(ج) يتقلص حجم نسبة الجريمة بالمجتمع بوجود درجة عالية من ربط التضامن الاجتماعي فيه ، والعكس صحيح . ومن ثم فأزمة انتشار ظاهرة الجريمة بالمجتمعات الحديثة الصناعية على الخصوص هي مؤشر واضح على تردى حال التضامن الاجتماعي بها وبالتالي عجز وسائل الضبط الاجتماعي فيها على ربط الفرد ربطا وثيقا وملتزما بمجتمعه .

(ح) هذا لا يعني أن قوى التضامن الاجتماعي هي قوى قاهرة للفرد تجعل منه ريشة في مهب الرياح . فالفرد يبقى دوما ذا إمكانية في التأثير حتى على العوامل الاجتماعية القاهرة . فإن هو نشأ في محيط اجتماعي إجرامي فإن الفرد يختار في النهاية نوع الانحراف / الاجرام الذي يستجيب أكثر لحاجاته الشخصية . إن إمكاناته الفردية قد تقوده إلى ترك الانحراف / الإجرام رغم توافر فرصة في بيئته الاجتماعية . إن انسحاب الجانح الحديث The retreating delinquent الذي تحدث عنه الباحثان الاجتماعيان الأمريكيان أهلن وكلاورد Ohlin and Cloward في دراستهما [1] حول جنوح الأحداث مصداق لذلك .

(خ) الانحراف / الإجرام هو إذن حصيلة لجدلية دائمة بين الفرد والمجتمع . فالباحثون في ظاهرة الإجرام / الانحراف والمنظرون فيهما لا يمكن - في رأينا - أن تُكَلَّلُ جهودهم بالنجاح الواعد طالما ركزوا اهتمامهم على أحد الطرفين (الفرد أو المجتمع) وأهملوا الطرف الآخر .

(٣) الانحراف / الإجرام ومأزق العلوم الاجتماعية

إن العلوم الاجتماعية الغربية (علم الإجرام ، علم الاجتماع ، علم النفس . . .) تواجه اليوم مأزقا غير هيِّنٍ بخصوص الفهم والتفسير والتحكم في ظاهرة الانحراف / الإجرام المستشرية في المجتمعات الغربية الحديثة . إن التحدى الذي يجابه هذه العلوم بهذا الشأن يشبه إلى حد كبير التحدى الضخم الذي تعانى منه اليوم العلوم البيولجية والطبية إزاء وباء مرض فقدان المناعة المعروف « بإيدز Aids » ففي كلتا الحالتين فإن العلماء المختصين يجدون أنفسهم في حيرة وضيق . ومن هنا بدأت تظهر حركة نقدية داخل العلوم الاجتماعية ذاتها ربما تتسع رقعتها قبل نهاية هذا القرن لتشمل معظم العلوم الاجتماعية والإنسانية ، ومن ثم انتظار ظهور معالم جديدة لابستيمولجية هذه العلوم وتأسيس مناظير ونظريات بديلة عن تلك التي تسود منذ نهاية القرن الماضي . فجايمس ولسن ينتقد بشدة في الفصل الثالث من كتابه مختصيٍّ العلوم الاجتماعية المعاصرين بسبب عدم استنادهم في كثير مما يكتبون ويقولون ويستنتجون على أسس علمية موثوق بها فيتهمهم بأنهم طالما يبنون فرضياتهم ونظرياتهم على مجرد تصورات عقائدية (أيديولوجية) بعيدة كل البعد عن الروح الملتزمة بالأخلاق والأمانة العلمية . ولعل في طليعة المآخذ التي يوجهها البعض من علماء العلوم الاجتماعية إلى معارفهم اليوم هي التزام العلوم الاجتماعية المبالغ فيه بقوانين الحتمية الاجتماعية Social determinism التي لا تعطى أهمية تذكر إلى دور الفرد النشط داخل الهياكل والتركيبات الاجتماعية . أي أنها لا تنظر بطريقة جدية إلى أن الحياة الاجتماعية هي نتيجة لجدلية بين الفرد والمجتمع .

---

(١) Cloward, R. and Ohlin, L., Delinquency and opportunity, New York (1960) The Free Press.

(٤) ضرورة تحرر العلوم الاجتماعية من الحتمية المتصلبة

إن القارىء لكتاب « الجانحون الأحداث لماذا Delinquants Pourquoi [٢] يجد فيه هجوما عنيفا على الأسس الابستيمولوجية للعلوم الاجتماعية وفي مقدمتها علم الإجرام وعلم الاجتماع اللذان طالما شغلتهما دراسة ظاهرتي جنوح الأحداث والجريمة . يركز عالم الإجرام الكندي هذا نقده للعلوم الاجتماعية لكون هذه الأخيرة تستعمل حتمية اجتماعية متشددة تسقط من حسابها وتفسيراتها للظواهر الاجتماعية دور الفرد كفرد ـ ذي استعدادات وامكانات شخصية ـ في التأثير في وجهة سلوكه الخاص من ناحية وتشكيل مجرى الأحداث الجماعية من ناحية أخرى . وسعيا للخروج من مخانق الحتمية الاجتماعية المتصلبة لاذ موريس كونسون إلى استعمال منظور التحليل الاستراتيجي L'analyse Strategique[٣] لدراسة ظاهرة جنوح الأحداث في المجتمعات الغربية الحديثة . يعتبر هذا المنظور السلوك الانساني (سويا أو منحرفا) كنتيجة لتفاعل بين مؤثرات فردية (شخصية) واجتماعية . وبعبارة المؤلف نفسه فالإنسان ليس هو بالحيوان (حتمية قاهرة) ولا هو بالملاك (الحرية المطلقة من مغريات الحياة) ، وانما هو إنسان : أي خليط من الاثنين . إن موقف كوسون يدعو في الحقيقة إلى أن علمية العلوم الاجتماعية تتوقف على مدى التزامها من ناحية بالتحرر من عراقيل الحتمية الاجتماعية الجامدة وفتح مجال التعاون خاصة بين فروع هذه العلوم مثل علم النفس الذي يهتم بالفرد ، وفروع العلوم الاجتماعية الأخرى التي تعتني بدراسة المجتمع ونظمه الاجتماعية مثل علم الاجتماع وعلم السياسة .

وهذا ما يعكسه العمل المشترك لكل من جايمس ولسن وعالم النفس رتشارد هارستاين في محاولتهما لالقاء الضوء على ظاهرة الجريمة في كتابهما « الجريمة والطبيعة البشرية Crime and Human Nature[٤] » . فالباحثان يعتقدان اعتقادا جازما أن في تكامل استعمال فروع المعرفة الحديثة إثراء لفهم الظاهرة المدروسة . وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ يوجهان الدعوة إلى جميع الأكادميين ذوي الاختصاصات المتكاملة ان يكثروا من التعاون بينهم في البحوث العلمية :

"We hope to convince our colleagues, as we have convinced ourselves, that these academic perspectives can enrich one another" P. 15

(٥) عينات من الماضي والحاضر للحتمية الاجتماعية

من الملاحظ أن علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد المحدثين والقدماء مثل ابن خلدون يرجعون تفسير السلوك الإنساني إلى عوامل وأسباب اجتماعية شبه قاهرة . ففي نظرهم يتحتم إذن الاستعانة بطبيعة النظام الاجتماعي بمستوياته المتعددة لفهم منطقية ذلك السلوك . فالحتمية الاجتماعية هي في النهاية المؤثرة في تصرفات الأفراد والجماعات . فصاحب المقدمة يفسر ازدياد وتنوع ملامح الانحراف/ الإجرام بالنمط الاجتماعي الذي تتصف به البيئة الحضرية في زمانه . إن العلامة ابن خلدون يؤمن بالحتمية الاجتماعية لما لحياة الثراء والترف من علاقة مباشرة بينها وبين انتشار السلوك الانحرافي / الإجرامي في المحيط الحضري . فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف ، وهذه مفسدات في المدينة على

(٢) Cusson, M., Delinquants Pourquoi ? Montreal (1981) Hurtubise HMH : 70 Ibid.
انظر المراجعة الكاملة لهذا الكتاب من طرف كاتب هذه السطور بمجلة الفيصل .

(٣) المرجع السابق ص ٦١ - ٧٣ .

(٤) Wilson, I. and Herrnstein, R., Crime and Human Nature : New York (1985) Simon & Schuster, Inc. (1985).

العموم في الأسواق والعمـران والتلون بألـوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه (بالوسائل الشرعية وغير الشرعية بالتعبير الحـديث) ، وتتصـرف النفس إلى الفكـر في ذلـك والغوص عليه واستجمـاع الحيلة له (الإجـرام المهني Professional - Criminality) ، فتجدهم أجرئاء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربـا في البياعـات . ثم تجدهم أبصـر بطرق الفسق ومذاهبه ، والمجـاهرة بـه وبدواعيـه ، واطراح الحشمة في الخوض فيه بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك . وإذا فسد الإنسـان في قدرتـه على أخـلاقـه ودينـه فقـد فسـدت انسانيته ، وصار مسخا على الحقيقة وبهـذا الاعتبار ، كأن الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودون في كل دولة [٥] .

أما عالم الاجتماع الفرنسي دور كايم Durkheim فهو أكثر علماء الاجتماع الغربيين الأوائـل مناداة بـالحتمية الاجتماعية المتصلبة . إنه ألغى تماما أهمية دور العوامل النفسية في التأثير على سلوك الفرد . فلا مكان عنده لعلم النفسي في تفسـير السلوك البشـري . إن المجتمـع ومؤثراته الاجتمـاعية هي المـرجع الموثوق بـه لتفسير الظواهر الاجتماعية والفردية على السواء . إن دراسته المشهورة حول ظاهرة الانتحار [٦] Le Suicide لا تترك مجالا لأي تفسير نفساني لهذه الظاهرة .

إن الانتحـار بأصنـافه الثـلاثة (بـوازع الانفراديـة eqoiste ، أو من أجـل الآخـرين altruiste أو بسبب التصدع الاجتماعي / الثقـافي anomique) يعود إلى أسباب اجتماعية بحتة : أنواع الانتحار الثلاثة هذه تجد تفسيرها فيما سماه دوركايم L' integration sociale أو الالتحـام الاجتماعي . فـالشخص يدفـع بحياتـه الى المخاطر (حتى الموت) من أجل الجماعة ، وذلك عندما تكون درجة تضامنه الاجتماعي عالية . وهو قد ينهي حيـاته بنفسـه إذا كان لا يشـده ولا يربـطه أي ربـاط بـالآخرين . وهـو قد ينتحـر بسبب تصـدع الـروابط الاجتماعية / الثقافية (تتوفى مثلا زوجه فجأة أو حدوث تغير في القيم والمعايير الثقافية) بصورة مباغتة وسريعة . ومن هنا توصل دور كايم إلى أهم مفهوم سوسيـولجي عرف به في علم الاجتماع المعاصـر : ألا وهو مفهـوم الأنومي Anomie .

إن حالة الأنومي هي أساسا وضع اجتمـاعي ثقافي متصـدع / مرتبـك / متوتـر يجعل الفـرد في حِـلٍّ من الالتزام بأي معايير اجتماعية ثقافية تقريبا . والعـلاقة بـين هذه الـلامعياريـة وتزايـد ظاهـرات الانحراف / الإجرام علاقة وثيقة في نظره .

ونظرا للتأثير الضخم لدور كايم على علماء الاجتماع المحدثين فإن الحتمية الاجتماعية المتشددة تطبع الكثير مما كتب ونشر في علم الاجتماع في الغرب على الخصوص . والحتمية الاجتماعيـة أصبحت تقترن ـ منـذ كتب عالم الاجتمـاع الفرنسي هـذا كتـابـه : قـواعـد المنـاهـج السـوسيـولجيـة [٧] بـالعلميـة في ميـدان الـدراسـات الاجتماعية . إن الحتمية الاجتماعية الدور كايميه ليست متصلبة فقط وإنما هي أيضا حتمية آلية (ميكانكية) لا تبوىء الفرد أي دور . انه يتلقى كل شيء من المجتمع دون أن يرد على المجتمع ولو بالقليل . إنه يتأثر بالمجتمع

---

(٥) عبد الرحمن بن خلدون المقدمة : بيروت ـ دار القلم ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧٤ .
(٦) Durkheim, E., Le Suicide, Paris (1960) PUF.
(٧) Durkheim, Les regles de la methode sociologique; Paris (1981) PUF.

ولا يؤثر أبدا فيه . إنه أمام قوى المجتمع مثل الريشة في مهب الرياح . فالتفاعل بين المجتمع والفرد عند دور كايم هو تفاعل ذو اتجاه واحد : من المجتمع الى الفرد . وتلك هي قيمة الحتمية الاجتماعية المتصلبة الميكانكية .

وكمثال آخر على انتشار الحتمية الاجتماعية المتصلبة في العلوم الاجتماعية يمكن ذكر ميدان دراسة التغير الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة . فالنظريات التي تتحدث عن التنمية أوعن التحديث أوعن التصنيع هي نظريات متأثرة في عمقها بمباديء الحتمية الاجتماعية الميكانيكية . وهذا ما يطرحه الكتاب الهام لريمون بودون Raymond Boudon بعنوان « مكان للفوضى »(٨) . إن هذا العالم الاجتماعي الفرنسي يؤكد أن نظريات العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد على الخصوص) في التغيير الاجتماعي هي نظريات فاشلة في محاولتها لتفسير ظاهرة التغيير الاجتماعي بمنظور الحتمية الاجتماعية المتصلبة . ويرجع ذلك في نظر بودون إلى التعميمات السهلة التي تجازف بها مثل تلك النظريات في تفسيرها للتغيير الاجتماعي في مجتمعات ذات حضارات وظروف مختلفة .

فبودون ينتقد بهذا الشأن خاصة عالم الاجتماع الفرنسي Durkheim والفيلسوف الاجتماعي كارل ماركس Karl Marx إذ أنهما لا يعطيان أي أهمية تذكر لدوافع الفرد الداخلية التي تلعب حتما دورا في تشكيل سلوك الفرد . أما منظور عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber ، فهو منظور أرحب وأوسع بسبب اعتماده على فهم دوافع صاحب السلوك والوضع المحيط به في الوقت نفسه ، لقد أطلق بودون على منظور فيبر اسم الفردية المنهجية L'individualisme methodologique ، فهذا الأخير يرى أن من يريد فهم السلوك الفردي ينبغي أن يبحث عن المعنى الذي يعطيه الشخص لسلوكه في وضع اجتماعي معين ، وأن يتحاشى تجزئة L'atomisme السلوك الإنساني . وعلى هذا الأساس عرف علم اجتماع ماكس فيبر بالتركيز على فهم الدوافع الداخلية للفرد في أي محاولة ناضجة لتحديد أسباب سلوكه .

إن تأثير الحتمية الاجتماعية التي ينتقد بعض مظاهرها كل من بودون وفيبر نجدها واضحة المعالم في كتاب « تأملات في الجريمة » لجيمس ولسن . فمنظور هذا الأخير في هذا الكتاب يمكن وصفه بأنه منظور اجتماعي ثقافي الطبيعة . أي أن المؤلف أرجع زيادة رقعة اتساع ظاهرتي الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي خاصة منذ الستينيات - إلى عوامل اجتماعية ثقافية أحدثت تغييرا جذريا في طبيعة بنية المجتمع الأمريكي الحديث .

فمن بين العوامل الاجتماعية يمكن ذكر ضعف الأواصر الاجتماعية بين الجيران خاصة إذا كانوا ينتمون إلى مجموعات غير متجانسة مثل كبار السن والسود والمهاجرين الجدد . أما العوامل الثقافية فهي تتمثل أساسا في القيم والعادات والمعايير الاجتماعية الجديدة التي اكتسحت المجتمع الأمريكي الحديث مثل ما سمّاه ولسن بقيمة التعبير عن الذات Self - expression

(٦) قصور الحتمية الاجتماعية عن تفسير الظواهر الاجتماعية الخاصة

إن تأثر سلوك الفرد بالمؤثرات الاجتماعية بمعناها الواسع هو في رأينا مسلمة من المسلمات . وكذلك الشأن بالنسبة لتأثر سلوك الفرد بمؤثرات ودوافع شخصية هذا الأخير . فسلوك الإنسان هو إذن حصيلة لهذين المستويين من التأثيرات . ومن ثم فنحن لا نقبل موقف الحتمية الاجتماعية المتصلبة التي تلغي تماما تأثير العوامل الفردية على سلوك الشخص . فملف تاريخ

(٨) Boudon, R., La Place du desordre : Critique des theories du changement social, paris (1984) PUF.

المجتمعات الانسانية يدل على أن الفرد (الرسول ، الثوري ، المصلح .....) طالما جابه أو ثار على الأنظمة الاجتماعية السائدة ، وبالتالي فالفرد بعقائده وأفكاره وجرأته طالما كان مصدرا للتغيرات الاجتماعية داخل مجتمعه وخارجه . إن مثل هذه الأمثلة تشير بوضوح إلى مدى قدرة الإنسان كفرد على الوقوف ضد حتمية الأنظمة الاجتماعية من ناحية ، وكفاءته على إحداث التحولات الاجتماعية الضخمة من ناحية أخرى . وعلى مستوى آخر يمكن القول إن الفرد يظل متفاعلا (متأثرا ومؤثرا) مع مجتمعه ، وإن كان ذلك على درجة دنيا لا تكاد تحدد ملامحها .

أما بالنسبة لمدى تأثير المجتمع على سلوك الفرد فلذلك أيضا جانبان : (أ) تأثير كامل وذلك عندما يكون ولاء الفرد ولاء تاما للنظام الاجتماعي الثقافي للمجتمع . (ب) تأثير ضعيف وذلك عندما يكون النظام الاجتماعي الثقافي متدهورا : أي عندما يشكو من حالة تصدع اجتماعي ثقافي (آنومي Anomie) خطير . وهذا ما يتصف به وضع المجتمع الأمريكي الراهن . فتضخم نسبة الانحراف / الاجرام بالساحة الأمريكية الحديثة يعود أساسا إلى الحتمية الاجتماعية الآنومية التي بدأت تنتشر معالمها في هذا المجتمع . وهذا يعني أن انهيار قواعد وضوابط السلوك هي مصدر الانحراف / الاجرام وليست الطبيعة البشرية . فإذا كانت حالة تصدع بنيات التضامن والترابط الاجتماعيين (حالة آنومي) ترجع إلى حد كبير إلى عوامل التصنيع والتحديث التي عاشها ويعيشها المجتمع الأمريكي منذ مطلع هذا القرن على الخصوص ، فإن مجموعة من علماء الاجتماع الأمريكيين قد أضافوا في دراسة جديدة مفهوم الفردية Individualism [٩] كعامل أساسي لفهم عمق تصدع التضامن الاجتماعي بالمجتمع الأمريكي الحديث ككل . فالباحثون يستنتجون من دراستهم هذه أن الفردية أصبحت المحرك الرئيسي للانسان الأمريكي الحديث . إن شعور الفرد بأنه وحدة مستقلة يحتل أولوية في وعي المواطن الأمريكي اليوم .

إن الفرد هو سيد نفسه وبالتالي فهو يمارس استقلالية كاملة في قراراته التافهة والخطيرة . إن الشعور الحاد بأهمية الفردية ليس مسألة نظرية طوباوية في المجتمع الأمريكي ، وإنما هو واقع اجتماعي حددت له أطر وبنيات وإجراءات « وشعارات تمس الجوانب الصغيرة والكبيرة من الحياة الأمريكية الحديثة . فالعائلة الأمريكية كنواة اجتماعية تأثرت في بنيتها بمبدأ الفردية . العائلة الأمريكية الممتدة لم يعد لها وجود يذكر . أي أنها لم تعد واقعا اجتماعيا مقبولا ، وذلك منذ زمن طويل . إن ريح مد الفردية بدأ يؤثر حتى في بنية العائلة النووية الصغيرة المتكونة من الزوجين والأولاد . فلقد شهد المجتمع الأمريكي منذ الستينيات على الخصوص زيادة في نسبة العائلات النووية بدون أولاد .

كما أن ظاهرة زيادة العائلات أحادية الزوج (الأم على العموم) هي في تضخم حسب الاحصائيات السنوية . وهي كلها مؤشرات تفيد أن الفردية تزداد قوة بمرور الزمن في المجتمعات الغربية الصناعية عامة .

أما ملامح الفردية على مستويات أقل أهمية فيمكن ذكر ظاهرة التقبيل كمثال على ذلك . التقبيل بالمجتمع الأمريكي والكندي هو ظاهرة عمودية . أي أن التقبيل مقبول « اجتماعيا » بين الذكر والأنثى فقط . وهو رمز على تسرب آثار الفردية والعزلة حتى في التعبير عن العواطف والمشاعر العفوية .

أما المجتمعات التي لم تبوىء الفردية تلك المكانة فإن

---

(٩) Bellah, Rand Others : HABITS OF The HEART : Individualism and Commitment in American life : New York (1986) Harper and Row.

التقبيل ما زال ظاهرة أفقية : أي مقبولا اجتماعيا بين الذكر والذكر ، وبين الأنثى والأنثى ، وبين هؤلاء والأطفال ، وبين الاطفال أنفسهم ، وطبعا بين الذكر والأنثى . فالتقبيل هنا هو أداة اتصال لا أداة اعتزال .

ان أصحاب هذه الدراسة يرون أن تصلب عود الفردية الشرسة بالمجتمع الأمريكي أدى إلى تدهور وتلاشي ما أطلقوا عليه بالايكولوجيا الاجتماعية Social Ecology. فبينما نتج عن عملية التصنيع تلوث بيئي للمحيط الطبيعي الذي أصبحت سلامته مهددة ، فإن الفردية المتصلبة بالمجتمع الأمريكي قد أدت هي الاخرى في نظر هؤلاء الباحثين - إلى تهشيم أسس البيئة الاجتماعية - وفي ذلك نسف لما تبقى من تضامن البناء الاجتماعي للمجتمع الأمريكي الذي تضرر قبل ذلك من عوامل التصنيع والتحديث .

وهكذا فأسباب ظاهرة الأنومي الكبرى بهذا المجتمع لم تعد تقتصر اليوم على مؤثرات حركات التصنيع والتغير الاجتماعي المقترن بها ، كما تحدث عنها دور كايم في أوروبا على الخصوص ، وإنما تتأثر اليوم في المجتمع الأمريكي الحالي بنمط شخصية حديثة تمثل الفردية والعزلة والاستقلالية عن الآخرين كقيمة ثقافية مركزية لا استغناء للفرد الحديث عنها .

فالانحراف / الاجرام بعيد أن يتقلص حجمه في محيط اجتماعي أصبحت فيه الفردية - لا القيم والمعايير الجماعية - هي الموجه الرئيسي لسلوك الفرد . إذ أن تلك القيم والمعايير الجماعية لا ينتظر منها أن تهدى أو تسيطر على سلوك الفرد . والحال أنها تشكو من حالة الأنومي . فالفرد الأمريكي مقود إذن للانحراف / الاجرام تحت ضغط عاملين : (١) الأنومي الاجتماعية الثقافية ، (٢) تصلب عود الفردية في شخصية الفرد الأمريكي . فوسائل الضبط الاجتماعي على المستوى الجماعي والفردي قد تلقت ضربة حاسمة من الأساس ، إنها وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الانحراف / الاجرام يزداد في غياب هذه الوسائل ، وأن محاولة السيطرة على الانحراف والجريمة بالوسائل الرسمية (الشرطة وغيرها . .) لم تكلل بالنجاح عموما. إن دراسة «الضبط الاجتماعي للجريمة[١٠] لعالم الإجرام الكندي موريس كوسون Maurice Cusson تؤيد ما أشرنا إليه . فانهيار أسس الضبط الاجتماعي الأولية تضع بالتأكيد المجتمع في حلقة مفرغة بخصوص التغلب على ظاهرتي الانحراف والجريمة . ومما يضاعف من ذلك إفلاس طرق إصلاح المنحرفين / المجرمين كما بينا من قبل . فلكل هذه الاعتبارات يمكن القول بأن الذي يفسر ظاهرة الانحراف / الإجرام المتضخمة والمتزايدة في مجتمع ما هو العوامل الاجتماعية . وتتلخص هذه الأخيرة في ضعف وسائل التضامن الاجتماعي وبالتالي عدم قدرة وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية على ردع الفرد عن الانسياق في تيار الانحراف/ الإجرام ومن هنا فازدياد الانحراف/ الاجرام في المجتمع الامريكي الحديث هو حصيلة ظروف اجتماعية بالتأكيد . فالحتمية الاجتماعية هو إذن إطار صالح لتفسير ما يسمى في العلوم الاجتماعية بالظاهرات الكبرى المكروسكوبية Macroscopic Phenomena مثل ظاهرة الانحراف / الإجرام في المجتمع الأمريكي الحديث . فليس هناك إذن ما يؤخذ عن ابن خلدون ودور كايم وولسن في ارجاع بعض الظاهرات المتسعة الانتشار بالمجتمع الى عوامل اجتماعية . إن الذي يعاب عليهم هو اعتقاد

---

(١٠) Cusson, M. Le Controle Social du crime, Paris (1983) PUF.
انظر مراجعة هذا الكتاب لكاتب هذه السطور بمجلة الفيصل عدد ٨٣ + ٨٤ .

بعضهم خاصة دوركايم في الحتمية الأجتماعية المتصلبة التي تؤمن بأن الفرد لا حول له ولا قوة أمام الواقع الاجتماعي . وكما رأينا فإن الفرد هو أكثر من أن يكون ريشة في مهب الرياح . وهذا ما تعجز عن تفسيره تفسيرا علميا الحتمية الاجتماعية المتشددة ذات الرؤية الميكانكية لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسلوكية . وبعبارة أخرى فإن الحتمية الاجتماعية تفسر العام وتعجز عن إعطاء براهين لتفسير الخاص من الظواهر الاجتماعية والنظريات والتفسيرات العلمية الموثوق برؤيتها هي تلك التي تستطيع أن تعلل وتفسر النمط الخاص والنمط العام من الظاهرات والمتصرفات التي يفرزها المجتمع الانساني . لذلك فإن المنظور الذي يأخذ بعين الاعتبار طرفي الجدلية الاجتماعية (الفرد والمجتمع) هو بالتأكيد أكثر واقعية بالنسبة للتحليل الاجتماعي للظاهرات السلوكية والاجتماعية ، كما أشرنا في مطلع هذه التأملات .

(٧) إشكالية عقوبة الإعدام

ليس بالعجيب أن يثير اليوم واقع الانحراف / الجريمة ـ كما ورد في كتاب تأملات في الجريمة ـ كثيرا من القلق والحيرة والغضب وحتى اليأس بين مواطني كل من المجتمع الأمريكي والكندي . فاستمرار ارتفاع نسبة الانحراف / الإجرام بما فيه الازدياد الهائل لجرائم العنف بكل أنواعها خاصة ما يسمى بظاهرة القتل الجماعي Serial Murder [(١١)] من جهة ، وفشل مناهج إصلاح المنحرفين / المجرمين من جهة أخرى ، أدى بهذين المجتمعين إلى إعادة النظر في قضية عقوبة الإعدام . فمن مؤشرات ذلك بكندا اليوم وجود أغلبية كندية تؤيد إعادة استعمال عقوبة الإعدام التى أُلْغِي العمل بها منذ عام ١٩٧٦ . وكاستجابة لهذا الاتجاه الشعبي الكاسح لصالح إعادة عقوبة الإعدام ، فإن البرلمان الكندي شرع في مناقشة مشروع إعادة هذه الأخيرة مع بداية شهر مايو ١٩٨٧ . واستنادا على تكهنات استطلاعات الرأي العام الحالية ، فإن تصويت الأحزاب الثلاثة في البرلمان سوف يكون إلى صالح إعادة تطبيق عقوبة الإعدام في المجتمع الكندي .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فإن عددا من ولاياتها يطبق فعلا عقوبة الإعدام باستعمال طرق مختلفة لذلك مثل الكرسي الكهربائي Electric Chair أو الحقنة القاتلة deadly injection ، وقد نددت في أبريل ١٩٨٧ منظمة العفو الدولية بسياسة تطبيق عقوبة الإعدام في المجتمع الأمريكي الحديث ، وذلك لأن نسبة الأقليات (الأمريكيون السود أو المنحدرون من أصل أمريكي لاتيني) التي تنفذ فيها هذه العقوبة تفوق نسبة الأمريكين البيض الذين يتعرضون لعقوبة الاعدام . ومن ثم فالمنظمة تتهم الجهاز القضائي الامريكي باتباع ممارسة سياسة التمييز العنصري . ويرجع المناهضون لعقوبة الإعدام في كل من الولايات المتحدة وكندا أن يكون الرجوع إلى عقوبة الإعدام مرتبطا إلى حد كبير بالخط السياسي المحافظ لقيادتي البلدين المتمثلين في الحزب الجمهوري بالمجتمع الأمريكي والحزب المحافظ التقدمي بكندا برئاسة كل من الرئيس ريجان ورئيس الوزراء ملروني .

وعند تفحص موقف المعارضين لعقوبة الإعدام نجد أن موقفهم لا يتسم بالموضوعية والمنطقية إذ أن حججهم هي أساسا حجج عقائدية (أيديولوجية) . فمنهم من يرفضها على أسس عقائدية دينية مثل رجال الكنيسة ، إذ أن الدين المسيحي في رأيهم لا يقبل عقوبة الإعدام تحت أية ظروف . وهناك فريق ثان يعارض عقوبة الإعدام على أساس أخلاقي . فالمجتمع المتحضر لا ينبغي أن يسمح بممارسة عقوبة الإعدام . إن مثل ذلك

(١١) يطلق هذا على الجاني الذي يقتل عدة أشخاص في أوقات مختلفة من جهة ، ولكن بالطريقة نفسها من ناحية أخرى .

التصرف يمثل معاملة العنف بالعنف . وهو بالتالي سلوك ثأري لا يمكن للدولة المتحضرة أن تقوم بـه . وهناك مجموعة ثالثة ، أغلبيتها تنتسب إلى المختصين في العلوم الاجتماعية ، سبب معارضتها لعقوبة الإعدام هو قولهم بأن ليس هناك برهان جازم يثبت أن استعمال عقـوبة الإعدام يؤدي فعلا إلى إرتكاب أقل للجرائم الخطيرة على الخصوص . إن حجـة الإحصائيـات هذه ليست مقنعة هي الأخرى . فنتـائج البحـوث في هذا العـدد متضاربة ومتناقضة . فبعض هذه البحوث يـدعى من نـاحية أن عقـوبة الإعـدام ذات مفعول رادع بـالنسبة لمـرتكبي الجرائم الخـطيرة . وهنـاك بحوث تفيـد بأن المسألة هي عكس ذلك . وبذلك تكفهر رؤية المواطن وتستـولي عليـه الحيـرة والضيـاع عنـدمـا يستمـع إلى الجانبين . وبذلك يزداد الالتباس حول حكمة تـطبيق عقوبة الإعدام .

وسط هذا الغموض الفكري جنح المعارضون لعقوبة الإعدام إلى قراءات غير دقيقة للنصوص الدينيـة التي نادت بتطبيق سياسة السن بالسن والعين بالعين . . . بخصـــوص الجـرائم التي يقتـــرفهـا أشخـــاص ضـد الآخرين . فهم يؤولون مبدأ السن بالسن والعين بالعين على أنه موقف مشحون بنزعة ثأرية . وهذا التأويل فيه في رأينا ـ كثير من الأيديولوجية التي توجب علينا التوقف عندها . فالقرآن ذكر أن الشرائع السماوية السابقـة ـ خاصة شريعة بني إسرائيل أمـرت بتطبيق مبـدأ السن بالسن . . . لا بمعنى الأخذ بالثار البغيض من الجـاني وإنما بمعنى القصاص ، أي العدالة والمساواة بين المجني عليه (الضحية) والجاني ، إذا كان هذا الأخير متعمدا بالغا وسليم العقل في نظر الشريعة الإسلامية . فدعوة الاسلام إلى مبدأ القصاص من الجاني الذي تتوافر فيه تلك الشروط هي دعوة تستند إلى أهمية مبـدأ العدالـة والمساواة المطلقتين بين بني البشر في كل الأحـوال وفي طليعتهـا حق الجميع بـالتمتع بـالحياة ، أقـدس شيء يتحتم الـدفاع عنـه من طرف الفـرد والجماعـة . ومما يفضـح سوء فهم معنى سيـاسـة العـين بـالعـين عنـد المعارضين لعقوبة الإعدام أن القرآن يدعو المجني عليه أو أهله (في حالة وفـاته) إلى العفـو عن الجاني بـاعتباره أفضل من المطالبة بالقصـاص لذوي النفـوس الكبيرة الندية بروح العفو والتسامح . فالتصور الإسـلامي في التعامل مع الجناية هو تصور جدلي . فمن ناحية ضمن الحقوق الكاملة للضحية . أي أن المجني عليه له الحق في الاقتصاص من الجاني . ومن ناحية ثانية ، فالضحية (أو أهله) يمكن لهم أن يعفوا عن الجاني . فـالحق في الاقتصاص هو قانون شرعي لتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع على أساس التساوي أولا وقبل كل شيء ، إذ أنه يصعب تصور استقـرار المجتمع البشـري في المدى القصير أو الطويل دون نضج وعي المواطن بمبدأ المساواة بين أفراد المجتمع على كـل المستويـات ، وفي طليعتها الشعـور بالمسـاواة بين النفس والنفس وبـين الإصبع والإصبع . . . وبين كل الناس بغض النـظر عن لون بشرتهم أو طبقتهم الاجتماعيـة أو مستواهم الثقـافي . فالرؤية الإسلامية تنظر إلى المساواة بين الناس ككل . فهي لا تساوي بينهم في واجب الصوم والصلاة ، وتميز بينهم في حق الحيـاة والعدالـة الاجتمـاعيـة . فمبـدأ التساوي بين بني آدم مبدأ مطلق في المجتمع الاسلامي الحق . فحق المجني عليه في الاقتصاص هو ملمح من ملامح المساواة بمحتواها الإسلامي . فالقصاص هو إذن حق مـوضوعي لتحـاشي جر المجتمـع إلى حـالـة من الفوضى نتيجة لعدم ممارسة مبدأ المساواة حتى في أخذ حق الحياة من الجناة الذين قتلوا آخرين بتعمد في ظروف سن الرشد وسلامة العقل .

لكن الإسلام لم يتعامل مع الجنـاية بـالقصاص من الجاني كحق موضوعي للضحية فحسب ، بل تعامل مع

الجناية على مستوى عاطفي أيضا . فدعا الضحية أو أهله إلى ممارسة العفو والتسامح إزاء الجاني الذي يستحق التعاطف والعفو . إن مثل هذا السلوك من طرف المجنى عليه سوف يعزز من روابط التضامن بين الجاني والضحية . فالمعادلة الإسلامية لعقوبة الجاني تعتمد إذن على توعية المواطن بأهمية المساواة الموضوعية بينه وبين بقية أفراد المجتمع ، وهي في الوقت نفسه تترك الباب مفتوحا للضحية التي يمكن أن تتسامح وتعفو عن الجاني حسب الظروف . وهو موقف يكاد يتناقض تماما مع موقف بعض التشاريع الحديثة الغربية التي تعطي أهمية كبرى للجاني من ناحية وتهمش مكانة وحق الضحية من ناحية ، وتهمش مكانة وحق الضحية من ناحية أخرى .

وكما رأينا في كتاب « تأملات في الجريمة » فإن ولسن يميل إلى سياسة القصاص أي أن عقوبة الإعدام مثلا ، يجب أن تبنى على مبدأ العدالة لا على مبدأ المنفعة الذي يستند عليه معارضو عقوبة الاعدام . فهؤلاء يقولون إنه لا ينبغي تطبيق هذه العقوبة إذا لم تثبت أنها عقوبة رادعة للآخرين . فتطبيقها في نظرهم لا يأتي بمنفعة للمجتمع .

(٨) معضلة الجريمة وإصلاح الجناة :

ومهما كان لأيديولوجية الأحزاب السياسية من تأثير على قضية عقوبة الإعدام ، فإن الوضع على جبهة السيطرة على وباء الانحراف والجريمة في هذين المجتمعين لا يبشر بخير . فالبحوث العلمية التي يقوم بها المختصون في العلوم الاجتماعية من علماء إجرام واجتماع ونفس واقتصاد تتفق على شيئين في هذا المضمار :

(١) ازدياد نسبة الانحراف والجريمة سنويا . فمجلة U. S News and World Report الأمريكية (مايو ١٨ /١٩٨٧ ص ٣٠) تشير إلى أن نسبة ازدياد الجريمة بالمجتمع الأمريكي كانت ١/١٢ مقارنة بإحصائيات السنة الماضية .

(٢) فشل برامج إصلاح المنحرفين والمجرمين على العموم . وهما نتيجتان نجد تفاصيلهما في الفصل الأول والفصل التاسع لكتاب « تأملات في الجريمة » لجيمس ولسن ، وفي الحقيقة لا تقتصر فقط هذه الاستنتاجات على ما ورد في كتاب ولسن . فعالم الإجرام الكندي موريس كوسون توصل هو الآخر الى نتائج مشابهة . ففي كتابه « الضبط الاجتماعي للجريمة » [١٢] خلص المؤلف ـ بعد تحليل ودراسة مكتب عن العلاج النفساني La psychotherapie ومدى تأثيره على إصلاح المنحرف / المجرم ـ إلى القول بأن تأثير هذا العلاج يساوي صفرا : L'effet zero ، ويعني هذا المفهوم أن استعمال العلاجات النفسية مع المنحرف / المجرم سواء داخل السجن أو خارجه لا يبدو أنها ذات فائدة إيجابية بالنسبة لإصلاحه واستيعابه من جديد في المجتمع كمواطن يعمل مع المجتمع لا ضدّه . وعلى أساس هذين المظهرين للانحراف / الإجرام في المجتمع الأمريكي والمجتمع الكندي اليوم يمكن فهم أسباب عروض القلق والحيرة واليأس التي تسود كثيرا من أفراد هذين المجتمعين . فالعالم المتخصص في قضايا الانحراف / الإجرام ، والسياسي صانع القرار ، والمواطن العادي ، كلهم يكادون يجتمعون على التالي : أن استمرار ارتفاع نسبة الانحراف / الجريمة من ناحية وقصور سياسات الإصلاح على العموم من ناحية أخرى ، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى الشعور بأن الجميع يدورون في حلقة مفرغة لا يرجى منها إلا زيادة أكبر من أصناف الانحراف / الإجرام . وهذا يهدد بالتأكيد سلامة المجتمع على المدى الطويل .

(١٢) انظر هامش ١٠ أعلاه ، ص ٣١ ـ ٩٠ .

العـدد التـالي من المجـلة
العـدد الأول - المجـلد التـاسع عشر
ابريـل - مـايو - يونـيو
قسـم خـاص عـن
الثقـافـات في العـالم الثـالث

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية

(أ) الثقافات في العالم الثالث .

(ب) الحداثة والتحديث في الشعر .

(جـ) الاتجاهات الحديثة في التربية .

(د) الترجمة والتعريب .

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو جماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيها بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتّاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

ولة الإمارات	٥	دراهم	سوريا	٣	ليرات
سعودية	٥	ريالات	القاهرة	٣٥	قرشاً
بحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليماً
يمن الشمالية	٤,٥	ريال	ليبيا	٣٥	قرشاً
يمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	مسقط	٤٠٠	بيسة
لعراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
بنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
لأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	دراهم

لاشتراكات :

لبلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار

لبلاد الاجنبية ٣,٠٠٠ دينار

حول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف لى بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت